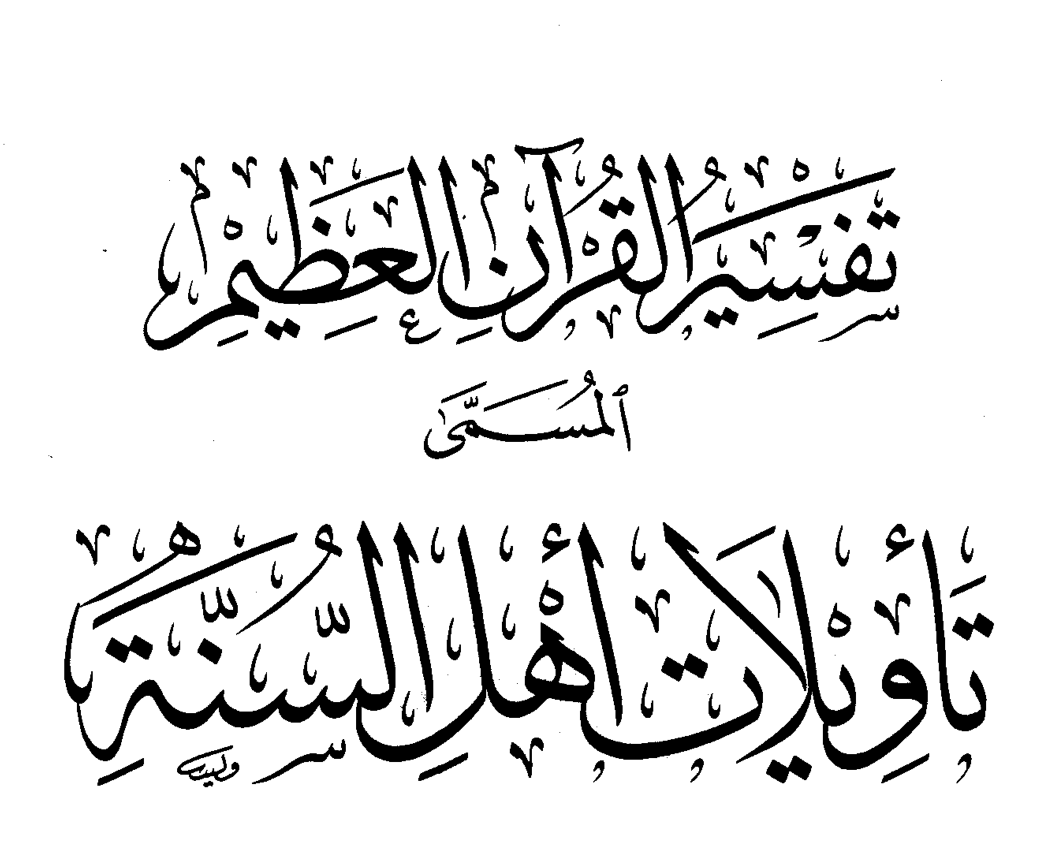


تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي

(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الثالث

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات

محمد رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠

فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)

ص.ب: ١١٧٤٦٠

بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721

Fax: (9611) 546722

P.O.Box: 117460

Beirut - Lebanon

Email:

resalah@resalah.com

Web site:

http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٤م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



اللهمَّ

اجْعَلْني ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يَقْرَؤُهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ ﷺ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة إبراهيم

قيل: مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ ﴿الٓر﴾ كِنايةٌ عن حروفٍ مُقطَّعةٍ، جعَلَها بالحِكْمَةِ كتاباً ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ بَعْدَما لم تكنْ تَدْري، ما الكتابُ؟ وهوَ كما قالَ ﷻ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقولِهِ جلَّ جلالُهُ: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ وما يُضافُ الإخراجُ إلى اللهِ فإنهُ يكونُ بإعطاءِ الأسبابِ وحقيقةِ ما تكونُ بهِ الأفعالُ، وهي القدرةُ. وما يُضافُ الإخراجُ إلى الرسلِ فإنهُ لا يكونُ إلّا بإعطاءِ الأسبابِ لأنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سواهُ إعطاءَ ما بهِ يكونُ الفِعْلُ.

ثم الأسبابُ تكونُ بوجهَيْنِ:

أحدُهما: الدعاءُ إلى ذلكَ.

والثاني: ما أُتِيَ بهِ[٢] مِنَ البَيانِ والحُجّةِ على ذلكَ، فهو الأسبابُ التي يَمْلِكُ الرسُلُ إتيانَها. وأمّا ما بهِ حقيقةُ الفعلِ فإنهُ لا يَمْلِكُهُ[٣] إلّا اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما][٤]: مِنَ الكُفْرِ إلى الإيمانِ؛ سَمّى الكُفرَ ظُلُماتٍ، وهما[٥] واحدٌ، لأنهُ يَسْتُرُ جميعَ مَنافِذِ الجَوارِحِ مِنَ البَصَرِ والسمعِ واللسانِ؛ يُبْصِرُ مالا يَصْلُحُ، ويُسْمِعُ مالا يَصْلُحُ، وكذلكَ جميعُ الجوارحِ.

والإيمانُ يَرْفَعُ، ويكشِفُ جَميعَ الحُجُبِ والسُّتورِ، ويُضيءُ[٦] لهُ كلَّ مستورٍ.

والثاني[٧]: مِنَ الشُّبُهاتِ إلى النورِ إلى الإيمانِ والهُدَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الإخراجُ[٨] المضافُ إلى اللهِ هو[٩] الهدايةُ، يُخَرَّجُ على وجوهٍ أربعةٍ:

أحدُها: يأمُرُهُمْ، ويدعوهُمْ إلى ما ذَكَرَ.

والثاني: يَكْشِفُ، ويُبَيِّنُ.

والثالثُ: يُرَغِّبُ، ويُرَهِّبُ، حتى يَرْغَبوا في المرغوبِ، ويَحْذَروا المرهوبَ[١٠].

والرابعُ: يُحَقِّقُ[١١] ما تكونُ بهِ الهدايةُ، وذلكَ لا يكونُ إلّا باللهِ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ.

وأمّا الوجوهُ الثلاثةُ الأُوَلُ فإنها تكونُ برسولِ اللهِ ﷺ: يَأْمُرُ، ويَدعو، ويُرَغِّبُ، ويُرَهِّبُ، ويُبَيِّنُ، ويَكْشِفُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بهم. (٣) في الأصل وم: يملك. (٤) في الأصل وم: قيل. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) من م، في الأصل وم: ومضيء. (٧) في الأصل وم: والثاني: قوله ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي. (٨) من م، في الأصل: لإخراج. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، في الأصل: المرغوب. (١١) من م، في الأصل: تحقيق.

وقولُهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها:][1] كأنَهُ قالَ: كتابٌ أنزَلناهُ إليكَ لِتأمُرَ الناسَ بالخروجِ مِمّا ذَكَرَ إلى ما ذَكَرَ.

والثاني: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ﴾ بهِ الناسَ ممّا ذَكَرَ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ قيلَ: بأمْرِ ربِّهِمْ. وقالَ قائلونَ: بِعِلْمِ ربِّهِمْ؛ أي أنْزَلَ هذهِ الحروفَ المُقَطَّعَةَ بِعِلْمِهِ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ بتوفيقِ ربِّهِمْ. والإذنُ[2] منَ اللهِ يَحْتَمِلُ أحَدَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا: الأمْرَ، والعلمَ، والتوفيقَ.

وقولُهُ / ٢٦٧ ـ أ/ تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ هو اللهُ. أي يدعوهُمْ إلى طريقِ اللهِ الذي مَنْ سَلَكَهُ نَجا ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ سَمّاهُ[3] عَزيزاً لأنَّ كلَّ عَزيزٍ، بهِ يَعِزُّ، ويُقالُ: عَزيزٌ لأنهُ عزيزٌ بذاتِهِ، ليسَ بِغَيرِهِ كالخلائقِ، أوِ العزيزُ، هو الذي لا يُطْلَبُ. والحَميدُ، هو الذي لا يَلْحَقُهُ الذمُّ في فِعلِهِ كالحكيمِ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في تدبيرِهِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: العَزيزُ المَنيعُ، والحَميدُ، هو الذي يَقْبَلُ اليَسيرَ مِنَ العِبادِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مَنْ قَرَأَ بالخَفضِ ﴿ٱللَّهِ﴾ صَيَّرَهُ موصولاً بالأوَّلِ، وجَعَلَهُ كلاماً واحداً، وأتْبَعَ الخَفضَ بالخَفضِ.

ومَنْ قَرَأَ بالرفعِ[4] اللهُ جَعَلَهُ مقطوعاً عنِ الأوَّلِ على حقِّ الابْتِداءِ، فقالَ: اللهُ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِيُعْلِمَ أنهُ إنما[5] يأمُرُ الخَلْقَ، ويَدعوهُمْ إلى دينِهِ، ويَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، لا يَفْعَلُ ذلكَ لِمَنافِعِ نفسِهِ أو لِحاجَتِهِ في ذلكَ بل لِحاجَةِ المُمْتَحَنينَ ومَنافِعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قالَ قائلونَ: الوَيْلُ الشِّدَّةُ، وقيلَ: الوَيْلُ هو اسْمُ وادٍ في جهنَّمَ، وقالَ [أبو بَكرٍ][6] الأصمُّ: الوَيْلُ هو نِداءُ كلِّ مَكروبٍ ومَلْهوفٍ مِنْ شِدَّةِ البلاءِ، وقولُ الحَسَنِ كذلكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وَصْفُ أولئكَ الذينَ ذَكَرَ أنَّ فيهِمُ الوَيْلَ؛ مَنْ هُمْ؟ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي آثَروا، واختاروا الحياةَ الدنيا على الآخِرَةِ، أي رَضُوا بها، واطْمأنّوا بها، كقولِهِ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] اختارُوا الحياةَ الدنيا للدنيا، لم يَختاروا للآخِرَةِ، فالدنيا أُنْشِئَتْ لا للدنيا، ولكنْ إنما أُنْشِئَتْ للآخِرَةِ. فَمَنِ اختارَها لها، لا يَسْلُكُ بها إلى الآخِرَةِ، ضَلَّ، وزاغَ عنِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهو ما ذَكَرْنا ﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حتى يَلْهُوا عنِ الآخِرَةِ، ويَسْهُوا فيها، ويَغْفُلُوا. وأهْلُ[7] الإسلامِ ربّما يَسْتَحِبّونَ الحياةَ الدنيا على الآخِرَةِ، وهو ما ذَكَرْنا أنهمْ يَختارونَ ذلكَ للآخِرَةِ، وأولئكَ للدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجهَينِ:

أحدُهما: أعْرَضوا بأنفسِهِمْ.

والثاني: صَرَفوا الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ الذي مَنْ سَلَكَهُ نَجا.

لكنْ إنما يَتَبَيَّنُ، ويظْهَرُ ذلكَ بالمَصْدَرِ: صَدَّ يَصُدُّ صَدًّا؛ صَرَفَ غَيرَهُ، وصَدَّ يَصُدُّ صُدوداً: أعْرَضَ هو بنفسِهِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي طَعْناً وعَيباً فيهِ. دلَّ هذا على أنَّ الآيَةَ في الرُّؤَساءِ منهمْ والقادَةِ الذينَ كانوا يَصُدّونَ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ، ويَبْغونَ[9] في دينِ اللهِ الطَّعْنَ والعَيبَ، فما وَجَدوا إلى ذلكَ سبيلاً قَطُّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: الأذان. (٣) في الأصل وم: سمى. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٢٢٤. (٥) في الأصل بما، في م: قادر بما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإلا أهل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويبغونها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۢ بَعِيدٍۢ﴾ الضَّلالُ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ الضَّلالُ[الهلاكَ][1] أي هَلِكوا هلاكاً، لا نَجاةَ فيهِ قطُّ، ويَحتَمِلُ الحَيْرَةَ والتِّيهَ؛ أي تَحيَّروا فيهِ، وتاهوا، حتى لا يَهْتَدوا[2]. ويَحتَمِلُ الضَّلالُ البُطلانَ، أي في بُطلانٍ بَعيدٍ حتى لا يَصْلُحوا أبداً. وهو في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يَهْتَدونَ أبداً، ويَختُمونَ على الضَّلالِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ لو كانَ غَيرُهُ مِنَ الكتبِ أُرسِلَ[3] بِغَيرِ لِسانِ الأمَمِ لَكانَ هذا الكتابُ يَجبُ أنْ يكونَ مَبعوثاً بِلِسانِ قومِهِ لأنهُ جَعَلَ هذا الكتابَ حُجَّةً وآيةً لِرِسالتِهِ لأنهمْ يَعْجَزونَ عن إتيانِ مِثْلِهِ، هو كانَ بِلِسانِهِمْ لِيَعْلَموا أنهُ [جاءَ مِنَ اللهِ][4] إذْ لو كانَ مِنِ اختِراعِ الرسولِ ﷺ لَقَدَروا على اختِراعِ مِثْلِهِ لأنَّ لِسانَهُمْ مِثْلُ لِسانِهِ، فإذا عَجِزوا عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ دَلَّ أنهُ مُنْزَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِنْ عِنْدِ الخَلْقِ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ وجوهاً:

[أحدُها: ما[5]] قالَ قائلونَ: هذا بعدَ ما اختَلَفَ الألسنُ أرسلَ هذا، وفيهِ أنباءُ أوائلِهِمُ الذينَ كانَ لِسانُهُمْ غيرَ لِسانِ هؤلاءِ، وأخبارُهُمْ[6]، لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ تلكَ الأنباءَ والأخبارَ[7] التي كانَتْ بِغَيرِ لسانِهِمْ باللهِ.

[والثاني: ما][8] قالَ بعضُهُمْ: أُرْسِلَ بِلِسانِ قومِهِ لئلا يكونَ لهمْ مَقالٌ كقولِهِمْ[9]: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

والثالثُ: أنهُ إذا كانَ بِلِسانِهِمْ يكونُ آلَفَ وأقْرَبَ إلى القَبولِ مِنْ إذا كانَ بِغَيرِهِ؛ إذْ كلُّ ذي نَوعٍ وجِنْسٍ يكونُ بِجِنسِهِ ونَوعِهِ آلَفَ مِنْ غيرِ نَوعِهِ وجَوهَرِهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] إذْ ليسَ في وُسْعِ البَشَرِ رُؤيَةُ المَلَكِ والنَّظرِ إليهِ على ما هو عليهِ.

فَعَلَى ذلكَ كلُّ ذي لِسانٍ يكونُ بِلسانِهِ أفْهَمَ وأقْرَبَ لِلقَبولِ وآلَفَ مِنْ غَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ قالَ قائلونَ: لِيكونَ أبْيَنَ لهمْ وأفْهَمَ، وقالَ قائلونَ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فَيَفْهَمونَ قولَ رسولِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي[10] يُضِلُّ اللهُ مَنْ آثَرَ سَبَبَ الضلالِ، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مَنْ آثَرَ سَبَبَ الذي بهِ يُهْتَدَى [يَهْدِهِ إليهِ][11]. وقالَ قائلونَ: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هذا حُكْمُ اللهِ أنْ يُضِلَّ المُكَذِّبينَ، ويَهْدِيَ المُصَدِّقينَ.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً: أنهُ يُضِلُّ مَنْ آثَرَ سَبَبَ الضلالِ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هذا حُكْمُ اللهِ أنْ يُضِلَّ المُكَذِّبينَ، ويَهْدِيَ المُصَدِّقينَ، أي مَنْ آثَرَ سَبَبَ الاهْتِداءِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لأنَّ جميعَ الخلائقِ مُفْتَقِرونَ إليهِ، أذِلّاءُ، بهِ يَعِزُّ مَنْ عَزَّ، أو أنْ يكونَ العزيزُ هو الذي لا يُغْلَبُ.

والحكيمُ: هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في الحُكْمِ والتدبيرِ، أوِ الحكيمُ في بَعْثِ الرسلِ، وفي جميعِ فِعْلِهِ، ولم يُؤخَذْ عليهِ في فِعْلِهِ خَطأٌ قَطُّ، مُصيبٌ في وَضْعِ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ تَحتَمِلُ آياتُهُ حُجَجَهُ وبراهينَهُ التي أرسلَ بها على وَحْدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، وتَحتَمِلُ آياتُهُ التي بَعَثَها إلى موسى لِيُقيمَها على رسالتِهِ؛ إنْ شِئْتَ قُلْتَ: آياتُهُ حُجَجُهُ، وإنْ شِئْتَ سَمَّيْتَها أعلاماً. والآياتُ والأعلامُ والحُجَجُ، كلُّهُ واحدٌ، فتكونُ أعلامَ وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ أو أعلامَ رسالتِهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بِدِينِنا، أي أرسَلْنا موسى بِدِينِنا لِيَدْعُوَهُمْ إليهِ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وعلى ذلكَ بَعْثُ جميعِ الرسلِ والأنبياءِ؛ بُعِثوا لِيُخْرِجوا قومَهُمْ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ، وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوضِعٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يهتدون. (٣) في الأصل وم: أرسلت. (٤) من م، في الأصل: لمن الله جاء. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: واختارهم. (٧) في الأصل وم: والأخيار. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل: قوله، في م: لقوله. (١٠) من م: في الأصل: أن. (١١) في الأصل وم: يهدي ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ التذكيرُ هو العِظَةُ؛ أي عِظْهُمْ بأيّامِ اللهِ. قالَ قائلونَ: أيّامُ اللهِ نِعَمُهُ. وقالَ[1] قَتادةُ: أمَرَهُ أنْ يُذَكِّرَهُمْ بِنِعَمِ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ [أي قُلْ: إنّ[2]] للهِ عليكُمْ أيّاماً مِنَ النِّعَمِ كأيّامِ القومِ؛ كَمْ مِنْ خيرٍ قد أعطاهُ اللهُ لَكُمْ! وكَمْ مِنْ سُوءٍ قد صَرَفَهُ اللهُ عنكُمْ! وكَمْ مِنْ غَمٍّ قد فَرَّجَهُ اللهُ عنكُمْ! فاللهمَّ ربَّنا لكَ الحمدُ.

وقالَ قائلونَ: أيّامُ اللهِ وَقائِعُهُ، أي ذَكِّرْهُمْ بِوَقائِعِ اللهِ في الأُمَمِ السالفةِ كيفَ أهْلَكَهُمْ لمّا كَذَّبوا الرسلَ. هذا يُحْتَمَلُ: [في ذَكِّرْهُمْ][3] بنعمِ اللهِ التي كانَتْ على المُصَدِّقينَ بِتَصديقِهِمْ، وهو ما أنْجى المُصَدِّقينَ مِنَ التعذيبِ والإهلاكِ إهلاكَ تعذيبٍ، أو ذَكِّرِ المُكَذِّبينَ منهمْ بالوقائعِ التي كانَتْ على أولئكَ بالتكذيبِ، وهو الإهلاكُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ الأيّامَ المَعْروفةَ نَفْسَها: أمَرَهُ أنْ يُذَكِّرَهُمْ بها لأنَّ الأيّامَ تأتي بأرزاقِهِمْ، وتَمْضي بأعمالِهِمْ وأعمارِهِمْ، إنْ كانَ خَيراً فخيرٌ، وإنْ كانَ شراً فشرٌّ، وتَفْنى أعمارُهُمْ وآجالُهُمْ، وفي ما يأتي بأرزاقِهِمْ نِعَمٌ مِنَ اللهِ عليهِمْ، وفي ذَهابِ أعمارِهِمْ وآجالِهِمْ إظهارُ سُلْطانِ اللهِ وقُدْرَتِهِ، فأمَرَهُ أنْ يُذَكِّرَهُمْ/ ٢٦٧ ـ ب/ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ أمرَ موسى أنْ يُذَكِّرَ بني إسرائيلَ ما كانَ عليهِمْ مِنْ فِرْعَونَ مِنْ أنواعِ التعذيبِ ثم الإنجاءِ مِنْ بَعْدُ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ذَكِّرْهُمُ الأيامَ الماضِيَةَ وما تَلاها[4]، وهذا أشبَهُ، وأقْرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الصَّبْرَ، هو كَفُّ النفسِ عَنْ مَعاصي اللهِ ﷻ وعَنْ جَميعِ مَناهيهِ، والشُّكْرَ، هو الرَّغْبَةُ في طاعتِهِ. أخبَرَ أنَّ في ما ذَكَرَ آياتٍ لِمَنْ كَفَّ هو نفسَهُ[5] عن المعاصي ورَغِبَ في طاعتِهِ، لا لِمَنْ تَطاوَلَ على الرسلِ، وتَكَبَّرَ عليهِمْ، وتَرَكَ إجابَتَهُمْ، ولم يَرْغَبْ في ما دُعِيَ[6] إليهِ، ليسَ لِأمثالِ هؤلاءِ عِبْرَةٌ وآيةٌ، [لكنْ][7] لِمَنْ ذَكَرْنا.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الصَّبّارُ والشَّكورُ كِنايَةً عنِ المُؤمِنِ لأنَّ كُلَّ مُؤمِنٍ آمَنَ باللهِ، وَوَحَّدَهُ، اعْتَقَدَ الكَفَّ عن جميعِ [مَعاصيهِ][8] والرغبةَ في كلِّ طاعتِهِ، وإنْ كانَ يَقَعُ أحياناً في مَعْصِيَتِهِ. فكأنَّهُ قالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ للمؤمنينَ على ما ذَكَرَ في غَيرِهِ مِنَ الآياتِ؛ مِنْ ذلكَ قولُهُ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧ والعنكبوت: ٤٧] وقولُهُ[9]: ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] وقولُهُ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦ و...] [ونَحْوُ ذلكَ][10] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا على الإضمارِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى أي ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الآيةَ [المائدة: ٢٠] واذْكُروا أيضاً ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قيلَ: يُعَذِّبونَكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقالَ قائلونَ: يُكَلِّفونَكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ السَّومُ الإذاقةُ والعَرْضُ؛ يُقالُ: سامَني كذا، أي أذاقَني، وعَرَضَني، ويُقالُ: سُمْتُ الدابَّةَ على الحَوضِ، أي عَرَضْتُها ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في سورةِ البقرةِ والأعرافِ[11]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: وإذْ قالَ ربُّكُمْ، وقيلَ: وإذْ أعْلَمَ ربُّكُمْ، وأخْبَرَ. والعربُ ربما قالَتْ: أفْعَلْتُ في مَعْنى تَفَعَّلْتُ، فهذا مِنْ ذلكَ، ومِثْلُهُ في الكلامِ: أوعَدَني، وتَوَعَّدَني، وهو قولُ الفَرّاءِ، وحقيقتُهُ، وَعَدَ ربُّكُمْ، أو كَفَلَ ربُّكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][12]: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لم يقلْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَةَ كذا، ولا بَيَّنَ أيَّ نِعْمَةٍ [ولا][13] النعمَ كلَّها، أو نعمةً دونَ نِعْمَةٍ، ولا قالَ: شَكَرْتُمْ على ذا.

وقالَ: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لم يَذْكُرِ الزيادَةَ في ماذا؟ ومِنْ أيِّ شيءٍ هي؟ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ بالتوحيدِ،

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فإن. (٣) في الأصل وم: يذكرهم. (٤) في الأصل وم: يتلوها. (٥) أدرج قبلها في الأصل: في. (٦) في الأصل وم: دعواهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: ونحوه. (١١) [البقرة: ٤٩ والأعراف: ١٤١]. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

أي وَحَّدتُمُ اللهَ في الدنيا في ما خَلَقَكُمْ خَلقاً، وركَّبَ فيكُمْ ما تَتَلَذَّذونَ [بهِ][1] وتَتَنَعَّمونَ في الدنيا، وفي ما قَوَّمَكُمْ ﴿فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤] ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ النِّعَمَ الدائمةَ في الآخرةِ. فيَصيرُ على هذا التأويلِ كأنهُ قالَ: لئنْ أتيتُمْ شاكِرينَ في الآخِرَةِ لأزيدَنَّكُمُ النِّعَمَ الدائمةَ.

وإلى هذا يذهبُ ابنُ عباسٍ ﷺ أو قريبٍ منهُ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٞ﴾ أي ولَئِنْ كَفرْتُمْ، ولم تُوَحِّدوهُ، وأشرَكْتُمْ غيرَهُ فيهِ، وصرَفْتُمْ شُكرَ تلكَ النِّعَمِ إلى غيرِهِ ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٞ﴾.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ كلُّ نِعمَةٍ، يَشكُرُها، يزيدُ لهُ مِنْ نوعِها في الدنيا، ويُديمُ[2] ذلكَ لهُ.

وفي قولِهِ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ لُطفٌ وفَضلٌ لأنَّ الشُّكرَ هو المُجازاةُ والمُكافأةُ لِما سَبَقَ. واللهُ تعالى لا يُكافَأُ في ما أنعَمَ فَلأنهمْ[3] يَستزيدونَ لأنفسِهِمُ الزيادةَ بالشُّكرِ الذي ذَكَرَ فهو ليسَ يُشكَرُ في الحقيقةِ. لكنْ هذا، منهُ لُطفٌ، ذَكَرَهُ وهو كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ الآيةَ[المزمل: ٢٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ الآيةَ[التوبة: ١١١] فهذِهِ الأنفُسُ والأموالُ في الحقيقةِ للهِ، لَيسَتْ لهمْ، فهمْ في ما يَقرِضونَ لأنفسِهِمْ، وكذلكَ في الشِّرى؛ يَشترونَ لأنفسِهِمْ مِنْ مَولاهُمْ، لكنهُ ذَكَرَ شِراهُ لُطفاً منهُ وفَضلاً.

فَعَلى ذلكَ في ما ذَكَرَ مِنَ الشُّكرِ لهُ، يَطلبونَ الزيادةَ لأنفُسِهِمْ، لُطفاً منهُ، وإنْ كانَ الشُّكرُ في الظاهِرِ، مَوضوعَهُ المُكافأةُ لِما سَبَقَ. فهو في ما بَيْنَ الرَّبِّ والعِبادِ ليسَ بِمُكافأةٍ، ولكنْ سَبَبُ الزيادةِ. ولكنْ [سَمّاهُ شُكراً][4] لطفاً منهُ وفَضلاً على ما ذَكَرَ التَّصَدُّقَ[5] قَرضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غَنيٌّ [بذاتِهِ، ليسَ يأمُرُ ما يأمُرُ لِحاجَةِ نَفسِهِ أو][6] لمنفعةٍ لهُ، ولكنْ ما امتَحَنَكُمْ إنما امتَحَنَكُمْ لِحاجةِ أنفُسِكُمْ ولِمَنفَعَةِ أبدانِكُمْ؟

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [أي غَنيٌّ][7] عنْ عِبادةِ خَلقِهِ، وهو ما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ يأمُرُهُمْ في ما يأمُرُ لِمَنفَعَةِ نفسِهِ أو لِحاجَةِ نَفسِهِ، ولكنْ لِمَنافِعَ، تَحصُلُ لِلْخَلْقِ ولِحوائِجَ، تَبدو لهمْ.

وكذلكَ النَّهيُ عمّا يَنْهَى، ليسَ ينهَى لِخوفِ مَضَرَّةٍ، تَلْحَقُهُ، ولكنْ لِلضَّرَرِ، يَلْحَقُهُمْ، ولآفَةٍ، تَتَوَجَّهُ إليهِمْ.

يُخبِرُ ﷻ عَنْ غِناهُ عمّا يأمُرُ خَلقَهُ في طاعَتِهِ وعِبادَتِهِ وتَوجيهِ الشُّكرِ إليهِ. والحميدُ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الذَّمُّ في فِعلِهِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنهمْ، وإنْ كَفَروا، وكانَ عَلِمَ منهُمْ أنهمْ يكفُرونَ، فَعِلْمُهُ بذلكَ لا يَجعَلُهُ في إنشائِهِمْ مذموماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ الآيةَ. يُشبِهُ أنْ يكونَ الخِطابُ لأهلِ الإيمانِ منهُمْ والرسلِ؛ خاطَبَهُمْ ﷻ تَصبيراً وتَنبيهاً على تكذيبِ الكَفَرَةِ إيّاهُمْ واستِهزائِهِمْ بهِمْ، فقالَ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي قد أتاكُمْ خبرُ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، ما فيهِ مَزْجَرٌ لكُمْ عن مِثْلِ مُعامَلَتِهِمُ الرسولَ، وهو ما ذَكَرَهُ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤] أنَّ[8] ما نزلَ بهِمْ بتكذيبِهِمُ الرسُلَ والاستِهزاءِ بأتباعِهِمْ.

يذكُرُ هذا لهمْ لِيَهُوْنَ ذلكَ عليهِمْ، ولِيُخفِّفَهُ[9]، لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ لهُ شُركاءَ في ما بُلِيَ بِهِ، وامْتُحِنَ، كانَ ذلكَ عليهِ أهْوَنَ وأخَفَّ مِنْ أنْ يكونَ هو المخصوصَ فيهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ لأهلِ الكُفرِ منهُمْ؛ يقولُ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي قد أتاكُمْ خَبَرُ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [أنَّ ما][10] نزلَ بهِمْ بِتكذيبِهِمُ الرسُلَ واستِهزائِهِمْ بأتباعِهِمْ، فَيَنْزِلُ بكُمْ ما نَزَلَ بهِمْ، لأنَّ الذي أنْزَلَ ذلكَ عليهِمْ حيٌّ قادرٌ على إنزالِ مِثْلِهِ. فَيَخرُجُ ذلكَ مُخرَجَ التَّوبيخِ والتَّعْيِيرِ والوَعيدِ لِيَحذَروا مِنْ صَنيعِهِمْ[11]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويدوم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل :سمى شكر، في م: سمى شكراً. (٥) في الأصل وم: التصديق. (٦) في الأصل: لا . (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: وليخفف. (١٠) في الأصل :أنه ما، في م:أنه ماذا. (١١) في الأصل وم: صنيع أولئك.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ تَكَلُّفَ معرفةِ الأنسابِ وحِفظَها شُغلٌ وتكلُّفٌ، لأنهُ أخبرَ أنَّ فيهِمْ مَنْ لا [يَعْلَمُ ذلكَ][1] ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ورُوِيَ في الخَبرِ أنهُ [ﷺ][2] كانَ يُنسَبُ إلى مُضَرَ، ولا يُنْسَبُ إلى أكثَرَ مِنْ ذلكَ.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ رضي الله عنه: قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يُكَذِّبُ مَنِ ادَّعَى معرفَةَ الأنسابِ المُتَقَدِّمَةِ لأنهُ قالَ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقد أخبَرَ أيضاً أنهُ لم يَقُصَّ عليهِ خَبَرَ الكُلِّ بقولِهِ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] فَمِنَ البَعيدِ أنْ يُتَكَلَّفَ تَعَرُّفُ ما لم يَقُصَّ على رسولِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيلَ: البيِّناتُ بَيِّناتٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ، وتَحتَمِلُ الحُجَجَ التي أتى[3] بها الرسلُ على إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: البيِّناتُ: ما يَتَّقونَ، وما يأتونَ، وما يَحِلُّ[لهمْ، وما يَحرُمُ عليهِمْ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على التمثيلِ والكنايةِ عنِ التكذيبِ وتَرْكِ الإجابَةِ، لأنَّ رَدَّ الأيدي في أفواهِهِمْ يَمْنَعُهُمْ عنِ التصديقِ/٢٦٨ ـ أ/ كقولِهِ: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الآيةَ[الرعد: ١٤]إذا تَرَكَ إجابَتَهُ، وقولِهِ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وأمثالِهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على تَحقيقِ جَعْلِ الأيدي في أفواهِهِمْ. ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في أفواهِ الرسُلِ: يقولونَ: إنكُمْ كَذَبَةٌ.

[والثاني: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾][5] في أفواهِ أنفُسِهِمْ: يُصَوِّتونَ، ويَستَهْزِئونَ بهِمْ وأتباعِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٥] وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ في مَوضِعِهِ، فَعَلَى ذلكَ [هذا][6] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ الآيةَ، وقد ذَكَرْنا مَعْناهُ: يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ التوحيدَ، لأنهمْ أُرسِلُوا بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ والعبادةِ لهُ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وقولُ الرسُلِ: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ١٠].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ مِنْ إثباتِ الرسالةِ وإقامةِ الحجَّةِ عليها ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ مِنَ التصديقِ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ.

[وقولُهُ][7] هذا يدلُّ أنهمْ كانوا على شَكٍّ ممَّا يَعْبُدونَ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ، لأنهُ لو كانَ لهمْ بيانٌ في ذلكَ وحُجَّةٌ ودعاءٌ إليهِ لكانوا لا يقولونَ: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ولكنْ كانوا يَقْطَعونَ فيهِ القولَ، فَدَلَّ أنهمْ كانوا على شَكٍّ ورَيبٍ في عِبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ التي عَبَدوها.

ثم الشَّكُّ والريبُ: قالَ بعضُهُمْ: هما سَواءٌ، وقالَ بعضُهُمْ: الشَّكُّ، هو الشَّكُّ المَعْروفُ، والرَّيبُ، هو النهايةُ في الشَّكِّ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي عَضُّوا على أصابِعِهِمْ غَيظاً على ما دُعُوا[إليهِ][8]. وقالَ بعضُهُمْ: رَدُّوا عليهِمْ قولَهُمْ، وكَذَّبوهُمْ، وهو ما ذَكَرْنا بَدْءاً، وقالَ [بعضُهُمْ][9] رَدُّوا عليهِمْ [بأيدِيهِمْ وأفواهِهِمْ][10].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أتوا. (٤) في الأصل وم: عليهم وما يحرم. (٥) في الأصل وم: ويحتمل رد الأيدي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بأفواههم.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي في ألوهيَّةِ اللهِ شَكٌّ؟ أفي عبادةِ اللهِ شَكٌّ؟ أي ليسَ في ألوهيَّتِهِ ولا في عِبادَتِهِ شَكٌّ.

تُقِرّونَ[1] أنتمْ أنهُ إلهٌ، وأنهُ مَعْبودٌ، وكذلكَ أقرَّ آباؤُكُمْ أنهُ إلهٌ، وأنهُ معبودٌ، فَليسَ في ألوهيَّتِهِ ولا في عِبادَتِهِ شَكٌّ، إنما كانَ الشَّكُّ في عِبادَةِ مَنْ تَعْبُدونَ دونَهُ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ وألوهيَّتِها، لأنَّ آباءَكُمْ أقَرُّوا بألوهيَّةِ اللهِ وأنهُ معبودٌ حينَ[2] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأقَرُّوا أنهُ خالقُ السمواتِ الأرضِ، فاطِرُ جميعِ ما فيهما بقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وأنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها لم تَخْلُقْ شيئاً، فَليسَ في اللهِ شَكٌّ عندَكُمْ، إنما الشَّكُّ في ما تَعْبُدونَ دونَهُ لا[3] في وَحْدانيةِ اللهِ.

أو يقولُ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ إنهُ لم يَزَلْ مَعْبوداً، أي ليسَ في اللهِ شَكٌّ أنهُ لم يَزَلْ مَعْبوداً، إنما الشَّكُّ في الأصنامِ التي قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأمّا في اللهِ فلا شَكَّ أنهُ لم يَزَلْ مَعْبوداً.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يشبهُ أنْ يكونَ على الإضمارِ، أي ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وأنتُمْ[5] تقرونَ أنهُ خالِقُهُما. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاحتجاجِ أي ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وهو فاطرُ السمواتِ والأرضِ، أي تَعْلَمونَ أنهُ فاطرُ السمواتِ والأرضِ، وتُقِرّونَ أنهُ خالِقُهُما.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

[أحدُها][6]: ليغفرَ لكُمْ ذنوبَكُمُ التي كانَتْ لكمْ في حالِ الفَتْرَةِ إذا أسْلَمْتُمْ. وفيهِ[7] دلالةٌ، واللهُ أعلَمُ: أنَّ المآثِمَ التي كانَتْ لهمْ في وقتِ الفَتْرَةِ مأخوذَةً عليهِمْ [قد وَعَدَ لهمْ مَغْفِرَتَها][8] إذا أسْلَموا.

والثاني: وَعَدَ المَغْفِرَةَ والتجاوُزَ لِما كانَ منهمْ مِنَ الافتراءِ على اللهِ والقولِ فيهِ بما لا يَليقُ بهِ إذا أسلَموا، وتابوا عَنْ ذلكَ، أي إنكُمْ، وإنِ افْتَرَيْتُمْ على اللهِ، وقُلْتُمْ فيهِ ما قُلْتُمْ، وكَذَّبْتُمْ رسلَهُ[إذا أسْلَمْتُمْ، وتُبْتُمْ، وصَدَّقْتُمْ رسلَهُ][9] غفرَ لكُمْ ذلكَ كلَّهُ. وفيه ذِكْرُ لطفِهِ وحُسْنِ معامَلَتِهِ خَلْقَهُ.

والثالثُ[10]: جوابُ ما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧].

والرابعُ[11]: إذا أسْلَمْتُمْ، وتُبْتُمْ، لا تُتَخَطَّفونَ، ولكنْ تبلُغونَ إلى آجالِكُمُ المُسَمَّاةِ.

[وقولُهُ تعالى][12]: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تتعلقُ المعتزلةُ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ[وتقولُ][13]: إنَّ لكلِّ إنسانٍ أجلَينِ: أجَلٌ في حالٍ إذا فَعَلَ فِعْلَ كذا [وأجَلٌ في حالٍ إذا فَعَلَ فِعْلَ كذا][14].

لكنَّ جَعْلَ الأجَلَينِ إنما يكونُ بِجَهْلٍ في العَواقِبِ [بِجَهْلِ][15] مَنْ يَجْهَلُ العَواقِبَ.

واللهُ[16] ﷻ هو عالمٌ بما كانَ، ويكونُ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَجْعَلَ لِخَلْقِهِ[17] أجلَينِ، وهو عالمٌ بما يكونُ. فإنما جَعَلَ أجَلَهُ الذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ في الوقتِ الذي جَعَلَ أجَلَهُ بالذي [جَعَلَ][18] واللهُ الموفقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ في قولِهِمْ تناقُضٌ مِنْ وجوهٍ[19]:

أحَدُهُما: أنهمْ تَرَكوا طاعةَ رسُلِهِمْ واتِّباعَهُمْ لأنهمْ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ حينَ[20] قالوا: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فذلكَ تَناقُضٌ في القولِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقد.
(٦) في الأصل: يحتمل، ساقطة من م. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ثم وعد لهم المغفرة. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً قوله ﴿يَدْعُوكُمْ... مُّسَمًّى﴾. (١١) في الأصل وم: ويحتمل أيضاً قوله ﴿يَدْعُوكُمْ... مُّسَمًّى﴾.
(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: فأما.
(١٧) في الأصل وم: له. (١٨) من م، ساقطة من الأصل. (١٩) في الأصل وم: وجهين. (٢٠) في الأصل وم: حيث.

والثاني: أنهمْ لم يَرَوُا الرسلَ مَتبوعينَ [لأنهمْ][١] بشرٌ.

[والثالثُ: أنهمْ لا يخلونَ][٢] أنفسُهُمْ مِنْ أنْ يكونوا مَتبوعينَ، استَتْبَعوا غَيرَهُمْ مِنْ دونهمْ، أو كانوا أتباعاً لِغيرِهِمْ حينَ[٣] قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فذلكَ تناقُضٌ في القولِ.

[وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ سَألوا الحجةَ على ما دُعُوا إليهِ مِنْ ألوهيَّةِ اللهِ وربوبيَّتِهِ أو على ما دُعُوا مِنَ الرسالةِ مِنَ اللهِ وفي كلِّ شيءٍ، وَقَعَ عليهِ[٥] بَصَرُهُمْ دلالةُ وحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ. لكنهمْ سَألوا ذلكَ سؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ. وكذلكَ قد سَألُوا[٦] الحجَجَ على ما دُعُوا[٧] منَ الرسالةِ، لكنهمْ تَعانَدوا، وكابَروا في ردِّ ذلكَ، فسألوا سؤالَ آيةٍ وحُجَّةٍ، تَضطَرُّهُمْ، وتَقْهَرُهُمْ على ذلكَ.

أو يكونُ عندَ إتيانِها هلاكُهُمْ، فأجابَهُمُ الرسُلُ، فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١] أي ما كانَ لنا أنْ نأتيَكُمْ بآيةٍ، يكونُ بها هلاكُكُمْ، إنما ذلكَ إلى اللهِ، إنْ شاءَ لمْ يفعَلْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي ما نَحنُ إلّا بَشرٌ مِثْلُكُمْ، رَدُّ قولِ الباطِنيَّةِ، لأنهمْ يُنكِرونَ كونَ الرسالةِ في جَوهَرِ البَشَرِيَّةِ، ويقولونَ: إنما تكونُ الرسالةُ في جوهرِ الروحانيَّةِ. فهمْ - صلواتُ اللهِ عليهمْ - إنما أجابوا قومَهُمْ حينَ[٨] قالوا لهمْ: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. بقولِهِمْ[٩]: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لم يذكروا شيئاً سِوَى البَشَرِيَّةِ. فَدَلَّ أنَّ قولَ الباطِنيَّةِ باطلٌ حينَ[١٠] قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

[وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾][١١] فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يَختَصُّ أحداً بالرسالةِ إلّا مَنْ كانَ منهُ ما يَستَحِقُّ بهِ الرسالةَ. وهُمْ - صلواتُ اللهِ عليهمْ - لم يَذْكروا سِوَى مِنَّةِ اللهِ عليهِمْ. دلَّ أنهُ يَمُنُّ عليهِمْ، ويَختَصُّهُمْ لا بِشيءٍ مِنَ الاستِحقاقِ يكونُ منهمْ مِنَ الأعمالِ، ولكنْ بالمِنَّةِ والفَضلِ منهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا: الإذْنُ الإباحةُ، هو مُقابِلُ الحَجْرِ، لكنَّ الإذنَ المذكورَ في القرآنِ ليسَ كلُّهُ على وجهٍ واحدٍ، ولكنْ يَتَّجِهُ في كلِّ موضِعٍ، ويُحمَلُ[١٢] على ما يليقُ بهِ كقولِهِ[١٣] تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١] أي بنصرِ اللهِ، لأنَّ الهزيمَةَ هي مَوضِعُ النَّصرِ، يُحمَلُ عليهِ، وقولِهِ[١٤] تعالى: ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي بـ: إنْ شاءَ اللهُ.

فَعَلى ذلكَ الإذنُ هَهُنا حيثُ قالَ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بـ: إنْ شاءَ اللهُ السلطانُ، وإجراؤُهُ على أيدينا.

ويُحمَلُ[١٥] الإذنُ المذكورُ في القرآنِ على ما يَصلُحُ، ويَليقُ بما تَقدَّمَ ذِكْرُهُ/ ٢٦٨ - ب/ ويَحتَمِلُ الإذنُ هَهُنا الأمرَ أي بأمرِ اللهِ نأتي، أي [إنْ][١٦] أمَرَنا اللهُ بذلكَ نأتِ[١٧] بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على إثرِ وَعيدٍ وأذىً كانَ منهمْ إليهِمْ، فقالوا: على اللهِ يَتَّكِلُ، ويَعتَمِدُ، المؤمنونَ في دفعِ وعيدِكُمْ وأذاكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم (٢) في الأصل وم: ثم لا يخلوهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم. (٦) في الأصل وم: أقاموا. (٧) في الأصل وم: ادعوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وقولهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ويحتمل. (١٣) في الأصل وم: قال الله. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: ويحتمل. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: نأتي.

أحدُهما: على الأمرِ، أي على اللهِ توكَّلوا أيُّها المؤمنونَ في جميعِ ما يوعِدُكُمْ أهلُ الكفرِ وفي جميعِ أمورِكُمْ.

والثاني[1]: على الإخبارِ عن صنيعِ المؤمنينَ أنهمْ إنما يَتَوكَّلونَ على اللهِ، وبهِ يَعْتَمِدونَ في جميعِ أمورِهِمْ، ومنهُ يَرَوْنَ كلَّ خيرٍ وبرٍّ، لا بالأسبابِ التي لهمْ يَرَوْنَ[2] منها.

وأمّا أهلُ الكُفرِ فإنما يَتَوكَّلُونَ، ويَعْتَمِدونَ بالأسبابِ، ومنها يَرَوْنَ كلَّ سَعَةٍ وخيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ كأنَّ هذا يُخرَّجُ على إثرِ جوابٍ كانَ منهمْ: لمّا قالَ الرسلُ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فأجابوهمْ بحَرْفٍ، فعندَ ذلكَ قالَ الرسلُ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لكنهُ لم يَذْكُرْ ما كانَ منهمْ، ولكنْ ذَكَرَ جوابَ الرسلِ لهمْ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾. قالَ بعضُهُمْ: وقد بيَّنَ لنا سُلوكَ سُبُلِنا.

وعندَنا قولُهُ: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي وَفَّقَ لنا السلوكَ في السُّبُلِ التي علينا أنْ نَسْلُكَها، وأكْرَمَ لنا ذلكَ؛ أي ما لنا ألّا نَتَوَكَّلَ عليهِ في النَّصرِ والظَّفَرِ عليكُمْ، وقد وفَّقَنا[وأكْرَمَ لنا][3]السلوكَ في السُّبُلِ التي علينا سُلوكُها، وذلكَ أعْسَرُ مِنَ القِيامِ للأعداءِ والظفَرِ[4] بهِمْ، وقد أكْرَمَنا بما[5] هو أعْسَرُ وأعظَمُ. فإنْ يَنْصُرْنا [فهو][6] أولى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا قَبْلَ أنْ يُؤمَروا بالقيامِ لهمْ والانتِصارِ منهمْ؛ أُمِروا بالصَّبْرِ على أذاهمْ، فقالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أنهمْ قالوا ذلكَ لمّا كانَ أهلُ الكُفرِ في كَثْرَةٍ، وكانَ أهلُ الإسلامِ وأتباعُ الرسُلِ في قِلَّةٍ، يَسْتَقِلّونَ أهلَ الإسلامِ، ويُعاتِبونَ على ذلكَ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بالنصرِ على أعدائِنا والغَلَبَةِ عليهِمْ، وقد أكرَمَنا بما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كأنهُ يُخرَّجُ على الأمرِ؛ أي على اللهِ فَتَوَكَّلُوا، ولا تَتَوَكَّلُوا على غيرِهِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ على الخَبَرِ؛ أي لا يَتَوكَّلُ المؤمنُ إلّا على اللهِ، لا يَتَوكَّلُ على غيرِهِ كقولِ الرسولِ ﷺ حينَ[7] قالَ: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ الآية [هود: ٥٦] وهو قولُ هودٍ، وقولِ المؤمنينَ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] ونَحْوُهُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ الإخراجُ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: على حقيقةِ الإخراجِ مِنَ البَلَدِ إلى غَيرِهِ مِنَ البلدانِ والأرضِينَ.

والثاني[8]: الإخراجُ الحَبْسُ ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ أي لَنَحْبِسَنَّكُمْ عنِ الانْتِفاعِ بالبلدِ وبأهلِهِ وبما فيهِ.

والثالث[9]: الإخراجُ القَتْلُ، أي نَقْتُلُكُمْ.

وقد كانَ أهلُ الكُفرِ يُوعِدونَ، ويُخَوِّفونَ الرسلَ وأتباعَهُمْ بهذهِ الثلاثةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ونَحْوُهُ.

ثم في وعيدِهِمُ الذي أوعدوا الرسلَ [وجوهُ ثلاثةُ حينَ][10] تجاسروا إقبالَ الرسلِ بِمِثْلِ هذا الوعيدِ، ومعَ الرسلِ آياتٌ وحُجَجٌ:

أحدُها: أنهمْ رَأوا أنفسَهُمْ مُسَلَّطينَ على أولئكَ قاهِرينَ عليهمْ، وكانوا أهلَ كِبْرٍ وتَجَبُّرٍ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] دلَّ هذا أنهمْ كانوا رَأوا أنفسَهُمْ كما ذَكَرْنا أهلَ تَسَلُّطٍ وتَجَبُّرٍ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) أدرج في الأصل وم قبلها: ولا. (٣) في الأصل وم: وأكرمنا. (٤) في الأصل وم: والنصر. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: ويحتمل. (٩) في الأصل وم: ويحتمل. (١٠) في الأصل وم: وجوها ثلاثة حيث.

والثاني: قالوا ذلكَ لهمْ لمّا لم يكنْ عندَهمْ ما يدفَعونَ حُججَ الرسلِ وبراهينَهُمْ، فَهَمُّوا بِقَتْلِهِمْ وإخراجِهِمْ بعَجْزِهِمْ عنْ دفعِ ما أَلْزَمَهُمُ الرسلُ. وهكذا الأمرُ المُتعارَفُ بينَ الخَلْقِ: أنَّ الخصمَ لا يَقْصِدُ إهلاكَ خَصْمِهِ ما دامَ لهُ الوُصولُ إلى الحِجاجِ. فإذا عَجزَ عنْ ذلكَ فَعِنْدَ ذلكَ يَهُمُّ بِقَتْلِهِ، ويَقْصِدُ إهلاكَهُ.

والثالث: جوابُ الرسلِ إياهمْ عندَ القولِ السَّيِّئِ بالقولِ الذي ليسَ فوقَهُ أحسَنُ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ المِلَّةُ الدينُ كقولِهِ ﷺ: «لا يَتوارَثُ أهلُ المِلَّتَينِ» [الترمذي: ٢١٠٨] وقولِهِ تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥و....] أي دينَ إبراهيمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ليسَ أنهمْ كانوا فيها فتَركوها، ولكنْ على ابْتِداءِ الدخولِ فيها على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ وَعَدَ لهمُ النصرَ والظَّفَرَ عليهِمْ والتمكينَ في أرضِهِمْ معَ قِلَّةِ عَدَدِ أتباعِ الرسلِ وضَعْفِ أبدانِهِمْ ومعَ كثرةِ الأعداءِ وقوةِ أبدانِهِمْ لِيَعلَموا أنهمْ إنما قالوا ذلكَ بوَحْيٍ مِنَ اللهِ وَوَعْدِهِ إياهمْ لا مِنْ حيثُ أنفُسُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

فكانَ على ما أخبَروا، فكانَ [ذلكَ][1] مِنْ آياتِ رسالتِهِمْ.

وما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَطْلُبوا مِنَ الرسلِ الآياتِ والحُجَجَ على ما ادَّعَوا لأنهمْ لم يَدْعوهُمْ إلى طاعةِ أنفسِهِمْ أو عِبادَتِهِمْ، وإنما دَعَوهُمْ إلى وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وألوهيَّتِهِ وجَعْلِ الطاعاتِ والعبادةِ لهُ دونَ ما عَبَدوها مِنَ الأصنامِ.

وذلكَ في شهادةِ خِلْقَتِهِمْ وشهادةِ كلِّ خَلْقِهِ، وإنْ لَطُفَ، وصَغُرَ، فلم يَحْتَجوا بأنْ[2] يقيموا البراهينَ والحُجَجَ على ما ادَّعوا هُمْ، لكنهمْ كانوا قوماً مُعانِدينَ مُكابِرينَ، لا يَقْبَلونَ قولَهُمْ، ولا يُصدِّقونَهُمْ تَعَنُّتاً وتَكَبُّراً، لم يَنْظُروا في خَلْقِ اللهِ لِيَذْكُروا آثارَ وحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، فَكُلِّفوا إقامةَ الحُجَجِ والآياتِ لئلا يكونَ لهمُ الاحتجاجُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً [ثلاثةً][3] لأنهُ قد سَبَقَهُ[4] خصالٌ ثلاثٌ: ما يَحْتَمِلُ رجوعَ هذا الحرفِ إلى كلِّ واحدٍ منْ ذلكَ:

أحدُها: [سَبَقَ][5] قولُهُ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَنَّ والفضلَ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والثاني[6]: سبقَ أيضاً قولُهُ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] أي ذلكَ الهُدى والسُّبُلُ التي هدانا إليها، أي ذلكَ الهُدى والهدايةُ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

والثالث[7]: سبقَ أيضاً [قولُهُ][8]: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣] أي ذلكَ النصرُ والظَّفَرُ بهمْ والتمكينُ في الأرضِ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

ثم قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ في الدنيا والآخرةِ، وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي خافَ سُلْطاني ونِقْمَتي وعذابي في الدنيا بما نزلَ بِمُكَذِّبي رسلِهِ وأنبيائِهِ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعذابي في الآخرةِ حينَ[9] وَعَدَ أنهُ يَحِلُّ بهمْ بالتكذيبِ وتَرْكِ الإجابةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ في الآخرةِ، وهو كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] يخافُ ذلكَ المَقامَ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وخافَ ما وَعَدَ مِنَ العذابِ في النارِ.

ثم قولُهُ: ﴿مَقَامِي﴾ حينَ[10] أضافَ إليهِ ليسَ في الاشتِباهِ بأقلَّ مِنْ قولِهِ: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤و....]

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إلى أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سبق. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث.

واقَلَّ مِن قولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] وأمثالِهِ. فكيفَ اشْتَبَهَ هذا على التشبيهِ، ولم يَشْتَبِهْ قولُهُ: ﴿مَقَامِى﴾ حينَ[1] سألوا في ذلكَ، ولم يَسألوا في هذا؟ وهذا: إنْ[2] لم يكنْ أكثرَ مِنَ الاشْتِباهِ، فليسَ بأقَلَّ.

والأصلُ في هذا وأمثالِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨و...] وقولِهِ[3]: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: ٤] [وقولِهِ][4]: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦] [وقولِهِ][5]: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]: ذَكَرَ هذا، وإنْ كانَ الخلائِقُ جميعاً، يكونُ مَصيرُهُمْ ومَرْجِعُهُمْ إليهِ، لأنه ـ جلَّ، وعَلا ـ لم يَخْلُقْهُمْ لِلْمُقامِ في الدنيا والدوامِ فيها، وإنما خَلَقَهُمْ للزَّوالِ عنها والفَناءِ والمُقامِ في الآخِرَةِ والدوامِ فيها، لكنْ خَلَقَهُمْ في هذهِ الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ، ويُبْتَلَونَ فيها/ ٢٦٩ ـ أ/ ثم يَصيرونَ إلى دارِ المُقامِ.

فالآخِرَةُ هي المَقصودُ في خَلقِهِمْ في الدنيا، لا الدنيا. فإذا كانَ كذلكَ أضافَ المَصيرَ إلى نفسِهِ لِما هو المَقصودُ في خلقِهِمْ، وإنْ كانوا في الدنيا والآخِرَةِ صائرينَ إليهِ غيرَ غائبينَ عنهُ طَرْفَةَ عينٍ، ولا فائِتِينَ عنهُ، وباللهِ النجاةُ.

ذَكَرَ اللهُ ﷻ أنباءَ الرسلِ الماضيَةِ وأتباعِهِمْ، وأنباءَ أعدائِهِمْ، وما عامَلَ بعضُهُمْ بعضاً، وما نَزَلَ بالأعداءِ بِما عاملوا رسلَهُمْ مِنَ العذابِ، والاسْتِئصالَ وأنواعَ البلايا، وما أكْرَمَ رسلَهُ وأتباعَهُمْ وأولياءَهُمْ مِنَ النَّصرِ على أعدائِهِمْ والظَّفَرِ بهمْ والتَّمكينِ في الأرضِ.

وجَعَلَ ذلكَ كلَّهُ كتاباً بالحكمةِ يُتْلَى لِيُعْلِمَ[كيفَ يُعامِلُ][6] الأعداءَ والأولياءَ لِيُرَغِّبَ في ما اسْتَوجَبَ الأولياءُ مِنَ الكراماتِ، وليُحَذِّرَ[7] عن مِثْلِ صَنيعِ الأعداءِ، ولِيُعْلِمَ[8] كيفَ عاملَ رسُلَهُ وأولياءَهُ وكيفَ عاملَ الرسلُ [ربَّهمْ][9].

أضافَ الرسلُ جميعَ ما يأتوا مِنَ الخيراتِ والكراماتِ إلى اللهِ كأنْ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ حينَ[10] قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

ذَكَرَ[اللهُ تعالى قولَهُمْ][11] ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لِيُعْلِمَ أنَّ الخيرَ ليسَ يكونُ بالجوهرِ، ولكنْ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ تعالى وبرحمتِهِ.

وقالوا[12]: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢] وأمثالَهُ، وأضافوا ذلكَ إليهِ كأنهمْ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ.

وذَكَرَ اللهُ ﷻ ما أكْرَمَ أولياءَهُ ورسلَهُ مِنَ النَّصرِ والتَّمكينِ والإنزالِ في الدِّيارِ كأنهمُ اسْتَوجَبوا ذلكَ بِفِعْلٍ[13] كانَ منهمْ، وهو قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ النَّصرُ والتمكينُ وما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ[في قولِهِ][14]: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾: ذَكَرَ أنهمُ اسْتَوجَبُوا ذلكَ لا أنْ كانَ [ذلكَ][15] مِنَ اللهِ بِحَقٍّ إفضالٍ وامْتِنانٍ [ولكنْ][16] لِيَعْلَموا مُعاملةَ اللهِ رسلَهُ وأولياءَهُ ومُعاملةَ الرسلِ والأولياءِ سَيِّدَهُمْ ومَولاهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: الاسْتِنْصارُ؛ اسْتَنْصَروا اللهَ على أعدائِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩] أي يَسْتَنْصِرونَ.

والثاني: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي تحاكموا إلى اللهِ في النَّصرِ لِلأحَقِّ منهمْ والأقْرَبِ إلى الحَقِّ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وهو التَّحاكُمُ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هو ما ذَكَرْنا: تَحاكَمُوا إلى اللهِ، فَنَصَرَ أولياءَهُ، وأهْلَكَ أعداءَهُ على ما

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: أي. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل مقابل في م: يعامل. (٧) في الأصل وم: وليحذروا. (٨) في الأصل وم: وليعلموا أن. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: قوله. (١٢) في الأصل وم: وقولُهُ تعالى (١٣) من م، في الأصل: بفطر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

ذُكِرَ أنَّ أبا جَهْلٍ قالَ: اللهمَّ دينُكَ القديمُ، وأياديكَ الحسنةُ، أيُّنا كانَ أحبَّ إليكَ وأقْرَبَ مِنَ الحقِّ فانْصُرْهُ، فَنَصَرَ المؤمِنينَ، وأهلكَ الأعداءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي مُتَجَبِّرٍ على رسلِهِ وأوليائِهِ. والعَنيدُ قيلَ: المُعْرِضُ المُجانِبُ عنِ الحقِّ والطاعةِ. وقالَ بعضُهُمْ: الجبّارُ القاتِلُ على الغَضبِ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي مِنْ وراءِ عذابِ الدنيا لهمُ عذابُ جهنَّمَ. وقولُهُ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الوَراءُ قد يُسْتَعْمَلُ في أمامٍ وخَلْفٍ، أي مِنْ أمامِ ما حَلَّ بهمْ جَهَنَّمُ. ويَحْتَمِلُ: وراءَ ما أصابَهُمْ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي يُسْقَى في جَهَنَّمَ صَديدٌ مَكانَ ما يُسقَونَ في الدنيا، وهو الذي يَسيلُ مِنَ القُروحِ.

جَعَلَ اللهُ للكافرينَ في الآخِرَةِ مَكانَ ما كانَ لهمْ في الدنيا لِباساً وشَراباً وطَعاماً ما كانَتْ تَكْرَهُهُ أنفسُهُمْ.

جَعَلَ مَكانَ ما يُسْقَونَ في الدنيا مِنَ الماءِ في النارِ الصَّديدَ والغِسْلينَ الحَميمَ، ومَكانَ الطعامِ في الدنيا في النارِ الزَّقومَ والضَّريعَ، ومَكانَ اللباسِ القَطِرانَ ونَحْوَهُ، ومَكانَ القَرينِ والصديقِ في الدنيا يَجْعَلُ قرينَهُ الشيطانَ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

كانَ[1] ذلكَ كلُّهُ يمنَعُهُمْ عنْ دينِ اللهِ، ويَصُدُّهُمْ عنْ ذِكْرِهِ، وكانَ[2] جزاؤهُمْ مِنْ نوعِ ما كانَ يَمْنَعُهُمْ في الدنيا عَنْ طاعتِهِ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: إنّ الصَّديدَ [الذي يُسْقَونَ هو أنَّ النارَ تَجْرَحُهُمْ، وتُقَرِّحُهُمْ، فَيَسيلُ مِنْ ذلكَ الصَّديدُ][3] فَيُسْقَونَ مِنْ ذلكَ. فقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ يَجْعَلُ شرابَهُمْ، فيهِ[4] صديدٌ [لا][5] كَشرابِ أهلِ الجنَّةِ وطَعامُهُمْ مِنْ غَيرِ أصلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ[6] ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ في ظَنِّهِمْ ماءٌ، وهو في الحقيقةِ والظاهرِ صَديدٌ، لكنْ يَشْرَبونَ رَجاءَ أنْ يَدْفَعَ عَطَشَهُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّجَرُّعُ ما يَشْرَبُهُ [المَرْءُ][7] مُكْرَهاً عليهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يُقالُ: أسَغْتُهُ، أي أدخلتُهُ[8] في الحَلْقِ، يُقالُ: أسَغْتُهُ، فَساغَ في حَلْقِهِ إذا دَخَلَ دخولاً سهلاً، لا يُؤذيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قالَ قائلونَ: يأتيهِمُ الغَمُّ والهَمُّ مِنْ كلِّ مَكانٍ. وكذلكَ المُتَعارَفُ في الخَلْقِ إذا اشْتَدَّ بهمُ الغَمُّ والهَمُّ والشِّدَّةُ يُقالُ: كأنكَ ميتٌ، أو تَموتُ غَمّاً.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُ المَوتِ ما لو كانَ مِنْ قَضائِهِ المَوتُ فيها لَماتوا لِشِدَّةِ ما يَحُلُّ بهِمْ، ولكنَّ قضاءَهُ [ألّا يموتوا][9] فيها ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ موتَ حقيقةٍ، يَسْتَريحُ مِنَ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ كلِّ ناحيةٍ مِنْ فوقُ ومِنْ تَحْتُ ومِنْ خَلْفٍ ومِنْ قُدّامٍ كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقولِهِ[10]: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] أخبرَ أنَّ النارَ تأتيهِمْ، وتأخُذُهُمْ مِنْ كلِّ جانبٍ ومِنْ كلِّ جِهَةٍ.

ويَحْتَمِلُ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي مِنْ كلِّ سَبَبٍ مِنْ تلكَ الأسبابِ التي تأتيهِمْ ما لو كانَ [مِنْ قضائِهِ][11] الموتُ لَماتوا بكلِّ سَبَبٍ مِنْ تلكَ الأسبابِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ مِنْ مَوضعٍ مِنْ جَسَدِهِ ومِنْ سائرِ جَوارِحِهِ إلّا الموتُ يأتيهِ منها مِنْ شِدَّةِ ما يَحُلُّ فيهمْ حتى يَجِدوا طَعْمَ المَوتِ وكَرْبَهُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: ليكون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أدخلت. (٩) في الأصل وم: أي لا يموتون. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: قضاه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي مِنْ وراءِ ذلكَ العذابِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لا يَنْقَطِعُ، ولا يَفْتُرُ. وَصَفَهُ بالغِلَظِ والشِّدَّةِ لِدَوامِهِ والإياسِ عنِ انْقِطاعِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، على التقديمِ، أي مَثَلُ أعمالِ الذينَ كَفَروا بربِّهِمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بهِ الريحُ.

ثم تَحْتَمِلُ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الأعمالَ التي كانَتْ لهمْ في حالِ إيمانِهِمْ، ثم كَفَروا بما أحدَثوا مِنَ الكُفْرِ، أبْطَلَ ذلكَ الأعمالَ الصالحةَ في الإيمانِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥] أو تكونُ مَحاسِنُهُمُ التي كانَتْ لهمْ في حالِ الكُفْرِ، طَمِعُوا أنْ يَنْتَفِعوا بتلكَ المَحاسِنِ في الآخِرَةِ، فما انْتَفَعوا بها، فصارَتْ كالرَّمادِ الذي تَذْروهُ الريحُ الشديدةُ، لم يَنْتَفِعْ صاحبُ ذلكَ الرَّمادِ بهِ بَعْدَ ما عَمِلَتْ [بهِ الريحُ ما عَمِلَتْ][1].

فَعَلَى ذلكَ الأعمالُ الصالحةُ التي عَمِلوها في حالِ كُفْرِهِمْ أو أعمالُهُمُ الصالحةُ التي كانَتْ لهمْ في حالِ الإيمانِ، ثم أحدَثوا الكُفْرَ، لا يَنْتَفِعونَ بها. وقالَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في أعمالِهِمُ السَّيِّئَةِ في أنْفُسِها، فَرَأَوْها حَسَنَةً كقولِهِ: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤] فرآهُ حَسَناً، فَيُشْبِهُ ما كانَ في نَفْسِهِ حَسَناً بالسَّرابِ، لأنهُ لا شيءَ هنالكَ، إنما يَرَى خَيالاً.

فَعَلَى ذلكَ أعمالُهُمُ السَّيِّئَةُ في أنْفُسِها، رَأَوْها حَسَنَةً صالحةً، وما كانَ، وما يُشَبَّهُ بالرَّمادِ فهي الأعمالُ الصالحةُ في أنْفُسِها، لكنَّ الكُفْرَ أبْطَلَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ اليومُ لا يكونُ عاصفاً، ولكنْ على الإضمارِ، كأنهُ قالَ في يومٍ فيهِ ريحٌ عاصفٌ كقولِهِ:/٢٦٩ ـ ب/ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] النهارُ لا يُبْصِرُ، ولكنْ يُبْصَرُ فيهِ، أو يُبْصَرُ بهِ. قيلَ: هو القاصفُ الكاسرُ الذي يَكْسِرُ الأشياءَ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ والعاصِفُ والقاصفُ حرفانِ يُؤَدِّيانِ جميعاً مَعْنىً واحداً..

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ﴾ كالرَّمادِ الذي ذَكَرْنا أنَّ صاحبَهُ، لا يَقْدِرُ بهِ [على شيءٍ بَعْدَما][2] عملتْ بهِ الريحُ، وذَرَتْهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكُفْرَ ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ لا نَجاةَ فيهِ أبداً، أو ذلكَ الذي أتَوابِهِ بَعيدٌ عنِ الحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ ألَمْ تَرَ: حَرْفُ تَنْبيهٍ عنْ عَجيبٍ، بَلَغَهُ، وعَلِمَ بهِ، غَفَلَ عنهُ. أو نقولُ: حَرْفُ تَنْبيهٍ عنْ عَجيبٍ، لم يَبْلُغْهُ بَعْدُ، ولم يَعْلَمْ بهِ، على هذينِ[3] الوجهينِ يُشْبِهُ أنْ يكونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ[4] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي لِلْحَقِّ. وتأويلُ قولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ، لِلْحَقِّ أي للكافرينَ، لا مَحالَةَ، وهي الآخِرَةُ، لأنَّ خَلْقَ العالَمِ الأوَّلِ للعالَمِ الثاني: ، والمَقصودُ في خَلْقِ هذا العالمِ هو العالَمُ الثاني: ، فكانَ حقُّهما للثاني، لا للأوَّلِ دونَ الثاني: ، يَحْصُلُ خَلْقُهُما لِلْفَناءِ، وذلكَ خارجٌ عنِ الحِكْمَةِ، وهو ما قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقالَ قائلونَ: ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ لِلْحَقِّ الذي وَجَبَ لهُ عليهِمْ بالامْتِحانِ والابْتِلاءِ، خَلَقَهُما للشهادةِ لهُ على المُمْتَحَنِ. أو نقولُ: خَلَقَهُما ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي بالحكمَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بعد. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل: خالق، وهي قراءة حمزة والكسائي و. انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٢٣٣.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إنْ كانَ الخِطابُ بهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: قد رَأيتَ، وعَلِمْتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وإنْ كانَ الخطابُ بهِ لِغَيرِهِ مِنْ أولئكَ يَقُلِ[1]: اعْلَموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يَخلُقْهُما عَبَثاً باطلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: هذهِ المُخاطَبَةُ، يُخاطِبُ بها أهلَ مكةَ، يَذْكُرُ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ على بَعْثِهِمْ بَعْدَ المَوتِ والهلاكِ، يَقْدِرُ على إذهابِكُمْ وإهلاكِكُمْ، ويَقْدِرُ أيضاً أنْ يَأتِيَ بِغَيرِكُمْ. فَعَلَى ذلكَ يَقْدِرُ على بَعْثِكُمْ بَعْدَ مَماتِكُمْ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي عليهِ هَيِّنٌ يَسيرٌ. ولكنْ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ذهابُكُمْ وفناؤُكُمْ ليسَ بِشديدٍ عليهِ، ولا شاقٍّ؛ ليسَ كملوكِ الأرضِ إذا [ذَهَبَ شيءٌ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ][2] يشتدُّ ذلكَ عليهِمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ فلا يزيدُ الخَلْقُ في سُلْطانِهِ ولا في مُلْكِهِ، ولا يُنْقِصُ فَناؤُهُمْ وذهابُهُمْ منهُ شيئاً كقولِهِ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أي أشِدّاءُ[3] عليهِمْ، وهو ما وَصَفَهُمْ ﷺ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ذَكَرَ مَكانَ الشِّدَّةِ العِزَّةَ ومَكانَ الذِّلَّةِ ههنا الرَّحْمَةَ.

ويكونُ[4] قولُهُ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ما بَعْثُكُمْ وإحياؤُكُمْ بَعْدَ المَماتِ على اللهِ بِشاقٍّ ولا شديدٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قالَ مُقاتلٌ: خَرَجوا إلى اللهِ مِنْ قبورِهِمْ جميعاً. وقالَ: ﴿جَمِيعًا﴾ لأنهُ لا يُغادِرُ أحداً إلّا بَعَثَهُ[5]. ويحتملُ وجوهاً أُخَرَ سِوَى ذلكَ.

وهي[6]: أنَّ قولَهُ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي لأمرِ اللهِ، أي لِوَعْدِهِ الذي وَعَدَ أنهمْ يُبْعَثونَ.

أو يُريدُ الحُكْمَ: اللهُ يَحْكُمُ في بَعْثِهِمْ.

[أو][7]: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي ظهروا بهِ، وَوُجِدوا، فيكونونَ مَوجودينَ ظاهِرينَ بَعْدَ أنْ كانوا فائتِينَ ذاهبينَ غائبينَ؛ أي عندَهُمْ في الدنيا أنهمْ[فائتونَ غائبونَ][8] عنِ اللهِ، فيومئذٍ يَعْلَمونَ أنهُ كانَ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أفعالِهِمْ وأحوالِهِمْ، وهو ما ذَكَرْنا بقولِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] [وأمثالِهِمْ: أي لِيَعْلَمَهُمْ][9] مجاهدينَ صابرينَ كما عَلِمَهُمْ غيرَ مُجاهِدينَ وغيرَ صابرينَ وقولِهِ[10]: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣و...] أي[11] يَعْلَمُهُمْ شهوداً كما عَلِمَهُمْ غَيباً.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يَكونونَ لهُ موجودينَ ظاهرينَ، واللهُ أعلَمُ.

وإضافةُ البُروزِ إليهِ في الآخِرَةِ، وإنْ كانَ بُروزُهُمْ لهُ في الدارَينِ جميعاً، وكذلكَ المَصيرُ إليهِ، والمَرْجِعُ إليهِ، والمآبُ، ونَحْوُهُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما لا يُنازِعُهُ أحدٌ في البُروزِ في ذلكَ اليومِ، وقد يُنازَعُ في الدنيا.

أو خَصَّ ذلكَ البُروزَ بالإضافةِ لِما هو المَقصودُ مِنْ إنشائِهِ إيّاهُمْ وخَلْقِهِمْ، ليسَ المَقصودُ في خَلْقِهِمْ وإنشائِهِمُ الأوَّلَ، ولكنَّ الآخَرَ. فَخَصَّ ذلكَ بالإضافةِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يومئذٍ يَعْلَمونَ أنهُ كانَ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، لأنهمْ[12] لم يكونوا يَعْلَمونَ قبلَ[13] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ قالَ

---

(١) في الأصل وم: يقول. (٢) في الأصل وم: شيء من مملكتكم. (٣) في الأصل وم: شديد. (٤) في الأصل وم: أو أن يكون. (٥) في الأصل وم: بعث. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فائتين غائبين. (٩) في الأصل: وأمثاله أن يعلمهم، في م: وأمثاله أي يعلمهم. (١٠) في الأصل وم: وكقوله. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: وكأنهم. (١٣) في الأصل وم: وقبل.

قائلون: قولُهُ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي دافِعونَ عنّا مِنْ عذابِ اللهِ إذْ كُنّا لَكُمْ أتباعاً، وكُنْتُمْ مَتبوعينَ، فادفَعوا عنّا ذلكَ. لكنَّ هذا بَعيدٌ أنْ يَطْلُبوا منهمْ دَفْعَ العَذابِ عنهمْ، وقد رَأَوهُمْ في العَذابِ. فَلَو قَدَروا على دفعِ [العذابِ][1] عنهمْ لَدَفَعوا أوّلاً عنْ أنفسِهِمْ إلّا أنْ يكونَ فيهمْ حَيرَةٌ وعَمىً كما كانَ في الدنيا؛ فَلِلْحَيرَةِ ما قالوا كقولِهِ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢].

والأشْبَهُ أنهمْ يَطْلُبونَ [منهُمْ دَفْعَ بَعْضِ العذابِ][2] عنهمْ [وتَحمُّلَ بَعْضِ العذابِ][3] لأنَّ مَؤُنَةَ الاتباعِ في العُرْفِ يَتَحمَّلُها المَتْبوعُ، فَيَطْلُبونَ منهمْ دَفْعَ شيءٍ وتَحمُّلَ بَعْضِ ما حَلَّ بهمْ، وهو ما ذَكَرَ في الآيةِ الأُخرَى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] طَلَبوا منهُمْ تَحمُّلَ بَعْضِ ما حَلَّ بهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ العلمِ: إنَّ الكَفَرَةَ جميعاً أتباعَهُمْ ومَتبوعيهِمْ أعلَمُ بهدايةِ اللهِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ عَلِموا أنَّ اللهَ ﷻ لو هَداهُمْ لَاهْتَدَوا، وأنهُ[4] يملكُ هِدايَتَهُمْ، والمُعْتَزِلَةُ يقولونَ: قد هَدَى اللهُ جميعَ الكَفَرَةِ وجَميعَ الخَلائِقِ، فلم يَهْتَدُوا، وإنهُ لو أرادَ أنْ يَهْدِيَ أحداً لم يَمْلِكْ. والكَفَرَةُ حينَ[5] قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ رأوا، وعَلِموا أنَّ اللهَ لو هَداهُمْ لَاهْتَدَوا، لأنهمْ لو لم يَهْتَدُوا بِهدايَتِهِ إذا هَداهُمْ لم يَعْتَذِروا إلى أتباعِهِمْ ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾.

وقالَ إبليسُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] أضافَ الإغواءَ إليهِ، وهُمْ[6] يقولونَ: لا يُغْوِي اللهُ أحداً. فإبليسُ أعْلَمُ بهذا مِنَ المُعْتَزِلَةِ، وقولُهُمْ[7]: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي لو رزَقَنا اللهُ الهُدَى، وأكرَمَنا بهِ ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكنْ لم يَرْزُقْنا ذلكَ، ولم يُكْرِمْنا[بهِ][8].

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تأويلُ قولِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ لو كانَ الذي كُنّا عليهِ هُدىً لَهَدَيناكُمْ.

فهذا صَرْفُ هذهِ الآيةِ عنْ وَجْهِها بلا دليلٍ؛ فلو جازَ لهُ[9] هذا جازَ لِغَيرِهِ صَرْفُ جميعِ الآياتِ عنْ ظاهِرِها بلا دليلٍ مَعَ ما أنَّ الاتباعَ قد عَلِموا أنَّ الذي كانوا عليهِ لم يَكُنْ هُدىً، فلا مَعْنىً لهذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ قالوا في ما بَيْنَهُمْ: تَعالَوا حتى نَجْزَعَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنا، فَجَزِعوا حيناً، فلم يُرْحَموا، ثم قالوا: تعالَوا حتى نَصْبِرَ، لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُنا، فلم يُرْحَموا، فعندَ ذلكَ قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

لكنْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولوا ذلكَ بعدَ الامْتِحانِ والاخْتِبارِ، لكنْ كأنهمْ قالوا ذلكَ بالذي سَمِعُوا، وهو قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] [أي لَمّا سَمِعُوا ذلكَ][10] قالوا: ﴿سَوَآءٌ/ ٢٧٠ - أ/ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي مَنْجٍ ومُخَلِّصٍ.

لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في أوّلِ أحوالِهِمْ وأمورِهِمْ، ولكنْ يُحْتَمَلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهمْ يقولونَ ذلكَ عندَ الإياسِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ؛ يقومُ إبليسُ خَطيباً في النارِ، ويَخْطُبُ[11]، كما ذَكَرَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي مُيِّزَ، وبُيِّنَ أهلُ الجنةِ مِنْ أهلِ النارِ قَبْلَ أنْ يُدْخَلَ أهلُ النارِ النارَ، وأهلُ الجنةِ الجنةَ، قامَ [إبليسُ][12] خطيباً؛ فخطبَ لأتباعِهِ كما ذَكَرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ويحتمل بعض. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الضمير يعود إلى المعتزلة. (٧) الضمير يعود إلى الكفرة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لغير. (١٠) في الأصل وم: ولما سمعوا ذلك عند ذلك. (١١) في الأصل وم: وخطب. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي لمّا فُرِغَ مِنَ الحسابِ ومِنْ أمْرِهِمْ. عندَ ذلكَ يَخْطُبُ [إبليسُ كما][1] ذَكَرَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] أي لمّا فُرِغَ مِنَ الحسابِ[2]. فعلى ذلكَ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي لمّا[3] نزلَ بهِمُ العذابُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ هو أنَّ اللهَ كانَ قد وَعَدَ أنْ يقومَ إبليسُ خطيباً لهمْ، فَقَضَى الأمْرَ، أي أنْجزَ ما وَعَدَ أنهُ يَخطُبُ.

أو أنْ يكونَ لأهلِ الكُفرِ لَجاجاتٌ ومُنازعاتٌ في ما بينَهُمْ يومَ القِيامَةِ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وكقولِهِ: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ الآية[المجادلة:١٨] يَكْذِبون في الآخِرَةِ، ويكونُ لهمْ لَجاجَةٌ على ما كانَ منهُمْ في الدنيا، ويَحتَجّونَ، ويَقولونَ: إنَّ إبليسَ هو كانَ غَلَبَنا، وقَهَرَنا، لأنهُ كانَ يَرانا، ونحنُ لم نكُنْ نَراهُ؛ فالمَغلوبُ المَقهورُ غَيرُ مأخوذٍ بما كانَ منهُ في حُكْمِكَ.

تَحتَجّونَ بِمِثْلِ هذه الخُرافاتِ واللَّجاجاتِ، وتقولونَ: هو الذي أضَلَّنا، فيقومُ عندَ ذلكَ إبليسُ خَطيباً بينَهُمْ، فيقولُ[4]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ حتى أقْهرَكُمْ، وأغْلِبَكُمْ، إلا الدعاءُ ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ طائِعينَ غَيرَ مَقْهورينَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ وَعْدُهُ ما وَعَدَ على ألْسُنِ الرُّسُلِ أنَّ البَعْثَ والجنةَ والنارَ والحِسابَ والعذابَ كائنٌ، لا مَحالَةَ، أو جميعُ ما وَعَدَ مِنْ مَواعيدِهِ، فذلكَ كُلُّهُ حقٌّ، أي كائنٌ، لا مَحالَةَ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ يَحتمِلُ ما ذَكَرَ حيثُ قالَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٨] وأمثالُهُ مِنْ عِداتِهِ، كانَتْ كلُّها أمانِيَّ وغُروراً وكَذِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أي ما كانَ لي عليكُمْ مِنْ مُلْكٍ وقَهْرٍ وغَلَبَةٍ، أقْهرُكُمْ، وأغْلِبُ عليكُمْ، إلا الدعاءُ، فاسْتَجَبْتُمْ طَوعاً.

والثاني[6]: يحتملُ قولُهُ: ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ مِنْ حُجَّةٍ وبُرهانٍ؛ أي لم يكُنْ لي حُجَّةٌ وبُرْهانٌ على ما دَعَوتُكُمْ إليهِ، إنما كانَ لي دُعاءُ وَوَساوِسُ، وكانَ للرُّسُلِ حُجَجٌ وبراهينُ، فَتَرَكْتُمْ إجابَتَهُمْ ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾ بلا حُجَّةٍ وبُرْهانٍ؛ أي لم أقْهرْكُمْ، ولم أغْلِبْ عليكُمْ.

لكنْ هذا لا يَصْلُحُ لأنهُ لو كانَ لهُ عليهِمْ سُلْطانُ القَهْرِ والغَلَبَةِ كانوا مَعذورينَ غَيرَ مُعذَّبينَ، لأنَّ المَقهورَ المَغلوبَ مُضطَرٌّ، والمُضطَرُّ مَعذورٌ، ولكنَّ لِلسُّلْطانِ حُجَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ ليسَ مُرادُهُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ أنْ[7] يلامَ، ولكنَّ مُرادَهُ أنِ ارْجِعُوا إلى لائِمَةِ أنفسِكُمْ، واشْتَغِلُوا بها، فإنَّ ذلكَ كانَ منكُمْ، لم يكُنْ منّا إلّا الدعاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ قيلَ: ما أنا بِناصِرِكُمْ، وما أنْتُمْ بِناصِرِيَّ. وقيلَ: ما أنا بِمُغيثِكُمْ، وما أنْتُمْ بِمُغيثِيَّ. وقيلَ: ما أنا بِمانِعِكُمْ، وما أنْتُمْ بِمانِعِي ما نَزَلَ فيَّ. هذا كلُّهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي ما أنا بِمالِكٍ إغاثَتَكُمْ وإنقاذَكُمْ، وما أنتُمْ بمالِكِي إغاثتي، وإلّا لو كانَ لهمْ مُلْكُ ذلكَ لَفَعَلُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي كَفَرْتُ بما أشْرَكْتُموني في عبادَةِ اللهِ وطاعتِهِ، أي[8] كنتُ بذلكَ كافراً، ويَحْتَمِلُ: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ أي تَبَرّأْتُ اليومَ بما أشْرَكْتُموني مَعَ اللهِ في الطاعةِ والعِبادَةِ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: السماع. (٣) من م، في الأصل: ولولا. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: ألا. (٨) من م، في الأصل: أن.

مِنْ قِبَلِ أحدِ التأويلَينِ يَرْجِعُ إلى أنهُ يَتبرَّأُ في ذلكَ اليومِ وقتَ ما قامَ خطيباً، [ومِنَ الثاني: إلى أنهُ تبرَّأ][1] مِنْ ذلكَ في الدنيا وقتَ أشرَكوهُ [لقولِهِ تعالى][2] ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي آذَنُ لهمْ بالدخولِ في الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الإذنُ ههنا كأنهُ الرحمةُ، أي خالِدِينَ فيها برحمةِ ربِّهِمْ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يَحتمِلُ السلامُ الثناءَ، أي يُثْنونَ على ربِّهِمْ كقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ الآية [فاطر: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [يَسلِّمُ بعضُهُمْ][3] على بعضٍ، ويُحيِّي بعضُهُمْ بَعْضاً بالسلامِ.

[وقالَ بعضُهُمْ: السلامُ:][4] هو اسمُ كلِّ خيرٍ ويُمْنٍ وبَرَكَةٍ كما قالَ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ كلمةَ ﴿أَلَمْ﴾ حَرْفُ تَنْبيهٍ عن عَجيبٍ، كانَ بَلَغَهُ، فَغَفَلَ عنهُ، أو تنبيهٌ عنْ عَجيبٍ، كانَ [لم يَبْلُغْهُ][5]. وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: هي كلمةٌ يُفْتَتَحُ بها العربُ عندَ الحاجةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخرَ: ألَمْ تَرَ ما فَعَلَ فلانٌ، ونَحْوُهُ. هذا يَحْتمِلُ في غَيرِهِ مِنَ المَواضِعِ، وأمّا في هذا فإنهُ غيرُ مُحْتَمَلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ قيلَ: بَيَّنَ اللهُ مَثَلاً، وأظْهَرَ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هو القرآنُ، و ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] هي الكُتُبُ التي أحْدَثَها الناسُ؛ شَبَّهَ القرآنَ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وهي النَّخْلَةُ على ما ذُكِرَ، إنْ ثَبَتَ، أو كلُّ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، وشَبَّهَ الكُتُبَ التي أحدَثَها الناسُ بالشَّجَرَةِ الخبيثَةِ، وهي التي لا تُثْمِرُ، وقالَ: إنما شَبَّهَ القرآنَ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ لأنَّ الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ هي باقيةٌ إلى آخِرِ الدَّهْرِ، يَنْتَفِعُ بها الناسُ بِجَميعِ أنواعِ المَنافِعِ، لا يَقْطَعونَها، فهي تدومُ، وتَبْقى دَهْراً. فَعَلَى ذلكَ القرآنُ، يَنْتَفِعُ بِهِ[6] الناسُ، وهو دائمٌ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لها قَرارٌ. فَعَلَى ذلكَ القرآنُ، هو ثابتٌ بالحُجَجِ والبَراهينِ، والكُتُبُ التي أحْدَثَها هؤلاءِ، هي باطِلَةٌ فاسِدَةٌ، لا حُجَّةَ مَعها، ولا بُرْهانَ، كالشَّجَرَةِ الخبيثةِ التي هي غَيرُ مُثْمِرَةٍ، لا بَقاءَ لها، ولا قَرارَ، ولا ثَباتَ.

الآية ٢٥ وقالَ بعضُهُمْ: الكلمةُ الطَّيِّبَةُ هي الإيمانُ والتوحيدُ؛ شَبَّهَها بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وهي التي تُثْمِرُ، وتَنمو، وتزْكو، هي على ما وَصَفَها ﷻ في قولِهِ: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] فَعَلَى [ذلكَ][7] الإيمانُ والتوحيدُ، لا يَزالُ يُثْمِرُ لأهلِهِ الخيراتِ والأعمالَ الصالحةَ كالشَّجَرَةِ التي وَصَفَها أنها ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ وكلَّ وقتٍ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ بالحُجَجِ والبَراهينِ ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في كلِّ وقتٍ يرتَفِعُ، ويَصْعَدُ به العملُ [الصالحُ][8] إلى السماءِ.

والكلمةُ الخَبيثَةُ هي الكُفْرُ، لأنهُ لا مَنْفَعَةَ لأهلِها فيها؛ إذْ لا عاقبةَ لهُ، ولا حُجَّةَ مَعَها، ولا بُرْهانَ، إنما شيءٌ، أخذوهُ عن شَهْوَةٍ وأمانيَّ، فكانَ كالشَّجَرَةِ الخبيثَةِ التي لا ثَمَرَ لها، ولا مَنْفَعَةَ لأحدٍ فيها، فهي لا تَبْقى، ولا تدومُ.

الآية ٢٦ فذلكَ قولُهُ: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ضَرْبُ المَثَلِ بِغَيرِ هذا المَعْنى، وهو أنهُ ذَكَرَ جَواهِرَ طَيِّبَةً وجواهِرَ خَبيثَةً مِمّا تَقَعُ عليها الحواسُّ، ويَقَعُ عليها البَصَرُ، ليكونَ كلُّ جوهرٍ مِنْ هذهِ الجواهِرِ التي تَقَعُ عليها الحواسُّ/ ٢٧٠ ـ ب/ ويَقَعُ عليها البَصَرُ مِنْ خَبيثٍ وطَيِّبٍ دليلاً وشاهداً لِما غابَ عنهمْ، ولا يَقَعُ عليهِ الحِسُّ، تُدْرَكُ بالعقولِ التي رُكِّبَتْ فيهمْ لِيُرَغِّبَ الطَّيِّبُ مِمّا يَقَعُ عليهِ الحِسُّ والبَصَرُ على الموعودِ الغائبِ، ويُحَذِّرَ الخَبيثُ المَحسوسُ عمّا غابَ، وأُوعِدَ.

---

(١) في الأصل وم: والثاني: أني كنت تبرأت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ هذهِ الآلامُ والأمراضُ والشدائدُ التي جَعَلَ في هذهِ الدنيا لِتَزْجُرَهُمْ عنِ الأفعالِ التي بها يَسْتَوجِبونَ مِثْلَها في الآخِرَةِ. وكذلكَ النِّعَمُ التي في الدنيا واللذاتُ جَعَلَها لِتَدُلَّهُمْ علىٰ النِّعَمِ الدائمةِ.

على هذا يَجوزُ أنْ يُخَرَّجَ، لا أنهُ أرادَ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الشَّجَرَةَ نفسَها أو بالشَّجَرَةِ[الخَبيثَةِ الشَّجَرَةَ][1] نفسَها، ولكنْ ما وَصَفْنا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ قائلونَ: ضَرَبَ اللهُ [مَثَلَ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ مَثَلاً للمؤمنِ][2] هو في الأرضِ، وعَمَلُهُ يَصْعَدُ في السماءِ كلَّ يومٍ. فكما تُؤتي الشَّجَرَةُ أُكُلَها كلَّ حينٍ كذلكَ المؤمنُ يَعْمَلُ للهِ في ساعاتِ الليلِ والنهارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قالَ قائلونَ: كلَّ عامٍ لأنها تُثْمِرُ في كلِّ عامٍ مَرَّةً. وقالَ قائلونَ:[كلَّ][3] سِتَّةِ أشهرٍ مِنْ وَقْتِ طُلوعِها إلى وَقْتِ إدراكِها. وقالَ قائلونَ: كلَّ عشيَّةٍ وغَدْوَةٍ كقولِهِ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقالَ قائلونَ: [كلَّ][4] شهرَينِ وأمثالَها[5].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ في وَقْتٍ دونَ وَقْتٍ، ولكنَّهُ الأوقاتُ كلُّها: في كلِّ وَقْتٍ وكلِّ ساعةٍ.

فإنْ قالَ لنا مُلْحِدِيٌّ: إنَّ الكلمةَ التي ضَرَبَ اللهُ مَثَلَها بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ كَلِمَتُنا، ونحنُ المُرادُ بذلكَ، والكلمةَ الخَبيثَةَ التي ضَرَبَ اللهُ مثلَها بالشَّجَرَةِ الخبيثةِ، هي كَلِمَتُكُمْ، وأنتمُ المُرادُ بها، لا نحنُ، قيلَ: قد سَبَقَ لهذا المَثَلِ أمثالٌ ودلائلُ:

أحدُها[6]: أنَّ الكلمةَ الطَّيِّبَةَ، هي التي لها عاقِبَةٌ وآخِرَةٌ، وكلَّ أمرٍ، لهُ العاقِبَةُ[7] والنظرُ في آخِرِهِ، هو[8] الحقُّ، والذي أنتمْ عليهِ، لا عاقِبَةَ لهُ، ولا آخِرَةَ، وفي[9] الحكمةِ أنَّ كلَّ أمرٍ، لا عاقبةَ لهُ، هو[10] باطلٌ، والكُفْرُ، لا عاقِبَةَ [لهُ][11].

والثاني: أنَّ الإيمانَ والتوحيدَ، لهُ الحُجَجُ والدلائلُ، والكُفْرَ ممّا لا حجَّةَ لهُ، ولا دلائلَ، إنما هو مأخوذٌ بالأمانيِّ والشَّهْوَةِ مِنْ تَسْويلِ الشيطانِ وتَزْيِينِهِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

والثالثُ[12]: تَحتمِلُ الكلمةُ الطَّيِّبَةُ أيضاً أنْ يكونَ الوَحْيُ الذي أوحَى اللهُ إلى رسولِهِ، والكلمةُ الخَبيثةُ ما أوحَى الشيطانُ إليهمْ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١] فَوَحْيُ اللهِ، هو ثابتٌ دائمٌ، يَنْتَفِعُ بِهِ أهلُهُ في الدنيا والعاقبةِ، وَوَحْيُ الشيطانِ هو باطلٌ مُضْمَحِلٌّ، لا عاقبةَ لهُ، ولا يَنْتَفِعُ [بهِ][13] أهلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اسْتُؤصِلَتْ، وقيلَ: انْتُزِعَتْ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: اقْتُلِعَتْ مِنْ أصْلِها؛ يُقالُ: جَثَثْتُ الشَّجَرَةَ، أجُثُّها جَثّاً، إذا قَلَعْتُها مِنْ أصلِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: هو ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: شَبَّهَ كلمةَ الشِّرْكِ بِحَنْظَلَةٍ، قُطِعَتْ، فلا أصْلَ لَها في الأرضِ، ولا فَرْعَ لَها في السماءِ، أي لا يَصْعَدُ لَهُ عَمَلٌ ولا حَمْدٌ، وشَبَّهَ كلمةَ الإيمانِ في نَفْعِها وفَضْلِها وثَباتِها وقَرارِها في الأرضِ بما ذَكَرَ مِنَ الشجرةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ بهذا المَثَلِ في خَلْقِ الإيمانِ والكُفْرِ، فقالَ: لأنهُ ضَرَبَ مَثَلَهُ بما هو خَلْقٌ، وهو الشجرةُ، فَعَلَى ذلكَ الإيمانُ.

ولكنْ عندَنا: لا بهذا يَجِبُ أنْ اسْتَدِلَّ[14] في خَلْقِهِ، ولكنْ لأُثْبِتَ أنَّ شَبَهَهُما واحدٌ؛ لأنهُ لو كانَ شَبَهُهُما مُخْتَلِفاً لَكانَ لا يَضْرِبُ مَثَلَ هذا بهذا ولا هذا بهذا. فإذا ضَرَبَ دَلَّ أنَّ شَبَهَهُما واحدٌ. فإذا ثَبَتَ ذلكَ دلَّ ما وَصَفْنا.

ومِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذا: أنهُ يزدادُ، ويَنْقُصُ حينَ[15] شَبَّهَهُ بالشجرةِ، وهي تزدادُ، وتَنْقُصُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: مثلاً للمؤمنين، في م: مثل الشجرة الطيبة مثلاً للمؤمنين. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: على. (٧) في الأصل وم: عاقبة. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فهو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: يستدل. (١٥) في الأصل وم: حيث.

ونحنُ نقولُ: ليسَ فيهِ دلالةُ ما ذَكَرُوا، لأنَّ الشجرةَ في نَفْسِها، ليسَتْ بذي حَدٍّ، والإيمانُ ذو حَدٍّ، فما يزدادُ هو [في][1] حقِّ التَّزيينِ والتَّحْسينِ، وأما الإيمانُ نفسُهُ فإنهُ لا يزدادُ كالشجرةِ، إذا أورقَتْ[2]، وخرجتْ ثمارُها، تُوصَفُ بالزينةِ والحُسْنِ، فأمّا نفسُ الشجرةِ فلا تُوصَفُ بالزيادةِ، فَعَلَى ذلكَ الإيمانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ يُبيِّنُ اللهُ الأمثالَ التي يَقَعُ عليها الحسُّ، ويَقَعُ عليها البَصَرُ، والأشياءَ الظاهرةَ، لِيَدُلَّهُمْ على ما اسْتَتَرَ، وغابَ عنهمْ؛ يُدْرِكونَ بالعقولِ ما اسْتَتَرَ، وخَفِيَ، بالظاهرِ والمحسوسِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لَعَلَّهُمْ يتَّعِظونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمةُ الطَّيِّبَةُ تَحْتَمِلُ التوحيدَ، وفُرُوعُها، هي الخوفُ والخُشوعُ والخضوعُ والرغبةُ، وأُكُلُها، هي[3] الأعمالُ الصالحةُ، والخَيراتُ، تكونُ منهُ. [والكلمةُ الخَبيثةُ، هي الشِّرْكُ، وفُرُوعُها ما يكونُ مِنَ][4] الشركِ مِنَ الفَسادِ والتَّمَرُّدِ والعِنادِ، وأُكُلُها هي[5] الأعمالُ التي تكونُ مِنَ الشِّرْكِ.

أو أنْ تكونَ الكلمةُ الطَّيِّبَةُ هي الإيمانَ وفُرُوعُها هي الشرائعَ والأحكامَ التي تُعْمَلُ، وأُكُلُها، هي[6] ما يُثابُ عليهِ في الدنيا والآخِرةِ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ذَكَرَ[الإيمانَ][7] مرةً بالتَّثبيتِ ومرَّةً بِذِكْرِ الزيادةِ كقولِهِ[8] ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ومرَّةً بِذِكْرِ الابْتِداءِ والتجديدِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] وقولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالتجديدُ والابْتِداءُ في حادثِ الوقتِ لأنَّ الأفعالَ، تَنْقُصُ، وتَذْهَبُ، ولا تَبْقَى. وأمّا الزيادةُ [فهي][9] على ما كانَ، وكلُّهُ واحدٌ في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أضافَ الإضلالَ مَرَّةً إلى نفسِهِ، ومَرَّةً إلى الشيطانِ، ولا شَكَّ أنَّ ما أُضيفَ إلى الشيطانِ إنما أُضيفَ على الذَّمِّ. فإذا كانَ ما ذَكَرَ فتكونُ الجهةُ التي أُضيفَتْ إلى اللهِ غيرَ الجهةِ التي أُضيفَتْ إلى الشيطانِ. فالجهةُ[10] التي أُضيفتْ إلى اللهِ، هي أنْ خَلْقَ فِعْلِ الضَّلالِ مِنَ الكافرِ، وما أُضيفَ إلى الشيطانِ، هو على التزيينِ والتَّسْويلِ لِتَصِحَّ الإضافتانِ.

ولو كانَ على التسميةِ على ما يقولُ المُعْتَزِلَةُ: [إنه سَمّاهُ][11] ضالًا لكانَ كلُّ مَنْ سَمّى آخَرَ ضالًا كافراً، جازَ أنْ يُسَمّى مُضِلّاً، فإذا لم يُسَمَّ بِتَسْمِيَتِهِ ضالّاً أو كافراً مُضِلّاً دلَّ أنهُ إنما سَمّى اللهُ نفسَهُ مُضِلّاً لِتَحْقيقِ الفِعْلِ فيهِ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ فِعْلَ الضَّلالِ منهُ. والمُعْتَزِلَةُ يقولونَ: إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ جميعاً، لكنهُمْ لم يَهْتَدوا، وضَلُّوا، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ اللهُ أضَلَّهُمْ. فهذا صَرْفُ ظاهرِ الآيةِ إلى غَيرِهِ بلا دليلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: لا يَقْدِرُ أنْ يَفْعَلَ ما يَشاءُ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ شاءَ إيمانَ جميعِ البَشَرِ، لكنهُمْ لم يؤمِنوا، وكذلكَ قالَ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و. . .] وهُمْ يقولونَ: أرادَ إيمانَهُمْ [لكنهمْ لم يَفْعَلوا][12] ما أرادَ، ولا يَمْلِكُ، وقد أخبَرَ أنهُ أرادَ [بقولِهِ][13]: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هناكَ وقولِهِ ههنا ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾][14] وهمْ يقولونَ: لم يَمْلِكْ [أنْ يفعَلوا ما شاءَ، و][15] أرادَ، بلِ العبادُ يَفْعَلونَ ما شاؤوا[16] غيرَ ما شاءَ هو. فتأويلُهُمْ خِلافُ ظاهرِ القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] على تأويلِ مَنْ يقولُ: إنَّ الكلمةَ/ ٢٧١ ـ أ/ الطَّيِّبَةَ هي الإيمانُ[17]، ويكونُ القولُ الثابِتُ هو القرآنَ. .

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تورقت. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقولُهُ. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: أن سماها ، في م: أن سماه. (١٢) في الأصل وم: لكنه لم يفعل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: ولما يشاء. (١٥) في الأصل: أن يفعل ما شاؤوا، في م: ما شاء و. (١٦) في الأصل وم: شاء. (١٧) في الأصل وم: القرآن.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حينَ[1] تَلَقَّوهُ بالإجابةِ والقَبولِ والعملِ بهِ ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي بالآخِرةِ والبَعْثِ يُقِرُّونَ بهِ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حينَ[2] تَركوا الإجابةَ، وتَلقَّوهُ بالرَّدِّ والمُكابَرةِ والعِنادِ.

ومَنْ يقولُ: الكلمةُ الطَّيِّبَةُ التوحيدُ، فيكونُ[3] القولُ الثابتُ هو الإيمانَ، يُثَبِّتُهُمْ في الحياةِ الدنيا باختيارِهِمْ. وفي الآخِرَةِ: قيلَ: في قبورِهِمْ يُثَبِّتُهُمْ لإجابةِ مُنْكَرٍ ونكيرٍ، ويُمَكِّنُ لهمْ ذلكَ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذينَ تَرَكوا الإجابةَ لهُ في الحياةِ الدنيا وفي القبورِ حينَ[4] تَرَكوا الإجابةَ في الدنيا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو ما ذَكَرَ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] يُثَبِّتُ مَنْ أجابَ اللهَ إلى ما دعا في الدنيا، وفي الآخِرَةِ يَهْديهِ الطريقَ الذي بهِ يُوصَلُ إلى دارِ السلامِ [والكافرُ حينَ تَرَكَ إجابتَهُ إلى ما دعاهُ، يُضِلُّهُ في الآخِرَةِ طريقَ دارِ السلامِ][5] بتركِ إجابتِهِ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ في هدايةِ مَنِ اخْتارَ الإجابةَ والاهْتِداءَ[وفي إضلالِ][6] مَنِ اخْتارَ تَرْكَ الإجابةِ والغَوايةَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ اخْتُلِفَ في نُزولِهِ: قالَ بعضُهُمْ: هذهِ السورةُ كلُّها نزلَتْ بمكةَ إلّا هذهِ الآيةَ، فإنها نزلَتْ بالمدينةِ، قالَ بعضُهُمْ: نزلَتْ بمكةَ كلُّها.

الآية ٢٩ فَمَنْ [يقولُ:][7] نزلتْ بالمدينةِ يقولُ: قولُهُ ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ ﴿جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ٢٨و٢٩] هو بَدْرٌ، أي حَمَلوهُمْ إلى بَدْرٍ حتى قُتِلوا، لأنهُ لم يكنْ بمكةَ بَدْرٌ، إنما كانَ بالمدينةِ. ومَنْ يقولُ: نَزَلَتْ بمكةَ يقولُ: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ هي جَهَنَّمُ على ما فَسَّرَهُ ظاهرُ الكتابِ، وهو الأشبهُ بظاهرِ الآيةِ، لأنهُ بَيَّنَ تلكَ الدارَ، فقالَ: ﴿جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ٢٩].

وفي الآيةِ دلالةُ أنَّ الآيةَ في عُظمائِهِمْ وكُبَرائِهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الآية.

ثم اخْتُلِفَ في النعمةِ التي ذَكَرَ أنهمْ بَدَّلوها كُفراً[فهي تَحتَمِلُ وجهَينِ][9]:

أحدُهُما: أنَّ اللهَ ﷻ قد أنْعَمَ عليهِمْ في هذهِ الدنيا؛ وَوَسَّعَها عليهِمْ، فَحَرَّموا تلكَ النِّعَمَ على أنفسِهِمْ، فَجَعَلُوها للأصنامِ التي عَبَدُوها، وسَيَّبُوها، ولم يَنْتَفِعُوا بها مِنْ نَحْوِ البَحيرةِ التي ذَكَرُوا والسائبةِ والوصيلةِ والحامي. وما جَعَلُوا للأصنامِ هو ما ذَكَرَ: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] فذلكَ تبديلُ النعمةِ كُفراً حينَ[10] حَرَّموا ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ كُفراً، وأحَلَّ لهمْ.

والثاني: تلكَ النعمةُ محمدٌ أوِ القرآنُ أوِ الإسلامُ[وهي نِعْمَةٌ كَذَّبوها][11] أو أنْ يكونوا بَدَّلوا الشكرَ الذي عليهِمْ بما أنعمَ عليهِمْ كُفراً، جَعَلُوها سَبَباً لِلْكُفْرِ، فلم يَشْكُرُوهُ بما أنْعَمَ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ حقيقةٌ تَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: بَدَّلُوا، وصَرَفُوا ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ، وهو محمدٌ ﷺ عنْ أنفسِهِمْ حتى أُخِذَ منهُمْ، بَدَّلُوا بهِ كُفْراً.

والثاني: بَدَّلُوا بهِ كُفراً، بَعْدَما سَأَلُوا رَبَّهُمْ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] فلم يَشْكُرُوا ما أنْعَمَ عليهِمْ، وبَدَّلُوا الشُّكرَ كُفْراً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: والإضلال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فهو يحتمل وجوهاً. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: وهو نعمة كذبوهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي أنزلوا. دَلَّ هذا أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الرُّؤساءِ مِنَ الكَفَرَةِ والأئِمَّةِ منهُمْ حينَ[1] أخبرَ أنهمْ أحلُّوا قومَهُمْ دارَ البَوارِ. ذَكَرَ: أحَلُّوا قومَهُمْ على الماضي لأنهُ قد وَجَدَ منهُمُ الجنايَةَ بالإحلالِ في دارِ البَوارِ، وذَكَرَ في دخولِهِمْ جَهَنَّمَ على الائتِنافِ بقولِهِ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لِما لم يوجَدْ بَعْدُ، سَيوجَدُ.

ويجوزُ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذا لأصحابِنا لِمَسْأَلَةٍ، وهو أنَّ العبدَ إذا حَفَرَ بئراً، ثم أُعْتِقَ، فوقَعَ في البِئْرِ إنسانٌ، يُنْظَرُ في قيمةِ العَبْدِ يومَ حَفَرَ، لأنَّ الحَفْرَ منهُ جنايةٌ، وإلى الواقِعِ فيهِ يومَ الوقوعِ لا يومَ الحَفْرِ، لأنهُ لم يوجَدْ بَعْدَ يومِ الحَفْرِ جِنايَةٌ.

او أنْ يُقالَ: احَلّوا أرواحَهُمْ دارَ البَوارِ: فتَدْخُلُ أجسادُهُمْ يومئذٍ، لم تدخُلْ [أرواحُهُمْ][2] بَعْدُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ثم فَسَّرَ أنهمْ لِمَ أحَلُّوا[3] قومَهُمْ دارَ البَوارِ، فقالَ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أعدالاً وأمثالاً ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ في العبادةِ، يَعْبدُونها[4] كما يُعْبَدُ اللهُ [أو][5] في التسميةِ، يُسَمُّونها آلهةً كما يُسَمَّى اللهُ[جَعَلُوا للهِ][6] أنداداً. في هذينِ الوجهَينِ يذكُرُ سَفَهَهُمْ حينَ[7] جعلوا ما لا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، ولا يَنْفَعُ، ولا يَدْفَعُ، ولا يَضُرُّ، أمثالاً وأعدالاً ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَهُمْ، وَرَزَقَهُمْ، ويُنْعِمُ عليهِمْ، وهو الذي يدفَعُ عنهمْ كلَّ بلاءٍ وشِدَّةٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ هو تفسيرَ ما ذُكِرَ مِنْ تَبْديلِ النعمةِ كُفْراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ بهذهِ النِّعَمِ التي ذَكَرَ أنهمْ بَدَّلوها كُفْراً ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا في قومٍ، ماتوا على الكُفْرِ، أو[8] يقولُ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ في الدنيا، أي تَمَتَّعوا بالكُفْرِ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً. وفيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ.

وقالَ أبو عرسَجَةَ: البَوارُ الهلاكُ والفَناءُ؛ يُقالُ: بارَ الرجلُ يَبورُ بَوراً، فهو بايِرٌ، وقومٌ بُورٌ، أي هالِكونَ، ويُقالُ: بارَتِ السوقُ، وبارَتِ السِّلْعَةُ إذا كَسَدَتْ، ويُقالُ: بارَتِ المرأةُ تَبورُ بَوراً، فهيَ بائرةٌ إذا كَبِرَتْ.

وفي حديثِ النَّبِيِّ ﷺ «نَعوذُ باللهِ مِنْ بَوارِ الأيِّمِ» [عزاه زغلول في موسوعته إلى مسند الربيع بن حبيب ٢/ ٣٠] قيلَ: يعني مِنْ كَسادِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ إقامةَ الإيمانِ بها كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو إقامةُ الإيمانِ بها؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ الحبسَ إلى أنْ يُقيموا إقامةَ الفِعْلِ والوفاءِ؛ إذْ في ذلكَ حبسُهُمْ أبداً. ويَحْتَمِلُ إقامةَ الوفاءِ بها والفعلِ لأنهُ إنما خاطبَ المؤمِنينَ على إقامتِها، وقد سَبَقَ منهم ما ذَكَرْنا مِنَ الإيمانِ بها.

قيلَ: هذا جائزٌ [إذْ][9] يأمرُهُمْ بإقامةِ الإيمانِ بها في حادثِ الوَقْتِ؛ إذْ للإيمانِ حُكْمُ التَّجَدُّدِ في كلِّ وَقْتٍ، وهو كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] أي آمِنوا بِحادثِ[10] الوقتِ.

فَعَلى ذلكَ، هذا مُحْتَمَلُ الأمْرِ بإقامَتِها إقامةَ الإيمانِ بها. ويَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ إقامةِ الصلاةِ في الآيةِ والإنفاقِ[إقامةِ الصلاةِ وأداءِ الزكاةِ][11] والإدامةَ لهما واللزومَ بهما. ويَحْتَمِلُ القَبولَ والوفاءَ بهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ قالَ الحَسَنُ: الأمْرُ بالإنفاقِ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الزكاةُ المفروضةُ.

الا تَرى أنهُ ذَكَرَ الوعيدَ في الآخِرَةِ، وقالَ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: أمنوا. (٤) في الأصل وم: يعبدون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: جعلوه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: بالله. (١١) في الأصل وم: هي الصلاة المفروضة.

ولا يَحْتَمِلُ الوعيدَ في صَدَقاتِ التطوعِ، وهو ما ذَكَرَ أيضاً في آيةِ أخرى ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠] ولا يَحْتَمِلُ طَلَبَ الرجوعِ والتأخيرِ إلى أجلٍ في النوافلِ. دلَّ أنهُ أرادَ بِهِ الزكَواتِ المَفروضاتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا﴾ هي التَّطَوُّعُ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ الفريضةُ، لأنَّ الفريضةَ لابُدَّ مِنْ أنْ تَظْهَرَ، وتُعْلَنَ، وليسَ في أدائِها رياءٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي يومٌ لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَبيعَ نفسَهُ مِنْ ربِّهِ [وفي الدنيا يَقدِرُ أنْ يَبيعَ نفسَهُ مِنْ ربهِ][1] كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ لا يَقْدِرُ أحدٌ بَيْعَ نفسِهِ مِنْ رَبِّهِ[فيهِ][2]. ويَحتمِلُ ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي لا يَنفَعُهُ بَيْعُ نفسِهِ منهُ في ذلكَ اليومِ، وإنْ باعَ كقولِهِ تعالى:/ ٢٧١ - ب/ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤و٨٥] فَعلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ هو مَصْدَرُ خالَلْتُ، وهو مِنَ الخِلَّةِ والصداقةِ. ثم هو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أي لا تَنْفَعُهُمُ الخِلَّةُ التي كانَتْ بينَهُمْ في الدنيا، لأنَّ كلَّ خِلَّةٍ كانَتْ في الدنيا ممّا ليسَتْ للهِ فهي تَصيرُ عداوةً في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ الآية [الزخرف: ٦٧] أخبَرَ أنَّ الأخلّاءَ الذينَ كانوا يُخالُّونَ في الدنيا للدنيا فهمُ الأعداءُ إلّا الخِلَّةُ التي كانَتْ للهِ فهي تَنفَعُ أهلَها، وهو ما ذَكَرَ ﷺ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وأمثالُهُ؛ يُخْبِرُ أنَّ الخِلَّةَ التي كانَتْ بينَهُمْ في الدنيا، لا للهِ، فهي تصيرُ عداوةً في الآخِرَةِ حتى يَتَبَرَّأَ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والثاني: أي يكونُ لهمْ شُفَعاءُ وأخِلّاءُ، ولكنْ لا يَشْفَعونَ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] أو يَشفَعونَ[3] لهمْ، لكنْ لا تُقْبَلُ [شفاعَتُهُمْ][4] كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

الآيتان ٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دلالةٌ أنَّ تدبيرَ اللهِ[مُتَّسِقٌ مُحيطٌ][5] بجميعِ ما في السمواتِ والأرضِ، وعلمَهُ مُحيطٌ بجميعِ الخلائقِ حينَ[6] ذكَرَ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني البَشَرَ. جعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ الأرضِ مَعَ بُعْدِ ما بينَهما.

دلَّ أنهُ عَنْ تدبيرِ فَعَلَ هذا وعِلْمٍ، وأنهُ تدبيرُ واحدٍ عليمٍ قديرٍ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ السمواتِ والأرضِ مَعَ شِدَّةِ السماءِ وصلابتِها وغِلَظِ الأرضِ وكثافَتِها، وتَسخيرِ البحرِ مَعَ أهوالِهِ وأمواجِهِ[وتَسْخيرِ الأنهارِ الجاريةِ][7] وتسخيرِ الشمسِ والقَمَرِ والليلِ والنهارِ لهذا البَشَرِ في ذلكَ كلِّهِ وجهانِ:

أحدُهُما: يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنَ المَنافِعِ التي جَعَلَ لهمْ في تَسْخيرِ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ لهمْ على جَهْلِ هذهِ الأشياءِ أنهنَّ مُسَخَّراتٌ لِغَيرِهم لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَها.

والثاني: يَذْكُرُ سُلْطانَهُ وقُدْرَتَهُ حينَ[8] سَخَّرَ هذهِ الأشياءَ مَعَ شِدَّتِها وصلابَتِها وغِلَظِها وأهوالِها. ومَنْ قَدَرَ على تَسْخيرِ ما ذَكَرَ [فهو][9] قادرٌ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الأشياءِ التي ذَكَرَ[أمْرَينِ:

أحَدُهُما][10]: أنهُ أنشأ هذهِ الأشياءَ مُسَخَّرَةً مُذَلَّلَةً لنا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يشفع. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: محيط متسق. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: [أنهُ][1] سخَّرَ لنا، أي علَّمنا مِنَ الأسبابِ والحِيَلِ التي تتهيأُ لنا الإنتِفاعَ بها والتسخيرَ.

الآية ٣٤ وقولهُ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ فيهِ لُغتانِ وتأويلانِ:

[أحدُهما: ما][2] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن﴾ كُلٍّ[3] على التنوينِ ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ على الجَحْدِ، أي أتاكُمْ مِنْ غيرِ أنْ سألتُمُ الأشياءَ التي ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لنا، أي آتاكُمْ مِنْ غيرِ سؤالٍ ولا طِلْبَةٍ.

والثاني: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وما لم تَسألوهُ، لأنهُ أعطانا أشياءَ قَبلَ أنْ نَعْلَمَ أنهُ يجبُ أنْ نَسألَ حينَ[4] خَلَقَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَ مِنْ قَبلِ أنْ يَخْلُقَنا.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قالَ: ما لم تَسألوهُ، وهو ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنا نَسألُ أشياءَ لم نُعْطَها، فما مَعْنَى الآيةِ؟ قيلَ بوجوهٍ:

أحدُها: ذِكْرُ حرفِ التبعيضِ، وهو ما قالَ: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾.

والثاني: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ عِلْمَ ما سألتُموهُ قَبلَ أنْ تَسألوا وجِهَةَ عِلْمِ الإنتِفاعِ بهِ.

والثالثُ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَحِقُّ السؤالُ، ويَليقُ بهِ.

على هذهِ الوجوهِ تُخَرَّجُ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ أي لا تَشكُروها، أي لا تَقدِروا شُكْرَها.

وقالَ بعضُهُمْ: أي لا تَقْدِروا إحصاءَها وعَدَدَها. وهكذا أنَّ أقلَّ الناسِ نِعْمَةً، لو تَكَلَّفَ إحصاءَ ما أعطاهُ اللهُ ﷻ ما قَدَرَ عليهِ مِنْ حُسْنِ الجَوهرِ والصورةِ واستِقامةِ التركيبِ والبُنْيَةِ وسلامةِ الجوارحِ وغيرِ ذلكَ ممّا لا سَبيلَ لهُ في[5] ذِكْرِها وإحصائِها إلّا بَعْدَ طولِ التَّفَكُّرِ والنظرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تُحيطوا بِكُنْهِها ونهايتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿لَظَلُومٌ﴾ أي ظَلَمَ نفسَهُ حينَ[6] صَرَفَها إلى غيرِ الجِهَةِ التي جُعِلَتْ، وأُمِرَ[بالصَّرْفِ إليها][7] وأدخَلَها في المهالكِ، وألقاها في التَّهْلُكَةِ. ﴿كَفَّارٌ﴾ لِنِعَمِهِ حينَ[8] صَرَفَ شُكْرَها إلى الغيرِ الذي[جَعَلَهُ إلهاً][9] واللهُ أعلَمُ.

واستَدَلَّ بعضُ المعتزلةِ بقولِهِ: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١] إنَّ صاحبَ الكبيرةِ يُخَلَّدُ في النارِ، لأنهُ أوْعَدَ بتركِ الصلاةِ والزكاةِ التخليدَ أبداً، وتركُ الصلاةِ والزكاةِ مِنْ غيرِ عُذْرٍ مِنَ الكبائرِ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرَ.

فنقولُ نحنُ، وباللهِ التوفيقُ: إنَّ الآيةَ تَحتَمِلُ الأمرَ بإقامةِ الصلاةِ وما ذَكَرَ مِنَ الزكاةِ والصدقةِ إقامةَ الإيمانِ بها على ما ذَكَرْنا مِنْ تأويلِ بَعْضِ المُتَأَوِّلينَ. فإنْ كانَ على هذا على إقامةِ الإيمانِ بها، فَمَنْ تَرَكَ ذلكَ فهو يُخَلَّدُ أبداً، لا شَكَّ فيهِ، أو أنْ يكونَ مَنِ استَحَلَّ تَرْكَها، فهو بالإستِحلالِ يَكْفُرُ، فهو يُخَلَّدُ، ومَنْ[10] يَتْرُكُها لِعُذْرٍ فهو لا يُخَلَّدُ على اتّفاقِ القولِ. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا مُحْتَمَلاً دلَّ أن الآيةَ مَخصوصَةٌ.

ثم معرفةُ تخليدِ صاحبِ الكبيرةِ إنما هي بالدلائلِ سِوَى هذا؛ إذْ ليسَ في ظاهرِ الآيةِ دلالةُ التخليدِ لِما ذَكَرْنا مِنِ احتِمالِ الخصوصِ. دلَّ أنهُ إنما يُطْلَبُ الدليلُ مِنْ وجهٍ آخَرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٢٣٨. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إلى ما. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: جعلها له. (١٠) في الأصل وم: أو.

قالَ القتبيُّ: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ خِلالٌ: مَصْدَرُ خالَلْتَ فلاناً خِلالاً ومُخالَّةً، والإسْمُ الخِلَّةُ والمَخلَّةُ، وهي الصداقةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قالَ مِنَ المُخالَّةِ، يعني المَوَدَّةَ ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ قالَ: يَجرِيانِ أبداً، وهو مِنَ الدَّوبِ أي مِنَ التَّعَبِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي مَأمناً، سَمَّى آمِناً لِما يأمَنُ الخَلْقُ فيهِ كما سَمّى النهارَ مُبْصِراً[1] والنهارُ، لا يُبْصِرُ، ولكنْ يُبْصَرُ فيهِ، ومِثلُهُ كثيرٌ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [ما][2] قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما طَلَبَ إبراهيمُ أنْ يَجْعَلَهُ آمِناً على أهلِهِ وَوَلَدِهِ خاصَّةً لا على الناسِ كافَّةً[لئلا تُسْفَكَ][3] فيهِ الدماءُ، وتُهْتَكَ[4] فيهِ الحُرَمُ. دلَّ أنهُ جَعَلَهُ آمِناً على أهلِهِ وَوَلَدِهِ خاصَّةً.

ولكنْ لو كانَ ما ذَكَرُوا مُحتَمِلاً ما يُصْنَعُ بقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ الآية [العنكبوت:٦٧] وقولِهِ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥] وغيرِها[5] مِنَ الآياتِ؟ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ تلكَ البُقْعَةَ مَأمناً لِلْخَلْقِ، يأمَنونَ فيها. ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: جَعَلَهُ آمِناً بِحَقِّ الإبتِلاءِ والإمْتِحانِ، ألْزَمَ الخَلْقَ حِفْظَ تلكَ البقعةِ عنْ سَفْكِ الدماءِ فيها وهَتْكِ الحُرَمِ وغَيرِها مِنَ المَعاصي، وإنْ كانوا ضَيَّعوا ذلكَ، وعَمِلوا فيها ما لا يَصْلُحُ كالمساجِدِ التي بُنِيَتْ لِلْعبادةِ وإقامةِ الخَيراتِ، ألْزَمَ [على][6] أهلِها وعلى جميعِ الخَلائقِ حِفظَها عنْ إدخالِ مالا يَصْلُحُ، ولا يَحِلُّ. ثم إنَّ الناسَ قد ضَيَّعوا ذلكَ، وعَمِلوا فيها ما لا يَليقُ بها، ولا يَصْلُحُ. فَعَلَى ذلكَ الحَرَمُ الذي أخبَرَ أنهُ جَعَلَهُ مَأمناً.

[والثاني: جَعَلَهُ مَأمناً][7] بالخِلْقةِ مِنْ ذا الوجهِ، [ولا][8] يجوزُ أنْ يُقالَ: كيفَ سُفِكَ فيهِ الدماءُ؟ وهُتِكَ فيهِ الحُرَمُ؟ وهو بالخِلْقَةِ جَعَلَهُ مَأمناً. قيلَ: يجوزُ هذا بِحَقِّ العقوبَةِ، وإنْ كانَ آمِناً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية[النساء:١٦٠] الطَّيِّباتُ بالخِلْقَةِ حلالٌ، لكنهُ [حَرَّمَ][9] عليهِمْ ذلكَ بالظُّلْمِ الذي كانَ منهُمْ بِحَقِّ العقوبةِ والانْتِقامِ. فَعَلَى ذلكَ الحَرَمُ، جَعَلَهُ مَأمناً بالخِلْقَةِ.

ثم قيلَ: فيهِ عقوبةٌ لِما كانَ منهُمْ مِنَ المَعاصي/ ٢٧٢ - أ/ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآية. فإنْ قيلَ: كيفَ دَعَا، وطَلَبَ منهُ العِصْمَةَ، وقد عَصَمَهُ بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ، واختارَهما عنْ ذلكَ كلِّهِ؟ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما سأَلَ عِصْمَةَ وَلَدِهِ وذُرِّيَّتِهِ لِما عَلِمَ أنَّ ذُرِّيَّتَهُ قد يَختَلِفونَ في دينِ اللهِ وتوحيدِهِ، وإنهُ[10] ذكرَ نَفْسَهُ لِما المَعروفُ أنَّ مَنْ دَعا لآخَرَ بَدَأَ بنفسِهِ.

قالتِ المعتزلةُ: [دَعْوةُ إبراهيمَ رَبَّهُ][11]، وطلبُ العصمةِ ممّا ذَكَرَ يَدُلُّ أنهُ قد يجوزُ أنْ يُدْعَى بِدَعْواتِ عِبادَةٍ، وإنْ كانَ قد أعطاهُ ذلكَ، أو يَعْلَمُ أنهُ مَغْفورٌ[لهُ][12]. قيلَ: دَعْوةُ إبراهيمَ وغَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﷺ يجوزُ أنْ تكونَ عِصْمَتُهُمْ [بأنْ كانَتْ مقرونةً بما طلبوا][13] منهُ، وسَألوهُ، وتَضَرَّعوا إليهِ، إذْ معلومٌ أنهمْ لم يَسْتَفيدوا تلكَ العصمةَ بإهمالِهِمْ أنفسَهُمْ وتركِهِمْ إياها سُدىً، بل إنما وَجَبَ لهمْ ذلكَ بما أجْهَدوا أنفسَهُمْ في طاعةِ اللهِ.

ثم الآيةُ على المُعتَزِلةِ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ إبراهيمَ طَلَبَ منهُ العصمةَ عنْ عِبادةِ الأصنامِ، وهو [على][14] علم أنهُ يَعْتَصِمُ إذا عَصَمَهُ عنْ ذلكَ، ويَهْتَدي إذا هداهُ. وهُمْ يقولونَ: اللهُ يَعْصِمُ، ولا يَعْتَصِمُ العبدُ، ويَهْدي، ولا يَهْتَدي العَبدُ، ويقولونَ: إذا أعطى أحداً[15] ذلكَ خَرَجَ ذلكَ مِنْ يَدِهِ، أو[16] لا يملكُ إعطاءَ ذلكَ.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧و..]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إذ قد سفك. (٤) في الأصل وم: وسفك. (٥) في الأصل وم: وغيره. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وما. (١١) في الأصل وم: دعا إبراهيم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كانت مقرونة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أخذ. (١٦) في الأصل وم: و.

فَعلَى قولِهِمْ تَخرُجُ دعواتُ الرسلِ على الهُزءِ أو على الكِتْمانِ؛ لأنَّ مَنْ سَألَ مِنْ آخرَ شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ ليسَ ذلكَ عندَهُ، فهو هُزءٌ، أو سَألَ، وهو يَعْلَمُ أنهُ قد أعطاهُ ذلكَ، فهو كتمانٌ.

والثاني[1]: كانَ خوفُ الأنبياءِ والرسلِ والكُبَراءِ مِنَ الخَلْقِ أشَدَّ وأكثَرَ على دينِهِمْ والزَّيْغِ عمّا هُمْ عليهِ لمَا خافوا أنْ يكونوا عندَ اللهِ على غَيرِ ما هو عندَ أنفُسِهِمْ. كانوا أبداً وَجِلِينَ خائفِينَ على سَلْبِ ما هُمْ عليهِ.

وهكذا الواجبُ أنْ يكونَ الخوفُ على مَنْ نِعَمُهُ أكثرُ، فَخَوفُهُ أشَدُّ.

فقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ أي باعِدْني، وجَنِّبْني أيضاً. وقالَ القُتَبِيُّ: أي جنِّبْني وإيّاهُمْ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ نَسَبَ الإضلالَ إلى الأصنامِ، وإنْ لم يكُنْ لها صُنْعٌ في الإضلالِ لأنهمْ بها ضَلُّوا، وكانَتِ الأصنامُ سَبَبَ إضلالِهِمْ. وقد تُنْسَبُ الأشياءُ إلى الأسبابِ، وإنْ لم يكُنْ للأسبابِ صُنْعٌ فيها نَحْوَ ما ذكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والسورةُ لا تزيدُهُمْ رِجساً، لكنْ يُنْسَبُ الرِّجْسُ إليها لِما كانَتْ هي سَبَبَ زيادةِ رِجْسِهِمْ، وهو أنها لمّا نزلَتْ[ازْدادوا هُمْ بها][2] تكذيباً وكفراً بها، فنسبَ ذلكَ إليها.

فَعلَى ذلكَ الأوّلُ والثاني: تُنْسَبُ الأحوالُ التي كانَتْ بها ما لو كانَتْ تلكَ بِذَواتِ الأرواحِ لَكانَتْ تُضِلُّ، وتُغْوِي، مَنْ يكونُ منهُ الإضلالُ لأنها تُزَيِّنُ، وتُحَلَّى بالأشياءِ، نَحْوَ ما نُسِبَ الغُرورُ إلى الدنيا[وإنْ كانَتِ الدنيا][3] لا تَغُرُّ؛ لأنها تكونُ بحالٍ، لو كانَتْ تلكَ الأحوالُ مِنْ ذي الروحِ لكانَ[ذلكَ تغريراً، فَعلَى][4] ذلكَ نسبةُ الإضلالِ إلى الأصنامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي مُوافِقي في الدينِ أو في الوِلايَةِ. وحاصِلُهُ، واللهُ أعلَمُ: معي في الدينِ وفي أمرِ الدينِ. وكذلكَ [قولُهُ ﷺ]: «مَنْ غَشَّ فليسَ مِنّا» [كشف الأستار عن زوائد البزار ١٢٥٦] أي ليسَ بِمُوافِقٍ لنا، أو ليسَ مَعَنا، أو ليسَ في مِلَّتِنا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي مِنْ مِلَّتي.

وحاصِلُهُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ وأجابَني في ما دَعَوتُهُ إليهِ، وأمَرْتُهُ بهِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي مِمّا أنا عليهِ. وكذلكَ قولُهُ ﷺ: «مَنْ غَشَّ فليسَ مِنّا» أي ليسَ ممّا نحنُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يُشْبِهُ قولُهُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ ليسَ عصيانَ شِرْكٍ، ولكنْ عصيانُ ما دونَ الشِّرْكِ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ساتِرٌ عليهِ الكُفْرَ إلى وقتٍ معلومٍ؛ إذِ الغُفْرانُ هو السَّتْرُ، فَتَسْتُرُ عليهِ إلى أجلٍ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

أو يقولُ: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي تُمَكِّنُ لهُ مِنَ التوبةِ والإسلامِ، فَيُسْلِمُ، ويَتوبُ، فَيَغْفِرُ لهُ ما كانَ منهُ مِنَ العِصْيانِ، وتَتَرَحَّمُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ في ما دَعَوتُهُ إليهِ، وأمَرْتُهُ بهِ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تُمَكِّنُ لهُ مِنَ التوبةِ والرجوعِ عمّا كانَ منهُ، فَتَغْفِرُ لهُ، وتَرْحَمُهُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ هذا أوّلَ ما قَدِمَ تلكَ البُقْعَةَ، لأنهُ قالَ ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ولا بَيْتَ هنالكَ. دلَّ أنهُ إنما دعا بهذِهِ الدعواتِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ وما ذَكَرَ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى آخرِ ما ذَكَرَ بَعْدَما رَفَعَ البيتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ دلَّ أنهُ إنما أسْكَنَ بَعْضَ ذُرِّيَّتِهِ، ولم يُسْكِنْ ذُرِّيَّتَهُ كلَّها حينَ[5] قالَ: ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ امْتَحَنَهُ اللهُ بِمِحَنٍ ثلاثٍ، لم يَمْتَحِنْ بِمِثْلِها أحداً مِنَ الأنبياءِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل: يزداد لهم. في م: يزداد لهم بها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) في الأصل وم: حيث.

أحدُها: امْتَحنَهُ بإسكانِ وَلَدِهِ ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وغَيرِ ذي ماءٍ ممّا لا يَحتَمِلُ قَلْبُ بَشرٍ تَرْكَهُ في مِثْلِ ذلكَ المكانِ[١]. دلَّ أنهُ إنما فَعَلَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ تعالى.

والثانيةُ: امْتَحنَهُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ حتى إذا أشْرفَ على الهَلاكِ فَداهُ اللهُ بِكَبْشٍ[٢].

والثالثةُ[٣]: امتحنهُ بإلقائِهِ في النارِ، فأُلقِيَ حتى إذا أشْرَفَ على الهلاكِ جَعَلَها اللهُ تعالى عليهِ ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] ففي ذلكَ كلِّهِ دلالةُ رسالتِهِ. وكانَ لهُ هِجرَتانِ:

إحداهما: إلى مكةَ حيثُ أسْكَنَ فيها وَلَدَهُ. والهجرةُ الثانيةُ إلى بيتِ المقدسِ، وهي[٤] ما ذَكَرَ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية [الأنبياء: ٧١].

ثم قولُهُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ هو دعاءٌ بِتَعْريضٍ لا بِتَصْريحٍ. والدعاءُ بالتَّعريضِ، والسؤالُ بالكنايةِ أبْلَغُ وأكْثَرُ مِنَ السؤالِ بالتَّصْريحِ، وهو كدعاءِ آدمَ وحَوّاءَ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآيةَ[الأعراف: ٢٣] فهذا أبْلَغُ في السؤالِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦و . . .] لأنَّ مِثْلَ هذا قد سُئِلَ مَنْ دونَهُ، ولا يكونُ فيهِ ما ذُكِرَ فيهِ مِنَ الخُسْرانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ كلمةُ ﴿مِن﴾ صِلَةً، أي أسكَنْتُ ذُرِّيَّتي، وتَحْتَمِلُ على التَّبْعيضِ، أي أسكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتي على ما ذُكِرَ في بَعْضِ التأويلاتِ ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ وجهَينِ:

أحدُهما: حَرَّمَهُ أنْ يُسْتَحَلَّ فيهِ ما لا يَحِلُّ، ولا يَصْلُحُ. لكنهُ خَصَّ تلكَ البُقْعَةَ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ ذلكَ، لا يَحِلُّ في غَيرِها مِنَ البِقاعِ لِفَضْلِ الحُرْمَةِ التي جَعَلَها اللهُ لها كما خَصَّ المساجدَ بأشياءَ لِفَضْلِها على غَيرِها مِنَ الأمكنةِ والبقاعِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي المَمْنوعِ، يُقالُ: حَرَّمَ أي مَنَعَ كقولِهِ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] ليسَ ذلكَ على التحريمِ ألّا تَحِلَّ لهُ المراضِعُ، ولكنْ على المنعِ، أي مَنَعْنا عنهُ لِنَرُدَّهُ إلى أمِّهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي المَمْنوعِ عنِ الخَلْقِ حتى لم يَقْدِرْ أحدٌ مِنَ الفَراعِنَةِ والملوكِ الغَلَبَةَ[عليهِ وإدخالَهُ][٥] في منافعِ أنفسِهِمْ، بل[هو مَمْنوعٌ][٦] عنهمْ على ما كانَ.

وفيهِ أنَّ الوحدانيَّةَ لهُ، والألوهيَّةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: فيهِ تقديمٌ[وتأخيرٌ بقولِهِ][٧]: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ثم تَحْتَمِلُ الصلاةُ الصلاةَ المعروفةَ، وتَحْتَمِلُ الصلاةُ الدعاءَ والأذكارَ وغَيرَها مِنَ الدَّعَواتِ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاةَ نَفْسَها وغَيرَها مِنَ الطاعاتِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَحْتَمِلُ سؤالُهُ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ أفئِدَةَ ﴿ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ وجهَينِ:

أحدُهما: لمّا أسْكَنَ ذُرِّيَّتَهُ في مكانٍ، لا ماءَ فيهِ، ولا نباتَ، ولا زَرْعَ، وفي مِثْلِ هذا المكانِ يُسْتَوحَشُ المُقامُ فيهِ، سَألَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ لِيأتوا/ ٢٧٢ ـ ب/ ذلكَ المكانَ، فَتَذْهَبَ عنهُمْ تلكَ الوَحْشَةُ، فَيَسْتأنِسوا[٨] بهِمْ.

والثاني[٩]: سَألَهُ أنْ يَجْعَلَ الناسَ تَهْوِي إليهِمْ لِيَتَعَيَّشوا بما يُنْقَلُ إليهِمْ مِنَ الزادِ والأطْعِمَةِ، إذْ أسْكَنَهُمْ في مكانٍ، لا زَرْعَ فيهِ، ولا يَتَعَيَّشونَ فيهِ بهِ. وقد جَعَلَ اللهُ تعالى بُنْيَةَ هذا البَشَرِ، إذْ لا قِوامَ لهمْ إلّا بالأغذيةِ والأطْعِمَةِ، فَسَألَ ربَّهُ لِيَتَعَيَّشوا بما يُحْمَلُ إليهِمْ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: مثله. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: عليها وإدخالها. (٦) في الأصل وم: هي ممنوعة. (٧) في الأصل وم: بقول. (٨) في الأصل وم: فيستأنس. (٩) في الأصل وم: أو.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ لِلْحجِّ، وقالوا: لو قالَ: فاجْعَلْ أفْئِدَةَ الناسِ تَهْوِي إليهِمْ، ولم يَقُلْ: ﴿مِّنَ﴾ حَجَّهُ الخَلْقُ جميعاً الكافرُ والمؤمنُ، لكنْ لا يَحْتَمِلُ عندنا أنْ يكونَ سؤالُهُ لِلْخَلْقِ جميعاً، أو يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] لِلْخلائِقِ جميعاً لِلْكافِرِ والمؤمنِ، بلْ يَرْجِعُ ذلكَ إلى الخصوصِ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلكَ الثَّمراتِ، ويَحْتَمِلُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ التَّعَيُّشِ بما يُحْمَلُ إليهِمْ مِنَ الأغذيَةِ والأطعمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ﴾ ليسَ على تَخْصيصِ الثَّمَراتِ، ولكنْ سألَ الثَّمراتِ وما بهِ غِذاؤُهُمْ وقِوامُهُمْ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مثلُ هذا الدعاءِ منهُ مُبْتَدَأً، بل كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، عَنْ نازلةٍ دعاهُ؛ إذْ يَعْلَمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، أنهُ كانَ يَعْلَمُ ما يُخْفونَ وما يُعْلِنونَ، لكنْ لم يُبَيِّنْ، ما تلكَ النازلةُ؟

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: قالَ هذا: أي ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾ مِنَ الحُزْنِ والوَجْدِ على إسماعيلَ وأُمِّهِ حينَ تركَهُما بوادٍ، لا ماءَ فيهِ، ولا زَرْعَ. ويقولونَ: ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ هو قولُهُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٣٧] لكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ﴾ كانَ هذا جواباً عنِ اللهِ وإخباراً منهُ إياهُ أنهُ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، ولا يَخْفى عليهِ ما، لا أمْرَ فيهِ، ولا نَهْيَ، ولا جزاءَ، فكيفَ يَخْفى عليهِ الأعمالُ التي عليها الجزاءُ والأمْرُ؟

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهُ وَهَبَ لَهُ الوَلَدَ، وهو ابنُ كذا، وامْرأتُهُ ابْنَةُ كذا، لكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ سِوى ما ذَكَرَ أنهُ وَهَبَ لهُ الوَلَدَ على الكِبَرِ في وَقْتِ الإياسِ عنِ الوَلَدِ حينَ[1] بُشِّرَ بالوَلَدِ، فقالَ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤] وحينَ[2] قالتِ امْرأتُهُ لمّا بُشِّرَتْ بالوَلَدِ: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] نَعْلَمُ أنهُ وَهَبَ لهُ الوَلَدَ، وهما كانا كَبيرَيْنِ في وَقْتِ الإياسِ عنِ الوَلَدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ يكونُ حَمْدُهُ على الأمْرَيْنِ جميعاً. على الهِبَةِ وعلى الوِلادَةِ في حالِ الكِبَرِ، وهو حالُ الإياسِ، إذْ كلُّ واحدٍ ممّا يوجِبُ الحمدَ عليهِ والثناءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ قيلَ: لَمُجيبُ الدعاءِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ قد سَبَقَ مِنَ اللهِ الأمْرُ بإقامةِ الصلاةِ، وهو المُقيمُ لها. فَدَلَّ الدعاءُ منهُ والسؤالُ على أنْ يَجْعَلَهُ مُقيمَ الصلاةِ أنَّ عندَ اللهِ لُطْفاً[3] سوى الأمرِ، لم يُعْطِهِ[إيّاهُ][4] فسألَهُ ذلكَ، هو التوفيقُ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ لقولِهِمْ: إنهُ أعْطى كلَّ شيءٍ حتى لم يَبْقَ عندَهُ ما يُعْطيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَقَبَّلْ دعائي في إقامةِ الصلاةِ لنفسِهِ وذُرِّيَّتِهِ. لكنْ لا يَجِبُ أنْ يَخُصَّ دعاءً مِنَ الدَّعواتِ التي سألَ ربَّهُ بدَعَواتٍ كثيرةٍ نَحْوَ ما قالَ: ﴿وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] [وما][5] قالَ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وغيرِ ذلكَ مِنَ الدَّعواتِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ طَلَبَ مِنْ ربِّهِ المَغْفِرَةَ لِوالِدَيْهِ. قالَ الحَسَنُ: إنَّ أُمَّهُ، كانَتْ مُسْلِمَةً، وأمّا أبوهُ، فكانَ كافراً لأنهُ قالَ: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] خَصَّ والِدَهُ بالضَّلالِ. دلَّ أنَّ أُمَّهُ، كانَتْ مُسْلِمَةً، لكنا [لا][6] نعلمُ، ما حالُ الأمِّ؟ أنها[7] كانتْ مُسْلِمَةً أو كافِرَةً. وأمّا أبوهُ فهو، لا شَكَّ أنهُ، كانَ كافراً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وحيث. (٣) في الأصل وم: لطف. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: أمم، في م: أن.

ثم [لا][١] يَحتمِلُ دُعاؤُهُ لِوالدَيهِ، وهما كافِرانِ، وإنْ كانَتْ أمُّهُ كافِرَةً، إلّا على إضمارِ الإسلامِ، أي اغْفِرْ لهما، إنْ أسْلَما، أو أنْ يكونَ سُؤالُ المَغفِرَةِ لهما سُؤالَ الإسلام نَفْسِهِ، أو أنْ يكونَ، طَلَبَ منهُ السَّتْرَ عليهما في الدنيا وألّا يَفْضَحَهُما، ولا يُخزِيَهُما. لكنهُ سأَلَ المَغفِرَةَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

ولا يَحْتَمِلُ طَلَبُ السَّتْرِ إلّا أنْ يَفْصِلَ بَينَ قولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وبَينَ قولِهِ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويَبْتدِئَ[٢] للمؤمنينَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

ودعاءُ[٣] إبراهيمَ وسؤالُهُ المَغفِرَةَ لِوالِدَيهِ، يكونُ سَبَبَ سؤالِ السببِ الذي يَستحِقّانِ بِهِ المَغفِرَةَ مِنْ ربِّهِما، ويكونانِ أهلاً لها، وهو التوحيدُ ومَعْرِفَةُ[٤] المَولَى، وهو ما ذَكَرْنا في أمْرِ نوحٍ وقومِهِ الاِستِغْفارَ لهُ[٥]، وكذلكَ قولُ هودٍ حينَ[٦] قالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآيةَ[هود: ٥٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ بالعَدْلِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: أَقِمْ حِسابي، أي اعْدِلْ فيهِ. وإقامةُ الحِسابِ العَدْلُ فيهِ على ما توجِبُ الحكمَةُ، لا يُزادُ، ولا يُنقَصُ كقولِهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يومَ يُحاسَبونَ، وقِيامُ[٧] الحسابِ، هو المحاسبَةُ، نفسُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ كانَتْ لهُ حاجاتٌ، أخفاها، وطَلَبَ[٨] قضاءَها، فقالَ: تَعْلَمُ حاجاتي[إنْ][٩] أخفَيْتُها، أو إنْ أعْلَنْتُها، فاقْضِها لي.

أو أنْ يكونَ قومُهُ، طَعَنوهُ[١٠] في شيءٍ، فقالَ ذلكَ على التَّبَرّي مِنْ ذلكَ: إنهُ يَعْلَمُ ما نُخفي وما نُعْلِنُ، ولم يَعْلَمْ ذلكَ الذينَ يَطْعَنونَ فيَّ، واللهُ أعلَمُ، كقولِ عيسى ﷺ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة: ١١٦].

أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لأنَّ أهلَ الأديانِ جميعاً كانوا يُوالونَ إبراهيمَ، ويَدَّعونَ أنهُ على دينِهِمْ، وكذلكَ قالَ ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا﴾ الآيةَ[آل عمران: ٦٧] بَرَّأَهُ اللهُ تعالى مِمّا ادَّعى كلُّ فريقٍ.

ثم منهُمْ مَنْ كانَ مِنْ هذهِ الفِرَقِ يَدَّعونَ الإسْرارَ عنِ اللهِ والإخفاءَ عنهُ، فقالَ هذا لِيَعْلَمَ الناسُ توحيدَهُ أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ؛ أُخْفِيَ، أو أُعْلِنَ، لِيَعْرِفوا توحيدَهُ أنهُ ليسَ شيءٌ يَخْفَى عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُخاطَبَةُ بهذا لرسولِ اللهِ ﷺ خاصَّةً على عِلْمٍ منهُ أنَّ رسولَ اللهِ، كانَ يَظُنُّ أنَّ اللهَ يَغْفَلُ عمّا يَعْمَلُ الظالمونَ، لكنهُ خاطَبَ بِهِ كما خاطَبَ بِهِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣و...] وقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥] وأمثالِها[١١]؛ نهاهُ مَعَ العِلْمِ أنهُ لا يَفْعَلُ ذلكَ.

وأصْلُهُ في هذا: أنَّ العصمةَ، لا تَرْفَعُ المِحْنَةَ، وليسَتِ المِحْنَةُ إلّا الأمْرَ والنَّهْيَ؛ إذْ لو رَفَعَتِ العِصْمَةُ المِحْنَةَ والأمْرَ والنَّهْيَ لَذَهَبَتْ فائدةُ العِصْمَةِ، ولا حاجةَ تَقَعُ إليها. فَدَلَّ أنَّ العِصْمَةَ تزيدُ في المِحْنَةِ، ومعَ المِحْنَةِ يُحتاجُ إليها، ويُنْتَفَعُ بها.

ويَحْتَمِلُ الخِطابُ بالآيةِ غَيرَهُ: كلَّ ظانٍّ، يَظُنُّ باللهِ الغَفْلَةَ عن ظُلْمِ الظالِمِ، وهو كما خاطَبَهُ[١٢] بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] إنما خاطَبَ بِهِ كلَّ غارٍّ بربِّهِ الكريمِ لا كلَّ إنسانٍ.

فَعَلى ذلكَ خاطَبَ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كلَّ ظانٍّ باللهِ الغَفْلَةَ عن ظُلْمِ الظالِمِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ودعى. (٤) من م، في الأصل: ومغفرة. (٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: طعنوا. (١١) في الأصل وم: وأمثاله. (١٢) في الأصل وم: خاطب.

ثم إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على الظَّنِّ باللهِ الغَفْلَةَ عن ظُلْمِ الظالمِ حِلْمُهُ[1] وتأخيرُهُ العذابَ عنهم عن وَقْتِ ظُلْمِهِمْ وتَرْكُ أخذِهِمْ بذلكَ.

فمنهُمْ مَنِ ادَّعَى الغَفْلَةَ عن ذلكَ لِما رَأَوا مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ: أنَّ مَنْ ظَلَمَ أحداً منهُمُ انْتَقَمَ منهُ/ ٢٧٣ ـ أ/ في أعْجَلِ وَقْتٍ، يَقْدِرُ على الانتِقامِ منهُ، فَحَمَلَ تأخيرُ اللهِ العذابَ عنهُمْ والانتِقامَ منهُمْ على القولِ بالغَفْلَةِ. ومنهُمْ مَنِ ادَّعَى الرِّضا بِما اختاروا هُمْ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ باللهِ، وادَّعَوا الأمرَ بذلكَ لِما لم يأخُذْهُمْ، ولم يَسْتَأْصِلْهُمْ بصَنيعِهِمْ، فاسْتَدَلّوا بذلكَ رِضاهُ بِفِعْلِهِمْ[2] وأمرَهُ إيّاهُمْ بذلكَ. فأخبَرَ رسولَهُ أنَّ تأخيرَهُ العذابَ عنهُمْ وإمهالَهُ إيّاهُمْ، ليسَ عن غَفْلَةٍ عنهُمْ[3]، ولا عن سَهْوٍ ورِضاً[4] وأمرٍ. ولكنْ ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ ثم وَصَفَ ذلكَ اليومَ بِشِدَّةِ هَولِهِ وفَزَعِهِ فقالَ: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

الآية ٤٢ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا كُلُّهُ يَرْجِعُ إلى الطَّرْفِ والبَصَرِ؛ يقولونَ: شاخِصَةٌ أبصارُهُمْ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ناظِرِينَ إليهِ إلى الداعي ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لِهَولِ ذلكَ اليومِ، هذا كُلُّهُ، يَصْرِفونَهُ[5] إلى الأبصارِ دونَ الأنفُسِ[6] لأنَّ الإهطاعَ والإقناعَ، هو النظرُ، والشُّخوصَ الإبصارُ.

ومنهُمْ مَنْ صَرَفَ قولَهُ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ وقولَهُ[7]: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ إلى البصرِ، وصَرَفَ قولَهُ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ إلى الأنفُسِ، وهو ما ذُكِرَ في موضعٍ آخَرَ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] أي مُسْرِعينَ إليهِ الإجابةَ رجاءَ التَّخَلُّصِ والنَّجاةِ عمّا حَلَّ بهِمْ بِتَرْكِ الإجابةِ. والإهطاعُ: قيلَ: هو النَّظَرُ الدائمُ، والإقناعُ هو الرَّفْعُ رَفْعُ الرأسِ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مُديمي النظرِ ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافِعيها. وعلى تأويلِ بعضِهِمْ: مُسْرِعينَ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافِعيها، مُلْتَزِقَةً إلى أعناقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ يُخَرَّجُ هذا على وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وَقْتَ خَلْقِهِ الخَلْقَ وإنشائِهِمْ عمّا يكونُ[8] منهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، أي لا عَنْ غَفْلَةٍ وسَهْوٍ عن ظُلْمِ الظالِمينَ أنشأهُمْ، وخَلَقَهُمْ، ولكنْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ أنشأهُمْ، وخَلَقَهُمْ، لكنْ أنشأهُمْ على عِلْمٍ منهُ ذلكَ عنِ الحِكْمَةِ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنَّ تأخيرَهُ العذابَ عنهُمْ، ليسَ لِغَفْلَةٍ منهُ بذلكَ، ولكنْ لِما أخذِهِمْ بالعذابِ وَقْتَ صَنيعِهِمْ زوالُ المِحْنَةِ، لأنهُ يَصيرُ العذابُ والثوابُ مُشاهَدَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ خاليةٌ لِهَولِ ذلكَ اليومِ، أي خاليةٌ عنِ التدبيرِ، لأنَّ في الشاهدِ أنَّ مَنْ بُلِيَ بِبَلايا وشدائِدَ يَتَدَبَّرُ، ويَتَفَكَّرُ في دفعِ ذلكَ. فَيُخْبِرُ أنَّ أفئِدَتَهُمْ هَواءٌ يومئذٍ أي خاليةٌ عنِ التدبيرِ؛ إذْ أفئدتُهُمْ، لا تكونُ معَهُمْ لِشِدَّةِ أهوالِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي لا شيءَ فيها، ما يَنْتَفِعونَ بها. والهواءُ هو كلُّ شيءٍ يُوصَفُ بالخَلاءِ[9] من كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ قولَهُمُ الذي يقولونَ يومئذٍ ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ الذي يَحُلُّ بهِمْ، ثم أخبَرَ عمّا يقولونَ إذا حَلَّ بهِمُ العذابُ ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: إلى الدنيا، والدنيا، أجَلُها قريبٌ. لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ، لأنَّ الدنيا أُولى، والآخِرَةَ آخِرَةٌ. فلو جازَ هذا لِتَكونَ الآخِرَةُ أُولى، فذلكَ بعيدٌ، لكنْ طَلَبوا، واللهُ أعلَمُ، الرَّدَّ إلى حالِ الأمْنِ لِيُجيبوا داعيَهُ، إذْ لم تَنْفَعْهُمْ إجابَتُهُمْ في

---

(١) من م، في الأصل: حلمه. (٢) في الأصل وم: بفعله. (٣) في الأصل: عنه، ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: والرضاء. (٥) في الأصل وم: يصرفون. (٦) في الأصل وم: النفس. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: يكونوا. (٩) في الأصل وم: بالخلاص.

حالِ الخَوفِ [والهَولِ][١]. وما حَلَّ بهِمْ إنما حَلَّ بِتَرْكِهِمُ[الإجابَةَ][٢] في حالِ الأمنِ، فَطَلَبوا الرَّدَّ إلى حالِ الأمنِ لِيُجيبوا داعِيَهُ لِتَنفَعَهُمْ إجابَتُهُمْ حينَ[٣] قالوا: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ لم يُبيِّنْ بما أقسموا في هذهِ الآيةِ، وهو ما بَيَّنَ في آيةٍ أخرى ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ مِنَ الدنيا؛ أي كُنتُمْ تقولونَ: أنْ ليسَ إلّا الدنيا، لا زَوالَ لَنا عنها أحياءً ومَوتى كقولِهِمْ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ الآيةَ[المؤمنون: ٣٧] على ما ذَكَرَ مِنْ قَسَمِهِمْ أنهمْ لا يُبْعَثونَ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ جوابٌ لِسؤالِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ على الاسْتِئنافِ. قالَ: ما لَكُمْ عمّا أنتُمْ فيهِ مِنَ العذابِ إلى ما تَسألونَ مِنَ الملاذِ والتأخيرِ، أي مالَكُمْ إلى ذلكَ سَبيلٌ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي تُنْزَعُ قلوبُهُمْ حتى صارَتْ في حَناجِرِهِمْ، فلا تَخرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ، ولا تعودُ إلى أماكِنِها لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ وفَزَعِهِمْ مِنهُ[٤]، وهو على التمثيلِ والكِنايَةِ كقولِهِ[٥]: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٠] لشدةِ خَوفِهِمْ، وهو على التمثيلِ.

ولا يَحْتَمِلُ بُلوغُ القلوبِ الحَناجِرَ في الدنيا حقيقةً؛ إذْ لو بَلَغَتْ ذلكَ لَخَرَجَتْ، فَماتوا، إذِ الدنيا يُحْتَمَلُ المَوتُ فيها، فَدَلَّ أنَّ ذلكَ على التمثيلِ لِشِدَّةِ خَوفِهِمْ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبِهِمُ الرسلَ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ كانوا يطلبونَ مِنْ ربِّهِمُ الرَّدَّ إلى حالِ الأمنِ لِيُجيبوا [داعِيَهُ][٦] بقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ واللهُ أعلَمُ، فقالَ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ، أي سَكَنْتُمْ في الدنيا في مِثْلِ منازِلِهِمْ ومساكِنِهِمْ، فَرَأيتُمْ ما نَزَلَ بأولئكَ الذينَ صَنَعوا مِثْلَ صنيعِكُمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِنَ التعذيبِ والاسْتِئصالِ، ثم لم يَتَّعِظوا بما حَلَّ بهِمْ.

فَعَلى ذلكَ إذا رُدِدْتُمْ إلى حالِ الأمنِ لا تَتَّعِظونَ بما حَلَّ بكُمْ في هذهِ الحالِ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] في ما يَقولونَ: إنهمْ يُجيبونَ دَعْوَتَهُ. هذا، واللهُ أعلَمُ، تأويلُهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي عَمِلْتُمْ أعمالَهُمْ، وتَبَيَّنَ لكمْ كيفَ فَعَلْنا بهِمْ مِنَ الاسْتِئصالِ بالتكذيبِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ، فلم تَتَّعِظوا بذلكَ، فلا تَتَّعِظونَ بهذا أيضاً إذا رُدِدْتُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دَلالةُ لُزومِ النظرِ والاسْتِدلالِ ولُزومِ القياسِ، ودلالةُ لُزومِ العقوبَةِ، وإنْ كانوا لم يَعْلَموا بهِ بَعْدَ أنْ مُكِّنوا مِنَ العِلْمِ بهِ.

أمّا دلالةُ النَّظَرِ والاسْتِدلالِ فهي[٧] قولُهُ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فَهَلّا نَظَرْتُمْ ما حَلَّ بِهِمْ مِنْ تكذيبِهِمُ الرسلَ، واتَّعَظْتُمْ بهِ.

ودلالةُ القياسِ هو ما خَوَّفَهُمْ أنْ يَنزِلَ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، لأنهمُ اشْتَرَكوا في المَعْنى الذي نَزَلَ بأولئكَ؛ ما نَزَلَ هو بتكذيبِهِمُ الرسلَ وسوءِ معامَلَتِهِمْ إيّاهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي قد بَيَّنّا لَكُمُ الأمثالَ والأشباهَ ما يُعَرِّفُكُمْ لو تأَمَّلْتُمْ أنَّ أولئكَ، لكُمْ أشباهٌ وأمثالٌ، وصَنيعُهُمْ لِصَنيعِكُمْ أشباهٌ وأمثالٌ، فَيَنزِلُ بكُمْ ما نَزَلَ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) في الأصل وم: كقولهم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ مَكَروا: احتالوا على إهلاكِ الرسلِ وقَتْلِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية[الأنفال: ٣٠] وكَيدُهُمُ الذي ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ[1] مِنَ القرآنِ بِرُسُلِ اللهِ حتى قالَ الرسلُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ [هود: ٥٥].

ومَكَروا أيضاً بِدِينِ اللهِ الذي أتَتْ بِهِ الرسُلُ؛ مَكَروا، واحتالوا/ ٢٧٣ ـ ب/ على إطفاءِ ذلكَ النورِ، فَأبَى اللهُ ذلكَ عليهِمْ، وأظْهَرَ دينَهُ، وأبْقَى نورَهُ إلى يومِ القيامةِ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢].

كانَ مَكْرُهُمْ وحِيَلُهُمْ يَرْجِعُ في أحدِ التأويلَينِ إلى نفسِ الرسلِ حينَ هَمُّوا، وقَصَدوا[2] إهلاكَهُمْ، وفي[3] الثاني: يرجعُ إلى إطفاءِ الدينِ الذي أتَى [بِهِ الرسُلُ][4] والنورِ الذي دَعَوا إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي عندَ اللهِ العِلْمُ بِمَكْرِهِمْ، مَحفوظٌ ذلكَ عندَهُ، لا يَفوتُ، ولا يذهَبُ عنهُ شيءٌ، فَيَجزيهِمْ بذلكَ في الآخِرَةِ. أو ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي عندَ اللهِ الأسبابُ التي بها مَكَروا، مِنْ عندِ اللهِ اسْتَفادوا، وهو النعيمُ الذي أعطاهُمْ، والأموالُ التي مَلَّكَهُمْ، والعقولُ التي رَكَّبَ فيهِمْ بما قَدَروا على المَكْرِ والاحْتِيالِ عندَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ اخْتُلِفَ في تلاوَتِهِ وقراءَتِهِ وتأويلِهِ.

قَرَأَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن كَادَ مَكۡرُهُمۡ﴾ بالذالِ [وإذْ][5]، وهو حرفُ عُمَرَ وابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وابْنِ عباسٍ ﵃ وقَرَأَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾بالنونِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَإِن كَانَ﴾ وقالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: ﴿وَإِن﴾ بِمَعْنَى ما، أي ما كانَ مَكْرُهُمْ لِتزولَ منهُ الجبالُ، قالَ: كانَ مَكْرُهُمْ أوْهَنَ وأضْعَفَ مِنْ أنْ تَزولَ منهُ الجبالُ، [وقالَ: إنْ][6] بِمَعْنَى ما كثيرٌ في القرآنِ كقولِهِ: ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وكقولِهِ: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [إبراهيم: ١١] أي ما نحنُ إلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

وقد تُسْتَعْمَلُ إنْ في مَوضِعِ: قد كقولِهِ: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٨] أي قد كانَ وَعْدُ ربِّنا لَمَفعولاً.

فَمَنْ حَمَلَهُ على: ما فَقَدِ اسْتَهانَ بِمَكْرِهِمْ، واسْتَخَفَّ بِهِ، فقالَ: إنَّ مَكْرَهُمْ أوْهَنُ وأضْعَفُ مِنْ أنْ تَزولَ منهُ الجبالُ، والجبالَ أوْهَنُ وأسْرَعُ زَوالاً مِنْ رسالةِ الرسلِ ودينِ اللهِ، بل رسالةُ الرسلِ ودينُ اللهِ [أثْبَتُ مِنَ الجبالِ لأنَّ دينَ اللهِ][7] ورُسُلَهُ، مَعَهُما حُجَجُ اللهِ وبراهينُهُ. فإذا لم يَعْمَلْ مَكْرُهُمْ في إزالةِ الجبالِ لا يَعْمَلُ في إزالةِ دينِ اللهِ ورسالةِ الرسلِ، ومَعَهُما الحُجَجُ والبراهينُ.

ومَنْ قالَ: وإنْ كانَ قد كانَ حَمَلَهُ على [اسْتِعْظامِ مَكْرِهِمْ][8] وعلى ذلكَ مَنْ قَرَأ كادَ بالدالِ على [اسْتِعْظامِ مَكْرِهِمْ][9] كقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] مِنْ عظيمِ ما قالوا كادتِ السمواتُ تَنشَقُّ. فَعَلَى ذلكَ مَكْرُهُمْ جميعاً [في][10] الوجهينِ: أنْ يُسْتهانَ مَرَّةً، ويُسْتَعظَمَ أخرى إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ كَلِمَتَهُمْ مِنْ حَيثُ الشِّرْكُ والكُفْرُ عظيمةٌ، ومِنْ حيثُ احْتِيالُهُمْ ومَكْرُهُمْ في إزالةِ ذلكَ النورِ وإطفائِهِ ضعيفٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ الخِطابُ بِهِ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا؛ أي لا تَحْسَبَنَّ أنَّ ما تأخَّرَ مِنْ نُزولِ ما وَعَدَ أنهُ يُخْلِفُ وَعْدَهُ الذي وَعَدَ رُسُلَهُ كما لَمْ[11] يكنْ تأخيرُ العذابِ عنهُمْ مِنْ وَقْتِ ظُلْمِهِمْ عن غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، ولكنْ كانَ وَعْدُهُ إلى ذلكَ الوقْتِ.

وخُلْفُ الوَعْدِ في الشاهدِ مِنَ الخَلْقِ إنما يكونُ لِوَجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: آي. (٢) في الأصل وم: ويعدوا. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: بالرسل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٤٢. (٦) في الأصل وم: قال كان مكرهم وإن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الاستعظام بمكرهم. (٩) في الأصل وم: الاستعظام بمكرهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لئن.

أحدُهما: لِما لا يَمْلِكُ إنجازَ ما وَعَدَ.

والثاني: لِما يَضُرُّهُ الإنجازُ. فاللهُ يَتعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وقيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ قاهرٌ، يَقْهَرُ، ويُذِلُّ. فالخلائقُ كلُّهُمْ أذلّاءُ دونَهُ. وقولُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ قاهرٌ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِمْ، أي غالبُ الأعداءِ، وقاهِرُهُمْ وناصرُ الأولياءِ.

وأمّا ما قالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ إنهُ نَزَلَ في شأنِ نمرودَ، وإنهُ اتَّخذَ تابوتاً، وَرَبَطَ نُسوراً على قوائِمِهِ، وما ذَكَرُوا إلى آخِرِهِ، فلا عِلْمَ لنا إلى ذلكَ، وأظُنُّهُ أنهُ كُلَّهُ خَيالٌ، فلا نقولُ إلّا القَدْرَ الذي ذُكِرَ في الآيةِ.

وقولُهُ[1]: لَتزولُ بنصبِ اللامِ الأولى وبِرفعِ الأخيرةِ على مَعْنَى التوكيدِ، و ﴿لِتَزُولَ﴾ بكَسْرِ اللامِ [الأولى][2] ونصبِ الأخيرةِ على الجَحْدِ[3]، أي ما كانتِ الجبالُ لِتزولَ مِنْ مَكْرِهِمْ، وهو ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قالَ الحسنُ: تَفْنَى هذهِ الأرضُ، ثم تُعادُ مِنْ ساعَتِهِ مُسْتَوِيَةً، لا شَجَرَ فيها، ولا جَبَلَ، ولا إكامَ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦و١٠٧].

وقالَ بعضُهُمْ: تُبَدَّلُ هذهِ الأرضُ أرضاً غَيرَ هذهِ بيضاءَ نَقِيَّةً، لم يُسْفَكْ عليها دمٌ، ولم يُعْمَلْ عليها بالمَعاصي، وكذلكَ السمواتُ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: لا تُبَدَّلُ عَينُها، ولكنْ تَتَغَيَّرُ صِفَتُها وزينَتُها كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: تَبَدَّلْتَ يا فلانُ، لا يُريدُ تَبَدُّلَ أصلِهِ وعَينِهِ، ولكنْ تَغَيُّرَ الأخلاقِ والدينِ. فَعَلَى ما ذُكِرَ مِنْ تَبديلِ الأرضِ والسمواتِ. والأشْبَهُ أنْ يكونَ على اختِلافِ الأحوالِ لأنهُ ذُكِرَ في آيةٍ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وقالَ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣][وقالَ][4]: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الفرقان: ٢٥] وقالَ[5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقالَ[6]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١][وقالَ][7]: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] [وقالَ][8]: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] وقالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ذَكَرَ مَرَّةً: تُمَدُّ الأرضُ، وذَكَرَ مَرَّةً أنها تُخْبِرُ، وتُحَدِّثُ عمّا عُمِلَ عليها، وذَكَرَ في السماءِ[التَّبَدُّلَ][9] بالتَّشقُّقِ والانْفِطارِ وفي الجبالِ بالسَّيرِ والمرورِ مَرَّةً ومَرَّةً بالرفعِ، ومَرَّةً أخْبَرَ أنهُ جَعَلَهُ ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وأمثالَهُ.

فَيُشبِهُ أنْ يكونَ هذا كُلُّهُ على اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ؛ إذْ يومُ القيامةِ يومٌ، فيكُونُ كلُّ ما ذُكِرَ على ما قالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦] قالَ في آيةٍ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧و...] وقالَ: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقالَ[10]: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] فهو، واللهُ أعلَمُ، ذلكَ على اختِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

[وقولُهُ تعالى:][11] ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: تَبديلُ أهلِها على ما يَذْكُرُ الأرضَ والقريةَ، والمُرادُ منها الأهلُ كقولِهِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وقولِهِ: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ الآيةَ[النحل: ١١٢] ونَحْوُهُ كثيرٌ.

والثاني: تَبديلُ نَفْسِ الأرضِ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٤٢. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقولُهُ. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ثم يَحتَمِلُ كلُّ واحدٍ مِنَ الوَجْهَينِ وَجْهَينِ:

أحدُهما[1]: تبديلُ أهلِها، هو أنْ يكونوا مُستَسلِمينَ خاضِعينَ لهُ في ذلكَ، ولم يكونوا في الدنيا، [كذلكَ][2].

والثاني: تَبديلُ أهلِها، هو أنْ يكونَ الأولياءُ في النِّعَمِ الدائمةِ واللَّذةِ الباقيةِ، والأعداءُ في عَذابٍ وألَمٍ وشِدَّةٍ، وكانوا في هذهِ الدنيا جميعاً مُشتَرِكينَ، الأولياءُ والأعداءُ، في اللَّذاتِ والآلامِ.

فإنْ كانَ تَبديلُ نَفسِ الأرضِ، فهو يُخَرَّجُ على وَجْهَينِ:

أحَدُهما: تَغْييرُ زينَتِها وصِفَتِها.

والثاني: تَبديلُ عينِها وجوهَرِها، وهو ما ذُكِرَ أنَّ أرضَ الجنةِ تكونُ مِنْ مِسْكٍ وزَعْفرانٍ ونَحوِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ، واللهُ أعلَمُ.

كانَّ قولَهُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ الآيةِ، فقالوا: متى يكونُ ذلك؟ فقالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ يُخَرَّجُ جواباً لِسؤالٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ قد ذَكَرْنا تَخصيصَ بُروزِهِمْ للهِ يومَ القيامةِ، أنهُ، واللهُ أعلَمُ، أنشأَ هذا العالَمَ الأوَّلَ لِلْعالَمِ الثاني. [فالعالَمُ الثاني:][3] هو المقصودُ في إنْشائِهِمْ.

وقالَ قائلونَ: تَخصيصُ بُروزِهِمْ لَهُ يومئذٍ، لأنهمْ يَخرُجونَ مِنْ قبورِهِمْ للحسابِ لا لِغَيرِهِ. فهو/ ٢٧٤ ـ أ/ يُحاسِبُهُمْ.

فأضافَ البُروزَ إليهِ لِما لا يَخرُجونَ إلا لَهُ. وأمّا في الدنيا فإنما يَخرُجونَ لِحوائجِ أنْفُسِهِمْ، لذلكَ خرجَ التخصيصُ لهُ، والإضافةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ يَحتَمِلُ [وجوهاً ثلاثةً]:

أحَدُها[4]: برزوا لهُ مُستَسلِمينَ خاضِعينَ قائلينَ طائعينَ، ولم يكونوا في الدنيا كذلكَ.

والثاني: يَبْرُزُونَ لهُ لِما وُعِدوا، وأُوعِدوا، فهمْ بارزونَ لِما دُعُوا إليهِ، ورَغِبوا فيه.

والثالثُ: يَبْرُزُونَ لهُ لِما لا يَملِكونَ إخفاءَ أنْفُسِهِمْ وسَتْرَها، بل ظاهرونَ[5] لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي لا شَريكَ لهُ، و ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ يَقهَرُ الخَلائِقَ كُلَّهُمْ، ويَغْلِبُ[6] الجبابرةَ والفراعنةَ.

أو يَبْرُزُونَ لهُ لِيَجْزِيَهُمْ على ما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤٩ و٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ ذَكَرَ ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾[7] قيلَ: القِطرُ، هو النحاسُ، والآني: الذي انتَهَى حَرُّهُ كقولِهِ: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] وقيلَ: الصُّفْرُ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي مِنْ نُحاسٍ آنٍ لهمْ أنْ يُعَذَّبوا. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ القَطْرانِ المعروفِ الذي يُطْلَى بهِ الإبلُ، ذَكَرَ هذا لأنهُ أشدُّ إحراقاً واشْتِعالاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ جَعَلَ اللهُ عذابَ الكُفرِ في الآخرةِ بالأسبابِ والأشياءِ التي كانوا يَفتَخِرونَ بها في الدنيا مِنَ اللباسِ والشرابِ والأصحابِ [وغيرِها، وهي كانَتْ][8] سببَ مَنْعِهِمْ عنْ إجابةِ الرسلِ في ما دَعَوهُمْ إليهِ. فَجَعَلَ تعذيبَهُمْ في الآخرةِ بذلكَ النوعِ مِنَ النارِ، فقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ يُقْرَنُ، ويُقَيَّدُ[9] بعضُهُمْ بِبَعضٍ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ الآيةَ [الزخرف: ٣٦] لأنهُ كانَ يَتْبَعُهُ، ويأتَمِرُ بأمْرِهِ، وكقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآيةَ [الصافات: ٢٢] وكذلكَ الرُّؤساءُ منهمْ والمَتْبوعونَ.

---

(١) في الأصل وم: إما. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: ظاهرين. (٦) في الأصل وم: ويغلبهم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٤٤. (٨) في الأصل وم: وغيره وهو كان. (٩) في الأصل وم: ويقبض.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ لِما كانوا يَفْتَخِرونَ في الدنيا بلباسِهِمْ، وكذلكَ كلُّ نوعٍ يَفْتَخِرونَ بهِ في الدنيا، ويَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابَةِ إجابَةِ الرسلِ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

والأصفادُ: قيلَ: الأغلالُ، أي قد قُرِنَ بعضُهُ إلى بَعْضٍ في الأغلالِ. واحِدُها: صَفَدٌ، وهو قولُ القُتَبِيِّ، وكذلكَ قولُ أبي عَوسَجَةَ في الأصفادِ، إلّا أنهُ قالَ: واحِدُها: صِفادٌ، والصَّفَدُ العَطِيَّةُ [والوَثاقُ][1]. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمُصُهُمْ، واحِدُها: سِرْبالٌ ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ القَطِرُ ما ذَكَرْنا النحاسُ، والآني الذي قدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي عَوسَجَةَ.

ذَكَرَ هذهِ المَواعيدَ والشدائدَ وأنواعَ ما يُعَذَّبونَ [بهِ][2] في الآخرةِ، ونَعيمَها على ألْسُنِ مَنْ قدْ ظَهَرَ صِدْقُهُمْ بالآياتِ والحُجَجِ لِيَحْذَروا ما أُوعِدوا، ويَرْغَبوا في ما رُغِّبوا لِئَلّا يكونَ لهمُ الاحْتِجاجُ يومئذٍ كقولِهِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقولِهِ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ الآيةَ[الأنفال: ٤٢] ونَحْوَهُ والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ لأنَّ أيديَهُمْ مغلولَةٌ إلى أعناقِهِمْ، فلا يَقْدِرونَ أنْ يَتَّقُوا النارَ بأيديهِمْ. ذَكَرَ هذا لأنَّ في الشاهدِ مَنْ أصابَ وجهَهُ أذىً يَتَّقِي مِنْه بيدِهِ، فَيُخْبِرُ أنهمْ إنما يَتَّقونَ ذلكَ بوجوهِهِمْ، والله أعلَمُ.

الآية ٥١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ قد[4] ذَكَرْنا: يَبْرُزونَ للهِ لِيَجْزِيَهُمْ منْ خيرٍ وشرٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: كانَ قد جاءَ حسابُهُ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لأنَّ الحِسابَ إنما يُبْطِئُ، لا يَتَذَكَّرُ مَنْ لهُ الحسابُ، لِمَنْ يُحاسِبُهُ في الشاهدِ في ما يُحاسِبُهُ، فَيطولُ الحسابُ أو الاشْتِغالُ بشيءٍ عنهُ أوِ الجهلُ بالحسابِ.

فأمّا اللهُ ﷻ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، ولا يَشْغَلُهُ شيءٌ عن شيءٍ، كلُّهُ مَحْفوظٌ عندَهُ، فهو سريعُ الحسابِ، واللهُ أعلَمُ.

أو نقولُ: إنما يطولُ الحِسابُ في الشاهدِ، ويَمْتَدُّ، لِما يَحتاجُ إلى التَّفَكُّرِ والتَّذَكُّرِ في ذلكَ. فاللهُ، سبحانَهُ، مُتَعالٍ عنِ التَّفَكُّرِ والنَّظَرِ. بل كلُّ شيءٍ مَحْفوظٌ عندَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ﴾ هذا بلاغُ القرآنِ، وهو[6] بلاغٌ للناسِ على ما ذَكَرَ في صَدْرِ السورةِ: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ الآيةَ[الآية: ١] هو بَلاغٌ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي بالقرآنِ أيضاً على ما ذَكَرَ ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ ما ذَكَرَ مِنَ المواعيدِ، وهو قولُهُ: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ أي هذا الذي ذَكَرَ في البلاغِ، يَبْلُغُهُمْ، لا مَحالَةَ ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ بما ذَكَرَ ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شَريكَ لهُ بالآياتِ التي أقامَها على وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذَوُو العقولِ. واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لما. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

سورة الحجر

ذكر أنها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ يَحْتَمِلُ أنَّ الحروفَ المُقَطَّعَةَ كِنايةٌ عنْ كتابِهِ أو آياتِهِ: أنهُ جَمَعَها على ما توجِبُهُ الحكمةُ، فَجَعَلَها كتاباً أو آياتِ كتابٍ يُتْلَى، أو يكونُ كِنايَةً عنِ الأنباءِ والأخبارِ عنِ الأُمَمِ السالفةِ التي لم يَشْهَدْها رسولُ اللهِ ﷺ

تلكَ الأنباءُ والأخبارُ التي جَعَلْناها كتاباً أو آياتٍ لِيَعْلَموا أنَّ هذا الكتابَ إنما أُنْزِلَ منَ السماءِ، وأنهُ إنما عُلِمَ بالوَحْيِ مِنَ اللهِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضعٍ ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ قالَ: بَيَّنَ فيهِ ما يُؤْتَى، وما يُتَّقَى، أو ﴿مُّبِينٖ﴾ يُبَيِّنُ بَينَ الحقِّ والباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنما يَوَدُّونَ الإسلامَ والتوحيدَ بَعْدَ ما عُذِّبَ بالنارِ قومٌ مِنْ أهلِ التوحيدِ بذنوبِهِمْ، ثم أُخرِجوا منها بالشفاعةِ أو بالرحمةِ. فعندَ ذلكَ يَتَمَنَّى أهلُ الشِّرْكِ، ويَوَدُّونَ الإسلامَ والتوحيدَ ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ لكنَّ هذا بعيدٌ؛ إذ لا يَتَمنَّونَ إلّا [وهُمْ][1] في النارِ، بَعْدَ ما أخرجَ أولئكَ، وقد أُصيبوا[2] بالشدائدِ والبلايا مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتُوا النارَ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ الآية [المؤمنون: ٩٩ و١٠٠] أخبَرَ أنهُ يَتَمَنَّى عندَ حلولِ الموتِ الإسلامَ حين[3] طَلَبَ الرجوعَ إلى الدنيا. دلَّ أنهم يَوَدُّونَ الإسلامَ قَبْلَ الوَقْتِ الذي ذَكَرَ، أو يَتَمنَّونَ الإسلامَ إذا حوسِبوا، أو إذا بُعِثَ أهلُ الجنةِ، وبُعِثوا هم إلى النارِ، يَتَمَنَّونَ الإسلامَ قَبْلَ ذلكَ، في مَواضِعَ.

وربمّا يَتَمَنَّى الآحادُ مِنَ الكَفَرَةِ، ويَوَدُّونَ لو كانوا مُسْلِمينَ في أحوالٍ وأوقاتٍ، يَظْهَرُ لهمُ الحقُّ، لكنَّ الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ الإسلامِ فَوتُ شيءٍ مِنَ الدنيا وذهابُ شيءٍ طَمِعوا فيهِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قَسَمٌ لِما ذَكَرَ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ يقولُ: أُقْسِمُ / ٢٧٤ ـ ب/ بالحروفِ المُقَطَّعَةِ أنهم يَوَدُّونَ الإسلامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ هذا ليسَ على الأمْرِ، ولكنْ على التوعيدِ والتهديدِ وإبلاغٍ في الوعيدِ وتأكيدٍ كقولِهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] وهو على التَّوعيدِ لأنهُ[4] قالَ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ﴾ وعيدٌ لِقولِهِ: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ بصنيعِهِمْ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ المُحِقَّ والمُبْطِلَ، وأنَّ المُحِقَّ والمُبْطِلَ مَنْ؟ أنتَ أو هُمْ، أو سوفَ يَعلمونَ نُصْحَكَ إياهُمْ وشَفَقَتَكَ لهمْ، أنكَ نَصَحْتَ لهمْ، وأشْفَقْتَ، لا أنكَ خُنْتَهُمْ، أو يَعْلَمونَ بِما سَخِروا بكُمْ، وهَزِئوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ الأملُ الطمعُ. اخْتُلِفَ فيهِ[بوجوهٍ:

أحدُها][5]: أي مَنَعَهُمْ طَمَعُهُمْ أنهمْ وآباؤهُمْ قد أصابوا الحقَّ، ذلكَ مَنَعَهُمْ عنِ الإجابَةِ والنظرِ في الآياتِ والحُجَجِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أصيب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: تَقْديرُهُمْ بامْتِدادِ حياتِهِمْ لِتَبْقَى لهمُ الرئاسةُ والشَّرَفُ، ذلكَ الذي كانَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ والنظرِ في الآياتِ والحُجَجِ.

والثالثُ: يَطْمعونَ هلاكَ النَّبِيِّ ﷺ ويَتَمَنَّوْنَ ذلكَ، وانْقِطاعَ مُلْكِهِ وأمْرِهِ والعَوْدَ إليهِمْ، فذلكَ الذي كانَ مَنَعَهُمْ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ﴿ذَرْهُمْ﴾ يَخوضوا، ويَلْعَبوا، ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ الآيةُ في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ. أَيِسَ رسولُهُ مِنْ إيمانِهِمْ، وهو كقولِهِ ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: وما أهْلَكْنا أهْلَ قَرْيَةٍ إهلاكَ تعذيبٍ إلّا وقد أرْسَلْنا إليهِمْ رُسُلاً بِكتابٍ مَعْلومٍ، يَتْلُونَ ذلكَ الكتابَ المَعْلومَ عليهِمْ. فإذا كَذَّبوهُمْ، وأَيِسُوا مِنْ إيمانِهِمْ، فَعِنْدَ ذلكَ يُهْلَكونَ إهلاكَ تَعْذيبٍ، وهو ما قالَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص: ٥٩] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يقولُ: كتابٌ، فيهِ أجَلٌ مَعْلومٌ مُوَقَّتٌ[١]. على هذا التأويل كأنهُ قد خَرَجَ جواباً لِقَولٍ كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ عنِ اسْتِعْجالِهِمُ الإهلاكَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي ما تَسْبِقُ أمَّةٌ أجَلَها الذي جُعِلَ لها بالهلاكِ، وما تَسْتأخِرُ عنهُ، وهو ما قالَ: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

فهذا يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ حينَ[٢] قالوا: إنَّ اللهَ [جَعَلَ لِكلِّ أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ أجَلاً، ثم يجيءُ أحدٌ إلى][٣] آخَرَ، فَيَقْتُلُهُ قَبلَ الأجَلِ الذي جَعَلَهُ اللهُ لهُ. واللهُ قالَ[٤]: ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقالَ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] يُخبِرُ أنهُ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لولا ما جَعَلَ مِنْ أجَلٍ مُسَمًّى، قد وَعَدَ، جَلَّ، وعَلا، أنهُ يَفِي بما وَعَدَ مِنَ البلوغِ إلى الأجَلِ الذي سَمَّى.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَمْلِكُ إنجازَ ما وَعَدَ، لأنهُ [يجيءُ إنسانٌ، فَيَقْتُلُ آخَرَ][٥] فَيَمْنَعُ اللهَ عَنْ وَفاءِ ما وَعَدَ، فذلكَ عَجْزٌ و خُلْفٌ في الوَعْدِ. فَنَعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عنِ الحَقِّ[٦].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ يعني القرآنَ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى﴾ تَدَّعي أنهُ ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في ما تَدَّعي مِنْ نُزولِ الذِّكْرِ؛ هو على الإضمارِ الذي قالَ الحَسَنُ، وإلّا [فهو][٧] في الظاهرِ متناقضٌ؛ لأنهمْ كانوا لا يُقِرُّونَ بنزولِ الذِّكْرِ عليهِ، لأنهمْ لو أقَرُّوا بنزولِ الذِّكْرِ عليهِ لكانَ قولُهُمْ مُتناقضاً فاسداً ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ سَمَّوهُ مَجْنوناً. والذي حَمَلَهُمْ على تَسْمِيَتِهِمْ إياهُ مَجنوناً وجوهٌ:

أحَدُها: أنهمْ لمّا رَأَوهُ أنهُ قد أظْهَرَ الخِلافَ لِذَوي العُقولِ منهمْ والأفهامِ والدعاءَ إلى غَيرِ ما همْ [فيهِ][٨] فَرَأَوا أنهُ ليسَ مُخالِفاً[٩] أهلَ العقولِ والفَهْمِ إلّا بجنونٍ فيهِ، سَمَّوهُ[١٠] مَجْنوناً.

والثاني: رَأَوهُ أظْهَرَ الخِلافَ لِلْفراعِنَةِ والجَبابِرَةِ الذين كانَتْ عادَتُهُمُ القَتْلَ وإهلاكَ[١١] مَنْ أظْهَرَ الخِلافَ لهمْ في أمْرٍ مِنْ أمورِهِمُ الدنياوِيَّةِ، فكيفَ مَنْ أظْهَرَ الخِلافَ لهمْ في الدينِ؟ فَظَنّوا أنهُ ليس يُخالِفُهُمْ، ولا يُخاطِرُ بِنَفْسِهِ ورُوحِهِ إلّا لِجنونٍ فيهِ.

والثالثُ: قالوا ذلكَ لمّا رَأَوهُ، كانَ يَتَغَيَّرُ لونُهُ عندَ نُزولِ الوَحْيِ عليهِ، فَظَنُّوا أنَّ ذلكَ لِآفَةٍ فيهِ.

---

(١) من م، في الأصل: من وقت. (٢) من الأصل من م: حيث. (٣) في الأصل وم: يجعل لخلقه آجالا ثم يجيء. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) في الأصل: لا يجيء إنسان فيقتله، في م: يجيء إنسان فيقتله. (٦) في الأصل وم: الخلق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: مخالف. (١٠) في الأصل وم: فسموه. (١١) في الأصل وم: والهلاك.

ومَنْ تأمَّلَ حقيقةَ ذلكَ عَلِمَ أنَّ مَنْ[1] قَرَفَهُ بالجُنونِ بِهِ، هو المَجنونُ، لا هو [وأنهُ ﷺ][2] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٤] وقالَ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] أخبرَ أنهمْ لو تفكَّروا عَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جِنَّةٌ، ولكنْ عنْ مُعانَدَةٍ ومُكابَرَةٍ يقولونَ وجَهْلٍ.

وسَمَّوهُ ساحراً؛ فذلكَ تناقُضٌ في القولِ؛ لأنهُ لا يُسَمَّى ساحراً إلّا لِفَضلِ بَصَرٍ وعِلْمٍ. فذلكَ تناقضٌ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، يقولونَ لهُ، إنكَ تَزْعُمُ أنَّ الملائكةَ يأتونَكَ بالوَحْيِ، فَهَلا أظهَرْتَ لنا إذا أتوكَ، فَنَنْظُرَ إليهِمْ أملائكةٌ هُمْ على ما تَزْعُمُ، أم شياطينُ؟.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ فَيَشهدونَ أنكَ رسولُ اللهِ، وأنكَ أُرْسِلْتَ على ما تَدَّعي مِنَ الرسالَةِ.

الآية ٨ فقالَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلّا بالموتِ ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ في وُسْعِ البَشَرِ رؤيَةُ الملائكةِ على صورتِهِمْ، فقالَ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلّا بالموتِ. لو رأوا لَماتوا لِما لَمْ يَجْعَلْ في وُسْعِهِمْ رُؤيَةَ الملائكةِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الآية [الأنعام: ٨] أخبَرَ أنهُ لو أُنزِلَ عليهِمُ المَلَكُ لَماتوا؛ إذْ ليسَ في وُسْعِهِمْ رُؤيَةُ المَلَكِ على صورتِهِ.

ثم أخبَرَ أيضاً أنهُ لو جَعَلَهُ مَلَكاً لَجَعَلَهُ رجلاً، ويكونُ في ذلكَ ليسَ على أولئكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالحُجَجِ والآياتِ والبراهينِ على الرسلِ و على مَنْ هو أهْلٌ لذلكَ، ليسَ على كلِّ أحدٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالعذابِ الذي يكونُ فيهِ هلاكُهُمْ. وهكذا إنَّ الملائكةَ لا تُنَزَّلُ إلا بالعذابِ الذي فيهِ هلاكُهُمْ، أو بالحُجَجِ والبراهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ حتى ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] وفي ما وَكَّلَ الحِفْظَ إلى نفسِهِ لم يَقدِرْ أحدٌ مِنَ الطاغينَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ مُنْذُ نَزَلَ وَضْعَ[3] الطَّعْنِ فيهِ، وذلكَ يدلُّ أنهُ سَماوِيٌّ، وأنهُ مَحفوظٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي محمداً، عليهِ أفضَلُ الصَّلَواتِ، أي نَحْفَظُهُ بالذِّكْرِ الذي أُنزِلَ عليهِ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وكقولِهِ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ الآية [سبإ: ٥٠] أخبَرَ أنهُ إنما يَهْتَدي بما يُوحي إليهِ ربُّهُ. فَعَلَى ذلكَ يَحْفَظُهُ بالقرآنِ الذي أُنزِلَ عليهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الذِّكْرُ النُّبُوَّةَ، أي إنّا نحنُ نَزَّلْنا النُّبُوَّةَ، وإنا لهُ، أي لرسولِهِ لَحافِظونَ بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ قيلَ: في مُلَكِ الأوَّلينَ، وقيلَ: في فِرَقِ الأوَّلينَ، وقيلَ: في جَماعاتِ [الأوَّلينَ][4]، وهو واحِدٌ.

الآية ١١ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على استِهْزاءِ قومِهِ إيّاهُ وأذاهُمْ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لَسْتَ أنتَ المخصوصَ بهذا، ولكنْ لكَ شُرَكاءُ وأصحابٌ في ذلكَ، ولِيَخِفَّ ذلكَ عليهِ، ويَهونَ، لأنَّ العُرْفَ في الخَلْقِ أنَّ مَنْ كانَ لهُ شُرَكاءُ وأصحابٌ في شِدَّةٍ / ٢٧٥ ـ أ/ أصابَتْهُ أو بلاءٍ، يُصيبُهُ، كانَ ذلكَ أيْسَرَ عليهِ وأهْوَنَ مِنْ أنْ يكونَ مَخصوصاً بهِ مِنْ بَينِ سائرِ الخلائقِ، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ[6] هذهِ الآيةِ صِلَةُ قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦]. فكأنهُ لما سَمِعَ هذا اشتَدَّ عليهِ، وضاقَ صَدْرُهُ بذلكَ. فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠] إلى آخرِهِ يُصَبِّرُهُ على أذاهم وهُزئِهِمْ بهِ

---

(١) من م، في الأصل: في. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: موضع. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

فإنما يَشْتَدُّ عليهِ ذلكَ على قَدْرِ شفَقَتِهِ ونَصيحتِهِ لهمْ، وكانَ بَلَّغَ نَصيحتَهُ وشَفَقَتَهُ لهمْ ما ذَكَرَ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقالَ[1]: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ.

أو ذَكَرَ هذا لهُ لِما أنَّ هؤلاءِ؛ أعني قومَهُ، إنما اسْتَهْزَؤوا بهِ تقليداً لآبائِهِمْ واقْتِداءً بِهِمْ وتَلَقُّناً منهمْ، لا أنهمْ أنْشَؤوا ذلكَ مِنْ أنفسِهِمْ، وأولئكَ؛ أعني الأوائلَ، إنما اسْتَهْزَؤوا برسُلِهِمْ لا تقليداً لأحدٍ، ولكنْ إنشاءً مِنْ ذاتِ أنفسِهِمْ. فَمَنِ اسْتَهْزَأَ بآخَرَ، فَشَتَمَهُ، تقليداً واقْتِداءً وتَلَقُّناً كانَ ذلكَ أيْسَرَ عليهِ وأخفَّ مِنْ فِعْلِ [مَنْ فَعَلَهُ][2] مِنْ ذاتِهِ، لأنهُ إنما يُلَقَّنُ المجانينُ والصبيانُ ومَنْ بهِ آفةٌ بِمِثْلِ ذلكَ.

فهمُ الذينَ يَعْمَلونَ بالتَّلْقينِ، وأمّا العُقلاءُ والسالِمونَ مِنَ الآفاتِ فلا. فذلكَ أهْوَنُ عليهِ مِنِ اسْتِهزاءِ أولئكَ برسلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: كذلكَ نَسْلُكُ التكذيبَ في الاِسْتِهزاءِ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

الآية ١٣ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقولُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ أنْ يَسْلُكَ التكذيبَ في قَلْبِ مَنِ اختارَ التكذيبَ[4]، ومِنْ حِكَمِهِ أنْ يَسْلُكَ التصديقَ في قَلْبِ مَنْ صَدَّقَهُ، واختارَهُ، كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] وكقولِهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَجْعَلُ الكُفْرَ والتكذيبَ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بِكُفْرِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٥] وقولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ [المائدة: ١٣] ونَحْوَهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الحُجَجَ والآياتِ لِيكونَ تكذيبُهُمْ وردُّهُمُ الآياتِ والحُجَجَ وتكذيبُهُمْ تكذيبَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ [لأنهمْ][5] ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي مِثْلَ الذي سَلَكْناهُ في قلوبِ المؤمنينَ مِنْ قَبولِ الآياتِ والحُجَجِ والتصديقِ لها، لمّا عَلِمَ أنهمْ يَختارونَ ذلكَ ﴿نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مِنْ تكذيبِ الآياتِ والحُجَجِ وردِّها، لمّا عَلِمَ منهمُ الرَّدَّ والتكذيبَ لها. هذا مُحْتَمَلٌ، ويُحْتَمَلُ غيرُ هذا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالتكذيبِ والرَّدِّ والمُعانَدَةِ والمُكابَرَةِ بَعْدَ قِيامِ الحُجَجِ والآياتِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالهلاكِ والاِسْتِئصالِ عندَ مُكابَرَةِ حُجَجِ اللهِ ومعانَدَتِهِمْ إياها.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي نَجْعَلُهُ على ما ذَكَرْنا الكُفْرَ بالعذابِ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي لا يُصَدِّقونَ بالعذابِ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالتكذيبِ لرسلِهِمْ بالعذابِ. فهؤلاءِ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِمْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أي نُدْخِلُهُ؛ يقالُ: السالكُ الداخلُ، والسُّلوكُ الدُّخولُ، وسَلَكْتُ أدخلْتُ. وتصديقُ [قولِهِ][6] قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] وقولُهُ[7]: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] أي أدخِلْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ يُخبِرُ، جَلَّ، وعلا، عن سَفَهِهِمْ وعِنادِهِمْ في سؤالِهِمِ الآياتِ وطَلَبِ نزولِ الملائكةِ. يقولونَ: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيقولُ[8]: إنَّ سؤالَهُمُ الآياتِ، وما سألوا مُتَعَنِّتِينَ مُكابِرينَ ليسوا هُمْ بِمُسْتَرْشِدينَ، لكنَّ أهلَ الإسلامِ، لا يَعْرِفونَ تَعَنُّتَهُمْ بالذِّكْرِ[9] ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ[10] وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: به. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وكذبه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: يقول. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: حيث قال. (١٠) في الأصل وم: الآية ثم قال.

وذلكَ أنَّ المؤمنينَ كانوا يَشفَعونَ لهمْ بسؤالِهِمُ الآياتِ [بقولِهِم][1] لعلَّهُمْ يؤمنونَ، فأخبرَ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يُخبِرُ أنهمْ بسؤالِهِمْ نزولَ الملائكةِ [مُعاندونَ مُكابرونَ][2] لَيسُوا بِمُسْتَرْشِدِينَ.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ يعني على الملائكةِ باباً حتى رَأَوا، أو عايَنُوا الملائكةَ ينزلونَ مِنَ السماءِ، ويَصْعَدونَ، فلا يؤمنونَ [ويقولونَ:

الآية ١٥ قولَهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قيلَ: حُيِّرَتْ، وسُدَّتْ ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي سُحِرَتْ أعيُنُنا، فلا نَرَى ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي لهمْ ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كقولِهِ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ حتى ﴿يَعْرُجُونَ﴾ ويُعايِنونَ نُزولَ الآياتِ، ويُشاهِدونَ كُلَّ شيءٍ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ يقولونَ ذلكَ لشدةِ تَعَنُّتِهِمْ وسَفَهِهِمْ لِشِدَّةِ مُعايَنَةِ ذلكَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قيلَ: نُجوماً، وتَحْتَمِلُ البروجُ المَنازِلَ التي يَنْزِلُ فيها الشمسُ والقَمَرُ والنجومُ؛ جَعَلَ لكلِّ واحدٍ مِنْ ذلكَ مَنْزِلاً يَنْزِلُ في كلِّ ليلةٍ في مَنْزِلٍ على حِدَةٍ. ويَحْتمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ البروجِ: هي مطالِعُ مِنَ الشمسِ والقَمَرِ والنجومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ يعني السماءَ. وفي قولِهِ: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ مَنْ يَنْهَى عنِ النظرِ إلى السماءِ مِنَ القُرّاءِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ زيَّنَها لِلنّاظرينَ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُزيِّنَها، ثم يَنْهَى عنِ النظرِ إليها دلَّ أنهُ لا بأسَ لِلنّاظِرينَ.

وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧] وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] وجَعَلَ اللهُ في الشمسِ والقمرِ والنجومِ مَنافِعَ يَهْتَدونَ بها الطُّرُقَ في ظُلُماتِ الليلِ، وجَعَلَها مَصابيحَ في الظُّلُماتِ[4].

وأخبَرَ أنهُ زَيَّنَها للناظرينَ، لأنَّ ما يقْبُحُ في العَينِ مِنَ المَنْظَرِ، لا يَتَفكَّرُ الناظرُ فيهِ، ولا يَنْظُرُ إليهِ، فَزَيَّنَها[5] لهم لِيَحمِلَهُمْ ذلكَ على التَّفكُّرِ فيهِ والنَّظَرِ إليها لِيَعْلَموا أنهُ تدبيرُ واحدٍ حينَ[6] جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ الأرضِ مَعَ بُعْدِ ما بَينَهُما، وجَعَلَ أشياءَ هي في الظاهرِ أشباهاً، وهي في الحقيقةِ كالأضدادِ لها، ومنها ما هي في الظاهرِ أضدادٌ، وهي كالأشكالِ نَحْوُ النّورِ والظُّلْمَةِ، هي في الظاهرِ أضدادٌ، صارَتْ كالأشكالِ؛ إذْ[7] تُضيءُ النجومُ في ظُلُماتِ الليلِ حتى يَنْتَفِعُ بذلكَ أهلُ الأرضِ، هي في الظاهرِ أضدادٌ، فصارَتْ بما يَظْهَرُ مِنْ مَنافِعِها كالأشكالِ، وجَعَلَ لا يُنْتَفَعُ بضوءِ النجومِ مع نورِ القَمَرِ، ولا يُنْتَفَعُ بنورِ القَمَرِ مع ضَوءِ الشمسِ، وهُنَّ أشكالٌ بما يَذْهَبُ كلُّ واحدٍ منهما بِسُلْطانِ الآخَرِ، لِيُعْلَمَ أنهُ تدبيرُ واحدٍ حين[8] صارَتِ الأضدادُ[9] كالأشكالِ والأشكالُ كالأضدادِ في حقِّ المنفعةِ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ يعني السماءَ ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾][10] ذَكَرَ أنَّ الشياطينَ[11] كانوا يَصْعَدونَ السماءَ، فَيَسْتَمِعونَ مِنْ أخبارِ السماءِ مِنَ الملائكةِ ممّا يكونُ في الأرضِ مِنْ غَيثٍ وغَيرِهِ. ثم زادوا فيها ما شاؤوا، فَيُلْقُونَ إلى الكَهَنَةِ، فَيُخبِرُ الكَهَنَةُ الناسَ، فيقولونَ: ألمْ نُخبِرْكُمْ بالمطرِ في يومِ كذا وكذا، وكانَ حقًّا، ثم مُنِعُوا عَنْ صُعودِهِمْ [إلى السماءِ، وحَفِظَها منهُمْ][12] فَجَعَلوا / ٢٧٥ ـ ب/ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معاندين مكابرين. (٣) في الأصل وم: قالوا. (٤) في الأصل وم: ظلمات. (٥) في الأصل وم: فزينا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من م. (٩) ساقطة من م. (١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل وم: الشيطان. (١٢) في الأصل وم: أعني السماء وحفظوا عنهم.

فَسلَّطَ اللهُ الشُّهُبَ عليهِم حتى [يُقذَفوا بها، وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وقولُهُ تعالى][1]: و﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨ و٩] وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

ويَحتَمِلُ: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ أي أهلَها ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ لِما ذكَرْنا مِنْ ذِكْرِ أشياءَ مِنَ القَرْيَةِ والمِصْرِ والعِيرِ وغيرِهِ، والمُرادُ منهُ أهلُهُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، إلّا أنَّ أهلَ السماءِ بأجْمَعِهِمْ أهْلُ وَلايةِ اللهِ، وأهْلُ طاعتِهِ.

وأمّا أهْلُ الأرضِ ففيهِمْ مِنَ الغاوينَ الضالينَ، فهمْ أولياءُ أهْلِ الشيطانِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ الآية [النحل: ١٠٠].

ويَحْتَمِلُ حِفْظَ السماءِ نفسِها بالملائكةِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ الآية [الصافات: ٨] ويَحْتَمِلُ بالشُّهُبِ التي في غيرِ آيةٍ[2] من القرآنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرجيمُ اللعينُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: مِنْ كلِّ شيطانٍ لَعينٍ. واللَّعينُ في اللغةِ، هو المَطْرودُ، المُبْعَدُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿دُحُورًا﴾ [الصافات: ٩].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] يعني الجبالَ. فظاهرُ هذا أنَّ الأرضَ كأنها مضطربةٌ، وتتكفَّئُ بأهلِها، فأثْبَتَها بالجبالِ، والأرضُ، طَبْعُها التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ، فكيفَ كانَ ثباتُها بشيءٍ، طبعُهُ التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ طَبْعَها، كانَ الاضطرابَ والانْكِفاءَ، فأثْبَتَها بالجبالِ عنِ الاضطرابِ والانْكِفاءِ؟ أو أنْ يُقالَ: مِنْ طَبْعِها ما ذكَرْنا: التَّسَفُّلُ والانْحِدارُ، إلّا أنَّ اللهَ بلُطْفِهِ أثْبَتَ ما هو طَبْعُهُ التَّسَفُّلُ كذلكَ. لِيُعْلَمَ لُطْفُ اللهِ وقدرتُهُ، وقد ذكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِيهَا﴾ يعني في الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي ما يوزَنُ مِنْ نَحْوِ الذَّهبِ والفِضَّةِ والحديدِ والرَّصاصِ ونَحْوِهِ ممّا يُسْتَخْرَجُ منها. وهذا كأنهُ ليسَ بصحيحٍ، لأنهُ لا يُقالُ في الذَّهبِ والفِضَّةِ والحَديدِ: إنهُ أُنْبِتَ في الأرضِ كما يُقالُ ذلكَ للنباتِ وما يَنْبُتُ فيها، وإنما يُقالُ للذَّهَبِ والفِضَّةِ والحديدِ: جَعَلْنا فيها، أو خَلَقْنا فيها.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ يعني في الأرضِ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مِنْ كلِّ ألوانِ [النباتِ][3] مَوزونٍ أي مَعلومٍ مُقَدَّرٍ بِقَدَرٍ كقولِهِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] ويَحْتَمِلُ ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ وما يصيرُ مَوزوناً في الآخِرَةِ مِنَ الزروعِ وغيرِها والحبوبِ أو ما ذكَرْنا: أي، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على الجُزافِ على ما يكونُ مِنْ فِعْلِ جاهلٍ على غيرِ تدبيرٍ ولا تقديرٍ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ما لوِ اجْتَمَعَ الخلائقُ لم يَعْرِفوا قَدْرَ ما يَزدادُ، ويَنْمو مِنَ النباتِ في لَحْظَةٍ واحدةٍ وطَرْفَةِ عَينٍ في أوّلِ ما يَخْرُجُ، ويَبْدو مِنَ الأرضِ، وذلكَ مَوزونٌ عندَهُ مَعلومٌ قَدْرُهُ لِيُعْلَمَ لُطْفُهُ [وقُدْرَتُهُ وتدبيرُهُ وعِلْمُهُ وأنهُ تدبيرُ][4] واحدٍ حينَ[5] لم يَخْتَلِفْ ذلكَ، ولم يَتفاوَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾ [الحجر: ١٤] أي [صاروا، وقولُهُ][6]: ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يرتَفِعونَ، ويَصْعَدونَ، وقالَ غيرُهُ: ﴿يَعْرُجُونَ﴾ أي مالوا كقولِهِ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ [الشعراء: ٤] وقالَ: قولُهُ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥] أي حُيِّرَتْ، يقالُ: سُكِّرَ بَصَرُهُ إذا تَحَيَّرَ، وقالَ: يُقالُ أيضاً: تَحَيَّرَتْ، يقالُ: سَكَّرَ اللهُ بَصَرَهُ، أي حَيَّرَهُ، وسَكَرَتِ الريحُ، تَسْكُرُ سُكوراً إذا سَكَنَتْ، ويُقالُ: ليلٌ ساكِرٌ أي ساكِنٌ، وسَكَرْتُ الماءَ، أسْكُرُهُ سَكْراً، أي حَبَسْتُهُ، والسَّكْرُ السَّدُّ والسُّكورُ جَمْعٌ، والسُّكْرُ مَصْدَرُ سَكِرَ يَسْكَرُ سُكْراً، فهو سَكْرانُ، وقومٌ سَكْرَى وسُكارَى، والسَّكْرَةُ الغَمْرَةُ، والغَمْرَةُ الشِّدَّةُ. وقالَ ﷻ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] أي شِدَّتُهُ وعُسْرَتُهُ[7].

---

(١) في الأصل وم: يقذفون وهو قوله. (٢) في الأصل وم: آي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: وتدبيره. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل: طاروا يومهم، في م: صاروا يومهم. (٧) ساقطة من م.

وقالَ القُتَبِيُّ: سُكِرَتْ غُشِيَتْ، ومنهُ يُقالُ: سَكَرَ النهرَ إذا سَدَّهُ، فالسُّكْرُ اسْمُ ما سُكِرَتْ، وسُكْرُ الشرابِ منهُ، إنما هو الغِطاءُ على العَقْلِ والعَيْنِ.

وقالَ الحَسَنُ: سُكِرَتْ بالتخفيفِ[1] سُحِرَتْ، وقولُهُ تعالى: ﴿بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦] قالَ: اثْنَي عَشَرَ بُرْجاً، وأصلُ البُرجِ[2] الحِصْنُ والقَصْرُ؛ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٧، ١٨] يقولُ: حَفِظْناها مِنْ أنْ يَصِلَ إليها شيطانٌ، أو يَعْلَمَ مِنْ أمْرِها شيئاً إلا استراقاً ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي كوكبٌ مُضيءٌ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ يُقالُ: اسْتَرَقْتُ السمعَ، أي تَقَفَّيْتُ[3] قوماً حتى سَمِعْتُ حديثَهُمْ، وهُمْ لا يَعْلمونَ. وهكذا لو عَلِمَ الملائكةُ أنَّ الشياطينَ يَسْتَرِقونَ السمعَ، ويَخْطَفُونَ، لَمَنَعوا مِنْ ذلكَ، وامْتَنَعوا عنِ التَّكَلُّمِ بهِ حتى لا يَسْتَمِعوا كلامَهُمْ وحديثَهُمْ. وشِهابٌ: كوكبٌ. وقيلَ: الشِّهابُ خَشَبَةٌ، في طَرَفِها نارٌ، والشُّهْبانُ جماعةٌ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ لِرسولِ اللهِ، كانَ لهُ [خاصًا، لم يكُنْ لِغيرِهِ][4] واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي في الأرضِ والجبالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي جَعَلْنا لكُمْ في الأرضِ مَعايِشَ: ما تَعيشونَ بهِ، ولِمَنْ حولَكُمْ أيضاً جَعَلَ فيها مَعايِشَ، لا تَرْزُقونَهُ أنتمْ، إنما ذلكَ على اللهِ، هو يَرْزُقُهُمْ وإيّاكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ الوَحْشُ والطَّيرُ. وأمّا الأنعامُ فإنَّهُ قد أشْرَكَهُمُ البَشَرَ في المعَايِشِ. وكانَ غيرُ هذا أقْرَبَ وأوْفَقَ، وهو أنَّ أهلَ مكَّةَ، كانوا[5] يَمُنّونَ على رسولِ اللهِ ﷺ، ويقولونَ: نحنُ رَبَّيْناهُ، وغَذَّيْناهُ، وأنْفَقْنا عليهِ، ورَزَقْناهُ، ثم فَعَلَ بنا كذا. فَخَرَجَ هذا جواباً لهمْ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي محمداً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلمُ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ يُخْزَنُ في الخَلْقِ ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي إلّا عندَنا تلكَ الخزائنُ، أي ما تَخْزُنونَ مِنَ الأشياءِ فذلكَ[6] عندَنا، وفي خزائِنِنا.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ على هذا ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ وما نعطيهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي وإنْ كانَ عندَكُمْ مَخْزوناً محبوساً [فإنَّ ذَلكَ كلَّهُ مِنْ][8] خزائِنِهِ، أعطى مَنْ شاءَ، وحَرَمَ مَنْ شاءَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ الخزائنَ، وهي الأمكنةُ الخَفِيَّةُ التي تُخْزَنُ فيها الأموالُ، وبَواطِنُ مِنَ الأرضِ. نقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ كانَ في بَواطِنِ الأرضِ وأمكنةٍ خَفِيَّةٍ ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ تدبيرُ ذلكَ وعِلْمُهُ؛ يُخْبِرُ أنَّ تَدْبيرَهُ وعِلْمَهُ في الخَفِيَّةِ مِنَ الأمكنَةِ[9] كَهُوَ في الظاهِرِ؛ لا يَخْرُجُ شيءٌ عَنْ تدبيرِهِ. بلْ كلُّ ذلكَ في تدبيرِهِ وعلمِهِ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي الماءُ الذي به جَعَلَ حياةَ كلِّ شيءٍ، ولا يَخْرُجُ شيءٌ عنْ مَنافِعِهِ فهو خِزانةُ[10] الأشياءِ كلِّها، وقِوامُ كلِّ شيءٍ، وقالَ: ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وذَكَرَ الإنزالَ، وهو الذي يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ظاهِراً؟.

هذا الذي قالَهُ مُحْتَمَلٌ. لكنْ تَمامُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ الماءَ خَزائِنُهُ والخَزائِنُ، هي [المَواضِعُ التي][11] تُخْزَنُ فيهِ.

وفي الماءِ قُوَّةٌ ومَعْنًى، يكونُ فيه حياةُ الخَلْقِ ومَنافِعُهُمْ في ما جَعَلَ فيهِ لا في نفسِ الماءِ.

ألا تَرى أنهُ يُصيبُ عُروقَ الشَّجَرِ، فَتَظْهَرُ مَنافِعُهُ في غُصونِها في أعلاها؟ فَثَبَتَ أنَّ فيهِ قُوَّةً سِرِّيَّةً ومَعْنًى، تكونُ المَنافِعُ بها لا بِنَفْسِ الماءِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم ما ذَكَرَ مِنَ الخَزائِنِ والرياحِ والماءِ والمَطَرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ النِّعَمِ يَذْكُرُ على الاحتِجاجِ عليهِمْ، لأنهُ إنما أنشأ هذهِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرانية ج٣/٢٥٢. (٢) في الأصل وم: البروج. (٣) في الأصل وم: تقفلت. (٤) في الأصل وم: خاصة لم يكن.
(٥) في الأصل وم: كانهم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: فإنه ذلك كل، في م: فإن ذلك كله.
(٩) من م، في الأصل: الأرض. (١٠) في الأصل: خزانته. (١١) في الأصل وم: الموضع الذي.

الأشياءَ، وخلَقَها لهؤلاءِ لا أنهُ أنشأَها لِنفسِها. فإذا كانَ أنشأَها لهمْ، فلا يَحتَمِلُ أنْ يَترُكَهُمْ، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنهاهُمْ، ولا يَمتَحِنُهُمْ، ولا يَجعَلُ لهمْ عاقبَةً، يُثابونَ، ويُعاقبونَ. ولذلكَ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ على التأويلِ الأوَّلِ ما ذَكَرْنا، أي ما نُعطيهِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وإنْ خزنَهُ، وحَبَسَهُ/ ٢٧٦ـأ/ ويَحتَمِلُ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ بِقَدَرٍ سابقٍ مَعلومٍ ذلكَ، أي إنْ كانَ على هذا فإنهُ يدلُّ على أنَّ [ما][1] يكونُ، ويَحدُثُ، إنما يكونُ بِقَدَرٍ سابقٍ، لا يكونُ غيرَ ما سَبَقَ تقديرُهُ، أو ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ محدودٍ، أي ليسَ يُنَزِّلُ جُزافاً، ولكنْ مَعلوماً مَحدوداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حَوامِلَ، وقالَ بعضُهُمْ: هذا لا يَصِحُّ [لأنهُ][2] لو كانَ على هذا لكانَ مَلاقِحَ ومُلْقِحاتٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ تُلقِحُ الشجرَ، أي تُنبِتُ وَرَقَها، وهي مُلقَحَةٌ، وقالَ: يُقالُ: ناقةٌ لاقحٌ، أي حاملٌ، قد حَمَلَتْ، ونوقٌ لَواقِحُ، ويُقالُ: حَرْبٌ لاقِحٌ [أي شديدةٌ][3] وسَحابٌ لاقِحٌ، [وهو][4] الذي فيه ماءٌ أي مَطَرٌ، وريحٌ لاقِحٌ، أي مُلقِحٌ، تُلقِحُ الشجرَ، أي تُنبِتُ وَرَقَهُ وحَمْلَهُ. ويُقالُ: ألْقَحَ الرجلُ إذا لَقِحَتْ إبِلُهُ، أي حَمَلَتْ، ورجلٌ مُلقِحٌ، واللَّقوحُ الناقةُ التي مَعَها وَلَدٌ صغيرٌ، والجَمْعُ لِقاحٌ، وجَمْعُ الجَمْعِ لَقائِحُ، واللُّقَّحُ اللَّواقِحُ، وهي الحوامِلُ مِنَ الإبلِ.

قالَ القُتَبِيُّ: قالَ أبو عُبَيدَةَ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ إنما هي ملاقِحُ جمعُ مُلْقِحَةٍ، ويُريدُ أنها تُلقِحُ الشجَرَ، وتُلقِحُ السحابَ، كأنها تُنتِجُهُ، واللَّواقِحُ المُنتِجَةُ الثمارَ مِنَ الأشجارِ والسحابِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا على التأويلِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١] ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ وعلى تأويلِ الحَسَنِ هو ما ذَكَرَ مِنَ الماءِ والمَطَرِ ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي ليسَتْ خزائِنُهُ[5] في أيديكُمْ ولا بِيَدِ أحدٍ، ولكنْ بِيَدِ اللهِ ﷻ، وعلى تأويلِ الآخَرِ ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ بِمُدَبِّرينَ ما خُزِنَ في الأرضِ، ودُفِنَ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي الباقونَ، يَفنَى الخَلْقُ كُلُّهُ، فَيَبْقَى هو.

ولذلكَ سُمِّيَ مَنْ خَلَفَ الميتَ وارثاً، لأنهُ يموتُ، ويبقَى الوارثُ، وهو باقٍ. وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ مِنَ المُكَذِّبينَ منكُمْ ما حَلَّ بهِمْ بالتكذيبِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مِنَ المُكَذِّبينَ منكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ مَنْ كانَ منهُمْ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَنْ يكونُ منهُمْ، ويُولَدُ.

الآية ٢٥ ولذلكَ قالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ مَنْ مَضَى، ومَنْ بَقِيَ، [ومَنْ][6] لم يكُنْ بَعْدُ إلى يومِ القيامةِ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الخيرِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في الشَّرِّ، وقالَ بعضُهُمْ: [﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الصَّفِّ الأوَّلِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في الصَّفِّ الأخيرِ][7] لكنهُ بعيدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ.

أحدُهما:][8] هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مَواضِعَها.

والثاني: هو الذي يَجعَلُ للأشياءِ مَوضِعَها.

فالأوَّلُ: قد يَعرِفُ الخَلْقُ الأشياءَ مَواضِعَها، وأمّا الثاني: فلا يكونُ ذلكَ إلّا باللهِ. وقولُهُ: ﴿عَلِيمٌ﴾ عليمٌ بِمصالحِ الخَلْقِ، ومالَهُمْ، وما عليهِمْ، أو عليمٌ بِوَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: خزائن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: في الوصف والآخر. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] وقالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وقالَ في [آيةٍ][1] أُخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقالَ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

ذَكَرَ مَرَّةً الحَمَأَ المسنونَ؛ وقيلَ: هو الطينُ الأسودُ المُتَغَيِّرُ، وذَكَرَ مَرَّةً الترابَ، ومَرَّةً الطينَ اللازِبَ، وهو المُلتَزِقُ، ومَرَّةً مِنْ سُلالَةِ الطينِ. فَيُشْبِهُ أَنْ يكونَ على الأحوالِ واختِلافِ الأوقاتِ: كانَ في الحالِ[2] الأوَّلِ تراباً، وفي حالٍ طيناً لازِباً وفي حالٍ حَمَأً مَسْنوناً، وهو الذي اسْوَدَّ، وتَغَيَّرَ لِطولِ مُكْثِهِ، وصَلْصالاً وفَخّاراً[3]. فَقَبْلَ أَنْ يكونَ خَلْقاً مركباً: الجوارحُ فيهِ والعظامُ، كانَ على[4] هذهِ الأحوالِ الثلاثةِ على [ما][5] أخبَرَ مِنْ تَغَيُّرِ أحوالِ أولادِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥، . .] ذَكَرَ أحوالاً ثلاثةً قَبلَ أَنْ يَخْلُقَ [فيهِ][7] لَحماً وعَظْماً في حالٍ، كانَ نُطْفَةً [ثم صارَ عَلَقَةً][8] ثم صارَ مُضْغَةً.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ في آدمَ مِنْ ترابٍ وطينٍ وحَمَإٍ ونَحْوِهِ، إنْ كانَ على اختِلافِ الأحوالِ على ما ذَكَرْنا.

أو أن يكونَ على التشبيهِ والتمثيلِ بالطينِ الذي ذُكِرَ، وهو أنَّ الطينَ الذي يكونُ كالصلصالِ والفَخّارِ واللازِبِ ونَحْوِهِ، هو الطينُ الطَّيِّبُ الذي يكونُ منهُ البنيانُ والأواني والقُدورُ وجميعُ أنواعِ المَنافِعِ.

وأما الطينُ الذي يَخْبُثُ فإنهُ لا يُتَّخَذُ منهُ شيءٌ مِمّا ذَكَرْنا، ولا يُتَّخَذُ، ولا يَتَهَيَّأُ اتِّخاذُ شيءٍ مِنْ ذلكَ. فَيُشْبِهُ خَلْقَ آدمَ بالطينِ الذي يَجْتَمِعُ فيهِ جميعُ أنواعِ المَنافِعِ. فَعَلى ذلكَ جَمَعَ في آدمَ جميعَ أنواعِ المَنافِعِ والخَيرِ كالطِّينِ الطَّيِّبِ.

ثم فيه دلالةُ قدرتِهِ وسُلطانِهِ وذِكْرُ نِعَمِهِ حينَ[9] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنْ تُرابٍ وطينٍ وما ذَكَرَ، وليسَ في الترابِ ولا في الطينِ مِنْ أَثَرِ البَشَرِيَّةِ شيءٌ، وكذلكَ ليسَ في النطفةِ التي خَلَقَ البَشَرَ منها أَثَرُ البَشَرِيَّةِ شيءٌ لِيُعْلَمَ أنهُ قادِرٌ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ شيءٍ ومِنْ لا شيءٍ؛ إذْ ليسَ في ما ذَكَرَ مِنَ الطينِ والترابِ الذي خَلَقَ منهُ أبا البَشَرِ مِنْ أَثَرِ البَشَرِيَّةِ [فيه شيءٌ، ولا في النطفةِ التي خَلَقَ منها أولادَهُ مِنْ أَثَرِ البَشَرِيَّةِ][10] والإنسانِيَّةِ مِنَ اللحمِ والعَظْمِ والشَّعْرِ وغيرِهِ، وما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ العَقْلِ والعِلْمِ والتدبيرِ والجوارحِ وغيرِ ذلكَ، شيءٌ، لِتُعْلَمَ قدرتُهُ وسُلطانُهُ على خَلْقِ الأشياءِ لا مِنْ شيءٍ، وليَعْرِفوا نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ حينَ[11] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنْ طينٍ لازِبٍ وصَلْصالٍ وما ذَكَرَ؛ وذلكَ وَصْفُ الطينِ الطَّيِّبِ لأنَّ ما خَبُثَ مِنَ الطينِ، لا يَبْلُغُ المَبْلَغَ الذي وَصَفَ، ولا يَصيرُ إلى تلكَ الحالِ، وإنْ طالَ مُكْثُهُ لأنهُ لا يُنْتَفَعُ بهِ لا مِنِ اتِّخاذِ البنيانِ والأواني والقدورِ، ولا يُنْبِتُ الزروعَ أيضاً، فَيَحْتَمِلُ على التمثيلِ الذي ذَكَرْنا لا على التَّحْقيقِ[12] أو على التحقيقِ على الأحوالِ المُخْتَلِفَةِ. فَدَلَّ أنهُ إنما خَلَقَهُ مِنْ طينٍ، طابَ أصْلُهُ.

فَعَلى ذلكَ تَحْتَمِلُ النطفةُ التي يَخْلُقُ منها البَشَرَ، [أنْ][13] تكونَ طاهرةً، وهي لا تُصيبُ شيئاً [مِنَ النجاساتِ والرطوباتِ في البَدَنِ][14] وهي على غَيرِ الوصفِ، تُخَرَّجُ، لأنهُ قالَ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] وقالَ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

والصَّلْصالُ: قالَ بعضُهُمْ: هو الترابُ اليابسُ، والحَمَأُ الطينُ الأسودُ، والمَسْنونُ المُنْتِنُ المُتَغَيِّرُ. وقالَ بعضُهُمْ: الصَّلْصالُ هو الذي إذا ضَرَبْتَهُ يُصَوِّتُ، ومنهُ يُقالُ: صَلْصَلَةُ اللِّجامِ، والفَرَسِ إذا كانَ يُصَلْصِلُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصَّلْصالُ الطينُ اليابسُ الذي لا يصيبُهُ النارُ، فإذا نَقَرْتَهُ صَوَّتَ، فإذا مَسَّتْهُ النارُ فهو فَخّارٌ.

والمَسنونُ المُتَغَيِّرُ الرائحةِ، والمَسْنونُ أيضاً المَصْبوبُ، وسَنَنْتُ الشيءَ إذا صَبَبْتُهُ صَبًّا سَهْلاً، وسَنَّ الماءَ على وَجْهِكَ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حال. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: التخصيص. (١٣) و(١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الحَمَأُ الترابُ الأسودُ، يكونُ في أسفلِ البئرِ، ومِنْ هذا سُمّيَ الحَمأُ، لأنهُ يَحمَأُ أنْ يُرْعَى، ويُقالُ: حَمأتِ الحَرْبُ والشمسُ والتنورُ يَحمَأُ إذا اشتدَّ حَرُّهُ، و﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي مخلوقٍ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قالَ بعضُهُم: الجانُّ هو إبليسُ، وقالَ بعضُهُم: الجانُّ هو أبو البَشرِ، وإبليسُ، هو أبو الشياطينِ، سُمُّوا شَياطينَ لِتَمَرُّدِهِم في فِعْلِهِم، والجانُّ[1] مُقتَبَسٌ مِن فِعْلِهِم.

ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ مِنَ الإنسِ والجِنِّ شياطينَ؟ وهو قولُهُ: ﴿شَيَٰطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وذلكَ لِتَمَرُّدِهِم، والجانُّ مُقتَدِرٌ عنِ الجِنِّ، واللهُ أعلمُ بذلكَ.

والسَّمومُ: قالَ بعضُهُم: السَّمومُ لَهَبُ النارِ، كأنهُ ليسَ[2] لهُ دخانٌ، وهو المارجُ ﴿مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] والمارجُ هو المُنقَطِعُ منها. وقالَ بعضُهُم: /٢٧٦ ـ ب/ مِنْ جِنسِ النارِ، كأنهُ أرادَ لَهَبَها، وقالَ: نارُ السَّمومِ الحارَّةُ التي تَقتُلُ.

فإنْ كانَ السَّمومُ والمارجُ ما ذَكَرَ بعضُهُم أنهُ لَهَبُ النارِ، فمِنْ طَبْعِهِ الارتفاعُ والعُلُوُّ. فعلى ذلكَ ما خُلِقَ منهُ، طَبْعُهُ الارتفاعُ والعُلُوُّ، وهو الجانُّ الذي ذُكِرَ. والطينُ، طَبْعُهُ التَّسَفُّلُ والانحدارُ إلى الأرضِ، فعلى ذلكَ ما خُلِقَ مِنهُ، طَبْعُهُ الهُوِيُّ إلى الأرضِ والمَيلُ إليها.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَالْجَآنَّ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: الجِنُّ واحدُ الجانِّ، والجانُّ جَمْعٌ، سُمّيَ ذلكَ لاستِجانِهِ، وقالَ غيرُهُ: الجِنُّ الجماعةُ، والجانُّ الواحدُ.

الآيتان ٢٨ و ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي أتمَمْتُهُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] لم يُشْتَبَهْ هذا على الناسِ، ولم يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [وقولِهِ][4]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] ما فَهِموا مِنْ نَفْخِ الخَلْقِ.

فما بالُهُم فَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤، ...] وقولِهِ[5]: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ونَحوِهِ استواءَ الخَلْقِ. بلْ [فَهِموا نَفْخَةً منهُ][6] فَهْمَ نَفْخِ الخَلْقِ أكثرَ مِنِ استوائِهِ لأنهُ أمكَنَ صَرْفُ الاستِواءِ إلى وجوهٍ، ولا يُمكِنُ صَرْفُ النَّفْخِ منهُ. لكنَّهُ اشتَبَهَ عليهِم لأنهُم اقتَدَروا فِعْلَ اللهِ بفِعْلِ الخَلْقِ، ولا يَجِبُ أنْ يَقتَدِروا بالخَلْقِ على ما لم يَقتَدِروا في قولِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧، ...] و﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣، ...] و﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] و﴿خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] وأمثالِها[7]. وقد أخبَرَ أنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أو تَلَقِّينَ مِنَ الشيطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رُّوحِي﴾ و﴿رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أي الروحُ الذي بهِ حياةُ الخَلْقِ، أي خَلْقَ الذي يكونُ بهِ حياةُ الخَلْقِ على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ ممّا ذَكَرَ خبراً[8] أنهُ سيَفعَلُ، وأمراً[9] لهُم بالسجودِ [فيكونُ الأمرُ بالسجودِ][10] بَعدَ ما خَلَقَهُ إيّاهُ. فهذا يدلُّ أنهُ قد يجوزُ تَقدُّمُ الأمرِ عن وَقتِ الفِعْلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٠ و ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾ ظاهرُ الأمرِ بالسجودِ والاستِثناءِ الذي ذَكَرَ أنَّ إبليسَ مِنَ الملائكةِ لأنَّ [الأمرَ بالسجودِ كانَ فيهِم، ومنهم وَقَعَ][11] الثُّنيا، وقد ذَكَرْنا اختِلافَهُم وأقاويلَهُم في ما تَقَدَّمَ مقدارَ ما حَفِظناهُ[12].

[ثم الأصلُ أنَّ][13] كُلَّ ما خُرِّجَ مُخرَجَ الاستِثناءِ يجبُ أنْ يُسقَطَ اسمُ ما أُجمِلَ نَحوُ قولِ الرَجلِ لآخَرَ: لكَ عَلَيَّ

---

(١) من م، في الأصل: ذلك. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في م: فهم نفخة من، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وأمثاله. (٨) في الأصل وم: خبر. (٩) في الأصل وم: أمر. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فيهم كان الأمر بالسجود، ومنهم وقع. (١٢) في تفسير الآية ٤٥ من سورة البقرة. (١٣) في الأصل وم: قال والأصل بأن.

عَشَرَةٌ، إلا درهماً، يُسْقِطُ الاستثناءُ ما أُجْمِلَ مِنَ الاسْمِ حتى صارَ تِسْعَةً. وكذلكَ إذا قالَ: [لكَ عليّ][1] ألفٌ إلا خمسينَ، وإذا لم يُسْقِطْ ذلكَ الاسْمُ فلا بُدَّ أنْ يكونَ الكلُّ فيهِ مُضْمَراً نَحْوَ قولِ الرجلِ: رأيتُ علماءَ بلدةِ كذا إلا فلاناً؛ يجبُ أنْ يُضْمَرَ فيهِ حرفُ الكُلِّ حتى يَقَعَ على كُلٍّ نَحْوَ أنْ يقولَ: رأيتُ كُلَّ علماءِ بلدةِ كذا إلا فلاناً، فَعلى ذلكَ تخصيصُ العمومِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] قالَ: الصَّلْصالُ هو الطينُ الحُرُّ الذي يَتَصَلْصَلُ مِنْ صلابتِهِ ويُبوسَتِهِ، والحَمأُ الطينُ المَسْنونُ، قالَ: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ خَلْقَتُهُ، فهو سُنَّةٌ لِلْخَلْقِ بَعْدَه، مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أنْ يُخلَقوا على خِلْقَتِهِ، وكقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يقولُ: اسْتَلَّها مِنْ بَيْنَ ظَهرانَي الطينِ لا كلَّ طينٍ خَلَقَهُ، وكذلكَ قالَ في تناسُلِ ذُرِّيَّتِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ليسَ مِنْ كلِّ ما خَلَقَهُ، ولكنِ اسْتَلَّها مِنْ بَيْنِ ظَهْرانَي الماءِ.

وقالَ ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ إبليسُ هو أبو الجِنِّ ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي مِنْ قَبْلِ آدمَ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] يقولُ: السَّمومُ هو اسمٌ مِنْ أسماءِ جَهَنَّمَ، ولها[2] أسماءٌ كثيرةٌ. أخْبَرَ أنهُ خَلَقَهُ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي جَهَنَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٣١ و٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وقالَ لهُ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ. ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ذَكَرَ مِثْلَ هذا على اختِلافِ الألفاظِ. ومعلومٌ أنَّ هذهِ المُخاطباتِ مَعَهُ، لم تكُنْ مَعَهُ مِراراً، ولكنْ بِمَرَّةٍ واحدةٍ.

قال أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ذَكَرَ اللهُ تعالى قصةَ إبليسَ وقِصصَ[3] الأنبياءِ جميعاً في مَواضِعَ، لأنها كذلكَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فَذَكَرَها على ما في كُتُبِهِمْ لِيَعْلَموا أنَّ نبيَّ اللهِ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ لِيَدُلَّهُمْ على صِدْقِهِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ اختِلافَ الألفاظِ وتَغْييرَها لا يوجِبُ اختِلافَ الحُكْمِ، ولا[4] يُغَيِّرُ المَعْنى. فهذا يدلُّ أنَّ الخَبَرَ إذا أدّى مَعْناهُ على اختِلافِ لَفْظِهِ فإنهُ يَجوزُ. وكذلكَ إذا قُرِئَ بِغَيرِ لسانِ الذي أُنْزِلَ فإنهُ يجوزُ إذا أتى بِمَعناهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ قولُهُ: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: اخرُجْ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ. وقالَ بعضُهُمْ: اخرُجْ مِنَ الأرضِ إلى جَزائِرِ البحرِ. وقالَ بعضُهُمْ: اخرُجْ مِنَ الجنةِ، وأمثالِها[5]. أوِ اخرُجْ مِنْ صورةِ الملائكةِ إلى صورةِ الأبالِسَةِ.

وجائزٌ أنْ يُقالَ: اخرُجْ مِنْ كذا إلى مكانِ كذا على غَيرِ حقيقةِ الخروجِ. ولَسْنا نَدْري كيفَ كانَ ذلكَ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿رَجِيمٌ﴾ قيلَ: الرجيمُ المَلْعونُ، وقيلَ: الرجيمُ ما يُرْجَمُ بالكواكبِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ اللعنةُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ والخِذْلانُ؛ طُرِدَ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ إلى يومِ الدينِ حتى لا يهتَدِيَ إلى دينِ اللهِ وهداهُ. ثم يومُ الدينِ لهُ العذابُ الدائمُ واللعنةُ القائمةُ[7].

الآيات ٣٦ و٣٧ و٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لُعِنَ اللعينُ، وطُرِدَ عَنْ رحمتِهِ إلى يومِ الدينِ؛ أي لا تُدْرِكُهُ الهدايةُ، لأنَّ الهدايةَ في الدنيا إنما تُدرِكُهُ برحمتِهِ. والرحمةُ في الآخرةِ هي العَفْوُ عما لَزِمَهُ، ووَجَبَ عليهِ.

مسألةٌ، تكلّموا فيها: ما الحِكْمَةُ في خَلْقِ اللهِ تعالى إبليسَ مَعَ عِلْمِهِ ما يكونُ منهُ مِنْ إفسادِ خَلْقِهِ والدعاءِ إلى المَعاصي وإنظارِهِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وقد عَلِمَ أنهُ إنما يُنْظِرُهُ لِيُفْسِدَ عبادَهُ؟ فَمَعَ ما عَلِمَ ما يكونُ منهُ، فما الحِكْمَةُ في خَلْقِهِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وله. (٣) في الأصل وم: وقصة. (٤) في الأصل وم: بعد ألا. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: القائم.

قالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ إبليسَ وأهلَ المَعاصي معَ عِلمِهِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقْ لِمنافِعِ نفسِهِ ولا لِحاجَةِ نَفْسِهِ، وأنَّ معاصِيَهُمْ[١] لا تَضُرُّهُ، ولا تُدْخِلُ نُقْصاناً في مُلْكِهِ. فَخَلَقَهُ مع عِلْمِهِ لِما يكون منهُ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقِ الخَلْقَ لِمنافِعِ نفسِهِ ولا لِحاجتِهِ ولكنْ لِمنافِعِ أنفسِهِمْ ولحاجاتِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ الأعداءَ والأولياءَ نَظَراً لِلأولياءِ، لِيَعْلَمَ أولياؤُهُ الاخْتِصاصَ الذي اخْتَصَّهُمْ بهِ، ولو كانوا جميعاً أولياءَهُ لم يَعْرِفوا فَضيلَةَ اللهِ واخْتِصاصَهُ إياهُم. وهكذا النِّعَمُ وإحسانُ اللهِ لا يُعْرَفُ بِنَفْسِ النِّعَمِ ونَفْسِ الإحسانِ، وإنما تُعْرَفُ بالبلايا والشدائدِ التي تَحُلُّ. فَعَلَى ذلكَ الأولياءُ؛ لولم يكنِ الأعداءُ لم يَعْرِفوا اخْتِصاصَ اللهِ لهمْ وفضائِلَهُ التي أكْرَمَهُمْ بها.

وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَ الأعداءَ نَظَراً لِلأولياءِ على ما ذَكَرْنا، لكنْ مِن وجهٍ آخَرَ: وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ جائزٌ أنْ يُنْشِئَ أشياءَ، فيها حِكْمَةٌ وسِرِّيَّةٌ، لا يَبْلُغُها عِلْمُ الخَلْقِ، ولا تُدْرِكُها حِكْمَةُ البَشَرِ على ما جَعَلَ النِّعَمَ الظاهرةَ، فيها حِكْمَةُ مَعْنًى، لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلْقِ ولا حِكْمَةُ[٢] البَشَرِ. وكذلكَ البلايا والشدائدُ، فيها حِكْمَةٌ، لا يَبْلُغُها عِلْمُ الخَلْقِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنهُ خَلَقَ إبليسَ والعُصاةَ والغُواةَ لِحِكْمَةٍ، جَعَلَ في ذلكَ حِكْمَةً، لا يَبْلُغُها عِلْمُ الخَلْقِ، ولا تُدْرِكُها حِكْمَةُ البَشَرِ على ما ذَكَرْنا مِنَ النِّعَمِ الظاهرةِ والشدائدِ الظاهرةِ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الخَلْقَ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ، يَعْصونَ، ويُعادُونَ، لكنْ [مَكَّنَ لهمْ][٣] مِنَ الاخْتِيارِ والإيثارِ ما بهِ نَجاتُهُمْ وهَلاكُهُمْ إذا اختاروا / ٢٧٧ ـ أ/ ذلكَ. فإذا اختاروا ما بهِ نجاتُهُمْ نَجوا، وإذا اختاروا ما بهِ هلاكُهُمْ هَلِكوا، فيكونُ هلاكُهُمْ باختيارِهِمْ ونَجاتُهُمْ باختيارِهِمْ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنهُ أنْشَأَهُمْ في هذهِ الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ فيها، وفي خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنْ إبليسَ وغيرِهِ مِنَ الأعداءِ لِيُتِمَّ لهمُ المِحْنَةَ. وفي تَرْكِ خَلْقِ ذلكَ ذهابُ المِحْنَةِ، وهي دارُ الامْتِحانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إلى النفخةِ الأولى. وقيلَ: إلى النفخةِ الثانيةِ، ونَحْوُهُ. لكنا لا نَعْلَمُ ذلك. وكأنهُ تعالى أنْظَرَهُ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ولم يُبَيِّنْ لهُ ذلكَ الوَقْتَ، ولم يُطْلِعْهُ عليهِ حينَ[٤] قالَ: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٤٨] أخْبَرَ أنهُ يَرَى ما لا يَرونَ هُمْ، وأنهُ يَخافُ اللهَ. ولو كانَ بَيَّنَ لهُ الوَقْتَ المَعْلومَ لَكانَ لا يَخافُ هلاكَهُ قَبْلَ ذلكَ الوَقْتِ.

فهذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ؟

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي لَعَنْتَني، وهذا منهُ احْتِيالٌ وفرارٌ عن مذهبِ الاعْتِزالِ وما يُلْزِمُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ يُلْزِم في قولِهِ: لَعَنْتَني، لأنَّ اللَّعْنَ هو الطَّرْدُ، فإذا طَرَدَهُ عَنْ رحمتِهِ فقد خَذَلَهُ في الطَّرْدِ. والإغواءُ والإضلالُ سَواءٌ؛ فَيَلْزِمُ في اللَّعْنِ ما يُلْزِمُهُمْ في الإغواءِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الإغواءُ واللَّعْنُ مِنَ اللهِ شَتْمٌ. لكنَّ هذا بعيدٌ؛ لا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ الشَّتْمُ [ولا يُقالُ][٥] إنهُ يَشْتُمُ؛ لأنَّ الشاتمَ والسابَّ لِآخَرَ في الشاهدِ بِما يَشْتُمُهُ مَذمومٌ عندَ الخَلْقِ. فلا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ ما بهِ يُذَمُّ.

وأصْلُهُ أنَّ قولَهُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ خَلَقَ فِعْلَ الغِوايَةِ منهُ، أو أغواهُ لَمّا عَلِمَ أنهُ يَختارُ الغِوايَةَ والضلالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ في الغِوايَةِ بِما أُغْويهِمْ. وقد ذَكَرْنا هذا وأمثالَهُ في ما تَقَدَّمَ.

فإنْ قيلَ: قولُهُ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قولُ إبليسَ وهو كاذبٌ بالإضافةِ إليهِ، قيلَ: [لو كانَ][٦] في ما أضافَ إليهِ الإغواءَ كاذباً

---

(١) في الأصل وم: معاصيه. (٢) في م: حكم. (٣) في الأصل: كن، في، م: كن لهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

لَكَذَّبَهُ، وردَّ عليهِ قولَهُ [كما كَذَّبَهُ، وَرَدَّ عليهِ][1]: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن [نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾][2] [الأعراف: ١٢، ص ٧٦] حينَ[3] ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فلما لم يَرُدَّ عليهِ، ولم يُكَذِّبْهُ في ما أضافَ إليهِ حَرْفَ الإغواءِ. دلَّ أنَّ [إضافةَ الإغواءِ والإضلالِ إليهِ][4] حقيقةٌ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ إنما ذلكَ منهُ ذِكْرُ فَضْلِهِ وإحسانِهِ حينَ[5] أخبرَ أنهُ خَلَقَهُ ممّا هو أفضلُ وأعظَمُ ممّا خَلَقَ آدمَ، فَيُخرَجُ ذلكَ مُخرَجَ الشُّكْرِ.

وأما قولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ ليسَ على ذلكَ فلا يُحتَمَلُ ألّا يُكذِّبَهُ، ولا يَرُدَّ عليهِ قولَهُ إذا كانَ كاذباً فيهِ، لأنهُ فعلُ شرٍّ أضافَهُ إليهِ، إذا لم يكنْ منهُ الإغواءُ، لذلكَ اختلَفا؛ أي لو كانَ قولُ إبليسَ لعَنَهُ اللهُ كَذِباً فما تصنعونَ بقولِ نوحٍ ﷺ حينَ[6] قالَ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] [وقولِ موسى حينَ قالَ:][7] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؟ [الصف: ٥].

الآية ٤٠ ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ عَزْمٌ على ما ذَكَرَ دونَ أنْ يَتفَوَّهَ بذلكَ. فأخبَرَهُ ﷻ عمّا كانَ عَزَمَ مِنَ الإغواءِ وغيرِهِ بالقولِ، وذلكَ جائزٌ، يُخبِرُ عنِ العَزمِ والقَصدِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الدهر: ٩] لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا القولُ الذي أخبَرَ عنهمْ قولاً منهُمْ، لأنهُ لا أحدَ مِنَ المُتَصَدِّقينَ يقولُ بِمِثْلِ ذلكَ عندَ التَّصَدُّقِ، لكنهُ إخبارٌ عما قَصَدوا، وعَزَموا، بالتَّصَدُّقِ. فَعَلَى ذلكَ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا مِنَ اللهِ إخباراً عمّا عَزَمَ إبليسُ، وقَصَدَ، على غيرِ التَّفَوُّهِ بهِ والقولِ، وهو ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩، والنور ٢٩] أخبرَ أنهمْ كَتَموا فيهِ، وأضمَروا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّفَوُّهِ بما ذَكَرَ لمّا قالَ لهُ ﷻ، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] لمّا شَهِدَ اللهُ عليهِ باللَّعْنِ إلى يومِ الدينِ أيِسَ لعَنَهُ اللهُ عنِ الهُدى، فقالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ لَعَنْتَني، وشَهِدْتَ عليَّ بذلكَ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [المُخْلَصُ][8] بنصبِ اللامِ هو الذي أخلَصَهُ اللهُ، وحَفِظَهُ، وعَصَمَهُ، واختَصَّهُ بذلكَ، والمُخْلَصُونَ[9]: لا يُقالُ إلّا بعدَ أنْ يكونَ للهِ فيهمْ صُنْعٌ، ولَهُمُ اختِصاصٌ وفضائلُ، اختَصَّهُمُ [اللهُ بذلكَ برحمتِهِ][10] وفَضلِهِ.

[والمُخلِصُ[11] بخفضِ اللامِ هو الذي أخلَصَ لهُ الاعتِقادَ والعملَ والدعاءَ][12].

والمُعتَزِلةُ يقولونَ: لا يَستَوجِبُ أحدٌ الاختِصاصَ والفضيلةَ إلّا بِفِعْلٍ يكونُ منهُ، لا يَستَوجِبُ باللهِ. يقولونَ: اللهُ لا يُغوي أحداً إلّا إبليسَ ولا واحداً مِنْ أتباعِهِ. فإبليسُ أعرَفُ باللهِ مِنَ المُعتَزِلةِ [حينَ رأى][13] أنَّ اللهَ لا يُغوي أحداً، ولا يَختَصُّ أحداً إلّا بِصُنْعٍ يكونُ منهُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿عَلَىَّ﴾ بِمَعْنَى إليَّ أي إلى صِراطٍ مستقيمٍ؛ يقولُ: هو بيدي، ليسَ بَيَدِ أحدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الحقُّ يَرْجِعُ إلى اللهِ، وعليهِ طريقُهُ، لا يَعْوَجُّ على شيءٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي عليَّ بيانُهُ، وهو مُستَقيمٌ كقولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي بيانُ قَصدِ السبيلِ. وقالَ بعضُهُمْ: لمّا قالَ إبليسُ ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقولُ: عليَّ مَمَرُّ مَنْ أغوَيتَهُ، وتابِعُكَ كقولِكَ[14] لآخَرَ إذا أوعَدْتَهُ: إنَّ طريقَكَ عليَّ؛ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي ليسَ لكَ عليهمْ حُجَّةٌ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فإنهمْ يَتَّبِعونَكَ بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كذا، وخلقته في كذا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الإضافة إليه الإغواء والإضلال. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وقال موسى. (٨) في م، والمخلص، مدرجة بعد الدعاء، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: والمخلص. (١٠) في الأصل وم: بذلك رحمة الله. (١١) في م: المخلص. (١٢) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٥٤. (١٣) في الأصل وم: حيث رأوا. (١٤) في الأصل وم: كقوله.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تقهَرُهُم، وتضطَرُّهُم على ذلكَ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فإنهم يتَّبِعونكَ على غيرِ قَهْرٍ واضطِرارٍ، أي مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنْ يَتَّبِعَكَ، ويَختارَ الغِوايَةَ، وإنْ لم يكُنْ إغواؤكَ إيَّاه، فإنَّ لكَ عليهِ سلطاناً.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لَمَوعِدُ إبليسَ وأتباعِهِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ تَحتَمِلُ الأبوابَ المعروفةَ، وتَحتَمِلُ الأبوابُ المَوارِدَ والجِهاتِ التي تكونُ لَها.

ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾؟ فهذا يدلُّ أنَّ المُرادَ بالأبوابِ المَوارِدُ والدَّرَكاتُ لا نفسُ الأبوابِ؛ إذْ ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ إنما يكونُ للدَّرَكاتِ، لا يكونُ للأبوابِ نفسِها.

قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يَعْني بالأبوابِ الطَّبقاتِ والدَّرَكاتِ ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لليهودِ بابٌ، وللصابِئينَ[1] بابٌ، ولِلْمَجوسِ بابٌ، ولِلَّذينَ أشْرَكوا بابٌ، ولِلْمنافِقينَ بابٌ، ولأهلِ الكبائرِ بابٌ. وذَكَرَا[2] أيضاً باباً لِفَريقٍ أدخلا[3] أهلَ الكبائرِ [فيهِ والنَّصارى][4] والدَّهْرِيَّةَ.

وعندَنا أنَّ ظاهِرَ الآيةِ في الكافِرينَ؛ لأنهُ قالَ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ والغاوُونَ هُمُ الكافِرونَ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ فإذا كانَ كذلكَ فَسَبْعَةُ[5] الأبوابِ التي ذَكَرَ كُلُّها لأهلِ الكُفْرِ، لا يَدْخُلُ أهلُ الكبائرِ فيها.

ويُحتَمَلُ بابٌ لِلْمُتَجاهِلَةِ، وهُمُ الذينَ يُنكِرونَ العالَمَ الشاهِدَ والغائبَ، ولا يُقِرُّونَ بشيءٍ، وبابٌ لِلدَّهْرِيَّةِ، وهُمُ الذينَ يُنكِرونَ الصانِعَ، وبابٌ لِلثَّنَوِيَّةِ، وهُمُ الذينَ يقولونَ بالاثْنَيْنِ، وبابٌ للذينَ أشْرَكوا، وهُمْ يقولونَ بالواحِدِ، لكنهم يُشرِكونَ فيهِ غيرَهُ، يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوثانَ، وبابٌ لِلْيَهودِ، وبابٌ لِلنَّصارى، وبابٌ لِلْمُنافِقينَ. فتلكَ سبعةُ أبوابٍ. وليسَ لأهلِ الكبائرِ مُسَمّىً مَعْلومٌ، إنما ذلكَ كلُّهُ لأهلِ الكُفْرِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إنْ كانَ أهلُ الكبائرِ في قولِهِ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ فيكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا الكبائرَ، وإنْ كانَ أصحابُ/ ٢٧٧ ـ ب/ الكبائرِ لم يَدْخُلوا في قولِهِ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ فيكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتَّقَوُا الشِّرْكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بَساتينَ. والبَساتينُ هي التي الْتَفَّتْ بالأشجارِ والنخيلِ، والعُيونُ قد تكونُ جاريةً في الدنيا، وقد تكونُ غيرَ جاريةٍ. فأخبَرَ في آيةٍ أُخرى أنَّ عُيونَ الآخِرَةِ تكونُ جاريةً بقولِهِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَعُيُونٍ﴾ قالَ بعضُهُم: ذَكَرَ العُيونَ لِيُعْلَمَ أنَّ مِياهَ الجنةِ ليسَتْ تكونُ مِنَ الثلوجِ والأنهارِ العظامِ على ما تكونُ في الدنيا، ولكنْ تَنْبُعُ فيها.

وقالَ بعضُهُم: ذَكَرَ العُيونَ لأنهُ يَنْبُعُ في بُسْتانِ كلِّ أحدٍ عينٌ على حِدَةٍ، لا تأتي بُسْتانَهُ[7] مِنْ مُلْكٍ آخَرَ ومِنْ بُسْتانٍ آخَرَ على ما يكونُ في الدنيا، ولكنْ تَنْبُعُ في جَنَّةِ كلِّ أحدٍ عينٌ على حِدَةٍ على ما أرادَ اللهُ، ليسَ أنها تَتَّصِلُ بالأرضِ كما ذَكَرَ في قصةِ بَني إسرائيلَ: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أنْ [شاءَ][8] اللهُ في ذلكَ الحَجَرِ ماءً، يَخرُجُ لهم على غيرِ اتِّصالِهِ بالأرضِ، ولكنْ بِلُطْفِهِ يُنْشِئُ فيهِ ماءً، فَعَلى ذلكَ في الجِنانِ التي وَعَدَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِما تَختَلِفُ رغائبُ الناسِ في الدنيا: منهُم مَنْ يَرْغَبُ في العَيْنِ[9]، ويَتَلَذَّذُ بالنظرِ إليها، ومنهُم مَنْ يَرْغَبُ في النَّهرِ الجاري، فَذَكَرَ مَرَّةً العُيونَ ومَرَّةً الأنهارَ كقولِهِ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥ و...]

---

(١) في م: وللنصارى. (٢) في الأصل وم: وذكر. (٣) في الأصل وم: أدخلو. (٤) في الأصل: فيها والنصارى، في م: فيها والصابئين. (٥) في الأصل وم: فالسبعة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: بستان. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الدين.

على ما ذَكَرَ مَرَّةً الخيامَ والقِبابَ [ومرَّةً][1] الغُرَفَ وأنواعَ الفُرُشِ والبُسُطِ والكيزانَ والأكوابَ والجواريَ والغِلْمانَ وغيرَ ذلكَ على ما يَرْغَبُ الناسُ في الدنيا: منهمْ مَنْ يَرغبُ في نوعٍ [لا يرغَبُ في نوعٍ][2] آخَرَ، فَذَكَرَ فيها كلَّ [ما][3] يَرْغَبونَ في الدنيا لِيَبْعَثَهُمْ ذلكَ على العَمَلِ الذي بهِ يُوصَلُ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي اجْعَلوا دخولَكُمْ فيها بِسَلامٍ على ما أمَرَهُمْ في الدنيا أنْ يَجْعَلوا الدخولَ في المنازلِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً﴾ الآيةَ [النور: ٦١] وعلى ما أخْبَرَ أنَّ الملائكةَ يُسَلِّمونَ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وكقولِهِ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ [الحجر: ٥١ و٥٢].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ أي ادخلُوها بِسلامٍ، لا يُصيبُكُمْ مَكروهٌ ﴿آمِنِينَ﴾ لا يُنَغِّصُكُمْ خَوفٌ ولا حُزنٌ على ما أخْبَرَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ و..].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الآخِرَةِ. قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥] أي نَزَعْنا ما في صدورِهِمْ مِنَ الغِلِّ[4] الذي كانَ في الدنيا بالكفرِ[5] فصاروا ﴿إِخْوَانًا﴾ بالإسلامِ الذي هداهُمُ اللهُ إليهِ، فكانوا إخواناً.

ثم قيلَ لهمْ: ادْخُلوا الجنةَ بلا غِلٍّ، وهو ما قالَ: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قد نَزَعَ مِنْ قلوبِهِمُ الغِلَّ في الدنيا، فصاروا إخواناً، فَدَخَلوا الجنةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الآخِرَةِ، إذا دَخَلوا الجنةَ، وتقابَلوا، واتَّكَؤوا على سُرُرٍ، فعندَ ذلكَ يَنْزِعُ الغِلَّ مِنْ قُلوبِهِمْ، والمظالمَ التي كانَتْ بينَهُمْ. فإنْ كانَ هذا فهو بَيْنَ أهلِ الإسلامِ.

وعلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: مَنْ جَفا آخَرَ في الدنيا أنْ يُنْسَى اللهُ ذلكَ منهُ[6] في الجنةِ، لأنَّ ذِكْرَ الجَفاءِ يُنَغِّصُ النِّعَمَ التي فيها. وكذلكَ ما يكونُ بينَ الرجلِ وَوَلَدِهِ مِنَ الجَفاءِ والعقوقِ، يجوزُ أنْ يُنْسَى [اللهُ ذلك منهما][7]. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ قالَ: إني لأرجو أنْ أكونَ أنا وطَلْحَةُ والزبيرُ.

وقولُهُ[8] تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَجْعَلُ اللهُ منازِلَهُمْ بعضاً مُقابِلَ بَعْضٍ، فَيَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بعضٍ، ويزورُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وقالَ بعضُهُمْ: بأمرِ اللهِ السُّرُرُ التي هُمْ عليها جُلوسٌ ليكونَ بَعْضُها مُقابِلَ بَعْضٍ؛ إذا اشْتَهَى بَعْضُهُمْ زيارةَ بَعْضٍ، ولا يكونونَ مُدْبِرينَ ولا مُعْرِضِينَ بل مُقْبلينَ. يُخْبِرُ عنِ اجْتِماعِهِمْ في الآخِرَةِ في الشرابِ وأنواعِ المَطاعِمِ على ما يَسْتَحْسِنُ في الدنيا الإخوانُ بينَهُمُ الاجْتِماعَ على الشرابِ والطعامِ والتَّلَذُّذِ والنظرِ، بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ.

فَعَلَى ذلكَ أخْبَرَ أنَّ لهمْ في الآخِرَةِ اجْتِماعاً في الشرابِ والنظرِ وأنواعِ التَّلَذُّذِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي عَناءٌ ومَشَقَّةٌ. أخْبَرَ أنهُ لا عناءَ يَمَسُّهُمْ كما يكونُ في الدنيا، لأنَّ في الدنيا مَنْ أطالَ المُقامَ في مَوضِعٍ يَمَلُّ مِنْ ذلكَ، ويَسْأمُ، وكذلكَ إذا أكْثَرَ مِنْ نَوعٍ مِنَ الطعامِ أو الشرابِ والفاكهةِ يَمَلُّ مِنْ ذلكَ، ويَسْأمُ، ويُؤذيهِ، ولا يُوافِقُهُ. فأخْبَرَ أنَّ أهلَ الجنةِ لا يَمَلُّونَ، ولا يُؤْذيهِمْ طَعامُهُمْ وإنْ أكْثَروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أخْبَرَ أنهمْ لا يُخْرَجونَ منها، ولا هُمْ يَطْلُبونَ الخروجَ منها كقولِهِ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] لأنَّ خَوفَ زوالِ النعمةِ يُنَغِّصُ على صاحِبِها تلكَ النعمةَ وطَعْمَها، فأخْبَرَ أنهمْ فيها أبداً، وتلكَ النِّعْمَةُ لهمْ دائمةٌ غَيرُ زائلةٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: غل. (٥) من م، في الأصل: في الكفر. (٦) في الأصل وم: منهم. (٧) في الأصل وم: ذلك عليهم. (٨) في الأصل وم: وقال الله.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ أي أخبِرْهُمْ ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لِمَنِ استَغفَرَني، وتابَ عمّا ارْتَكَبَ مِنْ مَعاصيهِ.

الآية ٥٠ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لِمَنْ عصاني، ولم يَسْتَغفِرْ، ولم يَتُبْ إليَّ[2].

ويَحتَمِلُ غيرَ هذا، وهو أنْ يقولَ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لِئَلا يَيأسوا مِنْ رَحْمَتي، ولا يَقنَطوا مِنّي، ولكنْ يَرْجونَ رَحْمَتَهُ وعَفوَهُ، ويَخافونَ عذابَهُ ونَقمَتَهُ، ونَبِّئْهُمْ أيضاً: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لِئَلا يكونوا[3] آمِنينَ أبداً. فيكونُ فيهِ أمرٌ بأنْ يُبَشِّرَ وأنْ يُنذِرَ، كأنهُ قالَ: بَشِّرْ أوليائي ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لأوليائي ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ لأعدائي.

وفي قولِهِ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ بِشارةٌ[4] ونَذارةٌ. أمّا البِشارةُ فهي[5] قولُهُ: ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأمّا النَّذارةُ فهي[6] قولُهُ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أيْ نَبِّئْ قومَكَ عَنْ ضَيفِ إبراهيمَ، أي نَبِّئْهُمْ بِتَمامِ ما فيهِ مِنَ الزَّجرِ والمَوعظَةِ، لأنَّ في ذلكَ إخبارَ ما نَزَلَ بالمُكَذِّبينَ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ، وهو الإهلاكُ ونَجاةُ مَنْ صَدَّقَ الرسلَ.

ففيهِ تَمامُ ما يَزجُرُهُمْ، ويَعِظُهُمْ مِنَ الترهيبِ والترغيبِ.

فإنَّ فيهِمْ آيةً لِرِسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ لأنهُ يُخبِرُهُمْ على ما في كُتُبِهِمْ، لم يَشْهَدْها هو، فَيَدُلُّهُمْ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، أو يُنَبِّئُهُمْ، فإنَّ ذلكَ ما يَزجُرُهُمْ عنْ مِثلِ صنيعِهِمْ.

وفيهِ ذِكْرُ نِعَمِ اللهِ لأنهمْ جاؤوا بالبِشارةِ بِشارةِ الوَلَدِ، وجاؤوا بإهلاكِ قومٍ مُجْرِمينَ. فذلكَ بالذي يَزجُرُهُمْ عَنْ مِثلِهِ، والبِشارةُ تُرَغِّبُهُمْ في مِثلِ صَنيعِ إبراهيمَ، فَتُنَبِّئُهُمْ، فإنَّ[7] فيهِ ما ذَكَرْنا.

ودَلَّ[8] قولُهُ: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أنَّ الضَّيفَ اسمُ كلِّ نازلٍ على آخَرَ، طَعِمَ عندَهُ، أو لم يَطْعَمْ، وكانَ نزولُهُ للطعامِ أوْ لا.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي سَلَّموا على إبراهيمَ، فَرَدَّ إبراهيمُ السلامَ عليهِمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: السلامُ: جَعَلَهُ اللهُ أماناً بينَ الخَلقِ وعَطفاً في ما بينَهُمْ وسَبَباً لإخراجِ الضغائنِ مِنْ قلوبِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ اللهُ السلامَ تَحيَّةَ كلِّ داخلٍ على آخَرَ؛ وهو ما ذَكَرْناهُ. وقالَ بعضُهُمْ: السلامُ هو اسمُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ وبَرَكةٍ كقولِهِ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفونَ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما خافَ لأنهُ ظَنَّ أنهمْ لصوصٌ وأهلُ رِيْبَةٍ. لكنَّ هذا [لا][9] يُحتَمَلُ أنْ يَخافَ منهمْ، ويَظُنُّ انهمْ لصوصٌ وأهلُ رِيْبَةٍ، وقد سَلَّموا عليهِ وقتَ ما دَخَلوا عليهِ، واللصوصُ وأهلُ الرِّيْبَةِ إذا دَخَلوا بيتَ آخَرَ، لا يُسَلِّمونَ عليهِ، لكنهُ إنما خافَهُمْ إذ[10] رأى أيديَهُمْ لا تَصِلُ إليهِ كما قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] عندَ ذلكَ خافَهُمْ. فلما رأى ذلكَ / ٢٧٨ ـ أ/ ظَنَّ إبراهيمُ أنهمْ ملائكةٌ إنما جاؤوا لأمرٍ عظيمٍ حينَ[11] لم يَتَناوَلوا مِمّا قَرَّبَ إليهِمْ، وبَينَ إبراهيمَ وبَيْنَ المكانِ الذي يُرْتَحَلُ منهُ مكانٌ تَقَعُ لهمُ الحاجةُ إلى الطعامِ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تَخَفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ كقولِهِ[12] في آيةٍ أُخرى ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] والحِلمُ هو الذي يَنفي عنْ صاحِبِهِ كلَّ أخلاقٍ دَنِيَّةٍ، والعِلْمُ هو الذي يدعو صاحِبَهُ إلى كلِّ خُلُقٍ رفيعٍ لِيُعْلَمَ أنهُ اجتَمَعَ فيهِ جميعُ الخِصالِ الرفيعةِ، ونَفَى عنهُ كلَّ خُلُقٍ دَنِيٍّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليه. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) من م، في الأصل: وقال. (٨) الواو ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إذا. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وقال.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ أي ابَشَّرتُموني أنْ يولَدَ لي، وأنا على الحالِ التي أنا عليها؟ أوَ يُرَدُّ إليَّ شَبابي وشَبابُ امْرَأتي ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ على الحالِ التي أنا عليها وامْرَأتي؟ أوَ يُرَدُّ الشبابُ إلينا.

وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخفَى عليهِ قدرةُ اللهِ [على][1] هِبَةِ الوَلَدِ في حالِ الكِبَرِ، لكنهُ لم يَرَ الوَلَدَ[2] يُولَدُ في تلكَ الحالِ، فاستَخْبَرَهُمْ أنهُ يولَدُ في تلكَ الحالِ، أو يُرَدُّ إلى حالةٍ أُخرى حالِ الشبابِ. واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما هو كائنٌ، لا محالَةَ، والواجبُ على كلِّ مَنْ أُنعِمَ عليهِ أنْ يَشْتَغِلَ بالشكرِ لِلنِّعَمِ، لا يَسْتَكْشِفَ عنِ الوجوهِ التي أُنعِمَ والأحوالِ التي يكونُ عليها.

ثم في البِشارةِ بالوَلَدِ بِشارَتانِ: إحداهما[3]: بِشارةٌ بالغلامِ، والثانيةُ[4]: بالبَقاءِ والبلوغِ إلى وَقتِ العِلْمِ حينَ[5] قالوا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] ففي قولِهِ: ﴿وَكَهْلًا﴾ دلالةٌ وبِشارةٌ أنهُ يَبْقَى إلى أنْ يَصيرَ كَهْلاً، وألا الكَهْلُ يَضْعُفُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الأنبياءَ قد نُهُوا عن أشياءَ، قد عُصِموا عنها ما لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهمْ ما نُهُوا عنهُ نَحوَ قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧و..] [وقولِهِ][6]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و..] [وقولِهِ: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾][7] [يونس: ١٠٦] [وقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ][8] ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢] وأمثالُهُ. وذلكَ مِمّا لا يُتَوَهَّمُ كونُهُ منهمْ. وذلكَ لِما ذَكَرْنا أنّ العصمةَ لا تَرْفَعُ المِحْنَةَ، لأنها لو رُفِعَتْ لَذَهَبَتْ فائدةُ العِصْمَةِ لأنهُ إنما يُحتاجُ إليها عندَ المِحْنَةِ. فأمّا إذا لم تكنْ مِحْنَةٌ فلا حاجةَ[9] إليها.

فَعَلَى ذلكَ إبراهيمُ لم يكنْ قَنِطَ مِنْ رحمةِ ربِّهِ، إذْ[10] لا يَهَبُ لهُ الوَلَدَ في كِبَرِهِ، ولكنْ ما ذَكَرْنا.

الآية ٥٦ ثم بَيَّنَ أنهُ لا ﴿يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أخبَرَ أنَّ القُنوطَ مِنْ رحمةِ اللهِ، هو ضَلالٌ، والإياسَ مِنْ رحمتِهِ كفرٌ.

والمعتزلةُ يَقْنَطونَ مِنْ رحمةِ ربِّهِمْ لِقولِهِمْ في أصحابِ الكبائرِ ما يقولونَ [فَعِندَهُمْ تضيقُ رحمتُهُ حتى لا تَسَعَ فيها الكبائرُ][11].

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قيلَ: فما خَبَرُكُمْ وما قصتُكُمْ؟ وما شأنُكُمْ؟ والخطبُ الشأنُ؛ أي على أيِّ أمْرٍ وشأنٍ أُرسِلْتُمْ؟

الآية ٥٨ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ لم يُحْتَمَلْ أنْ يكونَ أوّلَ ما أخبَروا إبراهيمَ، وقالوهُ، هذا، ولكنْ كانَ فيهِ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] وقالوا[12]: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤] فقالَ إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

يَذْكُرُ ههنا على الاختصارِ. فذلكَ يدلُّ أنَّ الخَبَرَ إذا أدّى مَعْناهُ يجوزُ، وإنْ لم يُؤتَ بِلَفْظِهِ على ما كانَ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ كأنَّ الثُّنيا ههنا تكونُ عنِ الأشخاصِ وأنفُسِ أهلِ القريةِ [لا][13] عن قولِهِ ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ لأنَّ آلَ لوطٍ لم يكونوا مُجْرِمينَ، فلا يُحْتَمَلُ الاستِثْناءُ مِنْ ذلكَ. أو لا يكونُ على حقيقةِ الثُّنيا، وإنْ كانَ في الخَبَرِ استِثْناءٌ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أخبَرَ أنهمْ يُهلِكونَ قومَهُ، ثم استَثْنى آلَهُ منهمْ، ثم امْرأتَهُ مِنْ آلِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوالد. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تقع. (١٠) في م: أنه. (١١) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم: والمعتزلة. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ففيهِ دلالةٌ أنَّ الثُّنيا ليسَ برجوعٍ؛ لأنهُ لو كانَ [رجوعاً لكانَ][1] يوجِبُ الكذبَ في الخَبَرِ. ولكنْ في الثُّنيا بيانُ تَحصيلِ المُرادِ مِمّا أُجمِلَ في اللفظِ.

وفيهِ دلالةٌ أيضاً أنهُ يجوزُ أنْ يُستَثنى مِنَ الاستِثناءِ، لأنهُ استَثنى امرأتَهُ مِنْ آلِهِ بقولِهِ: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فَجعلَتِ[2] المرأةُ مِنْ قومِهِ حينَ[3] استثناها مِنَ آلِهِ.

وفيهِ أنهُ قد يجوزُ أنْ يُستَثنى مِنْ خِلافِ نَوعِهِ، لأنهُ استَثنى آلَ لوطٍ مِنْ قومِهِ، والمُجرِمُ ليسَ مِنْ نوعِ الصالحِ، ثم استَثنى امرأتَهُ مِنْ آلِهِ، وهي ليسَتْ منهمْ.

وفيهِ أيضاً أنَّ آلَ الرجلِ يكونُ أتباعَهُ حينَ[4] استَثنى آلَهُ منهمْ، يُدْخِلُ فيهِ مَنْ تَبِعَهُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: آلَ فرعونَ، وإنما هُمْ أتباعُهُ، وآلَ موسى وآلَ هارونَ وآلَ عِمرانَ: كُلٌّ يرجِعُ إلى أتباعِهِمْ؟ فَيَدخُلُ في قولِهِمْ: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كُلُّ مَنْ تَبِعَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا﴾ أي أخبَرْنا. لكنَّ هذا منهُ احتِيالٌ على تَقوِيَةِ مَذهَبِ الاعتِزالِ: إنهمْ يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ العبيدِ مُقَدَّرَةً للهِ مَخلوقةً، ففي ذلكَ دلالةٌ أنَّ أفعالَهُمْ مخلوقةٌ للهِ مُقَدَّرَةٌ لهُ. وأصلُهُ: أي قَدَّرنا بقاءَها مِنَ الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي الباقينَ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الغابرونَ الباقونَ، والغابرونَ الماضونَ أيضاً؛ يُقالُ: غَبَرَ يَغْبُرُ غَبْراً إذا بَقِيَ، وإذا مَضى أيضاً.

الآيتان ٦١ و٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي إنكمْ مُنكَرونَ، لا تُعرَفونَ بأهلِ هذهِ البَلدةِ. وإنما قالَ لهمْ هذا لأنَّ قومَهُ[5] إنما يَعمَلونَ ما يَعمَلونَ بالغُرَباءِ، لا يَعمَلونَ بأهلِ البَلَدِ.

ألا تَرى أنهمْ قالوا لهُ: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أنْ تُضيفَ أحداً منهمْ؟ واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ هذا ليسَ بِجوابٍ لما سَبَقَ مِنْ قومِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولكنْ قالوا ذلكَ لهُ، واللهُ أعلمُ بَعْدَ ما كانَ بَينَ لوطٍ وبَينَ قومِهِ مُجادلاتٌ ومُخاصماتٌ: مِنْ ذلكَ قولُهُ[6]: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨ و٦٩] وغيرُ ذلكَ مِنَ المُخاصماتِ. وقد كانَ لوطٌ يَعِدُهُمُ العذابَ بِصَنيعِهِمُ الذي كانوا يَصنَعونَ. ولذلكَ قالوا لهُ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. فَعِندَ ذلكَ قالوا: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: بما كانوا فيهِ يَشُكّونَ بما كانَ يَعِدُهُمْ مِنَ العذابِ. وقال بعضُهُمْ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يُجادِلونَ، ويُنازِعونَ. أو يقولُ: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ﴾ بِجزاءِ ما ﴿كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

ثم امتِراؤُهُمْ يَحتَمِلُ مُجادَلَتَهُمْ إياهُ وما كانوا عليهِ مِنَ الرِّيبَةِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بِنَجاتِكَ ونَجاةِ أهلِكَ وإهلاكِ قومِكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعذابِ الذي كُنْتَ تَعِدُهُمْ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ بما نَقولُ[7] يَحتَمِلُ هذا إنْ لم يَكُنْ هذا منهُمْ قولاً، قالوهُ، لأنَّ لوطاً يَعلَمُ أنهمْ صادقونَ بما يقولونَ حينَ[8] عَلِمَ أنهمْ ملائكةُ اللهِ. لكنْ أخبَرَ عنهُمْ على ما كانوا عليهِ على غيرِ قولٍ كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي بِبَعْضٍ مِنَ الليلِ. وقال بعضُهُمْ: بِسَحَرٍ على ما قالَ: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وهو بَعْضٌ، سَحَراً[9] كانَ، أو غَيرَهُ ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي سِرْ مِنْ ورائِهِمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فحصلت. (٣) و(٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: قوم. (٦) من م، في الأصل: وقول. (٧) في الأصل وم: تقولون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: سحر.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مَولَى أمرِ جيشٍ أنْ يَتْبعَ أثرَهُمْ، أو يَأمُرَ مَنْ يَتْبعُ أثرَهُمْ لِيُلْحِقَ بهِمْ مَنْ تَخلَّفَ منهُمْ، ويَحمِلَ المُنْقَطِعَ منهُمْ، ولِيكونَ ذلكَ أحفَظَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلّا امرَأتَكَ فإنها تَتَخلَّفُ عنهمْ، فَيُصيبُها ما أصابَ/ ٢٧٨ ـ ب/ أولئكَ.

هذا يدلُّ أنْ ليسَ في تقديمِ الكلامِ وتأخيرِهِ مَنْعٌ، ولا في تَغْييرِ اللسانِ ولَفْظِهِ بَعْدَ أنْ يُؤَدِّيَ المَعْنَى خَطَرٌ، لأنَّ قصةَ لوطٍ وغَيرِها مِنَ القِصَصِ ذُكِرَتْ، وكُرِّرَتْ على الزِّيادةِ والنُّقصانِ وعلى اختِلافِ الألفاظِ واللسانِ. فَدَلَّ أنَّ اختِلافَ ذلكَ لا يُوجِبُ تَغْييراً في المَعْنَى، ولا بأسَ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يَنْظُرْ أحدٌ وراءَهُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما لَعَلَّهُمْ إذ نَظَروا وراءَهُمْ، فَرَأَوا ما حَلَّ بهِمْ مِنْ تَقليبِ الأرضِ وإرسالِها عليهِمْ، لا تَحْتَمِلُ بِنْيَتُهُمْ وقُلوبُهُمْ، فَيَهْلِكونَ، أو يُصْعَقونَ.

ألا تَرَى أنَّ موسى مَعَ قُوَّتِهِ لم يَحْتَمِلِ انْدِكاكَ الجَبَلِ؟ ولكنْ صُعِقَ، فصارَ مَذهوشاً في ذلكَ الوَقْتِ، فهؤلاءِ أضعفُ، وما حَلَّ بقومِهِمْ أشَدُّ، فَبِنْيَتُهُمْ أحرَى ألّا تَحْتَمِلَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ قولُهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ قيلَ: وأوحَينا إليهِ كقولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي وأوحَينا إليهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي أنْهَينا إليهِ، وأعلَمْناهُ، وهو قولُ الكسائيِّ والقُتَبيِّ.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ما ذَكَرَ: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ هذا الذي أوْحَى إليهِ، وأعلَمَهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي وأوحَينا إلى محمدٍ ﷺ أنَّ ذلكَ الأمرِ الذي بَلَغَكَ مَقطوعٌ مُصْبِحينَ. ويَحْتَمِلُ الوَحْيُ إلى لوطٍ على البِشارةِ ﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ قومِهِ ﴿مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي مَقطوعٌ نَسْلُهُمْ؛ فيهِ إخبارٌ عنْ قَطْعِ نَسْلِهِمْ. وفي الخَبَرِ عنْ قَطْعِ نَسْلِهِمْ إخبارٌ عنْ هلاكِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أصلُ هؤلاءِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي مُسْتَأْصَلونَ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ ليسَ يُريدُ بهِ حينَ أصبَحوا، أي حينَ بَدْءِ طُلوعِ الفَجْرِ، ولكنْ أرادَ طُلوعَ الشمسِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] وإشراقُ الشمسِ هو ارْتِفاعُها وبَسْطُها في الأرضِ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

والصَّيحةُ تَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهما][1]: ذِكْرُ الصيحةِ لِسُرْعَةِ هلاكِهِمْ، أو قَدْرَ صَيْحَتِهِمْ.

والثاني: أُهْلِكوا بالصيحةِ، أي[2] صاحَ أولئكَ لمّا أُهْلِكوا. والصيحةُ اسْمُ كلِّ عذابٍ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ يُسَرُّونَ بنزولِ أضيافِهِ، أو يُبَشِّرُ بعضُهُمْ بعضاً لِما رأَوا بهِمْ مِنْ حُسْنِ الهَيْئَةِ والمَنْظَرِ ورِقَّةِ[3] اللِّباسِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ][4] ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في ضَيفي فإنهم إنما نَزَلوا بنا على أمْنٍ مِنّا ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ عندَهُمْ، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: ٧٨].

ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في الخَلْقِ، يَقولوا[5]: إنَّ في أهلِ بَيتِ لوطٍ يُفْعَلُ بالأضيافِ كذا، وإنما عُرِفَ أهلُ بيتي عندَ الخَلْقِ بالصلاحِ، وألّا ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في الخَلْقِ، واتَّقوا اللهَ في صَنيعِكُمْ بالرجالِ ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ عندَ الخَلْقِ [هود: ٧٨] قيلَ: هو الهَوانُ؟

الآية ٦٩ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أنْ يكونَ الإخزاءُ، هو الفضيحةُ. دليلُهُ ما ذَكَرَ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: ورفعة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقولون.

ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيكونُ هذا تفسيرَ ذلكَ. ويَحْتَمِلُ الهَوانَ. وكذلكَ قيلَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ [النحل: ٢٧] أي الهَوانَ اليومَ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذا يدلُّ على أنهُ قد كانَ سَبَقَ النَّهْيُ عنْ إنزالِ الأضيافِ. لِذلكَ ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: يُخرَّجُ قولُهُمْ: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ مُخرَجَ الاعْتِذارِ لهُ لأنهمْ كانوا يُعَظِّمونَ الرسلَ إليهمْ سِوَى الخلافِ في الدينِ، والدعاءِ إلى دينِ اللهِ. فهمْ وإنْ كذَّبوا الحُجَجَ التي أتَتْ بها[1] الرسُلُ فقد كانوا يُعَظِّمونَهُمْ.

ألا ترَى أنه قالَ لِرسولِنا ﷺ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٣٣]، والأوَّلُ أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ؟

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ وفي مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وقد ذَكَرْنا ذلكَ في السورةِ التي فيها ذِكْرُ هودٍ [الآية: ٧٨]. قالَ بعضُهُمْ: إنما عَرَضَ عليهِمْ نِساءَ قومِهِ[2] لأنهُ كالأبِ لهمْ على ما ذَكَرَ أنَّ نساءَ رسولِ اللهِ ﷺ [﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾][3] [الأحزاب: ٦] وقالَ بعضُهُمْ: في البناتِ إخبارٌ منهُ لهمْ بنهايةِ فُحْشِ صنيعِهِمْ، لأنهُ يجوزُ وُرودُ الشَّرْعِ على بَناتِهِ لهمْ، ولا يجوزُ حِلُّ ذلكَ بحالٍ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: يُقسِمُ اللهُ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وليسَ لأحَدٍ أنْ يُقسِمَ إلّا باللهِ، وإنما أقسَمَ بحياةِ محمدٍ ﷺ [وقالَ بعضُهُمْ: أقسَمَ بحياةِ محمدٍ ﷺ][4] ولم يُقسِمْ بحياةِ غيرِهِ وبِغيرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ كلمةٌ تَستعمِلها العربُ في أقسامِهِمْ على غيرِ إرادةِ القَسَمِ بحياةِ أحدٍ. ومنهمْ مَنْ قالَ: إنما ذلكَ على التَّعريضِ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ قد أقسَمَ بالشَّمسِ والقَمرِ والليلِ والنهارِ، وأقسَمَ بالجبالِ والسماءِ وغيرِها مِنَ الأشياءِ التي تَعْظُمُ عندَ الخَلقِ. فَرسولُ[5] اللهِ ﷺ قد أخبَرَهُ أنهُ أرسلَهُ رَحمةً لِلخَلقِ وهُدىً[وذلكَ][6] أولَى أنْ يُعَظِّمَهُ[7] بالقَسَمِ بهِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾؟ [الأنبياء: ١٠٧] فَمَنْ كانَ رَحمةً للعالَمِ كُلِّهِ أولَى أنْ يُعَظَّمَ مِنْ غيرِهِ؛ إذْ منافِعُهُ أعَمُّ وأكثَرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ القَسَمُ ليسَ بحياةِ الرسولِ، ولكنْ بِدينِهِ، وهو قولُ الضَّحاكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّكْرَةُ الشِّدَّةُ التي تَحُلُّ بهمْ عندَ الموتِ؛ شَبَّهَهُمْ بِحَيرَتِهِمُ التي فيهِمْ بِسَكْرَةِ الموتِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَتَرَدَّدونَ. وقالَ بعضُهُمْ: في ضَلالَتِهِمْ وكُفرِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَتَحيَّرونَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ اختِلافَهُمْ في الصَّيحَةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: الصَّيحَةُ، هي العذابُ نفسُهُ؛ أي أخَذَهُمُ العذابُ، وقالَ بعضُهُمْ: سَمَّى صَيحَةً لِسُرعَةِ نزولِهِ بهِمْ وأخْذِهِ إياهُمْ وقولُهُ تعالى: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أشْرَقَتِ الشمسُ إذا ارتَفَعَتْ، وأنارَتْ، وشَرَقَتْ إذا بَزَغَتْ، وهو قولُ الكِيسانيِّ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي إذا أشْرَقوا، إذا طَلَعَتِ الشمسُ عليهِمْ، وقد ذَكَرْنا هذا.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ قد ذَكَرْنا في السورةِ التي فيها ذِكْرُ هودٍ [الآية: ٨٢].

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ لِلمتفَرِّسينَ مِنَ الفَراسَةِ.

ورُوِيَ في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يَرْويهِ أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ؛ قالَ: «اتَّقوا فَراسَةَ المُؤمِنِ فإنهُ يَنْظُرُ بنورِ اللهِ» [الترمذي: ٣١٢٧] قالَ: ثم قرَأ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. فإنْ ثَبَتَ الخَبَرُ، وثَبَتَتْ تِلاوةُ هذهِ الآيةِ على إثْرِ ما ذَكَرَ فهو هو.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ المُعْتَبِرينَ، وقيلَ: المُتَفَكِّرينَ، وقيلَ: الناظرينَ. ذَكَروا أنهُ آيةٌ لِلمُعتَبِرينَ.

---

(١) في الأصل وم: بهم. (٢) في الأصل وم: قومهم. (٣) في الأصل وم: أمهاتي. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: كرسول. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يعظم.

ولكنْ لم يُبّنوا مِنْ أيِّ وجْهٍ يكونُ آيةً لِمَنْ ذَكَرَ. فَيَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: آيةٌ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ المُعْتَبِرِينَ لِرِسالَتِهِ، لأنهُ ذَكَرَ قصةَ إبراهيمَ ولوطٍ على ما كانتا[1]، وهو لم يَشْهَدْهما[2].

فذلكَ يدلُّ على صِدْقِهِ وآيةِ رِسالَتِه.

والثاني: آيةٌ لِصِدْقِ خَبَرِ إبراهيمَ وصِدْقِ لوطٍ، لأنهمْ كانوا يُخْبِرونَ قومَهُمْ أنَّ العذابَ يَنْزِلُ بهِمْ وغَيرَ ذلكَ مِنَ الوعيدِ، فَيَدلُّ ذلكَ على صِدْقِ خَبَرِ الأنبياءِ، عليهِمُ السلامُ، في كلِّ ما يُخْبِرونَ.

والثالثُ: في هلاكِ مَنْ أهلكَ منهُمْ ونَجاةِ مَنْ أنْجى منهُمْ آيةٌ لِمَنْ ذَكَرَ [أنَّ][3] مَنْ هَلَكَ منهُمْ هَلَكَ بالتكذيبِ، ومَنْ نجا منهُمْ نَجا بالتصديقِ، فيكونُ لهمْ آيةً.

والرابعُ: قد بَقِيَ مِنْ آثارِ مَنْ هَلَكَ منهُمْ / ٢٧٩ ـ أ/ آيةٌ، فيكونُ هَلاكُهُمْ [آيةً لِمَنْ][4] ذَكَرَ.

وأصْلُ هذا أنَّ اللهَ ذَكَرَ أنَّ ﴿فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي المؤمِنينَ المُتَّقِينَ، والاِعْتِبارُ والتَّفَكُّرُ للمؤمنينَ، لأنهمْ هُمُ المُنْتَفِعونَ. والمُتَوَسِّمُ[5] هو الذي يُعْلَمُ[6] بِعَلامةٍ، وكذلكَ المُتَفَرِّسُ هو الذي يَعْلَمُ[7] بعلامةٍ في غَيرِهِ؛ يَنْظُرُ في غَيرِهِ بأنَّ هلاكَهُ بِمَ كانَ؟ فَيَنْزَجِرُ عنْ صَنيعِهِ، ويَتَّعِظُ بِهِ، وهو كالمُتَفَقِّهِ الذي يَعْلَمُ[8] بالمَعْنَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي طريقٍ دائمٍ، مُعَلَّمٍ.

الآية ٧٧ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الآيةَ تكونَ للمؤمنِ، واللهُ اعلَمُ.

ذَكَرَ في الآيةِ الأولى الآياتِ لأنهُ [ذَكَرَ][10] أنباءَ إبراهيمَ وقصتَهُ وقصةَ قومِ لوطٍ؛ ففي ذلكَ آياتٌ لِمَنْ ذَكَرَ.

وذَكَرَ في هذهِ الآيةِ ﴿لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهُ ذَكَرَ شيئاً واحداً، وهو السَّبيلُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أي وقد ﴿كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ والأيكةُ: ذُكِرَ أنها الغَيْضَةُ مِنَ الشجرِ، وهي ذاتُ آجامٍ وشَجَرٍ. كانوا فيها، فَبُعِثَ إليهِمْ شُعَيبٌ، وهو في الغَيضةِ.

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ شُعيباً بُعِثَ إلى قَومَينِ: إلى أهلِ غَيضةٍ مَرَّةً، وإلى أهلِ مَدْيَنَ مَرَّةً على ما ذَكَرَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] وقالَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ و١٧٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ سَمّى اللهُ تعالى الكَفَرَةَ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ سمّاهُمْ مَرَّةً ظالِمينَ، ومَرَّةً فاسِقينَ، ومَرَّةً[11] مُشْرِكينَ.

واسْمُ الظُّلْمِ قد يَقَعُ في ما دونَ الكُفْرِ والشِّرْكِ. وكذلكَ اسْمُ الفِسْقِ يَقَعُ في ما دونَ الكُفرِ والشركِ.

ثم الكُفْرُ لم يَقْبُحْ لِاسْمِ الكُفْرِ، وكذلكَ الإيمانُ لم يَحْسُنْ لِاسْمِ الإيمانِ؛ إذ ما مِنْ مؤمنٍ إلّا وهو يكْفُرُ بأشياءَ، ويُؤمِنُ بأشياءَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] المؤمنُ يَكْفُرُ بالطاغوتِ بالأصنامِ، كانَ أهلُ الكُفْرِ عَبَدوها، وكذلكَ الكافرُ يؤمِنُ بأشياءَ، و يَكْفُرُ بأشياءَ؛ يؤمِنُ بالأصنامِ، ويَكْفُرُ باللهِ.

فَثَبَتَ أنَّ الكُفْرَ لِاسْمِ الكُفْرِ ليسَ بِقَبيحٍ، وكذلكَ الإيمانُ لِاسْمِ الإيمانِ ليسَ بِحَسَنٍ، ولكنْ إنما حَسُنَ لأنهُ إيمانٌ باللهِ، والكُفْرُ إنما قَبُحَ لأنهُ كُفْرٌ باللهِ.

وأما الظُّلْمُ فهو لِاسْمِ الظُّلْمِ قبيحٌ، وكذلكَ الفِسْقُ لِاسْمِ الفِسْقِ قبيحٌ، فَسَمّاهُمْ بأسماءٍ، هي بِاسْمِها قَبيحَةٌ[12].

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: يشهدها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٦) في الأصل وم: يعمل. (٧) في الأصل وم: يعمل. (٨) في الأصل وم: يعمل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: و. (١٢) في الأصل وم: قبيح.

لكنَّ الإيمانَ المُطلَقَ، وهو الإيمانُ باللهِ، والكُفرَ المُطلَقَ، هو الكُفرُ باللهِ، وإنْ كانَ يُسمَّى بدونِ اللهِ كُفراً وإيماناً كما قُلنا: الكتابُ المُطلَقُ كتابُ اللهِ، والدينُ المُطلَقُ دينُ اللهِ، وإنْ كانَ اسْمُ الكتابِ والدينِ يَقَعُ على ما دونَهُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ذَكَرَ الانْتِقامَ منهُمْ، ولم يَذْكُرْ ههنا لِمَ[1] كانَ الانْتِقامُ؟ وقالَ في آيةٍ أُخرى. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٨٣] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

فَيَحتَمِلُ أنْ تكونَ الرَّجْفَةُ لِقومٍ، والصَّيحَةُ لِقومٍ، ويومُ الظُّلَّةِ لِقومٍ منهُمْ، وإنْ كانَ واحداً[2]، فَسمَّاها بأسماءٍ مُختَلِفَةٍ، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ العذابِ حاجةٌ سوَى ما عُرِفَ انهمْ إنما أُهلِكوا، أو عُذِّبوا بالتكذيبِ ليكونَ ذلكَ آيةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، لِيَحذَروا مِثْلَ صَنيعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ لِلرُّسُلِ كما انْتَقَمْنا مِنْ قومِ لوطٍ لِلُوطٍ بِسُوءِ صَنيعِهِمْ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُ.

فَعَلَى ذلكَ نَنْتَقِمُ مِنْ أهلِ مكةَ لمحمدٍ ﷺ، بِسُوءِ صنيعِهِمْ [وسُوءِ][3] مُعامَلَتِهِمْ إيّاهُ.

وقد كانَ ما نَزَلَ بأصحابِ الأيكَةِ كِفايَةُ مَزْجَرٍ لهمْ وعِظَةٍ، لا يَحتاجُ إلى ما ذُكِرَ ما نَزَلَ بقومِ لوطٍ.

وقولُهُ تعال: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يعني قومَ لوطٍ وقومَ شُعَيبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي طريقٍ مُسْتَبِينٍ، أي بَيِّنٌ هَلاكُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ واحدٌ، أي بَيِّنٌ واضِحَةٌ[5] آثارُهُمْ؛ مَنْ سَلَكَ ذلكَ الطريقَ، أو دَخَلَ قُراهُمْ ومَكانَهُمْ، لَاسْتَبانَ لهُ آثارُ هلاكِهِمْ، وما حَلَّ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي طريقٍ، يُؤَمُّ، ويُقْصَدُ، بَيِّنٍ، واضِحٍ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أصحابُ الحِجرِ قومُ صالحٍ وثمودَ. وقالوا: الحِجْرُ: هو اسْمُ وادٍ، وقيلَ: هو اسْمُ القَرْيَةِ على شَطِّ الوادي، نُسِبوا إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يَعْني بالمُرْسَلينَ صالحاً وحْدَهُ، لكنْ ذَكَرَ المُرْسَلينَ لأنَّ صالحاً يدعوهُمْ إلى ما كانَ دَعا سائِرُ الرسلِ. فإذا كَذَّبوهُ فَكَأنَّهُمْ[6] قد كَذَّبوا الرُّسُلَ جميعاً؛ إذْ كلُّ رسولٍ كانَ يَدْعو إلى الإيمانِ بالرسلِ جميعاً، فإذا كُذِّبَ واحدٌ منهمْ فقد كُذِّبَ الكُلُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تَحْتَمِلُ الآياتُ آياتِ وحدانِيَّةِ اللهِ وحُجَجَهُ. وتَحْتَمِلُ جميعَ الآياتِ: آياتِ الوحدانيَّةِ وحُجَجَها[7] وآياتِ رسالَتِهِمْ [وقولُهُ][8] ﴿مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يَقْبَلوها، فقد أعْرَضوا عنها، وأعْرَضوا عنها، أي كذَّبوها.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ عمّا وَعَدَهُمْ صالحٌ مِنْ عذابِ اللهِ حينَ[9] قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] كانوا آمنينَ عن ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: كانوا آمِنينَ عَنْ أنْ يَقَعَ عليهِمْ ما نَحَتوا لِحَذاقَتِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] على تأويلِ بعضِهِمْ حاذِقينَ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أخَذَتْهُمْ ظاهِرَةُ النهارِ[10].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ أي ما كانوا يَنْحِتونَ لا يُغْنيهِمْ

---

(١) من م، في الأصل: ثم. (٢) في الأصل وم: واحد. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: واضح. (٦) في الأصل وم: فكان. (٧) في الأصل وم: وحججه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بالنهار.

مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ. ويَحْتَمِلُ: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا﴾ عَمِلوا مِنْ عبادَةِ الأصنامِ والأوثانِ [حينَ][1] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أي لم يُغْنِهِمْ ما عَبَدوا مِنْ عذابِ اللهِ، أو يقولُ: ما أغنى عنهُمْ ما نَعِموا[3]، وأُنعِموا في هذهِ الدنيا في دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ كقولِهِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ الآيةَ [الأحقاف: ٢٦] وإنْ أُعطوا ما ذُكِرَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ والأفئدةِ إذ لم يَنْظُروا، ولم يَتَفكَّروا في آياتِ اللهِ، وجَحَدوها[4].

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الحقُّ الذي جَعَلَ تَسْمِيَتَهُ على أهلِها، والحقُّ الذي لِيَغْضَ على بعضٍ. والحقُّ هو اسْمُ كلِّ محمودٍ مُخْتارٍ مِنَ القولِ والفِعْلِ، والباطلُ اسْمُ كلِّ مذمومٍ مِنَ القولِ والفِعْلِ. قالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا﴾ شهوداً للهِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على أهلِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لم يَخْلُقْهما لِغَيرِ شيءٍ، ولكنْ خَلَقَهُما لِلْمِحْنَةِ؛ يَمْتَحِنُهُمْ بالعبادَةِ فيها. وإلى هذا ذهبَ الحَسَنُ.

وقيلَ: خَلَقَهما وما بَيْنَهما لأمرٍ كائنٍ أي لِعاقبةٍ للثوابِ أو الجزاءِ، لم يَخْلُقْهُمْ لِلْفَناءِ خاصةً، ولكنْ للعاقبةِ؛ لأنَّ خَلْقَ الشيءِ خاصةً عَبَثٌ، وهو ما قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أخبرَ أنَّ خَلْقَهُمْ لا لِلرُّجوعِ إليهِ ولا للعاقبةِ عَبَثٌ. وقد [ذَكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ][5].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ على الاحتجاجِ على أولئكَ لإنكارِهِمُ الساعةَ لِوَجْهَينِ:

أحدُهما: ما ذَكَرْنا أنهُ، لو لم تَكُنِ الساعةُ، حَصَلَ خَلْقُهُما وما بَيْنَهما للفَناءِ خاصةً [وخَلْقُ الشيءِ][6] لِلْفَناءِ خاصةً عَبَثٌ باطِلٌ كَبِناءِ البناءِ لِلنَّقْضِ خاصةً لا لعاقبةٍ، تُقْصَدُ، عَبَثٌ.

والثاني: أنهُ يكونُ في ذلكَ التَّسْوِيَةُ بينَ الأعداءِ والأولياءِ. وفي الحكمةِ التفريقُ بينَهما، وقالَ: ﴿وَمَا/ ٢٧٩ ـ ب/ خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآيةَ [ص: ٢٧] لم يكُنْ ظَنُّهُمْ أنهُ خَلَقَهُما باطلاً، ولكنْ لمّا أنكروا البَعْثَ صارَ في ظَنِّهِمْ خلقُهُما باطلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي أعْرِضْ عنهمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بما آذَوكَ بألسِنَتِهِمْ وفِعْلِهِمْ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فأنا[7] كافيهِمْ عنكَ على أذاهُمْ إياكَ وصَنيعِهِمْ يومئذٍ. الصفحُ الجميلُ: هو ما لا نَقْضَ فيهِ، ولا مِنَّةَ في العُرْفِ؛ أي اصْفَحِ الصَّفْحَ ما توصَفُ فيهِ بِتمامِ الأخلاقِ، وما لا نَقْضَ فيهِ ولا مِنَّةَ.

[ويَحْتَمِلُ الصَّفْحُ الجميلُ أنْ تَصْفَحَ][8] صَفْحاً، لا مِنَّةَ فيهِ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فَتُجْزَى أنتَ على صَفْحِكَ الجميلِ، وهُمْ على أذاكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ خَلَقَهُمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ مِنَ المَعْصِيَةِ والخِلافِ، لا خَلَقَهُمْ عنْ غَفْلَةٍ وجَهْلٍ بذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقِ الخَلْقَ لِحاجَةِ نفسِهِ ولا لِمَنْفَعَةِ نفسِهِ، ولكنْ خَلَقَهُمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ بما أمَرَهُمْ بهِ ونَهاهُمْ ولِما يرجِعُ إلى مَنافِعِهِمْ وحوائجِهِمْ.

والثاني: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لِخَلْقِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِمَصالِحِهِمْ: بأنَّ الصفحَ الجميلَ لهمْ أصْلَحُ في دينِهِمْ مِنَ المكافآتِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: منعوا. (٤) من م، في الأصل: وجحدوا. (٥) في الأصل: ذكرناها، في م: ذكرنا في ما تقدم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ماذا. (٨) في الأصل: يحتمل الصفح الجميل هو أن يصفح في م: يحتمل الصفح الجميل هو أن يصفح ولا يمن عليهم، كان أمره أن يصفح.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هو القرآنُ [كُلُّهِ لِقولِهِ][1]: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣] وقيلَ: سُمِّيَ مَثانِيَ لِتَرْديدِ الأمثالِ فيهِ والعِبَرِ والأنباءِ فإنْ كانَ على هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي سَبْعاً مِنَ القرآنِ العظيم.

ثم يَحْتَمِلُ السَّبْعَ الطِّوالَ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كأنهُ قالَ: آتيناكَ سَبْعاً مِنَ القرآنِ العظيمِ، ويَحْتَمِلُ ﴿سَبْعًا﴾ يعني فاتحةَ الكتابِ مِنَ القرآنِ، أي آتيناكَ فاتحةَ الكتابِ مِنَ القرآنِ.

وقالَ قومٌ: يقولونَ: سَبْعُ المَثاني فاتحةَ الكتابِ. ويَرْوُونَ على ذلكَ حديثاً عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ[2] رُوِيَ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[أنهُ][3] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «الحمدُ للهِ أمُّ القرآنِ وأمُّ الكتابِ والسَّبْعُ المَثاني». [الترمذي: ٣١٢٤].

وعَنْ أُبَيّ [بْنِ كَعْبٍ][4] رضي الله عنه [أنهُ][5] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أنْزَلَ اللهُ في التوراةِ والإنجيلِ مثلَ أمِّ القرآنِ، وهي السَّبْعُ المَثاني» [«وهي مَقسومةٌ بيني وبَينَ عبدي، ولِعَبْدي ما سَأَلَ»][6] [مسلم ٣٩٥].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: [7] مَثاني القرآنِ كلمةٌ تذهبُ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الآيةِ، وبما يُرْوَى عن أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ما أُنْزِلَ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزبورِ والقرآنِ مِثْلُها» يعني أمَّ القرآنِ«وإنها لَسَبْعٌ مِنَ المَثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُعْطِيتُ».

ذَكَرَ: «وإنها لَسَبْعٌ مِنَ المَثاني» فإنْ كانَ سَبْعُ المَثاني فاتحةَ الكتابِ يَصِرْ [8] كأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ وهي المَثاني. وإنْ كانَ سَبْعاً مِنَ المثاني [هُنَّ الطِّوالُ يكنْ][9] هكذا: أي ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ [وهنَّ الطِّوالُ مِنَ القرآنِ][10].

ورُوِيَ أيضاً عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][11] قالَ«آتاني السَّبْعَ الطِّوالَ مكانَ التوراةِ والمَثاني مكانَ الإنجيلِ، وفَضَّلَني ربي بالمُفَصَّلِ» [أحمد ٤/١٠٧].

ثم إنْ ثَبَتَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ سَبْعَ المَثاني فاتحةُ الكتابِ وإلّا الكَفُّ والإمساكُ أولَى؛ لأنهُ لا حاجةَ بنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ، وليس يكونُ تَسْمِيَتُنا إياها سِوَى الشهادةِ. وما خَرَجَ مَخْرَجَ الشهادةِ مِنْ غيرِ حصولِ النَّفْعِ لنا فالكَفُّ عنهُ والإمساكُ أولَى. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هنَّ المُفَصَّلُ.

ومَنْ قالَ: المَثاني فاتحةُ الكتابِ قالَ: لأنها تُثَنَّى في كلِّ رَكْعَةٍ، وما جُعِلَ فيها[مُكَرَّراً مُعاداً][12] لأنَّ كلَّ حَرْفٍ يُؤَدِّي مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ، فَسُمِّيَ مَثانِيَ.

ومَنْ قالَ: المَثاني هو القرآنُ قالَ لِما ذَكَرْنا، لأنَّ أمثالَهُ وأنباءَهُ وعِبَرَهُ مُعادةٌ مُرَدَّدَةٌ.

ومَنْ قالَ: المثاني السَّبْعُ الطِّوالُ قالَ: لأنها تُثَنَّى فيها حُدودُ القرآنِ وفرائِضُهُ وعامَّةُ أحكامِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ سَمَّاهُ عَظيماً وسَمَّاهُ مَجيداً وحكيماً، [وهي أسماءُ][13] الفاعِلينَ، ولا عَمَلَ للقرآنِ[14]، ولا فِعْلَ في الحقيقةِ، لكنهُ يُخَرَّجُ، واللهُ أعلَمُ على وجوهٍ:

يَحْتَمِلُ سَمَّاهُ عظيماً مَجيداً لِمَا عَظَّمَهُ، وشَرَّفَهُ، ومَجَّدَهُ، فهو عظيمٌ مجيدٌ حكيمٌ، أي مُحْكَمٌ. والفَعيلُ بِمَعْنَى المَفْعولِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. أو سَمَّاهُ بذلكَ لأنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بهِ، وعَمِلَ بهِ، يَصِرْ[15] عَظيماً مَجيداً. أو سَمَّاهُ عَظيماً مَجيداً حكيماً، أي جاءَ مِنْ عندِ عظيمٍ مجيدٍ حكيمٍ. وأصلُ الحكيمِ المُصيبُ الواضِعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: كل قوله، في م: كله كقوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) هذا جزء من الحديث القدسي الذي أورده المؤلف أبو منصور في حديثه عن التسمية في فاتحة الكتاب. (٧) في الأصل وم: المثاني. (٨) في الأصل وم: يصير. (٩) في الأصل وم: هو الطوال يكون. (١٠) في الأصل وم: وهو القران. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: مكررة معادة. (١٣) في الأصل وم: وهو اسم. (١٤) في الأصل وم: له. (١٥) في الأصل وم: يصير.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ يَحتمِلُ المرادُ بقولِهِ: ﴿عَيْنَيْكَ﴾ نَفْسَ العينِ. ثم يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: نَهى رسولَهُ أنْ يَنظُرَ إلى ما مَتَّعَ أولئكَ مِثْلَ نَظَرِهِمْ، لأنهمْ ظَنّوا أنهمْ إنما مُتِّعوا هذهِ الأموالَ في الدنيا لِخَطَرِهِمْ وقَدْرِهِمْ عندَ اللهِ، وعلى ذلكَ [قالَ مَنْ قالَ][1]: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقالَ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ الآية [فصلت: ٥٠] ونَحوَهُ. ظَنّوا أنهمْ إنما مُتِّعوا في هذهِ الدنيا لِخَطَرِهِمْ وقَدْرِهِمْ عندَ اللهِ، لذلكَ قالوا ما قالوا، فَنَهاهُ أنْ يَنظُرَ إلى ذلكَ بِعينِ الذينَ نَظروا هُمْ إليهِ، ولكنْ بالاعْتِبارِ.

والثاني: نَهاهُ أنْ يَنظُرَ إلى ذلكَ نَظَرَ الاسْتِكبارِ والتَّجبُّرِ على المؤمنينَ والاسْتِهزاءِ بهمْ على ما نَظروا هُمْ، لأنهمْ بما مُتِّعوا مِنْ أنواعِ المالِ اسْتَكْبَروا على الناسِ، واسْتَهْزَؤوا بهمْ؛ إذِ البَصَرُ قد يَقَعُ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ، فَيَصيرُ كأنهُ نهاهُ عنِ الرَّغبةِ والاختيارِ في ما مُتِّعوا فيهِ، لأنَّ ما مُتِّعوا بهِ هو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥ و٨٥] وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا﴾ مُتِّعوا فإنهمْ إنما مُتِّعوا لِما ذَكَرَ.

ويَحتَمِلُ النَّهيُ عن مَدِّ العينِ لا العينَ نَفْسَها[2]، ولكنْ نَفْسَهُ. كأنهُ [قالَ][3]: لا تُمَنِّيَنَّ نفسَكَ في ما مُتِّعواهُمْ، فلا تُرَغِّبَنَّهُما في ذلكَ؛ فإنهُ ليسَ يُوَسِّعُ ذلكَ عليهمْ لِخَطَرِهِمْ وقَدْرِهِمْ، ولكنْ لِيُعْلِمَ أنْ ليسَ لذلكَ خَطَرٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ حينَ[4] أعطى مَنِ افْتَرَى على اللهِ، وجَحَدَ نِعَمَهُ وفَضْلَهُ.

وفي الآيةِ تفضيلُ الفَقْرِ على الغِنَى لأنهُ نَهى رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَمُدَّ عينَيهِ إلى ما مُتِّعوا. مَعْلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إذا مَدَّ [عَيْنَيهِ][5] إلى ذلكَ، ليسَ يَمُدُّ للدنيا، ولا لِشَهَواتِهِ، ولكنْ لِيَسْتَعينَ بهِ في أمرِ جهادِ عَدُوِّهِ، ويُعينَ بهِ أصحابَهُ في سَبيلِ الخيراتِ، ثم نَهاهُ مَعَ ذلكَ عنهُ.

دلَّ أنَّ الأخيرَ والأفضلَ ما اختارَهُ مِنَ الفَقْرِ وقُصورِ ذاتِ يَدِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أصنافاً مِنَ الأموالِ والواناً مِنَ النِّعَمِ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أيِ الأغنياءَ منهُمْ وأشباهاً.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هو أصنافُ الأموالِ فهو على التقديمِ والتأخيرِ. كأنهُ قالَ: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيكَ إلى ما مَتَّعْنا منهمْ أزواجاً؛ هو أصنافُ الناسِ، فهو على النَّظْمِ الذي جَرَى بهِ التَّنْزيلُ؛ أي لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيكَ إلى ما مَتَّعْنا بهِ قوماً منهمْ.

وفي قولِهِ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لا يُعْطي أحداً شيئاً إلّا هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ. ولو كانَ ما مَتَّعَ هؤلاءِ أصْلَحَ لهمْ في الدينِ لم يَنْهَ رسولَهُ عن مَدِّ عَيْنَيهِ إليهِ. دلَّ أنهُ قد يُعطي ما ليسَ بأصْلَحَ في الدينِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أخبَرَ أنهُ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ وهمْ يقولونَ: نملي لهمْ لِيَزدادوا خيراً. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٠] هذهِ الآياتُ كُلُّها تَنْقُضُ عليهِمْ قولَهُمْ، وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوضعٍ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يَحتَمِلُ / ٢٨٠ ـ أ/ النَّهيَ نَفْسَهُ، ونَهاهُ أنْ يَحزَنَ عليهِمْ إشفاقاً عليهِمْ، بل أمَرَهُ أنْ يُغلِظَ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] يَحتَمِلُ النَّهيَ نفسَهُ.

---

(١) في الأصل وم: قالوا. (٢) في الأصل وم: نفسه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وعلى هذا المخرجُ قولُهُ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ارفُقْ بهم، وتَلَيَّنْ عليهم، واشْدُدْ على أولئكَ، واغْلُظْ عليهِمْ، وهو ما وصَفَهُمْ [بقولِهِ][1] ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] [وقولِهِ][2] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أخبرَ أنهمْ أهلُ شِدَّةٍ على الكفّارِ وأهلُ غِلْظَةٍ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأهلُ ذِلَّةٍ على المؤمنينَ وأهلُ شِدَّةٍ عليهِمْ، أي على الكفارِ. فعلى ذلكَ هذا.

ويَحتَمِلُ أنْ ليسَ على النَّهيِ، ولكنْ على التخفيفِ والتَّسلّي ورفعِ الحُزْنِ عَنْ نَفْسِهِ لأنهُ كانَ يَحزَنُ لِكُفرِهِمْ باللهِ وتركِهِمُ الإيمانَ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَتْلَفُ لذلكَ كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦ والشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] وأمثالُهُ.

ويَحتَمِلُ أيضاً وجهاً آخرَ، وهو أنهُ كانَ يَحزَنُ عليهِمْ، ويَضيقُ صدرُهُ لِما مَكَرُوا بِهِ، وكايَدُوهُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ والنمل: ٧٠] فإني أكافيهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿أَنَا النَّذِيرُ﴾ على مَعاصيهِ ﴿الْمُبِينُ﴾ على طاعاتِهِ، أو ﴿النَّذِيرُ﴾ على العِصيانِ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿الْمُبِينُ﴾ لأمورِهِ ونَواهيهِ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال الحَسَنُ: الكتبُ كلُّها قرآنٌ؛ يعني كتبَ اللهِ اقتَسَموها، وجَعَلوها عِضِينَ، أي فرَّقوها بالتحريفِ والتبديلِ؛ فما وافَقَهُمْ أخذوهُ، وما لم يُوافِقْهُمْ غيَّروهُ، وبدَّلوهُ، كقولِهِ: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١] ونحوَهُ، فذلكَ اقتِسامُهُمْ، وتَعضِيَتُهُمْ على قولِهِ، وكقولِهِ: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] وقولِهِ: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣] ونحوَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: اقتِسامُهُمْ: هو[3] أنَّ نفراً مِنْ قُرَيشٍ كانوا اقتَسَموا عِقابَ مكةَ لِيَصُدُّوا الناسَ عنْ رسولِ اللهِ: فتقولُ طائفةٌ منهمْ إذا سُئلوا عنهُ: هو كاهنٌ، وطائفةٌ أخرى هو شاعرٌ ساحرٌ مجنونٌ، ونحوَهُ.

وعِضَتُهُمْ[4] قولُهُمْ: هو سِحرٌ، شعرٌ كهانةٌ، أساطيرُ الأولينَ ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤] وأمثالُ ما قالوا: فذلكَ اقتِسامُهُمْ وعِضَتُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ، أي آتيناكَ المثانيَ والقرآنَ العظيمَ، أنزَلْناهُ عليكَ كما أنزَلْنا التوراةَ والإنجيلَ على اليهودِ والنصارى؛ فهمُ المُقتَسِمونَ كتابَ اللهِ، فآمَنوا ببعضٍ، وكفَروا ببعضٍ.

وقالَ أبو عَوسَجةَ: يُقالُ: عَضَيتُ الجَزورَ، أي قَسَمتُها عَضواً. وقالَ غيرُهُ: هو مِنَ العِضَةِ، وهو السِّحرُ بلسانِ قريشٍ. يقالُ للساحرِ: عاضِهٌ.

وقالَ القُتَبيُّ: المُقتَسِمونَ: قومٌ تحالَفوا على عِضَةِ النَّبيِّ ﷺ وأنْ يُذيعوا بكلِّ طريقٍ، ويُخبِروا بِهِ النُّزّاعَ إليهِمْ. وقولُهُ[5] ﴿عِضِينَ﴾ أي فرَّقوهُ، وعَضَوهُ. وقيلَ: فرَّقوا القولَ فيهِ. وهو ما ذكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قولُهُ: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ قَسَمٌ، أقسَمَ اللهُ تعالى: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخلائقَ كلَّها كقولِهِ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أخبرَ أنهُ يسألُهُمْ جميعاً: الرسلَ عنْ تبليغِ الرسالةِ والذينَ أرسلَ إليهِمْ عنِ الإجابةِ لهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هؤلاءِ الذينَ سبقَ[6] ذِكرُهُمْ: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ والذينَ استهزؤوا برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ. يَسألُهُمْ عنْ حُجَجِ ما فعلوا والمعنى الذي حَمَلَهُمْ على سوءِ مُعاملةِ رسولِهِ وكتابِهِ: لأيِّ شيءٍ نسبتُمْ رسولي وكتابي إلى السحرِ والكذبِ والكهانةِ والافتراءِ على اللهِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: و﴿عِضِينَ﴾. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: سبقوا.

لا يُسألونَ: ما فعلتُم؟ وأيُّ شيءٍ عَمِلتُم؟ لأنَّ ذلكَ يكونُ مكتوباً في كُتُبِهِمْ، يَقرَؤونَه[1] كقولِهِ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وهو وعيدٌ شديدٌ في نهايةِ الوَعيدِ والشِّدَّةِ لأنهُ وعيدٌ مَقرونٌ بالقَسَمِ، وكلُّ وعيدٍ قُرِنَ بالقَسَمِ فهو غايةُ الشِّدَّةِ، إذْ لو جاءَنا هذا الوعيدُ مِنْ ملكٍ مِنْ ملوكِ البَشرِ يجبُ[2] أنْ يُخافَ، فكيفَ مِنْ ربِّنا؟

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ كقولِهِ[3]: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] فهو في كلِّ ما أمَرَ بِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱصْدَعْ﴾ أي امْضِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ مِنْ تَبليغِ الرسالةِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي اعْرِضْ عنْ مكافأتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. امْضِ على ما تُؤمَرُ مِنْ تَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ، ولاتَخَفْهُمْ، ولا تَهَبْهُمْ، ولا يَمْنَعْكَ شيءٌ عنْ تَبليغِ الرسالةِ: الخوفُ ولا القرابةُ ولا شيءٌ مِنْ ذلكَ. ولكنِ امْضِ على ما تُؤمَرُ، وهو كما قالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وقالَ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] أي لا يَمنَعْكُمْ عنِ القولِ بالحقِّ والعَدْلِ بُغْضُكُمْ إياهمْ ولا قرابَتُكُمْ.

فَعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي امْضِ على ما أُمِرْتَ مِنْ تبليغِ الرسالةِ، ولا يَمنَعْكَ عنْ ذلكَ الخوفُ والوعيدُ والقرابةُ التي بَينكَ وبَينهمْ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي أظْهِرْ. صَدَعَ: أَظْهَرَ ذلكَ. وأصْلُهُ: الفَرْقُ والفَتْحُ، يريدُ اصْدَعِ الباطلَ بِحَقِّكَ حتى يأتِيَكَ المُوقَنُ بهِ، وهو الموتُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿فَٱصْدَعْ﴾ أي امضِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ على ما تُؤمَرُ، وصَدَعْتُ أي مَضَيتُ، وذلكَ مِنَ المُضِيِّ. وأصلُ هذا كُلِّهِ الشَّقُّ، ويُقالُ: تَصَدَّعوا، أي تَفرَّقوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي أَعْرِضِ عنْ مُكافأتِهِمْ، فأنا أكافِئُهُمْ عنكَ على ما آذَوكَ. وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو مَنسوخٌ بآيةِ السيفِ لكنْ على الوَجهِ[4] الذي ذَكَرْنا ليسَ بِمَنسوخٍ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إنْ كانَ أرادَ بهِ القتالَ والدعاءَ إلى التوحيدِ فهو في وقتٍ[دونَ وَقْتٍ أو][5] في قومٍ خاصٍّ؛ عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يُجيبونَهُ، ولا يؤمنونَ بهِ، وإياسَ[6] رسولِهِ [مِنْ][7] إيمانِهِمْ، فقالَ: أَعْرِضْ [عنْ][8] هؤلاءِ، ولا تَشْتَغِلْ بهِمْ، ولا تَدْعُهُمْ، فإنهمْ لا يؤمنونَ، ولكنِ ادْعُ قوماً آخرينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الكفَرةَ جميعاً، فَمَنَعْناهُمْ عنْ أنْ يَصِلُوا إليكَ على ما قَصَدوا إليكَ مِنْ إهلاكِكَ وغيرِهِ، كقولِهِ ﷺ[9] «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الذينَ كانوا على الطُّرُقِ والمَراصِدِ لِيَصُدّوا الناسَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ على ما ذُكِرَ في القصةِ؛ العَدَدُ الذي ذُكِرَ سَبْعَةٌ أو خَمْسَةٌ، كفاهُ اللهُ بأنْ أهْلَكَهُمْ بما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الذينَ اسْتَهْزَؤوا بهِ أُهلِكوا جميعاً بعقوباتٍ مُختلِفَةٍ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ليسَ على الجَعْلِ لأنهمْ لو جَعَلُوا لكانَ، لأنَّ كلَّ مَجعولٍ كائنٌ موجودٌ. ولكنَّ قولَهُ ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أي يَزْعُمونَ أن ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إمّا في التَّسميةِ وإمّا[10] في العِبادةِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] هُمْ لا يَقْدِرونَ على أنْ يَجْعَلُوهُ ﴿عِضِينَ﴾ ولكنْ زَعَموا أنهُ كذا، لأنَّ اللهَ وَكَلَ حِفْظَهُ إلى نَفْسِهِ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقولِهِ[11]: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾

---

(١) في الأصل وم: ويقرؤون. (٢) من م، في الأصل: بحيث. (٣) في الأصل: أي، في م: أي استقم كما تؤمر. (٤) من م، في الأصل: وجه. (٥) من م: في الأصل: أي. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: وقال.

[فصلت: ٤٢] أخبَرَ انهُ يَحفَظُهُ حتى لا يأتيَهُ الباطلُ مِنْ بَينِ يَديهِ ولا مِنْ خَلفِهِ. ولو قَدَروا على جَعْلِهِ ﴿عِضِينَ﴾ لكان قد أتَى الباطلُ مِنْ بَين يَديهِ ومِنْ خَلْفِهِ. دلَّ على القولِ الذي قالوا، وهو على المجازِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] وقولُهُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فهو كُلُّهُ على المَجازِ على ما عندَهُمْ: إمّا بِحَقِّ التَّسْمِيَةِ لها أنها آلهةٌ، وإمّا بِصَرْفِ العبادةِ إليها. ظاهرُ هذا أنَّ المُسْتَهْزِئينَ ذَكَرَهُمْ انهُ كفاهُ عنهمْ؛ هُمُ الكَفَرَةُ جميعاً.

لكن يَحتَمِلُ في الذينَ ذَكَرَهُمْ أهْلُ/ ٢٨٠ ـ ب/ التأويلِ [الذينَ][1] كانوا على مَراصدِ مكةَ؛ أضافَ ذلكَ إليهِمْ، ونَسَبَهُ[2]، لأنهمْ هُمُ الذينَ أمَروا غَيرَهُمْ أنْ يَجْعلوا دونَهُ إلهاً، فكأنهمْ فَعَلوا ذلكَ، وهُمْ قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فَعَلوا بهِ ما فَعَلوا مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، فيكونُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ على إضمارِ [كانوا، أيِ الذينَ][3] كانوا يَجْعَلونَ مع اللهِ إلهاً آخَرَ، و إنْ كانَ في الذينَ يكونونَ مِنْ بَعْدُ، فهو على ظاهرِ ما ذُكِرَ: يَجْعَلونَ على المُسْتقْبلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ، أي سَوفَ يَعْلَمونَ ما عَمِلوا مِنَ الاقْتِسامِ والعِضَةِ والاسْتِهْزاءِ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ إذا نَزَلَ العذابُ بهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وما قالوا مِنَ الاقْتِسامِ والعِضَةِ والاسْتِهْزاءِ بهِ وأنواعِ الأذى الذي كانَ منهُمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ أي نَعْلَمُ ذلكَ، وهو محفوظٌ عندَنا، نَجْزيهِمْ على ذلكَ، فلا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ [بذلكَ. وهو على وجهَين:

أحدُهما: على][4] التصبيرِ على الأذى والتَّسلِّي عنْ ذلكَ وتَرْكِ المكافآتِ لهمْ، واللهُ أعلَمُ. وكانَ يَضيق صَدْرُهُ مَرَّةً لِتركِهِمُ الإجابَةَ لهُ ومَرَّةً لِلأذى باللسانِ.

والثاني: [على][5] عِلْمٍ مِنَّا بما يكونُ منهمْ ومِنْ ضِيقِ صَدْرِكَ بذلكَ. لكنْ أنْشَأناهُمْ، ومَكَّنَاهُمْ[6] على عِلْمٍ مِنّا بذلكَ امْتِحاناً مِنّا إيّاكَ بذلكَ وإياهُمْ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي صَلِّ بأمرِ ربِّكَ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي مِنَ المُصَلِّينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ هو أمْرٌ. فإذا فَعَلَ ذلكَ كانَ بأمْرِ ربِّهِ، فَلا مَعْنَى لِذِكْرِ الموتِ مِنْ بَعْدِ قولِهِ[7]: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إنْ كانَ الحَمْدُ لهُ، وهو الأمْرُ على ما قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي نَزِّهِ اللهَ عَنْ جميعِ ما قالتِ المُلْحِدَةُ فيهِ؛ إذ التسبيحُ، هو التَّنزيهُ في اللغةِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي بِثَناءِ ربِّكَ، أي نَزِّهْ [ربَّكَ][9] مِنْ ذلكَ كُلِّهِ بِثَناءٍ، تُثْنيهِ عليهِ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾. أي مِنَ الخاضِعينَ؛ إذِ السجودُ هو الخُضوعُ. أو يكونُ أمْرُهُ إياهُ بالتسبيحِ على التَّسَلِّي وتَوسيعِ صَدْرِهِ بالذي يكونُ منهُمْ، أي ﴿فَسَبِّحْ﴾ ربَّكَ مكانَ ذلكَ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ يَحْتَمِلُ التوحيدَ، أي وَحِّدْ ربَّكَ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ ﵄: كُلُّ عِبادةٍ ذُكِرَتْ في القرآنِ، فهي[10] توحيدٌ؛ يأمُرُهُ بِاعْتِقادِ الإخلاصِ لهُ في كلِّ أمْرٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونسب. (٣) في الأصل: كان أي الذي، في م: كان أي الذين. (٤) في الأصل وم: لذلك فهو، في م: لذلك فهو على. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ومكنا. (٧) في الأصل وم: بقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصح وم: فهو.

ويَحتَمِلُ العِبادةَ نَفْسَها؛ يأمُرُهُ بالعِبادَةِ لهُ شُكراً على ما رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ «أنهُ صلّى حتى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ، فقيلَ لهُ: ألَمْ يَغْفِرِ اللهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ، فقالَ: بَلى، أفلا أكونُ عَبداً شَكُوراً»؟ [البخاري ١١٣٠]

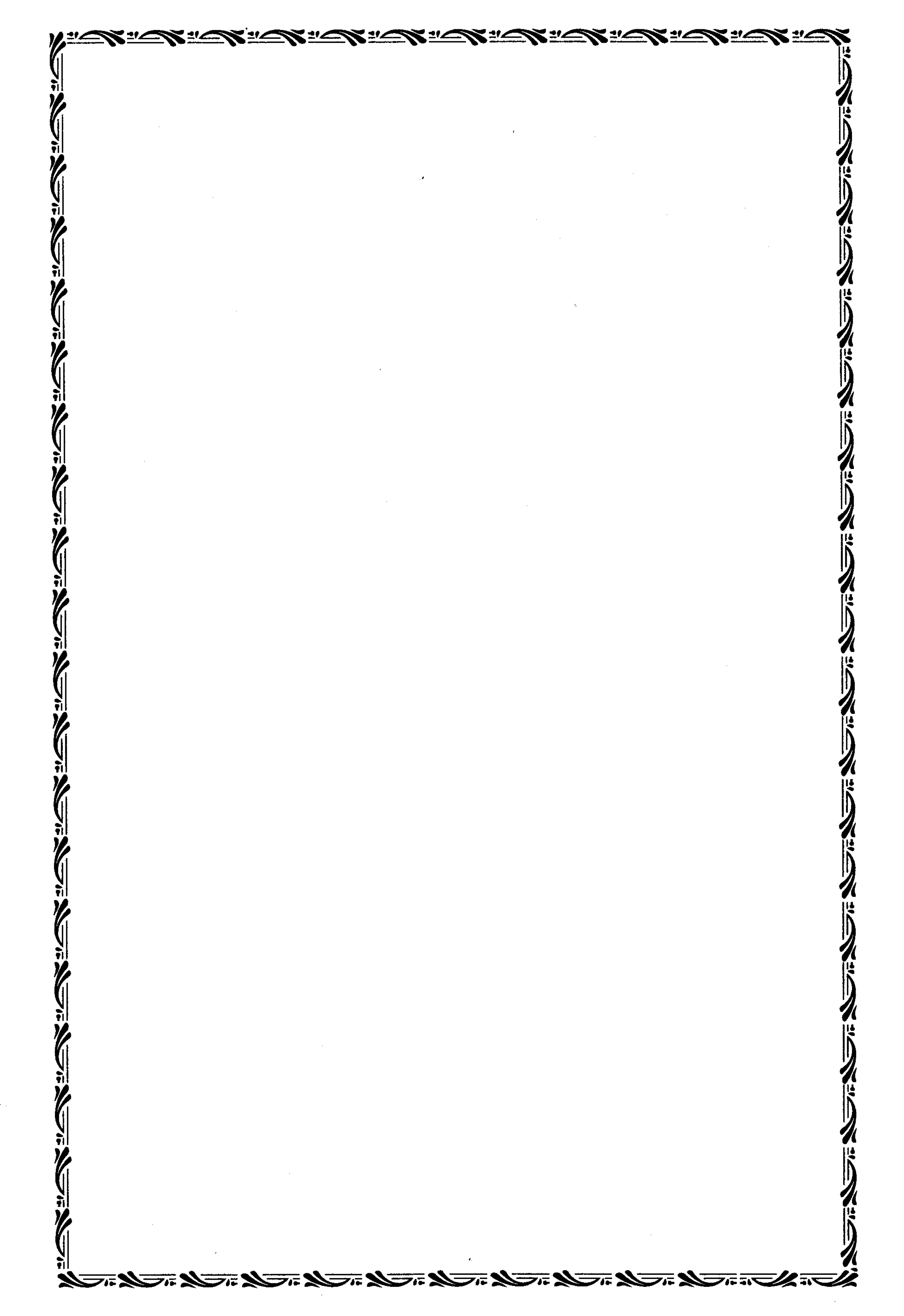
وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي ما تَيَقَّنْتَ بهِ، وهو الموْقَنُ بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] أي مَنْ يَكْفُرْ بالمُؤْمَنِ بهِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، لأنَّ الإيمانَ لا يُكْفَرُ بهِ. فَعَلَى ذلكَ اليَقينُ لا يأتيهِ [ولكنْ يأتي][1] الموقَنُ بهِ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، أي بأمْرِ اللهِ، وهو المأمورُ بهِ، لأنَّ الصلاةَ لا تكونُ أمْراً للهِ ولكنْ بأمْرِ اللهِ، وكذلكَ ما يَجيءُ مِنْ هذا النَّحْوِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فيهِمْ، وهو ما وَعَدِ مِنَ العذابِ فيهِمْ؛ أي يَتَيَقَّنونَ بذلكَ[2] واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ.

❋ ❋ ❋

(١) في م، ولكن يأتيه، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: بعض أهل التأويل: سورة النحل كلها مكية الثلاث آيات لأنها نزلت في المدينة.



سورة النحل

كلها مكية إلا ثلاث لأنها نزلت بالمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ وجوهٌ[1]:

أحدُها: أنْ يُعْرَفَ قولُهُ: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [وإرادتُهُ، وما][2] الذي اسْتَعْجَلوهُ، وأنَّ ما اسْتَعْجلوهُ الساعةُ والقيامةُ بقولِهِ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية [الشورى: ٨] ونَحْوِهِ مِنَ الآياتِ.

والثاني[3]: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ رسولَهُ الذي كانَ يَسْتَنْصِرُ بِهِ أهلُ الكتابِ على المُشْركينَ كقولِهِ: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [البقرة: ٨٩] وكانَ يَتَمنَّى مُشْركو العَرَبِ أنْ يكونَ لهمْ رسولٌ كسائِرِ الكَفَرَةِ كقولِهِ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الآية [فاطر: ٤٢] فلا تَسْتَعْجِلوا ذهابَ ما كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ بمحمدٍ ﷺ أو شيءٍ آخرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنهُ لم يُرِدْ بقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وُقوعَهُ، ولكنْ قربَهُ، أي قُرْبَ آثارِ أمْرِ اللهِ كما يُقالُ: أتاكَ الخيرُ، وأتاكَ أمْرُ كذا على إرادةِ القُرْبِ لا على الوُقوعِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي ظَهَرَتْ أعلامُ اللهِ وآثارُهُ، وليسَ على إتيانِ أمْرِهِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ كقولِهِ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ وآثارُهُ هو رسولُ اللهِ ﷺ لأنهُ كانَ بِهِ يَخْتُمُ النُّبُوَّةَ. فهو كانَ إعلامَ الساعةِ على ما رُوِيَ عنهُ ﷺ قالَ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتينِ» [البخاري ٦٥٠٣]. أشارَ إلى إصْبَعَيهِ[4] لِقُرْبِهما منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ سُبْحانَ هي[5] كلمةُ إجلالِ اللهِ يُجْريها على ألسُنِ أوليائِهِ على [تَبرئَتِهِ مِمّا][6] قالتِ المُلْحِدةُ فيهِ وتَعاليهِ عَنْ جَميعِ ما نَسَبُوا إليهِ مِنَ الوَلَدِ والصَّاحِبَةِ والشَّريكِ وغَيرِهِ مِنَ الأشباهِ والأضدادِ ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عنْ ذلكَ. سُبْحانَ اللهِ، حَرْفٌ يُذْكَرُ على إثْرِ شيءٍ مُسْتَبْعَدٍ أو مُسْتَعْجَبٍ أو مُسْتَعْظَمٍ جواباً لِذلكَ، وهو ما ذَكَرَهُ على إثْرِ وَصْفٍ وقولٍ[7]، لا يليقُ باللهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ ونَحْوِهِ، فقالَ: سُبْحانَ اللهِ على التنزيهِ مِمّا[8] وَصَفُوهُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي بالوَحْيِ الذي أنْزَلَهُ على [رُسُلِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِٱلرُّوحِ﴾][9] الرحمةَ. وهو الذي بِهِ نَجاةُ كلِّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ، وهداهُ لِدينِهِ، وهو ما ذُكِرَ حينَ[10] قالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقيلَ: الرسالةُ والنُّبُوَّةُ وما ذُكِرَ روحاً لأنهُ بِهِ حياةُ الدينِ كما سَمَّى الذي بِهِ حياةُ الأبدانِ روحاً[11].

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي بالحياةِ مِنْ أمْرِهِ، وهو ما ذَكَرْنا مِنْ حياةِ الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي على مَنْ يَشاءُ أنْ يَخْتَصَّ مِنْ عِبادِهِ، ويَخْتارَهُ، وهو مشيئةُ الِاختيارِ، وإنْ كانَ غَيرُهُ يَصْلُحُ لذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وجهان. (٢) في الأصل: وأراد وما، في م: واراد ما. (٣) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٤) في الأصل وم: إصبعين. (٥) في الأصل وم: هو. (٦) في الأصل وم: تبرئة ما. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) من م، في الأصل: فما. (٩) في الأصل: رسوله والرحمة والروح، في م: رسله والرحمة والروح. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: أرواحا.

وفيهِ دلالةُ اختِصاصِ/ ٢٨١ ـ أ/ اللهِ بعضَهُمْ على بَعْضٍ، وإنْ كانَ غَيرُهُ يَصْلُحُ لذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ على هذا أجابَ الرسلُ والأنبياءُ ﷺ جميعاً بالإنذارِ والدعاءِ إلى وَحْدانيَّةِ اللهِ وتوجيهِ العِبادةِ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ هو صِلَةُ ما تقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾. ولا يُوصَلُ بما تأخَّرَ.

ثم يُخَرَّجُ على الإضمارِ، أي ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ وقولوا: إنهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في غَيرِ مَوضعٍ أنهُ لم يَخلُقْهما وما فيهما عَبَثاً. إنما خَلَقَهُمْ لأمْرٍ كائنٍ أو لِلْمِحْنَةِ والجزاءِ ونَحْوِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ نِعَمَهُ عليهِم وقُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ، لأنهُ لوِ اجْتمَعَ الخَلائقُ كُلُّهُمْ على أنْ يُدْرِكوا المَعْنَى الذي بهِ تَصيرُ النُّطْفَةُ نَسَمَةً وإنساناً ما قَدَرُوا عليهِ حينَ[1] خَلَقَ النُّطْفَةَ إنساناً على أحسَنِ تقويمٍ وأحسنِ صورةٍ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الدَّهْرِيَّةِ حينَ[2] أنكَرُوا خَلْقَ الشَّيءِ مِنْ لا شيءٍ لأنهمْ لم يُدْرِكُوا المَعْنَى الذي خَلَقَ الإنسانَ مَن نُطفَةٍ، فَيَلْزِمُهُمْ أنْ يُقِرُّوا بِخَلْقِ الشيءِ مِنْ لا شَيءٍ، وإنْ لم يُشاهِدُوا ذلكَ، ولم يُدْركوا.

وفيه دلالةُ البَعْثِ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إنْشاءِ الإنسانِ مِنَ النُّطْفَةِ، وليسَ فيها مِنْ آثارِ الإنسانِ شيءٌ، يَقْدِرُ على البَعْثِ وإنْشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخَصِيمُ هو الذي يُجادِلُ بالباطِلِ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهِرَةٌ مُجادَلَتُهُ بالباطِلِ ومخاصَمَتُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الخَصيمُ هو الجَدِلُ الذي يُجادِلُ في ما كانَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الخَصيمُ هو المُخاصِمُ والمُخاصَمُ، كلاهُما خَصِيمٌ. ويقالُ: فلانٌ خَصْمي مبينٌ ظاهِرَةٌ خُصُومَتُهُ. والخَصيمُ هو الفَعيلُ، والفَعيلُ قدْ يُسْتَعْمَلُ في موضِعِ الفاعِلِ والمفعولِ جميعاً. فكأنهُ قالَ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي مُنْقَطِعٌ عنِ الخُصومَةِ، بَيِّنٌ انقِطاعُهُ، وهو ما ذَكَرَ مِنْ خُصومَتِهِ في آيةٍ أُخرَى وانْقِطاعِ حجتِهِ حينَ[3] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ و٧٨] فهذا احْتِجاجٌ عليهِ. فإذا انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ، بُهِتَ الذي أنْكَرَ قدرتَهُ على البَعْثِ لأنهُ[4] لم يَتَهَيَّأْ لهُ جوابُ ما احْتُجَّ عليهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ على الظاهِرِ أنَّ خَلْقَ هذهِ الأشياءِ لَنا ﴿فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ كقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ أي هو خَلَقَها، ثم أخبَرَ [أنها][5] ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ بِذِكْرِ أنواعِ المَنافِعِ والنِّعَمِ التي أنعمَ علينا مُفَسَّرَةً مُبَيَّنَةً واحدةً بَعْدَ واحدةٍ في هذهِ السورةِ وفي غيرِها مِنَ السوَرِ. إنما ذَكَرَها مُجْمَلَةً غَيرَ مُشارٍ[6] إلى كلِّ واحدةٍ منها على ما أشارَ إليها[7] في هذهِ السورةِ لِيقوموا بشُكْرِهِ[8]، ولِيَعْلَموا قدرَتَهُ على خَلْقِ هذهِ الأشياءِ لا مِنَ الأشياءِ.

ثم قولُهُ: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الدِّفْءُ نَسْلُ كلِّ دابَّةٍ، وقالَ بعضُهُمْ: ما يُنْتَجُ منهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الدِّفْءُ: ما اسْتَدْفَأْتَ بهِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ تفسيرُ الدِّفْءِ والمَنافِعِ التي ذَكَرَ[9] ما فَسَّرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ الآية

---

(١) و(٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مشارة. (٧) في الأصل وم: ما. (٨) في الأصل وم: بشكرها. (٩) في الأصل: ذكروا.

[النحل: ٨٠] جَعَلَ اللهُ ﷻ الأنعامَ وما ذَكَرَ وقايةَ جميعِ أنواعِ الأذى مِنَ السَّماويِّ وغيرِهِ مِمَّا يَهيجُ مِنَ الأنفُسِ مِنَ الحَرِّ والبَرْدِ والجوعِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يَكثُرُ [عَدَدُها، ويَطولُ أمَدُها][1] وذِكْرُها.

وجعَلَ فيها مَنافِعَ كثيرةً مِنَ الرُّكوبِ والشُّرْبِ والأكْلِ كما قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [غافر: ٨٠] وقالَ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١] [وقالَ][2]: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٣٣].

الآية ٦ وأخبَرَ أيضاً أنَّ فيها جَمالاً وزينةً بقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ فإنْ قالَ قائلٌ: أيُّ جَمالٍ يكونُ لنا فيها؟ [قيلَ:][3]: الإراحةُ وحينَ السَّرْحِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وذلكَ أنهُ أعْجَبُ ما يكونُ إذا راحَتْ عِظاماً ضُروعُها طِوالاً أسْنِمَتُها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ إذا سَرَحَتْ لِرَعْيِها. أو أنْ يكونَ الجَمالُ عندَ الإراحةِ والسَّرْحِ شُرْبَ ألبانِها، وقِرَى الضيفِ في ألبانِها في الرَّواحِ والمساءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وذلك أنهمْ كانوا يُسَرُّونَ عندَ الإراحةِ والتسريحِ، وذلكَ السرورُ يَظْهَرُ في وجوهِهِمْ، فإذا ظَهَرَ زادَهُمْ[4] جَمالاً وحُسْناً. وهكذا المَعْرُوفُ في الناسِ أنهمْ إذا سُرُّوا يَظْهَرُ ذلكَ السرورُ في وجوهِهِمْ، فَيَزدادونَ[5] بذلكَ جمالاً، وإذا حَزِنوا، وأصابَهُمْ غَمٌّ، يُؤَثِّرُ ذلكَ الغَمُّ نُقصاناً في خُلُقِهِمْ فَيَزدادونَ[6] قُبحاً وتَشويهاً.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ إذا أراحوا، أو سَرَّحُوها، رأى الناسُ أنَّ أربابَها أهْلُ غِنًى وأهْلُ ثَرْوَةٍ، وأنهمْ لا يَحتاجونَ إلى غَيرِهِمْ، وأنْ يكونَ لِغَيرِ إليهمْ حاجةٌ، فيكونُ لهمْ بذلكَ ذِكْرٌ عندَ الناسِ وشَرَفٌ، وذلكَ جمالُهُمْ وشَرَفُهُمْ. فيها ظاهرٌ لأنَّ ما يُبْسَطُ ويُفْرَشُ، إنما يُتَّخَذُ منها ومِنْ أصوافِها، وكذلكَ ما يُلْبَسُ إنما يكونُ منها، وإنَّما يُبْسَطُ، ويُفْرَشُ، ويُلْبَسُ، لِلتَّجَمُّلِ والبَهاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ ذَكَرَ أيضاً ما جَعَلَ فيها للناسِ مِنَ النِّعَمِ ما تَحمِلُ مِنَ الأثقالِ مِنْ مَكانٍ ومِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ما لم يكُنْ أنشَأَهُنَّ، أعْني الأنعامَ التي أخْبَرَ أنها تَحمِلُ أثقالَنا [ولا نَصِلُ][7] إلى ذلك بدونِهِ إلاّ بِجَهْدٍ وشِدَّةٍ.

وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ جَعَلَ في هذِهِ الأنفُسِ حوائجَ وقِواماً بأنْ لا قِوامَ لَها إلاّ بذلكَ. فَلَعَلَّهُ لا يَظْهَرُ بما بِهِ قِوامُ النفسِ إلاّ في بَلَدٍ آخَرَ ومَكانٍ آخَرَ، فلو تَحَمَّلَ ذلكَ بنفسِهِ لكانَ في ذلكَ تَلَفُ نَفْسِهِ وذهابُ ما بِهِ قِوامُهُ. فذَكَرَ أنهُ خَلَقَ لنا ما يُحْمَلُ بِهِ مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ [في ما][8] بِهِ قِوامُ أنفُسِنا وحاجاتِنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مِنْ رحمتِهِ ورأفَتِهِ ما جَعَلَ لكُمْ مِنَ المَنافِعِ في الأنعامِ وما ذَكَرَ، أو ذَكَرَ لِتَتَرَحَّمُوا على هذِهِ الأنعامِ التي خَلَقَها لكمْ[9] في الإنفاقِ عليها والإحسانِ إليها، وذَكَرَ فيهِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] وذلكَ لا يُوصَلُ إلى أكْلِهِ إلاّ بالذَّبحِ. فما[10] يُؤكَلُ ليسَ بخارجٍ مِنَ الرَّحْمَةِ والرأفَةِ.

وذلكَ يَنْقُضُ على الثَّنَوِيَّةِ قولَهُمْ؛ أنكَرُوا ذَبْحَ هذِهِ الأشياءِ، ويقولونَ: إنهمْ يَتألَّمونَ بالضَّرْبِ والذبحِ والقَتْلِ كما تَتألَّمونَ أنتم، فَمَنْ قَصَدَ قَصْدَ أحَدِكُمْ بالقَتْلِ فهو سَفيهٌ عندَكُمْ غَيرُ حكيمٍ ولا رَحيمٍ، بلْ موصوفٌ بالقَساوَةِ والسَّفَهِ، فاللهُ، سُبْحانَهُ، موصوفٌ بالحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ والرَّأفَةِ، لا يَجوزُ أنْ يأمُرَ بالذبحِ والقَتْلِ لهذِهِ الأشياءِ، إنَّ في ذلكَ ما يُزيلُ الرَّحْمَةَ والحِكْمَةَ.

فيُجابُ لهمْ [بوجهَينِ]:

أحَدُهُما[11]: أنَّ اللهَ خَلَقَ هذا البَشَرَ في هذِهِ الدنيا لِلْمِحْنَةِ ولعاقِبَةٍ قَصَدَها: إمَّا ثواباً وإمَّا عِقاباً، وأخبَرَ أنهُ خَلَقَ هذهِ

---

(١) في الأصل وم: مدها ويطول مدها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ازداد لهم. (٥) و(٦) في الأصل وم: فيزداد لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: مما. (٩) في الأصل وم: لهم. (١٠) في الأصل: فيما. (١١) في الأصل وم: بوجوه أحدها.

الأشياء لنا، وجَعَلَ لنا فيها منافِعَ، تُؤمَلُ، وتُقْصَدُ. وقد تَجِدُ في الشاهِدِ مَنْ هو موصوفٌ بالرَّحْمَةِ والرَّأفَةِ على نفسِهِ؛ يُجَرِّحُ نَفْسَهُ الجراحاتِ، ويُحَمِّلُ عليها الشدائدَ والمَكْرُوهاتِ لِمَنافِعَ، يَقْصِدُها[1] وخَيرٍ يَأمَلُهُ[2] في العاقِبَةِ، ثم لم يوصَفْ بالسَّفَهِ ولا بالخُروجِ/ ٢٨١ ـ ب/ عنِ الحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ مِنَ الحِجامَةِ والإفْتِصادِ وشُرْبِ الأدويةِ الكريهةِ الشديدةِ ما لو لم يَأمُلْ ما قَصَدَ مِنَ النَّفْعِ والعافِيَةِ في العاقِبَةِ ما تَحَمَّلَ تلكَ المَكْرُوهاتِ والشدائدَ. فَدَلَّ ما وَصَفْنا أنَّ تَحَمُّلَ الأذى والألمِ والمَكروهِ غَيرُ خارجٍ عَنِ الحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ، ولا الفِعْلُ بما فَعَلَ سَفَهٌ إذا كانَ لِمَنافِعَ تُقْصَدُ في العاقِبَةِ وعافِيَةٍ تُؤمَلُ. فَيَبْطُلُ قولُ الثَّنَوِيَّةِ: إنَّ ذلكَ ممَّا يُزيلُ الرَّحْمَةَ.

والثاني[3]: أنَّ هذهِ الأنعامَ والبهائمَ لم تُخْلَقْ لِلْمِحْنَةِ ولِلْجَزاءِ في العاقِبَةِ، ولكنْ خُلِقَتْ لِمَنافِعِ البَشَرِ؛ فَلَهُمُ الانْتِفاعُ بها مَرَّةً بِلُحومِها ومَرَّةً بِحَمْلِ أثقالِهِمْ[4] والانْتِفاعِ بِظُهُورِها معَ ما ذَكَرْنا أنَّ تَحَمُّلَ المَكْرُوهاتِ وأنواعِ الشدائدِ والألمِ، لا يُخرِجُ الفِعْلَ عنِ الحِكْمَةِ، ولا يُزيلُ الرَّحْمَةَ والرَّأفَةَ إذا قُصِدَ بِهِ النَّفْعُ في العاقِبَةِ، وطُمِعَ فيهِ الخَيرُ. وهذا يَدُلُّ أنهُ أُبيحَ لنا الانْتِفاعُ والذَّبْحُ على غَيرِ جَعْلِ حَقيقَتِها لنا حينَ[5] لم يُبِحْ لنا إتلافَها، إذ لوكانَتْ أصولُ الأشياءِ لنا لكانَ لا يَمْنَعُ عَنِ الإتلافِ. فَدَلَّ أنهُ أُبيحَ لنا الانْتِفاعُ بها على غَيرِ جَعْلِ الحقيقةِ والأصولِ لنا. فَيَبْطُلُ قولُ مَنْ يقولُ: إنَّ الأشياءَ في الأصلِ على الحِلِّ والإباحةِ حتى يقومَ ما يُحْظَرُ.

قالَ أبوعُبَيدٍ: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ يُقالُ فيهِ[6]: أرَحْتُ الإبِلَ أُريحُها إراحَةً، والإراحةُ عندَ العَرَبِ أنْ يَصُدَّ الرِّعاءُ مواشِيَهِمْ[7] بالليلِ إلى مأواها. ولهذا سُمِّيَ ذلكَ الموضعُ المَراحُ. وقولُهُ: ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ هو إخراجُها إلى المَرْعى؛ يُقالُ: سَرَحْتُها أسْرَحُها سَرْحاً وسُروحاً. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ. والدِّفْءُ ما ذَكَرْنا أنهُ مِنَ الاسْتِدْفاءِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ قولُهُ: ﴿وَزِينَةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ الماشِيَ هو دونَ الراكبِ، والمَشْيُ يُورِثُ نقصاناً في الوَزْنِ[8]، والركوبُ لا، وذلكَ زينةٌ على ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦].

والثاني: أنَّ الراكبَ إذا نَظَرَ إلى الماشي سُرَّ بركوبِهِ، فالسرورُ يَظْهَرُ في وَجْهِهِ وذلكَ يزيدُ في حُسْنِهِ وجَمالِهِ. وأصْلُهُ ما ذَكَرَ ﷻ ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ الآية [وقال:][9] ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ بَيَّنَ أنهُ لماذا خَلَقَ الأنعامَ، وما جَعَلَ فيها؟ وهو ما ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ فيها الدِّفْءَ والمَنافِعَ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبَيَّنَ أنهُ لماذا خَلَقَ الخيلَ؟ وهو ما ذَكَرَ ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

وسُئِلَ ابنُ عباسٍ ﷺ عنْ لُحومِ الخَيلِ، فَقَرَأَ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ ولم يَقُلْ لِتَأكُلوها، فَكَرِهَ أكْلَها لذلكَ.

وتمامُ هذا [في وجهَينِ:

أحَدُهُما][10]: أنَّ اللهَ ذَكَرَ الأنعامَ، وما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ والانْتِفاعِ بها، وبالَغَ في ذِكْرِها لأنهُ قالَ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وقالَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل: ١٠] وقالَ: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١] وقالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ذَكَرَ جميعَ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ أنواعِ المَنافِعِ ذِكْراً شافياً غَيرَ مَكْفِيٍّ. فَدَلَّ ما ذَكَرَ في الخَيلِ مِنَ الركوبِ وكذلكَ في البِغالِ والحميرِ على أنهُ ليسَ فيها مَنْفَعَةٌ أُخرى سِوَى ما ذَكَرَ، وهو الركوبُ؛ إذا خَرَجَ الذِّكْرُ لها على المُبالَغَةِ والاسْتِقْصاءِ ليسَ على الاكْتِفاءِ. ولو كانَ هناكَ مَنْفَعَةٌ أُخرى لَذَكَرَ ما ذَكَرَ في غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: تقصد. (٢) في الأصل وم: يتأمل. (٣) في الأصل وم: على. (٤) في الأصل وم: أثقالها. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: منه. (٧) في الأصل وم: مواشيها. (٨) في الأصل وم: الوجه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: مِنَ الأشياءِ أشياءُ يُعرَفُ خُبثُها بِنِفارِ الطِّباعِ، والصِّبيانُ أوَّلُ ما يَبْلُغونَ[1] يَرْغَبونَ في رُكوبِها، لا أحَدَ يَرْغَبُ في أكلِها إلّا مَنْ غُيِّرَ طَبْعُهُ عمّا كانَ مَجْبولاً بهِ، فهو يَرْغَبُ في أكلِها[2]. وأمّا مَنْ تُرِكَ وَطَبْعَهُ يَسْتَخْبِثُها[3]، ويَنفُرُ طَبْعُهُ عَنْ أكلِها[4]، واللهُ أعلَمُ.

ورُوِيَ عنْ جابرٍ [أنهُ][5] قالَ: لمّا كانَ يومُ خَيْبَرَ أصابَ الناسَ مجاعةٌ، وأخذوا الحُمُرَ الأهْلِيَّةَ، فَذَبَحُوها، فَحَرَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ لُحومَ الحُمُرِ الإنسيّةِ ولحومَ الخَيلِ والبِغالِ وكلَّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ وكلَّ ذي مِخْلَبٍ مِنَ الطيرِ، وحَرَّمَ الخُلْسَةَ والنُّهْبَةَ.

ورُوِيَ عنْ جابرٍ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ خِلافُ ذلكَ. قالَ: أطْعَمَنا رسولُ اللهِ لُحومَ الخَيلِ، ونَهانا عنْ لُحومِ الحُمُرِ [البخاري ٥٥٢٠].

وعَنْ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ [أنها][6] قالَتْ: نَحَرْنا فَرَساً في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ فأكَلْناهُ [البخاري ٥٥١٩].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهى عنْ لُحومِ الحُمُرِ، وأذِنَ لنا في لُحومِ الخَيلِ. قُلنا: قد يَجوزُ أنْ يَكونوا أكَلُوهُ في الحالِ التي كانَ يُؤكَلُ فيها الحُمُرُ؛ لأنَّ النَّبيَّ إنما نَهى عنْ أكلِ لحومِ الخيلِ صَريحاً[7] فَقَدْ يَجوزُ أنْ يَكونُوا أكَلُوا لَحْمَ الفَرَسِ في حالِ الإباحةِ، إذْ لم يَذْكُروا الوقْتَ.

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ][8] قالَ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يأكلونَ لُحومَ الخَيلِ في مَغازيهِمْ، وكانَ الحَسَنُ لا يَرَى فيها بَأساً على كلِّ حالٍ. وقولُ الحَسَنِ: إنهمْ كانوا يأكلونَ لُحومَ الخَيلِ في مَغازيهِمْ يَدُلُّ على أنهُمْ كانوا يأكلونَ في حالِ الضرورةِ.

رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الخَيلُ لِثلاثةٍ: فهي لِرَجُلٍ كذا أو لِرَجُلٍ آخَرَ كذا وعلى رَجُلٍ وِزْرٌ» [البخاري ٢٨٦٠] يُبيِّنُ أنها لا تَصلُحُ لِغَيرِ ذلكَ. ولو صَلَحَتْ للأكْلِ لَقالَ: الخَيلُ لأربعةٍ ولَقالَ: ولِرَجُلٍ طعامٌ.

وكما يُبيِّنُ ما ذَكَرْنا أنَّ البَغْلَ حَرامٌ، وهو مِنَ الفَرَسَةِ، فلو كانَتْ أمُّهُ حَلالاً كانَ هو أيضاً حَلالاً. ولأنَّ حُكْمَ الوَلَدِ حُكْمُ أمِّهِ، لأنهُ منها، وهو كَبَعْضِها. فَمَنْ حَرَّمَ البَغْلَ لَزِمَهُ أنْ يُحَرِّمَ لحمَ الفَرَسَةِ في حُكْمِ النظرِ والمَقاييسِ.

أفَلا تَرَى أنهُ جُعِلَ حُكْمَ الوَلَدِ حُكْمَ أمِّهِ، ولم يُعْتَبَرْ بالفَحْلِ؟ فلما كانَ لحمُ البَغْلِ حراماً وَجَبَ أنْ يكونَ لَحْمُ الفَرَسَةِ كذلكَ.

إلّا أنَّ أبا حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، كانَ لا يُطْلِقُ تَحْريمَ أكلِها لِما فيها مِنَ الشُّبْهَةِ [لِاخْتِلافِ الأحاديثِ][9] المَرْوِيَّةِ عنْ رسولِ اللهِ. لكنهُ ذَكَرَ الكَراهةَ لِلشُّبْهَةِ التي فيها.

وكانَ أبو يوسفَ، رَحِمَهُ اللهُ، يُبيحُ أكْلَها.

وقد يَجوزُ أنْ يُحتَجَّ لأبي يوسفَ في الفَرْقِ بَيْنَ المولودِ مِنَ الفَرَسَةِ وبَيْنَ وَلَدِ الحِمارةِ الوَحْشِيَّةِ، إذا نُزِيَ، عليها حمارٌ أهليٌّ، بأنَّ وَلَدَ الحِمارِ لم يَتَغَيَّرْ عنْ جِنْسِ أمِّهِ، فَحُكْمُهُ حُكْمُها. والبَغْلُ ليسَ مِنْ جِنْسِ أمِّهِ، هو مِنْ جِنْسٍ ثالثٍ. فذلكَ لم يَكُنْ سَبيلُها بِسَبيلِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أخبَرَ أنهُ يَخْلُقُ ما لا نَعْلَمُ، فَلَيسَ لنا أنْ نَتَكَلَّفَ في عِلْمِ ذلكَ، أو يَخْلُقُ مِنَ النِّعَمِ في ما خَلَقَ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتُمْ أنها نِعَمٌ، أو قالَ: يقولُ قومٌ: إنهُ ليسَ للهِ أنْ يَخْلُقَ شيئاً لا يُطْلِعُ المُمْتَحَنَ عليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: أي على اللهِ بيانُ قَصْدِ السَّبيلِ وهُدَى يُبَيِّنُ الهُدَى مِنَ الضلالةِ، ويُبَيِّنُ [السَّبيلَ مِنَ السُّبُلِ][10] التي تَفَرَّقَتْ عنْ سَبيلِهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩].

---

(١) في الأصل وم: بلغوا. (٢) في الأصل وم: أكله. (٣) في الأصل وم: يستخبث. (٤) في الأصل وم: أكله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صحيحاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: والاختلاف والأحاديث. (١٠) في الأصل وم: من السبيل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي عليهِ بيانُ ما يَجورُ منها: قَصْدُ السبيلِ، يُعْدَلُ، ويُجارُ. أو يقالُ: وباللهِ يوصَلُ إلى قَصْدِ السبيلِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي وباللهِ يُوصَلُ بِقَصْدِ السبيلِ، وهي السُّبلُ التي ذَكَرْنا. ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ كقولِهِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقالَ بعضُهُمْ: طريقُ الحقِّ والعَدْلِ للهِ، وقد يُسْتَعْمَلُ حَرْفٌ على مكانَ [اللام كقولِهِ تعالى][1]: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وقولِهِ[2] تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ/ ٢٨٢ ـ أ/ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ وهي السُّبُلُ المُتَفَرِّقَةُ عن سبيلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: لو شاءَ أكْرَمَ الخَلْقَ كُلَّهُ باللطفِ الذي أكْرَمَ أولياءَهُ، فاهْتَدوا بِهِ، فَيَهْتَدونَ.

والثاني: لو شاءَ أعطاهُمْ جميعاً الحالَ التي يكونُ بها الاِهْتِداءُ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ لِما لا يَحْتَمِلُ أنهُ إذا كانَ ذلكَ معَ الكفارِ لَكَفَروا جميعاً، وإذا كانَتْ تلكَ الحالُ لِلْمُسلِمينَ لا يُسْلِمُونَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ موصولٌ بقولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية: ٣] وقولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الآية: ٤] وقولِهِ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ [الآية: ٥] [وقولِهِ][3]: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ [الآية: ٨] يقول: الذي خَلَقَ لكُم ما ذَكَرَ [مِنَ][4] الأشياءِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ هذا يَحْتمِلُ ما ذكَرْنا أنهُ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لنا [ثم][5] أخبرَ ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ جميعَ ما يُشْرَبُ مِنَ الأشربَةِ؛ إذ منهُ تكونُ الأشربَةُ وجميعُ الأشياءِ. ويَحْتَمِلُ ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ الماءَ خاصّةً ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ الشَّجَرُ معروفٌ؛ هو الذي يَعْلو، ويَرْتفعُ على الأرضِ، لا يُسَمَّى الحَشيشَ، وما يَنْبَسِطُ على وَجْهِ الأرضِ [يُسَمَّى حَشيشاً][6]. فظاهِرُ هذا أنْ يَرْجِعَ إلى ذلكَ المعروفِ إلّا أنهُ ذَكَرَ شَجَراً ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي تَزْرَعُونَ.

دلَّ هذا أنهُ إنما أرادَ بالشجَرِ المُنْبَسِطَ على وجهِ الأرضِ والمرتفِعَ عليها.

وقالَ القُتَبِيُّ: السائِمَةُ الرَّاعِيَةُ، وكذلكَ قالَ أبو عَوْسَجَةَ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: أَسَمْتُ سائمتي أي رَعَيْتُها، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: ١٤] أي الراعيةِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي يُنْبِتُ لكُمْ بالماءِ الذي ذَكَرَ أنهُ أنْزَلَهُ[7] مِنَ السماءِ الزَّرْعَ والزيتونَ وجميعَ ما ذَكَرَ اللهُ بِلُطْفِهِ [إذْ هو][8] لِقاحُ كلِّ الأشياءِ المُخْتلِفَةِ [والمُتَّفِقَةِ][9] ليسَ كَغَيرِهِ مِنَ الدوابِّ حينَ[10] لم يَجْعَلِ اللِّقاحَ بِشيءٍ مِنْ جنسٍ آخَرَ، إنما جَعَلَ لِقاحَ كلِّ نوعٍ مِنْ نوعِهِ، وجَعَلَ في الماءِ بِلُطْفِهِ سِرِّيَّةً تُوافِقُ جميعَ الأشياءِ المختلفةِ، لوِ اجْتَمَعَ الخلائقُ على إدراكِ ذلكَ، وإنِ اجْتَهَدُوا، لم يَقْدِرُوا عليهِ؛ يَعْرِفُونَ الماءَ ظاهراً، ولكنْ لا يُدْرِكُونَ ما فيهِ مِنَ اللطفِ والسِّرِّيَّةِ الذي بِهِ تكونُ حياةُ كلِّ أحدٍ[11] وموافَقَتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ أنَّ فيهِ آيةً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ولم يذكُرْ أنهُ لِماذا؟ لكنهُ ذَكَرَ أنهُ آيةٌ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بالتَّفكُّرِ يُعْرَفُ أنهُ آيةٌ لماذا؟ أوهذا يدلُّ على الأشياءِ التي غابَتْ عنّا ظواهِرُها؛ بالتَّفكُّرِ والنَّظرِ تُدْرَكُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ﴾ وما ذَكَرَ، وَوَجْهُ تَسْخيرِ هذِهِ الأشياءِ

---

(١) في الأصل وم: له. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: شجراً. (٧) في الأصل وم: أنزل. (٨) في الأصل وم: الماء. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث.
(١١) أدرج قبلها في الأصل: حياة.

لنا، وهو أنَّ اللهَ خَلَقَ هذهِ الأشياءَ، وجَعَلَ فيها مَنافِعَ لِلْخَلْقِ، تَصِلُ تلكَ المنافِعُ إلى الخَلْقِ، شِئْنَ أمْ أبَيْنَ، أجَبْنَ، أمْ كَرِهْنَ.

جَعَلَ في النهارِ مَعاشاً لِلْخَلْقِ وتَقَلُّباً فيه يَتَعَيَّشُونَ، ويَتَقَلَّبُونَ، وجَعَلَ الليلَ راحةً لهمْ وسَكَناً، يَنْتَفِعُونَ بهما شاءا، أمْ أبَيَا، وكذلكَ ما جَعَلَ في الشمسِ والقمرِ والنجومِ مِنَ المَنافِعِ في إنضاجِ الفواكِهِ والثمراتِ وإدراكِ الزروعِ وبلوغِها ومعرفةِ الحِسابِ والسِّنينَ والأشهرِ ومَعْرِفَةِ الطُّرُقِ والسلوكِ بها وغَيرِ ذلكَ مِنَ المَنافِعِ ما ليسَ في وُسْعِ الخَلْقِ إدراكُهُ؛ يَنْتَفِعُ الخَلائِقُ بِما جَعَلَ فيها مِنَ المنافِعِ، شاءَتْ هذهِ الأشياءُ، أمْ أبَتْ. فذلكَ وَجْهُ تَسْخيرِها لنا.

ويَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ تَسْخيرِ هذهِ الأشياءِ لنا ماجَعَلَ في وُسْعِنا اسْتِعْمالَ هذهِ الأشياءِ والانْتِفاعَ بها والحِيَلَ التي بها نَقْدِرُ على اسْتِعْمالِها في حَوائِجِنا.

ويَحْتَمِلُ تَسْخيرُها لنا ما نَنْتَفِعُ بهِنَّ؛ شِئْنَ، أمْ أبَيْنَ بالطِّباعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أي بأمرِهِ تَنْفَعُ الخلائقَ، ويَحْتَمِلُ ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي كونُها في الأصلِ هكذا بأنْ تنفعَ الخَلْقَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ قالَ في الآيةِ الأولَى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ التَّفَكُّرَ سَبيلاً لِلْعُقُولِ إلى إدراكِ الغَيْبَةِ بالحواسِّ الظاهِرَةِ؛ إذْ لا سَبيلَ للعَقْلِ إلى إدراكِ ما غابَ عنهُ إلّا بالحواسِّ الظاهِرَةِ[1]، فَجَعَلَ الحواسَّ الظاهرةَ سَبيلاً للعقولِ إلى إدراكِ المُغَيَّبِ عنها.

ذَكَرَ ﷻ في الآيةِ الأولَى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وذَكَرَ في الآيةِ الثالثةِ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣] وفي الرابعةِ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الآية: ١٤] فهو، واللهُ أعلمُ كَرَّرَهُ على مَراتِبَ، لأنهُ بالتَّفَكُّرِ فيها يَعْقِلُ، ويَعْلَمُ، ثم بعدَ العِلْمِ والعَقْلِ والفَهْمِ يَتَذَكَّرُ. وإذا تَذَكَّرَ عند ذلكَ شَكَرَ نِعَمَهُ.

ثم قولُهُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقولُهُ[2] ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ ما ذَكَرَ فيهما[3] دلالةُ واحدانِيَّةِ اللهِ تعالى ودلالةُ تدبيرِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ ودلالةُ بَعْثِ الخَلائِقِ ودلالةُ قُدرتِهِ وسُلْطانِهِ؛ لأنَّ الليلَ والنهارَ يَأْتِيانِ الجبابِرَةَ والفراعِنَةَ، ويَذْهَبانِ بِعُمُرِهِمْ، ويُفْنِيانِهِ، شاؤُوا، أم أبَوا. فذلكَ آيةُ سُلْطانِهِ وقدرَتِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ السلطانَ والقدرةَ [لا][4] لَهُمْ.

وفيهما دلالةُ البَعْثِ لأنهُ إذا أتى هذا ذَهَبَ الآخَرُ، حتى لا يَبْقَى لهُ أثَرٌ. ثم يُنْشِئُ مِثْلَهُ بَعْدَ أنْ لم يَبْقَ مِنَ الأوّلِ شيءٌ ولا أثَرٌ. فالذي قَدَرَ على إنشاءِ النهارِ أو الليلِ بَعْدَ ما ذَهَبَ أثَرُهُ، وتَلاشى، قادِرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ بَعْدَ ما يَذْهَبُ[5] أثَرُهُمْ.

وكذلكَ الشمسُ والقمرُ والنجومُ وما ذَكَرَ؛ لَمّا اتَّسَقَ هذا كُلُّهُ على سَنَنٍ واحدٍ وتَقْديرٍ واحدٍ على غَيرِ تَفاوُتٍ فيها ولا تَفاضُلٍ وعلى غَيرِ تقديمٍ ولا تأخيرٍ، جَرَى كلُّهُ على [سَنَنٍ][6] واحدٍ وتَقْديرٍ واحدٍ وميزانٍ واحدٍ مِنْ غَيرِ تفاوُتٍ ولا[7] اخْتِلافٍ. دلَّ أنهُ على تدبيرٍ واحدٍ خَرَجَ ذلكَ لا على الجُزافِ، وأنَّ مُدَبِّرَ ذلكَ كُلِّهِ واحدٌ؛ إذْ لو كانَ تدبيرُ عددٍ لَخَرَجَ مُخْتَلِفاً مُتَفاوِتاً. فَدَلَّ أنهُ تدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ، وأنهُ على تدبيرٍ غَيرِ خَرِجٍ، وجَرَى كذلكَ لا بِنَفْسِهِ، وأنهُ على حِكْمَةٍ وعِلْمٍ جَرَى كذلكَ. فيدلُّ على لزومِ الرسالةِ والعِبادةِ لهُ، واللهُ أعلَمُ بتأويلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ أي مُخْتَلِفاً أصنافُهُ وجواهِرُهُ. يُخْبِرُ ﷻ عَنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ ونِعَمِهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ. أمّا سُلْطانُهُ وقدرتُهُ فما خَلَقَ في الأرضِ، وأنبَتَ فيها بالماءِ، لم يرجِعْ إلى جَوهَرِ الأرضِ وجِنْسِها، ولا إلى جوهرِ الماءِ وجِنْسِهِ، وهما كالوالِدَيْنِ: الماءُ كالأبِ والأرضُ كالأُمِّ، فلم يَرْجِعْ ما خَرَجَ منهُما [إلى جِنْسِهما ولا إلى جَوهَرِهما][8] كما كانَ في سائِرِ الأشياءِ؛ رَجَعَ التوالُدُ منها إلى جِنْسِ الوالِدَيْنِ وجَوهَرِهِما، بل رَجَعَ

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: لا يدركه العقل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ذهب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م، الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: من جنسهما ولا من جوهر، في م: من جنسهما ولا من جوهرهما.

التوالُدُ والمَنشأُ مِنَ الأرضِ والماءِ إلى جِنسِ البِذرِ وجَوهَرِهِ لِتُعلَمَ قدرتُهُ وسلطانُهُ على[1] إنشاءِ الأشياءِ بأسبابٍ وبِغَيرِ أسبابٍ ومِنْ شَيءٍ ومِنْ لا شَيءٍ.

ويَذكُرُ نِعمَهُ حينَ[2] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ في الأرضِ مِنَ الأصنافِ المُختَلِفَةِ والجواهِرِ المُتَفَرِّقَةِ لِيَنتَفِعُوا بها.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ﴾ مِنْ جِنسٍ واحِدٍ مِنْ شَيءٍ واحِدٍ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ وفي آيةٍ أُخرَى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١] وفي آيةٍ أُخرَى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و..] [وفي آيةٍ أُخرَى][3] ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؟ [الحجر: ٧٥] وفي آيةٍ أُخرَى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] فَيَحتَمِلُ/ ٢٨٢ ـ ب/ أنْ يكونَ كلُّهُ كِنايةً عَنِ المؤمِنينَ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ في ذلكَ لآيةً للمؤمِنينَ؛ إذْ يَجمَعُ الإيمانُ جَميعَ ما ذَكَرَ مِنَ التَّفَكُّرِ والتَّذَكُّرِ والعَقلِ والاعتِبارِ والصَّبرِ والشُّكرِ وغَيرِهِ.

ويَحتَمِلُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ و﴿يَعْقِلُونَ﴾ و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ الفِكرُ والنَّظَرُ في الآياتِ، ولِقَومٍ هِمَّتُهُمُ التَّفَهُّمُ والاعتِبارُ فيها، لا لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ العِنادُ والمكابَرَةُ والإعراضُ عنِ النَّظَرِ في الآياتِ والفِكرِ فيها. وفي ذِكرِ الآيةِ لِلمُتَفَكِّرينَ والعاقِلينَ والمُتَذَكِّرينَ لِما مَنفَعَةُ الآيةِ تكونُ لهؤلاءِ. وإنْ كانتِ الآياتُ لهمْ ولِغَيرِهِمْ فَمَنفَعَتُها لِمَنْ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وتَسخِيرُهُ إياهُ لنا هو ما بَذَلَ لِلخَلقِ ما فيهِ مِنْ أنواعِ الأموالِ التي خَلَقَ اللهُ فيهِ مِنَ الحُلَى والجَوهَرِ واللُّؤلُؤِ، وبَذَلَ ما فيهِ مِنَ الدوابِّ والسمكِ وغَيرِهِ. فلولا تَسخِيرُ اللهِ إياهُ لِلخَلقِ وتَعليمِهِ إيَّاهُمُ الحِيَلَ التي بها يُوصَلُ إلى ما فيهِ مِنَ الأموالِ النَّفِيسَةِ، وإلاّ ما قَدَروا على استِخراجِ ما فيهِ والوصولِ إليهِ لِشِدَّةِ أهوالِهِ وإفزاعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يَحتَمِلُ السمكَ خاصَّةً، ويَحتَمِلُ السمكَ وما فيهِ مِنَ الدوابِّ، مِنْ نَوعِ ما لو كانَ بَرِّيًّا أُكِلَ مِنْ نَحوِ الجواميسِ وغَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ تَحتَمِلُ الحِليَةُ اللُّؤلُؤَ والمَرجانَ الذي ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى حينَ[4] قالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿حِلْيَةً﴾ أي ما يُتَّخَذُ منهُ حِليَةً. وهذا جائزٌ أنْ يُسَمَّى الشَّيءُ باسْمِ ما يُتَّخَذُ منهُ، وباسْمِ ما يَصِيرُ بهِ في المُتَعَقَّبِ، أو يُسَمَّى حِليَةً لأنهُ زينةٌ. ولا شَكَّ أنَّ اللُّؤلُؤَ والمَرجانَ هما زينةٌ وجَمالٌ، وفي الخيلِ والبِغالِ كذلكَ. فالزينةُ في اللُّؤلُؤِ والمَرجانِ أكثَرُ، والجَمالُ فيهِ أظهَرُ.

أخبَرَ أنهُ جَعَلَ لنا الوُصولَ إلى الثاني: قَعرَ البَحرِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ اللُّؤلُؤِ وأنواعِ الحُلَى، وما في بَطنِ البَحرِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ اللَّحمِ الطَّرِيِّ، وما هو على وَجهِ الماءِ، وهو السُّفُنُ التي ذَكَرَ.

ووَجهُ تَسخيرِهِ [إيَّاهُ لنا][5] الحِيَلُ والأسبابُ التي عَلَّمنا حتى نَصِلَ إلى ما فيهِ. فكأنهُ قالَ: سَخَّرتُ لَكُمُ البَحرَ مِنْ أسفَلِهِ إلى أعلاهُ. وفي ذلكَ دلالاتٌ:

أحَدُها: إباحةُ التجارةِ بركوبِ الأخطارِ لأنَّ الغائِصَ[6] في البحرِ يُخاطِرُ[7] بنفسِهِ وروحِهِ. وكذلكَ راكبُ السُّفُنِ. فلولا أنهُ مُباحٌ لهُ طَلَبُ ذلكَ، وإلاّ ما ذَكَرَ هذا في مِنَّتِهِ؛ إذْ هو يُخرَّجُ مُخرَجَ ذِكرِ الامتِنانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ: المَواخِرُ السُّفُنُ المَشحوناتُ[8] الوافِرَةُ أحمالُها وأثقالُها؛ يَذكُرُ مِنَّتَهُ التي مَنَّ بها عليهِمْ حينَ[9] جَعَلَ لهمُ السُّفُنَ والفُلكَ، تُحمَلُ بها الأحمالُ الثِّقالُ العِظامُ في البِحارِ، ما سَبِيلُها التَّسَفُّلُ والانحِدارُ في البَحرِ، فأمسَكَها فيهِ بالسُّفُنِ العِظامِ الثقيلةِ.

---

(١) في الأصل وم: إلى. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إيانا. (٦) من م، في الأصل: الغايطي. (٧) في الأصل وم: يخطر. (٨) في الأصل وم: المحشوات. (٩) في الأصل وم: حيث.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي جاريةَ مُقبِلَةً مُدْبِرَةً بِريحٍ واحدةٍ في البَحْرِ، لأنَّ ماءَ البَحْرِ راكِدٌ، فأجْرَى السُّفُنَ فيهِ بالرياحِ حيثُ أرادوا، وقَصَدُوا؛ إذِ الأشياءُ قد تَجْرِي على مَجْرَى الماءِ إذاكانَ لهُ جَرْيَةٌ، وأمَّا إذاكانَ راكداً ساكناً فلا سَبيلَ إلى ذلكَ. فَيَذْكُرُ عظيمَ مِنَّتِهِ وقدرتِهِ على إجراءِ السُّفُنِ في الماءِ الراكدِ بالريحِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي جَوارِيَ، تَشُقُّ الماءَ شَقًّا، وتَخْرُقُهُ؛ يقالُ: مَخَرَتِ السفينةُ، ومنهُ مَخْرُ الأرضِ، إنما هو شَقُّ الماءِ لها، وهو قولُ القُتَبِيِّ. فكذلكَ قالَ أبو عُبَيدةَ: إنهُ مِنْ شَقِّ السُّفُنِ الماءَ. وقال أبو عَوسَجَةَ: المَواخِرُ المُستَقبِلَةُ؛ يُقالُ: اسْتَمْخَرَ الإنسانُ الريحَ إذا اسْتَقْبَلَها. وقالَ أبو عُبَيدةَ: ﴿مَوَاخِرَ﴾ مِنَ الاِسْتِدْبارِ؛ يُقالُ: إذا أرادَ أحَدُكُمُ البَوْلَ فَلْيَسْتَمْخِرِ الريحَ، أي يَسْتَدْبِرَها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يَحْتَمِلُ بالتجارةِ التي جَعَلَ فيها حيثُ جَعَلَ فيها قَطْعَ البحارِ إلى بلادٍ نائيةٍ بَعيدةٍ بالسُّفُنِ لِيَبْتَغُوا ما بهِ قِوامُ أبدانِهِمْ وأنفسِهِمْ؛ إذْ جَعَلَ بُنْيَتَهُمْ بُنْيَةً لا تقومُ إلَّا بالأغذيةِ، ولَعلَّهُمْ لا يَظْفَرُونَ بما بهِ قِوامُ أبدانِهِمْ وبُنْيَتِهِمْ في بلادِهِمْ، فَيَحتاجونَ إلى البلادِ النائيةِ البعيدةِ عنهُمْ، فَمَنَّ عليهِمْ بذلكَ. كما مَنَّ بِقَطْعِ المَفاوِزِ والبَوادِي بالدوابِّ بقولِهِ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

أو قالَ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بما يُسْتَخْرَجُ منه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جميعَ ما ذَكَرَ مِنْ ألوانِ النِّعَمِ والمَنافِعِ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى آخرِها يَسْتَأدِي به شُكْرَهُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ دَلالةُ إباحةِ التجارةِ وطَلَبِ الفَضْلِ بركوبِ الأخطارِ واحتِمالِ الشدائِدِ حينَ[١] أخبَرَ أنهُ سَخَّرَ البَحْرَ حتى أمْكَنَهُمْ ركوبُهُ بالحِيَلِ والأسبابِ التي عَلَّمَها لهمْ، لأنَّ الغَوَّاصَ يُخاطِرُ[٢] بروحِهِ ونفسِهِ، وكذلكَ راكبُ السفينةِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي ألقى في الأرضِ رواسِيَ لئلَّا تَميدَ بكُمْ، لأنها بُسِطَتْ على الماءِ، فكانَتْ تُكْفَأُ بأهلِها كما تُكْفَأُ السفينةُ في الماءِ، فأثْبَتَها بالجبالِ لِتَقَرَّ بأهلِها.

لكنْ لو كانَ على ما ذَكَرُوا أنها بُسِطَتْ على الماءِ لكانَتْ لا تُكْفَأُ، ولا تَضْطَرِبُ، ولكنَّها تَسَرَّبُ في الماءِ، وتنهارُ فيهِ، لأنَّ مِنْ طَبْعِها التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ في الماءِ، إلَّا أنْ يُقالَ: [إنَّ اللهَ][٣] ﷻ جعلَ بِلُطْفِهِ طَبْعَها طَبْعَ ما يَضْطَرِبُ، ويُكْفَأُ. فَعِنْدَ ذلكَ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرُوا، واللهُ أعلَمُ.

ولو قالوا: إنها بُسِطَتْ على الريحِ لَكانَ يَحْتَمِلُ ما قالوا، ويكونُ أشبهَ بقولِهِمْ، ألا تَرَى أنَّ السِّراجَ في الآبارِ والسُّرُوبِ، لا يُضيءُ، بل يُطْفَأُ، كُلَّما أُسْرِجَ؛ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ انْطِفاؤُهُ بِريحٍ، يكونُ في الأرضِ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: بُسِطَتْ على ظَهْرِ الثورِ، فكانَتْ تَضْطَرِبُ بِتَحَرُّكِهِ، فأرساها بما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ يُخَرَّجُ ذِكْرُ ذلكَ منهُ مُخْرَجَ[٤] الامْتِنانِ؛ ذَكَرَ النِّعْمَةَ لأنَّ لهُ أنْ يَتْرُكَ الأرضَ على ما خَلَقَها، ولا يُثَبِّتَها بالجبالِ لِتَميدَ بأهلِها، ويُميلَها[٥] فلا يَقْدِروا على القَرارِ عليها والاِنْتِفاعِ بها. لكنهُ بِفَضْلِهِ ومَنِّهِ أثْبَتَها بالجبالِ لِيَقَرُّوا عليها، ويَقْدِروا على الاِنْتِفاعِ بها.

وكذلكَ لهُ ألَّا يَجْعَلَ لهمْ فيها أنهاراً جاريةً، فتكونُ مياهُهُمْ[٦] مِنْ آبارِها. وكذلكَ لهُ أنْ يُحْوِجَهُمْ بأنواعِ الحوائِجِ، ثم لا يُبَيِّنَ لهمُ الطُّرُقَ والسُّبُلَ التي تُفْضِي إلى البلدانِ والأمكنةِ التي فيها تُقْضَى حوائِجُهُمْ. وكذلكَ بِفَضْلِهِ جَعَلَ لهمْ في الأرضِ أنهاراً جاريةً، وأثبتَ الأرضَ بالرَّواسي لِيَقَرُّوا عليها. وذلك كُلُّهُ بِمَنِّهِ وفَضْلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يخطر. (٣) في الأصل: الله، في م: إنه. (٤) في الأصل وم: ذكر. (٥) من م، في الأصل تمليها. (٦) من م، في الأصل: مياهه.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الطُّرقَ والسُّبُلَ التي [تُفضِي بكُمْ][1] إلى الحوائجِ. ويَحتَمِلُ ﴿تَهْتَدُونَ﴾ الهُدَى المعروفَ بما[2] ذَكَرَ مِنْ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَامَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هذا أيضاً يُخرَّجُ مُخرَجَ ذِكْرِ المِنَنِ والنِّعَمِ عليهِمْ، لأنهُ لو ما جَعَلَ اللهُ أعلاماً في البحارِ والبراري، يَعرِفونَ بها السُّلوكَ فيها، لم[3] يَقْدِرْ أحَدٌ مَعرِفَةَ الطُّرُقِ في البَحارِ والبَراري. ثم تَحتَمِلُ الأعلامُ مَرَّةً بِطَعْمِ الماءِ والجبالِ التي جَعَلَ فيها وبالرِّياحِ، ومَرَّةً تكونُ بالنجمِ؛ يَعرِفُونَ بِطَعْمِ الماءِ أنَّ هذا الطريقَ يُفضِي إلى مَوضِعِ كذا، وكذلكَ يَعرِفُونَ بالجبالِ وبالرياحِ/ ٢٨٣ ـ أ/ يَعرِفُونَ السُّبُلَ إلى حَوائِجِهِمْ ومَقصُودِهِمْ، وكذلكَ بالنجمِ يَعرِفُونَ الطُّرُقَ. فالأعلامُ مُختَلِفَةٌ، بها يَهْتَدُونَ الطُّرُقَ والسُّبُلَ.

ويَحتَمِلُ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بما ذَكَرَ مِنَ الأعلامِ ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ والنجمُ سَبَبُ اهْتِدائِهِمْ إلى توحيدِ اللهِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: على الِاحتِجاجِ عليهِمْ، أي لا تَجْعَلُوا مَنْ لا يَخْلُقُ، ولا يَنْفَعُ، ولا يُنْعِمُ، كَمَنْ هو خالقُ الأشياءِ كلِّها مُنْعِمُ النِّعَمِ عليكُمْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ[4] صَرْفَ العِبادةِ والشكرِ إلى غَيرِ خالِقِكُمْ وغيرِ مُنْعِمِكُمْ جَوْرٌ[5] وظُلْمٌ.

والثاني: يُخَرَّجُ مُخرَجَ تَسفيهِ أحلامِهِمْ أنهمْ يَعبُدونَ مَنْ يَعلَمُونَ أنهُ ليسَ بخالِقٍ، ويَترُكُونَ عِبادةَ [مَنْ][6] يَعلَمُون أنهُ خالقُ الأشياءِ كلِّها ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ أنفُسَ نِعَمِهِ التي أنْعَمَها عليكُمْ وأعْيُنَها لا تَقْدِرُوا على عَدِّها لِكَثرَتِها.

والثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ وإنْ تَكَلَّفْتُمْ، واجْتَهَدْتُمْ كلَّ جَهْدِكُمْ أنْ تَقُومُوا لِشُكرِ ما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ ما قَدَرْتُمْ على القِيامِ لِشُكرِ واحدةٍ منها فَضْلاً أنْ تقوموا لِلْكُلِّ.

والثالثُ: يُخَرَّجُ على العِتابِ والتوبيخِ، أي كيفَ فَرَغْتُمْ لِعِبادةِ مَنْ لا يَخْلُقُ، ولا يُنْعِمُ [وانصَرَفْتُمْ][7] عن عبادةِ مَنْ خَلَقَ، وأنْعَمَ؟ وكُنْتُمْ لا تَقْدِرُونَ[8] على إحصاءِ ما أنْعَمَ عليكُمْ فَضْلاً أنْ تَقُومُوا لِشُكْرِهِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تَعرِفُوا كلَّ النِّعَمِ، لأنَّ مِنَ النِّعَمِ ما لا يَعرِفُهُ الخَلْقُ كقولِهِ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فإذا لم يَعلَموها[9] لم يَقْدِرُوا إحصاءَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: إنكُمْ وإنِ افْتَرَيْتُمْ على اللهِ، وعانَدْتُمْ حُجَجَهُ وآياتِهِ، وكَذَّبْتُمْ رُسُلَهُ، فإذا استَغفَرْتُمْ، وتُبْتُمْ عمّا كانَ ذلكَ منكُمْ، يَغفِرُ لكمْ ذلكَ كُلَّهُ كقولِهِ ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والثاني: ﴿لَغَفُورٌ﴾ أي يستُرُ عليكُمْ ما كانَ منكُمْ ما لو ظَهَرَ ذلكَ لافْتَضَحْتُمْ، لكنهُ برحمتِهِ سَتَرَ ذلكَ عليكم. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالسَّترِ عليكُمْ.

أو ذَكَرَ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على إثْرِ ذِكْرِ النِّعَمِ وأنواعِ المَنافِعِ ليكونوا على ما ذَكَرَ مِمّا سَخَّرَ لنا أذَلَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وَجهَينِ:

أحَدُهُما: ذَكَرَ هذا لِيكونُوا أيقَظَ وأحذَرَ، لأنَّ في الشاهِدِ مَنْ يَعلَمُ أنَّ عليهِ رقيباً حافظاً بما يَفعَلُ، كانَ هو أرقَبَ وأحفَظَ لأعمالِهِ، ويكونُ أحذَرَ مِمَّنْ يَعلَمُ أنهُ ليسَ عليهِ حافظٌ ولا رَقيبٌ.

---

(١) في الأصل وم: تقضيهم. (٢) من م، في الأصل: عما. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: وإلا. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٥) من م، في الأصل: همر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: تقدروا. (٩) في الأصل وم: يعلموا.

والثاني: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ مِنَ المكرِ برسولِ اللهِ والكيدِ لهُ مِنَ القتلِ والإخراجِ وغيرِ ذلكَ كلِّهِ منكُمْ ما أسرَرْتُمْ، وأعلَنْتُم. وهو يُخرَّجُ على نهايةِ الوَعيدِ والتَّغييرِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يَحْتَمِلُ يُسمُّونَ][1] آلهةً، وربما كانوا يدعونَهُمْ عندَ الحاجَةِ. ويَحْتَمِلُ يَدْعُونَ يَعْبُدُونَ، أي الذينَ يَعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ فهذا يَرْجِعُ إلى الأوَّلِ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: ١٧].

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ المُرادُ بقولِهِ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ والأوثانَ وجميعُ مَنْ كَفَروا باللهِ، هُمْ ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ لأنَّ اللهَ تعالى، سَمَّى الكافرَ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ مَيْتاً، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ أيضاً ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي [لا][2] يَشْعُرونَ مَتى[3] يُبْعَثُونَ؟ أي لو شَعَرُوا [في][4] هذهِ الدنيا ما شَعَرُوا في الآخِرَةِ، لم يَعْمَلوا ما عَمِلُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ الأصنامُ التي عَبَدوها هي ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ لأنها لا تَتَكَلَّمُ، ولا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، كالأمواتِ[5] ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ أي ليسَ فيها أرواحٌ، يُنْتَفَعُ بها كالبهائمِ والأنعامِ. ويكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ راجعاً إلى الذينَ عَبَدُوا الأصنامَ، لأنها لا تَشْعُرُ أيَّانَ يُبْعَثُونَ، وهُمْ يَعْلَمونَ أنها لا تَشْعُرُ ذلكَ. لكنهُمْ يَشعُرونَ حينَ يُبْعَثُونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ تُبْعَثُ الآلهةُ، والذينَ عَبدوها جميعاً كقولِهِ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [يونس: ٢٨] وقولِهِ: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢ و٢٣].

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْشُرُ أولئكَ الذينَ يَعْبُدُونَ الأصنامَ، وما يَشْعُرونَ هُمْ أيانَ يُبْعَثُونَ، أي حينَ يُبعَثونَ. [ولو شَعَروا][6] ذلكَ في الدنيا ما فَعَلُوا.

وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ راجعاً إلى الملائكةِ والملوكِ الذينَ عُبِدوا دونَ اللهِ يَكُنْ[7] تأويلُ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي لا يَشْعُرونَ وقتَ يُبْعَثُونَ. وإنْ كانَ راجعاً إلى الأصنامِ فقولُهُ: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي يَشْعُرونَ أنهمْ يُبْعَثونَ. ولا[8] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أنْ يقالَ ذلكَ في الأصنامِ؛ لأنَّ أولئكَ يَعلَمُونَ أنهمْ لا يَخْلُقونَ، وإنما يقالُ في[9] الأصنامِ: لا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَنْفَعُ. فدلَّ أنَّ ذلكَ راجعٌ إلى الملائكةِ والذينَ عَبَدُوهُمْ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ما يُبَيِّنُ إبطالَ ما كانوا يَعْبُدُونَ، وما لا يَليقُ بأمثالِها العبادةُ لها، ونَصْبَهُمْ آلهةً. ثم ذَكَرَ ما يُبَيِّنُ جَعْلَ الألوهيَّةِ والربوبيَّةِ أنهُ لواحدٍ وأنهُ هو المُسْتَحِقُّ لذلكَ دونَ العَدَدِ الذي عَبَدُوهُ[10]، فقالَ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ لا العَدَدُ الذي عَبَدَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ للإيمانِ بالآخرةِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ، أو ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ لِما جاءَ بهِ الرسولُ ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على ما جاءَ بهِ مِنَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على رسولِ اللهِ، لم يَرَوْهُ أهلاً [لخُضوعِ أمثالِهِمْ][11] لِمِثْلِهِ، أو ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [على ما دَعَتْهُمْ][12] الرسلُ، لأنَّ الرسلَ جميعاً دَعَوُا الخَلْقَ إلى وحدانيَّةِ اللهِ وجَعْلِ العِبادةِ لهُ.

---

(١) في الأصل: أي يسمونها، في م: يدعون أي يسمون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حين. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: كالميت. (٦) في الأصل: وما يشعروا، في م: وما شعروا. (٧) في الأصل وم: يكون. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم.
(٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (١٠) في الأصل وم: عبدوها. (١١) في الأصل وم: الخضوع لأمثالهم. (١٢) في الأصل: إلى ما ادعتهم، في م: إلى ما دعتهم.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ مِنَ المَكرِ برسولِ اللهِ والكيدِ لهُ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مِنَ المُظاهَرَةِ عليهِ، أو ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن أعمالِهِمُ الخبيثَةِ التي أسرُّوها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما أعلَنوها. يُخبِرُ أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ مِن أعمالِهِمْ أسَرُّوا، أو أعلَنوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قالَ الأصَمُّ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ تَستَعمِلُها العربُ في إيجابِ تَحقِيقٍ أو نَفيِ تَحقِيقٍ كقولِهِمْ: حقًّا، ولَعَمْري، و: وايْمُ اللهِ، ونَحوِهِ. وقالَ الحَسَنُ: هي كلمةُ وَعيدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا، و: بَلَى، ولابُدَّ، وكلُّهُ في الحاصِلِ يَرجِعُ إلى واحِدٍ، وهو وَعيدٌ لأنَّ قولَهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وعيدٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ لأنهُ لا يُحِبُّ الاستِكبارَ، ولا يَليقُ لأحدٍ مِنَ الخلائقِ أن يَتَكَبَّرَ على غيرِهِ مِنَ الخَلْقِ؛ لأنَّ الخَلْقَ كلَّهُمْ أشكالٌ وأمثالٌ، ولا يجوزُ لكلِّ ذي مَثَلٍ أو شَكلٍ أنْ يَتَكَبَّرَ على شَكلِهِ، ولأنَّ تَكَبُّرَ بعضٍ على بَعضٍ كَذِبٌ وزُورٌ؛ إذْ جَعَلَ [الخَلْقَ][1] كلَّهُمْ أمثالاً وأشكالاً. لذلكَ كانَ زُوراً وكَذِباً، وقد حَرَّمَ اللهُ تعالى الكَذِبَ، والزُّورَ؛ وجَعَلَهُ قَبيحاً في العُقولِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي قالَ الأتباعُ لِلرُّؤساءِ ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ قالَ الرُّؤساءُ أنزَلَ: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ جوابُ/ ٢٨٣ ـ ب/ سُؤالِهِمْ: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؟ مُفرَداً لأنهمْ كانوا يُقِرُّونَ اللهَ بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[2]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فلا يَحتَمِلُ أنْ يكونوا إذا سُئِلوا ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يقولونَ[3]: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلَّا أن يكونَ في السؤالِ زيادةُ قولٍ، أو في الجوابِ إضمارٌ، فيكونُ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ قالَ: وإذا قيلَ لهم: ماذا يَزعُمُ هذا أنهُ أنزَلَ عليهِ ربُّكُمْ ﴿قَالُوا﴾ عند ذلكَ: يقولُ: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي قالوا: يا أيها الذي تَزعُمُ انهُ نُزِّلَ عليهِ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا[4]: لم يُنزِلِ اللهُ شيئاً، إنَّ ما يقولُ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. ومثلُ هذا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: أحاديثُ الأوَّلِينَ، والواحدُ أُسطورٌ، وهي الأحاديثُ المُختَلَفَةُ كقولِهِ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧] أي لا أصْلَ لَهُ، وأصْلُهُ الكَذِبُ. وهكذا عادةُ الكَفَرَةِ يقولونَ للأنبياءِ: أساطيرُ الأوَّلِينَ. وكانوا يَنسِبونَ ما يُقرَأُ عليهِمْ إلى السِّحرِ، ولو كانَ في الحقيقةِ سِحْراً أو أحاديثَ الأوَّلِينَ كانَ دليلاً لهُ.

أو قالوا ذلك على الاستِهزاءِ، وذلكَ جائزٌ أنْ يُخرِّجَ قولَهُمْ[5] ذلكَ على الاستِهزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهمْ يَحمِلُونَ أوزارَهُمْ كاملةً؛ يعني الذينَ قالوا لِلرُّسُلِ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ومِنْ أوزارِ الذينَ يُقَلِّدونَ رُسُلَهُمْ وَوَفدَهُمُ الذينَ بُعِثُوا للسؤالِ[6] عن رسولِ اللهِ، فَحَمَلُوا أوزارَهُمْ أنفسَهُمْ وأوزارَ الذين يُقَلِّدونَ الرسلَ، ويَقتَدونَ بهم بِغَيرِ عِلْمٍ، لأنهمْ لم يَعلَمُوا أنَّ أولئكَ يَقتَدونَ بالرسلِ، فَيَضِلُّونَ.

وهُمْ، وإنْ لم يَعلَموا، فذلكَ عليهِمْ، لأنهم هُمُ الذينَ سَنُّوا ذلكَ. وهو كما رُوِيَ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القِيامةِ» [مسلم ١٠١٧].

والثاني[7]: يَحتَمِلُ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ﴾ طَمِعُوا الإسلامَ، إذا أسلَموا سَقَطَتْ تلكَ الأوزارُ عنهم، وقولُهُ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ هُمْ[8] لم يَفعَلُوا ما فَعَلُوا ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ ولكنَّ مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي لِيَصيروا [حامِلي أوزارَ][9] الذينَ أضَلُّوهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: فيقولون. (٤) في الأصل وم: فقالوا. (٥) من م، في الأصل: كقولهم.
(٦) في الأصل وم: عن السؤال. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: حاطين لأوزارهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بِسَفَهٍ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ساء ما يَحْمِلُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لم يَعْلَموا أنْ تصيرَ أوزارُهُمْ عليهِمْ، أو لم يَعْلَموا ما يَلْحَقُ بِهِمْ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [كانتْ ولم تزَلْ][1] عادةُ الكَفَرَةِ بالمَكْرِ بِرسلِ اللهِ والكَيدِ لهمْ، وكذلكَ مَكْرُ كفارِ مكّةَ برسولِ اللهِ. يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ لِرسولِهِ لِيَصْبِرَ على أذاهُمْ كما صَبَرَ أولئكَ على مَكْرِ قومِهِمْ وتَرْكِ مكافاتِهِمْ إياهُمْ كقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ثم مَكْرُهُمُ الذي كانَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: في ما جاءَتْ بِهِ الرسلُ كانوا يَتَكَلَّفُونَ تَلْبيسَ ما جاءَتْ بِهِ الرسلُ على قومِهِمْ.

والثاني: يَرْجِعُ مَكْرُهُمْ إلى أنْفُسِ الرسلِ مِنَ الهَمِّ بَقَتْلِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ ونَحْوِهِ.

فَخَوَّفَ بذلكَ أهْلَ مكةَ بصنيعِهِمْ لرسولِ اللهِ أنْ يَنْزِلَ بهِمْ كما نَزَلَ بأولئكَ الذين مَكَروا بِرُسُلِهِمْ لئلاّ يُعامِلُوهُ بِمِثْلِ معامَلَةِ أولئكَ رسلَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ قالَ الحَسَنُ: هذا على التمثيلِ بالبِناءِ الذي بُنِيَ على غَيرِ أساسٍ؛ يَنْهَدِمُ، ولا يُعْلَمُ مِنْ أيِّ سَبَبٍ انْهَدَمَ. فَعَلَى ذلكَ مَكْرُهُمْ يَبْطُلُ، ويَتَلاشَى كالبِناءِ الذي بُنِيَ على غَيرِ أساسٍ، ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على التمثيلِ مِنْ غَيرِ هذا الوجهِ؛ وهو أنهمْ قد مَكَروا، وأحْكَموا مَكْرَهُمْ بهِمْ، فَيَتَحَصَّنُونَ بذلكَ كالبناءِ الذي يُتَحَصَّنُ بِهِ، فأبْطَلَ اللهُ مَكْرَهُمْ، كقولِهِ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ الآية [النمل: ٥٠]. وقولِهِ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنْ إبطالِ مَكْرِهِمُ الذي بِهِ كانوا يَتَحَصَّنُونَ كوقوعِ السقفِ الذي بِهِ يُتَحَصَّنُ مِنْ أنواعِ الأذَى والشرورِ.

ويَحْتَمِلُ على التحقيقِ، وهو ما نَزَلَ بقومِ لوطٍ مِنَ الخَسْفِ وتَقْليبِ البنيانِ وإمطارِ [الحَجَرِ عليهِمْ][2]. وأمّا ما ذَكَرَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ مِنَ الصَّرْحِ الذي بَنَى نمرودُ وبُنيانِهِ ووقوعِهِ عليهِمْ فإنّا لا نَعْلَمُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كذلكَ كانَ يأتي العذابُ الظَّلَمَةَ الكَذَبَةَ مِنْ حَيثُ لا عِلْمَ لهمْ بذلكَ كقولِهِ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ الآية [الأعراف: ٩٥].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ هو مِنَ الإتيانِ. ومَعْلومٌ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنْ إتيانِهِ الانْتِقالُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ولكنْ إتيانُ عذابِهِ؛ أُضيفَ إليه الإتيانُ لِما بأمْرِهِ يأتيهِمْ ومنهُ. فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠] الإتيانُ والانْتِقالُ ومَجيئُهُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ. وقد ذَكَرْنا هذا وأمثالَهُ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [أخْبَرَ أنهُ يومَ القيامةِ يُخْزيهِمْ][3] بَعْدَ ما عَذَّبَهُمْ في الدنيا بقولِهِ ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يُعَذِّبُهُمْ. وكانَ الإخزاءُ، هو الإذلالُ والإهانةُ والفَضْحُ، يُذِلُّهُمْ، ويُهينُهُمْ، ويَفْضَحُهُمْ في الآخرةِ مَكانَ ما كانَ منهمْ مِنَ الاسْتِكْبارِ والتَّجَبُّرِ على النَّبِيِّ وأصحابِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] أي لا يُذِلُّهُمْ، ولا يُهينُهُمْ، لِتَواضُعِهِ للمؤمنينَ وخَفْضِ جناحِهِ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي كُنْتُمْ تُعادونَ أوليائي فيهِمْ، أو تُعادونَني فيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ لَيْسَ لهُ بِشُركاءَ، ولكنْ أضافَ إلى نفسِهِ ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ على ما زَعَمْتُمْ في الدنيا [أنهمْ شركائي][4]. وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي إلى ما في زَعْمِهِمْ وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلهةً.

---

(١) في الأصل وم: لم تزل كانت. (٢) في الأصل: البحر عليها، في م: الحجر عليها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أنها شركاؤه.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي كُنْتُمْ تُخالِفونَ فيهِمْ، وتُعادونَ؛ أي تُخالِفونَ المؤمنينَ في [عبادتِكُمْ إيَّاها، وتقولونَ][1]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وتقولونَ[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونحوَهُ. كانوا يُخالِفونَ المؤمنينَ، وكانوا يُشاقُّونَ في ذلكَ. إلاّ أنهُ أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لأنهمْ أولياؤُهُ وأنصارُ دينِ اللهِ. وأضافَ إليهِ المُخالَفَةَ لأنهمْ خالَفُوا أمْرَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الملائكةُ الكرامُ الكاتبونَ، همْ وغيرُهُمْ مِنَ المؤمنينَ مُحْتَمَلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي الذُّلَّ والهوانَ والافْتِضاحَ وكُلَّ سوءٍ على الكافرينَ. هكذا يُقابَلُ كلُّ مُعانِدٍ ومُكابِرٍ في حُجَجِ اللهِ وبَراهينِهِ مكانَ اسْتِكْبارِهِمْ وتَجَبُّرِهِمْ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِنْ بينِ يَدَيِ اللهِ يومَ الحسابِ إلى النارِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقْتَ قَبْضِ أرواحِهِمْ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالشِّرْكِ والكُفْرِ باللهِ على تأويلِ الحَسَنِ، يكونُ قولُهُ: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في الدنيا.

ويجوزُ أنْ يوصَفوا بالظُّلْمِ في الآخِرَةِ أيضاً بِكَذِبِهِمْ فيها في قولِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وأمثالِهِ مِنَ الكَذِبِ حينَ[3] يُنْكِرونَ الإشراكَ في أُلوهِيَّةِ اللهِ وعبادَتِهِ. كانَ هذا الإنكارُ والكَذِبُ منهمْ في أوَّلِ حالِهِمْ ظَنًّا منهمْ أنَّ ذلكَ يَنْفَعُهُمْ. فإذا لم يَنْفَعْهُمْ إنكارُهُمْ طَلَبوا الرَّدَّ إلى الدنيا أو إلى حالِ الأمْنِ لِيَعْمَلوا غيرَ الذي عَمِلُوا كقولِهِمْ: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فإذا لم يُرَدُّوا، وأَيِسُوا عَنْ ذلكَ، فَعِنْدَ ذلكَ/ ٢٨٤ ـ أ/ أنطَقَ اللهُ جوارِحَهُمْ حتى تَشْهَدَ عليهِمْ بما كانَ منهمْ. فَعِنْدَ ذلكَ يُقِرُّونَ، ويَعْتَرِفونَ بذنوبِهِمْ كقولِهِ: ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُسْلِمونَ، ويَسْتَسْلِمونَ لأمْرِ اللهِ. ولكنْ لو كانَ ما ذَكَرُوا لم يكونوا يُنْكِرُونَ عَمَلَ السوءِ كقولِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ هو الإسْتِخْزاءُ[4] والخُضوعُ والتَّضَرُّعُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ عندَ الموتِ؛ يُؤْمِنونَ عندَ مُعايَنَةِ ذلكَ، أو سَلَّموا عليهِمْ في الآخِرَةِ على ما رَأوا في الدنيا المؤمنينَ يُسَلِّمُ بعضُهُمْ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. فأَكْذَبَهُمُ اللهُ في قولِهِمْ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ فقالَ: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ؛ يُخْبِرُ ألاّ يَجوزَ كَذِبُهُمْ في الآخِرَةِ، ولا يُحْتَمَلُ، كما جازَ في الدنيا، ولم يَظْهَرْ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بِئْسَ مُقامَ المُتَكَبِّرينَ الذينَ تَكَبَّرُوا على ما جاءَ بهِ الرسلُ مِنَ اللهِ وما أنْزَلَ اللهُ عليهِمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا قولُ المؤمنينَ مُقابِلَ قولِ المُشْركينَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿خَيْرًا﴾:

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي قولُهُمُ الذي قالوا: إنهُ أرسلَ بِحَقٍّ، وإنهُ خيرٌ[5]. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ حكايَةُ عما أنْزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ خيراً[6]، أي أنْزَلَ عليهِ ربُّنا خيراً، وإذا سألوا الكَفَرَةَ قالوا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: عبادتهم إياها لأنهم يقولون. (٢) في الأصل: وقولهم، في م: وهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: الاستخدام. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: كذا. (٦) في الأصل وم: وخيراً.

وجائزٌ أن يكونَ أتباعُ المؤمنينَ سألوا كُبَراءَهُمْ: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾ مُقابِلَ ما كانَ مِنْ كُبراءِ الكَفَرةِ لأتباعِهِمْ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾ مِنَ النَّصْرِ لهمْ والظَّفَرِ على عَدُوِّهِمْ ﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ﴾ لهمْ ممَّا كانَ أعطاهُمْ في الدنيا، أي الجَنَّةُ خيرٌ وأفضلُ للمؤمنينَ ممَّا أُوتوا في الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قالَ هذا لِلْمُؤمنينَ مَكانَ ما قالَ لِلْكافِرينَ ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ثم نَعَتَ الدارَ التي وَعَدَ لِلْمُتَّقينَ.

الآية ٣١ فقالَ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ.

فإنْ قيلَ: أرأيتَ لو شاؤوا أنْ يكونَ لهمْ دَرَجاتُ الأنبياءِ ومَنازِلُ الأبرارِ والصِّدِّيقينَ أيكونُ لهمْ ما شاؤوا؟ قيلَ: لا يَشاؤُونَ هذا؛ لأنَّ مِثْلَ هذا إنما يكونُ في الدنيا إمَّا حَسَداً وإمَّا تَمَنِّياً، فلا يكونُ في الجنةِ حَسَدٌ؛ لأنَّ الحَسَدَ هو أنْ يَرى لأحَدٍ شيئاً، ليسَ لهُ، فَيَحْسُدَهُ، أو يَتَمَنَّى مثلَهُ. فأهلُ الجَنَّةِ يَجِدونَ جميعَ ما يَتَمَنَّوْنَ، ويَخْطُرُ بِبالِهِمْ، فلا مَعْنَى لِسُؤالِهِمْ ربَّهُمْ ما لِغَيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ﴾ على تأويلِ الحَسَنِ: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهم طَيِّبونَ مِنْ بَينِ يَدَيِ اللهِ يومَ الحسابِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لهمْ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقد ذُكِرَ أنَّ السلامَ هو تَحِيَّةٌ، جَعَلَها اللهُ بَينَ الخَلْقِ في الدنيا والآخِرَةِ. وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بِقَبْضِهِمُ الأرواحَ في الدنيا؛ يَقْبِضونَ أرواحَهُمْ، وهُمْ طَيِّبونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طَيِّبِينَۙ﴾ أحياءً وأمواتاً، وهُمُ المؤمنونَ الذينَ طابَتْ أعمالُهُمْ في الدنيا. ويَحْتَمِلُ السلامُ وجهَينِ:

أحَدُهما: تُحَيِّيهِمُ الملائكةُ بالسلامِ في الجنةِ كما يُحَيِّي أهْلُ الإيمانِ في الدنيا بعضُهُمْ بعضاً.

والثاني: السلامُ يكونُ منهمْ أمْنٌ مِنْ جميعِ الآفاتِ والمَكْروهاتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٣٣ و٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ . . . فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾][1] هذا الحَرْفُ يُخَرَّجُ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ إلاّ وَقْتَ قَبْضِ أرواحِهِمْ أو وَقْتَ نُزُولِ العذابِ عليهِمْ. أي لا يؤمِنونَ إلاّ في هذينِ الوَقْتَينِ، ولا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في هذينِ الوَقْتَينِ، لأنَّ إيمانَهُمْ إيمانُ اضْطِرارٍ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] وكقولِهِ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٥٩] يؤمنونَ عندَ مُعايَنَتِهِمْ بَأسَ اللهِ، لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوَقْتِ.

يُخْبِرُ أنهمْ يَنْظُرونَ ذلكَ الوَقْتَ، ويُؤْيِسُ[2] رسولَهُ مِنْ إيمانِهِمْ لِما عَلِمَ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ، لِيَرْفَعَ عنهُ مُؤْنَةَ الدعاءِ إلى الإيمانِ والقِتالِ معهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ﴾ يَحْتَمِلُ العذابَ في الدنيا، ويَحْتَمِلُ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: كذلكَ فَعَلَ المُعانِدونَ والمُكابِرونَ والذينَ مِنْ قَبْلُ بِرُسُلِهِمْ مِنَ التكذيبِ لهمْ والعِنادِ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ إلى الوقتِ الذي ذَكَرَ كما فَعَلَ قومُكَ مِنَ التكذيبِ لكَ، يا محمدُ، والعِنادِ.

والثاني[3]: يَحْتَمِلُ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ أي هكذا أنْزَلَ العذابَ بِمَنْ كانَ قَبْلَ قومِكَ بِتَكذيبِهِمُ الرسلَ والعِنادِ معهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بما عذَّبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حينَ[1] وَضَعُوا أنفسَهُمْ في غيرِ مَوضِعِها الذي [وَضَعَهُ اللهُ، وحينَ][2] صَرَفُوها عَنْ عبادةِ مَنْ نَفَعَهُمْ، وأنعَمَ عليهِمْ، واستَحَقَّ ذلكَ عليهِمْ، إلى مَنْ لا يَمْلِكُ نَفْعاً ولا ضَرًّا، ولا يَستَحِقُّ العِبادَةَ بحالٍ.

فهمْ ظَلَمُوا أنفسَهُمْ حينَ[3] صَرَفوها مِنَ الحِكْمَةِ إلى غَيرِ الحِكْمَةِ، لا لِلّهِ. وإنَّ[4] اللهَ وضَعَها حيثُ توجِبُ الحكمةُ ذلكَ.

والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ، والحِكْمَةُ هي وَضْعُ الشيءِ في مَوضِعِهِ. فهمْ وَضَعُوا أنفسَهُمْ في غيرِ مَوضِعِها. فأمَّا اللهُ ﷻ فقد وَضَعَها في المَواضِعِ التي توجِبُ الحِكْمَةُ وَضْعَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ كأنهُ قالَ: ما يَنظُرُونَ للإيمانِ بَعْدَ الحُجَجِ السَّمْعِيَّاتِ وبَعْدَ الحُجَجِ العَقْلِيَّاتِ والحُجَجِ الحِسِّيَّاتِ إلاّ نُزُولَ الملائكةِ بالعذابِ مِنَ اللهِ تعالى عليهِمْ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أقامَ عليهِمُ الحُجَجَ السَّمْعِيَّاتِ والعَقْلِيَّاتِ والحِسِّيَّاتِ، فلم يُؤمِنوا بهِ، ولم يُصَدِّقوهُ[5]. فيقولُ: إنهمْ ما يَنْظُرونَ إلاّ الحُجَجَ التي تَقْهَرُهُمْ، وتَضْطَرُّهُمْ. فعندَ ذلكَ يؤمنونَ. وهو ما ذَكَرَ مِنْ نُزولِ العذابِ بهِمْ. أو يقولُ: ما يَنْظُرونَ بإيمانِهِمْ إلاّ الوَقْتَ الذي لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ، وهو الوَقْتُ الذي تَخْرُجُ أنفُسُهُمْ مِنْ أبدِيهِمْ. فأخبَرَ أنَّ إيمانَهُمْ لا يَنْفَعُهُمْ في ذلكَ [الوَقْتِ][6]: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ وقالَ ههنا: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وهلْ هو حَرْفُ اسْتِفْهامٍ في الظاهِرِ، لكنَّ المُرادَ منهُ [ما][7] ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: لِما قد كانَ مِنَ اللهِ مِنَ البيانِ: أنْ ليسَ على الرسلِ إلاّ البلاغُ المُبينُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] أي ما يَنْظُرونَ إلاّ أنْ تأتِيَهُمْ.

وكذلكَ/ ٢٨٤ - ب/ قولُهُ: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤] أمْ: هو حَرْفُ شَكٍّ، ومُرادُهُ للإنسانِ ما تَمَنَّى، وأمثالُهُ لِما سَبَقَ مِنَ اللهِ ما يُبَيِّنُ لهم أنْ ليسَ للإنسانِ ما قد ذَكَرَ قولَهُ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ في سورةِ الأنعامِ [الآية: ١٤٨].

ويَحْتَمِلُ قولُهُمْ هذا وجوهاً:

أحَدُها: قالوا ذلكَ على الاسْتِهزاءِ كقولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

والثاني: قولُهُمْ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] أي لو أمَرَ اللهُ أنْ نَعْبُدَهُ، ولا نَعْبُدَ غيرَهُ، لَفَعَلْنا كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٨].

والثالثُ: قالوا: لو لم[8] يَرْضَ اللهُ مِنّا ذلكَ [ما تَرَكَنا فَعَلْنا][9] ذلكَ، وكانَ[10] أهلَكَنا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ يُخبِرُ رسولَهُ أنكَ لَسْتَ بأوَّلِ مَبْعوثٍ إلى أمَّتِكَ، ولكنْ قد بَعَثَ إلى كلِّ أمَّةٍ رسولاً، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] يُصَبِّرُهُ على ما يُصيبُهُ منهمْ مِنَ المَكْروهِ والأذى، أي لَسْتَ أنتَ بأوَّلِ مَنْ يُصيبُهُ ذلكَ، بل كانَ رُسُلٌ[11] قَبْلَكَ أصابَهُمْ مِنْ أمَمِهِمْ ما يُصيبُكَ مِنْ أمتِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هو على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ وقُلْنا لهمْ: قولوا: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ على ذلكَ كانَ بَعْثُ الرسلِ جميعاً إلى قومِهِمْ بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ وجَعْلِ العِبادَةِ لهُ والنَّهْيِ عنْ عِبادَةِ الأوثانِ دونَهُ كقولِهِ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويكونُ قولُهُ: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ كقولِهِ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ واحداً[12].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وضعها الله وحيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) الوا ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يصدقوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولكن، وذلك إشارة إلى قوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩] والإغراق الإهلاك. (١١) في الأصل: لك، في م: ذلك. (١٢) في الأصل وم: واحد.

والطاغوتُ: قالَ بعضُهُم: كلُّ مَنْ عُبِدَ دونَ اللهِ فهو طاغوتٌ. وقالَ الحَسَنُ: الطاغوتُ هو الشيطانُ؛ أُضيفَتِ[1] العِبادةُ إليهِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤] لأنَّ مَنْ يَعْبُدُ دونهُ يَعْبُدُ بأمْرِهِ، فأضيفَتْ[2] لذلكَ إليهِ، وقد ذَكَرنا هذا أيضاً في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ هذا يدلُّ أنهُ لم يُرِدْ بالهُدَى البَيانَ على ما قالَ بَعْضُ الناسِ إنْ قد سَبَقَ منهُ البَيانُ لكلِّ أحدٍ، وما ذَكَرَ أيضاً: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾.

وهذا يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ حينَ[3] قالوا: الهُدَى والبَيانُ مِنَ اللهِ، لكنَّ الهُدَى منهُ في هذا المَوضِعِ، ليسَ هو البَيانَ، هو ما يُكْرِمُ بِهِ عَبْدَهُ، ويُوَفِّقُهُ لَدَيهِ. وقولُهُ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ لِاخْتِيارِهِ الهُدَى ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي [لَزِمَتْهُ الضلالةُ لِاخْتِيارِهِ إيَّاها][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿فَسِيرُواْ﴾ ليسَ على الأمْرِ، ولكنْ كأنهُ قالَ: لو سِرْتُمْ في الأرضِ لَرَأيتُمْ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالتكذيبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسِيرُواْ﴾ كأنهُ على الحِجاجِ عليهِمْ: إنْ سِرْتُمْ[5] في الأرضِ فإنكُمْ تَرَونَ آثارَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ. ويُشْبِهُ أن يكونَ ليسَ على السَّيْرِ نَفْسِهِ، ولكنْ على التأويلِ والنَّظَرِ في آثارِ أولئكَ وأمورِهِمْ أنهُ بِمَ نَزَلَ بهِمْ ما نَزَلَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: كانَ يُحِبُّ، ويَحْرِصُ على هُدَى قراباتِهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ أي لا يَهْديهِمْ بِضلالِهِمْ وَقْتَ ضَلالِهِمْ، أي لا يَهْدي وَقْتَ اخْتيارِهِمُ الضلالَ، ولا يَهْدِي مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ الضلالَ، أو لا يُنْجي مَنْ يُهْلِكُ مِنَ الضلالِ.

وفيهِ لُغاتٌ ثلاثٌ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ أي لا يَهْدي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ، فليسَ لأحدٍ [أنْ][6] يَهْدِيَهُ، ولا يَهْدي مَنْ يُضِلُّ، أي لا يَهْتَدي مَنْ أضَلَّهُ اللهُ في الدنيا لِاخْتيارِهِ الضلالَ، وهو كقولِهِ: ﴿ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧ و...] [وكقولِهِ][7]: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨ و...] وَقْتَ اخْتيارِهِمُ الكُفْرَ والظُّلْمَ، أو لا يَهْدي مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يختارُ الضلالَ والظلْمَ، ولا يَهْدي مَنْ يَلْزَمُ الضلالَ وَقْتَ لُزومِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ظاهرٌ تأويلُهُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ فإنْ قيلَ لنا: ما الحِكْمَةُ والفائدةُ في ذِكْرِ قَسَمِهِمُ الذي في القرآنِ وجَعْلِ ذلكَ آيةً تُتْلَى، وذلكَ القَسَمُ الذي أقْسَمُوا كانَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابِهِ، وهُمْ عَلِموا ذلكَ، [ليسَ كالأنباءِ][8] والقِصَصِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ؛ إذ كانَ ذلكَ شيئاً[9] غابَ عنهُ لم يَشْهَدْهُ، فأخبَرَهُمْ على ما كانَ فَفي ذلكَ إثباتُ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ؛ فالحِكْمَةُ والفائدةُ في القرآنِ، وجَعْلُها آياتٍ تُتْلَى لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وأمَّا القَسَمُ الذي أقْسَموا ليسَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ إثباتِ الرسالةِ، وهُمْ قد عَلِمُوا ذلكَ، فما الفائدةُ في ذِكْرِهِ؟

قيلَ: يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَهُ لنا ﷻ لِنَعْلَمَ نَحْنُ عظيمَ سَفَهِ أولئكَ وقِلَّةِ عقولِهِمْ وحِلْمِ الرسولِ واحتمالَ ما احْتَمَلَ منهمْ مِنَ الأذى والمَكْرُوهِ لِنَعْلَمَ نحنُ أنْ كيفَ نُعامِلُ السفهاءَ وأهلَ الفَسادِ والعُصاةَ مِنَ الناسِ على ما عامَلَ رُسُلُ اللهِ أقوامَهُمْ مَعَ عظيمِ سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ عقولِهِمْ[10]، فهذا دليلُ[11] فائدةِ ذِكْرِ قَسَمِهِمْ في القرآنِ.

قد تَكَلَّفَ أولئكَ الكَفَرَةُ الكُبَراءُ منهمْ في تَلْبيسِ الآياتِ والحُجَجِ التي أتَتْ بها الرسُلُ مَرَّةً بالقَسَمِ الذي ذَكَرَ حينَ[12] ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا﴾ يُبْعَثُونَ، ومَرَّةً بالنسبةِ إلى السِّحْرِ، ومَرَّةً بالافْتِراءِ، ومَرَّةً بالنسبةِ إلى الجنونِ، وفي الأنباءِ بأنهُ إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ منهمْ[13]. يُريدونَ بذلكَ التَّلْبيسَ على الأتباعِ.

---

(١) في الأصل وم: أضيف. (٢) في الأصل وم: فأضيف. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: لزمت الضلالة واختياره إياه، في م: لزمت لزومه الضلالة واختياره اياه. (٥) في الأصل وم: سيروا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: كالأنبياء. (٩) في الأصل وم: شيء. (١٠) في الأصل وم: عقلهم. (١١) في الأصل وم: ذلك. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: منا.

ثم البَعْثُ واجبٌ بالعَقْلِ والحِكْمَةِ وأخبارِ الرسلِ؛ إذْ ليسَ خَبَرٌ أصْدَقَ مِنْ أخبارِ الرسلِ وآثارِهِمْ، وهُمْ مِمَّنْ يَقْبَلُونَ الأخبارَ، فأخبارُ الرسلِ أَوْلَى بالقَبولِ والتصديقِ مِنْ غَيرِهِمْ[١] لأنَّ معهمْ آياتِ صِدْقِهِمْ ودلالاتِ تحقيقِهِمْ.

وأمّا العَقْلُ فهو أنْ يكونَ هذا العالَمُ وإنشاؤهُ لِلْفَناءِ خاصَّةً خارجاً[٢] عنِ الحِكْمَةِ؛ إذْ كُلُّ عَمَلٍ، لا يكونُ لهُ عاقبةٌ، عَبَثٌ، وهو كما قالَ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أخْبَرَ أنهُ إذا لم يكنْ رجوعٌ إليهِ يكونُ خَلْقُهُ إيّاهُمْ عَبَثاً.

وأمّا الحِكْمَةُ فهيَ أنَّ الانتِقامَ لأوليائهِ مِنَ الظَّلَمَةِ واجِبٌ بِظُلْمِهِمْ، والإحسانَ لأهْلِ الإحسانِ. فلو لم يكُنِ البَعْثُ[٣] والحياةُ بَعْدَ الموتِ لِيَنْتَقِمَ مِنَ الظالِمِ لِظُلْمِهِ، ويَجْزِيَ المُحْسِنَ لآحسانِهِ لَذَهَبَتْ فائدةُ الترغيبِ على الطاعةِ والإحسانِ ووعيدِ الظالمِ بالانتِقامِ.

فالبَعْثُ واجبٌ لِلْوُجوهِ التي ذَكَرْنا، وكذلكَ[٤] التفريقُ بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ، وقد جَمَعَهُمْ في هذهِ الدنيا، وفي الحِكْمَةِ التفريقُ بينَهما تعظيماً وإجلالاً، إنما كانوا يُقْسِمونَ بالأصنامِ والأوثانِ التي عَبَدوها. فإذا حَلَفوا باللهِ [لا يَحْلِفونَ][٥] إلاّ لِما يَعْظُمُ مِنَ الأمْرِ. فذلكَ جَهْدُ أيمانِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ قولُهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ ردٌّ على قولِهِمْ: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ فقالَ: ﴿بَلَىٰ﴾ يَبْعَثُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿وَعْدًا﴾ أي وَعْداً بهِ يَبْعَثُهُمْ، فَحَقَّ عليهِ أنْ يُنْجِزَ ما وَعَدَ، و﴿حَقًّا﴾ عليهِ أنْ يَعِدَ البَعْثَ والإنجازَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهُ نَفَى عنهُمُ العِلْمَ لِما لمْ يَنْتَفِعوا بِعِلْمِهِمْ؛ فهو كما نَفَى عنهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ وغَيرَهُما مِنَ الحواسِّ لِما لمْ يَنْتَفِعُوا بها انْتِفاعَ ما لذلكَ كانَ خَلْقُها، فَنَفَى ذلكَ عنهُمْ.

والثاني: نَفَى عنهمْ ذلكَ على حقيقةِ النَّفْيِ، لأنهُمْ لمْ يَنْظُروا، ولمْ يَتَأمَّلوا في الآياتِ والأسبابِ التي بها جَعَلَ لهمُ الوُصولَ إلى العِلْمِ، فلم يَعْلَمُوا. ثم لمْ يَعْذُرْهُمْ/ ٢٨٥ - أ/ بِجَهْلِهِمْ ذلكَ لِما جَعَلَ لهمْ سَبيلَ الوُصولِ إلى عِلْمِ ذلكَ بالنَّظَرِ والتَّأمُّلِ في الآياتِ والحُجَجِ. لكنهمْ شَغَلُوا أنفسَهُمْ في غيرِها، ولمْ يَنْظُروا في الأسبابِ التي جَعَلَها سَبيلَ الوُصولِ إليهِ.

فهذا يدلُّ أنَّ مَنْ جَهِلَ أمْرَ اللهِ ونَهْيَهُ يكُنْ[٦] مُؤاخَذاً بهِ بَعْدَ أنْ جَعَلَ لهُ الوصولَ إليهِ بالدلائلِ والإشاراتِ، فلا تَخْرُجُ مُؤاخَذَتُهُ إيّاهُ وعُقوبَتُهُ بِتَرْكِ أمرِهِ عنِ الحِكْمَةِ.

وأمّا في الشاهِدِ مَنْ أمَرَ عَبْدَهُ[٧] شيئاً، ولم يُعْلِمْهُ ما أمَرَهُ، ثم عاقَبَهُ بذلكَ فهو خارجٌ عنِ الحِكْمَةِ؛ إذْ لا سَبيلَ إلى الوُصولِ [إلى ما][٨] أمَرَ بهِ إلاّ بالتَّصْريحِ، ولم يَكُنْ منهُ تصريحُ إعلامٍ، لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

الآية ٣٩ ألا تَرَى أنهُ أوعَدَ لهمُ الوعيدَ الشديدَ في الآخِرَةِ بقولِهِ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾؟ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي لِيَعْلَمَ [أتباعُ الذين كفروا][٩] أنَّ الرؤساءَ [كانوا كاذبينَ، وإلاّ كانَ الرؤساءُ][١٠] كاذبينَ عندَ أنفسِهِمْ، أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لَمّا ادَّعَى أولئكَ الكَفَرَةُ أنَّ الآخِرَةَ لهمْ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ الآية [فصلت: ٥٠] فقالَ جواباً لهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ لِادِّعائِهِمُ الآخِرَةَ لأنفسِهِمْ.

ثم قولُهُ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما اخْتَلَفوا في البَعْثِ؛ منهُمْ مَنْ صَدَّقَهُ، ومنهُمْ مَنْ كَذَّبَ بقولِهِ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ ذلكَ، ويَحْتَمِلُ [قولُهُ: ﴿ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾][١١] أي في الدِّينِ والمذهبِ لأنهُمُ اخْتَلَفوا في الدينِ

---

(١) في الأصل وم: غيره. (٢) في الأصل وم: خارج. (٣) في الأصل وم: بعث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: وعيده. (٨) في الأصل وم: بما. (٩) في الأصل وم: اتباعهم. (١٠) من الأصل: كانوا كاذبين وإلا كان الرؤساء منهم، في م: منهم كانوا. (١١) من م، في الأصل: فيه.

والمذهبِ، وكلُّ مَنِ ادَّعى ديناً ومذهباً حتى دعا غَيرَهُ إلى دينِهِ ومَذْهبِهِ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ المُحِقَّ منهُمْ مِنْ غَيرِهِ والصادقَ منهمْ مِنَ الكاذِبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ يَحتَمِلُ كُفرَهُمْ بالبعثِ وإنكارَهُمْ وكُفرَهُمْ برسولِ اللهِ أو وَحْدانيَّةِ اللهِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في إنكارِهِمْ ما أنكروا ليُبَيِّنَ لهمْ ذلكَ في الآخِرَةِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما:][1] يُخبِرُ عَنْ سُرْعَةِ نَفاذِ أمرِهِ وسُهولَةِ الأمْرِ عليهِ أنهُ يكونُ أسْرَعُ مِنْ لَحْظَةِ بَصَرٍ أو لَمْحَةِ عينٍ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ خَلْقَ الشيءِ، ليسَ هو ذلكَ الشيءَ، لأنهُ عَبَّرَ بِـ﴿كُن﴾ عنْ تكوينِهِ و﴿فَيَكُونُ﴾ عنِ الكونِ، وكذا كَنَّى عنهُ بالشيءِ لِقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ فَكَنَّى عنهُ بوقوعِ القولِ عليهِ والتكوينِ. ثَبَتَ أنَّ التكوينَ غَيرُ المُكَوَّنِ.

ثم لا يَخلو مِنْ أنْ يكونَ التكوينُ [بِتكوينٍ][2] آخَرَ إلى ما لا نهايةَ لهُ، أو لا بِتكوينٍ. وقد بَيَّنَّا فَسادَهُما جميعاً، وهُما وَجْها الحديثِ. ثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى بِهِ موصوفٌ في الأزلِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: مَنْ فِعْلُهُ كَسْبٌ سُمِّيَ كاسباً، ومَنْ فِعْلُهُ [مُخْتَصٌّ][3] بِاسْمٍ سُمِّيَ بِهِ. فلو كانَ فَعَلَى اللهِ كُلِّيَّةُ الخَلْقِ يُسَمَّى بِهِ، فَيُسَمَّى مَيِّتاً مُتَحَرِّكاً ساكناً طَيِّباً صَغيراً كبيراً ونَحْوَ ذلكَ. فإذا كانَ يَتَعالى عنْ هذا، وقد سَمَّى [نفسَهُ][4] فاعلاً مُميتاً مُحيياً مُحَرِّكاً مُسْكِناً جامعاً مُفَرِّقاً ثَبَتَ أنَّ فِعْلَهُ هو غَيرُ مَفْعولِهِ وانهُ بذاتِهِ يَفْعَلُ الأشياءَ لا بِغَيرِهِ. وفي ذلكَ لُزومُ الوَصْفِ لهُ بِهِ في الأزلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ كانَ ظُلْمُهُمْ إياهُمْ على وجوهٍ:

منهمْ مَنْ ظُلِمَ بالإخراجِ مِنَ الديارِ والطَّرْدِ مِنَ البلدِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ٩].

ومنهمْ مَنْ ظُلِمَ بالمَنْعِ عنْ إظهارِ الإسلامِ والعَمَلِ لهُ وأنواعِ ما أُوذُوا، وظُلِموا بإظهارِهِمُ الإسلامَ وإجابَتِهِمْ رسولَ اللهِ واتِّباعِهِمْ إيَّاهُ.

ثم وَعَدَ لهمْ في الدنيا حَسَنَةً، فقالَ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ قيلَ: لَنُعْطِيَنَّهُمْ، وقيلَ: لَنَرْزُقَنَّهُمْ، وهو واحدٌ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تَحْتَمِلُ الحَسَنَةُ في الدنيا العِزَّ بَعْدَ الذُّلِّ والسَّعَةَ بَعْدَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ والغَلَبَةَ والنَّصْرَ لهمْ بَعْدَ ما كانوا مَقْهورِينَ مَغْلوبِينَ في أيدي الأعداءِ، والذِّكْرَ والشَّرَفَ بَعْدَ الهوانِ. هذهِ الحسنةُ التي بَوَّأَهُمْ في الدنيا.

والمُهاجَرَةُ المُقاطَعَةُ؛ كأنهُ قالَ: والذينَ قاطَعوا أرحامَهُمْ وأقارِبَهُمْ ومكاسِبَهُمْ وديارَهُمْ، فأبْدَلَ اللهُ لهمْ مكانَ الأرحامِ والأقاربِ أخِلاَّءَ وإخواناً ومكانَ أموالِهِمْ أموالاً أُخرَى وكذلكَ الدُّورَ وكلَّ شيءٍ تَركوا هنالكَ، فأبْدَلَهُمْ مكانَ ذلكَ كلِّهِ.

وأمَّا قولُهُ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا عنْ حَسَدٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ للمهاجِرينَ لَمَّا أنْزَلَهُمْ في المدينةِ، وبَوَّأَهُمْ فيها، وأعَزَّهُمْ، ورَفَعَ ذِكْرَهُمْ وأمْرَهُمْ، ونَصَرَهُمْ. حَسَدَهُمْ أهلُ الكُفْرِ بذلكَ، فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لهُمْ أكبَرُ وأعْظَمُ.

ويَحتَمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ هؤلاءِ المهاجِرينَ، فَيَخِفُّ عليهِمُ احْتِمالُ ما أُوذُوا، وظُلِموا، ويَهونُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: على ربِّهِمْ؛ يَثِقونَ في إنجازِ ما وَعَدَ لهمْ في الآخِرةِ أنهُ يُنْجِزُ ذلكَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿صَبَرُواْ﴾ على أمْرِهِ، أو﴿صَبَرُواْ﴾ على الهِجْرَةِ وانْقِطاعِ ما ذَهَبَ عنهمْ وفراقِ ما كانَ لهمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يكونُ على إثرِ أمْرٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ نَحْوُ ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] ونحوَهُ مِنْ كلامِهِمْ. فقالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ أي إلاّ بَشَراً، أي لم نُرسِلْ مِنْ غيرِ البَشَرِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ كِنايةً عنِ البَشَرِ أو يكونُ[1] قولُهُ: ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ أي لم يَبْعَثْ مِنَ النساءِ رسولاً، إنما بَعَثَ الرسلَ مِنَ الرجالِ إلى الرجالِ والنساءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ على الأمْرِ بالسُّؤالِ، ولكنْ لو سَألْتُمْ أهْلَ الذِّكْرِ لأخبَروكُمْ أنهُ لم يَبْعَثِ الرسولَ مِنْ قَبْلُ إلاّ مِنَ البَشَرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الأمْرِ بالسُّؤالِ؛ أيِ اسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ، فَتُقَلِّدُوهُمْ؛ أي إنْ كانَ لا بُدَّ لكُمْ مِنَ التَّقْليدِ فاسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ، فَقَلِّدوهُمْ، ولا تُقَلِّدوا آباءَهُمْ ومَنْ لا يَعْرِفُ الكتابَ، ولكنْ قَلِّدوا أهْلَ الذِّكْرِ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ فَقَلِّدُوهمْ ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بالبيِّناتِ والحُجَجِ لأنهمْ كانوا أهْلَ تَقْليدٍ، لم يكونوا أهْلَ نَظَرٍ وتَفَكُّرٍ في الحُجَجِ والبيِّناتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ البيِّناتِ والزُّبُرَ التي[2] أتَتْ بها الرسلُ لِتُخْبِرَكُمْ أنَّ الرسلَ إنما بُعِثُوا مِنَ البَشَرِ بالبيِّناتِ والكُتُبِ، فيكونُ على التقديمِ الذي ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: وما أرْسَلْنا مِنْ قبلِكَ إلا رجالاً نوحي إليهِمْ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي أهْلَ الشَّرَفِ مِنْ أهلِ الكتابِ لِيُبَيِّنوا لكمُ البيِّناتِ والزُّبُرَ لأنهمْ يأنَفونَ الكِتْمانَ والكذبَ، وإنْ كانَ أهلُ الذِكْرِ جميعَ أهلِ الكتابِ، فالسُّؤالُ عنِ الرسلِ أنهمْ كانوا مِنَ البَشَرِ والرجالِ لأنهمْ يَعْلَمُونَ ذلكَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ قيلَ: أُنْزِلَ إليكَ القرآنُ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ مِنْ أنباءِ الغَيبِ وما غابَ عنهمْ وما لِلّهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، وتُبَيِّنَ لهمْ جميعَ ما يُؤتَونَ، وما يَتَّقونَ، وما يَحِلُّ، وما يَحْرُمُ ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ﴾ ما حَرَّفوا مِنْ كُتُبِهِمْ، وبَدَّلوهُ، وغَيَّرُوهُ، فيكونُ فيهِ آيةٌ لرسالتِكَ، أو يكونُ الذي أُنْزِلَ إليهِ كالمُنْزَلِ إليهِمْ حينَ[3] ذَكَرَ أنهُ يُبَيِّنُ لهمْ ما أُنْزِلَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قولُهُ ﴿أَفَأَمِنَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ حَرْفُ اسْتِفهامٍ؛ إلاّ أنهُ مِنَ اللهِ غيرُ مُحْتَمِلٍ ذلكَ، وهو على إيجابِ ذلكَ.

ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الخَبَرِ أنهمْ قد أمِنوا مَكْرَهُ. والثاني: على النَّهْيِ؛ أي لا تأمَنوا/ ٢٨٥ ـ ب/ كقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ على هذا الذي ذَكَرْنا أنهُ إخبارٌ عن أمنِهِمْ مَكْرَ اللهِ، وعلى النَّهْيِ ألاّ يأمَنوا. ثم أخبَرَ أنهُ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الكافِرونَ لأنهمْ كَذَّبوا الرسلَ في ما أوعَدَ لَهُمْ مِنَ العذابِ، فأمِنوا لذلكَ، أو [لِما لم يَعْرِفوا][4] اللهَ ولم يَعْرِفوا حقوقَهُ ونِعْمَتَهُ ونَقْمَتَهُ، فأمِنوا لِذلكَ.

وأمَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ، ومَنْ عَرَفَ حَقَّهُ، وعَرَفَ نَقْمَتَهُ، فإنهُ لا يأمَنُ مَكْرَهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَكْرُهُمُ السَّيِّئاتِ هو ما مَكَروا برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، قالوا: أصابَهُمْ ذلكَ أساءَهُمْ، وما ظاهَروا عليهِمْ عَدُوَّهُمْ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ان. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: والرسل. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: لا يعرفون، في م: لما يعرفوا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَكْرُهُمُ السَّيِّئاتِ هو أعمالُهُمُ التي عَمِلوها، وكلُّ ذلكَ قد كانَ منهمْ؛ كانوا مَكَروا برسولِ اللهِ وأصحابِهِ، وكانوا ظاهَروا عليهِمْ عدُوَّهُمْ، وقد عَمِلُوا أعمالَهُمُ الخبيثَةَ السَّيِّئَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أمِنوا حينَ ﴿مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في الحالِ التي لا يكونُ لهمْ أمْنٌ، ولا[1] خوفٌ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ قيلَ: في أسفارِهِمْ وفي تِجاراتِهِمْ، لأنَّ الناسَ إنما يُسافرونَ، ويَتخيَّرونَ في البلدانِ في حالِ أمْنِهِمْ.

الآية ٤٧ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: على تَفْزيعٍ، وقالَ [بعضُهم][3] على تَنْقيصٍ مِنَ الأموالِ وغَيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أنْ يأخذَ قَرْيَةً فقَرْيَةً وبَلْدَةً فبَلْدَةً حتى يأتيَ قريباً منهمْ، ثم يأخُذَهُمْ؛ كلَّما أخذَ قَرْيَةً كانَ لهمْ مِنْ ذلكَ خوفٌ؛ فذلك أخذٌ بِتَخوُّفٍ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ٣١] وَعَدَ اللهُ حلولاً قريباً مِنْ دارِهِمْ، كانَ يُخوِّفُهُمْ حتى نَزَلَ بِساحَتِهِمْ؛ فذلكَ أخذٌ بالتَّخوُّفِ يُخبِرُ أنَّ عذابَهُ لا يُؤمَنُ حُلولُهُ، وأخْذَهُ إيَّاهُمْ في كلِّ حالٍ: في الحالِ التي ليسَ لهمْ أمْنٌ ولا خوفٌ، أي لم يُغَلَّبْ هذا [على هذا][4]، وفي الحالِ التي يكونونَ آمِنينَ في تَقَلُّبِهِمْ وحَوائِجِهِمْ وفي الحالِ التي يكونونَ مُتَخوِّفينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حينَ[5] لم يَسْتَأْصِلْكُمْ، ولم يأخُذْكُمْ بما كانَ منكُمْ مِنَ الافْتِراءِ على اللهِ والتكذيبِ لِرُسُلِهِ والمُكابَرَةِ والمُعانَدَةِ لآياتِهِ وحُجَجِهِ وفَتْنِهِ، ولكنْ أمْهَلَكُمْ، وأخَّرَ ذلكَ عنكُمْ أو ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا[6] تُبْتُمْ، ورَجَعْتُمْ عمَّا كانَ منكُمْ، يَرْحَمُكُمُ اللهُ، ويَغْفِرُ لكُمْ ذلكَ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ قالَ ذلكَ لِقَومٍ قد تَقَرَّرَ عندَهُمْ، وثَبَتَ، أنَّ كلَّ شيءٍ يَسْجُدُ للهِ، ويَخْضَعُ لهُ. فقالَ ذلكَ لهمْ على العِتابِ: إنكمْ قد عَلِمْتُمْ أنَّ كُلَّ شيءٍ لم يُرَكَّبْ فيهِ العَقْلُ، ولم يُجعَلْ فيهِ الفَهْمُ والسَّمْعُ، يَخْضَعُ لهُ، ويُسَبِّحُ لهُ، وأنتُمْ لا تَخْضَعونَ لهُ مع ما رَكَّبَ فيكُمُ العقولَ، وجَعَلَ فيكُمُ الأفهامَ وغَيرَها.

والثاني: على الأمْرِ؛ أي اعْلَموا أنَّ كلَّ شيءٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْجُدُ للهِ، ويَخْضَعُ، وقد أقامَ لهمْ مِنَ الحُجَّةِ على ذلكَ ما لو تأمَّلوا، وتفَكَّروا لَعَلِموا أنَّ كلَّ ذلكَ يَخْضَعُ، ويُسَبِّحُ.

وإلاَّ ظاهِرُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أنْ يقولوا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أنْ كانَ الخِطابُ لأهْلِ مكةَ على ما ذَكَرَهُ أهْلُ التأويلِ؟ لكنْ يُخرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ اللذينِ ذَكَرَهما.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ الآية لمَّا اسْتَوْحَشَ أهْلُ الإسلامِ مِمَّا[7] عَبَدَ أولئكَ الكَفَرَةُ الأصنامَ، وعَظُمَ ما قالوا في اللهِ، فقالَ لذلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ﴾ كذا.

وقولُهُ[8] تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُريدُ بالظِّلالِ شَخْصَ ذلكَ الشيءِ، والظِّلالُ كِنايةٌ عَنِ الشخصِ؛ كما يقالُ: رأيتُ ظِلَّ فلانٍ أي شَخْصَهُ، وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالظِّلِّ الظِّلَّ نَفْسَهُ. لكنَّ خُضوعَهُ وسُجودَهُ يكونُ لِلشَّمْسِ والقَمَرِ. وعلى تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ الظِّلَّ كنايةً عنِ الشخصِ يَجْعَلُ كلَّ نَفْسٍ تَتَفَيَّأُ خُضوعاً وسُجوداً.

ثم مَعْنَى سُجودِ[9] هذهِ الأشياءِ المَواتِ، وخضوعُهُنَّ مِنْ قولِهِ: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا﴾. ومِنْ نَحْوِ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) أدرج قبلها في الأصل: حيث. (٧) من م، في الأصل: فما. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: سجوده.

قولِهِ: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] وقولِهِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبإ: ١٠] وقولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] وأمثالِهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنْ يَجْعَلَ اللهُ ﷻ بِلُطْفِهِ في سِيرَةِ هذهِ الأشياءِ مَعْنَى تَعَلُّمِ السُّجودِ لِلّهِ والخُضوعِ لهُ؛ وهو ما ذَكَرَ في الريحِ التي ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] أخْبَرَ أنها تجري بأمْرِهِ، دلَّ أنها تُعَلِّمُ أمْرَ اللهِ وقولَهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ و٢١] أخْبَرَ أنها تَشْهَدُ، وتَنْطِقُ، ولو أنها [لا](١) تفهَمُ، ولا(٢) تَعْلَمُ الخِطابَ ما(٣) خوطِبَتْ، وإنْ كانَتْ مَواتاً. فَعَلى ذلكَ تَسْبيحُها وخُضوعُها جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ يَجْعَلُ في سِيرَةِ هذهِ الأشياءِ ما تَعْرِفُ السُّجودَ والتَّسْبيحَ، وتَفْهَمُهُ.

والثاني: يكونُ سُجودُ هذهِ الأشياءِ وتَسْبيحُها بالتَّسْخيرِ؛ جَعَلَها مُسَخَّراتٍ لذلكَ، وإنْ لمْ تَعْلَمْ هي ذلكَ، ولم تَعْرِفْ، لكنْ جَعَلَها بالخِلْقَةِ كذلكَ.

والثالثُ: أنهُ جَعَلَ خِلْقَةَ هذهِ الأشياءِ دالَّةً شاهِدَةً على وَحْدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ؛ فهنَّ مُسَبِّحاتٌ للهِ وساجِداتٌ وخاشِعاتٌ لهُ بالخِلْقَةِ التي جَعَلَها دالَّةً وشاهِدَةً على وَحْدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى سُجودِهِنَّ وخُضوعِهِنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ قيلَ: صاغِرونَ، ذَليلونَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ: يَسْجُدُ لهُ أعْلَى الخَلائِقِ وأعْلَمُهُمْ، وهُمُ الملائكةُ، ويَسْجُدُ أشَدُّ الخَلْقِ وأصْلَبُهُ، وهو الجبالُ والسمواتُ والأرضُ، ويَسْجُدُ لهُ أيضاً، ويَخْضَعُ أشْقَى(٤) الخَلْقِ وأجْهَلُهُ، وهو الدوابُّ وغيرُها. وأنتُمْ أبَيْتُمُ السُّجودَ لهُ والخُضوعَ، واسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ عِبادَتِهِ. فهؤلاءِ الذينَ ذَكَرَهُمْ يَسْجُدونَ [لِغَيْرِ اللهِ](٥) يُخْبِرُ عن سَفَهِ أولئكَ في إبائِهِمُ السُّجودَ لهُ والخُضوعَ واسْتِكْبارِهِمْ عليهِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: خَوفُ الملائكةِ والرُّسُلِ خَوفُ هَيْبَةِ اللهِ وجَلالِهِ، لا خَوفُ نُزولِ شَيءٍ مِنْ نَقْمَتِهِ عليهِمْ، وخَوفُ غَيرِهِمْ(٦) مِنَ البَشَرِ خَوفُ نُزولِ شَيءٍ، يَضُرُّ بهِمْ. وكذلكَ رَجاؤُهُمْ وطَمَعُهُمْ رَجاءُ نَفْعٍ، يَصِلُ إليهِمْ، ورَجاءُ(٧) الملائكةِ والرُّسُلِ وطَمَعُهُمْ رَجاءُ رِضا اللهِ عنهُمْ لا رَجاءُ نَفْعٍ، يَصِلُ إليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ خَوفَ العُقوبَةِ والانْتِقامِ، لأنهُمْ مُمْتَحَنونَ؛ وكُلُّ مُمْتَحَنٍ يَخافُ عذابَ اللهِ ونَقْمَتَهُ. ألا تَرَى أنهُ كيفَ أوعَدَهُمُ الوعيدَ الشديدَ، وقالَ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقالَ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] خافَ عبادَةَ غيرِ اللهِ؟ ومَنْ خافَ ذلكَ يَخَفْ(٨) وَعيدَهُ وعَذابَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ الفَوقُ والتَّحتُ الأسْفَلُ ونَحْوُهُ في الأمكنةِ، والمَجْلِسُ ليسَ فيهِ فَضْلُ عِزٍّ وشَرَفٍ ومَرْتَبَةٍ لِما يجوزُ أنْ يكونَ الذي كانَ فوقَ هذا في المكانِ المَجْلِسَ تَحْتَهُ وأسْفَلَ منهُ، فلا يزدادُ لِهذا بما صاروا فوقَهُ/ ٢٨٦ ـ أ/ عِزًّا وشَرَفاً ومَرْتَبَةً، ولا لِهذا بما كانَ تَحْتَهُ ذُلٌّ وهَوانٌ(٩)، لأنهُ لا يُفْهَمُ ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فوقُ المكانِ ولا تَحْتُهُ، لأنَّ مَنْ صَعِدَ الجِبالَ والأمْكِنَةَ المُرْتَفِعَةَ، لا يُوصَفُ بالعُلُوِّ والعَظَمَةِ.

وإذا قيلَ: فلانٌ أميرٌ [على العِراقِ](١٠) أو على خُراسانَ، كانَ في ذلكَ تعظيمٌ، لأنهُ ذُكِرَ بالقُدْرَةِ والسلطانِ ونَفاذِ أمْرِهِ ومَشيئَتِهِ وقُدْرَتِهِ وسلطانِهِ فيهِمْ أوِ اطِّلاعِهِ على جميعِ ما يُسِرُّونَ، ويُضْمِرونَ، ويُعْلِنُونَ، ويُظْهِرونَ، وعِلْمِهِ بِجميعِ(١١) أفعالِهِمْ. على هذا يَجوزُ أنْ يُتَناوَلَ الفَوقُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) أدرج قبلها في الأصل: وانا، وأدرج قبلها في م: والا. (٤) في الأصل وم: أسفه.
(٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يخاف. (٩) في الأصل وم: وهو ذل هذا. (١٠) من م، في الأصل: عراق. (١١) في الأصل وم: على جميع.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وصَفَهُمُ اللهُ ﷻ بِفَضْلِ طاعتِهِمْ له وخُضوعِهِمْ إيّاهُ، وهو ما قالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و٢٠] وهو ما قالَ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ومثلُهُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا نَعْلَمُ الخطابَ بهذا أنهُ لِمَنْ كانَ الخِطابُ بهذا: ألأهْلِ مكةَ؟ فهمْ قدِ اتَّخذوا آلهةً بقولِهِمْ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ الآية [ص: ٥] إلّا أنْ يُخاطِبَ الثَّنَوِيَّةَ والزنادِقَةَ، فإنهمْ يَقولونَ باثْنَيْنِ، ويُشِيرُ أنْ يكونَ أهلُ مكةَ، وإنِ اتَّخذوا آلهةً فإنهمْ في الحقيقةِ عُبّادُ إلٰهينِ لأنهمْ إنما كانوا يَعْبُدونَ تلكَ الأصنامَ بأمْرِ الشيطانِ وطاعتِهِمْ إياهُ، فَنَسَبَ العبادةَ لِما بأمْرِهِ يَعْبُدونَ هذهِ الأصنامَ؛ أضافَ العبادةَ إليهِ.

أو أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ اثْنَينِ إنما هو على الزيادةِ على الواحدِ؛ كأنهُ قالَ: لا تَتَّخِذوا، أو لا تَعْبُدوا أكثرَ مِنْ إلٰهٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ لا تخافوا[1] الأصنامَ التي تَعْبُدونَها، فإنكمْ إنْ تَرَكْتُمْ عبادتَها لا تَضُرُّكُمْ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ولهُ يَخضَعُ ما في السمواتِ والأرضِ؛ كُلُّهُمْ عبيدُهُ وإماؤُهُ. فكيفَ أشْرَكْتُمْ عبيدَهُ في ألوهيَّةِ اللهِ تعالى وربوبيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: دائماً، لأنَّ غيرَهُ مِنَ الأديانِ كلَّها يَبْطُلُ، ويَضِلُّ، ويَبْقى دينُهُ في الدارَينِ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي مُخْلِصاً مِنَ الوَصَبِ والتَّعَبِ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ولَهُ دينٌ، لا يُوصَلُ إليهِ إلّا بِتَعَبٍ وجَهْدٍ، فاجْتَهِدوا، واتْعَبوا، لِتُخْلِصوا لهُ الدينَ. هذا مَعْنى قولِهِ [﴿وَاصِبًا﴾ أي][2] مُخْلِصاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي مُخالَفَةَ غيرِ اللهِ تَتَّقونَ، أي [خافوا مُخالَفَةَ اللهِ، ولا تَخافوا][3] مخالَفَةَ غيرِهِ. أو يقولُ: ولا تَخافوا غَيرَ اللهِ، ولا تَتَّقُوا سِواهُ، ولكنِ اتَّقُوا اللهَ، واتَّقُوا نَقْمَتَهُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي تَتَضَرَّعونَ. يُخْبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ[4] عقلِهِمْ؛ إنهمْ يَعْلَمونَ أنهُ لهُ ما في السمواتِ والأرضِ وأنَّ كلَّ ذلكَ مُلْكُهُ، وأنَّ مالَهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ منهُ، وأنَّ ما يَحُلُّ بهمْ مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ، هو الكاشِفُ لهمْ والدافعُ عنهمْ.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾][5] ثم يكفرونَ، ويَصْرِفونَ شُكْرَها منهُ إلى غيرِهِ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ، ويُؤمنونَ بهِ في حالِ الشِّدَّةِ والبلاءِ، فيقولُ: أنا المُنْعِمُ عليكُمْ تلكَ النِّعَمَ، وأنا المالكُ الكَشْفَ[6] عنكُمْ لا الأصنامُ التي عَبَدْتُموها. وفكيفَ كَفَرْتُمْ في الرَّخاءِ والسَّعَةِ، وآمَنْتُمْ في وقتِ الضيقِ والبلاءِ.

كانوا يُخلِصونَ لهُ الدينَ [في][7] وقتٍ، ويُشْرِكونَ غَيرَهُ في وقتٍ، فيقولُ: أديموا إليَّ الدينَ بقولِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] ولا تَتْرُكوا الإيمانَ في وَقْتٍ وتُؤمِنوا بي في وَقْتٍ وكذلكَ كانَتْ عبادَتُهُمْ؛ كانوا يَكْفُرونَ بربِّهِمْ في حالِ الرَّخاءِ والسَّعَةِ، ويُؤْمِنونَ بهِ في حالِ البلاءِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ فَرَضَ الجِهادَ على المُسْلِمِينَ والقِتالَ مَعَهُمْ لهذا المَعْنى لأنَّ مِنْ عادَتِهِمُ الإيمانَ في وَقْتِ البَلاءِ والشِّدَّةِ والخَوفِ. فَفَرَضَ عليهِمُ القِتالَ معهمْ لِيَضْطَرُّوا إلى الإيمانِ، فَيُؤْمِنوا، ويُدِيموا الإيمانَ.

ومُنْذُ فَرَضَ القِتالَ مَعَهُمْ كَثُرَ الإسلامُ، فَدَخَلوا فيهِ فَوجاً فَوجاً، وإنْ [كانوا قَبْلَ ذلكَ يَدْخُلونَ][8] فيه واحداً واحداً.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ قالَ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فإنما أخْبَرَ عمّا عَرَفوا، وتَقَرَّرَ عندَهُمْ أنَّ كلَّ ذلكَ مِنْ عندِ اللهِ لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: تخافون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لا تخافوا ولكن اتقوا. (٤) من م، في الأصل: غفلة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عن الكشف. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كان قبل ذلك يدخل.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهُما: أنْ يَجعَلوا ما آتاهُمُ اللهُ، وأنْعَم عليهِمْ، سَبَبَ كُفْرِهِمْ باللهِ.

والثاني: يَكْفُرونَ بِنِعَمِ اللهِ تعالى بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ وصَرْفِهِمُ الشكرَ عنهُ.

ويُشْبِهُ أن يكونَ إخبارُهُ عن سَفَهِهِمْ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ؛ وهو أنهمْ لم يَرَوا في البَشَرِ أحداً، يُطاعُ، ويَخضَعُ [إليه][1] إلاّ أحدَ رجلَينِ: دافعُ بَلاءٍ عنهُ أو جارٌّ نَفعاً[2] إليهِ. فالأصنامُ التي عبدوها ليسَ منها دَفْعُ بلاءٍ ولا جَرُّ مَنْفَعَةٍ. فلماذا يَعْبُدُونَها؟ وقالَ أبو بَكْرٍ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي بالقرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وَعيدٌ مِنَ اللهِ. ثم يقولُ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يُنْزِلُ بكمْ بِكُفْرانِ[3] نِعَمِهِ وصَرْفِ الشكرِ عنهُ أنهُ مُهلِكُكُمْ ومُنْزِلٌ بكُمْ عذابَهُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي تَتَضرَّعونَ، مَوعِظَةٌ للمؤمنينَ أيضاً لأنهمْ يَجْعَلونَ تَضرُّعَهُمْ[4] إلى اللهِ إذا أصابَهُمُ الضُّرُّ والبَلاءُ، وإذا انْكَشَفَ ذلكَ عنهمْ تَرَكوا ذلكَ التَّضَرُّعَ، أي تَعْلَمونَ أنَّ ما ﴿بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ فكيفَ تَصْرِفونَ شكرَها إلى غَيرِهِ في حالٍ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي يقولونَ: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مِنَ الأنعامِ والحَرْثِ وغيرِهِ الذي جَعَلَ اللهُ لهمْ، ولا يَعْلَمونَ لهمْ نصيباً في ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] حَرَّمُوا على أنفُسِهِمْ ما جَعَلَ اللهُ لهمْ، وجَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ وهو الشيطانُ؛ أي ما يَجعلونَ للأوثانِ فذلكَ للشيطانِ في الحقيقةِ؛ هو الذي أَمَرَهُمْ بذلكَ، وهو الذي دعاهُمْ إلى ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادةِ الشيطانِ، لكنهمْ إذا عَبَدوا الأوثانَ كأنهمْ[5] قد عَبَدوا الشيطانَ لأنهُ هو أمَرَهُمْ بذلكَ، وهو دَعاهُمْ إلى ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ ما يَجْعَلونَ للأوثانِ ذلكَ للشيطانِ لِما ذَكَرْنا، لكنْ لا يَعْلَمونَ أنَّ ذلكَ، لهُ نَصيبٌ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ أي يَعْلَمونَ أنْ ليسَ لها نصيبٌ في ذلكَ، ولكنْ يَجعلونَ ذلك لها على عِلْمٍ منهمْ، أي لا نَصيبَ للأوثانِ في ذلكَ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أي أتنبئونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ أنهُ ليسَ ونَحْوَهُ، أي يَعْلَمُ غيرَ الذي تُنَبِّئونَ، وقد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ على القَولِ أي ويَقولونَ، وإلاّ لا يَمْلِكونَ جَعْلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تَسمِيَتَهُمُ الأصنامَ آلِهةً.

ويَحتَمِلُ افْتِراؤُهُمْ على اللهِ ما قالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] زَعَموا أنهُ فِعْلُ آبائِهِمْ، وفِعْلُهُمْ[6] كانَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ ورِضاهُ حينَ[7] تَرَكَهُمْ على ذلكَ. فذلكَ افْتِراؤُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يَحتَمِلُ السؤالُ الجزاءَ؛ أي تاللهِ لَتُجْزَوُنَّ ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ويَحتَمِلُ السؤالُ [سؤالَ][8] حُجَّةٍ [أي يُسألونَ][9] على ما ادَّعَوا على اللهِ مِنَ الأمْرِ الحُجَّةَ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَٰتِ﴾ أي يقولونَ: للهِ البناتُ؛ يُخْبِرُ عن شِدَّةِ سَفَهِهِمْ/ ٢٨٦ ـ ب/ حينَ[10] يأنَفونَ، ويَسْتَحْيُونَ مِنَ البناتِ، ثم يَنْسِبونَ ذلكَ إلى اللهِ، ويُضيفونَها إليهِ. يُصَبِّرُ رسولَهُ على أذى الكَفَرَةِ حينَ[11] قالوا فيهِ ما قالوا: إنهُ ساحِرٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، ونَحْوَهُ، على عِلْمٍ منهمْ ويَقينٍ أنهُ ربُّهُمْ وخالِقُهُمْ. فَمَنْ أنْكَرَ رسالتَهُ أولى بالصَّبْرِ على قولِهِ والحِلْمِ منْهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: نفع. (٣) في الأصل وم: من كفران. (٤) في الأصل وم: يتضرعون. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: وفعلوهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ليسألون. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث.

[وقولهُ تعالى](1): ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ كلمةُ تنزيهٍ عمَّا قالوا فيهِ، وحرْفُ تعجيبٍ حينَ(2) نَسَبُوا إلى اللهِ ما يَكْرَهونَ لأنفسِهِمْ.

الآية ٥٨ وقولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُ العرَبِ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ، و: سَوَّدَ اللهُ وَجْهَكَ، ليسَ على إرادةِ السوادِ والقُبْحِ، ولكنْ على إرادةِ ما يَكْرَهُونَ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ أي مُتَغَيِّراً مِنَ الغَمِّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي حَزِينٌ، وهكذا العُرْفُ في الناسِ أنهُ إذا اشْتَدَّ بهمُ الحُزْنُ والغَمُّ يَظْهَرُ ذلكَ في وجوهِهِم قُبْحاً وسَواداً.

الآية ٥٩ [وقولهُ تعالى](3): ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يَذْكُرُ فيهِ كيفَ يَصْنَعُ بِهِ؟ أيُمْسِكُهُ على هَوانٍ، يَضُرُّ بِهِ، ويُسِيءُ صُحْبَتَهُ ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ وهو حَيٌّ، فيقولُ: إنَّ رَبِّي اختارَ البَناتِ، فأبْعَثُ بها إلى رَبِّي، فإنهُ أحَقُّ بها. وهي(4) المَوؤودةُ التي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨] وإنما كانوا يَصْنَعونَ ذلكَ خَشْيَةَ إملاقٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ في جَعْلِهِمْ لِلَّهِ ما كَرِهوا لأنفُسِهِمْ أو في قولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف: ٢٨] أو في قولِهِمْ: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٦] ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي جَزاءُ السَّوءِ، وهو النارُ.

وقالَ الحَسَنُ ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أي صِفَةُ السَّوءِ التي وَصَفوا بها رَبَّهُمْ أنهُ اختارَ البَناتِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أي الصِّفَةُ الأعْلَى التي ليسَ لَها شَبَهٌ، فإنَّ تلكَ الصِّفَةَ، هي صِفَتُهُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ لهمْ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ بما سمَّاهُمْ مَرَّةً مَوتَى ومَرَّةً فَسَقَةً ومَرَّةً هم في الظلماتِ وأمثالَهُ. [وَصَفَهُمْ بِتِلْكَ الأوصافِ](5) بِما أنْكَروا الآخِرَةَ؛ وذلكَ ممَّا توجِبُ الحِكْمَةُ والعَقْلُ والشَّريعةُ، فَلَهُمْ ذلكَ الوصفُ والمَثَلُ السَّوءُ بما أنْكَروا ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ والعَقْلُ والشَّريعةُ.

ويَحْتَمِلُ مَثَلُ السَّوءِ النَّعْتَ والصِّفَةَ. فإنْ كانَ هو، هو على الشَّبَهِ، فهو في الدنيا لِما شَبَّهَهُمْ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ بالشجرةِ الخبيثةِ وبالرَّمادِ والزَّبَدِ والترابِ ونَحْوِهِ. وإنْ كانَ على النَّعْتِ والصفةِ فهو في الآخرةِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أي لأولياءِ اللهِ المَثَلُ الأعلَى، وهُمُ المؤمنونَ لِما أنَّ اللهَ وَصَفَ المؤمنينَ بالحياةِ والنورِ والعَدْلِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأسماءِ الحَسَنَةِ، وذلكَ للهِ في الحقيقةِ. لكنَّهُ بِفَضْلِهِ ومَنِّهِ وَصَفَهُمْ، وسَمَّاهُمْ بذلكَ، فأُضيفَ إلى اللهِ لِما بِفَضْلِهِ اسْتَوجَبوا لا باسْتِحْقاقِ أنفسِهِمْ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أُضيفَ ذلكَ إليهِ، بِفَضْلِهِ يَسْتَوجِبونَ تلكَ الأسماءَ التي سَمَّاهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أي لأولياءِ اللهِ المَثَلُ الأعلَى؛ كأنهُ قالَ: لِلذينَ يؤمنونَ بالآخِرةِ المَثَلُ الأعلَى مُقابِلَ ما ذَكَرَ حينَ(6) قالَ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ بالغَلَبَةِ منهُ في الأشياءِ كلِّها على أمْرِهِ(7)، وكلُّ شيءٍ دونَهُ ذليلٌ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ بالعَدْلِ منهُ في كلِّ قضاءٍ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ. وقولُهُ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في هذا الموضِعِ كأنهُ قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ بنفسِهِ لا بِخَلْقِهِ وأوليائِهِ كما يكونُ لِملوكِ الأرضِ؛ يكونُ عِزُّهُمْ بِخَدَمِهِمْ وحَشَمِهِمْ، فإذا ذهبوا، أو عَصَوهُ، يَصيرُ مَقْهوراً مَغلوباً. فأمَّا اللهُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: لهم ذلك الوصف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: ما.

ﷻ فهو[١] عزيزٌ بذاتِهِ. و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي إنشاؤهُ العُصاةَ منهمْ على علمٍ منهُ بذلكَ، لم يَخْرُجْ ذلكَ على غيرِ الحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ دَلَّ قولُهُ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ أنَّ لهُ أنْ يَسْتَأْصِلَهُمْ، ويُهْلِكَهُمْ بما كانَ منهمْ، لكنهُ بفضلِهِ تَرَكَهُمْ إلى المُدَّةِ التي لهمْ، لأنهُ لو لم يكُنْ لهُ ذلكَ لم يكُنْ لِلْوَعيدِ الذي أوعَدَ مَعْنًى.

وقالَ أبو زَيْدٍ البَلْخِيُّ: إنَّ اللهَ بما أوعَدَ مِنَ الوَعيدِ ليسَ يُوعِدُ لِمَضَرَّةٍ نفسِهِ ولا لِنَفْعٍ يَصِلُ إليهِ، ولكنْ يُوعِدُ بما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ. فَدَلَّ أنَّ الوعيدَ لازمٌ واجبٌ، ونحنُ نقولُ: [يُوعِدُ][٢] بما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ، وقد أمْهَلَهُمْ بَعْدَ الوَعيدِ. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ النارِ بَعْدَ ما أدخلَهُمُ النارَ بما ارْتَكَبُوا مِنَ الكبائرِ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ الآيةَ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: ليسَ للهِ أنْ يُهْلِكَ قوماً، قدعَلِمَ منهمُ الإيمانَ في وَقْتٍ، أو يكونُ في أصلابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ؛ إذ قد كانَ مِمَّنْ أوعَدَ ذلكَ الوعيدَ مِنْ بعضِهِمُ الإيمانُ، أو في أصلابِهِمْ مَنْ قد آمَنَ، فَدَلَّ الوعيدُ لهمْ أنهُ قد يُهْلِكُ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُؤْمِنُ في آخِرِ عُمُرِهِ؛ إذ لا يُوعِدُ إلّا بمالَهُ أنْ يَفْعَلَ، لكنهُ بِفَضْلِهِ أخَّرَهُ إلى وَقْتٍ دلالةً أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ بما ليسَ ذلكَ باصْلَحَ لهمْ في الدينِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا لِلْكَفَرَةِ خاصةً، وقالَ بعضُهُمْ: لهمْ وللمؤمنينَ ولكلِّ[٣] مُرْتَكِبِ زَلَّةٍ؛ إذ ما مِنْ أحدٍ ارْتَكَبَ زَلَّةً إلّا وقدِ اسْتَوجَبَ العقوبةَ [والمُؤاخَذَةَ بها][٤] لكنه بِفَضْلِهِ عَفا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالدابَّةِ الدابَّةَ التي خَلَقَها لهمْ، إذا أهْلَكَ الناسَ فقد أهْلَكَ الدوابَّ؛ إذْ خَلْقُهُ إياها لهمْ. وقالَ بعضُهُمْ قولُهُ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي على ظَهْرِ الأرضِ من دابَّةٍ لأنَّ الدوابَّ إنما تعيشُ بالذي يعيشُ الناسُ، فإذا هَلَكُوا هُمْ هَلَكَتِ الدوابُّ أيضاً، لِما ذَهَبَ سَبَبُ عيشِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بالدابَّةِ البشَرَ، أي ما تَرَكَهُمْ بِظُلْمِهِمْ، ولكنْ يُهْلِكُهُمْ، وسَمّاهُمْ دابَّةً [لأنهُ ذكَرَهُمْ][٥] في مَوضِعِ الظُّلْمِ. وإنْ كانَ سَمّاهُمْ في غَيْرِ مَوضِعٍ بالأسماءِ الحَسَنَةِ فقدْ[٦] سَمّاهُمْ في مَوضِعٍ آخَرَ دابَّةً حينَ[٧] قالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦] ولا شَكَّ أنَّ ا لبَشَرَ دَخَلُوا في هذِهِ التسميَةِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ دخولُهُمْ في الأُخرَى؛ فإنْ كانَ المُرادُ ما ذُكِرَ مِنَ الدابَّةِ البَشَرَ والأنبياءَ والرُّسُلَ، فإنما يكونُ هَلاكُهُمْ بِقَطْعِ نَسْلِهِمْ لأنَّ الأنبياءَ، أكثرُهُمْ وُلِدوا مِنَ الآباءِ الظَّلَمَةِ، فإذا أهلِكَ آباؤُهُمْ لم يُولَدِ الرسلُ والأنبياءُ، فيكونُ هَلاكُهُمْ لا بِظُلْمِ هؤلاءِ، ولكنْ بِقَطْعِ النسلِ، وإنْ كانَ المُرادُ بتلكَ الدابَّةِ الدوابَّ نفسَها، فَلِأنَّ الدوابَّ إنما أُنْشِئَتْ للبَشَرِ ولِمنافِعِهِمْ، فإذا أُهْلِكَتِ [الدابَّةُ: البَشَرُ][٨] أُهْلِكَ المُنْشَأُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ دلالةُ [نَقْضِ][٩] قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: يَجْعَلُ اللهُ لِلْخَلْقِ أجلاً، ثم يَجيءُ كافرٌ، فَيَقْتُلُهُ دونَ بلوغِ الأجَلِ الذي جَعَلَهُ اللهُ حينَ[١٠] أخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ بعدَ الأجَلِ المَضْروبِ لهمْ ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ قَبْلَ ذلكَ. وهُمْ يقولونَ: بل يَسْتَقْدِمُهُ كافرٌ، فَيَقْتُلُهُ، فذلكَ سَرَفٌ في القولِ.

وهذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: لا يَتَأخَّرُ الأجَلُ الذي جَعَلَ لهمْ ساعةً، ولا يَتَقَدَّمُ عنْ ذلكَ.

والثاني: لا يُجابُ في التأخيرِ ولا في التقديمِ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بذلك والمؤاخذة به. (٥) في الأصل وم: لأنه إذا ذكر. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الاصل وم: الدواب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ﴾ كانوا يَجْعَلونَ للهِ أشياءَ، يَكْرَهونَها[1] لأنفُسِهِمْ مِنْ نَحْوِ البَناتِ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] ويَكْرَهونَ لأنفُسِهِمُ البناتِ، ويَجْعلونَ ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠ والرعد: ٣٣] مِنْ عَبيدِهِ، وهُمْ كانوا يَكْرَهونَ لأنفسِهِمُ الشركاءَ مِنْ عَبيدِهِمْ.

وأمثالُهُ/ ٢٨٧ ـ أ/ كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨] يُخْبِرُ ﷻ عَنْ سَفَهِهِمْ وسَرَفِهِمْ في [ما][2] يُخْبِرُ عَنْ حِلْمِهِ حينَ[3] لم يَسْتَأْصِلْهُمْ، ولم يُهْلِكْهُمْ، بِما قالوا في اللهِ مِنْ عظيمِ القولِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ لِيُعْلَمَ أنَّهُ يُمْهِلُهُمْ [لا][4] لِغَفْلَةٍ ولا سَهْوٍ، ولكنْ بِحِلْمٍ، لأنَّ حِلْمَ[5] الخَلْقِ في ذاتِ اللهِ، ولا يَعْجَلُ بالعقوبةِ؛ إذْ لو أرادَ إهلاكَهُمْ لأهْلَكَهُمْ ساعةَ قالوا ذلكَ، ولا يُمْهِلُهُمْ يَعيشونَ، لكنْ أخَّرَ لذلكَ اليومِ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي يَجْعَلونَ لأولياءِ اللهِ ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفُسِهِمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ لهمُ الحُسْنَى في الآخِرَةِ، وهي الجنةُ، وإنَّ للمؤمنينَ النارَ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: يقولونَ: إنَّا [على][6] دينِ اللهِ، وعلى الحَقِّ بعبادَتِنا، ويقولونَ: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يَعْنونَ البنينَ، لأنهمْ كانوا يُضيفونَ البناتِ إلى اللهِ، ويَنْسِبونَ البَنينَ إلى أنفسِهِمْ، فذلكَ الحُسْنَى الذي ذَكَروا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنةَ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

ثم كذَّبَهُمْ في قولِهِمْ، فقالَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ليسَ لهمُ الحُسْنَى على ما زَعَموا، ولكنِ النارُ. وقد ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ في ما تَقَدَّمَ[7].

كانَ أهلُ الكفرِ فِرَقاً: منهمْ مَنِ ادَّعَى الاشْتِراكَ في نِعَمِ الآخِرَةِ كما كانَ [لَهُمْ][8] اشْتِراكٌ في نِعَمِ الدنيا كقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

ومنهمْ مَنِ ادَّعَى الآخِرَةَ لأنفسِهِمْ كما كانَتْ لهمُ الدنيا. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ همُ الذينَ ادَّعَوا الحُسْنَى، وهي الجَنَّةُ، لأنفسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ هو مِنَ الفَرَطِ، وهو السَّبْقُ والتَّقَدُّمُ، كأنَّ الآيةَ في الرؤساءِ؛ أخْبَرَ أنهمْ سابِقو أتباعِهِمْ إلى النارِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩] الأُولى همُ المَتْبوعونَ، وأُخراهُمُ الأتباعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: مُعَجَّلونَ إليها بَيْنَ يَدَي أتباعِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي مُتْرَكونَ مَنْسِيُّونَ في النارِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ مُبْعَدونَ عَنْ رحمةِ اللهِ.

لكنَّ هذينِ ليسَا بِتَأويلِ الآيةِ، إذْ كُلُّ مَنْ في النارِ، فهو مَنْسِيٌّ، مَتروكٌ فيها، مُبْعَدٌ عَنْ رَحمةِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُدْخَلونَ فيها. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا القَسَمُ منهُ ابْتِداءً. لكنْ كأنهُ عَنْ إنكارٍ كانَ منهمْ للرسالةِ، فعندَ ذلكَ أقْسَمَ بِقولِهِ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وأكَّدَ بما أنكروا الرسالةَ بالقسمِ الذي ذكرَ، فقالَ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾. يا محمدُ.

وقولُهُ[9]: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناكَ إلى [أُمَّتِكَ][10] ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ كما زَيَّنَ لأُمَّتِكَ. ﴿فَهُوَ﴾ كانَ ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ يومئذٍ كما هو وَليٌّ لأُمَّتِكَ اليومَ. يُصَبِّرُهُ.

---

(١) في الأصل وم: يكرهون ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحلم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) كان ذلك في تأويل قوله تعالى﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقولُ: ليسَ هؤلاءِ بأوّلِ مَنْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ، ولكنْ كانَ في الأمَمِ الماضيةِ مَنْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ، فَيُكَذِّبونَ رسلَهُمْ. فَلَسْتَ أنتَ بأوّلِ مُكَذَّبٍ، بل كانَ لكَ شُركاءُ في التكذيبِ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا لأنَّ الدنيا هي دارُ الوَلايَةِ بَيْنَهُمْ كقولِهِ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١ و . . .] وقولِهِ: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأمّا في الآخِرَةِ فيصيرونَ أعداءً كقولِهِ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] وقولِهِ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ الآيةِ [ق: ٢٧] ونحوَهُ.

ولا يُحتَمَلُ أنْ يكونوا أولياءَ في الآخِرَةِ؛ ثُمَّ يَلْعَنُ بعضُهُمْ بَعْضاً، ويَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ فذلكَ علامةُ العداوةِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ في الآخِرَةِ، أي أولى بهمْ، فَيُقْرَنُ[1] بهمْ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي صاحِبُهُمْ كقولِهِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ الكتبَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ، لأنهمُ اختلَفوا في كُتُبِهِمْ؛ فمنهُمْ مَنْ بَدَّلَ، ومنهُمْ مَنْ غَيَّرَ، وحَرَّفَ. فيقولُ، واللهُ أعلمُ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في كتبِهِمْ لأنَّ هذا الكتابَ، أنزلَهُ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يديهِ مِنَ الكتبِ[2]. يُبَيِّنُ هذا الكتابُ ما اختلَفوا في كُتُبِهِمْ[3] الحقَّ مِنَ الباطلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في الرسلِ والأديانِ وفي[4] المُنْزَلِ عليهِ؛ اختلَفوا في ذلكَ كلِّهِ، فَبَيَّنَ[5] لهمُ الحقَّ مِنَ الباطلِ في جميعِ ما اختلَفوا فيهِ بالكتابِ الذي أُنزِلَ عليهِ؛ إذْ فيهِ أنباءُ الأممِ الماضيةِ، وهو لم[6] يَشْهَدْها، ولم يَخْتَلِفْ إلى مَنْ يُخبِرُهُ عنها، ثم أنبأهُمْ على ما كانتْ، فَدَلَّ أنهُ إنما عَرَفَ [ذلكَ باللهِ، ومنهُ نَزَلَ ذلكَ][7].

وفيه دلالةُ أنَّ الحوادثَ التي عَلِمَ اللهُ أنهمْ يُبْتَلَونَ بها إلى يومِ القيامةِ أنهُ جَعَلَ لهمْ سَبيلَ الوُصولِ إلى بيانِها في الكتابِ إمّا بيانَ كِنايةٍ وإمّا بيانَ تَصْريحٍ حينَ[8] قالَ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ حينَ[9] لم يَدَعْهُمْ في الاختلافِ وعلى غيرِ بيانٍ. فَعَلَى ذلكَ حينَ عَلِمَ أنهمْ يُبْتَلَونَ بالحوادثِ التي ليسَ لها منصوصٌ في الكتابِ، ولا يُحتَمَلُ ألّا يُبَيِّنَ لهمْ ذلكَ، ويَدَعَهُمْ حيارَى. لكنَّ البيانَ على وجهَينِ: بيانُ تصريحٍ يُعقَلُ بَديهةً بالعقلِ، وبيانُ كِنايةٍ يُدْرَكُ بالنَّظَرِ والتأمُّلِ والاستِدلالِ.

وأصلُهُ في قولِهِ: ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي إلا لِتُبَيِّنَ لهمُ الحقَّ في ما اختلَفوا فيهِ لأنهمُ اختلَفوا في الحقِّ في ذلكَ، لأنَّ كلَّ فريقٍ منهمُ ادّعى أنهُ هو المُحِقُّ، وأنَّ الذي هو عليهِ الحقُّ، وأنَّ غيرَهُ على باطلٍ.

فأخبرَ أنهُ أنزَلَ الكتابَ عليهِ لِيُبَيِّنَ لهمُ الحقَّ في ما اختلَفوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى رسولَهُ وكتابَهُ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهمْ آمَنوا بهما، وصَدَّقوا بهما، وقَبِلوهُما، فصارَ ذلكَ لهمْ هُدًى ورَحْمَةً ونوراً. وأمّا مَنْ كَذَّبَهُما، ولم يَقْبَلْهُما فهو عذابٌ عليهمْ وعَمًى، وهو كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ الآيةَ [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] وهو ما ذَكَرَ، وهو عليهِمْ عَمًى.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يذكُرُ ﷻ قُدرَتَهُ وسُلطانَهُ حينَ[10] أخبرَ أنهُ يُنَزِّلُ مِنَ السماءِ ماءً، فيُحْيي بهِ الأرضَ، وهي ميتةٌ، ويُخرِجُ منها نَباتاً وزروعاً وأشجاراً. فَمَنْ قَدَرَ على هذا [فهو قادرٌ][11] على إحياءِ الأرضِ بَعْدَ مَوتِها؛ إنهُ لا فَرْقَ بَيْنَ الإحياءَينِ: الأنفُسِ [والنباتِ][12]. فَمَنْ قَدَرَ على أحدِهِما قَدَرَ على الآخَرِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في ما ذَكَرَ ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المواعِظَ.

---

(١) في الأصل وم: فيقرون. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) في الأصل وم: كتابهم. (٤) الواو ساقطة في الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يبين. (٦) في الأصل وم: له. (٧) في الأصل ذلك، في م: بالله ومنه نزل ذلك. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لقادر. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآياتِ والحُجَجَ. وأمَّا مَنْ لم يَسْمَعْ فلا يكونُ لهُ آيةٌ.

وأصْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يَنْتَفِعونَ بِسماعِهِمْ، و﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧] أي يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ.

وأصْلُهُ أنَّ هذا كلَّهُ، يصيرُ آيةً للمؤمنينَ على ما ذَكَرَ كلَّهُ، لأنهمْ همُ العاقِلونَ عنِ اللهِ: ما أمَرَهُمْ بِهِ، ونهاهُمْ عنهُ، وهُمْ يَسْمَعونَ آياتِهِ ومَواعِظَهُ. وكلُّهُ كِنايةٌ عنِ المؤمنينَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ والعِبْرَةُ الآيةُ، أي أنشأَ لَكُمْ أنعاماً [فيها الآيةُ، وهو][1] صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي أنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً، وأنشأَ الأنعامَ، لكُمْ فيهِ الآيةُ؛ أنشأَ، جَلَّ، وعَلا، في الأنعامِ لَبَناً غِذاءً لأولادِها[2] في الوقتِ الذي لا تَحْتَمِلُ الغِذاءَ بالعَلَفِ، وجَعَلَ لأربابِها الانتِفاعَ بذلكَ اللبنِ [وفي الأشياءِ][3] التي لا يُؤْكَلُ لحمُها لم يَجْعَلْ لأربابِها الانتِفاعَ بما يَفْضُلُ مِنَ اللبنِ، لم يَجْعَلْ لها فَضْلَ لَبَنٍ/ ٢٨٧ ـ ب/.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ذَكَرَهُ بالتذكيرِ. فظاهِرُهُ أنْ يُذْكَرَ بالتأنيثِ، لأنهُ إنما يريدُ بهِ الأمهاتِ التي يَدُرُّ منها اللَّبَنُ، أو جماعةً مِنَ الذُّكْرانِ منها. فكيفَ ما كانَ فهو يُذْكَرُ بالتأنيثِ، لكنَّ بعضَهُمْ يقولونَ: ذَكَرَ باسْمِ التذكيرِ على إرادةِ الأصلِ الذي بِهِ كانَ اللبنُ، وهو الفَحْلُ.

وهذا يَدُلُّ إلى أبي حنيفةَ وأصحابِهِ، رَحِمَهُمُ اللهُ، لِقَولِهِمْ في لَبَنِ الفَحْلِ: إنهُ يُحَرِّمُ.

وقالَ بَعضُهُمْ: ذَكَرَ باسْمِ التذكيرِ على إرادةِ الجِنْسِ والجَوهَرِ مِنْ بَينِ الأجناسِ والجواهِرِ دونَ العَدَدِ والجَماعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما معْنَى اسْتِخراجِ اللبنِ مِنْ بَينِ فَرْثٍ ودَمٍ؛ وذلكَ أنَّ العَلَفَ إذا وَقَعَ في الكَرْشِ، فَيَجْعَلُ الفَرْثَ أسْفَلَهُ، والدَّمَ أعلاهُ، واللَّبَنَ بينَ ذلكَ، ثم يُسَلَّطُ الكبدُ عليهِمْ، فَيُجْلي الدمَّ في العروقِ، واللَّبَنَ في الضَّرْعِ، ويَبْقَى الفَرْثُ في الكَرْشِ كما هو.

وقالَ بَعْضُ الفلاسِفَةِ: إنَّ العَلَفَ إذا وَقَعَ فيهِ يَصيرُ منهُ فَرْثاً، ثم يَصيرُ منهُ دماً، ثم يَصيرُ لَبَناً خالصاً، فهو كالنُّطْفَةِ التي وَقَعَتْ في الرَّحِمِ تَصِيرُ عَلَقَةً، ثم تَصيرُ مُضْغَةً مَأكولةً. فَعَلَى ذلكَ اللبنُ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ بعضُ الفلاسفةِ: إنَّ العَلَفَ، يَصيرُ فَرْثاً ثم دماً لَبَناً، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَجْرَى اللَّبَنِ بَينَ ما ذَكَرَ مِنَ الفَرْثِ والدَّمِ. فأيُّ الوَجْهَينِ كانَ، فيهِ اللُّطْفُ الذي ذَكَرْنا. وَوَجْهُ ذِكْرِ هذا، واللهُ أعْلَمُ، على الامْتِنانِ.

الآية ٦٧ وكذلكَ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ أنهُ بِلُطْفِهِ أخرَجَ اللَّبَنَ الصافيَ أصفَى الأشياءِ والْطَفَها[4] مِنْ خُبْثِ الأشياءِ وأكْدَرِها[5] في رأيِ العَينِ.

فَمَنْ قَدَرَ على حِفْظِ هذهِ الأشياءِ ممَّا ذَكَرَ بلا حِجابٍ، يُدْرَكُ، أو حاجِزٍ، يُعْرَفُ، [فهو قادرٌ][6] على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ؛ لأنَّ الخلائقَ، لوِ اجْتَمَعوا على أنْ يُدْرِكوا[7] السببَ الذي بِهِ كانَ حِفْظُ هذا مِنْ هذا أوِ امْتِناعُهُ عنِ الخَلْقِ بالخُبْثِ ما أدْرَكوا ذلكَ.

وكذلكَ ما يَخْرُجُ مِنَ النخيلِ والكُرومِ الثمراتُ الطَّيِّبةُ والأعنابُ الحُلْوَةُ مِنْ غَيرِ أنْ يُرَى أثَرُ ذلكَ فيها، ومِنْ غَيرِ أنْ يُدْرِكوا السببَ الذي كانَ بِهِ الأعنابُ والثمراتُ. دَلَّ أنهُ قادرٌ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شَيءٍ، إذْ هي خَشَبَةٌ يابسةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: السَّكَرُ ما يَحْرُمُ منهُ، والرزقُ ما يُؤْكَلُ تَمراً وزبيباً ونَحْوَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: السَّكَرُ خَمْرُ الأعاجِمِ، والرزقُ الحَسَنُ ما يُنْبَذُونَ، ويُخَلِّلونَ، ويأكلونَ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ أنهُ حَرَّمَ السَّكَرَ، ولم يُفَسِّرِ الآيةَ. وفي الأخبارِ أنهُ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليَمَنِ، وأمَرَهُ أنْ يَنْهاهُمْ عَنْ نَبيذِ السَّكَرِ.

---

(١) في الأصل وم: فيه الآية هو. (٢) في الأصل وم: الأولاد. (٣) في الأصل وم: في الأشياء. (٤) في الأصل وم: وألطفه. (٥) في الأصل وم: واكدره. (٦) في الأصل وم: لقادر. (٧) من م، في الأصل: يدرك.

وعنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][1] قالَ «إنَّ أولادَكُمْ على الفِطْرةِ فلا تَسْقُوهُمُ السَّكَرَ، فإنَّ اللهَ تعالى لم يَجْعَلْ في حرامٍ شِفاءً» [بنحوه البيهقي في الكبرى ١٠/ ٥] وليسَ بَينَ فُقهاءِ الأمصارِ في تحريمِ السَّكَرِ وفَضيحِ البُسْرِ ونَقيعِ الزَّبيبِ إذا أَسْكَرَ كثيرُها، ولم يُطْبَخْ، اختِلافٌ أنها حرامٌ. وقد ذَكَرْنا هذا في سورةِ البقرةِ[2].

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [في ما][4] ذَكَرَ ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ: الفَرْثُ ما في الكَرْشِ، لأنَّ اللَّبَنَ كانَ طعاماً، فَخَلَصَ مِنْ ذلكَ الطعامِ دَمٌ، وبَقِيَ منهُ فَرْثٌ في الكَرْشِ، وخَلَصَ مِنَ الدَّمِ لَبَناً سائغاً أي سَهْلاً في الشُّرْبِ، لا يَشْجَى بِهِ شارِبُهُ، ولا يَغَصُّ، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: أَسَغْتُهُ، أي أدخلتُهُ في حَلْقي حَمْلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أي تَتَّخِذونَ منهُ ما يَحرُمُ أكلُهُ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ما يَحِلُّ[5] منهُ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الآية [يونس: ٥٩] أو يُخَرَّجُ على تذكيرِ النِّعَمِ في الوقتِ الذي كانَ السَّكَرُ حَلالاً، أي ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ما تَشْرَبُونَ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ سِوَى الشراب.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. قالَ بعضُهُمْ: أوحَى أي[6] قَذَفَ في قلوبِها أنِ افْعَلي ما ذُكِرَ. والوَحْيُ هو القَذْفُ، سُمِّيَ بذلكَ لِسُرْعَةِ وقوعِهِ ونَفاذِهِ في القُلوبِ مِنْ غَيرِ أنْ يَشْعُرَ المُلْقَى فيهِ والمَقْذوفُ في قَلْبِهِ أنَّ أحداً فَعَلَ ذلكَ، وألقاهُ فيهِ؛ وهو ما مَكَّنَ اللهُ للشيطانِ مِنَ الوَسْوَسَةِ في القُلوبِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ المُوَسْوَسُ إليهِ والمَقْذوفُ في قَلْبِهِ أنَّ أحداً دَعاهُ إلى ذلكَ، أو زَيَّنَهُ إليهِ[7]، وكذلكَ ما يُلْهِمُ الملائكةُ بني آدمَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَموا[8] أنَّ أحداً دَعاهُمْ[9] إلى ذلكَ، أو ألقاهُ في قلوبِهِمْ.

فهذا كُلُّهُ يَرُدُّ على مَنْ يُنْكِرُ الشيطانَ والملائكةَ، وهُمْ طائفةٌ مِنَ المُلْحِدَةِ؛ يقولونَ: إنَّ الشَّهواتِ والأمانِيَّ التي جُعِلَتْ في أنفسِهِمْ هي التي تَحُثُّهُمْ[10]، وتُهَيِّجُهُمْ على ذلكَ لا الشيطانُ. فيُقالُ لهمْ: إنَّ الإنسانَ قد ينالُهُ أشياءُ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منهُ تَفَكُّرٌ في ذلكَ أو أمانِيُّ أو سابِقُ تدبيرٍ، فذلكَ يَدُلُّ أنَّ غيراً ألقَى ذلكَ في قلبِهِ، وقَذَفَهُ[11] لا عملَ الأمانِيِّ والشَّهَواتِ، وهذا أيضاً يدلُّ على لُطْفِ اللهِ في البَشَرِ أنهُ يوفِّقُهُمْ على الطاعاتِ، ويَحُثُّهُمْ عليها مِنْ غَيرِ أنْ [يَعْلَموا أنَّ لِغَيرٍ][12] في ذلكَ صُنْعاً. وكذلكَ الخِذْلانُ في المعاصي وأنواعِ الأجرامِ التي يَكْتَسِبونَها.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أيِ النَّحْلِ وغيرِها مِنَ البهائِمِ وجهَينِ:

أحدُهما: يَحْتَمِلُ أنهُ أنْشَأَ هذهِ البهائمَ على طَبائِعَ تَعْرِفُ بالطبعِ مَصالِحَها ومَهالِكَها ومَعاشَها وما بهِ قِوامُ أبدانِها وأنفُسِها وما بهِ فَسادُها وصَلاحُها مِنْ غَيرِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ أحداً يَدْعوها[13] إلى ذلكَ أو يشيرُ إليها أو يأمُرُ، وينْهَى. لكنها[14] بالطبعِ تَعْرِفُ ذلكَ، وتَعْلَمُ [أشياءَ تَعْلَمُها][15] بالطبائِعِ مِنْ غَيرِ أنْ تَعْلَمَ أنَّ أحداً عَلَّمَها[16] ذلكَ مِنْ نَحْوِ الوَزِّ يَسْبَحُ في الماءِ بالطبعِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ [أنهُ يَسْبَحُ][17]. وكذلكَ الطيرُ الذي يَطيرُ في الهواءِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ بالطيرانِ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ فَهْمُ هذهِ البهائِمِ وعِرْفانُها ما ذَكَرْنا مِنَ المَصالِحِ والمَهالِكِ مِنْ غَيرِ أنْ تَعْلَمَ أنها تَعْرِفُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ خَلَقَ[18] هذهِ الأشياءَ بالذي تَقِفُ[19] على المُخاطباتِ والأمرِ والنَّهْيِ، وتَعْرِفُ[20] ذلكَ ما لا يَعْرِفُ مِثْلَهُ البَشَرُ.

ألا تَرَى أنَّ البَشَرَ لا يَعْرِفُ المَهالِكَ والمَصالِحَ إلَّا بالتَّعَلُّمِ؟ والبهائِمُ، وإنْ صَغُرَ [حَجْمُها، تَعْرِفُ ذلكَ][21] حتى تَتَوَقَّى المَهالِكَ، وتَرْغَبَ[22] في المَصالِحِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) وذلك في تفسير الآية: ٢١٩. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) من م، في الأصل: يحمل. (٦) من م، في الأصل: أو. (٧) في الأصل وم: ذلك. (٨) في الأصل وم: علموا. (٩) في الأصل وم: دعاه. (١٠) في الأصل وم: تبعثهم. (١١) في الأصل وم: وقذف. (١٢) في الأصل وم: علموا أن بغير. (١٣) في الأصل وم: يدعوهم. (١٤) في الأصل وم: لكنه. (١٥) في الأصل وم: من نحو أشياء يعلمن أشياء. (١٦) في الأصل وم: علمن. (١٧) في الأصل وم: تسبيح. (١٨) في الأصل وم: خلقه. (١٩) في الأصل وم: يقفون. (٢٠) في الأصل وم: ويعرفون. (٢١) في الأصل وم: ذلك تعرف. (٢٢) في الأصل وم: وترغيب.

ومما يدلُّ أنَّ هذهِ الأشياءَ ممَّا تَفْهَمُ الأمْرَ والنَّهْيَ والمخاطباتِ قولُهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠ و٢١].

ألَا تَرَى أنهمْ فَهِموا الخِطابَ حينَ[1] رَدُّوا عليهِمُ الجوابَ بقولِهِ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾؟ فذلكَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، الوحيُ والقَذْفُ لكلِّ البهائِمِ لا النَّحْلِ خاصَّةً لِمَا ذَكَرْنا مِنْ مَعْرِفَتِها المَهالِكَ والمَصالِحَ وما بِهِ مَعاشُها وغِذاؤُها [وما بِهِ][2] فَسادُها وهَلاكُها حتى تَعْرِفَ[3] ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ تَعْلَمَ.

والبَشَرُ لا يَعْرِفُ إلَّا بالتَّعَلُّمِ، فهو، واللهُ أعلَمُ، لِوَجْهَيْنِ:

أحَدُهما: لِلْمِحْنَةِ: إنَّ البَشَرَ امْتُحِنوا بالتَّعْليمِ، فذلكَ امْتِحانٌ لهمْ. والبهائمُ لا مِحْنَةَ عليهِمْ، فَعَرَفوا ذلكَ على غيرِ تَعَلُّمٍ.

والثاني:[4] : كانَ لِلْبَشَرِ فَضْلُ بَعْضٍ على بَعْضٍ في العِلْمِ بالتَّعَلُّمِ؛ إذِ البهائمُ يَسْتَوي صغيرُها وكبيرُها في مَعْرِفَةِ ذلكَ. وفي بني آدمَ [التَّفاضُلُ والتَّفاوُتُ][5] بالتَّعَلُّمِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: فإذا كانَ البهائمُ كلُّها مُشْتَرِكَةٌ في ذلكَ الإلهامِ والوَحْيِ فما مَعْنَى تَخْصيصِ النَّحْلِ في الذِّكْرِ مِنْ غيرِها مِنَ البهائِمِ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ تَخْصيصُ النَّحْلِ بالذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ/ ٢٨٨ ـ أ/ لِما أنَّ هذهِ الأشياءَ غيرُ النَّحْلِ، لا تُعْطي تلكَ المَنافِعَ التي جُعِلَتْ فيها، ولا تَبْذُلُ لِلْبَشَرِ إلَّا بالرياضةِ. والنَّحْلُ تُعْطي ذلكَ لهمْ، وتَبْذُلُ مِنْ غيرِ تَعَلُّمٍ ولا رياضةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقولُهُ: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [ونَحْوُهما، ظاهِرُهُ أمْرٌ][6] لكنَّ حقيقتَهُ تَمْكينٌ وتَسهيلٌ نَحْوُ قولِهِ: ﴿سِيرُوا۟ فِى﴾ كذا في الظاهرِ أمْرٌ، وفي[7] الحقيقةِ تمكينٌ وتَيسيرٌ.

ثم في هذهِ الآيةِ وفي قولِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ وفي ما سَبَقَ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦] وفي قولِهِ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] دلالةُ قُدْرَتِهِ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ ودلالةُ علمِهِ وتدبيرِهِ، لأنهُ أخرَجَ مِنْ هذهِ الجواهِرِ المُخْتَلِفَةِ أشياءَ مِنْ غيرِ جَوهَرِها وجِنْسِها ما لم يَكُنْ شيءٌ ممَّا أكلَ منها هذهِ البهائمُ مِنَ الجواهِرِ التي أخرَجَ منها، مِنْ نَحْوِ العَسَلِ الذي أخرَجَ مِنَ الفواكِهِ التي أكَلَتْ واللَّبَنِ مِنَ العَلَفِ الذي أكَلَ والعصيرِ والسُّكَرِ والأعنابِ مِنَ الكرومِ، إذ ليسَ شيءٌ خَرَجَ منها مِنْ جِنْسِ ما أكِلَ ولا مِنْ جَوهَرِ ما سُقِيَ.

دلَّ [أنها بِغَيرِ عِلْمٍ قادرةٌ][8] على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ ولا سببٍ.

وفيهِ دلالةُ عِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ وحكمَتِهِ لأنَّ إنشاءَ ذلكَ اللبنِ في البطنِ على غيرِ جوهرِ ما تَناوَلَتْ ومِنْ خِلافِ لونِهِ في تلكَ الظلماتِ، دلَّ أنَّ عِلْمَهُ غيرُ مُقَدَّرٍ بِعِلْمِ الخَلْقِ وأنَّ حِكْمَتَهُ غيرُ مُقَدَّرَةٍ بِحِكْمَةِ الخَلْقِ، وكذلكَ قدرتُهُ غيرُ مُقَدَّرَةٍ بِقُدْرَةِ الخَلْقِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قيلَ: طُرُقَ ربِّكِ ﴿ذُلُلًا﴾ وقيلَ: مُطيعةً، وقيلَ: مِنَ الذُّلِّ أي الرِّفْقِ واللِّينِ كقولِهِ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨] [مِنَ الذُّلِّ][9] ومِنَ الرِّفْقِ واللينِ. وهذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ذَلَّلَتْ سُبُلَ رَبِّها [والثاني:][10] سَهَّلَ السلوكُ فيها حتى تَسْلُكَ كيفَ شاءَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ قيلَ: ممَّا يَبْنونَ، ويُتَّخَذُ مِنَ العَرْشِ، وهو الذي يُتَّخَذُ مِنَ الخَشَبِ. وقولُهُ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: مما. (٣) في الأصل وم: يعرفن. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يتفاضل ويتفاوت. (٦) في الأصل وم: ونحوه ظاهرة. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنه بغير علم قادر. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: و.

تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ قال الحَسَنُ: الشَّهْدُ والعَسَلُ. وقالَ[1] بعضُهُمْ: مُخْتَلِفٌ في الطَّعْمِ، وقيلَ: في الألوانِ: الأبيضِ والأحمرِ والأصفرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ مِنْ كلِّ داءٍ حتى القروحِ وكلِّ شيءٍ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ مِنْ داءٍ دونَ داءٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني في القرآنِ فيهِ شِفاءٌ لِلْقُلوبِ للدينِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [للاجسادِ][2]. وإنْ أرادَ هذا فهو ظاهرٌ، لاشكَّ أنَّ فيهِ ذلكَ الشِّفاءَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ للدينِ. فإنْ كانَ هذا يَكُنْ ذلكَ مِنْ جهةِ النظرِ فيهِ، يُدْرَكُ، ويُوصَلُ إلى ذلكَ الشفاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ نوعِ ما تأكُلُ النحلُ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ جميعِ الثمراتِ التي تكونُ في الجبالِ. عنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][3] قالَ: القرآنُ والعَسَلُ هما الشِّفاءُ، إنَّ القرآنَ شِفاءُ الدينِ، والعَسَلَ شِفاءُ الأبدانِ.

وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ اللغةِ: إنَّ الوَحْيَ في كلامِ العَرَبِ على وجوهٍ: منها وَحْيُ النُّبُوَّةِ؛ فهو إرسالُ اللهِ الملائكةَ إلى أنبيائِهِ ورُسُلِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] ومنها وَحْيُ الإشارةِ كقولِهِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] ومنها وَحْيُ الإلهامِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقولُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وقولُهُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] ونَحْوُهُ، ومنها وَحْيُ الإسرارِ كقولِهِ: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٢].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ أصلَ[4] الوَحْيِ عندَنا، هو أنْ يُلْقِيَ الإنسانُ إلى صاحِبِهِ شيئاً لِلاسْتِتارِ والإخفاءِ، وقد يكونُ ذلكَ بالإيماءِ والخَطِّ. وأصلُ الوَحْيِ ما ذَكَرْنا أنهُ سُمِّيَ بِهِ لِسُرْعَةِ وقوعِهِ وقَذْفِهِ في القَلْبِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ: تأويلُ الوحْيِ أنْ يُعْلِمَ الذي يُوحِي إليهِ، ويُرْشِدَهُ. وذلكَ لِوَجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنَّ اللهَ أرْشَدَ كلَّ دابَّةٍ سِوَى الإنسانِ إلى مَصْلَحَتِها والهَرَبِ عنْ مَهْلَكِها ومَتْلَفِها بما فَطَرَها اللهُ عليهِ كما أرْشَدَ الإنسانَ إلى ما يُصْلِحُهُ في دينِهِ ودنياهُ بالتعليمِ. فَمَثَّلَ اللهُ تعالى تَعْليمَهُ لِكلِّ دابَّةٍ ما فيهِ مَصْلَحَتُها ومَفْسَدَتُها بما دَبَّرها عليهِ كما عَلَّمَ الإنسانَ بالقولِ والبَيانِ، فقالَ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] أي أرْشَدَها، ودَلَّها بِفِطْرَتِها ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ بيوتاً فيها ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني واتَّخِذي ممَّا يبني الإنسانُ لِمَسْكَنِهِ[5]، وقالَ: العَريشُ الحيطانُ التي لا سَماءَ لها، بِفِطْرَتِها تَتَّخِذُ خلاياها، وكلُّ[6] ذلكَ لِمَنافِعِ الخَلْقِ.

[والثاني][7]: ثم قال: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والثمراتُ مُخْتَلِفَةُ الطَّعْمِ والمَنْظَرِ والمَشَمِّ ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ﴾ وهو ما سَبَّلَ اللهُ لها مِنَ الرزقِ والمأوَى ﴿ذُلُلًا﴾ قالَ: يَقولُ[8]: ذَلَّلَ لكِ كلَّ شيءٍ [قَدَّرَهُ لرزقِكِ ومَسْلَكِكِ، وذَلَّلَكِ في طَلَبِ ما سَبَّلَ لكِ لبني آدمَ، وجَعَلَهُ[9] سَبباً لِمنافِعِهِمْ، وصَغَّرَ قَدْرَكِ لِيُرِيَهُمْ بذلكَ قدرَتَهُ وسُلْطانَهُ على ما شاءَ لِيَعْلَموا أنَّ خالِقَهُمْ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ][10] وأنهُ القديرُ على ما يَعِدُهُمْ مِنَ البَعْثِ والثوابِ والعِقابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ يقولُ: الجِنْسُ واحدٌ، ثم هو ضُروبٌ كالألوانِ: التمرِ والعِنَبِ وسائرِ الثمارِ في مذاقِهِ ومَشامِّهِ ومَنْظَرِهِ، وكلُّهُ عَسَلٌ ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لِمنافِعِهِمْ ومَلاذِّهِمْ، [وفيهِ ما][11] أدَّاهُ مِنْ قدرتِهِ على ما يَشاءُ؛ مِنْ ذلكَ فيهِ شِفاءٌ في الدينِ والعِلْمِ، يَعْلَمونَ بما يُشاهِدونَ مِنْ تدبيرِ اللهِ وقدرتِهِ على ما بَيَّنَّا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ يقولُ: لَعِبْرَةً ودليلاً وبُرْهاناً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ما يُشاهِدونَ مِنْ تدبيرِ اللهِ وتقديرِهِ وقدرتِهِ على ما يَشاءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ في قولِهِ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النحل: ٦٧] يقولُ: ولَكُمْ عِبْرَةٌ ودليلٌ أنَّ النَّخْلَ أجْذاعٌ[12] خَشَبٌ، لا

---

(١) في الأصل وم: يحتمل قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيكون. (٤) من م، في الأصل: وصل. (٥) في الأصل وم: لمسكنهم. (٦) في الأصل وم: وفي كل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٩) في الأصل: وجعلها. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: وفيما. (١٢) في م: أجذع.

طَعْمَ فيها [والكرومَ أيضاً، وما فيهما][1] مِنْ سَعَفٍ وَوَرَقٍ، لا عَسَلَ فيها، ولا عِنَبَ. فأخرَجَ اللهُ عنهما ثَمراتٍ مُختَلِفاتٍ، فيها[2] عَسَلٌ، وفيها[3] تَمرٌ وزبيبٌ، وتَتَّخِذونَ منهُ ما تَلَذَّذونَ مِنَ الشرابِ.

وقالَ هذا قبلَ تحريمِ الخمْرِ. والسَّكَرُ كلُّ ما أسْكَرَهُمْ، وتَتَّخِذونَ منهُ أيضاً رِزقاً حَسَناً أي طَيِّباً، وهو ما تأكلونَ منها سِوَى ما تَشْرَبونَ، وتَكْسَبونَ بها أموالاً كثيرةً، مَنَّ اللهُ بِهِ عليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: السَّكَرُ: كلُّ شيءٍ حَرَّمَهُ اللهُ مِنْ ثِمارِها مِنَ الشرابِ: الخمرُ مِنَ العِنَبِ، والسَّكَرُ مِنَ التَّمْرِ. والرزقُ الحَسَنُ ما أحَلَّ مِنْ ثِمَرِها: الزبيبُ والتَّمرُ والنبيذُ، وقالَ: السَّكَرُ ما أسْكَرَ، والرزقُ الحَسَنُ أشباهُهُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ودَليلاً وبَياناً ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَتَنَبَّهونَ[4]، فَيَعْلَمونَ أنَّ الذي لم يَعْجِزْ عَمَّا خَلَقَ لهمْ مِنَ الثمارِ مِنْ خَشَبٍ يابسٍ يَقْدِرُ أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى، ويَخْلُقَ ما يَشاءُ وما عَرَفَهُ الخَلْقَ أنهُ يكونُ مِنَ النُّطفَةِ الوَلَدُ ومِنَ الماءِ والأشجارِ الفواكِهُ ومِنَ العَلَفِ اللبنُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ الحوادِثِ التي تَحْدُثُ مِنَ الأشياءِ، وتلكَ أسبابُها ما لم يُدْرَكْ كونُ تلكَ الأشياءِ فيها [ولا يُرى، ولا][5] يُعْرفُ ذلكَ إلّا بِتعليمِ مَنْ هو عالمٌ بذاتِهِ، لأنَّ عِلْمَ ذلكَ لو [ما][6] كانَ بِتَعْليمٍ، لو اجْتَهَدوا كلَّ اجتِهادٍ[7]، لم يُدرِكوا حدوثَ تلكَ الأشياءِ مِمَّا ذَكَرْنا ولا كَونَها منها.

دَلَّ أنَّ الذي عَلَّمَهُمْ، هو عالمٌ بذاتِهِ. فإذا ثَبَتَ كونُهُ عالماً[8] بذاتِهِ، وإنْ كانوا لم يُشاهِدوا إلّا عالماً بِغَيرٍ. فَعَلَى ذلكَ هو قادرٌ على إنشاءِ الأشياءِ مِنْ لا شيءٍ، وإنْ كانوا لم يُعايِنوا في الشاهِدِ شيئاً إلّا مِنْ شيءٍ.

وفيهِ أنَّ ما يَحْدُثُ، ويكونُ مِنَ اللَّبَنِ بالعَلَفِ الذي يُؤكَلُ، أو الطعامِ الذي يُتَناوَلُ، أو الفواكِهِ والثمارِ التي تَخْرُجُ، ليسَ تكونُ بِنَفْسِ الماءِ أو بِنَفْسِ الطعامِ والعَلَفِ، ولكنْ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنهُ قد يَسْقي ذلكَ الماءُ الشجرَ والنخلَ في حالٍ ثُمَّ لا يكونُ فيه الثَّمَرُ، وكذلكَ الدوابُّ تُعْلَفُ في حالٍ لا يكونُ ذلكَ منهُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ/ ٢٨٨ ـ ب/ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فإنْ قيلَ لنا: مِنَّةٌ لهُ علينا في ذِكْرِ خَلْقِنا ثم تَوَفِّيهِ إيَّانا ورَدِّنا[9] إلى الحالِ التي هي[10] حالُ الجهلِ حتى [لا][11] تَعْلَمَ شيئاً. قيلَ: ذِكْرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ[12] وجوهاً:

أحَدُها: يُذَكِّرُهُمْ أنهُ هو الذي ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ثم هو يَمْلِكُ رَدَّكُمْ إلى الحالِ التي لا تَعْلَمونَ شيئاً، وفي مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ تَتَقَلَّبُونَ. فكيفَ عَبَدْتُمُ الأصنامَ والأوثانَ التي لا تَمْلِكُ[13] شيئاً مِنْ ذلكَ، وأشْرَكْتُموها في ألوهيَّتِهِ وعبادَتِهِ؟

والثاني[14]: يَذْكُرُ لِيُعْلَمَ انهُ لم يَكُنِ المَقصودُ بِخَلْقِهِمُ الفَناءَ، لكنْ لأمرٍ آخَرَ، قَصَدَ بِخَلْقِهِمْ، هو[15] ما ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ وتَسْخيرِ ما ذَكَرَ لهمْ مِنَ الأغذيةِ والنِّعَمِ التي أنْشَأَ لهمْ والأشياءِ التي سَخَّرَها لهمْ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وكُنْتُمْ نُطَفاً أمواتاً، فأحياكُمْ ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أطفالاً وشيوخاً ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يُعَمَّرُ ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يقولُ: يَرُدُّهُ بَعْدَ قُوَّةٍ وعِلْمٍ وتدبيرِ الأمورِ إلى الخَرَفِ والجَهْلِ بَعْدَ العِلْمِ لِيَتَبَيَّنَ لِخَلْقِهِ أنَّ العُمْرَ والرزقَ ليسَ بهما رُبِّيَ، وقَوِيَ، لأنهما ثابتانِ، ثم يُبْلَى، ويَفْنَى بهما، ويَرْجِعُ إلى الجَهْلِ، ولكنْ بِلُطْفٍ مِنَ اللهِ وتدبيرٍ منهُ لا بالأغذيةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بما دَبَّرَ في خَلْقِهِ مِمَّا يُدْرِكونَ بِهِ قدرَةَ خالِقِهِمْ وتَصْريفَهُ الأمورَ بما يكونونَ بِهِ حُكَماءَ وعُلَماءَ. إنَّ الذي دَبَّرَها حكيمٌ ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما شاءَ.

والحكمةُ في ما ذَكَرَ مِنْ تفريقِ الآجالِ [لأمْرَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم. فيه. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) في الأصل وم: ما ينبهون. (٥) في الأصل: ولا يدرى لا، في م: ولا يرى لا. (٦) ساقطة من الاصل وم. (٧) في الأصل وم: جهد هو. (٨) في الأصل وم: بعالم. (٩) في الأصل وم: ورده لنا. (١٠) في الأصل وم: وهي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: هذا. (١٣) في الأصل وم: تملكون. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: وهو.

أحدُهما:][(١)] ليكونوا أبداً خائفينَ راجينَ، لأنهُ لو كانَتْ آجالُهُمْ واحدةً [لأمِنوا، وتَعاطَوْا][(٢)] المعاصيَ على أمْنٍ لِما يَعْلَمونَ وقْتَ نزولِ المَوتِ بهمْ.

والثاني: لِيَعْلَموا أنَّ التدبيرَ في أنفسِهِمْ، ومُلْكَهُمْ لِغَيرِهِمْ لا لهمْ، لأنَّ للهِ التدبيرَ والأمْرَ، لو كانَ إليهِمْ لكانَ كلٌّ منهمْ يختارُ مِنَ الحالِ ما هو أقْوَى وآكَدُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: يَذْكُرُ هذا مُقابِلَ ما أشْرَكوا خَلْقَهُ وعبادَهُ في أُلوهِيَّتِهِ وعبادَتِهِ. يقولُ: ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ والأموالِ حتى بَلَغوا السَّادَةَ والمَواليَ، فلا تَرْضَونَ[(٣)] أنْ يكونَ عبيدُكُمْ ومماليكُكُمْ شُرَكاءَ في مُلْكِكُمْ وأموالِكُمْ فكيفَ تَرْضَونَ للهِ أنْ يكونَ عَبيدُهُ ومَماليكُهُ شُرَكاءَ؟ إلى هذا يَذْهَبُ أهْلُ التأويلِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ أغنَى بَعْضَكُمْ، وأفْقَرَ بَعْضاً، وجَعَلَ منكُمْ أحراراً [ومنكُمْ][(٤)] عبيداً ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ بالغِنَى والمُلْكِ[(٥)] ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مِنْ عبيدِهِمْ. فهمْ فيهِ سَواءٌ: أنْ يَسْتَوِيَ المَولَى وعَبْدُهُ في ما مَلَكَتْ يمينُهُ.

يقولُ: فليسَ أحدٌ منكُمْ يَرْضَى أنْ يكونَ عبدُهُ بِمَنْزِلَتِهِ في ما يَمْلِكُ سَواءً. فإذا رأيتُمْ أنْتُمْ ذلكَ نَقْصاً بكُمْ، لو فَعَلْتُمْ، فكيفَ زَعَمْتُمْ أنَّ اللهَ أشْرَكَ بَيْنَهُ وبَينَ أحجارٍ حتى أشْرَكْتُمْ وما مَلَّكَكُمُ اللهُ بَيْنَهُ وبَينَ الأوثانِ في العبادةِ وفي ما آتاكُمْ مِنْ رزقٍ، فَقُلْتُمْ: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؟ [الأنعام: ١٣٦].

[وقولُهُ تعالى][(٦)]: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقولُ: أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ بأنفسِهِمْ وأرزاقِهِمْ وأموالِهِمْ وأولادِهِمْ، فأشْرَكوا غَيرَ اللهِ فيها، وجَحَدوا نِعْمَةَ اللهِ عليهِمْ؛ بها عَصَوا، وبها كَفَروا. ثم ألْزَمَهُمُ النَّظَرَ في الفَضْلِ الذي ذَكَرَ أنهُ فَضَّلَ بعضَهُمْ على بَعْضٍ إلى عَينِ الفَضْلِ الذي كانَ مِنَ اللهِ لا إلى الأسبابِ التي اكْتَسَبوها لِيَعْلَموا أنهمْ لم يَنالوا تلكَ الفضائِلَ باسْتِحقاقٍ منهمْ، ولكنْ إنما نالوا[(٧)] بِفَضْلٍ منهُ ورَحْمَةٍ. فيكونُ ذلكَ دليلاً في ما أنْكَروا مِنْ أفضالِ اللهِ واخْتِصاصِهِ بعضَهُمْ على بَعْضٍ في الرِّزْقِ والسَّعَةِ والمُلْكِ والحُرِّيَّةِ والسُّلْطانِ، وإنْ كانوا جميعاً [مِنْ جنسٍ واحدٍ][(٨)].

فإذا لم تُنْكِروا هذا النوعَ مِنَ الفَضْلِ والاخْتِصاصِ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ فيكفَ أنْكَرتُمْ ذلكَ الفَضْلَ والاِخْتِصاصَ بالرسالةِ مِنْ فَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ؟

فلذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]. أخْبَرَ بِرَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ يَنالُ ما يَنالُ مِنَ الرسالةِ وغَيرِها لا بالاِسْتِحْقاقِ والاِسْتيجابِ [الذي][(٩)] كانَ منهمْ، أو يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بأنهُمْ يأنفونَ أنْ يُشْرِكوا عَبيدَهُمْ ومَماليكَهُمْ في مُلْكِهِمْ وأموالِهِمْ، ولهمْ منهمْ منافِعُ مِنَ الخِدْمَةِ والإعانةِ في الأمورِ، فما بالُهُمْ يُشْرِكون أحجاراً وخَشَباً، لا مَنْفَعَةَ لأحدٍ منهما في أُلوهِيَّةِ اللهِ ورُبوبِيَّتِهِ وفي عبادَتِهِ؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟

وعلى تأويلِ النُّبُوَّةِ أفَبِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ يجحَدونَ أنهُ لا يُفَضِّلُ بَعْضاً على بعضٍ بالرسالةِ، أو يَجْحَدونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِنَ النِّعَمِ، فَيَصْرِفُونَ نِعَمَهُ إلى غَيرِهِ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها، فقالوا: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] أو يَصْرِفونَ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِهِ، وهي الأوثانُ التي عَبَدوها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: الحَفَدَةُ الخَدَمُ والمَماليكُ، فهو على التقديمِ على تأويلِ هؤلاءِ. يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وخَدَماً مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يامنون، ويتعاطون. (٣) في الأصل وم: ترضونه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والتمليك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قالوا. (٨) في الأصل وم: في الجنس. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنسِكُمْ، لأنهُ ذَكَرَ في ما تقدَّمَ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ الآية [النحل ٧١] يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ وفضلَهُ الذي ذَكَرَ أنهُ ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ من جنسِكُمْ ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ وخَدَماً تَحتَ أيديهِمْ؛ يَستَمْتِعونَ بالأزواجِ، ويَسْتَخْدِمونَ الخَدَمَ والمماليكَ، وهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ فَضْلَهُ ومِنَّتَهُ عليهِمْ.

أو يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ الآية [النحل: ٥٨] كانوا يأنفونَ منهنَّ، وقد جَعَلَ لكُمْ مِنَ البناتِ أزواجاً تَستَمْتِعونَ بِهِنَّ حتى لا تَصْبِروا عنهنَّ، وكذلكَ جَعَلَ لكُمْ مِنَ البناتِ البَنينَ الذينَ تَرْغَبُ أنفُسُكُمْ فيهِمْ، ما لولا البناتُ لم تَكُنْ لكمُ الأزواجُ اللاتي[1] تَستَمْتِعونَ بهنَّ، ولم يكُنْ لكمُ البنونُ الذينَ تَرْغَبونَ فيهِمْ والأنصارُ والأعوانُ والخَدَمُ الذينَ تَرْغَبونَ فيهِمْ.

يُبَيِّنُ، ويَذْكُرُ تناقُضَهُمْ في الأنَفَةِ منهنَّ، يأنفونَ منهُنَّ، ومِنَ البناتِ يكونُ ما يَرْغَبونَ فيهِ[2]. فهذا يَدُلُّ أنَّ النساءَ يَصِرْنَ كالمُلْكِ للأزواجِ، ويَصِرْنَ تحتَ أيديهِمْ في حَقِّ مُلْكِ الاسْتِمْتاعِ كالمماليكِ في حقِّ مُلْكِ الرِّقابِ.

ثم جَعَلَ ﷻ التناسُلَ في الخَلْقِ على التفاريقِ وتَقَلُّبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ يَتَقَلَّبُهُمْ أبداً كذلكَ لِيكونَ أذْكَرَ لِتَدْبيرِهِ وأنْظَرَ في آياتِهِ ودلالاتِهِ. ولو شاءَ لأنْشَأَ الخَلْقَ كلَّهُ بِمَرَّةٍ واحدةٍ، وأفناهُمْ بِدَفْعَةٍ واحدةٍ. وكذلكَ ما جَعَلَ لهمُ الأرزاقَ وأنواعَ النَّباتِ، لو شاءَ لأخرَجَ لهمْ ذلكَ كلَّهُ بِمَرَّةٍ واحدةٍ في وقتٍ واحدٍ، لكنهُ أنْشَأَ لهمْ بالتفاريقِ لِيَذْكُرَ لهمُ النَّظَرَ في آياتِهِ وتَدْبيرَهُ لِيَكونَ ذلكَ أدْعَى إلى المَرْغوبِ وأحْذَرَ لِلْمَرْهوبِ وكذلكَ ما رُدِّدَ مِنَ الأنباءِ والقِصَصِ والمَواعيدِ وذِكْرِ الجنةِ والنارِ في القرآنِ في غيرِ مَوضعٍ لِيَبْعَثَهُمْ، ويَحُثَّهُمْ على النَّظَرِ في آياتِهِ وتَدْبيرِهِ، ويُرَغِّبَهُمْ في كلِّ وقتٍ في المَرْغوبِ، ويُحَذِّرَهُمْ عن المَحْذورِ والمَرْهوبِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ وقولُهُ[3] في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التحريم: ٦] وقولُهُ[4]: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩] ونَحْوُهُ ذِكْرُ الأنْفُسِ في كلِّهِ.

ثم لم يَفْهَمْ أهلُ الخِطابِ مِنْ هذا كلِّهِ/ ٢٨٩ ـ أ/ مَعْنًى واحداً وشيئاً واحداً، وإنْ كانَ في حَقِّ اللسانِ واللغةِ واحداً، وإنْ كانَ في كلٍّ غَيرُ ما فَهِموا في آخَرَ. فهذا يدلُّ أنهُ لا تُفْهَمُ الحِكْمَةُ والمَعْنَى في الخطابِ بِحَقِّ ظاهِرِ اللسانِ واللغةِ، ولكنْ بدليلِ الحِكْمَةِ المَجْعولةِ في الخطابِ. ومَنِ اعْتَقَدَ في الخِطابِ الظاهِرِ حَسَمَ بابَ طَلَبِ الحِكْمَةِ فيهِ والمَعْنَى، لأنهُ يَجعَلُ المُرادَ منهُ الظاهرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ هو ما ذَكَرْنا ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: الحَفَدَةُ: الأختانِ. ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: الحَفَدَةُ: وَلَدُ الوَلَدِ. وقالَ ابنُ مَسْعودٍ ﷺ: الحَفَدَةُ: الأختانِ. ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: الحَفَدَةُ الأصهارُ [والأصهارُ][5] والأختانِ عندَهُ واحدٌ. وقيلَ: الحَفَدَةُ الأعوانُ والأنصارُ. يَذْكُرُ لهمُ[6] التناقُضَ في ما يأنفونَ مِنَ البَناتِ، أنْ كيفَ يأنفونَ منهنَّ، ومنهنَّ يكونُ لهمُ[7] الأعوانُ والأنصارُ والأختانِ في أمْرِ الدنيا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَفَدَةُ بَنو البَنينِ، وقالَ أيضاً: الحَفَدَةُ الأعوانُ، والحافِدُ المُجْتَهِدُ في العِبادةِ وفي العَمَلِ؛ يقولُ: حَفَدَ يَحْفِدُ أي خَدَمَ واجْتَهَدَ. وقولُهُ: وإليكَ نَسْعَى، ونَحْفِدُ أي نَجْتَهِدُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الحَفَدَةُ الخَدَمُ والأعوانُ؛ يقالُ: هُمْ بُنونَ وخَدَمٌ، وقالَ: أصْلُ الحَفَدَةِ مُدارَكَةُ الخَطْوِ، والإسراعُ في المَشْيِ، وإنما يَفْعَلُ ذلكَ الخَدَمُ، فقيلَ: هُمْ[8] حَفَدَةٌ [واحدُهُ حافِدٌ][9]، وقالَ: ومنهُ يُقالُ في دعاءِ الوِتْرِ: وإليكَ نَسْعَى، ونَحْفِدُ.

---

(١) في الأصل وم: التي. (٢) في الأصل وم: فيهن. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: هم. (٧) في الأصل وم: لكم. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في الأصل وم: واحدها حافدة.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: وأصْلُ الحَفْدِ العَمَلُ، وقالَ: ومنهُ الحَرْفُ في القُنوتِ: نَحْفِدُ، أي نَعْمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطَّيِّباتُ الحَلالاتُ، وقالَ بعضُهُمْ: الطَّيِّباتُ أي كلُّ ما طابَ، ولانَ، ولَطُفَ. ورَزَقَ غيرَكُمْ مِنَ الدوابِّ والبهائِمِ كلَّ ما حَسُنَ. وحينَ[1] يَذْكُرُ لهمْ مِنَّتَهُ عليهِمْ ونِعَمَهُ عليهِمْ يَسْتَأدي بذلكَ شُكْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أَبِالشَّيطانِ يُصَدِّقونَ، ويُجيبونَهُ إلى ما دَعاهُمْ مِنَ الأَنَفَةِ مِنَ البناتِ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي هذهِ البناتُ لكُمْ نِعْمَةٌ: فكيفَ تَكْفُرونَها؟ فقالَ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أَبِالشَّيطانِ إلى ما دعاكُمْ ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي بمحمدٍ ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بالإسلامِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يقولُ: تُقِرُّونَ بأنكمْ عَبيدُ الأحجارِ، تَذِلُّونَ لها، وتَعْبُدونَها ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يقولُ: وبما أنْعَمَ اللهُ عليكُمْ في أنفسِكُمْ وما خَوَّلَكُمْ وَرَزَقَكُمْ تَكْفُرونَ بهِ، وكانَ الشكْرُ أولَى بكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فائدة: ذَكَرَ هذا لنا، واللهُ أعلَمُ، لئلاّ نَتَّبِعَ بعضَ المخلوقينَ بأهوائِنا[2]، ولا نَكِلَ أمورَنا[3] إلى مَنْ نَعْلَمُ أنهُ لا يَمْلِكُ ضَرًّا، فنَعْبُدَهُ. يذكُرُ سَفَهَهُمْ مِنْ عبادَتِهِمْ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنَ النَّفْعِ والضَّرِّ والرزقِ [لئلا][4] نَعْمَلَ نحنُ مِثْلَ صَنيعِهِمْ بِمَنْ دونَ اللهِ مِنَ المَخلوقينَ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ قالَ الحَسَنُ: هو على التقديمِ، أي يَعْبدونَ مِنْ دونِ اللهِ شيئاً لا يَمْلِكُ لهمْ ما ذَكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: يَعْبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لهمْ رزقاً مِنَ السمواتِ والأرضِ، ولا يَسْتطيعونَ شيئاً. وقالَ بعضُهُمْ: يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لهمْ رزقاً مِنَ السمواتِ والأرضِ ولا شيئاً.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي لا تَتَّخِذوا لِلَّهِ أمثالاً مِنَ الخَلْقِ وأشباهاً في الوهِيَّتِهِ وعبادَتِهِ، أو لا تَقولوا للهِ: إنَّ لهُ أشباهاً وأمثالاً، أو يقولُ: فلا تَجْعَلُوا للهِ أمثالاً، أو يقولُ: فلا تَجْعَلُوا للهِ أمثالاً في العبادةِ وأشباهاً في تَسْمِيَتِها آلهةً على عِلْمٍ منكُمْ أنَّ[6] ما يكونُ لكُمْ إنما يكونُ باللهِ لا بالأصنامِ التي تَجْعَلونَها أمثالاً للهِ في العبادةِ والألوهيَّةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُ][7]: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي فلا تَضْرِبوا لأولياءِ اللهِ الأمثالَ، فإنهُ قد بَيَّنَ مَحَلَّ أوليائِهِمْ ومكانَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنْ لا مَثَلَ لهُ مِنَ الخَلْقِ ولا شِبْهَ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ. أو إنَّ اللهَ يَعْلَمُ بمصالِحِكُمْ، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ ما بهِ صلاحُكُمْ وهلاكُكُمْ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ ضَرَبَ المثلَ بهذا مِنْ[8] وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنْ لا يَقْدِرُ، لا يَمْلِكُ أنْ يُنْفِقَ في الشاهِدِ عندَكُمْ ليسَ كَمَنْ يَمْلِكُ، ويَقْدِرُ أنْ يُنْفِقَ، فهو كقولِهِ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦] وكقولِهِ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤] أي ليسَ يَسْتوي البَصيرُ والأعمى، والأصَمُّ والسميعُ. فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوي مَنْ يَمْلِكُ الإنفاقَ والإنعامَ على الخَلْقِ، وهو المَعْبودُ الحَقُّ، ومَنْ[9] لا يَمْلِكُ ذلكَ، وهو المَعْبودُ الباطِلُ.

والثاني: ضَرَبَ مَثَلَ المؤمنِ والكافرِ: إنَّ الكافرَ لا يُنْفِقُ ما أُنعِمَ عليهِ مِنَ المالِ في طاعةِ اللهِ [ولا في خيراتِهِ][10] والمؤمنُ يُنْفِقُ ما أُنعِمَ عليهِ، وأُعْطِيَ في طاعةِ اللهِ وخيراتِهِ. فَليسا بِسواءٍ: مَنْ أنْفَقَ في طاعةِ اللهِ كَمَنْ لا يُنْفِقُ شيئاً:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: بأهوانها. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: بـ. (٩) في الأصل وم: كمن. (١٠) ساقطة من م.

أحَدُهما: يكونُ ضَرَبَ مَثَلَ الإلهِ الحَقِّ والمَعبودِ الحقِّ بالمعبودِ الباطلِ.

والثاني: [يكونُ ضَرَبَ][1] مَثَلَ المؤمنِ بالكافرِ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ مِنَ الدلائِلِ.

أحَدُها: أنَّ القدرةَ لا تُفارِقُ الفِعْلَ حينَ[2] قالَ: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ثم قالَ ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ﴾ جعَلَ مُقابِلَ الفِعْلِ القدرةَ. فلو كانتْ تُفارِقُ الفِعْلَ لكانَ ذَكَرَ مُقابِلَ القُدْرَةِ مِثْلَها [أو][3] مُقابلَ الفِعْلِ فِعْلاً مثلَهُ. فلمَّا ذَكَرَ مُقابِلَ القُدْرَةِ الفِعْلَ [دَلَّ][4] أنها لا تُفارِقُ الفِعْلَ.

والثاني[5]: أنَّ العبدَ لا يَمْلِكُ حقيقةَ المُلْكِ حينَ[6] ذَكَرَ ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ وإنْ قَدَرَ ما يَمْلِكُ، إنما يَمْلِكُ بإذنِ مَنْ لهُ المُلْكُ. وكذلكَ الخلائقُ كُلُّهُمْ، لا يَمْلِكونَ حقيقةَ الإملاكِ، إنما حقيقةُ المُلْكِ في الأشياءِ للهِ، وإنَّ قَدَرَ ما يَمْلِكونَ إنما يَمْلِكونَ بالإذنِ على قَدْرِ ما أُذِنَ لهمْ.

والثالثُ[7]: أنَّ العبدَ لا يَمْلِكُ الإنفاقَ والتَّصدُّقَ حينَ[8] قال: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ثم قالَ في مَنْ يَمْلِكُ: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ﴾ دلَّ أنهُ لا يَمْلِكُ العَبْدُ الإنفاقَ والهِبَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾ مَثَلاً ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ الحَمْدَ للهِ على إثْرِ ما ذَكَرَ أنهُ[9] عَرَّفَ رسولَهُ النِّعَمَ وأنواعَ المَنافِعِ، ثم عَرَّفَهُ على إثْرِ ذلكَ الحَمْدَ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَمْدُ ثناءٌ؛ أخبَرَ أنَّ أكْثَرَهُمْ، لا يَعْلَمونَ [حَمْدَ اللهِ وثناءَهُ][10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ أي مِنْ أوليائِنا أو مِنْ أولياءِ دينِنا، وذلكَ جائزٌ سائغٌ في اللغةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ نفيَ العِلْمِ عنهُمْ لِما لم يَنْتَفِعوا بِما عَلِموا، أو على حقيقةِ النَّفْيِ لِما لم يَنْظُروا في الآياتِ والحُجَجِ، ولم يَتأمَّلوا فيها، فلم يَعْلَموا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ. قالوا: هذا المَثَلُ كالأوَّلِ يَحْتَمِلُ الوجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرناهُما في الأوَّلِ.

أحَدُهما: المؤمِنُ والكافِرُ: شَبَّهَ الكافرَ بالمَمْلوكِ الأبكَمِ الذي﴿لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ لا يأتي المَولَى بِخَيرٍ، ولا يَنْتَفِعُ بِهِ.

وشَبَّهَ المؤمنَ بالذي يأتي المَولَى بكلِّ خَيرٍ ونَفْعٍ؛ يقولُ: هلِ اسْتَوَى هذا معَ هذا عندَكُمْ؟ لا يَسْتَوِي.

فعلى ذلكَ لا يَسْتَوِي الكافرُ الذي لا يَعْمَلُ شيئاً مِنْ طاعةٍ، ولا يأتي بِخَيرٍ، والمُؤمِنُ الذي يَعْمَلُ كُلَّ طاعةِ اللهِ، ويأتي/ ٢٨٩ ـ ب/ بكلِّ خيرٍ، ويأمُرُ بكلِّ عدلٍ[11].

والثاني: ضَرَبَ مَثَلَ الإلهِ المعبودِ الحَقِّ بالمعبودِ الباطِلِ بقولِهِ[12]: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ مَنْ أتاكُمْ بكلِّ نعمةٍ وكلِّ خيرٍ، ويأمرُ بكلِّ عَدْلٍ، ومَنْ[13] هو ﴿أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ولا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، ولا يُجيبُ، وهو عِيالٌ على مَنْ يَعْبُدُهُ، ويَخْدِمُهُ. هَلْ يَسْتَوي هذا مَعَ ذلكَ؟ لا يَسْتَوِيانِ مَثَلاً البَتَّةَ.

غيرَ أنَّ المَثَلَ ههنا ضَرَبَ بالذي لا يَنْطِقُ بالحقِّ، ولا يأمُرُ بالعدلِ الذي يأمُرُ بالعدلِ. ذَكَرَ مُقابِلَ الأبكمِ الذي لا يأمُرُ بالعدلِ.

وفي الأوَّلِ ضَرَبَ المثلَ الذي لا يَمْلِكُ الإنفاقَ بالذي يَمْلِكُ الإنفاقَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وفيه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لانه. (١٠) من م، في الأصل: حمد الله وثناء. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: ممن هو أبكم. (١٢) في الأصل وم: يقول. (١٣) في الأصل وم: ممن.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هو على الحَقِّ المُستَقيمِ، وهو المعبودُ بالحقِّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الكَلُّ العِيالُ، وكذلكَ قالَ غَيرُهُ مِنْ أهلِ الأدبِ. وقالَ بعضُهُمْ: الكَلُّ الفَقِيرُ، وهو واحدٌ. والأبكَمُ الأخرَسُ، وهو الذي لا يَنْطِقُ البَتَّةَ. وقالوا: ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوحيدِ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][1]: ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ السؤالِ عَنِ الساعةِ وعَنْ وقتِها كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ لِوَقتِ قِيامِها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لا يَعلَمُهُ غَيرُهُ.

والثاني: وللهِ علمُ ما غَيَّبَ أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ، أي ما غَيَّبَ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فذلكَ ليسَ بِمُغَيَّبٍ عنِ اللهِ، بل ما غابَ عنِ الخَلْقِ وما ظَهَرَ لهمْ، فذلكَ للهِ كُلُّهُ ظاهرٌ بِمَحَلٍّ واحدٍ، وهو كقولِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

والثالثُ: قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لهُ عِلْمُ ما في سِرِّيَّةِ هذهِ الأشياءِ الظاهِرَةِ ما لا سَبيلَ لِلْخَلْقِ إلى عِلْمِ ذلكَ، وإنْ كانوا هذهِ الأجسامَ والأشياءَ الظاهرةَ، وتَقَعُ حواسُّهُمْ عليها، لا يَعْلَمونَ ما سِرِّيَّتُها؟ مِنْ نَحْوِ الماءِ الذي بهِ حياةُ كلِّ شيءٍ ونَحْوِ النُّطْفَةِ التي يُخْلَقُ منها الإنسانُ، لا يَعْلَمونَ المَعْنَى الذي بهِ يَصيرُ إنساناً. ومِنْ نَحْوِ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ، يَعْلَمونَ، ويَرَونَ[2] ظواهرَ الحواسِّ، ولكنْ لا يُدْرِكونَ المَعْنَى الذي بهِ يُسْمَعُ، وبهِ يُبْصَرُ، وبهِ يُعْقَلُ، ويُفْهَمُ.

[والرابعُ][3] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: [وللهِ عِلْمُ][4] ما غابَ عنِ الخَلْقِ ما في هذهِ الأشياءِ الظاهِرَةِ والأجسامِ المَرْئِيَّةِ، أوْ يقولُ: وللهِ مُلْكُ ما غابَ عنْ أهْلِ السمواتِ والأرضِ، ومُلْكُ ما لمْ يَغِبْ عنهُمْ، وظَهَرَ، فيكونُ كقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩] كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: وللهِ العِلْمُ الذي غُيِّبَ عنْ أهْلِ السمواتِ وأهْلِ الأرضِ، وهي الساعةُ، لم يُطْلِعْ عليها غَيرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أهْوَنُ على اللهِ وأيْسَرُ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ؛ إذْ ليسَ شَيءٌ أيْسَرُ وأهْوَنُ على الإنسانِ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ لأنهُ يَلْمَحُ بِبَصَرِهِ، فَيُبْصِرُ بهِ بِلَحْظَةٍ ما بَيْنَ الأرضِ والسماءِ، وهو مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ عامٍ.

يقولُ: مَنْ قَدَرَ أنْ يُنْشِئَ في خَلْقٍ مِنْ خَلائِقِهِ ما يُبْصِرُهُ بِلَمْحَةِ البَصَرِ مَسِيرَةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ [فهو قادرٌ][5] على إعادةِ الخَلْقِ وبَعْثِهِمْ بَعْدَ الفَناءِ، بل هو أقْرَبُ؛ أي إعادتُهُ إياهُمْ أسْرَعُ وأقْرَبُ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ. إلى هذا يَذْهَبُ الحَسَنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي ما وَقْتُ قيامِ الساعةِ إلاّ كَلَمْحِ البَصَرِ ليسَ بَيْنَ وَقْتِ قِيامِها وبَيْنَ كونِها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ لِما ليسَ شيءٌ عندَ الناسِ أسْرَعَ وأهْوَنَ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ لِما ذَكَرْنا أنهُ يُلْمَحُ، ولا يُشْعَرُ بهِ لِسُرْعَتِهِ ولِخِفَّتِهِ عليهِ. فَذَكَرَ هذا على التمثيلِ ليسَ على إرادةِ حقيقةِ الوقتِ بِقَدْرِ لِمَحِ البَصَرِ، ولكنْ على المُبالَغَةِ في السُّرْعَةِ، وذَكَرَ أقْصَى ما يَقَعُ في الأوهامِ، ويُتَصَوَّرُ، مِنْ نَحْوِ ما قالَ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ و٨] وقالَ: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] [وقالَ][6]: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١] [وما قالَ:][7] ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] وأمثالُهُ كلُّهُ يُذْكَرُ على التمثيلِ، ليسَ على التحقيقِ؛ أي ما يَعْمَلْ مِنْ قليلٍ أو كثيرٍ يَرَهُ شَرًّا كانَ أو خيراً. وكذلكَ لا يُظْلَمونَ فتيلاً ونقيراً، أي لا يُظْلَمونَ شيئاً. وكذا ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يَمْلِكونَ شيئاً، لأنَّ القِطْميرَ لا يُمْلَكُ. فإنما يُذْكَرُ لهذا وأمثالِهِ على التمثيلِ الذي ذَكَرْنا.

أو يكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي ليسَ ما بَيْنَ الساعةِ وبَيْنَكُمْ مِمَّا مَضَى مِنَ الوَقْتِ إلاّ قَدْرَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويريدون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: لقادر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

البَصَرِ؛ أي لم يَبْقَ مِنْ وقتِ قيامِها مِمَّا مَضَى إلاّ ما ذَكَرَ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ أو أقْرَبَ مِمّا ذَكَرَ على الإسْتِقْصارِ لِما[1] بَقِيَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على البَعْثِ والإعادةِ، على كلِّ شيءٍ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وظاهرُ الآيةِ يَنقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ لإنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العِبادِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وعلى قولِهِمْ هو غَيرُ قادِرٍ على ألفِ ألفِ شيءٍ.

الآية ٧٨

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما[2]: يَذْكُرُ بهذا قدرَتَهُ وسُلْطانَهُ على ما سَبَقَ مِنْ سُرْعَةِ القِيامةِ والعِلْمِ بها والحِكْمَةِ التي جَعَلَ في البَعْثِ، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ خَلَقَ الوَلَدَ في ظُلماتٍ ثَلاثٍ، وجَعَلَ غِذاءَهُ بِغِذاءِ الأُمَّهاتِ وبِقِواهُنَّ ثم تَقَلُّبُهُ في تلكَ الظلماتِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ ما لَوِاجْتَهَدَ الخلائقُ أنْ يَعْلَموا اغْتِذاءَهُ بِغِذاءِ الأُمَّهاتِ وتَقَلُّبَهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ ومِنْ جَوهَرٍ إلى جوهرٍ لَما قَدَروا على ذلكَ.

فَيَدُلُّ هذا على أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا، وعَلِمَ هذا في تلكَ الظلماتِ قَدَرَ على البَعْثِ وإعادةِ الخَلْقِ بَعْدَ الفناءِ، وعَلِمَ ما غابَ عنِ الخَلْقِ. ويُذَكِّرُنا نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ علينا في بلوغِنا إلى الأحوالِ التي صِرْنا إليها بَعدَ ما كنّا ما ذَكَرَ.

والثاني: يُذَكِّرُنا [أنّا كُنّا][3] بالحالِ التي ذَكَرَ لِنَعْلَمَ أنهُ صَيَّرَنا في البطونِ بِلا اسْتِعانَةٍ بأحدٍ منا ولا عَونٍ منهُ إلى أحدٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ فَمَنْ قَدَرَ على جَعْلِ السَّمْعِ حتى تُسْمَعَ الأصواتُ، ويُمَيِّزَ بينَها، وَجَعْلِ[4] البَصَرِ والتَّمييزِ بينَ ألوانِ الأجسامِ والفؤادِ لِيَفْهَمَ، ويُعْقَلَ مالَهُ، وما عليهِ، ما لا يُدْرِكُ[5] مِنّةً ما بِهِ يَسْمَعونَ، ويُبْصِرونَ، ويَعْقِلونَ، وما بِهِ يُمَيِّزونَ بَينَ ما ذَكَرْنا. فَمَنْ قَدَرَ على [هذا كلِّهِ قَدَرَ على][6] إنشاءِ الخَلْقِ بَعْدَ الفَناءِ والإعادةِ بعدَ الموتِ.

ثم ذَكَرَ على إثْرِ قولِهِ ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ السَّمْعَ والبَصَرَ والأفئِدَةَ. فذلكَ يَدُلُّ على أنَّ هذهِ الأشياءَ مِنْ أسبابِ العِلْمِ بالأشياءِ، وبها يُوصَلُ إلى العِلْمِ بالأشياءِ. فَمَنْ أُعْطِيَ أسبابَ العِلْمِ بالشيءِ فكأنَ قد أُعْطِيَ لهُ العِلْمُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هو حَرْفُ شَكٍّ في الظاهِرِ؛ ذَكَرَهُ[7]، واللهُ أعلمُ، لأنه، لا كُلُّ الناسِ يَشْكُرونَ نِعَمَهُ، أو لكي يُلْزِمَهُمُ الشكرَ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي مَنْ قَدَرَ على إمساكِ الطيرِ، وهي أجسامٌ كَغَيرِها مِنَ الأجسامِ في الهواءِ بلا إعانةٍ بِالأسْفَلِ ولا تَعَلُّقٍ بِشَيءٍ مِنَ الأعلَى [فهو قادرٌ][8] على إنشاءِ الخَلْقِ وإعادَتِهِمْ بَعْدَ الفناءِ.

أو يقولُ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى﴾ اللُّطفِ الذي جَعَلَ في الطَّيْرِ والحِكْمَةِ التي أنْشأَ فيها حتى قَدَرَتْ على الإسْتِمْساكِ في الهواءِ والطَّيَرانِ في الجَوِّ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائقُ جميعاً أنْ يُدْرِكوا[9] ذلكَ اللطفَ أوتلكَ الحِكْمَةَ ما قدروا على إدراكِهِ.

وفي ذلكَ نَقْضُ قولِ المَعْتَزِلَةِ، لأنَّ الطَّيَرانَ فِعْلُ الطَّيرِ. ثم إضافةُ[10] / ٢٩٠ ـ أ/ ذلكَ إلى اللهِ حينَ[11] قالَ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ دَلَّ ذلكَ أنَّ للهِ في ذلكَ صُنْعاً وفِعْلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ جميعُ ما ذَكَرَ يكونُ آيةً لِمَنْ آمَنَ، لأنهُ هو المُنْتَفِعُ[12].

---

(١) في الأصل وم: مما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أنكم كنتم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يدركون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) في الأصل وم: يدركوه. (١٠) في الأصل وم: أضاف. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: المشفع.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: لَمْحُ البَصَرِ سُرعَةُ النَّظَرِ، وجَوُّ السماءِ هواؤُها، ويُقالُ: بَطْنُ السماءِ، ويُقالُ: جَوفُ السماءِ، ويُقالُ: الجَوُّ ما اطْمَأَنَّ مِنَ الأرضِ، والأولُ أشْبَهُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ظاهِرُ هذا أنهُ قد جَعَلَ لَنا مِنَ البيوتِ أيضاً ما ليسَ بِسَكَنٍ، لأنهُ قالَ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور: ٢٩] وهو كالمساجِدِ والرِّباطاتِ وغيرِها.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَعْرِفوا عَظِيمَ مِنَنِهِ ونِعَمِهِ حينَ[1] جَعَلَ الأرضَ بِمَحَلٍّ، يَقِرُّونَ عليها، ويُمَكِّنُ لهمُ المُقامَ بها بالرواسي التي ذَكَرَ أنهُ أثْبَتَها[2] فيها بَعْدَ ما كادَتْ تَميدُ بهِمْ، ولا [يَقِرُّونَ عليها][3].

أخْبَرَ أنهُ [جَعَلَ][4] فيها رواسِيَ، أو أنْ يكونَ ﴿مِّنۢ﴾ حَرْفَ صِلَةٍ، أي جَعَلَ لكمْ بيوتاً تَسْكُنونَ فيها.

ثم قولُهُ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي سَخَّرَ الأرضَ حتّى قَدَرْتُمْ على اتِّخاذِ المَساكِنِ فيها، تَسْكُنونَ فيها.

والثاني:[5] : جَعَلَ لكُمْ بيوتاً أي عَلَّمَكُمْ[6] ما تَبْنونَ فيها مِنَ البُيوتِ، ما لولا تَعْليمُهُ إياكُمْ ما تَقْدِرُونَ على بناءِ البيوتِ فيها، يَذْكُرُ مِنَّتَهُ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآياتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا﴾ ونَحْوِهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ، لأنه ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ بيوتاً سَكَناً، والسَّكَنُ فِعْلُ العِبادِ. دَلَّ أنَّ لِلَّهِ في فِعْلِهِمْ صُنْعاً.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا﴾ أي مِنْ صوفِها، لكنهُ أضافَها إلى الجلودِ لِما مِنَ الجلودِ يُخرَجُ [الصوفُ][8]، ومنها يُجَزُّ، ويُؤخَذُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ وهو صوفُ الغَنَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وهو صوفُ الإبلِ ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ ما يُخرَجُ مِنَ المَعْزِ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ قيلَ: لِيومِ سَفَرِكُمْ وسَيرِكُمْ ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ولِيوم إقامَتِكُمْ.

قالَ [بَعْضُ أهلِ التأويلِ][10]: في المِصْرِ، وقالَ بعضُهُمْ: في السَّفَرِ حينَ النُّزولِ.

والجَعْلُ في هذا يَحْتَمِلُ الوَجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾

أحَدُهُما: على التَّخْيِيرِ لهمْ.

والثاني: على التعليمِ. ذَكَرَ ﷻ في البيوتِ المُتَّخَذَةِ مِنَ المَدَرِ السُّكْنى حينَ[11] قالَ: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، ولم يَذْكُرْ في البيوتِ المُتَّخَذَةِ مِنَ الجُلودِ والأوبارِ والأشعارِ. فكأنهُ تَرَكَ ذِكْرَهُ في هذا لِذِكْرِهِ في الأوَّلِ ذِكْرَ تَصْريحٍ، وذَكَرَ في الثاني: ذِكْرَ دلالةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَثَـٰثًا﴾ قيلَ: الأثاثُ والرِّياشُ واحدٌ، وهو المالُ، وقيلَ: ما يُتَّخَذُ مِنَ الثيابِ والأمتعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى وقتٍ يَبْلَى ذلكَ الأثاثُ، أو ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَقْتِ فَنائِهِمْ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا﴾ لا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ظِلَـٰلًا﴾ البيوتَ التي ذَكَرَ، وهي تَظُلُّهُمْ، ويَحْتَمِلُ الأشجارَ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾ وهي الغيرانُ والبُيوتُ التي تُتَّخَذُ في الجِبالِ لِتَقِيهِمْ عنِ الحَرِّ والبَرْدِ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قيلَ: القُمُصُ والدروعُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: أثبت. (٣) في الأصل وم: تقربها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) أدرج بعدها في م: تسكنون فيها ثم قوله﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل بعض، في م: بعضهم. (١١) في الأصل وم: حيث.

ثم ذَكَرَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ البيوتِ والأكنانِ والسرابيلِ ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وتَقِيكُمْ أيضاً بأسَ العَدُوِّ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ذَكَرَ أنها تَقي مِنَ الحرِّ والبَرْدِ جميعاً. فكانَ في ذِكْرِ أحدِهِما ذِكْرُ الآخَرِ ذِكْرَ كِفايَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ لِيُلْزِمَهُمُ الإسلامَ أو حُجَّتَهُ. ثم تَحْتَمِلُ النِّعْمَةُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ويَحْتَمِلُ الرسولَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ جميعُ ما ذَكَرَ مِنَ النِّعَمِ والآياتِ في هذِهِ السورةِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها إنما ذَكَرَهُ[1] لهذا الحَرْفِ، وهو قولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ وما ذَكَرَ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤ و٧٨] وذَكَرَ[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥] تَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الأحْرُفُ كُلُّها واحداً. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ مَعْنًى غَيرَ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عنِ الإجابةِ لكَ وعمَّا تَدعوهُمْ إليهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ليسَ عليكَ [إجابَتُهُمْ، إنما عليكَ][3] التبليغُ إليهِمْ والبَيانُ لهمْ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ تَحْتَمِلُ النِّعْمَةُ ههنا محمداً ﷺ كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠] وما ذَكَرَ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويَحْتَمِلُ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ يَعْرِفونَ نِعْمَةَ اللهِ وما ذَكَرَ عَرَفوها أنها مِنَ اللهِ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بِعبادتِهِمُ الأصنامَ وصرفِهِمْ شُكْرَها إلى غَيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] معَ ما يَعْرِفونَ أنَّ اللهَ هو خالِقُهُمْ، وأنَّ ما لهمْ كُلَّهُ مِنْ عندِ اللهِ، يَعْبُدونَ الأصنامَ، فتكونُ عبادتُهُمْ دونَ اللهِ كُفْرانَ نِعْمَةِ اللهِ.

وقال أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يومَ سَيرِكُمْ، ظَعَنَ يَظْعَنُ سارَ، والسرابيلُ: القُمُصُ، يقولُ: ﴿تَقِيكُمْ﴾ أي تَسْتُرُكُمْ.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿ظِلَٰلًا﴾ أي ظِلالَ الشَّجَرِ والجبالِ، وقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، في قَومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ يؤمنونَ بِما ذَكَرَ لهمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ والأفضالِ، لِيُعْلَمَ أنَّ الإسلامَ مِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ، لا يَنالُهُ أحَدٌ إلاّ بِنِعْمَتِهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: سُمِّيَتْ سورةُ النحلِ سورةَ النِّعَمِ لِما فيها مِنْ ذِكْرِ النِّعَمِ وأنواعِ مَنافِعِ الخَلْقِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَهيدُها أنْ يَشْهَدَ عليهِمْ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنْ شهادةِ جَوارِحِهِمْ عليهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآيةَ [النور: ٢٤] وقولُهُ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ الآية [فصلت: ٢٠] وقولُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ الشهادةِ عليهِمْ عندَ إنكارِهِمْ أعمالَهُمُ التي عَمِلوها.

وقالَ بعضُهُمْ: شهيدُها رسولُها الذي بُعِثَ إليهِمْ، يَشْهَدُ عليهِمْ أنهُ قد بَلَّغَ إليهِمْ رسالاتِ ربِّهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] والنذيرُ، هو الرسولُ المَبْعوثُ إليهِمْ، وهو ما ذَكَرَ أيضاً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ١٤١] وكقولِهِ[4]: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

أخبَرَ أنه يَجيءُ بمحمدٍ ﷺ شَهيداً على أولئكَ، وأنَّ[5] الرسلَ قد بَلَّغوا الرسالةَ إليهِمْ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم.

﴿أَرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وقولُهُ: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الآية [المائدة: ١٠٩] وقولُهُ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ [فصلت: ٤٧] يسألُ الرسلَ عَنْ تبليغِ الرسالةِ إلى قومِهِمْ، ويسألُ قومَهُمْ عمَّا أجابوا الرُّسُلَ. إلى هذا يَذْهَبُ بعضُ أهلِ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وجميعُ[1] ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنْ مَجيئِهِ وإتيانِهِ ونَحْوِهِ جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ البَعْثَ. تفسيرُ ذلكَ كلِّهِ قولُهُ: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ كذا. مِنْ ذلكَ قولُهُ[2]: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢] [وقولُهُ][3]: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقولُهُ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ [النساء: ٤١] فهو البَعْثُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قالَ الحَسَنُ: لا يُؤْذَنُ لهمْ بالاِعْتِذارِ، لأنهُ لا عُذْرَ لهمْ، وهو ما قالَ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ و٣٦] لأنهُ، لا عُذْرَ لهمْ، واعْتِذارُهُمْ لا يَنْفَعُ لهمْ شيئاً؛ إذِ اعْتِذارُهُمْ مِنْ نَحْوِ قولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وقولِهِمْ: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] ونَحْوِ هذا ممَّا لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ، فلا يُؤْذَنُ لهمْ لِذلكَ ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

قالَ الحَسَنُ: ولا هُمْ يُقالونَ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]. أي مِنَ المُقالِينَ، لا يُقالونَ عمَّا كانَ منهُمْ. وقالَ/ ٢٩٠ ـ ب/ بعضُهُمْ: لا يُؤْذَنُ، ولا يُمَكَّنُ لهمْ مِنَ التوبةِ والرجوعِ عمَّا كانوا، لأنَّ ذلكَ الوَقْتَ ليسَ، هو وَقْتُ التوبةِ والرجوعِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ الآية [غافر: ٨٤] وقولِهِ[4]: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ [غافر: ٨٥] ونَحْوُهُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ العِتابُ في الخَلْقِ، هو تَذْكيرُ ما كانَ مِنَ الفَرْطِ لِيَرْجِعَ عمَّا كانَ منهُ، وذلكَ في الآخِرَةِ، لا يُحْتَمَلُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لا يُؤْذَنُ لهمْ بالكلامِ كقولِهِ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أو لا يُؤْذَنُ لِلشُّفعاءِ أنْ يَشْفَعوا للذينَ كَفَروا، ويُؤْذَنُ لِلشُّفعاءِ أنْ يَشْفَعوا للمؤمنينَ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ أي وقَعوا فيهِ. دليلُهُ ما ذَكَرَ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ [في وجهَينِ: أحَدُهما:][6] دلَّ هذا [أنهُ][7] لم يُرِدْ بهِ رُؤْيَةَ العذابِ، ولكنَّ الوقوعَ فيهِ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ لأنهُ يَدومُ، ولا تَخْفيفَ ممَّا يَدومُ مِنَ العذابِ ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي يُمْهَلونَ مِنَ العذابِ.

والثاني: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾ بما[8] اسْتَخَفُّوا، واسْتَحَقُّوا، واسْتَوْجَبُوا. أو [ما][9] ذَكَرْنا أنهُ لا يكون لعذابِهِمْ انْقِطاعٌ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أي قُرَناءَهُمْ وأولياءَهُمْ مِنَ الشياطِينِ كقولِهِ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ الآية [فصلت: ٢٥] وكقولِهِ[10] ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكقولِهِ[11]: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿شُرَكَآءَهُمۡ﴾ أولياءَهُمُ [الذينَ][12] كانوا لهمْ في الدنيا، فهمْ شُرَكاؤُهُمُ الذينَ[13] ذَكَرَ، وقولُهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ على هذا التأويلِ؛ كنا نَدْعوكَ وإياهُمْ ﴿مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي يقولونَ لهمْ ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ[14]: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ الأصنامُ التي عَبَدوها ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يُكَذِّبونَهُمْ. وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] يُكَذِّبونَهُمْ في ما قالوا، ويُخْبِرونَ أنهمْ كانوا غافِلِينَ عَنْ عِبادَتِهِمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عما. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وقوله.
(١١) في الأصل وم: وقوله. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: الذي. (١٤) في الأصل وم: قولهم.

وقالَ بعضُهُمْ: [قولُهُ](١): ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ الملائكةُ الذينَ عَبَدوهُمْ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾(٢) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبإ: ٤٠ و٤١].

أخبَروا أنهمْ إنما عَبَدوا الجِنَّ بأمرِهم، ولم يَعْبُدوهُمْ. أو يكونُ شُرَكاؤُهُمْ رؤساءَهُمُ الذينَ انقادَ الأتباعُ لهمْ، ويَحْتَمِلُ الأصنامَ وما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ يقولونَ لهمْ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي يُكَذِّبونَهُمْ في ما يَزْعُمونَ، ويَدَّعونَ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي يَخْضَعونَ كلُّهُمْ للهِ يومئذٍ، ويُخْلِصُونَ لهُ الدينَ، ويُسلِّمونَ لهُ الأمرَ والألوهيَّةَ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي بَطَلَ عنهُمْ ما طَمِعُوا بعبادتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ التي عَبَدوها مِنَ الشَّفاعةِ وغَيرِها كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] بَطَلَ عنهُمْ ما طَمِعوا، ورَجَوا مِنْ عبادةِ أولئكَ مِنَ الشفاعةِ لهمْ والقُرْبةِ إلى اللهِ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هؤلاءِ كانوا رؤساءَ الكَفَرَةِ وقادَتَهُمْ، ضَلُّوا هم بأنفُسِهِمْ، وأضَلُّوا أتباعَهُمْ، فَلَهُمُ العذابُ الدائمُ بكُفْرِهِمْ بأنفُسِهِمْ، وزيادةُ العذابِ بإضلالِ غَيرِهِمْ. وهو كقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وكقولِهِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ١٣] أخبَرَ أنهمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهُمْ وأثقالَهُمْ وأوزارَ الذينَ أضَلُّوهُمْ، ومَنَعوهُمْ عنِ الإسلامِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ بما أضَلُّوا أتباعَهُمْ، وسَعَوا في الأرضِ بالإفسادِ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ عذابَهُمْ كلما أرادَ أنْ يَفْتُرَ، ونَضِجَتِ(٣) الجلودُ، زِيدَتْ لهمْ بتَبْديلِ الجلودِ [النارُ، وكلما](٤) أرادتْ أنْ تَخْمُدَ [النارُ](٥) زِيدَ لهم سَعيرُها(٦) كقولِهِ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقولِهِ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] فذلكَ هو الزيادةُ في العذابِ.

ويَحْتَمِلُ غيرَ هذا، وهو أنَّ عذابَ الكُفْرِ دائمٌ أبداً، فَيَزدادُ لهمْ عذاباً بما كانَ لهمْ في الكُفْرِ سِوَى الكُفْرِ أعمالٌ ومَساوِئُ، كما يُعفَى، ويُتَجاوَزُ عنِ المؤمنينَ بما كانَ منهمْ مِنَ المَساوِئِ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف: ١٦] مُقابِلَ ما كانَ يُعْفَى عنِ المؤمنينَ المساوِئُ يُزادُ(٧) لأهلِ الكُفْرِ على عذابِ الكُفْرِ لِمَساوِئِهِمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: زِدْناهُمْ عذاباً ضِعْفاً بما كانوا يُفْسِدونَ.

وأصْلُهُ أنَّ جزاءَ الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ والعذابِ على المضاعفةِ لأنهُ دائمٌ، لا انْقِطاعَ لهُ، ما ذَكَرْنا مِنَ الزيادةِ والفَوقِ وغَيرِهِ على المُضاعفةِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي مِنَ البَشَرِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ شهادةِ الجَوارِحِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو ما ذَكَرْنا: يَشْهَدُ الرسولُ عليهِمْ بالتبليغِ، ويَشْهَدُ لِمَنْ أجابَهُ، وأطاعَهُ، وعلى [مَنْ رَدَّهُ، وكَذَّبَهُ](٨) بالرَّدِّ والتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ، لأنهُ ذَكَرَ فيها جميعَ أصنافِ النِّعَمِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٦٥. (٣) في الأصل وم: ينضج. (٤) في الأصل وم: نارها كلما. (٥) ساقطة من الأصل وم (٦) في الأصل وم: سعيرا. (٧) في الأصل وم: زيد. (٨) في الأصل وم: كذبه.

وجواهِرَها ووجوبَ الأسبابِ التي بها يُوصَلُ إليها، وذَكَرَ فيها ما سَخَّرَ لهمْ مِنْ أنواعِ الجَواهِرِ، وفيها[1] ذَكَرَ ما وَعَدَ، وأوعَدَ، وأمَرَ، ونَهى، وذَكَرَ ما حَلَّ بالأعداءِ وما ظَفِرَ أولياؤُهُ [بِهِ، وفيها][2] ذَكَرَ سُلْطانَهُ، وذَكَرَ سَفَهَ الكَفَرَةِ وعِنادَهُمْ، وذَكَرَ ما يُؤتَى، ويُتَّقَى. فذلكَ تِبيانُ كلِّ شَيْءٍ.

أو أنْ يكونَ في الكتابِ تِبْيانُ كلِّ شيءٍ؛ إذْ في القرآنِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ وأخبارِ الأُمَمِ الماضيةِ وأمثالِهِمْ وجميعِ ما يُؤتَى، ويُتَّقَى؛ ففيهِ تِبْيانُ كُلٍّ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

أو أنْ يكونَ أنْزَلَ عليهِ الكتابَ [تِبْياناً][3] لكلِّ ما دعا بهِ الرسلُ، وجاءَتْ بهِ الرسلُ والكتبُ جميعاً؛ [إذْ][4] في هذا الكتابِ جميعُ ما أتَى بهِ الرسلُ والكتبُ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوعيدِ كقولِهِ: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ثم اخْتُلِفَ في ذلكَ البَيانِ. قالَ بعضُهُمْ: تَحْتَمِلُ الآيةُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: الخصوصُ على الأصولِ دونَ الفروعِ كَذِكْرِ الكَمالِ [للدينِ، لأنَّ ذلكَ وَصْفُ الدينِ، وقد يَقَعُ لهُ الكمالُ][5] بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهذا لِلْكتابِ. فلم يَجُزِ التقصيرُ عنِ الاشْتِمالِ عمّا لَزِمَتِ الحاجةُ في أمرِ الديانةِ، لذلكَ[6] ذَكَرَ أنَّ الكتابَ تِبيانٌ لكلِّ ما وقَعَتْ إليهِ حاجةٌ في أصولِ الدينِ مِنَ الإيمانِ وأنواعِ العباداتِ والأحكامِ مَعَ الحدودِ والحقوقِ ومكارِمِ الاخلاقِ وانْتِظامِ[7] صِلَةِ الرَّحِمِ وعِشْرَةِ الإخوانِ وصُحْبَةِ الجيرانِ ونَحْوِ ذلكَ.

فَتَشْتَمِلُ هذهِ الجملةُ على أصولِ الدينِ، وما وراءَها يكونُ مَوكولاً إلى بَيانِ الرسولِ لِيَبْقَى الكتابُ بما شَرَطَ لهُ تِلاوةً ودَلالةً[8].

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ تِبْياناً لكلِّ شيءٍ مُنْتَظِماً لِما فيهِ [مِنْ][9] جُمَلِهِ ومُبْهَمِهِ ومُشْكِلِهِ ولِبيانِ الرسولِ جُمَلِهِ وتَفْسيرِ مُبْهَمِهِ وإيضاحِهِ ودَلالتِهِ على مُشْكِلِهِ؛ إذِ[10] السُّنَنُ كلُّها بيانٌ لِلْكتابِ لِارْتِباطِ بَعْضٍ بِبَعْضٍ.

ثم قد تَحْتَمِلُ الآياتُ التي فيها ذِكْرُ البَيانِ والتفصيلِ وجوهاً غَيْرَ الوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُما:

أحدُهما: أنهُ تِبْيانُ كلِّ شَيءٍ، ظَهَرَ فيهِ التنازُعُ بَيْنَ أهلِ الأديانِ، وأَلْزَمَتْهُمُ الضرورةُ فيهِ إلى البَيانِ، فَجَعَلَ اللهُ الكتابَ تِبْياناً، أَلْزَمَهُمْ بالتَّدَبُّرِ والعِلْمِ بأنهُ مِنْ عندِ اللهِ بِخُروجِهِ عمّا عليهِ وُسْعُ القومِ عنْ نوعِ ما ذَكَرَ فيهِ مِنَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ وبما أعْجَزَهُمْ/ ٢٩١ ـ أ/ عنِ الطَّمَعِ في تأليفِ مِثْلِهِ ونَظْمِهِ لِيَعْرِفُوا أنَّ اللهَ قد أعانَهُمْ في ما مَسَّتْهُمُ[11] الحاجةُ، وأَلْجَأَتْهُمُ الضرورةُ إلى [مَنْ][12] يُطْلِعُهُمْ على الحَقِّ في ما لو أُهْمِلُوا عَنْ ذلكَ لَتَوَلَّدَ منهُ العَداوةُ والعِنادُ، فأنْعَمَ اللهُ عليهِمْ بهِ، وبَيَّنَ فيهِ جميعَ ما بهِمْ إليهِ مِنَ الحاجةِ لِدوامِ الأُخُوَّةِ.

والثاني: أنْ يكونَ فيهِ تِبْيانُ كلِّ شَيْءٍ بالطَّلَبِ مِنْ عِنْدِهِ. وبالبَحْثِ فيهِ الظَّفَرُ بهِ بِكُلِّ ما يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الحاجاتِ إلى الأبدِ، فيكونُ هو أصْلَ ذلكَ. لكنْ باخْتِلافِ[13] الأسبابِ، يوصَلُ إلى حقيقةِ[14] العِلْمِ بهِ. وذلكَ نَحْوُ ما جَعَلَ الماءَ حياةً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَوَصَفَ أنَّ في السماءِ رِزْقَ جميعِ الخَلْقِ، فإنهُ أنْزَلَ مِنَ السماءِ اللباسَ والرِّياشَ. وأخْبَرَ أنهُ خَلَقَنا مِنْ تُرابٍ، ثم أخْبَرَ أنهُ خَلَقَنا جميعاً مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ على رجوعِ كلِّ ما ذَكَرْنا باختلافِ الأسبابِ والتَّوَلُّدِ إليهِ، واللهُ أعلَمُ. وذلكَ كما قالَ أهلُ الكلامِ في جَعْلِ المَحْسوساتِ أدِلَّةً لكلِّ غائبٍ؛ جَعَلَها اللهُ أدِلَّةً تُوصِلُ إليهِ بالتَّأَمُّلِ والنَّظَرِ، فيكونُ المَحْسوسُ مُبَيِّناً مِنْ ذلكَ دالّاً على اختِلافِ الدرجاتِ في هذا البيانِ مَعَ ما قد جَعَلَهُ اللهُ كذلكَ. حتى إنَّ في الفلاسِفَةِ مَنْ تَكَلَّفَ اسْتِخْراجَ كُلِّيَّةِ أمورِ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ وما على ذلكَ مَدارُ ما عليهِ مِنَ المَحْسوسِ. فَمِثْلُهُ أمْرُ القرآنِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ فيه بَيانٌ على الرَّمْزِ والإشارةِ مَرَّةً، وعلى الكَشْفِ ثانياً. فَما كانَ منهُ على الرَّمْزِ، فهو مطلوبٌ في

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) في الأصل وم: بهم وفيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل، ولعل المؤلف يشير إلى قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٨]. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: تنتظم. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: الوجه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال و. (١١) من م، في الأصل: مسته. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: باختلافهم. (١٤) من م، في الأصل: الحقيقة.

المَعاني وطريقِ الرسولِ إلى ما في تلكَ المَعاني مِنَ الأمورِ مُختلِفَةٌ. منها ما يَقَعُ بِمَعونةِ الوَحْيِ مِنْ غَيرِ الكتابِ على اختِلافِ وُجوهِ الوَحْيِ مِنْ إرسالٍ على لسانِ مَلَكٍ أو رُؤيا أو إلهامٍ.

والتَّأمُّلُ في ذلكَ والاسْتِدلالُ بما قد أوضَحَهُ بَعْدَ توفيقِ اللهِ لِلْحَقِّ في ذلكَ وعِصْمَتِهِ عنِ الزَّيْغِ أو على ما شاءَ مِنْ ترتيبِ الحُكَماءِ في حَقِّ التفاهُمِ لِغَوامِضِ الأمورِ أو غَيرِ ذلكَ ممّا يريدُ اللهُ أنْ يُطلِعَ عليهِ نَبيَّهُ.

فإنْ لُطْفَ ربِّ العالَمينَ بما عامَلَ بهِ الأخيارَ يَجِلُّ عنِ احتِمالِ العِبارةِ أو تصويرِهِ في الأوهامِ نَحْوُ كتابَةِ الحَفَظَةِ وقَبْضِ مَلَكِ الموتِ أرواحَ الخَلْقِ في وَقْتٍ واحدٍ في أطرافِ الأرضِ، ونَحْوُ ذلكَ كلِّهِ حَدُّ اللطفِ الذي يَعْجِزُ البَشَرُ عنِ الإحاطةِ [بهِ][1].

فَعَلَى ذلكَ أمْرُ تِبيانِ كلِّ شيءٍ مع ما يَحْتَمِلُ الرجوعَ بتأويلِ الآيةِ إلى أغْلَبِ الأمورِ أو أعَمِّها كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وغَيرِهِ. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والأصلُ عندَنا أنْ ليسَ لِلْبيانِ عَدَدٌ، يَجِبُ حِفْظُ العَدَدِ على ما ذَكَرَهُ قومٌ أنهُ على خَمْسَةِ أوجهٍ. إنما هو أمْرانِ:

أحَدُهُما: ما يُبيِّنُ هو.

والثاني: ما يُبيِّنُ غَيرُهُ. لكنَّ الوُجوهَ[2] التي بها يَقَعُ ما غابَ عنِ الحواسِّ بالبيانِ: أصْلُها[3] الواقعُ تَحْتَ الحواسِّ، إذِ البَيِّنُ الذي مَنْ جَحَدَ حُرِمَ أوَّلَ درجاتِ البَيانِ [ومُنِعَ عنْ فَهمِ المَجْحودِ][4] وكَفَى كُلّاً مؤْنَةَ خُصومَتِهِ، ثم غَيْرُهُ ممّا يَصيرُ بالتأمُّلِ على الوجوهِ التي جُعِلَتْ للوصولِ إليهِ، وإنْ بَعُدَ، أو قَرُبَ بدليلِهِ كالمَحْسوسِ؛ إذِ التأمُّلُ في الأسبابِ هو سببُ الوُصولِ إلى ما غابَ كاسْتِعمالِ الحواسِّ في ما يَشْهَدُ. فَمَنْ أرادَ القَطْعَ على حَدٍّ أو شيءٍ احتاجَ[5] إلى دليلٍ فيهِ.

وأصلُ البَيانِ حقيقةً هو الظهورُ، وأسبابُ إظهارِ الأشياءِ مُتفاوِتَةٌ. وعلى ذلكَ مَقاديرُها مِنَ الظهورِ، وجُمْلَتُهُ ارْتِفاعُ التواتُرِ عنِ القلوبِ، وتَجلّي حقائقِ الأمورِ لها على قَدْرِ العقولِ في الإدراكِ، وما يَتَجلّى لِلْقلوبِ على مقدارِ ما يَحْتَمِلُ مِنَ الظهورِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ يَجِبُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقولُهُ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ كلُّهُ واحدٌ: الرَّحْمَةُ والهُدى والبيانُ، وبِرَحْمَتِهِ وبِهُداهُ يَتَبَيَّنُ لهمْ، ويَتَّضِحُ. لكنهمْ قالوا: البيانُ للناسِ كافَّةً؛ يَتَبيَّنُ، ويَتَّضِحُ إلّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ، والهُدَى والرَّحْمَةُ للمؤمنينَ خاصَّةً على ما ذَكَرَ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ذلكَ لِلْمُسْلِمينَ خاصَّةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ في ما بينَ الناسِ، أي يأمُرُ بالحُكْمِ في ما بَيْنَهُمْ بالعَدْلِ والإحسانِ، وما كَلَّفَهُمْ بالطاعةِ لهُ. أو يكونُ الأمْرُ بالإحسانِ إلى أنفُسِهِمْ أو إلى الناسِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ بالعَدْلِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ، والإحسانُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ؛ أي يُعامِلُ ربَّهُ بالعَدْلِ، لأنَّ العَدْلَ هو وَضْعُ الشيءِ مَوضِعَهُ، وهو لا يَقْدِرُ على المجاوَزَةِ عنِ العَدْلِ حتى يكونَ في حَدِّ الإحسانِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ، ويَقْدِرُ أنْ يَصْنَعَ إلى خَلْقِهِ أكثَرَ ممّا يَصْنَعونَ هم إليهِ، فيكونُ مُحْسِناً إليهمْ، وأمّا إلى اللهِ فلا يكونُ مُحْسِناً.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إعطاءِ ذي القُرْبَى الصَّدَقَةَ مِنْ غيرِ الزكاةِ المفروضةِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ هي المَعاصي، أي نَهَى عنِ المَعاصي كلِّها.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالحَقِّ الذي لهُ عليهِمْ ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ هو ما تَعَبَّدَهُمْ مِنَ العباداتِ والطاعاتِ جَعَلَ سَبَبَ عَطْفِ بعضِهِمْ على بعضٍ ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صِلَةُ القَرابَةِ والأرحامِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الوجه. (٣) في الأصل وم: أصله. (٤) في الأصل وم: عن فهم الجحود عنه أن الجحود.
(٥) في الأصل وم: يحتاج. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ ابنُ عباسٍ ومُقاتِلٌ وقَتادةُ وغيرُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالتوحيدِ ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي أداءِ الفرائضِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وقَتادةَ، وقالَ مُقاتلٌ: قولُهُ: ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ هو في ما بَيْنَهُمْ؛ يُحْسِنُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صِلَةُ الأرحامِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي الزِّنى ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي الشِّركِ ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ مَظالِمُ الناسِ.

وقالَ بعضُهُمْ: المُنْكَرُ ما لا يُعْرَفُ في الشرائعِ والسُّنَنِ. ويُقالُ: المُنْكَرُ ما أوعَدَ اللهُ عليهِ النارَ، والبَغْيُ الاِسْتِطالةُ والظلْمُ.

ثم تَجِبُ [معرفةُ][1] حقيقةِ العَدْلِ ما [هو؟ هو][2] واللهُ أعلَمُ، وَضْعُ كلِّ شيءٍ موضِعَهُ، ويَدْخُلُ فيهِ كلُّ شيءٍ: التوحيدُ وغَيرُهُ؛ تُجْعَلُ الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ للهِ، لا يُشْرَكُ[3] فيها غَيرُهُ، ولا تُصْرَفُ[4] إلى غَيرِهِ، ولا تُضافُ[5]. بل تُنْسَبُ الربوبيَّةُ والألوهيَّةُ إلى اللهِ والعُبودةُ إلى العبادِ، ولا تُضافُ العبودةُ إلى اللهِ، ولا الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ إلى العبادِ. فذلكَ العَدْلُ وَوَضْعُ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ: الربوبيَّةُ في مَوضِعِها، والعُبودةُ في مَوضِعِها. هذا، واللهُ أعلَمُ، معنى العَدْلِ.

وأمَّا الإحسانُ فهو ما قالَ النَّبِيُّ ﷺ «إنَّ جبريلَ سَألَهُ عنِ الإحسانِ حينَ سألَهُ عنِ الإيمانِ والإسلامِ، فقالَ: ما الإحسانُ؟ فقالَ: أنْ تَعْمَلَ للهِ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنهُ يَراكَ، و مَنْ يَعْمَلُ لآخَرَ بحيثُ يَراهُ، ويَنْظُرُ إليهِ [يَكُنْ أبداً طالباً][6] رضاهُ في ذلكَ العملِ وإخلاصَهُ لهُ وطالباً[7] مَرضاتَهُ فيهِ» [البخاري ٥٠].

فهو يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً؛ أعني الإحسانَ:

أحدُها: ما ذَكَرَ أنهُ يَعْمَلُ للهِ[8] كأنهُ يَراهُ، وذلكَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ.

والثاني: في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ، وهو أنْ يُحِبَّ لهمْ كما[9] يُحِبُّ لنفسِهِ في ما أُذِنَ لهُ في ذلكَ.

أو نَقولُ على الإطلاقِ: يُحِبُّ لهمْ كما يُحِبُّ لنفسِهِ فإنْ عورِضَ بالقتالِ والحروبِ التي بَيْنَنا وبينَ أهلِ الحربِ، وذلك بالذي لا نُحِبُّ لأنفسِنا، ونُحِبُّ لهمْ، قِيلَ: في ذلكَ طَلَبُ نَجاتِهِمْ، وتخليصُهُمْ مِنَ الهلاكِ والعذابِ الدائمِ الأبَدِيِّ. وذلكَ مِمَّا نُحِبُّ لأنفسِنا، ونُحِبُّ لهمْ، قيلَ: في ذلكَ طَلَبُ نَجاتِهِمْ، وتخليصُهُمْ مِنَ الهلاكِ والعذابِ الدائمِ الأبَدِيِّ. وذلكَ مِمَّا نُحِبُّهُ نَحْنُ لأنفُسِنا: أنْ يَسْعَى أحدٌ في نجاةِ أحَدِنا مِنَ المَهْلَكَةِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وليسَ في الظاهرِ رَحْمَةٌ، لكنْ في الحقيقةِ رَحْمَةٌ حينَ[10] يَحْمِلُهُمُ القتالُ على الإسلامِ، إذا كانَ قَبْلَ نَصْبِ القِتالِ والحروبِ مَعَهُمْ لم يُسْلِمْ إلاّ قليلٌ منهمْ؟ فلمَّا نُصِبَتِ الحُروبُ مَعَهُمْ والقتالُ دَخَلُوا في الإسلامِ أفواجاً أفواجاً. فصارَ ذلكَ في الحقيقةِ رَحْمَةً، وإنْ كانَ في رَأْيِ العَيْنِ في الظاهِرِ ليسَ بِرَحْمَةٍ.

وكذلكَ هذهِ/ ٢٩١ ـ ب/ المصائبُ والبلايا التي يَحِلُّ بالخَلْقِ، هي في الحقيقةِ نِعْمَةٌ ورَحْمَةٌ. ولذلكَ عَدَّها، وسَمَّاها بعضُ الناسِ لِما تُعْقِبُ مِنَ الثوابِ والنِّعْمَةِ والصَّبرِ عليها، ورَأى ذلكَ منهُ حَقًّا وعَدْلاً، ورَأى حالَ الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ منهُ، فهو يُطَيِّبُ نفسَهُ في جميعِ الأحوالِ، تَنْصَرِفُ بهِ مِنَ الشِّدَّةِ والضِّيقِ. فإذا رَأى نِعْمَةً ما تَعَقَّبَ عَنِ الخيرِ والنَّفْعِ في العاقِبَةِ. فَمِنْ هذهِ الجِهَةِ يجوزُ أنْ يُقالَ: ذلكَ نِعْمَةٌ ورَحْمَةٌ.

وأمّا في ظاهرِ الحالِ فلا، وذلكَ أنَّ كلَّ بلاءٍ يَنْزِلُ بأحدٍ، فَصَبَرَ عليهِ، كانَ في ذلكَ خصالٌ أربَعٌ:

إحداها: تكفيرُ ما كانَ ارْتَكَبَ مِنَ المعاصي. **والثانيةُ**[11]: مَعْرِفَةُ العبودةِ ومُلْكِ غَيرِهِ عليهِ. **والثالثةُ**[12]: ما يَعْقِبُ مِنَ الثوابِ والنِّعَمِ [الدائمةِ. والرابعةُ:][13] معرفةُ النِّعَمِ: مِنَ الشِّدَّةِ يَعْرِفُ النِّعَمَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: شريك. (٤) في الأصل وم: يصرفها. (٥) في الأصل وم: يضيف.
(٦) في الأصل وم: يكون أبدا طالب. (٧) في الأصل وم: وطلب. (٨) في الأصل وم: له. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: حيث.
(١١) في الأصل وم: الثاني. (١٢) في الأصل وم: والثالث. (١٣) في الأصل وم: الدائم والرابع.

والثالثُ[1]: الإحسانُ إلى نفسِهِ، فهو[2] أنْ يَحفظَها عمَّا فيهِ هلاكُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ الفحشاءُ [هي مِمَّا يُنكَرُ، ويَفحُشُ مِنَ الشَّرِّ، والمُنكَرُ][3] هو الشيءُ الغريبُ [الذي][4] لا يُعرَفُ. ألا تَرَى إلى قولِ إبراهيمَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؟ [الحجر: ٦٢] سَمَّاهُمْ مُنكَرينَ لِما لا يَعرِفُهُمْ. فالمُنكَرُ ما يَفعَلُ مما[5] مما هو مَعروفٌ بالخَيرِ والصلاحِ [بِسَبَبِ الزلاتِ، فيكونُ ذلكَ منهُ][6] غريباً؛ إذْ لم [يُعرَفْ بذلكَ. فذلكَ منهُ غريبٌ][7].

والفحشاءُ ما تكونُ مِنْ أهلِ الفَسادِ والشرورِ، وذلكَ مِمَّا يُنكَرُ، ويَفحُشُ ذلكَ منهمْ، والبَغْيُ هو الظُّلْمُ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا كلُّهُ المُنكَرَ والفَحشاءَ والبَغيَ، وكلُّهُ واحدٌ: الفَحشاءُ هي المُنكَرُ، والفَحشاءُ هي البَغيُ، والمُنكَرُ هو الفَحشاءُ والبَغيُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي يَنهاكُمْ عمَّا ذَكَرَ كلَّهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتَنتَهونَ عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: والمَوعِظَةُ، هي التي تُلَيِّنُ القلوبَ القاسِيَةَ، وتَصرِفُها إلى طاعةِ اللهِ. وقد ذَكَرْنا.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يَحتَمِلُ [أمْرَهُ بِوَفاءِ][8] العهودِ التي يُعطِي بعضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ أمَرَهُمْ بِوَفاءِ ذلكَ، ونَهاهُمْ عنْ نَقضِها، وألزَمَهُمْ وفاءَ عَهْدِ اللهِ، وإنْ لم يُعاهِدوا في ذلكَ. لكنهُ ذَكَرَ وفاءَ العَهْدِ إذا عاهَدوا، ونَهَى عنِ النَّقْضِ، لأنَّ تَرْكَ وفاءِ ما عاهدوا ونَقْضَ ما أعطَوا على ذلكَ شَرْطاً أقْبَحُ وأوحَشُ مِمَّا لم يُعاهِدوا. وهو كقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

تَرْكُ الوفاءِ ونَقْضُهُ بَعْدَ قولِهِمْ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أوحَشُ وأفحَشُ مِنْ نَقْضِهِ، إذا لم يَكُنْ لهمْ عَهْدٌ سابقٌ وشَرْطٌ مُتَقَدِّمٌ. وهذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى أمْرِهِ بِوَفاءِ العَهْدِ إذا عاهَدوا، وإنْ كانَ وَفاءُ العَهْدِ لازماً لهمْ، وإنْ لم يُعاهِدوا.

إنَّ جَعْلَ اللهِ البَشَرَ بحيثُ يَقْبَلُونَ الحِكْمَةَ والمِحْنَةَ، وجَعْلَ بُنْيَتِهِمْ وخِلْقَتِهِمْ بحيثُ يَقدِرُونَ على القِيامِ بذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] [الآية] أي إني خَلَقْتُهُمْ وبُنْيَتَهُمْ، أي لم يَجْعَلْ خِلْقَةَ هذهِ الأشياءِ وبُنْيَتَها تَحتَمِلُ ذلكَ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي خِلْقَتُهُ وبُنْيَتُهُ تَحتَمِلُ ذلكَ والقيامَ به[9].

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ العهودُ التي أمَرَ بِوَفائِها إذا عاهَدوا على الأيمانِ التي يُقْسِمونَ بها حينَ[10] قالَ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ذَكَرَ الأيمانَ، ونَهَى عَنْ نَقْضِها. ثم لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ عنِ النَّقْضِ في الأيمانِ التي يأثَمُ بها المَرْءُ إذا حَلَفَ لأنهُ نَهَى عنْ نَقْضِها، ولو كانَ يَأثَمُ بِعَقْدِها لكانَ لا يَنْهَى عنْ نَقْضِها، لأنَّ الأيمانَ التي يَأثَمُ بها المَرْءُ إذا حَلَفَ يَنقُضُها، أو لا يُؤمَرُ بوفائِها وحِفْظِها.

ثم ذَكَرَ فيه ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولم يُبِحْ نَقْضَ اليمينِ [وإنْ][11] لم يُؤَكِّدْها إذا لم يَكُنْ في الوفاءِ بها إثْمٌ. لكنهُ ذَكَرَ التوكيدَ لأنَّ النَّقْضَ بَعْدَ ذلكَ أقبَحُ وأفحَشُ مِنَ النَّقْضِ على غَيرِ التوكيدِ على ما ذَكَرَ مِنَ القُبْحِ والفُحْشِ في بعضِ العهودِ بعدَ ما عاهدوا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هو حَلِفُهُمْ باللهِ لأنَّ مُشركي العَرَبِ كانوا لا يُقْسِمونَ باللهِ لِما يَعْظُمُ مِنَ الأمرِ، ويَجِلُّ. وذلكَ آخِرُ أقسامِهِمْ. وكذلكَ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩ والنحل: ٣٨] هو قَسَمُهُمْ باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ قيلَ: كانوا يَحلِفونَ في ما بَيْنَهُمْ على جَعْلِ اللهِ كفيلاً عليهِمْ. وقيلَ: الكفيلُ هو الشهيدُ الحافظُ. وهكذا يُؤخَذُ الكفيلُ في ما يُؤخَذُ لِيَحفَظَ المالُ والنفسُ.

---

(١) في الأصل وم: وأما. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: هو ما يكبر يفحش من الشيء هو المنكر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم. من. (٦) في الأصل وم: من الزلات فيكون ذلك منهم. (٧) في الأصل وم: يعرفوا بذلك فذلك منهم. (٨) في الأصل وم: أمرها بوفائها العهد. (٩) في الأصل وم: بها. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م، في الأصل: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِنَ الوفاءِ بما عاهَدوا أوِ النَّقْضِ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ الآيةِ [قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ][١] نزَلَتْ في مُخالفةِ أهلِ الكُفرِ بعضِهِمْ بعضاً؛ وهو أنْ يَرِثَ بعضُهُمْ بعضاً، ويَنْصُرَ، ويُعينَ بعضُهُمْ بعضاً [ويَحْلِفوا على ذلكَ ويُقْسِموا][٢] فإن هَلِكوا في ذلكَ أي في نَصْرِ بعضِهِمْ بعضاً، ثم إذا رَأَوُا الكَثْرَةَ والغَلَبَةَ معَ غَيرِ الذينَ حالَفوا، نقَضوا ذلكَ، ورَجَعوا إلى الذينَ مَعَهُمُ الكَثْرَةُ والغَلَبَةُ، فنُهُوا عن ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في الذينَ يكونونَ بَعْدَ رسولِ اللهِ وأصحابِهِ لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ [منهُمْ][٣] خوارجُ وأهلُ اختلافٍ في الدينِ، فربما كانَتِ الكَثْرَةُ والغَلَبَةُ لهمْ على أهلِ العَدْلِ. فَنَهى مَنْ عاهدَ أهلَ العَدْلِ، وبايَعَهُمْ أنْ يَتْرُكَ، لِكَثْرَتِهِمْ وغَلَبَتِهِمْ، الكونَ معَ أهلِ العَدْلِ وإعانَتَهُمْ ونَقْضَ ما عاهَدوا. ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ وقولُهُ[٤] هذا يَدُلُّ أنهُ في أهلِ الإسلامِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في أهلِ النفاقِ: إنهمْ كانوا يُقْسِمونَ ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٦] كانوا يَرَونَ مِنْ أنْفُسِهِمُ الموافَقَةَ لهمْ والنَّصْرَ والعَوْنَ لهمْ على أعدائِهِمْ، ويَحْلِفونَ على ذلكَ. ثم إذا رَأَوُا الكَثْرَةَ مَعَ الكَفَرَةِ والغَلَبَةَ وقِلَّةَ المؤمنينَ تَحَوَّلوا إلى أولئكَ، ونَقَضوا أيمانَهُمْ، وكانوا مَعَهُمْ، كقولِهِ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤١].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي لا تكونوا في نَقْضِ العُهودِ والمَواثيقِ كالمرأةِ التي تَنْقُضُ ﴿غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ غَيرَ هذا: يقولُ: ولا تَظُنُّوا في اللهِ أنهُ يكونُ في إنشاءِ الخَلْقِ كالمرأةِ التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ فلو لم يَكُنْ بَعْثٌ لكانَ يكونُ في إنشاءِ الخَلْقِ كالمرأةِ ﴿كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وقد عَرَفْتُمْ قُبْحَ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ إنشاءُ الخَلْقِ إذا لم يكنْ بَعْثٌ يكونُ في القُبْحِ ما ذُكِرَ.

ثم ضَرَبَ اللهُ مَثَلَ مَنْ أعطى العَهْدَ والمَواثيقَ، وَوَكَّدَ الأيمانَ في ذلكَ، ثم نَقَضَ ذلكَ، بامْرَأةٍ تَغْزِلُ، تَنْقُضُ ذلكَ الغَزْلَ ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما لم تَنْتَفِعْ هذهِ المَرْأةُ بِغَزْلِها إذا نَقَضَتْهُ[٥] مِنْ إبرامِها إياهُ، كذلكَ لا يُنْتَفَعُ، ولا يوثَقُ بِمَنْ أعطى العَهْدَ، ثم نَقَضَ. يقولُ: فلا هي تَرَكَتِ الغَزْلَ تَنْتَفِعُ بِهِ، ولا هي تركَتِ القطنَ والكتانَ كما هو، فكذلكَ الذي يُعْطي العهدَ، ثم يَنْقُضُهُ؛ فلا هو حينَ أعطاهُ وَفَى بِهِ، ولا هو تَرَكَ [العَهْدَ][٦] فلم يُعْطِهِ، ونَحْوَه.

ثم اخْتُلِفَ في تلكَ المرأةِ: قالَ بعضُهُمْ: هي امرأةٌ مِنْ قُريشٍ حمقاءُ بمكةَ، كانَتْ إذا غَزَلَتْ نَقَضَتْهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا على التمثيلِ: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أي لو سَمِعْتُمْ بامرأةٍ نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ إبرامِهِ لَقُلْتُمْ: ما أحْمَقَ هذهِ! فَعَلى ذلكَ مَنْ أعطى العَهْدَ والميثاقَ/ ٢٩٢ ـ أ/ ثم نَقَضَ، فهو كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الداخلُ الذي لا يَصِحُّ، ولا يَسْتَقيمُ، يُقالُ: هذا مَدْخولٌ أي غيرُ صحيحٍ. وقالَ غَيرُهُ: ﴿دَخَلًۢا﴾ أي خديعةً ومَكْراً، يَخْدَعُ بعضُكُمْ بعضاً، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ أيضاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي خِيانةً وَوُغولاً ﴿بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي فريقٌ ﴿هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ فريقٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿أَنكَـٰثًا﴾ هي جَمْعُ نِكْثٍ، والنَّكْثُ مِنَ الحَبْلِ خُيوطٌ، تُنْكَثُ، ثم تُطْرَقُ، وتَصيرُ صوفاً، ثم مِنْ بَعْدِ ذلكَ تُفْتَلُ. قالَ: والمِطْرَقُ قضيبٌ، يُضْرَبُ بِهِ الصوفُ حتى يَنْفُشَ، ويَلينَ كما يُنْدَفُ القطنُ، يُقالُ: طَرَقْتُ الصوفَ،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويحلفون على ذلك، ويقسمون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال.
(٥) في الأصل وم: نقضت. (٦) ساقطة منَ الأصل وم.

أطْرُقُهُ طرْقاً، أي ضَرَبْتُهُ، ويُقالُ: نَفَشْتُهُ، أنْفُشُهُ نَفْشاً أي فَرَّقْتُ بينَهُ، فَتَفَرَّقَ، ومنهُ قولُهُ: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ويُقالُ: حبلٌ مُثَنًّى إذا كانَ ذا طاقَينِ، ومَثْلوثٌ، ومَربوعٌ، ومَخْموسٌ، ومَسْدوسٌ، ومَسْبوعٌ ومَثْمونٌ [ومَتْسوعٌ][1] ومَعْشورٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأنكاثُ ما نُقِضَ مِنْ غَزْلِ الشَّعْرِ وغيرِهِ، واحدُها: نِكْثٌ. يقولُ: لا تُؤَكِّدوا على أنفسِكُمُ الأيمانَ والعُهودَ، ثم تَنْقُضوا ذلكَ، وتَحْنَثوا، فتكونوا كامْرأةٍ غَزَلَتْ، ونَسَجَتْ، ثم نَقَضَتْ ذلكَ، فَجَعَلَتْهُ أنكاثاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ المَشيئةُ ههنا مَشيئةُ القَهْرِ والقَسْرِ، أي لو شاءَ لَجَبَرَهُمْ، وقَهَرَهُمْ على الإيمانِ، فآمَنوا جميعاً. وهذا فاسدٌ، لأنهُ لا يكونُ بالقَهْرِ والجَبْرِ إيمانٌ، لأنهُ، لا صُنْعَ لِلْعَبْدِ في حالِ القَهْرِ والجَبْرِ، فَيَبْطُلُ تأويلُهُ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يَثْبُتَ إيمانٌ في تلكَ الحالِ.

وقالَ أبو بكرٍ: تأويلُ[2] قولِهِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأنزَلَ لهمْ آيةً حتى يؤمِنوا جميعاً [كتلكَ الآيةِ، وهي قولُهُ][3] ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

لكنْ عندنا لَيسوا يؤمِنونَ، ويَخْضَعونَ للآيةِ، ولكنْ بِما شاءَ لهمْ ذلكَ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ تَحْمِلَهُمُ الآيةُ على الإيمانِ، شاؤوا، أو أبَوا. ألا تَرى أنهمْ يَكْذِبونَ يومَ الحَشْرِ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢ و٢٣] أخبَرَ أنهمْ يكذبونَ، وقد يَمْنَعُهُمْ ذلكَ عنِ الكذبِ. دَلَّ أنَّ الآيةَ ليستْ تَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ، ولا تَضْطَرُّهُمْ عليهِ. ولكنْ لو شاءَ لآمَنوا بالاختيارِ، فَيَبْطُلُ تأويلُهُ.

ثم الآيةُ تَحْتَمِلُ عندنا وجهَينِ:

أحدُهما: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بظاهِرِ السببِ الذي لو[4] أعطاهُمْ لآمَنوا لهُ [كقولِهِ تعالى][5]: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآيةَ [الزخرف: ٣٣] أخبَرَ أنهُ لو ما يَرْغَبُ الناسُ في الكُفْرِ، فيكونونَ كُفَّاراً كُلُّهُمْ، وإلا جَعَلَ سُقُفَ أهلِ الكُفْرِ ومَعارِجَهُمْ مِنْ فِضَّةٍ. فلو أنهُ جَعَلَ ذلكَ بعينِهِ لأهلِ الإسلامِ لا يَحْمِلُ أهلَ الكُفْرِ على تركِ الكُفْرِ والدخولِ في الإسلامِ.

والوجهُ الثاني: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بِلُطْفٍ منهُ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] مِنْ غيرِ أنْ يُعْلَمَ أنَّ أحداً ألقى ذلكَ في قلبِهِ مِنْ نَحْوِ ما يُمَكِّنُ للشيطانِ عدوًّا للهِ حتَّى يَقْذِفَ في قلوبِ الخَلْقِ، ويُلْقِيَ وَساوِسَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَموا أنَّ أحداً دعا إلى ذلكَ، أو ألقى في[6] قلوبِهِمْ.

ألا تَرى أنَّ إبليسَ لَمَّا وَسْوَسَ إلى آدمَ ﷺ لِيَتَناوَلَ مِنَ الشجرةِ التي نَهى عنها ربُّهُ، لو عَلِمَ أنهُ إبليسُ لَما أجابَهُ؟ وكذلكَ ما مَكَّنَ للملائكةِ مِن تثبيتِ قلوبِ الذينَ آمَنوا وإلقاءِ أشياءَ في قلوبِهِمْ، وإلهامِهِمْ[7]، وهو قولُهُ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَموا أنَّ أحداً دعاهُمْ إلى ذلكَ، أو ألقى أحدٌ ذلكَ في قلوبِهِمْ.

فَمَنْ مَلَكَ تمكينَ عَدُوِّهِ وملائكتِهِ على ما ذَكَرْنا يَمْلِكُ شَرْحَ الصدرِ للإسلامِ والدعاءِ إلى ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ أنَّ أحداً فَعَلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على قولِ الحسنِ على الحُكْمِ لذلكَ.

وقالَ أبو بكرٍ: ﴿يُضِلُّ﴾ بالنَّهْيِ مَنْ نَهى، ﴿وَيَهْدِى﴾ بالأمْرِ. لكنَّ هذا فاسدٌ، لأنهُ لو كانَ بالنَّهْيِ مُضِلاًّ، وبالأمْرِ هادِياً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تأويله. (٣) في الأصل وم: لتلك الآية كقوله. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إلى. (٧) في الأصل وم: ويلهمونهم.

لَكانَ مُضِلاً للأنبياءِ والرُّسُلِ لأنهُ قد نَهاهُمْ بِمَناهٍ، فيكونُ مُضِلاً لهمْ. فإنْ قيلَ: لم يُضِلَّ[1] ما ذَكَرْتَ لأنهمْ لم يرتكبوا المَناهِيَ، قيلَ: الارْتِكابُ فِعْلُهُمْ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بِفِعْلِهِمْ ذلكَ، فَدَلَّ أنَّ ما ذَكَرْنا فاسدٌ. وعلى قولِهِمْ يكونُ بالنَّهْيِ عاصِياً مُضِلاً.

وعندَنا قولُهُ: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَخْلُقُ فِعْلَ الضلالِ منهمْ، أو يُضِلُّ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ الضلالَ على الهُدَى، ويَخْذِلُهُ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هو ظاهِرٌ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ قد ذَكَرْنا. وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: دلَّ قولُهُ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أنَّ الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذكرُها في أهلِ الإسلامِ، لأنهُ أخبرَ أنهُ تَزِلُّ ﴿قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ وهو الكُفْرُ بَعْدَ الإسلامِ.

وعندَنا ما ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ بالخوفِ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أو بَعْدَ ما كانوا آمنينَ، لأنهمْ بإيمانِهِمْ كانوا يأمَنونَ، وبِنَقْضِهِمُ العَهْدَ والأيمانَ يَخافونَ. فيكونُ قولُهُ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ كِنايَةً عنِ الخوفِ [وقولُهُ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾][3] كِنايةً عنِ الأمْنِ، أي صاروا خائفينَ بِنَقْضِ العُهودِ والأيمانِ بَعْدَما كانوا آمِنينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على هذا التأويلِ: يَذوقونَ ذلكَ في الدنيا بالقَتْلِ والقَهْرِ، ويَحْتَمِلُ في الآخِرَةِ بما صَدّوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ، واسْتَبْدَلوا بِهِ الكُفْرَ بَعْدَ الإيمانِ ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: عَهْدُ اللهِ دينُ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: عَهْدُ اللهِ الذي عَهِدَ إليهِمْ. ويَحْتَمِلُ عَهْدُ اللهِ ما أعْطَوا مِنَ العَهْدِ والأيمانِ، أي [لا][4] تَنْقُضوها بشيءٍ يَسيرٍ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دائمٌ باقٍ، وهذا زائلٌ فانٍ، أو ما يَجْزي بِوَفاءِ ما عَهِدَ[5] خيرٌ لَكُمْ مِنْ هذا، أي [ما][6] يَجْزيكُمْ بِوَفاءِ ما ذَكَرَ مِنَ العَهْدِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ أي ما أخَذْتُمْ مِنَ الأموالِ، واكْتَسَبْتُمْ بِنَقْضِ العُهودِ والأيمانِ يَنْفَدُ، ويَفْنَى، وما عِنْدَ اللهِ مِنَ الجَزاءِ والثوابِ بِعَهْدِ الوفاءِ باقٍ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ على ما أُمِروا بهِ، ونُهُوا عنهُ، وصَبَروا على وفاءِ العَهْدِ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ﴾ أي الجزاءُ الذي نجزيهِمْ على الصَّبْرِ أحسَنُ مِنْ وَفاءِ العَهْدِ. أو يَجزيهِمْ بأحْسَنِ ما عَمِلوا؛ أي يَجْعَلُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ كقولِهِ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ اخْتَلَفَ أهْلُ التأويلِ [في قولِهِ][7]: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الآخِرَةِ، وهي الجنةُ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا.

فَمَنْ قالَ: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ هي الجنةُ في الآخِرَةِ يكُنْ[8] تأويلُهُ: مَنْ يكنْ عَمَلُهُ في الدنيا صالحاً يُحْيِهِ اللهُ في الآخِرَةِ حياةً طَيِّبَةً في الدنيا. وإلاّ فظاهِرُ قولِهِ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إنما هو على عَمَلٍ واحِدٍ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] ظاهِرُهُ على حَسَنَةٍ واحدةٍ. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: مَنْ يَكُنْ عَمَلُهُ في الدنيا صالحاً يَفْعَلُ ما ذَكَرَ، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي ما تُؤْتينا في الدنيا ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أو أنْ يكونَ على الخَتْمِ بهِ، أي مَنْ خَتَمَ بالعَمَلِ الصالِحِ يُحْيِهِ اللهُ حياةً طَيِّبَةً في الجنةِ/ ٢٩٢ ـ ب/ كقولِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا.

---

(١) في الأصل وم: يضر. (٢) في الأصل وم: ويخذلهم. (٣) في الأصل وم: والثبوت. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عهدوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكون.

وقال الحَسَنُ: الحياةُ الطَّيِّبَةُ هي الجنةُ لأنَّ في الدنيا ما يُنَغِّصُ حياتَهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الحياةُ الطَّيِّبَةُ في الدنيا. فتَأويلُهُ: مَنْ يَكُنْ هَمُّهُ وجَهْدُهُ العَمَلَ الصالحَ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ أي نُوَفِّقُهُ، ونُيَسِّرُهُ للخيراتِ والعَمَلِ والصالحِ والطاعاتِ، وهو ما رُوِيَ [عنهُ ﷺ][1] أنهُ قالَ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ» [مسلم ٢٦٤٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و٦ و٧] وكقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونَحْوُهُ.

فذلكَ هو الحياةُ الطَّيِّبَةُ في الدنيا حينَ[2] يَسَّرَ عليهِ العَمَلَ الصالحَ، وَوَفَّقَهُ لِلطاعاتِ والخيراتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي قَنِعَ في الدنيا بِما قَسَمَ اللهُ لهُ، ورزَقَهُ، ورَضِيَ بهِ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ في الدنيا ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ بما أزالَ عنهُ هَمَّ طَلَبِ الفَضْلِ وغَمَّهُ وذِلَّةَ حِرْصِهِ عليهِ، لأنَّ أكثَرَ هُمومِ الناسِ في الدنيا وذُلِّهِمْ لِما لم يَرْضَوا بما قَسَمَ اللهُ لهمْ، ولم يَقْنَعوا بِهِ، فهو يَحْيَى ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ لِما عُصِمَ عن ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي في الآخرةِ ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ على تأويلِ مَنْ قالَ: الحياةُ الطَّيِّبَةُ في الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الرزقُ الحلالُ، وقولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ما ذَكَرَ هؤلاءِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الرزقُ الحلالُ، وقولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذَكَرْنا.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ كقولِهِ[3] في آيةٍ أُخرَى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وكقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] فَيَجِبُ أنْ يَتَعَوَّذَ مِنْ هَمَزاتِهِ على ما أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ أو عندَ نَزْغِ الشيطانِ على ما ذَكَرَ. لكنهُ إذا تَعَوَّذَ منهُ تَعَوَّذَ مِنْ هَمَزاتِهِ ونَزَعاتِهِ.

فإنْ قيلَ: كيفَ خَصَّ قراءةَ القرآنِ بالتَّعَوُّذِ منهُ دونَ غيرِهِ مِنَ الأذكارِ والعباداتِ والأعمالِ الصالحةِ؟ قيلَ: قد يُتَعَوَّذُ منهُ دونَ غيرِهِ أيضاً في غيرِهِ مِنَ العباداتِ والأذكارِ بقولِهِمْ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إذ لا يُفْتَتَحُ شيءٌ إلّا بهِ. فذلكَ تَعَوُّذُهُمْ بهِ، لكنَّ التَّعَوُّذَ في هذا تَعَوُّذٌ بالكِنايةِ[5]، والتَّعَوُّذُ في قراءةِ القرآنِ بالتصريحِ؛ وذلكَ لأنهُ[6] حُجَّةٌ وبرهانٌ وطَعْنٌ للأعداءِ في ما هو حُجَّةٌ في نَفْسِهِ أكثَرُ مِنَ الأفعالِ التي فَعَلُوها.

ألا تَرَى [أنَّ الشيطانَ كانَ يُلَقِّنُ أولياءَهُ][7] أنهُ ﴿سِحْرٌ﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وأنهُ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وأنهُ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؟ [النحل: ١٠٣] ونَحْوَهُ، وهو[8] قولُهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] كانوا يَطْلُبونَ الطَّعْنَ في القرآنِ لأنهُ حُجَّةٌ وبرهانٌ، ولم يَشْتَغِلوا في طَعْنِ فِعْلٍ مِنَ الأفعالِ أو ذِكْرٍ مِنَ الأذكارِ. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ التَّعَوُّذُ منهُ في ما هو حُجَّةٌ بالتَّصْريحِ، وفي غيرِهِ بالكِنايةِ[9]، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذهِ الآيةِ وفي غيرِها مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقولِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ لم يَفْهَمْ أهلُها منها [التَّعَوُّذَ][10] على ظاهرِ المُخْرَجِ، ولكنْ فَهِمُوا على مُخْرَجِ الحِكْمَةِ، لأنَّ ظاهِرَ المُخْرَجِ أنْ يُفْهَمَ التَّعَوُّذُ بَعْدَ الفَراغِ[11] مِنَ القراءةِ.

وكذلكَ يُفْهَمُ مِنَ الأمْرِ بالقيامِ إلى الصلاةِ الوضوءُ بَعْدَ القِيامِ إليهِ. ثم [لم][12] يَفْهَموا في هذا ونَحْوِهِ هذا، ولكنْ فَهِموا إذا أردْتَ قراءةَ القرآنِ فاسْتَعِذْ باللهِ. وكذلكَ فَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾ أي إذا أرَدْتُمُ القِيامَ إلى الصلاةِ فاغْسِلوا كذا، ولم يَفْهَموا كُلَّ قِيامٍ، إنما فَهِموا قِياماً دونَ قِيامٍ، أي إذا [أرَدْتُمْ][13] القِيامَ إلى الصلاةِ، وأنْتُمْ مُحْدِثونَ، وفَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وفَهِموا مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: بكناية.
(٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم: أنه كان يلقنهم أعني الشيطانَ أولياءه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: بكناية.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: فراغه. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وكذلكَ فهموا مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] الفراغَ منها. دلَّ أنَّ الخِطابَ لا يوجِبُ المُرادَ والفَهْمَ على ظاهِرِ المُخرَجِ، ولكنْ على مُخرَجِ الحِكْمَةِ والمَعْنى.

وأصْلُ التَّعَوُّذِ هو الاعْتِصامُ باللهِ مِنْ وَساوِسِ عَدُوِّهِ وكَيْدِهِ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ليسَ لهُ سَبيلٌ على الذينَ آمَنوا. وقالَ بعضُهُمْ: السلطانُ الحُجَّةُ، أي ليسَ لهُ حُجَّةٌ على الذينَ آمَنوا. وقالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ لهُ مُلْكٌ على الذينَ آمَنوا، مُلْكُ القَهْرِ والغَلَبَةِ.

الآية ١٠٠ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ لكنْ ليسَ لهُ مُلْكُ القَهْرِ على الذينَ يَتَوَلَّونَهُ أيضاً. إنما يَتَّبِعونَهُ بإشاراتٍ منهُ طَوعاً. فَدَلَّ أنَّ تأويلَ المُلْكِ لا يَصِحُّ في السلطانِ أوِ الحُجَّةِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالقرآنِ، لأنهُ ذَكَرَهُ[2] على إثْرِ ذِكْرِ القرآنِ. ويَحْتَمِلُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهما واحدٌ في الحاصِلِ ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ حُجَّتُهُ أو سَبيلُهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يَتَّخِذونَهُ[3] وَلِيّاً، فَيُطيعونَهُ في كلِّ أمْرِهِ وجميعِ إشاراتِهِ وما يُلْقِيهِ[4] إليهِمْ.

وأصلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بربِّهِمْ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جَميعِ أحوالِهِمْ وساعاتِهِمْ، أي [لا][5] سُلْطانَ لهُ، ولا سَبيلَ على مَنْ آمَنَ بربِّهِ، وتَوَكَّلَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ إبليسُ؛ يَتَّبِعونَهُ، ويَعْدِلونَهُ بربِّهِمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ بربِّهِمْ.

والتَّوَكُّلُ هو الاعْتِمادُ عليهِ وتَفْويضُ الأمْرِ إليهِ في كلِّ حالٍ: السَّراءِ والضَّراءِ، وفي كلِّ وَقْتٍ: الضِّيقِ والسَّعَةِ. فذلكَ التوكُّلُ عليهِ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ على التَّناسُخِ: أنْ يُبَدِّلَ آيَةً مكانَ آيَةٍ، وهو على تَبديلِ حُكْمِ آيَةٍ بِحُكْمِ آيَةٍ أُخرى لا على رَفْعِها[6] عينِها.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أي بَدَّلْنا حُجَّةً بَعْدَ حُجَّةٍ وآيَةً بَعْدَ آيَةٍ لرسالتِهِ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ كلَّما آتاهُمْ حُجَّةً على إثْرِ حُجَّةٍ وآيَةً بَعْدَ آيَةٍ يقولونَ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ يَنْسُبونَ إليهِ الافْتِراءَ أنهُ افْتَرى. وكذلكَ كانَتْ عادَتُهُمُ المُعانَدَةَ والمُكابَرَةَ كقولِهِ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤] وكقولِهِ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ؛ كلَّما [آتاهُمْ بِحُجَّةٍ][7] وآيَةٍ بَعْدَ آيَةٍ كانوا يَسْتَقْبِلونَهُ بالتكذيبِ لها ونِسْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى الافْتِراءِ مِنْ نَفْسِهِ، ويَزْدادونَ[8] بذلكَ كُفْراً.

وهو ما قالَ ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و: ١٢٥] أخْبَرَ أنهُ كانَ يَزْدادُ أهلُ[9] الإيمانِ بما يَنْزِلُ عليهِمْ مِنْ سُورةٍ إيماناً، ويَزْدادُ أهلُ[10] الشِّرْكِ رِجْساً وكُفْراً إلى كُفْرِهِمْ.

[وهو][11] مِثْلُ هذا. ولو كانَ يَحْتَمِلُ حَرْفُ ﴿وَإِذَا﴾ مَكانَ: لو كانَ أقْرَبَ، ويكونُ تأويلُهُ، ولو أنزَلْنا حُجَّةً بَعْدَ حُجَّةٍ، وآيَةً على إثْرِ آيَةٍ جديدةٍ ما[12] آمَنوا، كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١] وكقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية [الرعد: ٣١] أي لو أنَّ هذا القرآنَ قرآنٌ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ ما آمَنوا بِعِنادِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يلقون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أتى بهم حجة. (٨) في الأصل وم: ويزداد لهم. (٩) في الأصل وم: لأهل. (١٠) في الأصل وم: لأهل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فما.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بالسؤالِ أي بَدَّلْنا آيةً بالسؤالِ مكانَ آيةٍ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بهِ صَلاحُهُمْ وغيرُ صَلاحِهِمْ، أو أنْ يكونَ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ مِنْ تَثْبيتِ قلوبِ الذينَ آمَنوا كقولِهِ: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النحل: ١٠٢] أو أنْ يكونَ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جبريلَ على رسولِهِ جواباً لقولِهِمْ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وكقولِهِ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] أي ليسَ بِمُفْتَرٍ، ولكنْ نَزَّلَهُ جبريلُ مِنْ ربِّهِ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي عليهِمْ أي بالحقّ الذي لِبَعْضِهِمْ/٢٩٣ ـ أ/ على بَعْضٍ. والحَقُّ في الأقوالِ هو[1] الصِّدْقُ، وفي الأفعالِ صَوابٌ ورُشْدٌ، وفي الأرحامِ عَدْلٌ وإصابَةٌ. والحَقُّ هو الشيءُ الذي يُحْمَدُ عليهِ صاحِبُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا تفسيرُ قولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] لأنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فَذَكَرَ مِنْ زيادةِ الإيمانِ، هو التَّثْبيتُ الذي ذُكِرَ ههنا، قولُهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وذَكَرَ قولَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ مُقابِلَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لِيُعْلَمَ أنَّ الزيادةَ التي ذُكِرَ في سورةِ التوبةِ هي ما ذُكِرَ ههنا مِنَ التَّثبيتِ والطُّمَأنينَةِ ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي هُدًى مِنَ الجَهالاتِ والشُّبُهاتِ التي كانَتْ تَعْتَرِضُ لهمْ أو مِنَ الضلالةِ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] لِيُعْلَمَ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ هُمْ لم يقولوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ ولكنْ كانوا يَنُصُّونَ واحداً فلاناً، لكنَّ الخَبَرَ مِنَ اللهِ على ذِكْرِ البَشَرِ.

ألا تَرى أنهُ أخبَرَ أنَّ لسانَ ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾؟ دَلَّ أنَّ البَشَرَ الذينَ أخبَرَ عنهُمْ أنهم يَقولونَ: إنهُ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ كانَ منصوصاً عليهِ مُشاراً إليهِ حينَ[2] قالَ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ ولسانُ النَّبيِّ عَرَبيٌّ. فكيفَ فَهِمَ هذا مِنْ هذا؟ وهذا مِنْ هذا؟ ولِسانُ هذا غَيرُ لِسانِ هذا. وما قالَهُ أهلُ التأويلِ أنهُ كانَ يَجْلِسُ إلى غلامٍ، يُقالُ لهُ كذا، وهو يهوديٌّ، يَقْرأُ التوراةَ، فَيَستَمِعُ إلى قِراءَتِهِ، وكانَ يُعَلِّمُهُ الإسلامَ حتى أسْلَمَ. فعندَ ذلكَ قالَتْ لهُ قُرَيْشٌ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾. ولو كانَ ما ذُكِرَ أنهُ كانَ يُعَلِّمُهُ الإسلامَ، فأسْلَمَ، فَلِقائِلٍ أنْ يقولَ: كيفَ فَهِمَ ذلكَ الرجلُ منهُ لسانَ رسولِ اللهِ ﷺ ولسانُهُ غيرُ لسانِهِ على ما أخبَرَ؟ لكنْ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في القرآنِ حينَ[3] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: ١٠١] ثم يقولونَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فنقولُ، واللهُ أعلَمُ، إنهُ كيفَ عَلَّمَهُ هذا القرآنَ، وهو لا يَفْهَمُ مِنْ لسانِهِ إلّا يَسيراً منهُ، فأنتمْ لسانُكُمْ عربيٌّ، لا تَقْدِرونَ أنْ تأتوا بِمِثْلِهِ ولا بِسورةٍ مِنْ مِثْلِها ولا بآيةٍ. فكيفَ قَدَرَ على مِثْلِهِ مَنْ لا يَفْهَمُ لِسانَهُ، ولا كانَ ذلكَ بِلِسانِهِ. يُخَرَّجُ ذلكَ على الاحْتِجاجِ عليهِمْ.

وبَعْدُ فإنَّ في قولِهِمْ ظاهر التَّناقضِ، لأنهمْ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ ثم قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فالذي عَلَّمَهُ غَيرُهُ، ليسَ بِمُفْتَرٍ، إنما يكونُ الافْتِراءُ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ. فهو ظاهرُ التناقضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يَحتَمِلُ مُبينٌ ما لهمْ وما عليهِمْ، أو مُبينٌ للحقوقِ التي للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، أو مبينٌ أنهُ[4] مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ، ليسَ بِمُفْتَرًى.

وهذهِ الآيةُ تَرُدُّ على الباطِنِيَّةِ قولَهُمْ لأنهُمْ يقولونَ: إنَّ رسولَ اللهِ هو الذي أَلَّفَ هذا القرآنَ بِلِسانِهِ، ولم يُنْزِلِ اللهُ عليهِ بهذا اللسانِ. فلو كانَ على ما ذَكَروا ما كانَ لأولئكَ ادِّعاءُ ما ادَّعَوا على رسولِ اللهِ مِنَ الافْتِراءِ.

---

(١) من م، في الأصل: هذا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي بين.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَميلونَ إليهِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ. قالوا: الإلحادُ المَيلُ، ولذلكَ سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحداً لِمَيلِهِ إلى ناحيةِ القَبْرِ. وقالَ الكِسائيُّ: هو مِنَ الرُّكونِ إليهِ، أي يركَنونَ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنهُ، واللهِ، مَنْ كذبَ بآياتِ اللهِ، فهو ليسَ بِمُهْتَدٍ عندَ اللهِ. وقالَ أبو بكرٍ: ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ بتكذيبِهِمُ الآياتِ، فهو كلُّهُ خَبالٌ على كلِّ مَنْ يُشْكِلُ، ويُخفي؛ أي مَنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ فهو غيرُ مُهْتَدٍ، ومَنْ يَظُنُّ هذا. وقولُ أبي بكرٍ أيضاً: مَنْ يَتَوَهَّمْ أنَّ مَنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ أنهُ يَهْدِيهِ فهذا[1] فاسدٌ، خَبالٌ كلُّهُ.

وأصلُهُ عندنا قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ [لِعِنادِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ لأنهمْ كانوا يُعانِدونَ آياتِ اللهِ، ويُكابِرونها، ويُكَذِّبونَ مَعَ علمِهِمْ أنها آياتٌ وأنها حَقٌّ. أو قالَ ذلكَ [في قومٍ][2] عَلِمَ اللهُ أنهم لا يُؤمنونَ][3] يموتونَ عليهِ، فَمَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ لا يؤمِنُ لا يَهْدِيهِ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لا الذينَ يؤمنونَ بها، ويُصَدِّقونها ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذينَ كَذَّبوها ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ قولُهُ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما[4]: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ في زَعْمِ المُكْرِهِ لأنهُ أكْرَهَهُ بهِ؛ ففي زعمِهِ [أنهُ][5] كافرٌ باللهِ لِطَلَبِهِ ذلكَ منهُ، وهو كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] في زَعْمِهِمْ [أنها آلهةٌ، وهي لم تكنْ][6] وكقولِهِ: ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: ٩٧] سَمّاهُ إلهاً لأنهُ [إلهٌ][7] في زَعْمِ السامِرِيِّ.

والثاني: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ شارحاً صَدْرَهُ بالكُفرِ، فهو[8] الكافرُ به. وأمّا مَنْ أظْهَرَ الكُفْرَ بلسانِهِ بالإكراهِ، وقَلْبُهُ مُعْتَقِدٌ بالإيمانِ على ما كانَ مُطْمَئِنّاً بهِ، فهو ليسَ بكافرٍ.

وأصلُهُ أنَّ مَنِ اعْتَقَدَ مَذْهَباً وديناً فإنهُ يَعْتَقِدُهُ بِخصالٍ ثلاثٍ:

أحدُها: يُقَلِّدُ آخَرَ لَمّا رآهُ أبْصَرَ وأحذَقَ وأعْلَمَ فيهِ، وهو لا يَبْلُغُ ذلكَ، فَيُقَلِّدُهُ لِفَضلِ بَصَرِهِ وعِلْمِهِ فيهِ ورأيِهِ.

والثاني: يَعْتَقِدُهُ[9] للشُّبْهَةِ لِما يَتَراءى عندَهُ أنهُ الحَقُّ، فَيَعْتَقِدُهُ لتلكَ الشُّبْهَةِ التي ذَكَرْنا.

والثالثُ: يَتَّضِحُ لهُ الحَقُّ، فَيَعْتَقِدُهُ.

فلهذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يَعْتَقِدُ مَنْ يَعْتَقِدُ [ديناً ومَذْهباً. فأمّا أنْ يَعْتَقِدَ][10] الإنسانُ مذهباً مَجّاناً على الجُزافِ [فلا، فإذا][11] كانَ إظهارُ كُفرٍ هذا لأكراهِ مَنْ أكْرَهَهُ لم يَصِرْ كافراً.

وأصلُهُ أنَّ الإيمانَ والكُفْرَ إنما يكونانِ بالاختيارِ. فالإكراهُ يُزيلُ الاختيارَ اختيارَ الكُفْرِ. لِذلكَ يَبْقَى على الإيمانِ على ما كانَ لِما لم يُوجَدْ منهُ اختيارُ الكُفْرِ.

فإنْ قيلَ: أليسَ أمَرَنا أنْ نُقاتِلَ أهلَ الكُفرِ لِيُسْلِموا، وذلكَ إسلامٌ بإكراهٍ، وعلى ذلكَ نَطَقَ الكتابُ، وهو قولُهُ: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلّا اللهُ» [البخاري ٢٥] ثم إذا أسْلَمَ لِخوفِ السيفِ كانَ إسلامُهُ إسلاماً في الظاهِرِ؟ ما مَنَعَ كذلكَ أنهُ إذا أُكْرِهَ على الكُفرِ، فأجْرَى كلمةَ الكُفرِ، فكانَ[12] كُفْرُهُ كُفراً في الظاهِرِ، فَيُحْكَمُ بِحُكْمِهِ كما حُكِمَ في الإسلامِ على الإكراهِ، فما الفَرْقُ فيهِ؟

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: لقوم. (٣) ساقطة من م. (٤) أدرج قبلها في الأصل: ذكر من كفر بالله، وأدرج قبلها في م: حيث ذكر كفر بالله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لأنهم لم يكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فلانا إذا. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

قيلَ: كذلكَ كانَ يَجيءُ، إلاّ أنَّ اللهَ تعالى عفا عبادَهُ عنْ ذلكَ، فأبْقاهُمْ على الإيمانِ وحُكْمِهِ، وإنْ أظْهَروا بلسانِهِمْ كلامَ الكُفرِ بَعْدَ أنْ تكونَ قلوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بذلكَ فَضْلاً منهُ ونِعْمَةً.. وإلاّ القياسُ أنْ يُحكَمَ بِحُكْمِ الكُفرِ إذا تكَلَّمَ بِكلامِ الكُفرِ.

وأمّا الطلاقُ والعِتاقُ والنِّكاحُ [ونَحوُ ذلكَ فظاهرٌ][1] على ما تَكَلَّمَ بهِ عاملٌ واقعٌ؛ لأنَّ الطلاقَ والعِتاقَ ونَحوَهُما مِمّا تَعلَّقَ بالكلامِ نفسِهِ لا غيرِهِ، فهو، وإنْ أُكرِهَ على ذلكَ فهو مُختارٌ لِلتَّكَلُّمِ بِهِ، قاصدٌ[2] لهُ؛ لأنَّ المُكْرَهَ لو أحبَّ أنْ يَستَعمِلَ لسانَهُ بالتَّكلُّمِ بما ذُكِرَ ما قَدَرَ عليهِ. دلَّ أنهُ على الاختيارِ يَتَكَلَّمُ.

وأمّا البَيعُ والشراءُ [ونَحوُهما فلم يَتَعلَّقا][3] بالكلامِ نفسِهِ، إذ قد يكونُ الأخذُ والتسليمُ دونَ التكلُّمِ بهِ. لذلكَ عَمِلَ الإكراهُ في إبطالِهِ [وأبْقى المُكْرَهَ][4] على الإيمانِ وحُكْمِهِ، وإنْ أظْهَرَ بلسانِهِ كلامَ الكفرِ بَعْدَ أنْ يكونَ قلبُهُ مُطْمَئِنًّا بذلكَ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ حينَ[5] قالَ: «وُضِعَ عنْ أمّتي الخَطَأُ والنسيانُ وما اسْتُكْرِهوا عليهِ» [ابن ماجه ٢٠٤٥] وذلكَ في الكُفرِ، ليسَ في غيرِهِ، لأنَّ الإكراهَ على الكُفرِ كانَ ظاهراً يومئذٍ ولم يَكُنْ في غيرِهِ مِنْ طلاقٍ وغيرِهِ.

وأمّا قتالُنا إيّاهُمْ لِيُسْلِموا فهو يَحْتَمِلُ [وجهَينِ]:

أحَدُهُما[6]: على المُجازاةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] فَنُقاتِلُهُمْ لِيُظْهِروا على الإسلامِ، وإنْ لم تُعْرَفْ حقيقَتُهُ على المُجازاةِ.

والثاني: قَبِلْنا منهمُ الإسلامَ على الإكراهِ لِنُقَرِّبَهُمْ[7] / ٢٩٣ - ب/ في ما بَينَ المُسْلِمينَ، فَيَرَونَ الإسلامَ، ويَتَعَلَّمونَ منهمْ حقيقَتَهُ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ سَمّاهُنَّ مؤمناتٍ، ثم أمَرَنا بامْتِحانِهِنَّ بقولِهِ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فإنما يُمْتَحَنَّ لِتَظْهَرَ حقيقةُ إيمانِهِنَّ، وإلاّ لم [يكُنْ][8] لِلامْتِحانِ مَعْنًى لولا ذلكَ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ جَعَلَ حقيقةَ الإيمانِ والكُفرِ بالقَلْبِ دونَ اللسانِ وغيرِهِ مِنَ الجَوارِحِ، لأنَّ غيرَهُ مِنَ الجَوارِحِ يجوزُ استعمالُهُ[9] بالإكراهِ. وأمّا القَلْبُ فإنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سِواهُ اسْتِعْمالَهُ، وذلكَ لِفَضْلِهِ ومَنِّهِ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ فهو كافرٌ بِهِ إنْ كانَ ذلكَ على الإكراهِ لِما ذَكَرْنا أنهُ باختيارِهِ[11] الكُفرَ يَنْشَرِحُ لهُ الصدرُ لِما لا يَعْمَلُ[12] الإكراهُ على القَلْبِ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ظاهِرٌ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ﴾ أي ذلكَ الغَضَبُ والعذابُ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جُحوداً وإنكاراً. وإلاّ نَفْسُ الاسْتِحْبابِ قد يكونُ مِنَ المؤمِنِ، فلا يَزولُ عنهُ اسْمُ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] فلم يَزَلْ عنهمُ اسْمُ الإيمانِ باختيارِهِمْ واسْتِحْبابِهِمُ الحياةَ الدنيا. فَدَلَّ أنَّ الأوَّلَ على الجُحودِ لهُ والإنكارِ، وهذا على المَيلِ إليهِ دونَ الجُحودِ.

والثاني[13]: أنْ يكونَ كذلكَ لِما لم يَرَوُا الآخِرَةَ كائنةً، لا مَحالَةَ، ظَنًّا ظَنُّوا لَعَلَّها كائنةٌ كقولِهِمْ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

وأمّا أهلُ الإسلامِ، لم يكونوا فيها ظانِّينَ شاكِّينَ، ولكنْ مُتَحَقِّقينَ مُسْتَيقِنينَ، فاسْتَحَقُّوا بذلكَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقْتَ اختيارِهِمُ الكُفرَ، وأنَّ اللهَ لا يَهْدِي القومَ المُختارينَ الكُفرَ على الإيمانِ. وقالَ ذلكَ لِقومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَختارونَ الكُفرَ، وأنهُمْ يموتونَ على الكُفرِ، فلا يَهْديهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: ونحوه ظاهر. (٢) في الأصل وم: قاصداً. (٣) في الأصل وم: ونحوه لم يتعلق. (٤) في الأصل وم: وأبقاهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وجوها. (٧) في الأصل وم: لنقرهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: استعمالها. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الهاء ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يعلم. (١٣) في الأصل وم: أو.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ الطبعُ هو التَّغطِيَةُ؛ تُغطّي ظُلْمَةُ الكُفرِ نورَ القَلْبِ والسَّمعِ ونورَ البَصَرِ؛ كأنَّ لكلِّ أحدٍ نورَينِ وبَصَرَينِ: ظاهرٌ وباطنٌ، يُبْصِرُ بها جميعاً فإذا ذهبَ أحَدُهما، أو عَمِيَ، صارَ لا يُبْصِرُ كمنْ يُبْصِرُ ببَصَرِ الظاهِرِ، إنما يُبْصِرُ بنورِ بَصَرِهِ ونورِ الهواءِ: فإذا دَخَلَ في أحَدِهِما آفةٌ ذَهَبَ الانتِفاعُ، وصارَ لا يُبْصِرُ شيئاً. فَعَلَى ذلكَ. للقَلْبِ بَصَرٌ خفيٌّ، وبَصَرٌ ظاهرٌ: الذي هو معروفٌ. فإنما يُبْصِرُ بهما. فإذا غَطَّتْ ظُلْمَةُ الكُفرِ بَصَرَ القَلْبِ صارَ لا يُبْصِرُ شيئاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] أخبَرَ أنَّ الأبصارَ الظاهرةَ لمْ تَعْمَ، ولكنْ عَمِيَتِ ﴿ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾؟ هذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنى طَبْعِ السَّمْعِ والبَصَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ: غافِلينَ[1] عنِ النَّظَرِ في آياتِهِ وحُجَجِهِ، ويَحْتَمِلُ: غافِلينَ[2] عمَّا يَحُلُّ بهِمْ بِكُفرِهِمْ وتكذيبِهِمْ آياتِ اللهِ وحُجَجَهُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ قد [ذَكَرْنا ما قيلَ فيهِ: لابُدَّ، و: حَقًّا][3] وقيلَ: هو حَرْفُ وعيدٍ. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قالَ الحسنُ: إنهمْ، واللهِ، خَسِروا الجنةَ ورَحْمَةَ اللهِ، خَسِروا أهلَهُمْ ومَنْزِلَهُمُ الذي كانَ لهمْ في الجنةِ، وخَسِروا أنفُسَهُمْ حينَ قَذَفُوها في النارِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: خَسِروا النِّعَمَ الدائمةَ الباقيةَ بالزائلةِ الفانيةِ، وخَسِروا أنْفُسَهُمْ حينَ[4] قُتِلوا، وأُسِرُوا في الدنيا.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ قيلَ: عُذِّبوا على الإيمانِ بمكةَ ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ معَ النَّبيِّ وأصحابِهِ ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على ذلكَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قيلَ: مِنْ بَعْدِ الفِتْنَةِ ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لِما كانَ منهمْ ﴿رَّحِيمٞ﴾. ذَكَرَ [﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ مَرَّتَينِ:

إحداهُما:][5] قولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ [والثانيةُ: قولُهُ:][6] ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قيلَ: مِنْ بَعْدِ الفِتْنَةِ، فَيَجيءُ أنْ يُكْتَفى [بواحدةٍ، فيقولَ][7] ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ موصولاً بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ﴾ فَعَلوا ما ذَكَرَ. لكنهُ ذَكَرَهُ[8] مَرَّتَينِ، واللهُ أعلَمُ [لطولِ الكلامِ. ويَحْتَمِلُ][9] ﴿لَغَفُورٞ﴾ لهمْ؛ يعني لهؤلاءِ الذينَ فُتِنوا، وعُذِّبوا، ولِغَيرِهِمْ.

ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ أُناساً مِنَ المؤمنينَ، خَرَجوا إلى المدينةِ، فأدرَكَهُمُ المُشركونَ لِيَرُدُّوهُمْ، فقاتَلوهُمْ؛ فمنهُمْ مَنْ قُتِلَ، ومنهُمْ مَنْ نَجا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآيةَ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: أيضاً فيهِمْ نَزَلَ قولُهُ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآيةَ [العنكبوت: ١ و: ٢].

وأكثَرُهُمْ قالوا: إنَّ قولَهُ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] إنما نَزَلَ في عَمَّارِ بْنِ ياسِرٍ، وليسَ لنا إلى ذلكَ حاجةٌ، إنما الحاجةُ في ما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ بِهِ والحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿تُجَٰدِلُ﴾ أي تُخْبِرُ عنْ نفسِها عمَّا عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ. وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ كلَّ نفسٍ رهينةٌ بما كَسَبَتْ مِنْ شرٍّ حتى يكونَ طائراً في عُنُقِهِ. ولكنْ ليسَ في ما ذَكَرَ هؤلاءِ مُجادَلَةٌ؛ المُجادَلَةُ المُخاصَمَةُ، كأنها تُخاصِمُ عنْ نفسِها مِنِ ارْتِكابِ أشياءَ ودَعْوى أشياءَ على ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ جَهَنَّمَ تَزْفِرُ زَفْرَةً حتى لا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرسَلٌ إلاّ وقد جثا بِرُكْبَتَيْهِ خوفاً منها. فعندَ ذلكَ تُجادِلُ، وتُخاصِمُ كلُّ نفسٍ عَنْ نفسِها.

---

(١) في الأصل وم: غافلون. (٢) في الأصل وم: غافلون. (٣) من م، في الأصل: ذكر ما قيل فيه لابد حقا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: ذكر مرتين أحدهما. (٦) في الأصل وم: ثم قالوا. (٧) في الأصل وم: بواحد يقول. (٨) في الأصل وم: ذكر. (٩) في الأصل وم: انه.

ويُشْبِهُ أنْ تكونَ مُجادَلَتُهُمْ على غَيرِ هذا؛ وهو ما ذَكَرَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢٠ و: ٢١] فتلكَ مُجادَلَتُهُمْ أنْفُسَهُمْ، وكقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣] وكذلكَ ما ذَكَرَ في المنافِقينَ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية [المجادلة: ١٨] وذلكَ كلُّهُ مُجادَلَتُهُمْ أنْفُسَهُمْ.

او أنْ يُقالَ: ﴿تُجَٰدِلُ﴾ لكنْ لا يُفَسَّرُ ما تلكَ المُجادلَةُ؟ ولم يذكُرْ ما تلكَ المُجادَلَةُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تُوفرُ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ، ولا يُنْقَصونَ مِنْ حسناتِهِمْ ولا يُزْدادونَ على سَيِّئاتِهِمْ.

وهذهِ الآيةُ تَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ لأنهم يقولونَ بالتخليدِ لِصاحِبِ الكبيرةِ، وقد أخبَرَ أنهُ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من سوءٍ، وتوفَرُ ما عَمِلَتْ مِنَ الخَيراتِ والطاعاتِ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ اخْتُلِفَ في ضَرْبِ المَثَلِ بهذهِ الآيةِ وفي نزولِها: قالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ المَثَلَ لأهلِ مكةَ، وفيها نزلَتْ بِقُرَياتٍ؛ نَزَلَ بهمُ العذابُ بتكذيبِهِمْ رسُلَهُمْ في بني إسرائيلَ؛ يُحَذِّرُ أهلَ مكةَ بتكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ نزولَ العذابِ بهمْ كما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ المَثَلَ لأهلِ المدينةِ [إذْ نَزَلَ العذابُ][(١)] بأهلِ مكةَ؛ يُحَذِّرُ أهلَ المدينةِ لئلا يُكَذِّبوا محمداً كما كَذَّبَ أهلُ مكةَ، فَيَحُلُّ بهمْ ما[(٢)] حَلَّ بأهلِ مكةَ مِنْ لِباسِ الجوعِ والخوفِ بالتكذيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قيلَ: هي مكةُ، وهكذا كانَتْ مكةُ؛ أهلُها كانوا آمِنين فيها مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، مُطْمَئِنِّينَ، يأتيهِمْ رِزْقُهُمْ مِنْ كلِّ مكانٍ. ويَحْتَمِلُ قريةً أُخرى غيرَها [كانَ أهلُها][(٣)] على ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي كَفَرَتْ بالشُّكرِ لأنْعُمِ اللهِ، أي لم يَشْكُروها، ليسَ أنهمْ لم يَرَوها مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ اللباسُ هو ما يَسْتُرُ وُجوهَ الجَواهِرِ. ألا تَرَى أنهُ سَمَّى الليلَ ﴿لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧ والنبإ: ١٠] لِما سَتَرَ وُجوهَ الأشياءِ. فَعَلى ذلكَ الجُوعُ، يرفَعُ السُّتْرَ واللِّباسَ الذي كانَ قَبْلَ الجُوعِ؛ لأنَّ الجوعَ إذا اشْتَدَّ غَيَّرَ وَجْهَ صاحِبِهِ، ورَفَعَ سِتْرَهُ. والجُوعُ: ما ذَكَرَ أنهُ أصابَهُمْ جُوعٌ حتى أكلوا الكلابَ والجِيَفَ والعظامَ المُحْتَرِقَةَ. والخَوفُ: ذَكَرَ أنهُ بَعَثَ رسولَ اللهِ ﷺ إليهمْ.

ألَا تَرَى أنْ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ/ ٢٩٤ ـ أ/ شَهْرَينِ»؟ [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] وقيلَ: الخَوفُ: القَتْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَغَدًا﴾ قالَ الكسائيُّ: أرغَدَ الرجلُ إذا أصابَ مالاً أو عيشاً مِنْ غَيرِ عَناءٍ وكَدٍّ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿رَغَدًا﴾ أي كثيراً واسعاً.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قولُهُ: ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي [منْ][(٤)] أنفسِهِمْ، مِنْ نَسَبِهِمْ وحَسَبِهِمْ، يَعْرِفونَهُ كقولِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

[وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالتكذيبِ حينَ[(٦)] وَضَعوا الشيءَ في غَيرِ مَوضِعِهِ، أو ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ على أنفسِهِمْ. اخْبَرَ أنهُ بَعَثَ الرسولَ مِنْ جِنْسِهِمْ ومِنْ حَسَبِهِمْ، لأنهُ لو كانَ مِنْ غَيرِ جوهَرِهِمْ لم تَظْهَرْ لهمُ الآيةُ مِنْ غَيرِ الآيةِ، ولا الحُجَّةُ مِنَ الشُّبْهَةِ، لأنهُ إذا خَرَجَ على غَيرِ المُعْتادِ والطُّوقِ عَرَفوا أنهُ آيةٌ، وأنهُ حُجَّةٌ؛ إذْ لا يَعْرِفونَ

---

(١) في الأصل وم: وفيهم نزل. (٢) في الأصل وم: كما. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث.

مِنْ غَيرِ جَوهَرِهِمُ الخارجَ عنِ المُعْتادِ والطَّوقِ [ويَعْرِفونَ ذلكَ مِنْ جوهَرِهِمْ][1] وكذلكَ يُعْرَفُ صِدْقُ مَنْ نَشَأَ بَينَ أظْهُرِهِمْ مِنْ كَذِبِهِ، ولا يُعْرَفُ إذا كانَ مِنْ غَيرِهِمْ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحَلالُ والطَّيِّبُ واحدٌ، وهو الحَلالُ؛ كأنهُ قالَ: كُلوا ممَّا أحلَّ لَكُمُ اللهُ، كقولِهِ: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي حلالاً، يَطِيبُ لكمْ ما تَتَلَذَّذونَ بهِ [لأنَّ مِنَ الحَلالِ ما لا تَتَلَذَّذُ بِهِ][2] ولا تَسْتَطِيبُ، بل تَكْرَهُهُ. [ويَحْتَمِلُ][3] قولُهُ: ﴿طَيِّبًا﴾ تَسْتطيبُهُ[4] أنفُسُكُمْ، وتَتَلَذَّذُ بِهِ، لا ما تَسْتَخْبِثُ، لأنَّ اللهَ جَعَلَ غذاءَ البَشَرِ ما هو أطْيَبُ وألَذُّ، وجَعَلَ للبهائمِ والأنعامِ ماهو أخبَثُ وأخشَنُ لأنَّ ماهو أطْيَبُ أدْعَى لِلشُّكْرِ لَهُ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ لا تَبِعَةَ عليكُمْ.

وفي الآيةِ دلالةٌ [أنهُ][5] قد يَرْزُقُ ما يَخْبُثُ، ولا يَحِلُّ، على ما يَخْتارُهُ حينَ[6] شَرَطَ فيهِ الحلالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الشُّكْرُ لهُ عليهِمْ لازِمٌ، وإنْ لم يَعْبُدوا، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] طاعتُهُ وطاعةُ رسولِهِ واجبةٌ، وإنْ لم يكونوا مؤمِنينَ. أو يقولُ: وَجِّهوا شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ إنْ كُنْتُمْ عابدينَ[7] لهُ بِجِهَةٍ؛ أيِ افْعَلوا العِبادَةَ لهُ والشكْرَ في الأحوالِ كلِّها.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ أي حَرَّمَ أكْلَ المَيتةِ وما ذَكَرَ، كأنهُ قالَ هذا، وذَكَرَ على إِثْرِ تَحْريمِهِمْ أشياءَ أحلَّ لهمْ نَحْوَ ما حَرَّموا على أنفسِهِمْ أشياءَ أحَلَّ لهمْ مِنَ الزَّرْعِ والأنعامِ والبَحيرةِ والسائبةِ وما ذَكَرَ، فقالَ: لم يُحَرِّمْ ذاكَ، ولكنْ إنما حَرَّمَ ما ذَكَرَ مِنَ المَيتَةِ والدَّمِ ولحمِ الخِنْزيرِ ونَحْوَهُ على هذا يَجوزُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُهُ، وإمّا على الابْتِداءِ فإنهُ يَبْعُدُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ إلى ما ذَكَرَ مِنَ المُحَرَّماتِ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على ما نُهِيَ عنهُ، وهو الشِّبَعُ كقولِهِ: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَلَا عَادٍ﴾ عليهِ[8].

وقال بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ يَسْتَحِلُّهُ في دينِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا مُتَعَدٍّ في أكْلِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على المسلمينَ مُفارِقٍ لِجماعَتِهِمْ مُشاقٍّ لهمْ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ عليهِمْ أنْفُسِهِمْ[9]. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ وأقاويلَهُمْ.

وأمّا تأويلُهُ عندنا ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على المسلمينَ سِوَى دَفْعِ الإهلاكِ عنْ نفسِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مُتَعَدٍّ ومُتجاوِزٍ اضْطِرارَهُ. ولا يَحْتَمِلُ ما قالَهُ بعضُ الناسِ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على الناسِ ولا مُتَعَدٍّ عليهِمْ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لا يَحْتَمِلُ البَغْيَ على الناسِ في حالِ الاضطِرارِ لأنهُ لا يَقْدِرُ عليهِ، والحالُ ما ذَكَرَ.

والثاني: أنهُ، وإنْ كانَ باغياً على ما ذَكَروا [لو][10] لم يُبَحْ لهُ التَّناوُلَ مِنَ المَيْتَةِ، يكونُ باغياً على نفسِهِ لأنهُ إنْ لم يَتَناوَلْ هَلَكَتْ نفسُهُ، فيصيرُ باغياً على نفسِهِ. فدلَّ أنهُ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يَحْتَمِلُ: أي: لا تَعودوا إلى ما وصفَتْ ألسنَتُكُمْ مِنَ الكذبِ ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ و[11] لا تقولوا الكذبَ الذي [تَصِفُ][12] ألسنَتُكُمْ ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][13] قالَ: لا تقولوا لِما أحْلَلْتُموهُ ﴿هَذَا حَلَالٌ﴾ ولِما حَرَّمْتُموهُ ﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [يونس: ٥٩].

---

(١) في الأصل وم: ويعرف ذلك من جوهره. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: تستطيب له.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: عابدون. (٨) في الأصل وم: إليه. (٩) في الأصل وم: يستفهم.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وأن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ ألاّ يَسَعَ لأحدٍ أنْ يقولَ: هذا مِمَّا أحَلَّهُ اللهُ، وهذا ممَّا حَرَّمَهُ اللهُ إلاّ بإذنٍ منَ اللهِ ومَنْ يَقُلْ[١] بأنَّ الأشياءَ في الأصلِ على الإباحةِ أو على الحَظْرِ فهو مُفْتَرٍ بذلكَ على اللهِ الكَذِبَ لأنَّ اللهَ لم يأذنْ لهُ أنْ يقولَ ذلكَ، بل نهاهُ عنْ ذلكَ ممَّا ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: تكونونَ[٢] مُفْتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ إذا قُلْتُمْ هذا. فإنْ قيلَ: كيفَ سَمَّاهُمْ مُفْتَرينَ على اللهِ بِتَسْمِيَتِهِمُ الحرامَ حلالاً والحلالَ حراماً؟ قيلَ: لأنَّ التحليلَ والتحريمَ والأمْرَ والنَّهْيَ رُبوبيَّةٌ، فإذا حَرَّموا شيئاً أحلَّهُ اللهُ، وأحَلُّوا شيئاً حَرَّمَهُ اللهُ، فكأنَّهُمْ على اللهِ افْتَرَوا أنهُ حَرَّمَ، أو أحَلَّ، أو حَرَّموا هُمْ، أو أحَلُّوا، فأضافوا ذلكَ إلى اللهِ تعالى أنهُ هو الذي حَرَّمَ، أو أحَلَّ، فقدِ افْتَرَوا على اللهِ لأنَّ مَنْ أحَلَّ شيئاً، حَرَّمَهُ اللهُ، أو حَرَّمَ شيئاً، أحَلَّهُ اللهُ، فقد كَفَرَ. وليسَ مَنِ انْتَفَعَ بالمُحَرَّمِ، أو تَرَكَ الانْتِفاعَ بالمُحَلَّلِ كافراً[٣]، إنما يصيرُ آثماً مُجْرِماً، وكذلكَ تاركُ الأمرِ ومُرْتَكِبُ النَّهْيِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ وفي تحريمِ ما أحَلَّهُ وقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ وهمْ مُفْتَرونَ على اللهِ، وأمَّا إذا انْتَزَعوا [أنفسَهُمْ][٤] مِنَ الافتِراءِ، وتابوا، أفْلَحوا. أو﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ في الآخِرَةِ إذا كانوا مُفْتَرينَ على اللهِ في الدنيا.

الآية ١١٧ ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ على الابْتِداءِ. وإنما سَمَّى قليلاً، واللهُ أعلَمُ، لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ مَتاعَ الدنيا على الزوالِ والانْقِطاعِ. فَكُلُّ ما كانَ على شَرَفِ الزوالِ والانْقِطاعِ فهو قليلٌ كما قيلَ: كُلُّ آتٍ قريبٌ لِما يأتي، لا مَحالَةَ. فَعَلَى ذلكَ: كلُّ زائِلٍ مُنْقَطِعٌ قريبٌ.

والثاني: سَمَّى قليلاً لِما هو مَشوبٌ بالآفاتِ والأحزانِ وأنواعِ البلايا والشدائدِ، فهو قليلٌ في الحقيقةِ.

والثالثُ[٥]: سَمَّاهُ قليلاً لِما أنَّ مَتاعَ الدنيا قليلٌ عمَّا وَعَدَ في الآخِرَةِ؛ فَمَتاعُها مِنْ مَتاعِ الآخِرَةِ قليلٌ، لِما ليسَ فيها الوجوهُ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ وهو ما قصَّ في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُهُ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ إلى قولِهِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الآية: ١٤٦] وقولُهُ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية [النساء: ١٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريمِ ما حَرَّمْنا عليهِمْ لأنَّا إنما حَرَّمْنا عليهِمْ تلكَ الطَّيِّباتِ عُقوبةً لهمْ وجَزاءً لِبَغْيِهِمْ، وهو ما قالَ في سورةِ النساءِ، وهو قولُهُ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية [الآية: ١٦٠] وهو ما قالَ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أخْبَرَ أنهُ إنما [حَرَّمَ][٦] عليهِمْ ذلكَ بظلمٍ كانَ منهُمْ عقوبةً وجزاءً لِبَغْيِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في ذلكَ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ لأنهمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ولِلَّهِ أنْ يَمْتَحِنَ عِبادَهُ وإماءَهُ بِتَحريمِ مَرَّةً وبتحليلٍ ثانياً، ولكنْ ظَلَموا أنفسَهُمْ حينَ[٧] وجَّهوها إلى غيرِ مالِكِها، أو صَرَفوا شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ إلى غيرِهِ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: [عَمَلُ السوءِ بجهالةٍ][٨] يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ الفِعْلَ فِعْلُ جاهِلٍ وسَفيهٍ، وإنْ لم يَجْهَلْ يُقَلْ[٩] لِمَنْ عَمِلَ السوءَ: يا جاهلُ، يا سَفيهُ.

والثاني: جَعْلُ ما يَحُلُّ بِهِ بعملِهِ السوءَ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ إلى آخِرِهِ يَجيءُ أنْ يكونَ في الآيةِ إضمارٌ، لم يَذْكُرْهُ[١٠]، لأنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ ثم كَرَّرَ ذلكَ

---

(١) في الأصل وم: يقول. (٢) في الأصل وم: تكونوا. (٣) في الأصل وم: كفرا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أي عمل السوء بجهالة و. (٩) في الأصل وم: يقال. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم.

الحَرْفَ على الاِبْتِداءِ مِنْ غَيرِ أنْ ذَكَرَ لهُ جواباً[١]، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للذينَ عَمِلوا السوءَ بِجهالةٍ ﴿مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فظاهرُ الكلامِ أنْ يقولَ: ثم/ ٢٩٤ - ب/ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للذينَ عَمِلُوا السوءَ بِجهالةٍ ثم تابوا ﴿مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية [النحل: ١١٠] لكنْ يُخرَّجُ على الإضمارِ أو على التكرارِ على إرادةِ التأكيدِ أو على الاِبْتِداءِ والاِكْتِفاءِ بجوابٍ ذَكَرَهُ في موضعٍ آخرَ بقولِهِ[٢]: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] هذا، واللهُ أعلَمُ، جوابٌ. أي إنَّ ربَّكَ بَعْدَ التوبةِ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو قَبلَ أنْ يَعْمَلَ عَمَلَ السوءِ. والعَرَبُ قد تُكَرِّرُ أشياءَ على إرادةِ التأكيدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ قالَ عبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ: الأُمَّةُ الذي يُعَلِّمُ الناسَ الخَيرَ، والقانِتُ المُطيعُ للهِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿أُمَّةً قَانِتًا﴾ أي مُؤمناً وحدَهُ، والناسُ كُلُّهُمْ كفارٌ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي إماماً يُقْتَدَى بِهِ في كلِّ خَيرٍ كقولِهِ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقالَ الحَسَنُ: كانَ إماماً أي سُنَّةً يُقْتَدى بِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ سَمَّاهُ أمَّةً [لِما كانَ كالأمَّةِ][٣] والجماعةِ مِنَ القيامِ على[٤] الأعداءِ لأنهُ وإنْ كانَ منفرداً وحدَهُ [كانَ قيامُهُ على][٥] الأعداءِ والأكابرِ منهمْ كالجماعةِ والعَدَدِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي مَجْمَعَ كلِّ خَيرٍ وكلِّ طاعةٍ لِما عَمِلَ هو مِنَ الخَيرِ عَمَلَ الجماعةِ، واجتَمَعَ فيهِ كلُّ خَيرٍ، فَسَمَّاهُ[٦] أمَّةً لهذا الذي ذَكَرْنا. أو أنْ يكونَ تفسيرُ الأمَّةِ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ والقانتُ: قيلَ: المُطيعُ، والقُنوتُ كما ذُكِرَ أنهُ سُئِلَ [رسولُ اللهِ ﷺ][٧] عنْ أفضلِ الصلاةِ، فقالَ: «طولُ القُنوتِ» [مسلم ٧٥٦/ ١٦٤] أي طولُ القِيامِ. فَعَلَى هذا المَعْنَى هو القائمُ للهِ في كل ما تَعَبَّدَهُ، وأَمَرَهُ بِهِ.

وقيلَ: ﴿أُمَّةً﴾ أي ديناً لِقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢ و...] أي دينُكُم ديناً واحداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قيلَ: [الحَنيفُ][٨] الحاجُّ، وقيلَ: الحَنيفُ المُسْلِمُ، وقيلَ: المُخْلِصُ، وفيهِ [عليهِ الصلاةُ والسلامُ][٩] كلُّ ذلكَ؛ كانَ حاجًّا مُسلِماً مُخلِصاً للهِ.

وأصلُ الحَنَفِ[١٠] المَيْلُ أي كانَ مائلاً إلى أمْرِ اللهِ وما تَعَبَّدَهُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لاشَكَّ أنهُ لم يكُنْ مِنَ المُشْرِكينَ، لكنهُ ذَكَرَ هذا[١١] لِوجهَينِ:

أحدُهُما: لِما ادَّعَى كلُّ أهلِ الأديانِ أنهمْ على دينِهِ، وانْتَسَبَتْ كلُّ فِرْقَةٍ إليهِ، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِنْ ذلكَ، وأخبَرَ أنهُ ليسَ على ما هُمْ عليهِ مِنَ الدينِ. وهو ما قالَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧].

والثاني: ذَكَرَ هذا أنهُ لم يَكُنْ مِنَ المشركينَ بقولِهِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦و: ٧٧ و: ٧٨] لأنهُ هو قالَ[١٢] ذلكَ عنهُ على ظاهِرِ ما نَطَقَ، وكانَ[١٣] ذلكَ في الظاهِرِ إشراكاً، ففيهِ شُبْهَةٌ[١٤] في ظاهِرِهِ، فَبَرَّأَهُ اللهُ عَنْ ذلكَ، وأخبَرَ أنَّ ذلكَ منهُ لم يكُنْ إشراكاً، ولكنْ على المُحاجَّةِ خَرَجَ ذلكَ منهُ مُحاجَّةَ قومِهِ كقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي [لم][١٥] يَصْرِفْ شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِ المُنْعِمِ بل صَرَفَ شُكْرَها إلى مُنْعِمِها. والشكرُ في الشاهدِ هو المكافأةُ، ولا يَبْلُغُ أحدٌ مِنَ الخَلائقِ المرتبةَ التي يُكافِئُ اللهَ في أصْغَرِ نعمةٍ أنْعَمَها عليهِ، ولا يَتَفَرَّغُ أحدٌ عنْ أداءِ ما عليهِ مِنْ إحسانِ اللهِ إليهِ[١٦] فَضْلاً أنْ يَتَفَرَّغَ لِمُكافأتِهِ.

لكنَّ اللهَ بفضلِهِ ومَنِّهِ سَمَّى ذلكَ شُكْراً، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ شُكْراً كما ذَكَرَ الصدقةَ التي يَتَصَدَّقُ بها العبدُ إقراضاً

---

(١) في الأصل وم: جواب. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) من م، ساقطة في الأصل. (٤) في الأصل وم: مع. (٥) في الأصل وم: فكان قيامه مع. (٦) في الأصل وم: فسمى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: هذين. (١١) في الأصل وم: هذين. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: شبه. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: عليه.

كما سَمّى تَسليمَهُ نَفْسَهُ وبَذْلَها[1] لأمرِ اللهِ شِراءً، وإنْ كانتْ أنفسُهُمْ وأموالُهُمْ في الحقيقةِ لهُ، ولا يطلُبُ المَرْءُ في العُرْفِ القَرْضَ مِنْ عَبْدِهِ، وكذلكَ الشراءَ. لكنهُ بِلُطفِهِ عامَلَ عبادَهُ مُعامَلَةَ مَنْ لا مُلْكَ لهُ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ. فَعَلى ذلكَ في تَسْمِيَةِ الشكرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لِرسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ أوِ اجْتَباهُ مِنْ بَينِ ذلكَ القومِ، وجَعَلَهُ إماماً يُقْتَدى بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دينُ الإسلامِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: الثناءَ الحَسَنَ، وقالَ بعضُهُمْ: الحَسَنَةَ في الدنيا؛ لأنَّ جميعَ الأديانِ يَتَوَلَّونَهُ، ويَرْضَونَهُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي ما آتاهُ اللهُ إلَّا حَسَنَةً على ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أي ما تأتِنا في الدنيا حَسَنَةً آتِنا كلَّها؛ لأنَّ قولَهُ ﴿حَسَنَةً﴾ إنما هي اسْمُ حَسَنَةٍ واحدةٍ، أو أنْ يكونَ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عندَ قَبْضِ روحِهِ أي على الحَسَنَةِ قَبَضَ روحَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي لم يُنْقِصْ ما آتاهُ في الدنيا عمّا يُؤْتِيهِ في الآخِرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ النُّبُوَّةَ والرِّسالَةَ. أو يُقالُ: إنهُ لم يُبَيِّنِ الحَسَنَةَ التي أخبَرَ أنهُ آتاها إياه، لكنهُ [خصَّهُ بها][2] كما هو خُصَّ في قولِهِ: «اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ» [البخاري ٦٣٥٧] قد كانَ مِنْ إبراهيمَ مَعْنًى، خَصَّ اللهُ إبراهيمَ بِهِ مِنْ غَيرِهِ، فذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دينَ إبراهيمَ وسَبيلَهُ. وذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: جاءَ جبريلُ إلى إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، يومَ التَّرْوِيَةِ، فَراحَ بِهِ إلى مِنًى، فَعَلَّمَهُ المَناسِكَ كلَّها، وأراهُ إياها[3]، فأوحَى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَنَحْنُ أُمِرْنا أنْ نَتَّبِعَ مِلَّتَهُ في الحَجِّ وفي غَيرِهِ.

وأصلُ المِلَّةِ الدينُ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ ﷺ: «لا يَتَوارَثُ أهلُ مِلَّتَينِ» [الترمذي ٢١٠٨] أي أهلُ دينَينِ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اخْتِلافُهُمْ في[4] ذلكَ أنَّ موسى أمَرَ بَني إسرائيلَ أنْ يَتَفَرَّغُوا في كلِّ سبعةِ أيامٍ يوماً للعبادةِ، وهو يومُ الجمعةِ، ويَنْزِعوا فيهِ عَمَلَ دنياهُمْ، فقالوا: نَتَفَرَّغُ يومَ السبتِ فإنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ يومَ السبتِ شيئاً. فقالَ فريقٌ منهمْ: انْظُروا إلى ما يأمُرُكُمْ نَبِيُّكُمْ، فَخُذوا بِهِ، فذلكَ اخْتِلافُهُمْ، فَجَعَلَ لهمْ يومَ السبتِ على ما سألوا، فاسْتَحَلُّوا فيهِ المَعاصيَ، فَحَرَّمَ اللهُ عليهِمُ العملَ فيهِ عقوبةً لهمْ.

وقالَ الحَسَنُ وقَتادةُ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي إنما لُعِنوا[5] في السبتِ، فَمُسِخوا قِرَدَةً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وكانَ اخْتِلافُهُمْ أنهُ حَرَّمَهُ بعضُهُمْ، واسْتَحَلَّهُ بعضٌ.

وقالَ أبو بكرٍ: اخْتِلافُهُمْ كانَ في تكذيبِ الرسلِ والأنبياءِ؛ فمنهُمْ مَنْ صَدَّقَ، ومنهُمْ مَنْ كَذَّبَ، فَحَرَّمَ عليهِمْ يومَ السبتِ عُقوبةً، أو يكونُ اخْتِلافُهُمْ ما سَألوا موسى مِنَ الآياتِ العجيبةِ والأسْئِلَةِ الوَحْشِيَّةِ كقولِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وكقولِهِمْ[6]: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ونَحْوِهِما[7] بَعْدَ ما أقامَ عليهِمْ مِنَ الآياتِ [ما][8] كانَتْ لهمْ فيها كِفايةٌ.

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ اخْتِلافُهُمُ الذي ذَكَرَهُ[9] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: وبذله. (٢) في الأصل وم: خص به. (٣) في الأصل وم: إياه. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: لعن. (٦) في الأصل وم: وكقوله. (٧) في الأصل وم: ونحوه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: إنما جَعَلَ [السبتَ مِحنَةً][1] على الذينَ اختَلَفوا فيهِ، أي على الذينَ فَسَقوا فيهِ حينَ[2] قالَ: ﴿بِمَا كَانُوا يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

والثاني: إنما جَعَلَ عقوبةَ السبتِ على الذينَ اعْتَدَوا فيهِ دونَ الذينَ اختَلَفوا فيهِ؛ لأنَّ فريقاً منهمْ، قد نَهَوهُمْ عنْ ذلكَ، وفريقاً قدِ اعْتَدَوا، فأهلكَ الذينَ اعْتَدَوا دونَ الذينَ نَهَوهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱخۡتَلَفُوا۟ فِيهِۚ﴾ عُوقِبوا فيه، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يحكُمُ بينَهُمْ بالجزاءِ، ويَحكُمُ بما بيَّنَ لهمُ المُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ، خَيَّبَ فريقاً، وأنجى فريقاً. فكيفَ قالَ: ﴿لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ الآية[3]؟ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ بالجزاءِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ قيلَ: دينِ ربِّكَ ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي ادْعُهُمْ إلى دينِ اللهِ بالقرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾/ ٢٩٥ ـ أ/ بالحُجَّةِ والبرهانِ، أيِ ادْعُهُمْ إلى دينِ اللهِ بالحُجَجِ والبراهينِ، أي أَلْزِمْهُمْ دينَ اللهِ بالحُجَجِ والبراهينِ حتى يُقِرُّوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي عِظْهُمْ بالمَوعِظَةِ التي وَعَظَهُمُ اللهُ تعالى في الكتابِ.

وقالَ أبو بكرٍ: أي ذَكِّرْهُمُ النِّعَمَ التي أنْعَمَ عليهِمْ ﴿وَجَـٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي جادِلْهُمْ أحْسَنَ المُجادَلَةِ بلينِ القَولِ وخَفْضِ الجانِبِ والجَناحِ، لَعَلَّهُمْ يَقْبَلُونَ [دينَ اللهِ][4] ويَخْضَعونَ لربِّهِمْ.

وكذلكَ اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠] وقولِهِ: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَـٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾ [آل عمران: ٨١].

قالَ الحَسَنُ: الكتابُ والحِكمَةُ واحدٌ اسمٌ مُثنًّى، وهو القرآنُ. وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ هو القرآنُ، وهو سَماعُ الوَحْيِ، والحكمَةُ وَحيُ الإلهامِ، وهو السُّنَّةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ هو التنزيلُ، والحكمةُ هي المَعْنى المُودَعُ فيهِ.

فَمَنْ يقولُ: إنَّ الكتابَ والحِكمَةَ واحدٌ، وهي القرآنُ، يقولُ في قولِهِ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ القرآنَ. ومَنْ يقولُ عنهُ إنهما غيرُ [واحدٍ][5] يقولُ ههنا: إنَّ الحكمةَ الحُجَّةُ والبرهانُ: إمّا مِنْ جِهَةِ الإلهامِ وإمّا مِنْ جهةِ الانْتِزاعِ مِنَ الكتابِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ التي ذَكَرَ في هذهِ السورةِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [الآية: ٦٩] يعني مِنْ بُطونِ النحلِ، وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَـٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [الآية: ٦٦] وما ذَكَرَ أنهُ يُخرِجُ مِنَ الخُشُبِ اليابِسَةِ الأعنابَ وأنواعَ الثمراتِ ونَحْوَهُ [الآيتان: ١٠ و١١]. وذلكَ كلُّهُ بحكمتِهِ، أيِ ادعُهُمْ إلى دينِهِ، وذَكِّرْهُمْ بهذا، وهُمْ يُقِرُّونَ بهِ لِيَقْبَلوا دينَهُ، ويَخضَعوا لأمْرِهِ.

[ويَحتَمِلُ قولُهُ][6]: ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَـٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠] وذلكَ كُلُّهُ مُسْتَحْسَنٌ في العَقْلِ وتوجيهِ الحِكمَةِ، لأنَّ العَدْلَ والإحسانَ وما ذَكَرَ مِنْ إيتاءِ ذي القُرْبى الصدقةَ مُسْتَحْسَنٌ في عقلِ كلِّ أحدٍ، والانْتِهاءَ أيضاً عنِ الفَحْشاءِ والمُنكَرِ مُسْتَحْسَنٌ، مُسْتَقْبَحٌ ارتِكابُهُ وإتيانُهُ؛ كأنَّ الحِكمَةَ هي التي تَشْتَمِلُ على العِلْمِ والعَمَلِ جميعاً؛ كأنهُ قالَ: ادعُهُمْ إلى دينِ اللهِ بالعِلْمِ جميعاً حتى يَنْجَعَ ذلكَ فيهِمْ، أوِ ادْعُهُمْ باللِّينِ وخَفْضِ الجَناحِ مَرَّةً بالعُنْفِ والخُشونَةِ ثانيا، فيكونُ وَضْعُ الشيءِ مَوْضِعَهُ، ثم قال: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَـٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ يَحتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، أي جادِلْهُمْ بالذي يُقِرُّونَ على ما يُنْكِرونَ، وهو ما

---

(١) في الأصل وم: محنة السبت. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل وم: دينهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

ذَكَرَ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ الآية [النحل: ١٧] وقولُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ [النحل: ٧٣] وقولُهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية [النحل: ٧٥] وقولُهُ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٧٦] وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ﴾ الآية [النحل: ٧١] ونحوُ هذا [أمَرَ أنْ][1] يُجادِلَهُمْ بأحْسَنِ المُجادَلَةِ بالذي يُقِرُّونَ أنهُ كذلكَ على الذي[2] يُنْكِرونَ لِيُلْزِمَهُمُ القَبولَ والخُضوعَ لهُ.

ثم في الآيةِ دليلُ تعليمِ المُناظَرَةِ في الدينِ وكَيفِيَّةِ المُعاملةِ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ فيها حينَ[3] قالَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ التي عندَهُ بالقرآنِ أو غيرِهِ مِنَ الحَجَجِ والبيِّناتِ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ هكذا يَجبُ أنْ يُناظِرَ بعضُهُمْ بعضاً بالوَجْهِ الذي وَصَفَ اللهُ تعالى.

وعلى ذلكَ ما ذَكَرَ اللهُ في كتابِهِ مُناظَرَةَ الأنبياءِ والرسلِ معَ الفراعنةِ والأكابرِ، وهو ما قالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إلى آخرِ ما ذَكَرَ، وقولُهُ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨٠] ومُناظَرَةُ فِرْعَونَ مَعَ مُوسَى، صَلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، حينَ[4] ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الشعراء: ٢٣ و: ٢٤] وما قالَ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] وقولُهُ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٣١ و٣٢] وما ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ و: ٥٠] وأمثالُهُ ممَّا يكثُرُ. فهذهِ مُناظَرَةُ الرُّسُلِ والأنبياءِ معَ الفراعنةِ والأعداءِ. فكيفَ المُناظَرَةُ بينَ الأولياءِ؟ فهذا كلُّهُ يَرُدُّ على مَنْ يَأبى المُناظَرَةَ في الدينِ، ويَمْتَنِعُ عنِ التَّكَلُّمِ فيهِ والاحْتِجاجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ في الآيةِ نِسْبَتُهُمْ إلى الضلالِ إشارةً وكِنايةً لا تَصْريحاً لأنهُ لم يَقُلْ لهمْ مُصَرِّحاً: إنكُمْ قد ضَلَلْتُمْ عَنْ سَبيلِهِ لِحُسْنِ مُعامَلَتِهِ التي عَلَّمَ رسولَهُ، وأمَرَهُ أنْ يُعامِلَهُمْ، لأنَّ ذلكَ أقْرَبُ إلى القَبولِ وأمْيَلُ إلى القُلوبِ[5] وآخَذُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ لِموسى وهارونَ حينَ أرسَلَهُما إلى فِرْعَونَ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾؟ [طه: ٤٤]

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ في سَبَبِ نُزولِ ذلكَ.

قالَ بعضُهُمْ: [نَزَلَ][6] في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وذلكَ أنَّ نفراً منهُمْ قد [مُثِّلَ بهمْ][7] يومَ أُحُدٍ مُثْلَةً سَيِّئَةً مِنْ قَطْعِ الآذانِ وتَجْديعِ الأنوفِ وبَقْرِ البُطونِ ونَحْوِهِ، فقالَ [رسولُ اللهِ][8] «لَئِنْ أدالَنا اللهُ منهمْ لَنَفْعَلَنَّ كذا وكذا» [بنحوه زاد المسير ٤/ ٣٧٠] فأرادوا أنْ يُجازوا ذلكَ، فأنزَلَ اللهُ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية.

وفيهِ البِشارةُ لهمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ على أعدائِهِمْ، لأنهُ لو لم يكُنْ لهمُ الظَّفَرُ بهمْ كيفَ يَقْدِرونَ على معاقَبَةِ مِثْلِ ما عُوقِبوا؟ دلَّ أنهُ على البِشارةِ لهمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ بهِمْ.

وفيهِ دِلالةُ جَوازِ أخْذِ مَنْ لم يَتَوَلَّ القَتْلَ والأخذَ والضَّرْبَ لِما لَعَلَّهُمْ لا يَظْفَرونَ بأولئكَ الذينَ تَوَلَّوا ذلكَ، لكنْ يُؤخَذُ[9] إخوانُهُمْ بهمْ لِما بِمعونةِ بعضِهِمْ بعضاً فَعَلوا [ذلكَ][10] ويكونُ فيهِ دليلُ أخذِ قُطَّاعِ الطريقِ بالقَتْلِ والقَطْعِ، وإنْ كانَ الذي تولَّى ذلكَ بَعْضاً منهمْ لِما أنَّ مَنْ تَوَلَّى ذلكَ إنما تولَّى بِمَعونَةِ مَنْ لمْ يَتَوَلَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما نَزَلَتِ الآيةُ في ابْتِداءِ الأمْرِ الذي كانَ القَتْلُ معَ الكَفَرَةِ قَتْلَ مُجازاةٍ مِثْلَ قولِهِ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وكقولِهِ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ومِثْلُهُ.

فإذا كانَ على المُجازاةِ أمَرَ ألاَّ يَتَجاوَزوا عُقوبَتَهُمْ، ولكنْ بِمِثْلِهِ. وأمَّا إذا كانَ القِتالُ معهمْ لا قِتالَ مجازاةٍ فإنهمْ يُقتَلونَ جميعاً إذا أبَوُا الإسلامَ بقولِهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩] وقولِهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلاَّ اللهُ» [البخاري ٢٥] وقولِهِ تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الذين. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: القبول.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: مثلوا. (٨) في الأصل وم: أصحابهم. (٩) أدرج قبلها في م: لا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أهلِ الإسلامِ وحكْمِهِ في القِصاصِ والقَطْعِ في ما دونَ النفسِ والجراحاتِ. أمَرَ ألّا يَتجاوَزوا حُدودَهُمْ[١] كقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾ على ما ذَكَرَ ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ودلَّ قولُهُ: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ على أنَّ الآيةَ في القِصاصِ لا في الحَرْبِ، لأنهُ في الحَرْبِ لا يُقالُ: اصْبِرْ، ولا يكونُ الصَّبْرُ خيراً. دَلَّ أنهُ في غَيرِ المُحارَبَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمدُ ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][٢]: أي وما توفيقُكَ على الصبرِ إلّا باللهِ كقولِ شُعَيبٍ: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ الآية [هود: ٨٨].

والثاني: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي تَرْكُكَ القِصاصَ لأمْرِ اللهِ حينَ[٣] أمَرَكَ بهِ لا لِضَعْفٍ أو عَجْزٍ فيكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ يَحزَنُ، ويَضيقُ صَدْرُهُ لِمَكانِ كُفرِهِمْ باللهِ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] فقالَ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ لِذلكَ على التَّسلّي والتَّخفيفِ لا على النَّهيِ عنْ ذلكَ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾/ ٢٩٥ ـ ب/ على المؤمنينَ الذينَ قُتِلوا، واستُشْهِدوا لأنهمْ مُستَبْشِرونَ فَرِحونَ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠] أي لا تَحزَنْ عليهِمْ، وهُمْ [في ما][٤] ذَكَرَ، أو لا تَحزَنْ على المؤمنينَ، ولا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ ممّا يَمْكُرُ بكَ أولئكَ الكَفَرةُ؛ إذْ كانوا يَمكُرونَ برسولِ اللهِ وبأصحابِهِ، ويُؤذونَهُمْ. أخبَرَ ألّا يَضيقَنَّ صدرُكَ لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ في أمْرِ حَمزَةَ سَيِّدِ الشهداءِ، وإنهُ مُثِّلَ [بهِ][٥] وجُرِحَ جِراحاتٍ عظيمةً، فاشْتَدَّ على النَّبِيِّ، فقالَ: «لَئِنْ ظَفِرْنا بأولئكَ لَنَفعَلَنَّ كذا، ولَنَفعَلَنَّ كذا» [الطبراني في الكبير ١١٠٥١] فَنَزَلَتِ الآيةُ ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: ١٢٦].

لكنْ إنْ ثَبَتَ هذا فإنهُ يكونُ في الوقتِ الذي كانَ يُؤخَذُ غيرُ[٦] القاتِلِ والجارحِ بالقَتْلِ؛ وذلكَ قد كانَ في الابتداءِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] كانوا هَمّوا أنْ يأخذوا الحُرَّ بالعَبْدِ والذَّكَرَ بالأُنثى حتى نَزَلَ هذا؟ فصارَ مَنسوخاً بهِ وبقولِهِ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩] ولو كانَ يُؤخَذُ غيرُ القاتِلِ بالقِصاصِ لم يَكُنْ فيهِ حياةٌ.

أو إنْ قاتَلوا في الحربِ معَ الكَفَرَةِ، فذلكَ يَحتَمِلُ لأنهُ في الحَرْبِ، لهمْ أن يَقتُلوا الكلَّ، وألّا يَترُكوا واحداً منهمْ.

دلَّ أنهُ يُخَرَّجُ على أحدِ وجهَينِ:

[أحَدُهُما][٧]: على النسخِ الذي ذَكَرْنا.

والثاني[٨]: على النَّهيِ عنْ أخذِ أكثَرَ مِنْ حقِّهِ كقولِهِ: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤].

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ ورسولِهِ بالنصرِ لهمْ والعَونِ، فإنَّ اللهَ ناصِرُكُمْ ومعينُكُمْ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ في العَمَلِ والتوحيدِ، أو يقولُ: إنَّ اللهَ مع الذينَ اتَّقَوا مَحارِمَ اللهِ وارتِكابَ مَناهيهِ بالنَّصْرِ لهمْ والمَعونةِ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ إلى نِعَمِ اللهِ بالقيامِ بالشُّكْرِ لها، واللهُ تعالى أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حقوقهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: فيها. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: غيره. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو.

[سورة بني إسرائيل مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ سُبحانَ كلمةُ إجلالِ اللهِ عنِ الأكفاءِ وتنزيهِهِ عنِ الشركاءِ وتَبْرِئَتِهِ عمّا قالتِ المُعَطِّلَةُ فيهِ، وظَنَّتِ المَلاحِدَةُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والحاجاتِ والآفاتِ وجميعِ مَعاني الخَلْقِ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عن تفسيرِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩١و...] فقالَ[2]: «هو تَنْزيهُ اللهِ عنْ كلِّ سُوءٍ»[بنحوه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٩/ ٢]

ومَعْنى قولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ ذَكَرَ أنَّ مَنْ قَدَرَ على أنْ يَسْرِيَ بِعَبْدِهِ ليلاً مَسيرَةَ شَهْرٍ يَقْدِرُ على إحياءِ [الموتى][3] بَعْدَ الموتِ، ويَمْلِكُ حِفْظَ رسولِهِ والنَّصْرَ لهُ وإظهارَ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ وقَطْعَ حِيَلِ المُكَذِّبينَ لهُ والمُخالِفينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ سَمّاهُ أقصى، وهو الأبعَدُ، مِنْ قَصَى يَقْصي، فهو قاصٍ؛ كأنهُ لم يكُنْ يومئذٍ إلا المَسْجِدُ الحرامُ ومَسْجِدُهُ بالمدينةِ ومَسْجِدُ بيتِ المَقْدِسِ، فسمّاهُ، واللهُ أعلَمُ، المَسْجِدَ الأقصى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قيلَ: سَمّاهُ[4] مُباركاً لكثرةِ أنزالِهِ وخيراتِهِ وسَعَتِهِ. وقيلَ: سَمّاهُ[5] مُباركاً لأنهُ مكانُ الأنبياءِ ومُقامُهُم، فَبورِكَ فيهِ بِبَرَكَتِهِمْ ويُمْنِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا الحِسِّيَّةِ بَعْدَ ما أريناهُ[6] الآياتِ العقليَّةَ؛ لأنَّ الآياتِ الحِسِّيَّةَ أكبَرُ في قَطْعِ الشُّبْهَةِ ورَفْعِ الوساوِسِ مِنَ العقليَّةِ، إذْ لا يَشُكُّ أحدٌ في ما كانَ[7] سَبيلُ مَعْرِفتِهِ الحِسَّ والعِيانَ، وقد تَعْتَرِضُ الشُّبَهُ[8] والوَساوِسُ في العَقْلِيّاتِ لأنهُ لا يَشُكُّ أحدٌ في نَفْسِهِ أنهُ هو، فاحَبَّ ﷻ أنْ يُرِيَ رسولَهُ آياتٍ حِسِّيَّةً تَضْطَرُّ [المُتَعَنِّتينَ إلى][9] قَبولِها والإيمانِ والإقرارِ لهُ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ لِما يَعْلَمونَ أنَّ ما كانَ يُخْبِرُهُمْ مِنْ أخبارٍ حينَ[10] قالَ: إنهُ رَأى غَيرَ فلانٍ وأموراً يَعْلَمونَ أنهُ لا يقولُ إلا عَنْ مُشاهدةٍ وعِيانٍ، لأنهُ كانَ ما أُوتِيَ مِنَ الآياتِ العقليّاتِ قالوا: أنهُ سِحْرٌ، وما ذَكَرَ مِنَ الأنباءِ التي كانَتْ في كُتُبِهِمْ المتقدمةِ قالوا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥و...] وقالوا[11]: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ليسَ ذلكَ عَمَلَ سِحْرٍ ولا إفكاً ولا افْتِراءً ولا أساطيرَ الأوّلينَ على ما نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ مَرَّةً وإلى الإفكِ والافْتِراءِ ثانياً، ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخْفى عليهِ شيءٌ مِنْ قولٍ أو عَمَلٍ. ثم رُوِيَ مِنَ الأخبارِ، وأنهُ عُرِجَ إلى السماءِ حتى رأى إخوانَهُ الأنبياءِ الماضِينَ قَبْلَهُ وما ذَكَرَ فيها. فنحنُ نقولُ ما قالَ الصديقُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليه، إنْ كانَ قالَ ذلكَ فأنا أشْهَدُ على ذلكَ، وإلا[12] نقولُ على مقدارِ ما في الآيةِ: إنهُ أُسْرِيَ بهِ إلى البيتِ المَقْدِسِ المَسْجِدِ الأقصى، ولا نزيدُ عليهِ، لأنهُ مِنْ أخبارِ الآحادِ فلا تَسَعُ الشهادةُ لهُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراةَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلُّ كتابٍ [مِنْ كتبِ][13] اللهِ هُدىً لِمَنِ اسْتَهْدى ورُشْدٌ لِمَنِ اسْتَرْشَدَ وبَيانٌ[14] لِمَنِ اسْتَوْضَحَ لأنها دَعَتْ إلى ثلاثِ خصالٍ: دَعَتْ إلى

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن سورة بني إسرائيل وهي مكية. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: سمى. (٥) في الأصل وم: سمى. (٦) في الأصل وم: أراه. (٧) أدرج قبلها في الأصل: أن. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ربما. (٩) في الأصل وم: المنصفين على. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) من م، في الأصل ولا. (١٣) ساقطة من الأصل و م. (١٤) في الأصل وم: وبيانا.

مَعالي الأمورِ ومَكارِمِ الأخلاقِ ومَصالِحِ الأعمالِ، ونَهَتْ عنْ ثلاثٍ: عنْ مساوِئِ الأعمالِ وعنْ سَفاسِفِ الأمورِ ودناءةِ الأخلاقِ ورداءَتِها.

ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ الكتابَ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لأنَّ مَنْفَعَةَ الكتابِ حَصَلَتْ لهمْ لأنهمْ همُ الذينَ اسْتَهْدَوا بهِ. فَعَلَى ذلكَ هو هُدىً لِمَنِ اسْتَهْدَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي مُعْتَمداً، أي قُلْنا لهمْ، أو ذَكَرْنا لهمْ فيهِ، أو أمَرْناهُمْ فيهِ ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي مُعْتَمداً موكولاً. الوكيلُ، هو مَوْكولُ الأمرِ إليهِ، مُعْتَمَدٌ في الأحوالِ عليهِ، قائمٌ في جميعِ ما وُكِلَ إليهِ بالتَّبَرُّعِ والتَّفَضُّلِ.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها:][2] قالَ بعضُهُمْ: يعني بالذُّرِّيَّةِ الأنبياءَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ؛ أي كانوا مِنْ ذُرِّيَّةِ نوحٍ ومَنْ حَمَلَ معهُ، وهم بَشَرٌ؛ قالَ ذكرَ هذا لإنكارِهِمْ بَعْثَ الرسلِ مِنَ البَشَرِ حينَ[3] ﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]

والثاني: يَحْتَمِلُ غيرَهُ: أي مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي هؤلاءِ [الكفرةُ][4] مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فكيفَ خالفوا آباءَهُمُ الذينَ كانوا على الهُدَى، وتابَعوا غيرَهُمْ.

والثالثُ[5]: يَذْكُرُ أنَّ هؤلاءِ الرسلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾/ ٢٩٦ ـ أ/ وهُمْ بَشَرٌ فكيفَ أنكَروا الرسولَ مِنْ بَشَرٍ.

والرابعُ[6]: هو على النِّداءِ والدُّعاءِ يا﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينةِ في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ زمانَ الطوفانِ. لا تتَّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾. قيلَ: ربّاً وإلهاً، وقيلَ: شريكاً.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا: أنَّ الوكيلَ، هو المُعْتَمَدُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يعني نوحاً. سَمّاهُ شكوراً لأنهُ كانَ يَذْكُرُ ربَّهُ في جميعِ أحوالِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: الشكورُ هو الذي يَبْتَغي مَرْضاةَ مُنْعِمِهِ، ويَجْتَنِبُ مَساخِطَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الشكورُ، هو المُطيعُ للهِ، وقد ذَكَرْنا مَعْنَى الشُّكْرِ أنهُ اسْمُ المكافأةِ. أو يُقالُ كانَتْ عبادَتُهُ للهِ عبادةَ شُكْرٍ. لا عبادةَ استِغْفارٍ؛ أي كانَ شكوراً في عبادَتِهِ لا مُسْتَغْفِراً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ قالَ الحَسَنُ وغيرُهُ: أوحينا إليهِمْ، وأخْبَرْناهُمْ، وأعْلَمْناهُمْ ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: قَضَينا عليهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ كَتَبْنا عليهِمْ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزلةِ، لأنهُ أخبَرَهُمْ[8]، وأعْلَمَهُمْ، على تأويلِ مَنْ زَعَمَ أنَّ القَضاءَ ههنا هو الإعلامُ والإخبارُ لهمْ.

فيُقالُ لهمْ: كانَ أخبَرَهُمْ، وأعلَمَهُمْ، لِيَصْدُقَ في خَبَرِهِ أوّلاً. فإنْ كانَ أخبَرَهُمْ لِيَصْدُقَ في خَبَرِهِ فذلكَ منهُ حكمٌ أنهمْ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وإنْ كانَ تأويلُ القضاءِ الكِتابَ والحُكْمَ فهو ظاهرٌ، وهو ما نقولُ: إن كلَّ فاعلٍ فعلاً طاعةً كانَتْ أو مَعْصيةً كانَ بحكْمِهِ، ثم مَنْ سألَ آخَرَ عنِ المَعْصِيَةِ أنها كانَتْ بقضاءِ اللهِ فلا يجبُ أنْ يُجابَ لهُ على الإطلاقِ بنعم أوْ لا إلّا أنْ يُبَيِّنَ[9] ما يُريدُ بالقضاءِ وما يَفْهَمُ منهُ، لأنَّ القضاءَ يَتَوَجَّهُ إلى [وجهَينِ:

أحدُهما][10]: يَرْجِعُ إلى الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي خَلَقَهُنَّ.

[والثاني: إلى][11] الأمرِ بقولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أمَرَ ربُّكَ [القضاءُ والحُكْمُ][12] كقولِهِ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أي احْكُمْ ما أنتَ حاكمٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: ثم قال بعضهم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) أدرج قبلها في م: أخبر أنه. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: وجوه. (١١) في الأصل وم: والقضاء. (١٢) في الأصل وم: والقضاء الحكم.

ولم يُعْرَفِ القضاءُ الحَمْلَ والدفعَ على ما يقولُهُ المُعْتَزِلةُ ونَحْوَهُ، فلا يُجابُ على الإطلاقِ إلا أنْ يُبَيِّنَ[1] ما أرادَ بالقضاءِ. فإنْ أرادَ بالقضاءِ الحُكْمَ فعندَ ذلكَ يُقالُ: نعمْ كانَ بقضائِهِ وحُكْمِهِ. وليسَ في ما قَضى، وحَكَمَ، دفْعُهُ في المَعْصِيَةِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنَّ بني إسرائيلَ عَصَوا ربَّهُمْ، فَسَلَّطَ اللهُ عليهِمْ جالوتَ، فَقَتَلَهُمْ، وسَبى ذَراريَّهُمْ، وسَلَبَ[2] أموالَهُمْ، فكانوا كذلكَ زماناً، ثم تابوا، ورَجَعوا عن ذلكَ. ثم بعثَ اللهُ داوودَ، فَقَتَلَ جالوتَ، واسْتَنْقَذَهُمْ منْ يَدَيْهِ، وردَّهُمْ، ثم عادوا إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ. ثم سَلَّطَ عليهِمْ بَخْتُنُصَّرَ، فَفَعَلَ بهِمْ مافَعَلَ جالوتُ، ثم تابوا. فَبَعَثَ محمداً ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَعَثَ أوّلاً بَخْتُنُصَّرَ، ثم فلاناً وفلاناً، وهو ما قالَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى العِصيانِ ﴿عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٥ ـ ٨] إلى العقوبةِ.

وليسَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوى ما فيهِ مِنْ وجوهِ الحِكْمَةِ والدلالةِ:

أحَدُها: دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ عما كانَ في كُتُبِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ عَلِمَ ما في كُتُبِهِمْ، ولا اختَلَفَ إلى أحدٍ منهمْ، فكانَ على ما أخبَرَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ بما أخبَرَهُ في كتابِهِ.

والثاني[3]: أنهُ لم يُهْلَكْ قومٌ بنفسِ الكُفْرِ إهلاكَ اسْتِئصالٍ حتى كانَ منهمْ مَعَ الكُفْرِ السَّعْيُ في الأرضِ بالفسادِ والعِنادُ للآياتِ.

[والثالثُ: أنهُ][4] ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهمْ وإعطاؤهُ [إياهمْ][5] في الدينِ حينَ[6] لم يُمِتْهُمْ على الإيمانِ، ولكنْ تَرَكَهُمْ حتى عَصَوا ربَّهُمْ، ثم سَلَّطَ عليهِمْ مَنْ قَتَلَهُمْ على تلكَ الحالِ، ودعاهُمْ إلى دينِهِ، وهو كُفْرٌ. فلو كانَ عليهِ إعطاءُ الأصلَحِ لأماتَهُمْ على الإسلامِ، فذلكَ أصلَحُ لهمْ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ قيلَ: لَتَجْتَرِؤُنَّ جَراءةً عظيمةً، وقيلَ: ولَتَقْهرُنَّ، ولَتَغْلِبُنَّ غلَبَةً كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي قَهَرَ، وغَلَبَ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: ٤] ثَبَتَ أنهُ على الغَلَبَةِ والقَهْرِ.

وقيلَ: العُلُوُّ، هو العُتُوُّ والجَراءةُ والتَّكبُّرُ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي جاءَ وَعْدُ هلاكِ مَنْ عَصى منهُمْ أوّلاً، وخالفَ أمْرَ اللهِ، وكَفَرَ بهِ، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ ليسَ على بَعثِ الوحْيِ إليهِمْ، ولكنْ على التَّخْلِيَةِ، أي خَلَّينا بَينَهُمْ وبَيْنَ عبادٍ ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أُولي بَطْشٍ شديدٍ وقُوَّةٍ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] أي سَلَّطْنا عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ على المُعْتَزِلةِ لأنهُ ذَكَرَ[أنهُ][7] بَعَثَ عليهِمْ عباداً أُولي بأسٍ شديدٍ، وإنما بَعَثَهُمْ لِجَزاءِ إساءَتِهِمْ ولِسوءِ صَنيعِهِمْ، وذلكَ شَرٌّ، يُفْعَلُ بهِمْ. دلَّ أنَّ لِلَّهِ صُنْعاً في جميعِ فِعْلِ العبادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: جاسوا: مِنَ التَّجَسُّسِ، أي يَتَجَسَّسُونَ أخبارَهُمْ، ويَسْمَعونَ أحاديثَهُمْ، وهُمْ جنودٌ، جاؤوا منْ فارِسَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَجَاسُوا۟﴾ أي قَتَلوا الناسَ في الأزِقَّةِ وفي الطرقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي [وَعَدَ][8] الذينَ قالَ [لهمْ][9]: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ وعداً كائناً مفعولاً، أي كانَ وعداً موعوداً مفعولاً كائناً، إذْ[10] الوعدُ لا يأتي، وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي مَوعوداً مأتيّاً، وكذلكَ ما أشْبَهَ هذا.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: وفيه. (٤) في الأصل وم: وفيه أن. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل وم: وإلا.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الغَلَبَةَ والهلاكَ عليهِمْ ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثَرَ رجالاً منكُمْ. قيلَ: ذلكَ وَعَدَداً[1]، ثم إذا عَصَوا ثانياً، وكَفَروا بربِّهِمْ، سَلَّطَ اللهُ عليهِمْ قوماً آخرينَ، فَدَمَّروا عليهِمْ. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٧و١٠٤] الهلاكُ والتدميرُ، أي مَوعودُ الآخِرَةِ ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

ثم وَعَدَ لَهُمُ الرحمةَ إنْ تابوا، ورجَعوا عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] ثم أوْعَدَهُمُ العَودَ إليهِمْ بالعقوبةِ بقولِهِ: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإنْ عُدْتُمْ إلى المَعاصي عُدْنا عليكُمْ بالعقوبةِ.

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ سَلَّطَ عليهِمْ بَخْتُنَصَّرَ وجالوتَ ثم فلاناً وفلاناً، فذلكَ لا يُعْلَمُ إلا بالخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ، وليسَ في الآيةِ سِوَى أنهُ بَعَثَ عليهِمْ ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا يُزادُ على ذلكَ إلا بالخَبَرِ سِوَى أنهُ ذَكَرَ هذا لنا. وفيهِ وَجْهانِ[2] مِنَ الحِكْمَةِ:

أحَدُهما[3]: ما ذَكَرْنا مِنْ إثباتِ نُبُوَّةِ محمدٍ ومنْ صِدْقِ رسولِهِمْ حينَ[4] حَذَّرَهُمُ العقوبةَ بِعِصْيانِهِمْ. فكانَ كما قالَ.

والثاني[5]: تحذيرُنا عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ لأنهمْ لَيسوا بذلكَ أولَى مِنْ غَيرِهِمْ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي عاثوا بَينَ الديارِ، وأفْسَدوا، ويُقالُ: جاسوا، واجْتاسوا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي الدَّولَةَ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي عَدَداً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ هو مِنَ الخُروجِ والنَّفْرِ؛ ومَعْناهُ: أكثَرُ عَدَداً.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ مَعْناهُ: أي قَتَلوا في ديارِهِمْ.

وقالَ قَتادَةُ: النفيرُ المُقاتِلَةُ الذينَ يُسْتَنْفَرونَ لِلْقِتالِ، أي لوِ اسْتُنْفِرْتُمْ أنتمْ، واسْتُنْفِرَ أولئكَ كنْتُمْ أكثَرَ منهُمْ. ثم جاءَ قولُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ إلى قولِهِ ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾

ومَعْلومٌ[6] أنهُ لم يكُنْ في كتابِهِمْ هذا اللفظُ: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿فَجَاسُوا۟﴾ على الابْتِداءِ، ولكنْ كانَ، واللهُ أعلَمُ، إذا جاءَ وَعْدُ أولاهُما لَيَبْعَثَنَّ عِباداً أولي بأسٍ شديدٍ، يَتَجَسَّسونَ، أو يَجْتاسونَ.

لكنهُ خاطَبَ بهذا، واللهُ أعلَمُ[الذينَ][7] كانوا بِحَضْرَةِ رسولِ اللهِ ﷺ وإنْ كانوا هُمْ لم يَفْعلوا ما ذَكَرَ، لكنْ لِما فَعَلَ أوائلُهُمْ خاطَبَ هؤلاءِ لِما كانوا/ ٢٩٦ ـ ب/ يَفْتَخِرونَ بأوائلِهِمْ، ويقولونَ هُمْ ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فَيُذَكِّرُ هؤلاءِ نِعْمَةَ التي أنْعَمَ على أولئكَ، ويُحَذِّرُهُمْ صنيعَهُمْ، وهو ما خاطَبَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ الآيةَ [البقرة: ٥٥] وقولِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] ونَحْوِهِ.

خاطَبَ هؤلاءِ الذينَ كانوا بِحَضْرَةِ رسولِ اللهِ ﷺ وعاتَبَهُمْ على صَنيعِ أولئكَ وفِعْلِهِمْ، وإنْ كانَ هؤلاءِ لم يَقولوا ذلكَ لِما[لم يَرْضَوا][8] بِصَنيعِ أولئكَ، وتحذيراً عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لا للهِ، إذْ إليكُمْ تَرْجِعُ مَنْفَعَةُ ذلكَ، وأنْتُمْ تُجْزَونَ[9] وعلى ذلكَ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فَعَلَيها كقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآيةَ [فصلت: ٤٦] أي عليها ضَرَرٌ[10] ذلكَ. وعلى ذلكَ جميعُ [ما][11] أمَرَ اللهُ عبادَهُ مِنَ الأعمالِ، أو نَهاهُمْ عنها؛ إنما أمَرَ، ونَهَى لِمَنْفَعَةِ أنْفُسِهِمْ ولِحاجَتِهِمْ لا لِمَنْفَعَةٍ لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي إلى أنْفُسِكُمْ تُسيؤونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي جاءَ وَعْدُ مَوعودِ الآخِرَةِ، وهو العقوبةُ بِعِصْيانِهِمْ وتكذيبِهِمْ رُسُلَ اللهِ.

---

(١) من م، في الأصل: وعدا. (٢) في الأصل وم: وجوه. (٣) في الأصل وم: أحدها. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وفيه.
(٦) الواو ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل وم: رضوا. (٩) في الأصل وم: تحزنون. (١٠) في م: ضرورة.
(١١) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ بالتَّغْيِيرِ وتبديلِ الدينِ ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بواوَيْنِ على الجماعةِ، وبواوٍ واحدةٍ[1] على الواحدِ: لِيَسوءَ وجوهَكُمْ، ولم يُبَيِّنْ مَنْ يَسوءُ وجوهَهُمْ كما ذَكَرَ في الوَعْدِ الأوَّلِ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] فهمْ يَسُوءُونَ وجوهَكُمْ.

ومَنْ قَرَأَ بالنونِ[2]: لِنَسوءَ ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أضافَ إلى نفسِهِ لِما يأمُرُهُ ما كانَ يَفْعَلُ وبِتَسْليطِهِ إياهُمْ عليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ الوجْهَ ههنا كِنايةً عنِ الحُزْنِ والهَمِّ والإهانةِ لهمْ كما يُقالُ في السرورِ: أكْرَمَ وَجْهَهُ، أي أدخَلَ فيهِ سُروراً، أو ذَكَرَ الوَجْهَ لِما بالوَجْهِ يَظْهَرُ ذلكَ التَّغْيِيرُ والقُبْحُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في ظاهِرِ الآيةِ أنْ يَدْخُلَ الأوَّلونَ المَسْجِدَ في المَرَّةِ الثانيةِ كما دَخَلَ الأوَّلونَ في المَرَّةِ الأولى لأنهُ قالَ: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لكنْ يَحْتَمِلُ لِيَدْخُلَ عبادٌ آخَرونَ المسجدَ في المَرَّةِ الثانيةِ كما دخلَ الأوَّلونَ في المرَّةِ الأولَى. وقالَ بعضُهُمْ: المَسْجِدُ ههنا: الكنيسةُ والبِيْعَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ أي لِيُهْلِكُوا ما عَمِلوا بهِ، أي ما غَلَبوا بهِ، وقَهَروا، أيِ الأسبابَ التي عَصَوا بها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ أي لِيُفْسِدوا ما مَلَكوا، والتَّبارُ الفَسادُ، يُقالُ: عَلَوتُ الشيءَ، أي مَلَكْتُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لأولئكَ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وفيهِمْ نَزَلَ ما نَزَلَ: يَرْحَمَهُمْ إنْ تابوا. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الإبْتِداءِ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بمحمدٍ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى التكذيبِ والعِصْيانِ ﴿عُدْنَا﴾ إلى العُقوبةِ والقِتالِ إلى يَومِ القِيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ قيلَ: سَجيناً؛ لا يَخْرُجونَ منها. وقيلَ: مَحْبَساً وحَصيراً؛ يُحْصَرونَ فيها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ على مَعْنى التأنيثِ في قولِهِ: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ قيلَ بوجوهٍ: قيلَ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى﴾ للمِلَّةِ التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ المِلَلِ وأعدَلُها. والمِلَّةُ هي الدينُ دينُ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَهْدي إلى الأمورِ التي هي أعْدَلُ الأمورِ وأصْوَبُها. وقيلَ: يَهْدي إلى السبيلِ التي هيَ أقْوَمُ السُّبُلِ وأعدَلُها. يَحْتَمِلُ هذهِ الوجوهَ الثلاثةَ التي ذَكَرْناها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي للأعمالِ الصالحاتِ ولِلْخَيراتِ لأنَّ الأعمالَ الصالحاتِ، قِوامُها بهِ. ثم قولُهُ: ﴿يَهْدِى﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما[3]: يُبَيِّنُ. والثاني: يَدعو. فهو يَهْدي الكُلَّ لَوِ اسْتَهْدَوا، لكنْ خَصَّ هؤلاءِ لِما [أنَّ المَنْفَعَةَ][4] تكونُ لِمَنْ ذَكَرَ. وقد ذَكَرْنا أنَّ هذا القرآنَ وغَيرَهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ هُدىً ورَحْمَةٌ، يدعو إلى ثلاثِ خِصالٍ: إلى مَعالي الأمورِ ومَكارِمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الأعمالِ ومَصالِحِها، ويَنْهَى عنْ مَساوِئِ الأعمالِ ودانِي الأمورِ وسوءِ الأخلاقِ ودَناءَتِها. فهو هُدىً ورَحْمَةٌ على ما أخْبَرَ لِمَنِ اسْتَهْدى بهِ، ورُشْدٌ لِمَنِ اسْتَرْشَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ البِشارةُ المُطْلَقَةُ إنما جَعَلَ للمؤمنينَ الذين عَمِلوا الصالحاتِ، لم يَذْكُرْ للمؤمنينَ خاصَّةً على غَيرِ العَمَلِ الصالحِ، فالمسألةُ فيهِمْ غَيرُ المسألةِ في[5] هؤلاءِ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ اسْمَ الإيمانِ قد يَسْتَحِقُّ بدونِ العَمَلِ الصالحِ حينَ يُشْرَطُ فيهِ العَمَلُ الصالِحُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ سَمَّاهُ كبيراً لِكَبيرِ خَطَرِهِ عندَ اللهِ كما سَمَّى النارَ عظيماً لِعِظَمِ خَطَرِهِ عندَهُ، أو سَمَّاهُ كبيراً لأنهُ أكْبَرُ ما يُقْصَدُ إليهِ، ويُرْغَبُ فيهِ، وهو ثوابُ الجنةِ. والنارُ أعظَمُ ما يُحَذَّرُ بها، ويُرْهَبُ منها.

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٣٠٨. (٣) في الأصل و م: يحتمل. (٤) في الأصل و م: منفعة. (٥) في الأصل و م: و.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إنكارُهُمُ البَعْثَ وكُفرُهُمْ بهِ، هو الذي حَمَلَهُمْ على تكذيبِهِمُ الرسلَ وكفرِهِمْ باللهِ لِتَسْلَمَ لهمْ شَهَوَاتُهُمْ في الدنيا، لأنَّ الرسلَ جميعاً، دَعَوهُمْ إلى تَرْكِ شَهَوَاتِهِمْ في الدنيا، ورَغَّبوهُمْ بما يُوجِبُ لهمُ الثوابَ في الآخِرَةِ [وحَذَّروهُمْ مِمّا][1] يُوجبُ العقابَ، فأنكَروا الآخِرَةَ والبَعْثَ رأساً لِتَسْلَمَ لهمُ الدنيا. فذلكَ الذي حَمَلَهُمْ على إنكارِ الرسلِ وتكذيبِهِمْ إياهُمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢] أي بالقرآنِ [أو بِمحمدٍ، أي][2] إيمانُهُمْ بالبَعْثِ حَمَلَهُمْ على الإيمانِ بالقرآنِ والرسولِ، وتكذيبُهُمُ الآخرةَ حَمَلَهُمْ على تكذيبِ الرسلِ، واللهُ أعلَمُ؟

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا غَضِبَ الإنسانُ يَدْعُو على نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وأهلِهِ، ويَلْعَنُ كَدُعائِهِ عليهِمْ بالخَيرِ؛ لِذلكَ انْتَصَبَ قولُهُ ﴿دُعَآءَهُۥ﴾.

وقالَ الحَسَن: إنَّ الإنسانَ يتضايَقُ صَدْرُهُ وقَلْبُهُ بأدْنى شيءٍ، يُكْرَهُ، فَيَلْعَنُ على نفسِهِ وأهلِهِ، فلا يُجيبُهُ اللهُ، ثم يَدْعُو بالخَيرِ، فَيُعْطيهِ، أو نَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ على العِلْمِ منهُ بذلكَ كَدُعائِهِ بالخَيرِ على العِلْمِ منهُ بذلكَ.

والثاني: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ لو أُجيبَ فيهِ على الجَهْلِ منهُ والغَفْلَةِ كَدُعائِهِ بالخَيرِ لو أُجيبَ في ذلكَ.

ثم إنْ كانَ ذلكَ الإنسانُ هو الكافِرَ، فهو يَدْعُو على الاسْتِهْزاءِ كقولِهِ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢] وكذلكَ قولُهُ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ونَحْوَهُ.

وإنْ كانَ مُسْلِماً فهو يَدْعُو بالشَّرِّ على نفسِهِ وأهْلِهِ عندَ الغَضَبِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ [منهُ][3] ويَدْعُو أيضاً بالشَّرِّ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ منهُ نحوَ ما يَسْألُ الأموالَ والنكاحَ، ولَعَلَّ ذلكَ شَرٌّ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا لآدمَ لأنهُ لَمّا خَلَقَهُ اللهُ، فَنَفَخَ الروحَ في بَعْضِ جَسَدِهِ، هَمَّ أنْ يقومَ، فَسَمّاهُ عجولاً. لكنْ كلُّ الإنسانِ خُلِقَ في الطبعِ مِنَ الأصلِ عجولاً. ألا تَرَى أنهُ لا يَصْبِرُ على أمْرٍ واحدٍ ولا على شيءٍ واحدٍ، وانْ كانَ نِعْمَةً لم يَصْبِرْ عليها، ولكنْ يَمَلُّ عنها، وكذلكَ في أدْنى شِدَّةٍ وبلاءٍ إذا بُلِيَ بهِ، لم يَصْبِرْ/ ٢٩٧ ـ أ/ عليها. فأبداً يريدُ الانْتِقالَ منْ حالٍ إلى حالٍ؟

ألا تَرَى أنَّ قومَ موسى قد أكْرَمَهُمُ اللهُ بِكراماتٍ مِنْ إنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى عليهِمْ مِنْ غَيرِ كَدٍّ ولا جَهْدٍ ولا مُؤْنَةٍ وكذلكَ اللباسِ، ثم لم يَصْبِرُوا على طعامٍ واحدٍ، فَسَألوا رَبَّهُمُ الثومَ والبَصَلَ ونَحْوَهُ على طَبْعِ الإنسانِ مَلولاً عجولاً؟

ألا تَرَى أنَّ اللهَ مَكَّنَ في باطِنِهِ، وجَعَلَ في [وُسْعِهِ رياضةً][4] نفسِهِ، وصَرَفَها إلى أحدِ الوجهَينِ الذي يُحْمَدُ[5] عليهِ، ولا يُذَمُّ؛ وهو أنْ يُرَوِّضَها، ويُعَوِّدَها على الصَّبْرِ والحِكْمَةِ[6] والوقارِ، ويَصْرِفَ تلكَ العَجَلَةَ إلى الخَيراتِ والطاعاتِ التي يُحْمَدُ[7] عليها المَرْءُ بالعَجَلَةِ؟ وإلّا ففي ظاهِرِ الخِلْقَةِ والطبعِ مُنْشأً على العَجَلَةِ وما ذَكَرَ.

ألا تَـرَى أنـهُ قـالَ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾][8] [المعارج: ١٩ ـ ٢٢] وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ؟ لكنْ بِما امْتَحَنَهُ مِنَ الأمْرِ والنَّهْيِ والتَّرْغيبِ في المَوْعودِ والتَّرْهيبِ صَيَّرَهُ بحيثُ يَمْلِكُ [إخراجَ نفسِهِ][9] عمّا طُبِعَ، وأُنْشِئَ إلى حالٍ أُخرَى بالرياضَةِ التي ذَكَرْنا.

الا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الهَلَعَ و الجَزَعَ، ثم اسْتَثْنَى [﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾][10] [المعارج: ٢٢] وعلى ذلكَ خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ على هِمَمٍ

---

(١) في الأصل و م: وحذرهم عما. (٢) في الأصل: وبمحمد، في م: أو بمحمد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: سعة رياضية، في م: سعة رياضة. (٥) في الأصل و م: يجهد. (٦) في الأصل و م: الحكم. (٧) من م، في الأصل: يحمل. (٨) في الأصل و م: إلا كذا. (٩) في الأصل وم: إخراجه. (١٠) في الأصل وم: إلا كذا.

مُخْتلِفَةٍ وأطوارٍ مُتشتِّتَةٍ، لم يَخْلُقْهُمْ جميعاً في مَعاني الأمورِ ومَعاظِمِ الحِرَفِ وأرْفَعِ الأسماءِ، بل طَبَعَهُمْ على أطباعٍ مُخْتلِفَةٍ: فمنهُمْ مَنْ يَرْغَبُ في مَعالي الأمورِ والحِرَفِ، ومنهمْ مَنْ كانَتْ هِمَّتُهُ الرَّغْبَةَ في الدُّونِ مِنَ الأمورِ والحِرَفِ: في الحِجامَةِ والدِّباغةِ والحِياكةِ ونَحْوِها؛ وكذلكَ في الأسماءِ، ومنهُمْ بخِلافِ ذلكَ. ولو كانَتْ هِمَّتُهُمْ هِمَّةً واحدةً لَذَهَبَتِ المَنافِعُ والمَعارِفُ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: المُرادُ بالليلِ والنهارِ الشمسُ والقَمَرُ، أي جَعَلْنا في الشمسِ والقَمَرِ [آيةً][1] ألا تَرَى أنهُ أضافَ الآيةَ إلى الليلِ والنهارِ حينَ[2] قالَ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وحينَ[3] قالَ أيضاً: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] وإنما يُعْلَمُ ذلكَ بالقَمَرِ؟

ألا تَرَى أنهُ قالَ أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ الآية [يونس: ٥]؟ إنما أضافَ مَعْرِفَةَ عَدَدِ السنينَ والحسابِ إلى القَمَرِ. دلَّ أنهُ بالقَمَرِ يُعْلَمُ ذلكَ، وهو قولُ عليٍّ وابنِ عباسٍ ﷺ وغَيرِهما[4] منْ أهلِ التأويلِ. ويكونُ تأويلُ المَحْوِ الذي ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ ما قالوا في مَحْوِهِ، وهو السَّوادُ الذي يُرَى، والنقصانُ الذي يكونُ فيهِ في آخِرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَحَى تِسْعَةً وسِتِّينَ[5] جُزْءاً مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً. إلى هذا يَذْهَبُ هؤلاءِ.

وأمّا الحَسَنُ وأبو بكرٍ وهؤلاءِ فهمْ يقولونَ: ليسَ في الآيةِ ذِكْرُ الشمسِ والقَمَرِ، إنما ذَكَرَ الليلَ والنهارَ، وأخبرَ أنهُ جَعَلَهُما آيتَينِ، فهما كذلكَ آيتانِ، وبهما يُعْلَمُ عددُ السِّنينَ والحسابُ؛ لأنهُ بالأيامِ يُعْرَفُ ذلكَ.

فأما الشهورُ فإنها[6] إنما تُعْرَفُ بالقَمَرِ، لا تُعْرَفُ بالأيامِ. ويكونُ [تأويلُ قولِهِ][7]: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جَعَلْنا آيةَ الليلِ في الإِبْتِداءِ مَمْحُوّةً مُظْلِمَةً ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مُضيئةً في الإِبْتِداءِ، ليسَ أنْ كانَتا جميعاً مُبْصِرَتَينِ مُضيئتَينِ، ثم مَحَى آيةَ الليلِ، وأُبْقِيَتْ آيةُ النهارِ مُضيئةً. ولكنْ أنشأَ آيةَ الليلِ في الإِبْتِداءِ مُبْصِرَةً، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٨و١٩] أي أنشأهُما في الإِبْتِداءِ كذلكَ، لا إنَّ السماءَ، كانَتْ مَوضوعةً، فَرَفَعَها، وكذلكَ الجبالُ، كانَتْ مَبسوطةً، ثم نَصَبَها، ولكنْ أنشأهما في الإِبْتِداءِ كذلكَ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جَعَلَهُما[8] في الإِبْتِداءِ: هذا مُظْلِماً مَمْحُوّاً وهذا مُبْصِراً مُضيئاً.

[وقولُهُ تعالى:][9] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ هما آيتانِ مُخْتلِفتانِ، بل مُتضادَّتانِ، تُضادُّ كلُّ[واحدةٍ منهما صاحبَتَها؛ إذْ][10] كلُّ واحدةٍ تَنْسَخُ الأُخرَى حتى لا يَبْقَى لها أثَرٌ. وهما آيتانِ دالّتانِ على وَحْدانيّةِ اللهِ تعالى لأنهُ لو كانَتا فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ إذا أتى هذا على هذا، مَنَعَ عنْ أنْ يكونَ للآخَرِ سُلْطانٌ أو أمْرٌ فإذا لم يكُنْ دلَّ أنهُ صُنْعُ واحدٍ.

وفيهما دلالةُ تدبيرِهِ حينَ[11] جَرَيا على سَنَنٍ واحدٍ و مقدارٍ واحدٍ على غَيرِ تَفاوُتٍ يكونُ فيهما وتَفاضُلٍ أو تَغَيُّرٍ على ما كانَ، ومَضَى. دلَّ أنهُ عنْ تدبيرٍ خَرَجا، وكانا كذلكَ.

وفيهِ دلالةُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ لمّا جَعَلَ فيهما مِنَ المَنافِعِ ما لو كانَ الليلُ سَرْمَداً لذهبَتْ[12] مَنْفَعَةُ الليلِ نفسِهِ. ولو كانَ النهارُ سَرْمَداً لَذَهَبَتْ مَنْفَعَةُ النهارِ رأساً.

وفيهِ دلالةُ البَعْثِ لأنهُ يُتْلِفُ أحدَهُما إذا جاءَ الآخَرُ حتى لا يَبْقَى لهُ أثَرٌ البَتَّةَ، ثم يُعيدُهُ على ما كانَ مِنْ غَيرِ أنْ يُعْلَمَ أنهُ غَيرُ الأوَّلِ.

ثم قولُهُ تعالى ﴿ءَايَتَيْنِ﴾ والآيةُ علامةٌ، وعلامَتُهما، لا تُعْرَفُ إلّا بالتَّأمُّلِ والنَّظَرِ فيهما. فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مُرادُ ما في القرآنِ والمَعْنى المُودَعِ[13] فيهِ إلّا بالتَّأمُّلِ والنَّظَرِ فيهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وغيرهم. (٥) في الأصل وم: وستون.
(٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) في الأصل وم: قوله تأويل. (٨) في الأصل وم: جعلها. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل: واحد منهما صاحبتهما إذا، في م: واحدة منهما صاحبتها إذا. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: ذهب. (١٣) من م، في الأصل: الموعود.

وفيهما دلالةُ نَقْضِ قولِ أصحابِ الطبائعِ وأصحابِ النجومِ والدُّهْرِيَّةِ وجميعِ المَلاحِدَةِ:

أمّا نَقْضُ قولِ أصحابِ الطبائعِ فَما[١] ذَكَرْنا مِنَ اتّساقِ مَجْراها على سَنَنٍ واحدٍ وأمْرٍ واحدٍ، دلّ أنهُ بالتّدبيرِ صارَ[٢] كذلكَ لا بالطبعِ.

وأمّا نَقْضُ قولِ أصحابِ النجومِ [فهي][٣] مُسَخَّرَةٌ لِمَنافِعِ الخَلْقِ، ومَغْلوبَةٌ؛ يَغْلِبُها ضَوءُ الشمسِ ونورُ القمرِ حتى لا تُرَى، دلّ أنهُ، لا تَدْبيرَ لها، وأنّ التّدْبيرَ لِغَيرِها.

والرّدُّ[٤] على غَيرِهِمْ مِنَ المُلْحِدَةِ ما ذَكَرْنا مِنِ اتّصالِ مَنافِعِ هذا بهذا، دلّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الفَضْلُ الذي ذَكَرَ الرزقَ والمَعاشَ الذي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]ويَحْتَمِلُ أنواعَ فَضْلٍ تكونُ في الدينِ ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ بهما يُعْرَفُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ التفصيلُ تَفْصيلَ آيةٍ مِنْ أُخرَى، أي لم يَجْعَلْهُما آيةً واحدةً على ما ذَكَرَ. وقالَ الحَسَنُ: [فَصَّلَ، أي][٥] بَيّنَ ما أمَرَ عبادَهُ، ونَهاهُمْ، أي بَيّنَ، وفَصّلَ ما يُؤتَى وما[٦] يُتّقَى، و: ﴿فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي فَصّلَهُ تفصيلاً، لم يَتْرُكْهُ مُبْهَماً، بل بَيّنَ غايةَ البَيانِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿طَائِرَهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: طائرُهُ شَقاوتُهُ وسَعادَتُهُ ورزقُهُ وعَيشُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: عَمَلُهُ الذي عَمِلَ مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ. وقالَ بعضُهُمْ: حَظُّهُ ونَصيبُهُ مِنْ عَمَلِهِ، وهو جَزاؤُهُ، ونَحْوُ ذلكَ، [ذلكَ][٧] كلُّهُ يَرْجِعُ إلى مَعْنىً واحدٍ، لأنهُ إنما يَسْعَدُ [الإنسانُ][٨] ويَشْقَى بِعَمَلِهِ الذي يَعْمَلُهُ وكذلكَ بِجَزاءِ[٩] عَمَلِهِ.

ولِذلكَ قالَ الحَسَنُ في تأويلِ قولِهِ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] أي بأعمالِنا التي عَمِلْناها، ثم نُخَرِّجُ تَسْمِيَةَ العَمَلِ وما ذَكَروا طائراً لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: على وَجْهِ التّفاؤُلِ والطِّيَرَةِ؛ كانوا يَتَفاءلونَ، ويَتَطَيّرونَ بأشياءَ: بالطائرِ وغيرِهِ، ويقولونَ: جَرَى لهُ الطائرُ بكذا مِنَ الخَيرِ، وجَرَى لهُ بكذا مِنَ الشَّرِّ على طريقِ الفَألِ والطِّيَرَةِ، فخاطَبَهُمْ على ما يَسْتَعْمِلونَ، وأخبَرَ أنّ ذلكَ يَلْزَمُ أعناقَهُمْ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقولُهُ[١٠] ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقولُهُ أيضاً ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ الآية [النمل: ٤٧] ونَحْوُهُ.

والثاني: سَمّى الأعمالَ التي عَمِلوها طائراً لِما أنّ الذي يَتَوَلّدُ منهُ تلكَ الأعمالُ كالطائرِ، وهو الهِمّةُ؛ أوّلاً: يَخْطُرُ [ببالِ الإنسانِ شيءٌ، وفي][١١] الإخطارِ لا صُنْعَ لهُ فيهِ، ثم يَهْتَمُّ، ثم تَبْعَثُ الهِمّةُ على الإرادةِ، ثم الإرادةُ تَبْعَثُ على الطَّلَبِ والعملِ. فالهِمّةُ التي في النفسِ التي تَتَوَلّدُ منها الأعمالُ كالطائرِ، فَسَمّاهُ لِذلكَ باسْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ يَحْتَمِلُ [وَجْهَينِ:

أحَدُهما][١٢]: أنْ يكونَ العُنُقُ كِنايَةً عنِ النّفْسِ، أي ألْزَمْناهُ نفسَهُ. وذلكَ جائزٌ؛ يُقالُ: هذا لكَ عَلَيّ، وفي عُنُقي.

والثاني: /٢٩٧ ـ ب/ [أنْ يكونَ][١٣] ذَكَرَ العُنُقَ كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ إذا أرادَ التّخَلُّصَ [مِنْ][١٤] عَمَلٍ: قَلّدْتُكَ هذا العَمَلَ، وجَعَلْتُهُ في عُنُقِكَ، أي تكونُ أنتَ المَأخوذَ بهِ آثماً إنْ كانَ في ذلكَ شَرٌّ، وأنتَ المَأجورَ بهِ المثابَ إنْ كانَ فيهِ خَيرٌ.

والمَعْنَى في قولِهِ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي لا يُؤخَذُ غيرُهُ بِعَمَلِهِ وشَقاوتِهِ، ولكنْ هو المَأخوذُ بهِ، وهو

---

(١) في الأصل وم: لما. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أي فصّلَ. (٦) في الأصل وم: مما. (٧) في م: فذلك، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) الباء ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل وم: وكقوله. (١١) في الأصل وم: بباله شيئاً ففي. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

ما قالَ: ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٥و..] وقولُهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥و..] هذهِ الآياتُ الثلاثُ، مَعْناها واحدٌ، وهو ما ذَكَرْنا: ألّا يُؤْخَذَ غيرُهُ بِعَمَلِهِ[1]، ولا تُحمَّلُ نفسٌ خطيئةَ أُخرَى ولا وِزْرَها، ولكنْ كلُّ نفسٍ، هي تَحْمِلُ خطيئةَ نفسِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَين:

أحدُهُما: أي يَجْعَلُ ما ألْزَمَ عُنُقَهُ ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

والثاني: أي يَجْعَلُ ما ألْزَمَ عُنُقَهُ ﴿كِتَٰبًا﴾.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ قيلَ: شَهيداً، وقيلَ: كافياً وحاسباً، وهو واحدٌ، لأنَّ المُؤْمِنَ بما سَبَقَ مِنْ صالحاتِهِ، يَقِفُ فيها، لا يَقْطَعُ القولَ فيها لِرَجائِهِ في رَحْمَتِهِ، ولِخَوفِهِ مِنْ مَساوِئِهِ فلا يَشْهَدُ على نَفْسِهِ بالعُقوبةِ. وأمّا الكافرُ فإنهُ يَشْهَدُ على نَفْسِهِ بالنارِ لِما لَمْ يَكُنْ لهُ ما يَطْمَعُ [في][2] رَحْمَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي نُخرِجُ ﴿لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فيُقالُ لهُ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. وفي ذلكَ لُطفٌ عظيمٌ بقراءةِ كتابِهِ بأيِّ لسانٍ كانَ لأنهُ لم يُبيِّنْ بأيِّ لسانٍ يُكتَبُ، ثم يَتَذَكَّرُ جميعَ ما عَمِلَ في عُمُرِهِ، وقد يَنْسَى الرجلُ عملاً، يَعْمَلُ في أدْنَى مُدَّةٍ، لكنْ هنا يَتَذَكَّرُ في ساعةٍ وَوَهْلَةٍ ما كانَ عاملاً فيهِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي مَنِ اهْتَدَى إلى ما جَعَلَ اللهُ عليهِ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، وقامَ بأداءِ شُكْرِها، فإنما فَعَلَ ذلكَ لِنَفْسِهِ، لأنهُ هو المُنْتَفِعُ[3] بهِ، أو يَقولُ: مَنِ اخْتارَ الهُدَى، وأجابَهُ إلى ما دعاهُ مَولاهُ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فإنما اختارَ ذلكَ لِنَفْسِهِ، لأنهُ هو المُنْتَفِعُ[4] بهِ، وهو الساعي في فَكاكِ رَقَبَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي مَنْ ضَلَّ، أي اختارَ الضَّلالَ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما يَرْجِعُ عليها ضَرَرُهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقولُهُ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقولُهُ تعالى ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن ذلكَ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي إلى نفسِهِ يَرْجِعُ ضَرَرُ ضَلالِهِ على نفسِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هو ما ذَكَرْنا، أي لا تَحْمِلُ نفسٌ خطيئةَ أُخرَى، ولا تأثَمُ بِوِزْرِ أُخرَى [ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِوَجْهينِ:

أحدُهما][5]: أنَّ أمْرَ الآخِرَةِ خِلافُ أمْرِ الدنيا لأنَّ في الدنيا قد تُؤخَذُ نَفْسٌ مَكانَ أُخرَى، وتُحَمَّلُ[6] نفسٌ مؤُنَةَ أُخرَى، وفي الآخِرَةِ لا تُؤخَذُ نفسٌ بَدَلَ أُخرَى.

والثاني: قد يَتَبَرَّعُ بَعْضٌ عن بَعْضٍ بِتَحَمُّلِ المَؤُناتِ والقيامِ في فَكاكِها [في الدنيا][7] وأمّا في الآخِرَةِ فلا يُتَبَرَّعُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يَحتَمِلُ: ما كُنّا مُعَذِّبينَ تَعذيبَ اسْتِئْصالٍ في الدنيا إلّا بَعْدَ دَفْعِ الشُّبَهِ ورَفْعِها عنِ الحُجَجِ مِنْ كلِّ وَجْهٍ وبَعْدَ تَمامِها، وإنْ كانَتِ الحُجَّةُ قد لَزِمَتْهُمْ بدونِ بَعْثِ[8] الرسلِ لِيَدْفَعَ عنهمْ عُذْرَهُمْ مِنْ كلِّ وَجْهٍ.

ويَحْتَمِلُ[9] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إفضالاً منهُ ورَحْمَةً، وإنْ كانَ العذابُ قد يَلْزَمُهُمْ، والحُجَّةُ قد قامَتْ عليهِمْ. والعذابُ الذي كانوا يُعَذَّبُونَهُ[10] في الدنيا ليسَ، هو عذابُ الكُفْرِ، لأنَّ عذابَ الكُفْرِ دائِمٌ أبداً،

---

(١) في الأصل وم: بعمل آخر. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) من م، في الأصل: المشفع. (٤) من م، في الأصل: المشفع. (٥) في الأصل وم: والله أعلم ذكر هذا. (٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: البعث. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: يعذبونهم.

لا انقِطاعَ لهُ، وهذا ممّا يَنقَطِعُ، ويَنفَصِلُ. لكنْ يُعذَّبونَ بأشياءَ كانَتْ منهمْ مِنَ العِنادِ ودفعِ الآياتِ. وأمّا عذابُ الكُفرِ فهو في الآخِرَةِ أبداً، لا يَنْقَطِعُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ حُجَّةَ التوحيدِ قد لَزِمَتْهُمْ، وقامَتْ عليهِمْ بالعقلِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلو لم تَلْزَمْهُمْ لَكانَ الرسلُ إذا دَعَوهُمْ إلى ذلكَ يَقولونَ[2]: مَنْ أنتُمْ؟ ومَنْ بَعَثَكُمْ إلينا؟ فإذا لم يكُنْ لهمْ هذا الاحتِجاجُ دلَّ أنَّ الحُجَّةَ قامَتْ عليهِمْ.

لكنَّ اللهَ بِفَضلِهِ أرادَ أنْ يدفَعَ الشُّبْهَةَ عنهمْ، ويَقْطَعَ عنهمْ عُذرَهُمْ برسولٍ يَبْعَثُ إليهِمْ لِما أنَّ أسبابَ العِلْمِ بالأمورِ ثلاثةٌ: فَمِنْها ما يُعْلَمُ بظاهِرِ الحواسِّ بالبَديهَةِ، ومِنْها ما يُفْهَمُ بالتَّأمُّلِ والنَّظَرِ، ومِنْها ما لايُعْلَمُ إلّا بالتَّعليمِ والتَّنبيهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وهو ما ذَكَرْنا: أي[3] نُخرِجُ بذلكَ العَمَلِ كتاباً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي نَكتُبُ ما عَمِلَ، ثم نُقلِّدُهُ[4] في عُنُقِهِ، فَنجيءُ بهِ يومَ القيامةِ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: طائرُهُ حظُّهُ. وقالَ غيرُهُ مِنَ المُفسِّرينَ: ما عَمِلَ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ الزَمْناهُ في عُنُقِهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: وهذانِ المَعْنَيانِ يَحتاجانِ إلى بَيانٍ. والمَعنى في ما أرى، واللهُ أعلَمُ: أنَّ لكلِّ امْرِئٍ حَظّاً مِنَ الخيرِ والشَّرِّ، وقد قَضاهُ اللهُ، فهو لازمٌ عُنُقَهُ، والعَرَبُ تقولُ: إنَّ كلَّ ما لَزِمَ الإنسانَ، قد لَزِمَ عُنُقَهُ، وهو لازمٌ، طائرٌ [في][5] عُنُقِهِ، وهذا لكَ عليَّ، وفي عُنُقي، حتى أخرُجَ منهُ. وإنما قيلَ لِلحَظِّ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ: طائرٌ لِقولِ العَرَبِ ما ذَكَرْنا: جَرى لهُ الطائرُ بكذا مِنَ الخيرِ، وجَرى لهُ الطائرُ بكذا مِنَ الشَّرِّ على وَجْهِ الفَألِ والطِّيَرَةِ على مذهبِهِمْ في تَسْمِيَةِ الشيءِ بما كانَ لهُ سَبَباً، وهو ماذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ التعذيبُ يكونُ على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها[6]: يُعَذِّبُهُمْ في الدنيا ابْتِداءً بِتَعذيبِ امْتِحاناً وابْتِلاءً بلا جريمةٍ كانَتْ منهمْ كقولِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحوُهُ؛ فيكونُ تَنبيهاً وتَذكيراً لهمْ لا تكفيراً.

والثاني: يُعَذِّبُ تَعذيبَ العِنادِ والمُكابَرَةِ، وهو تَعذيبُ إهلاكٍ واستِئْصالٍ؛ فهو عُقوبةٌ لهمْ ومَوعِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ وعِبْرَةٌ لِغَيرِهِمْ، وهو الذي يأتي على إثرِ وعيدٍ.

والثالثُ: عذابُ المَوعودِ في الآخِرَةِ؛ يقولُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخِرَةِ ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ في الدنيا.

والأشبَهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ التَّعذيبِ، وهو تَعذيبُ استِئْصالٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتَّخفيفِ والتَّثقيلِ واحدٌ[7]، ثم [مَنْ][8] قرأَ بالتَّثقيلِ [فإنهُ][9] يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أمَّرْنا مُترَفيها مِنَ الإمارةِ والتَّسليطِ عليهمْ أي أمَّرْنا عليهِمْ، وسَلَّطْنا مُتْرَفيها، أي أكْثَرْنا عَدَدَهُمْ، وسَلَّطْنا مُتْرَفيها: فُسّاقَها ومُستَكبِريها.

والثاني: أمَّرْنا مُترَفيها أي أكْثَرْنا عَدَدَهُمْ ومُنَعَّمِيهِمْ. يَذْكُرُ لهمْ هذا لِقولِهِمْ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ الآية [الزخرف: ٢٣] وقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ الآية [سبأ: ٣٦] كانوا يَزْعُمونَ أنهمْ لا يُعَذَّبونَ لأنهمْ قد أُنعِموا في هذهِ الدنيا بِكَثْرَةِ[10] أموالِهِمْ وأولادِهِمْ، فأخبَرَهُمْ ﷺ أنهُ ما أهْلَكَ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ إلّا بَعْدَ ما كَثُرَ عَدَدُهُمْ، ووَسَّعَ عليهِمُ الدنيا، لم يُهْلِكْهُمْ[11] في حالِ القِلَّةِ والضِّيقِ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يقول. (٣) من م، في الأصل: إن. (٤) في الأصل وم: نقلد. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: أحدهم. (٧) في الأصل وم: أمرنا مترفيها. (٨) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٣١٣.
(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وأكثروا. (١١) في الأصل وم: يهلكوا.

﴿الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥] أي كَثُروا، وقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] لم يأخُذ بالعذابِ الأمَمَ الخاليةَ إلّا في حالِ كَثْرَتِهِمْ وأَمْنِهِمْ وعِزَّتِهِمْ بالسَّعَةِ. يُحَذِّرُ هؤلاءِ لئلا يَغْتَرُّوا بِكَثْرَةِ أموالِهِمْ وأولادِهِمْ وعَدَدِهِم.

ومَنْ قرأَ[1]: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتَّخفيفِ فهو مِنَ الأمرِ، أي أمَرْنا عُظَماءَهُمْ وكُبَراءَهُمْ طاعةَ الرسلِ[2] والإجابةَ إلى ما دَعوهُمْ[3] إليهِ/ ٢٩٨ ـ أ/ حتى إذا عَصَوا رُسُلَهُ، وتَركوا إجابَتَهُمْ على العِنادِ والمُكابَرَةِ، فعندَ ذلكَ يُهْلِكُهُمْ[4] لِما ذَكَرْنا أنهُ لم يَسْتَأْصِلِ الأمَمَ الخاليةَ إلّا بَعْدَ عِنادِهِمْ في آياتِ اللهِ ومَكابَرَتِهِمْ في دَفْعِها وتكذيبِها، لا يُهْلِكُهُمْ في أوّلِ ما كَذَّبوا آياتِ اللهِ وخالَفوا رسلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُنْعَمُ، وقالَ بعضُهُمْ: المُتْرَفُ المُكْرَمُ والمُسْتَكْبِرُ، وكلُّهُ واحدٌ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ دلالةُ أنَّ الإرادةَ غيرُ المُرادِ، لأنهُ أخبَرَ بِتَقَدُّمِ الإرادةِ عنْ وقْتِ الإهلاكِ. دلَّ أنها غَيرُهُ. وفيهِ أنهُ أرادَ السَّبَبَ الذي بهِ يُهْلِكُهُمْ[5]، وهو التَّكذيبُ والعِنادُ، لمّا عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَختارونَ ذلكَ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُريدَ هلاكَهُمْ، وهو يَعْلَمُ منهمْ غَيرَ سَبَبِ الهَلاكِ. فهذا يَرُدُّ قولَ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ الإرادَةَ، هي المُرادُ، وإنهُ لم يُرِدْ ما كانَ منهمْ مِنْ سَبَبِ الهَلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ بما أرادَ إهلاكَهُمْ؛ وَجَبَ عليهِمْ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ بما أخبَرَ عنِ الأمَمِ الخاليةِ، وهو قولُهُ: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٨و٦٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهْلَكْناها إهلاكاً.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخَبيرُ والبَصيرُ واحداً. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ بَينَهما فَرْقٌ: الخَبيرُ العالمُ بأعمالِهِمْ والبَصيرُ بِمَصالِحِهِمْ ومَعاشِهِمْ وبِجَزائِهِمْ؛ يُقالُ: فلانٌ بَصيرٌ في أمْرِ كذا، وفلانٌ أبْصَرُ مِنْ فلانٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ هو[6] مَكْرُهُمُ الذي كانوا يَمْكُرونَ بِرَسولِ اللهِ، فقالَ: ﴿وَكَفَىٰ﴾ بِمَكْرِهِمُ الذي يَمكُرونَ بك.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهمْ كانوا يَعْمَلونَ بأعمالِهِمُ الحَسَنَةِ في حالِ كُفرِهِمْ مِنْ نَحْوِ الإنفاقِ والصَّدَقاتِ وبَذْلِ الأموالِ[7] وغَيرِ ذلكَ؛ يُريدونَ بذلكَ العِزَّ والشَّرَفَ والذِّكْرَ في الدنيا، فأخبَرَ أنهُ مَنْ أرادَ بما يَفْعَلُ ذلكَ ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

والثاني: يكونُ قولُهُ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي لا يُريدُ بها إلّا جَمْعَ الأموالِ وَسَعَتَها ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ثم أخبَرَ أنهُ لا كلُّ مَنْ أرادها يُعَجِّلُ لهُ ذلكَ، ولا ما أرادَ يُعَجِّلُ لهُ ذلكَ. ولكنْ إنما يُعَجِّلُ [اللهُ ما أرادَ][8] ولِمَنْ أرادَ؛ إذْ لا كلُّ مَنْ أرادَ شيئاً يُعْطى لهُ ذلكَ.

ثم أخبَرَ عمّا يُعْطى في الآخِرةِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ فقالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي مَذْموماً بما يُسَمّى بأسماءِ قَبيحَةٍ دَنيئَةٍ مَذْمومَةٍ عندَ الخَلْقِ، أو يُذَمُّ، ويُلامُ في النارِ ﴿مَّدْحُورًا﴾ مَطْروداً مِنَ الأسماءِ الحُسْنَى ومِنَ الخَيراتِ أو مُبْعَداً عنْ رحمَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَذْمُومًا﴾ عندَ نفسِهِ يومئذٍ، أو مَذْموماً عندَ الملائكةِ والخَلْقِ جميعاً.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ وَجْهانِ:

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، في الأصل: الرسول. (٣) في الأصل وم: دعاهم. (٤) في الأصل وم: يهلكون. (٥) في الأصل وم: يهلكون. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) من م، في الأصل: الأمور. (٨) في الأصل وم: ما أراد الله.

أحَدُهما: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بإهلاكِهِ إياهُمْ مَوتَهُمْ بآجالِهِمْ، يقولُ: هُمْ كانوا عَدَداً قليلاً زَمَنَ نوحٍ، ثم كَثُروا حتى صاروا قُروناً، ثم ماتوا حتى لم يَبْقَ منهمْ أحدٌ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الإهلاكُ ههنا إهلاكَ اسْتِئْصالٍ فهو يُخَرَّجُ على وَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ[1] قدِ اسْتَوَوا في هذِهِ الدنيا؛ أعني [الأولياء والأعداءَ][2] وفي الحِكْمَةِ التَّمييزُ بَيْنَهُمْ[3] والتفريقُ، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ [أُخرَى يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ][4] فيها، ويُمَيِّزُ.

والثاني: قد أُهْلِكوا جميعاً. وفي العَقْلِ والحِكْمَةِ إنشاءُ الخَلْقِ لِلإفْناءِ خاصَّةً بِلا عاقِبَةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ باطلٌ، فَدَلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرَى هي المَقْصودَةُ حتى صارَ خَلْقُ هؤلاءِ حِكْمَةً، وفيهِ إلزامُ البَعْثِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تفسيرُ قولِهِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ كأنهُ قالَ: مَنْ كانَ يريدُ العاجِلَةَ وهو كافرٌ بِرَبِّهِ مُكَذِّبٌ بالآخِرَةِ ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهو مُؤْمِنٌ بِرَبِّهِ مُصَدِّقٌ بالآخِرَةِ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي مَجْزِيّاً مَقْبولاً.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي [المؤمِنينَ والكافرينَ، نُعْطي هؤلاءِ وهؤلاءِ][5] أي لا نَحْرِمُ مِنَ العاجِلَةِ مَنْ أرادَ الآخِرَةَ. يُخْبِرُ أولئكَ الكَفَرَةَ بكُفْرِهِمْ بالآخِرَةِ أنهُ ليسَ يعطي الدنيا وَسَعَتَها لِمَنْ يَكْفُرُ بالآخِرَةِ، ولكنْ يُعْطي مَنْ كَفَرَ بها، ومَنْ آمَنَ بها لئلّا يَحْمِلَهُمْ ذلكَ على حُبِّهِمُ الدنيا وطَلَبِ العِزِّ والشَّرَفِ فيها على كُفْرِهِمْ بالآخِرَةِ حينَ[6] قالَ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي يُعْطي المؤمِنَ والكافِرَ والبَرَّ والفاجِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي رِزْقُ رَبِّكَ وفَضْلُهُ مَحْظوراً. قالَ بعضُهُمْ: مَحْبوساً ومَمْنوعاً.

وقالَ بعضُهُمْ: مَحْظوراً أي مَنْقوصاً، فهو في الآخِرَةِ، أي لا يُنْقَصونَ في الآخِرَةِ مِنْ جَزائِهِمْ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «إنَّ اللهَ يُعْطي الدنيا على نِيَّةِ الآخِرَةِ، ولا يُعْطي الآخِرَةَ على نِيَّةِ الدنيا» [كنز العمال ٦٠٥٦]

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا كانَ العبدُ، هَمُّهُ الآخِرَةُ، كَفَى اللهُ لهُ في صَنْعَتِهِ، وجَعَلَ غِناهُ في قَلْبِهِ. وإنْ كانَ هَمُّهُ الدنيا أفْشَى اللهُ عليهِ صَنْعَتَهُ، وجَعَلَ فَقْرَهُ بَينَ عَينَيهِ، فلا يُمْسِي إلّا فَقيراً، ولا يُصْبِحُ إلا فَقيراً» [بنحوه الترمذي ٢٤٦٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ وأمّا مَنْ كانَ يريدُ العاجلةَ للآخِرَةِ فهو ليسَ بِمَذْمومٍ، فهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ وهو ما قالَ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الآية [هود: ١٥] وقولُهُ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] [الحَياةُ الدنيا للدنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ][9]. وأمّا مَنْ أرادَ الحَياةَ الدنيا للآخِرَةِ، فهو ليسَ بِلَعِبٍ، ولَهْوٍ، لأنَّ الدنيا لم تُنْشَأْ لِنَفْسِها وإنما أُنْشِئَتْ للآخِرَةِ. فَمَنْ رآها لها، وأرادَها لِنَفْسِها، فهو لَعِبٌ ولَهْوٌ، ومَنْ رآها للآخِرَةِ، فهو ليسَ بِلَعِبٍ ولا لَهْوٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا في الرزقِ وفي الخِلْقَةِ يكونُ بعضُهُمْ أعْمَى، وبعضُهُمْ بَصيراً، ويكونُ أصَمَّ، ويكونُ سَميعاً ونَحْوَهُ. فَعَلَى ما يكونُ في الدنيا على التَّفاوُتِ والتَّفاضُلِ يكونونَ في الآخِرَةِ كذلكَ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ عندَ اللهِ لا في الضِّيقِ والسَّعَةِ والأحوالِ التي يكونونَ في الدنيا فقد[10] قالَ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: الولي والعدو. (٣) في الأصل وم: بينهما. (٤) في الأصل وم: تفريق بينهما. (٥) في الأصل وم: المؤمن والكافر، نعطي هذا وهذا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م.
(١٠) في الأصل وم: حيث.

﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ولم يَقُلْ أكثَرَ، ولا أوسَعَ. دلَّ أنهُ على القَدْرِ والمَنْزِلَةِ عندَ اللهِ لا على اخْتِلافِ الأحوالِ التي يكونونَ في الدنيا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها][1]: قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ النَّهْيَ في مِثْلِ هذا الخطابِ لِرسولِهِ، وإنْ كانَ غَيرَ مَوهوم ذلكَ منهُ لِلْعِصْمَةِ التي عَصَمَهُ، فإنهُ غيرُ مُستَحيلٍ في ذاتِهِ لِمَا ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ إنما يُنْتَفَعُ بها معَ النَّهْيِ و الأمرِ؛ لأنهُ لولا الأمْرُ والنَّهْيُ ما احْتيجَ إليها، أو خاطَبَهُ بِهِ على إرادةِ غَيرِ على ما يُخاطِبُ بِهِ ملوكُ الأرضِ الأقربَ إليهِمْ والأعْظَمَ والأخْطَرَ منهُمْ دونَ خَسائِسِ الناسِ ورُذَّالِهِمْ.

والثاني: أنهُ يُخاطِبُ كُلّاً في نَفْسِهِ، ليسَ أنْ يَخُصَّ رسولَهُ بذلكَ. ولكنْ كلٌّ مَوْهوم ذلكَ منهُ.

والثالثُ[2]: يَحْتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ بِهِ [كلَّ إنسانٍ][3] كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الانفطار: ٦و..] وقولِهِ[4]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١و..] ليسَ إنسانٌ أحَقَّ بهذا الخطابِ مِنْ إنسانٍ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

[والرابعُ: يَحْتَمِلُ أنْ][5] يُخاطِبَ رسولَهُ / ٢٩٨ ـ ب/ لِيَعْلَمَ مَنْ دونَهُ أنْ ليسَ لأحدٍ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عندَ اللهِ، وارْتَفَعَ مَحَلُّهُ ومَنْزِلَتُهُ مُحاباةٌ في الدينِ، لأنَّ الرسلَ هُمُ المُكَرَّمونَ على اللهِ المُعَظَّمون عندَهُ. فإذا لم [يَعْفُ عنهمْ][6] في هذا لم يَعْفُ عَمَّنْ[7] دونَهُمْ.

ألا تَرى أنهُ قالَ للملائكةِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء/ ٢٩] وهُمْ أكرَمُ خَلْقِ اللهِ حين[8] وصَفَهُمْ أنهمْ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم/ ٦] فَعَلَى ذلكَ الرسلُ. ألا تَرى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] ومَعْلومٌ أنَّ أبَوَيهِ كانا ضالَّينِ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ رسولَهُ في قولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٤] دلَّ أنهُ خاطَبَ بِهِ كلَّ مُحْتَمِلٍ ذلكَ ومَوْهومٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي ذليلاً مَقْهوراً؛ لأنَّ الخِذْلانَ هو ضِدُّ النَّصْرِ والعَوْنِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ذَكَرَ الخِذْلانَ مُقابِلَ النَّصْرِ؟ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿مَّخْذُولًا﴾ أي مَقْهوراً ذليلاً غَيرَ مَنْصورٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قَضى: حَكَمَ، وقالَ بعضُهُمْ: قَضى ههنا: أمَرَ، أي أمَرَ ﴿رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: قَضى ربُّكَ: وَصَّى ربُّكَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ ﷺ أنهما كانا يَقْرآنِ: وَوَصَّى ربُّكَ، وقالَ بعضُهُمْ: وعَهِدَ ربُّكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي خَتَمَ ربُّكَ، وهو مِنَ الفَرْضِ والإلزام، أي فَرَضَ ربُّكَ، وألْزَمَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وكذلكَ حَكَمَ، وهو أشْبَهُ. ألا تَرى أنهُ قالَ في آيةٍ أخرى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ثم قالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؟ [الأحزاب: ٣٦] دلَّ قولُهُ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ قولَهُ: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مَعْناهُ: أي فَرَضَ اللهُ ورسولُهُ، وحَكَما أمراً.

ثم قولُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فَرْضٌ وحَتْمٌ وحُكْمٌ وأمْرٌ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلّا الإلهَ المَعْبودَ الحَقَّ المُسْتَحِقَّ لِلْعِبادَةِ والرُّبوبيَّةِ، لا تَعْبُدوا دونَهُ أحداً.

وقد أبانَ لنا أنهُ هو الإلهُ والربُّ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ والألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ لا الذينَ يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ بِوُجوهٍ ثلاثةٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو يقول. (٦) في الأصل وم: يعفوهم. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: حيث.

أحدُها: عَجْزُ العقولِ وجهالَتُها عن دَرْكِ كُنْهِيَّةِ العقولِ وماهِيَتِها[١]؛ لأنَّ العقولَ لا تَعْرِفُ كُنْهِيَّةَ[٢] أنفسِها ولا ماهِيَّتَها، وتَعْرِفُ مَحاسِنَ الأشياءِ ومَقابِحَها. فقد عَرَفَتِ الأُلوهِيَّةَ للهِ وحُسْنَ العبادةِ لهُ وقُبْحَها لِغَيرِه.

والثاني: ما يوجدُ في جميعِ الخَلائقِ مِنْ آثارِ أُلوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وجَعْلِ العِبادةِ لهُ شُكْراً لهُ. وعلى ذلكَ جَعَلَ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جَوارِحِ الإنسانِ عبادةً شُكْراً لهُ لِما فيها مِنْ آثارِ أُلوهِيَّتِهِ.

والثالثُ: السَّمْعُ، أنبأنا أنْ لا معبودَ إلّا اللهُ، ولا أُلوهِيَّةَ لِسِواهُ دونَهُ. فذلكَ مَعْنى [ما][٣] فَرَضَ على خَلْقِهِ، وأمَرَهُم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وتأويلُ حُكمِ ربِّكَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لِما أنشأ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ آثارَ وَحدانيَّتِهِ وشَهادةَ رُبوبِيَّتِهِ استِحْقاقُ العِبادةِ لهُ. فذلكَ تأويلُ مَنْ قالَ: قَضى [أي][٤] حَكَمَ.

وأمّا تأويلُ مَنْ قالَ: قَضى، أي أمَرَ ربُّكَ، وكَلَّفَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فيكونُ فيهِ أمْرٌ بالعِبادةِ لهُ، والنَّهْيُ عَنْ عِبادةِ غَيرِهِ؛ كأنهُ قالَ: أمَرَ ربُّكَ أنِ اعْبُدوهُ، ونهاكُمْ أنْ تَعْبدوا غَيرَهُ.

ثم الفَرْقُ بينَ الطاعةِ والعِبادةِ، يَجوزُ أنْ يُطاعَ غَيرُهُ، ولا يَجوزُ أنْ يُعْبَدَ غَيرُهُ، لأنَ الطاعةَ، هي الائتِمارُ كقولِهِ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] أي ائتَمِروا.

وأمّا العِبادةُ، فهي الاستِسْلامُ والخُضوعُ لهُ والشُّكْرُ لهُ، ولا يَجوزُ ذلكَ لِغَيرِهِ لِسِوَى اللهِ، أو يكونُ في العِبادةِ مَعْنىً لا يُدْرَكُ كَمَعْنَى الرَّحْمنِ، لا يُدْرَكُ حينَ[٥] لم يُجَوِّزْ تَسْمِيَةَ غَيرِهِ بهِ. فَعَلى [ذلكَ][٦] هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ كأنهُ قالَ: وفَرَضَ عليكُمْ أيضاً، وحَكَمَ الإحْسانَ للوالِدَينِ. ثم الإحْسانُ في عُرْفِ الناسِ هو الفِعْلُ الذي ليسَ عليهِ، إنما هو فَضْلٌ ومَعْروفٌ يَصْنَعُهُ [المَرْءُ][٧] إلى غَيرِهِ. هذا هو الإحْسانُ في العُرْفِ واللغةِ.

لكنَّ المُرادَ مِنَ الأمْرِ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ، هو الشُّكْرُ؛ لا ما ذَكَرْنا مِنَ الإحْسانِ المَعْروفِ عندَ الناسِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] لأنَّ الشُّكْرَ، هي المُكافأةُ والجزاءُ لِما أُنعِمَ وصُنِعَ مِنَ المَعْروفِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، وإنْ ذُكِرَ الإحْسانُ في هذا وفي غَيرِهِ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] وقولُهُ[٨] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] وغَيرِها مِنَ الآياتِ، فالمُرادُ منهُ، واللهُ أعلَمُ، الشُّكْرُ لهما لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] والشُّكْرُ، هو المُكافأةُ.

أمَرَهُ أنْ يكافِئَ لهما، ويُجازِيَ بَعْضَ ما كانَ منهما إليهِ مِنَ التربيةِ والبِرِّ والعطفِ عليهِ والوِقايةِ مِنْ كلِّ سوءٍ ومَكروهٍ في البَطْنِ وبَعْدَ ما خَرَجَ مِنَ البطنِ حتى كانا يُؤْثِرانِهِ على نَفْسَيهِما[٩] في السرورِ، ويَجْعَلانِ نَفْسَيهِما [وِقايةً لهُ مِنْ كلِّ سوءٍ ومَحْذورٍ، فأمَرَ الوَلَدَ أنْ يَشْكُرَ لِوالِدَيهِ جَزاءً ومُكافأةً لِما كانَ منهما إليهِ مِمّا ذَكَرْنا.

[ذَكَرَ هذا في الحالِ التي عَجِزا هما عَنِ القِيامِ لأمرِ نَفْسَيهِما[١٠]][١١] والحَوائِجِ لهُما. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهما إذا كانا قادِرَينِ لِحَوائِجِ نَفْسَيهِما[١٢] ومنافِعِها يَبَرّانِ وَلَدَهُما، ويُحْسِنانِ إليهِ، فَيَحْمِلُ بِرُّهُما وإحسانُهُما إليهِ على الطاعةِ لهما في البِرِّ والإحسانِ إليهِما على المُجازاةِ.

وهكذا المَعْروفُ عندَ الناسِ أنهُ إذا بَرَّ بعضُهُمْ بَعْضاً يَبْعَثُ ذلكَ على المُكافأةِ لِيَدومَ ذلكَ عليهِمْ، وإلّا يَنْقَطِعَ. لِذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، الإحسانَ إلى الوالِدَينِ في [الحال][١٣] التي هي حالُ ضَعْفٍ وعَجْزٍ حينَ[١٤] قالَ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

---

(١) في الأصل وم: وما بينها. (٢) في الأصل وم: كيفية. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: أنفسهما. (١٠) في الأصل: أنفسهما. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: أنفسهما. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: حيث.

﴿ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ثم أمَرَهُ أنْ يَذْكُرَ الحالَ التي هو عليها، وهو حالُ طُفوليَّتِهِ وصِغَرِهِ، أنْ كيفَ رَبَّيَاهُ، وبَرَّاهُ، وعَطَفا عليهِ، ولانَا لهُ قَولاً وفِعْلاً حتى لم يَسْتَقْذِرا منهُ شيئاً ممّا يَسْتَقْذِرُ الناسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ولم يُبْعِدْهُما عنهُ ما يُبْعِدُ الخَلْقَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ أنواعِ الأذى والخُبْثِ، فأمَرَهُ أنْ يُعامِلَهُما إذا بَلَغا الحالَ التي كانَ هو عليها مِنَ الجَهْلِ والضَّعْفِ والعَجْزِ عنِ القِيامِ بالحَوائجِ على ما كانَ هو، وبَلَغا المَبْلَغَ الذي يُسْتَقْذَرُ منهما، ويُبْعَدُ عنهما، ألّا يَسْتَقْذِرَ منهُما، ولا يَبْتَعِدَ عنهما كما لم يَسْتَقْذِرا هما منهُ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ عندَ السؤالِ والحاجةِ إليهِ كما لم يَفْعَلاهُما لهُ، بل يَلينُ، ويَذِلُّ، كما لانا هُما لهُ، وخَضَعا. وهو ما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ الآية [النحل: ٧٠] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

أخبَرَ أنهُ يَرُدُّ مِنَ القُوَّةِ والعِلْمِ إلى الحالِ التي كانوا عليها وحالِ الضَّعْفِ والجَهْلِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الآية [النحل: ٧٨] وقالَ: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ الآية [الروم: ٥٤] فقالَ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ هو كنايةٌ عنْ إظهارِ الكَراهةِ لهما في الوَجْهِ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تُعَنِّفهما في القَولِ والكلامِ على ما لم يَفْعلا هما بكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أُفٍّ﴾ المُرادُ منهُ هو ﴿أُفٍّ﴾ لا غيرُهُ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تُعَنِّفْهُما، ولا تَتَخَشَّنْ. لكنهُ ذَكَرَ أوَّلَ حالِ الإسْتِثْقالِ والكَراهةِ منهُ وآخِرَها، أي لا تقلْ لهما: أفٌّ على ما يَسْتَثْقِلُ الناسُ شيئاً، ويَكْرَهونَهُ في أوَّلِ حالٍ، يَرَونَ شيئاً مُسْتَثْقَلاً مَكْروهاً، فيقولونَ: أُفٌّ، أي لا تَقُلْ: أُفٌّ لئلّا يُحْمَلَ ذلكَ على العُنْفِ والخُشونةِ والنَّهْرِ.

وعلى هذا المعنى/ ٢٩٩ ـ أ/ قالوا في قولِهِ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ الآية [النور: ٣٠] قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ لِيَحْفَظوا[2] فروجَهُمْ، لأنَّ النَّظَرَ بالبَصَرِ [يَحْمِلُ المَرْءَ][3] على الزِّنى في الفَرْجِ، ومنهُ يكونُ بَدْءُ الفُجورِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ ذَكَرَ أوَّلَ حالٍ وآخِرَها لِيَمْتَنِعوا عنْ كلِّ ذلكَ.

[فَعَلى ذلكَ][4] قولُهُ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ذَكَرَ أوَّلَ الحالِ وآخِرَها: [فَأَوَّلُها: ﴿أُفٍّ﴾ وآخِرُها: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾][5] أي لا تُظْهِرْ في وجْهِكَ مِنَ الكَراهةِ والإسْتِثْقالِ [لِئلّا يُحْمَلَ][6] ذلكَ على العُنْفِ والانْتِهارِ.

فإنْ كانَ تأويلُ قولِهِ: ﴿أُفٍّ﴾ أفٌّ لا غيرُ ففيهِ حُجَّةٌ لأبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: إذا نَفَخَ المُصَلّي في مَوضِعِ سُجودِهِ، فهو[7] كلامٌ، يَقْطَعُ صلاتَهُ [لأنَّ اللهَ تعالى][8] قالَ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي لا تَتَكَلَّمْ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [بَعْدَما][9] نَهاهُ أنْ يقولَ لهما ﴿أُفٍّ﴾ ونَهاهُ أنْ يَنْهَرَهُما. فإذا امْتَنَعَ عنِ الأُفِّ والنَّهْرِ قالَ[10] بَعْدَ ذلكَ قولاً لَيِّناً لطيفاً.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ: نَهَرْتُهُ [وانْتَهَرْتُهُ نَهْراً][11] وهو الخَشِنُ مِنَ الكلامِ، يُشْبِهُ[12] الوَعيدَ. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: الكريمُ هو الذي يَتَوَلّى على آخَرَ نِعَمَهُ، ويُهَنِّئُهُ بِتَرْكِ الأذى والمَنِّ كقولِهِ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقالَ غَيرُهُ في وَصْفِ السَّخِيِّ: هو[13] الذي يَبْذُلُ ما احْتَوى عليهِ لِمَنِ احْتاجَ إليهِ [ويَقْطَعُ طَمَعَهُ][14] عمّا احْتَوى عليهِ غَيرُهُ عندَ حاجَتِهِ إليهِ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الكريمُ قريباً منهُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ الوالِدَيْنِ كالمَجْبولينَ المَطْبوعينَ على البِرِّ لأولادِهِما والشَّفَقَةِ عليهِمْ، ولا كذلكَ الأولادُ، فكيفَ يُشْبِهُ بِرُّ مَنْ كانَ مَجْبولاً به مَطْبوعاً عليهِ بِرَّ مَنْ لم يَكُنْ ذلكَ بِطَبْعِهِ؟ قيلَ: لِذلكَ ذَكَرَ هذا في الوَلَدِ دونَ الوالِدَيْنِ، وأمَرَهُمْ بذلكَ،

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وليحفظوا. (٣) في الأصل وم: يحمله. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والثاني:. (٦) في الأصل وم: ليحمل. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: كان. (١١) في م: وانتهرته، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: شبهه. (١٣) في الأصل وم: فقال. (١٤) في الأصل وم: وقطع طمعه.

لأنَّ ما يَفعَلُ الوالدانِ مِنَ البِرِّ والإحسانِ إلى الوَلَدِ يَفعَلانِ بِطَبْعٍ، والوَلَدُ لا لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ. ولِهذا لم[١] يَجعَلْ، ولم يَشْرَعْ قَتْلَ الوالِدِ بِوَلَدِهِ، إذِ القِصاصُ حياةٌ بينَهُمْ، وشَرَعَ قَتْلَ الوَلَدِ بِوالِدَيهِ؛ إذْ في الوالِدَينِ مِنَ الشَّفَقَةِ والرَّحْمَةِ ما يَمنَعُ قَتْلَ الوَلَدِ، وليسَ في الوَلَدِ ذلكَ، فَجَعَلَ في قَتْلِ الوَلَدِ والِدَهُ في القِصاصِ، ولم يَجعَلْ في قَتْلِ الوالِدَينِ وَلَدَهُما. فَعَلى ذلكَ هذا في البِرِّ والإحسانِ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكمَةُ في ما قَرَنَ اللهُ مِنْ شُكرِ والدَيهِ شُكرَهُ في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القُرآنِ [كقولِهِ][٢] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾؟ [لقمان: ١٤] قيلَ: لأنهُ بهما كانَ نَماؤُهُ مِنْ أوّلِ حالِهِ إلى آخِرِ ما انْتَهى إليهِ مِنَ التَّغْذِيَةِ والتَّربِيَةِ والوِقايَةِ مِنْ كلِّ سُوءٍ والحِفظِ مِنْ كلِّ آفَةٍ وشَرٍّ.

وفي الآيَةِ دليلٌ لقولِ أبي حنيفَةَ حينَ[٣] قالَ في المُكاتِبِ: إذا اشْتُرِيَ والِدُهُ أو أمُّهُ صار مُكاتَباً، وإذا اشْتُرِيَ [أخوهُ أو ذو][٤] رَحِمٍ مَحْرَمٍ منهُ لم يَصِرْ مُكاتَباً لأنَّ الأبَ والأمَّ يَصيرانِ كذلكَ بِحَقِّ الجَزاءِ والشُّكرِ. فَعلَيهِ ذلكَ. وأمّا الأخُ وغَيرُهُ مِنَ المَحارِمِ بِحَقِّ المَعْروفِ، فَمُلْكُهُ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ.

والخِطابُ مِنَ اللهِ، وإنْ كانَ مَعَ رسولِهِ، فالمُرادُ منهُ غَيرُهُ. لأنَّ رسولَ اللهِ مَعْلومٌ أنهُ لم يُدرِكْ والدَيهِ في الوقتِ الذي أُرسِلَ [فيهِ إليهِم][٥] وخاطَبَهُ بما خاطَبَ. دلَّ أنهُ أرادَ بالخِطابِ غَيرَهُ. كلُّ [ذلكَ][٦] مُحْتَمِلٌ ذلكَ ومَوهومٌ منهُ. وأمَرَهُ أنْ يُعامِلَهُما بالمُعامَلَةِ التي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الجَناحُ كِنايَةً عنِ اليَدينِ، لأنَّ اليَدَينِ في الإنسانِ بِموضِعِ الجَناحِ للطائرِ، وجَناحُ الطائرِ يَداهُ، فكأنهُ قالَ: اخْفِضْ، واخْضَعْ لهما بِيَدَيكَ كما أمَرَهُ أنْ يَخْضَعَ لهما بِلِسانِهِ بقولِهِ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أيِ اخْضَعْ لهما قولاً وفِعلاً. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الجَناحُ كنايَةً عنِ النَّفسِ، أيِ اخْضَعْ لهما بِجَميعِ النَّفسِ والجَوارِحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلذُّلِّ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الذُّلِّ نفسَهُ، أي كُنْ لهما كالمُسْتَعينِ المُحتاجِ إليهما لا كالمُعينِ لهما قاضيَ الحاجةِ، ولكنْ ذليلاً كالمُسْتَعينِ [بالآخِرِ][٧] رافِعِ الحاجةِ إليهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿ٱلذُّلِّ﴾ كِنايَةً عنِ الرَّحْمَةِ التي تكونُ في القَلبِ، أيِ اخْضَعْ لهما بِرَحْمَةِ القلبِ والجَوارِحِ جميعاً.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ألا تَرى أنهُ قالَ في آيَةٍ أُخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وذَكَرَ مُقابِلَ الذُّلِّ في تلكَ الآيَةِ الرَّحْمَةَ [وفي هاتينِ مُقابِلَ الذُّلِّ العِزَّةَ ومُقابِلَ الشِّدَّةِ الرَّحْمَةَ][٨]. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ كِنايَةً عنِ الرَّحْمَةِ، فيكونُ معناهُ: انِ اخْضَعْ لهما بالظاهِرِ والباطِنِ جميعاً على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ ويَحْتَمِلُ أن [يكونَ][٩] على الإضمارِ، فيكونُ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ قالَ: ربِّ ارْحَمْهُما كما رَحِماني، ورَبَّياني صغيراً.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ هذا مَنسوخٌ، نَسَخَهُ قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيَة [التوبة: ١١٣] بَعيدٌ. وأمْكَنَ أنْ تكونَ الآيَةُ في المؤمنينَ والكافرينَ. فالرَّحْمَةُ التي ذَكَرَ تكونُ في الكافرينَ سُؤالَ الهِدايَةِ لهمْ وجَعْلِهِمْ أهلاً لِلرَّحْمَةِ والمَغفِرَةِ، وذلكَ جائزٌ كقولِ نوحٍ لِقَومِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي اسْتَهْدُوا ربَّكُم، فَيَهْدِيَكُم، فَيَغفِرَ لكُمْ ما كانَ منكُمْ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ لم يَزَلْ ﴿غَفَّارًا﴾ إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ بالاسْتِغفارِ، ويَعِدَهُمْ بالمَغفِرَةِ على الحالِ التي هُمْ عليها، وكذلكَ اسْتِغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أخاه أو ذا. (٥) في الأصل وم: إليه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: من الآخر. (٨) في الأصل وم: في هذا مقابل العزة الشدة. (٩) ساقطة من الأصل وم.

أو أنْ يكونَ مِنَ الرَّحمَةِ التي يَتَراحَمُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ، والشَّفَقَةِ التي تكونُ بَينَ الناسِ كما يَتَراحَمُ لِلصِّغارِ[1] والضُّعفاءِ ثم مِثلُ هذهِ المُعامَلةِ التي أمَرَ الوَلَدَ أنْ يُعامِلَ أبَوَيهِ يُلْزِمُ المؤمِنِينَ مِن جِهَةِ الدينِ ومَكارِمِ الأخلاقِ أنْ يُعامِلَ[2] الناسُ بَعضُهُمْ بَعضاً. غيرَ أنَّ هذا في ما بَينَ الناسِ، ليسَ بِفَرْضٍ لازمٍ، وذلكَ لازمٌ، لأنهما بِحَقِّ الشُّكرِ والجَزاءِ لهما بما كانَ منهما إليهِ مِنَ البِرِّ والإحسانِ، وحقُّ التَّربيَةِ والتَّعليمِ[3] حَقُّهُما وجَليلُ قدرِهما وخُصوصيَّتُهما، وهو كما قالَ[4] لِرَسولِه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وإلا فقد وَصَفَ المؤمِنِينَ بِتَراحُمِ بَعضِهِمْ لِبَعضٍ على ما ذَكَرَ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وأمَرَهُمْ بذلكَ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ مِنْ إسرارِ المَحَبَّةِ لهما والبِرِّ والكَرامَةِ. وقالَ [بعضُهُمْ][5]: قولُهُ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ أي أعْلَمُ [بما تَعلَمُهُ][6] نفوسُكُمْ، وهو كما قالَ عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي تَعلَمُ ما تَعلَمُهُ[7] نفسي ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ مِنَ التدبيرِ والتقديرِ. فَعَلَى ذلكَ هذا

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية، أي رَبُّكُمْ أعْلَمُ بما في ضميرِكُمْ مِنَ الاستِقْذارِ إيّاهما والاستِثْقالِ والكَراهةِ إذا بَلَغَا[8] المَبْلَغَ الذي ذَكَرَ. ولكنْ لا تُظْهِرْ ذلكَ لهما، ولا تُوافِقْ ظاهِرَكَ باطِنَكَ، أو أنْ يَقولَ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ فلا تُراؤوا[9] الناسَ، ولا تَصرِفوا ما في ضَميرِكُمْ إلى مَنْ لا يَعلَمُ ذلكَ، يُخاطِبُ الكُلَّ على الابتِداءِ ألا يَجْعَلَ ما في قلبِهِ لِغَيرِهِ، بل يُخلِصُ لهُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ أي ما تَعلَمُهُ[10] أنفُسُكُمْ وتُدَبِّرُهُ[11].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي تَصيروا صالِحِينَ، لأنَّ قولَهُ: ﴿تَكُونُوا﴾ إنما هو في حادثِ الوَقتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ لِلاوابِينَ ولِمَنْ يَشاءُ. ثم اختُلِفَ في الأوّابِ: قالَ بعضُهُمْ الأوّابُ الرَّجّاعُ التَّوّابُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ. قالَ القُتَبِيُّ: الأوّابُ التائِبُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وهو مِنْ آبَ يَؤوبُ، أي يَرْجِعُ، وهما واحدٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الأوّابُ المُطيعُ، وقيلَ: المُسَبِّحُ، ونَحْوُهُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ في قولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي لِنْ لهما، وارْفُقْ بهما، ذَكَرَ بِرَّ الإنسانِ لِلْوالِدَينِ ولُطْفَهُ بهما[12] قولاً وفِعلاً.

وليسَ في ظاهِرِ الآيةِ ذِكْرُ البِرِّ بالمالِ/ ٢٩٩ ـ ب/ والإنفاقِ عليهما. فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ داخلاً في قولِهِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أو لم يَذكُرْ ذلكَ لِما أنَّ مالَ[13] الوَلَدِ مالٌ لهما.

ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ [أنهُ][14] قد جاءَ رجلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ ومعهُ أبوهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ إنَّ لي مالاً، وإنَّ لي أباً، ولهُ مالٌ، وإنَّ أبي يريدُ أنْ يأخُذَ مالي. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ «أنتَ ومالُكَ لأبيكَ»؟ [ابن ماجة: ٢٢٩٢]

أَوَ لا تَرَى أيضاً أنهُ أضافَ بُيوتَ الوَلَدِ إليهِما حينَ[15] قالَ: ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١] مَعناهُ بيوتُ أبنائِكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ[16] في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ إنهُ [يَغفِرُ تَرْكَ][17] صلاةِ الضُّحَى. ويَرْوِي في ذلكَ خَبَراً [عَنْ][18] زَيدِ بْنِ أرْقَمَ [أنهُ][19] قالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ على قومٍ، وهمْ يُصَلُّونَ الضُّحَى، فقالَ: «صلاةُ الضحى إذا رَمَضَتِ

---

(١) في الأصل وم: الصغار. (٢) في الأصل وم: يعاملهم. (٣) في الأصل وم: والتعظيم. (٤) في الأصل وم: يقال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما تفعله. (٧) في الأصل وم: تفعله. (٨) في الأصل وم: بلغ. (٩) في الأصل وم: يرون. (١٠) في الأصل وم: تفعله. (١١) في الأصل وم: وتدبرها. (١٢) في الأصل وم: إياهما. (١٣) في الأصل وم: المال. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: بعض. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم.

الفِصالُ مِنَ الضُّحَى» [بنحوه مسلم ٧٤٨] وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ [أنهُ][1] قال: «أمرَني رسولُ اللهِ ﷺ بثلاثٍ: أمَرَني أنْ أصومَ ثلاثاً في كلِّ شهرٍ وألا أنامَ إلا على وِترٍ وأنْ أُصَلِّيَ رَكْعَتَي الضُّحَى فإنها صلاةُ الأوابينَ» [التمهيد ٨/ ١٤١]

ورُوِيَتْ [2] أحاديثُ كثيرةٌ في الحَثِّ على صلاةِ الضُّحَى وفعْلِها وأنهُ صلَّى هو رَكْعَتَينِ وأربعاً وسِتّاً وثمانِيَ ما يَكْثُرُ ذِكْرُها، ويطولُ، ومَنْ صَلّاها فإنما صَلّاها على سَبيلِ التَّطَوُّعِ ليسَ على سَبيلِ اللُّزومِ الواجِبِ أو السُّنَّةِ المُؤَكَّدَةِ لأنَّ النبيَّ ﷺ صَلّاها مَرَّةً، فكانَتْ كصلاةِ الليلِ، يُدرِكُ فاعِلُها الفَضلَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ كأنَّ الآيةَ، هي صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]أي وقَضى أنْ تُؤتِيَ ذا القُرْبى حَقَّهُ ومَنْ ذَكَرَ، أي فرَضَ، وحَتَمَ، وحَكَمَ على اختِلافِ ما قالوا، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [النساء: ٣٦] أمَرَ ﷻ بِبِرِّ الوالِدَينِ والشُّكرِ لهما وصِلَةِ ذي القُرْبى فريضةً ومَنْ ذكرَ.

ثم اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿حَقَّهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ الحَقُّ فريضةٌ، وهو الزكاةُ حينَ[3] جَعَلَ ذلكَ صِلَةَ ما هو فَرْضٌ، وهو الشُّكرُ للهِ وجَعْلُ العِبادةِ لهُ وشُكْرُ الوالِدَينِ جَزاءً لِما كانَ منهما إليهِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ فَرْضٌ لازِمٌ. فَعَلَى ذلكَ صِلَةُ هؤلاءِ. إنَّ صِلَتَهُمْ فَريضَةٌ لِما جاءَ مِنَ المَواعيدِ الشديدةِ في قَطْعِ الرَّحِمِ والتَّرْغيبِ في صِلَتِهِمْ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: ذلكَ الحَقُّ نَفْلٌ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [وقال:][4] ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨] فلا يَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ الإعراضِ ﴿عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ في الفَرْضِ. دَلَّ أنهُ في النَّفْلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: التَّبْذيرُ والإسرافُ واحدٌ، وهو المُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ في الإنْفاقِ والحقوقِ، والمُجاوَزَةُ عنِ المُحِقِّ وغيرِ المُحِقِّ.

رُوِيَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ أنهُ سُئِلَ عنِ التَّبْذيرِ، فقالَ إنفاقُ المالِ في غَيرِ حَقِّهِ. وكذلكَ قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّبْذيرُ هو الإنفاقُ في ما لا يُنْتَفَعُ بهِ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ يُتْرَكُ الإنفاقُ على المُحِقِّ [وهو ذو][5] القُرْبى، ويُنْفِقُ على الأجْنَبِيِّينَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي كانوا أولياءَ الشياطينِ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي كفوراً لِنِعَمِ ربِّهِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ][6] قالَ: «كانَ النَّبيُّ ﷺ يُسْأَلُ، فيقولُ: ما لآلِ محمدٍ، وإنهمْ لَتِسْعَةُ أبياتٍ، إلا صاعٌ مِنْ طعامٍ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾» [بنحوه البخاري ٢٥٠٨] أي عِدْهُمْ أنهُ سَوفَ يأتي الرِّزْقُ.

وعَنِ[7] ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][8] قالَ في قولِهِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ إذا سألوكَ، وليسَ عندكَ شيءٌ، انْتَظَرْتَ رِزْقاً مِنَ اللهِ، يأتيكَ ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ يكونُ، إنْ شاءَ اللهُ، شِبْهَ العِدَةِ. وأمثالُ هذا، قالوهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ إعراضَ الإجابةِ فذلكَ يكونُ بالإسْتِثْقالِ والإسْتِخْفافِ مَرَّةً، أو لِما ليسَ عندَهُ شيءٌ يُعْطِيهِمْ ثانياً. لكنْ لا يُعْرَفُ أنَّ الإعراضَ، كانَ لِلإستِثْقالِ والإستِخْفافِ أو لِما ليسَ عندَهُ ما يُعْطِيهِمْ، [فَأَمَرَهُ اللهُ][9] أنْ يُبَيِّنَ لهمْ أنَّ الإعراضَ عنهم ليسَ لِلإسْتِثْقالِ والإستِخْفافِ، وكذلكَ تَرْكُ الإجابةِ لهمْ، ولكنْ لِما ليسَ عِنْدَهُ شيءٌ لِيَعْلَموا أنَّ الإعراضَ عنهمْ ليسَ لِلإستِخْفافِ ولا لِلإستِثْقالِ، ولكنْ لِما ليسَ عندَهُ ما يُعْطِيهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقد يروى. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: وغير المحق. (٦) في الأصل وم: عن الحسن. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فأمر.

أجْمَعَ أهلُ التأويلِ أنَّ هذا الإعراضَ، هو السؤالُ، لأنه كانَ يُعْرِضُ عنهمْ لِابْتِغاءِ ما يُعطيهِمْ؛ فذلكَ الإعراضُ يُرْجِعُ مَنْفَعَةً إلى السؤالِ. ثم اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿مَّيْسُورًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: عِدْ هُمْ عِدَةً حَسَنَةً إذا كانَ ذلكَ أعطيناكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أي عِدْهُمْ خيراً. وقالَ بَعْضُهُمْ: قُلْ لهمْ قولاً لَيِّناً وسَهْلاً. وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿مَّيْسُورًا﴾ أي حَسَناً، وهو مِنَ التَّيْسيرِ[1] ونَحْوِهِ. ذلكَ قالوا، أيِ ارْدُدْ عليهِمْ رداً حَسَناً لِيَقَعَ عندَهُمْ أنَّ الإعراضَ لِما ليسَ عندَكَ[2] شيءٌ، لا لِوَجْهٍ آخَرَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ في الإنفاقِ إذا كانَ عندكَ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [لا لئلا يَلُومَكَ][3] مَنْ رَجاكَ، ولكنْ لِما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ الآية [الفرقان: ٦٧] أمرَ اللهُ تعالى أنْ يُنْفِقوا نَفَقَةً، ليسَ فيها سَرَفٌ ولا إقتارٌ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وغَيرِهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لا تُمْسِكْ عنِ النَّفَقَةِ في ما أمَرَكَ ربُّكَ بهِ عنِ الحَقِّ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ في ما نَهاكَ عنهُ [﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾][4] وقالَ بَعْضُهُمْ: هذا نَهْيٌ عنِ البُخْلِ والسَّرَفِ. فَلَئِنْ كانَ هذا نَهياً عَنِ [البُخْلِ كانَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾][5] نَهياً عنِ الجودِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَنْهَى [اللهُ تعالى أحداً][6] عنِ البُخْلِ والجُودِ لأنهما غَريزتانِ طَبيعيَّتانِ، ولا يَنْهَى [اللهُ تعالى أحداً][7] عمّا سَبيلُهُ الطَّبْعُ والغريزةُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، مِنْ كَفِّ اليَدِ وقَبْضِها عنِ الإنفاقِ في الحَقِّ والمُحَقِّ وبَسْطِها في غَيرِ الحَقِّ وذي الحَقِّ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: دلَّ قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أنَّ قولَ اليهودِ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أنهمْ لم يُريدوا حقيقةَ اليَدِ، ولكنْ [أرادوا][8] التَّضْييقَ والتَّقْتيرَ. وكذلكَ لمْ يُرِدْ بقولِهِ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ حقيقةَ بَسْطِ اليَدِ، ولكنْ[9] أرادَ التَّوسيعَ في الرِّزْقِ والتَّكْثيرَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؟ [المائدة: ٦٤]

ثم يَحْتَمِلُ الخِطابُ في هذهِ الآياتِ الوُجوهَ الثلاثةَ التي ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ:

أحدُها: أنهُ خاطَبَ رسولَهُ بذلكَ كلِّهِ، وأشْرَكَ[10] فيهِ قومَهُ، وفي القرآنِ كَثيرٌ ممّا[11] خاطَبَ رسولَهُ بأشياءَ، فأشْرَكَ[12] قومَهُ في ذلكَ.

والثاني: [أنهُ][13] خاطَبَ كُلّاً في نَفْسِهِ نَحْوَ ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الإنفطار: ٦] وقولِهِ[14]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١و...] وقولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقولِهِ[15]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وقولِهِ[16]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] ونَحْوِهِ مِنَ الخِطابِ؛ خاطَبَ كلَّ أحدٍ في نفسِهِ، إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ في قولِهِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ رسولَهُ[17] خاصَّةً، ولا يُخاطِبَ غَيرَهُ. بلِ الخِطابُ بِهِ كلَّ الناسِ وكلَّ إنسانٍ.

والثالثُ: [أنهُ][18] خاطَبَ رسولَهُ على إرادةِ غَيرِهِ على سَبيلِ الخُصوصِيَّةِ لهُ نَحْوَ ما يُخاطِبُ مُلوكُ الأرضِ خَواصَّهُمْ وأعْقَلَهُمْ مِنْ رَعِيَّتِهِمْ على إرادةِ ذلكَ الخِطابِ غَيرَ المُخاطَبينَ. فَعَلَى ذلكَ يُحْتَمَلُ هذا، أو يكونُ خاطَبَ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ غَيرَهُ مِمَّنْ يُمْسِكُ، ويُخاطِبُ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ رسولَ اللهِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونُ ما ذَكَرَ، وقد يُحْتَمَلُ البَسْطُ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى/ ٣٠٠ ـ أ/: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَلُومًا﴾ عندَ نفسِكَ وعندَ الناسِ [وعندَ اللهِ][19] تلومُ نفسَكَ بأنكَ لِمَ أنْفَقْتَ؟ وعندَ الناسِ ما لم تَجِدْ ما تُنْفِقُ عليهِمْ وعندَ اللهِ إذا[20] أنْفَقْتَ في غَيرِ حقٍّ ﴿مَّحْسُورًا﴾ قالَ القُتَبِيُّ:

---

(١) في الأصل وم: التفسير. (٢) في الأصل وم: عنده. (٣) في الأصل وم: فيلومك. (٤) في الأصل وم: فتقعد كذا. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أحد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ممكن. (١٠) في الأصل وم: وشارك. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: فيشرك. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: و. (١٧) في الأصل وم: رسول الله. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أيضاً.

أي يَحْسُرُكَ العَطِيَّةَ، ويَقطَعُكَ، كما يَحْسُرُ السَّفَرُ البَعيرَ مُنْقطِعاً. وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو مِنَ الحَسْرَةِ، وهي النَّدامةُ؛ يُقالُ: حَسِرَ الرجلُ، فهو مَحْسورٌ، وقالَ: التَّبْذيرُ الفسادُ، وقالَ[1] ﴿مَلُومًا﴾ أي مَحْزوناً.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها:][2] هو يُوسِعُ الرِّزْقَ على مَنْ يُوسِعُ، وهو يَقْتُرُ، ويُضَيِّقُ على مَنْ يُضَيِّقُ، ويَقْتُرُ، أي ذلكَ إلى اللهِ تعالى، لا إلى الخَلْقِ، لِيَقْطَعوا الرجاءَ مِنَ الخَلْقِ، ويَرَوا ذلكَ مِنَ اللهِ، لا يَرَوْنَ مِنْ غيرِهِ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِيُديمَ[3] الفَضْلَ لِمَنْ ذَكَرَ الفَضْلَ [وقد بَيَّنَهُ لهمْ حينَ][4] قالَ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

ومِنَ[5] الناسِ مَنْ قالَ: بأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] يقولُ: واللهُ أعلَمُ. إنكَ إنْ مَنَعْتَهُ، وحَرَمْتَهُ، وكانَ في تقديرِهِ التَّضْييقُ والتَّقْتيرُ، لم يَنْفَعْهُ بَسْطُكَ ولا تَوسيعُكَ، لِيَعْلَموا أنَّ التَّوسيعَ والبَسْطَ والتَّضْييقَ والمَنْعَ مِنَ اللهِ.

أو[6] ذَكَرَ هذا ليَقْطَعوا الرجاءَ مِنَ الخَلْقِ، ويَطْمَعوا في رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأعمالِهِمْ ﴿بَصِيرًا﴾ بِمَصالِحِهِمْ ومالَهُمْ وما عليهِمْ، أو يكونُ الخَبيرُ والبَصيرُ واحداً. أو ذَكَرَ هذا لِيُعْلَمَ أنهُ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ [مِنْ إنشائِهِمْ][7] الخِلافَ لأمرِهِ والرَّدَّ والتَّكذيبَ لرسلِهِ، ولم يَخْرِجْ فِعْلَهُ وإنشاؤُهُ إياهُمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ عنِ الحِكْمَةِ، لأنهُ لا مَنْفَعَةَ لهُ في طاعتِهِمْ إياهُ وائْتِمارِهِمْ، ولا مَضَرَّةَ ولا تَبِعَةَ في خِلافِهِمْ إياهُ، بلِ المَنْفَعَةُ والمَضَرَّةُ في ذلكَ راجعةٌ إليهِمْ. لِذلكَ كانَ إنشاؤُهُ إياهُمْ على عِلْمٍ بما يكونُ منهمْ حِكْمَةً، ومِنْ ملوكِ الأرضِ [سَفَهاً وجَهْلاً][8]، لأنَّ ما يُرْسِلونَ مِنَ الرُّسُلِ، ويَعْمَلونَ مِنَ الأعمالِ، ويَسْعَوْنَ، لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِدَفْعِ مَضارِّهِمْ. فإذا فَعَلوا شيئاً يَضُرُّهُمْ على عِلْمٍ منهمْ بالضَّرَرِ كانَ ذلكَ سَفَهاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ مِنْ عادةِ العَرَبِ أنهم كانوا يَقْتُلونَ البناتِ، ويَقْتُلونَ البَنينَ إذا صاروا بِحَيْثُ، لا يَنْتَفِعونَ بهِمْ، ويَقْتُلونَ الآباءَ والأمَّهاتِ إذا بَلَغوا أرْذَلَ العُمُرِ فَنَهَى اللهُ أهلَ الإسلامِ عنِ الاسْتِنانِ بِسُنَّتِهِمْ، وأمَرَ أنْ يَبَرّوا الآباءَ والأمَّهاتِ إذا بَلَغوا ذلكَ المَبْلَغَ، وهو ما قالَ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وفي قَتْلِ ما كانوا يَقْتُلونَ مِنَ البناتِ قَطْعُ التَّناسُلِ والتَّوالُدِ الذي كانَ المَقْصودَ مِنْ إنشاءِ هذا العالَمِ؛ ذلكَ إذِ المَقْصودُ مِنْ إنشاءِ العالَمِ هذا الذي ذَكَرْنا، وفي قَتْلِ البناتِ قَطْعُ ذلكَ وذهابُ المَقْصودِ مِنْ إنشائِهِ.

ثم قالَ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي هُمْ لا يأكلونَ مِنْ أرزاقِكُمْ، بل لِكُلٍّ منكُمْ رِزْقٌ على حِدَةٍ، ليسَ في بَقائِهِمْ نُقصانٌ في رزقِكُمْ، ولا في فَنائِهِمْ زِيادةٌ، بل كلٌّ يأكلُ رِزْقَهُ.

أوَ لا تَرَوْنَ أنهُ قد أنْشأَ لهمْ رِزْقاً، لا شِرْكَةَ لكُمْ فيهِ؟ وهو ما أنْشأَ لهمْ مِنَ اللَّبَنِ في الضَّرْعِ، ولا تَنْتَفِعونَ أنْتُمْ بهِ، فَظَهَرَ أنَّ كُلّاً يأكُلُ رزقَهُ، لا يُدْخِلُ بَعْضٌ في رِزْقِ بَعْضٍ نُقصاناً.

ثم قالَ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ لِما ذَكَرْنا أنَّ في قَتْلِهِمْ قَطْعَ ما بِهِ قَصْدَ إنشاءَ هذا العالَمِ وفناءَهُ.

أو يقولُ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ في الأمَمِ الخاليةِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ خطابُ ما خاطبَ هؤلاءِ الآياتِ مِنْ قَتْلِ الأولادِ والزِّنى وقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيرِ حَقٍّ وغَيرِ ذلكَ ما تَقَدَّمَ وما تأخَّرَ لِوَجْهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: ليدوم. (٤) في الأصل وم: وتبيين لهم حيث. (٥) هذا هو الوجه الثالث.
(٦) هذا هو الوجه الرابع. (٧) في الأصل وم: إنشاءهم من. (٨) في الأصل وم: سفهاء وجهلاء.

أحدُهما: ما كانَ للعربِ [مِنْ][1] أفعالٍ وعاداتِ السوءِ ممّا تَخرُجُ على السَّفَهِ والقُبحِ في العَقْلِ خارجةً عنِ الحِكْمَةِ، تَنهاهُم عنْ ذلكَ.

والثاني: ذَكَرَ هذا، ونَهَى لِما عَلِمَ أنهُ قد يكونُ في خَلْقِهِ مَنْ[2] يَفعَلُ ذلكَ خَشيَةَ ما ذَكَرَ، ويَحمِلُهُمْ ذلكَ على ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي في العَقْلِ كانَ وَقتَ ما كانَ فاحشةً، لأنَّ في إباحةِ الزِّنى ذَهابُ المَعارفِ التي بها يُوصَلُ إلى الحِكْمَةِ والعِلْمِ، أو ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ في الحِكْمَةِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ﴾؟ دلَّ قولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ﴾ على أنَّ هنالكَ فَحشاءَ قَبْلَ الأمرِ في الحِكْمَةِ أو في العَقْلِ حتى قالَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ﴾ إذْ لو لم يَكُنْ لكانَ قالَ لا يَأْمُرُ، فَحَسْبُ.

وفي إباحةِ قَتْلِ الأنفُسِ ذَهابُ ما بهِ قَصْدُ إنشاءِ هذا العالَمِ. أخبَرَ ﷻ أنهُ[3] ﴿كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ وهو ما يَعظُمُ في العَقْلِ، وذَكَرَ في الزِّنى [أنهُ][4] فاحشةٌ، وهو ما يَفحُشُ في العَقْلِ والحِكْمَةِ، وذَكَرَ في قَتْلِ النفسِ الإسرافَ، وقالَ: فلا تُسْرِفْ ﴿فِّي الْقَتْلِ﴾[5] والإسرافُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ أي لا تَزْنوا فإنهُ ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ويَحتَمِلُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ الأسبابَ التي يُوصَلُ بها إلى الزِّنى.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحَقُّ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسلِمٍ إلّا في ثلاثٍ: كُفْرٌ بَعْدَ إسلامٍ أو زِنىً بَعْدَ إحصانٍ أو قَتْلُ نفسٍ بِغَيرِ حَقٍّ» [بنحوه النسائي ٤٠٥٩] حَرَّمَ اللهُ قَتْلَ النفسِ بِغَيرِ حَقٍّ، إذْ في إباحَتِهِ ذهابُ ما قُصِدَ مِنْ إنشاءِ العالَمِ، وفي التَّحريمِ حياةُ الأنفسِ، وفي إباحةِ الزِّنى ذهابُ المَعارفِ وجَهالَتُها، وفي تَحريمِها حياةُ المَعارفِ وبقاؤُها والوصولُ إلى الحِكْمَةِ والعلومِ التي يَطْلُبُ بَعضٌ مِنْ بعضٍ، إذْ لا يُعْرَفُ أهلُ الحِكْمَةِ مِنْ غَيرِهِمْ، ففي ذلكَ ذَهابُ العلومِ والحِكْمَةِ.

وفي القَتْلِ على الدينِ إذا استَبدَلَهُ حياةُ الدينِ، لأنَّ مَنْ تَفَكَّرَهُ قَتَلَ نفسَهُ إذا تَرَكَ الدينَ؛ أعني دينَ الإسلامِ، ورَجَعَ عنهُ.

[وفي الزِّنى][6] لم يَتْرُكْ دينَهُ الإسلامَ، ومَنْ تَفَكَّرَ رَجْمَهُ بالزِّنى امتَنَعَ عنِ الزِّنى، وتَرَكَهُ.

ومَنْ تَفَكَّرَ أنهُ يُقْتَلُ إذا قَتَلَ غَيرَهُ امتَنَعَ عنْ قَتْلِهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فإنْ قيلَ في المرأةِ إذا ارتَدَّتْ عنِ الإسلامِ: إنها لا تُقْتَلُ، قيلَ: لأنهُ ليسَ في قَتْلِها حياةُ الدينِ، لأنَّ النساءَ أتباعُ الرجالِ في الدينِ، لأنهنَّ يُسْلِمْنَ بإسلامِ أزواجِهِنَّ، ويَصِرْنَ ذِمَّةً بِذِمَّةِ الأزواجِ. فإذا كانَ كذلكَ فليسَ في قَتْلِهِنَّ حياةٌ. ألا تَرى أنهُ رُوِيَ أنَّ فلاناً أسْلَمَ معهُ كذا وكذا نِسْوَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحقُّ ما ذَكَرْنا. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يَحتَمِلُ بالإسلامِ أو بالذِّمَّةِ بإعطاءِ الجِزْيَةِ. [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ قيلَ: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي تَسَلُّطاً وقَهراً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي حُجَّةً على القَتْلِ في ما يَستَوجِبُ بهِ القِصاصَ. ثم ذَكَرَ أنهُ [جعلَ][8] لِوَلِيِّ القَتيلِ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ ولم يَذكُرْ أيَّ وليٍّ. فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الوَلِيِّ الذي يَخْلُفُ الميتَ في التَّرِكَةِ، وهُم الوَرَثَةُ، إذْ هو حَقٌّ كَغَيرِهِ[9] مِنَ الحقوقِ، فذلكَ إلى الوَرَثَةِ، فَعَلَى ذلكَ حَقُّ الدَّمِ، فكأنهُ قالَ: ومَنْ قَتَلَ مظلوماً فقد جَعَلْنا لِوَرَثَتِهِ سُلْطاناً أي حُجَّةً في ما يَستَوجِبُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) هذه قراءة الكسائي وهشام وحمزة وغيرهم، وقراءة الجمهور ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٢٠. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: كغير.

وفي ظاهرِ هذهِ الآيةِ دلالةٌ: أنَّ للواحدِ مِنَ الوَرَثَةِ القِيامَ باسْتيفاءِ الدَّمِ؛ إذْ لو كانَ لِلْكُلِّ الاِسْتيفاءُ لَدَخَلَ في ذلكَ الإسرافُ الذي ذَكَرَ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ إذْ لو ضَرَبَهُ كلُّ الوَرَثَةِ لصاروا[1] في ذلكَ مثلَهُ، وقد مُنِعوا عنْ ذلكَ فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ في ذلكَ دلالةٌ لِقولِ أبي حنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، حينَ[2] قالَ: إنَّ الوَرَثَةَ إذا كانَ بَعْضُهُمْ صغاراً، وبَعْضُهُمْ كِباراً، فَلِلْكِبارِ[3] أنْ يَقوموا بِالاِسْتيفاءِ دونَ أنْ يَنْظروا بلوغَ الصغارِ/ ٣٠٠ ـ ب/ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَقْتُلْ غَيرَ القاتِلِ[4]؛ وذلكَ إذ كانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ قَتْلُ غيرِ القاتِلِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ الأوَّلِ حينَ[5] قَتَلَ نفساً بِغَيرِ حقٍّ، فذلكَ إسرافٌ كما قالَ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجْهَينِ]:

أحَدُهُما[6]: أنْ يكونَ خاطَبَ بِهِ وَلِيَّ القتيلِ، فقالَ: لا تُسْرِفْ في القَتْلِ أي [لا][7] تُجاوِزِ الحَدَّ الذي جُعِلَ لهُ على ما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ][8] «إذا قَتَلْتَ فأحْسِنِ القَتْلَ» [بنحوه مسلم ١٩٥٥].

والثاني: [أنْ يكونَ][9] خاطَبَ بِهِ القاتِلَ؛ يقولُ لهُ: لا تَقْتُلْ فإنهُ إسرافٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ المَقْتولَ كانَ مَنصوراً بالوَلِيِّ بقولِهِ: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿مَنصُورًا﴾ بالمسلمينَ، أي على المُسْلِمينَ والحُكّامِ وغَيرِهِمْ دَفْعُ ذلكَ القَتْلِ عنهُ.

هذا على تأويلِ مَنْ يَتَأَوَّلُ في قولِهِ: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قَتْلِ غَيرِ القاتِلِ وَلِيُّهُ، أويَزِدْ في جِراحاتِهِ، أو يُمَثِّلْ تَمْثيلاً[10]، يقولُ: احْذَروا ذلكَ فإنَّ على المسلمينَ دفْعَ ذلكَ عنهُ، أو ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ في الآخِرَةِ.

وفي ظاهِرِ هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ القِصاصَ واجبٌ بينَ الأحرارِ والعَبيدِ وبينَ أهْلِ الإسلامِ وأهْلِ الذِّمَّةِ، لأنَّ اللهَ ﷻ قالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فكانَتْ أنْفُسُ أهْلِ الذِّمَّةِ والعَبيدِ داخِلَةً في هذهِ الآيَةِ لأنها مُحَرَّمَةٌ. وفيهِ ما ذَكَرْنا أنَّ الكبيرَ مِنَ الوَرَثَةِ يُقْتَلُ[11]، وإنْ كانَ فيهِمْ صغارٌ.

ورُوِيَ أنَّ الحَسَنَ بْنَ عليٍّ ﵄ قتلَ قاتِلَ أبيهِ فلاناً، وفي الوَرَثَةِ صِغارٌ، لم يُدْرِكوا يومئذٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ في ظاهِرِ هذا أنَّ القاتِلَ، هو كانَ مَنْصوراً، إذْ[12] لم يَقُلْ: هو مَنصورٌ؛ فجائزٌ أنْ يقولَ: كانَ مَنصوراً قَبْلَ قَتْلِ هذا، إذْ[13] كانَ على المُسْلِمينَ نَصْرُهُ، فلما قَتَلَ كانَ غَيرَ مَنْصورٍ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ الوَلِيَّ صارَ مَنْصوراً، وذلكَ جائزٌ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عنْ نَفْسِ الزِّنى، ويَحْتَمِلُ [النَّهْيَ عنْ][14] أسبابِ الزِّنى مِنْ نَحْوِ القُبْلَةِ والمَسِّ وغيرِهِ على ما ذُكِرَ [رسولُ اللهِ ﷺ][15] «العَينانِ تَزْنِيانِ، واليدانِ تَزْنِيانِ، والفَرْجُ، يُصدِّقُ ذلكَ كلَّهُ، ويُكَذِّبُهُ» [مسلم ٢٦٥٧]

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قولُهُ: ﴿أَحْسَنُ﴾ هو أفْعَلُ، فإنْ كانَ في الأشكالِ[16] فهو على غايةِ الحُسْنِ، وإنْ كانَ في الجَوهَرينِ فهو على طَلَبِ الحَسَنِ كقولِهِ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] أي اتَّبِعوا[17] ما هو طاعةٌ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا﴾ ما هو خَيرٌ لهُ وحَسَنٌ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ [النساء: ٦] يقولُ: لا تأكلوا إسرافاً وبِداراً، ولكنِ اقْرَبوا ما هو خيرٌ لهُ. وإنْ كانَ على طَلَبِ الغايَةِ مِنَ الحُسْنِ فهو ما قالَهُ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، إذا قَرَبَ مالَ اليتيمِ لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ فلا يَقْرَبُهُ إلا لِمَنْفَعَةٍ حاضِرَةٍ لليتيمِ، لا

---

(١) في الأصل وم: لصار. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قاتل. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: مثلاً.
(١١) في الأصل وم: قتله. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: إذا. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) من م، في الأصل: الإنكار. (١٧) في الأصل وم: اتبع.

يَقْرَبَ مالَهُ لِمَنْفَعَةٍ مَرْجُوَّةٍ لهُ، وإنْ لم يكُنْ فيه مَنْفَعَةٌ حاضِرَةٌ. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ وما فيهِ مِنَ الدلالةِ بِقَولِ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في ما تَقَدَّمَ في سورةِ الأنعامِ [الآية: ١٥٢].

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ لهُ، لأنَّ لهُ أنْ يَبيعَ مِنْ غَيرِهِ بِمِثْلِ قيمتِهِ. فَدَلَّ أنَّ ذِكْرَ الخَيرِ لهُ إذا كانَ يبيعُ مِنْ نَفْسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي لا تَقْرَبوا مالَ اليَتيمِ إلّا بالوجوهِ التي هي أحْسَنُ لهُ وأنْفَعُ، وهو الحِفْظُ لهُ، وطَلَبُ الرِّبحِ والنَّماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يَسْتَحكِمَ عَقْلُهُ، ويَشْتَدَّ تدبيرُهُ في مالِهِ وأمْرِهِ. فعندَ ذلكَ يكونُ الأمْرُ إليهِ. وليسَ فيهِ أنهُ لا يكونُ بعدَ ذلكَ الأمْرُ إلى الوَصِيِّ، إنْ كانَ، ولكنْ بإذْنِهِ يَبيعُ، ويَشْتري.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿بِالْعَهْدِ﴾ العُهودَ والمواثيقَ بَيْنَ الناسِ، أمَرَهُمْ[1] بِوَفاءِ العَهْدِ ما ذُكِرَ في هذهِ الآياتِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ مِنْ نَحْوِ ما قالَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى هذا المَوضِعِ، أي وأوفُوا بذلكَ كلِّهِ فإنَّ ذلكَ كلَّهُ ﴿كَانَ مَسْئُولًا﴾ يُسْألُ عنهُ: وفاءً كانَ ذلكَ أو نَقْضاً.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي ناقِضُ العَهْدِ كانَ مسؤولاً

ثم إنَّ العَهْدَ على وجوهٍ: أحدُها: عَهْدُ [الخِلْقَةِ، والثاني:][2] العَهْدُ الذي أخَذَ عليهِمْ على ألْسُنِ الرسلِ، والثالثُ[3] العَهْدُ الذي بَيْنَ الناسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أمْرَ توفيرَ الكيلِ إذا كالوا ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ والوَزْنِ إذا وَزَنوا لهمْ، وإيفاءِ حقوقِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] أنَّ عادَتَهُمْ إذا كالوا، أو وَزَنوا، يَبْخَسونَ الناسَ أشياءَهُمْ، ولم يُوفِروا حقوقَهُمْ، فَنَهاهُمْ عنْ ذلكَ، وأوعَدَهُمْ بالوعيدِ الشديدِ، وهو قولُهُ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ و٢ و٣].

ذِكْرُ تخصيصِ الكَيليِّ والوَزْنِيِّ مِنْ بينِ سائرِ الأشياءِ، يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لِما بهما تُجْرَى عامَّةُ مُعامَلَةِ الناسِ، فأمَرَهُمْ بإيفاءِ ذلكَ.

والثاني: لِخَوفِ الرِّبا لأنَّ الكَيليَّ والوَزْنِيَّ، هما اللذانِ يكونانَ دَيناً في الذِّمَّةِ، فإذا أُخِذَ شيءٌ منهما أُخِذَ عمّا كانَ دَيناً في الذِّمَّةِ؛ فإنْ نَقَصَ، أو زادَ، فيكونُ رِباً. لِذلكَ خُصَّ، وإنْ كانَ غَيرُهُ مِنَ الأشياءِ يُؤْمَرْ بالإيفاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القِسْطاسُ حَرْفٌ أُخِذَ مِنَ الكتبِ السالِفَةِ، ليسَ بِمَعْرِفَةٍ. وقالَ بعْضُهُمْ: هو العَدْلُ أي زِنوا بالعَدْلِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الميزانُ كقولِهِ: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]وقالَ بَعضُهُمْ: القِسْطاسُ القَبّانُ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأمرِ بِتَوفيرِ الكَيلِ والوَزْنِ [وإيفاءِ الحقوق][4] والنَّهْيِ عنِ البَخْسِ والنُّقْصانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ توفيرِ الكَيلِ وإيفاءِ الحقوقِ خَيرٌ في الدنيا لِما فيهِ أمْنٌ لهمْ مِنَ الناسِ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبةً في الآخرةِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ما ذَكَرَ في هذهِ مِنْ أوّلِها إلى آخِرِها إذا عَمِلوا بها خيرٌ لهمَ في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبةً.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قيلَ: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تَقُلْ، وقيلَ: لا تَرْمِ، وقيلَ: لا تَتَّبِعْ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ النَّهْيُ عنِ القَوْلِ والرَّمْيِ في ما لا عِلْمَ لهُ بهِ؛ ولا تَرْمِ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ، ولا تَقُلْ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلُّ أولئكَ؛ يعني السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ، يُسْألُ عمّا

---

(١) في الأصل وم: أمروا. (٢) في الأصل وم: خلقة أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل: وإيفاء لحقوقهم، في م: والإيفاء لحقوقهم.

عَمِلَ صاحبُهُ كقولِهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ الآية [يس: ٦٥] وقولِهِ: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ [فصلت: ٢٠] يُسألُ هؤلاءِ عمّا عَمِلَ صاحبُها، فَيَشهَدونَ عليهِ.

وقالَ بَعضُهُمْ: هو عنْ كلِّ أولئكَ كانَ مَسْؤولاً؛ أي يُسألُ المَرْءُ عمّا اسْتَعْمَلَ هذهِ الجَوارحَ؟ وفيمَ[1] اسْتَعْمَلَهَا؟

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يَعْني الخَلائِقَ جميعاً ﴿كَانَ عَنۡهُ﴾ يعني عَمّا ذَكَرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفؤادِ ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾. وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ يقولُ: لا تَقُلْ: رأيتُ، ولم تَرَ، وسَمِعْتُ، ولم تَسْمَعْ، وعَلِمْتُ، ولم تَعْلَمْ. ومنهُمْ منْ قالَ في شهادةِ الزُّورِ.

فإنِ احْتَجَّ يَحتجُّ بهذا في إبطالِ القِياسِ والاجتهادِ، فيَقولُ: إذا قاسَ الرجلُ، فقدْ قالَ ما ليسَ لهُ بهِ علمٌ.

لكنْ ليسَ كذا لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ قد تكلَّموا في الحوادثِ/ ٣٠١ - أ/ بآرائِهِمْ، وشاوَرُوا في أمورِهِمْ، وَوَلّيَ أبو بَكْرٍ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِ، الخِلافَةَ بِغَيرِ نَصٍّ مِنَ الرسولِ عليها، وجَعَلَها عُمَرُ شُورَى بَينَهُمْ، ولم يُرْوَ ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ولا نَقولُ: إنهمْ فَعَلُوا ذلكَ بِغَيرِ عِلْمٍ، ولا قالوا ما لم يَعْلَموا، فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنَّ مَعْنَى قولِ اللهِ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ ليسَ يَدْخُلُ فيهِ الاجْتِهادُ في الأحْكامِ وتشبيهُهُ الفَرْعَ الحادثَ بالأصلِ المَنْصوصِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي يَتَناهى في الثباتِ إلى حالِ الرجالِ، ويُقالُ: ثماني عشرةَ سنةً، وقالَ: أشُدُّ اليَتيمِ غيرُ أشُدِّ الرجلِ في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: ١٥] والأشُدُّ ما ذَكَرْنا مِنِ اسْتِحكامِ عَقْلِهِ وتَدْبيرِهِ إلى أنْ يأخُذَ بالنُّقْصانِ، وهو إذا جاوَزَ أربعينَ، يأخُذُ في النُّقْصانِ، وإلى أربعينَ يكونُ على الزِّيادةِ والنَّماءِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ أي ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ بأسبابِ العِلْمِ، وهو ما ذُكِرَ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ يُسألُ عنْ شُكْرِ هذهِ الأشياءِ، أو يُسألُ عمّا امْتُحِنَ بهذهِ الأشياءِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ دلالةُ جوازِ الاجْتِهادِ لأنهُ أمَرَ بإيفاءِ الكَيلِ والوَزْنِ، ولا يَقْدِرُ على ذلكَ إلا بالاجْتِهادِ الكايلُ والوزانُ لأنَّ كَيلَ الرجلِ يزيدُ على كَيلِ غيرِهِ، ويَنْقُصُ، ورُبَّما كالَ الرجلُ الشيءَ، ثم يُعيدُ كَيلَهُ هو بِنَفسِهِ، فَيَزيدُ، ويَنْقُصُ، ولا يكادُ يَسْتَوي الكَيلانِ، وإنْ كانا مِنْ رجلٍ واحدٍ. وإنما التَّكليفُ[2] الاجْتِهادُ في كَيلِهِ، وتَرْكُ التَّعمُّدِ لِلزِّيادةِ أو النُّقْصانِ. فإذا فَعَلَ ذلكَ فقد وَفَّرَ الكَيلَ، وأدّى الواجبَ. وهذا عندَنا أصلُ الاجْتِهادِ والاسْتِحْسانِ لأنَّ الكايلَ إنما يَجتَهِدُ في توفيقِهِ الحَقَّ، ولا يَعْلَمُ يَقيناً أنهُ وفَّرَ ما كانَ عليهِ مِنَ الكيلِ الذي سَمّاهُ في العَقْدِ.

فَعَلى ذلكَ الاسْتِحْسانُ؛ إنما هو اجْتِهادُ العالِمِ في اخْتِيارِ أحْسَنَ ما يَقْدِرُ عليهِ إذا لم يَكُنْ للحادثةِ أصْلٌ يَرُدُّها عليهِ، ويُثْبِتُها بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ ليسَ النَّهيَ عنِ المَشْيِ [نَفْسِهِ إنما النَّهيُ][3] لِلمَشْيِ المَرِحِ. ثم النَّهيُ عنِ الشيءِ، يوجِبُ ضِدَّهُ، وكذلكَ الأمرُ بِضِدِّهِ، وكذلكَ الأمْرُ. ثم إنَّ النَّهيَ عنِ الشيءِ، يوجِبُ الأمْرَ بِضِدِّهِ، وههنا نَهيٌ عنِ المَرَحِ، فيكونُ أمْراً بِما ذَكَرَ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَرَحًاۖ﴾ بَطَراً وأشَراً، وقيلَ: مُتَعَظِّماً مُتَكبِّراً بالخُيَلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ خَرْقَ الأرضِ وبُلوغَ الجبالِ طُولاً لأنَّ مِنَ الخَلائِقِ منْ يَخْرُقُ الأرضَ ويَدْخُلُها، ويَبْلُغُ طولَ الجبالِ، وهُمُ الملائكةُ، ثم لم يَتَكبَّروا على اللهِ، ولا تَعَظَّموا عليهِ ولا على رسولِهِ، بل خَضَعوا لهُ. فَمَنْ لم يَبْلُغْ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ ذلكَ أحْرَى أنْ يَخضَعَ لهُ، ويَتَواضَعَ، ولا يَتَكبَّرَ.

---

(١) في الأصل وم: وأنه فيم. (٢) في الأصل وم: تكليف. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِما أنهمْ كانوا يَسْعَونَ في إطفاءِ هذا الدينِ وقَهْرِ رسولِ اللهِ ﷺ فيقولُ: كما لم يَتَهَيَّأْ لكمْ خَرْقُ الأرضِ وبُلوغُ الجبالِ طولاً لم يَتَهَيَّأْ لكُمْ إطفاءُ دينِ اللهِ وقَهْرُ رسولِهِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] أو يَذْكُرَ هذا، فيقولَ[1]: إنكَ لنْ تَبْلُغَ بِكِبْرِكَ وعَظَمَتِكَ مَرْتَبَةَ الرُّؤساءِ والقادةِ ومَنزِلَتَهُمْ. على هذا التمثيلِ يَحتَمِلُ أنْ يُخرَّجَ، واللهُ أعلَمُ، أو يقولَ: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي لا تَقْدِرُ أن تَخرِقَ الأرضَ، ما فيها مِنَ الكنوزِ والمَنافِعِ، فَتَنتَفِعَ بها، ولا تَقْدِرُ أنْ تَبلُغَ الجبالَ طُولاً، فَتَنتَفِعَ بما في رؤوسِ الجبالِ مِنَ المَنافِعِ. وكيفَ تَتَكَبَّرُ، وتَمْرَحُ على غيرِكَ، وهو مِثْلُكَ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ؟

وأصْلُ الكِبْرِ أنَّ مَنْ عَرَفَ نفسَهُ على ما هي عليهِ مِنَ الأحداثِ والآفاتِ وأنواعِ الحَوائجِ لم يَتَكَبَّرْ على مِثْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي كلُّ ما أمَرَ اللهُ بهِ، ونَهى عنهُ، في هؤلاءِ الآياتِ ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بالعَقْلِ ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مَسْخوطاً. وفيهِ دلالةٌ أنَّ الأمْرَ الذي أمَرَ في هذهِ الآياتِ، ونَهاهُمْ عنهُ، لم يَكُنْ أمْرَ أدبٍ ولا نَهيَ أدبٍ، ولكنْ أمْرُ حَتْمٍ وحُكْمٍ حينَ[2] ذَكَرَ أنَّ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ إذْ لو كانَ أدباً لم يُكْرَهْ أيُّ شيءٍ مِمَّا[3] ذُكِرَ في مَكروهٍ عندَ ربِّكَ. وهو كقولِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] ويَترُكونَ غيرَهُ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي ذلكَ الذي أمَرَ اللهُ بهِ، ونَهى عنهُ في هؤلاءِ الآياتِ مِنَ الحِكْمَةِ، ليسَ مِنَ السَّفَهِ، أي ما أمَرَ فيها، هو حِكْمَةٌ، وما نَهى عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحِكْمَةُ ههنا القرآنُ لِقولِهِ[4]: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ الذي أوحَى إليكَ، هو حِكْمَةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الحِكْمَةُ الإصابَةُ، أي ذلكَ الذي ﴿أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ صَوابٌ، وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي ما ذَكَرَ في هذهِ الآياتِ، وأمَرَ بهِ، ونَهى عنهُ، مِنَ الحِكْمَةِ، والحِكْمَةُ هي وَضْعُ الشيءِ مَوضِعَهُ؛ يقولُ: حُكْمُهُ وَضْعُ كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ، لا وَضْعُ الشيءِ غَيرَ مَوضِعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَجْعَلُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ، إذْ عَصَمَهُ، واختارَهُ لِرِسالَتِهِ، لكنهُ ذَكَرَ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ لو كانَ منهُ ذلكَ لَفُعِلَ[5] بهِ ما ذَكَرَ. فَمَنْ هو دونَهُ أحَقُّ أنْ يُفْعَلَ بهِ ما ذَكَرَ، وهو ما قالَ في الملائكةِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩] إنهُ عَصَمَهُمْ حتى أخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فَمَنْ لم يكُنْ مَعصوماً لم يوصَفْ أنهُ لا يَسْبِقُ بالقولِ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ عندَ اللهِ أو عندَ نفسِكَ أو عندَ الخَلْقِ ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعَداً مَطروداً مِنْ رَحْمَتِهِ في النارِ. أو خاطَبَ بهِ رسولَهُ، وأرادَ بهِ غيرَهُ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ يُخبِرُ عنْ سَفَهِ مُشركي العَرَبِ أنهمْ نَسَبوا إلى اللهِ البناتِ والبَنونَ إلى أنفُسِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] والذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ قولُ أهلِ الكتابِ حينَ[6] وَصَفوا اللهَ بالوالدِ[7]، فرَأَوا أنَّ ما يكونُ لهُ الوَلَدُ يكونُ لهُ البناتُ، فقالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لم يَزِدْ على هذا العظيمِ ما قالوا في اللهِ، فلم يَضْرِبْ لِقولِهِمْ ذلكَ مثلاً لِما ليسَ وراءَ ذلكَ مَثَلٌ يُضرَبُ، لأنهُ ضَرَبَ مَثَلَ ما قالوا بالوَلَدِ لهُ بانفِطارِ السماءِ وانْشِقاقِ الأرضِ وخُرورِ الجبالِ حينَ[8] قالَ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ الآية [مريم: ٩٠] أخبَرَ أنَّ السمواتِ وما ذَكَرَ كادَتْ تَنقَلِبُ عنْ وَجهِها لِعَظيمِ ما قالوا في اللهِ مِنَ الوَلَدِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: فيفعل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: بالولد. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقالَ في الشريك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١] فهذا غايةُ ما ذَكَرَ مِنَ الأمثالِ لِمَنْ قالَ لهُ بالوَلَدِ والشريكِ.

فليسَ وراءَ هذا [مَثَلٌ][1] يَذْكُرُ لِمَنْ قالَ لهُ بالبناتِ، ولكنْ قالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لم يَزِدْ على ذلكَ لأنَّ الذي قالوا لهُ، ونَسَبوا إليهِ نهايةٌ في السَّفَهِ والسَّرَفِ في القولِ، تعالى اللهُ عمّا يَقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

أو يقولُ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ في عقولِكُمْ لو تَفَكَّرْتُمْ، وتَدَبَّرْتُمْ، لَعَلِمْتُمْ أنَّ ما قُلْتُمْ في اللهِ ﷻ عظيمٌ.

قالَ أبو عوسَجَة: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾ أي أَعْطاكُمْ ربُّكُمْ. يُقالُ: أصْفَيْتُهُ: أعْطَيْتُهُ، وأصفاكُمْ أي اختارَكُمْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾

قالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿صَرَّفْنَا﴾ يقولُ: بيَّنّا/ ٣٠١ ـ ب/ في هذا القرآنِ ما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسلِ مِنَ الأممِ الخاليةِ بِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ مانَزَلَ بهِمْ، فَيَنْتَهُوا عنْ تكذيبِهِمُ الرسلَ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ما بَيَّنَ لهمْ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي تكذيباً للرسلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بيَّنّا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ والآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها جميعَ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى ومالَهُمْ وما عليهِمْ لِيَعْتَبِروا، فَيُؤْمِنوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ القرآنُ إلّا تباعُداً مِنَ الإيمانِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الآية [الإسراء: ٣٩]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ مِنَ المَواعيدِ الشديدةِ أنهُ ما يَنْزِلُ بهِمْ في الآخِرَةِ مِنَ العذابِ والعقوبةِ بِصَنيعِهِمْ وتكذيبِهِمُ الرسلَ، لكنْ[2] لم يُؤْمِنوا بالآخِرَةِ، ولَمْ[3] يَزِدْهُمْ ذلكَ الوعيدُ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى قد ذَكَرَ في القرآنِ المَواعِظَ الكبيرةَ ما لو نَظَروا فيها، وتأمّلوا، لكانَتْ تَمْنَعُهُمْ، وتَزْجُرُهُمْ عن مِثْلِ صنيعِهِمْ. لكنْ لم يَنْظُروا إليهِ بالتعظيمِ، ولكنْ نَظَروا إليهِ بالاسْتِهْزاءِ والاسْتِخْفافِ بهِ. لذلكَ أُضيفَتْ زيادةُ النفورِ إليهِ، أو أضافَ ذلكَ إليهِ لمّا أحْدَثوا بنزولِهِ الكُفْرَ والتكذيبَ لهُ، فأضافَ ذلكَ إليهِ لمّا ازدادَ لَهُمُ التكذيبُ، وحَدَثَ لهمُ الكُفْرُ إذا تُرِكَ كما كانَ [لأهلِ][4] الإسلامِ يَزْدادُ لهمُ الإيمانُ واليَقينُ إذا نَزَلَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي لِيَشْرُفوا كقولِهِ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي شَرَفُكُمْ. أو ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ما نَسُوا، وتَرَكُوا، وغَفَلُوا عنهُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنزَلَهُ لِيُلْزِمَهُمُ الذِّكْرَ، أو لِيكونَ عليهِمُ [الذِّكْرُ، أو لِيأمُرَهُمْ][5] بالذِّكْرِ، وهو ماذكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] وقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] أي لِيُلْزِمَهُمُ العبادةَ والطاعةَ، أو لِيأمُرَهُمْ بالعبادةِ والطاعةِ، أو أرسَلَ، وخَلَقَ، لِمَنْ عَلِمَ منهُ العِبادةَ والطاعةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليكونَ لهمُ الذِّكْرى بذلكَ، لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُبَيِّنَ لهمْ، ويَجْعَلَ لهُمْ بياناً ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ثم لا يكونُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا ليكونَ لهمُ الذِّكْرى، وقد كانَتْ، لكنْ لم تَنْفَعْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ليسَ القرآنُ بالذي يَزيدُهُمْ نُفوراً، ولكنْ لمّا نَظَروا إليهِ بِعَيْنِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِهْزاءِ زادَ لهمْ بذلكَ نُفوراً عندَهما وتكذيباً، وإلّا القرآنُ، لا يَزيدُ إلّا هُدىً ورُشْداً على وصْفِهِ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: الآيةُ في الأصنامِ والأوثانِ التي كانوا يَعْبُدونَها، أي لو كانَتْ هي آلهةً مَعَهُ كما تقولونَ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ التَّقَرُّبَ والزُّلْفى ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: ليأمر، في م: ليأمرهم.

وقالَ بعضُهُمْ: لو كانَتْ لهمْ عقولٌ لَابتَغَتْ، وأمكَنَ لها مِنَ الطاعةِ والعِبادةِ؛ إذاً لَابتَغَتْ ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ بالطاعةِ لهُ والعبادةِ، وهو ما قالَ في الملائكةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]

لكنَّ الأشبَهَ أنْ يكونَ اللهُ تعالى ألّا يقولَ في الأصنامِ مثلَ هذا لو كانَ مَعَهُ آلهةٌ، إنما هي خَشَبٌ. لكنْ قالَ فيها ما قالَ: لا تَسْمَعُ، ولا تَعْقِلُ، ولا تُبْصِرُ، وما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] وما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ[1] مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ الآية [الحج: ٧٣] مِثْلُ هذا أنْ يُقالَ في الأصنامِ.

وأمّا ما ذَكَرَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾[2] الآية فَمَعْلومٌ[3] أنها ليسَتْ مِنْ أهلِ الإبتِغاءِ إلّا أنْ يُقالَ ما ذَكَرَ بعضُهُمْ، أي لو كانَ الأصنامُ التي تَعْبُدونَها آلهةً على ما تَزعُمونَ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ وتتّخِذونَهُمْ معبوداً.

وأمّا[4] في الثَّنَوِيَّةِ الذينَ يقولونَ بالعَدَدِ الذينَ لهمْ تدبيرٌ، أو الذينَ يقولونَ بِقِدَمِ المعالِمِ وأصولِهِ فهو يُخَرَّجُ على وُجوهٍ.

فنقولُ، واللهُ أعْلَمُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي إذنْ لأظهَرُوا دلالةَ رُبوبِيَّتِهِمْ وأُلوهِيَّتِهِمْ بإنشاءِ[5] الخلائقِ كما أظهَرَ اللهُ سُبْحانَهُ أُلوهِيَّتَهُ ورُبوبِيَّتَهُ بإنشاءِ الخَلائقِ، ولم يَظْهَرْ مِمَّنْ يَدَّعونَ لهمْ أُلوهِيَّةً إنشاءُ شيءٍ مِنْ ذلكَ. فَدَلَّ أنهُ ليسَ هنالكَ إلهٌ غَيرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [أي صاروا كَهُوَ][6] يعني اللهَ، أي في الإنشاءِ والإفناءِ والتدبيرِ، ومَنْعُوهُ عنْ إنفاذِ الأمْرِ لهُ في خَلْقِهِ والمَشيئةِ لهُ فيهمْ واتّساقِ التدبيرِ. فإنْ لم يكنْ ذلكَ منهمْ فإنهُ[7] لا إلهَ معهُ سِواهُ، ويكونُ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا﴾ تَزعُمونَ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ في القَهْرِ والغَلَبَةِ على ما عُرِفَ مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ أنهُ يَسْعَى كلٌّ منهمْ في غَلَبَةِ غيرِهِ وقَهْرِ آخَرَ، ويُناصِبُهُ [العِداءَ][8] كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] أي غَلَبَ، وقَهَرَ، وناصَبَ.

ويَحْتَمِلُ غَيرَ هذا؛ وهو أنْ يَمْنَعَ كلٌّ منهمْ أنْ يكونَ للهِ الواحدِ بالخَلْقِ دلالةُ ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وجِهَةُ الإستِدْلالِ لهُ بذلكَ. فإذا لم يَمْنَعُوا ذلكَ دلَّ أنهُ [لا][9] أُلوهيَّةَ لِسِواهُ، وهو الأوَّلُ بِعَيْنِهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: لَعَرَفُوا فَضْلَهُ ومَرْتَبَتَهُ عليهمْ، ولابتَغَوا ما يُقَرِّبُهُمْ إليهِ، وقيلَ: ولَابتَغَتِ الحَوائجُ إليهِ. وهذا هو الذي ذَكَرْناهُ بَدْءاً مِنْ طلبِ الطاعةِ لهُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نَزَّهَ نفسَهُ، وبرَّأها عمّا يقولُ المُلْحِدَةُ فيهِ، ويَصِفونَهُ[10] بالشركاءِ والأشباهِ والوَلَدِ وما لا يَليقُ بهِ. فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

الآية ٤٤ ثم قالَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ثم يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ[وجوهاً]:

أَحَدُهَا[11]: جَعْلُ اللهِ تعالى في خَلْقِهِ السمواتِ والأرضَ وما ذَكَرَهُ دلالةً على وَحْدانِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ وشهادةً[12] لهُ أنهُ واحدٌ، لا شَريكَ لهُ، ولا شَبيهَ. فإنْ كانَ على هذا يَدْخُلُ[13] فيهِ كلُّ شيءٍ ذو الروحِ وغَيرُهُ، فيكونُ قولُهُ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لِلْكَفَرَةِ[14] خاصةً. وأمّا أهلُ الإسلامِ [فإنهمْ][15] يَفْقَهونَ ذلكَ.

والثاني: جَعْلُ[16] اللهِ في سِرِّيَّةِ هذهِ الأشياءِ ما ذَكَرَ مِنَ التَّسْبيحِ والتَّنْزيهِ، لكنْ لا نَفْقَهُ نحنُ ذلكَ، ولا نَعيهِ على ما أخْبَرَ

---

(١) في الأصل وم: يدعون، وهي قراءة أبي عمرو ويعقوب والحسن وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٩٦. (٢) في الأصل وم: تقولون، وهي قراءة أبي عامر ونافع وأبي عمرو وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٢٤. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الاصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: بما أنشأ. (٦) في الأصل: إلى صاروا كهؤلاء، في م: أي صاروا كهؤلاء. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ووصفوه. (١١) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (١٢) في الأصل وم: وشاهدة. (١٣) في الأصل وم: فيدخل. (١٤) في الأصل وم: الكفرة. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ادرج قبلها في الأصل وم: أنه.

﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وهي لا تَعْرِفُ أيضاً أنَّ ذلكَ تسبيحٌ على ما جَعَلَ في الجَوارِحِ والأعضاءِ تسبيحاً وعِبادَةً لهُ، وإنْ كانَتْ هي، لا تَعْرِفُ ذلكَ أنها تُسَبِّحُ.

والثالثُ: [جَعْلُ اللهِ][1] صوتَ هذهِ الأشياءِ تسبيحاً لهُ حقيقةً على مَعْرِفةِ هذهِ الأشياءِ أنهُ تَسبيحٌ، وإنْ كانَ لا يَعْرِفُ ذلكَ إلا خواصٌّ مِنَ الناسِ، وهُمُ الأنبياءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الحِلْمُ هو ضِدُّ السَّفَهِ، وهو الحَليمُ، ليسَ بِعَجولٍ، أي لا يَعْجَلُ بالعُقوبةِ ﴿غَفُورًا﴾ إذا تابوا، أو ﴿غَفُورًا﴾ حينَ[2] سَتَرَ عليهِمْ فضائِحَهُمْ. الحِلْمُ ما ذَكَرْنا ضِدُّ السَّفَهِ، والعَجَلَةُ: ذَكَرَ ههنا على إثْرِ ما ذَكَرَ منهمْ مِنَ القولِ الوَحْشِ فيهِ والعظيمِ: أنهُ حليمٌ لِيَعْلَموا أنهُ عن حِلْمٍ، لم يَأْخُذْهُمْ بالعُقوبةِ عاجلاً، و﴿غَفُورًا﴾ لِيَعْلَموا أنهمْ، وإنْ أعْظَموا القولَ فيهِ، يَغْفِرْ لهمْ، ويَتَجاوَزْ عنهُمْ، إنْ رَجَعوا، وتابوا.

فإنْ قالَ لنا مُلْحِدٌ: إنكُمْ تَصِفونَ ربَّكُمْ بالحِلْمِ والرَّحْمَةِ ثم يقولونَ: إنهُ يُعَذِّبُ أبَدَ الآبدينَ في النارِ بكُفْرٍ كانَ [مِنْ كافرٍ][3] فأنّى تكونُ فيهِ رحمةٌ أو حِلْمٌ؟

قيلَ: إنكمْ لا تَعْرِفونَ ما الحِلْمُ؟ وما الرَّحْمَةُ؟ ولو عَرَفْتُمْ ما قُلْتُمْ ذلكَ، ولو لم يُعَذِّبْ على الكُفْرِ أبَدَ الآبِدينَ لم يكنْ حليماً، ولكنْ [يكونُ][4] سَفيهاً. وكذلكَ الرَّحْمَةُ. وليسَ خُروجُ الشيءِ على غَيرِ مُوافَقَةِ الطَّبْعِ بالذي يُخْرِجُ صاحِبَهُ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ والرَّحْمَةِ. فأنتمْ إنما تَصَوَّرْتُمُ الحِكْمَةَ والرَّحْمَةَ على مُوافَقَةِ طِباعِكُمْ وليسَ كذا.

وكذلكَ يُقالُ لِلْمُعْتَزِلةِ حينَ[5] قالوا: إنهُ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أصْلَحُ لنا في الدينِ لأنهُ جَوادٌ، فلو مَنَعَ الأصْلَحَ والأخْيَرَ لم يَكُنْ/ ٣٠٢ ـ أ/ جَواداً مَوصوفاً بالجودِ، وإنما قَدَّرْتُمْ، وقُلْتُمْ، على ما وافَقَ طِباعَكُمْ وأنْفُسَكُمْ، ولو[6] عَرَفْتُمْ حقيقةَ الجودِ ما قُلْتُمْ ذا، ولا خَطَرَ على بالِكُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ[7]. وإنما على اللهِ أنْ يَخْتارَ لِكُلٍّ ما عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ، ويُؤْثِرُ؛ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَختارَ الوَلايَةَ لِمَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ [عَداوَتَهُ، وكذلكَ لا يَجوزُ أنْ يَختارَ][8] العداوَةَ لِمَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ وَلايَتَهُ.

وليسَ على اللهِ تعالى حِفْظُ الأصْلَحِ لأحدٍ في الدينِ بل عليهِ حِفْظُ ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ والرُّبوبيَّةُ.

وفي ذِكْرِ تَسْبيحِ[9] مَنْ ذَكَرَ مِنْ جميعِ المَواتِ على إثْرِ ما ذَكَرَ مِنْ قَولِ أُولئكَ الكَفَرَةِ مِنْ وَصْفِ اللهِ تعالى بالوَلَدِ والشُّرَكاءِ [ونَحْوِهِما وُجوهٌ][10]:

أحَدُها: ذِكْرُ سَفَهِهِمْ أنهمْ مَعَ ادِّعائِهِمُ العَقْلَ والعِلْمَ والتَّمْييزَ والسُّؤْدُدَ، وصَفُوا اللهَ بالذي لا يَليقُ بهِ وما يُسْقِطُ الأُلوهِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ عنهُ على زَعْمِهِمْ. فالذينَ ليسَ لهمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ التَّمييزِ والفَهْمِ والعَقْلِ نَزَّهوهُ عنْ ذلكَ كلِّهِ، وبَرَّؤوهُ عنْ جميعِ ذلكَ.

الثاني: ذِكْرُ تَسْبيحِهِمْ [على إثْرِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنْ لا حاجَةَ إلى تَسْبيحِهِمْ][11] ولا مَنْفَعَةَ لهُ في ذلكَ، إذْ يُسَبِّحُ لهُ جميعُ الخَلائِقِ سِواهُمْ. بل مَنْفَعَةُ تَسْبيحِهِمْ تَرْجِعُ إليهِمْ.

والثالثُ: ذِكْرُ [تَسْبيحِهِمْ][12] لإثباتِ الرسالةِ للرسلِ، لأنهمْ ذَكَروا تَسْبيحَ المَواتِ، ولا يُفْهَمُ ذلكَ، ولا يُعْقَلُ إلّا بِوَحْيٍ مِنَ السماءِ. فذلكَ يَدُلُّ على الرسالةِ.

فَعَلى هذهِ الوُجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا يجوزُ ذِكْرُ تَسْبيحِ ما ذَكَرَ على إثْرِ ذِكْرِ ما ذَكَرَ.

وكذلكَ ذِكْرُ سُجودِ المَواتِ يُخَرَّجُ على هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه جعل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل وم: وقوله. (٧) من م، في الأصل: شيء (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل: من. (١٠) في الأصل وم: يخرج على. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٥ وقولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال بعضهم: إنَّ الكَفَرَةَ كانوا يَمْنَعونَ رسولَ اللهِ عنْ تبليغِ الرسالةِ إلى الناسِ وقراءةِ ما أُنْزِلَ إليهِ مِنَ القرآنِ عليهِمْ، وقد أُمِرَ بِتَبليغِ الرسالةِ، فأنزَلَ اللهُ عليهِ هذهِ الآيةَ، فأخبَرَ أنهُ جَعَلَ بينَهُ وبينَ أولئكَ حِجاباً مَستوراً، ومَكَّنَ لهُ التبليغَ إليهِمْ بالحجابِ الذي ذَكَرَ[1].

ثم اختُلِفَ في ذلكَ الحجابِ: قالَ بعضُهُمْ: شَغَلَهُمْ في أنفسِهِمْ بأمورٍ وأشغالٍ حتى بَلَّغَ إليهِم. ومنهمْ مَنْ يقولُ: ألقى في قلوبِهِمُ الرُّعْبَ والخوفَ حتى لم يَقْدِروا على مَنْعِ ذلكَ. ومنهم مَنْ يقولُ: صَيَّرَهُمْ بحيثُ كانوا لا يَرَوْنَهُ، ويَسْتَمِعونَ قِراءَتَهُ وتِلاوَتَهُ، ولم يَقْدِروا على أذاهُمْ بهِ والضَّرَرِ عليهِ، فَبَلَّغَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الحجابِ، هو حِجابُ الفَهْمِ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يَنْظُرونَ إليهِ بالاسْتِخفافِ والاستِهزاءِ بهِ، فَحُجِبوا عنْ فَهْمِ ما فيهِ، وهو كقولِهِ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ١٤٦] يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ والإسراء: ٤٦ والكهف: ٥٧].

ثم قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي طَبَعَ على قلوبِهِمْ حتى لا يؤمِنوا. ومذهَبُهُ في هذا أنهُ يقولُ: إنَّ لِلكُفْرِ حَدًّا، إذا بَلَغَ الكافِرُ ذلكَ الحدَّ طَبَعَ على قلبِهِ، فلا يؤمِنُ أبداً، واستَوجَبَ بذلكَ العُقوبةَ والإهلاكَ بالذي كانَ منهُ[2]. إلا أنَّ اللهَ بِفَضلِهِ أبقاهُمْ لِما عَلِمَ أنهُ يَلِدُ منهمْ مَنْ يُؤمِنُ، أو يُبْقيهِمْ لِمنافِعِ غيرِهِ، وإلا قدِ استَوجَبَ الإهلاكَ[3]. فيقولُ الحَسَنُ: أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لِما استَوجَبوا هُمْ بِفِعْلِهِمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: أضافَ ذلكَ إليهِ لأنهمْ أنِفوا عنِ اتِّباعِ الرُّسُلِ، وتَكَبَّروا عليهِمْ، فاستَكبَروا.

لكنْ نقولُ لهُ: الاستِكبارُ الذي ذَكَرْتَ فِعْلُهُمْ، لا فِعْلُ اللهِ، فما مَعْنى إضافةِ ذلكَ إليهِ؟ فهو خَيالٌ وفِرارٌ عمّا يَلْزَمُهُمْ في مذهبِهِمْ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: في الآيةِ إضمارٌ لِما هُمْ أضافوا ذلكَ إليهِ أنهُ هو جَعَلَ ذلكَ، وهو ما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨] ونَحْوُهُ مِنَ الخَيالِ؟ فلو جازَ صَرْفُ هذهِ الآياتِ إلى ما ذَكَروا مِنَ الخَيالِ لَجازَ صَرْفُ الكُلِّ إلى مِثْلِهِ. فهذا بعيدٌ.

ولكنْ عندَنا أنَّ إضافةَ ذلكَ إلى نفسِهِ تَدُلُّ على أنَّ لهُ فيهِ صُنْعاً وفِعْلاً، وهو أنْ يَخْذُلَهُمْ باختيارِهِمْ ما اختاروا، أو أضافَ ذلكَ إليهِ لِمَا خَلَقَ ظُلْمَةَ الكُفْرِ في قلوبِهِمْ، وهذا مَعروفٌ في الناسِ؛ أي إنَّ مَنِ اعتَقَدَ الكُفْرَ يَضيقُ صَدْرُهُ، ويَحْرُجُ قَلْبُهُ، حتى لا يُبْصِرُ غيرَهُ؛ وهو ليسَ يَعْتَقِدُ الكُفْرَ لئلا يُبْصِرُ غيرَهُ، ولا يَهْتَدي إلى غيرِهِ، لكنْ لا يُبْصِرُ غيرَهُ، فيدلُّ هذا أنهُ يَصيرُ كذلكَ لِصُنْعٍ لهُ فيهِ.

وكذلكَ مَنِ اعتَقَدَ الإيمانَ يُبْصِرُ بنورِهِ أشياءَ؛ وهو ليسَ يَعْتَقِدُ الإيمانَ لِيُبْصِرَ بنورِهِ أشياءَ غابَتْ عنهُ، دلَّ أنهُ بِغَيرِهِ أدرَكَ ذلكَ.

فكذلكَ المعروفُ في الخَلْقِ أنَّ مَنِ اعتَقَدَ عَداوةَ آخَرَ يَضيقُ صَدرُهُ بذلكَ، وكذلكَ مَنِ اعتَقَدَ وَلايةَ آخَرَ يَنْشَرِحُ صدرُهُ لهُ بأشياءَ. فهذا كلُّهُ يدلُّ أنَّ لِغَيرٍ في ذلكَ فِعْلاً، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الخِذْلانِ والتوفيقِ، أو خَلَقَ ذلكَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، فَيُدْخِلُ في ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ والإسراء: ٤٦ والكهف: ٥٧]

وأصلُهُ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الحِجابِ والغِلافِ والأكِنَّةِ إنما هو على العقوبةِ لهمْ لِعِنادِهِمْ ومكابَرَتِهِمُ الحَقَّ لأنهمْ كلما ازدادوا عِناداً وتَمَرُّداً ازدادَتْ قُلوبُهُمْ ظُلْمَةً وعَمًى، وهو ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ حينَ[4] قالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الآية [الصف: ٥] وقالَ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] وقالَ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: ثم ذكر. (٢) في الأصل وم: منهم. (٣) في الأصل وم: الهلاك. (٤) في الأصل وم: حيث.

أخبرَ أنَّ ما رانَ على قلوبِهِمْ بِكَسْبِهِمُ الذي كَسَبوا، وأزاغَ قُلوبَهُمْ بِاخْتِيارِهِمُ الزَّيغَ، وصَرَفَ قلوبَهُمْ بِاخْتِيارِهِمُ الانْصِرافَ. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الحِجابِ والأكِنَّةِ عليها بما كانَ منهمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشيطانُ، إذا ذُكِرَ اللهُ، وَلَّى عنهُ، وأعرضَ، وفرَّ منهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت: ٣٦] وقالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [هُمُ][1] الإنسُ، أي وَلَّوا عمّا دَعَوهُمْ إليهِ، وأقبَلوا نَحْوَ أصنامِهِمُ التي عَبَدوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ يَحْتَمِلُ: [وإذا ذَكَرْتَ وحدانيَّةَ ربِّكَ والوهيَّتَهُ وربوبيَّتَهُ][2] وإذا ذَكَرْتَ دلالةَ رسالَتِكَ أو دلالةَ البَعْثِ؛ يَحْتَمِلُ ذِكْرَ هذهِ الأشياءِ الثلاثةِ لأنهمْ كانوا مُنْكِرينَ لهذهِ الأشياءِ، فعندَ ذلكَ ذَكَرَها.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ يَحْتَمِلُ الهَرَبَ والإعراضَ، ويَحْتَمِلُ الكِنايَةَ عنِ الإنكارِ والتكذيبِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ كأنهمْ يَسْتَمِعونَ إلى القرآنِ إمّا لِما يَسْتَحْلُونَ نَظْمَهُ وَوَصْفَهُ، أو يَسْتَمِعونَ إليهِ لِما فيهِ مِنَ الأنباءِ العجيبَةِ، أو يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيَجِدوا مَوضِعَ الطَّعْنِ فيهِ.

فإنْ كانَ اسْتِماعُهُمْ لِلْوَجْهَيْنِ الأوَّلَيْنِ فإذا [هو][4] مَوضِعُ الخِلافِ والتنازُعِ، وهو ما يَذْكُرُ فيهِ مِنْ دلالةِ الوحدانيةِ ودلالةِ الرسالةِ ودلالةِ البَعْثِ. عندَ ذلكَ كانوا يُوَلُّونَ الأدبارَ نافِرينَ لإنكارِهِمْ.

وإنْ كانَ الاسْتِماعُ لِطَلَبِ الطَّعْنِ فهو مُحْتَمَلٌ أيضاً.

واخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ قيلَ: كانوا يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيُكَذِّبوا عليهِ كقولِهِ: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦و٣٧] كانوا يُسْرِعونَ إلى اسْتِماعِ ما يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ لِيُكَذِّبوا عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانوا يَسْتَمِعونَ إليهِ لِيَجِدوا موضِعَ الطَّعْنِ فيهِ. و قالَ بعضُهُمْ: اسْتَمَعوا إليهِ لِيُرُوا الضَّعَفَةَ والأتباعَ أنهمْ إنما كانوا يَطْعَنونَ فيهِ بَعْدَ ما اسْتَمَعوا إليهِ، وعَرَفوهُ عندَهُمْ أنَّ الطَّعْنَ كانَ في مَوضِعِ الطَّعْنِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ قيلَ: أي يَتَناجَونَ في ما بينَهُمْ: أنهُ مَسْحورٌ، وأنهُ مَجْنونٌ، وأنهُ كاهنٌ. ثم أخبرَ اللهُ نبيَّهُ ما أسَرُّوا فيهِ، وتَناجَوا بينَهُمْ، لِيَدُلَّهُمْ على رسالَتِهِ، وأنهُ إنما عَرَفَ باللهِ، وسَمّاهُمْ ظالِمينَ لمّا عَلِموا أنهُ ليسَ بِمَجْنونٍ ولا مَسْحورٍ، ولكنْ قالوا ذلكَ لهُ، ونَسَبوهُ إلى ما نَسَبوهُ مِنَ السِّحْرِ والجُنونِ على عِلْمٍ منهُمْ / ٣٠٢ ـ ب/ أنهُ ليسَ كذلكَ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ بالمَجانينِ والسَّحَرَةِ والكَهَنَةِ ﴿فَضَلُّوا﴾ وضَرَبوا لكَ الأسبابَ التي تَزْجُرُ الناسَ، وتَمْنَعُهُمْ عنِ الاقْتِداءِ بكَ ممّا وصَفوا لهُ، ونَسَبوا إليهِ مِنَ السِّحْرِ والجُنونِ والكهانَةِ. فذلكَ كانَ يَمْنَعُهُمْ عنْ إجابَةِ ما أرادَ إجابَتَهُ والاقْتِداءَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْتَطيعونَ إلى ما قَصَدوا مِنْ مَنْعِ الناسِ عنكَ وصَدِّهِمْ سَبيلاً. و قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْتَطيعونَ إلى المَكْرِ بهِ والكَيْدِ لهُ سَبيلاً لأنهمْ قَصَدوا بهِ ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: [لا يَسْتَطيعونَ][5] إلى ما نَسَبوهُ إليهِ سَبيلاً.

وقالَ الحَسَنُ: لا يَجِدونَ إلى الهُدى والإيمانِ سَبيلاً لِما طَبَعَ على قُلوبِهِمْ، وجَعَلَها في أكِنَّةٍ وغُلُفٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إلى الاحْتِجاجِ على الحُجَجِ والدّلالاتِ التي أقامَها رسولُ اللهِ ﷺ على التَّوحيدِ والرسالةِ والبَعْثِ ﴿سَبِيلًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي إذا كُنّا عِظاماً باليَةً ناخِرَةً ﴿وَرُفَٰتًا﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

قيلَ: تراباً، وقيلَ: غُباراً. وقيلَ: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ أي باليةً حتى إذا فُتّتَتْ تكسّرَتْ، وذَهَبَتْ، كقولِهِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾[1] ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١و١٢] أي غيرَ كائنةٍ.

قالوا ذلكَ كلَّهُ إنكاراً لِلْبَعْثِ واسْتِهْزاءً بهِ: إنهمْ يُبْعَثونَ، ويُجْزَونَ بأعمالِهِمْ. وهذا كأنهمْ قالوا ذلكَ على التَّعَجُّبِ والإِسْتِبْعادِ عنْ كونِ ذلكَ والإِسْتِهْزاءِ بذلكَ. والجَهْلُ بهِ هو الذي حَمَلَهُمْ على التَّعَجُّبِ والإِسْتِهْزاءِ بما ذَكَرَ.

أنكَرَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ قدرةَ اللهِ على البَعْثِ كما أنكَرَ المُعْتَزِلَةُ قُدرَتَهُ على خَلْقِ أفعالِ العبادِ، وليسَ لهمُ الاحْتِجاجُ على أولئكَ الكَفَرَةِ بالإنشاءِ[2] الأوّلِ؛ لأنَّ لهمْ أنْ يقولوا: إنكُمْ تُقِرّونَ بالقُدرَةِ على الخَلْقِ[3] الأوّلِ وتُنكِرونَ خَلْقَ أفعالِهِمْ، وليسَ لكُمُ الاحْتِجاجُ.

الآيتان ٥٠ و٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أي لو كُنتُمْ حِجارَةً أو حَديداً يُميتُكُمْ[4]. لكنَّ هذا بعيدٌ، لأنهُمْ لم يكونوا يُنكِرونَ المَوتَ؛ إذْ كانوا يُشاهِدونَ المَوتَ، فلا يَحْتَمِلُ الإنكارَ. ولكنْ كانوا يُنكِرونَ البَعْثَ بَعْدَ الموتِ وبَعْدَ ما صاروا تراباً ورُفاتاً، إلّا أنْ يُقالَ: إنكُمْ لو كُنتُمْ بحيثُ لا تُبْعَثونَ، ولا تُجْزَونَ بأعمالِكُمْ لَكُنتُمْ حِجارةً أو حديداً لم تكونوا بَشَراً، لأنَّ الحِجارَةَ والحديدَ ونَحْوَ ذلكَ غيرُ مُمْتَحَنٍ ولا مأمورٍ بِشيءٍ ولا مَنْهِيٍّ عن شيءٍ.

وأمّا البَشَرُ فإنهمْ لم يُنْشَؤوا إلّا لِلامْتِحانِ بأنواعِ المِحَنِ والأمْرِ والنَّهْيِ والحِلِّ والحُرْمَةِ. فلا بُدَّ مِنَ الامْتِحانِ. فإذا امْتُحِنوا بأشياءَ لا بُدَّ مِنَ البَعْثِ لِلْجَزاءِ والعقابِ. فإذا لم تكونوا ما ذَكَرَ، ولكنْ كُنتُمْ، فاعْلَموا أنكُمْ تُبْعَثونَ، وتُجْزَونَ بأعمالِكُمْ.

على هذا يَحْتَمِلُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُهُمْ لا إلى ما قالوا. وإلّا ظاهِرُ ما قالوا، وتأوّلوا لا يَحْتَمِلُ لِما لا أحَدَ أنكَرَ الموتَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي لو كُنتُمْ ما ذَكَرَ حِجارَةً أو حديداً أو أشَدَّ ما يكونُ مِنَ الخَلْقِ لَقَدَرَ أنْ يُنْشِئَكُمْ بَشَراً مِنْ ذلكَ. فكيفَ إذا كُنتُمْ بَشَراً في الابْتِداءِ؟ [إنه قادرٌ][5] أنْ يُعيدَكُمْ بَشَراً على ما كُنتُمْ كما أنشَأكُمْ في الابْتِداءِ منْ ماءٍ وترابٍ، وليسَ في ذلكَ الماءِ والترابِ منْ آثارِ البَشَرِ مِنَ العِظامِ واللحومِ والعَصَبِ والجِلْدِ وغيرِها.

فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذا قَدَرَ على إنشاءِ البَشَرِ بَعْدَ المَوتِ وبَعْدَ ما صارَ تُراباً ورُفاتاً. على هذا يجوزُ أنْ يُتأوَّلَ.

ووجهٌ آخرُ [هو][6] أنْ يُقالَ: ظَنَنْتُمْ[7] أنْ لو كُنتُمْ حِجارَةً أو حديداً أو ماذَكَرَ لَبَعَثَكُمْ، فكيفَ تَظُنّونَ أنهُ لا يَبْعَثُكُمْ إذا كُنتُمْ تراباً ورُفاتاً أو كلاماً[8] نَحْوَهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ذَكَروا هذا وكلَّ ما يَكْبُرُ في صدورِهِمْ[9] على ما ذَكَرَ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ اسْتِهْزاءً منهمْ بهِ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إنهمْ قالوا ما قالوا اسْتِهْزاءً بهِ وسُخْرِيَةً؛ فقد أمَرَ اللهُ تعالى أولياءَهُ والمؤمنينَ أنْ يُحاجُّوهُمْ مُحاجَّةَ العُقَلاءِ والحُكَماءِ معَ الحُجَجِ والبَراهينِ، وإنْ كانوا قالوا ما قالوا سَفَهاً واسْتِهْزاءً.

وعلى ذلكَ عامَلَهُمُ اللهُ، وإنْ كانوا سُفَهاءَ في قولِهِمْ مُسْتَهْزِئينَ، وكذلكَ أمَرَ رسلَهُ أنْ يُعامِلوا قومَهُمْ أحْسَنَ المُعامَلَةِ لهؤلاءِ حينَ[10] قالَ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقالَ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وإنما ذَكَرَ اللهُ هذهِ الآياتِ لِنُحاجَّ بما هؤلاءِ [حاجَّ][11] ونَعْلَمَ أنْ كيفَ المُعامَلَةُ لهؤلاءِ؟ إذْ قد أقامَ اللهُ تعالى مِنَ الآياتِ والحُجَجِ على بَعْثِهِمْ وإحيائِهِمْ حُجَجاً كافيةً ما لم يُحْتَجْ إلى مِثْلِ هذا. لكنهُ ذَكَرَ هذا لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: ناخرة وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم وغيرهم، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/٥٦. (٢) في الأصل وم: بإنشاء. (٣) في الأصل وم: خلق. (٤) في الأصل وم: فيميتكم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ظنوا. (٨) في الأصل وم: كلام. (٩) من م، في الأصل: صدوركم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وكانَ الذي حَمَلَهُمْ على إنكارِ ذلكَ وجهَين[1] مِنَ الاعتبارِ:

أحدُهما[2]: أنهمْ لم يَرَوا مِنَ الحِكْمَةِ إماتَتَهُمْ ثم الإحياءَ على مِثْلِ ذلكَ؛ إذْ لو كانَ[3] يُحْيِيهِمْ ثانياً لكانَ لا يُميتُهُمْ كَنَقْضِ البناءِ على قَصْدِ بناءِ مِثْلِهِ.

والثاني: لِما رَأَوا أقواماً قد ماتوا مُنْذُ [أمَدٍ][4] طويلٍ، ثم لم يُبْعَثوا.

فَيُقالُ لهمْ: إنهُ قد تأخَّرَ كونُكُمْ وإنشاؤُكُمْ، ثم لم يَدُلَّ تأخُّرُكُمْ على أنكُمْ لا تكونونَ. فَعَلَى ذلكَ لا يدلُّ تأخُّرُ البَعْثِ على أنهُ لا يكونُ.

وأمّا جوابُ الأوَّلِ فإنهُ يُقالُ لهمْ: إنكمْ تُقِرّونَ أنهُ أنشأكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ، وأنهُ يُميتُكُمْ، فليسَ مِنَ الحِكْمَةِ الإنشاءُ[5] ثم الإماتةُ لأنهُ يكونُ كَمَنْ بَنَى بناءً لِلنَّقْضِ والإفناءِ. فإذا كانَ حِكْمَةً كانَ الثاني: أيضاً حِكْمَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي يُعيدُكُمُ الذي خلقَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تكونوا شيئاً على ما ذَكَرْنا. وإعادةُ الشيءِ [بِمَعْرِفَةِ ابْتِدائِهِ][6] إنما يَتَكَلَّفونَ تَعَلُّمَ ابْتِداءِ الصناعاتِ ومَعْرِفَتَها، ثم يَعْرِفونَ [الإعادة بِمَعْرِفَةِ الابْتِداءِ. فَدَلَّ أنها][7] أهْوَنُ وأيْسَرُ، وهي[8] ما قالَ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي في عقولِكُمْ ذلكَ أهْوَنُ وأيْسَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يُحرِّكونَ رؤوسَهُمُ اسْتِهْزاءً بِهِ وهُزُواً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ على الاسْتِهْزاءِ أيضاً، أي لا يكونُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ قالَ: قالوا ذلكَ جَهْلاً بِهِ وإنكاراً، وإلّا لو عَلِموا أنهُ كائنٌ، لا مَحالَةَ، لكانوا لا يقولونَ ذلكَ، بل يَخافونَ كما خافَ الذينَ آمَنوا بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وعَسَى مِنَ اللهِ واجِبٌ، أي يكونُ، لا مَحالَةَ.

وقولُهُ: ﴿قَرِيبًا﴾ أي كائناً. القريبُ يُقالُ على الكونِ أي كائناً، ويُقالُ على القريبِ والبَعيدِ. كذلكَ يُقالُ على الإنكارِ رأساً، ويُقالُ على الاسْتِبْعادِ كقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦و٧] أي هُمْ لا يَرَونَهُ كائناً، ونَراهُ نحنُ كائناً كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨] كانوا يَسْتَعْجِلونَ بها لِما لم يكونوا يَرَونَهُ كائناً، والمؤمنونَ يَرَونَهُ كائناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ هذا الدعاءُ والإجابةُ دُعاءَ الخِلْقَةِ وإجابَةَ الخِلْقَةِ لِما كانَتْ خِلْقَتُهُمْ، تُعَظِّمُ رَبَّهُمْ، وتَحْمَدُ في كلِّ وقتٍ، وتُثْني، على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ.

ويَحْتَمِلُ دُعاءَ القَولِ وإجابَةَ القَولِ والعَمَلِ لمّا كانوا عايَنوا قُدْرَتَهُ وعَظَمَتَهُ أجابوا لهُ بِحَمْدِهِ وثَنائِهِ كقولِهِ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] ونَحْوِهِ.

أو أنْ يكونَ قولُهُ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يومَ القِيامةِ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] وقولِهِ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣]

أخْبَرَ أنهمْ يُجيبونَ داعِيَهُمْ يومَئذٍ، ويُثْنونَ على اللهِ، ويَحْمَدونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالَ الحَسَنُ قولُهُ: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي وتَعلَمونَ، وتَتَيَقَّنونَ أنكُمْ ما لَبِثْتُمْ في الدنيا إلّا قليلاً. وكذلكَ قالَ قَتادَةُ: أي يَسْتَحْقِرونَ الدنيا، ويَسْتَصْغِرونَها لمّا عايَنوا القِيامَةَ وأهوالَها.

ثم مَنْ أنكَرَ عذابَ القَبْرِ احْتَجَّ بِظاهِرِ هذهِ الآيةِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقالَ[10] ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ [المؤمنون: ١١٣].

(١) في الأصل وم: وجوه. (٢) في الأصل وم: أحدها. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إنشاء. (٦) في الأصل وم: ومعرفته. (٧) في الأصل وم: إعادة بمعرفة ابتدائه فدل أنه. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وقوله.

ومِثْلُهُ قالوا في العذابِ والشِّدَّةِ، لم يكونوا يَسْتَقْصِرونَ، ويَسْتَصْغِرونَ المُقامَ فيهِ؛ إذ كلُّ مَنْ كانَ في عَذابٍ وبَلاءٍ وشِدَّةٍ يَسْتَعْظِمُ ذلكَ، ويَسْتَكْثِرُهُ[١]، ولا يَنْساهُ أبداً.

هذا المَعْروفُ /٣٠٣-أ/ عندَ الناسِ. فإذَنْ هُمُ اسْتَقَلّوا ذلكَ، واسْتَقْصَروهُ، حتى ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣] وقالَ[٢]: ﴿قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢ والمؤمنون: ١١٤] وقالَ[٣]: ﴿يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

دلَّ ذلكَ أنهمْ لم يكونوا في عَذابٍ وبَلاءٍ. ويَتَأوَّلونَ قولَهُ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] على التقديمِ والتأخيرِ، يقولونَ: تأويلُهُ: ويومَ القيامةِ أَدْخِلوا آلَ فِرْعونَ أشدَّ العذابِ النارَ يُعْرَضونَ عليها غُدُوّاً وعَشِياً، ليسَ على ألّا يكونَ لهمْ عذابٌ في ما بينَ ذلكَ، ولكنْ على ما في الجنةِ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

ومَنْ يقولُ بالعذابِ في القَبْرِ: قولُهُ: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا، أو يقولُ[٤]: ذلكَ في وَقْتٍ، وهو ما بينَ النَّفْخَتَيْنِ. كذلكَ يقولونَ: إنهُ يُرْفَعُ عنهُمُ العذابُ ما بينَ النَّفْخَةِ الأُولَى والثانيةِ. وهذا احْتِيالٌ.

ويُقالُ أيضاً: ليسَ في اسْتِقْلالِهِمُ المُقامَ والاسْتِقْصارِ ما يَدُلُّ على أنْ لم يَكُنْ لهمْ عذابٌ في القَبْرِ لأنَّ العُرْفَ في الناسِ أنهمْ كانوا في بَلاءٍ وشِدَّةٍ ونَوعٍ مِنَ المَرَضِ، ثم نَزَلَ بهمْ ما هو أشدُّ مِنْ ذلكَ وأعْظَمُ، فاسْتَصْغَروا ما كانوا هُمْ فيهِ، ونَسُوا ذلكَ.

ألا تَرَى أنهمْ إذا عايَنوا الجنةَ ونَعيمَها نَسُوا ما كانَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ في الدنيا؟ ولا شَكَّ أنهُ قد كانَ لهمْ نعيمٌ في الدنيا. فَعَلَى ذلكَ العذابُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: ٤٩] قالَ: رُفاتاً مُتَكَسِّرَةً، وفَتَّتُهُ، أي كَسَّرْتُهُ. وقالَ القُتَبيُّ في: ﴿أَكِنَّةً﴾ [الإسراء: ٤٦] جَمْعُ كِنانٍ، مِثْلُ غِطاءٍ وأغْطِيَةٍ ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي مُتَناجونَ، يُسارُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً: أنهُ مَجنونٌ وأنهُ ساحِرٌ كاهِنٌ، وأساطيرُ الأوَّلِينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ نَجْواهُمْ ما ذُكِرَ في سورةِ الأنبياءِ حينَ قالوا: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ الآيةَ [الآية: ٣] فذلكَ قولُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ [الإسراء: ٤٧] أي ما تَتَّبِعونَ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أي قد سُحِرَ بهِ، وقد يَتَناقَضُ قولُهُمْ. وقد ذَكَرْنا وَجْهَ تَناقُضِ قولِهِمْ[٥] في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الوجوهَ الثلاثةَ:

أحدُها: الدَّعْوةُ كقولِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فالتأنيثُ لِلدَّعْوةِ، كأنهُ قالَ: ادْعُوا لهمُ الدعوةَ التي على إضمارِ الدَّعْوَةِ، وجائزٌ على إضمارِ الحَسَنَةِ، أي قُلْ لهمْ أن يقولوا لهمُ الحَسَنَةَ، هي أحْسَنُ، أو على إضمارِ الأقوالِ التي هي أحْسَنُ الأقوالِ، وإلّا فَظاهِرُهُ أنْ يقولَ: قولوا[٦] الذي هو أحْسَنُ.

والثاني: على إضمارِ المُجادَلَةِ والمُناظَرَةِ مَعَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] أمَرَ رسولَهُ أنْ يُجادِلَهُمْ أحْسَنَ المُجادَلَةِ والمُحاجَّةِ مَعَهُمْ.

والثالثُ: في حُسْنِ المُعامَلَةِ مَعَهُمْ والعَفْوِ والصَّفحِ عمّا كانَ منهمْ إلى المُسْلِمينَ مِنْ أنواعِ الأذى، فأمَرَهُمْ أنْ يُحْسِنوا مُعامَلَتَهُمْ، ويَصْفَحوا عنهمْ [كقولِهِ][٧] ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وكقولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وكقولِهِ[٨] ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٣٤] ونَحْوَهُ مِنَ الآياتِ أمَرَهُمْ أنْ يُعامِلوا أولئكَ أحْسَنَ المُعامَلَةِ، ولا يُكافِئوهُمْ بِسوءِ صَنيعِهِمْ، ولكنْ يَعْفونَ عنهُمْ، ويَصْفَحونَ لِما لَعَلَّهُمْ يكونونَ أولياءَ و ﴿حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] على ما أخْبَرَ، ويَصيرونَ إخْواناً لهمْ مِنْ بَعْدِ هذا في حَقٍّ وأمّا مِنْ جِهَةِ الحِكْمَةِ، وهي[٩] أنَّ اللهَ تعالى أنْشَأ

---

(١) في الأصل وم: ويستكثر. (٢) في الأصل وم: وقالوا. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: يقولون. (٥) في الأصل وم: يقولوا.
(٦) في الأصل وم: يقولوا. (٧) ساقطة من الأصل وم: (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) في الأصل وم: وهو.

هذا اللسانَ، وجَعَلَهُ تَرْجُماناً بينَ الخَلْقِ، بهِ يَفْهَمُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وبهِ تُقْضَى حَوائجُ[١] بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ، وبهِ قِوامُ مَعاشِهِمْ ومُعامَلَتِهِمْ[٢]، وبهِ بَعْثُ الرسلِ والكتبِ جميعاً، فإذا كانَ كذلكَ فالواجبُ ألّا يُسْتَعْمَلَ إلّا في الخَيْرِ والحِكْمَةِ، ولا يُنْطَقَ بهِ إلا ما هو أحْسَنُ وأصْوَبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي يَفْسُدُ بينَهُمْ، ويُوَسْوِسُ إليهِمْ، ويُعَدّي بعضَهُمْ على بَعْضٍ لِيُفْسِدَ بينَهُمْ، وذلكَ دأبُهُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي كانَ الشيطانُ منذُ كانَ للإنسانِ عَدُوّاً مُظهِراً[٣] عداوَتَهُ ﴿مُّبِينًا﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الشيطانَ بحيثُ يُوَسْوِسُ إليهِمْ، ويَدْعوهُمْ إلى أشياءَ يَظُنّونَ أنَّ ذلكَ خَيرٌ لهمْ، وأبداً يُلْقي إليهِمْ ما يَقَعُ لهمْ، ويُحَبِّبُ إلى كُلٍّ مَذْهباً، يَقَعُ عندَهُ أنه[٤] الحَقُّ فَيَقْصِدُ بذلكَ الإفسادَ وإلقاءَ العداوَةِ بينَهُمْ. أبداً هذا دَأبُهُ وشأنُهُ؛ يُجْبِرُ كُلّاً إلى جِهَةٍ، ويُرِي كُلَّ أحدٍ جِهَةً غَيرَ الجِهَةِ التي أرَى الآخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ بمصالِحِكُمْ ومفاسِدِكُمْ[٥] [وما يَصْلُحُ لكُمْ في الدنيا والآخِرَةِ.

والثاني: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ بما][٦] تُسِرُّونَ وما تُعْلِنونَ [وما تَعْلَمونَ وتَفْعَلونَ، وإلّا فلا شَكَّ أنهُ أعْلَمُ بنا مِنّا وقولُهُ ﷻ ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ [اختُلِفَ فيهِ بوجهَينِ:

أحدُهُما:][٧] قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فَيَحْمِيكُمْ مِنْ أذى هؤلاءِ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ فَيُسَلِّطُهُمْ عليكُمْ.

والثاني: [و قالَ بعضُهُمْ:][٨] ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فَيَهْدِكُمْ إلى دينِهِ، ويُوَفِّقُكُمْ لِسَبيلِهِ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ يَتْرُكُكُمْ، ويَخْذُلُكُمْ، ولا يَهْدِكُمْ إلى سَبيلِهِ، ولا يُوَفِّقُكُمْ لدينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الرَّحْمَةُ في الدنيا والآخِرَةِ. أمّا في الدنيا فهو[٩] أنْ يُوَفِّقَهُمْ على الطاعةِ، ويُعينَهُمْ على ذلكَ. وفي الآخِرَةِ يُنْجيهِمْ، ويُدْخِلُهُمُ الجنةَ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾][١٠] في الدنيا، هو أنْ يَخْذُلَهُمْ، ويَتْرُكَهُمْ، على ما يَخْتارونَ، وفي الآخِرَةِ يُعَذِّبُهُمْ في النارِ بالذي اختاروا في الدنيا.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لم نَجْعَلْكَ حفيظاً على ردِّهِمْ وإجابَتِهِمْ وعلى صَنيعِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ثقيلاً بأعمالِهِمْ، أي لا تُؤاخَذُ أنتَ بِصَنيعِهِمْ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ﴾ [النور: ٥٤]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي مُسَلَّطاً عليهِمْ وقاهراً لهمْ.

الآية ٥٥ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ أعْلَمُ بِمَصالِحِهِمْ ومَفاسِدِهِمْ وما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ]][١١].

ويَحْتَمِلُ غَيرَ هذا جواباً لقولِهِ[١٢]: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

يقولُ، واللهُ أعلَمُ؛ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي أعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِلنُّبُوَّةِ والرسالةِ وبِمَنْ لا يَصْلُحُ، ومَنْ هو أهْلٌ لها، أو يقولُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ، أنْشأهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ، أو ﴿أَعْلَمُ﴾ بِهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الحوائج. (٢) في الأصل وم: ومعادهم. (٣) في الأصل وم: ظاهرا. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) من م، في الأصل: وما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من م. (٨) ساقطة من م. (٩) الفاء ساقطة من م. (١٠) في م: وأما التعذيب. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: لقولهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مثلُ هذا لا يكونُ إلّا في نازلةٍ. لكنهُ لم يذكُرِ النازلةَ التي عندها نزلَتْ. ثم اختُلِفَ في ما ذَكَرَ مِنْ تفضيلِ بعضِهِمْ على بَعْضٍ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنهُ أعطَى كلّاً[1] شيئاً، لم يُعْطِ غيرَهُ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ أنهُ كَلَّمَ موسى، واتَّخَذَ إبراهيمَ خليلاً، وأعطَى عيسى إحياءَ المَوتى وإبراءَ الأكْمَهِ والأبْرَصِ، وهو روحٌ منهُ، وكَلِمَتُهُ، وأعطَى سُلَيمانَ مُلْكاً، لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وأعطَى داوودَ زَبوراً، وأعطَى سَيِّدَنا محمداً أنْ بَعَثَهُ إلى الناسِ كافَّةً، وغَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِهِ وما تأخَّرَ، ومَثَلَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: فَضَّلَ بَعْضاً على بَعْضٍ في الدرجةِ والمَنْزِلةِ والقَدْرِ عندَهُ.

فالأوَّلُ يكونُ التَّفْضيلُ في الآياتِ والحُجَجِ، والثاني: في أنْفُسِهِمْ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ؛ ويَحْتَمِلُ ماذَكَرَ مِنْ تَفْضيلِ بَعْضٍ على بَعْضٍ في الآياتِ والحُجَجِ، ويَحْتَمِلُ في كَثْرَةِ الأتباعِ يُفَضِّلُ بعضَهُمْ على بَعْضٍ بكَثْرَةِ الأتباعِ.

والثالثُ: يُفَضِّلُ بعضَهُمْ على بَعْضٍ في القِيامِ بِشُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِ وبِصَبْرِ ما ابْتَلاهُ بهِ.

وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ لا يكونُ لأحدٍ فَضيلَةٌ عندَ اللهِ إلّا باسْتِحْقاقٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ جميعُ كُتُبِ اللهِ زبورٌ، لأنَّ الزَّبورَ هو الكتابُ. وقد ذَكَرْنا أنّا لا نَدْري لأيَّةِ نازلةٍ ذَكَرَ هذا، ولا يُحْتَمَلُ ذِكْرُ مِثْلِهِ على الابْتِداءِ والائتِنافِ، لكنَّ فيهِ أنَّ التفضيلَ والمنزلةَ إنما يكونُ مِنْ عندِ اللهِ، ومِنْ عندِهِ يُسْتَفادُ، لا بِتَدبيرٍ مِنْ أنفسِهِمْ واسْتِحْقاقٍ حينَ[2] قالَ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] لئلا يَرَى أحدٌ الفَضْلَ والمَنْزِلَةَ لِنَفْسِهِ بأسبابٍ منهُ، ولكنْ مِنْ عندِ اللهِ.

وقالَ الأصَمُّ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يقولُ[3]: يُخاطِبُ بهِ أهلَ الكتابِ: أنَّ أوائِلَكُمْ كانوا يَرَونَ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ فَضْلاً في الدنياويَّةِ، ثم إنَّ أولئكَ المُفَضَّلينَ كانوا يَتَّبِعونَ الرُّسُلَ لِما رَأَوا لهمْ مِنَ الفَضْلِ والخصوصِيَّةِ، فما بالُكُمْ يا أهلَ مكةَ لا تَتَّبِعونَ محمداً [وأنْتُمْ تَرَونَ لهُ][4] فضائلَ وخُصوصِيَّةً ما لا تَرَونَ ذلكَ لأنفُسِكُمْ ولا لأحَدٍ سواهُ، أو كلاماً[5] نَحْوَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ وفي سورةِ سَبَإٍ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية [الآية: ٢٢] فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ عندما نَزَلَ البَلايا والشدائدُ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، فأُمِرُوا عندَ ذلكَ أنْ يَطْلُبوا كَشْفَ ذلكَ/ ٣٠٣ ـ ب/ عنهُمْ مِنَ الذينَ يَعْبدونَ دونَهُ، فيقولُ لهمْ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنها آلهةٌ دونَهُ، يَكْشِفونَ عنكُمْ ما نَزَلَ بكُمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ لا على نازِلَةٍ، ولكنْ على تَبْيينِ سَفَهِ أولئكَ حينَ[6] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأنَّ عبادَتَهُمْ إياها لا تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى كقولِهِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] أخْبَرَ أنهمْ لا يَمْلِكونَ ما[7] يَطْمَعونَ بِعبادَتِهِمْ إياها.

أو أنْ يَذْكُرَ هذا لِقَطْعِ ما يَرْجونَ مِنْ دونِ اللهِ مِنْ كَشْفِ ضُرٍّ عنهمْ ودَفْعِهِ أو جَرِّ نَفعٍ إليهِمْ وسَوقِ خيرٍ على ما أخْبَرَ أنهُ، لا يَمْلِكُ أحدٌ سِواهُ كقولِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ﴾ الآية [فاطر: ٢] وقولِهِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ١٧] أخْبَرَ أنهُ لو فَتَحَ هو رَحْمَةً لا يَمْلِكُ أحدٌ دونَهُ إمساكَهُ، ولو أمْسَكَ هو لا يَمْلِكُ أحدٌ إرسالَهُ دونَهُ، ولو مَسَّ [الإنسانَ][8] ضُرٌّ لا يَمْلِكُ أحدٌ كَشْفَهُ، وإنْ أرادَ خيراً لا يَمْلِكُ أحدٌ دفعَهُ وردَّهُ.

---

(١) من م، في الأصل: كلّ. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بقوله. (٤) في الأصل وم: وقد ترون. (٥) في الأصل وم: وكلام. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: ولا. (٨) ساقطة من الأصل وم.

هذا تذكيرٌ، واللهُ أعلَمُ لِلْمُسْلِمينَ لئلا يَرْجُوا أحداً مِنَ الخَلائقِ دونَ اللهِ، ولا يَخافوا أحَداً سِواهُ.

ثم صَرَفَ أهلُ التأويلِ تأويلَ الآيةِ إلى الملائكةِ. لكنَّ الآيةَ تَحْتَمِلُ كلَّ مَعْبودٍ دونَ اللهِ: الملائكةَ والجِنَّ والأصنامَ التي عَبَدُوها.

الآية ٥٧ وأمّا الآيةُ الثانيةُ التي [تَليها؛ فَظاهِرُها][1] في الملائكةِ والجِنِّ، وهو قولُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي أُولئكَ الذينَ يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ يَبْتَغونَ هُمْ إلى رَبِّهِمِ الوَسيلَةَ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الآية. واخْتُلِفَ فيهِ.

منهُمْ مَنْ صَرَفَها إلى الملائكةِ، ومنهُمْ مَنْ صَرَفَها إلى الجِنِّ، وهو قولُ عبدِ اللهِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ، يقولُ: إنَّ قوماً مِنَ العَرَبِ كانوا يُعْبُدونَ الجِنَّ، ثم أَسْلَمَ الجِنُّ، فَبَقِيَ أولئكَ [الذينَ][2] كانوا يَعْبُدونَهُمْ بَعْدَ إسلامِهِمْ. فيقولُ: أولئكَ الذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِهِ يَبْتَغونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلَةَ، فكيفَ تَعْبُدونَهُمْ؟

ومَنْ قالَ: إنها في الملائكةِ اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: يَرْجُونَ مَحَبَّتَهُ ورِضاهُ، ويَخافونَ عذابَهُ، أي خَوفَ الهَيْبَةِ والجَلالِ والعَظَمَةِ لا خَوفَ عذابِ النارِ ونَقْمَتِهِ، لأنَّ اللهَ عَصَمَهُمْ مِنْ أنْ يَرْتَكِبوا ما يُوجِبُ لهمُ النِّقْمَةَ والعذابَ حينَ[3] قالَ: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] وقالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]

وقالَ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] هذا إخبارٌ أنهمْ لو قالوا ذلكَ لَفَعَلَ بهمْ[4] ما ذَكَرَ، ليسَ على أنْ يقولَ أحَدٌ منهمْ ذلكَ.

وقالَ أبو بكرٍ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ ثوابَهُ ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ نَقْمَتَهُ حينَ[5] قالَ: فُهِمَ مِنَ الوَعيدِ ما قالَ ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ الآيةَ؛ فَقَدْ أثْبَتَ لهمُ الوَعيدَ فيهِ. لكنَّ ثوابَهُ ما يَتَلَذَّذُ بهِ، وعذابَهُ ما يَتَألَّمُ[6] بهِ، ويَتَوَجَّعُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أي جَنَّتَهُ. لكنَّ هذا يُشْبِهُ أنْ يكونوا يَرْجونَ صُحْبَةَ أهلِ الجَنَّةِ كقولِهِ: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ الآية [الرعد: ٢٣و٢٤]

وجائزٌ عندَنا صَرْفُ قولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ إلى الأصنامِ التي عَبَدوها مِنْ دونِهِ أيضاً، ويكونُ تأويلُهُ ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾ أي [لو مُكِّنَ][7] لهمْ مِنَ العِبادةِ والطاعةِ، ورُكِّبَ فيهِمْ مِنْ أسبابِهِ لَكانوا كما ذَكَرَ، وهو كقولِهِ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي لو مُكِّنَ لهُ، ورُكِّبَ فيهِ ما رُكِّبَ في البَشَرِ، ومَكَّنَ لهمْ ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] على ما ذَكَرَ مِنْ سَفَهِ أولئكَ الذينَ عَبَدوا دونَ اللهِ:

يقولُ: كيفَ تَعْبُدونَ مَنْ لو مُكِّنَ [لهمْ][8] مِنَ العِبادةِ والطاعةِ لكانوا يَبْتَغونَ بذلكَ الوسيلةَ إلى ربِّهِمْ؟ أو كيفَ تَعْبُدونَ مَنْ هو بطاعةِ رَبِّهِ يَبْتَغي الوسيلَةَ إليهِ؟ إنْ كانتِ الآيةُ في الملائكةِ؛ كأنهُ يذكُرُ سَفَهَ أهلِ مكَّةَ حينَ[9] سألوا العذابَ بقولِهِمْ[10]: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونَحْوِهِ، وأهلُ السماءِ والأرضِ جميعاً يَحْذَرونَ عذابَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ما ذَكَرَ، ليسَ هو بأمْرٍ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ أمْراً، ولكنْ إخبارٌ عَنْ عَجْزِ ما يَدْعونَ مِنْ دونِهِ وتَعْجيزِ ما ذَكَرَ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ ودَفْعِهِ والتحويلِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠] ليسَ هو بأمْرٍ، إنما هو إخبارٌ عنْ قُدْرَتِهِ أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وإنْ بُدِّلْتُمْ أصْلَبَ الأشياءِ وأعْظَمَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي دفعَهُ وردَّهُ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: تتلوها ظاهرها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) أدرج قبلها في الأصل: لم. (٧) من م: في الأصل: لم يكن. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بقوله.

أحدُهما: فلا يَملِكونَ تحويلَ[1] ذلكَ الضُّرِّ إلى غيرِكُم ولا صَرْفَهُ، والثاني: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ مِنَ الأشدِّ والأثقلِ إلى الأخفِّ والأيسرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي يَحذَرُهُ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ﴾ مُميتوها، وقد يُستَعمَلُ الهلاكُ في موضعِ الموتِ كقولِهِ ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] أي ماتَ. ويُقالُ أيضاً: هَلَكَ فلانٌ أي ماتَ.

فعَلَى ذلكَ يقولُ: قولُهُ: ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مُميتوها ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وكقولِهِ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ [أي مُنتقِموها][2] ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

فعَلَى تأويلِهِ يَصِحُّ على جميعِ القُرى والمُدُنِ، ليسَ [على][3] قريةٍ دونَ قريةٍ ولا [على مدينةٍ دونَ][4] مدينةٍ، ولكنْ على الكُلِّ ما أخبرَ مِنْ إهلاكِ الكُلِّ بقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقولِهِ[5] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

ويَحتمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ إهلاكِ القريةِ إهلاكَ الأهلِ مِنْ بَعْدِ إهلاكِها[6] على ما فَعَلَ بكثيرٍ مِنَ القُرى.

وجائزٌ أنْ يكونَ يُهلِكُ الأهلَ، وتَبقَى القريةُ على حالِها، ثم تَهلَكُ بنفسِها قبلَ يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ: على تأويلِ أبي بكرٍ يَفعَلُ ذا أو ذا: إمّا يُميتُهُم موتاً بآجالِهِم، أو يُعذِّبُهُم عذابَ إهلاكٍ.

وقالَ الحسَنُ: قولُهُ: ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مُميتوها على ما قالَ أبو بكرٍ ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقولُ: إذا قامَتِ الساعةُ قَبْلَ يومِ القيامةِ كقولِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨] وقولِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] تقومُ على شِرارِ الناسِ، فيكونُ ما ذَكَرَ مِنَ التعذيبِ لأولئكَ الذينَ يقومُ بهمُ الساعةُ على قولِهِ.

وقالَ قتادةُ: هذا قضاءٌ مِنَ اللهِ كما تَسمَعُهُ، ليسَ منهُ بُدٌّ: إمّا أنْ يُهلِكَها بموتٍ كقولِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وإمّا أنْ يُهلِكَها بعذابٍ مُستأصِلٍ إذا تركوا أمرَهُ، وكذّبوا رسلَهُ، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الانتقامِ.

وقالَ بعضُهُم: يُميتُ [أهلَ][7] القريةِ بآجالِهِم، وأمّا القريةُ الظالِمَةُ، فيأخُذُها بالعذابِ الذي ذَكَرَ، فهو في القرونِ الماضيةِ، إنِ احتمَلَ ذلكَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هو أنْ يُهلِكَ رؤساءَ [أهلِ الكُفرِ][8] وقادَتَهُم، فيَصيرُ الدِّينُ كلُّهُ ديناً واحداً، أي هو الإسلامُ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قالوا: هو أنْ يُهلِكَ أهلَ الكُفرِ[9]، فيَجعَلُ مُلْكَ أهلِ الكُفرِ لأهلِ الإسلامِ، فذلكَ نُقصانُها مِنْ أطرافِها، لا يَزالُ يُنقِصُ أهلَ الكُفرِ قريةً فقريةً وبلدةً فبلدةً حتى تَصيرَ الأرضُ كلُّها لأهلِ الإسلامِ.

وهو ما رُوِيَ عن نبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «زُوِيَتْ لِيَ الأرضُ، فأُريتُ مشارقَها ومغاربَها، وسيَبلُغُ مُلكُ أمَّتي ما زُوِيَ لي منها» [مسلم ٢٨٨٩] فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، تأويلُ قولِهِ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي نُهلِكُ أهلَ الكُفرِ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على ما أخبرَ أنهُ كانَ يُفني جميعَ مَنْ كانَ على وجهِ الأرضِ، ويَجعَلُ الأرضَ مُستويةً /٣٠٤ ـ أ/ لا بناءَ فيها ولا ارتفاعَ حينَ[10] قالَ: ﴿كُلُّ مَنْ

---

(١) في الأصل وم: تحويلاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: مدينة دون، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: إهلاكهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل أهل الكفرة، في م: الكفر. (٩) من م، في الأصل: الكفرة. (١٠) في الأصل وم: حيث.

عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقالَ: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ الآية [الواقعة: ٥] أخبرَ أنهُ لا يَبْقَى عليها أحَدٌ ولا بناءٌ، فتَصيرُ كُلُّها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦و١٠٧] فذلكَ إهلاكُها وتَعْذيبُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ في الكتابِ الذي عندَ اللهِ، وهو اللوحُ المحفوظُ مكتوباً. وقالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ في جميعِ كُتُبِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِهِ مكتوباً، أي ما مِنْ كتابٍ أنزَلَهُ اللهُ على رُسُلِهِ إلّا وكانَ فيهِ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وفيهِ[1]: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿مَسْطُورًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ أخبَرَ أنهُ ليسَ يَمْنَعُهُ مِنْ إنزالِ [الكتبِ][2] إلّا تكذيبُ الأوّلينَ بها.

فإنْ قيلَ: فأيُّ شيءٍ في ما يُكَذِّبُ الأوَّلونَ بالآياتِ ما يَمْنَعُ إنزالَها على هؤلاءِ؟ قيلَ: كأنهُ على الإضمارِ، أي [ما][3] مَنَعَنا أنْ نُرْسِلَ بالآياتِ إلّا عِلْمُنا بأنَّ الآخرينَ، يُكَذِّبونَ بها كما كَذَّبَ بها الأوَّلونَ. فإنْ قيلَ: عنْ هذا يُسأَلُ: أنَّ عِلْمَهُ بتكذيبِ الآخرينَ كعِلْمِهِ بتكذيبِ الأوَّلينَ، ثم لم يَمْنَعْ عِلْمُهُ بتكذيبِ الأولينَ إياها إنزالَها، كيفَ مَنَعَ عِلْمُهُ بتكذيبِ الآخرينَ ذلكَ؟ أوَليسَ قد أرسَلَ الرُّسُلَ، وأنزَلَ الكُتُبَ[4] على عِلْمٍ منهُ أنهُمْ يُكَذِّبونَ الرسولَ والكتابَ؟ ثم لم يَمْنَعْ عِلْمُهُ بتكذيبِ الآياتِ منهمْ عن إرسالِ الآياتِ، ولم يَمْنَعْ عِلْمُهُ بتكذيبِ الرسولِ عَنْ بَعْثِ الرسولِ وإنزالِ الكتابِ؟

قيلَ: إنهُ قد مَضَى مِنْ سُنَّتِهِ أنهُ إذا أنْزَلَ الآياتِ على إثْرِ سُؤالٍ؛ أعني سُؤالَ الآياتِ، فكَذَّبوها، أهْلَكَهُمْ. هكذا مَضَتْ سُنَّتُهُ في القرونِ الأُولَى.

ثم قد سَبَقَ مِنْ وَعْدِهِ ألّا يُهْلِكَ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ تَعْذيبٍ واسْتِئصالٍ في الدنيا رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً على ما أخْبَرَ رسولَهُ حينَ[5] قالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فرَحْمَتُهُ أنْ مَنَّ عليهِمْ بإبقائِهِمْ وإزالةِ العذابِ عنهمْ واسْتِئصالِهِمْ. فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ إلّا ما سَبَقَ مِنْ وَعْدِنا ورَحْمَتِنا ألّا نُهْلِكَ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ اسْتِئصالٍ وتَعْذيبٍ. فذلكَ الوَعْدُ والرَّحْمَةُ الذي ذَكَرْنا مَنَعَنا عنْ إرسالِ الآياتِ على عِلْمٍ منّا أنهمْ يُكَذِّبونَها إذا أرْسَلْناها إليهِمْ.

وقد مَضَتِ السُّنَّةُ منّا على الإهلاكِ إذا أنْزَلْنا الآياتِ على إثْرِ سُؤالِهِمْ إياها، ثم التكذيبُ مِنْ بَعْدُ، ثم سَبَقَ الوَعْدِ لهؤلاءِ ألّا يُهْلَكوا في الدنيا إهلاكَ تَعْذيبٍ رَحْمَةً منهُ لهم على ما أخْبَرَ أنهُ لم يُرْسِلْهُ[6] ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ قد أنْزَلَ الآياتِ والحُجَجَ على إثباتِ رسالتِهِ الرُّسُلَ آياتٍ كافيةً وحُجَجاً مِنْ بَعْدُ إنما سألوا سؤالَ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ. فإذا كانَ سؤالُهُمُ الآياتِ سؤالَ عِنادٍ وتَعَنُّتٍ أهْلِكوا إذا كَذَّبوها، ولم يُنْظَروا كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وقولِهِ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] ونَحْوَهُ.

ألا تَرَى أنَّ عيسى ﷺ سألوهُ أنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أنْ يُنَزِّلَ عليهِمْ مائدةً مِنَ السماءِ لتكونَ لهمْ آيةً منهُ، فَسَألَهُ، فأخبَرَ أنهُ يُنَزِّلُها عليكُمْ، ثم أخْبَرَ ما يَفْعَلُ بهمْ إذا كَفَروا بَعدَ ذلكَ، وهُمْ كانوا يَسْألونَهُ سُؤالَ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ، فقالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ الآية [المائدة: ١١٥]

هكذا كانَتْ سُنَّتُهُ في مَنْ سألَ الآياتِ سُؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذي مَنَعَ عنْ إرسالِ الآياتِ على إثْرِ السؤالِ وإهلاكِ هذهِ الأمّةِ ما يكونُ مِنَ الإسلامِ مِنْ نَسْلِ هذهِ الأمّةِ بَعْدُ بِسَبَبِهِمْ وإبقاءِ التناسُلِ إلى يومِ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: الكتاب. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: يرسل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ قيلَ: آيةً لِرسالةِ صالحٍ. وقالَ بعضُهُمْ: مُبْصَرَةً[1] أي مُعايَنَةً، يُعايِنونَها أنها آيةٌ مِنَ اللهِ لهمْ حينَ[2] رَأَوها مُخالِفَةً لِنوقِهِمْ، وهو ما قالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣ وهود: ٦٤] ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كَذَّبوا بها، وجَحَدوها، ثم عَقَروها بَعْدَ عِلْمِهِمْ أنها آيةٌ مِنَ اللهِ لهمْ حينَ[3] رَأَوها، وعايَنوها خِلافاً لِنوقِهِمْ خارجَةً عنْ نوقِ البَشَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قالَ ابْنُ عباسٍ والحَسَنُ وغيرُهما: المَوتُ الذريعُ أي السريعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للناسِ. فإنْ لم يُؤمِنوا بها عُذِّبوا في الدنيا، أو يقولُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ مَقرونَةً بالسُّؤالِ سُؤالَ التَعَنُّتِ، فَكَذَّبوها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للهلاكِ على ما ذَكَرْنا مِنَ الآياتِ التي سألوها، أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ على إِثْرِ السؤالِ بها ثم التكذيبِ لها ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لِمَن تأخَّرَ مِمَّنْ سألَ مِثْلَها، فَكَذَّبَ، أو كلاماً[4] نَحْوَهُ.

وتَحتَمِلُ الآياتُ التي ذَكَرَ كسوفَ الشمسِ وخُسوفَ القَمَرِ وغَيرَهُ ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للناسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ الإحاطةُ بالشيءِ تكونُ بالوجوهِ الثلاثةِ:

أحَدُها: بالغَلَبَةِ والقُدْرَةِ والسلطانِ كقولِهِ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] أي أخَذَهُمُ الهَلاكُ والغَلَبَةُ، وقُدِرَ عليهِمْ.

والثاني: الإحاطةُ العِلْمُ بهِ كقولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] أي عالماً وقولِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي لا يَعْلَمونَ.

والثالثُ: الإحاطةُ المَعْروفَةُ بَينَ الخَلْقِ مِنْ إحاطةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، فذلكَ لا يُحْتَمَلُ في اللهِ ﷻ فهو على الوَجْهَينِ الأوَّلَينِ على إحاطةِ العِلْمِ بهمْ أو القُدْرَةِ عليهِمْ والغَلَبَةِ.

ثم قولُهُ [﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ اختُلِفَ فيهِ][5] قالَ بعضُهُمْ: أحاطَ بأعمالِهِمْ: بما لَهُمْ وما عليهِمْ وبما لا يَصْلُحُ [لهمْ وما يَصْلُحُ][6] وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٥٥]

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ كانوا يَمْكُرونَ برسولِ اللهِ ﷺ ويُريدونَ إطفاءَ نورِهِ، ويَمْنَعونَهُ عنْ تبليغِ الرسالةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] فيقولُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي قد عَلِمَ بِمَكْرِهِمْ بكَ، على عِلْمٍ منهُ بِمَكْرِهِمْ بكَ، بَعَثَكَ رسولاً إليهِمْ، وكَلَّفَكَ بِتَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ، لكنهُ وَعَدَ أنْ يَعْصِمَكَ منهُمْ، ويَمْنَعَكَ عنهمْ حتى تُبَلِّغَ الرسالةَ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقولِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]

كانَ ﷻ يَبْعَثُ الرسلَ، ويُكَلِّفُهُمْ بِتَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ مِنْ قَومِهِمْ مِنَ المَنْعِ والمَكْرِ برسلِهِ، لكنهُ عَصَمَهُمْ، ومَكَّنَ لهمْ، حتى بَلَّغوا الرسالةَ إليهِمْ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ بالعِلْمِ أو القُدْرَةِ والغَلَبَةِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الرُّؤيا التي أراهُ إيّاها لم تَكُنْ رُؤيا المَنامِ، ولكنْ كانَتْ [رُؤيا][7] يَقَظَةٍ، ورُؤيا غيرَ مُعايَنَةٍ بالتي تَنامُ [العَينُ][8] لا بالذي يَنامُ [القَلْبُ][9] منهُ [لأنهُ رُوِيَ][10] عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «تَنامُ عَيناي، ولا يَنامُ قَلْبي» [البخاري٣٥٦٩] فإنهُ أراهُ مِنَ الرُّؤيا بالعَينِ التي كانَتْ لا تَنامُ، لا رُؤيا قَلْبٍ وعِلْمٍ.

---

(١) هذه قراءة قتادة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٢٧. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) في الأصل: اختلف، في م: أحاط. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: لا ندري.

قالَ سَعيدُ بْنُ المُسَيِّبِ: هي رُؤْيا مَنامٍ. ورُوِيَ[1] أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ «رأى قوماً على مَنابرَ، فَساءَهُ ذلكَ، فَذَكَرَ أنهمْ كانوا يُعْطَوْن مالاً». فذلكَ فِتْنةٌ لهمْ.

وقال بعضُهُمْ: إنهُ أُرِيَ رسولُ اللهِ ﷺ في المنامِ «كأنهُ يدخُلُ المَسْجِدَ الحرامَ آمِناً، فأخْبَرَ بذلكَ أصحابَهُ أنهُ رَأى ذلكَ. فلمّا كانَ عامُ الحُدَيْبِيَةِ، وصُرِفَ عنِ البيتِ، ارْتابَ بَعْضُ الناسِ في رُؤياهُ، فذلكَ فِتْنةٌ للناسِ على ما أخْبَرَ» [عن ابن عباس. ابن جرير الطبري ج١٥/١١٢] لكنهُ لمْ يُبَيِّنْ لهُ متى يَدْخُلُ فيهِ؟ وقد وَعَدَ/ ٣٠٤ ـ ب/ أنهُ يَدْخُلُ فيهِ آمِناً، وهو ما قال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الفتح: ٢٧]

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ والفِتْنةُ المِحْنةُ الشديدةُ. فإنْ كانَ ذلكَ في الرُّؤيا التي رآها في [الإسراء إلى][3] بيتِ المَقْدِسِ، وما أخبرَ مِنَ الآياتِ، لا يُتَوَهَّمُ مِثْلُ ذلكَ بِتَعْليمِ بَشَرٍ ولا بِسِحْرٍ، فذلكَ الذي أخبرَهُمْ أنهُ رَأى، فِتْنةٌ لهمْ، ومِحْنةٌ في التَّصديقِ والتَّكذيبِ في الخَبَرِ الذي أخبَرَ مِنَ الآياتِ، لا يُتَوَهَّمُ مِثْلُ ذلكَ بِتَعْليمِ بَشَرٍ. فإنْ كانَ على رُؤْيا مَنامٍ فهو فِتْنةٌ لِما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي كانَتِ الشَّجَرَةُ المَلْعونةُ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ أيضاً فِتْنةً لهمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٣و٦٤]

وَوَجْهُ فِتْنَتِها لهمْ ما ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ قالوا: إنَّ محمداً يقولُ: إنَّ في النارِ شَجَرَةً، والنارُ مِنْ طَبْعِها أنْ تأكُلَ الشَّجَرَ[4]، فكيفَ يكونُ في النارِ الشَّجَرَةُ، وهي [لا][5] تأكُلُها؟ ولكنْ لم يَعْرِفوا أنَّ شَجَرَ النارِ، يكونُ مِنَ النارِ، وشرابَهُمْ مِنَ النارِ، وكذلكَ طعامُهُمْ مِنَ النارِ، فإذا كانَ مِنَ النارِ لم يأكُلْها النارُ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: الزَّقُّومُ الزُّبْدُ والتَّمْرُ، فكيفَ يكونُ فيها ذلكَ؟ فيَدَّعونَ بذلكَ الكَذِبَ عليهِ في ما يُخْبِرُهُمْ أنَّ في النارِ شَجَرَةً، فتلكَ الشَّجَرَةُ، كانَتْ فِتْنةً لهمْ ومِحْنةً في تصديقِ رسولِ اللهِ وتكذيبِهِ. وسَمّى مَلْعونَةً؛ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ العَرَبَ سَمَّتْ كلَّ ضارٍّ مُؤْذٍ مَلْعوناً، فلذلكَ سُمِّيَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ مَلْعونَةً إذ[6] كانَتْ ضارَّةً لأهلِها مُؤْذِيَةً.

قالَ الحَسَنُ: سُمِّيَتْ مَلْعونَةً لِما لُعِنَ أهْلُها بها، فَسُمِّيَتْ باسْمِ أهلِها، وهو كما سَمّى النهارَ مُبْصِراً والنهارُ لا يُبْصِرُ، ولكنْ يُبْصَرُ بهِ، فَسَمّى باسْمِهِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وأصلُ اللَّعْنِ الطَّرْدُ، فَطُرِدَ منها كلُّ خيرٍ ونَفْعٍ، فهي مَلعونةٌ، وهي[7] كقولِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] أضافَ الإضلالَ إلى الأصنامِ [التي][8] لا صُنْعَ لها في ذلكَ، لكنَّ كثيراً مِنَ الناسِ ضَلُّوا بهنَّ، فكأنها أضَلَّتْهُمْ، وكقولِهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] أي اغْتَرُّوا بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي ذُكِرَتْ في القرآنِ. وإلّا الشَّجَرَةُ لا تكونُ في القرآنِ، وهو ما ذُكِرَ مِنَ المَصائِبِ وغيرِها كقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الحديد: ٢٢] والمَصائِبُ، لا تكونُ في الكتابِ، لكنْ ذُكِرَتْ فيهِ ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ هو ما ذَكَرْنا، لأنهمْ نَظَروا إليهِ بِعَيْنِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِهْزاءِ، فزادَهُمْ ما ذَكَرَ. وأمّا أهلُ الإسلامِ فزادَ لَهُمْ إيماناً وهُدىً، لأنهمْ نَظَروا إليهِ بِعينِ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ قولُهُ: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ أي لا أسْجُدُ كقولِهِ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فَدَلَّ هذا أنَّ قولَهُ: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ مَعْناهُ: أي لا أسْجُدُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: سير. (٤) في الأصل وم: الشجرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: إذا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ذَكَرَ في قصةِ إبليسَ ألفاظاً مُختلِفةً؛ مَرَّةً: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] وقالَ في مَوضِعٍ ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقالَ[1] في مَوضِعٍ آخرَ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: ٧٥] ونَحوُهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على اختلافِ الأحوالِ لا في حالٍ واحدةٍ. هذا مِنْ هذا على ما ذَكَرَ في قصةِ آدمَ مِنِ اختلافِ الأحوالِ حينَ[2] قالَ مَرَّةً: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: ٥٩و . .] وقالَ مَرَّةً: ﴿مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام: ٢و . .] ومَرَّةً ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ [الحجر: ٢٦و . .] ونَحوُهُ.

وذلكَ إخبارٌ عنْ أحوالٍ تَغَيَّرَتْ فيها. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ بِغيرِ هذا اللِّسانِ، فَذَكَرَ ههنا بألفاظٍ مُختلِفةٍ والزِّيادةِ والنُّقصانِ لأنَّ اختلافَ الألفاظِ لا يُغَيِّرُ المَعنى.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ قد أقرَّ إبليسُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ بالفضيلةِ لآدمَ والإكرامِ لهُ: إمّا مِنَ الطاعةِ والنُّبوَّةِ التي أعطاها اللهُ، وإنِ ادَّعى لِنفسِهِ الفَضيلَةَ عليهِ مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ بأنهُ ناريٌّ، وهو طِينيٌّ، حينَ[3] ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ قد أقرَّ إبليسُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ بالفضلِ عليهِ والإكرامِ إما لِطاعَتِهِمْ لهُ، أو لِما جَعَلَهُ رسولاً إلى خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [لا يَحتَمِلُ أنْ يُخاطِبَ رَبَّهُ، ويقولَ: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾][4] لأنهُ لمّا يَطْلُبُ التأخيرَ والبَقاءَ إلى يومِ القيامةِ طالبُ نِعْمَةٍ مِنْهُ ومِنَّةٍ، فيقولُ مُقابِلَ ما يَطْلُبُ مِنَ النِّعْمَةِ: لَئِنْ أعطيتَني ذلكَ لأُعطِيَنَّكَ، إنما يَذْكُرُ مُقابِلَ طَلَبِ النِّعْمَةِ الطاعةَ لهُ والشُّكرَ على ما قالَ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] إنما يُقابِلُ بِطَلَبِ النِّعْمَةِ الطاعةَ لهُ. وأمّا مُقابَلَةُ المَعصيةِ فلا تُعرَفُ.

ثم يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على وجهَينِ

أحدُهُما: على التأكيدِ، يقولُ: أي إنكَ ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

[والثاني:][5] على التَّمَنِّي منهُ الأمرَينِ جميعاً: التأخيرَ واحتناكَ ذُرِّيَّتِهِ وسُؤالَهُ إياهما.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: قالَ بعضُهُمْ: لأحتَوِيَنَّهُمْ، ولأُحيطَنَّ بهمْ. وقالَ بعضُهُمْ[6] لأُضِلَّنَّهُمْ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ [النساء: ١١٩] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ لأستَنْزِلَنَّ، وقيلَ: لأَستَولِيَنَّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ أي لأَستأصِلَنَّهُمْ، ويُقالُ: هو مِنْ حَنَكِ الدابَّةِ، حَنَكَ دابَّتَهُ، يَحنِكُها حَنْكاً، إذا شَدَّ في حَنَكِها الأسفلِ حَبْلاً، يَقودُها بهِ. وقالَ القُتَبِيُّ: أي لأقودَنَّهُمْ كيفَ شِئْتُ.

ثم قولُهُ: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ كأنهُ سألَ ربَّهُ التأخيرَ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى حينَ[7] ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤و . .] كأنَّ اللعينَ لمّا سَمِعَ قولَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] إنهُ لا يَنالُهُ الرَّحْمَةُ في الإيمانِ بهِ حينَ[8] ذَكَرَ اللَّعْنَةَ عليهِ إلى يومِ الدينِ. واللَّعينُ هو المَطرودُ عنْ رَحمَتِهِ. فَعِنْدَ ذلكَ سألَ رَبَّهُ النَّظِرَةَ إلى يومِ الدينِ لِيُغْوِيَنَّ عِبادَهُ. وقد عَلِمَ اللعينُ أنَّ طاعةَ خَلْقِهِ لهُ، لا تَزيدُ في مُلْكِهِ شيئاً، وعِصيانَهُمْ، لا يُنْقِصُ في مُلْكِهِ شيئاً. لِذلكَ قالَ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [وقالَ][9] ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] [وقالَ:][10] ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ [النساء: ١١٩] وما ذَكَرَ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ مع إحساني إليهِمْ وإنعامي عليهِمْ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: بعض. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: على التَّمكُّنِ لهُ مِنْ ذلكَ و الإقدارِ على ما ذَكَرَ؛ أي مَكَّنَ لهُ ذلكَ، وأقْدَرَ عليهِ لِخِذْلانِهِ إيّاهُ لمّا عَصَى ربَّهُ، وتَركَ أمْرَهُ بالسجودِ جَوراً منهُ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] مَكَّنَ لهُ ذلكَ لِيَتِمَّ لهُ اللَّعْنَةُ والخِذلانُ.

والثاني: قالَ ذلكَ لهُ على التَّوَعُّدِ والتَّهدُّدِ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ [لهُ هذا][2] على أمْرِ وَعيدٍ، وهو قولُهُ: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾؟ فيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ على إثْرِ ذلكَ مُخرَجَ الوَعيدِ لهُ لِمَنْ تَبِعَهُ، وأجابَهُ، كقولِهِ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]لهذا، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ أمْراً فهو وعيدٌ. فعَلَى هذا قولُهُ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ فإنَّ ذلكَ ولِمَنْ تَبِعَكَ كذا. أو لِما ذَكَرْنا مِنَ التَّمكِينِ لهُ مِنْ ذلكَ والإقدارِ على ذلكَ لِيَتِمَّ لهُ الخِذْلانُ واللَّعْنُ الذي لَعَنَهُ.

وإلّا لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ يأمُرُهُ بِما ذَكَرَ إذْ يُخرَّجُ الأمْرُ بما ذَكَرَ مُخرَجَ السَّفَهِ والأمْرِ بالفَحْشاءِ، وقد أخبَرَ أنهُ لا يأمُرُ بالفحشاءِ والمُنكَرِ، وإنما يأمُرُ بالعَدْلِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] فلو حُمِلَ هذا على الأمْرِ لكانَ أمراً بالفَحْشاءِ والمُنكَرِ.

فَدَلَّ أنهُ يُخرَّجُ على أحَدِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما/ ٣٠٥ - أ/ أي[3] على الاسْتِبْعادِ والإياسِ عنْ أنْ يَمْلِكَ أو يَقْدِرَ عليهِمْ بما ذَكَرَ إلّا مَنِ اختارَ منهمُ اتِّباعَهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ الآيَة [الحجر: ٤٢ والإسراء: ٦٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: أي اسْتَخِفَّ، [واسْتَخِفَّ][4] الرَّجْلَ والرَّجالةَ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي اسْتَخِفَّ [أي دعاهُ، فأجابَهُ، فأطاعَهُ، وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾][5] [الزخرف: ٥٤] فأطاعوهُ، أي أمَرَهُمْ، فأطاعوهُ، أي دَعاهُمْ، فأجابوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُهما: على الصَّوتِ؛ يكونُ لهُ صوتٌ، يدعو[6] الناسَ بهِ، فتَسْمَعُ ذلكَ الصوتَ النفسُ الخَفيَّةُ التي تكونُ في هذهِ النفسِ الظاهرةِ الكثيفةِ، ولا تَسْمَعُهُ النفسُ الظاهرةُ، على ما تَخطُرُ أشياءُ بالقَلْبِ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ بهِ الإنسانُ أنهُ مِنْ أينَ[جاءَ؟ ومِنْ أينَ][7] هَيَجانُهُ؟ وعلامَ يَقْذِفُ؟ ويُوَسْوِسُ أشياءَ في القلوبِ مِنْ غَيرِ أنْ يُعْلَمَ ذلكَ، ويُطَّلَعَ عليه.

فعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ لهُ صوتٌ يدعو الناسَ بهِ، وإنْ كنّا، لا نَسْمَعُهُ، لكنهُ يُسْمِعُ النَّفْسَ الخَفيَّةَ بما يُسْمِعُ النفسَ الظاهرةَ، وبها تُبْصِرُ؛ أعني بالنفسِ الخَفيَّةِ. ألا تَرَى أنَّ النائمَ يَرَى أشياءَ، ويكونُ في أقصَى الدنيا، ونفسُهُ الظاهرةُ مُلْقاةٌ هٰهنا. فذلكَ كلُّهُ بالنفسِ الخَفيَّةِ.

والثاني: على التمثيلِ، ليسَ على تَحقيقِ الصوتِ [لكنْ ذَكَرَ الصوتَ][8] لِما بالصوتِ يُرْسِلُ الإعلامَ إلى بعضِهِمْ بعضاً، وبهِ يَدْعو بعضُهُمْ بعضاً عندَ البعدِ، فذكَرَ الصوتَ لهُ مكانَ الوَسْوَسَةِ التي تُوَسْوِسُ للناسِ أشياءَ مِنْ بُعْدٍ، وتَدْعوهُمْ بهِ إلى مَعاصي اللهِ، وكذلكَ قالَ الحَسَنُ في قولِهِ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠] منْ بُعْدٍ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ هنالكَ تَقَرُّبٌ منهُ.

والثالثُ: على إضافةِ عَمَلِ كلِّ عاصٍ مِنْ نَحْوِ الغِناءِ والمَزاميرِ وغَيرِهِ، أو يُضافُ عَمَلُ كلِّ طائعٍ وكلِّ ضالٍّ إليهِ؛

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لهذا. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يدعوه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

أُضيفَ ذلكَ إليهِ كما أضافَ موسى حينَ[1] قالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وقالَ[2]: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] ولم يَكُنْ ذلكَ عَمَلَ الشيطانِ حقيقةً، ولكنْ قالَ ذلكَ، وأضافَهُ إليهِ لِما بأمْرِهِ ودعائِهِ يَعْمَلُ ذلكَ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بِدُعائِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أجْلِبْ أي اجْمَعْهُمْ، ويُقالُ: أجْلَبْتُهُمْ أي أعَنْتُهُمْ أيضاً. وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يُخَرَّجُ على الوُجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا:

أحَدُها: أنْ يكونَ لهُ خيلٌ ورَجَّالَةٌ وجُنودٌ مِنْ جِنْسِهِ وجَوهَرِهِ، يَجْلُبُهُمْ بهِمْ، وإنْ كُنّا، لا نَراهُمْ كما قالَ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ الآيةَ[الأعراف: ٢٧] فجائزٌ أنْ يكونَ لهُ خَيلٌ ورَجَّالَةٌ وجُنودٌ، لا نَراهُمْ نَحنُ، وهُمْ يَرَونَنا.

والثاني: على ما ذَكَرْنا أنهُ على التمثيلِ، لكنهُ ذَكَرَ الخَيلَ والرَّجْلَ لِما بالخَيلِ والمشْيِ يَصِلُ بعضٌ إلى بَعْضٍ عندَ الحاجةِ إليهِ في البُعْدِ والقُرْبِ، فَذَكَرَ ذلكَ لهُ على ما ذَكَرْنا في الصوتِ.

والثالثُ: أنهُ أضافَ كلَّ خَيلٍ راكبٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ أو كلَّ ماشٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ إليهِ على ما ذَكَرْنا في الصوتِ في مَعْصِيَةِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ قالَ القُتَبيُّ: ﴿مَّوْفُورًا﴾ أي مُوفَراً. وقالَ غيرُهُ: وافِراً.

وفي قولِهِ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتزلَةِ لأنَّ إبليسَ سألَ ربَّهُ التأخيرَ والإبقاءَ لهُ إلى يومِ القيامةِ، وقد عَلِمَ أنهُ إذا أعطاهُ ذلكَ لهُ وَفَى[3] لهُ ما وَعَدَ، وأبقاهُ إلى ذلكَ الوقتِ، وهُمْ لم يَعْرِفوا ذلكَ، بل قالوا: إنهُ يَجيءُ عَبْدٌ، فَيَقْتُلُهُ، فَيَمْنَعُهُ عن وفاءِ ما وَعَدَ والإبقاءِ إلى الوَقْتِ الذي وَقَّتَ لهُ، فهو أعْرَفُ بِرَبِّهِ منهُمْ، وكذلكَ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] وهُمْ يقولونَ: لم يُغْوِهِ. فهو أعْرَفُ بهِ منهُمْ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: مُشارَكَتُهُ في الأموالِ هي أنْ [يَجْعَلوا لهُ][4] البَحيرَةَ والسائبَةَ والوَصِيلَةَ والحامِيَ على ما كانوا يَفْعَلُونَهُ. وأمّا الأولادُ فإنهمْ هَوَّدوهُمْ ونَصَّروهُمْ، ومَجَّسوهُمْ، وهو قولُ قتادَةَ.

وقالَ بَعضُهُمْ: مُشارَكَتُهُ في الأموالِ هي أنْ يَكْتَسِبوها مِنْ خَبيثٍ وحَرامٍ، ويُنْفِقوها في مِثْلِهِ وفي مالا يَحِلُّ، وأمّا الأولادُ فَهُمْ[5] ما وَلَدوا مِنَ الزِّنى. وقالَ بعضُهُمْ: الأموالُ ما كانوا يَذْبَحونَ لِآلِهَتِهِمْ، ويَجْعَلونَها[6] ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] والأولادُ ما وُلِدوا مِنَ الزِّنى.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ حتى تُشارِكَهُمْ في الأموالِ والأولادِ.

ثم مَعْنى المُشارَكَةِ لهُ في ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، هو أنَّ هذهِ الأموالَ والأولادَ لِلّهِ تعالى حَقيقَةً لِما هو أنْشَأها، وخَلَقَها. فَحَقيقَةُ المُلْكِ لهُ بما ذَكَرْنا. وظاهِرُ الانْتِفاعِ لِعَبْدِهِ، إذْ هذا كلُّهُ للهِ بِحَقِّ المِحْنَةِ يَمْتَحِنُهُمْ، وحَقُّ الانْتِفاعِ لهمْ، إذْ لا يَجوزُ أنْ يَخْلُقَ اللهُ شيئاً لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ، ولكنْ يَخْلُقُ لِمَنافِعِ أنْفُسِهِمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ بها.

وقد شَرَعَ اللهُ لهمْ [شَرائعَ، وشَرَعَ إبليسُ لهمْ][7] شَرائعَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فإذا صَرَفوا ذلكَ إلى ما شَرَعَ [لهمْ إبليسُ دونَ ما شَرَعَ][8] اللهُ فَقَدْ أشْرَكوهُ فيها، وكُلُّ ما أطيعَ فيها مِمّا سَنَّ[9] لهمْ إبليسُ، وشَرَعَ لهمْ، فذلكَ شِرْكَتُهُ فيها.

وذلكَ لأنَّ الأولادَ في الشاهدِ إنما تُطْلَبُ لأحَدِ الوجوهِ الثلاثةِ: إمّا لِلاسْتِئْناسِ بهمْ في حالِ الوَحْشَةِ، وإمّا لِلاسْتِنْصارِ بهمْ والعَوْنِ على أعدائِهِمْ، وإمّا لِلذِّكْرِ بَعْدَ الوَفاةِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: قوله. (٣) في الأصل وم: يفي. (٤) في الأصل وم: يجعلوه. (٥) في الأصل وم: هم. (٦) في الأصل وم: ويجعلون لها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

وكذلكَ الأموالُ يُطلَبُ منها ما ذَكَرْنا: الانتِفاعُ بها في حالِ الحياةِ، وإمّا للمَعونَةِ على الأعداءِ والذِّكْرِ بَعْدَ المَوتِ لِخَيراتٍ يَتْركونها. فإذا صَرَفوها إلى ما أَمَرَهُمْ إبليسُ أشرَكوهُ فيها. ومُشارَكَتُهُ إيّاهُمْ[1] في الأموالِ متى يأمُرُهُمْ، ويَدعوهُمْ إليهِ، فيُطيعونَهُ، ويُجيبونَهُ. في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، مُشارَكَتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أي وَعِدْهُمْ أنْ لا جَنَّةَ، ولا نارَ، ولا بَعْثَ، أي[2] يَعِدُهُمْ بِخِلافِ ما وَعَدَهُمُ اللهُ، وخَوَّفَهُمْ، على ضِدِّ ما خَوَّفَهُمُ اللهُ: ما كانَ مِنَ اللهِ وَعْدُ خَوفٍ يكونُ منهُ وَعْدُ رَجاءٍ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أخبَرَ أنَّ ما وَعَدَ هو، قد أخلَفَ. فذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي كَذِباً وباطِلاً لأنَّهُ يَخرُجُ كُلُّهُ على خِلافِ ما وَعَدَ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سُلْطَانٌ﴾ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: القُدْرَةُ والقَهْرُ. والثاني: في الحُجَّةِ والبرهانِ. والثالثُ: الوِلايَةُ.

فأمّا القُدْرَةُ والقَهْرُ فليسَ لهُ عليهِمْ ذلكَ لأنَّهُ يَجعَلُ لهُ قُدْرَةَ القَهْرِ عليهِمْ، شاؤوا، أو أَبَوا. وكذلكَ ليسَ لهُ عليهِمُ الحُجَّةُ في ما يَدْعوهُمْ إليهِ، ويأمُرُهُمْ بهِ، كقولِهِ يومَ يقومُ [الحسابُ][3]: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] وأمّا سُلْطانُ الوِلايَةِ فإنَّ لهُ ذلكَ على مَنِ اختارَ اتِّباعَهُ وتَوَلِّيَهُ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المُخلِصينَ الذينَ أخلَصوا إليَّ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سُلْطَانٌ﴾ أي حُجَّةٌ، لأنهُم إنما يَتَّبِعونَ أمْرَ اللهِ بِحُجَجِهِ، فلا يَتَّبِعونَ الشيطانَ بأمانيِّهِ التي يُشَبِّهُ عليهِمْ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ مِنَ الحُجَّةِ والمُلْكِ على ما ذَكَرْنا ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ عليهِمْ سُلْطانُ الوِلايَةِ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ عاصماً، يَعْصِمُكَ عَنْ تَمْويهاتِهِ وتَسْويلاتِهِ، وناصراً، يَنْصُرُكَ على مكائِدِهِ، أو مَفْزَعاً، تَفْزَعُ إليهِ، أو مُعْتَمَداً، تَعْتَمِدُ عليهِ في جميعِ أمورِكَ. واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ يُجْري، ويُسَيِّرُ، ويَسوقُ الفُلْكَ في البَحْرِ.

قالَ الحَسَنُ: أي سَخَّرَ الفُلْكَ أو السُّفُنَ لنا في البَحْرِ، والدَّوابَّ/ ٣٠٥ ـ ب/ في البَرِّ لِنَقْطَعَ بها البحارَ والمَفاوِزَ والبَراريَ لِنَصِلَ بذلكَ إلى حوائِجِنا التي جُعِلَتْ لنا في البلدانِ النائيةِ والأمكِنَةِ البَعيدةِ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] أي سَخَّرَ لنا ذلكَ.

ونحنُ نقولُ كذلكَ؛ سَخَّرَ لنا ذلكَ. ونحنُ نقولُ كذلكَ؛ سَخَّرَ لنا ما ذَكَرَ، إلّا أنَّ إضافَةَ ذلكَ إليهِ على قولِنا [هو][4] أنَّ أفعالَنا مخلوقَةٌ لهُ.

ثم يَذكُرُ فيهِ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعِلْمَهُ حينَ[5] خَلَقَ الخَشَبَ، وجَعَلَ فيهِ[6] مَعنىً يَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ مع ثِقَلِهِ. ومِنْ طَبْعِ الشَّيءِ الثَّقيلِ التَّسَرُّبُ في الماءِ والتَّسَفُّلُ فيهِ، ولأنفُسِهِمُ المَعنى الذي بهِ [لا][7] تَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ، وإنْ كانَتْ دونَ ذلكَ في الثِّقَلِ، تَتَسَفَّلُ، وتَتَسَرَّبُ. أو جَعَلَ ذلكَ بِطَبْعِهِ بحيثُ يَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ، ولا يَتَسَرَّبُ فيهِ لُطْفاً منهُ.

فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما يَقِرُّ على وَجْهِ الماءِ لِمَعنىً، جَعَلَهُ فيهِ، لا نَعْقِلُهُ نحنُ، أو بِلُطْفِهِ، [فهو قادرٌ][8] على إنشاءِ هذا الخَلْقِ وإعادَتِهِ بَعْدَ فَنائِهِ وذهابِهِ، وإنْ كانَتْ عقولُ الخلائِقِ، لا تُدْرِكُ ذلكَ، وأفهامُ البَشَرِ تَعْجَزُ عن دَرْكِهِ. فكما قَدَرَ على إنشاءِ ما هو طَبْعُهُ التَّسَرُّبُ في الماءِ والتَّسَفُّلُ فيهِ بحيثُ يَقِرُّ، ويَرْكُدُ على الماءِ، يَقْدِرُ على ما ذَكَرْنا، وحينَ[9] قَدَرَ على تَسْكينِ الأمواجِ في البَحْرِ لِيُعْبَرَ فيها، وخَلَقَ رِياحاً فيها لِتَجْرِيَ السُّفُنُ كما تَجْري في الماءِ الجاري.

فَمَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على ما ذَكَرْنا [مِنَ الإحياءِ بَعْدَ الفَناءِ].

---

(١) في الأصل وم: إياه. (٢) في الأصل وم: لكن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: فيها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) في الأصل وم: وحيث.

وفيهِ ما ذَكَرْنا[1] مِنْ تَذْكيرِ نِعَمِهِ لنا لِنَشكُرَهُ وتَذْكيرِ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ لِنهابَ منهُ، ولا نُنْكِرَ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ في شيءٍ مِنَ الأشياءِ على ما أنكَرَ قُدْرَتَهُ بَعْضُ خَلْقِهِ لِقُصورِ[2] عقولِهِمْ عَنْ دَرْكِ ذلكَ.

وفيهِ وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحَدُها: تَعْليمُ الأسبابِ التي بها يُوصَلُ إلى قَطْعِ البِحارِ والبَراري مِنِ اتِّخاذِ السُّفُنِ والحَمْلِ عليها وغَيرِ ذلكَ.

والثاني: تَسْخيرُ البحارِ والبراري لنا [ما لولا ذلكَ ما تَهَيَّأَ لنا][3] اسْتِعمالُ ذلكَ.

والثالثُ: دلالةُ الرسالةِ، إذْ لولا خَبرُ السماءِ، وإلّا ما يُعْرَفُ أنَّ ما يُحتاجُ إليهِ هو في تلكَ البلدانِ النائيةِ والأمكنةِ البَعيدةِ، وما يُعْلَمُ أنَّ ذلكَ الطَّريقَ، يَفْضي إلى تلكَ الأمكنةِ إلّا بِخَبَرِ الرسولِ عنِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ جَعَلَ لكُمُ الفُلْكَ والدوابَّ لِتَصِلوا بها إلى أرزاقِكُمُ التي في البلادِ النائيةِ البَعيدةِ. و قالَ بعضُهُمْ: إنهُ لم يَزَلْ بكُمْ رحيماً إذا تُبْتُمْ، ورَجَعْتُمْ عنْ ذلكَ. [وإنْ][4] كانتِ الآيةُ في المؤمنينَ فهو لم يَزَلْ بهِمْ رحيماً، وإنْ كانَتْ في الأرزاقِ ففيهِمْ جميعاً.

فإنْ قالتِ الثَّنَويَّةُ: [كيفَ تَصِفونَ رَبَّكُمْ][5] بالرَّحْمَةِ والرَّأفةِ، وهو يُميتُكُمْ، ويَقْتُلُكُمْ، ويَحْمِلُ عليكُمُ الشدائدَ والمُؤَنَ العِظامَ، فذلكَ ليسَ مِنْ صِفَةِ الرحيمِ؟

قيلَ: إنا قد ذَكَرْنا لكُمْ في غَيرِ مَوضعٍ جوابَ السُّؤالِ: أنَّ المَرْءَ رَحيمٌ على نفسِهِ، ولهُ الرَّحْمَةُ والشَّفَقَةُ عليها، ثم مَعَ ذلكَ يَحْمِلُ على نفسِهِ الشدائدَ والمُؤَنَ العِظامَ لِما يَأمُلُ مِنَ النَّفْعِ في العاقبةِ مِنْ نَحْوِ الحِجامَةِ والافْتِصادِ وشُرْبِ الأدويَةِ الكريهَةِ ما لو لا يَأمُلُ مِنَ النَّفْعِ في العاقبةِ ما يَحْمِلُ ذلكَ.

وكذلكَ الوالدانِ، فيهما مِنَ الرَّحْمَةِ والرَّأفَةِ لِوَلَدِهِما ما لا يَخْفَى ذلكَ على أحدٍ، ثم يُحَمِّلانِ وَلَدَهما ما ذَكَرَ مِنَ الشدائدِ والمُؤَنِ العظامِ لِما يَأمُلانِ[6] مِنَ النَّفْعِ لهمْ في العاقبةِ. ثم لا يَمْنَعُ ذلكَ مِنَ الوَصْفِ بالرَّحْمَةِ والرَّأفَةِ.

فَعَلى ذلكَ اللهُ ﷻ لا يَمْنَعُ ما يَحْمِلُ علينا مِنَ الشدائدِ عَنْ أنْ يُوصَفَ بالرحمَةِ، ولا يُخْرِجُهُ ذلكَ عنِ الحِكْمَةِ. بل هو على ما قالَ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤و٩٢].

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي بَطَلَ ما كانوا يأمُلونَ مِنْ عبادَتِهِمُ الأصنامَ إلّا العِبادَةَ التي كانَتْ للهِ فإنها[7] لم تَبْطُلْ لِما[8] يُؤَمِّلُ مِنْ عبادَتِهِمْ إياهُ، لأنهُمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوثانَ، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولونَ[9]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأخبَرَ ﷻ عنْ سَفَهِهِمْ لِعِبادتِهِمُ الأصنامَ وعَجْزِهِمْ عمّا يَأمُلونَ منها في الآخِرَةِ حينَ[10] لم يَمْلِكوا دَفْعَ شَيءٍ مِمّا مَسَّهُمْ وكَشْفَ ما أصابَهُمْ في الدنيا. فكيفَ يَأمُلونَ ذلكَ في الآخِرَةِ؟

أو يكونُ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي ضَلَّ الآلهةُ التي عَبَدوها دونَ اللهِ إلّا إلهَ الحَقِّ المُسْتَحِقَّ لِلْعِبادَةِ فإنهُ أعانَكُمْ، ونَجّاكُمْ مِنَ الهلاكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ هكذا كانَتْ عادَتُهُمْ: أنهمْ إذا خافوا الهلاكَ على أنفسِهِمْ أخلَصوا الدعاءَ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] وكقولِهِ: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [يونس: ٢٢ و٢٣]][11]

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل لقصوره. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل: إنكم تصفون بربكم. (٦) في الأصل وم: يأملون. (٧) في الأصل وم: فإنه. (٨) في الأصل وم: ما لم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ﴿فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن وَفاءِ ما عاهَدْتُمْ وإنجازِ ما وَعَدْتُمْ لأنهمْ قالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] فأعْرَضوا عن هذا الوعدِ، ولم يُوفوا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لِنِعَمِ ربِّهِ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: عبادَتُهُمْ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يُنْعِمُ عليهِمْ في حالِ الرَّخاءِ، ولا يَدْفَعُ عنهُمُ البلاءَ في حالِ الشِّدَّةِ.

والثاني: أنَّ الشاهدَ مَنْ أنعَمَ على آخَرَ نِعْمَةً، وأحْسَنَ إليهِ، يَشْكُرُ لهُ، ويُثْني عليهِ. وإذا حَلَّ بهِ بلاءٌ وشِدَّةٌ مِنْ أحَدٍ مِنَ الخَلائِقِ يَدْعو عليهِ، ويلْعَنُهُ.

فَمُعامَلَةُ أُولئكَ الكَفَرَةِ معَ اللهِ على خِلافِ مُعامَلَةِ الخَلْقِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً: يُخْلِصونَ لهُ الدعاءَ في حالِ الشِّدَّةِ والبلاءِ، ويَكْفُرونَ[1] نِعَمَهُ في حالِ الرَّخاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ على ما خَسَفَ قوماً في البَرِّ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ على ما أرْسَلَ على قومٍ مِنَ الحَصْباءِ، وهي الحَصَى، فأهْلَكَهُمْ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ناصراً، يَنْصُرُكُمْ، أو مُعْتَمَداً [تَعْتَمِدونَ][2] عليهِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي يُخْرِجَكُمْ إلى ركوبِ البَحْرِ مَرَّةً أُخرى ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أو يَذْكُرُ هذا: أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ما ذَكَرَ مِنَ الفُلْكِ وإجرائها في البَحْرِ وتَسْكينِ أمواجِهِ ودَفْعِ أهوالِهِ عنكُمْ قادِرٌ على إهلاكِكُمْ في البَرِّ وإعادَتِكُمْ في البَحْرِ ثانياً وإغراقِكُمْ فيهِ.

وفي قولِهِ: ﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] دلالةُ أنَّ لِلّهِ في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً، لأنهمْ هُمُ الذينَ يَسيرونَ في البَحْرِ، وهُمُ الذينَ يُجْرونَ الفُلْكَ فيهِ. ثم أضافَ الإجراءَ إلى نفسِهِ، وكذلكَ السَّيْرَ لِيُعْلَمَ أنَّ لهُ فيهِ صُنْعاً وفِعْلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تَبِيعًا﴾ أي مَنْ يَتْبَعُنا بِدمائكُمْ، ويُطالِبُنا بها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: التَّبيعُ الكفيلُ، ويُقالُ المُتَقاضي في مَوضِعٍ آخَرَ. وقالَ غيرُهُ: هو مَنِ اتَّبَعَهُ، أي لا تَجِدوا لكمْ علينا بهِ تَبِعَةً، وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: الحاصِبُ الريحُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها تَحْصِبُ أي ترمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، والقاصِفُ الريحُ الشديدةُ التي تَقْصِفُ الشَّجَرَ، أي تكْسِرُها. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: القاصفُ الشديدةُ مِنَ الرياحِ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ كَرَّمَهُمْ بأنْ خَلَقَهُمْ في أحْسَنِ صورةٍ كقولِهِ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وقَوَّمَهُمْ في أحسَنِ تقويمٍ وأحسَنِ قامةٍ كقولِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]

وكَرَّمَهُمْ بأنْ رَكَّبَ فيهِمُ العقولَ التي بها يَعْرِفونَ الكَراماتِ مِنَ الهَوانِ، ويَعْرِفونَ بها المَحاسِنَ مِنَ المَساوئِ والحِكْمَةَ مِنَ السَّفَهِ والخَيرَ مِنَ الشَّرِّ

وكَرَّمَهُمْ/ ٣٠٦ ـ أ/ بأنْ جَعَلَ لهمْ لِساناً يَتَكَلَّمونَ بهِ[3] الحِكْمَةَ وكلَّ خيرٍ، وبهِ[4] يَتَوَصَّلونَ إلى دَرْكِ الحِكْمَةِ وجَمْعِها.

وكَرَّمَهُمْ بأنْ جَعَلَ أرزاقَهُمْ أطْيَبَ الأرزاقِ، وجَعَلَ لِغَيرِهِمْ ما خَبُثَ منها وما فَضَلَ منهمْ.

وكَرَّمَهُمْ بأنْ جَعَلَ جميعَ ما على وجهِ الأرضِ لهمْ كقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]

وكَرَّمَهُمْ بأنْ سَخَّرَ لهمْ جميعَ الخَلائقِ كقولِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى [ٱلْأَرْضِ﴾][5] [الحج: ٦٥].

وجَعَلَ بَني آدمَ هُمُ المَقْصودونَ بِخَلْقِ جميعِ الخَلائقِ، ونَحوَهُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) و(٤) في الأصل وم: بها. (٥) في الأصل وم: السموات والأرض جميعاً منه.

وكَرَّمَهُم حينَ[1] جَعَلَهُمْ بحيثُ يَتَهَيَّأُ لهمُ اسْتِعْمالُ السماءِ والأرضِ واسْتِعْمالُ الشمسِ والقَمَرِ واسْتِعْمالُ البحارِ والبَراري وجميعِ الصِّعابِ والشَّدائدِ في حَوائِجِهِمْ ومَنافِعِهِمْ ما لا يَتَهَيَّأُ لِغَيرِهِمْ مِنَ الخَلائقِ ذلكَ.

فذلكَ تَفْضيلُهُمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ كَرَّمَ بَني آدمَ لأنهُ كَرَّمَ آدَمَ لأنهُ أسْجَدَ ملائكتَهُ لهُ، وبَعَثَهُ رسولاً إليهِمْ حينَ[2] ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فلما كَرَّمَ آدَمَ صارَ بَنوهُ مُكَرَّمينَ أيضاً. ولهذا نَقولُ: إنَّ[3] الأبَ يَصيرُ مَشْتوماً بِشَتْمِ ابْنِهِ.

وما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ فَضْلَ بَني آدَمَ على غَيرِهِمْ مِنَ الحَيَوانِ والدَّوابِّ حينَ أكَلُوا، وشَرِبوا هُمْ بأيديهِمْ، وسائرُ الدَّوابِّ يأكُلونَ بأفواهِهِمْ. هذا الذي ذَكَروا، هو مِنَ التفضيلِ. إلّا أنَّ ذِكْرَهُ لهُ خاصَّةً، ليسَ فيهِ كثيرُ حِكْمَةٍ وفَضْلٍ. لكنْ فَضَّلَهُمْ، وكَرَّمَهُمْ بِما ذَكَرْنا مِنْ وُجوهِ الكراماتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هذا تَفْسيرُ ما ذَكَرَ مِنْ تَكْريمِ بَني آدَمَ وتَفْضيلِهِ إياهُمْ. ثم يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ جَعَلَ لهمُ البَرَّ والبَحْرَ مُسَخَّرَينِ حتى يَصِلوا إلى ما في باطِنِ البَحْرِ وظاهِرِهِ مِنْ أنواعِ المالِ والمَنافِعِ، وكذلكَ البَرُّ، سَخَّرَ لهمْ حتى يَصِلوا إلى مافي باطِنِهِ مِنَ الأموالِ والمَنافِعِ وظاهِرِهِ.

والثاني: أنْ جَعَلَهُمْ بحيثُ يَقْضونَ حَوائِجَهُمُ التي كانَتْ لهمْ مِنْ وراءِ البَرِّ ما لم يَجْعَلْ ذلكَ لِغَيرِهِمْ مِنَ الخلائِقِ قَضاءَ الحَوائِجِ مِنْ وَرائِهِما.

وذلكَ مَعْنَى تَفْضيلِهِمُ الذي ذَكَرَ. ثم ما ذَكَرَ على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ وهو تفسيرُ تَفْضيلِهِ وإكرامِهِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ تكريمِ بَني آدمَ وتَفْضيلِهِ إيّاهُمْ، هو ما جَعَلَ فيهِمْ مِنَ الأنبياءِ والرسلِ والأتْقِياءِ والأخيارِ منهُمْ ما لم يَجْعَلْ ذلكَ في غَيرِهِمْ.

ألَا تَرَى أنَّ موسى قالَ: ﴿لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وقولَهُ: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنْ جَعَلَ أرزاقَهُمْ وغِذاءَهُمْ ما بَلَغَ في الطِّيبِ غايَتَهُ؟ ولا كذلكَ غِذاءُ غَيرِهِمْ مِنَ الدَّوابِّ ورِزْقُهُمْ لأنهمْ لا يأكُلونَ إلّا بَعْدَ أنْ يَسْتَخْرِجوا منهُ ما فيهِ مِنْ أذىً وخُبْثٍ وخُشونَةٍ مِنَ النُّخالَةِ وغَيرِها، وفي الطَّبْخِ والنُّضْجِ حتى يَبْلُغَ في الطِّيبِ واللِّينِ غايَتَهُ؟

وأمّا غَيرُهُمْ[5] مِنَ الدَّوابِّ فإنهمْ يأكلونَ كما هو نيًّا غَيرَ مَطْبوخٍ ولا نَضِجٍ، وفيهِ مِنَ الخُبْثِ والأذى [الكثيرُ.

وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ قالَ بعضُ أهلُ التأويلِ[7]: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ على الجِنِّ والشياطينِ وأصحابِهِمْ غَيرِ الملائكةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مِنَ الحَيَوانِ الدَّوابِّ ﴿تَفْضِيلًا﴾ بالأكْلِ بالأيدي وجَعْلِ رِزْقِهِمْ مِنْ غَيرِ رِزْقِ الدَّوابِّ.

ويَحْتَمِلُ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مِمَّنْ على وَجْهِ الأرضِ مِنَ الجِنِّ وغَيرِهِمْ لِما لم يُرْسَلْ إلى الجِنِّ رسولٌ منهمْ، ولا أُنْزِلَ كتابٌ على حِدَةٍ، وما جَعَلَ أرزاقَهُمْ ممّا يَفْضُلُ مِنَ العِظامِ والسِّرْقينِ وغَيرِهِ على ما ذَكَرَ. فذلكَ وجْهُ تَفْضيلِهِمْ عليهِمْ.

وأمّا الكلامُ في تَفْضيلِ البَشَرِ على الملائكةِ والملائكةِ على البَشَرِ فإنّا لا نَتَكَلَّمُ في [ذلكَ لأنّا][8] لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ. فالأمْرُ فيهِ إلى اللهِ في تَفْضيلِ هؤلاءِ على هؤلاءِ وهؤلاءِ على هؤلاءِ، ليسَ إلينا مِنْ ذلكَ شيءٌ، ولا جائزٌ أنْ يُجْمَعَ بَينَ أشَرِّ البَشَرِ وأفْسَقِهِمْ وبينَ الملائكةِ الذينَ لم يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عينٍ، فَيُقالُ: هُمْ أفْضَلُ مِنَ الملائكةِ.

ولكنْ إنْ كانَ، لا بُدَّ، فإنما يُجْمَعُ بَينَ الأنبياءِ والرسلِ وأتْقى الخَلائِقِ وبَينَ الملائكةِ، فَيُتَكَلَّمُ حينئذٍ بتَفْضيلِ بَعْضٍ على بَعْضٍ، فهو ما ذَكَرْنا أنَّ الأمْرَ في ذلكَ إلى اللهِ، ليسَ إلينا مِنْ ذلكَ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بأن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في م: غيره. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: فإنه قال. (٨) في الأصل: ذلك، في م: شيء من ذلك.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٥٢] فيُقالُ[1]: أيَّ يومٍ؟ فيقولُ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَدْعو بإمامِهِمْ أي بِدينِهِمُ الذي دانوا به، وذَبُّوا عنهُ، و يُدْعَى كلٌّ بدينِهِ الذي دانَ به، وذَبَّ عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي بِرُؤَسائِهِمْ وأئمَّتِهِمُ الذينَ أضَلُّوهُمْ، أي يُدْعَى الأتباعُ بِأئمَّتِهِمْ ورُؤَسائِهِمُ الذينَ أضَلُّوا، حتى يَلومَ بعضُهُمْ على بَعْضٍ، ويَلْعَنَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ، ويَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كقولِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية [البقرة: ١٦٦] وقولِهِ ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقولِهِ: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] يُدْعَى الأتباعُ بالمَتبوعِينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: يُدْعَى كلُّ أناسٍ بِداعيهِمُ الذي دَعاهُمْ: إنْ كانَ رسولاً فَبِالرسولِ، وإنْ كانَ شيطاناً فَبِالشيطانِ، وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ بِكتابِهِمُ الذي كَتَبَ الملائكةُ أعمالَهُمْ فيهِ. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ بِكتابِهِمُ الذي أُنزِلَ عليهِمْ. يُدْعَى كُلٌّ بِما ذَكَرَ لِيَعْلَموا أنَّ الحُجَّةَ قد قامَتْ عليهِمْ، وأوجَبَتْ لهمُ العذابَ باتِّباعِهِمْ ما اتَّبَعوا بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

وحاصِلُ أقاويلِ هؤلاءِ يَرْجِعُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ نَدْعو إمامَ كلِّ أناسٍ: [إنْ][2] كانَ إمامُهُمْ في خيرٍ أو شرٍّ، فَيُجْزَى لهُ جزاؤُهُ، ثم يُكَلَّفُ هو دُعاءَ أتباعِهِ إلى ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ الثوابِ والعقابِ.

والثاني: يُدْعَى كلُّ إمامٍ ورئيسٍ في خيرٍ أو شرٍّ بأتباعِهِ الذينَ يَتَّبِعونَهُ في ما يدعوهُمْ إليهِ: [كلُّ][3] رسولٍ يُدْعَى بقومِهِ الذينَ اتَّبَعوهُ[4]، وكلُّ رئيسٍ وشيطانٍ [بِمَنْ][5] اسْتَتْبَعَهُمْ.

والثالثُ: إمامُهُمْ كتابُهُمُ الذي كَتَبَ أعمالَهُمْ [التي كَسَبوا][6] كقولِهِ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ كلُّهُمْ قد يَقْرَؤونَ كتابَهُمْ. غيرَ أنَّ المؤمنَ إذا نَظَرَ في الكِتابِ فَرِحَ بِهِ، واسْتَبْشَرَ بما فيهِ، فَسَهُلَ عليهِ القراءةُ، وهانَتْ، لِما كانَ يَتْبَعُ حُجَجَ اللهِ.

وأمّا الكافرُ، إذا نَظَرَ في الكِتابِ حَزِنَ، واغْتَمَّ بهِ، فَعَسُرَ عليهِ قراءةُ كتابِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩و٢٠] وكقولِهِ[7]: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥و٢٦] لأنهُ اتَّبَعَ بلا حُجَّةٍ.

أو يكونُ المؤمنُ إذا نَظَرَ في كتابِهِ، ورأى[8] سَيِّئاتِهِ مَغْفورةً كقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] فَرِحَ بذلكَ. والكافرُ رَأى سَيِّئاتِهِ باقيةً عليهِ وحَسَناتِهِ، قد بَطَلَتْ، حَزِنَ بذلكَ، واغْتَمَّ[9] لِذلكَ قالَ ما قالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عنْ توحيدِ اللهِ والإيمانِ بهِ مع كَثْرَةِ آياتِهِ ودَلالاتِهِ[10] على وَحْدانيَّتِهِ فهو عنِ الإيمانِ بالآخِرَةِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ أعْمى.

---

(١) في الأصل وم: فيقول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: اتبعوهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الذي كتبوا. (٧) في الأصل وم: ويقول الكافر. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: واهتم. (١٠) في الأصل وم: ودلالته.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ الدنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عنِ الحقِّ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن حُجَجِهِ، لأنهُ إذا عَمِيَ عنِ الحقِّ فهو عن حُجَجِهِ أعمى، فتكونُ ﴿فِي﴾ بمعنى عَنْ؛ إذِ الآياتُ والدلالاتُ على وَحدانيَّةِ اللهِ أكثرُ وأظهرُ مِنَ الدَّلالةِ على البَعْثِ والآخِرَةِ؛ إذْ ليسَ شيءٌ إلا وفيهِ أثرُ وَحدانيَّتِهِ ودَلالةُ الوهيَّتِهِ، ولا كذلكَ الآخِرَةُ، فهو عنِ الإيمانِ بها أشدُّ عَمىً.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ عَمِيَ في هذهِ الدنيا عنِ الإيمانِ باللهِ فهو في الآخِرَةِ أعمى عنِ الإيمانِ بهِ، لأنَّ الدنيا ممّا يُقبَلُ فيها الإيمانُ، وفي/٣٠٦ ـ ب/ الآخِرَةِ لا يُقبَلُ، وهو ما قالَ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] أي ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ مِنَ الإيمانِ بهِ كما فُعِلَ بأشياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، أي كما حِيلَ بَينَ أشياعِهِمْ وبَينَ الإيمانِ بهِ عندَ مُعايَنَةِ بأسِ اللهِ وعذابِهِ، وهو قولُ الحَسَنِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ قريباً مِنْ هذا، وهو أنَّ مَنْ عَمِيَ عنِ الرُّشْدِ والحَقِّ في هذهِ الدنيا لِجَهْلِهِ بهِ فهو في الآخِرَةِ عِنْدَ عِلْمِهِ بالرُّشْدِ والحَقِّ أشَدُّ عَمىً، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ عَمِيَ قَلْبُهُ في الدنيا عنِ الإيمانِ باللهِ والتوحيدِ لهُ فهو في الآخِرَةِ أعمى الوَجْهِ والحَواسِّ كقولِهِ: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا﴾ [طه: ١٢٥] وكقولِهِ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ الآية [الإسراء: ٩٧] ما ذَكَرَ: ذاهبةً حَواسُّهُمْ، لِما تَرَكوا الانتفاعَ بها في الدنيا لِما جُعِلَتْ لهمُ الحَواسُّ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ بالافتراءِ على اللهِ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ أي مُفتَرٍ على اللهِ أيضاً كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ونَحوُهُ: يَفتَرونَ في الآخِرَةِ، ويُكَذِّبونَ كما كَذَّبوا في الدنيا، وكقولِهِ: ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣] ثم أخبرَ عنهُمْ فقالَ[1]: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقالَ قَتادَةُ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا في ما أراهُ اللهُ مِنْ آياتِهِ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ والجبالِ والنجومِ ﴿أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الغائبةِ عنهُ التي لم يَرَها ﴿أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ [النِّعَمِ ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عنْ][2] أنْ يَعْلَمَ أنها مِنَ اللهِ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن حُجَّتِهِ، ويُقالُ عنْ دينِ اللهِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ يَعْني الكافِرَ، عَمِيَ عنها، وهو يُعايِنُها، فلا يَعْرِفُ أنها مِنَ اللهِ، فَيَشْكُرُ ربَّها ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ يقولُ: عمّا غابَ عنهُ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ مِنْ أمْرِ البَعْثِ والجزاءِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ وأخطأُ طريقاً. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ دلَّ على هذا أنهُ قد كانَ مِنَ الكَفَرَةِ شيءٌ [مِنَ الدعاءِ إلى شيءٍ][3] يَصيرُ مَفتوناً لو أجابَهُمْ إلى ذلكَ. وكذلكَ كانَتْ عادةُ الكَفَرَةِ [يكادونَ يُضِلُّونَ][4] رسولَ اللهِ ﷺ ويَفْتِنونَهُ[5] عنِ الذي أُوحِيَ إليهِ، ويَصرِفونَهُ[6] عنهُ، كقولِهِمْ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: ١٥] هكذا كانَتْ عادَتُهُمْ؛ كانوا يَطْلُبونَ منهُ الافتِراءَ على اللهِ والضَّلالَ على وَجْهِ المَكْرِ بهِ لا ضَلالَ على وَجْهِ المَكْرِ بهِ لا ضَلالَ تَصريحٍ وكُفْرَ تَصريحٍ، ولكنْ بِمَعْنىً[7]: يؤدِّي ذلكَ إلى الضَّلالِ والكُفْرِ؛ يُريدونَ المُساعَدَةَ لهمْ في بعضِ ما هُمْ فيهِ بما كانوا يَرَونَهُ مِنَ الموافَقَةِ لهُ والمُساعَدَةِ.

لكنَّ اللهَ عَصَمَ رسولَهُ عنْ جميعِ ما كانوا يَطْلُبونَ منهُ بالآياتِ التي ذَكَرَ في كتابِهِ وبالعقولِ كقولِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الآية [النساء: ٦٥] أخبرَ أنهم لا يؤمنونَ حتى ﴿لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا﴾ [النساء: ٦٥] قَضى. ومَنْ لم يكنْ مَعصوماً يَجُزْ[8] أنْ يُوجَدَ منهُ حَرَجٌ ممّا قَضى بهِ، وكقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ

---

(١) في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل: أعمى النعم أعمى، في م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كادوا أن يضلوا. (٥) في الأصل وم: يفتنوه. (٦) في الأصل وم: ويصرفوه. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يجوز.

﴿وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] ومَنْ لم يكُنْ مَعْصوماً يَجُز[1] أنْ يُؤذى، وتَلْحقَه[2] اللَّعْنَةُ، وقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية[الأحزاب: ٣٦] فَمَنْ لم يكُنْ مَعْصوماً يَجُز[3] أنْ تكونَ[لَهُ][4] الخِيَرَةُ مِنْ أمرِهِ، وقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١] وأمثالُهُ ممّا يَكْثُرُ عَدَدُها[5].

وكذلكَ العقولُ تَشْهَدُ أنهُ كانَ مَعْصوماً. فَمَنْ أرادَ أنْ يَصْرِفَ، ويُزيلَ عنهُ العِصْمَةَ بِتأويلٍ، يَتَأوَّلُهُ في بَعْضِ الآياتِ، أو بِحديثٍ، يَرْويهِ، فإنّا لا نَقْبَلُ تأويلَهُ ولا خَبَرَهُ[6] الذي رَوى، ونَشْهَدُ أنهُ كَذِبٌ.

ويجوزُ أنْ يكونَ في خَبَرِهِ الذي رَوى مَعْنىً آخرَ سِواهُ، فليسَ لهُ أنْ يَرْوِيَ إلّا بالمَعْنى الذي كانَ فيهِ.

فتأويلُ أهلِ التأويلِ أنهُ ألْقى عليهِ الشيطانُ، ولَقَّنَهُ عندَ تِلاوَتِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩و٢٠] تلكَ الغَرانيقُ العُلَى، شَفاعَتُهُنَّ تُرْتَجى.

وقالَ بعضُهُمْ: لا نَدَعُكَ تَسْتَلِمُ الحجرَ إلّا أنْ تَسْتَلِمَ آلِهَتَنا، ونَحْوُهُ.

إنَّ ذلكَ كلَّهُ فاسِدٌ خَيالٌ؛ إنهُ كانَ لا يَحومُ حَولَ أصْنامِهِمْ في حالِ صِغَرِهِ، ولا رَأوهُ دَنا مِنها حتى لم يَطمَعُوا بذلكَ[7] الاِسْتِلامِ بَعْدَما أُوحِيَ إليهِ، وصارَ رسولاً؟ وكذلكَ ما ذَكَرُوا أنهمْ طَلَبوا منهُ أنْ يَطْرُدَ بَعْضَ الذينَ اتَّبَعوهُ عنهُ ليكونوا هُمْ أتباعَهُ[8]، فَهَمَّ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ، فَنَزَلَ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. لكنَّ ذلكَ كلَّهُ فاسدٌ خَيالٌ؛ لا يُحْتَمِلُ ما تَوَهَّمُوا فيهِ، لأنهمْ لم يَعْرِفوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وإلّا لو عَرَفوهُ حَقيقَةَ المَعْرِفَةِ ما تَوَهَّمُوا فيهِ شيئاً مِنْ ذلكَ، وباللهِ التوفيقُ والمعونَةُ. ثم قولُهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ عادَتَهُمْ ذلكَ، إلّا أنَّ اللهَ عَصَمَهُ عنْ ذلكَ.

الآية ٧٤ ثم قولُهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ظاهِرُ[9] الآيةِ يَرُدُّ جميعَ ما قالَ أهلُ التأويلِ في هذهِ الآيةِ، يقولُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾

أخبَرَ أنهُ، وقد ثَبَّتَهُ، فلم يَرْكَنْ، لأنهُ أخبَرَ أنهُ قد ثَبَّتَهُ، فلم يَكَدْ يَرْكَنُ إليهِمْ، وقالَ: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ سَمّى ذلكَ شيئاً يَسيراً. ولو كانَ ما قالَ أُولئكَ لكانَ شيئاً كبيراً عظيماً، بلْ يَبْلُغُ الكُفْرَ، دلَّ أنهُ لم يكُنْ ما ذَكَروا.

وقالَ: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ وكادَ، هو حَرْفُ [بِمَعْنى][10] قارَبَ أنْ يَرْكَنَ كقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي تُقارِبُ[11] أنْ ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] وليسَ فيهِ أنهُ رَكَنَ إليهِمْ. فقولُهُمْ فاسِدٌ لِلْوُجوهِ التي ذَكَرْنا﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾

وما قالوا كثيرٌ عظيمٌ [لِوجوهٍ: أحدُها][12]: يُخافُ أنْ يَبْلُغَ الكُفْرَ.

والثاني: قالَ ﴿كِدتَّ﴾ وهو حَرْفُ تَقارُبٍ.

والثالثُ: ذَكَرَ على الشرطِ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فلم يَرْكَنْ لِما ثَبَّتَهُ، وهو ما قالَ إبراهيمُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وما ذَكَرْنا في قصةِ يوسُفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] فَليسَ فيهِ أنهُ هَمَّ، ولا فيه أنهُ، رَكَنَ، لأنهُ خَرَجَ على الشرطِ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾أي هَمَمْتَ، لكنهُ هَمَّ بهِ هَمَّ خَطَرٍ، خَطَرَهُ إبليسُ.

كذلكَ في قصةِ يوسفَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هَمَّ عَزْمٍ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ خَطَرٍ [الآية: ٢٤].

وقالَ غَيرُهُ: أرادوا منهُ أنْ يَجْعَلَ لهمْ مَجْلِساً على حِدَةٍ لِيُسْلِموا، فَهَمَّ بِهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ لِحِرْصِهِ على إسلامِهِمْ وإشفاقاً عليهِمْ. فَمِثْلُ هذا يَجوزُ الفِعْلُ. إلّا أنَّ الرُّسُلَ لا يَجوزُ لهمْ أنْ يَفْعَلوا شيئاً، وإنْ صَغُرَ إلّا بإذْنِ اللهِ. ألَا تَرى أنَّ يونسَ لمّا

---

(١) في الأصل وم: يجوز. (٢) في الأصل وم: ولا تلحقه. (٣) في الأصل وم: يجوز. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عدها.
(٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أتباعهم. (٩) في الأصل وم: نظاهر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قارب. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

خرَجَ مِنْ عندِ قومِهِ مُغاضِباً عليهِمْ بِغَيرِ إذْنٍ منهُ عاتَبَهُ ربُّهُ مُعاتَبَةً عظيمةً حينَ[1] قالَ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؟ [الصافات: ١٤٣و١٤٤].

ومِثْلُ هذا لو فَعَلَهُ غَيرُهُ مِنْ دونِهِ[2] كانَ مَمْدوحاً مَحْموداً في ذلكَ. فهذا يَدُلُّ على أنَّ الأنبياءَ لم يَكُنْ لهمْ صُنْعُ شيءٍ، وإنْ قَلَّ، إلا بإذْنِ اللهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي ضِعْفَ عَذابِ الحَياةِ وضِعْفَ عَذابِ المَماتِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [أي مِثْلَ الحَياةِ][3] عَذابَ [الدنيا][4] ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ عَذابَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ قيلَ: ناصِراً، يَنْصُرُكَ، وشافِعاً، يَشْفَعُكَ إلينا واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي لَيَقْتُلُونَكَ، أو لَيُخْرِجونَكَ منها بالقَتْلِ. وقد كانوا هَمّوا قَتْلَهُ، لكنْ عَصَمَهُ اللهُ عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ/ ٣٠٧ ـ أ/ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هكذا كانَتْ سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ الخالِيَةِ؛ إنهمْ إذا قَتَلوا نَبِيَّهُمْ لم يَلْبَثوا بَعْدَهُ إلّا قليلاً حتى أُهْلِكوا.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الإخراجِ نفسِهِ، إلّا أنَّ اللهَ ﷻ أخرَجَهُ إخراجَ هِجْرَةٍ إلى المدينةِ لِما سَبَقَ مِنْ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، أي لا يُهْلِكُ هذهِ الأمّةَ إهلاكَ اسْتِئْصالٍ. فلو كانوا هُمْ أخرَجوهُ لاسْتَوجَبوا بهِ الإهلاكَ لِما كانَ مِنْ سُنَّتِهِ في الأوَّلِينَ إهلاكُهُمْ إذا أخرَجوا رسولَهُمْ مِنْ بَينِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على حَقيقَةِ الإخراجِ منهُمْ؛ أخرَجوا رسولَ اللهِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وفَعَلوا ذلكَ، فلم يَلْبَثوا بَعْدَهُ إلّا قليلاً حتى أهْلَكَهُمُ اللهُ بالقَتْلِ يَومَ بَدْرٍ وغَيرِهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] ففيهِ دلالةُ أنهمْ أخرَجوهُ، وأنهمْ أُهْلِكوا بذلكَ. وكذلكَ كانَتْ سُنَّةُ اللهِ في الرُّسُلِ إذا فَعَلَ بهمْ قومُهُمْ مِثْلَ ذلكَ.

وقالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي يَسْتَنْزِلونَكَ مِنْ أرضِ المدينةِ حيثُ نَزَلَ بالمدينةِ.

قالَتْ لهُ اليهودُ: إنَّ هذهِ الأرضَ ليسَتْ بأرضِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، إنما أرضُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أرضُ الشامِ، فإنْ كُنْتَ نَبِيّاً رسولاً فاخْرُجْ إليها، فَخَرَجَ الرسولُ، ﷺ مُتَوَجِّهاً إلى الشامِ، فَعَسْكَرَ على رأسِ أميالٍ لِيَنْسابَ إليهِ أصحابُهُ، فَنَزَلَ بهِ جبريلُ بهذهِ الآيةِ.

لكنْ ذَكَرْنا أنَّ هذا وأمثالَهُ، لا يَحْتَمِلُ، لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يَخْرُجَ رسولُ اللهِ مِنْ أرضِ المدينةِ إلى أرضِ الشامِ بقولِ أولئكَ اليهودِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ مِنَ اللهِ إذْنٌ لهُ في ذلكَ. هذا، لا يُحْتَمَلُ، ولا يُتَوَهَّمُ منهُ ذلكَ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي كادوا يَفْتِنونَكَ بالمَكْرِ والخَديعةِ لكَ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لا لأنهُمْ[5] كانوا يَطْمَعُونَ يَفْتِنونَكَ، ويُضِلُّوهُ عنِ الذي أوحِيَ إليهِ على التَّصْريحِ والإفْصاحِ، ولكنْ على جِهَةِ المَكْرِ والخَديعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ على قولِ الحَسَنِ: السُّنَّةُ في الأُمَمِ التي[6] قَبْلَهُ أنهمْ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: دونهم. (٣) من م، في الأصل: وغيره قال: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي مثل الحياة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: الذي.

إذا قتلوا الرسولَ أُهلِكوا، وعُذِّبوا. وعلى قولِ بعضِهِمْ: السُّنَّةُ فيهِمْ أنهمْ إذا أخرَجوا الرسولَ مِنْ بَيْنِهِمْ على عِلْمٍ منه أنهمْ لا يُؤمِنونَ بَعْدَهُ الإهلاكُ. وعلى قولِ بعضِهِمْ: على الإخراجِ نَفْسِهِ.

وهؤلاءِ قد أخرَجوا رسولَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ بقولِهِ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية [التوبة: ٤٠] وقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣] لكنَّهُمْ عُذِّبوا تعذيبَ رَحْمَةٍ وإهلاكَ رَحْمَةٍ، لا إهلاكَ استِئصالٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لِعَذابِنا تَحويلاً.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ الأمْرَ بإقامةِ الصلاةِ الأمْرَ بالدَّوامِ عليها واللُّزومِ بها، أيِ الزَمْ بها، وأدِمْها، أوِ اسْمَ التَّمامِ والكمالِ، أيْ أتِمَّها، وأكمِلْها، بالشرائِطِ التي أُمِرْتَ بها.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ افْعَلْها. ولم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الانتِصابُ على ما يُنْصَبُ الشيءُ، ويُقامُ بِهِ. فَدَلَّ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنَ الخِطابِ ظاهِرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ زوالِها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي إلى ظُلْمَةِ الليلِ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي صلاةَ الفَجْرِ. فيقولُ الناسُ: في هذهِ الآيةِ بَيانُ أوقاتِ الصَّلَواتِ الخَمْسِ جميعاً لأنهُ ذَكَرَ أوَّلَ ما يَجِبُ مِنَ الصلاةِ، وهو[1] الظهرُ إلى ما يَنْتَهي، وهو[2] الفَجْرُ فَعَلَى هذا التأويلِ ﴿إِلَىٰ﴾ لا تكونُ غايةً، ولكنْ تكونُ كأنهُ قالَ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وغَسَقِ الليلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِدُلُوكِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: دُلوكُ الشمسِ زوالُها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي إلى ظُلْمَةِ الليلِ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: فيهِ ذِكْرُ صلاةِ النهارِ لأنهُ ذَكَرَ دلوكَ الشمسِ، وهو زوالُها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وغَسَقُ الليلِ هو بَدْءُ ظُلْمَةِ الليلِ، فَيَدْخُلُ فيهِ الظُّهرُ والعَصْرُ. فَعَلَى تأويلِ هذا يكونُ حَرْفُ ﴿إِلَىٰ﴾ غايةً، لا تَدْخُلُ صلاةُ الليلِ فيهِ.

ثم تَخصيصُ الخِطابِ لِرسولِ اللهِ ﷺ والأمْرُ لهُ بإقامةِ الصلاةِ، يكونُ كأنهُ قالَ: أقِمْ لهمُ الصلاةَ. [فإنْ][3] كانَ هذا ففيهِ دَلالةُ صِحَّةِ صلاةِ القومِ بِصلاةِ الإمامِ وتَعَلُّقِ صلاتِهِمْ بِصلاةِ الإمامِ حينَ[4] قالَ: أقِمْ لهمُ الصلاةَ. ولو كانَ كلُّ أحدٍ يُقيمُ صلاةَ نفسِهِ لكانَ لا يقولُ: أقِمْ لهمُ الصلاةَ، ولكنْ يقولُ: صَلِّ الصلاةَ. فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أقِمِ الصلاةَ للذي تَدْلُكُ لهُ الشمسُ كقولِهِ ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ الآية [النحل: ٤٨]

والثاني: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لِلْوَقْتِ الذي يَلي دلوكَ الشمسِ [إلى غَسَقِ الليلِ، وأقِمْ قرآنَ الفَجْرِ أي صلاةَ الفَجْرِ][5] ثم تخصيصُ الفَجْرِ لِما ذَكَرَ حينَ[6] قالَ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فالتَّخصيصُ[7] لِقرآنِ الفَجْرِ لأنهُ مَشهودٌ، والفَرْضيَّةُ بها لِقولِهِ: ﴿أَقِمِ﴾ قراءةَ الصلاةِ على ما ذَكَرْنا ثم قولِهِ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي لم يَزَلْ في عِلْمِ اللهِ ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ أو صارَ مَشهوداً ثم قولِهِ[8]: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ وصلاةَ الفَجْرِ.

وإنما ذَكَرَ صَلَواتِ النهارِ، فَدَخَلَتْ[9] صلاةُ الليلِ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ لكنهمْ يقولونَ: إنَّ التَّهَجُّدَ بَعْدَ النومِ، وقد يُكْرَهُ النومُ قَبْلَ فِعْلِ المَغْرِبِ والعِشاءِ، فلا يَصِحُّ هذا.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: دُلوكُ الشمسِ غروبُها، وهو قولُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ وغَيْرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: فيهِ ذِكْرُ صلواتِ الليلِ لأنهُ ذَكَرَ بَدْءَ ظُلْمَةِ الليلِ، وذلكَ بالغروبِ، وقرآنَ الفَجْرِ لأنهُ[10] هو آخِرُ ما تَنْتَهي [بِهِ][11] ظُلْمَةُ الليلِ [ولأنهُ بِهِ][12] تَبْقَى ظُلْمَةُ الليلِ إلى وقتِ الفَراغِ مِنَ الفَجْرِ.

---

(١) في الأصل وم: وهي. (٢) في الأصل وم: وهي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: الصلاة.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الفاء ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قال. (٩) في الأصل وم: فدخل. (١٠) في الأصل وم: إن.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: لأنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ يحتمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهما: القرآنُ يكونُ كِنايةً عن صلاةِ الفجرِ، كأنهُ قالَ: أقِمِ الصلاةَ ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وأقِمْ أيضاً صلاةَ الفَجرِ لأنهُ نَسَقَ على الأوَّلِ.

والثاني: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ أي قراءةَ[1] الفجرِ، أي أقِمْ قراءةَ الفَجْرِ.

ويجوزُ أنْ يُقالَ: القرآنُ مكانَ القراءةِ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] أي قراءَتَهُ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ احتجَّ بِفَرضِيَّةِ القراءةِ في الصلاةِ بهذا لأنهُ نَسَقَ على الأوَّلِ على ما ذَكَرْنا، كأنهُ [قالَ][2]: وأقِمِ القراءةَ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: إنما حَثَّ على قراءةِ الفَجْرِ دونَ غيرِها مِنَ الصلواتِ لمّا طَوَّلَ القراءةَ فيها لِتَقصيرِها عنِ الأربعِ لأنهُ لم يَجْعَلْ غَيرَها مِنَ الصَّلَواتِ ركعتَينِ، فَحَثَّ على قِراءَتِها لهذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: تَشْهَدُهُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ [أي حَرَسُ الليلِ][3] وحَرَسُ النهارِ، وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الآثارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنِ الصحابةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي قراءةُ الفَجْرِ، تَشْهَدُها[4] ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ. على هذا حَمَلَهُ أهلُ التأويلِ، وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ. وإلّا جازَ أنْ يُقالَ فيهِ [وَجْهٌ][5] آخَرُ، وهو أنْ تَشْهَدَهُ القلوبُ والأسماعُ[6] والعقولُ، لأنَّ ذلكَ الوَقْتَ، هو وقتُ الفراغِ عنْ جميعِ الأشغالِ والمَوانِعِ التي تَشْغَلُ عنِ الاستِماعِ والفَهْمِ عنهُ مالا يكونُ ذلكَ الفراغُ لِغَيرِها مِنَ الصلواتِ مِنْ صلاةِ المَغْرِبِ والعِشاءِ لأنهما بقُرْبٍ مِنَ الأشغالِ والحَوائِجِ. ألا تَرى أنَّ الجَهْرَ بالقراءةِ إنما جُعِلَ في الأوقاتِ التي هي أوقاتُ الفراغِ عنِ الاشتِغالِ، وهي المَغْرِبُ والعِشاءُ؟ ثم وَقْتُ الفَجْرِ هو أخلَى وَقْتٍ عنْ غيرِهِ لأنهُ بَعْدَ فَراغِ النومِ وقَبْلَ هجومِ وَقْتِ التَّقَلُّبِ، فالقراءةُ [فيهِ أسمَعُ، والقُلوبُ أشهَدُ لهُ][7]. لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا ذلكَ إلى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: النافِلَةُ الغنيمةُ كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] أي الغنائمِ/ ٣٠٧ ـ ب/ وقولُهُ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي غَنيمةً لكَ تَغْنَمُ بها غنائمَ، أو كلاماً[8] نَحْوَ هذا.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ [أي خالصةً لكَ][9] وخُلوصُهُ لهُ [هو أنهُ][10] لا يَغْفُلُ هو عَنْ شَيءٍ منها في حالٍ مِنَ الأحوالِ، وغَيرُهُ مِنَ الناسِ يَغْفُلونَ فيها عَنْ أشياءَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ أنهُ نافِلَةٌ لكَ لأنهُ كانَ مغفوراً لهُ؛ فما يَعْمَلُ يكونُ لهُ نافِلَةً. وأمّا غيرُهُ فإنَّ ما يَعْمَلُ مِنَ الخَيراتِ، يكونُ كَفّارَةً لذنوبِهِ[11]، فلا يكونُ لهُ نافِلَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قالَ [بعضُهُمْ][12]: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تُحْمَدُ عاقِبَتُهُ بالتَّهَجُّدِ، أي يَبْعَثُكَ ربُّكَ مَقاماً تَحْمَدُ أنتَ [تلكَ][13] العاقبةَ جزاءَ تَهَجُّدِكَ في الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ما يَحْمَدُهُ كلُّ الخلائقِ الأوّلونَ والآخِرونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ هو مَقامُ الشَّفاعةِ، واللهُ أعلَمُ، أي تَشْفَعُ لِأُمَّتِكَ[14] وأهلِ العِصْيانِ منهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هو صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] وقولِهِ: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] وقولِهِ: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] وما سَمِعَ مِنَ المَواعيدِ؛ لمّا سَمِعَ هذا، وقَرَعَ سَمْعَهُ ذلكَ، أخافَهُ، وأفْزَعَهُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ إنْ عَبَدْتَ اللهَ، وأطَعْتَهُ في جميعِ أُمورِهِ ونَواهيهِ، وأقَمْتَ لهُ الصلاةَ والصيامَ.

---

(١) من م، في الأصل: قرآن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: تشهده. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والسمع. (٧) في الأصل وم: فيها والقلوب أشهد لها. (٨) في الأصل وم: كلام. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وهو أن. (١١) في الأصل وم: لذنوبهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) اللام ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ ظاهِرُ هذا الخِطابِ يكونُ لِرسولِ اللهِ ﷺ حينَ[1] أمَرَهُ أنْ يَدْعُوَ ممّا ذَكَرَ، وقد عَرَفَ هو ما أمَرَهُ مِنَ الدعاءِ بقولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ فلا حاجَةَ، تَقَعُ لنا إلى أنْ نَطْلُبَ المُرادَ مِنْ ذلكَ إلا أنْ يكونَ لِغَيرٍ في ذلكَ اشْتِراكٌ، فعندَ ذلكَ نَتكلَّفُ فيهِ، ونَطْلُبَ المُرادَ منهُ.

وقد تَكَلَّمَ أهلُ التأويلِ في ذلكَ؛ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ كانَ النَّبِيُّ ﷺ بمكّةَ، ثم أُمِرَ بالهِجْرَةِ منها إلى المدينةِ، وأُمِرَ أنْ يَدْعُوَ بهذا الدعاءِ ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ في المدينةِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ آمِناً على زَغْمِ اليهودِ ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ مِنَ المدينةِ إلى مكةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ آمناً على زَغْمِ كُفّارِ مكةَ ظاهِراً عليهِمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ عليهِمْ، فَفَعَلَ اللهُ ذلكَ لهُ، وأجابَهُ؟

وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ حَرْفَ السلطانِ، يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ: يكونُ مَرَّةً عِبارَةً عن حُجَّةٍ قاهِرَةٍ غالِبَةٍ، ويكونُ[مَرَّةً][2] عِبارةً عنْ وَلايَةٍ نافِذَةٍ غالِبَةٍ، ويكونُ [مَرَّةً][3] عِبارةً عنِ اليَدِ الظاهِرَةِ الغالِبَةِ أيضاً. وقد كانَ بِحَمْدِ اللهِ ومِنَّتِهِ لِرسولِ اللهِ على الكَفَرَةِ ذلكَ كُلُّهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ في مكةَ لِيَعْلَمَ أهلُ مكةَ أني قد بَلَّغْتُ الرسالةَ ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ منها ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ لِيَعْلَمَ يهودُ المدينةِ أني نُصِرْتُ، وبَلَّغْتُ ما أُمِرْتُ بهِ.

وقالَ الحَسَنُ: أخرِجْني مِنْ مكةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وأدخِلْني في الجنةِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ في ما حَمَّلْتَني مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ وما أمَرْتَني بها لِأُؤَدِّيَها على ما أمَرْتَني وأُبَلِّغَ الرسالةَ إلى الخَلْقِ على ما كَلَّفْتَني، ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي أخرِجْني ممّا كَلَّفْتَني سالماً، لا تَبِعَةَ عليَّ، أو كلاماً[4] نَحْوَهُ.

وأصلُهُ كأنهُ أمَرَهُ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ الصِّدْقَ في جَميعِ أفعالِهِ وأقوالِهِ وفي جميعِ ما يَتَعَبَّدُهُ بهِ مِنَ الدُخولِ في أمْرٍ أوِ الخُروجِ منهُ؛ إذْ لا يَخْلو العبدُ مِنْ هذينِ مِنَ الدخولِ في أمْرٍ والخُروجِ منهُ. سَأَلَهُ الصِّدْقَ في كلِّ حالٍ وكلِّ دُخولٍ وكلِّ خُروجٍ.

وقالَ مجاهِدٌ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ في الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: حُجَّةً منهُ، وقد أقامَها على الكَفَرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ أيِ اجْعَلْ في قلوبِ الناسِ هَيْبَةً لِيَهابوني، وقد كانَ في الهَيْبَةِ بِحيثُ هابوهُ مِنْ مَسيرَةِ شَهْرَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو السلطانُ الذي يَنْصُرونَ بهِ الدينَ، ويُقيمون الحدودَ والأحكامَ ونَحْوَهُ.

وقيلَ: السلطانُ هو إقامةُ الحدودِ والأحكامِ والشرائِعِ، وهو تَفْسيرُ الوَلايَةِ، لأنهُ بالوَلايَةِ ما يُقيمُها، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الوَلايَةِ وإقامةِ الأحكامِ.

ثم قيلَ في الصِّدْقِ والإخلاصِ: قالَ بعضُهُمْ: الإخلاصُ هو ألّا يَجْعَلَ[المَرْءُ لِشيءٍ][5] بِقَلْبِهِ نَصيباً لِأحَدٍ سِواهُ، والصِّدْقُ [إنْ جَعَلَ فلا][6] يَجِدُ لِذلكَ لَذَّةً.

الصِّدْقُ عندَنا أنْ يَجْعَلَ الفَضْلَ في جميعِ أفعالِهِ للهِ تعالى، لا يَجْعَلُ لنفسِهِ شيئاً مِنَ الفَضْلِ. وعلى ذلكَ يَلْزَمُهُ الشُّكْرُ لربِّهِ في جميعِ خيراتِهِ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: لمّا مَكَرَ كفارُ [مكةَ][8] برسولِ اللهِ ﷺ لِيُثْبِتوهُ، أو يَقْتُلوهُ، أو يُخْرِجوهُ، أرادَ[9] اللهُ تعالى بقاءَ أهلِ مكةَ، فأمَرَ نَبِيَّهُ أنْ يَخْرُجَ منها مُهاجِراً إلى المدينةِ، وعَلَّمَهُ ما يقولُ، فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ وَعَدَهُ اللهُ [بأنْ يَنْزِعَ][10] مُلْكَ فارسَ والرومِ، ويَجْعَلَهُ لأمتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كلام. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) في الأصل وم: الشيء. (٦) في الأصل وم: وان جعل لا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فأراد. (١٠) في الأصل وم: لينزعن.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ قال بعضُهُمْ: جاء الحقُّ، وهو الإسلامُ، وقيلَ: جاءَ الحقُّ القرآنُ، وقيلَ: جاءَ الحَقُّ أي محمدٌ. أو يقولُ: جاءَ آثارُ الحقِّ، فَذَهبَ الباطلُ وآثارُهُ، أو جاءَ حُجَجُ الحقِّ وبراهينُهُ، وذهبَ شُبَهُ الباطلِ وتَمْويهاتُهُ. والحقُّ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الإسلامِ ورسولِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ أي ذَهَبَ، وبَطَلَ غَيْرُهُ مِنَ الأديانِ وغَيْرُه مِنَ المذاهِبِ وعبادَةُ الأصنامِ ونَحوُ ذلكَ.

قالوا: وأصلُهُ أنَّ الناسَ كانوا في حَيرَةٍ وتيهٍ قبلَ بَعْثِ الرسولِ لمّا كانوا فَقَدوا دينَ اللهِ وَسبيلَهُ منذُ كانَ رُفِعَ عيسى مِنَ الأرضِ إلى السماءِ، لا يَجِدونَ سَبيلَ اللهِ، ولا يَهْتَدونَ إلى شَيءٍ، حَيارىٰ، حَزانىٰ، حتى بَعَثَ اللهُ محمداً لِيَدْعُوَهُمْ إلى دينِ اللهِ، ويُبَيِّنَ لهمْ سَبيلَهُ الذي كانَ يَتَمَسَّكُ بِهِ الأنبياءُ مِنْ قَبْلِهِ ويُخرِجَهُمْ مِنْ تلكَ الحَيرةِ التي كانوا فيها، فَفَعَلَ ﷺ فذلكَ الذي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الذي فَقدوهُ، فَسُرُّوا بذلكَ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ أي ذَهَبَ، واضمَحلَّ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي ذاهباً مُضمَحِلًّا، لا يُجْدي خيراً، ولا يُعْقِبُ لأهلِهِ نَفْعاً، والحَقُّ هو الذي يُعْقِبُ، ويُجْدي نفعاً لأهلِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾لم يَفْهَمْ أهلُ الخِطابِ بِمَجيءِ الحَقِّ الإنْتِقالَ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ ولا بذهابِ الباطلِ على ما يُفْهَمُ مِنْ مَجيءِ فلانٍ وذهابِ فلانٍ، بل فَهِموا مِنْ مَجيءِ الحقِّ ظُهورَهُ وعُلُوَّهُ، وفَهِموا من زُهوقِ الباطلِ وذهابِهِ فَناءَهُ واضمِحْلالَهُ وتَلاشِيَهُ.

وعلى ذلكَ لم يَفْهَموا مِنْ مَجيءِ الأعراضِ ما فَهِموا مِنْ مَجيءِ الأجسامِ والأجسادِ. فَعَلَى ذلكَ لا يَجِبُ أنْ يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] الإنْتِقالَ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وكذلكَ لا يُفْهَمُ من قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤و...] اسْتِواءُ الخَلْقِ ولا مِنْ نُزولِهِ نزولُ الخَلْقِ على ما لم يُفْهَمْ ممّا أُضيفَ إلى الأعراضِ مِنَ الأفعالِ ما فَهِموا مِنَ الأجسادِ والأجسامِ، بل فَهِموا مِنَ الآخرِ.

فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ ممّا أُضيفَ إلى الخَلْقِ، بل يَتَعالى عنْ أنْ يُشْبِهَ الخَلْقَ، أو يُشْبِهَهُ الخَلْقُ في مَعْنىً مِنَ المَعاني أو في وَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، بل هو كما وَصَفَ نفسَهُ [بِقولِهِ][1] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ كأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في ابْتِداءِ الأمْرِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ ولم يَقُلْ: ونَزَّلْنا ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ نفسَ القرآنِ، وهو ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ المَواعيدَ التي في القرآنِ مِنْ وقائِعَ، تكونُ عليهِمْ، وكانَ في ذلكَ شِفاءٌ للمؤمنينَ كقولِهِ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾/٣٠٨ ـ أ/ الآيةَ [التوبة: ١٤] أو نقولُ بأنهُ يَجوزُ: نَفْعَلُ بِمَعْنَى فَعَلْنا، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

ثم قولُهُ: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ﴾ أي شِفاءٌ لِلْمُسْتَشْفِينَ في الدنيا، ورَحْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ به، وعَمىً وخَسارةٌ وظُلْمَةٌ لِمَنْ أعْرَضَ عنهُ، ونَظَرَ إليهِ بِعَينِ الاسْتِخْفافِ والاسْتِثْقالِ.

وأمّا مَنْ نَظَرَ إليهِ بِعينِ التَّعْظيمِ والإجلالِ فهو لهُ شِفاءٌ ورَحْمَةٌ.

وإنْ كانَ القرآنَ نَفْسُهُ [كانَ][3] شِفاءً ونوراً. وهكذا في الشاهِدِ: أنَّ من أبصَرَ شيئاً إنما يُبْصِرُ بِنورِ البَصَرِ وبِنورِ الهواءِ بارْتِقاءِ[4] ما يَسَّرَ النُّورَينِ جميعاً، لأنهُ إذا كانَ أعْمَى[5] البَصَرِ لم يُبْصِرْ شيئاً، وإنْ كانَ نورُ الهواءِ مُتَجَلِّياً، وكذلكَ لا تبصِرُ شيئاً إذا كانَ نُورُ البَصَرِ مُتَجَلِّيًا بَعْدَ أنْ سَتَرَتِ الظُّلْمَةُ نورَ الهواءِ.

فإنْ كانَ ما ذَكَرْنا أنهُ لا يُبْصِرُ في الشاهِدِ شيئاً إلّا بِنورَينِ: نُورِ البَصَرِ ونُورِ الهواءِ، فالكافِرُ لم يُبْصِرْ نُورَ القرآنِ وشِفاءَهُ لِما سَتَرَتِ الظُّلْمةُ نورَ قلبِهِ، والمؤمنُ أبصَرَ نورَهُ وشفاءَهُ بِنُورِ إيمانِهِ. وهكذا الأدويةُ فإنها لا تُجْدي نَفْعاً، وإنْ كانَتْ نافعةً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: بارتفاع. (٥) في الأصل وم: عمى.

شافيةً في نفسِها، إلّا بقبولِ الطبيعةِ، لأنَّ الطَّبْعَ إذا لم يَقْبَلْها، وإنْ كانَتْ شافيةً نافِعَةً، لم تَنفَعْ صاحِبَها، ولم يكُنْ له[1] شِفاءً، وصارَتْ كأنها في الأصلِ كانَتْ ضارَّةً غيرَ شافيةٍ فَعَلَى ذلكَ القرآنُ، وإنْ كانَ في نَفْسِهِ شِفاءً ونُوراً، وصارَ للكافرِ عمىً وخَساراً، كأنْ لا شِفاءَ فيهِ، ولا رَحْمَةَ لِما سَتَرَتْ ظُلْمَةُ الكُفْرِ نورَهُ، فَصارَ كالزائدِ لهُ رِجساً وطُغياناً ونفوراً، وهو ما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ النِّعْمَةُ التي ذَكَرَ، هو محمدٌ لِما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا في حَيرةٍ وعمىً، لا يَجِدونَ السَّبيلَ إلى دينِ اللهِ، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] فذلكَ [هو][2] الإعراضُ الذي ذكروا، واللهُ أعلَمُ. فَبَعَثَ اللهُ محمداً ﷺ لِيَدْعُوَهُمْ إلى دينِ اللهِ، ويُبَيِّنَ سَبيلَهُ، فذلكَ مِنهُ نِعْمَةٌ عظيمةٌ، أعْرَضُوا عنهُ، وتباعَدوا عنهُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهُ إذا وَسَّعَ عليهِ الرِّزْقَ والعَيْشَ أعْرَضَ عنِ الدعاءِ له، وتباعَدَ بجانبِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي يائساً مِنَ الخيرِ ألّا يَعودَ إليهِ أصلاً. وهكذا كانَتْ عادَتُهُمْ أنهمْ كانوا يُخْلِصونَ الدعاءَ لهُ إذا مَسَّهُمْ سوءٌ وأصابَتْهُمْ شِدَّةٌ، ويَكْفُرونَ بهِ إذا انْجَلَى ذلكَ لهمْ، وانْكَشَفَ، كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] [وقولِهِ][3]: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وأمثالِهِ.

وكانَ الناسُ كُلُّهُمْ فِرَقاً أربَعَةً: منهمْ مَنْ كانَ مَذْهَبُهُمْ ما ذَكَرْنا أنهمْ كانوا يُخْلِصونَ لهُ الدعاءَ في حالِ الشِّدَّةِ، ويَكْفُرونَ في حالِ الرَّخاءِ. ومنهُمْ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ في حالِ الرَّخاءِ والنِّعْمَةِ، ويَكْفُرُ في حالِ الشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١] وهُمْ أهلُ النِّفاقِ. ومنهم مَنْ يَكْفُرُ في الأحوالِ كلِّها كقولِهِ[4].

والفِرْقَةُ الرابعةُ هُمْ أهلُ الإسلامِ، يؤمنونَ بهِ في حالِ الرَّخاءِ وفي حالِ الشِّدَّةِ في الأحوالِ كلِّها.

على هذا كانوا في الأصلِ، وعلى هذا يَجيءُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ مِنَ الأصنامِ كقولِهِ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] فيكونُ إياسُهُمْ مِنَ الأصنامِ التي عَبَدوها.

لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الإياسِ مِنَ الخيرِ من ألّا[5] [يعودَ إليهمْ].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ لَسْنا نَعْلَمُ أنهُ أيُّ سَبَبٍ كانَ هنالكَ حتى قالَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾؟ إذْ لا يَجوزُ أنْ يُقالَ هذا بلا سَبَبٍ كانَ منهُمُ ابْتِداءً. لكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ[6] قالَ هذا على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ لِما لَمْ يَزِدْهُمْ دعاؤُهُ إياهُمْ وكَثْرَةُ تِلاوَةِ آياتِهِ عليهِمْ وإقامَةُ حُجَجِهِ عليهِمْ إلّا عِناداً وإنكاراً. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على دينِهِ وطريقتِهِ كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وكقولِهِ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] فهو كلُّهُ على الإياسِ مِنْ أنْ يُؤْمِنوا بهِ، ويَقْبَلوا دينَهُ.

ثم قالَ: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي ربُّكُمْ أعلَمُ بِمَنْ منا على الهُدَى ومَنْ ليسَ، أو مَنْ[7] مِنّا أهْدَى سَبيلاً نَحْنُ أو[8] أنتُمْ؟

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الشاكِلَةُ: الحاضِرَةُ[9]، أي على ناحِيَتِهِ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على خَليقَتِهِ. وقالَ: قُطْرُبُ: على طَريقَتِهِ، وكانَ هذا أشْبَهَ. وقالَ بعضُهُمْ: على نِيَّتِهِ. وقيلَ: على دينِهِ ومَذْهَبِهِ. وقيلَ: على جَديلَتِهِ ومِنْهاجِهِ. وكلُّهُ يَرْجِعُ إلى واحدٍ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ: أي كلٌّ يَعْمَلُ[10] بما هو الشَّبِيهُ بِهِ وما هو يُشْبِهُهُ، لأنَّ الشَّكْلَ هو ما يُشْبِهُ الشيءَ؛ يُقالُ: هذا شَكْلُ هذا.

---

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: بياض في الأصل، ولعل المقصود قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: الحافرة. (١٠) في الأصل وم: عمل.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على قولِ مَنْ يقولُ: على خليقتِهِ [التي][1] خُلِقَ عليها، لأنهُ خُلِقَ على ما عَلِمَ منهُ ما[2] يختارُ، ويُؤثِرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] قيلَ: ذاهباً باطلاً، لا يُجدي لأهلِهِ نفعاً، لأنهُ يَتلاشى، ولا يَبقى، والحقُّ يُجدي لأهلِهِ نفعاً، ويَبقى. وعلى ذلكَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلَ الحقِّ بالشَّيءِ الذي يَبقى، وضَرَبَ مَثَلَ الباطلِ بالذي لا يَبقى ولا يَثبُتُ، فقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وقد ذكَرْنا في موضِعِهِ ضَرْبَ مَثَلِ الباطلِ بالزَّبَدِ، وهو يَتلاشى، ولا يُنتَفَعُ بهِ. فعلى ذلكَ الباطلُ.

وضَرَبَ مَثَلَ الحقِّ بالماءِ، وهو يَبقى في الأرضِ، ويَنفَعُ الناسَ، وضَرَبَ مثلَ الباطلِ أيضاً بالشَّجرةِ الخبيثةِ التي اجتُثَّتْ مِنْ فوقِ الأرضِ، ولا يكونُ لها قرارٌ بقولِهِ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٦] وضَرَبَ مَثَلَ الحقِّ بالشَّجرةِ الطَّيِّبَةِ الثابتةِ في الأرضِ ذاتِ القرارِ والثَّباتِ بقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] فهو على ما وَصَفَها: الحقُّ ثابتٌ باقٍ، ولهُ قرارٌ، يَنفَعُ أهلَهُ، والباطلُ يُرى، ثم يَتلاشى، ولا بقاءَ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [اختُلِفَ فيه:

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الرُّوحُ القرآنُ ههنا كقولِهِ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾][3] أي مِنْ تدبيرِ ربِّي، ما لَوِ اجتَمَعَ الخلائقُ ما قَدَروا على مِثْلِهِ.

فإنْ قيلَ: كيفَ سَألوا عنِ القرآنِ، وهُم لم يُقِرّوا بالقرآنِ؟ قيلَ[4]: سَمَّوهُ قرآناً ورُوحاً على ما عندَهُ؛ أعني عندَ رسولِ اللهِ، كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] وهُم لم يكونوا أقَرّوا أنهُ رسولٌ، ولكنْ سَمَّوهُ رسولاً لِما عندَ نفسِهِ وزعمِهِ [أنهُ][5] رسولٌ، أي ما لهذا الذي يَزْعُمُ أنهُ رسولٌ يأكُلُ الطعامَ؟ فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ وهو الذي بهِ حياةُ الأبدانِ مِنْ هَلاكِ الضلالِ، أي مَنْ تمَسَّكَ بهِ نجا مِنْ هَلاكِ الضلالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي بأمرِ ربِّي يَنزِلُ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي مِنْ خَلْقِ ربي [ما لَوِ اجتَمَعَ الخلائقُ ما قَدَوا على مِثْلِهِ][7] وهما[8] واحدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرُّوحُ هو المَلَكُ، وإنما سألوهُ عنهُ كقولِهِ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] يَعني المَلَكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما سألوهُ عنِ الرُّوحِ المَعْروفِ الذي بهِ حياةُ الأبدانِ، لكنهُ لم يُجِبْهُمْ، فوَكَلَ أمْرَهُ[9] إلى اللهِ لِما لا يُدرِكونَ ذلكَ، لو بَيَّنَ لهم وأمثالَهُ.

ورُوِيَ عنْ أبي يوسُفَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ كانَ يَنهى عنِ الخوضِ[10] في الكلامِ، ويَحتَجُّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ حينَ[11] سألوهُ عنِ الروحِ، فلم يُجِبْهُمْ، ولكنْ فَوَّضَ أمْرَهُ إلى اللهِ، وما سُئِلَ عنِ الأحكامِ إلّا وقد بَيَّنَ لهم كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٩] وقولِهِ[12]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآيةَ [الأنفال: ١] [وقولِهِ][13] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] [وقولِهِ][14] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] [وقولِهِ][15]: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: ١٢٧].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فقال. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م. (٨) أدرج قبلها في الأصل: فإن قيل. (٩) من م، في الأصل: أمر. (١٠) من م، في الأصل الحق.
(١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

مِثْلُ هذا ما سُئِلَ عنْ شيءٍ مِنَ الأحكامِ إلّا وقد أجابَهُم، وبَيَّنَ لهمْ بياناً شافياً، وقالَ ههنا: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: إنَّ اللهَ قد أمَرَ بالتَّكَلُّمِ في الكلامِ بقولِهِ: ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ الآيةَ[النحل: ١٢٥] وقولِهِ[1]: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ الآيةَ[الكهف: ٢٢] ونَحْوِهِ فكيفَ نَهَى عنِ الخَوضِ في الكلامِ؟

لكنَّ أبا يوسفَ إنما نَهَى /٣٠٨ ـ ب/ عنِ الخَوضِ في الكلامِ الذي لا يُدْرَكُ، ولا يَزيدُ الخَوضُ فيهِ إلا حَيرةً وضَلالاً نَحوَ ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «تَفَكَّروا في المَخلوقِ ولا تَفَكَّروا في الخالقِ» [أبو نعيم في الحلية ٦/ ٦٦ و٦٧] لأنهُ لا يُدْرَكُ. فالتَّفَكُّرُ في ما لا يُدْرَكُ، لا يَزيدُ إلّا عَمىً وحَيرةً وتيهاً. وأمّا الخَوضُ في الذي يُدْرَكُ، ويُعْقَلُ، فإنه لم يَنْهَ عنْ مِثْلِهِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا مِنْ إباحةِ التَّكَلُّمِ في الدينِ والخَوضِ في الكلامِ في كثيرٍ مِنَ الآياتِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآيةَ [النحل: ١٢٥] ونَحْوُهُ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، ولا نُفَسِّرُ الرُّوحَ: ما هو؟ لِما لا نَعْلَمُ أنهمْ ما أرادوا بالرُّوحِ، وهُمْ قد عَلِموا ما أرادوا، أو عَلِمَ رسولُ اللهِ ﷺ ما سَألُوا ذلكَ عمّا في كُتُبِهِمْ لِيَعْلَموا صِدْقَهُ في ما يَدَّعي مِنَ الرسالةِ لِما عَلِموا أنَّ غَيرَ الرسولِ لا يَعْلَمُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ الذي بهِ مَصالِحُكُمْ، وما جاءَكُمْ إلّا قليلاً.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ الذي عندَهُ إلّا قليلاً، وهو هكذا: أنّا لم نُؤْتَ مِنَ العِلْمِ إلّا عِلْمَ ظواهِرِ الأشياءِ وباديها، لم نُؤْتَ عِلْمَ بَواطِنِ الأشياءِ وحَقائِقِها. وذلكَ أنّا نَعْلَمُ أنَّ البَصَرَ، يُبْصِرُ، والسَّمْعَ، يَسْمَعُ، واللسانَ، يَنْطِقُ، واليَدَ تَقْبِضُ، وتأخُذُ، والرِّجْلَ، تَمْشِي، والعَقْلَ، يُدْرِكُ. لكنْ لا نَعْلَمُ المَعْنَى الذي جُعِلَ فيهِ؛ بهِ يَسْمَعُ، وبهِ يُبْصِرُ، وبهِ يَنْطِقُ، وبهِ يأخُذُ، وبهِ يَمْشي، وبهِ يُدْرِكُ.

وكذلكَ نَعْرِفُ هذهِ الجواهِرَ التي نُشاهِدُها، ونُعايِنُها، بأنَّ هذا حمارٌ، وهذا ثورٌ، وهذا كذا. ولكنْ لا نَعْرِفُ المَعْنى الذي صارَ [فيهِ][2] هذا حماراً، وهذا ثوراً. وكذلكَ كلُّ [الجَواهِرِ والأجناسِ][3] فلا نَعْرِفُ مِنَ العلومِ التي أنشأها اللهُ إلّا القليلَ منها: ظَواهِرَها، وأمّا الحَقائقُ فلا.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مَنْ يَقولُ بأنَّ الروحَ الذي سألوهُ عنهُ هو الوَحْيُ، والقرآنُ الذي أُنزِلَ عليهِ يَحتَجُّ بهذهِ الآيةِ وبقولِهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] لِما خَرَجَ ذِكْرُها على إثْرِ سؤالِ الرُّوحِ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

وقد ضَلَّ بهذهِ الآيةِ فَريقانِ الحَشْوِيَّةُ والمُعْتَزِلَةُ. أمّا الحَشْوِيَّةُ فإنهمْ يقولونَ: إنَّ القرآنَ والكلامَ هو صِفَةُ اللهِ الذي هو لم يَزَلْ بهِ مَوصوفاً، وإنهُ لا يُزايِلُهُ. ثم يَقولونَ: القرآنُ في المصاحفِ بِعَيْنِهِ، وهو في الأرضِ وفي القلوبِ. فقولُهُمْ مُتَناقِضٌ، لأنهُ إذا كانَ صِفَتَهُ، لا هو ولا غَيرُهُ، لا يجوزُ أنْ يكونَ في المصاحِفِ أعني القرآنَ، ويُقالُ: هذا حكايةٌ عنْ ذلكَ.

وأمّا المُعْتَزِلَةُ فإنهمْ يُنْكِرونَ خلقَ أفعالِ العبادِ، ثم يقولونَ: إنَّ القرآنَ مَخلوقٌ. فَعَلَى زَعْمِهِمْ[4] يكونُ القرآنُ والكلامُ ما يُكْتَبُ، ويُثْبَتُ، ويُمْحَى، وذلكَ فِعْلُ العبادِ، ثم يقولونَ: أفعالُهُمْ غَيرُ مخلوقةٍ. فذلكَ تَناقُضٌ في القولِ بَيِّنٌ.

وعلى قولِنا: ما ذُكِرَ مِنَ الذهابِ والمَجيءِ؛ كلُّهُ على المَجازِ، أيِ المُوافَقَةِ لا على الحَقيقةِ كما يُقالُ: سَمِعْتُ كلامَ فلانٍ وقولَ فلانٍ ونَحْوَهُ. فذلكَ كلُّهُ على المَجازِ لا على التَّحقيقِ، لأنهُ لا يَسْمَعُ قولَ فلانٍ حقيقةً ولا كلامَهُ ولا حديثَهُ، ولكنْ يَسْمَعُ صوتاً، يَفْهَمُ بهِ قولَهُ وكلامَهُ وحديثَهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، يَذْهَبُ بالذي يُسْمَعُ، ويُكْتَبُ. أما حقيقةُ ذلكَ فلا يُوصَفُ بشيءٍ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: جواهر وأجناس. (٤) من م، في الأصل: زعم.

وبعدُ فإنهُ، قد أُضيفَ المَجيءُ إلى الذي لا يُعْرَفُ منهُ ذلكَ.

ثم يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ حتى لا يَظْهَرُ بهِ. وإلّا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ أنهُ لو شاءَ لَذَهَبَ بالذي أُوحيَ إليهِ، وقادرٌ عليهِ، ولهُ رَفْعُهُ. وكذلكَ يَعْرِفُ هذا كلُّ مُؤمِنٍ.

وإنْ كانتِ الآيةُ على الابْتِداءِ فهو يُخرَّجُ على ذِكْرِ المِنَّةِ والرَّحمَةِ، أي لهُ أنْ يَرْفَعَ هذا الذي أوحَى إليهِ ليَعْلَموا أنَّ إبقاءَ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ فَضْلٌ منهُ ورحْمَةٌ. وكذلكَ الوَحْيُ إليهِ في الابْتِداءِ وبَعْثُهُ رسولاً إليهِم [فَضلٌ واخْتِصاصٌ لا اسْتِحْقاقٌ منهُ واستِيجابٌ][1] كقولِهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] وقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٣] أخبَرَ أنَّ النُّبُوَّةَ لهُ وما أرْسَلَ إليهِ [اخْتِصاصٌ منهُ وفَضلٌ واسْتِحقاقٌ][2] منهُ.

فَعَلَى ذلكَ إبقاءُ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ رَحْمَةٌ وفَضلٌ[3] منهُ.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ مِنْ وُجوهٍ:

أحَدُها: ما قالوا: [إنَّ اللهَ لا يَخْتارُ][4] أحداً لرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ إلّا مَنْ كانَ مُسْتَحِقاً لها ومُسْتَوجِباً لذلكَ؛ وقد أخْبَرَ أنهُ بِفَضْلِهِ واخْتِصاصِهِ أرسَلَهُ رسولاً، وبِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أبقاها، وتَرْكَها، بَعْدَ ما أوْحَى إليهِ، وأرْسَلَهُ رسولاً.

والثاني: فيهِ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ ما ليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ حينَ أوعَدَ لهمْ بِرَفْعِ ما أوحَى إليهِ، وأرسَلَهُ، وإذهابِهِ إيّاهُ، ولا يُوعِدُ إلّا بما لهُ أنْ يَفْعَلَ ما أوعَدَ، إذْ لا يُوعِدُ بما ليسَ لهُ الفِعْلُ في الحكمةِ. ثم لا شَكَّ أنْ يُقالَ: النُّبُوَّةُ وتَرْكُ ما أوحَى إليهِ أصْلَحُ لهمْ مِنْ رفْعِها وتَرْكِهِ إياهُمْ خُلُوًّا عنْ ذلكَ. دلَّ أنهُ قد يَفْعَلُ ما ليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ.

والثالثُ[5]: أنهُ يُكلِّفُ خَلْقَهُ التوحيدَ والإيمانَ، وإنْ لم يُرْسِلْ رسولاً، ولا أوحَى إليهِ وَحياً، لأنهُ مَعْلومٌ أنهُ لو لم يُرْسِلِ الرسولَ، ولا كانوا مُكَلَّفينَ في أنفسِهِمْ لَكانَ خَلْقُهُ إيّاهُمْ عَبَثاً لِيَتْرُكَهُمْ سُدىً، فَدَلَّ أنهمْ مُكَلَّفونَ بتوحيدِهِ ومعرفتِهِ، وإنْ لم يرسِلْ، ولا أوحَى حينَ[6] أخبَرَ أنَّ بَعْثَ الرسالةِ وإبقاءَها فَضلٌ منهُ ورحْمَةٌ بقولِهِ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إبقاءُ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ رَحْمَةٌ مِنْ ربِّكَ، وفَضْلُهُ ايضاً في إبقاءِ ذلكَ [كبيرٌ].

والرابعُ[7]: أنَّ الحِفظَ والنِّسيانَ، وإنْ كانا مِنَ العبدِ، فَلِلَّهِ فيهما صُنْعٌ، بهِ يَحْفَظُ حينَ[8] قالَ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أخبَرَ أنهُ لو شاءَ لَذَهَبَ بالمَحفوظِ في القَلْبِ، ويُنْسِيهِ. دلَّ أنَّ لهُ قدرةً في فِعْلِ العَبْدِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وجهٌ آخَرُ[9] مِنَ الحِكْمَةِ، وهو أنْ يَعْلَمَ المؤمنونَ أنَّ الفَضلَ كلَّهُ مِنَ اللهِ لئلّا يَرُدُّوا لأنفُسِهِمْ في ذلكَ فَضْلاً ومَعْنىً، وإليهِ يُضيفونَ[10] جميعَ ما يجري على أيديهِمْ مِنْ أفعالِ الخَيرِ والطاعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

ثم [قولُهُ تعالى][11]: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ما قَدَرُوا عليهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ أي بهِ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي ليسَ هو شيئاً[12]، إذ لا مِثْلَ لَهُ.

---

(١) في الأصل وم: فضلاً واختصاصاً لا استحقاقاً منه واستيجاباً. (٢) في الأصل وم: اختصاصاً منه وفضلاً واستحقاقاً. (٣) في الأصل وم: وفضلاً. (٤) في الأصل وم: أن لا يختار الله. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: كبيراً وفيه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) هو الخامس. (١٠) من م، في الأصل: يصنعون. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: شيء.

فدلَّ أنَّ قولَهُ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي لا يَقْدِرونَ أنْ يأتوا بهِ بَعْدَ ما عَرَفوهُ، وعايَنوهُ. فَلأنْ لا يَقْدِروا على إتيانِهِ ابْتِداءً قَبْلَ أنْ يَنْظُروا فيهِ، ويَعْرِفوا[1] أمثالَهُ أشَدُّ وأبْعَدُ، إذْ نَظْمُ الشيءِ وتَصويرُهُ[2] بَعْدَما عايَنوا الأشياءَ والصُّوَرَ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنْ تَصويرِها[3] قَبْلَ أنْ يُعايِنوها، ويُشاهِدوها[4].

وجائزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ بهذِهِ الآيَةِ على أنهُ كانَ مَبعوثاً إلى الإنسِ والجِنِّ جميعاً حينَ[5] قالَ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ لأنهُ لو لم يكنْ [مَبْعوثاً إلى الفريقَينِ جميعاً لم يَكُنْ][6] لِذِكْرِهما مَعْنىً وفائدةٌ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ [في][7] الجِنِّ مَنْ لِسانُهُ لِسانُ العَرَبِ، إذْ لو لم يَكُنْ [ذلكَ لم يَكُنْ][8] يَذْكُرُ أولئكَ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإنسُ معَ الإنسِ، والجِنُّ معَ الجِنِّ، أو الإنسُ معَ الجِنِّ، أي][9] هؤلاءِ مَعَ هؤلاءِ ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾.

وقالَ بَعْضُ /٣٠٩ - أ/ أهلِ التأويلِ: إنما ذَكَرَ هذا لِقولِهِمْ: إنهُ ﴿سِحْرٌ﴾ [المائدة: ١١٠و...] وقولِهِمْ[10]: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقولِهِمْ: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وقولِهِمْ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] ومِثْلِهِ. يَقولونَ[11]: إنَّ الإفْكَ والسِّحْرَ وما ذَكَرْتُمْ لا يكونُ إلّا مِنْ هذينِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فأخبَرَ أنهمْ لوِ اجْتَمَعوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما قَدَروا عليهِ.

والدلالةُ على أنهمْ عَجِزوا عنْ ذلكَ، ولم يَطْمَعْ أحَدٌ منهُمْ [في][12] ذلكَ إلّا سَفيهٌ، أظْهَرَ اللهُ سَفَهَهُ وكَذِبَهُ في القرآنِ حيثُ قالَ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣١و٣٢] لم يَسْألِ التوفيقَ إنْ كانَ هو حَقًّا، ولكنْ سألَ العَذابَ ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

دَلَّ أنهُ كانَ سَفيهاً غايةَ السَّفَهِ بقولِهِ[13]: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ثم ارتابَ فيهِ، وشَكَّ بقولِهِ: ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ وإلّا لم يَطْمَعْ، ولم يَخْطُرْ بِبالِ أحدٍ مِنَ الخلائقِ التَّكَلُّفُ لذلكَ. دَلَّ أنهُ آيَةٌ مُعْجِزَةٌ مِنَ اللهِ تعالى.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ قيلَ: مِثْلَ نَظْمِهِ ورَصْفِهِ، وقيلَ: مِثْلَ حَقِّهِ وصِدْقِهِ.

ويَحْتَمِلُ: مِثْلَ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ. ويَحْتَمِلُ: مِثْلَ إحكامِهِ وإتقانِهِ. يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ هذهِ الوجوهَ الخَمْسَةَ التي ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أي بالذي رَفَعَ، وذَهَبَ بهِ على التأويلِ الذي جَعَلْناهُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ بالذي ذَهَبَ بهِ، ورَفَعَ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي لا يَقْدِرونَ على إتيانِهِ.

وإنْ كانَ على الابْتِداءِ فهو على المِثْلِ، أي لا يَقْدِروا عليهِ بَعْدَ ما قَرَعَ سَمْعَهُمْ هذا. فلو كانَ في وُسْعِهِمْ هذا لَفَعَلوا لِيَخْرُجَ قولُهُمْ صِدْقاً وقولُ الرسولِ كَذِباً. فإنْ لم يَفْعَلوا ذلكَ، ولم يَتَكَلَّفوا، دَلَّ أنهمْ عَرَفوا أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ وأنَّهُ آيَةٌ مُعْجِزَةٌ خارِجَةٌ عنْ وُسْعِهِمْ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بَيَّنّا. ويَحْتَمِلُ: ضَرَبْنا. ويَحْتَمِلُ: فَرَّقْنا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ذَكَرْنا للناسِ مَثَلاً على إثْرِ مَثَلٍ، ومَثَلاً بَعْدَ مَثَلٍ، ما لو تَفَكَّروا فيهِ، وتأمَّلوا لَعَرَفوا صِدْقَ رسولِ اللهِ ﷺ وكَذِبَ أنْفُسِهِمْ وسَفَهَهُمْ، ولَعَرَفوا الحَقَّ مِنَ الباطلِ والمُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ. ولكنْ لم يَتَفَكَّروا فيهِ، ولم يَتَأمَّلوا، وعانَدوا.

---

(١) في الأصل وم: عرفوا. (٢) في الأصل وم: وتصوره. (٣) من م، في الأصل: تصوير. (٤) في الأصل وم: ويشاهدونها. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: مع الجن أو الإنس مع الجن أو، في م: أو الإنس مع الجن أو. (٩) في الأصل: مع الجن أو الإنس مع الجن أو، في م: أو الإنس مع الجن أو. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: يقول. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ لا يُريدُ كُلَّ الأمثالِ، ولكنْ ما ذَكَرَ[1] مِنْ كلِّ مَثَلٍ؛ وتَفكَّروا لكانَ لهمْ مُعْتَبَراً.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يكونُ ما ذَكَرَ مِنْ تَصريفِ الأمثالِ وضَرْبِها للناسِ وجوهٌ ثلاثةٌ:

أحدُها: ضَرَبَ المَثَلَ لهذهِ الأُمَّةِ لِمَنْ[2] شَهِدَ رسولَ اللهِ ﷺ وغيرِهِ مِنْ مُكَذِّبِهِمْ ومُصَدِّقِهِمْ بالأُمَمِ الماضيةِ؛ ماذا حَلَّ بالمُكَذِّبينَ منهُمْ رُسُلَ اللهِ مِنْ نَقْمَتِهِ وعَذابِهِ؟ وقد أخبَرَ أنَّ تلكَ سُنَّتُهُ في المُكَذِّبينَ منهمْ، وذَكَرَ أنَّ سُنَّتَهُ تلكَ، لا تَحَوَّلُ، ولا تَبَدَّلُ، وهي غَيرُ مُحَوَّلَةٍ ولا مُبَدَّلَةٍ لواحدةٍ مِنَ الأُمَمِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ تَصْريفُ الأمثالِ، هو ما بَيَّنَ لهمْ، وذَكَرَ ما بِهِ صَلاحُ مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ وصَلاحُ دينِهِمْ ودُنياهُمْ، ما لو تأمَّلوا فيها، وتَفكَّروا، أدرَكوا ذلكَ.

والثالثُ: يكونُ تَصْريفُ الأمثالِ التي ذَكَرَ دعاةُ إلى دينِ اللهِ وسَبيلِهِ بالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ كقولِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

إلى هذهِ الوُجوهِ الثلاثةِ يُصْرَفُ جميعُ ما ذَكَرَ مِنَ الأمثالِ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بالأمثالِ التي ضَرَبَها في القرآنِ، وصَرَّفَها لهمْ. أو يقولُ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بِنِعَمِ اللهِ في صَرْفِ الشُّكْرِ إلى غيرِهِ، أو ﴿كُفُورًا﴾ في وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ مِنَ الأسئِلَةِ يُشْبِهُ أنْ تكونَ هذهِ الأسئِلَةُ جميعاً مِنْ فَريقٍ واحدٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ مِنْ كلِّ فريقٍ سُؤالٌ، لم يَكُنْ ذلكَ مِنْ غيرِهِ مِنَ الفِرَقِ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] كانَ مِنْ كُلِّ [فريقٍ][3] غيرُ ما كانَ مِنَ الآخَرِ؛ كانَ مِنَ اليهودِ: كونوا هوداً تَهْتَدوا، ومِنَ النَّصارى: كونوا نَصارى تَهْتَدوا. فَعَلى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الأوَّلُ كذلكَ.

ثم إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على هذهِ الأسئِلَةِ المُحالَةِ الفاسِدَةِ وجوهٌ:

أحدُها: سُؤالُهُ بما كانَ يَعِدُهُمْ رسولُ اللهِ الجِنانَ والأنهارَ الجاريَةَ والبساتينَ المُثْمِرَةَ، إنْ هُمْ، تابوا، وأجابوا، وكانَ يُوعِدُهُمُ العُقوباتِ، إنْ تَرَكوا إجابَتَهُمْ، مِنْ إسقاطِ السماءِ كِسَفاً كقولِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٠] سألوهُ ذلكَ استِعْجالاً منهمْ على الاستِهْزاءِ كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

[والثاني][4]: أنْ يكونَ أهلُ الكتابِ عَلَّموا مُشركي العَرَبِ الذينَ، لا كتابَ لهمْ، هذهِ الأسئِلَةَ الفاسِدَةَ المُحالَةَ التي عَرَفوا أنهمْ لا يُجابونَ فيها، لِيَسْألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنها، فإنهُ لا يُجيبُهُمْ لِيَرى [السَّفَلَةُ منهمْ والأتباعُ أنْ لو كانَ رسولُ اللهِ أجابَهُمْ لَتَمادَوا[5] في طُغْيانِهِمْ وضَلالاتِهِمْ، ولَبَقُوا[6] على ما هُمْ عليهِ.

[والثالثُ][7]: أنْ يكونَ الرؤساءُ منهمْ والقادةُ سألوهُ عنْ ذلكَ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ لا][8] يُجيبُهُمْ لِيَرى أتباعُهُمْ وسَفَلَتُهُمْ أنهمْ قد حاجُّوا رسولَ اللهِ ﷺ، واعْتَرَضوا لِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ لئلا يَنْظُروا إلى حُجَجِهِ وبَراهينِهِ لِتَبْقَى لهُمُ الرئاسةُ والمَنافِعُ التي كانَتْ لهمْ، ولا يَذْهَبُ ذلكَ منهمْ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ ثم بَيَّنَ أنَّ أسئِلَتَهُمُ التي سَألوها سُؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ، لا سُؤالَ استِرْشادٍ وحاجةٍ ما ذَكَرَ في قولِهِمْ: ﴿أَوْ

---

(١) في الأصل وم: ذكرنا. (٢) في الأصل وم: من. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل: فيتمادون. (٦) في الأصل: ويبقون. (٧) في الأصل: أو. (٨) ساقطة من م.

تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ وقولِهِم[1]: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

دلّ هذا كلُّهُ أنّ سُؤالَهُمْ إيّاهُ كُلُّهُ سُؤالُ مُعانَدةٍ، لا سُؤالُ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ، لأنهُ لو كانوا يَسْألونَ ما يَسْألونَ سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ لَكانوا لا يَسْألونَ إسقاطَ السماءِ عليهِمْ؛ إذْ لا مَنْفَعَةَ لهمْ في ذلكَ، وإنَّ في سؤالِهِمُ الجَنَّةَ مَنْفَعَةً. يَذْكُرُ سَفَهَ القومِ وتَعَنُّتَهُمْ وسُوءَ معامَلَتِهِمْ رسولَ الله ﷺ.

ثم الحِكْمَةُ والفائدةُ [في سؤالِهِم][2] قُرْآناً يُتْلَى إلى يومِ القيامةِ لِيَعْرِفَ المُتَأخِّرونَ مُعامَلَةَ السفهاءِ، إذا بُلُوا بهِمْ، أنْ كيفَ [يُعامِلونَهُمْ حتى يُعامِلوهُمْ مِثْلَ][3] مُعامَلَةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أمَرَهُ أنْ يُنَزِّهَ رَبَّهُ عنْ أنْ يكونَ لأحَدٍ الاحْتِكامُ عليهِ والحُكْمُ، والذي سَألوهُ احْتِكامٌ[4] منهُمْ على اللهِ.

وفي قولِهِ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ يُنَزِّهُ ربَّهُ عنْ أنْ يَمْلِكَ سِواهُ ما سَألوهُ مِنْ إتيانِ الجنةِ، وغيرِ ذلكَ ممّا[5] ذُكِرَ في الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي هل كُنْتُ إلا بَشَراً كَغَيْري[6] مِنَ الرُّسُلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ مِنَ البَشَرِ، فلم يُسْألوا هُمْ بِمِثْلِ الذي تَسْألونَني أنتمْ مِنَ الأسئلَةِ.

أو إن تَسْألوا ذلكَ فلنْ تُجابوا كقولِهِ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨]

أو يكونُ قولُهُ: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي ليسَ للرسولِ أنْ يَعْتَرِضَ على الرُّسُلِ بِشيءٍ. إنما على الرسولِ تَبْليغُ ما أُرْسِلَ، وأُمِرَ بِتَبْليغِهِ. أو يقولُ: إني لا أمْلِكُ عمّا تَسْألونَني سِوَى تَسْبيحِ ربِّي وتَنْزيهِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ أي تعاظَمَ ربي، وتعالَى، عن أنْ يكونَ لِعِبادِهِ عليهِ احْتِكامٌ / ٣٠٩ ـ ب/ واخْتِيارٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: اليَنْبوعُ العَيْنُ، واليَنابيعُ جَمْعٌ، والكِسْفَةُ القِطْعَةُ، والكِسَفُ جَمْعٌ. وقالَ غيرُهما[7]: الكِسْفُ بالجَزْمِ عذابٌ. و﴿كِسَفًا﴾ مِثْلُ قِطَعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي إذْ جاءَ الرسولُ بالهُدَى ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وقالَ في سُورةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥] لكنَّ هذا على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ: إنهمْ لا يُؤمنونَ إلّا عندَ مُعايَنَتِهِمْ بَأْسَ اللهِ. والإيمانُ في ذلكَ الوَقْتِ، لا يُقْبَلُ، ولا يَنْفَعُهُمْ.

وأمّا قولُهُ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ فَيُخَرَّجُ مُخْرَجَ الاِحْتِجاجِ: لو شاءَ اللهُ أنْ نُؤْمِنَ لأنْزَلَ ملائكةً كقولِهِ: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] ففيهِ مَوضِعُ الشُّبْهَةِ لهمْ أنْ يقولوا: هو بَشَرٌ [ونَحْنُ بَشَرٌ، فَلَيسَ هو][8] أولَى بالرسالةِ إلينا مِنْ أنْ نكونَ نَحْنُ رُسُلاً إليهِ. فذلكَ مَوضِعُ الشُّبْهَةِ، فأجابَهُمْ لِذلكَ لمّا اسْتَنْكَروا، واسْتَبْعَدوا بَعْثَ الرسولِ إليهِمْ مِنْ جَوهَرِهِمْ وجِنْسِهِمْ.

الآية ٩٥ فقالَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي مُقيمينَ ساكِنينَ فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ [بوجوهٍ]:

أحَدُها[9]: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ أي لو كانَ سُكّانُ الأرضِ ملائكةً، فَبَعَثَ إليهِمْ رسولاً منهمْ، أكانَ لهمْ أنْ يَقولوا: أبَعَثَ اللهُ مَلَكاً رسولاً؟ أي أبَعَثَ اللهُ إلينا [رَسولاً][10] مِنْ جَوهَرِنا؟ أي ليسَ لهمْ أنْ يقولوا ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقوله. (٢) في م: في جعل سفههم، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: يعاملون، في م: يعاملونهم. (٤) في الأصل وم: احتكامهم. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: كغيره. (٧) في الأصل وم: غيره. (٨) في الأصل وم: فليس هذا. (٩) في الأصل وم: قال بعضهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلكَ إذا كانَ سُكّانُها البَشَرَ؛ ليسَ لهم أنْ يَقولوا: ابْعَثَ اللهُ إلينا مِنْ جوهَرِنا رَسولاً؟

والثاني: لو كانتِ الأرضُ مَكانَ الملائكةِ، وهم سُكّانُها لكانَ لَهُمْ[1] أنْ يَقولوا ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ مِنْ غيرِ جوهَرِنا. فأمّا إذا كانتِ الأرضُ مَكانَ البَشَرِ، وهُمْ سُكّانُها، فليسَ لهمْ أنْ يُنْكِروا بَعْثَ الرسولِ منهُمْ ومِنْ جوهَرِهِمْ، لأنهمْ لا يَعْرِفونَ الملائكةَ ولا مَنْ كانَ مِنْ غَيرِ جوهَرِهِمْ، ويَعْرِفونَ مَنْ كانَ مِنْ جوهَرِهِمْ.

فَبَعْثُ الرسولِ مِنْ جَوهَرِهِمْ أولَى بهمْ مِنْ غَيرِ جوهَرِهِمْ.

[والثالثُ][2]: لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ وبَشَرٌ، فَعَرَفوا الملائكةَ، لَكانَ لهمْ أنْ يَسْألوا رَسولاً مِنَ الملائِكةِ لَمّا عَرَفُوهُمْ[3].

فأمّا إذا كانَ سُكّانُ الأرضِ لَيسوا إلّا بَشَراً، فليسَ لهمْ أنْ يَقولوا ذلكَ لأنهمْ لم يَعْرِفوا قِوَى الملائكةِ ولا قِوَى الجِنِّ، وقد عَرَفوا قِوَى البَشَرِ، فَيَعْرِفونَ الآياتِ والحُجَجَ مِنَ التَّمْويهاتِ إذْ عَرَفوا [قِواهُمْ، ولم يَعْرِفوا][4] قِوَى الملائكةِ والجِنِّ، فلا يَعْرِفونَ ما أقاموا أنها آياتٌ وحُجَجٌ، أو كانَ ذلكَ بِقِواهُمْ، ويَعْرِفونَ ذلكَ مِنَ البَشَرِ إذا خَرَجَتْ مِنِ احْتِمالِ وُسْعِهِمْ وقِواهُمْ.

وبَعْدُ فإنهمْ أقَرّوا برسالةِ البَشَرِ، لأنهمْ لا يَعْرِفونَ الملائكةَ إلّا بِخَبَرٍ مِنَ البَشَرِ [بوجودِ المَلَكِ][5] فليسَ لهمْ أنْ يُنْكِروا رِسالةَ البَشَرِ.

وأصْلُهُ ما قالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] لِما ذَكَرْنا أنهمْ لا يَعْرِفونَ الملائكةَ ومَنْ كانَ مِنْ غَيرِ جوهَرِهِمْ، فلا بدَّ مِنْ أنْ يكونَ رجلاً، فكانَ في ذلكَ تَلْبيسٌ عليهِمْ على ما أخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كَفَى ما أقامَ اللهُ مِنَ الآياتِ على رِسالتي وأني رسولٌ إليكُمْ، إذْ كانَ ذلكَ مِنْ قولٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ مِنْ إنْكارِ الرسالةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ الآية [الشورى: ١٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ بأنهُ عن عِلْمٍ بإجابَتِهِمْ ورَدِّهِمْ بَعَثَهُ إليهِمْ[6] رسولاً لا عنْ جَهْلٍ بأحوالِهِمْ. وليسَ في ما يَعْلَمُ أنهمْ يَرُدّونَ، ولا يُجيبونَ رُسُلَهُ، خروجٌ عنِ الحِكْمَةِ، لأنهُ ليسَ في إجابَتِهِمْ مَنْفَعَةٌ للرسلِ ولا رَدِّهِمْ ضَرَرٌ لهُ. وإنما[7] المَنْفَعَةُ في الإجابةِ لهمْ، وفي الرَّدِّ الضَّرَرُ عليهِمْ. لِذلكَ لم يَكُنْ في بَعْثِ الرسلِ على عِلْمٍ منهُ بالرَّدِّ خُروجٌ[8] عنِ الحكمةِ، لأنَّ في الشاهِدِ أنَّ ما يَبْعَثُ الرسولَ لِمَنْفَعَةٍ يَتَأمَّلُ [أنْ تَصِلَ إليهِ، أو تَدْفَعَ ضَرَراً][9] عنهُ. فإذا عَلِمَ أنهُ يَرُدُّ رسالَتَهُ ولا يُجيبُ[10]، كانَ في وقتِ [بَعْثِهِ الرسولَ][11] بَعْدَ عِلْمِهِ بالرَّدِّ خروجٌ[12] عنِ الحِكْمَةِ.

أو يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ على الوَعيدِ، وكذلكَ أمثالُهُ.

وإنِ احْتَجَّ علينا بعضُ المُعْتَزِلَةِ بقولِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٩٤] يقولونَ لهُ: مَنَعَنا القضاءُ والقَدَرُ؛ إذْ مِنْ قولِهِمْ: أنَّ ما يَفْعَلُ الإنسانُ مِنْ فِعْلٍ [أو مَعْصِيَةٍ][13] أو طاعةٍ فإنما يَفْعَلُ بِقَضائِهِ وتَقْديرِهِ. فيكونُ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ بأنْ يَقولوا: مَنَعَنا قَضاؤُكَ وتَقْديرُكَ.

لكنَّ هذا فاسدٌ، لأنهمْ لا يَفْعَلونَ هُمْ ما يَفْعَلونَ عندَ وقْتِ فِعْلِهِمْ، لأنَّ اللهَ قَضَى ذلكَ وَقَدَّرَ، ولو جازَ لهمْ هذا الاحْتِجاجُ، لأنهُ كذلكَ قَضَى، وقَدَّرَ، فإذا كانوا هُمْ عندَ أنْفُسِهِمْ لا يَفْعَلونَ ما يَفْعَلونَ، لأنهُ كذلكَ قَضَى عليهِمْ، وقَدَّرَ، لم

(١) في الأصل وم: لكم. (٢) في الأصل وم: أو يقول. (٣) في الأصل وم: أعرفوهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أنه ملك. (٦) من م، في الأصل: إليه. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: خروجاً. (٩) في الأصل وم: وتصل إليه أو دفع ضرر. (١٠) من م، في الأصل: يجب. (١١) في الأصل وم: بعث الرسول إليه. (١٢) في الأصل وم: خروجا. (١٣) من م، في الأصل: معصيته.

يكُنْ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ بذلكَ، لأنَّ القَضاءَ والقَدَرَ لم يَضْطَرَّهُمْ إلى ذلكَ، ولا قَهَرَهُمْ عليهِ. بل كان غَيرُهُ مُمْكِناً لهُمْ. لِذلكَ لم يكنْ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ بذلكَ، لأنَّ الاحْتِجاجَ[1] بهذا؛ أعني بالقضاءِ والقَدَرِ [لو كانَ][2] لَكانَ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ أيضاً بالعِلْمِ، إذْ لاشَكَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ منهمْ؛ فإذا لم يَكُنِ الاحْتِجاجُ عليهِ بما عَلِمَ منهمْ ذلكَ. إذْ يَقْدِرونَ أنْ يَفْعَلوا غَيرَ الذي عَلِمَ منهمْ. فَعَلَى ذلكَ لم يَكُنِ الاحْتِجاجُ عليهِ بالقضاءِ والقَدَرِ لِما عُلِمَ أنهُ يَختارُ ذلكَ، ويُؤْثِرُهُ على ذلكَ[3].

دَلَّ أنَّ ذلكَ ليسَ بشيءٍ لِما قَضى ذلكَ عليهِمْ وقَدَّرَ. وإذا كانوا هُمْ عندَ أنفسِهِمْ، لا يَفْعَلونَ وقْتَ فِعْلِهِمْ لِما كذلكَ قَضى عليهِمْ، فلم يكنِ الاحْتِجاجُ لهمْ عليهِ بذلكَ، إذِ القَضاءُ و القَدَرُ لم يَمْنَعْهُمْ عنْ ذلكَ لِما لا يُضطَرّونَ إلى ذلكَ. وإنما قَضى عليهِمْ، فلم يكنِ الاحْتِجاجُ لهمْ عليهِ بذلكَ، إذِ القَضاءُ والقَدَرُ لم يَمْنَعْهُمْ عنْ ذلكَ لِما لا يُضْطَرّونَ إلى ذلكَ وإنما قَضى ذلكَ لِما عَلِمَ أنهمْ يَفْعَلونَ، ويَخْتارونَ ذلكَ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا. وكذلكَ كلُّ مَنْ قَضى في الشاهِدِ على آخَرَ إنما يَقْضي لِما سَبَقَ منهُ العِلْمَ بهِ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي[4] منْ وَفَّقَ اللهُ لِقَبولِ ما كانَ [لهُ][5] مِنَ الهُدَى، وعَصَمَهُ عمّا وَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ فهو المُهْتَدي عندَ اللهِ وعندَ منْ عَقَلَ الهُدَى ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي مَنْ خَذَلَهُ، ولم يَعْصِمْهُ حتى يَقْبَلَ مِنَ الشيطانِ ما جاءَ مِنْ وَساوِسِهِ، فهو ضالٌّ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَهْدونَهُمْ لدينِهِمْ، ويُوَفِّقونَهُمْ. أو لَنْ تَجِدَ لهمْ أولياءَ يَنْصُرونَهُمْ مِنْ دُونِهِ، ويدفَعونَ عنهُمْ ما نَزَلَ بهِمْ مِنَ العَذابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قالَ الحَسَنُ: يُحاسَبونَ حتى يَعْلَموا سُوءَ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا في الدنيا، ثم يُحْشَرونَ إلى جَهَنَّمَ [على][6] ما ذَكَرَ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، أو كلاماً[7] نَحْوَ هذا.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الفرقان: ٣٤] ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وقولَهُ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [الزمر: ٢٤] إنما يَتَّقي بوجْهِهِ لِما تكونُ أيديهِمْ مَغْلولَةً إلى أعناقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحَدُها: سَمّاهُمْ[8] عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لِذهابِ مَنافِعِ هذهِ الحواسِّ ولَذّاتِها في الآخِرَةِ، ليسَ على حقيقةِ ذَهابِها، لكنْ حالَ بَيْنَها[9] وبَيْنَ الانْتِفاعِ بها ما ذَكَرَ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ الآية [الزمر: ١٦] فَتِلْكَ الظُّلَلُ تَحولُ بَيْنَها وبَيْنَ رُؤْيَةِ الأشياءِ.

[والثاني][10]: سَمّاهُمْ في الدنيا عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، ليسَ على حقيقةِ ذهابِ [أعيُنِ الحواسِّ][11]، ولكنْ لِما لم يَنْتَفِعوا بهذِهِ الحواسِّ في الدنيا، ولم يَسْتَعْمِلوها في ما أُمِروا في اسْتِعْمالِها، نَفَى ذلكَ عنهُمْ. فَعَلَى ذلكَ في الآخِرَةِ.

[والثالثُ][12]: يَحْتَمِلُ على حقيقةِ ذهابِ أعْيُنِ هذهِ الحواسِّ عقوبَةً لِما لم يَسْتَعْمِلوها / ٣١٠ - أ/ في الدنيا لِما لهُ خُلِقَتْ كقولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مَقامُهُمْ جَهَنَّمُ، وإليها يَأْوُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ قالَ [بعضُهُمْ][13]: يَخْمُدُ لَهَبُها مِنْ غَيرِ أنْ يَذْهَبَ وَجَعُ ما أصابَهُمْ، ثم يَزْدادُ لهمْ سَعيراً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي نَضِجَتْ جُلودُهُمْ، وسَكَنَتِ النارُ ﴿زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي نَعُودُ بنارٍ على ما كانَتْ، وجُعِلَتْ تَلْتَهِبُ، وتَسْتَعِرُ كقولِهِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [النساء: ٥٦].

(١) في الأصل وم: القضاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: لجاز ذلك لهم بالعلم ونحوه. (٤) من م، في الأصل: أن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كلام. (٨) في الأصل وم: بوجهين أحدهما: أسماهم. (٩) من م، في الأصل: بينهما. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: أعينها. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: وذلكَ أنَّ النارَ إذا أكَلَتْهُمْ، فلم يَبْقَ منهُمْ غيرُ العظامِ، وصاروا فَحماً، سَكَنَتِ النارُ، فهو الخَبْوُ[1]، ثم بُدِّلوا جلوداً غيرَها جُدُداً لها، فتكونُ وَقوداً لها، واللهُ أعلَمُ، وكلُّهُ واحدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي كلَّما أحرَقَتْهُمُ النارُ، فصاروا رَماداً، خُلِقوا لها خَلْقاً جديداً، فتُعاوِدُهُمُ النارُ، فتَحرِقُهُمْ. وذلكَ قولُهُ: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وهو قولُ اللهِ: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨] لا تُبْقي منهمْ شيئاً إذا أخَذَتْ حتى تَحرِقَهُمْ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ جَزاؤُهُمْ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي أولَمْ يَعتَبِروا، أولَمْ يَنظُروا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ هذا الاعتِبارُ يَحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: إنكمْ تُقِرّونَ أنَّ اللهَ هو خالقُ السمواتِ والأرضِ [وخالِقُكُمْ، فَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ][2] على الابتداءِ، وخَلْقُ سائرِ الخلائقِ على الابتِداءِ بلا احتِذاءٍ تقدَّمَ، وسَبَقَ، أعظَمُ وأكبَرُ مِمَّنْ هو دونَهُ. فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ ذلكَ فهو على إنشاءِ أمثالِكُمْ وإعادَتِكُمْ أقدَرُ. وإعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِن ابتِدائِهِ.

والثاني: تَعْلَمونَ أنهُ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وخَلَقَكُمْ أيضاً، فلم يَخْلُقْهُما لِلْفَناءِ خاصَّةً؛ إذْ خَلْقُ الشيءِ لِلْفَناءِ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ عَبَثٌ ولَعِبٌ. فَدَلَّ أنهُ خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ السمواتِ والأرضَ لِعاقِبَةٍ، وهي البَعْثُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ كائنٌ، لا مَحالَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ جواباً لِما استَعجَلوا مِنَ العذابِ، فقالَ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ لا يَتَقَدَّمُ عنهُ، ولا يَتأخَّرُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ الموتَ الذي بهِ تَنقَضي آجالُهُمْ. لكنهُ[3] لم يَخلُقْهُمْ للموتِ خاصَّةً، ولكنْ لِلْعاقِبَةِ كما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿خَبَتْ﴾ أي سَكَنَتْ [يُقالُ: خَبَتْ][4] إذا سَكَنَ لَهَبُها [تَخبو. فإذا سَكَنَ لَهَبُها][5] ولم يُطفَإِ الجَمْرُ قُلْتَ: خَمَدَتْ تَخمُدُ خُموداً. فإذا طُفِئَتْ، ولم يَبْقَ منها شيءٌ، قيلَ: هَمَدَتْ تَهمُدُ هُموداً. وقولُهُ تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي ناراً تَتَسَعَّرُ، أي تَتَلَهَّبُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: السعيرُ النارُ؛ يُقالُ: سُعِرَتِ النارُ إذا أوقَدْتَها، ويُقالُ: نارٌ مَسْعورةٌ أي مَوقودةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي كُفراً بالبَعْثِ. الظالِمونَ ههنا، هُم الكافرونَ [ولو قالَ: فأبى الكافرونَ][6] إلّا ظُلْماً[7] كانَ واحداً.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ تَحتَمِلُ الآيةُ وجوهاً:

قالَ[8] بعضُهُمْ: هي صِلَةُ ما تقدَّمَ مِنْ أسْئِلَتِهِمْ، وهو قولُهُ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٠و٩١و٩٣] وقولُهُ: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨] كانوا يَسألونَ هذهِ الأشياءَ على التَّعَنُّتِ والعِنادِ والاستِهزاءِ. فأخبَرَ أنهُ، وإنْ أعطاهُمْ ما سألوا، لا [يُنفِقوا، بل يُمسِكوا][9] عنِ الإنفاقِ.

ومِنْ سُنَّتِهِ أنهُ، إذا أعطاهُمْ ما سألوا على السُّؤالِ، فتَرَكوا الإيمانَ بهِ والوفاءَ، أهْلَكَهُمْ[10].

فأخبَرَ أنهمْ يَسألونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ لاسُؤالَ ما يَتَوَسَّعونَ بهِ.

---

(١) في الأصل وم: الخبت. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لكنهم. (٤) ساقطة من م. (٥) و(٦) من م، ساقطة من الأصل.
(٧) في الأصل وم: ظلموا ما. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: ينفقون بل يمسكون. (١٠) في الأصل وم: إنهم يهلكون.

وفي الآيةِ إثباتُ الرسالةِ، وهو ما بيَّنَ عن بُخلِهِمْ وإمساكِهِمْ عنِ الإنفاقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ في قوم خاصٍّ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لو أُعطوا ما سألوا لَفَعَلوا ما ذَكَرَ، لا في كلٍّ منهُمْ. وهو كقولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمنونَ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ ضَمَّنوا اللهَ الإنفاقَ والتوسيعَ، وعاهَدوا اللهَ على ذلكَ: إنْ وَسَّعَ عليهِمْ، فأخبَرَ أنهمْ لا يَفعَلونَ ما عاهَدوهُ، وضَمَّنوا، كقولِهِ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الآية [التوبة: ٧٥]

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا إخباراً منهُ عنْ طَبْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ؛ وذلكَ أنهمْ لمّا اسْتَكْثَروا مِنَ الأموالِ، وجَمَعوا، يَزدادُ لهمْ بذلكَ حِرْصٌ على جَمْعِها وبُخلٌ على التوسيعِ والإنفاقِ لِما لمْ يكنْ قَبْلَ الجَمْعِ والاسْتِكْثارِ هذا المعروفُ في الناسِ. فأخبَرَ أنهمْ يُمْسِكونَ عنِ الإنفاقِ والتوسيعِ إذا مَلَكوا ما ذَكَرَ عنْ طَبْعِ الإنسانِ بالبُخْلِ والتَّضْييقِ عندَ الاسْتِكْثارِ ما لم يكنْ قَبْلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صفةَ كلِّ كافرٍ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩و٢٠و٢١] تكونُ عادَتُهُ[1] البُخْلَ والجَزَعَ عندَ المصائبِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا صِفَةَ كلِّ إنسانٍ في الابْتِداءِ؛ هكذا يكونُ، ثم بالامْتِحانِ والتَّجْرِبَةِ يَصيرونَ أسْخِياءَ صابِرينَ. أو يكونَ يُخْبِرُ أنهمْ لو مُلِّكوا، وأُعْطُوا جميعَ ما يُرْزَقونَ في عُمُرِهِمْ على التفاريقِ بِدَفْعَةٍ واحدةٍ مَجْموعاً لأَمْسَكوا عنِ الإنفاقِ خَشْيَةَ الفَقْرِ في آخِرِ عُمُرِهِمْ؛ إذ لا يَعْلَمونَ إلى ما يَنْتَهونَ مِنْ آجالِهِمْ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على البُخْلِ والإمساكِ.

أو يَذْكُرَ لِما أنهُ جَبَلَهُمْ، وأنْشَأَهُمْ على الإمساكِ والمَنْعِ في الابْتِداءِ، وإنْ لمْ يكُنْ لهمْ حاجةٌ إلى ذلكَ؛ [ألا][2] تَرَى الصِّبْيانَ والصِّغارَ مِنَ الأولادِ يَمْنَعونَ مافي أيديهِمْ عنْ غَيرِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ لهم حاجةٌ إلى ذلكَ؟

هذا مَعْروفٌ فيهِمْ، وإنما جَبَلَهُمْ، وأنْشَأَهُمْ هكذا لِيَمْتَحِنَهُمْ بالجودِ والتوسيعِ والبُخْلِ والتَّضْييقِ، وإلّا كانوا في أصْلِ خِلْقَتِهِمْ وابتداءِ نشأتِهِمْ[3] على ما ذَكَرْنا أشِحَّةً بُخَلاءَ، وهو ما أخْبَرَ ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩و٢٠و٢١] ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] أنْشَأَهُمْ ﴿جَزُوعًا﴾ عندَ الألَمِ والمصائبِ غَيرَ صابرينَ عليها، وكذلكَ أنْشَأَهُمْ ﴿عَجُولًا﴾ لا يَصْبِرونَ على أمْرٍ واحدٍ ولا حالٍ واحدٍ، ثم امْتَحَنَهُمْ على الصَّبْرِ وتَرْكِ الجَزَعِ والعَجَلَةِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي طَمِعاً بخيلاً مُمْسِكاً مَضَيِّقاً، واللهُ أعلَمُ، ثم تَرَكَ ذلكَ [بالامْتِحانِ واعْتِيادِ خِلافِهِ][4].

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، في ما آتاهُ مِنَ الآياتِ، وأَمَرَهُ أنْ يُحاجَّ فِرْعونَ، وإلّا كانَتْ آياتُ موسى ﷺ أكْثَرَ مِنْ تِسْعٍ؛ كأنها تَبْلُغُ عشرينَ، وتزدادُ عليهِ؛ إذ كانَ في عَصاهُ أربَعٌ مِنَ الآياتِ: إحداها: حينَ[5] ضَرَبَ بها البَحْرَ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]. [والثانيةُ حينَ ضَرَبَ بها الحَجَرَ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] والثالثةُ: حينَ][6] ألْقاها [﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧ والشعراء: ٣٢] والرابعةُ: حينَ][7] تَلَقَّفَتْ حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] وأمثالُها[8]، فإنها تَبْلُغُ إلى ما ذَكَرْنا. لكنهُ ذَكَرَ تِسْعَ [الآياتِ البَيِّناتِ][9] التي أمَرَهُ اللهُ تعالى أنْ يُحاجَّ بها فرعونَ وقومَهُ.

---

(١) في الأصل وم: عادتهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: انشاؤا. (٤) في الأصل وم: واعتياد ذلك وخلافه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وحيث كانَ يضرب بها الحجر فينفجر منه عيوناً وحيث. (٧) في الأصل وم: فصارت ثعباناً وحيث كانت تلقف. (٨) في الأصل وم: وأمثاله. (٩) في الأصل: آيات، في م: آيات بينات.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾ أنها مِن عندِ اللهِ جاءَتْ، وأنها ليسَتْ مِنَ البَشرِ، وأنها سماويَّةٌ، أو ﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾ أي[1] مُبيِّناتٍ ما تُبيِّنُ صِدْقَ موسى في جميعِ ما يُخبِرُ، ويقولُ، ويُبيِّنُ عَدْلَهُ في حُكْمِهِ وفِعْلِهِ؛ لأنَّ في آياتِ الرُّسُلِ يُحتاجُ إلى هذا: أنْ تُبيِّنَ للناسِ صِدْقَهُمْ في قولِهِمْ وعَدْلَهُمْ في حُكْمِهِمْ لأنهمْ يَدْعونَ إلى عِبادةِ اللهِ والطاعةِ لهُ. وذلكَ يوجِبُهُ[2] على كلِّ عَقْلٍ وطَبْعٍ سليمٍ. فالحاجةُ إلى الآياتِ ليستْ إلّا لِصِدْقِهِمْ/ ٣١٠ ـ ب/ وعَدْلِهِمْ في حُكْمِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في الآياتِ. قالَ بعضُهُمْ: العصا واليَدُ والحَجَرُ والطَّمْسُ والخَمْسُ التي ذَكَرَ في سورةِ ﴿ٱلْقَصَصِ﴾[3] وهي[4] قولُهُ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الآية: ١٣٣].

وقالَ بعضُهُمْ: الخَمْسُ التي ذَكَرَ في سورة ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ والعَصا والموتُ الذي أرسَلَ عليهِمْ واليَدُ البيضاءُ وانْفِلاقُ البَحْرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما الخَمْسُ التي ذَكَرَ في سورة ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ واليَدُ وحَلُّ العُقْدَةِ التي بِلسانِهِ، وفي العَصا آيتانِ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه والسِّنونَ ونَقْصٌ مِنَ الثَّمراتِ.

ثم منهمْ مَنْ يَجْعَلُ السِّنينَ ونَقْصاً مِنَ الثَّمراتِ آيةً واحدةً [ومنهمْ][5] مَنْ يَجْعَلُها آيَتينِ. وكذلكَ العصا: منهُمْ مَنْ يَجْعَلُها[6] آيةً واحدةً، ومنهُمْ مَنْ يَجْعَلُها[7] آيَتينِ. ومنهُمْ مَنْ يَعُدُّ الطَّمْسَ، ومنهُمْ لا مَنْ يَعُدُّ.

ونحنُ نَجْعَلُ العصا آيةً واحدةً، والسِّنينَ ونَقْصاً مِنَ الثَّمراتِ آيةً واحدةً، والطَّمْسَ آيةً، والخَمْسَ التي ذُكِرَتْ في سورةِ ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ فتكونُ ثمانيَ، وتكونُ التاسعةُ قولَهُ تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لأنهُ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أنها آياتٌ، ولم يُكَذِّبْهُ [فرعونُ، ولم يَسْتَقْبِلْهُ بشيءٍ يُكَذِّبُهُ][8] في قولِهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] أخبَرَ أنهمْ جَحَدوا بها بَعْدَما اسْتَيْقَنوا أنها آياتٌ، وأنها آياتٌ وحُجَجٌ ظُلْماً وعُلُوّاً.

وما رَوَى صَفْوانُ بْنُ عَسّالٍ المُراديُّ أنهُ قالَ: إنَّ يهوديَّينِ أتَيا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فَسَألاهُ عن تِسْعِ الآياتِ[9] التي ذَكَرَ أنهُ آتاها موسى، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تُشرِكوا باللهِ شيئاً، ولا تَقْتُلوا النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقِّ، ولا تَزْنوا، ولا تَسْرُقوا، ولا تَسْحَروا، ولا تَمْشوا بِبَريءٍ إلى ذي سلطانٍ، فَيَقْتُلَهُ، ولا تأكُلوا الرِّبا، ولا تَقْذِفوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرّوا مِنَ الزَّحْفِ، وعليكُمْ خاصةً يا يَهودُ ألّا تَعْدوا في السبتِ. قالَ: فَقَبَّلا يَدَيهِ ورجلَيهِ، وقالا: نَشْهَدُ أنكَ نَبِيُّ اللهِ، فقالَ ﷺ: فما يَمْنَعُكُما أنْ تُسْلِما؟ قالا: إنا إنْ أسْلَمْنا يَقْتُلْنا اليهودُ» [أحمد ٤/ ٢٣٩].

فإنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ عنهُ فلا يجوزُ أنْ يُتَعَدّى إلى غَيرِهِ مِنَ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ يعني موسى، صَلَواتُ اللهِ على نَبيِّنا وعليهِ.

قالَ بعضُهُم: أمَرَ رسولَنا ﷺ أنْ يَسْألَ بني إسرائيلَ الآياتِ التِّسْعَ التي كانَتْ في كُتُبِهِمْ على التَّقريرِ عندَهُمْ [لِيَعْلَموا][10] أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، وأنهُ رسولٌ [لأنهُ كانَ يَعْرِفُ][11] تلكَ الآياتِ في كُتُبِهِمْ بِغَيرِ لسانِهِ، وكانَ لا يُخُطُّ بِيَدِهِ، ولا كانَ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ منهمْ لِيَعْرِفَ ذلكَ. فَدَلَّ أنهمْ عَلِموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ بِوَحْيِ السماءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ هو على الأمرِ أنْ يَسْألَهُمْ ذلكَ. ولكنْ لو سَألْتَهُمْ لأخبَروكَ عنها كقولِهِ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ في عَقْلِكَ، أي سُحِرْتَ، والمَسْحورُ هو المَغْلوبُ في العَقْلِ. وقولُهُمْ مُتَناقِضٌ لأنهمْ قالوا مَرَّةً: ساحِرٌ، ومَرَّةً: مَسْحورٌ. فالساحرُ هو الذي يَبْلُغُ بالبَصيرةِ غايَتَهُ، والمَسْحورُ المَغْلوبُ.

---

(١) من م، في الأصل: أو. (٢) من م، في الأصل: يوجب. (٣) الأعراف. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يجعل. (٧) في الأصل وم: يجعل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: آيات. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لما علموا أنه كان.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ قولُهُ: ﴿عَلِمْتَ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ عَلِمْتُ جميعاً قد قُرئا[1]. وأمكنَ أنْ يكونَ قالَ في ابْتِداءِ الأمْرِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى لمّا أقامَها عليهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ يُبْصِرُ[2] بها الحَقَّ مِنَ الباطِلِ مَنْ لم يُعانِدْ، ولم يُكابِرْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قالَ موسى عليه السلام لِفِرْعَونَ ﴿مَثْبُورًا﴾ مُقابِلَ ما قالَهُ فِرعونُ حينَ[3] قالَ: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَثْبُورًا﴾ هالِكاً، وقيلَ: مَلْعوناً، و قالَ بعضُهُمْ: مُبَدَّلاً.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي تدعو على نَفْسِكَ بالثُّبورِ، وهو الهَلاكُ، كقولِهِ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] أي هلاكاً. والظَّنُّ يكونُ في مَوضِعِ الظَّنِّ، ويكونُ في مَوضِعِ العِلْمِ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَادَ﴾ يعني فِرْعونَ ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ. أرادَ أنْ يُخرِجَهُمْ، ويَستَخِفَّهُمْ مِنَ الأرضِ أي أرضِ مِصْرَ، لكنهُمْ قد كانوا خَرَجوا طائِعينَ قَبْلَ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنْ حَيثُ أَمَرَ موسى بإخراجِهِمْ بقولِهِ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] فيكونُ تأويلُ قولِهِ: فأرادَ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنَ الأرضِ بالقَتْلِ والهلاكِ في الدنيا.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] أرادَ مِنْ مَشارِقِ الأرضِ، وإلّا قد كانوا هُمْ قد خَرَجوا مِنْ أرْضِهِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ هو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ الآيةَ [يونس: ٩٠].

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي بعدَ هلاكِ فرعَونَ ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ مِصْرَ التي[4] كانَ يَسْكُنُ فِرعَونُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أرضَ الشامِ والأرضَ المُقَدَّسَةَ كقولِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ ليسَ في أرضٍ دونَ أرضٍ، ولكنِ اسْكُنوا أيَّ أرضٍ شِئْتُمْ مَشارِقَها ومَغارِبَها آمنينَ، لا خَوفَ عليكُمْ على ما أرادَ[5] أنْ يُخرِجَكُمْ مِنْ مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها بالقَتْلِ كقولِهِ: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ الآيةَ [الشعراء: ٥٩ والدخان: ٢٨] وهو قولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه. وعلى[6] هذا قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بَعْثُ عيسى ابْنِ مَرْيَمَ: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جميعاً مُجْتَمِعينَ مِنْ مشارِقِ الأرضِ و مَغارِبِها على ما تفَرَّقوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَعْني حَياةَ عيسى ونُزولَهُ مِنَ السماءِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جَميعاً مُنْتَزَعينَ[7] مِنَ القُرَى ههنا وههنا، ولُفّوا جميعاً، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وأمّا عامّةُ أهلِ التأويلِ فإنهم قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يومُ القِيامَةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جَميعاً: أنتمْ وفِرعونُ وجنودُهُ حتى يَرَوا كراماتِكُمْ التي أُكْرِمْتُمْ بها، ويَرَوا هوانَهُمْ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ في القرآنِ حُكْماً وأنباءً، وأنباؤهُ صِدْقٌ وحَقٌّ. وهو كقولِهِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿صِدْقًا﴾ ما فيهِ مِنَ الأنباءِ ﴿وَعَدْلًا﴾ مافيهِ مِنَ الحُكْمِ العَدْلُ، والأنباءِ [الصِّدْقُ، أنْزَلَهُ. ويُقالُ: الصِّدْقُ في الأخبارِ والأنباءِ][8] والعَدْلُ في الأحكامِ والحَقِّ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤٠. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل وم: أرادوا. (٦) من م، في الأصل: وقال. (٧) في الأصل وم: انتزاع. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بذلكَ الحَقّ الذي دامَ، وقرَّ فيكُم، أو كلام نَحوِ هذا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَهُ﴾ أي بالحَقِّ الذي لِيَعْضِهِمْ على بعضٍ ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي بذلكَ الحَقِّ الذي للهِ على خَلقِهِ دامَ، واستَقرَّ، بالحَقِّ الذي لِيَعْضِهِمْ على بَعْضٍ ثَبَتَ، واستَقَرَّ.

وأصلُهُ أنَّ قولَهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ الحَقُّ اسمُ كلِّ مَحبوبٍ مَحمودٍ، والباطلُ اسمُ كلِّ مَكروهٍ ومَذمومٍ. فَمَنِ اتَّبَعَهُ صارَ مَحْبوباً محموداً، ومَنْ خالَفَهُ، وتَرَكَ اتِّباعَهُ صارَ مَذموماً.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي لم يأتِهِ التَّغْييرُ والتَّبديلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أخبَرَ أنهُ لم يُرْسِلْهُ إلّا لِلْبِشارَةِ والنِّذارَةِ. لكنَّ هذا في حَقِّ الرسالةِ، لم يُرْسِلْهُ إلّا لِهذينِ /٣١١ - أ/ اللَّذَينِ ذَكَرَ، وإلّا قد كانَ امْتَحَنَهُ في نفسِهِ بِمِحَنٍ كثيرةٍ، فلم يكنْ في جميعِ الأوقاتِ مَشْغولاً بهذينِ خاصَّةً، لكنهُ في حقِّ الرسالةِ لم يُرْسِلْهُ إلّا لِبِشارَةٍ ونِذارَةٍ؛ أي لم يُرْسِلْكَ حافظاً ولا وكيلاً ولا مُسَلَّطاً عليهِمْ. بل أرْسَلَكَ لِتَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ.

ثم البِشارَةُ والنِّذارَةُ، هما[1] أمرانِ، يكونانِ في عَواقِبِ الأمورِ: البِشارَةُ، تكونُ عاقِبَةَ كلِّ محبوبٍ، والنِّذارَةُ عاقبةَ كلِّ فِعْلٍ مَكروهٍ ومَذمومٍ.

ثم لِقائلٍ أن يقولَ[2] في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ البِشارَةُ لِمَنْ أجابَهُ في ما أمَرَهُ بِهِ، ودَعاهُ إليهِ، والنِّذارَةُ لِمَنِ ارْتَكَبَ ما نَهى عنهُ. فكيفَ لا دَلَّ هذا على أنَّ النَّهْيَ يوجِبُ الحَظْرَ والتحريمَ [حينَ الْحَقِ][3] النِّذارة بارْتِكابِ ما نَهى عنهُ؟ قيلَ: إنَّ النِّذارَةَ عاقِبَةُ كلِّ مَكروهٍ ومَذمومٍ، والبِشارَةَ عاقبةُ كلِّ مَحبوبٍ ومحمودٍ[4]، فيكونُ ذلكَ في الآدابِ وغيرِها. ولأنَّ الرُّسُلَ لم يُبْعَثوا إلّا لِتَغْييرِ مَناكيرَ وفَواحِشَ، ظَهَرَتْ في الخَلْقِ [كالشِّرْكِ][5] وغَيرِهِ مِنَ الفَواحِشِ والمَناكيرِ، لم يُبْعَثوا لِصغائرَ، ظَهَرَتْ فيهِمْ. ثم أدْخَلَ[6] الصغائرَ والآدابَ في ما أرْسَلَ تَبَعاً. وإلّا كانَ سَبَبَ إرسالِهِمْ الكبائرُ والفَواحِشُ.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ في النَّهْيِ نَهْيُ أدَبٍ ونَهْيُ حَتْمٍ وحُكْمٍ. وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى قد أخْبَرَ أنهُ قد يَعْفو عن كثيرٍ مِنَ السَّيِّئاتِ، وما عَفا عنهُ لم يُلْحِقْ فيهِ النِّذارَةَ والوَعيدَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ﴾ بالتخفيفِ والتثقيلِ[7] ﴿فَرَقْنَهُ﴾ بالتخفيفِ أي أحْكَمْناهُ، وثَبَّتْناهُ حتى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وقالَ بعضُهُمْ: فَرَّقْناهُ أي[8] قَطَّعْناهُ في الإنزالِ سُورَةً فَسُورَةً وآيةً فآيةً على ما أُنزِلَ ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِوُجوهٍ

أحَدُها: ما ذَكَرَ [في][9] قولِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] فأخبَرَ ﷺ أنهُ إنما أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لأنَّ ذلكَ أثْبَتُ في القَلْبِ وأيْسَرُ في الحِفْظِ.

والثاني: أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ على قَدْرِ النوازلِ لِتَتَجَدَّدَ لهمُ البَصيرةُ، وتزدادَ لهمُ الحُجَّةُ بَعْدَ الحُجَّةِ. ولو كانَ جملةً لم يكنْ لِتَتَجَدَّدَ لهمْ ذلكَ، ولا تزدادُ لهمُ البَصيرةُ.

والثالثُ[10]: أنْ يكونَ أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ لِلتَّنبيهِ لِيَتَنَبَّهُمْ في كل وقْتٍ، ويَعِظَهُمْ في كل حالٍ؛ إذْ ذلكَ أنبَهُ لهمْ وأوعَظُ مِنْ أنْ يكونَ مُنَزَّلاً جُمْلَةً واحدةً.

الا تَرى أنَّ الآيةَ إذا دامَتْ تكونُ في التَّنبيهِ أقلَّ، وإذا كانَتْ مُتَقَطِّعَةً في الأوقاتِ كانَتْ أخْوَفَ وأنْبَهَ نَحْوَ كسوفِ الشمسِ بالليلِ صارَ بالدوامِ غَيرَ مَخوفٍ ولا مُنَبِّهٍ لهمْ لِلدَّوامِ، وكسوفُها بالنهارِ صارَ تَنْبيهاً لِلانْقِطاعِ؟ فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وهما. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) في الأصل وم: حيث ألحقه. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: دخل. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٤٢. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ ظاهِرُ هذا خُرِّجَ على التَّخْيِيرِ، لكنَّ المُرادَ منهُ يُخَرَّجُ على خَتْمِ المَواعِظِ وتأكيدِ الوَعِيدِ وتَغْلِيظِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] ظاهِرُهُ على التَّخْيِيرِ، لم يَفْهموا منه ما خُرِّجَ ظاهِرُهُ، لكنْ فَهِموا منهُ تأكيدَ الوَعيدِ وخَتْمَ الوَعْظِ. وهكذا المَعْروفُ في الشاهِدِ أنَّ إنساناً لو أمَرَ آخَرَ بأمْرٍ، وَوَعَظَ امرأً، فلم يَنْجَعْ فيهِ، يقولُ لهُ: إنْ شِئْتَ فافعَلْ، وإنْ شِئْتَ لا تَفْعَلْ، على ما لو فَعَلْتَ، أو لم تَفْعَلْ، فإنما ضَرَرُ ذلكَ عليكَ، إنْ تَرَكْتَهُ. ونَفْعُهُ يَرْجِعُ إليكَ لو فَعَلْتَ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فلا ضَرَرَ علينا في تركِكُمُ الإيمانَ بهِ، ولا يَرْجِعُ نَفْعُهُ إلينا لو آمَنْتُمْ بهِ، إنما نَفْعُهُ لكُمْ، وضَرَرُهُ عليكُمْ. إنْ شِئْتُمْ فَعَلْتُمْ، وإنْ شِئْتُمْ لم تَفْعَلوا. فهو كقولِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧] وكقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ الآية[فصلت:٤٦] ونَحْوَ ذلكَ ممّا يُخبِرُ أنَّ كلَّ مَنْ عَمِلَ خيراً فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ، ومَنْ عَمِلَ شَراً فَعَلَى نَفْسِهِ ضَرَرُ ذلكَ فهذا يَنْقُضُ على أصحابِ الظواهِرِ حينَ[1] قالوا: يُفْهَمُ مِنَ الخِطابِ ظاهِرُهُ، لا يُتَعَدَّى عنْ ظاهرِهِ حينَ[2] لم يَجِبْ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ التَّخْييرُ لكنْ فَهِموا الوَعيدَ الوَكيدَ وخَتْمَ المَواعِظِ.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في لزومِ الأمرِ وافْتِراضِهِ إذا كانَ ما يأمُرُنا ويَنْهانا لِمَنافِعِ أنفُسِنا [ودفعِ الضَّرَرِ عن][3] على أنفُسِنا ومَنْ لم يَعْمَلْ في الشاهِدِ لِنَفْسِهِ فلا لائِمَةَ عليهِ، ولا مُؤاخَذَةَ؟

قيلَ: في الحِكْمَةِ أنْ يُفْرَضَ علينا السَّعْيُ في فَكاكِ أنفُسِنا ودَفْعُ الهَلاكِ عنْ أنفُسِنا، وفي أمْرِهِ إيّانا أمْرٌ بالسَّعْيِ في فَكاكِ أنفُسِنا ودَفْعِ الهَلاكِ عنها. وحاصلُ أمْرِهِ ونَهْيِهِ يكونُ لِمَنفَعَةٍ لنا، لا لهُ. وكذلكَ الضَّرَرُ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ [قولُهُ][4]: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ الآية[النحل:١١٨] وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ دعاءُ آدمَ عليه السلام وغيرِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية[الأعراف:٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وهذا أيضاً يَنْقُضُ على أصحابِ الظَّواهِرِ لأنهُ لا كُلُّ مَنْ أُوتِيَ العِلْمَ منهمْ يَخِرُّ لِلأذقانِ على ما خُرِّجَ ظاهِرُهُ. فَدَلَّ أنَّ الاعْتِقادَ ليسَ بالظاهِرِ على ما قَرَعَ السَّمْعَ ولكنْ على ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ.

ثم قولُهُ: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ على التَّمْثيلِ، ليسَ على حقيقَةِ السجودِ، ولكنْ على الانْقِيادِ لِما سَمِعوا والخُضوعِ لهُ والذِّلَّةِ على ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْثيلِ في قولِهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] ليسَ على حقيقَةِ الانْقِلابِ على الأعقابِ، ولكنْ على التَّمْثيلِ: الرُّجوعِ وتَرْكِ العَمَلِ، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، وكقولِهِ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧] على تَرْكِ العَمَلِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ السجودُ كِنايَةً عنِ الصلاةِ، أي يُصَلُّونَ للهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حقيقَةِ السجودِ: خَرّوا لِلّهِ سُجَّداً إذا تُتْلَى عليهِمْ آياتُ اللهِ وحُجَجُهُ، وهو كَسُجودِ سَحَرَةِ فِرْعَونَ حينَ عايَنوا آياتِ اللهِ وحُجَجَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٤٦] فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ سُجودُ هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عمّا قالَتِ المُلْحِدَةُ فيهِ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي قد كانَ مَوْعودُ رَبِّنا لَمَفْعولاً. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء:٤٧] [وقولُهُ][5]: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] أي كانَ [ما][6] يأمُرُ اللهُ كائناً ومَفْعولاً، أي قد كانَ مَأتاهُ[7] وَعْدُهُ مَفعولاً، وهو ما ذَكَرْنا: كانَ وعدُ اللهِ مَفعولاً.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فإنْ كانَ التأويلُ مِنَ السجودِ الصلاةَ ففيهِ دليلٌ لِقَولِ أبي حنيفةَ،

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: والضرر على. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: يأباه.

رَحِمَهُ اللهُ، إنّ المُصَلّيَ إذا بَكَى في صلاتِهِ خَوفاً على نفسِهِ وإشفاقاً أو سُروراً على ما أَنْعَمَ اللهُ عليهِ، وأكرَمَهُ [في][1] دينِهِ لم تَفسُدْ صلاتُهُ. وإذا كانَ البُكاءُ لِلتّسلّي ممّا حَلَّ بِهِ مِنَ الشّدائدِ والبَلايا تَفسُدُ صلاتُهُ.

وأصلُهُ أنّ البكاءَ إذا كانَ للهِ فلا يُفسِدُ الصلاةَ، وإذا كانَ للدنيا أو لِحاجَةِ نفسِهِ فهو يُفسِدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي يزيدُ ما يُتلَى عليهِمْ مِنَ القرآنِ[2] خُشوعاً وخُضوعاً لهمْ أو الآياتِ.

وقالَ الحَسَنُ: الخُشوعُ هو الخوفُ الدائمُ في القَلْبِ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنّ العَرَبَ كانتْ لا تَعرِفُ الرُّسُلَ والكُتُبَ المُنزَلَةَ مِنَ السماءِ، ولا يُؤمِنونَ بهما، وكانَتْ لا تَعرِفُ ذِكْرَ الرحمنِ ولا التّسميَةَ به، وكذلكَ غَيرُهُ مِنَ الأسماءِ لِما لا سَبيلَ إلى معرفةِ ذلكَ إلّا[3] بِألْسُنِ الرُّسُلِ والأنبياءِ وبالكُتُبِ[4] المُنزَلَةِ مِنَ السماءِ. فإذا لم يُؤمِنوا بالرُّسُلِ، ولا عَرَفوا الكُتُبَ، حَمَلَهُمْ ذلكَ على الإنكارِ والجُحودِ لأسمائِهِ، ولذلكَ ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقولُهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] واسمِهِ لِما ذَكَرْنا أو أنْ يكونوا أنكَروا اسْمَ الرحمنِ لِما لَمْ يَعرِفوا أنهُ مأخوذٌ مِنَ الرَّحْمَةِ.

وأمّا اللهُ فهمْ يُسَمّونَ كلَّ معبودٍ إلهاً. وعلى ذلكَ سَمَّوُا الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها آلِهَةً، ويقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَيُسَمّونَ اللهَ [إلهاً][5] لِما هو المَعْبودُ/ ٣١١-ب/ عندَهُمْ. ورَجَعَتْ عبادَتُهُمُ الأصنامَ إلى اللهِ حينَ[6] زَعَموا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] كانوا يَطْلُبونَ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ القُرْبَةَ إلى اللهِ.

لِذلكَ أنكَروا غَيرَهُ مِنَ الأسماءِ. على أنّ العَرَبَ لم يُنكِروا لشيءٍ واحدٍ اسْمَينِ وأكثَرَ، وعَرَفوا أنّ اختِلافَ الأسماءِ وكَثْرَتَها لا يُوجِبُ اختِلافَ المُسَمّى بِهِ، ولا يُوجِبُ[7] عدداً منهُ، وأنّ ما قالوا: إنهُ كانَ يَدْعُو حتى الآنِ إلى عبادةِ واحدٍ، فالساعةَ يَدعو إلى عبادةِ اثْنَينِ وأكثَرَ؟ إنما قالوا على التّعَنُّتِ والعِنادِ. وإلّا قد عَرَفوا لشيءٍ واحدٍ اسْمَينِ، لكنهمْ أنكَروا للهِ ذلكَ لِما ذَكَرْنا تَعَنُّتاً منهمْ وعِناداً. على هذا يجوزُ أنْ تُتأوّلَ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في تَخصيصِ ذِكْرِهِ بهذينِ الاسْمَينِ: قالَ بعضُهُمْ: وجهُ تَخصيصِهِمْ لأنهما اسْمانِ مَخصوصانِ لهُ، لا يجوزُ أنْ يُسَمّى غَيرُهُ بهذينِ الاسْمَينِ. وأمّا غَيرُهما مِنَ الأسماءِ فإنهُ يَجوزُ أنْ يُسَمّى غَيرُهُ بها.

وقالَ الحَسَنُ: خَصَّ بِذِكْرِهما لأنهما اسْمانِ مُعَظّمانِ عندَ الخَلْقِ ما لم يَجْعَلْ لِغَيرِهما مِنَ الأسماءِ مِنَ التعظيمِ ما جَعَلَ لهذينِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: خَصَّ بالذِّكْرِ هذينِ لأنّ غَيرَهُما مِنَ الأسماءِ أسماءٌ أُخِذَتْ عَنْ صِفاتِهِ، وأمّا هذانِ فهما ليسا أخذاً عَنْ صِفاتِهِ[8].

وقالَ الزّجّاجُ: الرحمنُ هو مَأخوذٌ مِنَ الرحمةِ؛ إلّا أنهُ النهايةُ في الرَّحْمَةِ، لأنهُ فَعْلانُ، وهو كما[9] يُقالُ: غَضْبانُ إذا انْتَهَى غَضَبُهُ غايَتَهُ، وقولُهُ[10]: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢] كلاهما مِنَ الرحمةِ إلّا أنّ الرحمنَ فَعْلانُ والفَعْلانُ هو النهايةُ مِنْ وَصْفِ الرحمةِ لِما ذَكَرْنا، وغَيرُهُ مِنَ الخَلائقِ لا يَبْلُغونَ في الرحمةِ ذلكَ المَبْلَغَ. لذلكَ خَصَّ بالذِّكْرِ الرحمنَ دونَ الرحيمِ.

وهذا كلُّهُ واحدٌ، ليسَ فيهِ خِلافٌ. وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا: لا يَشْتَرِكُ غَيرُهُ في هذينِ، ويجوزُ في غَيرِهِما[11].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي أسماؤُهُ[12] التي يُسَمّى بها كلُّها الحُسْنَى، ليسَ شيءٌ منها قَبيحاً.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) من م، في الأصل: القرائن. (3) في الأصل وم: إما. (4) في الأصل وم: وإما بالكتب. (5) ساقطة من الأصل وم. (6) في الأصل وم: حيث. (7) في الأصل وم: أوجب. (8) في الأصل وم: صفته. (9) في الأصل وم: ما. (10) في الأصل وم: وإلا قوله. (11) في الأصل وم: غيره. (12) من م، في الأصل: أسماء.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي كلُّ [الأعمالِ الصالحةِ والأمورِ الحَسَنَةِ][1] لهُ، أي تُنْسَبُ إليهِ، وتُضافُ، ولا يَجوزُ أنْ يُضافَ، ويُنْسَبَ إليهِ ما قَبُحَ منها، وسَمُجَ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا: إليهِ يُنْسَبُ كلُّ حَسَنٍ وكلُّ صالحٍ على الإشارةِ والتسميةِ بهِ، وهو ما نَذْكُرُ: التَّحِيَّاتُ للهِ والصلواتُ الطَّيِّباتُ إلى آخِرِهِ، ويُنْسَبُ إليهِ كلُّ طَيِّبٍ وكلُّ حَسَنٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهُما: لهُ أسماءٌ حَسَنَةٌ، يُسَمَّى بها. والثاني: أنَّ كلَّ حَسَنٍ، يُسَمَّى بهِ غَيرُهُ، فهو راجعٌ إليهِ في الحقيقةِ، وهو مُسَمًّى بهِ، وكلُّ حَسَنٍ مَنسوبٌ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في ذلكَ:

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي لا تَجْعَلْ صَلاتَكَ في مكانٍ غَيظاً لِلْمُشْرِكينَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي ولا تُسِرَّ عنْ أصحابِكَ، فتُخْفِيَ عليهِمْ، لكنِ ابْتَغِ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: لا تَجْعَلْ كلَّ صلاتِكَ في جماعةٍ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا [تَجْعَلْها][2] كلَّها في غَيرِ جماعةٍ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ ولكنِ اجْعَلْ بَعْضَها بالجماعةِ وبَعْضَها لا بالجماعةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تُجاوِزِ الحَدَّ في الأمورِ والأعمالِ التي أمَرْتُكَ بها، ولا تُقَصِّرْها عنِ الحَدِّ الذي حَدَّدْتُ لكَ فيها، ولكنِ ابْتَغِ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ مُراآةً للناسِ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا [تَجْعَلْ بها الإخفاءَ][3].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تَجْهَرْ بِجَميعِ الأذكارِ التي في الصلاة أو بِجَميعِ القِراءاتِ التي فيها، ولا تُخافِتْ في الكلِّ، ولكنِ[اقْرَأْ][4] بَعْضَها بالجَهْرِ وبَعْضَها بالمُخافَتَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ [ﷺ][5] كانَ يَجْهَرُ في صَلاتِهِ بحيثُ يَسْمَعُهُ المُشْرِكونَ فيُؤذونَهُ، فأمَرَهُ ألّا يُجْهِرَها لئلا يُؤذوهُ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كلَّ المُخافَتَةِ [فلا يَسْمَعَ أصحابُكَ، ولا يأخذوا][6] قراءَتَكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ في الدعاءِ إلى اللهِ وتوحيدِهِ في حقِّ التَّبْليغِ والمَسْألَةِ وأمثالِهِ.

ولكنْ لا يجوزُ أنْ يُقْطَعَ التأويلُ في هذا وأمثالِهِ، فيُقالَ: أنهُ كانَ كذا إلا بِخَبَرٍ منهُ ثابتٍ، لأنَّ الخِطابَ بهِ خطابٌ لهُ. فَقَطْعُ التأويلِ فيهِ والقولُ على شيءٍ واحدٍ شهادةٌ على اللهِ وعلى رسولِهِ، ولا تَحِلُّ الشهادةُ عل اللهِ ولا على رسولِهِ إلّا بالإحالةِ أنهُ أرادَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ جميعَ ما تَقَعُ بهِ الحاجةُ إلى التوحيدِ، لأنَّ مَنْ نَفَى التوحيدَ، وأنْكَرَهُ، إنما نَفَى لِأحَدِ الوجوهِ التي ذَكَرَ. منهُمْ مَنْ قالَ لهُ بالوَلَدِ، وهُمُ اليهودُ والنَّصارَى، ومنهُمْ مَنْ قالَ لهُ بالشريكِ، وهُمْ مُشْرِكو العَرَبِ، ومنهمْ مَن قالَ لهُ بالوَلِيِّ والعَونِ مِنَ الذُّلِّ، وهُمُ الثَّنَوِيَّةُ [وغَيرُهُمْ حينَ][7] قالوا: أنْشأ هذا النورَ لِيَسْتَعِينَ على التَّخَلُّصِ مِنْ وَثاقِ الظُّلْمَةِ.

فَنَزَّهَ نَفْسَهُ، وبرَّأها عن جميعِ ما قالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ؛ لأنَّ الوَلَدَ في الشاهدِ إنما يُطْلَبُ إمّا لِلتَّلَهّي وإمّا لِلاسْتِئْناسِ، واللهُ يَتَعالى عنْ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجَةُ إلى ذلكَ، ويَتَعالى عنْ أنهُ يكونُ لهُ شريكٌ، لأنَّ الشُّرَكاءَ في الشاهدِ إنما تُتَّخَذُ لِلْمَعُونَةِ والقُوَّةِ[8] بهِمْ على بَعْضٍ ومالِهِمْ[9] وما هُمْ فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: أعمال صالحة وأمور حسنة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعجب بها للإخفاء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيسمع أصحابك فيأخذوا. (٧) في الأصل وم: وغيرها حيث. (٨) في الأصل وم: والتقوى. (٩) الواو ساقطة من م.

والوَلِيُّ مِنَ الذُلّ: إنما[يُتَّخَذُ][1] في الشاهدِ لِلاسْتِنْصارِ والاسْتِعانةِ على أعدائِهِ. واللهُ يَتعالى عنْ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ إلى شَيءٍ مِنْ ذلكَ.

فَنَفَى عنهُ جميعَ مَعاني الخَلْقِ وجميعَ ما يُنْسَبُ إليهِمْ، ويُضافُ، ويَصِفونَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي صِفْهُ بما[2] وَصَفَ نفسَهُ، وانْفِ عنهُ مَعانِيَ الخَلْقِ، فيكونَ في ذلكَ تَعْظيمُهُ وتَكْبيرُهُ. أوِ اعْرِفْهُ بِما ذَكَرَ؛ فإذا عَرَفْتَهُ هكذا فقد عَظَّمْتَهُ وكَبَّرْتَهُ.

والوَلَدُ في الشاهدِ إنما يُتَّخَذُ، ويُطْلَبُ لِوُجوهٍ:

أحدُها: لِلتَّسَلّي بهِ والاسْتِئْناسِ عَنْ وَحْشَةٍ.

[والثاني:][3] لِحاجةٍ تُمَسُّهُ، فَيَسْتَعينُ بهِ على قَضائها.

[والثالثُ:][4] لِذُلٍّ يَخافُهُ مِنْ عَدُوٍّ لهُ، فَيَسْتَنْصِرُ بهِ عليهِ. واللهُ يَتعالى عنْ أنْ يُصِيبَهُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ.

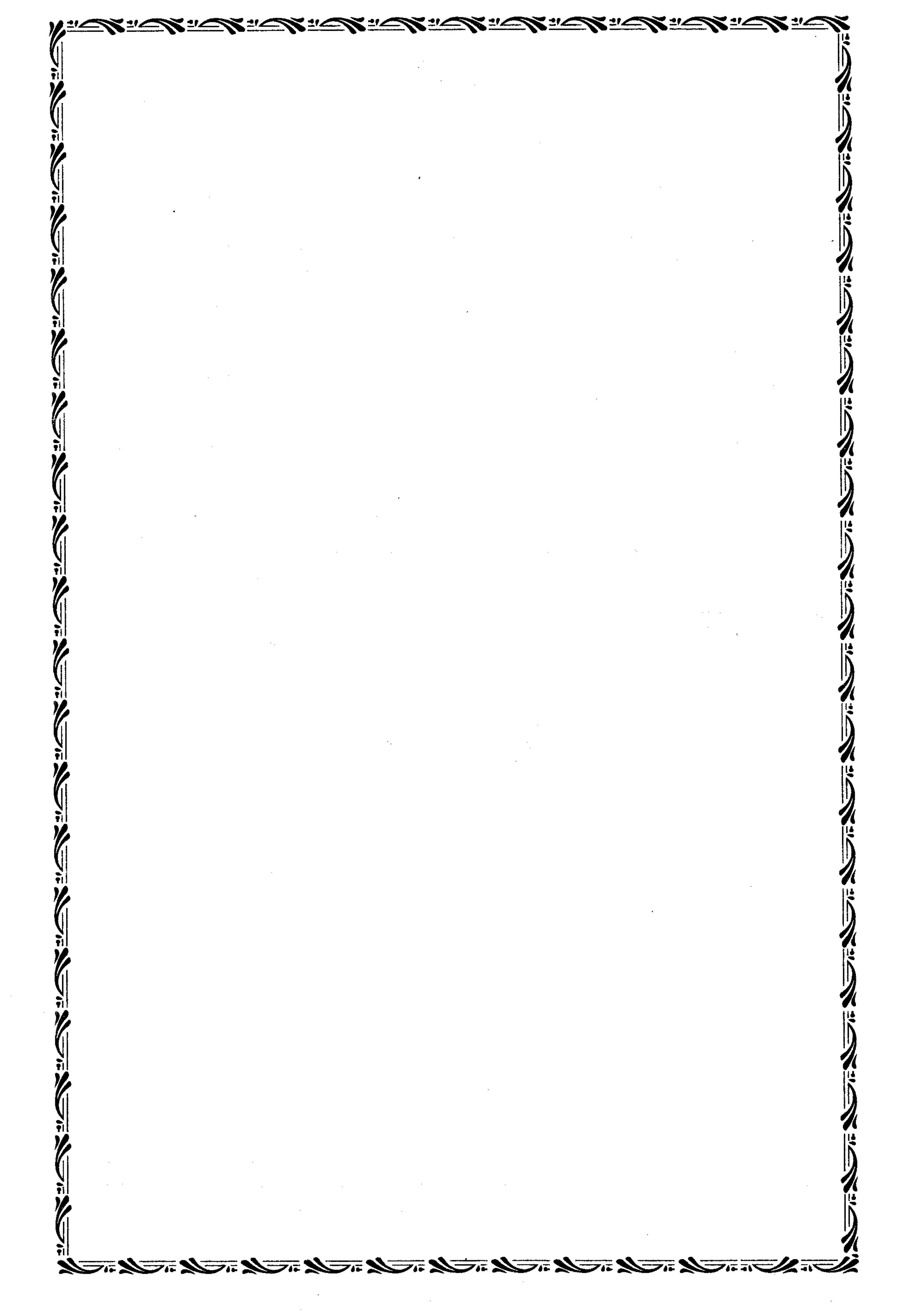
وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي لم يَتَّخِذِ الأولياء لِيَتَعَزَّزَ بهمْ مِنَ الذُلّ. بل إنما [يَتَّخِذُ الناسُ][5] أولياءَ رَحْمَةً منهُ وفضلاً لِيَتَعَزَّزُوا همْ بذلكَ، ويكونوا عُظَماءَ.

وذَكَرَ ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وقد خَلَقَ الأولادَ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ في خَلْقِهِ[6] الشيءَ ما يَصْلُحُ أنْ [يَتَّخِذَهُ لنفسِهِ ولداً][7].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ولو كانَ على ما تقولُهُ المعتزلةُ لكانَ لهُ شريكٌ في الملكِ على قولهمْ؛ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ لم يُرِدْ لأحدٍ مِنَ الكَفَرَةِ المُلْكَ لهمْ، وإنما أرادَ لأوليائِهِ. فَعَلَى قولِهِمْ صارَ الفراعنةُ شركاءَ لهُ في المُلْكِ حينَ[8] لم يكُنْ ما أرادَ هو، وكانَ ما أرادوا هُمْ، واللهُ أعلمُ. والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ. والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: بها. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: اتخذ. (٦) في الأصل وم: خلق. (٧) في الأصل وم: يتخذ لنفسه. (٨) في الأصل وم: حيث.



سورة الكهف

مكّيّة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُه[2] تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ تأويلُ الحَمْدِ هٰهنا وفي أمثالِهِ، /٣١٢ ـ أ/ واللهُ أعلَمُ، أنّ[3] حَقَّ الحَمْدِ الذي منهُ وَصَلَتْ إلى كلِّ أحدٍ نِعَمُهُ، أي إنها، وإنْ وَصَلَتْ على أيدي مَنْ وَصَلَتْ، فإنَّ حَقَّ الحَمْدِ والثناءِ لهُ في تلكَ النِّعَمِ[4]، وإنْ حُمِدَ مَنْ دونَهُ؛ إذْ منهُ ذلكَ لا مِنَ الذي وَصَلَتْ على يديهِ، وإنَّ الذي وَصَلَتْ على يَديهِ كالمُسْتَعْمِلِ لهُ، فَحَقُّ الحَمْدُ والثناءُ لهُ لا لِمنْ[5] دونَهُ.

أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قولوا: لهُ الحَمْدُ والثّناءُ، لأنهُ في جَميعِ ما ذَكَرَ الحَمْدَ لهُ الْحَق به شيئاً: إمّا قُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ، وإمّا نِعَمَهُ التي أنْعَمَ على الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ١] وقولِهِ[6] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [فاطر: ١] وقولِهِ[7] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: ١] وقولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] ونَحْوَهُ[8].

ما ذَكَرَ الحَمْدَ لنفسِهِ والثّناءَ إلّا ذَكَرَ على إثْرِهِ إمّا[9] قُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ وإمّا نِعَمَهُ. فما كانَ المذكورُ على إثْرِهِ النِّعْمَةَ فهو يَسْتأدي بهِ شُكْرَهُ وحَمْدَهُ. وإنْ كانَ المُلْحَقُ بهِ القُدْرَةَ والسُّلْطانَ فَيَخْرُجُ القَولُ منهُ مَخْرَجَ الأمرِ بالتعظيمِ لهُ والهَيْبَةِ والإجلالِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ ﴿قَيِّمًا﴾ أي لم يَجْعَلْهُ عِوَجاً. ويَجوزُ زِيادَةُ اللامِ في مِثْلِهِ كقولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي رَدِفَكُمْ. هذا جائزٌ في اللغةِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ ﴿قَيِّمًا﴾ يُخَرَّجُ[10] على وجهَينِ:

أحَدُهما: على التقديمِ والتأخيرِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، أي أنْزَلَ على عبدِهِ الكتابَ قَيِّماً، ولم يَجْعَلْهُ عِوَجاً.

والثاني: على زِيادَةِ: بل؛ كأنهُ قالَ: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ بل جَعَلَهُ قَيِّماً. على أحدِ هٰذينِ الوَجْهَينِ يُخَرَّجُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ ﴿قَيِّمًا﴾: إذا لم يكنْ عِوَجاً كانَ قَيِّماً، وإذا كانَ قَيِّماً كانَ غيرَ عِوَجٍ، في كلِّ واحدٍ مِنَ الحَرْفَينِ يَغني الآخرَ، لأنّ[11] مِنْ عادةِ العَرَبِ تَكرارَ الكلامِ وإعادَتَهُ على التأكيدِ كقولِهِ ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] [فإذا كُنَّ مُحْصَناتٍ لم يَكُنَّ مُسافِحاتٍ][12] وإذا كُنَّ مُسافِحاتٍ لم يَكُنَّ مُحْصَناتٍ: حَرْفانِ مُؤَدِّيانِ مَعْنىً واحداً، إلا أنهُ كَرَّرَ لِما ذَكَرْنا [أنَّ][13] مِنْ عادةِ العَرَبِ التكرارَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ البأسُ، هو الشديدُ، والشديدُ، هو البأسُ، هما واحدٌ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: قال أهل التأويل: سورة الكهف. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: النعمة. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) أدرجت في الأصل وم قبل هذه الآية. (٩) في الأصل وم: ما. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أي لم يجعله عوجا وهو. (١١) في الأصل وم: إلا أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿قَيِّمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: القَيِّمُ الشاهدُ، أي القَيِّمُ على الكُتُبِ والشاهدُ عليها في الزِّيادةِ والنُّقصانِ وفي التَّغْيِيرِ والتَّحْريفِ، يُبَيِّنُ ما زادوا فيها، وما نَقَصوا، وما حَرَّفوهُ، وما غَيَّروهُ، كقولِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٧٩] وقولِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] وقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ الآية [آل عمران: ٧٨] كانوا يُحَرِّفونَ نَظْمَهُ ورَصْفَهُ.

ومنهُمْ مَنْ كانَ يُحَرِّفُ أحكامَهُ. فهذا القرآنُ شاهدٌ وقَيِّمٌ في بَيانِ ما فَعَلوا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَيِّمًا﴾ أي ثابتاً قائماً أبداً، لا يُبَدَّلُ، ولا يُغَيَّرُ، ولا يَزْدادُ، ولا يَنْقُصُ، وهو على ما وَصَفَهُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وهو على ما وَصَفَ الحَقَّ بالثَّباتِ والقيامِ، والباطلَ بالذهابِ والتَّلاشي كقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ الآية [الرعد: ١٧] وما وصفَ الكلمةَ الطَّيِّبَةَ بالثباتِ والقيامِ لها، والخَبيثَةَ بالزَّوالِ والتَّغْييرِ والذَّهابِ. فَعَلى ذلكَ هذا القرآنُ لأنهُ حَقٌّ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿قَيِّمًا﴾ أي مُسْتَقيماً. وتأويلُ المُسْتَقيمِ المُسْتَوي المُوافِقُ، أي يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، ويُوافِقُ أوَّلُهُ آخِرَهُ، وآخِرُهُ أوَّلَهُ، أي لم يَخْرُجْ مُخْتَلِفاً، وهو على ما قالَ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي[1] لو كانَ مِنْ عندِ غَيرِ اللهِ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ لكانَ خَرَجَ مُخْتلِفاً مُتَناقِضاً، يَنْقُضُ أوَّلُهُ آخِرَهُ، وآخِرُهُ أوَّلَهُ.

فإنْ لم يكُنْ دلَّ أنهُ منْ عندِ اللهِ نَزَلَ، ولو كانَ على ما يقولُ[2] أصحابُ العُمومِ والظاهرِ أيضاً لم يكُنْ ﴿قَيِّمًا﴾ ولا مُسْتَقيماً، بل لَخَرَجَ[3] مُخْتَلِفاً مُتَناقِضاً، لأنهمْ يَعْتَقِدونَ على العُمومِ والظاهرِ، ثم يَخُصّونَ بدليلٍ، هو[4] مُخْتَلِفٌ.

وأصْلُهُ قَيِّمٌ بالحُجَجِ والبَراهينِ على أيِّ تأويلٍ كانَ، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي أنْزَلَهُ على عَبْدِهِ لِيُنْذِرَكُمْ بأساً شديداً، أي لِيُنْذِرَ بِبَأسٍ شديدٍ، والبأسُ العذابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْزَلَ على عبدِهِ الكتابَ ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي مِنْ عِنْدِهِ.

والثاني: لِيُنْذِرَ[5] الكفارَ بأساً شديداً، يَنْزِلُ مِنْ عندِهِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيهِ دلالةُ أنهُ قد يكونُ المؤمنونَ يَسْتَحِقّونَ[6] اسْمَ الإيمانِ، و إنْ لم يَعْمَلوا الصالحاتِ حينَ[7] ذَكَرَ المؤمنينَ، ثم ذَكَرَ الأعمالَ الصالحاتِ. خَصَّ المؤمنينَ بِعَمَلِ الصالحاتِ، لكنَّ البِشارةَ المُطْلَقَةَ إنما تكونُ للمؤمنينَ الذينَ عَمِلوا الصالحاتِ لأنهُ لم يَذْكُرِ البِشارةَ المُطْلَقَةَ في جميعِ القرآنِ إلا[8] للمؤمنينَ الذينَ عَمِلوا الصالحاتِ.

ثم المؤمنونَ الذينَ عَمِلوا غيرَ الصالحاتِ في مَشيئَةِ اللهِ؛ إنْ شاءَ عَفا عنهمْ، وإنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ بِقَدْرِ عَمَلِهِمُ الذي كانوا عَمِلوا، وإنْ شاءَ قابلَ سَيِّئاتِهِمْ بِحَسناتِهِمْ؛ فإنْ فَضَلَتْ حَسَناتُهُمْ على سَيِّئاتِهِمْ بَدَّلَ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ على ما أخْبَرَ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] هُمْ في مَشيئَةِ اللهِ على ما ذَكَرَ، وليسَتْ لهمُ البِشارَةُ المُطْلَقَةُ التي للمؤمنينَ الذينَ عَمِلوا الصالحاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ لا سُوءَ فيهِ، ولا قُبْحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ دونَ قولِهِ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] كبيراً في الذِّكْرِ،لكنهُ صارَ مِثْلَهُ بقولِهِ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يَخْرُجونَ منهُ أبداً، وهُمْ مُقيمونَ فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يقولون. (٣) في الأصل وم: يخرج. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: لينذركم.
(٦) في الأصل وم: ويستحقون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: لا.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾][1] يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تأخذُهُمْ سآمَةٌ ولا مَلالَةٌ فيهِ، فَيُريدوا[2] التَّحَوُّلَ منهُ إلى غَيرِ ما يكونُ في الشاهِدِ أنهُ يَسأمُ المَرءُ، ويَمَلُّ مِنْ طعامٍ، وإنْ كانَ رَفيقاً، ويَرْغَبُ في ما دونَهُ، وهو ما قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

والثاني: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأنَّ خَوْفَ الخُروجِ والزَّوالِ عنِ النِّعْمَةِ يُنَغِّصُ النِّعْمَةَ على صاحِبِها، وهو ما قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ٥٧و. . .]وقالَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨و. . .].

الآيتان ٤ و ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أي يَعْلَمونَ أنهُ لم يَتَّخِذْ ولداً، ولكنْ يقولونَ ذلكَ على العِلْمِ منهمْ كَذِباً وزُوراً كقولِهِ: ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [غافر: ٤١ و٤٢] أي أُشْرِكُ [بهِ][3] ما أَعْلَمُ منهُ [أنهُ][4] لَيسَ هو بِشريكٍ لهُ، وكقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: ١٨] أي أتُنَبِّئونَ اللهَ بما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ على ما يقولونَ.

والثاني: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي عَنْ جَهْلِهِمْ يقولونَ مِنَ الولَدِ والشريكِ لا عَنْ عِلْمٍ تقليداً لآبائِهِمْ، لأنهمْ لَيسوا بأهلِ كتابٍ يُعْرَفونَ بهِ، ولا كانوا يؤمنونَ بالرُّسُلِ وأسبابِ العِلْمِ وهذينِ الكتابِ والرُّسُلِ. فما قالوا إنما قالوا عَنْ جَهْلٍ لا عَنْ عِلْمٍ، وكذلكَ آباؤهُمْ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ مَنْ قالَ شيئاً عَنْ جَهْلٍ فإنهُ مُؤاخَذٌ بهِ حينَ[5] قال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ الآية.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ أي كَبُرَتْ وعَظُمَتْ تلكَ الكَلِمَةُ [التي][6] قالوها على مَنْ عَرَفَ اللهَ حَقَّ المَعْرفةِ حتى كادتِ السمواتُ والأرضُ تَنْشَقُّ لِعِظَمِ ما قالوا في اللهِ كقولِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٩٠]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولونَ إلا كَذِباً.

ثم تَكَلَّمَ أهلُ الأدَبِ في نَصْبِ ﴿كَلِمَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: انْتَصَبَتْ على المَصْدَرِ أي كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمُ التي قالوها ﴿كَلِمَةً﴾ كقولِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقالَ قُطْرُبٌ: هو على الوصفِ كما يُقالُ: بِئْسَ رجلاً، ونِعْمَ رجلاً على الوصفِ بهِ[7]، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقالَ الخليلُ: إنما انْتَصَبَتْ لأنها نَعْتٌ لِاسْمٍ مُضْمَرٍ [هو][8] مَعْرِفةٌ، وهو بِمَنْزِلَةِ قولِهِ: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ [الأعراف: ١٧٧]وإنما كانَ نَعْتاً لِاسْمٍ مُضْمَرٍ لأنهُ قالَ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فهذا القولُ فِرْيَةٌ. فتَأويلُهُ: كَبُرَتِ الفِرْيَةُ كَلِمَةً. وقد قيلَ: كَبُرَتِ المَقالةُ كَلِمَةً، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ أي كَبُرَتْ كَلِمَةً تكَلَّموا بها. أو يقولُ: /٣١٢ ـ ب/ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَتَكَلَّمونَها.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ كقولِهِ[9] في آيةٍ أُخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] أخبرَ أنهُ فاعلٌ ما ذَكَرَ، ولم يَقُلْ لهُ: افْعَلْ، أولا تَفْعَلْ في هذا، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ النَّهْيُ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] ولهذا قالَ بَعْضُ الناسِ: إنَّ في قولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ نَهياً عنِ الحُزْنِ عليهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) في الأصل وم: فيريدون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: كما. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال.

وعندَنا ليسَ يَخرُجُ على النَّهي ولكنْ على التَّسَلّي.

ثم اختَلِفَ في قولِهِ: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ في الأَسَفِ قالَ بعضُهُمْ: الأسَفُ هو النهايَةُ في الغَضَبِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قالَ أهلُ التأويلِ: آسَفونا: أغْضَبونا.

وقالَ بعضُهُمْ: الأَسَفُ هو النهايَةُ في الحُزْنِ كقولِهِ: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] أي يا حُزْني.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهُ الحُزْنُ إشفاقاً عليهِمْ أنْ تَتْلَفَ أنفُسُهُمْ في النارِ بِتَرْكِهِمُ الإيمانَ، أو كانَتْ نفسُهُ تَغْضَبُ عليهِمْ بِتَرْكِهِمُ الإجابَةَ والقولِ في اللهِ، سُبْحانَهُ، على ماقالوا فيهِ. وكلاهما يجوزُ: إذْ إذا كانَ ذلكَ للهِ كادَتْ نفسُهُ تَتْلَفُ حُزْناً عليهِمْ إشفاقاً منهُ، أو كادَتْ تَتْلَفُ غَضَباً عليهِمْ.

وفيهِ دلالَةٌ أنهُ لم يكنْ يُقاتِلُ الكَفَرَةَ لِلْقَتْلِ والإتلافِ[1]، ولكنْ كانَ يُقاتِلُهُمْ لِيُسْلِموا حتى[2] كادَتْ نفسُهُ تَتْلَفُ إشفاقاً عليهِمْ[3]؛ فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يُقاتِلُهُمْ لِلْقَتْلِ، وفي القَتْلِ تَرْكُ الشَّفَقَةِ. ولكنْ كانَ يُقاتِلُهُمْ لِيَضْطَرَّهُمُ القتالُ إلى الإسلامِ، فَيُسلِموا، فلا يَهْلِكونَ.

وفيهِ تذكيرٌ لِلْمُسْلِمينَ وتنبيهٌ لهمْ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ما أخْبَرَ عنْ عَظيمِ مَحَلِّ الذنوبِ في قَلْبِهِ؛ فَلَعَلَّ ذلكَ يُؤْذيهِ، فَيَلْحَقُهُمُ اللعنُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٥٧] وفي ذلكَ زَجْرٌ عنِ ارْتكابِ ما يَسوؤُهُ ويؤذيهِ.

والثاني: تعليمٌ منهُ لأُمَّتِهِ أنْ كيفَ يُعامِلونَ[4] الكَفَرَةَ وأهلَ[5] المَناكيرِ منهُمْ؟ يُقاتِلونَهُمْ في الظاهِرِ، ويُضْمِرونَ الشَّفَقَةَ لهمْ في القَلْبِ على ما فَعَلَ بهمْ رسولُ اللهِ ﷺ وعامَلَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ سَمَّى القرآنَ حديثاً، وهو ما قالَ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] سَمّاهُ بأسامٍ: قَصَصاً وحديثاً وذِكْراً ورُوحاً وأمثالَها[6].

والنهايَةُ في الحُزْنِ والغَضَبِ للأنبياءِ أنفسِهِمْ؛ تقومُ لهذينِ. وأمّا غيرُهُمْ منَ الخَلائقِ فلا تَحْتَمِلُ أنفسُهُمْ إلّا لأحدِهِما: إذا كانَ الحُزْنُ ذَهَبَ الغضبُ وإذا كانَ جاءَ الغَضَبُ ذَهَبَ الحزنُ. فالأنبياءُ عليهم السلام هُمُ المَخصوصونَ بهذا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ اخْتُلِفَ في ما أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ للأرضِ زينَةً:

قالَ بعضُهُمْ: كلُّ ما على وَجْهِ الأرضِ مِنَ النباتِ والشجرِ والإنسانِ وغَيرِهِ هو زينةٌ لها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنْ كانَ التأويلُ على هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] القيامَةَ؛ يَعْني جَميعُ ما على وَجْهِ الأرضِ يَبْقَى[7] قاعاً صَفْصَفاً، وذلكَ إخبارٌ عنِ القِيامَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿زِينَةً﴾ هو النباتُ الذي[8] عليها، وما جَعَلَ لهمْ مِنَ الرِّزْقِ لِيَبْلُوَهُمْ بما جَعَلَ لهمْ مِنَ الأرزاقِ بالأمرِ والنَّهيِ والعباداتِ وغيرِها[9]، لم يَجْعَلْ ذلكَ النباتَ عليها وتلكَ الأرزاقَ مَجّاناً[10]، ولكنْ لِيَخْتَبِرَهُمْ، ويَبْتَلِيَهُمْ بأنواعِ الإمتِحانِ. فإذا كانَ كذلكَ ففيهِ دلالةٌ أنْ ليسَ لأحدٍ أنْ يَتناوَلَ[11] ممّا عليها إلّا بإذنِ [أربابِها][12] ولا يُقْدِمَ على شيءٍ منها إلّا بأمْرٍ مِنْ أربابِها.

وقالَ أبو بكرٍ عبدُ الرحمنِ بنُ كَيْسانَ: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أهلَها، جَعَلَ ذلكَ لِيَبْلُوَهُمْ. ذَكَرَ هَهنا أنهُ جَعَلَ ما على الأرضِ لِيَبْلُوَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقالَ في آيَةٍ أُخرى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَجْمَعُ بينَ الآيتَيْنِ، فيقولُ: جَعَلَ الحياةَ لِلابْتِلاءِ والمَوتَ لِلْجزاءِ، فَيَسْتَدِلُّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ بالزينةِ والحياةِ لا بالضِّيقِ والمَوَاتِ.

---

(١) في الأصل وم: والتلف. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وفيه. (٤) في الأصل وم: يعامل. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وأمثاله. (٧) في الأصل وم: فيبقى. (٨) في الأصل وم: النبي. (٩) في الأصل وم: وغيره. (١٠) من م، في الأصل مجازا. (١١) من م، في الأصل: يتأول. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ومنهُم مَنْ يقولُ: امْتَحَنَهُمْ بهما جميعاً بالحياةِ لِيَتزَوَّدوا فيها لِما بَعْدَ المَوتِ كما يَتزَوَّدونَ[١] في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ لِحالِ[٢] الضِّيقِ والشِّدَّةِ. فَمَنْ لم يَتزَوَّدْ في حالِ السَّعَةِ فلا زادَ لهُ في حالِ الضِّيقِ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ لم يَتزَوَّدْ في الحياةِ فلا زادَ لهُ بَعْدَ المَوتِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي نَبْتَلِيهِمْ، ونَخْتَبِرُهُمْ أيضاً بذهابِ النباتِ وأَنْزالِهِ.

وتأويلُهُ: أنْ يَبْتَلِيَهُمْ بالرخاءِ والسَّعَةِ وبالضِّيقِ والشِّدَّةِ كقولِهِ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحْوَهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ واللهُ أعلَمُ، أي نَبْتَلِيهِمْ بالسَّعَةِ والرَّخاءِ والضِّيقِ والشِّدَّةِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي مُهْلِكٌ نفسَكَ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿بَاخِعٌ﴾ بَخَعَ نفسَهُ، أي أخرَجها، وقالا جميعاً: الأسفُ الحُزْنُ. وقالَ غيرُهما: الأسَفُ الغَضَبُ أيضاً. دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغْضَبُونا.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصَّعيدُ المُسْتَوي، ويُقالُ: وجهُ الأرضِ، ومنهُ قيلَ لِلتُّرابِ: ﴿صَعِيدًا﴾ لأنهُ وجهُ الأرضِ والجُرُزُ: الأرضُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. يُقالُ: أرضٌ جُرُزٌ، وأرَضونَ أجرازٌ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: والجُرُزُ الأرضُ التي لا نَبْتَ فيها، والصَّعيدُ الترابُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ قيلَ: أحَسِبْتُ؟ وقيلَ: قد حَسِبْتَ، ويَحْتَمِلُ بِمَعْنَى: بل حَسِبْتَ كقولِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [الشورى: ٢٤] أي بل يقولونَ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾.

وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرْفَ الاِسْتِفهامِ مِنَ اللهِ يكونُ على الإيجابِ والإلزامِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الأمرِ: احْسَبْ، واعْلَمْ أنَّ أنباءَ ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ وما ذَكَرْنا: بل حَسِبْتَ، وهو كذلكَ.

[والثاني: على النَّهْيِ][٣]: لا تَحْسَبَنَّ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ لَيسُوا[٤] أعْجَبَ منها، بل أتاكَ آياتٌ أعْجَبُ منها بكثيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في الرَّقيمِ: قالَ بعضُهُمْ: الرَّقيمُ: الكتابُ كقولِهِ: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩و٢٠] أي مَكْتوبٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرَّقيمُ: الوادي الذي فيهِ كَهْفُهُمْ. وقيلَ: الرَّقيمُ: اللوحُ الذي كُتِبَ فيهِ أسامي الفِتْيَةِ. وقيلَ: الرَّقيمُ القَرْيَةُ التي خَرَجَتِ الفِتْيَةُ منها. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ما أدري ما الرَّقيمُ؟ لكني سَأَلْتُ كَعْباً عنها، فَزَعَمَ أنها القَرْيَةُ التي خَرَجوا منها. وقيلَ: الرَّقيمُ: الكَلْبُ الذي كانَ مَعَهُمْ. قالوا أمثالَ ما ذَكَرْنا، وليسَ بنا إلى مَعْرِفَةِ الكَهْفِ والرَّقيمِ حاجَةٌ [إنما ذلكَ بِلسانِهِمْ، ولم يَسْألوا عنِ الكَهْفِ والرَّقيمِ، وإنما سألوا عنْ أصحابِ الكَهْفِ والرَّقيمِ][٥] فما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَشْتَغِلوا بهِ.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ قصةِ أصحابِ الكَهْفِ والرَّقيمِ وأنبائِهِمْ، فقالَ: أُخْبِرُكُمْ غداً، ولم يَسْتَثْنِ[٦]، فعاقَبَهُ اللهُ فيهِ أنْ حَبَسَ عنهُ الوَحْيَ كذا وكذا يوماً، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣و٢٤].

لكنَّ ذلكَ فاسدٌ. وماتَوَهَّموا على رسولِ اللهِ ﷺ مُحالٌ، لأنهُ كَذِبٌ، لا يَجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ، يقولُ: أُخْبِرُكُمْ غداً،

---

(١) في الأصل وم: يتزود. (٢) في الأصل وم: حال. (٣) في الأصل وم: أو يقول. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) يعني لم يقل: إن شاء الله. (٧) ساقطة من الأصل وم.

واللهُ لم يَأمُرْهُ[1] بذلكَ، أو قالَ، ولم يَستَثْنِ، فَيَحبِسُ اللهُ الوَحيَ عنهُ، ولا يُخبِرُهُمْ في الوقتِ الذي قالَ: إنهُ يُخبِرُهُمْ، فيَظهَرُ كَذِبُهُ عندَهُمْ بَعْدَما اختارَهُ لِرسالتِهِ، واصطَفاهُ لِمَوضِعِ وَحيِهِ، ثم يُكَذِّبُهُ في ما أخبرَ. هذا فاسِدٌ مُحالٌ غيرُ مُحتمَلٍ ما تَوَهَّموا بهِ على اللهِ وعلى رسولِهِ. لقد[2] كانَ مِنْ كُفّارِ مكةَ السَّعْيُ في مَنْعِ/ ٣١٣ ـ أ/ رسولِ اللهِ ﷺ عن تَبليغِ الرسالةِ إلى الناسِ والحَيلولَةِ عنِ الدعاءِ إلى ما أُمِرَ أنْ يَدْعُوَهُمْ واستِقْبالِ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ بِتَمْويهاتِهِمْ، وقد ذُكِرَ في غَيرِ قِصَّةٍ وخَبَرٍ أنهمْ سألوا اليهودَ عنهُ وعَنْ بَعْثِهِ[3]: هل تَجِدونَ [بَعْثَهُ في كُتُبِكُمْ][4]؟ إذْ لم يكونوا أهلَ كتابٍ، يَعْلَمونَ ذلكَ، فاحتاجوا إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمْ، ويُخبِرُهُمْ عنهُ[5]، فَسألوا يَهودَ المدينةِ عنهُ وعَنْ خَبَرِهِ، فقالوا: نَجِدُ بَعْثَهُ[6] في كتابِنا كما تقولونَ. فهذا وَقْتُ خُروجِهِ وأوانُهُ.

فَقالوا لهمْ: حَدِّثونا بِشيءٍ، لا يَعْلَمُهُ إلّا نَبيٌّ. فَقالوا: سَلُوهُ عَنْ ثلاثِ خِصالٍ، فإنْ أجابَهُنَّ فهو نَبِيٌّ، وإلّا فهو كَذّابٌ. اسألُوهُ عن أصحابِ الكَهْفِ، واسألُوهُ عن ذي القَرْنَينِ فإنهُ كانَ مَلِكاً، وكانَ مِنْ أمْرِهِ كذا وكذا، واسألُوهُ عنِ الرُّوحِ. فإنْ أخبَرَكُمْ فهو نَبِيٌّ، وإنْ لم يُخبِرْكُمْ فهو كَذّابٌ. فَسألُوهُ، فأخبَرَهُمْ عنْ ذلكَ. وفي بَعْضِ القِصَّةِ اسألُوهُ عنِ الرُّوحِ فإنْ أخبَرَكُمْ عنهُ فهو ليسَ بِنَبِيٍّ، فإنْ لم يُخبِرْكُمْ، ولكنهُ وَكَّلَ أمْرَهُ إلى اللهِ، فهو نَبِيٌّ.

ثم قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ بهِ، وإنْ كانَ لِرسولِ اللهِ ﷺ فالمُرادُ بهِ غَيرُهُ على ما خاطَبَهُ بهِ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ، والمُرادُ بهِ غَيرُهُ.

ويَحتَمِلُ أنْ [يكونَ][7] الخِطابُ لهُ، والمُرادُ هو. وإنْ كانَ هو المخاطَبَ بهذا فإنهُ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ إلى آخِرِهِ وجهَينِ.

أحدُهما: يَقولُ: قد حَسِبْتَ أنَّ أنباءَهُمْ وأخبارَهُمْ كانَتْ مِنْ آياتِنا لِرسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ عَجَباً. فيكونُ الحِسابُ على هذا التأويلِ في مَوضِعِ العِلْمِ واليَقينِ. كأنهُ قالَ: قد عَلِمْتَ أنَّ أنباءَ أصحابِ الكَهْفِ وأخبارَهُمْ آيةٌ عجيبةٌ لِرسالَتِكَ.

والثاني: إخبارٌ عنْ أحوالِهِمْ وتَقَلُّبِهِمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ. فإنْ كانَ على هذا فيكونُ الحِسْبانُ في مَوضِعِ الحِسْبانِ، كأنهُ قالَ: قد حَسِبْتَ أنَّ أحوالَهُمْ وتَقَلُّبَهُمْ كانَ مِنْ آياتِنا عَجَباً. هذا إن كانَ الخِطابُ بهِ لِرسولِ اللهِ ﷺ [والمُرادُ بهِ هو. وأمّا إذا كانَ المُرادُ][8] بهِ غَيرَهُ فإنهُ يجوزُ على الحِسْبانِ والظَّنِّ وغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي انضَمَّ [واختُلِفَ في الكَهْفِ][9] قالَ بعضُهُمْ: الكَهْفُ: الغارُ في الجَبَلِ. وقيلَ: الفَضاءُ. وقيلَ: المَلْجأُ. ولكنْ قد ذَكَرْنا أنا لا نَدْري ما الكَهْفُ؟ وما الرَّقيمُ؟ ذلكَ بِلِسانِهِمْ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

والفِتْيَةُ[10] اسْمُ الأحداثِ منهمْ والشُّبّانِ، لا اسْمُ المَشْيَخَةِ، ثم يكونُ [اسْمَ][11] الأحرارِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [قالَ الحَسَنُ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾][12] أي حَسَنَةً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي تَيسيراً[13]. وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] فهذا ليسَ بدعاءٍ. إنما هو تَلْقينٌ وإلهامٌ منهُ إيّاهُمْ، فيكونُ تفسيراً للأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رِزْقاً، لأنهمْ يُفارِقونَ قومَهُمْ لِكُفْرِهِمْ لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمُ الذي هُمْ عليهِ، وهو الإسلامُ، وقد عَرَفوا أنهُ [تَسَعُ المُفارَقَةُ][14] الناسَ طَلَباً لِسَلامةِ الدينِ، ولكنْ لم يَعرِفوا أنهُ [تَسَعُ مُفارَقَةُ الناسِ][15] قومَهُمْ وما بهِ قِوامُ أنفسِهِمْ إلى مَكانٍ خالٍ عنْ ذلكَ، فَسألوا ربَّهُمُ الرِّزْقَ إشفاقاً على أنفسِهِمْ بقولِهِمْ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رِزْقاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي اجْعَلْ جميعَ أُمورِنا على الصَّوابِ والرُّشْدِ على ما ذَكَرْنا أنهمْ عَرَفوا سَعَةَ المُفارَقَةِ

---

(١) من م، في الأصل: يأمركم. (٢) في الأصل وم: قد. (٣) في الأصل وم: نعته. (٤) في الأصل: نعته في كتبهم، في م: نعته في كتبكم.
(٥) من م، في الأصل: عن. (٦) في الأصل وم: نعته. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وأما إذا كان الخطاب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وهم الفتية. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يسيرا. (١٤) في الأصل وم: يسمع مفارقة. (١٥) في الأصل وم: يسمع.

للدين، ولكنْ لم يَعْرِفوا سَعَةَ تلكَ[1] إذا كانَ فيها[2] خَوفُ هَلاكِ أنفُسِهِمْ، فَسألوا ربَّهُمْ أنْ يَحْمِلَ أمْرَهُمْ ذلكَ على الرُّشْدِ والصَّوابِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً وسَعَةً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ مِنْ أمْرِ دينِنا صَواباً؛ يقولُ: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ديناً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [صَواباً][3].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الضَّرْبُ على الآذانِ هو المَحْوُ مَحْوُ الأسماعِ، ويُقالُ: اضْرِبْ على حديثِ كذا: امْحُهُ. ثم يَحْتَمِلُ مَحْوُ الأسماعِ وجْهَيْنِ:

أحَدُهما: مَحْوُ الأرواحِ التي بها تَحْيَى الأنفُسُ، فيكونُ كِنايَةً عنِ المَوتِ.

والثاني[4]: مَحْوُ أرواحِ الأسماعِ التي تُسْمِعُ لا المَوتِ. فلمّا قالَ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨] دلَّ أنهُ إنما أرادَ مَحْوَ أرواحِ الأسماعِ لا مَحْوَ الأرواحِ التي بها حَياةُ الأنفُسِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: مِنْ رُقودِهِمْ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي لِنَعْلَمَ ما قَدْ عَلِمْناهُ غائباً شاهداً، إذْ كانَ عالماً بما يكونُ [منهمْ][5].

وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا: لِيَعْلَمَ الخَلْقَ شاهداً، كما عَلِمَ هو غائباً، أو لِيَعْلَمَ المُخْطِئَ منهم مِنَ المُصيبِ، أو مُحالٌ وَصْفُهُ بالعِلْمِ بالمُخْطِئِ، ولا مُخْطِئٌ، ثم وبالمُصيبِ، ولا مُصيبٌ[6]. فإذا كانَ كذلكَ فيكونُ قولُهُ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ المُخْطِئَ مِنَ المُصيبِ والمُصيبَ مِنَ المُخْطِئِ، إذا كانَ. وأصلُهُ أنهُ يَعْلَمُ كائناً على ما عَلِمَ أنهُ يكونُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [اختُلِفَ في قولِهِ][7] ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ قال بعضُهُمْ. مُشْرِكيهِمْ ومُؤْمِنيهِمْ. ومنهُمْ منْ قالَ: المَلِكُ والفِتْيَةُ.

[ثم اختَلَفُوا في لَبْثِهِمْ][8] إذْ بُعِثوا: قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

ولكنْ لَسْنا نَدْري مَنْ ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى أنا ذَكَرْنا قولَ أهلِ التأويلِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [قالَ بعضُهُمْ:][9] الحَقُّ في النَّبَإِ الصِّدْقُ، والحَقُّ في الأحكامِ العَدْلُ، وفي الأفعالِ الصَّوابُ. وقالَ بعضُهُمْ. الحَقُّ ههنا، هو القرآنُ، فيكونُ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي في الحَقِّ، وهو القرآنُ، أي نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُمْ في القرآنِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هذانِ الحَرْفانِ، مَعْناهُما واحدٌ: الزِّيادَةُ والرَّبْطُ، كلُّ واحدٍ منهما يُؤَدّي مَعْنَى صاحِبِهِ: زِيادةُ الهُدَى [وتَثْبيتُهُمْ][10] على الهُدَى.

ويجوزُ أنْ يُقالَ: هو التَّثْبيتُ والرَّبْطُ كذلكَ، ويجوزُ أنْ يُقالَ على التَّجديدِ والاِبْتِداءِ لأنَّ[11] للإيمانِ حُكْمَ التَّجديدِ في كلِ وَقْتٍ؛ إذْ هو يكونُ مُنْكِراً جاحِداً لِلْكُفْرِ في كلِّ وقْتٍ، فهو مُجَدِّدٌ للإيمانِ كذلكَ في كلِّ وقتٍ. فإنْ شِئْتَ حَمَلْتَهُ على الثَّباتِ والزِّيادَةِ على ما كانَ، وإنْ شِئْتَ على الاِبْتِداءِ والتَّجَدُّدِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢ والتوبة: ١٢٥].

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [إنَّ مِنْ حِكَمِ اللهِ أنَّ مَنِ اهْتَدَى زادَهُ اللهُ هُدىً][12] كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) في الأصل وم: فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو يكون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ثمة. (٧) في الأصل وم: يحتمل. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم هم اختلفوا في ملتهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أي ثبتناهم. (١١) في الأصل وم: ان. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

لكنَّ هذا لو كانَ على ما ذَكَرَ لَكانَ لا يجوزُ أنْ يَكْفُرَ إذا اهْتَدَى مَرَّةً [لأنهُ][1] لا يزالُ يَزيدُ لهُ هُدىً. فإذا لم يكُنْ دلَّ أنهُ لا يَصِحُّ ذلكَ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بالحُجَجِ والبَراهِينِ. ويَحتَمِلُ ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ بالنهوضِ إلى الكَهْفِ حينَ انْضَمُّوا إليهِ، أو قاموا للهِ ولدِينِهِ، أو قاموا مِنْ عندِ أولئكَ الكَفَرَةِ ﴿فَقَالُوا۟﴾ ما ذَكَرَ ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وربُّ ما فيهِنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي لن نُسَمِّيَهُمْ آلهةً على ما سَمَّى قومُهُمُ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ تَسمِيَتُهُمْ[2] آلهةً على زَعْمِهِمْ وعلى ما عِندَهُمْ كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] وقولِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] لا يجوزُ أن يُسَمِّيَ الأنبياءُ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها آلهةً، وهي ليسَتْ بآلهةٍ. ولكنْ قالوا ذلكَ على زَعْمِهِمْ وعلى ما عِندَهُمْ.

فَعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أي لنْ نَعْبُدَ. فإنْ كانَ على العِبادةِ ففيهِ إضمارٌ؛ أي لنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِهِ إلهاً غيرَ اللهِ كَفِعْلِ قومِنا. ولو فَعَلْنا ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي جَوراً وظُلْماً.

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يَعْبُدونَها ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي هَلّا يأتونَ على تَسمِيَتِهِمْ آلهةً أو[4] استِحْقاقِ العِبادةِ لها بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ؟/ ٣١٣ ـ ب/

ثم حَرْفُ هلّا يُستَعْمَلُ في الماضي، ويُستَعْمَلُ في المُستَقْبَلِ. فإنْ كانَ على الماضي [فهو][5] على الإنكارِ، أي لم يكُنْ، وإنْ كانَ على المُستَقْبَلِ فهو على السؤالِ، أيِ ائتوا بحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ أي بأنها[6] آلهةٌ كما أتَوا هم بأنَّ[7] اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ، وأنهُ خالقُ السمواتِ والأرضِ، وربُّ ما فيهما.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي أنَمْناهُمْ. والأَمَدُ، هو الغايةُ. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ألْهَمْناهُمُ الصَّبْرَ، وثَبَّتْنا قلوبَهُمْ. وقولُهُ: ﴿شَطَطًا﴾ أي غُلُوّاً. يُقالُ: شَطَّ عليَّ إذا غلا في القَولِ.

وقولُهُ تعالى: أي لا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّنْ جَعَلَ معَ اللهِ آلهةً. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ وإذا اعتَزَلْتُموهُمْ وما يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][8] على القِراءةِ الظاهرةِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي وإنِ اعْتَزَلْتُموهُمْ والذينَ لا يَعْبُدونَ إلّا اللهَ فلا تَعْتَزِلوا عِبادَتَهُ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ، ويَعْبُدونَ اللهَ أيضاً، ويَرَونَهُ مَعْبوداً. فكأنهمْ قالوا: وإذِ اعْتَزَلْتُموهُمْ والذينَ [ما][9] يَعْبُدونَ إلّا اللهَ فلا تَعْتَزِلوهُمْ[10]. وهو كقولِ إبراهيمَ ﷺ لِقومِهِ حينَ[11] ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥و٧٦] اسْتَثْنى عِبادَةَ ربِّ العالَمينَ مِنْ بَينِ عِبادةِ ما[12] يَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ، إذْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ عندَهُ، أو تُقَرِّبَ عِبادَتُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى وأمثالَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على التقديمِ والتأخيرِ؛ أي وإذِ اعْتَزَلْتُموهُمْ فَأْوُوا إلى الكهفِ لأنهمْ كانوا لا يَعْبُدونَ هُمْ في الحقيقةِ إلّا اللهَ، يعني أصحابَ الكهفِ.

والثاني: ما ذَكَرْنا: وإذِ اعتزَلْتُموهُمْ، وما يَعْبُدونَ هم في الحقيقةِ إلّا اللهَ، وإنْ كانوا في الظاهرِ يَعْبُدونَ غَيرَ اللهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فسموهم. (٣) في الأصل وم: ثم قالوا. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الباء ساقطة من الأصل. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فتأويل الآية. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تعتزلوه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: من.

وتأويلُ قراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ: وإذا اعْتَزَلْتُموهُمْ وجميعَ ما يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهمْ ليسَ على القولِ والنُّطْقِ، ولكنْ أُلْقِيَ في قلوبِهِمْ، وقُذِفَ، أنهمْ إذْ فارَقوا قومَهُمْ، وبايَنُوهُمْ[1] ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ في قَومِهِمْ مَنْ قد آمَنَ سِواهُمْ، فَقالوا: إنكمْ بايَنْتُمْ، وفارَقْتُمْ [قومَكُمْ][2] ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فلا تُعَدُّوا[3] منهُمْ، فَلَعَلَّهُمْ يَلْحَقونَكُمْ، ويَطْلُبونَ لِقاءَكُمْ، فلا يُعَدُّوا[4] منهمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لمّا عَزَموا أنْ يُفارِقوا قومَهُمُ اعْتَزَلَهُمُ الشيطانُ، فقالَ: إنكمْ تفارقونَ قومَكُمْ إلى مَكانٍ، وليسَ مَعَكُمْ شَرابٌ ولا طَعامٌ، فَتُهْلِكونَ أنْفُسَكُمْ، فَدَفَعُوا وَساوِسَهُ بقولِهِ ﷻ ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

ثم قولُهُ ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَخْلُقُ لكمْ ربُّكُمْ كقولِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بالراءِ [نَنْشُرُها][5] [البقرة: ٢٥٩] أي كيفَ نَخْلُقُها، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ أي يَبْسُطْ، والنَّشْرُ هو البَسْطُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ الرِّزْقَ، ويَحْتَمِلُ كلَّ شيءٍ يَدْفَعُ الهَلاكَ عن أنْفُسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي ما تُرْفَقونَ بهِ، وتَنْتَفِعونَ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ، وهو مِنَ الرِّفْقِ [والمِرْفَقِ][6] أيضاً مِثْلُهُ، لأنهُ يُنْتَفَعُ [بهِ][7].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما يُرْتَفَقُ بهِ وقالَ أبو عُبَيدَةَ: المَرْفَقُ ما ارْتَفَقْتَ بهِ. فأمّا في اليَدينِ فهو مِرْفَقٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كانَتْ لا تُصيبُهُمْ لا عندَ طُلوعِها ولا عندَ غُروبِها، لأنَّ الكَهْفَ كانَ مُسْتَقْبَلَ بَناتِ النَّعْشِ، لا تُصيبُهُ الشمسُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا. ولكنْ كانَ ثَمَّةَ حِجابٌ وسَتْرٌ يَحْجُبُ الشمسَ عنْ أنْ تَقَعَ عليهمْ. لكنَّ هذا لا يَصِحُّ، لأنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لهمْ ذلكَ آيةً مِنْ آياتِهِ وكَرامةً مِنْ كَراماتِهِ. فليسَ في ما لا تَقَعُ عليهِمُ الشمسُ بِحِجابٍ أو سَتْرٍ كبيرُ آيةٍ ومِنَّةٍ. إنما الآيةُ في ما تَقَعُ الشمسُ عليهِمْ، ثم تَدْفَعُ عنهمْ ضَرَرَها وأذاها. فإذا كانوا بِحَيثُ لا تُصيبُهُمُ الشمسُ. فأذاها وضَرَرُها أيضاً لا يُصيبُهُمْ. فليسَ في ذلكَ كبيرُ آيةٍ وحكمةٍ؛ إذْ ليسَ في ما تُصيبُ الشمسُ ضَرَرٌ أو أذىً، ولكنْ يَذْكُرُ لُطْفَهُ حينَ[8] مَنَعَ ضَرَرَ الشمسِ وأذاها عنهمْ مَعَ إصابةِ الشمسِ إيّاهُمْ ووقوعِها عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ يَمينَهُمْ أو يَمينَ القِبْلَةِ. وكذلكَ ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ شِمالَ هؤلاءِ أو شِمالَ القِبْلَةِ. فأمّا يَمينُ الجَبَلِ أو الغارِ على ما قالَ أهلُ التأويلِ فإنهُ ليسَ لِلْجَبَلِ يَمينٌ ولا شِمالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الفَجْوَةُ الظِّلُّ، و قالَ بعضُهُمْ: الفَجْوَةُ الفَضاءُ. و قالَ بعضُهُمْ: هي سَعَةُ المَكانِ. يُخْبِرُ ﷻ عنْ لُطْفِهِ ومِنَّتِهِ أنهُ قد حَشَرَهُمْ إلى غارٍ كانوا يَسْعَونَ فيهِ حيثُ[9] يَتَقَلَّبونَ فيهِ. والغارُ الذي يكونُ في الجبالِ لا هكذا يكونُ، بل يكونُ ضَيِّقاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا يَرُدُّ قولَ مَنْ يُنْكِرُ جَرْيَ الآياتِ على يَدَي غَيرِ الأنبياءِ، لأنهُ جَعَلَ في أصحابِ الكَهْفِ عَدَداً مِنَ الآياتِ، كلُّها خارجةٌ عنِ احتمالِ وُسْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ لِمُفارَقَةِ قومِهِمْ لِسلامَةِ دينِهِمْ [وفيهِ وجوهٌ][10]

أحَدُها: ما أخْبَرَ أنهُ ضَرَبَ على آذانِهِمْ، وأنامَهُمْ نوماً[11] خارجاً عَنْ طَبْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ، وهو ثلاثُ مئةِ سَنَةٍ. ثم ﴿بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩] على ما أخْبَرَ ﷻ.

---

(١) في الأصل وم: وباينوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعبدوا. (٤) في الأصل وم: يعبدوا. (٥) ساقطة من الأصل وم، وهي قراءة عاصم وأبان وابن عباس، وقراءة الجمهور ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي. انظر معجم القراءات القرآنية ج١/ ٢٠٠. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حتى. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نوعا.

والثاني: لم تَبلَ ثيابُهُمْ في مِثْلِ تلكَ المُدَّةِ ومِثْلِ المَكانِ، ولم تَتَغيَّرْ. ألا تَرى أنهمْ قالوا حينَ بُعِثوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] ولو كانَتْ ثيابُهُمْ باليَةً أو مُتغيِّرةً لم يَستقِلّوا، ولا استَقْصَروا كلَّ هذا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ألا تَرى أنهمْ فَزِعوا إلى الطعامِ، ولم يَفْزَعوا إلى الثيابِ حينَ[1] قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩] ولو كانَتْ ثيابُهُمْ باليَةً أو مُتغيِّرةً لكانَ فَزَعُهُمْ إلى الثيابِ كَهُوَ إلى الطعامِ، وهو أولَى.

والثالثُ: ما أَخبَرَ مِنْ تَزاوُرِ الشمسِ إذا طَلَعَتْ ذاتَ اليمينِ وقَرْضِها إيّاهُمْ ذاتَ الشِّمالِ.

والرابعُ: دَفْعُ الحَرِّ والبَرْدِ عنهمْ إذْ مِنْ طَبْعِهِما الإهلاكُ والإفسادُ إذا اشتَدَّ، وكَثُرَ.

والخامسُ: ما ذَكَرَ مِنْ تَقْليبِهِ إيّاهُمْ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ وحِفْظِهِ إيّاهُمْ عن أنْ تُفسِدَهُمُ الأرضُ، وتأكُلَهُمْ؛ إذْ مِنْ طَبْعِ الأرضِ ذلكَ عندَ امْتِدادِ الوقتِ.

والسادسُ: ما ذَكَرَ في الآيةِ من الهَولِ والهَيْبَةِ إذا دَخَلَ عليهِمْ [رسولُ اللهِ][2] واطَّلَعَ حينَ[3] قالَ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفاً ممّا تَرى فيهِمْ مِنَ الأهوالِ. هذا لِرَسولِ اللهِ ﷺ فكيفَ لِمَنْ دُونَهُ؟

والسابعُ: حِفْظُهُ إيّاهُمْ مِنْ جَميعِ الخَلائِقِ حتى لم يَطَّلِعْ، ولم يَعْثُرْ عليهِمْ أحدٌ مِنَ الخَلائِقِ.

والثامنُ: إبقاؤُهُمْ أحياءً أكثَرَ مِنْ ثلاثِ مئةِ سَنَةٍ بلا غِذاءٍ، والأنفسُ لا تَبقَى بلا غِذاءٍ بِدونِ ذلكَ [الوَقْتِ][4]. وذلكَ باللطفِ. وأمثالُ هذا كثيرٌ ممّا يَكْثُرُ عَدُّها وإحصاؤُها، كُلُّهُ مِنْ آياتٍ عظيمةٍ خارِجَةٍ عنْ وُسْعِ الخَلْقِ وعادَتِهِمْ.

فذلكَ لهمْ بِاخْتيارِهِمْ دينَ اللهِ [على دينِ][5] قومِهِمْ، وبِمُفارَقَتِهِمْ إياهم لِيَسْلَمَ لهمْ دينُهُمْ؛ إذِ الغَلَبَةُ فيهِمْ يومَئذٍ الكُفْرُ، فأكْرَمَهُمُ اللهُ بذلكَ بالكراماتِ التي ذَكَرْنا.

فلا نُنْكِرُ أنْ يُعطِيَ اللهُ أحداً مِنْ أوليائِهِ قَطْعَ مَسيرَةِ أيّامٍ بيومٍ أو بساعةٍ أو المَشْيَ على الماءِ ونَحْوَ ذلكَ. ليسَ بِمُستَبْعَدٍ ولا مُسْتَنْكَرٍ.

وقولُ/ ٣١٤ ـ أ/ أهلِ التأويلِ: إنهمْ كانوا كذا، والكَلْبُ كذا [وَأَسَاميهمْ كذا][6] وعَدَدُهُمْ كذا، ونَحْوُهُ، فذلكَ ممّا لا يُعْلَمُ إلّا بِخَبَرِ الصِّدْقِ وَقولِ الحَقِّ. وقد نَهَى رسولَهُ أنْ يَسْتَفْتِيَ فيهم منهم أحداً حينَ[7] قالَ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢] وهو ما ذَكَرَ هؤلاءِ[8]، كُلُّهُ مِنَ الاستِفْتاءِ الذي نَهَى رسولَهُ عنْ ذلكَ، [واللهُ أعلَمُ][9].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ تَميلُ، وتَزْوَرُّ مِثْلُهُ ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تَدَعُهُمْ على شِمالِها، أي إنَّ الشمسَ لا تُصيبُهُمْ طالِعَةً ولا غارِبَةً عندَ طُلوعِها وغُروبِها. ويُقالُ: قَرَضْتُهُ: تَرَكْتُهُ، أقْرِضُهُ قَرْضاً. ويُقالُ: قَرَضْتُ مَوضِعَ كذا[10]، أي جاوَزْتُهُ، وتَرَكْتُهُ خَلْفي. ويُقالُ: قَرَضَهُ، أي قَطَعَهُ بِمِقْراضٍ. وتَزاوَرَ يَتَزاوَرُ، أي عَدَلَ، ومالَ. ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي سَعَةٍ، وفَجَواتٌ جَمْعٌ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلكَ البِناءُ وما ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ أصحابِ الكَهْفِ مِنْ آياتِ قُدْرَةِ اللهِ، أو مِنْ حُجَجِ اللهِ على إثباتِ رسالةِ رسولِهِ ونُبُوَّتِهِ، أو مِنْ آياتِ كَراماتِهِ لِلْفِتْيَةِ ولِمَنْ اختارَ دينَ اللهِ، وآثَرَهُ على غَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: تزاوَرُ، وتَقرِضُهُمْ، كلاهُما واحدٌ؛ وهو أنْ تَميلَ عنْ كَهْفِهِمْ، فَتَدَعَهُمْ ذاتَ اليَمينِ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تَدَعُهُمْ ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ و قولُهُ: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي زَيغَةٍ[11] مِنَ الكهفِ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: الزَّيغَةُ[12] قَدْرَ ما يَصْلُحُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من بين.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) أدرجت في م بعد كله. (٩) في الأصل وم: علمه: مدرجة قبل عن ذلك.
(١٠) من م، في الأصل: كذلك. (١١) من م، في الأصل: زائغة. (١٢) من م، في الأصل: الزائغة.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ أي يُبَوِّئُ لكُمْ كقولِهِ: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢١] أي تُهَيِّئُ، [وقولِهِ][1]: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] الرشيدُ الصالحُ، قالَ مُقاتلٌ ﴿رَشَدًا﴾ أي مَخرَجاً [وقولِهِ][2] ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: غذاءً تأكلونَهُ، وهو ما ذَكَرْنا: كلُّ ما يُتَرَفَّقُ به، ويُقالُ: مَخرَجاً.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لأنهمْ كانوا مُفَتَّحَةً [لَهُمْ][3] الأعْيُنُ والأبصارُ كالأيقاظِ[4]. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لأنهمْ كانوا يَتَقَلَّبونَ في رُقودِهِمْ [ذاتَ][5] اليمينِ والشِّمالِ كما يَتَقَلَّبُ اليَقْظانُ يَميناً وشِمالاً.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما كانَ يُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ لِيَدْفَعَ عنهُمْ أذى الأرضِ وضَرَرَها لئلا يَفْسُدوا، ويَتَلاشَوا، وإنْ كانَ اللهُ قادراً أنْ يَدْفَعَ عنهمُ الأذى وضَرَرَ الأرضِ لا بِتَقْليبٍ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، وإنْ كانَ مِمّا يَفْعَلُ مَنْ لا يَمْلِكُ دفْعَ الأذى بِما ذَكَرْنا. فأمّا مَنْ كانَ قادراً بِذاتِهِ مُسْتَغْنِياً عنِ الأسبابِ التي بها يُدْفَعُ [الضَّرَرُ][6] فَغَيرُ مُحْتَمَلٍ. وقولُهُ على التَّعْليمِ منهُ إياهُمْ: أنْ كيفَ يُتَّقى الأذى؟ وكيفَ يُدْفَعُ الضَّررُ. فإذا لم يكُنْ بِمَشْهَدٍ مِنَ الخَلْقِ فلا مَعْنًى لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لأنهمْ كانوا في مَكانِ الرِّيبَةِ واللصوصِ مِمّا لا يَأْوي إليهِ إلّا هاربٌ مِنْ رِيبَةٍ وشَرٍّ أو قاصِدُ رِيبَةٍ وطالبُ عَثْرَةٍ ومكابَرَةٍ. لم يكونوا في مكانٍ يُسْلَمُ فيهِ، ويُرْقَدُ، ولا يُختارُ للنومِ مثلُهُ. فقالَ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لِما كانوا في مكانٍ لا يُنامُ فيهِ للخوفِ، كأنهمْ أيقاظٌ، وهُمْ رُقودٌ، واللهُ أعلَمُ. ولكنْ لا نَدْري لأيِّ مَعْنًى ذَكَرَ أنهُ يَحْسَبُ الناظرُ إليهِمْ كأنهمْ أيقاظٌ، وهمْ رقودٌ. وإذْ لم يُبَيِّنِ اللهُ ذلكَ فلا يُفَسَّرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ هو ما ذَكَرْنا [أنَّ النَّوْمَ][7] قد يَتَقَلَّبونَ في نومِهِمْ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ، وذَكَرَ التَّقْليبَ. وجائزٌ أن يكونَ لِما ذَكَرَ بعضُهُمْ مِنْ دَفْعِ أذى الأرضِ وضَرَرِها، أو ذَكَرَ فِعْلَهُ لِما لهُ في تَقَلُّبِهِمْ صُنْعٌ وفِعْلٌ، واللهُ أعلَمُ، وقولُهُ ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ إذْ لا نَفْهَمُ مِنْ ذاتِ الشيءِ غيرَ ذلكَ أو شيئاً آخرَ سِواهُ، لأنهُ ذَكَرَ ذاتَ اليَمينِ، فهو اليَمينُ، والشِّمالُ نَفْسُهُ لا غيرَ. فَعَلى ذلكَ في قولِنا: عالِمٌ بذاتِهِ لا يَفْهَمُ غيرُهُ عِلْمَهُ، أي عالِمٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الوَصيدُ، هو فِناءُ البابِ. و قالَ بعضُهُمْ: الوَصيدُ هو عَتَبَةُ البابِ. قالَ القُتَبِيُّ: الوَصيدُ الفِناءُ، ويُقالُ عَتَبَةُ البابِ، وهذا أعْجَبُ لأنهُمْ يقولونَ: أوصِدْ بابَكَ أي أغْلِقْهُ [ومنهُ قولُهُ][8]: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي مُطْبَقَةٌ.

وأصلُهُ أنْ تُلْصِقَ البابَ بالعَتَبَةِ إذا أغْلَقْتَهُ. فإذا كانَ الوَصيدُ هو عَتَبَةَ البابِ ففيهِ أنَّ الكَلْبَ كانَ داخلَ بابِ الغارِ، وإنْ كانَ الفِناءَ ففيهِ أنهُ كانَ خارجَ بابِ الغارِ. وفيهِ أيضاً [أنهُ][9] أبْقى الكلبَ ثلاثَ مئةِ سَنَةٍ على ما أبْقاهُمْ، وإنْ لم يكُنْ مِنْ جوهَرِهِمْ، بلُطْفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وذلكَ لأنَّ[10] شُعورَهُمْ قد طالَتْ، وأظفارَهُمْ قدِ امْتَدَّتْ، وعَظُمَتْ. فكانوا بحالٍ يُرْغَبُ عنهُمْ، ويُهابُ. لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ لأنهمْ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] فلو كانوا على الحالِ التي ذكروا مِنْ تَطاوُلِ الشعورِ وامْتِدادِ الأظفارِ وتَغَيُّرِ أحوالِهِمْ لم يكونوا لِيَقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إذْ لو نَظَروا في أنْفُسِهِمْ مِنْ تَغَيُّرِ الأحوالِ لَعَرَفوا أنهمْ لم يَلْبَثوا ما ذَكَروا مِنَ الوَقْتِ. دَلَّ ذلكَ أنَّ ذلكَ لِلْخَوفِ والهَيْبَةِ لا لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لأنهمْ كانوا في مَكانِ الرِّيبَةِ، في ما لا يُؤْوَى إلى مِثْلِهِ إلّا لِخَوفٍ أو رِيبَةٍ أو طَلَبِ رِيبَةٍ، لا يَأْويهِ إلّا هذانِ[11] هاربٌ مِنْ شَرٍّ أو طالبُ شَرٍّ إلى آخِرِ ما ذَكَرْنا؛ إذْ مَنْ أقامَ في مَهابٍ ومَكانٍ مَخوفٍ يُهابُ منهُ، ويُخافُ. أو أنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كاليقظان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: ومنها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل وم: هذين.

يكونوا بحيثُ يُهابونَ، ويُخافُ منهمْ، لئلا يَدْنُوَ منهمْ أحدٌ، ولا يَقْرُبَ، فلا يُوقِظُهُمْ أحدٌ، لِيَبْقَوا إلى المدةِ التي أرادَ اللهُ أنْ يَبْقَوا فيها. وكذلكَ يَحْتَمِلُ هذا المَعْنَى في تَقْلِيبِ اليَمينِ والشِّمالِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ذلكَ الخوفُ وتلكَ الهَيْبَةُ هَيْبَةُ الدينِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرَيْنِ» [الطبراني في الكبير ١١٥٠٦] وذلكَ لدينِهِ وحقيقةِ أمرِهِ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ هَيْبَةِ أحوالِهِمْ لِدينِهِمُ الذي اختاروا مِنْ بينِ [دينِ][1] قومِهِمْ، وفارَقوهُمْ، لِيَسْلَمَ دينُهُمْ، إلى مَكانٍ، لا طَعامَ فيهِ، ولا شَرابَ، وذلكَ لِحَقيقَةِ ما اختاروا مِنَ الدينِ. كانَ ذلكَ لِمَعْنًى لمْ يُطْلِعِ اللهُ رسولَهُ على ذلكَ، فلا نُفَسِّرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي كما أنْبَأْكُمْ مِنْ أنبائِهِمْ[2] وقِصَصِهِمْ [كذلكَ بَعَثْنَاهُمْ][3] أو كما ضَرَبَ على آذانِهِمْ، وأنامَهُمْ سِنينَ، كذلكَ يَبْعَثُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ بَعَثَهُمْ لِما عَلِمَ ما يكونُ منهمْ، وهو التَّساؤُلُ، وهكذا جميعُ ما يَخْلُقُ، ويُنْشِئُ؛ إنما يَخْلُقُ ويُنْشِئُ لِما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهمْ لِقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ذَرَأَهُمْ لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهمْ، وهو عَمَلُ أهلِ جَهَنَّمَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] مَنْ عَلِمَ أنهُ يَعْبُدُهُ، ويَعْمَلُ[4] بِهِ عَمَلَ أهلِ الجنةِ، خَلَقَهُ لذلكَ.

هكذا كلُّ ما يَخْلُقُ؛ إنما يَخْلُقُ لِما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهُ؛ إذْ يُخَرِّجُ الفِعْلُ لذلكَ مُخْرَجَ العَجْزِ والجَهْلِ بالعواقِبِ. فإذا كانَ اللهُ عالماً بما كانَ، ويكونُ، ويَتَعالى عنْ أنْ يكونَ فِعْلُهُ عَبَثاً، لم يُجِزْ أنْ يَخْلُقَ شيئاً لِغَيْرِ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ.

وهكذا في الشاهِدِ: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً/ ٣١٤ ـ ب/ أو فَعَلَ فِعْلاً لِغَيْرِ ما عَلِمَ [ما يكونُ منهُ][5] فهو عابثٌ أو جاهلٌ بعواقِبِهِ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ ما ذَكَرَ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] قالوا ذلكَ لِما لم يَرَوا في أنفسِهِمْ آثاراً وأعلاماً تَدُلُّ على طولِ المُكْثِ والمُقامِ فيهِ. ثم تَذَكَّروا أحوالَهُمْ وما يَرَى النائمُ في نَوْمِهِ مِنَ العجائِبِ وأشياءَ كثيرةً. عَرَفوا أنَّ ذلكَ القَدْرَ مِنَ الأشياءِ مَثَلٌ مِنَ العجائبِ التي رَأَوا، لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ في يومٍ أو بَعْضِ يومٍ. فعندَ ذلكَ وَكَّلُوا الأمْرَ إلى اللهِ، فقالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

وأمّا الذي أماتَهُ مِئَةَ عامٍ لمّا بَعَثَهُ قَطَعَ القولَ في ذلكَ، ولم يَكِلِ الأمْرَ إلى اللهِ، حينَ[6] ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] لأنهُ كانَ مَيْتاً. والمَيْتُ لا يَرَى شيئاً، ولم يكُنْ في نفسِهِ آثارٌ تَدُلُّ على ذلكَ، فَقَطَعَ القولَ فيهِ، ولم يَكِلِ الأمْرَ إلى اللهِ. وأمّا النائمُ فإنهُ يَرَى في نومِهِ أشياءَ، [يَعْرِفُ أنها][7] لا تكونُ في وقتٍ قصيرٍ، لذلكَ وَكَّلُوا الأمْرَ إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيهِ أنهمْ لما فارَقوا، ومعهمْ زادٌ، وهو الوَرِقُ، أمَرَ بعضُهُمْ بَعْضاً أنْ يُبْعَثَ [أحدُهُمْ][8] بالوَرِقِ، لِيَأْتِيَهُمْ بالطعامِ. وفيهِ أنهُ أضافَ الوَرِقَ إليهِمْ، ولا شَكَّ أنهُ كانَ لهُ فيهِ نَصيبٌ حينَ[9] قالَ: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ وفيهِ دلالةُ جوازِ المُناهَدَةِ في الأسفارِ وغيرِها إذا كانَ ذلكَ الوَرِقُ بَيْنَهُمْ. وفيهِ دلالةُ جوازِ الوَكالةِ، وأنها ليسَتْ بِمُبْدَعَةٍ، ولكنْ كانَتْ في القرونِ الماضِيَةِ، وهي مُتَوارَثَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أنبائكم. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: ويعلم. (٥) في الأصل وم: أنه يكون.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: فيعرفه أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث.

قالَ بعضُهُم: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أحَلُّ طعاماً لأنَّ بَعْضَ أهلِ تلكَ المدينةِ، يَذْبَحونَ للأصنامِ وبِاسْمِ تلكَ الأوثانِ التي كانوا يَعْبُدونَها. فأمَروهُ بأنْ يأتِيَهُمْ بحلالٍ يَحِلُّ أكْلُهُ والتَّناوُلُ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْكَىٰ﴾ أرخَصُ وأكثَرُ لأنهمْ كانوا في مَكانٍ، لا يَدْرونَ متى يَخْرُجونَ منهُ، فَطَلَبوا الأكثَرَ لِشِدَّةِ حاجَتِهِمْ إليهِ، ويَكْفِيَ لِوَقْتِ مُقامِهِمْ ونَحْوِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي أطْيَبُ وأجوَدُ لأنَّ الطَّيِّبَ أزْيَدُ لِلْعُقولِ وأصْلَحُ للأنفُسِ وأنفَعُ.

ولِذلكَ جَعَلَ اللهُ أرزاقَ البَشَرِ ما هو أطْيَبُ وألْيَنُ لِما يزيد ذلكَ في العقولِ والفُهُوم[1]، وجَعَلَ لِغَيرِهِمْ مِن الدَّوابِّ كلَّ خَشِنٍ خَبيثٍ لِما ليسَ لهمْ عقولٌ نَحْتاجُ إلى ما يَزيدُ لها فيها. وأصْلُ الزَّكاءِ النَّماءُ والزِّيادَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي ولْيَرْفُقْ بهمْ لئلا يَشْعُروا[2] أنهُ مِنَ أولئِكَ الذينَ فارَقُوهُمْ لدينِهِمْ. أو أمَرَهُ بالتَّلَطُّفِ أي بالسَّماحةِ والسُّهولةِ في الشِّراءِ لِما جاءَ في الخَبَرِ «رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمْحَ البَيعَ والشِّراءِ» [بنحوه الترمذي ١٣١٩]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أنهُ فُلانُ بْنُ فُلانٍ، وأنهُ مِن قَومِ كذا، فَيَعْرِفوا[3] أنهُ من أصحابِ الكهفِ، أو لا يُشْعِرَنَّ بمكانِكُمْ أحداً مِنَ الناسِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يَقْتُلُوكُمْ، أو ما أرادوا بهِ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي في دينِهِمُ الكُفرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ أي ما دُمْتُمْ في مِلَّتِهِمْ ودينِهِمْ. هذا كأنهمْ لم يَعْرِفوا التَّقِيَّةَ. وإلّا لو أعْطَوهُمْ بِلِسانِهِمْ، ولم يُعْطُوهُمْ بِقُلُوبِهِمْ، لَكانوا قد أفلَحوا، أو عَرَفوا التَّقِيَّةَ. إلّا أنهُ لم يكُنْ لِلْقُرونِ الماضيةِ التَّقِيَّةُ، ولم يُؤْذَنْ لهمْ فيها، أو هي رُخْصَةٌ [رَخَّصَهَا اللهُ][4] لهمْ. والأفضَلُ ألّا يُعْطَى ذلكَ، ولا يُظْهَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كما أخرَجَ المَبْعوثَ لشراءِ الطَّعامِ منَ الكَهْفِ معَ الوَرِقِ المُتَقَدِّمِ ضَرْبُها، فَكانَ ذلكَ سَبَبَ إعلامِ أهلِ المدينةِ عنِ الفِتْيَةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطْلَعْنا عليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: كما أعْلَمَ عنْ أنباءِ الفِتْيَةِ وأصحابِ الكَهْفِ وقِصَصِهِمْ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطْلَعْنا عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي كما ضَرَبَ على آذانِهِمْ [وأنامَهُمْ مدةً طويلةً][5] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لِيَعْلَموا أنَّ ما وَعَدَ لهمُ الرسلُ عنِ اللهِ حَقٌّ.

ثم اخْتُلِفَ في إطْلاعِهِمْ عليهِمْ: قالَ بعضُهُمْ: أطْلَعَ اللهُ المَلِكَ الذي هَرَبوا منهُ وأهلَ المدينةِ بَعْدَما أنامَهُمْ، لكنْ حِيلَ بَينَهُمْ وبَينَ أولئكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: أطْلَعَهُمْ قَبْلَ أنْ يُنِيمَهُمْ، فَحِيلَ بَينَهُمْ وبَينَهُمْ، فَسَدُّوا بابَ الكهفِ، فَبَقُوا هنالكَ، ثم أنامَهُمْ بَعْدَ ذلكَ ما ذَكَرَ، فَهَلَكَ ذلكَ المَلِكُ، وانقَرَضَتْ تلكَ القُرونُ، ثم وُلِّيَ مَلِكٌ آخَرُ مُسْلِمٌ صالحٌ، ثم أطْلَعَ ذلكَ المَلِكَ عليهِمْ.

وأمثالَ ذلكَ قد قالوا، فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفي ظاهِرِ الآيةِ أنهُ أطْلَعَ عليهِمْ بَعْدَ ما أنامَهُمْ، وبَعَثَهُمْ. وليسَ فيهِ بَيانٌ أنهُ مَنْ أطْلَعَ عليهِمْ؟ المَلِكُ الأوَّلُ أو الثاني: أو القومُ أو غَيرُهُمْ؟ ولا يجوزُ أنْ يُقْطَعَ فيهِ القولُ: إنهُ فلانٌ لأنَّ هذهِ الأنباءَ ذُكِرَتْ[6] في القرآنِ حُجَّةً لِرسولِ اللهِ ﷺ فلو قُطِعَ القولُ على شيءٍ، أو زِيدَ، أو نُقِصَ عمّا كانَ في كُتُبِهِمْ خَرَجَتْ مِنَ أنْ تكونَ حُجَّةً لهُ.

---

(١) في الأصل وم: والفهم. (٢) في الأصل وم: يشعرن. (٣) في الأصل وم: فيعرفون. (٤) في الأصل وم: رخص. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ذكر.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما][1]: يُشبِهُ أنْ يكونَ الرسلُ مِنْ قَبْلُ كانوا يُخبِرونَ قومَهُمْ أنَّ نَفَراً يَهْرُبونَ مِنْ مَلِكِهِمْ إشفاقاً على دينِهِمْ، ويَلْتَجِئونَ إلى الكهفِ، فَيَنامونَ كذا وكذا[2] سنةً، ثم يُبْعَثونَ. فأكْذَبَهُمْ قومُهُمْ بما أخْبَروا قومَهُمْ مِنْ أنبائِهِمْ، فقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أنَّ ما وَعَدَ الرُّسُلُ، وأخْبَروهُمْ مِنْ نَبَإِ أصحابِ الكَهْفِ حَقٌّ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا يُنْكِرونَ البَعْثَ والساعةَ، والرُّسُلُ يُخبِرونَ أنهم يُبْعَثونَ، فأطْلَعَ على أولئكَ لِيَعْلَموا أنَّ البَعْثَ والقِيامَةَ حَقٌّ؛ لأنَّ الأعْجوبَةَ في إبقاءِ أنفُسِ أصحابِ الكَهْفِ في نومِهِمْ ثلاثَ مِئَةِ سَنَةٍ أو أكثَرَ بلا غِذاءٍ يَغْتَذونَ ولا طعامٍ يَطْعَمونَ ولا شيءٍ تَقومُ بِهِ الأنفُسُ إنْ لم تكُنْ أكثَرَ وأعْظَمَ مِنْ إحياءِ المَوْتَى وجَمْعِ العِظامِ الناخِرَةِ البالِيَةِ فلا[3] تكونُ دونَهُ لِما لم يَرَوُا الأنفُسَ تَبْقَى أياماً بلا غِذاءٍ فَضْلاً أنْ تَبْقَى سِنينَ كثيرةً ثلاثَ مِئَةِ سنةٍ أو أكثَرَ. فَبَعَثَ هؤلاءِ لِيَعْلَمَ مَنْ أنْكَرَ البَعْثَ [أنَّ][4] مَنْ قَدَرَ على إبقاءِ الأنفُسِ مُدَّةً مَديدَةً طويلَةً بلا غِذاءٍ تَغْتَذي قادِرٌ على إحياءِ المَوْتَى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ المَوتِ.

أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا بَدْءاً أنَّ الرُّسُلَ السالفَةَ كأنهمْ أخبَروا قومَهُمْ عَنْ قصةِ أصحابِ الكهفِ، فَكَذَّبوهُمْ، فأطْلَعَ اللهُ نَبَأَهُمْ وَخَبَرَهُمْ لِيَعْلَمِ أولئكَ أنَّ الذي أخْبَرَهُمُ الرُّسُلُ حَقٌّ وصِدْقٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ هذهِ الأنباءَ والقِصَصَ المُتَقَدِّمَةَ ذُكِرَتْ في القرآنِ حُجَّةً لرسولِ اللهِ ودلالةً في إثباتِ رسالتِهِ. فلا يجوزُ أنْ يُقْطَعَ القولُ في شيءٍ لم يُبَيِّنْ فيهِ، ولم يُوَضِّحْ، ولم يُفَسِّرْ، لِما يُخافُ فيهِ الكَذِبُ على اللهِ أو[5] الزيادةُ والنُّقْصانُ على ما ذُكِرَ فيهِ لِما لَعَلَّها تَخْرُجُ مُخالِفَةً لِما ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ، فلا تكونُ لهُ حُجَّةً ولا دلالةً.

فإنْ قيلَ: كيفَ عَلِموا أنَّ ما أخْبَرَهُمُ الرُّسُلُ، ويُخْبِرونَهُمْ، إنما هو اختِراعٌ منهمْ، لا وَعْدٌ مِنَ اللهِ وخَبَرٌ عنهُ؟ قيلَ: عَلِموا أنَّ ذلكَ حَقٌّ بوجوهٍ.

أحَدُها: ما رَأَوا مِنَ الدراهِمِ التي كانَتْ في يَدَيِ المَبْعوثِ بِشراءِ الطعامِ مِنَ الضَّرْبِ المُتَقَدِّمِ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ تكونَ تلكَ الدراهِمُ/ ٣١٥ - أ/ مِنْ كَنْزٍ أصابَ ذلكَ الرجلُ لا مِنْ دراهِمِ أصحابِ الكَهْفِ. فإذا صَدَّقوا ذلكَ الرجلَ في ما أخْبَرَ أنها مِنْ دراهِمِ أصحابِ الكَهْفِ، فَتَصْديقُ الرُّسُلِ أولَى، وخَبَرُهُمْ أحَقُّ أنْ يُصَدَّقَ.

والثاني: عَلِموا لمّا رَأَوا أنهُ أنامَهُمْ مُدَّةً طويلةً خارجَةً عنِ العادةِ، وحَفِظَهُمْ مِنْ كلِّ ضَرَرٍ[6] وأذىً وفَسادٍ، وأبقاهُمْ مِنْ غَيرِ طَعامٍ ولا شَرابٍ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ الأنفُسَ لا تَبْقَى، ولا تَقومُ بِغَيرِ طعامٍ ولا شَرابٍ بدونِ تلكَ المُدَّةِ بكثيرٍ فَضْلاً أنْ تَبْقَى إلى مِثْلِ تلكَ المُدَّةِ. فَعَلِموا إنَّ مَنْ قَدَرَ على حِفْظِ ما ذَكَرْنا وإبقائِهِمْ لَقادِرٌ على البَعْثِ والإحياءِ، ولا يَعْجَزُ[7] عنْ شَيءٍ يُريدُ كونَهُ، وأنهُ فَعّالٌ لِما يُريدُ.

والثالثُ: عَلِموا أنَّ ذلكَ حَقٌّ لمّا رَأَوا أنهُ أنامَهُمْ وَقْتاً طويلاً وحَفِظَهُمْ مِنْ جَميعِ الآفاتِ، ثم بَعَثَهُمْ، وأحْياهُمْ، وأنهُ لم يُنِمْهُمْ، ولم يَبْعَثْهُمْ إلّا لِعاقِبَةٍ تُتأمَّلُ وحِكْمَةٍ تُقْصَدُ. فَعَلَى ذلكَ إحياءُ الخَلْقِ وإماتَتُهُمْ، ليسَ إلّا لِعاقِبَةٍ تُتأمَّلُ و حِكْمَةٍ [واللهُ أعلَمُ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ لَسْنا نَدْري في ماذا تَنازَعوا في أمْرِهِم في ما بَينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ [يَحْتَمِلُ أنهمْ][9] تَنازَعوا في السَّبَبِ الذي بِهِ الْتَجَؤوا إلى الكَهْفِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ تنازُعُهُمْ في البناءِ الذي ذَكَرَ في المَسْجِدِ وغَيرِهِ. ويَحْتَمِلُ في عَدَدِهِمْ ونَحْوِهِ.

ولكنْ لا نَقْطَعُ القولَ فيهِ إذْ وَكَلُوا[10] أمْرَهُمْ إلى اللهِ حينَ قالوا: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كذا. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ولا. (٦) من م، في الأصل: ضرب. (٧) في الأصل وم: يعجزه. (٨) من م، في الأصل: فعلى ذلك. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: وكل.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يَحتَمِلُ بناءَ المَسْجِدِ عليهِمْ إكراماً لهمْ وإعظاماً لِيَذْكُروهُمْ في ذلكَ المكانِ على قُرْبٍ منهمْ على ما ظَهَرَ عندَهُمْ مِنْ إكرامِ اللهِ إيّاهُمْ [ويَحتَمِلُ أنْ يَتَّخِذوا أنفسُهُمْ مَسْجِداً لِلْعِبادَةِ][1] لِيَعْبُدوا اللهَ على قُرْبٍ منهمْ لِيَنالوا مِنْ بَرَكَتِهِمْ [ونَحْوِ ذلكَ][2]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ عَدَدُهُمْ سَبْعَةً، والثامِنُ الكَلْبُ، لأنهُ ذَكَرَ في الثلاثِ والخَمْسِ ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي قَذْفاً بالغيبِ وظَنّاً. وقيلَ: تَرْجَمَةً بالغَيبِ، أي بِلا عِلْمٍ. ولم يَذْكُرْ في قولِهِ: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وكذلكَ قالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه وقالَ: أنا مِنَ القليلِ الذينَ اسْتَثْناهُمُ اللهُ، وكانوا سَبْعَةً، والثامنُ الكَلْبُ. لَعَلَّ ابْنَ عباسٍ قالَ: أنا مِنَ القَليلِ ظَنّاً واسْتِدْلالاً بالذي ذَكَرَ، أو كانَ سَماعاً مِنْ رسولِ اللهِ ذلكَ.

وقالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ وغيرُهما: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ ثم اسْتَثْنى قليلاً مِنْ عبادِهِ، فلا نَعْلَمُ بأنَّ أولئكَ القليلُ مِنَ الملائكةِ أو مِنَ البَشَرِ أو منهمْ، فلا نَدْري مَنْ هُمْ؟ ولا كَمْ عَدَدُهُمْ؟ وبهِ نقولُ نحنُ، وهو ما قالَ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ نَهى رسولَهُ أنْ يَسْتَفْتِيَ فيهِمْ منهمْ أحداً لِما يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ غيرَ مُبَيَّنٍ في كُتُبِهِمْ فلا يُطْلِعُ رسولَهُ خوفَ التكذيبِ.

ثم اخْتُلِفَ في وقْتِهِمْ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ في ما بَيْنَ عيسى ومحمدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ كانَ قَبْلَ بَعْثِ موسى، وهو قولُ الحَسَنِ وأبي بَكْرٍ وغيرِهما[3]، وهذا أشْبَهُ لأنهمْ إنما سألوا عنهمْ أهلَ التوراةِ، وهمُ اليهودُ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بَعْدَ عيسى، وهمْ لا يُؤْمِنونَ[4] بالإنجيلِ.

وقالَ[5] أهلُ التأويلِ: كانَتْ أساميهِمْ [كذا، وعَدَدُهُمْ كذا، وليسَ بنا إلى معرفةِ أساميهِمْ وعَدَدِهِمْ][6] حاجةٌ. ولو كانَتْ لَتَوَلّى اللهُ بَيانَ ذلكَ في الكُتُبِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ظَنّاً بالغيبِ، أي يقولونَ بالظَّنِّ، وقيلَ: قَذْفاً بالظَّنِّ على غَيرِ اسْتيقانٍ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٤] يَحتَمِلُ الخِطابُ بهذا كلَّ الناسِ، ليسَ أحَدٌ أولَى بهِ مِنْ غيرِهِ، فيَخْرُجُ ذلكَ مُخْرَجَ التعليمِ لهمْ في قَوْلِهِ المِراءِ مَعَ الكَفَرَةِ ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ وكذلكَ الإسْتِفْتاءُ، وكذلكَ عَلَّمَهُمْ، وأدَّبَهُمْ ألّا يَعِدوا عِدَةً إلّا والثُّنْيا بها مُلْحَقٌ.

ويَحْتَمِلُ أيضاً أنْ يكونَ الخِطابُ بهِ رسولَ اللهِ ﷺ لكنْ ليسَ لهُ أنهُ قد كانَ منهُ ما ذَكَرَ مِنَ المِراءِ والإسْتِفْتاءِ والوَعْدِ بِغَيرِ ثُنْيا، ولكنْ خاطَبَ بهِ رسولَ اللهِ ﷺ لِيَتَأَدَّبَ غيرُهُ مِنَ الناسِ بذلكَ الأدبِ. وهو ما خاطَبَ بهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و. .] ونَحْوُهُ مِنَ الخِطاباتِ[7] التي خاطَبَ بها [لا لأنهُ][8] كانَ منهُ ذلكَ، أو كانَ فيهِ ما ذَكَرَ، ولكنْ لِما ذَكَرْنا مِنَ الوجوهِ في ما تَقَدَّمَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في أمْرِ أصحابِ الكَهْفِ، أي ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلّا قَدْرَ ما كانَ في كُتُبِهِمْ؛ فإنكَ لو مارَيْتَهُمْ بما ليسَ في كتابِهِمْ كَذَّبوكَ، ولكنْ [ما][9] قَدْرَ ما في كُتُبِهِمْ.

هذا [إنْ][10] كانَ على المَسْأَلَةِ. فإنْ كانَ على غَيرِ المَسْأَلَةِ في غَيرِ أمْرِ أصحابِ الكَهْفِ على ابْتِداءِ المُحاجَّةِ والحِجاجِ فهو يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

---

(١) في الأصل وم: أو يتخذون مسجداً للعبادة أنفسهم. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (٤) في الأصل وم: يؤمنوا. (٥) في الأصل وم: وقول. (٦) في الأصل وم: وعددهم. (٧) في الأصل وم: الخطاب. (٨) في الأصل وم: فخاطبه بها إلا أن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: أي لا تُمارِ فيهِمْ إلّا بما هو أظهَرُ، ويَعْرِفونَ ذلكَ ظاهراً مِنْ نَحْوِ ما يَعْرِفونَ أنَّ الأصنامَ التي عَبَدوها لا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَسْمَعُ، ونَحْوِ ذلكَ ممّا يَعْرِفونَ أنها كذلكَ.

والثاني: لا تُحاجُّهُمْ بِلَطائفِ الحِكْمَةِ ورَقائِقِها، ولكنْ بشيءٍ محسوسٍ ظاهرٍ مِنَ الآيةِ بما يَلْطُفُ، ويَدِقُّ، على ما يُحاجُّهُمُ الأنبياءُ بآياتٍ حِسّيّاتٍ.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ دَلالةٌ أنهُ لا يَسَعُ النظرُ في كُتُبِ[1] الفلاسفةِ إلّا على جِهَةِ العَرْضِ لِما فيها على كتابِ اللهِ، فَيأْخُذَ بما يُوافِقُهُ، ويَتْرُكَ الباقيَ.

الآيتان ٢٣ و٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لو كانَ فُهِمَ الخِطابُ على ظاهِرِ ما خُرِّجَ لَكانَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نَهْيٌ عنِ العِدَةِ بالثُّنيا. فإنْ لم يُفْهَمْ هذا، ولكنْ فَهِموا ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [إلا أنْ تقولَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾][2] على إضمارِ القَوْلِ؛ دلَّ أنَّ الخِطابَ ليسَ يُحْمَلُ على ظاهِرِ المَخرَجِ، ولكنْ على ما توجِبُهُ الحِكْمَةُ. والدليلُ ثَمَّ نَهْيٌ [عَنْ عِدَةٍ لا][3] يُسْتَثْنى فيها. وقاسَ بعضُ الناسِ الأيمانَ على العِداتِ، فَيَقولُ: إذا حَلَفَ فإنهُ يُلْزَمُهُ أنْ يَسْتَثْنِيَ فيها. وذلكَ فاسدٌ لأنَّ الأيمانَ تُخرَّجُ على تَعْظيمِ الرَّبِّ وإجلالِهِ، فلا يَجوزُ أنْ يُؤمَرَ بالثُّنيا فيها، لأنَّ الثُّنيا نَقْضُ ذلكَ التعظيمِ.

وكذلكَ ما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ:][4] «إذا حَلَفْتُمْ فاحْلِفوا باللهِ» [بنحوه مسلم ١٦٤٦/٣] «ولا تَحْلِفوا بآبائكُمْ ولا بالطَّواغيتِ» [مسلم١٦٤٨] نَهى عنِ الحَلْفِ بغَيرِ اللهِ لِما في الحَلْفِ بهِ تَعْظيمٌ لذلكَ الشيءِ. وأمّا العِدَةُ فإنما هي إضافةُ الفِعْلِ إلى نفسِهِ، وهو لا يَمْلِكُ حقيقَتَهُ[5] لِذلكَ أمَرَ أنْ يُلْحِقَ الثُّنيا فيهِ لئلّا يَلْحَقَهُ الخُلْفُ في الوَعْدِ، إذا لم يَفْعَلْ ما وَعَدَ. وعلى ذلكَ ذُكِرَ مِنَ الأنبياءِ أنهمْ إذا وَعَدوا اسْتَثْنَوا فيهِ كقولِ موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ الآية [الكهف: ٦٩] ثم إذا لم يَصْبِرْ لم يُعاتِبْهُ بِتَرْكِ الصَّبْرِ، ولو كانَ خُلْفاً لَعاتَبَهُ[6] كما عاتَبَ صاحبُ موسى [مُوسَى حينَ[7]] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]

وقد ظَهَرَ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ الأيمانُ والأقسامُ[8]، ثم لم يُذْكَرْ عَنْ أحدٍ منهمُ الثُّنيا في ذلكَ. دلَّ أنَّ الثُّنيا في العِداتِ لازمةٌ، وفي الأيمانِ لا.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ دلالةٌ ألّا يكونَ شيءٌ إلّا بِمَشيئةِ اللهِ حينَ[9] نَدَبَهُ إلى الثُّنيا. ثم إذا خَرَجَ على غَيرِ ما وَعَدَ، يَلْحَقُهُ[10] الخُلْفُ في الوَعدِ، دلَّ أنهُ قد شاءَ ذلكَ، وأنهُ إذا لم يَشَأْ شيئاً لم يكُنْ، لأنهُ لو كانَ [الحادثُ شيئاً لم يَشأْهُ][11] هو، أو شاءَ شيئاً، فلم يكُنْ، لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَعْنىً إذا كانَ ما لم يَشأْ هو، ولم يكُن ما هو شاءَ. دلَّ [أنَّ ما][12] شاءَ هو كانَ، وما لم يَشأْ لم يَكُنْ. /٣١٥ ـ ب/

وفيهِ أنهُ قد شاءَ كلَّ طاعةٍ وخَيرٍ مِنَ العَبْدِ. فلو لم يَشَأْ ما ليسَ بطاعةٍ لَكانَ لا يَسْتَثْني. وقد عَلِمَ أنهُ قد شاءَ ذلكَ. فَدَلَّتْ ثُنْياهُ على أنهُ قد يَشاءُ ما ليسَ بطاعةٍ إذا عَلِمَ أنهُ يَخْتارُ ذلكَ. وذلكَ [نَقْضٌ][13] على المُعْتَزِلَةِ.

فإنْ قيلَ: إنما أمَرَ بالثُّنيا في العَدَةِ لِما لَعَلَّهُ سَيموتُ قَبْلَ أنْ يَفْعَلَ ما وَعَدَ، أو تَذْهَبَ عنهُ القُدْرةُ، فَيَعْجِزَ عمّا وَعَدَ، قيلَ: إنَّ الأوهامَ لا تَرْجِعُ إلى ذلكَ، بلِ الإمكانُ مَشروطٌ فيهِ، وإنْ لم يَذْكُرْ. فَعَلى ذلكَ في العِداتِ والأيمانِ وغَيرِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بهذا الخِطابِ غَيرَ النَّبيِّ، وهو الأشْبَهُ، لِما لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ يَعِدُ عِدَةً، ولا يَذْكُرُ الثُّنيا لِما لا يَعْرِفُ ألا يكونُ شيءٌ إلّا بِمَشيئةِ اللهِ وإرادَتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: كتاب. (٢) في الأصل: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ في م: إلا أن تقولوا: إن شاء الله. (٣) في الأصل وم: إن عدة ولا.
(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حقيقة. (٦) في الأصل وم: لعاقبه. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: والقسم.
(٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (١١) في الأصل وم: شيئاً لم يشاء. (١٢) في الأصل: أنه إن، في م أنه.
(١٣) ساقطة من الأصل وم.

وأمّا غيرُ النبيِّ فجائزٌ إلّا يَعْرِفَ ذلكَ. لِذلكَ كانَ غَيرُهُ أولَى بما[1] يَخرُجُ منهُ على التّعريفِ لهمْ أوِ التّعليمِ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا ذَكَرْتَهُ بَعْدَ ما نَسِيتَهُ فاذْكُرْهُ كقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي [اذْكُر][3] الثُّنيا في آخِرِ الكلامِ ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ [في أوّلِهِ][4] أعني الثُّنيا. إذِ المُسْتَحَبُّ أنْ يَستثنِيَ في أوّلِ كلامِهِ على التّبرُّكِ كقولِهِ ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] اسْتَثْنَوا أوّلاً ثم وَعَدوا. فهو المُسْتَحَبُّ. فكأنّهُ قالَ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ الثُّنيا في آخِرِ كلامِكَ ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ في أوّلِهِ. وهو الثُّنيا.

وهذا يَرُدُّ على أصحابِ الظاهِرِ، لأنَّ ظاهرَ الكتابِ أنْ يُخاطِبَهُمْ بِذِكْرِهِ إذا نَسُوا، ولا يجوزُ أنْ يُخاطَبَ أحدٌ[5] في حالِ نِسْيانِهِ. فإذا لم يُفْهَمْ مِنْ هذا هذا دلَّ أنّهُ لا يُفْهَمُ على ما خُرِّجَ ظاهِرُهُ، ولكنْ على ما يَصِحُّ، ويُوجِبُ الحِكْمَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ الآيةُ هي أوضَحُ على دلالةِ رِسالتي وآخَذُ ممّا تَسْألونَني مِنْ أمْرِ أصحابِ الكهفِ؛ لأنهمْ كانوا[6] يَسْألونَهُ عن خَبَرِهِمْ، فَيَسْتَدِلّونَ على رسالتِهِ وصِدْقِهِ، ويقولُ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٦١] على دلالةِ رسالتي [التي هي][7] أوضَحُ ممّا تَسْألونَني وآخَذُ للقلوبِ، إذْ كانَتْ لهُ آياتٌ حِسِّيّاتٌ على رسالتِهِ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ﴾ عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ؛ أي قد هَداني ربي الرُّشْدَ والصوابَ. وأمّا غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فيقولونَ[8]: إنهُ وَعَدَ لأولئكَ أنْ يُخبِرَهُمْ غداً عمّا يَسْألونَ، وقالَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن﴾ يُرْشِدَني ربي لأُسْرِعَ مِنْ هذا المِيعادِ الذي وَعَدْتُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِ أولئكَ الذينَ قالوا: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الآيةَ [الكهف: ٢٢] معَ قولِهِ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ ما ذَكَرَ. فأمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ الآيةَ [الكهف: ٢٦].

وقالَ بعضُهُمْ: هو قولُ اللهِ أخبَرَ أنهمْ لَبِثوا ما ذَكَرَ مِنَ المُدّةِ ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ قالَ: تِسْعَ سِنينَ لكنْ ليسَ فيهِ بَيانٌ أنهُ أرادَ تِسْعَ سِنينَ أو تِسْعَةَ أشهُرٍ أو تِسْعَةَ أيّامٍ، فلا نَدْري أرادَ بذلكَ ذا أو ذا.

فالأمرُ فيهِ إلى اللهِ على ما أمَرَ رسولَهُ أنْ يقولَ لهمْ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإنْ قيلَ في قولِهِ: ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ ألا قالَ: ثلاثَ مِئَةِ سنةٍ كما يُقالُ: ثلاثُ مِئَةِ رجلٍ وثلاثُ مِئَةِ درهمٍ ونَحْوُهُ؟ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: إنهُ لم يُضِفْ ثلاثَ مئةٍ إلى سِنينَ، ولكنهُ أرادَ تمامَ الكلامِ لقولِهِ: ثلاثَ مئةٍ. لذلكَ نَوَّنَها[9].

ثم أخبَرَ ما تِلْكَ [ثلاثُ المئةِ][10]، فقالَ: سِنينَ على القَطْعِ مِنْ أولِ القَطْعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ جَعَلَ عِلْمَ مُدّةِ لَبْثِهِمْ إلى اللهِ تعالى. وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: لهُ عِلْمُ ما غابَ عنْ أهلِ السمواتِ وأهلِ الأرضِ كقولِهِ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

والثاني: لهُ عِلْمُ ما غَيَّبَ، وأسَرَّ أهلُ السمواتِ والأرضِ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: العلم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وله. (٥) في الأصل وم: أحداً. (٦) في الأصل وم: قالوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نون فيها. (١٠) في الأصل وم: الثلاث مئة.

والثالث: لهُ عِلْمُ غَيبِ ما شاهَدَ[١] أهلُ السمواتِ وأهلُ الأرضِ، لأنَّ في [ما][٢] شاهَدوهُ مِنَ الأشياءِ، وعايَنوها، غَيْباً وسِرِّيَّةً لم يَعْلَموهُ مِنْ نَحْوِ الشمسِ شاهَدوها، وعَرَفوا أنها شمسٌ، ولكنْ لم يَعْلَموا ما فيها مِنَ المَعْنَى الذي بهِ صلاحُ الأشياءِ ومَنافِعُها، وكذلكَ القَمَرُ. وإنما شاهَدوا هذِهِ الأشياءَ، ولكنْ لم يَعْرِفوا المَعْنَى الذي بِهِ، صارَتْ نافِعةً لِلأشياءِ[٣].

وكذلكَ السمعُ والبَصَرُ والعَقْلُ ونَحْوُها[٤] مِنَ الحواسِّ عَرَفوا هذهِ الحواسَّ على ظواهِرِها، ولكنْ لا يَعْرِفونَ المَعْنَى الذي بِهِ يَسْتَمِعونَ، ويُبْصِرونَ، ويَفْهَمونَ، فَيَقولُ: لهُ عِلْمُ ما غابَ عنكُمْ مِنْ هذهِ الأشياءِ التي شاهَدْتُموها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هذا كلامٌ يُتَكَلَّمُ عنِ النهايةِ والغايةِ والبلاغِ[٥] مِنَ الوصفِ. ويُقالُ: أكْرِمْ بهِ مِنْ فلانٍ، إذا كانَ بَلَغَ الكرمُ بِهِ غايَتَهُ. وكذلكَ يُقالُ: أحْسِنْ بِهِ مِنْ فلانٍ، إذا بَلَغَ في الحُسْنِ غايَتَهُ. ونَحْوُهُ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هو وصفٌ لهُ على النهايةِ كما يُقالُ: ما أعْلَمَهُ، وما أبْصَرَهُ، وما أكْرَمَهُ، وما أحْسَنَهُ في العِلْمِ، إنهُ يَعْلَمُ ما غابَ [عنِ الخَلْقِ وما شاهدوا و ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ مِنَ الأفعالِ التي يَفْعَلونَ و ﴿وَأَسْمِعْ﴾ بهِ مِنَ الأقوالِ التي يَتَفَوَّهونَ، أي يَعْلَمُ ما غابَ][٦] عنهُمْ ممّا لم يَفْعَلوا، ولم يَقولوا: فالذي قالوهُ، وفَعَلوهُ أحَقُّ أنْ يَعْلَمَ. يُحَذِّرُهُمْ ﷻ عَنْ أفعالِهِمْ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يَحْتَمِلُ: ولايُشْرِكُ في ألوهِيَّتِهِ أحداً. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أيِ الحُكْمُ لهُ، ليسَ لأحدٍ دونَهُ حُكْمٌ، إنما عليهِمْ طَلَبُ حُكْمِ اللهِ في ما يَحْكُمونَ. أو لا يُشْرِكُ في تقديرِهِ وتدبيرِهِ الذي يُدَبِّرُ في خَلْقِهِ أحداً. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي﴾ قِسْمَتِهِ التي يَقْسِمُ بينَ الخَلْقِ أحداً ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ أي في ما جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، ودَعَتِ الخَلْقَ إليهِ ﴿أَحَدًا﴾.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿كِتَابِ رَبِّكَ﴾ اللَّوحَ المَحْفوظَ؛ أي بَلِّغْ ما أوحِيَ إليكَ مِنَ اللوحِ الذي عندَ اللهِ مِنْ مَتْلُوٍّ كقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وهو جميعُ ما أنْزَلَ إليهِ مِنَ المَتْلُوِّ. ويَحْتَمِلُ ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ الكتابَ الذي أُنْزِلَ عليهِ، وهو القرآنُ؛ أيِ اتْلُ عليهِمْ ذلكَ الكتابَ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ أنَّ القرآنَ ممّا يُتَقَرَّبُ بِتِلاوَتِهِ.

ثم في قولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقولِهِ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ فريضةٌ ضَيَّعْناها. وذلكَ أنهُ أمَرَ رسولَهُ بِتَبْليغِ رسالتِهِ وما أنْزَلَ إليهِ. ثم مَعْلومٌ أنَّ مَنْ كانَ في أقْصَى الدنيا وأبْعَدِ أطرافِها لم يَقْدِرْ رسولُهُ أنْ يَتَوَلَّى التَّبْليغَ بنفسِهِ، وكذلكَ بَعْدَ وفاتِهِ، لا يَجوزُ أنْ يَتَوَلَّى تَبْليغَهُ[٧].

فكانَ [القِيامُ بِتَبْليغِ ذلكَ][٨] يُلْزِمُ المُسْلِمينَ وأئِمَّتَهُمْ[٩]، فَضَيَّعوا ذلكَ.

ولهذا ما رَخَّصَ، واللهُ أعلَمُ، بدخولِ المُسْلِمينَ دارَ الحَرْبِ للتجارةِ ودخولِ أولئكَ دارَ الإسلامِ للتجارةِ أيضاً لِيَنْتَهِيَ إليهِمْ خَبَرُ هذا الدينِ حيثُ عُلِمَ أنهُ يكونُ أئمةٌ في آخِرِ الزَّمانِ، لا يَهْتَمونَ لِدينِهِ، ولا يَتَوَلَّونَ تَبْليغَ ما أُمِروا بِتَبْليغِهِ، ويُضَيِّعونَ أمْرَهُ، فَتَلْزَمُهُمْ حُجَّةُ اللهِ. وإلّا ما الحاجةُ في تلكَ التجارةِ والأموالِ التي يَتَّجِرونَ فيها؟ ولكنْ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا مُبَدِّلَ لِسُنَّتِهِ؛ إذْ سُنَّتُهُ في المُكَذِّبينَ الإهلاكُ، [وفي][١٠] المُصَدِّقينَ النجاةُ. وهذِهِ سُنَّتُهُ، وإنْ أمْكَنَ تَعْجيلُها وتأخيرُها. فأمّا سُنَّتُهُ فهيَ لا تَبَدَّلُ، ولا تَحَوَّلُ، كقولِهِ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] [وقولِهِ][١١]: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما وَعَدَ، وأوعَدَ لهمْ في الدنيا، فذلكَ في الآخِرَةِ لا يُبَدَّلُ، ولا يُحَوَّلُ؛ إذ وَعَدَ للمؤمنينَ الجنةَ وللكافرينَ العذابَ. فذلكَ لا يُبَدَّلُ.

---

(١) من م، في الأصل: أشهد. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: ومصلحتها. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) في الأصل وم: والإبلاغ. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: بتبليغه. (٨) في الأصل وم: ذلك القيام. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: بتبليغه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقال/٣١٦ ـ أ/ بعضُهُمْ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهي القرآنُ، لا يَتَبَدَّلُ، ولا يَتَغَيَّرُ، ولا يُزادُ، ولا يُنْقَصُ، كقولِهِ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقال بعضُهُمْ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ التي جَعَلَ لدينِهِ، وأقامَ لهُ. ذلكَ يَلْزَمُ الإسلامَ ودينَهُ إلّا مَنْ قَصَّرَ عليهِ في العبادةِ، أو كانَ المُقامُ عليهِ الحُجَّةُ مُعانِداً مُكابِراً. وأمّا مَنْ لم يكنْ [فيهِ][1] هذانِ المَعْنَيانِ يَسْلَمْ، لا مَحالَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ هذا الخِطابُ، وإنْ كانَ في الظاهرِ لرسولِ اللهِ، فهو يُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّنْبيهِ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ. وقولُهُ تعالى: ﴿مُلۡتَحَدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُدْخَلاً، ولذلكَ سُمِّيَ اللَّحْدُ لَحداً لِما يُدْخَلُ فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مَلْجأً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ بالغَداةِ والعَشِيِّ مَعَ الذينَ يَدعونَ ربَّهُمْ، فيكونُ فيهِ الأمرُ بالجُلوسِ لهمْ بالغَدَواتِ والعَشِيّاتِ لِلتَّذْكيرِ وتَعْليمِ العِلْمِ على ما تَعارَفَ الناسُ الجلوسَ للناسِ لذلكَ في هذينِ الوَقْتَينِ؛ إذْ ذانِكَ الوَقْتانِ خالِيانِ عنِ الأشغالِ التي تَشْغَلُهُمْ عنْ ذلكَ: الغَداةُ والعَشِيُّ لِما لم يَجْعَلْ عليهِمْ بَعْدَ صلاةِ الغَداةِ صلاةً وكذلكَ بَعْدَ العَصْرِ لِلذِّكْرِ الذي ذَكَرْنا وتَعْليمِ ما يَحتاجونَ في لَيلِهِمْ ونَهارِهِمْ.

أو أنْ يكونَ ذلكَ كِنايَةً عنْ صلاةِ الفَجْرِ والعَصْرِ لِما جاءَ لهما مِنْ فَضلٍ وَوَعيدٍ[2] لم يَجِئْ في غَيرِهِما مِنَ الصلواتِ نَحْوُ ما ذَكَرَ ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وأمّا ما رُوِيَ في العَصْرِ مِنَ الوعيدِ [فهو][3] «مَنْ فاتَهُ العَصْرُ فكأنما وَتَرَ أهلَهُ ومالَهُ» [مسلم٦٢٦/ ٢٠١] ونَحْوُ أمرٍ يُصَبِّرُ نَفْسَهُ على حِفْظِ هذينِ لِما ذَكَرْنا مَعَ ذِكْرٍ.

أو أنْ يكونَ لا على إرادةِ غَداةٍ أو عَشِيٍّ، ولكنْ بالكَونِ مَعَ أتباعِهِ في كلِّ وقتٍ والصَّبْرِ معهمْ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ذَكَرَ هذا لأنَّ رؤساءَ كُفّارِ مكةَ سألوهُ أنْ يَطْرُدَ أتباعَهُ مِنْ عندِهِ، ويَتَّخِذَ لهمْ مَجْلساً. فنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٢]. وقولُهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾.

وقالوا في قولِهِ: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ نَزَلَ في أصحابِ الكَهْفِ. يَقولُ: وأخبِرْهُمْ ما سَألوكَ مِمّا أوحَينا إليكَ مِنْ أخبارِ أصحابِ الكَهْفِ، ولا تَزِدْ[4]، ولا تَنْقُصْ عليهِ. فإنْ كانَ في أمْرِهِمْ نَزَلَ هذا فَرَسولُ اللهِ كانَ لا يُخْبِرُهُمْ إلّا ما أُوحِيَ إليهِ، وأُنْزِلَ عليهِ مِنْ أمْرِهِمْ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا[5]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ قِيلَ: ولا تَتَعَدَّ عنهُمْ إلى غَيرِهِمْ. وقِيلَ: لا تَصْرِفْ، ولا تَرْفَعْ عَينَيكَ عنهمْ [ولا][6] تُجاوِزْهُمْ إلى غَيرِهِمْ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: إنْ كانَ على تأويلِ أهلِ التأويلِ أنهمْ سألوهُ أنْ يَتَّخِذَ لهمْ مَجْلِساً دونَ أولئكَ فيكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي تريدُ أولئكَ الذينَ يَطْلُبونَ منكَ مَجْلِساً على حِدَةٍ، يُريدونَ بذلكَ زينةَ الحياةِ الدنيا لا يُريدونَ بذلكَ وجهَ اللهِ.

والثاني: لو فَعَلْتَ ما سَألوكَ كانَ فِعْلُ ذلكَ فِعْلَ مَنْ يريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا، لأنَّ المَجْلِسَ الذي يَحْضُرُهُ الأشرافُ والرُّؤساءُ إنما يُرادُ بهِ زينةُ الحياةِ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ تأويلُ الآيَةِ على قَولِنا ظاهرٌ؛ نحنُ نقولُ على ما نَطَقَ ظاهِرُ الآيَةِ: ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي مَنْ خَلَقْنا ظُلْمَةَ الكُفْرِ بِكُفْرِهِمْ في قلوبِهِمْ، أو خَذَلْناهُمْ بكفرِهِمُ الذي فَعَلوا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تزيد. (٥) من م، في الأصل: ذكر. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وأمّا المُعتَزِلَةُ فإنهم قد تَحيَّروا فيهِ، وتاهُوا، وأكثَرُوا التأويلاتِ فيهِ حتى إنَّ منهمْ مَنْ صَرَفَ القراءةَ عنْ وَجْهِها، فقالَ ﴿وَلَا نُطِعْ مَنْ﴾ أغْفَلَنا بِنَصْبِ اللامِ، وقالَ[1]: قَلْبُهُ بِرَفْعِ الباءِ؛ مَعْناهُ: أي مَنْ غَفَلَ قَلْبُهُ عنْ ذِكْرِنا، على قَولِ المُعْتَزِلَةِ، على صَرْفِ الفِعْلِ إلى القَلْبِ. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[2] [الفلق: ٢] لِيَصِحَّ على مذهبِهِمْ، ويَسْتَقيمَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: ﴿وَلَا نُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي لا تُطِعْ مَنْ وجَدْنا قَلْبَهُ غافِلاً، وقالَ: وذلكَ مُسْتَقيمٌ في اللغةِ. يُقالُ: [قاتَلْناهُمْ فما أجْبَنّاهُمْ][3] أي ما وَجَدْناهُمْ جُبَناءَ، ويُقالُ: فَسَألْناهُمْ، فما أبْخَلْناهُمْ، أي ما وجَدْناهُمْ بُخَلاءَ، ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ، وهو تأويلُ الجُبّائيِّ في ما أظُنُّ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا نُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي مَنْ خَلَّينا بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يَغْفُلُ [عنهُ][4] وهو كما يُقالُ لِمَنْ خَلّى عَبْدَهُ حتى أفسَدَ كثيراً مِنَ الناسِ؛ يُقالُ: سَلَّطْتَ عبدَكَ على الناسِ، وهو لم يُسَلِّطْهُ عليهِمْ، لكنهُ يُقالُ لهُ لِما قَدَرَ على مَنْعِهِ عنْ ذلكَ والحَيلولَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما فَعَلَ، أُضيفَ ذلكَ إليهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي خَلَّينا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما فَعَلوا، ولم نَمْنَعْهُمْ؛ وهو تأويلُ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ للأسبابِ التي أعطاهُمْ مِنَ السَّعَةِ والغِنَى والشَّرَفِ في الدنيا. فتلكَ الأسبابُ التي أعطاهُمْ هي التي حَمَلَتْهُمْ على ذلكَ، فأُضيفَ إليهِ ذلكَ لِذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وهو تأويلُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أي خَذَلْناهُمْ، وطَبَعْنا على قلوبِهِمْ، وهو يقولُ: إنَّ لِلْكُفْرِ حدًّا، إذا بَلَغَ [الكافرُ][5] ذلكَ الحَدَّ يَخْذُلُهُ، ويَطْبَعُ على قَلْبِهِ، فلا يؤمِنُ أبداً، فَيُقالُ: خَذَلَهُ في أوَّلِ حالِ كُفْرِهِ، فهو قولُنا. وإنْ قالَ لا في أوَّلِ حالِهِ، ولكنْ بَعْدَ زَمانٍ، فهو كافرٌ مُرَفَّقٌ[6] ومُؤْمِنٌ مَخذولٌ على قولِهِ. فنعوذُ باللهِ ممّا قالوا.

ثم الجوابُ للأوَّلِ ما ذَكَرْنا مِنْ صَرْفِ التنزيلِ عنْ وجهِهِ وظاهِرِهِ. فلو جازَ لهمْ ذلكَ [جازَ][7] لِغَيرِهِمْ صَرْفُ جميعِ الآياتِ عنْ ظاهِرِ التَّنْزيلِ، وذلكَ بَعيدٌ مُحالٌ.

وأمّا تأويلُ الجُبّائيِّ: أي وجَدْناهُمْ كذا، فإنما يَسوغُ لهُ هذا إذا كانَ جميعُ حروفِ أفْعَلَ يُخَرَّجُ على ما يقولُهُ في اللغةِ. فأمّا أنْ يُقالَ في بَعضٍ فإنَّ ذلكَ غَيرُ مستقيمٍ.

وبَعْدُ فإنهُ لو كانَ كما ذَكَرَ لَكانَ يقولُ: ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْتَهُ عنْ ذِكْرِنا، أي وجَدْتَهُ غافِلاً عنْ ذِكْرِنا، لأنهُ نَهى عنْ أنْ يُطيعَ مَنْ وجَدَهُ غافلاً. فهو لا يَعْلَمُ مَنْ [وجَدَهُ اللهُ غافِلاً. إنما يَعْلَمُ مَنْ][8] وَجَدَهُ[9] بِنَفْسِهِ غافِلاً.

فأمّا إذا ذَكَرْنا لم يكُنْ لِلنَّهْيِ عمّا ذَكَرَ مَعْنىً. فَدَلَّ أنَّ تأويلَهُ فاسِدٌ وخَبالٌ، وأنَّ إضافَتَهُ إليهِ لِمَعْنىً يكونُ مِنَ اللهِ.

وأمّا جوابُ تأويلِ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ أنهُ على التَّخْلِيَةِ والتَّسليطِ فهو إنما يُقالُ لِمَنْ قالَ:[10] سَلَّطْتَ عبدَكَ على كذا على الذَّمِّ لا على المَدْحِ، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ في اللهِ على الذَّمِّ، ويُضافَ إليهِ أيضاً ذلكَ.

وكذلكَ يُقالُ لأبي بَكْرٍ حينَ[11] قالَ: إنما أضافَ ذلكَ إليهِ للأسبابِ التي ذَكَرَ أنهُ أعطاهُمْ؛ يُقالُ لهُ ذلكَ، ويضافُ على الذَّمِّ: إنكَ أعْطيتَ كذا حتى فَعَلَ كذا. فأمّا أنْ يُقالَ على المَدْحِ فلا. فَيَبْطُلُ قولُهُ وتأويلُهُ.

فَدَلَّتْ إضافةُ ذلكَ إلى نفسِهِ أنهُ كانَ منهُ في ذلكَ مَعْنىً تَسْتَقيمُ إضافَتُهُ إليهِ. وهو ما ذَكَرْنا مِنْ خَلْقِ الظُّلْمَةِ في قلوبِهِمْ بِكُفْرِهِمُ الذي اختاروا وخِذْلانِهِ إيّاهُمْ لِما اختاروا، وآثَروا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿فُرُطًا﴾][12] أي ضَياعاً وهَلاكاً. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿فُرُطًا﴾ أي خُسْراناً وخَساراً.

---

(١) في الأصل وم: و، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٦١. (٢) مِنْ شَرٍّ ما خُلِقَ بالتنوين والبناء للمجهول، انظر معجم القراءات القرآنية ح٨/ ٢٧٧. (٣) في الأصل: فأتيناهم فما أوجبناهم، في م: قاتلناهم فما أوجبناهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: موفق. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وجدهم. (١٠) في الأصل وم: يقال. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿فُرُطًا﴾ هو مِنَ التَّفريطِ. وقالَ غيرُهُ: [فَرَط][1] في القولِ ليسَ كما قالَ: إنّا رؤوسٌ مِنْ مُضَرَ إنْ تَسْلَمْ يَسْلَم الناسُ بَعْدَنا على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ[2]: ﴿فُرُطًا﴾ أي نَدَماً.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ كأنهُ على الإضمارِ، أي قُلْ قد جِئتُكُمْ بالحَقِّ مِنْ ربِّكُمْ. أو يقولُ: قُلْ لهمْ: قد تَعْلَمونَ أني قد جِئتُكُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ على ما أدْعوكُمْ إليهِ ما لا تَحْتَمِلُ بُنْيَتي[3]، ويَخْرُجُ عنْ وُسْعي وطاقتي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ يَحْتَمِلُ[4] هذا وجوهاً:

أحَدُها: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إنما يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ، ليسَ يَعْمَلُ لأحدٍ سِواهُ، كقولِهِ[5]: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] وقولِهِ:/ ٣١٦ - ب/ ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧] فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: إني بَلَّغْتُ الرسالةَ إليكُمْ، فلا أُكْرِهُكُمْ أنا على الإسلامِ، ولا أحَدَ سِوايَ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [فَمَنْ آمَنَ فإنما][6] يُؤْمِنُ بِاخْتيارِهِ ومَشيئَتِهِ. ومَنْ كَفَرَ فإنما يَكْفُرُ باخْتيارِهِ ومَشيئَتِهِ لا يُكْرَهُ على ذلكَ.

والثالثُ: أنَّ الإيمانَ والكُفْرَ قد بَيَّنَ اللهُ لهما العَواقِبَ: [عاقِبَةَ مَنِ اخْتارَ الإيمانَ؟ و][7] عاقِبَةَ مَنِ اخْتارَ الكُفْرَ؟ وهو ما قالَ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ للمؤمنينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ الآية [الكهف: ٣٠و٣١] يقولُ: قد بَيَّنَ لكلِّ واحدٍ منهما عاقِبَتَهُ. فَمَنْ شاءَ اكْتَسَبَ لِنَفْسِهِ في العاقبةِ الجِنانَ وما فيها مِنَ النعيمِ، ومَنْ شاءَ اكْتَسَبَ ما ذَكَرَ في العاقبةِ مِنَ النارِ وأنواعِ العذابِ. فذلكَ كلُّهُ يُخَرَّجُ على الوَعيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وقتَ دخولِهِمُ النارَ ﴿نَارًا﴾ وهو في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: على إرادةِ حَقيقةِ السُّرادِقِ.

والثاني: على التَّمْثيلِ، أي تُحيطُ بهمُ النارُ فلا يَقْدِرونَ على الخروجِ منها على ما يَمْنَعُ السُّرادِقُ مِنَ الخروجِ في الدنيا ودَفْعِ الحَرِّ والبَرْدِ.

فإنْ كانَ على حَقيقةِ السُّرادِقِ فهو، واللهُ أعلَمُ، على ما جَعَلَ اللهُ لهمْ مِنْ أنواعِ ما كانوا يَتَفاخَرونَ في الدنيا بهِ مِنَ اللِّباسِ والطعامِ والشرابِ وغَيرِ ذلكَ يَجْعَلُ لهمْ [الطعام][8] في الآخِرَةِ مِنْ ذلكَ النوعِ مِنَ النارِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وما قالَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] والشرابَ ما ذَكَرَ ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] و ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] وغَيرِ ذلكَ مِنَ النوعِ الذي كانوا يَتَفاخَرونَ بهِ في الدنيا، ويَمْنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ، جَعَلَ لهمْ في الآخِرَةِ مِنْ ذلكَ النوعِ مِنَ النارِ، وبهِ يُعاقِبُهُمْ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونوا يَتَفاخَرونَ بهِ في الدنيا بالسُّرادِقِ، إذا خَرَجوا في السَّفَرِ، فَيُعاقِبُهُمُ اللهُ في النارِ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ تَحْتَمِلُ اسْتِغاثَتُهُمْ[9] ما ذَكَرَ في الآيةِ ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] فَيُغاثونَ ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وتَحْتَمِلُ أنْ يَطْلُبوا في النارِ الماءَ بَعْدَ ما طُعِموا فيها منها. فَيُغاثونَ بالمُهْلِ.

ثم المُهْلُ: قالَ عامَّتُهُمْ: المُهْلُ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ أو العَكَرُ[10]. لكنهُمُ اخْتَلَفوا في مَعْنَى التشبيهِ بهِ: قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُ بهِ لِغِلَظِهِ، لأنَّ الشيءَ الغليظَ يكونُ ألْصَقَ وآخَذَ مِنْ غَيرِهِ. و قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَهُ بهِ لِسَوادِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: عبيد. (٣) في الأصل وم: بليتي. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٥) من م، في الأصل: بقوله. (٦) في الأصل وم: إنما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: العصير.

وقالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: تَشْبِيهُهُ بِهِ لِكَثْرَةِ تَلَوُّنِهِ مِنَ الحُمْرَةِ والصُّفْرَةِ والسَّوادِ ونَحْوِهِ لِشِدَّتِهِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] لِتَلَوُّنِهِ لِشِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي ساءتِ النارُ مُرْتَفَقاً. اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: المُجْتَمَعُ، أي بئسَ الاجْتِماعُ. وقالَ بعضُهُمْ: مَجْلِساً. و قالَ بعضُهُمْ: بئسَ المَنْزِلُ النارُ، قُرَناؤُهُمْ فيها الكفارُ والشياطينُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: إنّا لا نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ عملاً منهمْ، ثم قالَ: الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئكَ لهمْ جنّاتُ عَدْنٍ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، ولكنْ ما ذَكَرَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ منهمْ. ثم بَيَّنَ ما لهمْ، فقالَ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: السُّرادِقُ البِناءُ الذي يُبْنى مِنَ الكِرْباسِ[1] شِبْهُ الدارِ والحُجْرَةِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي مُتَّكأً ومَنْزِلاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: السُّرادِقُ الحُجْرَةُ التي تكونُ حَولَ الفُسْطاطِ، قالَ: وهو الدُّخانُ يُحيطُ بالكفارِ يومَ القِيامةِ، وهو الظِّلُّ ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] والمُهْلُ دُرْدِيُّ الزيتِ، ويُقالُ: ما أُذيبَ مِنَ النُّحاسِ والرَّصاصِ ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي مَجْلِساً. وأصلُ الارْتِفاقِ الاتِّكاءُ على المِرْفَقِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يَذْكُرُ ثَوابَ المؤمنينَ الذينَ تَرَكوا شَهَواتِهِمْ في الدنيا لها ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ قالوا: الإسْتَبْرَقُ الديباجُ الغليظُ، والسُّنْدُسُ هو الرقيقُ، والغَليظُ منهُ لا يُلْبَسُ. لكنهُ لأنَّهُ جَمَعَ بينَ ما يُلْبَسُ وبينَ ما يُبْسَطُ، فَذَكَرَ اللُّبْسَ كما يُقالُ: أطْعَمْتُ فلاناً طَعاماً وشَراباً، والشَّرابُ لا يُطْعَمُ. وقيلَ: إنَّ الإسْتَبْرَقَ، هو الرقيقُ مِنَ الدِّيباجِ بِلُغَةِ قومٍ. فإنْ كانَ ما ذَكَرَ فكأنهُ إنما ذَكَرَ ذلكَ لأولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأرائكُ السُّرُرُ في الحِجالِ، والأريكةُ السريرُ في الحَجَلَةِ. و قالَ بعضُهُمْ: الأرائِكُ السُّرُرُ عليها حِجالٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الأرائكُ [جمعُ الأريكةِ، وهي][2] الوِسادةُ ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قيلَ: مَنْزِلاً.

وأصلُ هذا أنهُ وَعَدَ لهمْ في الآخِرَةِ ما كانَتْ أنفُسُهُمْ تَرْغَبُ فيهِ في الدنيا لِيَتْرُكوا ذلكَ في الدنيا لِلْموعودِ في الآخِرَةِ. وكذلكَ حَذَّرَهُمْ في الآخِرَةِ بأشياءَ تنفُرُ [منها][3] أنفُسُهُمْ وطِباعُهُمْ في الدنيا لِيَحْذَروا ما يَسْتَوجِبونَ المَوعودَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ جائزٌ أنْ يكونَ هذا المَثَلُ، كانَ في الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ وكُتُبِهِمْ.

سُئِلَ رسولُ اللهِ عَنْ ذلكَ لِيُعْلَمَ، ولِيَتَبَيَّنَ لهمْ صِدْقُهُ بأنهُ رسولُ اللهِ ﷺ على ما يَدْعُو[4] على ماسُئِلَ هو عَنْ قِصَّةِ ذي القَرْنَيْنِ ونَبَئِهِ وأنباءِ أصحابِ الكَهْفِ وأخبارِهِمْ لِيَتَبَيَّنَ لهمْ صِدْقُهُ، إذْ عَلِموا أنَّ تلكَ الأنباءَ والقِصَصَ لا تُعْلَمُ، ولا يَعْرِفُها إلّا مَنْ عَلِمَ كتابَ اللهِ، إذْ كانَ ذلكَ في كُتُبِ اللهِ، وهو لم يَعْرِفْ تلكَ الكُتُبَ لأنها كانَتْ بِغَيرِ لِسانِهِ، ولم [يُرَ أنهُ][5] اخْتَلَفَ إلى مَنْ يَعْرِفُها لِيَتَعَلَّمَ منهُ.

(١) في الأصل: الكبريس، في م، الكريبس. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يدعى. (٥) في الأصل وم: يروه.

ثم أنبأَهُمْ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ[1] إنما عَرَفَ باللهِ وأنهُ صادقٌ في ما يَدْعُو[2] مِنَ الرسالةِ.

على هذا يجوزُ أنْ يُقالَ، واللهُ أعلَمُ، فيكونُ في ذلكَ آيةٌ لِرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلى آخِرِهِ أي اضربْ لِلْمُعْتَبِرينَ والمُتَوسِّمينَ مَثَلَ رَجُلَينِ، هذا سَبِيلُهُما؛ يَرْغَبُ أحدُهُما في الدنيا وزينتِها، ويَطْلُبُها، لا يَرى غيرَها. والآخَرُ يَرْغَبُ في الزهدِ فيها وتَرْكِ الطَّلَبِ لها، ويَرْغَبُ[3] في الآخِرَةِ.

فإنْ كانَ على هذا أو ما ذَكَرْنا مِنْ ضَرْبِ مَثَلِهِ ومَثَلِ أولئكَ فهو على الابْتِداءِ، فَيَخْرُجُ على الاعْتِبارِ والتَّفَكُّرِ في ما ذَكَرَ تنبيهاً وإيقاظاً. وإنْ كانَ على السؤالِ عمّا كانَ فهو ليسَ على الاعْتِبارِ، ولكنْ على الإنباءِ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ ففيهِ آيةٌ لِرسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ.

ثم قولُهُ: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي بَينَ الجَنَّتَينِ.

الآية ٣٣ [وقولُهُ تعالى]: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي حَمْلَها، ولم يَقُلْ: آتَتا أُكُلَهُما، خَرَّجَهُ[4] على اسْمٍ واحدٍ، وإنْ كانَ في المَعْنَى على التَّثْنِيَةِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِكَ: كِلْتا المَرْأتَينِ صالحةٌ /٣١٧ ـ أ/ وكِلانا صالحٌ، وفيهِ قولُ الشاعِرِ.

كِلانا شاعِرٌ مِنْ حَيِّ صِدْقٍ ... ولكِنَّ الرَّحى تَعْلو الثِّفالا

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم تُنْقِصْ مِنْ ثَمَرِها شيئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي أجْرَينا بَينَهما مِياهاً جاريَةً.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ ثَمُرٌ[5] بالرفعِ فهو كلُّ ما كانَ يَمْلِكُ مِنَ الجِنانِ وغَيرِها.

ومَنْ قَرَأَ بالنصبِ فهو على الثَّمَرِ. و قالَ بعضُهُمْ: الثَّمَرُ بالنصبِ هو[6] الثَّمَرُ، والثُّمُرُ بالرفعِ هو[7] جميعُ الثمارِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يُكَلِّمُهُ، أو يُجيبُهُ، أو يُنازِعُهُ، ويُناظِرُهُ ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الخِطابُ منهُ على الابْتِداءِ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ كانَ مِنْ صاحِبِهِ لهُ وعيدٌ وتخويفٌ. فَعِنْدَ ذلكَ قالَ لهُ ما ذَكَرَ. أو أنْ يكونَ قالَ: يُعْطيني ربي في الآخِرَةِ مِثْلَ ذلكَ أو خَيراً منها. فقالَ لهُ عندَ ذلكَ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي قد تَفَضَّلَ عليَّ في الدنيا، وفَضَّلَني عليكَ، فَيُفَضِّلُني أيضاً في الآخِرَةِ عليكَ حينَ[8] قالَ: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] أي [إنْ][9] كانَ ما تَزْعُمُ صِدْقاً أنّا نُبْعَثُ، ونُرَدُّ إلى اللهِ، وإلّا على الابْتِداءِ لا يَصِحُّ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ أي ظالِمٌ نفسَهُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لِّنَفْسِهِۦ﴾ بَدَنَهُ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ﴾ المَعْنَى الذي يكونُ في النَّفْسِ[10]؛ يَسْتَعْمِلُها في ما يُسْتَعْمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ أي ما أُوقِنُ[11]، وما أعلَمُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الظَّنُّ لأنَّ صاحِبَهُ كانَ يُناظِرُهُ فيهِ، فاضْطَرَبَ في فَنائِها وقِيامِ الساعةِ، فَشَكَّ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ ما دامَتْ نفسُهُ، أو كأنهُ لم يُشاهِدِ الهَلاكَ، ولم يَنْظُرْ إليهِ، فقالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي لو رُدِدْتُ إلى ربّي على ما تَزْعُمُ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ إنْ كُنْتَ صادقاً.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: والرغبة. (٣) في الأصل وم: والرغبة. (٤) في الأصل وم: خرج. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٦٣. (٦) في الأصل وم: فهو. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج بعدها في م: به. (١١) في الأصل وم: أوفق.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي صَحَّحَكَ وقَوَّمَكَ رجلاً.

جائزٌ أنْ تكونَ مُحاجَّتُهُ إيّاهُ في هذهِ لإنكارِهِ البَعْثَ؛ أي أكَفَرْتَ، وأنْكَرْتَ قدرةَ اللهِ على البَعْثِ والإعادةِ، وهو خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ تُرابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ؟ فأنتَ إذا مِتَّ، وهَلَكْتَ، تَصيرُ تراباً أو ماءً. فإذا قَدَرَ على خَلْقِ أصْلِكَ مِنْ تُرابٍ وخَلْقِ نَفْسِكَ مِنْ ماءٍ [فهو قادِرٌ][1] على إعادَتِكَ وبَعْثِكَ بَعْدَ ما صِرْتَ تراباً أو ماءً.

أو تكونَ مُحاجَّتُهُ في إنكارِ حِكْمَةِ اللهِ، فيقولُ: خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ تُرابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم سَوّاكَ، وصَحَّحَكَ. فإذا لم يَبْعَثْكَ، ويُعِدْكَ[2]، كانَ [خَلْقُ أصْلِكَ وخَلْقُكَ][3] بما ذَكَرَ عَبَثاً غَيرَ حِكْمَةٍ؛ إذْ مَنْ بَنَى بناءً ثم نَقَضَهُ على غَيرِ الاِنْتِفاعِ بهِ كانَ في بِنائِهِ في الاِبْتِداءِ عابِثاً تائِهاً سَفيهاً غَيرَ حَكيمٍ. فَعَلى ذلكَ خَلْقُكَ وخَلْقُ أصْلِكَ مِنْ غَيرِ إعادَةٍ مِنْ بَعْدِ [موتِكَ يكونُ سَفَهاً][4] على غَيرِ حِكْمَةٍ. وهو ما قالَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الآية [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ على غَيرِ رجوعٍ إليهِ عَبَثاً.

أو تكونَ مُحاجَّتُهُ في تَسْفيهِهِ إيّاهُ في عبادَتِهِ غَيرَ اللهِ؛ يقولُ: أكَفَرْتَ نِعَمَ[5] الذي خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ تُرابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ مِنْ نُطْفَةٍ، ثم سَوّاكَ صحيحاً، فَصَرَفْتَ نِعَمَهُ إلى غَيرِهِ، وعَبَدْتَ غَيرَهُ.

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ تَحْتَمِلُ[6] مُحاجَّتُهُ إيّاهُ؛ إمّا في إنكارِ قُدْرَتِهِ على[7] بَعْثِهِ وإعادَتِهِ [وإمّا في إنكارِهِ الحِكْمَةَ في البَعْثِ وإمّا في][8] إنكارِهِ نِعَمَهُ و صَرْفِهِ الشكرَ إلى غَيرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ كأنهُ قالَ: لكنَّ الذي خَلَقَ أصْلَكَ مِنْ ترابٍ، وخَلَقَ نَفْسَكَ[9] مِنْ نُطْفَةٍ هو ربّي ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾. وقالَ الخليلُ: لكنّا: إنما هو على تأويلِ لكني أنا أقولُ: هو اللهُ ربي كقولِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [يوسف: ٦٩] إنهمْ حينَ ألقَوُا الألِفَ مِنْ أنا أثْبَتُوها بَعْدَ النونِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [أي هلاّ إذا دَخَلْتَ جَنَّتَكَ][10] نَظَرْتَ إلى ما أنْعَمَ اللهُ عليكَ، وقُمْتَ بِشُكْرِهِ دونَ أنِ اشْتَغَلْتَ [بما زِدْتَهُ، ونَظَرْتَ إلى قِلَّةِ ذاتِ حالي ويدي، واشْتَغَلْتَ][11] بالاِفْتِخارِ عليَّ؟

وكذلكَ قالَ [في قولِهِ:][12] ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾

الآية ٤٠ ثم ذَكَرَ طَمَعَهُ ورجاءَهُ على ربِّهِ وخوفَهُ حينَ[13] قالَ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي[14] يُرْسِلَ على جَنَّتِكَ حُسْباناً مِنَ السماءِ.

قالَ أهلُ التأويلِ: الحُسْبانُ العذابُ. إلّا أنَّ أبا بَكْرٍ الأصَمَّ قالَ: عذاباً على حسابِ ما عَمِلوا؛ وذلكَ جَزاؤُهُ في الكَفَرَةِ، وهو ما ذَكَرَ في الجَنَّتَينِ اللَّتَينِ أهْلَكَهُما حينَ[15] قالَ: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ الآية [سبأ: ١٦و١٧]

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عذاباً، والحُسْبانُ الصِّغارُ مِنَ النَّبْلِ، والحُسْبانَةُ واحِدُها[16]، والحُسْبانُ جَمْعٌ، والأوَّلُ العذابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ الذي ليسَ عليهِ نَبْتٌ، و ﴿زَلَقًا﴾ أي مُسْتَوِياً[17].

وقالَ القُتَبِيُّ: الصعيدُ الأمْلَسُ المُسْتَوي، والزَّلِقُ الذي تَزِلُّ عنهُ الأقدامُ.

---

(١) في الأصل وم: لقادر. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: و. (٣) في م: خلقك وخلق أصلك. (٤) في الأصل وم: يكون سفيهاً. (٥) في الأصل وم: نعمه. (٦) في الأصل وم: وتحتمل. (٧) في الأصل وم: في. (٨) من م، في الأصل: أو. (٩) في الأصل وم: أصلك. (١٠) ساقطة من م. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: واحدة. (١٧) في الأصل وم: تسوية.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحَدُهما: يقولُ: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً، فَتصيرَ صعيداً زَلِقاً أملَسَ.

والثاني[1]: يَذهَبُ بمائها، فتَهلَكُ بذهابِ الماءِ؛ إذْ هَلاكُ البساتينِ يكونُ بذهابِ الماءِ مَرَّةً وبالعذابِ النازِلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي تصيرَ بحالٍ لا تَسْتَطيعُ لهُ طَلَباً.

والثاني[2]: لن تَسْتَطيعَ لهُ وجوداً.

وقالَ في قولِهِ: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ بالنصبِ[3]، لأنَّ الكلامَ مَبْنِيٌّ على قولِهِ: ﴿إِن تَرَنِ﴾ وجَعَلَ ﴿أَنَا۠﴾ صِلَةً. وأمّا قولُهُ ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ﴾ [الكهف: ٣٤] فَوَصْفُ ﴿أَنَا۠﴾ أكثَرُ، فارْتَفَعَ.

الآية ٤٢ وقولُه تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أُهلِكَ بِثَمَرِهِ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ هكذا كانَتْ عادةُ الناسِ أنهمْ إذا أصابَهُمْ خُسْرانٌ أو مصيبةٌ يُقَلِّبونَ أكُفَّهُمْ بَعْضَها[4] على بَعْضٍ على الندمِ والحَسْرَةِ على ما فاتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قيلَ: ساقِطَةٌ على عُروشِها. و يَحْتَمِلُ خاويةٌ: ذاهبةٌ بَرَكَتُها[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ إنْ كانَ هذا القَولُ في الدنيا فذلكَ منهُ تَوبَةٌ، لأنَّ التوبَةَ، هي النَّدامَةُ على ما كانَ منهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هذا القولُ منهُ في الآخِرَةِ، فإنْ كانَ في الآخِرَةِ فإنهُ لا يَنْفَعُهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ. وهكذا كلُّ كافرٍ يُؤْمِنُ في الآخِرَةِ [لا يَنْفَعُهُ ذلكَ][6].

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، مُقابِلُ ما قالَ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] أي لم يُغْنِهِ عنْ عذابِ اللهِ ما ذَكَرَ مِنَ النَّصْرِ، ولا قَدَرَ أنْ يَقومَ بنفسِهِ مُنْتَصِراً بالمالِ الذي ذَكَرَ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عندَ ذلكَ، و قالَ بعضُهُمْ: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي هكذا وَلايةُ اللهِ. ثم اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ وتأويلِهِ.

قَرَأَ بعضُهُمْ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ بالفَتْحِ. كذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: هنالكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الغَفورِ وهو الحَقُّ بالرَّفْعِ، وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وهنالكَ المُلْكُ والوَلايَةُ لِلَّهِ الغَفورِ ذي الرَّحْمَةِ.

وقَرَأَ بعضُهُمْ: الوِلايةُ ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [بالكَسْرِ، أيِ المُلْكُ لِلَّهِ الحَقِّ][7]. والوَلايَةُ بالنَّصْبِ مِنَ المُوالاةِ.

قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: لا يَبْقَى أحدٌ إلّا تَوَلّى اللهَ، وآمَنَ به، وعَلِمَ أنهُ حَقٌّ، والوِلايَةُ بالكسرِ مِنَ الإمارةِ والمُلْكِ على ما ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ.

وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ الحَقُّ [أيِ الوَلايَةُ للهِ][8]/ ٣١٧ ـ ب/ وهو الحقُّ. ويُقرأُ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ بالخَفْضِ. ويُقْرَأُ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ الحَقُّ[9] للهِ.

وذَكَرَ هذا المَثَلَ لرسولِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ فيهِ دلالةَ رسالتِهِ وحُجَّةَ توحيدِ اللهِ وقُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي ثَوابُ هذا المؤمِنِ منها أفْضَلُ ثواباً في الآخِرَةِ وأفْضَلُ عاقِبَةً من عُقْبَى ذلكَ الكافِرِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) وقرأها عيسى بن عمر بالضم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣١٧. (٤) في الأصل وم: بعضهم. (٥) في الأصل وم: البركة. (٦) في الأصل وم: لكن لا ينفع. (٧) في الأصل وم: أي الولاية الحق لله. انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٦٩. ثم انظر الحاشية (٧) المتعلقة بالآية ٧٢ من سورة الأنفال ج٤/ ١٠٢. (٨) في الأصل وم: يقرأ الولاية لله. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٧٠.

قالَ ابْنُ عباسٍ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] يعني لأهلِ مكةَ ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ آخوينِ[1] مِنْ بَني مَخزومٍ: أحدُهُما مُسلِمٌ، والآخَرُ كافرٌ، وهما الرجلانِ اللذانِ ذَكَرَهُما اللهُ في سورةِ الصافاتِ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الآيات: ٥١ ـ ٥٥] تَصدَّقَ المُسْلِمُ منهُما بمالِهِ [وطَلَبَ الآخِرَةَ][2] وطَلَبَ الآخَرُ بِهِ الدنيا.

وعَنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: كانا[4] أخوينِ، وَرِثا عنْ أبيهِما مالاً، فاقْتَسَماهُ. فأمّا أحدُهُما فالْتَمَسَ[5] بمالِهِ الدنيا وزينَتَها، وأمّا الآخَرُ فَتَصَدَّقَ[6] بِهِ، وطَلَبَ الآخِرَةَ حتى لم يَبْقَ لهُ شيءٌ. إلى هذا يذهَبُ هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ اختلَفَ أهلُ التأويلِ في ضَرْبِ هذا المَثَلِ.

قالَ بعضُهُمْ: ضَرَبَ هذا لِمُشرِكي العَرَبِ لأنهمْ يُنكِرونَ فَناءَ الدنيا وهَلاكَها لأنها لا تَبيدُ أبداً، فيقولُ: إنَّ الذي يُعاينونَ مِنْ [فنائِها ما][7] ذَكَرَ مِنَ النباتِ وغَيرِهِ، وهلاكُهُ هو جُزءٌ منها. فإذا احْتَمَلَ جُزءٌ منها الفَناءَ والهَلاكَ فَعَلى ذلكَ الكُلُّ.

وقالَ بعضُهُمْ: وَجهُ ضَرْبِ هذا المَثَلِ هو[8] أنَّ أهلَ الدنيا وطُلّابَها إذا ظَفِروا بالدنيا وطَمِعوا بالإنْتِفاعِ بها والاِسْتِمْتاعِ بها كما طَمِعَ الزُّرّاعُ بالظَّفَرِ بذلكَ الزَّرْعِ والوُصولِ إلى الاِنْتِفاعِ بالزَّرْعِ والوُصولِ إلى مَقصودِهِمْ. فَعَلى ذلكَ الدنيا يُحالُ بَينَ أهلِها وطالِبيها وبَينَها.

وقالَ بعضُهُمْ: وَجهُ ضَرْبِ مَثَلِ الدنيا بما ذَكَرَ مِنَ النباتِ لِلتَّزيينِ والتَّحسينِ لأهْلِها كالنباتِ الذي ذَكَرَ أنهُ يُعجِبُ[9] أهلَها، ويَتَزَيَّنُ لهمْ، ثم يَفسُدُ، ويَصيرُ مَؤُوفاً. فَعَلى ذلكَ الدنيا، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآية [الحديد: ٢٠] هكذا، وما فيها، كلُّهُ مَشوبٌ بالآفاتِ والفَسادِ.

وفي هذا المَثَلِ وجوهٌ مِنَ الحِكمَةِ والدَّلالَةِ:

أحدُها: العَظَمَةُ والاِعْتِبارُ لِلْمُتفكِّرينَ والمُعْتَبِرينَ، والحُجَّةُ على المعانِدينَ والمُكابِرينَ في إنكارِهِمْ إحداثَ العالَمِ ومُحْدِثَها وإنكارِهِمْ فَناءَ العالَمِ وإنكارِهِمُ البَعْثَ. أمّا إحداثُ العالَمِ لَمّا عايَنوا حُدوثَ أشياءَ منهُ واحداً بَعْدَ واحد. فَعَلى ذلكَ الكُلُّ. وأراهُمْ أيضاً فَناءَ أشياءَ منها حتى لم يَبْقَ لَها أثَرٌ. ثم حَدَثَ مِثْلُها. فإذا ظَهَرَ هذا في بَعْضٍ منها فكذلكَ الكُلُّ. فإذا ظَهَرَ حُدوثُهُ وفَناؤُهُ لا بُدَّ مِنْ قاصِدٍ يُحْدِثُها.

والثاني[10]: دَلالَةُ البَعْثِ بما أراهُمْ تَجَدُّدَ وإحداثَ[11] هذهِ الأنزالِ والأشجارِ والنباتِ وغَيرِها والعَودَ على ما كانَ بَعْدَ فَنائِها. فَعَلى ذلكَ إعادَةُ العالَمِ الذي هو المَقصودُ في إنشاءِ تلكَ الأشياءِ. وذلكَ أولَى بالإعادةِ مِنْ غَيرِهِمْ مِنَ الأشياءِ؛ إذْ هُمُ المَقصودونَ في خَلْقِ غَيرِهِمْ مِنَ الأشياءِ.

وبَعْدُ فإنهمْ قَدِ اتَّفَقوا على أنَّ خَلْقَ الشيءِ وفَناءَهُ لِلْهَلاكِ خاصَّةً مِنْ غَيرِ مَقصودٍ وعاقِبَةٍ عَبَثٌ، ليسَ بِحِكْمَةٍ. فلو لم يكُنْ بَعْثٌ و لا إعادَةٌ لم يكُنْ في خَلْقِهِ إيّاهُمْ حِكْمَةٌ لأنهُ يَحْصُلُ خَلْقُهُ لِلْفَناءِ والهلاكِ خاصَّةً.

والثالث[12]: في قولِهِ ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ دَلالَةُ عِلْمِهِ وتدبيرِهِ وقُدْرَتِهِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ يُنزِلُ مِنَ السماءِ ما يَختَلِطُ بِهِ نباتُ الأرضِ. والماءُ مِنْ طَبْعِهِ إفسادُ النباتِ إذا اختَلَطَ بِهِ. فإذا لم يُفسِدْهُ[13] أحياهُ الاِخْتِلاطُ. دلَّ أنَّ في الماءِ مَعْنىً، بِهِ يَحيا النباتُ، لا يَعْلَمُ ذلكَ غَيرُهُ. دلَّ أنهُ عالِمٌ بذاتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: آخرين. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كان. (٥) و(٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فنائها، في م: فناء ما. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) من م، في الأصل: يحبب. (١٠) في الأصل وم: وفيه. (١١) في الأصل وم: وتحدث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: يفسد ولكن.

والتدبيرُ هو ما جَعَلَ مَنافِعَ السماءِ مُتَّصِلَةً بِمنافِعِ الأرضِ معَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما. دلَّ أنَّ ذلكَ كانَ بواحِدٍ عليمٍ مُدَبِّرٍ قادرٍ بِذاتِهِ، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ مِنَ الإحداثِ والإفناءِ قادرٌ على الإعادةِ والبَعْثِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ قيلَ: كَسيرا مَكْسوراً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ هو مُفْتَعِلٌ مِنِ اقْتَدَرَ[1].

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ كانَ هذا ذُكِرَ على مَقصودِ الناسِ أنَّ مَنْ كانَ قَصْدُهُ في الدنيا كَثْرَةَ المالِ والبَنينَ فهو زينةُ الحياةِ الدنيا، وهو الفاني والذاهبُ على ما ذَكَرَ. ومَنْ كانَ مَقصودُهُ في هذهِ الدنيا الخَيراتِ والآخِرَةَ فهو ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أبداً.

ثم اخْتُلِفَ في ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو قولُهُ [ﷺ][2]: «سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ» وعلى ذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: «ألا وإنَّ سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ» [أحمد٣/ ٧٥] وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ قالَ لأصحابِهِ: «خُذوا جُنَّتَكُمْ، قالوا: مِنْ عَدُوٍّ حَضَرَنا؟ قالَ: خُذوا جُنَّتَكُمْ مِنَ النارِ، فقولوا: سبحانَ اللهَ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ، فإنهنَّ المُقَدِّماتُ والمُؤَخِّراتُ الباقياتُ الصالحاتُ» [النسائي في الكبرى ١٠٦٨٤].

وفي بعضِ الأخبارِ لأبي الدَّرْداءِ: «خُذْهُنَّ قَبْلَ أنْ يُحالَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُنَّ فإنهنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، وهنَّ كَنْزٌ مِنْ كُنوزِ الجنةِ، قالَ: وما هي يا رسولَ اللهِ؟ فَذَكَرَ: سُبْحانَ اللهِ إلى آخِرِهِ» [بنحوه ابن ماجه ٣٨١٣] فإنْ ثَبَتَتْ هذهِ الأخبارُ فهي الأصلُ، لا يَجوزُ غَيرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الصَّلَواتُ الخَمْسُ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ. فأيُّهُما كانَ ففيهِ مَعْنَى الآخَرِ. وإنَّ كلَّ واحِدٍ منهما يَجْمَعُ أنواعَ الخيراتِ والعِباداتِ في الحقيقةِ؛ لأنَّ «سُبْحانَ اللهِ» هو تَنْزيهُ الرَّبِّ عَنْ كُلِّ آفَةٍ وعَيبٍ. و«الحمدُ للهِ» هو الثَّناءُ لهُ بكلِّ نِعْمَةٍ، وَصَلَتْ منهُ إلى الخَلْقِ، وجَعَلَتْهُ[4] مُسْتَحِقّاً لِلْحَمْدِ والثَّناءِ لهُ دونَ مَنْ سِواهُ.

وأنَّ «ولا إلهَ إلّا اللهُ» هو لا مَعْبودَ سِواهُ، ولا[5] يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ غَيرُهُ، وأنَّ[6] «واللهُ أكْبَرُ» هو الإجلالُ لهُ عَنْ كُلِّ ما قيلَ فيهِ، ونَفْيُ كُلِّ مَعاني الخَلْقِ عنهُ، [وأنَّ][7] «ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ» هو التَّبَرّي وقَطْعُ الطَّمَعِ عَمَّنْ دونَهُ، وتَفْويضُ الأمورِ بِكُلِّيَّتِها إليهِ، والتَّسْليمُ لهُ.

فَكُلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحُروفِ يَجْمَعُ في الحقيقةِ كُلَّ أنواعِ العِباداتِ والخَيراتِ لِما ذَكَرْنا. وكذلكَ الصَّلَواتُ أيضاً تَجْمَعُ كُلَّ أنواعِ العباداتِ [لأنَّ المُصَلِّيَ][8] يَسْتَعْمِلُ كُلَّ جارحَةٍ فيها في كُلِّ حالٍ منها. فهي تَجْمَعُ جَميعَ العِباداتِ.

والأصْلُ في قولِهِ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أنها كُلُّ الخيراتِ والطاعاتِ، لأنَّ اللهَ تباركَ وتَعالى ذَكَرَ، وَ وَصَفَ الحَقَّ بالبَقاءِ والثَّباتِ في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ، وَوَصَفَ الباطلَ بالبُطْلانِ والتَّلاشي والذهابِ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآيةُ [الرعد: ١٧]. وقولُهُ[9]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] وأمثالُهُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ هي باقيةٌ ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي خيرٌ ما يَأْمُلونَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي يابِساً بالياً. وقالَ القُتَبِيُّ: ومنهُ سُمِّيَ الرجلُ هاشِماً.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تطيرُ بهِ. وقالَ القُتَبِيُّ: أي تَنْسِفُهُ كقولِهِ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

وعَنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][10] قالَ: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي خَيرٌ: ما يُثابُ الناسُ عليهِ ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾/ ٣١٨ ـ أ/ أي خَيرٌ: ما يَأْمَلُ الناسُ عَنْ أعمالِهِمْ يَومَ القيامَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قدرت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجعله. (٥) في الأصل وم: وإن لا. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لأنه. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ يُذَكِّرُهُمْ، جَلَّ، وعَلا، بِشِدَّةِ[1] أهوالِ ذلكَ اليومَ وأفزاعِهِ حينَ[2] سارَ أثْبَتُ شيءٍ رَأَوا في الدنيا، وتكَسَّرَ أصْلَبُ شيءٍ رَأَوا في الدنيا، وهو الجبالُ لِشِدَّةِ أهوالِ ذلكَ اليومَ وأفزاعِهِ.

وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤و٥]. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وقالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ [الفرقان: ٢٣] وأمثالَهُ.

يُذَكِّرُهُمْ بِشِدَّةِ[3] أهوالِ ذلكَ اليومِ وأفزاعِهِ حينَ[4] صارَ أثْبَتُ شيءٍ في الدنيا وأشَدُّ على الوَصْفِ الذي ذَكَرَهُ [ومِنْ دونِ][5] هذهِ الأهوالِ والأفزاعِ التي ذَكَرَ لا تُقومُ أنفسِ البَشَرِ في الدنيا. فَقيامُها بِمِثْلِ هذهِ الأهوالِ التي ذَكَرَ أحْرَى ألّا تَقومَ.

ألَا تَرَى أنَّ موسى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، كانَ أشَدَّ الناسِ وأقْوَى البَشَرِ، ثم لم تَقُمْ نفسُهُ لِانْدِكاكِ الجَبَلِ حتى صَعِقَ[6]؟ إلّا أنَّ اللهَ حَكَمَ أنَّ الإهلاكَ يومئذٍ بَعْدَ ما أحياهُمْ، وإلّا كانَتْ أنفسُهُمْ لا تَقومُ بدونِ ما ذُكِرَ مِنَ الأهوالِ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ أحوالِ الجبالِ يكونُ ذلكَ في اخْتِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ، يكونُ في ابْتِداءِ ذلكَ اليومِ ما ذَكَرَ أنها تَسيرُ وأنهمْ يَرَونَها جامِدَةً، وهي ليسَتْ بِجامِدَةٍ، ثم تَصيرُ كثيباً مَهيلاً، ثم تَصيرُ كالعِهْنِ المنفوشِ في وقْتٍ، ثم تَصيرُ هَباءً مَنْثوراً، يكونُ على الأحوالِ التي ذَكَرَ على اخْتِلافِ الأحوالِ والأوقاتِ على قَدْرِ الشِّدَّةِ والهَوْلِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] بِشِدَّةِ ذلكَ اليومِ [وجهَيْنِ:

أحَدُهما:][7] تَتَراءَى كأنها جامِدَةٌ، وهي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، وقد يَتَراءَى في الشاهِدِ مِثْلُهُ لِلْهَوْلِ والفَزَعِ.

والثاني: تَتَراءَى لِازْدِحامِ الجبالِ واجْتِماعِها، وقد يَتَراءَى في الشاهِدِ السائرُ كالجامِدِ والساكِنِ لِلْكَثْرَةِ والازْدِحامِ مِثْلُ عَسْكَرٍ عظيمٍ يَسيرُ، يَراهُ الناظِرُ إليهِ كأنهُ ساكِنٌ لا يَسيرُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الأهوالُ التي ذَكَرَ لأهلِ الكُفْرِ والعُصاةِ منهمْ. فأمّا أهلُ الإيمانِ والإحسانِ يكونونَ في أمْنٍ وعافِيَةٍ مِنْ تلكَ الأهوالِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ الآية [فصلت: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي ظاهِرَةً، ليسَ عليها بناءٌ ولا شَجَرٌ ولا جِبالٌ ولا حَجَرٌ ولا شيءٌ؛ تَصيرُ مُسْتَوِيَةً على ما ذَكَرْنا ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٦و١٧] و يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي يكونُ أهلُها بارزينَ لهُ كقولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي يَجْمَعُهُمْ جميعاً كقولِهِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩و٥٠].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ جميعاً، ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ لِلْحِسابِ. و قالَ بعضُهُمْ: يُعْرَضونَ على مَقامِهِمْ، أي يُعْرَضُ كُلُّ فريقٍ على مَقامِهِ، أي يُبْعَثُ كقولِهِ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠و٩١].

ويَحْتَمِلُ مَعْنَى العَرْضِ في ذلكَ اليومِ[8]، وإنْ كانوا في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ في الدنيا والآخِرَةِ مَعْروضينَ عليهِ [أنهُ][9] عالِمٌ بأحوالِهِمْ لِما يُقِرّونَ لهُ جميعاً يومئذٍ مُنْكِرُهُمْ ومُقِرُّهُمْ بالعَرْضِ والقيامةِ كقولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

---

(١) في الأصل وم: عن شدة. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عن شدة. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وبدون. (٦) إشارة إلى قولِهِ تعالى ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: القوم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

[إبراهيم: ٢١] [وقوله:][1] ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] أي[2] الأمرُ في جميعِ الأوقاتِ للهِ. وكذلكَ همْ بارزونَ لهُ في جميعِ الأوقاتِ. لكنهُ خصَّ ذلكَ اليومَ بالإضافةِ إليهِ بما يُقِرُّونَ لهُ جميعاً في ذلكَ اليومِ بالألوهيَّةِ لهُ والمُلْكِ، ويَعْرِفونَ حقيقَتَهُ. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

[أحدُها:][3] يَحْتَمِلُ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا﴾ بالإجابةِ والإقرارِ لنا كما أجابَتْ[4] خِلْقَتُكُمْ في أوّلِ خَلْقِنا إيّاها في الدنيا.

والثاني: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ كما قُلْنا في الدنيا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦] [وقُلْنا:][5] ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣و..] [وقُلْنا:][6] ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٢٧].

والثالثُ: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤] بلا أنصارٍ يَنْصُرونَكُمْ ولا أعوانٍ يُعينونَكُمْ على ما كُنْتُمْ في الابتِداءِ، و قالَ بعضُهُمْ: كما خَرَجْتُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهاتِكُمْ عُراةً وحُفاةً، ليسَ مَعَكُمْ مالٌ يُمانِعُكُمْ و لا أنصارٌ يُناصِرونَكُمْ[7]. وهو ما قالَ: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ هذا يدلُّ أنَّ تلكَ الأهوالَ التي ذَكَرَ إنما تكونُ لِلْعُصاةِ ومَنْ أنْكَرَ البَعْثَ حينَ[8] قالَ: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ يعني القيامَةَ. وهذا يَدُلُّ أنَّ الأهوالَ والأفزاعَ التي ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى تكونُ لِلْعُصاةِ والفَسَقَةِ مِنْ خَلْقِهِ دونَ المؤمنينَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ قيلَ: الحسابُ. ويَحْتَمِلُ الكتابَ الذي كَتَبَتْهُ الملائكةُ؛ وُضِعَ ذلكَ الكتابُ في أيديهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ أي خائفينَ وَجِلينَ. و قالَ بعضُهُمْ: لمّا نَظَروا في الكتابِ، فَرَأَوا مِنْ أعمالِهِمُ الخبيثةِ فيهِ، عندَ ذلكَ خافوا ممّا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنَ الأعمالِ[9] السَّيِّئَةِ ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ أي حَفِظَها، و﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي لا يَتْرُكُ شيئاً مِمّا يُجزى [بها الإنسانُ وما لا يُجْزَى بها][10] ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ أي حَفِظَها.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا ﴿حَاضِرٗاۗ﴾ في الآخِرَةِ مَحفوظاً غيرَ فائِتٍ[12] عنهُ شيءٌ ولا غائبٍ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما هو قولُ المَلَكِ، يقولُ لهمْ ذلكَ كقولِهِ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨] أي حَفيظٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ أي يَجزي كُلّاً على قَدْرِ عَمَلِهِ، لا يَزيدُ على قَدْرِ عَمَلِهِ، ولا يُنْقِصُ منهُ، أي لا يُنْقِصُ المؤمنَ مِنْ حَسَناتِهِ، والكافرُ لا يَتْرُكُ لهُ سَيِّئَةً.

الظُّلْمُ هو في الشاهِدِ وَضْعُ الشيءِ [في][13] غيرِ موضِعِهِ؛ يقولُ: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ أي لا يكونُ بما يَجْزي كُلّاً على عَمَلِهِ ظالماً واضعاً شيئاً [في][14] غيرِ مَوضِعِهِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ ذَكَرَ اللهُ، ﷻ قصةَ آدمَ وإبليسَ في غيرِ مَوضِعٍ مِنَ القرآنِ على

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أجاب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يناصركم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: أعمال. (١٠) من م، في الأصل وم: به. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ثابت. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الزِّيادةِ والنُّقصانِ. وإنما ذَكَرَ [ذلكَ، وكَرَّرَ لما][1] كذلكَ كانَ في الكُتُبِ المُتَقدِّمَةِ مُكَرَّراً مُعاداً، فَذَكَرَ في القرآنِ على ما كانَ في تلكَ الكُتُبِ لِيكونَ ذلكَ آيةً لِرسالةِ مُحَمَّدٍ حينَ[2] عَلِموا أنهُ كانَ لا يَعرِفُ الكُتُبَ المُتَقَدِّمَةَ. أو أنَّ ما كَرَّرَهُ لِحاجاتٍ كانَتْ لهمْ ولِفَوائِدَ تكونُ لهمْ في التَّكْرارِ لهمْ لِيكونَ لهمْ عِظَةً وتَنْبيهاً في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ. وقد يُكَرَّرُ الشيءُ، ويُعادُ على التَّذكيرِ والتَّنْبيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ مِنَ الجِنِّ لأنَّهُ كانَ مِنَ الجانِّ الذينَ[3] يَعْمَلونَ في الجِنانِ، فَنُسِبَ إليهِمْ[4].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ مِنَ الملائكةِ قبيلَةً، يُقالُ لها: الجِنُّ، فكانَ إبليسُ منها، فَنُسِبَ إليها.

وقالَ الحَسَنُ: ما كانَ إبليسُ مِنَ الملائكةِ قَطُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولكنهُ مِنَ الجِنِّ كما قالَ اللهُ، فهو أصْلُ[5] الجِنِّ، وهو أوَّلُ مَنْ عَصى رَبَّهُ مِنَ الجِنِّ [كما][6] أنَّ آدمَ هو أصْلُ الإنْسِ، وهو أبوهُمْ. فَعَلى ذلكَ إبليسُ، هو أبو الجِنِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي صارَ مِنَ الجِنِّ، وكذلكَ [قالَ تعالى][7] ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤ وص: ٧٤] وقتَ عِصْيانِهِ ربَّهُ وإبائِهِ السجودَ لآدمَ. وقد ذَكَرْنا هذهِ المَسألةَ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ قيلَ: عَتا، وعَصى. وأصْلُ الفِسْقِ الخروجُ، أي خَرَجَ عنْ أمْرِ ربِّهِ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَفَسَقَ﴾ أي خَرَجَ عنْ طاعتِهِ. يُقالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إذا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِها.

وقولُهُ تعالى:/ ٣١٨ ـ ب/ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ أرادَ بقولِهِ: ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ مِنْ دونِ نَفْسِهِ. فكأنهُ قالَ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أرباباً وآلهةً مِنْ دوني ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ ولَيسوا بآلهةٍ ولا أربابٍ. فكيفَ يجوزُ أنْ يُتَّخَذَ العَدُوُّ ربّاً، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ أرادَ بقولِهِ ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ أي مِنْ دونِ أوليائي. فكأنهُ قالَ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن﴾ دونِ أوليائي ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ أي كيفَ تَتَّخِذونَ الأعداءَ أولياءَ، وتَتْرُكونَ مَنْ هُمْ لكمْ أولياءُ، ولا تَتَّخِذونَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ أي بِئْسَ ما اسْتَبْدَلوا بِعبادَةِ ربِّهِمْ أنْ عَبَدوا إبليسَ، وأطاعوهُ، فَبِئْسَ ذلكَ لهمْ بَدَلاً؛ أي ما اتَّخَذوا أعداءَهُمْ أولياءَ بَدَلاً عنْ ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ هذا لِمُشْرِكي العَرَبِ حينَ[8] قالوا [إنَّ][9] الملائكةَ بناتُ اللهِ، والأصنامَ التي عَبَدوها [هي آلهةٌ، وهي][10] شُرَكاؤُهُ. فيقولُ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولا كانَ لهمْ كتابٌ، ولا آمَنوا برسولٍ. فكيفَ عَرَفوا ما قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، والأصنامُ آلهةٌ وشُرَكاؤُهُ؟!.

وأسبابُ العِلْمِ والمَعارِفِ هذا: إمّا المُشاهَدَةُ، وإمّا الرُّسُلُ. فإذا لم يكُنْ لهمْ واحدٌ ممّا ذَكَرْنا فكيفَ عَرَفوا ربَّهُمْ؟

وبِمَ عَلِموا قالوا في اللهِ مِنَ الوَلَدِ والشُّرَكاءِ؟ وإلى هذا يَذْهَبُ الحَسَنُ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: لا تُخاذِهِمْ إبليسَ وذُرِّيَّتَهُ أولياءَ وأرباباً، وهو صلةُ ما قالَ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ الآيةَ. وفيهِ وجوهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها[11]: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي ما اسْتَحْضَرْتُهُمْ خَلْقَ أنفسِهِمْ لأنهمْ لم يكونوا في ذلكَ الوَقْتِ، ولا خَلْقَ السمواتِ والأرضِ؛ لأنهُ خَلَقَهُما، وهُمْ لم يكونوا أيضاً أشياءَ.

---

(١) في الأصل: كذلك وكرر، في م: كذلك وكرر لما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) في الأصل وم: إليه. (٥) من م، في الأصل: أهل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قالوا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أنها آلهة و أنها. (١١) في الأصل وم: يقول.

والثاني[1]: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ ما أعْلَمْتُهُمْ تَدبيرَ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، ولا تدبيرَ خَلْقِ أنفُسِهِمْ. فكيفَ قالوا ما قالوا في اللهِ مِنَ الدَّعاوَى؟

والثالثُ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ أي ما اسْتَعَنْتُ بهمْ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ولا في خَلْقِ أنفُسِهِمْ. فكيفَ أشْرَكوا في ألوهيَّتي و رُبوبيَّتي؟ وما اسْتَعَنْتُ بهمْ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقدِ اسْتَدَلَّ كثيرٌ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ بهذهِ الآيةِ على أنَّ خَلْقَ الشيءِ، هو غَيرُ ذلكَ الشيءِ، لأنهُ قالَ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ وقد شَهِدوا السمواتِ والأرضِ، وشَهِدوا أنفسُهُمْ، حتى قالَ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] ثم أخبَرَ أنهُ لم يُشْهِدهُمْ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ[ولا][2] خَلْقَ أنفسِهِمْ [وأنَّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ غَيرُ خَلْقِ أنفُسِهِمْ وخَلْقَ أنفسِهِمْ غَيرُ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها][4]: قال بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ عنِ الإيمانِ والهُدَى ﴿عَضُدٗا﴾ أعواناً لِديني.

والثاني: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ عبادي ﴿عَضُدٗا﴾ يَنْصُرِ ديني، أو يَعونُ أو ليائي.

[والثالثُ: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ الذينَ أضَلُّوا بَني آدمَ ﴿عَضُدٗا﴾ عَوناً في ما خَلَقتُ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وخَلْقِ أنْفُسِهِمْ، وهو إبليسُ وذُرِّيَّتُهُ.

[والرابعُ:][6] ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ أولياءَ، إنما أتَّخِذُهُمْ أعداءً، وما كُنْتُ لأولِيَ المُضِلِّينَ عَضُداً على أوليائي كقولِهِ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ونَحْوُهُ. وكلُّهُ قريبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ[7] نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ قالَ: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ على زَعْمِهِمْ، وإلا لم يَكُنْ للهِ شُركاءُ. ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ يعني دَعَوُا الأصنامَ التي عَبَدوها ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: لم يُجيبوهُمْ في وقْتٍ، وقد أجابوهُمْ في وقْتٍ آخَرَ، وهو ما قالوا: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]. ولكنَّ قولَهُ: ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ لِما كانوا يَعْبُدونَها في الدنيا، وإنما كانوا يَعْبُدونها طَمَعاً أنْ يكونوا شُفَعاءَ وأنصاراً كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] وكقولِهِمْ[8]: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وكقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ ﴿كَلَّاۚ﴾ [مريم: ٨١و٨٢] فيكونُ قولُهُ ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ ما طَمِعوا بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ مِنَ الشَّفاعةِ والنُّصْرَةِ ودَفْعِ ما حَلَّ بهمْ عنهمْ والمَنْعِ عنْ عذابِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ أي بَينَ أولئكَ وبَينَ الأصنامِ مَوْبِقاً. قالَ بعضُهُمْ: مَهْلَكاً. وقالَ بعضُهُمْ: المَوبِقُ الذي يُفَرِّقُ بَينَهُمْ وبَينَ آلهتِهِمْ في جهنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: نَهرٌ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: جَعَلْنا وَصْلَهُمْ في الدنيا الذي كانَ بَينَ المُشركينَ وبَينَ الأصنامِ مَوْبِقاً أي مَهْلَكاً.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي عَلِموا، وأيْقَنوا أنهمْ داخِلوها: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ أي لم تَقْدِرِ الأصنامُ التي عَبَدوها أنْ تَصْرِفَ النارَ عنهمْ. قالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ أي مَعْدِلاً.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ قد ذَكَرْنا، وبَيَّنّا، في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) في الأصل: غير السموات والأرض وغير أنفسهم، في م: الخلق السموات والأرض وخلق أنفسهم غير السموات والأرض وغير أنفسهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: نقول وهي قراءة حمزة والأعمش وغيرهما، انظر معجم القراءات القرآنيةج٣/ ٣٧٥. (٨) في الأصل وم: و.

أحدُهما: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي مِنْ كلِّ صِفَةٍ كقولِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] أي الصفاتُ العُلْيا.

والثاني: المَثَلُ هو الشَّبيهُ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فإنْ كانَ التأويلُ الشَّبيهَ فكأنَهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بيَّنّا في هذا القرآنِ ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِنْ كُلِّ ما بهِمْ حاجةٌ إلى مَعْرِفَةِ ما غابَ عنهمْ؛ جَعَلَ لهمْ شَبيهاً ممّا شاهَدوا، أو عَرَفوا، لِيَعْرِفوا بهِ ما غابَ عنهمْ.

وإنْ كانَ تأويلُ المَثَلِ الصِّفَةَ فكأنَهُ يقولُ: ولَقَدْ بيَّنّا في هذا القرآنِ مِنْ كُلِّ ما يؤتَى وما يُتَّقَى صِفَةً، يَعْرِفونَ بها ما لهمْ وما عليهِمْ، وما يأتونَ، وما يَتَّقونَ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافِرَ ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي جِدالاً كقولِهِ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦].

ويشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي جَوهَرُ الإنسانِ ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ مِنْ غيرِهِ[2] مِنَ الجواهِرِ، لأنَّ الجِنَّ لمّا عُرِضَ عليهِمُ القرآنُ والآياتُ قَبِلوها على غَيرِ مُجادَلَةٍ ذُكِرَتْ حينَ[3] قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ الآيةَ[الجن: ١] وكذلكَ الملائكةُ لم يُذكَرْ منهمُ الجِدالُ ولا المُحاجَّةُ في ذلكَ.

وقد ظَهَرَ [مِنْ][4] جَوهَرِ الإنسانِ المُجادَلاتُ والمُحاجّاتُ في الآياتِ والحُجَجِ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآيةَ[آل عمران: ٦٦] وقولُهُ[5]: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]وقولُهُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]وقولُهُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦] وأمثالُ هذا. ولذلكَ احْتيجَ إلى إنزالِ كَثْرَةِ الآياتِ لِكَثْرَةِ ما ظَهَرَ منهمْ مِنَ المُجادَلَةِ. وفيهِ الإذْنُ بالمُجادَلَةِ والمُحاجَّةِ في الدِّينِ على الوَصْفِ الذي ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لم يَمْنَعِ الناسَ أنْ يُؤمِنوا إلا التَّعَنُّتُ والعِنادُ لأنهُ قد أكْثَرَ عليهِمْ مِنَ الحُجَجِ والآياتِ ما [لو][6] لم يُعانِدوا، ولا كابَروا، لالْتَزَموا[7] الإيمانَ بها والتَّصْديقَ. لكنَّ الذي مَنَعَهُمْ عنِ الإيمانِ ما ذَكَرْنا مِنْ عِنادِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الاسْتِئْصالُ والإهلاكُ. فيقولُ: لا يُؤْمِنونَ إلّا في ذلكَ [الوَقْتِ][8]. والإيمانُ لا يَنْفَعُهُمْ في ذلكَ الوَقْتِ كقولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [وقُبُلاً مُقابَلَةً. وقيلَ: قِبَلاً][9] أي عِياناً جِهاراً. قالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي [عِياناً وقَبَلاً: اسْتِئْنافاً، وقال][10] مُجاهِدٌ ﴿قُبُلًا﴾ [فُجاءَةً، وقالَ:][11] قِبَلاً. وقالَ أبو عَوسَجَةَ قُبُلاً [أي مُواجهةً وكذلكَ ﴿قُبُلًا﴾][12] وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿قُبُلًا﴾ أي مُقابَلَةً وعِياناً[13] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي لم نُرْسِلْهُمْ إلا بما[14] يوجِبُ لهمُ البِشارَةَ والنِّذارَةُ، إنما أُرسِلوا للأمرِ والنَّهيِ ليأمُروا الناسَ بالطاعةِ طاعةِ اللهِ، ويَنْهَوهُمْ عنْ معاصيهِ. لهذا، واللهُ أعلَمُ، أُرْسِلوا بالبِشارَةِ لِمَنِ اتَّبَعَ أمْرَهُمْ، وانْتَهى عمّا[15] نَهَوا عنهُ/ ٣١٩ - أ/ والنِّذارةُ لِمَنِ ارْتَكَبَ ما نَهَوا عنهُ. فتكونُ البِشارةُ لِلْمُتَّبِعينَ لهمْ في أمْرِهِمْ، والنِّذارةُ لِلْمُرْتَكِبينَ المَنْهِيَّ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ما نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ والكهانَةِ والإفْكِ وغَيرِهِ. بهِ يُجادِلونَهُ، وهو باطلٌ. أو أنْ يكونوا عَرَفوا أنَّ ما يُجادِلونَهُمْ بهِ، ويُحاجُّونَهُمْ باطلٌ وأنَّ ما

---

(١) في الأصل وم: يسبقون. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل وقولهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لا لتزمهم. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل: مقابلة استناقا قال، في م: مقابلة استناقا وقال. انظر غريب القرآن للسجستاني ص ٢٩٣ ومعجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٧٦ و٣٧٧ وانظر الحواشي المتعلقة بهذه الكلمة من الآية ١١١ من سورة الأنعام. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٧٦. (١٤) و(١٥) في الأصل وم: ما.

يَدْعوهُمُ الرسولُ إلى اللهِ حَقٌّ وصِدْقٌ ونورٌ. لكنْ يُعانِدونَهُ، ويُجادِلونَهُ، وعِنْدَهُمْ أنهمْ[1] على باطلٍ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية[التوبة: ٣٢] عَرَفوا أنهُ نورٌ لكنهمْ عانَدوهُ في المُجادَلَةِ والمُحاجَّةِ بالباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي لِيُبْطِلوا بهِ الحَقَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: آياتُهُ: الشَّمْسُ والقَمَرُ وغيرُهما[2] ﴿وَمَآ أُنذِرُوا﴾ [وما أنذرَ بهِ][3] الرسُلُ، هو القرآنُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ القرآنَ والحُجَجَ التي أقامَها، وما أُمِروا بهِ غيرَ القرآنِ، وهيَ[4] المَواعيدُ، هُزُواً. وقالَ[صاحبُ][5] هذا التأويلِ: تأويلُ الأوّلِ باطلٌ، لا يَصِحُّ لأنهُ قالَ على إثْرِهِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يقولُ: هذا يدلُّ أنهُ أرادَ بالآياتِ ما ذَكَرْنا مِنَ الحُجَجِ والبَراهينِ لا ما ذُكِرَ.

وجائزٌ أنهمْ إذا لم يَعْمَلوا بآياتِهِ، ولم يَسْتَعْمِلوها، نَسَبَهُمْ إلى الهُزْوِ بها والسُّخْرِيَةِ، وإنْ لم يَهْزَؤوا بها وهوَ كما[6] سَمّاهُمْ عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً، لِما لم يَنْتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ، ولم يَسْتَعْمِلوها في ما جُعِلَتْ لهُ، وإنْ لم يكونوا في الحقيقةِ كذلكَ. فإذا كانَ، فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم تَحْتَمِلُ مُجادَلَتُهُمْ إياهُمْ ما قالوا: هذا سِحْرٌ وكهانةٌ، وإنهُ إفْكٌ وشِعْرٌ، ونَحْوُهُ. أو أنْ تكونَ مَجادَلَتُهُمْ قولَهُم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وقولَهُمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وأشباهَ ذلكَ مِنَ المُجادِلاتِ التي كانَتْ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي وُعِظَ بالآياتِ التي نَزَلَتْ بمكةَ في الرسُلِ مِنَ الأمَمِ الماضِيَةِ، فيكونُ تأويلُهُ: أي لا أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ وُعِظَ بآياتِ ربِّهِ، فأعْرَضَ عنها، ما لَوِ اتَّعَظَ بما وُعِظَ كانَ بهِ نَجاتُهُ.

أو أنْ يكونَ تذكيرُهُ بآياتِ ربِّهِ، وهو ما أقامَ مِنْ حُجَجِهِ وبَراهينِهِ على تَوحيدِهِ ورسالةِ الرسولِ، فلم يَقْبَلْها، ولم يُصَدِّقْها: أي لا أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ لمْ يَتَّعِظْ بما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ، ولم يَقْبَلْها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يَحْتَمِلُ الإعْراضُ عنها في الِابْتِداءِ؛ أي لم يقْبَلْها، ولم يَكْتَرِثْ إليها، ولم يَنْظُر فيها. أو أعْرَضَ عنها بَعْدَ ما عَرَفَها أنها آياتٌ وأنها حُجَجٌ تَعَنُّتاً وعِناداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يَحْتَمِلُ أي نَسِيَ مِنَ الخيانةِ والشِّرْكِ. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مَوصولاً بالأوَّلِ؛ أي [لا][7] أحَدَ أظْلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ وُعِظَ، وجُعِلَ لهُ سَبيلُ التَّخَلُّصِ والنجاةِ ممّا قَدَّمَتْ يَداهُ، فلم يَتَّعِظْ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ إنَّ الكُفْرَ مُظْلِمٌ؛ إذا أتى بهِ إنسانٌ، يَسْتُرُ على نُورِ القَلْبِ وعلى نُورِ كلِّ جارِحَةٍ منهُ، والإيمانَ مُنيرٌ يُنيرُ القَلْبَ، ويُنيرُ كلَّ جارِحَةٍ منهُ وعُضْوٍ، وهو ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ الإنسانَ إنما يُبْصِرُ بِنُورَينِ ظاهِرَينِ بِنُورِ نَفْسِهِ وبِنُورِ ذلكَ الشيءِ. فإذا ذَهَبَ أحَدُهُما ذَهَبَ الِانْتِفاعُ بالآخَرِ.

والإيمانُ ما ذَكَرْنا أنهُ منيرٌ، وفي القَلْبِ نُورٌ. فإذا اجْتَمَعَ النُّورانِ مَعاً فعِنْدَ ذلكَ انْتَفَعَ بهِ [الإنسانُ][8] فَجَعَلَ يَفْقَهُ، ويَعْقِلُ الشَّيْءَ بنورِ القَلْبِ و بِنورِ الإيمانِ، وكذلكَ كُلُّ جارِحَةٍ منهُ مِنَ الأُذُنِ والبَصَرِ واللِّسانِ؛ جَعَلَ يُبْصِرُ الحَقَّ بهِ، ويَعْتَبِرُ بهِ، ويَسْتَمِعُ الحقَّ والصوابَ.

والكُفْرُ مُظْلِمٌ، يَمْنَعُ، ويَسْتُرُ على نُورِ الجَوارِحِ [فَيَجْعَلُ الإنسانَ][9] لا يُبْصِرُ، ولا يَعْتَبِرُ، ولا يَسْتَمِعُ، ولا يَتَكَلَّمُ

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) في الأصل به، في م: ما أنذر به. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فجعل.

بالحقّ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الإنسانَ إنما يُبْصِرُ الشَّيءَ بِنُورِ العَينِ وبِنُورِ الهَواءِ. فإذا ذَهَبَ أحدُهُما صارَ لا يُبْصِرُ شيئاً. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرْنا.

وفي الآيةِ دَلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلَةِ لأنهُ لا يَخلو الكُفرُ مِنْ أنْ [يكونَ][1] مُظلِماً قبيحاً ذميماً بنفسِهِ أو باللهِ تعالى. فإنْ قيلَ: [بنفسِهِ][2] صارَ كذلكَ قيلَ: لئنْ جازَ حدوثُ الأشياءِ بأنفُسِها[3]، إذْ لا فَرْقَ بَينَ أنْ يكونَ الشيءُ مُظلِماً قبيحاً ذميماً وبَينَ أن تكونَ الأشياءُ بأنْفُسِها على ما كانَتْ، فإنهُ يَظَلُّ بِنَفْسِهِ مُظلِماً قبيحاً.

ثَبَتَ أنَّ اللهَ هو الذي جَعَلَهُ[4] مُظلِماً قَبيحاً. وهو ما نَقولُ نحنُ: إنَّ اللهَ خَلَقَ فِعْلَ الكُفْرِ مِنَ الكافرِ مُظْلِماً قَبيحاً، وخَلَقَ فِعْلَ الإيمانِ مِنَ المؤمِنِ مُنيراً حَسَناً، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ هذا في قَومٍ مَخصوصينَ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً. هذا لا يَحْتَمِلُ في جميعِ الكفارِ؛ إذْ مِنَ الكفارِ مَنْ قد آمَنَ.

وقالَ الحَسَنُ: هو في القومِ[5] الذينَ جَعَلَ على قلوبِهِمُ الغِطاءَ والطَّبْعَ؛ إذْ مِنْ قولِهِ: إنَّ لِلْكُفرِ حَدّاً، إذا بَلَغَ الكافرُ ذلكَ الحَدَّ طَبَعَ على قَلْبِهِ، فلا يُؤْمِنُ أبداً.

وقالَ بعضُهُمْ: [هو][6] في قومٍ، عادَتُهُمُ العِنادُ والمكابَرَةُ وتكذيبُ الآياتِ والحُجَجِ. فأخبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً لِعِنادِهِمْ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ حينَ[7] سَتَرَ عليهِمْ، ولم يُعاقِبْهُمْ وقتَ عِصيانِهِمْ. و﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَقْبَلُ توبَتَهُمْ، إذا تابوا.

والثاني: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ إذا استَغْفَروا، وتابوا. و﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَرْحَمُهُمْ، ويَتَجاوَزُ عنهمْ ما سَبَقَ لهمْ مِنَ الذنوبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: جَعَلَ اللهُ لكلِّ أمَّةٍ، يَهْلَكونَ هلاكَهُمْ، مَوعِداً وأجلاً كقولِهِ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وجَعَلَ مَوعِدَ هذهِ الأمةِ الساعةَ، وهو قولُهُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦].

وقالَ بعضُ أهلِ العِلْمِ: أهلَكَ اللهُ كُلَّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رسولَها لِتَتَّعِظَ الأمةُ التي تأتي بَعْدَها. وجَعَلَ هلاكَ أُمَّةِ محمدٍ بالساعةِ لأنهُ ليسَ بَعْدَها أُمَّةٌ تَتَّعِظُ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ قيلَ: مَلْجأً. وقالَ القُتَبِيُّ: يُقالُ: لا وَأَلَتْ نَفْسُكَ، أي لا نَجَتْ، ويُقالُ: واءَلَ فلانٌ إلى كذا: لَجأ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلَةِ لأنهمْ يَجعَلونَ المُهْلَكَ هالكاً قَبْلَ أجلِهِ. وقد أخبَرَ ﷻ ﴿لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأخَّرُ، طَرْفَةَ عَينٍ.

وفي قولِهِ: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧] ذِكْرُ تَقَدُّمِ اليَدِ، وإنْ لم يكُنْ لِلْيَدِ صُنْعٌ في ذلكَ لِما في العُرْفِ الظاهرِ إنما يُتَقَدَّمُ، ويُؤَخَّرُ باليَدِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الكَسْبِ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لأنَّ في الشاهدِ إنما يُكْتَسَبُ باليَدِ، ونَحْوِهِ. فهو يَرُدُّ على أصحابِ [الظواهِرِ][8] أنَّ الخِطابَ على مُخرَجِ الظاهِرِ حينَ[9] لم يُفْهَمْ مِنْ ذِكْرِ اليَدِ نَفْسِها، ولكنْ فُهِمَ غَيرُ اليَدِ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿لَآ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بنفسها. (٤) في الأصل وم: جعل. (٥) في الأصل وم: قول.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: حيث.

﴿أَبۡرَحُ﴾ أي لا أزالُ حتى أبْلُغَ كذا. فإنْ كانَ على هذا فهو ظاهرٌ، ولا[1] حَرْفُ البَراحِ عنِ المكانِ، أي لا أبْرَحُ المَكانَ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ وهو كأنهُ على الإضمارِ، أي لا أبْرَحُ أسيرُ مَعَكَ حتى أبْلُغَ كذا؛ كأنهُ سَبَقَ مِنْ فَتاهُ أنهُ يَسيرُ إلى ذلكَ المَكانَ دونَهُ على ما يقولُ الخادِمُ لِمَولاهُ إذا أرادَ أنْ يَسيرَ لِحاجَةٍ: أنا أسيرُ، وأنا أذهَبُ. فَعِنْدَ ذلكَ قالَ لهُ ﴿مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ﴾ أي لا أفارِقُكَ، وأسيرُ مَعَكَ ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ ما ذَكَرَ، أي أُمِرْتُ بذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ فَتىً لأنهُ كانَ خادِمَهُ يَخْدِمُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ فَتىً لأنهُ يَتْبَعُهُ، ويَصْحَبُهُ، لِيَتَعَلَّمَ منهُ العِلْمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾/٣١٩ ـ ب/ أي مُلْتَقى البَحْرَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ قيلَ: زَماناً ودَهْراً. وقيلَ: الحُقُبُ ثمانونَ سَنَةً. وقالَ بعضُهُمْ: هو بِلُغَةِ قومٍ سَنَةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو على التَّمْثيلِ على ما يَبْعُدُ. وقيلَ: سَبْعونَ سَنَةً ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أضافَ النِّسْيانَ إليهما، وإنْ كانَ الذي نَسِيَهُ، هو فَتاهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ النِّسْيانَ إليهما على التَّرْكِ لأنهما فارَقا ذلكَ المكانَ، وتَرَكا الحوتَ فيهِ. وإنما أضافَ النِّسْيانَ إليهما لِما تَرَكاهُ جَميعاً فيهِ، وفارَقاهُ، وإنْ كانَ الفَتى، هو الذي نَسِيَهُ دونَ موسى [حينَ[2] قالَ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] وكُلُّ مَنْسِيٍّ مَتْروكٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ إليهما [النِّسْيانَ][3] لِما كانَ منهما جميعاً النِّسْيانُ؛ نَسِيَ الفَتى أنْ [يُذَكِّرَ موسى، ويُخْبِرَهُ عنْ حالِ الحوتِ أنهُ][4] سَرَبَ في البَحْرِ، ونَسِيَ موسى][5] أنْ يَسْتَخْبِرَهُ عنهُ. فقد كانَ منهما جَميعاً النِّسْيانُ؛ عنِ الفَتى الإخبارُ والتَّذْكيرُ، وعنْ موسى الإسْتِخْبارُ عنْ حالِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أضافَ ذلكَ إليهما لِما نَسِيا مكانَ الرجلِ الذي أُمِرَ موسى أنْ يأتِيَهُ، ويَقْتَبِسَ منهُ العِلْمَ. فهو على الجَهْلِ يُخَرِّجُ العلماءُ[6] هذا التأويلَ، أي جَهِلا مَكانَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿سَرَبٗا﴾ أي دَخَلَ في البَحْرِ كما يَدْخُلُ في السَّرْبِ. والسَّرْبُ، هو داخِلُ الأرضِ، يُقالُ بالفارِسِيَّةِ: سَمْهَجُ[7]. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَرَبٗا﴾ أي مَذْهَباً ومَسْلَكاً. وقالَ[8] أهلُ التأويلِ: إنَّ الحوتَ كانَ مَشْوِيّاً، فأحْياهُ اللهُ. وقالَ بعضُهُمْ: كانَ طَرِيّاً. ولكنْ ليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ الحوتِ أنهُ كانَ مَشْوِيّاً أو طَرِيّاً حاجَةٌ، وهو قادرٌ على أنْ يُحْيِيَهُ مَشْوِيّاً أو طَرِيّاً في أيِّ حالٍ كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يَعْني مكانَهُ قالَ لِفَتاهُ: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ فيهِ دلالةٌ أنْ لا بأسَ للرجلِ إذا أصابَتْهُ مَشَقَّةٌ وجَهْدٌ أنْ يَذْكُرَ أصابَني كذا، ولِلْمَريضِ [أنْ][9] يقولَ: بي مِنَ المَرَضِ كذا، ولا يُخَرِّجُ ذلكَ مُخْرَجَ الشَّكْوى والجَزَعِ مِنَ اللهِ حينَ[10] قالَ موسى ﷺ: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ تَعَباً وجَهْداً.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾ وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ: أنْ أذْكُرَ لهُ. قالَ الحَسَنُ: لم يكُنْ نَسِيَهُ، ولكنْ تَرَكَهُ مُتَعَمِّداً مُضَيِّعاً. وإنما أضافَ إلى الشيطانِ؛ يقولُ: إنَّ الشيطانَ هو الذي حَمَلَني [على ذلكَ][11] حتى تَرَكْتُ ذِكْرَهُ لكَ.

وكذلكَ يقولُ[12] في قولِهِ تعالى في قصةِ آدَمَ: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] أي ضَيَّعَ أمْرَهُ، وتَرَكَهُ. ونَحْوُهُ مِنَ المُحالِ لأنهُ[13] لا يُحْتَمَلُ أنْ يَتْرُكَ ذِكْرَهُ[14] عَمْداً. والشيطانُ إنما يَسْعَى بالحَيلولةِ في مِثْلِ هذا في أمْرِ الدينِ وفي النِّعَمِ إذا كَثُرَتْ، واتَّسَعَتْ على إنسانٍ، فَيَسْعَى في مِثْلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: وإلا. (٢) في الأصل: حيث. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: يذكره ويخبره أن. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: علما. (٧) في الأصل وم: سمج، والسمهج: سهل لين، انظر معجم البلدان ح٣/ ٢٤٦. (٨) في الأصل وم: وقول. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الضمير يعود على الحسن. (١٣) في الأصل وم: ولكن. (١٤) في الأصل وم: أن يذكر له.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: عَجِبَ موسى مِنَ الفَتَى أَنْ كيفَ يَنْسى أَنْ يُذَكِّرَهُ، وقد احْتاجَ إلى أَنْ يَتَحَمَّلَ مَؤُنَةً عظيمةً في حَمْلِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: عَجِبَ موسى منهُ حينَ يَبِسَ لهُ الماءُ وأَثَرُهُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، ثم ذُكِرَ موسى بِخَبَرِ الحوتِ، وما صَنَعَ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾ أني نَطْلُبُ مِنْ حاجَتِنا مِنَ الظَّفَرِ بذلكَ الرجلِ، يقولُ ذلكَ لِفَتاهُ.

ثم في الآيةِ وجوهٌ مِنَ الغرائبِ.

أحدُها: أنْ يَلْزَمَ الإنسانَ طَلَبَ العِلْمِ واقْتِباسَهُ؛ إذ كانَ بهِ وبالناسِ حاجةٌ إليهِ، وإنْ بَعُدَتِ الشُّقَّةُ، ونأى المَوضِعُ حينَ[1] قالَ موسى ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِىَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠].

والثاني[2]: أنْ لا بأسَ لاثْنَينِ أنْ يُسافِرا؛ إذْ لا كُلُّ واحدٍ واثْنَينِ يكونانِ شيطانَينِ على ما ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ الواحدَ شيطانٌ، والاثْنَينِ شيطانانِ، ولكنَّ واحداً[3] دونَ واحدٍ، واثْنَينِ دونَ اثنينِ.

والثالثُ[4]: أنهُ لا يُسافَرُ إلّا بالزادِ، إذْ[5] تَزَوَّدَ موسى والفَتَى بالحوتِ[6] الذي ذُكِرَ حينَ خَرَجا إلى حيثُ أُمِرَ موسى أنْ يَخْرُجَ في مَجْمَعِ البَحْرَينِ.

فأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ قالوا جميعاً: إنهُ أُمِرَ موسى أنْ يأتِيَ الخُضرَ لِيَتَعَلَّمَ منهُ العِلْمَ، ولكنْ ليسَ في القرآنِ ذِكْرٌ لِلْخُضرِ، إنما فيهِ ذِكْرُ عَبْدٍ مِنْ عبادِهِ حينَ[7] قالَ: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥]

والرابعُ[8]: أنَّ الثُّنيا إنما يَلْزَمُ في كلِّ فِعْلٍ مُسْتَقْبَلٍ ممّا يُشَكُّ فيهِ، ويُرْتابُ. فأمّا ما كانَ سَبيلُ مَعْرِفَتِهِ الوَحْيَ واليَقينَ فإنهُ لا يُسْتَثْنَى فيهِ: حينَ[9] قالَ موسى لِفَتاهُ: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِىَ حُقُبٗا﴾ [الكهف: ٦٠] قالَ ذلكَ مِنْ غَيرِ ثُنيا لأنه ﷺ [أَمَرَهُ][10] أنْ يأتِيَهُ. ولا يُحْتَمَلُ أنْ يُؤْمَرَ بالإتيانِ في مَكانٍ، ثم هو يَشُكُّ أنهُ لَعَلَّهُ لا يأتيهِ. لذلكَ قَطَعَ القولَ فيه.

وكذلكَ قولُ ذلكَ العَبْدِ الصالحِ لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِىَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٧] قَطَعَ القولَ فيهِ مِنْ غَيرِ ثُنيا لأنهُ عَلِمَ بالوَحْيِ أنهُ لا يَصْبِرُ على ما يَرَى منهُ.

وأمّا موسى فإنهُ قدِ اسْتَثْنَى في ما وَعَدَ أنهُ يَصْبِرُ لأنهُ أضافَ إلى حادثٍ مِنَ الأوقاتِ على الشَّكِّ منهُ أنهُ يَصْبِرُ، أو لا يَصْبِرُ، وعلى الارْتِيابِ ليسَ على اليَقينِ. فقالَ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِى لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩] ممّا ذَكَرْنا.

والخامسُ[11]: أنَّ الرجلَ إذا اخْتَلَفَ إلى عالمٍ يَقْتَبِسُ منهُ العِلْمَ، ويَتَعَلَّمُ منهُ، فَرَأَى منهُ مَناكيرَ ومَظالِمَ تُلْزِمُهُ أنْ يُفارِقَهُ[12]، ولا يَتَعَلَّمُ [منهُ العِلْمَ][13] كَصَنيعِ موسى بِصاحِبِهِ لِما رَأَى مِنْ خَرْقِ السفينةِ وقَتْلِ الغلامِ وغَيرِهِ ممّا كانَ مُنْكَراً وظُلْماً في الظاهِرِ، وإنْ كانَ ما فَعَلَ، هو فِعْلُ الأمرِ، كَرِهَ موسى صُحْبَتَهُ، ونَدِمَ على ذلكَ أشَدَّ النَّدامَةِ، حتى جَعَلَهُ على عِلْمٍ مِنْ ذلكَ كلِّهِ.

فهكذا الواجبُ على الرجلِ إذا رأى مَناكيرَ مِنَ الذي يأخذ منهُ العِلْمَ ومَظالِمَ أنْ يُفارِقَهُ، ولا يأخُذَ مِنْ عِلْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ دلالةُ أنَّ الاخْتِيارَ والمُسْتَحَبَّ في الثُّنيا أنْ يكونَ في ابْتِداءِ الكلامِ، لأنَّ موسى ابْتَدَأَ بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] فإذا تَرَكَهُ في أوَّلِ كلامِهِ، أو نَسِيَ، يَسْتَثْني في آخِرِهِ، فَيَعْمَلُ عَمَلَهُ في دَفْعِ الخُلْفِ في الوَعْدِ والكَذِبِ. وعلى هذا تأوَّلَ بَعْضُ الناسِ قولَهُ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أيِ اسْتَثْنِ في آخِرِهِ إذا نَسِيتَ في أوَّلِ كلامِكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وفيه. (٣) في الأصل وم: واحد. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: والحوت. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وفيه. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: وفيه. (١٢) من م، في الأصل: يقال قة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم هذهِ القِصَصُ والأنباءُ التي ذُكِرَتْ لِرسولِ اللهِ ﷺ على إثْرِ سُؤالٍ كانَ منهمْ على ما ذَكَرْنا في قصةِ أصحابِ الكهفِ وغَيرِها مِنَ القِصَصِ، أو على غَيرِ سُؤالٍ. ولكنْ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ[1] لهُ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في السَّبَبِ الذي أُمِرَ موسى ﷺ على طَلَبِ العِلْمِ مِنْ عندِ ذلكَ الرجلِ وبَعْثِهِ إليهِ.

قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ أنَّ موسى، قامَ خَطيباً في قومِهِ، فَخَطَبَ خُطبَةً، لم يَخْطُبْ قَطُّ مِثْلَها، فأعْجَبَهُ ذلكَ، فَوَقَعَ عندَهُ أنْ ليسَ أحدٌ أعْلَمَ منهُ، فأُخبِرَ أنَّ في مَجْمَعِ البَحْرَينِ رجلاً أعْلَمَ منكَ، فَأُمِرَ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ موسى قد أُعْطِيَ التوراةَ، وفيها علومٌ كثيرةٌ، فَظَنَّ أنهُ ليسَ أحَدٌ أعْلَمَ منهُ، فَأُخبِرَ أنَّ في مَجْمَعِ البَحْرَينِ عَبْداً مِنْ عبادِنا أعْلَمَ منكَ، فأُمِرَ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ.

فإنْ كانَ على ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ السَّبَبِ، فَيَخرُجُ الأمْرُ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ مُخْرَجَ العُقوبَةِ لهُ والعِتابِ لِما خَطَرَ بِبالِهِ، وَوَقَعَ في وَهْمِهِ ما وَقَعَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ لهُ بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ ابْتِداءَ مِحْنَةٍ مِنَ اللهِ تعالى إيّاهُ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ مِنْ غَيرِ سَبَبٍ كانَ [مِنْ][2] موسى على ما يُؤْمَرُ المَرْءُ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ سَبَبٍ مِحْنَةً مِنَ اللهِ يَمْتَحِنُهُ بها، نَحْوَ ما أُمِرَ موسى بالمَصيرِ إلى طورِ سيناءَ، وأُعْطِيَ هنالكَ التوراةَ في الألواحِ على غَيرِ سَبَبٍ كانَ منهُ. ولكنِ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ يَمْتَحِنُهُ بها[3]. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أمْرُهُ لهُ بالمَصيرِ إلى ما أمَرَ والتَّعَلُّمِ منهُ ابْتِداءً/ ٣٢٠ ـ أ/ مِحْنَةٍ، امْتَحَنَهُ بها.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ صاحبَ موسى الذي أُمِرَ موسى بالمَصيرِ إليهِ والتَّعَلُّمِ منهُ الخُضرُ، وفَتاهُ الذي كانَ يَصْحَبُهُ، ويَتْبَعُهُ، يُوشَعُ بْنُ نونٍ. فذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالسَّمْعِ والخَبَرِ عَمَّنْ يُوحَى إليهِ، فَيَعْلَمُهُ بالوَحْيِ.

وأمّا مَنْ أخبَرَ ذلكَ، وقالَهُ لا عَنْ وَحْيٍ فلا يُعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ. إنما الحاجَةُ إلى ما أودَعَ فيهِ مِنْ أنواعِ الحِكْمَةِ والعلومِ.

وأمّا ما ذَكَروا أنهُ فلانٌ، وأنهُ كانَ في مَوضِعِ كذا في البَحْرِ، وأنَّ موسى قالَ [لَهُ][4] كذا، وهو قالَ لِموسى كذا، فإنَّ سَبيلَ مَعْرِفَةِ ذلكَ السَّمْعُ. فإنْ ثَبَتَ السَّمْعُ فيهِ، وإلّا لم يَجِبْ أنْ يُذْكَرَ فيهِ أكْثَرُ ممّا ذُكِرَ في الكتابِ لأنَّ هذهِ الأنباءَ والقِصَصَ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ إنما ذُكِرَتْ لتكونَ آيَةً لِرسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

فلو قيلَ فيها ما لم يُذْكَرْ في كُتُبِهِمْ مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ لَكانَ ذلكَ سَبَباً لإكْذابِهِ لا تَصْديقِهِ على ما يَدْعو[5] مِنَ الرسالةِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي فَقْدُ الحوتِ هو ما كُنّا نبغي؛ إذْ كانَ ذلكَ عِلْماً لِوُجودِ مَكانِ ذلكَ الرجلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي رَجَعا عَودَهُما على بَدْئِهِما.

وقالَ[6] بعضُهُمْ: أي رَجَعا يَقُصّانِ طَريقَهُما وآثارَهُما الذي مَشَيا فيهِ، يَطْلُبانِ المَكانَ الذي فَقَدا الحوتَ فيهِ، إذْ ذلكَ المكانُ هو مكانُ وُجودِ[7] ذلكَ الرجلِ الذي أُمِرَ موسى بالمَصيرِ إليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: اقْتَصّا أثَرَ الحوتِ في الماءِ. لكنَّ الأوَّلَ أشْبَهُ لأنَّ في الآيةِ ذِكْرَ آثارِهِما لا ذِكْرَ أثَرِ الحوتِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ النُّبُوَّةَ حينَ[8] قالَ لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] لا يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ لهُ هذا إلّا على عِلْمِ وَحْيٍ، وحينَ[9] قالَ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] أخْبَرَ أنهُ لم يَفْعَلْ[10] ما فَعَلَ عَنْ أمْرِ نفسِهِ، ولكنْ [عَنْ][11] أمْرِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فذكر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: به. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يدعي. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: علم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: يفعله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ كلَّ خيرٍ وكلَّ بَركَةٍ أعطاهُ اللهُ إيّاهُ، أو أنْ يكونَ رَحمَةَ القَلْبِ وشَفَقَتَهُ التي كانَتْ منهُ على أهلِ السفينةِ بِخَرْقِها وقَتلِ ذلكَ الغُلامِ الذي قَتَلَهُ إشفاقاً منهُ على والِدَيهِ أو على الناسِ وإقامَةَ الجوارِ الذي[1] كادَ أنْ يَنْقَضَّ، فأقامَهُ، وأمثالَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ هو ظاهِرٌ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ في قولِهِ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ دلالةٌ أنهُ كانَ على سَفَرٍ، ولم يكُنْ مُقيماً في ذلكَ المكانِ، ومَنْ يَتَعَلَّمْ مِنْ آخَرَ عِلماً فإنهُ يَتْبَعُهُ حيثُ يذهَبُ هو في حَوائِجِهِ، لا يُؤمَرُ بالمُقامِ[2] حيثُ يُقيمُ المُعَلِّمُ[3] لأنهُ قالَ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ يَحتَمِلُ أي ارشُدْني إلى ما عُلِّمْتَ أو تُعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ مِنَ الرُّشْدِ والصَّوابِ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ بما تَرَى مني مِنَ الأمورِ ما يَخرُجُ في الظاهِرِ مَخرَجَ المَناكيرِ، أو يقولُ: إنكَ نَبيٌّ ورسولٌ، والرسولُ إذا رَأى مُنكَراً في الظاهِرِ لا يَسَعُ لهُ تَرْكُ الإنكارِ عليهِ والتَّغْييرِ حينَ[4] قالَ لهُ.

الآية ٦٨ ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ أي ما لم تَعلَمْ عِلماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ يَحتَمِلُ أنْ [تكونَ][5] الثُّنيا منهُ على الأمْرَينِ جميعاً: على الصَّبرِ الذي وَعَدَ، وعلى قولِهِ: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾. ويُشبِهُ أنْ يكونَ على وَعْدِ الصَّبْرِ خاصَّةً دونَ قولِهِ ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ عَهْدٌ منهُ، والثُّنيا لا تُستَعمَلُ في العُهودِ.

وأمّا قولُهُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ إنما هو فِعْلٌ أضافَهُ إلى نَفْسِهِ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يَستَثْنِيَ فيهِ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ مما تُنكِرُهُ نفسُكَ، وتَكرَهُهُ ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ أني[6] لماذا فَعَلْتُ ما فَعَلْتُ؟

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ هذا الكلامُ يُخرَّجُ على وجهَينِ.

[أحَدُهُما][7]: على الإنكارِ عليهِ، أي أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلَها؟ أو لِتَعيبَها؟

[والثاني: على الاستِفهامِ، أي أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلَها؟ أو لِتَعيبَها؟][8] أو لماذا؟

وظاهرُ[9] هذا الحَرْفِ استِفهامٌ لولا قولُهُ: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾.

فإنْ كانَ على الأوّلِ على الإنكارِ عليهِ والرَّدِّ فقولُهُ: ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ ظاهراً، أي جِئتَ شيئاً عظيماً[10] شديداً. [وإنْ كانَ على الاستِفهامِ فهو على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: أخَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلَها فَلَئِنْ خَرَقْتَها لِتُغرِقَ أهلها فَلَقدْ جِئتَ شيئاً إمْراً][11].

وإنْ كانَ التأويلُ على الإنكارِ فهو كما يُقالُ لِمَنْ يَبْني بِناءً، ثم يَترُكُ الإنفاقَ عليهِ في عِمارتِهِ: بَنَيْتَ لِتُخَرِّبَ، أو لِتَهْدِمَ، وكما يُقالُ لِمَنْ زَرَعَ زَرعاً، ثم تَرَكَ سَقْيَهُ: زَرَعْتَ لِتُفْسِدَهُ، ونَحوُهُ، وإنْ كانَ لم يُبيِّنْ [سَبَباً][12] لذلكَ، ولم يَزْرَعْ لِما ذَكَرَ، ولكنْ لِما كذلكَ يَصيرُ في العاقبةِ إذا تَرَكَ سَقْيَهُ أو عِمارَةَ ما بَنَى.

فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ لهُ موسى ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ وبَعْدَ [ذلك][13] لم يَعلَمْ أنَّ ذلكَ الخَرْقَ مُغرِقٌ أهلَها، وقد يجوزُ

---

(١) في الأصل وم: التي. (٢) من م، في الأصل: القيام. (٣) في الأصل وم: المتعلم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: أن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من م. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: إمرا أي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

أنْ يكونَ غيرَ مُغْرِقٍ. قيلَ: إنما أخبَرَ عمّا يَؤولُ الأمْرُ في العاقبةِ، والظاهرُ مِنَ الخَرْقِ أنْ يُغْرِقَ في [آخِرِ الأمْرِ][1] وهو كما ذكَرْنا مِنْ أمْرِ البِناءِ والزَّرْعِ: بَنَيْتَ لِتُخرِّبَ، وزرَعْتَ لِتُفسِدَ، وإنْ لم يَكُنْ بِناؤُهُ وزِراعَتُهُ لِذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ قولُ موسى لِصاحِبِه، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ هذهِ الآيةُ على المُعْتَزِلةِ لأنهُ قالَ لهُ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ دلَّ أنهُ كانَ يَحتاجُ إلى استِطاعةٍ، تُقارِنُ الفِعْلَ، لا تَتَقَدَّمُ الفِعْلَ، فيكونُ بها الفِعْلُ. وإلّا قد كانَتْ لهُ أسبابٌ، لو لم يُؤْثِرْ غيرَهُ، لَاستَطاعَ الصَّبْرَ مَعَهُ. دلَّ أنَّ استِطاعةَ الفِعْلِ [لا تَتَقَدَّمُهُ][2] ولكنْ تُقارِنُهُ.

وقالَ الحَسَنُ: إنما يُقالُ هذا لِلاستِثْقالِ والبُغْضِ، ليسَ على حقيقةِ نَفْيِ الاستِطاعةِ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلمُ؛ فيقالُ لهُ: هو كما يُقالُ: لا أستطيعُ أنْ أنْظُرَ إليكَ نَظَرَ الرَّحمَةِ، فهو وإنْ كانَ ناظراً لِما ذكَرَ، فهو غيرُ ناظرٍ إليهِ نَظَرَ رَحمَةٍ وشَفَقَةٍ، فهما سَواءٌ، وهو ما يَقولُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا الكلامُ وجوهاً:

أحَدُها: على التَّعْريضِ مِنَ الكلامِ؛ أي لا تُؤاخِذْني بما لو نَسِيتُ كقولِ إبراهيمَ حينَ[3] قالَ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨و٨٩] أي[4] سَاسْقُمُ.

والثاني: على حقيقةِ النِّسْيانِ نَسِيَ لِقولِهِ[5]: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ [الكهف: ٧٠] بَعْدَها مِمّا رَأى مِنَ المَناكيرِ في الظاهرِ. هكذا كانَتْ عادةُ الأنبياءِ أنهمْ إذا رَأوا مُنكَراً لا يَمْلِكونَ أنفسَهُمْ حُزْناً وغَضَباً على ما رَأوا، فلا يُنْكَرُ أنْ يكونَ نَسِيَ ما قالَ لهُ.

[والثالثُ: ما][6] قالَ بعضُهُمْ: على التَّضْييعِ واللهُ أعلَمُ، فهو يُخَرَّجُ على الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا تُكلِّفْني مِنْ أمري ما يَعْسُرُ عليَّ. وقالَ بعضُهُمْ: الإرهاقُ هو الشِّدَّةُ والتَّعَبُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ أي لا تَفْتِنّي ﴿عُسْرًا﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً[7] بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا الكلامُ أيضاً وجهَيْنِ:

[أحَدُهُما][8]: على الإنكارِ والرَّدِّ عليهِ.

والثاني: على الاستِفهامِ والسؤالِ على ما ذكَرْنا في الأوَّلِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أو بِحَقٍّ؟ أو لِماذا؟ أو على الإنكارِ والرَّدِّ على ما رَأى في الظاهرِ قَتْلَ نَفْسٍ، ولم يَعْرِفِ الوَجْهَ الذي بِهِ يَجِبُ القَتْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ هو على ما ذكَرْنا على الإنكارِ ظاهرٌ، وعلى الاستِفْهامِ والسؤالِ على الإضمارِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ فَلَئِنْ فَعَلْتَ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي مُنْكَراً.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿نُّكْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُّكْرًا﴾ أكبَرُ مِنْ قولِهِ ﴿إِمْرًا﴾ لأنَّ فيهِ مُباشَرَةَ القَتْلِ وإهلاكَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فهو أكبَرُ. وليسَ في نَفْسِ الخَرْقِ إهلاكٌ، وإنما هو سَبَبُ الإهلاكِ. وقد يجوزُ ألّا يُهْلِكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِمْرًا﴾ أكبَرُ مِنْ قولِهِ: ﴿نُّكْرًا﴾ لأنَّ فيهِ إهلاكَ جماعةٍ، وههنا إهلاكُ واحدةٍ، فهو دونَ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الآخرة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ادرج قبلها في الأصل وم: ونحوه. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل زاكية وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٨٥. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ما ذَكَرْنا في الأوَّلِ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي/ ٣٢٠ ـ ب/ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ في تَرْكِ المُصاحَبةِ ﴿عُذْرًا﴾ لِما قلْتَ لي: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ سَمَّى قَرْيَةً، وهي كانَتْ مدينةً. ألا تَرى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] دلَّ أنها كانَتْ مدينةً. والعَرَبُ قد تُسَمِّي المَدينةَ قَرْيَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: كانَ الجِدارُ كَهَيئَةٍ عندَ الناظِرِ أنهُ يَسْقُطُ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ الإرادةُ صِفَةُ كلِّ فاعلٍ لهُ حقيقةُ الفِعْلِ، أو ليسَ لهُ حقيقةُ الفِعْلِ بَعْدَ أنْ يُضافَ إليهِ الفِعْلُ. ألا تَرى أنهُ يُقالُ [عنِ الجِدارِ][1] سَقَطَ، وإنْ كانَ، في الحقيقةِ [لم][2] يَسْقُطْ؟

وعندَنا أنهُ إنما يُقالُ ذلكَ لِقُرْبِ الحالِ وعندَ الإشرافِ على الهَلاكِ والسُّقوطِ. ألا تَرى أنَّ الرجلَ يقولُ: إني[3] أردْتُ أنْ أموتَ، وأرَدْتُ أنْ أهلِكَ، وأرَدْتُ أنْ أسْقُطَ، وهو لا يريدُ المَوتَ ولا السُّقوطَ، ولكنهُ يَذْكُرُ ذلكَ لإشرافِهِ على الهَلاكِ وقُرْبِ الحالِ إليهِ ليسَ على حقيقةِ الإرادةِ؟ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي أشْرَفَ، وقَرُبَ، على حالِ السقوطِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هذا القولُ مِنْ موسى يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحدُهُما: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لِشِدَّةِ حاجتِهِ إلى الطعامِ لئلا تَقَعَ لهما حاجةٌ إلى أهلِ تلكَ المدينةِ؛ إذْ قد وَقَعَ لهما إليهِمْ حاجَةٌ حينَ[4] قالَ: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ مَرَّةً، فلم يُطْعِمُوهما، فأرادَ أنْ يأخُذَ على ذلكَ أجراً لئلا تَقَعَ لهما حاجةٌ إليهِمْ ثانياً.

والثاني: قالَ لهُ ذلكَ: لمّا لم يَرَ أهلَ تلكَ البَلْدَةِ أهلاً لِيَصْنَعَ إليهِمُ المَعْرُوفَ، لِما رَأى منهمْ مِنَ البُخْلِ والضِّنَّةِ في الإطعامِ، حينَ[5] اسْتَطْعَماهُمْ، فَلَمْ يُطْعِموهُما بُخْلاً منهمْ، وضِنَّةً، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ الجدارَ الذي أقامَهُ صاحبُ موسى، كانَ طولُهُ خَمْسَ مئةِ ذراعٍ، وقامَتُهُ مِئَتَي ذِراعٍ، وعَرْضُهُ أربَعينَ ذراعاً، أو نَحْوَهُ. وتَحْتَهُ طريقُ القومِ. لكنْ لا حاجَةَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ، إنما الحاجَةُ إلى ما فيه مِنْ أنواعِ الحِكْمَةِ والفوائدِ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سَأُنَبِّئُكَ بَيانَ ما قُلْتُ لكَ: إنكَ لنْ تَستَطيعَ مَعِيَ صَبْراً. ثم بَيَّنَهُ، وفَسَّرَهُ لهُ.

الآية ٧٩ فَقالَ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجْعَلَها مَعيبَةً. وقالَ[6]: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ الحُروفِ: وكانَ أمامَهُمْ مَلِكٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

فَعَلَى ذلكَ التأويلِ فيهِ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجْعَلَها مَعيبَةً لئلا يأخُذَها ذلكَ المَلِكُ غَصْباً؛ إذْ كانَ لا يأخُذُ إلّا [كلَّ][7] سَفينَةٍ صالحةٍ صحيحةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ اخْتُلِفَ في سِنِّ ذلكَ الغُلامِ. [قالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ الغُلامُ][8] كبيراً بالغاً. والعَرَبُ قد تُسَمِّي الرجلَ البالِغَ الذي لم يَلْتَحِ بَعْدُ، أو لم تَسْتَوِ لِحْيَتُهُ غُلاماً لِقُرْبِهِ لِوَقْتِ البُلوغِ. ولذلكَ[9] قالَ لهُ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤] والصغيرُ مِمّا لا يُقْتَلُ إذا قَتَلَ نَفْساً بِغَيرِ حقٍّ. فلو كانَ صغيراً لم يكُنْ لِقولِ موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [مَعْنىً][10].

---

(١) في الأصل وم: للجدار. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وكذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وهو كما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ قالَ:](1) «إنَّ إيمانَكُمْ يَحْقِنُ دماءَكُمْ»[أي إيمانُكُمْ يَحْقِنُ دماءَكُمْ](2) إذ ظَهَرَ منهمُ الدمُ. وكَقولِهِ: «لولا الإيمانُ لكانَ لي وَلَها شأنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] إذا ظَهَرَ منها الزِّنى. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لو كانَتْ مُحْتَمِلَةً القَتْلَ بالنَّفْسِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في سَبَبِ قَتْلِ الغلامِ. قالَ بعضُهُمْ: قَتَلَهُ لِكُفْرِهِ؛ كانَ كافراً، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ أبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: وأمَّا الغلامُ فكانَ كافراً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ دلَّ هذا أنهُ كانَ بالغاً كافراً، إذْ لو لم يكُنْ كافراً لم يَلْحَقْ والِدَيهِ منهُ الطُّغيانُ والكُفرُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما قَتَلَهُ لأنهُ كانَ لِصاً قاطِعَ الطريقِ [يَقْطَعُ الطريقَ](3) على الناسِ، ويأخذُ أموالَهُمْ.

وعلى قولِ مَنْ يقولُ: إنه كانَ صغيراً قتلَهُ لأنهُ عَلِمَ أنه لو بلغَ [بلغ] (4) كافراً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. وليسَ لَنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ السببِ الذي قَتَلَهُ حاجةٌ، ولا أنهُ كانَ صغيراً أو كبيراً لأنهُ أخْبَرَ أنهُ إنما قَتَلَهُ بِأمْرِ اللهِ لا مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ حينَ قالَ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ولكنْ إنما فَعَلْتُهُ بأمْرِ اللهِ، للهِ أنْ يأمُرَ عَبْداً مِنْ عبادِهِ بِقَتْلِ الصغيرِ على ما لَهُ أنْ يُميتَهُ وعلى ما يَأمُرُ مَلَكَ المَوتِ بِقَبْضِ أرواحِ الخَلْقِ. فَعَلَى ذلكَ لهُ أنْ يُميتَهُ على يَدَي آخَرَ، وأنْ يَقْبِضَ رُوحَهُ؛ إذْ لهُ الخَلْقُ والأمْرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ليسَ، هو الخوفُ، ولكنْ: العِلْمُ؛ أي عَلِمْنا أنْ يُرْهِقَهُما طُغياناً وكُفراً. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ أبَيٍّ.

فإنْ قيلَ: كيفَ احْتَجَّ على قَتْلِهِ وإهلاكِهِ بما عَلِمَ أنهُ يَلْحَقُ أبَوَيهِ منهُ الطُّغيانُ والكُفرُ، وقد تَرَكَ إبليسَ وجُنودَهُ يَعيشونَ إلى آخِرِ الدهرِ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ يَحْمِلونَ الناسَ على الطُّغيانِ والكُفرِ، ويُرْهِقونَهُمْ بأنواعِ المَعاصي والفَواحِشِ، وكذلكَ هؤلاءِ الظَّلَمَةُ الذينَ لا يكونُ منهمْ إلا كلُّ شَرٍّ وجَورٍ على الناسِ مِنْ تَرْكِهِمْ على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ منهمْ. فما مَعْنى الاحْتِجاجِ في قَتْلِهِ وإهلاكِهِ بما ذَكَرَ مِنْ إرهاقِ [الوالِدَينِ بالطغيانِ والكفرِ](5)؟

قيلَ: لهذا جوابانِ:

[أحَدُهما](6): أنَّ اللهَ ﷻ قد يَمْتَحِنُ البَشَرَ بِمَعانٍ وعِلَلٍ وأشياءَ، تَحْمِلُهُمْ تلكَ المَعاني والأشياءُ على الرغْبَةِ والحِنْثِ في ما امْتَحَنَهُمْ، وإنْ كانَ لهُ الامْتِحانُ لا على تلكَ المَعاني والعِلَلِ نَحْوُ ما امْتَحَنَهُمْ بأنواعِ العباداتِ والطاعاتِ بِثوابٍ وجَزاءٍ ذَكَرَ لهمْ فيها لو فَعَلُوا، وإنْ كانَ لهُ الامتحانُ بِذلكَ على غَيرِ ثوابٍ ولا جَزاءٍ. وكذلكَ العُقوباتُ وغَيرُ ذلكَ مِنَ المِحَنِ. فَعَلَى ذلكَ الأولى.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِيُطَيِّبَ بهِ أنْفُسَهُمْ إحساناً منهُ إليهِمْ وإنعاماً عليهِمْ؛ إذ لهُ أنْ يُميتَهُمْ صِغاراً وكِباراً. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية [الشورى: ٢٧] وقد وَسَّعَ على كثيرٍ مِنَ الخَلْقِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية [الزخرف: ٣٣] وقد جَعَلَ لِلْكَثيرِ مِنَ الخَلْقِ ذلكَ. لكنَّ هذا لِما لهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ لِلْكُلِّ. فَمَنْ يَفْعَلُ ذلكَ يَفْعَلُ إحْساناً منهُ وإفْضالاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي صَلاحاً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وأبَرَّ بوالِدَيهِ. و قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي عَمَلاً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي وأحْسَنَ منهُ بِرًّا لِوالِدَيهِ.

وقالَ(7) أبو عَوسَجَةَ: ﴿رُحْمًا﴾ مِنَ الرَّحِمِ والقَرابَةِ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿رُحْمًا﴾ أي رَحْمَةً وعَطْفاً. وذَكَرَ أنهما قد أُعْطِيا خَيراً منهُ، أي خَيراً مِنَ القَتيلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: حيث قال. (٢) من م، ساقطة من الأصل. إشارة إلى قوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني أنفسهم وأموالهم إلا بحقها» البخاري ٢٥] (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في م: كان، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الطغيان والكفر بالوالدين. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختُلِفَ في ذلكَ الكَنزِ. قالَ بعضُهُم: كانَ ذلكَ مالاً كَنَزَهُ أبوهُما. وقالَ[1] ابنُ عباسٍ: حُفِظَ بِصلاحِ أبيهما وما ذُكِرَ منهما صَلاحاً. وقالَ بَعضُهُم: كانَ ذلكَ الكَنزُ صُحُفاً[2] فيها عِلْمٌ.

قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ عِلماً لأنَّ العِلمَ ممّا يَعلَمُهُ العُلماءُ، ويَشتَرِكُ الناسُ فيهِ، فلا يُحتَمَلُ أنْ يُحفَظَ ذلكَ دونَ الناسِ. فإنْ ثَبَتَ، وحُفِظَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ فهو مالٌ و عِلْمٌ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ مالكٍ [أنهُ][3] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كانَ تَحتَ الجِدارِ الذي قالَ اللهُ تعالى في كتابِهِ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ لَوحٌ مِنْ ذَهَبٍ فيهِ مكتوبٌ: «بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم. عَجِبْتُ لِمَنْ أيْقَنَ بالموتِ كيف/ ٣٢١ ـ أ/ يَفرَحُ؟ وعَجِبتُ لِمَنْ أيْقَنَ بالقَدَرِ كيفَ يَحزَنُ؟ وعَجِبتُ لِمَنْ أيْقَنَ بزوالِ الدنيا وتَقَلُّبِها بأهْلِها كيفَ يَطمَئِنُّ إليها؟ لا إلهَ إلّا اللهُ، محمدٌ رسولُ اللهِ» [السيوطي في الدر المنثور٥/ ٤٢١] فإنْ حُفِظَ هذا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، ففيهِ مالٌ وعِلْمٌ، لأنَّ اللوحَ مِنَ الذَّهبِ ممّا يَكثُرُ، ويَعظُمُ قَدْرُهُ، وليسَ لنا إلى مَعرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي نعمةً مِنْ ربِّكَ وإحساناً عليهما؛ إذْ كانَ لهُ ألّا يَحفَظَ ذلكَ لهما، ولا يُوصِلَهُ إليهما على ما لم يُعطِ لِكثيرٍ مِنَ اليَتامَى والمساكينِ شيئاً مِنْ ذلكَ. لكنَّ ذلكَ منهُ إليها فَضلٌ وإنعامٌ ورَحْمَةٌ عليهما. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي تأويلُ ما قُلتُ لكَ في بَدْءِ الأمرِ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]

ثم لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ موسى حينَ[4] أُمِرَ بالذهابِ إلى ذلكَ الرجلِ والإتّباعِ لهُ والصُّحْبَةِ مَعَهُ لِيَتَعَلَّمَ منهُ العِلْمَ، فلم يَستَفِدْ منهُ إلّا عِلْمَ ما أنْكَرَ عليهِ وسَبَبَ حلِّ ذلكَ لهُ؛ إذ كانَ ذلكَ بإنكارِ ما أنْكَرَ عليهِ مِنَ الأفعالِ التي هي في الظاهِرِ مُنْكَرَةٌ. لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ استَفادَ منهُ علوماً كثيرةً سِوَى ذلكَ، لكنهُ لم يَذكُرْ لنا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: اسْمُ الغلامِ الذي قَتَلَهُ صاحِبُ موسى خشنونا[5]، ولا أدري ماذا؟ ووالداهُ اسْمُهما كذا، لا نَعلَمُ ذلكَ. وليسَ لنا إلى مَعرِفَةِ أسامِيهِمْ حاجةٌ، وكذا اسْمُ الغُلامَينِ اليَتيمَينِ صاحِبَي الجدارِ: أصْرَمُ وصَرِيمٌ، ولا أدري ماذا؟ ولا حاجةَ بنا إلى ذلكَ.

وقولُهُمْ: كانَ صاحِبُ موسى خُضراً، وإنهُ إنما سُمّيَ خُضراً لأنهُ جلَسَ على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فاخضَرَّتْ، فذلكَ أيضاً ممّا لا يُعلَمُ إلّا بالخَبَرِ عَنِ الوَحْيِ وَحْيِ السماءِ، فلا تَقولُ فيهِ إلّا ما ذَكَرَهُ الكتابُ [وما قيل][6] فإنهُ يُخَرَّجُ ذِكْرُهُ مُخرَجَ الشهادةِ على اللهِ مِنْ غيرِ حصولِ النَّفعِ لنا في [عَمَلِ ذلكَ] أو غيرِهِ. وليسَ في الكتابِ إلّا ذِكْرُ عَبْدٍ ﴿مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥] وذِكْرُ الغُلامِ[7] وذِكْرُ الفَتَى وذِكْرُ غُلامَينِ ﴿يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢] وأمثالُهُ؛ يُقالُ ما فيهِ، ولا يُزادُ على ذلكَ مَخافَةَ الشهادَةِ على اللهِ بالكَذِبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ في الآيةِ دلالةُ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ قَبلَ أنْ يُسألَ هو عَنْ خَبَرِ ذي القَرنَينِ لأنهُ قالَ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ولم يَقُلْ: سألوكَ.

والخَبَرُ الذي رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عامرٍ الجُهَنِيُّ يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً؛ لأنهُ رَوَى أنَّ نَفَراً من أهلِ الكتابِ جاؤوا بالصُّحُفِ والكُتُبِ، فقالوا لي: استَأذِنْ لنا على رسولِ اللهِ لِنَدْخُلَ[8] عليهِ، فانصَرَفْتُ إليهِ، فأخبَرْتُهُ بِمَكانِهِمْ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ مالي ولَهُمْ؟ يَسألونَ عمّا لا أعْلَمُ، إنما أنا عَبْدٌ، لا عِلْمَ لي إلّا ما عَلَّمَني ربّي. ثم قالَ: أبْلِغْني وُضوءاً [أتَوَضَّأُ بهِ][9] فتَوَضَّأَ. ثم قامَ إلى مَسجِدٍ في بَيتِهِ، فَرَكَعَ [رَكْعَتَينِ. فما][10] انْصَرَفَ حتى بَدا لِيَ السُّرورُ في وجْهِهِ، ثم قالَ لي: اذْهَبْ،

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مصحفاً. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) انظر الوجه الثالث من باب غلام في كتابنا (وجوه القرآن) للضرير الحيري. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: الغلامين. (٨) في الأصل وم: لندخلن. (٩) من م، في الأصل: أو توضاء. (١٠) في الأصل وم: فيه ركعتين فلما.

فادخِلهُم ومَن وجَدتَ مِن أصحابي، فادخَلتُهُم.[1] فلما رآهُمُ النّبيُّ قالَ لهم: إنْ شِئتُمْ أخبَرْتُكُم عمّا تَجِدونَهُ في كتابِكُم. [السيوطي في الدر المنثور ج٥/٤٣٧] فهذا إنْ ثَبَتَ [فإنه][2] يَدُلُّ أنهُ نَزَلَ عليهِ نَبأُ ذي القرنَينِ وخَبَرُهُ قَبلَ أنْ يُسألَ.

وأمّا أهلُ التأويلِ [فقد][3] قالوا جميعاً: إنهُ سُئِلَ قَبلَ أنْ يَنزِلَ عليهِ خَبَرُهُ، ثم نَزَلَ مِن بَعدِ السؤالِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: كانَ نَبيّاً. دليلُهُ ما قالَ: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] قالَ: هذا تَحكيمٌ مِنَ اللهِ إيّاهُ في ما ذُكِرَ، ولا يُولي الحُكمَ إلّا مَنْ كانَ نَبيّاً.

وأمّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه فإنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ: كانَ نَبيّاً أو مَلِكاً؟ فقالَ: لا واحدٌ منهما.

وقالَ غيرُ هؤلاءِ: إنهُ كانَ مَلِكاً. يَدُلُّ على ذلكَ الخَبَرُ الذي رَوى عُقبةُ بنُ عامرٍ الجُهَنيُّ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ خَبَرِهِ ونَبَئِهِ. قالَ: فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ غُلاماً مِنَ الرومِ، أُعطِيَ مُلْكاً، فَسارَ حتى بَلَغَ كذا على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ.

الآية ٨٤ والأشبَهُ أنْ يكونَ أنهُ كانَ مَلِكاً. ألا تَرى أنهُ قالَ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ [أي مَلَّكْنا لهُ الأرضَ][4] جُملَةً. ذَكَرَ تَمكينَ الأرضِ لهُ جُملَةً، يَصنَعُ فيها ما يَشاءُ، لم يَخُصَّ لهُ ناحيَةً منها دونَ ناحيَةٍ. وليسَ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية [القصص: ٥٧] وكقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ههنا خَصَّ مكاناً لهمْ دونَ مكانٍ. وأمّا في ذي القرنَينِ فَذَكَرَ[5] التَّمكينَ لهُ في الأرضِ، لم يَخُصَّ ناحيَةً منها دونَ ناحيَةٍ؛ فهو أنْ مَلَّكَهُ، ومَكَّنَ [لهُ][6] الأرضَ كلَّها.

وقولُ الحَسَنِ: إنهُ[7] عَلَّمَهُ، وَوَلّى لهُ الحُكمَ، فهذا لا يدلُّ أنهُ كانَ نَبيّاً؛ لأنَّ الملوكَ هُمُ الذينَ كانوا يَتَوَلَّونَ الجهادَ والغَزوَ في ذلكَ الزمانِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ [البقرة: ٢٤٦] إنَّ الملوكَ هُمُ الذينَ كانوا يَتَوَلَّونَ الجهادَ والغَزوَ والقِتالَ في ذلكَ [الزمانِ][8] معَ العَدُوِّ، فَعَلى ذلكَ هذا، وقولِهِ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ [الكهف: ٨٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨][9] يَحتَمِلُ هذا منهُ إلهاماً[10] مِنَ اللهِ تعالى أو تَعليمَ المَلِكِ الذي كانَ فيهِ أو كانَ معهُ نَبيٌّ، فأخبَرَ لهُ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ اختُلِفَ في ذلكَ: قالَ بعضُهُمْ: عِلْمُ المنازِلِ أي[11] منازِلِ الأرضِ ومَعالِمِها وآثارِها. وقالَ [بعضُهُمْ][12]: العِلْمُ والقُوَّةُ. وقالَ بعضُهُمْ: إعطاءُ السببِ الذي بِهِ صَلاحُ ما مَكَّنَ لهُ، ومَلَّكَ لهُ [ممّا تقعُ][13] الحاجةُ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ السببُ، كانَ أنعاماً، كانَ عليها يَحمِلُ الخَشَبَ، فَيَتَّخِذُ منهُ سَفينَةً إنِ استَقبَلَهُ بَحرٌ، فَيَعبُرُ بها، ثم يَنقُضُها، ويَحمِلُ الخَشَبَ على الأنعامِ، ويَعبُرُ البَرَّ على الدَّوابِّ. فذلكَ السَّبَبُ الذي ذُكِرَ.

وأصلُهُ أنهُ ذَكَرَ أنهُ آتاهُ الذي بِهِ صلاحُ ما مَكَّنَ، ومَلَّكَ عليهِ، ولم يُبيِّنْ ما ذلكَ السَّبَبُ؟ فلا نَدري ماذا أرادَ بذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٥ و٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ كأنهُ أرادَ، وطَلَبَ أنْ يَعرِفَ أنها أينَ تَغرُبُ؟ حينَ[14] قالَ: ﴿حَمِئَةٍ﴾ وفيه لُغتانِ[15]: حَمِئةٍ وحامِئةٍ. قالوا: مَنْ قَرَأها حاميَةً أرادَ في عينٍ حارَّةٍ، ومَنْ قَرَأَ ﴿حَمِئَةٍ﴾ مَهموزَةً بِغَيرِ الفٍ أرادَ الحَمْأةَ، وهي الطينَةُ السوداءُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانوا كُفّاراً ومُؤمِنينَ الفريقانِ جميعاً. فقالَ في الكفارِ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ وهو القَتلُ. وقالَ في المؤمِنينَ: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] ليسَ على التَّخييرِ، ولكنْ على الحُكمِ في كلِّ فَريقٍ على حِدَةٍ. وقالَ

---

(١) في الأصل وم: نادخلهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: له. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: إن. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كذا. (١٠) في الأصل وم: إلهام. (١١) في الأرض وم: أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٩.

بعضُهُم: كانوا كلُّهُم كُفّاراً، فيكونُ تأويلُهُ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ إذا لم يُجيبوكَ، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إذا أجابوكَ، وآمَنوا باللهِ.

الآيتان ٨٧ و٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا [ما ذَكَرْنا][1] أنهُ حَكَمَ بذلكَ بِتَعليمِ نَبيٍّ كانَ معهُ، أو حَكَمَ بذلكَ لِما كانَ عَرَفَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الكُفّارِ: القَتْلُ. والإهلاكُ، وفي المؤمنينَ: التَّرْكُ والإحسانُ، أو أُلْهِمَ بذلكَ إلهاماً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي عارِفاً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُسْرًا﴾ مَعروفاً وقالَ بعضُهُمْ: اليُسْرُ هو اسْمُ كلِّ خيرٍ وبَرَكَةٍ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي بلاغاً لِحاجَتِهِ. وقالَ غيرُهُ: ما ذَكَرْنا مِنَ السببِ الذي بهِ مَلَكَ طريقَ المَغْرِبِ والمَشْرِقِ، وبهِ بَلَغَ ما بَلَغَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتَلَفوا في ما سُمّيَ ذا[2] القَرْنَينِ لأنهُ دعا قَومَهُ إلى توحيدِ اللهِ والإيمانِ بهِ، فَضَرَبوهُ على قَرْنِهِ الأيمَنِ، ثم غابَ ما شاءَ اللهُ. وفي بَعْضِ/ ٣٢١ ـ ب/ الأخبارِ ماتَ، ثم حَضَرَ، فَدَعاهُمْ ثانياً، فَضَرَبوهُ على قَرْنِهِ الأيسَرِ، فَبَقِيَ عليهِ لِذلكَ [أثَرٌ، فَسُمّيَ لِذلكَ][3] ذا القَرْنَينِ، لا أنْ كانَ لهُ [قَرْنانِ كَقَرْنَي الثورِ][4] وقالَ بعضُهُمْ: سُمّيَ ذا القَرْنَينِ لأنهُ كانَ لهُ ذُؤابَتانِ؛ أعني ضَفيرتانِ. وقالَ بعضُهُمْ: سُمّيَ ذا[5] القَرْنَينِ لأنهُ بَلَغَ قَرْنَي الشمسِ مَغْرِبَها ومَطْلِعَها. وقالَ بعضُهُمْ: سُمّيَ ذا القَرْنَينِ لأنهُ عاشَ حياةَ قَرْنَينِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ بالسَّبَبِ الذي ذَكَرَ أنهُ أعطاهُ [إيّاهُ لَمّا][6] بَلَغَ مَغْرِبَ الشمسِ ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾. قالَ الحَسَنُ: إنَّ تلكَ الأرضَ تَميدُ، وتَميعُ، لا تَقِرُّ، ولا تَسْكُنُ، و[7] لا تَحْتَمِلُ البِناءَ والحَجَرَ، فإذا طَلَعَتِ الشمسُ طَلَعَتْ عليهِمْ، لِما لم يَكُنْ لهمْ بِناءٌ ولا سِتْرٌ، تَهَوَّروا في البِحارِ. فإذا ارْتَفَعَتْ عنهمْ خَرَجوا.

وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ الشمسَ إذا طَلَعَتْ كانَتْ حَرارَتُها أشَدَّ عندَ طُلوعِها مِنْ غُروبِها، فَتَحْرِقُ كلَّ شيءٍ حتى لا تُبْقِيَ لهمْ ثَوباً[8] ولا بِناءً ولا خَشَباً[9] ولا غيرَهُ إلا أحْرَقَتْهُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كذلكَ أخبَرَنا رسولُ اللهِ مِنْ نَبَإِ ذي القَرْنَينِ وخَبَرِهِ على ما كانَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أعطَينا لهُ مِنَ السَّبَبِ حتى بَلَغَ مَطْلِعَ الشمسِ كما بَلَغَ مَغْرِبَها بالسَّبَبِ الذي ذَكَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قيلَ لهُ في المَطْلِعِ مِنْ قولِهِ: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] كما قيلَ لهُ في المَغْرِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: [هو][10] صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أي عَنْ عِلْمٍ سأتلو عليكُمْ: وقالَ بعضُهُمْ: هو على الابتداءِ، ليسَ على الرَّبْطِ والصِّلَةِ على الأوّلِ؛ أي قد أحَطْنا عِلْماً[11] بما لَدَيهِ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ [وقولُهُ تعالى:][12] ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ما ذَكَرْنا في بُلوغِهِ مَغْرِبَها ومَطْلِعَها، أي أعطَينا لهُ مِنَ السَّبَبِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ في بَعضِ القراءاتِ السُّدَّينِ، بالرَّفعِ[13] فإنْ كانَ بَينَ اللُّغَتَينِ فَرْقٌ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ السُّدّانِ بالرَّفعِ الجَبَلَينِ اللَّذينِ كانا هنالكَ. والسَّدَّينِ بالنَّصبِ هو بِناءُ ذي القَرْنَينِ. وإنْ لم يَحْتَمِلِ الفَرْقَ فهو ما بَنَى هو، أو مَكانٌ[14] في

---

(١) في الأصل وم: ذو. (٢) في الأصل وم: ذو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: قرن كقرن. (٥) في الأصل وم: ذو.
(٦) في الأصل وم: كما. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ثوب. (٩) في الأصل وم: خشب. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) في الأصل وم: علمنا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: بالنصب، انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٣. (١٤) في الأصل وم: مكانا.

الخِلْقَةِ. ثم اخْتُلِفَ في ذلكَ السَّدِّ. قالَ بعضُهُمْ: هو المَنْفَذُ الذي كانَ بينَ طَرَفَي الجَبَلِ الذي كانَ مُحيطاً بالأرضِ، يَدْخُلُ فيهِ يَأجوجُ ومَأجوجُ إلى هذهِ الأرضِ. فَسَدَّ ذو القرنَينِ ذلكَ المَنْفَذَ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانا جَبَلَينِ:

أحدُهما: سِتْرٌ[1] بينَ يأجوجَ.

والثاني: بينَ مأجوجَ. فَسَدَّ [ذو القَرْنَينِ][2] ذلكَ، واللهُ أعلَمُ كيفَ كانَ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قالَ الحَسَنُ: كانوا يَفْقَهونَ ما بِهِ صَلاحُ مَعاشِهِمْ وما بِهِ بَقاؤُهُمْ. ولكنْ كانوا لا يَفْقَهونَ الهُدى مِنَ الضلالِ والخيرَ مِنَ الشَّرِّ ونَحْوَهُ.

الآية ٩٤ وقالَ بعضُهُمْ: لا يَفْقَهونَ قولاً مِنْ غيرِ كلامِهِمْ ولِسانِهِمْ. ولكنْ يَفْقَهونَ بلسانِهِمْ وكلامِهِمْ. وذو القَرْنَينِ كانَ يَعرِفُ الألسُنَ كُلَّها، فَفَقِهوا هُمْ [منهُ][3]، وفَقِهَ هو منهمْ حينَ[4] ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي جُعلا: أجراً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

الآية ٩٥ و﴿قَالَ﴾ هو ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ فَهِمَ ذو القَرْنَينِ منهُمْ، وفَهِموا أيضاً منهُ ما ذَكَرْنا. فَدَلَّ ذلكَ أنهمْ كانوا لا يَفْقَهونَ بِلِسانِ غَيرِهِمْ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنهمْ لا يَفْقَهونَ شيئاً قليلاً مِنَ القولِ، وإنْ كانوا لا يَفْقَهونَ كثيراً، لأنهُ يقولُ: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فهو يَتَكَلَّمُ على القُرْبِ لا على النَّفْيِ رَأساً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾[5] جُعْلاً وأجراً ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ على تأويلٍ، يكونُ قولُهُ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ لأنهُ يقولُ: إنهُ كانَ نَبياً حينَ[6] قالَ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الكهف: ٨٤]

وعلى قَولِ غَيرِهِ يكونُ ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ المُلْكِ والسَّبَبِ الذي أعطاني، وأبْلُغُ بهِ مَغْرِبَ الشمسِ ومَطْلِعَها ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا تَذْكُرونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بما أتَقَوّى بهِ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي سَدًّا.

الآية ٩٦ **وقولُهُ تعالى:** ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي قِطَعَ الحديدِ. وقالَ بعضُهُمْ: سَأَلَهُمُ الحديدَ لأنَّ المَكانَ مَكانُ الحديدِ. و قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الحديدَ كانَ ألْيَنَ لهمْ مِنَ اللَّبِنِ أو القِطْرِ. ولكنْ لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالسَّمْعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي بَلَغَ ذلكَ السَّدُّ رأسَ الصَّدَفَينِ، وهما جَبَلانِ، وسَوّى بَيْنَهُما[7]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أصُبَّ عليهِ قِطْراً: قيلَ: نُحاساً، وقيلَ: رَصاصاً. ذُكِرَ أنهُ كانَ يَبْسُطُ الحديدَ صَدْراً، ثم يَبْسُطُ الحَطَبَ فوقَهُ صَدْراً، ثم حديداً فوقَ الحَطَبِ حتى بَلَغَ رأسَ الجَبَلَينِ، وسَوّى بَيْنَهُما[8] على هذا السَّبيلِ. ثم أذيبَ القِطْرُ، فَصُبَّ فيهِ، فَجَعَلَ القِطْرُ يَحْرِقُ الحَطَبَ، ويُذيبُ الحديدَ حتى دَخَلَ القِطْرُ مكانَ الحَطَبِ، وصارَ مكانَهُ، فالْتَزَقَ القِطْرُ بالحديدِ. على هذا ذُكِرَ أنهُ بَنى ذلكَ السَّدَّ.

وقالَ الحَسَنُ: كانَ القِطْرُ لهُ كالمِلاطِ لنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ **وقولُهُ تعالى:** ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يَعْلُوهُ؛ يعني على ذلكَ السَّدِّ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ في أسْفَلِهِ ولا يُزادُ على المذكورِ في الكتابِ في هذهِ الأنباءِ والقِصَصِ خَوفاً [مِنَ الشهادةِ][9] على اللهِ والكَذِبِ عليهِ. ولكنْ نَذْكُرُ مِقْدارَ ما ذُكِرَ في الكتابِ، لا نَزيدُ على ذلكَ. وفي الكتابِ القَدْرُ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: سترا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: خراجاً وهي قراءة حمزة والكسائي وغيرهما، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٤. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: بهما. (٨) في الأصل وم: بهما. (٩) في الأصل وم: للشهادة.

قالَ القُتَبِيُّ: يُقالُ لِلْجَبَلِ السَّدُّ، وزُبُرٌ[1] قِطَعٌ، والقِطْرُ النحاسُ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يَعْلوهُ؛ يقالُ: ظَهر فلانٌ السَّطْحَ إذا عَلاهُ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ، وقالَ: السُّدَّينِ: ناحِيَتَي الجَبَلِ، والرَّدْمُ السَّدُّ، والصَّدَفينِ هو مِثْلُ السُّدَّينِ ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أَصُبَّ عليهِ نُحاساً.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ يَحْتَمِلُ أنْ [يكونَ][2] السَّدُّ الذي بَنى، وحالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ يَأجوجَ و مأجوجَ[3]، منهُ رَحْمَةً، أي بِرَحْمَتِهِ كانَتْ تلكَ الحَيلولَةُ، أي[4] كانَ ذلكَ مَنَّةً ونِعْمَةً[5] مِنَ اللهِ، والرَّحْمَةُ هي النِّعْمَةُ؛ أي هذا السَّدُّ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ نِعْمَةٌ مِنْ ربي عليكُمْ. ثم فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما: ذَكَرَ أنَّ ذلكَ كانَ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ، إذا فَرَغَ منهُ، وقد كانَ في الإبْتِداءِ حينَ سَألوهُ أنْ يَجْعَلَ لهمُ السَّدَّ أضافَ الفِعْلَ إلى نفسِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ فَدَلَّ ذلكَ أنَّ ما فَعَلَ بِرَحْمَةٍ منهُ وفَضْلٍ، وأنَّ لهُ في ذلكَ صُنْعاً.

والثاني: فيهِ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ بالخَلْقِ ما ليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، لأنهُ لا يَخْلو: إمّا أنْ كانَ الأوَّلُ لهمْ أصْلَحَ في الدينِ، ثم فَعَلَ الثانيَ: [فلا يكونُ الثاني: أصْلَحَ لهمْ في الدينِ، وإمّا[7] أنْ كانَ الأصْلَحُ][8] لهمْ في الدينِ الثاني: فالأوَّلُ لم يكُنْ. ثم ذَكَرَ أنَّ ذلكَ رَحْمَةٌ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وهو المَوعودُ، لأنَّ الوَعْدَ لا يَجيءُ؛ فكأنهُ قالَ: مَوعودُ ربي، وهو خُروجُ يَأجوجَ ومَأجوجَ، أو فَتْحُ ذلكَ السَّدِّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي كَسْراً أو هَدْماً على ما ذَكَرْنا. [وقولُهُ][9] ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي هَدَمَهُ، وسَوّاهُ بالأرضِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي ألْصَقَهُ بالأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ هذا وَعْدٌ، والأولُ مَوعودٌ.

الآية ٩٩ قوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يَجولُ بعضُهُمْ في بَعْضٍ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ عندَ السَّدِّ الذي بَناهُ ذو القَرْنَينِ يموجونَ عندما[10] فَتَحَ ذلكَ السَّدَّ. أو يَذْكُرُ هذا لِكَثْرَتِهِمْ و ازْدِحامِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ظاهِرُهُ على الماضي، والمُرادُ منهُ المُسْتَقْبَلُ، أي يُنْفَخُ في الصُّورِ فَيَجْمَعُهُمْ جميعاً. ومِثْلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ: يُذْكَرُ الماضي بِحَرْفِ المُسْتَقْبَلِ، والمُسْتَقْبَلُ بِحَرْفِ الماضي/ ٣٢٢ ـ أ/.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عَرَضَها عليهِمْ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوا فيها كقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ العَرْضُ كِنايَةً عنِ التَّعْذيبِ بها بَعْدَ ما أُدْخِلوا فيها كقولِهِ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ ظُلْمَةَ الكُفْرِ تَسْتُرُ، وتَحْجُبُ نورَ القَلْبِ، ونورَ كلِّ حاسَّةٍ مِنْ حواسِّهِ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤادِ وغَيرِهِ؛ إذْ لِكُلِّ حاسَّةٍ مِنْ هذهِ الحَواسِّ نورٌ وضياءٌ في سِرِّيَّتِها، لا تُبْصِرُ، ولا تَسْمَعُ الحَقَّ والحُجَّةَ إلّا بِنُورَينِ جميعاً نُورِ الظاهِرِ ونورِ السِّرِّيَّةِ والباطِنِ.

فالكُفْرُ يَسْتُرُ، ويُغَطّي ذلكَ النورَ [فَيَجْعَلُ صاحبَهُ][11] لا يُبْصِرُ الحَقَّ، ولا يَنْظُرُ العِبَرَ، ولا يَتَفَكَّرُ، ولا يَتَجَلّى لهُ الحَقُّ بِنُورِ الظاهِرِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: فذلك. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في م: أو. (٨) من م، في الأصل: أصلح. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عنده في. (١١) في الأصل وم: فجعل.

وللإيمانِ نُورٌ وضياءٌ يُبْصِرُ [صاحِبُهُ][(١)] بهِ، ويُسْمِعُ، ويَرْفَعُ[(٢)] لهُ غِطاءَ كلِّ شيءٍ حتى يَتَجلَّى لهُ الحقُّ، ويَعْرِفُ بهِ حُسْنَ [كلِّ حَسَنٍ][(٣)] وقُبْحَ كلِّ قَبيحٍ. فهو كما يَرى الإنسانُ الشيءَ بنُورِ بَصَرِهِ وبنورِ الهواءِ. فإذا ذَهَبَ أحَدُهما صارَ بحيثُ لا يُبْصِرُ، ولا يَرَى شيئاً. فَعَلَى ذلكَ إنما يَعْرِفُ الشيءَ، وتَظْهَرُ لهُ حقيقَتُهُ بنورَينِ بِنُورِ القَلْبِ وبِنُورِ الحواسِّ. فإذا غَطَّتْ ظُلْمَةُ الكُفْرِ نورَ القَلْبِ صارَ لا يُبْصِرُ شيئاً، ولا يَعْتَبِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَنْطِقُ بالحقِّ. والإيمانُ يُنَوِّرُ ذلكَ [القَلْبَ، ويُضيئُهُ، فَيَجْعَلُهُ][(٤)] يُبْصِرُ كلَّ شيءٍ، ويَتَجلَّى لهُ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، ويَعْرِفُ[(٥)] الآياتِ مِنَ التَّمْويهاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ فيهِ وجهانِ مِنَ الدلالَةِ:

أحَدُهما: أنهُ نَفَى عنهمُ اسْتِطاعةَ السَّمْعِ، وقد كانَ لهمُ السَّمْعُ. فَدَلَّ أنَّ الاسْتِطاعَةَ التي هي اسْتِطاعَةُ الفِعْلِ تَقْتَرِنُ بالفِعْلِ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأَخَّرُ [حينَ][(٦)] قالَ: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ وكذلكَ قولُ صاحِبِ موسى حينَ[(٧)] قالَ لهُ ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨و٧٢و٧٥] في [ثلاثةِ][(٨)] مواضِعَ، فَدَلَّ ما نَفَى عنهُ الفِعْلَ إنما تُقارِنُ الفِعْلَ، لا تَحْتَمِلُ التَّقَدُّمَ والتأخُّرَ][(٩)] .

والثاني: فيهِ دلالةٌ أنَّ هنالكَ اسْتِطاعةً، هِمْ يَسْتَفيدونَ بما وَعَدَ اللهُ، ويَسْتَوجِبونَ بهِ، فَضَيَّعوها باشْتِغالِهِمْ بِغَيرِها حينَ[(١٠)] عُوتِبوا، واسْتَوجَبوا ذلكَ العتابَ والتَّوبيخَ بالتَّضْييعِ الذي كانَ منهُمْ. فلو لم يَكُنْ [ذلكَ منهمْ][(١١)] لم يكنْ لِلْعِتابِ والتوبيخِ الذي عُوتِبوا، ووُبِّخوا مَعْنًى.

قالَ قومٌ: إنما نَفَى عنهمُ ذلكَ لِلاسْتِثْقالِ الذي كانَ منهمْ. وقد يُقالُ مِثْلُهُ على المجازِ لِلاسْتِثْقالِ دونَ الحقيقةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: ما أستطيعُ أنْ أنْظُرَ إليكَ لِكذا، وهو ناظِرٌ إليهِ. لكنْ قد ذَكَرْنا أنهُ على الوجهِ الذي قالَ: لا أستطيعُ أنْ أنْظُرَ إليكَ، وهو ناظرٌ إليهِ، غَيرَ مُسْتَطيعِ النظرَ إليهِ، وهو نَظَرُ رَحْمَةٍ وشَفَقَةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الطَّبْعِ، وهو قولُ الحَسَنِ. و قالَ بعضُهُمْ: إنما نَفَى ذلكَ عنهُمْ [لِما لم يَنْتَفِعوا بهِ كما نَفَى عنهُمْ][(١٢)] السَّمْعَ والبَصَرَ والنُّطْقَ لِما لم يَنْتَفِعوا بهِ، ليسَ على أنهمْ لم يَكُنْ لهمْ تلكَ الحواسُّ. فَعَلَى ذلكَ ما نَفَى عنهمْ مِنَ الاسْتِطاعةِ لِما لم يَنْتَفِعُوا بها، ليسَ على أنها ليسَتْ قَبْلُ هكذا. نَفَى عنهمْ ذلكَ لمّا عَمُوا، وصَمُّوا عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها[(١٣)]: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ عَبَدوا في الدنيا الملائكةَ والرسلَ، واتَّخذوهُمْ مِنْ دوني أولياءَ أنْ يكونوا لهمْ أولياءَ في الآخِرَةِ، ويَتَوَلَّونَ شَفاعَتَهُمْ، يَشْفَعونَ لهمْ، ويَنْصُرونَ. كلا لنْ[(١٤)] يَصيروا لهمْ أولياءَ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقولِهِمْ[(١٥)]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والثاني: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ المُخْلِصينَ ﴿دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ويَتَوَلَّوهُمْ[(١٦)]؛ أي لا يَقْدِرونَ على أنْ يَتَّخِذوا أولياءَ مِنْ دوني، وقد[(١٧)] كانوا يدعونَ المؤمنينَ إلى دينِهِمْ والتَّوَلِّي لهمْ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩و١٠٠].

والثالث: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ أنَّ ما عَبَدوا، واتَّخَذوا مِنْ دوني أولياءَ أني أمَرْتُهُمْ بذلكَ، وأذِنْتُ لهمْ حينَ[(١٨)] قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ونحوَهُ[(١٩)]. كلّا إنهُ [ما أمَرَهُمْ بذلكَ وما][(٢٠)] أذِنَ لهمْ في ذلكَ.

ومَنْ قَرَأَ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ على الجَزْمِ[(٢١)] فهو على إسْقاطِ ألِفِ الاسْتِفْهامِ؛ يَعْني فَحَسْبُ الذينَ كَفَروا، فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ويبصر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويضيء فجعل. (٥) في الأصل وم: وعرفوا. (٦) في الأصل: حيث. (٧) في الأصل: حيث. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: إن. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: ويتولونهم. (١٧) من م، في الأصل: و. (١٨) في الأصل وم: حيث. (١٩) من م، في الأصل: ونحو. (٢٠) في الأصل وم: آمرهم بذلك أو. (٢١) هي قراءة ابن كثير وغيره، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٩.

أحدُها: فَحَسِبَ الذينَ كَفَروا، واتَّخذوا عِبادي مِنْ دوني أولياءَ ما أعْتَدْنا لهمْ مِنْ جَهَنَّمَ كقولِهِ[1]: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ الآية [المجادلة: ٨].

والثاني: فَحَسْبُ[2] الذينَ كَفَروا ما اتَّخذوا مِنْ دوني أولياءَ؛ أي أما كَفاهُمْ ذلكَ؟ وما حانَ أنْ يَرْجِعوا إلى عبادَتي وألوهِيَّتي؟ وقد أقَمْتُ لهمُ الآياتِ والحُجَجَ على ذلكَ.

والثالثُ: فَحَسْبُ[3] لهمْ مِنَ الذُّلِّ ما اتَّخذوا مِنْ دوني أولياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿نُزُلًا﴾ هو النُّزولُ، وهو كالنُّزَلِ[4]. وقالَ بعضُهُمْ: هو المَنْزِلُ والأنزالُ، أي يأكلونَ فيها النارَ، فيكونُ مأكَلُهُمْ ومَشْرَبُهُمْ مِنَ النارِ. قالَ القُتَبِيُّ: النُّزُلُ ما يُقَدَّمُ لِلضَّيفِ ولأهلِ العَسْكَرِ.

الآيتان ١٠٣ و١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا خَرَجَ على مُقابَلَةِ قولٍ كانَ مِنْ رُؤساءِ الكَفَرَةِ وجَوابٍ لهمْ؛ وهو أنَّ الرُّؤساءَ منهمْ كانوا يُوَسِّعونَ الدنيا على بَعْضِ أتباعِهِمْ، ويُحْسِنونَ إليهِمْ. ثم صارَ أولئكَ الأتباعُ أتباعاً لرسولِ اللهِ، ودَخلوا في دينِهِ، فضاقَتْ عليهِمُ الدنيا، وذَهَبَتِ المَنافِعُ التي كانَتْ لهمْ منهُمْ، فَعَيَّرَهُمْ بذلكَ أولئكَ الكَفَرَةُ، وَوَبَّخوهُمْ، على ما اختاروا مِنَ الدينِ أنهُ لو كانَ حَقًّا لاتَّسَعَتْ عليهِمُ الدنيا كما اتَّسَعَتْ علينا وعليهِمْ ما داموا على دينِنا أو كلامٍ نَحْوِ هذا فأجابَهُمُ اللهُ بذلكَ، فقالَ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ الآية.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاِبْتِداءِ في أهلِ الصوامِعِ منهُمْ والرُّهْبانِ الذينَ اعْتَزَلوا النِّساءَ، وحَبَسوا أنْفُسَهُمْ لِعِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، وجَهَدوا[5] هُمْ فيها، وحَمَلوا على أنفسِهِمُ الشدائِدَ والمَشَقَّةَ. فأخبَرَ ﷺ أنَّ هؤلاءِ أخْسَرُ أعمالاً وأضَلُّ[6] سَعْياً مِنَ الذينَ طَلَبوا الدنيا والرِّئاسَةَ فيها، ولم يَفْعَلوا ما فَعَلَ هؤلاءِ، وإنْ كانوا في الكُفْرِ سَواءً. والأخسَرُ هو الوَصْفُ بالخُسْرانِ على[7] النهايَةِ والغايَةِ.

وجائزٌ أنْ يُسْتَعْمَلَ أفْعَلُ في مَوضِعِ فاعلٍ[8]. هذا في اللغةِ غَيرُ مُمْتَنِعٍ، فيكونُ تأويلُهُ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ بالخاسِرينَ ﴿أَعْمَٰلًا﴾ كقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢ وغافر: ١٠] أي كبيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ضَلَّ﴾ أي ذَلّوا لِعِبادَتِهِمُ التي عَبَدوا: تلكَ الأوثانَ والأصنامَ، وخَذَلوا أنفُسَهُمْ بذلكَ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٦٩] [أي][9] أذلّوا أنفُسَهُمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ.

والثاني: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ الذي سَعَوا في الدنيا بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ في الآخِرَةِ لأنهمْ قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[10]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَهُ.

فَضَلَّ ما أمَلوا في الآخِرَةِ بِسَعْيِهِمْ في الدنيا[11]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبدوها ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ﴾ بما أنْفَقوا على أولئكَ، وَوَسَّعوا ﴿صُنْعًا﴾ أي خَيراً أو مَعْروفاً؛ أي ليسَ [ذلكَ بِصُنْعٍ، ولا][12] خَيرٍ.

وفيهِ دلالةٌ أنهمْ يُؤاخَذونَ بِفِعْلِهِمُ الذي فَعَلوا، وإنْ جَهِلوا الحَقَّ. وهكذا قولُنا: إنَّ مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، وهو جاهلٌ، فإنهُ يُؤاخَذُ بهِ بَعْدَ أنْ يكونَ لهُ سَبيلُ الوصولِ إلى الحَقِّ بالطَّلَبِ والتَّعَلُّمِ حينَ قالَ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

الآية ١٠٥ ثم أخبَرَ مَنْ هُمْ، فقالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ. وقالَ الحَسَنُ: بدينِهِ. وقد ذَكَرْنا ذلكَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

---

(١) في الأصل وم: كقولهم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: من النزل، في م: من النزول.
(٥) في الأصل وم: وجهدوها. (٦) في الأصل وم: وأضلهم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: فعل. (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) في الأصل وم: و. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: والآخرة. (١٢) في الأصل وم: لهم ذلك بصنع لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِقَآيِهِۦ﴾ البَعْثُ أوِ المَصيرُ، وهو مذكورٌ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي لا نُقيمُ لهمْ وَزناً، وهو كقولِهِ[1] ﷻ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] فإذا لم تَربَحْ لهمْ خَسِرتْ عليهمْ /٣٢٢ ـ ب/ وقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: ٢٥] هذا يَدُلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ قد يُقامُ عليهِمُ الوَزْنُ.

الآية ١٠٦ ثم أخبَرَ ﷻ عَنْ جَزائِهِمْ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ ثم ذَكَرَ [ما][2] ذَكَرَ لِلكَفَرَةِ، فقالَ:

الآية ١٠٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ وكانَتِ الجنّاتُ التي لِلمُتَّقينَ [أربعاً][3] جنّاتِ النعيم وجَنّاتِ المَأوَى وجَنّاتِ عَدْنٍ وجنّاتِ الفِرْدَوسِ. ثم كانَ في كلِّ واحدةٍ منها؛ أعني الجنّاتِ، مَعْنى الأُخرَى، لأنهُ قالَ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [السجدة: ١٩] وهو ما يُؤْوَى إليهِ [وقالَ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨] وهو ظاهرٌ، وقالَ][4]: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الكهف: ١٣] مِنَ المُقامِ أو غيرِهِ. والفِرْدَوسُ سُمِّيَتْ فِرْدَوساً لأنها تكونُ مُلْتَفَّةً مَحفوفةً بالأشجارِ. وفي كلِّ واحدةٍ منها ذلكَ كُلُّهُ.

وقولُهُ: ﴿نُزُلًا﴾ قيلَ: مَنْزِلاً مِنَ النُّزولِ، وقيلَ مِنَ النُّزُلِ، وهو مِنَ الأنزالِ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي تَحَوُّلاً. أخبَرَ أنهمْ لا يَمَلّونَ، ولا يَسْأمونَ مِنْ نَعيمِها كما يَمَلُّ أهلُ الدنيا مِنْ نَعيمِها، ويَسْأمونَ، لأنَّ السرورَ بما يُمَلُّ مِنْ نِعْمَةٍ، ويُرْغَبُ في أُخرَى. فأخبَرَ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ لا يَمَلّونَ، ولا يَسْأمونَ، ولهمْ فيها ما يَشْتَهونَ، ولهمْ فيها ما يَتَخَيَّرونَ.

ورُوِيَ أنَّ ابْنَ عباسٍ سَأَلَ كَعْباً عنِ الفِرْدَوسِ، فقالَ: هي جَنّاتُ الأعنابِ بالسُّرْيانيَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ ما ذَكَرْنا أنها سُمِّيَتْ [بذلكَ][5] لِكَثْرَةِ أشجارِها والْتِفافِها.

ورُوِيَ عَنْ عبادةَ بْنِ الصامِتِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الجنةُ مئةُ دَرَجَةٍ ما بينَ كلِّ دَرَجَتَينِ كما بَينَ السماءِ والأرضِ: الفِرْدَوسُ أعلاها دَرَجَةً؛ مِنْ فَوقِها يكونُ العَرْشُ[6]، منها تَتَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ الأربَعَةُ. فإذا سَأَلْتُمُ اللهَ الجَنَّةَ فاسألوهُ الفِرْدَوسَ» [البخاري ٢٧٩٠]

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي تَحَوُّلاً. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ التَّحَوُّلِ. وقالَ: ﴿نُزُلًا﴾ قالَ هذا مِنَ الطعامِ والشَّرابِ، وجمعُ النُّزُلِ النِّزالُ، وجَمْعُ الفِرْدَوسِ الفراديسُ. وقالَ القُتَبِيُّ: النُّزُلُ ما يُقَدَّمُ للضيفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا خَرَجَ مُقابِلَ قولِهِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وجوابُهُ لِما ذُكِرَ فيهِ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]. فقالَ ﷻ عندَ ذلكَ جواباً لِقولِهِمْ: إنهُ لو بَسَطَ ما أَوْدَعَ فيهِ مؤمنٌ مِنَ[7] المعاني والحِكْمَةِ، فَشَرَحَ ذلكَ، فَكَتَبَ بما ذَكَرَ، لَبَلَغَ القَدْرَ الذي ذَكَرَ، وازدادَ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ أي لو قالَ ما خَلَقَ، وأمْلَى أني خَلَقْتُ كذا، وخَلَقْتُ كذا، ويَكْتُبُ[8] جميعَ ما خَلَقَ، لَبَلَغَ القَدْرَ الذي ذَكَرَ. فَيَرجِعُ تأويلُهُ إلى ما خَلَقَ مِنْ أصنافِ الخَلْقِ وأجناسِ الأشخاصِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لِبيانِ ما خَلَقَ ربي، فهو يرجِعُ إلى الأوَّلِ. وقالَ: فائدةُ ما ذَكَرَ [أمرانِ أحَدُهما][9]: هو أنْ يَعرِفوا أنَّ خلائِقَهُ وما أنْشَأَ خارجٌ[10] عنِ الوقوعِ في الأوهامِ. فالذي أنْشَأَ ذلكَ وخَلَقَهُ أحرَى أنْ يكونَ خارجاً عنِ الوقوعِ في الأوهامِ والتَّصَوُّرِ فيها.

---

(١) في الأصل وم: ما قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: الفردوس. انظر سنن ابن ماجه ح٢/ ٤٣٦ رقم الحديث/ ٣٤٩٦. (٧) في الأصل وم: نحو. (٨) من م، في الأصل: فليكتب. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: خارجا.

والثاني: أنْ يَعْرِفوا قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ وإحاطةَ عِلْمِهِ بالخَلائِقِ وما أنْشأ، فَيَعْلَموا أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا فهو على البَعْثِ الذي أنكروا أقْدَرُ، ومَنْ أحاطَ عِلْمُهُ بما ذَكَرَ فهو على الإحاطةِ بأفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ [أعْلَمُ][1] وأعْرَفُ، لِيكونوا على الحَذَرِ أبداً في كلِّ وقْتٍ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ حُجَجَهُ وآياتِهِ التي أقامَها على وَحْدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ؛ أي لو كُتِبَ ذلكَ لَبَلَغَ ذلكَ ما ذَكَرَ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنَ الكلماتِ القرآنَ فالتأويلُ ما ذَكَرْنا بَدْءاً أنهُ خَرَجَ كانَ على الجوابِ والمقابَلَةِ لِقولٍ كانَ منهمْ.

[ويَحْتَمِلُ][2] ما قالَهُ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: إنَّ كلماتِهِ خَلْقُهُ أوِ البَيانُ عن خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ هذا ليسَ على التَّحَدِّي، ولكنْ على التَّعْظيمِ والإبلاغِ. وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] دَلَّ هذا على أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أنْ ليسَ لِذلكَ المَدَدِ حَدٌّ ولا نهايَةٌ. ولكنْ ذَكَرَ على التَّعْظيمِ لهُ والإبلاغِ.

وفيهِ دلالةٌ أنْ ليسَ لِما خَلَقَ اللهُ مِنَ العلومِ نهايةٌ ولا غايةٌ تُدْرِكُهُ الخلائِقُ، ولكنْ يُؤْخَذُ مِنْ كلِّ جِنْسٍ شيءٌ، فَيُعْمَلُ بهِ.

وفيهِ أنْ ليسَ الأمْرُ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ، والمَقْصودُ منهُ العِلْمَ نفسَهُ، ولكنَّ المَقْصودَ منهُ العَمَلُ بما يُعْلَمُ؛ إذْ ليسَ للعلومِ نهايَةٌ ولا حَدٌّ، يَبْلُغُ ذلكَ البَشَرُ. فدَلَّ أنهُ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أمَرَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ. ثم يكونُ لِذلكَ الأمْرِ وإخبارِهِ إيّاهُمْ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ وجوهٌ مِنَ المَعْنى.

أحَدُها: أنهمْ كانوا يَسْألونَهُ آياتٍ خارجةً عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوْقِهِمْ، فأمَرَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ لا يَقْدِرُ على مايسألونَهُ مِنَ الآياتِ التي تَخْرُجُ عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوْقِهِمْ. وليسَ لأحدٍ التَّحَكُّمُ على اللهِ والتَّخَيُّرُ عليهِ في شيءٍ. إنما ذلكَ إلى اللهِ؛ إنْ شاءَ أنْزَلَ، وإنْ شاءَ لم يُنْزِلْ، وأنا لا أمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِيَعْرِفوا أنهُ إذا جاءَ مِنَ الآياتِ التي لا يَحْتَمِلُ وُسْعُ البَشَرِ أنْ يأتوا بِمِثْلِها: أنهُ إنما أتى بذلكَ مِنْ عندِ اللهِ لا مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ، إنْ عَلِموا أنَّ وُسْعَ البَشَرِ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، فلمّا أتاهُمْ بذلكَ إنما أتى بها مِنْ عندِ اللهِ، وأنهُ رسولٌ على ما يقولُ.

والثالثُ: أمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ هذا: إنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ لئلا يَحْمِلَهُمْ فَرْطُ حُبِّهِمْ [إيّاهُ اتِّخاذَهُ][3] إلهاً ربّاً على ما اتَّخَذَ قومُ عيسى عيسى إلهاً ربّاً لِفَرْطِ حُبِّهِمْ إيّاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فإنْ كانَتِ الآيةُ في مُشْرِكي العَرَبِ فهمْ يُنْكِرونَ البَعْثَ، ولا يَرْجونَهُ. لكنهُ يكونُ ذَكَرَ لِقاءَ ربِّهِ لهمْ لأنهمْ عَرَفوا في أنفُسِهِمْ قديمَ إحسانِ اللهِ إليهِمْ ونِعَمِهِ[4] عليهِمْ. فَأُمِروا أنْ يَعْمَلوا[5] العَمَلَ الصالحَ لِيَسْتَديموا بذلكَ الإحسانَ الذي كانَ مِنَ اللهِ إليهِمْ، فيَحْمِلَهُمُ العَمَلُ على التوحيدِ باللهِ والإقرارِ بالبَعْثِ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ في المؤمنينَ فيكونُ تأويلُهُ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي ثوابَ ربِّهِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لِيُثابَ عليهِ؛ إذِ الثوابُ إنما يكونُ لِلْعَمَلِ الصالحِ دونَ غيرِهِ.

وفيهِ ما ذَكَرْنا أنَّ المقصودَ مِنَ العِلْمِ العَمَلُ الصالحُ، والعِلْمُ[6] مِمّا ليسَ لهُ نهايةٌ، فالأمْرُ بِطَلَبِ ما لا نِهايَةَ لهُ ليسَ لِنَفْسِهِ، ولكنْ لِلْعَمَلِ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ الإشراكِ في العبادةِ والألوهيَّةِ على ما أشْرَكَ أولئكَ: أشْرَكوا الأصنامَ والأوثانَ التي عَبَدوها في عبادتِهِ وألوهيَّتِهِ. و يَحْتَمِلُ المُراآةَ في العَمَلِ الصالحِ على ما يُرائي بَعْضُ أهلِ التوحيدِ في بَعْضِ ما يَعْمَلونَ مِنَ الطاعةِ والخيراتِ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ.

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعمل.
(٦) من م، في الأصل: والعمل.

[سورة مريم

وهي مكيّةٌ][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ **قولُهُ[2] تعالى:** ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اسْمٌ مِنْ أسماءِ القرآنِ. وقيلَ: اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: يا كهيعص اغْفِرْ لي.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لا يَصِحُّ هذا مِنْ عليٍّ لأنَّ هذا لم يُذْكَرْ في أسماءِ اللهِ المَعْروفةِ التي يُدْعَى بها.

وقالَ بعضُهُمْ: حروفٌ مِنْ أسماءِ اللهِ افْتَتَحَ بها السورةَ. فهو ما ذَكَرْنا، وهو الأوّلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الكافُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: كافٍ[3]، والهاءُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: هادٍ[4]، والعَينُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: عالمٌ، والصادُ مِفْتاحُ اسْمِهِ: صادقٌ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ: الكافُ مِنْ كريمٍ، والهاءُ مِنْ هادٍ، والياءُ مِنْ حَكيمٍ، والعَينُ مِنْ عَليمٍ، والصادُ مِنْ صادقٍ.

وقالَ الربيعُ [بْنُ أنسٍ][5] الياءُ مِنْ قولِهِ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وقالَ/ ٣٢٣ ـ أ/ الكَلْبِيُّ: هو ثناءٌ، أثْنَى اللهُ على نفسِهِ، فقالَ: كافٍ هادٍ عالِمٌ صادقٌ؛ يقولُ: كافٍ لِخَلْقِهِ، هادٍ لِعبادِهِ، وعالِمٌ بِبَرِيَّتِهِ وبأمْرِهِ، صادقٌ في قولِهِ.

وقالَ بعْضُهُمْ: لم يُنْزِلِ اللهُ كتاباً إلّا ولَهُ فيه سِرٌّ، لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ. سِرُّ القرآنِ فواتِحُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: تَفْسيرُهُ[6] ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُ الحَسَنِ، وأمثالُ هذا قد أكْثَروا فيه، وقد ذَكَرْنا الوَجْهَ في الحروفِ المُقَطَّعَةِ في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضعٍ.

الآية ٢ **وقولُهُ تعالى:** ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على الأمْرِ؛ أيِ اذْكُرْ لهمْ رَحْمةَ ﴿رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ بالإجابَةِ لهُ عندَ سؤالِهِ الوَلَدَ في الوَقْتِ الذي أيِسَ مِنَ الوَلَدِ في ذلكَ الوقتِ. فيكونُ فيهِ دلالةُ رسالَتِهِ حينَ ذَكَرَ لهمْ رَحْمَةَ ربِّهِ على عبدِهِ زَكَرِيّا، وأخْبَرَهُمْ على ما في كُتُبِهِمْ.

والثاني: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي هذا ذِكْرُ رَحْمَةِ ربِّكَ لِعَبْدِهِ زَكَرِيّا في دعائِهِ. وعلى هذا التأويلِ يكونُ الذِّكْرُ هو القرآنَ، وقد سَمّى اللهُ القرآنَ ذِكْراً في غَيرِ آيةٍ[7] مِنَ القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣ **وقولُهُ تعالى:** ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ في قَلْبِهِ على الإخلاصِ مِنْ غيرِ أنْ يَنْطِقَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ عن قومِهِ ومَنْ حَضَرَهُ. ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ: **أحَدُهما:** أخفاهُ، وأسَرَّهُ منهمْ، إخلاصاً للهِ تعالى وإصفاءً لهُ. **والثاني:** أخْفاهُ، وأسَرَّهُ منهمْ، حَياءً أنْ يَعيبوهُ أنهُ سألَ ربَّهُ الوَلَدَ في وقْتِ كِبَرِهِ وإياسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ **وقولُهُ تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي ضَعُفَ، ورَقَّ ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ اعْتَذَرَ إليهِ، وقَدَّمَ زَكَرِيّا ما حَلَّ بهِ مِنَ الكِبَرِ وبلوغِهِ الوَقْتَ الذي لا يُطْمَعُ في ذلكَ الوقتِ الوَلَدُ؛ أي بَلَغْتُ المَبْلَغَ الذي ضَعُفَ [فيه][8] بَدَني ورَقَّ عظمي. ثم سَألَ ربَّهُ الوَلَدَ؛ لَيسَ على أنهُ كانَ لا يَعْرِفُ قدرَةَ اللهِ أنهُ قادرٌ على هِبَةِ الوَلَدِ وإنْشائِهِ في كلِّ وَقْتٍ: الكِبَرِ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل وم: كافي. (٤) في الأصل وم: هادي. (٥) من م، في الأصل: ابن الربيع بن أنس. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) ساقطة من الأصل وم.

والضَّعفِ وبالسَّببِ وبغيرِ السَّبَب. لكنهُ لا يَعْرِفُ أنهُ يَسعُ، ويَصلُحُ سُؤالُ الوَلَدِ وهِبَتُهُ في الوَقْتِ الذي كانَ بَلَغهُ[1]، وهو الوَقْتُ الذي لا يُطْمَعُ فيهِ الوَلَدُ في الأغلَبِ، وهو ما ذُكِرَ في سورة آل عِمرانَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٣٧] فعندَ ذلكَ عَرَفَ زكريّا أنهُ يَسعُ دُعاءُ هِبَةِ الوَلَدِ وسُؤالُهُ في وقتِ الإياسِ حينَ[2] رَأىَ عندَ مريمَ فاكهةَ الشتاءِ في الصَّيفِ وفاكهةَ الصيفِ في الشتاءِ غَيرَ مُتغيِّرَةٍ عن حالِها. فسألَ عند ذلكَ ربَّهُ الولَدَ، وهو قولُهُ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآية [الآية: ٣٨] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي كُنتَ تُعوِّدُني الإجابَةَ في دعائي[3] إيّاكَ في ما مَضَى. وقالَ بعضُهُمْ: أي لم يكُنْ دعائي ممّا يَخيبُ عندَكَ[4]، وهما واحدٌ؛ ذَكَرَ مِنّتَهُ وفَضلَهُ الذي كانَ منهُ إليهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ قالَ الحَسَنُ: خافَ مَوالِيَهُ أنْ يَرِثوا مالَهُ. فأمّا عِلْمُهُ ونبُوَّتُهُ فيمّا يُورثُ. قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: هذا لا يَصِحُّ؛ لا يَحتَمِلُ أنْ يَخافَ زَكَريّا وِراثَةَ[مَوالِيهِ مالَهُ][5] فَيسألَ رَبَّهُ لِذلكَ الوَلَدَ لِيَرِثَ مالَهُ. ولكنْ كأنهُ خافَ أنْ يُضَيِّعَ مَوالِيهِ دينَهُ وسُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَسألَ رَبَّهُ أنْ يَهَبَ لهُ الوَلَدَ لِيَقومَ مَقامَهُ في حِفْظِ دينِهِ وسُنَّتِهِ. وقالَ: لا يَحتَمِلُ وِراثَةَ المالِ لِما رُوِيَ مِنَ الخَبَرِ: «إنا مَعاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ. ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ» [التمهيد ٧/ ١٧٥] فلا يَخْلو هذا مِنْ أحَدِ وجهَينِ: إمّا أنْ كانَ هذا في المالِ لهُ خاصّةً دونَ سائرِ الأنبياءِ، و إمّا أَلَمْ[6] يكُنْ زَكَريّا نَبيّاً. فَدَلَّ هذا أنهُ لا يَحتَمِلُ وِراثَةَ المالِ. فَدَلَّ أنهُ على العِلْمِ: أنْ يُضَيِّعَ المَوالي عِلْمي مِنْ ورائي.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ وسُؤالُهُ الوَلَدَ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ سَألَ رَبَّهُ الوَلَدَ الرَّضِيَّ الطَّيِّبَ لِيُذْكَرَ هو بهِ بَعْدَ وفاتِهِ بالأعمالِ والصَّنيعِ الذي كانَ منهُ في حياتِهِ، ويُدْعَى لهُ لِئلا يَنْقطِعَ ذِكْرُهُ ودُعاءُ الخَلْقِ لهُ. وهذا هو المعروفُ في الخَلْقِ أنهمْ يَذْكُرونَ، ويَدْعونَ لهمْ بالخَيراتِ التي كانَتْ في حالِ حياتِهِمْ، إذا كانَ لهُ وَلَدٌ صالحٌ، فَعَلَى ذلكَ سؤالُ زَكَريّا الوَلَدَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي لا تَلِدُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى﴾ أي يَلي أمْري. وقولُهُ: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ ما ذَكَرْنا ﴿يَرِثُنِى﴾ مالي ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ النُّبُوَّةَ، وقالَ [بعضُهُمْ][7]: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وارِثاً ﴿يَرِثُنِى﴾ مكاني وجُبورتي ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ المُلْكَ لأنهمْ كانوا ملوكاً، وكانوا أخوالَهُ، وهو كانَ جَبْراً، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

ولكنَّ قولَهُ: ﴿يَرِثُنِى﴾ ما كانَ لهُ مِنَ العِلْمِ والحِكْمَةِ والدينِ وغَيرِهِ ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ كانوا أخوالَهُ، ففيهِ أنَّ ذوي الأرحامِ يَرِثونَ بعضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قال بَعْضُهُمْ: لم نَجْعَلْ لهُ مِثْلَ يَحْيى مِنْ قَبْلُ في الفَضْلِ والمَنْزِلَةِ لأنهُ رُوِيَ عنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لم يكُنْ مِنْ وَلَدِ آدمَ إلّا وقد عَمِلَ بِخَطيئةٍ، أو هَمَّ بها غَيرُ يَحْيى ابْنِ زَكَريّا فإنهُ لم يَهُمَّ بخطيئةٍ، ولا عَمِلَ بها» [أحمد ١/ ٢٥٤].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يُسَمَّ أحَدٌ قَبْلَهُ يَحْيى. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [أي تَوَلّى اللهُ تَسْمِيَةَ يَحْيى، لم يُولِ تَسْمِيَتَهُ][8] غيرَهُ، وسائرُ الخلائقِ تَوَلّى أهْلوهُمْ تَسْمِيَتَهُمْ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وقالَ الحَسَنُ: عبادَ اللهِ إنَّ زَكَريّا اسْتَوهَبَ رَبَّهُ الوَلَدَ، فأجابَهُ، وبَشَّرَهُ، فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾ وطَلَبَ منه الآيةَ لذلكَ. فَقالَ: ﴿ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ [مريم: ١٠] فما عابَهُ على ذلكَ، ولا وَبَّخَهُ، ولكنْ رَحِمَهُ، أو كلاماً[9] نَحْوَ هذا.

---

(١) في الأصل وم: بلغ هو. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل دعائك. (٤) في الأصل وم: عنك. (٥) في الأصل وم: ماله مواليه. (٦) في الأصل وم: لم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: كلام.

وقالَ غيرُهُ: إنما [أمَرَهُ أنْ يُمسِكَ لسانَهُ ويَعْتَقِلَهُ][1] عقوبةً لِما سألَ مِنَ الآيةِ.

هؤلاءِ كلُّهُمْ يَجْعَلونَ ذلكَ منهُ [زَلَّةً][2]. إلّا أنَّ الحَسَنَ قالَ: لم يَعِبْهُ على ذلكَ، ولا عاقَبَهُ عَلَيهِ، ولكنْ ذَكَرَ [ذلكَ رَحْمَةً منهُ] إليهِ. وغَيرُهُ يَجْعَلُ ذلكَ عقوبةً لِما كانَ منهُ.

وجائزٌ أنْ يُخَرِّجَ ذلكَ على غَيرِ ما قالوا؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ أي على أيِّ حالٍ يكونُ مني الوَلَدُ؟ على الحالِ التي أنا عليها؟ أو أُرَدُّ إلى [3] شبابي؛ ففي تلكَ الحالِ يكونُ مني الوَلَدُ. فذلكَ منهُ اسْتِخْبارٌ واسْتِعْلامٌ عنِ الحالِ الذي يكونُ منهُ الوَلَدُ، ليسَ على أنهُ لم يَعْرِفْ أنهُ قادرٌ على إنشاءِ الوَلَدِ في حالِ الكِبَرِ وبِسَبَبٍ وبلا سَبَبٍ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ حينَ[4] ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] أي قَبْلَ أنْ نَخْلُقَكَ لم تَكُ شيئاً وطَلَبُ الآيةِ والعلامةِ بَعْدَ ما بُشِّرَ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ لمّا بُشِّرَ بالوَلَدِ لَعَلَّهُ أشْكَلَ عليهِ بأنَّ تلكَ [البِشارةَ][5] بِشارةُ مُلْكٍ أو غَيرِهِ، فَطَلَبَ منهُ العلامةَ لِيَعْرِفَ أنَّ تلكَ بِشارةُ مُلْكٍ وأنها مِنَ اللهِ لا مِنْ غَيرِهِ لأنهُ ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا﴾ [آل عمران: ٣٩]فَطَلَبُ الآيةِ يَخْرُجُ منهُ على اسْتِعلامِ بِشارةِ المُلْكِ وأنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ لا أنهُ [لم يَعْرِفْ أنَّ اللهَ][6] قادرٌ على خَلْقِهِ في كلِّ حالٍ. هذا لا يُظَنُّ بأضْعَفِ مُؤمنٍ في الدنيا، فكيفَ يُظَنُّ بِنَبِيٍّ مِنَ الأنبياءِ؟

[والثاني][7]: أنْ يكونَ طَلَبَ الآيةَ منهُ لِيَعْرِفَ وَقْتَ حَملِها الوَلَدَ وَوَقْتَ وُقوعِهِ في الرَّحِمِ لِيَسْبِقَ لهُ السرورُ بِحملِهِ عَنْ وَقْتِ الوِلادِ وعَنْ وَقْتِ وُقوعِ بَصَرِهِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ لأني أخلُقُ بِسَبَبٍ وبِغَيرِ سَبَبٍ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وأنتَ سَوِيٌّ صحيحٌ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي ثلاثَ لَيالٍ بأيّامِها على ما قالَهُ في آيةٍ أُخرَى ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] ذَكَرَ ههنا ثلاثَ لَيالٍ وفي تِلكَ الآيةِ ثلاثةَ أيامٍ. والقِصَّةُ واحدةٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟/ ٣٢٣ ـ ب/ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قولُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ قيلَ: أومأَ إليهِمْ، وقيلَ: كَتَبَ لهمْ على الأرضِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ بالشَّفَتَينِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] والرَّمْزُ هو تحريكُ الشَّفَةِ والإيماءُ بها.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عاقرٌ وعقيمٌ المرأةُ التي لا تَلِدُ، وقولُهُ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قالَ: هو أشَدُّ الكِبَرِ سِناً[8] [وقولُهُ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾][9] قالَ: إنْ شِئْتَ قَصْراً أو داراً.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿عِتِيًّا﴾ أي يُبْساً، ويُقالُ: عُتِيًّا وعِتِيًّا بِمَعْنَى واحدٍ، ويُقال: مَلِكٌ عاتٍ إذا كانَ قاسيَ القَلْبِ غَيرَ لَيِّنٍ، وقولُهُ[10] ﴿سَوِيًّا﴾ أي سَليماً، وقولُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ أومأَ إليهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ: كَتَبَ لهمْ على الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَن سَبِّحُوا﴾ أي صَلّوا للهِ ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فإنْ كانَ التَّسبيحُ هو الصلاةَ ففيهِ أنَّ الصلاةَ كانَتْ في الأُمَمِ الماضيةِ في خَتْمِ الليلِ. ويَحْتَمِلُ التَّسبيحَ نفسَهُ والثَّناءَ على اللهِ والدُّعاءَ بالغَدَواتِ والعَشِيّاتِ.

---

(١) في الأصل وم: أمسك لسانه واعتقله. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: على. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في م: لم يعرف قدرة الله أنه، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل: شيئاً، في م: شيباً، أي كثر الشيب. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: خذِ الكتابَ بما قوَّى اللهُ، وأعانَكَ. وقالَ بعضُهُمْ: خُذِ الكتابَ، واصْبِرْ على العَمَلِ بما فيهِ. وقالَ بعضهُمْ: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي بِجِدٍّ. قالَ أبو بَكْرٍ: الجِدُّ هو الإنكِماشُ في العَمَلِ، والقُوَّةُ، هي احتِمالُ ما حُمِلَ عليهِ.

وفيهِ دلالةُ نَقْض قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يَقولونَ بأنَّ القُوَّةَ تَتَقَدَّمُ الفِعْلَ، ثم لا تَبْقَى وقْتَينِ. فيكونُ على قولِهِمْ أخذَ بِغَيرِ قُوَّةٍ، وقد أمَرَهُ أنْ يأخُذَهُ بقوةٍ. فقولُهُمْ[1] على خِلافِ ما نَطَقَ بِهِ ظاهرُ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قالَ بعضهُمْ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ أي النُّبُوَّةَ في حالِ صِباهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: آتاهُ اللهُ الفَهْمَ واللُّبَّ. وقالَ بعضهُمْ: الحِكْمَةَ والعِلْمَ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ فَسادُ مَذْهَبِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يَقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَخُصُّ أحداً بِنُبُوَّةٍ ولا شيءٍ مِنَ الخيرِ إلّا بَعْدَ أنْ يَسْبِقَ مِنَ المُخْتَصِّ لهُ ما يَسْتَوجِبُ ذلكَ الإختِصاصَ، ويَسْتَحِقُّهُ.

فما الذي كانَ مِنْ يَحْيَى في حالِ صِباهُ وطُفولِيَّتِهِ ما يَسْتَوجِبُ بِهِ النُّبُوَّةَ؟ وما ذَكَرَ مِنَ الحُكْمِ أنهُ آتاهُ؟ فدلَّ ذلكَ [على أنَّ][2] الإختِصاصَ منهُ يكونُ لِمَنْ كانَ إفضالاً منهُ وإنعاماً ورَحْمَةً لا بإسْتِحْقاقٍ مِنَ المُخْتَصِّ لهُ واسْتِجابَةٍ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ دلالةُ أنهُ كانَ نَبِيًّا حين[3] كانَ أخْبَرَ أنهُ آتاهُ الكتابَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ هو [مَبْنِيٌّ][4] على قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وآتيناهُ حناناً وزكاةً أيضاً.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: تَعَطُّفاً مِنْ لَدُنَّا. وقالَ بعضهُمْ: أي رَحْمَةً مِنْ لَدُنَّا، وهو قولُ الحَسَنِ. وقالَ بعضهُمْ: الحَنانُ المحبةُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: حَنانَكَ وحنانَيكَ كليهما يَعْني رَحْمَتَكَ. وقالَ: أصْلُهُ مِنَ التَّحَنُّنِ وهو التَّرَحُّمُ. وقالَ القُتَبِيُّ: أصلُهُ مِنْ حنينِ الناقةِ على وَلَدِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ قالَ بعضهُمْ ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي صَدَقَةً، تَصَدَّقَ بها على زَكَرِيّا وزوجَتِهِ في الوَقْتِ الذي لا يُرْجى مِنْ مِثْلِهِما الولَدُ. وقال بعضهُمْ: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي صَلاحاً وما يَنْمو بِهِ مِنَ الخيراتِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الزكاةُ اسْمَ كلِّ خَيرٍ وبَرَكَةٍ، وهو كالبِرِّ والتَّقْوَى[5]. كأنهُ قالَ: أعطيناهُ كلَّ برٍّ وخَيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ عَنْ جميعِ الشُّرورِ كقولِهِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] أي تَعاوَنُوا على البِرِّ، وتَعاوَنُوا أيضاً على دَفْعِ الشُّرورِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هو [مَبْنِيٌّ أيضاً][6] على قولِهِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾وآتيناهُ البِرَّ بوالدَيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ بل كانَ خاضِعاً للهِ ذليلاً مُطيعاً. وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكُنْ ممَّنْ يَجْبُرُ الناسَ على مَعْصِيَةِ اللهِ. وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ أي قَتّالاً، أي لم يَكُنْ مِمَّنْ يَقْتُلُ على الغَضَبِ، ويَضْرِبُ على الغَضَبِ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ على ضِدِّ ما ذَكَرَ خاضعاً للهِ مُطيعاً لهُ على ما ذَكَرَ أنهُ لم يَرْتَكِبْ ذنباً، ولا هَمَّ بِهِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ يَحْتَمِلُ السلامُ عليهِ الوجوهَ الثلاثةَ:

أحَدُها: اسْمُ[7] كلِّ برٍّ وخَيرٍ، أي عليهِ كلُّ برٍّ وخَيرٍ في هذهِ الأحوالِ التي ذَكَرَ.

والثاني: السلامُ هو الثناءُ؛ أثْنَى اللهُ عليهِ مِنْ أوَّلِ أمْرِهِ إلى آخرِهِ وبَعْدَ المَوتِ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: فقوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم. من التقوى.
(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) أدرج قبلها: في الأصل وم: هو.

[والثالثُ][1]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أي السَّلامَةُ عليهِ في هذهِ الأحوالِ التي يكونُ للشيطانِ في تلكَ الأحوالِ الاعْتِراضُ والنَّزْغُ فيها؛ لأنهُ وَقْتَ الولادةِ يَعْتَرِضُ، ويُفْسِدُ الوَلَدَ، إنْ وَجَدَ السبيلَ إليهِ، وكذلكَ عندَ الموتِ يَعْتَرِضُ، ويَسْعَى في إفْسادِ أمْرِهِ. فأخْبَرَ أنَّ يَحْيَى كانَ سَلِيماً سالماً عَنْ نَزَغاتِ الشيطانِ مَحْفوظاً عنهُ حتى لم يَرْتَكِبْ خَطِيئَةً، ولا هَمَّ بها، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ دلالةٌ أنَّ المَوتَ والقَتْلَ سَواءٌ، وإنْ [كانا في الحقيقَةِ مُخْتلِفَينِ][2] لأنهُ ذُكِرَ في القِصةِ أنَّ يَحْيَى قُتِلَ، ثم ذَكَرَ المَوتَ، فَدَلَّ أنهما واحدٌ.

فهذا يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ حين[3] قالوا: إنَّ المَقْتولَ مَيِّتٌ قَبْلَ أجَلِهِ.

وفيهِ أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾ [البقرة: ١٥٤] نَهانا أنْ نُسَمِّيَهُمْ أمواتاً في جِهَةٍ ليسَ في الجِهاتِ كُلِّها حين[4] سَمَّى يَحْيَى مَيِّتاً، وهو كانَ شَهيداً على ما ذُكِرَ أنهُ قُتِلَ.

وفي[5] قولِهِ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ اسْتِدْلالٌ لأبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، حينَ[6] وَقَفَ في أولادِ المُسلِمينَ والمُشركينَ، فقالَ: لا عِلْمَ لي بهِمْ، ولم [يَقْطَعْ فيهِمْ][7] القولَ لِما يَجوزُ أنْ يَجْعَلَ اللهُ لهمْ مِنَ المَعْرِفَةِ[8] والتَّمْييزِ والفَهْمِ في حالِ صِغَرِهِمْ حتى يَعْرِفوا خالِقَهُمْ ومَنْشَأَهُمْ على ما أعْطَى يَحْيَى وعيسى في حالِ صِباهُما الحُكْمَ والفَهْمَ والمَعْرِفَةَ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] أي اذْكُرْ رَحْمَةَ ربِّكَ مريمَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: واذْكُرْ نَبَأَ مَرْيَمَ وقِصَّتَها في الكتاب.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي نَحْوَ المَشْرِقِ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ إذ بَلَغَتْ مَبْلَغَ النِّساءِ، فارَقَتْ أهْلَها، وانْتَبَذَتْ منهمْ لئلا يَقَعَ بَصَرُ غيرِ ذي الرَّحِمِ عليها، وألّا يَراها أحدٌ، لا [يَحِلُّ لَهُ][9] النَّظَرُ إليها. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي جَلَسَتْ في المَشْرَقَةِ، لأنهُ كانَ في الشتاءِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: احْتَجَبَتْ مِنْ دونِهِمْ بالغَيْبَةِ عنهمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي سِتْراً. وقالَ مُقاتِلٌ: اتَّخَذَتْ مِنْ دونِهِمْ مِنَ الجَبَلِ حِجاباً وسِتْراً، أي جَعَلَتِ الجَبَلَ بينَها وبَيْنَ أهلِها فلم يَرَها أحَدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ قالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: هو رُوحُ عيسى أرْسَلَهُ اللهُ إلى مريمَ في صورةِ بَشَرٍ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ وقالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ جِبْريلَ. وقد سَمَّى اللهُ جِبْريلَ رُوحاً في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ [كَقَولِهِ][10]: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي لم يَكُنْ بهِ أثَرُ غيرِ البَشَرِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ لا عَيْبَ فيهِ، ولا نُقْصانَ، بل كانَ سَوِيّاً صحيحاً كاملاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ وإنما يُتَعَوَّذُ بالرحمنِ مِنَ الفاجِرِ والفاسِقِ.

قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ مَفْصولٌ مِنْ قولِهِ: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ فيكونُ على الابْتِداءِ. كأنها قالَتْ: إنْ كُنْتَ تَقِيّاً لا يَنالُني منكَ سُوءٌ، ولا يَمَسُّني شَرٌّ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [أي ما كُنْتَ تَقِيّاً، أي حين[12] دَخَلْتَ عليَّ مِنْ غيرِ اسْتِئْذانٍ ولا اسْتِئْمارٍ ما كُنْتَ تَقِيّاً. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي وقد كُنْتَ تَقِيّاً][13] فَعَلَى هذا التأويلِ كأنهُ دَخَلَ عليها على صورةِ بَشَرٍ، عَرَفَتْهُ بالتُّقَى والصلاحِ. فكأنها قالَتْ: قد كُنْتُ عَرَفْتُكَ بالتُّقَى والصلاحِ، فكيفَ دَخَلْتَ عليَّ بلا إذْنٍ ولا أمْرٍ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: كان في الحقيقة مختلفا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: يقع فهم. (٨) في الأصل وم: المعتزلة. (٩) في الأصل وم: يصلح. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وغيره. (١٢) في م: حيث. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وقد يجوزُ أنْ يُسْتَعمَلَ إنْ مَكانَ ما وَمَكانَ قد، وفي القرآنِ كثيرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ هو على الإضمارِ، كأنهُ قالَ: إنما أنا رسولُ ربِّكِ بالقولِ بأنْ أهَبَ لكِ غُلاماً زَكِيّاً، أي أرْسَلَني إليكِ بهذا القولِ، وهو قولُهُ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: إنما أنا رسولُ ربِّكِ لِيَهَبَ لكِ غلاماً زكِيّاً. وقولُهُ تعالى: ﴿زَكِيًّا﴾ أي صالحاً طاهراً مِنْ جَميعِ الشرورِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ إنْ قالَتْ لم يَمْسَسْني بَشَرٌ يُعلَمُ أنهُ /٣٢٤ ـ أ/ لم يَمَسَّها بَشَرٌ: لا [تَقِيٌّ ولا غيرُ تَقِيٍّ][1]. لكنْ كأنها قالَتْ: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ نِكاحاً ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ولا بَغْياً. فَمِنْ أنّى يكونُ لي وَلَدٌ؟ كأنها لم تَعْرِفِ الوَلَدَ إلّا بِسببٍ. لِذلكَ قالَتْ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي أخلُقُ بِسَبَبٍ وبلا سَبَبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي خَلْقُ الشيءِ بِسَبَبٍ وبِغَيرِ سَبَبٍ هَيِّنٌ عليَّ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ للأنبياءِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ: إنهُ يَخْلُقُ ولداً بلا أبٍ ولا أُمٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي نَجْعَلَ ولادةً بلا أبٍ على ما أخبَرَ الأنبياءُ مِنْ قَبْلُ آيةً للناسِ لِرسالَتِهِمْ لأنهمْ أُخْبِروا أنهُ يُولَدُ بلا أبٍ[2]، فكانَ ما أُخْبِروا. فَدَلَّ ذلكَ أنهمْ إنما عَرَفوا ذلكَ باللهِ، فيكونُ ذلكَ آيةً لِصِدْقِهِمْ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي ذلكَ الخَبَرُ الذي أخْبَرَ الأنبياءُ مِنْ قَبْلُ، والوعدُ الذي وَعَدَ لهمْ [كانَ][3] أمْراً مَقْضِيّاً كائناً.

وقالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي نَجْعَلُ عيسى آيةً للناسِ حينَ[4] وُلِدَ بلا أبٍ، وكَلَّمَ الناسَ في المَهْدِ [وفي][5] غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي كانَتْ فيهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ آيةً للناسِ لِلْبَعْثِ لأنهُ أنْشأهُ بلا أبٍ ولا سَبَبٍ، وهمْ إنما أنْكَروا البَعْثَ لِما لم يُعايِنوا الوَلَدَ بِغَيرِ أبٍ أيضاً، ثم كانَ. فَعَلَى ذلكَ البَعْثُ؛ إذْ لا فَرْقَ بَينَهما، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ الوَلَدِ بلا أبٍ قادرٌ[6] على الإحياءِ بَعْدَ الموتِ، بل هو أَولَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي رَحْمَةً مِنّا لِلْخَلْقِ لأنَّ مَنِ اهْتَدَى، واتَّبَعَهُ، كانَ لهُ بهِ نَجاةٌ، وهو ما قالَ اللهُ ﷻ لرسولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وعلى ذلكَ جَميعُ الأنبياءِ والرُّسُلِ الذينَ بَعَثَهُمُ اللهُ إلى خَلْقِهِ؛ كانَ ذلكَ[7] رَحْمَةً منهُ إلى خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كانَ أمْراً كائناً. وعلى التأويلِ الذي ذَكَرَهُ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ في قولِهِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يكونُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي كانَ وَعْداً وخَبَراً مَعْلوماً على [ما][8] أخبَرَ الأنبياءُ عنْ نَبَإِ عيسى وأُمِّهِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ دلَّ هذا على أنَّ الوِلادَ لم يَكُنْ على إثْرِ الحَمْلِ، ولكنْ كانَ بَينَ الوِلادِ وبَينَ الحَمِلِ وقتٌ. لكنْ لا يُعْلَمُ ذلكَ الوَقْتُ إلّا بِخَبَرٍ عنِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: تباعَدَتْ بهِ حَياءً مِنْ أهْلِها. وقالَ بعضُهُمْ: انفَرَدَتْ بهِ مكاناً قَصِيّاً مُتَباعِداً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي جاءَ بها مِنَ المَجيءِ، وألْجَأها إليها. يقولُ: جاءَتْ بي الحاجَةُ إليكَ، وأجاءَتْني الحاجةُ. والمَخاضُ هو الحَمْلُ، ودَلَّ قولُهُ: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا

(١) في الأصل وم: تقياً ولا غيره. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ولا أم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولا أم قدر. (٧) في الأصل وم: كانه. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

﴿قَصِيًّا﴾ أنَّ النَّخلَةَ التي ألْجَاها المَخاضُ إليها يابِسَةٌ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ لأنهُ إنما انتَبَذَتْ مكاناً قَصِيًّا، وتَباعَدَتْ حَياءً مِنْ أهْلِها. فلو كانَتْ تلكَ النَّخلَةُ رَطْبَةً ذاتَ ثِمارٍ لَكانَ الناسُ بادينَ[1] إليها، ويُقيمونَ عندَها، فلا يَحْتَمِلُ أنْ تَأوِيَ إليها مَرْيَمُ، وعندَها مَأوَى الناسِ، ثم الْتِجاؤُها إلى النَّخلَةِ لِتَتساندَ إليها، وتَسْتَعينَ بِها على ما تَقَعُ الحاجةُ للنساءِ وقْتَ الوِلادِ إلى شَيءٍ تَستعينُ بهِ عمّا يَنْزِلُ بهنَّ مِنَ الشِّدَّةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي وكُنْتُ غيرَ معروفَةٍ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على ما ذُكِرَ: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ لا أُذْكَرُ بَعْدَ المَوتِ بذلكَ لأنهُ ذُكِرَ أنها كانَتْ مِنْ أهلِ شَرَفٍ وكَرَمٍ ومِنْ أهلِ بَيتِ النُّبُوَّةِ، فَتَمَنَّتْ أنْ تكونَ غيرَ مَعروفَةٍ لئلا تُذْكَرَ بِسوءٍ بَعْدَها، ولا تُقْذَفَ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي حَيضَةً مُلْقاةً. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: النَّسْيُ الحَيضُ. قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ هذا لأنها قد عَرَفَتْ قَدْرَها عندَ اللهِ، فلا يُحتَمَلُ أنْ تَتَمَنَّى ما ذُكِرَ. لكنَّ الإنسانَ ربَّما يَتَمَنَّى الأمْرَ العظيمَ إذا اشْتَدَّ بِهِ الأمْرُ نَحْوَ ما يَتَمَنَّى المَوتَ في بَعْضِ الوَقْتِ لِعِظَمِ ما يَحُلُّ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ غيرُ مُنْكَرٍ هذا مِنْ مَرْيَمَ أنْ تَتَمَنَّى ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، وقولُهُ[2]: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: ناداها مَلَكٌ. وقال بَعْضُهُمْ: ناداها ابنُها عيسى. قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الذي ناداها مَلَكاً، لأنهُ قالَ ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ ولو كانَ مَلَكاً لَناداها مِنْ فَوقِها. لكنَّ هذا ليسَ بِشيءٍ، لأنَّ المَلَكَ إنما يُنادي مِنْ حيثُ يُؤْمَرُ: مِنْ تَحْتُ، ومِنْ فَوقُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ناداها جِبْريلُ مِنْ تَحْتِ الوادي: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ ابنَها عيسى لأنها كانَتْ تَحْزَنُ أنْ تُشْتَمَ، وتُقْذَفَ بِهِ. فَعِيسى إذا تكلمَ، وصارَ بذلكَ المَحَلِّ تُسَرُّ هي بِذلكَ لِما تَعْلَمُ أنهُ يَنْفي عنها بَعْضَ ما طُعِنَتْ بِهِ، وقُذِفَتْ.

ويَحْتَمِلُ حُزْنُها مِنْ وجْهٍ آخَرَ، وهو أنها كانَتْ حَزِنَتْ خَوفاً على نَفْسِها وعلى وَلَدِها لأنها أقامَتْ في مكانٍ، لا ماءَ فيهِ، ولا طعامَ. فخافَتْ على نَفْسِها وَوَلَدِها الهَلاكَ. فَحَزِنَتْ لذلكَ. فَبُشِّرَتْ حينَ[3] قالَ لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أمَّنَها عنِ الخَوفِ الذي كان.

ثم السَّرِيُّ: قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ هو الجَدْوَلُ، وهو النَّهْرُ الصغيرُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فيهِ دلالةٌ لُزومِ الكَسْبِ لأنهُ أمَرَ مَرْيَمَ أنْ تَهُزَّ النَّخلَةَ لِتَتساقَطَ عليها[الرُّطَبُ. ولو شاءَ لَسَقَطَ مِنْ غَيرِ فِعْلٍ يكونُ منها لِتَجْتَنيَ هي. وذلكَ عليها][4] أهْوَنُ وأيْسَرُ على ما كانَ رِزْقُها عندَ ما كانَتْ مَؤُنَتُها على زَكَرِيّا.

وفيهِ دلالةُ ألا يَسَعَ لِلْمَرْءِ المسألةُ ما دامَ بهِ أدْنَى قُوَّةٍ يَقْدِرُ على قُوتِهِ. وفيهِ دليلُ أنَّ زَكَرِيّا كانَ أفْضَلَ منها، وأكْبَرَ مَنْزِلَةً عندَ اللهِ حينَ[5] رَزَقَها عندَ ما كانَتْ في عِيالِ زَكَرِيّا مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ كان مِنْ زَكَرِيّا ولا مُؤْنَةٍ.

فلمّا فارقَتْ زَكَرِيّا أمَرَها بالكَسْبِ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ الآياتِ التي تكونُ لِلأنبياءِ يجوزُ أنْ يُجْرِيَها على غَيرِ أيدي الأنبياءِ حينَ[6] جَعَلَ لِمَرْيَمَ نَخلَةً يابِسَةً رَطْبَةً، تُثْمِرُ رُطَباً، وحينَ[7] جَعَلَ مِنْ تَحْتِها سَرِيّاً أي نَهَراً جارياً، وحينَ[8] رَزَقَها عندَ ما كانَتْ في عِيالِ زَكَرِيّا مِنْ غَيرِ تَكَلُّفِ أحَدٍ.

---

(١) في الأصل وم: بادون. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث.

فذلك يُشبهُ آياتِ الأنبياءِ والرُّسُلِ ويُقارِنُها. وهذهِ المِحَنُ التي امْتُحِنَ بها مَرْيَمُ، في الظاهِرِ عظيمةٌ عند الناسِ، وفي الباطِنِ مِنْ أعْظَمِ كَراماتِهِ إليها، لأنهُ أخْبَرَ أنهُ تعالى اصْطَفاها على نِساءِ العالَمينَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وسَمّاها صِدِّيقَةً بقولِهِ: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] وذلكَ لا يُسَمّى إلّا مَنْ بَلَغَ مِنَ البَشَرِ في الصِّدْقِ [والصبر غايَتَهما][1] واللهُ أعلَمُ.

وقال بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ أي مِنْ تَحْتِ النَّخْلَةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أي كُلي الرُّطَبَ الذي يَتساقَطُ عليكِ، واشْرَبي مِنَ السَّرِيِّ الذي جَعَلَ تَحْتَكِ ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أي وارْضَي مَكانَ ما حَزِنْتِ عليهِ، وخِفْتِ على نَفْسِكِ وعلى وَلَدِكِ، أو طِيبي نَفْساً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾: ﴿صَوْمًا﴾ أي صَمْتاً وسُكوتاً. وكذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الحروفِ؛ وهو في حَرْفِ أُبَيٍّ[2].

ثم قولُهُ: ﴿فَقُولِىٓ﴾ ليسَ على القَولِ نفسِهِ، ولكنهُ إشارةٌ أشارَتْ إليهِمْ: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ الإشارةَ إذا كانَتْ مُعْلِمَةً مُفْهِمَةً المُرادَ تَعْمَلُ عَمَلَ[3] القولِ نَفْسِهِ والكلامِ. ولذلكَ وَقَعَ الطلاقُ بالإشارةِ والنِّكاحِ وكُلُّ عَقْدٍ مِنَ الأخْرَسِ وغيرِهِ إذ كانتِ الإشارةُ / ٣٢٤ ـ ب/ مَفهومَةً مَعْلومَةً.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَقُولِىٓ﴾ هو على حقيقةِ القَولِ، أي أُمِرَتْ أنْ تقولَ ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فكانَ نَذْرُها الصَّومَ للرحمنِ بَعْدَ هذا. إلى هذا يَذْهَبُ الحَسَنُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي بعيسى ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: لَقَد فَرَيتِ عظيماً مِنَ الأمْرِ. لكنهُ يُخَرِّجُ تأويلَهُ: فَرَيتِ مِنَ التَّقْديرِ؛ يُقالُ: فَرَى أي قَدَّرَ، وقالَ بعضُهُمْ: لقدِ افْتَرَيتِ[4] عظيماً، وهو قَذْفٌ صريحٌ[5] بالزِّنَى كقولِهِ: ﴿بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ كلُّ قائمٍ [مِنْ][6] عَجَبٍ أو مِنْ عَمَدٍ[7] فهو فَرِيٌّ. وهو ههنا: عَجَبٌ فَرِيٌّ. هذا أقرَبُ، إذ لا يجوزُ أنْ يُحْمَلَ كلامُهُمْ على تَصْريحِ القَذْفِ. ثم لِتَعْريضِ القَذْفِ مَساغٌ وَوَجْهٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَتْ أختَ هارونَ بْنِ عِمْرانَ أخي موسى. وعلى ذلكَ رُوِيَ خَبَرٌ عنْ رسولِ الله ﷺ فإنْ ثَبَتَ فهو هو. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانَ لها أخٌ مِنْ أبيها، يُقالُ لهُ: هارونُ بْنُ ماثانَ، لذلكَ نَسَبوها إليهِ؛ فقالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ هارونَ كانَ رجلاً صالحاً ناسِكاً فيهِمْ، فَشَبَّهُوها بهِ، ونَسَبوها إليهِ لِصلاحِها ونُسُكِها. وقالَ بعضهُمْ: إنَّ بَني إسرائيلَ يُسَمُّونَ[8] كلَّ صالحٍ هارونَ حُبًّا لِهارونَ. لذلكَ سَمَّوها، ونَسَبوها إلى هارونَ لِنُسُكِها وصلاحِها.

وقولِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي ما كانَ أبوكِ ما ذَكَرَ ولا أُمُّكِ ولا أنْتِ، فَمِنْ أينَ كانَ لكِ هذا. هذا تَعْريضٌ مِنَ الكلامِ ليسَ بِتَصْريحٍ، فهو ما ذَكَرْنا أنهمْ قالوا ذلكَ على التَّعَجُّبِ ليسَ على تَصْريحِ الفِرْيَةِ والقَذْفِ لها.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقولُهُ تعالى: [﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾][9] ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي آتاني عِلْمَ الكتابِ، ولا نُفَسِّرُ أيَّ هو؟ الإنجيلُ أو التوراةُ أو غيرُهُ؟ لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ فهذا يدلُّ أنَّ الكتابَ غيرُ التوراةِ والإنجيلِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ هذا يدلُّ أنهُ تَكَلَّمَ بَعْدَ هذهِ الكلماتِ، وليسَ

---

(١) في الأصل وم: والصبر له غاية. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وقال. (٣) من م، في الأصل: على. (٤) من م، في الأصل: افتريتم. (٥) في الأصل وم: تصريح. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عمل. (٨) في الأصل وم: يسمى. (٩) ساقطة من الأصل وم.

كما قالَ أهلُ التأويلِ: إنهُ تكلَّمَ بهؤلاءِ الكلماتِ، ثم لم يَتكَلَّمْ بَعْدَ ذلكَ إلى [إنْ][1] بَلَغَ المَبْلَغَ الذي يَتَكَلَّمُ الصِّبيانُ، لأنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَهُ نَبِيًّا، وجَعَلَهُ مُباركاً، فلا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ نبيّاً، ولا يَتَكَلَّمُ، ولا يَدْعو الناسَ إلى[2] دينِ اللهِ، وأيُّ بَرَكةٍ تكونُ فيهِ إذا لم يَتَكَلَّمْ بكلامِ خيرٍ. فَدَلَّ ذلكَ منهُ أنْ ليسَ على ما قالوا هُمْ. والبَرَكَةُ هي اسْمُ كلِّ خيرٍ وصَلاحٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يَحتَمِلُ الصلاةَ المَعْروفَةَ والزكاةَ المعهودَةَ. وتَحتَمِلُ الصلاةُ الثناءَ لهُ والدعاءَ في كلِّ وقْتٍ وفي كلِّ مكانٍ، وتَحتمِلُ الزكاةُ كلَّ ما تَزْكو بِهِ النَّفْسُ، وتَصْلُحُ، وتَنْمو، مِنْ كلِّ خيرٍ.

فإنْ كانَ الأوّلُ الصلاةَ المفروضَةَ والزكاةَ المَعْروفَةَ فهو على تعليمِ الناسِ؛ كأنهُ قالَ: أوصاني أنْ أعلِّمَ الناسَ الصلاةَ، وأُعْلِمَهُمْ [عنْ حُكْمِ][3] الزكاةِ، إذْ لم يَكُنْ يَمْلِكُ عيسى ما تَجِبُ فيه الزكاةُ، فهو يُخَرَّجُ على إعلامِ الناسِ عن حُكْمِ الزكاةِ، أو على[4] المُواساةِ؛ فذلكَ ممّا قَلَّ، وكَثُرَ سَواءٌ. وإنْ كانَ الثاني فَهو وغَيرُهُ مِنَ الناسِ في تركِ الزكاةِ سَواءٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي وجَعَلَني بَرّاً بوالِدَتي، صِلَةٌ لِقولِهِ: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ وجَعَلَني بَرًّا بوالِدَتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قد ذَكَرْنا في قِصَّةِ يَحْيَى.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْناهُ في قصةِ يَحيَى غيرَ أنَّ اللهَ تعالى هو مُسَلِّمٌ على يَحْيَى في تلكَ الأحوالِ، وهِهنا ذَكَرَ أنَّ عيسى مُسَلِّمٌ على نفسِهِ. وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ عيسى ويَحْيَى، عليهما الصلاةُ والسلامُ، الْتَقَيا، فَقَالَ يَحْيَى لِعيسى: أنْتَ خَيرٌ مني، فقالَ عيسى: بل أنْتَ خَيرٌ مني، سَلَّمَ اللهُ عليكَ، وسَلَّمْتُ أنا على نفسي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي ذلكَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ، ليسَ على ما قالَتِ النَّصارَى وغَيرُهُمْ: إنهُ ابْنُ اللهِ، وإنهُ ثالثُ ثلاثةٍ على ما قالوا، ولكنْ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ عبدُ اللهِ كما أقَرَّ هو بالعبوديَّةِ حينَ[5] ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أنْ يكونَ ذلكَ الذي أنبأتُهُمْ مِنْ نَبَإِ عيسى ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أنْ يكونَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ حين[6] أنْكَروا أنهُ ليسَ على ما أنبأتُهُمْ مِنْ نَبَئِهِ، أي الذي يَشُكُّونَ فيهِ، هو قولُ الحَقِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ عن أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لأنهُ لا تَقَعُ[لهُ][7] الأسبابُ التي لها يُتَّخَذُ الوَلَدُ، ويُطْلَبُ[8]. أو يقولُ: إنَّ اتِّخاذَ الوَلَدِ يُسقِطُ الألوهيَّةَ، لأنَّ الوَلَدَ في الشاهِدِ يكونُ شَكْلَ الأبِ وشَبيهاً لهُ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الألوهيَّةُ لِمَنْ يُشْبِهُ الخَلْقَ، لأنَّ الوَلَدَ في الشاهِدِ إنما يُتَّخَذُ، ويُطْلَبُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لِوَحْشَةٍ تَأخُذُهُ، فَيَسْتَأنِسُ بِهِ، وإمّا لِحاجَةٍ تَمَسُّهُ، فَيَسْتَغني بهِ في [دَفْعِها، وإمّا][9] لِخَوفٍ يَخافُ مِنْ أعدائِهِ، فَيَسْتَنصِرُ بهِ.

فإذا[10] كانَ اللهُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ يَتَعالى عنْ ذلكَ، ولَهُ مِنْ سُرْعَةِ نَفاذِ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فما لَهُ مِنْ سُرْعَةِ نَفاذِ الأمْرِ ما ذَكَرَ لا تَقَعُ لهُ الحاجَةُ إلى الوَلَدِ في مَعْنًى مِنَ المَعاني ولا وَجْهٍ مِنَ الوجوهِ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ نُفِخَ في جَيبِ مَرْيَمَ أو أنْفِها أو في غَيرِهِ، وغَيرُ ذلكَ مِنَ القِصَصِ التي ذَكَروها ممّا ليسَ في الكتابِ ذِكْرُها، فلا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ إلّا بِخَبَرٍ عنِ اللهِ تعالى أو عَمَّنْ أوْحَى إليهِ فإنهُ لم يُعْلَمْ صِدْقُهُ ولا ثُبوتُهُ، فَيُذْكَرُ مقدارُ ما في الكتابِ، لا يُزادُ على ذلكَ، ولا يُنْقَصُ، لأنَّ هذهِ الأنباءَ لمّا ذُكِرَتْ لِرسولِ اللهِ لتكونَ آيةً لِرِسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ لأنها كانَتْ مَذكورَةً في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، وكانَ هنالكَ مَنْ يَعرِفُها، ذُكِرَتْ[11] لهُ هذهِ الأنباءُ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ. فلو زِيدَ فيهِ، أو نُقِصَ، لكانَتْ غَيرَ دالَّةٍ على ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: منه. (٩) في الأصل وم: دفعه. (١٠) من م، في الأصل: فاذ. (١١) في الأصل وم: فذكرت.

قالَ القُتَيبيُّ: الصَّومُ الإمساكُ ﴿صَوْمًا﴾ أي صَمْتاً. ﴿فَرِيًّا﴾ أي عظيماً عَجَباً. والبَغِيُّ: يُقالُ: امرأةٌ بَغِيٌّ، ونِسْوَةٌ بَغايا أي فاجراتٌ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ إنهمْ كانوا يَعْرِفونَ [أنَّ][١] الله، هو ربُّهُمْ حين[٢] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوَهُ. فكانَ عيسى قالَ لهمْ: ارْجِعوا إلى عبادةِ الذي تَعْرِفونَ أنهُ ربي وربُّكُمْ، واتْرُكوا [عِبادةَ مَنْ][٣] تعْرِفونَ أنهُ ليسَ بِرَبِّكُمْ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: اختَلَفَ الذينَ تَحزَّبوا في عيسى في حياتِهِ؛ منهمْ مَنْ قالَ: هو ساحِرٌ، وقالَ بعضُهُمْ: هو كاهنٌ، وقالَ بعضُهُمْ: كذا مِنْ هذا النَّحْوِ.

وقال بعضُهُمْ: اختَلَفَ الذينَ تحزَّبوا في عيسى بَعْدَ ما رُفِعَ [مِنْ][٤] بَيْنِهِمْ؛ فمنهُمْ مَنْ قالَ: هو اللهُ، وقالَ بعضُهُمْ: هو ابْنُ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: هو ثالثُ ثلاثةٍ. وأمثالُ ما قالوا على عِلْمٍ منهمْ أنهُ لم يَكُنْ على ما وَصَفوهُ، وقالوا فيهِ. لكنهمْ عانَدوا، وكابَروا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ الذينَ تَحَزَّبوا، واختَلَفوا /٣٢٥ ـ أ/ في رسولِ اللهِ لمّا بُعِثَ، فمنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ ساحِرٌ، وإنهُ كاهنٌ ومَجْنونٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ كذّابٌ، ونَحْوَ ما قالوا فيهِ على عِلْمٍ منهمْ أنَّ ما يقولُ هو يُوافِقُ كتبَهُمْ وأنَّ كتابَهُ مُصَدِّقٌ لكتُبِهِمْ وأنه يُؤْمِنُ بالرسلِ الذينَ يؤمنونَ همْ بهمْ، لكنهمْ قالوا ذلكَ على المُعاندةِ والمكابَرَةِ. فقالَ أصحابُ هذا التأويلِ: الوَيلُ والوعيدُ [للذينَ تَحَزَّبوا في رسولِ اللهِ][٥] واختَلَفوا فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

والويلُ لكلِّ كافرٍ. ما مِنْ كافرٍ إلّا ولَهُ ذلكَ الوَعيدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وَصَفَ ذلكَ اليومَ لِما فيهِ؛ مَجْمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ، ويَشْهَدُهُ الجِنُّ والإنْسُ والملائكةُ، فهو مَشْهَدٌ عظيمٌ. ويَحْتَمِلُ أنهُ وَصَفَهُ بالعِظَمِ لأنهُ هو المَقْصودُ في خَلْقِ العالَمِ في الدنيا؛ فهو إنما خَلَقَهُمْ لأمْرٍ عظيمٍ، وهو ذلكَ اليومُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قالَ الحَسَنُ: يكونونَ سُمَعاءَ [وبُصَراءَ في الآخِرَةِ، لَيسوا][٦] على ما كانوا في الدنيا [عُمْياً بُكْماً صُمّاً][٧] وقالَ بَعْضُهُمْ: ما أسْمَعَهُمْ، وما أبْصَرَهُمْ يومَ يأتونَنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: لا يَصِحُّ هذا [لأنَّ هذا][٨] لَيسَ على وَجْهِ الهُزْءِ والتَّعَجُّبِ، ولكنَّ تأويلَهُ[٩] يَسْمَعونَ ما قالوا، ويُبْصِرونَ ما عَمِلوا. وقال بعضُهُمْ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي أسْمِعْ بحديثِهِمْ [وأعْلِمْ بهمْ][١٠] وأبصِرْ، كيفَ نَصْنَعُ بهمْ يومَ يأتونَنا؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في حَسْرَةٍ بَيِّنَةٍ أو في هلاكٍ بَيِّنٍ. وقد ذَكَرْنا ذلكَ في غيرِ موضعٍ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: الحَسْرَةُ، هي أنْ يُصَوَّرَ الموتُ بصورةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فَيُذْبَحَ بَينَ الجنةِ والنارِ، فَيَنْظُرَ إليهِ أهلُ النارِ وأهلُ الجنةِ، فَيَنْدَمَ أهلُ النارِ، وتكونَ لهمُ الحَسْرَةُ لِما كانوا يَطْمعونَ الموتَ [ويَتأسَّونَ بهِ][١١] تلكَ الحَسْرَةُ التي ذُكِرَ. لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ إلّا بخَبَرٍ عنْ رسولِ اللهِ. فإنْ ثَبَتَ شيءٌ عنهُ فهو ذلكَ، وإلّا فالحَسْرَةُ لهمْ في أعمالِهِمُ التي عَمِلوا في الدنيا، وهو ما قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقولُهُ: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] ونَحْوُهُ كلُّ عَمَلٍ في الدنيا يكونُ لهمْ ذلكَ حَسْرَةً في الآخِرَةِ ونَدامَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أُدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ أي همْ كانوا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا وهُمْ لا يؤمنونَ باللهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: العبادة لمن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: في الآخرة ليس، في م: وبصراء في الآخرة ليس. (٧) في الأصل وم: عمي بكم صم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (١٠) في الأصل وم: واعلمهم. (١١) في الأصل: يتاسون الموت في م: يتاسون منه.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كنايةٌ عَنْ فَناءِ الخَلْقِ جميعاً وبَقاءِ الخالِقِ، فذلكَ مَعْنى الوِراثَةِ، واللهُ اعلَمُ. وعلى ذلكَ سُمِّيَ الوارثُ في الشاهِدِ وارِثاً لأنهُ باقٍ بَعْدَ فَناءِ مُوَرِّثِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو صِلَةُ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [الآيتان: ١ و٢] يقولُ واذْكُرْ رَحْمَةَ ربِّكَ إبراهيمَ، وكذلكَ يَجْعَلُ جميعَ ما ذُكِرَ في هذه السورةِ مِنْ نَحْوِ هذا صِلَةَ ذلكَ، كأنهُ ذَكَرَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في كلِّ ذلكَ، لأنهُ يَجْعَلُ تَفْسيرَ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ في كلِّ ذلكَ على ما ذُكِرَ على إثْرِهِ، وكذلكَ [يقولُ][1] في جَميعِ الحروفِ المُقَطَّعَةِ: إنَّ تَفْسيرَها ما ذُكِرَ على إثْرِها.

وأمّا غَيْرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ فإنهُ يقولُ: واذْكُرْ لهمْ نَبَأَ إبراهيمَ وقِصَّتَهُ في الكتابِ، واذْكُرْ لَهُمْ[2] في الكتابِ نَبَأَ موسى وخَبَرَهُ[3] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ الصِّدِّيقُ إنما يُقالُ لِمَنْ كَثُرَ منهُ ما يَسْتَحِقُّ ذلكَ الاسْمَ، وكذلكَ التَّشديدُ إنما يُشَدَّدُ إذا كَثُرَ الفِعْلُ منهُ،[4] وصارَ كالعادةِ لهُ والطَّبْعِ، فكأنهُ سُمِّيَ بهذا لِما لم يكُنْ يَجْعَلُ بَيْنَ ما ظَهَرَ لهُ مِنَ الحُقوقِ والفِعْلِ وبَيْنَ وفائها وأدائها نَظِرَةً ولا مُهْلَةً، بل كانَ يَفي بها، ويُؤدِّيها كما ظَهَرَ لهُ. لِذلكَ سَمّاهُ، واللهُ أعلَمُ، وَفِيًّا بقولِهِ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] وقولِهِ[5] في آيةٍ أُخْرى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] سَمّاهُ وَفِيًّا [لِما][6] كانَتْ عادَتُهُ القِيامُ بِوَفاءِ [ما][7] ظَهَرَ لهُ، وإتمامَ ما ابْتَلاهُ ربُّهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ إذا دَعَوتَهُ ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ لو عَبَدْتَهُ ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إذا احْتَجْتَ إليهِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَا يَسْمَعُ﴾ أي لا يُجيبُ لو دَعَوتَهُ، واحْتَجْتَ إليهِ ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ حاجَتَكَ إذا احتَجْتَ إليهِ ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يَنْصُرُكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ مِنْ عذابِ اللهِ في الآخِرَةِ. [كأنهُ][8] يقولُ: كيفَ لا تَعْبُدُ مَنْ إذا دَعَوتَهُ سَمِعَ، وإذا دَعَوتَهُ أبْصَرَكَ[9] ونَصَرَكَ إذا احْتَجْتَ إليهِ، وسَأَلْتَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي مِنَ البيانِ ما يَحُلُّ بكَ بَعْدَ المَوتِ إذا مُتَّ على ما أنْتَ عليهِ ما لم يأتِكَ ذلكَ مني ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ إلى ما أدعوكَ إليهِ مِنْ دينِ اللهِ ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي ديناً عَدْلاً سَوِيّاً قَيِّماً، لا عِوَجَ فيهِ. فهذا يدلُّ منهُ أنهُ قد أُوحِيَ ؟[إليهِ][10] في ذلكَ الوَقْتِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ عَرَفَ ذلكَ اسْتِدْلالاً منهُ واجْتِهاداً على غَيْرِ وَحْيٍ كقولِهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] حتى انْتَهى إلى قولِهِ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وكلُّ ذلكَ كانَ لهُ مِنَ اللهِ ألا تَرى انهُ قالَ في آخِرِهِ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ هُمْ لم يكونوا يعبدونَ الشيطانَ عندَ أنفُسِهِمْ. ولكنْ تَحْتَمِلُ إضافةُ عبادتِهِمْ إلى الشيطانِ [وجْهَيْنِ]:

أحَدُهما[11]: أنَّ الأصنامَ التي عَبدوها كانَتْ لا تأمُرُهُمْ بالعبادةِ، ولا تَدْعوهُمْ إليها، ثم عَبَدوها بأمرِ الشيطانِ وبِدُعائِهِ إيّاهُمْ، فأضافَ ذلكَ إليهِ للأمْرِ الذي كانَ منهُ بذلكَ.

والثاني: ذُكِرَ أنَّ الشيطانَ كانَ يَنْطِقُ مِنْ جَوفِ الصَّنَمِ، فَعَبَدوها لِكلامِهِ، فكأنهمْ عبدوا الشيطانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أي أعلَمُ أنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرجت في الأصل وم: واذكر. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وذكره. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أبصر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وجوها أحدها.

يَمَسَّكَ عذابٌ منَ الرحمنِ لو دُمْتَ على الكُفرِ، وختَمْتَ بهِ. فإنْ كان تأويلُ [الخوفِ على](1) العِلْمِ فهو على هذا الشَّرْطِ يُخرَّجُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخَوفُ في مَوضِعِ الخَوفِ؛ أي أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ مِنَ الرحمنِ إنْ لَم تُنجِزْ وَعْدَكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي قريباً مِنَ العَذابِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ ولا شَكَّ أنهُ كانَ راغباً عنْ عِبادةِ آلهتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحدُها: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ دِينكَ الذي أنتَ عليهِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأقْتُلَنَّكَ.

والثاني: [﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ دعائكَ إيّايَ إلى دينكَ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأطْرُدَنَّكَ.

والثالثُ](2): ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ قَذْفِ آلهتنا وسَبِّها وذِكْرِها بِسُوءٍ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأشْتُمَنَّكَ مكانَ شَتْمِكَ وقَذْفِكَ آلهتَنا. فالرجْمُ يَشْتَمِلُ على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ: القَتْلِ والطَّرْدِ والشَّتْمِ.

فإنْ كانَ على القَتْلِ فهو مُقابلُ الدينِ، أي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن دينكَ لأقْتُلَنَّكَ. وإنْ كانَ على الطَّرْدِ مُقابلُ الدعاءِ، أي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عنْ دعائكَ إلى ما تدعو لأطْرُدَنَّكَ. وإنْ كانَ على الشَّتْمِ فهو مُقابلُ الشَّتْمِ، أي ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن شَتْمِكَ آلِهَتِنا لأشْتُمَنَّكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: طَويلاً. وقالَ بعضُهُمْ: دَهْراً. فإنْ كانَ مَلِيًّا أي بَعيداً فهو على بُعْدِهِ منهُ، أي ابْعُدْ مني، وتَباعَدْ مني[داراً ومُقاماً](3) وإنْ كانَ على الدَّهْرِ والطُّولِ فهو يُخرَّجُ [على ألا](4) تُكَلِّمَني أبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهُ ليسَ على أنْ سَلَّمَ عليهِ، ولكنْ كَلَّمَهُ بكلامِ السَّدادِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ/ ٣٢٥ ـ ب/ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] هو أنْ يقولوا لهمْ كلامَ السَّدادِ، ليسَ على [أنْ](5) تُسَلِّموا عليهِمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ على حقيقةِ السلامِ المَعْروفِ، لكنَّهُ يُخرَّجُ على الإضمارِ، أي سَلامٌ عليكَ إذا أسْلَمْتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ إذا أسْلَمْتَ على نَحْوِ ما قُلْنا. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لِيُوَفِّقَكَ على السببِ الذي تَسْتَوجِبُ بهِ الاسْتِغْفارَ، وتكونُ أهلاً لِلاسْتِغْفارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بَرًّا لَطيفاً، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَفِيًّا﴾ [أي](6) عالماً، وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ عَوَّدَني الإجابَةَ إذا دَعَوتُهُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَفِيُّ العالِمُ بالأمْرِ، ويُقالُ: حَفِيَ الرجُلُ يَحْفَى إذا سارَ بلا نَعْلٍ ولا خُفٍّ، وجَمْعُهُ حُفاةٌ، واحتَفَى يَحْتَفي أي إذا احْتَفَى حَشيشاً.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاعْتِزالُ ههنا: الهِجْرَةُ(7) إلى أرضِ الشامِ ومُفارَقَتُهُ إيّاهُمْ مُفارَقَةَ المكانِ والدارِ كقولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] فقولُهُ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ النجاةُ بالفراقِ منهمْ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وأعتَزِلُكُمْ وما تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ أيضاً. ففيهِ إخبارٌ عنِ اعْتِزالِهِ عنهمْ بالدارِ والمكانِ وعنْ فعلِهِمِ أيضاً، اعْتَزَلَهُمْ عنِ الأمْرَينِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أي أدعو ربي عَسَى ألّا أكونَ بعبادةِ غَيرِ اللهِ شَقِيّاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: داره ومقامه. (٤) في الأصل وم: أي لا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: اعتزال هجرة.

والثاني: ﴿أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي خائباً مَرْدودَ الدُّعاءِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اعْتَزَلَ الدارَ والمكانَ بالهجرةِ إلى الأرضِ المباركةِ التي ذَكَرَ أنهُ نَجّاهُ، واعْتَزَلَ أيضاً صَنيعَهُمُ الذي كانوا يَصْنَعونَ مِنْ عبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] ذَكَرَ الهِبَةَ لأنَّ الوَلَدَ هِبَةٌ مِنَ اللهِ؛ خَلَقَهُ على الإفضالِ منهُ والإنعامِ عليهِ، لأنهُ يُعْطي لا عَنْ حَقٍّ كانَ لهمْ عليهِ. فذلكَ فائدةُ ذِكْرِ الوَلَدِ هِبَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ هو ظاهرٌ؛ وَهَبَ لهُ ما ذَكَرَ، ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَهُمْ أنبياءَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الرَّحْمَةُ ههنا هي النُّبوَّةُ، أي وَهَبْنا لَهُمُ النُّبوَّةَ، وقالَ بعضُهُمْ: الرَّحْمَةُ النِّعْمةُ أي مِنْ نِعْمتِهِ وَهَبَ لهمْ ما وَهَبَ مِنَ النُّبوَّةِ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ هي الكُتُبُ التي أنزَلَها اللهُ؛ فيها أنباءُ صِدْقِهِمْ وفَضْلِهِمْ ومَنْزِلَتِهِمْ؛ هي ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هم وأولادُهُمُ الذينَ جَعَلَهُمْ أنبياءَ رُسُلاً؛ يُذْكَرونَ، ويُعَظَّمونَ مِنْ بَعْدِهِمْ [لأنَّ جميعَ الأنبياءِ والرُّسُلِ[2] يُذْكَرونَ، ويُعَظَّمونَ مِنْ بَعْدِهِمْ][3] لأنَّ جميعَ الأنبياءِ والرُّسُلِ [ﷺ][4] كانوا مِنْ نَسْلِ إبراهيمَ مِنْ لَدُنْهُ إلى لَدُنْ محمدٍ ﷺ.

فهمْ كانوا ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لأنهمْ[5] يُذْكَرونَ بكلِّ خَيرٍ وبكلِّ بَرَكَةٍ ويُمْنٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ هو ما آمَنَتْ[6] جَميعُ الأديانِ بهِ، أعني بإبراهيمَ، ودانُوا جَميعاً بهِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ تخصيصُ إبراهيمَ وَآلِهِ بالصلاةِ وبالبَرَكَةِ عليهِمْ والثناءِ على قولِ قومٍ حينَ[7] قالوا: «اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ» [البخاري ٦٣٥٧].

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ على قولِ الحَسَنِ: صِلَةُ قولِهِ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] أي اذْكُرْ رَحْمَةَ ربِّكَ موسى.

وعلى قولِ غَيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ أي اذْكُرْ لهمْ نَبَأَ موسى وقِصَّتَهُ في الكتابِ، وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ ومُخْلِصاً: قد قُرِئَ بالنَّصْبِ والخَفْضِ جميعاً. قالَ بعضُهُمْ ﴿مُخْلَصًا﴾ أخْلَصَهُ اللهُ، واصْطفاهُ، واختارَهُ لِرسالتِهِ ونُبوَّتِهِ، وقولِهِ ﴿مُخْلِصًا﴾ بالخَفْضِ[8] أخلَصَ عبادَتَهُ وتوحيدَهُ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الرسولُ هو الذي يُنْبِئُ، ويُخْبِرُ عنِ التأويلِ. وقال بَعْضُهُمْ: الرسولُ هو الذي يَنْزِلُ عليهِ الوَحْيُ والكتابُ، والنَّبِيُّ هو الذي يُنْبِئُ لا عنْ لِسانِهِ.

وأصلُ النَّبِيِّ هو الذي يُنبِئُ عن كلِّ خَيرٍ وبَرَكَةٍ. وسُمِّيَ نَبِيًّا لِاخْتِمالِ خصالٍ فيهِ كالصِّدِّيقِ؛ لا يُسَمَّى بهِ إلّا بَعْدَ اجْتماعِ كلِّ خِصالِ الخَيرِ والبَرَكَةِ مالَوِ انْفَرَدَ بكلِّ خَصْلَةٍ مِنْ تلكَ الخَصالِ سُمِّيَ صادقاً. فإذا [اجْتَمَعَتْ تلْكَ][9] سُمِّيَ صِدِّيقاً.

فَعَلى ذلكَ النَّبِيُّ؛ سُمِّيَ نَبِيّاً لِاجْتِماعِ خِصالٍ، وهو ما رُوِيَ في [خَبَرِ الرُّؤيا][10]: «الرُّؤيا الصالحةُ جُزْءٌ مِنْ خمسةٍ وأربعينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ» [التمهيد ١/ ٢٨١، وعند مسلم ٢٢٦٣، والبخاري ٦٩٨٩ جزء من ستةٍ وأربعينَ] «والصَّمْتُ الحَسَنُ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وعشرينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»[11] فهذا يُدُلُّ أنَّ النَّبِيَّ إنما سُمِّيَ نَبِيًّا لِاجْتِماعِ خِصالِ الخَيرِ والبَرَكَةِ فيهِ كما ذَكَرْنا في الصِّدِّيقِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل: رسلا. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم آمن من. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) وهي قراءة ابن عامر وابن كثير وغيرهما، انظر معجم القراءات القرانية ج٤/ ٤٩. (٩) في الأصل وم: اجتمع ذلك. (١٠) في الأصل: الخبر الرؤيا، ساقطة من م. (١١) في الموطأ ٢/ ٩٥٤ و٩٥٥: القصد والتؤدة وحسن السمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ فإنْ كانَ الأيمنُ مِنَ اليُمْنِ والبَرَكةِ فيكونُ تأويلُهُ: وناديناهُ مِنْ جانبِ الطُّورِ المُباركِ المَيْمونِ[1].

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ موسى ﷺ قالَ: أتاني ربي مِنْ جَبَلِ طورِ سيناءَ، وأطْلَعَ مِنْ جَبَلِ ساعورا، وأظْهرَ مِنْ جَبَلِ فارانَ. ومعناهُ: أتاني وَحْيُ ربي مِنْ جَبَلِ طورِ سيناءَ، وأطْلَعَ مِنْ جَبَلِ ساعورا، أي أتى وَحْيُ عيسى مِنْ جَبَلِ ساعورا، وأتى وَحْيُ محمدٍ مِنْ جَبَلِ فارانَ؛ فهو على اليُمْنِ يُمْنِ الجَبَلِ وبَرَكَتِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو يَمينُ الجَبَلِ، وقالَ بعضُهُمْ: يَمينُ موسى. وقال: أبو بَكرٍ الأصَمُّ: هذا لا يُعْلَمُ إلاَّ بالخَبَرِ، ولا نُفسِّرُهُ أنهُ ماذا أرادَ بهِ؟ مَخافَةَ التَّغْييرِ لأنهُ ذُكِرَ في مَوضِعِ الاحتِجاجِ عليهِمْ، فإنْ زادوا، أو نَقَصوا على ما في كُتُبِهِمْ يَبْطُلُ الاحتِجاجُ بهِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هو تَقريبُ المَنْزِلَةِ والقدْرِ والفَضْلِ. هذا مَعْروفٌ، وهو أسْلَمُ.

﴿نَجِيّٗا﴾ مِنَ المُناجاةِ، أي ناجاهُ مِنْ حيثُ لم يُطْلِعْ على ذلكَ غيرَهُ[2]، وسَمَّى موسى. فهذا لأنهُ أخْلَصَ نفسَهُ للهِ، وسلَّمها[3] له، ولذلكَ سُمّيَ المُصَلّي أيضاً مُناجياً ربَّهُ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «انْظُرْ مَنْ تُناجي» [بنحوه الموطأ: ١/ ٨٠] حينَ[4] فَرَّغَ نَفْسَهُ عن جميعِ الأشغالِ، وسَلَّمَها إليهِ، فَسمّى لذلكَ ﴿نَجِيّٗا﴾ مُناجياً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ هو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ على قولِ الحَسَنِ هو صِلَةُ قولِهِ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] أي اذكُرْ لهمْ رَحْمَةَ ربِّكَ إسماعيلَ. وعلى قولِ غيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ على الابْتِداءِ، أي اذكُرْ لهمْ نَبأَ إسماعيلَ. وقِصَّتُهُ في الكتابِ على الاحتِجاجِ لهُ عليهِمْ لأنَّ هذِهِ الأنباءَ والقِصَصَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فأخبَرَ رسولَهُ عن تلكَ الأنباءِ والقِصَصِ على ما كانتْ ليُخبِرَهُمْ، فَيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَها باللهِ لِيَدُلَّهُمْ ذلكَ على نُبُوَّتِهِ[5] ورِسالَتِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في إسماعيلَ: قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هو إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهما، وقالَ بعضُهُمْ: هو الذي قالوا ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ولكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ عنِ اللهِ. ولَيْسَ لنا إلى مَعْرفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: سَمّاهُ صادقَ الوَعْدِ [لأنهُ وَعَدَ][6] رجلاً/ ٣٢٦ - أ/ أنْ يُقيمَ عليهِ، وأنْ يَنْتَظِرَهُ حتى يرجعَ إليهِ، فأقامَ مكانَهُ أياماً، يَنْتَظِرُهُ لِلْميعادِ حتى رَجَعَ إليهِ.

لكنْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِثْلُ إسماعيلَ يَعِدُ عِدَةً، ولا يَسْتَثْني. وقد نَهى اللهُ رسولَهُ أنْ يقولَ: إنهُ فاعلٌ كذا غداً حتى يَسْتَثْنِيَ، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣ و٢٤]. ويكونُ قولُهُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ أي صَديقاً؛ والصديقُ هو القائمُ بوَفاءِ كلِّ حَقٍّ، ظَهَرَ لهُ، لأنَّ كلَّ مؤمنٍ، يَعْتَقِدُ في أصلِ إيمانِهِ طاعَةَ ربِّهِ في كلِّ أمْرٍ، يَأمُرُ بهِ، والانْتِهاءَ عنْ كلِّ نَهْيٍ، يَنهاهُ، وَوَفاءَ كلِّ حقٍّ عليهِ. فَسَمّاهُ ﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لِقيامِهِ بوَفاءِ كلِّ حقٍّ، ظَهَرَ لهُ، وتَجَلّى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ قد ذَكَرْناهُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي قومَهُ بالصلاةِ والزكاةِ، فإنْ كانَتِ الصلاةُ هي الصلاةَ المَعْروفَةَ، والزكاةُ [الزكاةَ][7] المَعْروفَةَ، ففيهِ أنهما كانَتا في الأُمَمِ الماضِيَةِ. وإنْ كانَتِ الدعاءَ والثناءَ وما بهِ تزكو الأنفسُ، وتَصْلُحُ، فهو[8] على جَميعِ الخلائقِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ ظاهِرٌ.

---

(١) في الأصل وم: واليمن. (٢) في الأصل وم: غيرهما. (٣) في الأصل وم: وسلمه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: النبوة.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وهو.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ﴾ هو ما ذَكَرْنا. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ قد ذَكَرْناهُ أيضاً.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ﴾ أي نَرْفَعُهُ في الجَنَّةِ، وقالَ أهلُ التأويلِ: رَفَعَهُ إلى السماءِ الرابعةِ [وهو مَيِّتٌ، أو كلاماً][1] نَحْوَ هذا.

ولكنْ عندَنا يُشْبِهُ أنْ يكونَ رَفْعُهُ إيَّاهُ في المَنْزِلَةِ والقَدْرِ، والرِّفْعَةُ عندَ اللهِ وعندَ الناسِ جميعاً على [ما][2] ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي بالنُّبُوَّةِ والرَّحْمَةِ التي ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ. والرَّحْمَةُ هي النِّعْمَةُ.

فهذا يَرُدُّ قَولَ أهلِ الاعْتِزالِ لأنهمْ يقولونَ: لا يَخُصُّ اللهُ أحداً بالنُّبُوَّةِ أو بِشَيءٍ مِنَ الأفضالِ إلّا مَنْ يَسْتَحِقُّ ذلكَ، ويَسْتَوجِبُهُ. فأخْبَرَ اللهُ ﷻ أنَّ ذلكَ منهُ إنعامٌ وإفضالٌ عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أيضاً، ومِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي يَعقوبَ، ومِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ هداهُ التوحيدَ، واجْتَباهُ لِلْرِسالةِ والنُّبُوَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هذا في مُؤْمِني أهلِ الكتابِ عبدِ اللهِ ابنِ سَلامٍ وأصحابِهِ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ﴾ القرآنِ بَعْدَ ما آمَنوا ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في أولئكَ [الذينَ][4] ذَكَرَ أنهُ أنْعَمَ عليهِمْ؛ كانَتْ لهمْ آياتٌ في كُتُبِهِمْ، ؛ فيها سُجودٌ إذا تُلِيَتْ ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟﴾ للهِ ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. أو أنْ يكونَ لا على حقيقةِ السجودِ، ولكنْ على الخضوعِ لهُ والقَبولِ لِحُجَجِهِ وبراهينِهِ التي تُلِيَتْ عليهِمْ. أو أنْ يكونوا لا يَمْلِكونَ أنفسَهُمْ إذا رَأَوا آياتِ اللهِ وسُلْطانَهُ، ولكنْ وَقَعوا سُجَّداً[5] على ما أخْبَرَ عَنْ سَحَرَةِ فِرْعَونَ عندَ معايَنَتِهِمُ الآياتِ حينَ قالَ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠، والشعراء: ٤٦] وقالَ[6]: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] ليسَ أنْ سَجَدوا لهُ، ولكنْ يُلقَونَ سُجَّداً لِما لا يَمْلِكونَ أنفُسَهُمْ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الآياتِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَبُكِيًّا﴾ فيهِ ثلاثُ لُغاتٍ: بُكِيّاً وبِكِيّاً وبَكِيّاً[7]، وهو جماعةُ الباكي. وقولُهُ: ﴿نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] يُقالُ: فلانٌ نَجِيُّ فلانٍ، أي مَوضِعُ [سِرِّهِ][8].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ الصلاةِ، وَصَفَهُمْ ﷺ أنهمْ كانوا يكونونَ في الصلاةِ خاشِعينَ باكينَ.

الآية ٥٩ وقولُهُ[9] تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي خَلَفَ مِنْ بَعْدِ أولئكَ الذينَ وَصَفَهُمْ ﷺ بالصلاةِ للهِ والخُشوعِ للهِ فيها والبُكاءِ ﴿خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي جَعَلوها لِغَيرِ اللهِ وهي الأصنامُ التي كانوا يَعْبُدونَها. فإذا جَعَلوها، وصَرَفوها إلى غَيرِ الذي يُصَلّي أولئكَ، فقد أضاعوها، لأنهمْ كانوا يُصَلّونَ للأصنامِ الصلاةَ التي كانَ يُصَلّي أولئكَ للهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي آخِرُ ما يُتْرَكُ، ويَضيعُ، لأنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرا الإسلامِ عُرْوَةٌ فَعُروةٌ؛ أوَّلُها الأمانةُ، وآخِرُها الصلاةُ» [بنحوه أحمد ٥/٢٥١].

[وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾][10] إضاعَتُها تأخيرُها عَنْ مَواقيتِها، لا أنْ تَرَكوها أصْلاً، فهذا في أصْلِ الإسلامِ، إنْ ثَبَتَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي آثَروا الشهواتِ على العباداتِ، وجَعَلوا الشَّهَواتِ، هي المُعْتَمَدةُ دونَ العباداتِ.

---

(١) في الأصل وم: فهوميت فيها أو كلام. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: سجودا. (٦) في الأصل وم: و. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٥٠. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ثم قال. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الغَيُّ وادٍ في جَهَنَّمَ. لكنَّ هذا لا يجوزُ أنْ يُقالَ إلّا بالخَبَرِ عنْ رسولِ الله أنهُ قالَ: وادٍ في جَهَنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغَيُّ العذابُ. وقالَ بعضُهُمْ: الغَيُّ الشَّرُّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ سَمَّى جَزاءَ أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدنيا بالغِوايَةِ باسْمِ أعمالِهِمْ غَيًّا. ويجوزُ تَسْمِيَةُ الجزاءِ باسْمِ سَبَبِهِ كقولِهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ونَحْوُهُ.

الآية ٦٠ ثم اسْتَثْنَى، فقالَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عنِ الشِّرْكِ ﴿وَءَامَنَ﴾ باللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا يُنْقَصونَ مِنْ حَسَناتِهِمُ التي عَمِلوها في حالِ إيمانِهِمْ[1] لِمكانِ ما عَمِلوا مِنَ الأعمالِ في حالِ كُفْرِهِمْ، بل يُبَدِّلُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ على [ما][2] أخْبَرَ اللهُ تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقالَ في آيةٍ [أُخرى][3]: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]؛ أخْبَرَ أنهمْ إذا آمَنوا، وانْتَهَوا عنِ الشِّرْكِ، لا يُؤاخِذُهُمْ بما كانَ منهمْ في حالِ كُفْرِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦١ ثم بَيَّنَ أيَّ جَنَّةٍ؟ فقالَ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ الذينَ آمَنوا ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ إيمانُهُمْ بالغَيبِ، أي باللهِ: آمَنوا بهِ بالخَبَرِ، وإنْ لم يَرَوْهِ. ويَحْتَمِلُ الغَيبُ الجنةَ، أي صَدَّقوا بها، وإنْ لم يَرَوها [ويَحْتَمِلُ الغيبُ البَعثَ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ أي كانَ مَوعودُهُ آتِياً. ولكنْ ذَكَرَ مَأتِيّاً لأنَّ كلَّ مَنْ أتاكَ فقد أُتِيتَهُ، فَسُمّي لِذلكَ مَأتِيّاً.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ كقولِهِ[5] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥ و٢٦] أي لا يَسْمَعونَ باطلاً وما يكْرَهُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ولا [ما][6] يُؤْثِمُ بعضُهُمْ بَعْضاً ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ والسلامُ كأنهُ اسْمُ كلِّ خيرٍ وبَرَكةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ أطْيَبَ العَيشِ وأحَبَّهُ إلى العَرَبِ الغَداءُ والعَشاءُ، فأخْبَرَهُمُ اللهُ ﷻ أنَّ لهمْ في الجنةِ الغداءَ والعَشاءَ. وأطيبُ العَيْشِ إلى العَجَمِ لِباسُ الحَريرِ واللُّؤْلُؤِ، فأعْلَمَهُمْ أنَّ لهمْ في الجنةِ ذلكَ بقولِهِ: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣ وفاطر ٣٣].

ويقولُ أهلُ التأويلِ: ليسَ في الجنةِ بُكْرَةٌ ولا عَشِيٌّ ولا ليلٌ ولا نهارٌ، ولكنْ يُؤْتَونَ على ما يُحِبّونَ مِنَ البُكْرَةِ والعَشِيِّ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: على مَقاديرِ الليلِ والنهارِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ ليسَ على تخصيصِ وقْتٍ دونَ [وقْتٍ][8] ولكنْ [في][9] الأوقاتِ كلِّها: في كلِّ وقْتٍ يُحِبّونَ، ويَشْتَهونَ كقولِهِ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ [فصلت: ٣١] [وقولِهِ][10]: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠].

ويُخَرَّجُ ذِكْرُ البُكْرَةِ والعَشِيِّ [على][11] أنَّ زمانَ الجنةِ يكونُ شِبْهَ البُكْرَةِ مِنْ وقْتِ طُلوعِ الفَجْرِ إلى طُلوعِ الشمسِ ومِثْلِ الوقْتِ [الذي][12] يكونُ بَعْدَ غروبِ الشمسِ إلى أنْ يُظْلِمَ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ ظِلَّهُ مَمْدودٌ بقولِهِ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾][13] أخْبَرَ أنَّ ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي﴾ ذَكَرَ أنَّ فيها كذا هي التي

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: اعلمهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والنار والبعث بالغيب.
(٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: ثم.

﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾. يَحتمِلُ أنْ يكونَ وَعْدُ الجنةِ لِلْبَشرِ كُلِّهِم بِشروطٍ[1]، شَرَطَ عليهِمْ؛ إنْ وَفَوا بها فَلَهُمُ الجنةُ جميعاً، وإنْ لم يَفُوا بها فلا. فَمَنْ وَفَى وُفّيَ بشروطِهِ[2] التي / ٣٢٦ ـ ب/ شَرَطَ؛ يَجعَلُ الذي كانَ وَعَدَ لِلّذي يَفي[3]، إذا وفَى بذلكَ. فهو الميراثُ الذي ذَكَرَ. وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] الفِرْدَوسَ[4]، والوارثُ هو الباقي عنِ المُورِّثِ والخَلَفُ عنِ المَيِّتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]. قالَ بعضُهُمْ: الخَلْفُ بالجَزْمِ يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ الذَّمِّ، والخَلَفُ بالتحريكِ والنَّصْبِ في مَوضِعِ المَدْحِ. وقالَ بعضُهم: هما سَواءٌ، ويُسْتَعْمَلانِ جميعاً في مَوضِعٍ واحدٍ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [هذا الكلامُ منهُ لا يكونُ إلّا عنْ سؤالٍ كانَ منهُ، كأنهُ قد كانَ اسْتَبْطأَ نزولَ جبريلَ عليهِ، فعندَ ذلكَ قالَ لهُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾][5].

ثم فيهِ أنهُ لم يقلْ ذلكَ لهُ إلّا بأمرِ اللهِ؛ أخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] فلا يَحتمِلُ أنْ يقولَ لهُ ذلكَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ، فَيَجعَلَ ذلكَ آيةً في كتابِ اللهِ، تُتْلَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ كأنَّ هذا الكلامَ موصولٌ بقولِهِ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لأنهما جميعاً كانا يَعْلَمانِ أنَّ لهُ ما بَينَ أيديهِمْ وما خلفَهُمْ وما بَينَ ذلكَ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ موصولٌ بالأوَّلِ.

وَجِهَةُ الصِّلَةِ بالأوَّلِ هو أنْ يُقالَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لا نَتَقَدَّمُ إلّا بأمرِهِ، ولا نَتأخَّرُ، ولا نَعمَلُ شيئاً إلّا بأمرِهِ. وهو كقولِهِ ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

وأمّا [أهلُ التأويلِ فقدِ][6] اختَلَفوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وهو الآخِرةُ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ ما مَضى مِنَ الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الحالُ التي نحنُ فيها. وقالَ بعضُهم: قولُهُ: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآخِرةُ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بَينَ النَّفْخَتَينِ، وأمثالُ هذا.

لكنَّ الذي ذَكَرْنا بَدْءاً أولَى وأشبَهُ، إذْ هو على الصِّلَةِ بالأوَّلِ ألّا يَتقدَّمَ، ولا يَتأخَّرَ، ولا يَعْمَلُ شيئاً إلّا بأمْرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ جبريلَ قد كانَ احْتَبَسَ عنهُ زماناً، فقالَ أهلُ مكةَ: قد وَدَّعَهُ ربُّهُ، وقلاهُ، فَنَزَلَ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١و٢ و٣] على ما قالَ المُشرِكونَ، فَيُخرَّجُ على هذا قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ على التَّرْكِ أي ما كانَ ربُّكَ تَرَكَكَ كما[7] قالَ أولئكَ مِنَ التوديعِ والقِلَى.

[والثاني][8]: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ كَملوكِ الأرضِ، يُطْلَبُ خَدَمُهُمْ وخَوَلُهُمْ وقتَ سَهْوٍ لهمْ وحالةَ غَفْلَتِهِمْ، فَيَقضونَ حوائجَهُمْ وحَوائجَ مَنْ يَطْلُبُ منهمُ القيامَ بها. أي ما كانَ ربُّكَ بالذي يَسْهو لهمْ، ويَغْفُلُ كملوكِ الأرضِ.

والثالثُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لِتأخيرِ نُزولٍ عَنْ وقتِ النُّزولِ، بل أنْزَلَ عليكَ في الوقتِ الذي هو وقتُ النُّزولِ. فهذانِ الوَجْهانِ يُخرَّجانِ على السَّهْوِ والغَفْلَةِ، والأوَّلُ على التَّرْكِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي أَصْبِرْ نفسَكَ عليها وعلى طاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي ما تَعْلَمُ لهُ شريكا، تَشْتَغِلُ بِعبادَتِهِ عنْ عِبادَةِ اللهِ. إنما هو إلهٌ واحدٌ، لا راحَةَ لكَ عنْ عبادَتِهِ، ولا يَشْغَلُكَ عنهُ. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هل تَعْلَمُ أحَداً، اسْمُهُ اللهُ سِواهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هل تَعْلَمُ لهُ مَثَلاً وشبيهاً.

---

(١) في الأصل وم: بشرائط. (٢) في الأصل وم: بشرائطه. (٣) في الأصل وم: لم يف. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: غيره من أهل التأويل. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) في الأصل وم: ويحتمل.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ هذا الكلامُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على إنكارِ البَعْثِ ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي ما أُخرَجُ حَيًّا.

والثاني: على الهُزْءِ؛ والهُزْءُ جوابُ ما قالَ لهمْ أهلُ الإسلامِ: إنكُمْ تُبْعَثونَ، وتُحْيَونَ، فقالوا عندَ ذلكَ على الهُزْءِ بهِمْ والسُّخْرِيَةِ.

الآية ٦٧ ثم ذَكَّرَهُمْ بَدْءَ حالِهِمْ حينَ[1] لم يكونوا شيئاً، فَخَلَقَهُمْ، فقالَ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فإنْ قَدَرَ على خَلْقِهِ في الابتِداءِ، ولم يَكُ شيئاً، كانَ على إحيائِهِ وبَعْثِهِ بَعْدَ ما كانَ شيئاً أقْدَرَ.

الآية ٦٨ ثم أقْسَمَ أنهمْ يُبْعَثونَ، فقالَ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي لَنَجعَلَنَّهُمْ والشياطينَ الذينَ أضَلُّوهُمْ كقولِهِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [الصافات: ٢٢ و٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿جِثِيًّا﴾ جماعاتٍ كقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿جِثِيًّا﴾ على الرُّكَبِ لأنَّ أقدامَهُمْ لا تَحمِلُهُمْ[2] لشدةِ هَولِ ذلكَ اليومِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشِّيعةُ الصِّنفُ، أي مِنْ كلِّ صِنفٍ [وقالَ بعضُهُمْ: الشِّيعةُ الأتباعُ كقولِهِ: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾][3] ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] أي مِنْ أتباعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي تَمَرُّداً وعِناداً. والعاتي هو القاسي المُتَمَرِّدُ في عُتُوِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ أي لَنُخرِجَنَّ أي نَبْدأُ بِمَنْ كانَ منهمْ أشَدَّ على الرحمنِ تَمَرُّداً وعِناداً، وهُمُ القادةُ والرؤساءُ منهمْ، فَيُقْذَفونَ في النارِ أوّلاً، ثم الأمْثَلُ على المراتِبِ التي كانوا في الدنيا.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي أعْلَمُ بِمَنْ [هُمْ][4] أولى بها صِلِيّاً، أي يُصْلَى بالنارِ، وهمُ القادةُ والكَفَرةُ كقولِهِ[5] ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الغَيُّ الشَّرُّ ﴿جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] قالَ: جماعاتٍ، والجاثي هو البارِكُ على رُكْبَتَيهِ، والشِّيعةُ الصِّنفُ مِنَ الناسِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿جِثِيًّا﴾ جَمْعُ جاثٍ، وفي التفسيرِ جماعاتٍ.

وقالَ قَتادةُ في قولِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] قالَ: لا سَمِيَّ لهُ، ولا عَدْلَ، ولا مِثْلَ؛ كلُّ خَلْقِهِ يُقِرُّ لهُ، ويَعرِفُهُ، ويَعْلَمُ أنهُ خالقُهُ.

وقالَ بَعضُهُمْ: لا يُسَمَّى أحدٌ باسْمِهِ؛ يعني باللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: بالرحمنِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في الكَفَرَةِ خاصةً، واسْتَدَلَّ بأوّلِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: ٦٨، . . .] إلى آخرِ ما ذُكِرَ. والمؤمنونَ لا يُحْشَرونَ مَعَ الشياطينِ، ولكنْ إنما يُحْشَرُ الكفارُ مَعَ الشياطينِ كقولِهِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ [الصافات: ٢٢ و٢٣]. ويكونُ قولُهُ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ على ابْتِداءِ مَنْعِ الوُرودِ عليها والنجاةِ منها.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في المؤمنينَ والكافِرينَ جميعاً. لكنِ اخْتُلِفَ في الوُرودِ، وقالَ بعضُهُمْ: الوُرودُ الحُضورُ دُونَ الدخولِ لأنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ أنَّ مَنْ أُدخِلَ النارَ فقد أخزاهُ بقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]. وقالَ بعضُهُمْ: الوُرودُ الدخولُ فيها، واسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: تعمل. (٣) في م: والشيعة الأتباع كقولِهِ ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقوله.

وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وبقولِهِ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الآية [هود: ٩٨] يقولُ: يدخُلُ الفريقانِ جميعاً فيها، لكنها تَصيرُ جامِدةً وبَرْداً على المؤمِنينَ على ما صارَتْ ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ثم تَصيرُ حارَّةً مُحرِقةً لِلْكُفّارِ والظَّلَمَةِ.

قالَ الحَسَنُ: لا يُحْتَمَلُ أنْ يَدْخُلَ أهلُ الإيمانِ النارَ لأنَّ اللهَ ﷻ، أمَّنَ المؤمنينَ أنْ يكونَ عليهِمْ خوفٌ أو حُزْنٌ بقولِهِ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، . .] فلو كانوا يدخُلونَ النار لكانَ لهمْ خوفٌ وحُزْنٌ. وقد أخْبَرَ أنْ لا ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دلَّ أنهمْ لا يَدْخُلونَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا وارِدينَ جميعاً داخِلينَ فيها، لا دخولَ تعذيبٍ فيها وعِقابٍ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ مَمَرَّهُمْ جميعاً على الصِّراطِ لِجَهَنَّمَ كالسَّطْحِ للدارِ. ومَنْ حَلَفَ ألّا يَدْخُلَ داراً، فَتَسَوَّرَ بِسورِها، أو صَعِدَ سَطْحاً مِنْ سطوحِها، حَنِثَ، ويصيرُ داخلاً فيها. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنهمْ إذا مَرُّوا على الصِّراطِ نَجا أهلُ الإيمانِ، فَمَرُّوا بِهِ، وزَلَّتْ أقدامُ الكفارِ فيها. فكانَ الفريقانِ جميعاً يُوصَفونَ بالدخولِ على/ ٣٢٧ ـ أ/ الوجهِ الذي وَصَفْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: وُرودُ المُسْلِمينَ المرورُ بِهِمْ على الجِسْرِ بَيْنَ أظهُرِها، وَوُرودُ[1] المُشْرِكِينَ أنْ يَدخُلوها. وقالَ النَّبِيُّ ﷺ «الزّالّونَ والزّالّاتُ»[2]. وما ذَكَرَ الحَسَنُ أنهُ مِنَ المؤمِنينَ ألّا يكونَ عليهِمْ خوفٌ ولا حُزْنٌ، فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ يُدْخِلُهُمْ فيها غَيرِ جِهَةِ العقوبةِ، فلا يكونُ لهمْ خوفٌ ولا حُزْنٌ.

ألا تَرَى أنهُ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ الملائكةَ أصحابَ النارِ في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] ثم لا يكونُ لهمْ خوفٌ ولا حُزنٌ؟ وهُمْ ممّا أُوعِدوا بها إذا خالَفوا أمْرَ اللهِ، وعَصَوهُ، بقولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩]. وهُمْ في الدنيا إذا اطَّلَعوا عليها، لا شَكَّ أنهمْ يخافونَ، ويَحْزنونَ، ويَسوؤُهُمْ ذلكَ أشَدَّ الخَوفِ، ثم في الآخِرَةِ لا.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونوا يَرِدونَها، ويدخُلونَها، ولا يُخيفُهُمْ ذلكَ، ولا يُحزِنُهُمْ، ولا يَسوؤُهُمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي قَضاءً واجِباتِهِمْ.

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى:][3] ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الشِّرْكَ أوِ الفواحِشَ ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ على رُكَبِهِمْ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كانَ هذا مِنَ الكَفَرةِ؛ خَرَجَ جوابَ ما احْتَجَّ عليهِمْ أهلُ الإيمانِ بالآياتِ التي ذَكَروا حِجاجاً[4] عليهِمْ، فَيَقولونَ: إنكُمْ تقولونَ: إنَّ الدنيا والآخِرَةَ للهِ فقد وسَّعَ علينا الدنيا، وضَيَّقَ عليكُمْ، فَعَلى ذلكَ يوسِّعُ الآخِرَةَ علينا كما فَعَلَ في الدنيا؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُواليَنا في الدنيا، ويُعادِيَنا في الآخِرَةِ. وعلى هذا قولُهُمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فَظَنّوا أنهُ لمّا وَسَّعَ عليهِمْ، وأحْسَنَ لهمُ النَّدى والمَجْلِسَ، كذلكَ يكونونَ في الآخِرَةِ، فأكْذَبَهُمُ اللهُ، ورَدَّ عليهِمْ ذلكَ، فقالَ:

الآية ٧٤ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أخْبَرَهُمْ بما عَرَفوا هُمْ أنهمْ كانوا أهلَ السَّعَةِ والزِّينةِ، ثم أُهْلِكوا بِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ وعِصيانِهِمْ ربَّهُمْ.

فلو كانَ ما ذَكَرَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ لكانوا لا يَهْلِكونَ، فَيَلْزَمُهُمْ بما ذَكَرَ أنَّ مَنْ وَسَّعَ عليهِ الدنيا، وضَيَّقَ عليهِ[5] الآخِرَةَ، إنما يكونُ بِحَقِّ المِحْنَةِ لا بِحَقِّ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ. وأمّا الثَّوابُ والجَزاءُ فهو حَقُّ القَدْرِ والمَنْزِلَةِ والخِذْلانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَثَٰثًا﴾ قيلَ: المَتاعُ والمالُ ﴿وَرِءْيًا﴾ أي مَنْظراً[6].

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) روى هذا الحديث ابن كثير في تفسيره عن عبد الرحمن بن زيد، انظر المختصر ج٢/ ٤٦٢. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حجاباً. (٥) في الأصل وم: على. (٦) في الأصل وم: منتظرا.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي خيراً وسَعَةً في الدنيا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ هو العذابُ والهلاكُ وَعَدَهُمْ رسولُ اللهِ في الدنيا ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ هذا يدلُّ أنَّ قولَهُمْ ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أرادوا الخدَمَ والحَواشِيَ حينَ[1] قالَ ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

قالَ أبو عوسَجَة: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] أي واجباً ﴿نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أي مَجْلِساً، والأَنْدِيَةُ[2] جَمْعٌ، والأثاثُ المَتاعُ ﴿وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] مَنْظراً ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩] أي نُطيلُ عذابَهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَدِيًّا﴾ أي مَجْلِساً؛ يُقالُ لِلْمَجْلِسِ: نَدِيٌّ ونادٍ، ومنهُ قيلَ: دارُ النَّدْوَةِ التي كانَ المُشْرِكونَ يَجْلِسونَ، ويَتَشاوَرون في رسولِ اللهِ، والأثاثُ المَتاعُ، والرِّئْيُ المَنْظَرُ والشارةُ[3] والهَيْئَةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي يَمُدُّ لهُ في ضلالَتِهِ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أي نَرِثُهُ المالَ والوَلَدَ الذي قالَ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] أي لا شَيءَ مَعَهُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ جميعُ ما ذَكَرَ اللهُ ﷻ، مِنْ زيادةِ الهُدَى[4] وابْتِداءِ الهدايةِ [فهو إنما يزيدُ لهُ الهِدايَةَ][5] ويَهْديهِ ابْتِداءً إذا كانَ مِنَ العَبْدِ رَغْبَةٌ في ذلكَ وبُغْيَةٌ وطَلَبٌ.

إذا كانَ مُهْتَدِياً يَزيدُ لهُ الثباتَ[6] على ما كانَ عليهِ في وقْتِ رغْبَتِهِ وطَلَبِهِ منهُ. وإنْ[7] لم يكُنْ مُهْتَدياً يَهْدِهِ ابْتِداءً هدايةً في وقْتِ رغْبَتِهِ وقَبولِهِ. على هذا يُخَرَّجُ عندَنا ما ذُكِرَ بِحَقِّ الزيادةِ أو بِحَقِّ الابْتِداءِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ أي يُوَفِّقُهُمْ إذا اهْتَدَوا، وعَرَفوا وَحْدانِيَّةَ اللهِ بأنواعِ[8] الخَيراتِ والطاعاتِ.

وقالتِ المُعْتَزِلةُ: [الهدايةُ الأُولَى][9] البَيانُ، وهي هدايَةٌ عامَّةٌ، والهدايَةُ الثانيةُ هي شرحُ الصَّدْرِ لها والتوفيقُ، وهي هدايَةٌ خاصةٌ، تكونُ في وقْتٍ ثانٍ بِحَقِّ الثوابِ.

فَعَلى زَعْمِهِمْ يَجيءُ ألّا يَكْفُرَ أحدٌ بَعْدَ ما هداهُ اللهُ مَرَّةً أبداً؛ لأنهمْ يقولونَ: إذا [اهْتَدَى أحدٌ، وقَبِلَ][10] هدايَتَهُ مَرَّةً، يُوَفِّقُهُ، ويَشْرَحُ صَدْرَهُ في الوقْتِ الثاني: ، فهو أبداً يكونُ على الهِدايَةِ والإيمانِ. فإذا وُجِدَ عن كثيرٍ مِمَّنِ اهْتَدَوا مَرَّةً الكُفْرُ مِنْ بَعْدُ دلَّ أنَّ تأويلَهُمْ فاسِدٌ، وأنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا نحنُ أنهُ يزيدُ لهمُ الهِدايَةَ وقْتَ رَغْبَتِهِمْ وطَلَبِهِمُ الهِدايَةَ، إنْ كانَ بِحَقِّ الزيادةِ أو بِحَقِّ الابْتِداءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الأمورَ الباقياتِ التي لها البَقاءُ، أي ما يَبْقَى لكمْ عندَ اللهِ خيرٌ ممّا يَبْطُلُ، لأنَّ اللهَ ﷻ وَصَفَ الحَقَّ والخَيرَ بالبَقاءِ والمُكْثِ، وَوَصَفَ الباطلَ بالذَّهابِ والتَّلاشي بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ الآية [الرعد: ١٧] وقولِهِ[11] في آيةٍ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤] [وقولِهِ في آيةٍ][12]: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٦] وقولِهِ[13] في آيةٍ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] أي ذاهباً.

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ أي الأعمالُ التي لها البَقاءُ خيرٌ لكُمْ عندَ اللهِ ثواباً مِنَ التي[14] ليسَ لها البقاءُ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي ما أبْقَى لكُمْ في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ خَيرٌ لكُمْ ممّا أعطَى لكمْ في الدنيا؛ لأنَّ هذا فانٍ، وذاكَ باقٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: والآية. (٣) في الأصل وم: والبشارة. (٤) في الأصل وم: الهداية. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: الشباب. (٧) في الأصل وم: أو إن. (٨) في الأصل وم: الأنواع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: اهتدوا وقبلوا. (١١) و(١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) في الأصل وم: الذي.

الآيتان ٧٧ و٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾][1] قالَ بعضُهُمْ: هذا القولُ قالَهُ العاصُ بنُ وائِلٍ السَّهمِيُّ لمّا حاجَّهُ أهلُ الإيمانِ في أمرِ الآخِرَةِ أنها لهمْ دونَ الكَفَرَةِ، فقالَ لهمْ عندَ ذلكَ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ في الآخِرَةِ، إنْ كانَ ما تقولونَ أنْتُمْ حقّاً: إنما نُبْعَثُ، ونُحْيا، [﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾][2] كما أُوتِيتُ في هذهِ الدنيا.

وقالَ الحَسَنُ: قالَ هذا القولَ[3] الوليدُ بْنُ المُغيرَةِ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦].

الآية ٧٩ وكانَ يَطْمَعُ أنْ يُزادَ[4] لهُ في الدنيا أبداً، فقالَ ﷻ: ﴿كَلَّآ﴾ ردّاً على ذلكَ.

وقالَ ههنا: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إنهُ يكونُ لهُ في الآخِرَةِ؛ ذلكَ على التأويلِ الأوَّلِ، أو في الدنيا في وقْتٍ آخَرَ: ذلكَ على تأويلِ الحَسَنِ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ أي لهُ بذلكَ عندَ اللهِ عهدٌ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ[6] على ما ادَّعَوا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي سَنحْفَظُ ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ أي نزيدُ لهُ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ في كلِّ يومٍ كقولِهِ: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي نُعَذِّبُ [بلا انْقِطاعٍ][7] لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي نَرِثُهُ المالَ والوَلَدَ الذي قالَ: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ [مريم: ٧٧] أي للهِ ما يقولُ بأنهُ لهُ مِنَ المالِ وغيرِهِ، لا لَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ إنهُ يُعْطَى في الجنةِ ما يُعْطَى المؤمنونَ، فَنَرِثُهُ عنهُ، ونُعْطِيه غيرَهُ.

وجائزةٌ إضافةُ الوِراثةِ إليهِ على إرادةِ أوليائِهِ، أي ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ ذلكَ أولياءَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ في الآخِرَةِ، ولا شيءَ مَعَهُ، ولا أهْلَ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ في وقْتٍ، لا شيءَ مَعَهُ، ولا أهلَ /٣٢٧ ـ ب/ ولا وَلَدَ على تأويلِ مَنْ يقولُ في قولِهِ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في العَهْدِ الذي ذَكَرَ أنَّ لهُ ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨] قالَ بعضُهُمْ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ في الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: [تقديمُ العَمَلِ الصالحِ][8] وقالَ بعضُهُمْ: الصلاةُ، وهو قولُ مُقاتِلٍ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [فإنَّ اللهَ يقولُ يومَ القِيامَةِ: مَنْ كانَ لهُ عندي عهدٌ][10] فَلْيَقُمْ، فقيلَ: كيفَ هو؟ قالَ [أنْ تقولَ:][11] اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، إني أعْهَدُ إليكَ في هذهِ الحياةِ الدنيا أنكَ لا تَكِلْني إلى عَمَلٍ، يُقَرِّبُني مِنَ الشَّرِّ، ويُباعِدُني مِنَ الخيرِ، وإني لا أثِقُ إلّا بِرَحْمَتِكَ، فاجْعَلْهُ لي عندكَ عَهْداً، تُؤَدِّيهِ إليَّ يومَ القِيامةِ، إنكَ لا تُخلِفُ الميعادَ. ويَرفَعُ ابنُ مَسْعودٍ هذا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، والأوَّلُ كأنهُ أشْبَهُ، إنْ ثَبَتَ الخَبَرُ.

الآيتان ٨١ و٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ فإنْ كانَ على حقيقةِ العِزِّ فهو في القادةِ منهمْ والمَتبوعينَ الذين عَبَدوا تلكَ الأصنامَ لِيَتَعَزَّزوا بذلكَ، ولا يُذَلُّوا[12]، وتدومَ لهمُ الرئاسَةُ التي كانَتْ لهمْ في الدنيا. فَظَنُّوا أنهمْ إنْ آمَنوا تَذْهَبُ تلكَ الرئاسَةُ والمَأْكَلَةُ عنهمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي نَصْراً ومَنَعَةً. فإنْ كانَ هذا فهو في الرُّؤساءِ منهمْ والأتباعِ في الدنيا والآخِرَةِ.

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: قول. (٤) في الأصل وم: أزيد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ردا. (٧) من م، في الأصل: بالانقطاع. (٨) في الأصل وم: قدم عملاً صالحاً. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يذلون.

أمّا ما طَمِعُوا بِعِبادَتِهِمُ الأصنامَ [فهو][1] النَّصْرُ في الآخِرَةِ، وهو كَقولِهِم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[2]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] طَمِعُوا بعبادتِهِمُ الأصنامَ النَّصْرَ والشَّفاعَةَ في الآخِرَةِ.

وأمّا في الدنيا [فقد][3] ظَنُّوا أنَّ آلِهَتَهُمُ التي [اتَّخذوها، وعَبَدوها، تَنْصُرُهُمْ][4] في الدنيا حينَ[5] قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] فكيفَ ما كانَ فقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهِمْ ما طَمِعُوا: عِزّاً كانَ أو نَصْراً.

يقولُ: ﴿كَلَّا﴾ لأنهمْ أذَلُّوا [أنْفُسَهُمْ لِخَشَبٍ][6] وحنَوا ظُهورَهُمْ لها. فَكَفَى بذلكَ [ذُلّاً وصَغاراً].

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: سَيَكْفُرُ عُبّادُ الأصنامِ في الدنيا، ومَنْ عَبَدوها[7] في الآخِرَةِ أنهمْ ما كَفَروا وما عَبَدوها كقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ[8] رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. يُنكِرونَ في الآخِرَةِ أنْ يكونوا أشرَكوا فيهِ غيرَهُ[9]، أو عَبَدوا دونَهُ.

وقالَ غيرُهُ مَنْ أهلِ التأويلِ: سَيَكْفُرُ المَعْبودونَ بالعابِدينَ، ويَتَبَرَّؤونَ منهمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] وقولِهِ: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال بعضُهُمْ: ﴿ضِدًّا﴾ أي عَوناً. وتأويلُ العَونِ هو أنْ تُلْقَى الأصنامُ مَعَهُمْ في النارِ، فَيُحْرَقونَ فيها معهمْ، فيزدادُ لهم عذاباً، وفكانَتْ [عوناً][10] على إحراقِهِمْ. فَعَلَى هذا يُخَرَّجُ.

وقولُ مَنْ[11] يقولُ: الضِّدُّ البَلاءُ [هو أنْ][12] يكونوا بَلاءً عليهِمْ على ما ذَكَرْنا، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨] فإذا صاروا حَصَباً كانوا بَلاءً وعَوناً على إحراقِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي قُرَناءَ في النارِ؛ [يُخاصِمُ][13] بعضُهُمْ بَعْضاً، ويَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويُكَذِّبُ[14] بعضُهُمْ بَعْضاً. فذلكَ كُلُّهُ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ما طَمِعوا منها لأنهمْ عَبَدوها في الدنيا رَجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفَعاءَ في الآخِرَةِ ونُصَراءَ، فكانوا لهمْ على ضِدِّ ذلكَ أعداءً.

وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي حَسْرَةً، وكلُّهُ واحِدٌ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي سَلَّطْنا عليهمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي قَيَّضْناهُمْ لهمْ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] فهما في الحقيقةِ واحدٌ؛ لأنهُ إذا أرْسَلَهُمْ اتَّصلوا بهمْ [وإذا اتَّصلوا بهمْ][15] قُيِّضوا، وقُرِنوا بعضُهُمْ ببعضٍ.

وقالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ الأصَمُّ وغَيرُهما: ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي خَلَّينا بينَهُمْ وبَينَهُمْ، ولم نَمْنَعْهُمْ منهمْ ممّا[16] ذُكِرَ.

لكنْ لو كانَ تأويلُ الإرسالِ التَّخْلِيَةَ، وتأويلُ التَّقْييضِ كذلكَ لم يَكُنْ لِتَخْصيصِ الكُفّارِ بذلكَ مَعْنًى[17] إذْ قد كانَ ذلكَ القَدْرُ مِنَ التَّخْلِيَةِ بينَهُمْ وبينَ المُسْلِمينَ، إنْ كانَ تأويلُ التَّخْلِيَةِ أنهُ لم يَمْنَعْهُمْ منهمْ [وأنهُ خَلَّى][18] بينَهُمْ.

فَدَلَّ [أنَّ][19] تَخْصيصَ الكُفّارِ بهذا وأمثالِهِ ليسَ هو التَّخْلِيَةَ [بلْ غَيرَها][20] وأنَّ تَخْصيصَ هؤلاءِ بهذا وأمثالِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] [وقولِهِ][21] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥، ...] ونَحْوِهِ، وأنَّ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: اتخذوا وعبدوها ينصرونهم، في م: عبدوها ينصرونهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: لأنفسهم الخشب. (٧) في م، عبدوه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وغيره. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: ومن (١٢) في الأصل وم: أي. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، في الأصل: ويخاصم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ما. (١٧) في الأصل وم: المعنى. (١٨) في الأصل وم: ولم يخل. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل وم: لا غير. (٢١) ساقطة من الأصل وم.

هنالكَ[1] مِنَ اللهِ مَعْنىً في الكُفّارِ، ليسَ ذلكَ في المؤمنينَ، وفي المؤمنينَ مَعْنىً ليسَ ذلكَ في الكافرين. وهو، واللهُ أعلَمُ: إذا عَلِمَ في المؤمنينَ الرغبَةَ والإجابَةَ وَفَّقَهُمْ على ذلكَ، وهداهُمْ. وإذا عَلِمَ مِنَ الكُفّارِ خِلافَ ذلكَ وضِدَّهُ خَذَلَهُمْ، وأضَلَّهُمْ. فذلكَ تَخصيصُهُ إياهُمْ بما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: تُزْعِجُهُمْ إزعاجاً. وقالَ بعضُهُمْ: تَشُلُّهُمْ شَلّاً، وتُغريهِمْ إغراءً. وقالَ الحَسَنُ: تُحَرِّكُهُمْ تَحريكاً. وقالَ بعضُهُمْ: تُقْدِمُهُمْ إقداماً إلى الشَّرِّ. وقالَ بعضُهُمْ: تَأمُرُهُمْ أمراً. وقالَ بعضُهُمْ: تُوقِعُهُمْ إيقاعاً، ونَحْوَهُ، وكُلُّهُ واحدٌ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تُكافِئْهُمْ على أذاهُمْ إيّاكَ، ولا تُعاقِبْهُمْ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي أنفاسَهُمُ [التي][2] يَتَنَفَّسونَ في الدنيا، فهي مَعْدودةٌ، تَنْقَضي آجالُهُمْ عَنْ قريبٍ، فلا تُكافِئْهُمْ على ذلكَ وما يَسْتَقْبِلونَكَ بالمَكْروهِ والسُّوءِ.

ثم وَجْهُ ما ذَكَرَ مِنْ إرسالِ الشياطينَ عليهِمْ والتَّمْكينِ لهمْ مِنَ الوَسْوَسَةِ في الصدورِ، أعني صدورَ المؤمنينَ، والنَّزْغِ في ردْعِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَمْلِكوا القَهْرَ والقَسْرَ على ذلكَ، وما جَعَلَهُمْ بِمَحَلٍّ، لا نَراهُمْ نحنُ، وهمْ يَرَونَنا، على ما أخْبَرَ: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فهو، واللهُ أعلَمُ[3] أنَّ مَنْ عَلِمَ بِحَضرَتِهِ وقُرْبِهِ عَدُوًّا لهُ، يُراقِبُهُ، ويطْلُبُ الفُرْصَةَ عليهِ، يكونُ أحْذَرَ وأهْيَبَ لهُ مِمَّنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ ولا كانَ بِقُرْبِهِ وحَضْرَتِهِ عَدُوٌّ. وعلى ذلكَ ما جَعَلَ ﷻ مِنَ الحَفَظَةِ والكِرامِ الكاتِبينَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، على بَني آدَمَ رُقَباءَ عليهِمْ في قَليلِ ما يَفْعَلونَ، ويَتَفَوَّهونَ، وكَثيرِهِ[4]، وإنْ كانَ قادراً على حِفْظِ ذلكَ عليهِمْ والتَّذْكيرِ لهمْ، واحداً بَعْدَ واحدٍ شَيئاً على إثْرِ شيءٍ. وذلكَ لِما ذَكَرْنا أنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ رقيباً، يُراقِبُهُ، ويَكْتُبُ عليهِ كلَّ قليلٍ أو كَثيرٍ كانَ أحْذَرَ وأهْيَبَ مِمَّنْ لم يَعْلَمْ ذلكَ على نفسِهِ رقيباً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ أي الذينَ اتَّقَوا مُخالَفَةَ أمرِ اللهِ في كلِّ ما لا يَغْلُبُ عليهِمْ، لأنَّ المؤمِنَ لا يَرْتَكِبُ المَعْصِيَةَ إلّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ أو لِغَلَبَةِ رَجاءٍ إلى مَغْفِرَةِ ربِّهِ ونَحْوِها[5] أو توبَةٍ يُضْمِرُها بَعْدَ[6] ارْتِكابِها. على هذا يكونُ ارْتِكابُ المؤمِنِ مُخالَفَةَ رَبِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ أي إلى[7] ما وَعَدَ لهمُ الرحمنُ مِنَ الثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفْدًا﴾ الوَفْدُ في الشاهِدِ همْ أهلُ الكرامَةِ والمَنْزِلَةِ؛ يُبْعَثونَ لِأمورٍ. فَكَأنَّهُ ذَكَرَ أنَّ المُتَّقينَ يُحشَرونَ، وهمْ مُكَرَّمونَ مُعَظَّمونَ، ولهمْ مَنْزِلَةٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ الواردُ هو طالِبُ الماءِ، والوِرْدُ الجَمْعُ. فكأنَّهُ قالَ: ونَسوقُ المُجْرِمينَ إلى جَهَنَّمَ عِطاشاً طُلّابَ الماءِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ. والمُجْرِمُ: قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: هو الوَثّابُ في المَعْصِيَةِ. وأصْلُ الإجرامِ الاكْتِسابُ، ولهذا[8] قالَ بعضُ الناسِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢ و٨] أي يُكْسِبَنَّكُمْ. وأصْلُهُ هو/ ٣٢٨ ـ أ/ كَسْبُ الإثمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فيهِ أنهمْ إنما يُساقونَ على كُرْهٍ منهمْ؛ إذْ ذُكِرَ في الكافِرينَ السَّوقُ، وذُكِرَ في المؤمنينَ الجَمْعُ والحشْرُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ الشَّفاعَةُ إنما تكونُ في مَنِ اسْتَوجَبَ العذابَ والعُقوبَةَ. فأمّا مَنْ، لا عُقوبَةَ عليهِ، مَغْفورُ الذَّنْبِ، فإنَّهُ لا مَعْنىً لها [فيه][9] فهو يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ: أنَّ صاحبَ الكبيرَةِ، لا يُغْفَرُ لهُ،

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٤) في الأصل وم: وكثيرهم. (٥) في الأصل وم: ونحوه. (٦) في الأصل وم: بقدر (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: ولها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وصاحبَ الصغيرةِ مَغفورٌ لهُ. فالشَّفاعةُ التي ذَكَرَ لا تَخلُو: إمّا أنْ تكونَ لأهلِ الكَبائِرِ، فَيُغفَرَ لهمْ بالشَّفاعةِ، فَيَبْطُلَ قولُهُمْ، وإمّا[1] لأهلِ الصَّغائِرِ فَلَهُ تَعذيبُهُمْ. فكيفَ ما كانَ فهو يَرُدُّ قولَهُمْ: إنهُ[2] لا مَعْنىً لِذِكْرِ الشَّفاعةِ في المغفورينَ.

وقالوا: إنَّ الشَّفاعةَ في الشاهدِ أنْ تُذكَرَ مَحاسِنُ الإنسانِ عندَ آخَرَ لِيَعْرِفَ مَحاسِنَهُ ومَناقِبَهُ، لتكونَ لهُ مَنْزِلةٌ وقَدْرٌ عندَهُ. لكنْ مِثْلُ هذا يَجوزُ لِمَنْ[3] يَجْهَلُ ذلكَ، ولا يَعْرِفُ محاسِنَهُ، فأمّا اللهُ ﷻ هو عالِمٌ بذاتِهِ، يَعْلَمُ حالَ كلِّ أحدٍ، فلا يَحْتَمِلُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: شهادةُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ. وقالَ بعضُهُمْ: العَمَلُ الصالحُ. وقالَ بعضُهُمْ: الصلاةُ على ما ذَكَرْنا.

وأصْلُ العَهْدِ هو أنْ يُشتَرَطَ عليهِ شَرْطُ الوفاءِ حتى بما شُرِطَ عليهِ، وهو الوفاءُ بما أُمِرَ بهِ، ونُهِيَ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في مُشرِكي العَرَبِ لأنهمْ همُ الذين قالوا: الملائكةُ بَناتُ اللهِ.

لكنَّ أهلَ التأويلِ قالوا أيضاً: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠] فهو في كلِّ مَنْ قالَ ذلكَ.

الآية ٨٩ وقولُهُ[4] تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ يُخَرَّجُ على الإضمارِ حينَ أخْبَرَ عنهمْ أنهمْ قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾: أنْ قُلْ لهمْ يا محمدُ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ أي عظيماً مُنكَراً. أو يكونُ[5] لمّا قالوا ذلكَ أقْبَلَ عليهمْ، فقالَ لهمْ: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ عظيماً مُنكَراً، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِثْلُ هذا إنما يُقالُ على المُبالَغَةِ في العظيمِ مِنَ الأمورِ والنهايةِ مِنَ الضِّيقِ والشِّدّةِ على التَّمْثيلِ. يقولُ الرجلُ لآخَرَ: أظْلَمَتِ الدنيا عليهِ، وضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ، ونَحْوَهُ على المُبالَغَةِ[6] في الضِّيقِ والشِّدّةِ.

فَعَلى ذلكَ هذا؛ ذَكَرَ على المُبالَغَةِ[7] والنهايةِ في العظيمِ مِنَ القولِ الذي قالوا [في اللهِ][8] سُبْحانَهُ، ثم جَعَلَ مِثْلَ ما قالوا في العظيمِ [في اللهِ][9] بما يَعْظُمُ مِنَ المحسوساتِ في العقولِ. وهو ما ذَكَرَ مِنِ انْفِطارِ السمواتِ وانشِقاقِ الأرضِ وهَدِّ الجبالِ، وهُنَّ أصلَبُ الأشياءِ وأشَدُّها لِيَعْرِفوا عِظَمَ ما قالوا فيهِ. وهكذا تُعْرَفُ الأمورُ الغائبةُ التي سَبيلُ مَعْرِفَتِها الإسْتِدْلالُ بالمَحْسوساتِ مِنَ الأشياءِ والمُشاهَداتِ منها.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ انْشِقاقِ الأرضِ وهَدِّ الجبالِ وانفطارِ السماءِ على حَقيقَةِ ما ذَكَرَ أنْ يكونَ فيها، و إنْ لم يُشاهَدْ ذلكَ منها، ولم يُحَسَّ، كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقالَ قائلونَ: ذَكَرَ هذا في أهلِ السمواتِ والأرضِ أنهمْ يكونونَ كما ذَكَرَ بما قالوا تَعظيماً لذلكَ وإنكاراً.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يَنْبَغي لهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً.

الآية ٩٣ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ وفي الشاهِدِ لا أحَدَ يَتَّخِذُ الوَلَدَ مِنْ عَبيدِهِ. فكيفَ يَنْبَغي [لِمَنْ][11] لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، وكُلُّهمْ عَبيدُهُ، أن يَتَّخِذَ وَلَداً مِنْ عَبيدِهِ؟ أو ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وأسبابُ الأولادِ التي بها يُتَّخَذُ الوَلَدُ لَيسَتْ فيهِ، لأنَّ في الشاهدِ إنما يُتَّخَذُ الوَلَدُ لِثلاثٍ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

فإنْ كانَ اللهُ، سُبْحانَهُ، يَتعالَى عنْ ذلكَ كلِّهِ لم يَنْبَغِ لهُ أنْ يَتَّخِذَ الوَلَدَ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: إذ. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: ثم قوله. (٥) في الأصل وم: أن يكونوا. (٦) في الأصل وم: الإبلاغ. (٧) في الأصل وم: لله. (٨) في الأصل وم: لله. (٩) في الأصل وم: لله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: له. ساقطة من الأصل.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ في الآخِرَةِ. أي كُلُّهُمْ يُقِرُّونَ بالعُبودَةِ لهُ يومئذٍ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ مِنْ عَدِّ أنْفُسِهِمْ وإحصائِهِ، ألّا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، أو أنْ يكونَ على الوعيدِ، أنْ يُحْصِيَ أقوالَهُمْ وأفعالَهُمْ بما سَلَّطَ عليهِمْ مِنَ الملائكةِ ما يُراقِبونَ ذلكَ منهُمْ كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وقولِهِ[1]: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١].

قالَ أبو عوسَجَةَ: الضِّدُّ الخَصْمُ، والإدُّ السَّوقُ الشديدُ، وقولُهُ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أي شديداً، والوِرْدُ أي يُورِدُهُمْ إيّاها، أي يُدْخِلُهُمْ. وقالَ: الوِرْدُ النَّصيبُ مِنَ الماءِ، وقولُهُ: ﴿هَدًّا﴾ أي صوتاً يَهُدُّ، أي يَهْدِمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي واحداً، [ليس مَعَهُ مِنْ دُنْياهُ شيءٌ][2].

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

أحَدُها: خاطبَ أهلَ مكةَ: إنكمْ إذا آمَنْتُمْ، وعَمِلْتُمُ الأعمالَ الصالحاتِ، يَرْفَعُ ما بَيْنَكُمْ مِنَ التَّباغُضِ والتَّعادي، فَيُبَدِّلُ مَكانَهُ المَحَبَّةَ والمَوَدَّةَ كقولِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أخبَرَ أنهمْ صاروا بالإيمانِ إخواناً مُؤَلَّفَةً قلوبُهُمْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلِهِ.

والثاني: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ في الجنةِ، أي يَنْزِعُ ما في قلوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ وغِشٍّ كقولِهِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

والثالثُ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ في قلوبِ الأنبياءِ والأخيارِ وأصحابِ الدينِ لأنهمْ إنما يَنْظُرونَ إلى الإنسانِ لدينِهِ ولِخُلوصِ عَمَلِهِ للهِ وصَفائِهِ لهُ لا إلى الدنيا وما تَحْويهِ يَدُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على ما رَوَتِ[3] الأخبارُ، إنْ ثَبَتَتْ: رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ، [أنهُ][4] قالَ: «إذا أحَبَّ اللهُ عَبْداً نادَى: أحْبَبْتُ فُلاناً، فأحِبّوهُ» [البخاري ٣٢٠٩] وكذلكَ هذا في البُغْضِ.

وقالَ كَعْبٌ: وَجَدْتُ في التوراةِ أنهُ لم تَكُنْ مَحَبَّةٌ لأحدٍ مِنْ أهلِ الأرضِ حتى يكونَ بَدْؤُها مِنَ اللهِ تعالى؛ يُنْزِلُها على أهلِ السماءِ ثم على أهلِ الأرضِ، وكذلكَ في البُغْضِ. ثم قالَ: وكذلكَ وَجَدْتُ في القرآنِ، فَقَرَأَ هذهِ الآيةَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ يُحِبُّهُمْ، ويُحَبِّبُهُمْ إلى المؤمنينَ، في صدورِهِمْ.

فَعَلى هذا، إنْ ثَبَتَتْ، يَجِبُ أنْ يَخافَ المَرْءُ على نفسِهِ إذا رَأَى الناسَ [لا يُحِبّونَهُ][5] أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ سوءِ عَمَلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [يَسَّرْنا لَهُ][6] تبليغَ الرِّسالةِ على لِسانِهِ حتى بَلَّغَها إلى الفَراعِنَةِ منهُمْ والأكابِرِ الذينَ كانوا يَقْتُلونَ مَنْ يُخالِفُهُمْ، ويَسْتَقْبِلُهُمْ بغيرِ الذي هُمْ عليهِ قَوْلاً وفِعْلاً، ويُعاقِبونَهُ[7] على ذلكَ. يَسَّرَ ذلكَ عليهِ حتى بَلَّغَها إلى أمثالِ هؤلاءِ، وقَدَرَ على ذلكَ مِنْ غيرِ أنْ قَدَروا على إهلاكِهِ حينَ[8] أخبَرَ أنهُ عَصَمَهُ منهُمْ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقالَ بَعْضُهُمْ: يَسَّرَهُ على لِسانِهِ حتى قَدَرَ على التَّكَلُّمِ بهِ والنُّطْقِ لأنهُ كلامُ ربِّ العالَمينَ.

قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: هذا لا يُحْتَمَلُ لأنهُ أنْزَلَهُ بِلِسانِهِ ولِسانِ العَرَبِ: فلا يُحْتَمَلُ ألّا يَقْدِروا على التَّكَلُّمِ بِلِسانِهِمْ.

وقالَ قائلونَ: يَسَّرَهُ على لِسانِهِ حينَ[9] جَعَلَهُ بِحَيثُ يَحْفَظونَهُ، ويَقْرَؤونَهُ عنْ ظَهْرِ قُلوبِهِمْ، ليسَ كسائِرِ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ التي[10] كانوا لا يَقْدِرونَ على حِفْظِها وقِراءَتِها[11] عَنْ ظَهْرِ القَلْبِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: رويت. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: يسرناه. (٧) في الأصل وم: ويعاقبون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أنهم.
(١١) في الأصل وم: والقراءة.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ كقولِهِ[1] في آيةٍ أخرَى: ﴿إِنَّمَا/ ٣٢٨ ـ ب/ تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] [وقولِهِ في آيةٍ أخرَى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]][3] مَرَّةً ذَكَرَ النِّذارَةَ للناسِ جَميعاً، ومَرَّةً لِلَّذينَ ظَلَموا خاصَّةً، ومَرَّةً لِلَّذينَ اتَّبَعوا الذِّكْرَ.

والأصلُ في النِّذارَةِ [والبِشارَةِ][4] أنَّ البِشارَةَ إذا كانَتْ خاصَّةً لِأحَدٍ فهي لهُ على شَرْطِ [الدَّوامِ على ذلكَ أبداً، وفيها][5] النِّذارَةُ لهُ، إنْ لم يَدُمْ. وكذلكَ النِّذارَةُ الخاصَّةُ لِأحَدٍ لِدَوامِ ذلكَ[6] مُلْتَزِماً. فإنْ تابَ، ورَجَعَ عَنْ ذلكَ، فَلَهُ فيها البِشارَةُ.

على هذا تكونُ البِشارَةُ الخاصَّةُ، والنِّذارَةُ الخاصَّةُ تكونُ في كلِّ واحدةٍ منهما أُخرَى.

وأمَّا البِشارةُ المُطلَقَةُ فهي بِشارةٌ لا تكونُ فيها النِّذارَةُ، وكذلكَ النِّذارَةُ المُطلَقَةُ لا تكونُ فيها البِشارَةُ. على هذهِ الأقسامِ تُخَرَّجُ البِشارَةُ والنِّذارَةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ يُخَوِّفُ بهِ أهلَ مَكَّةَ بإهلاكِهِ القرونَ الماضِيَةَ في الدنيا بتَكْذيبِهِمُ الرسلَ لئلا يُكَذِّبوا محمداً كما كَذَّبَ أولئكَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَيَنْزِلَ بهمُ العذابُ والهلاكُ كما نَزَلَ بأولئكَ.

يَقولُ لِنَبِيِّهِ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي هل تَرَى؟ وتُبْصِرُ منهمْ أحداً؟ أي لا تَرَى، ولا تُبْصِرُ منهمْ أحداً ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ قيلَ: صوتاً، وقيلَ: ذِكْراً، أي لا يُذْكَرونَ بَعْدَ هلاكِهِمْ إلّا بِسوءٍ.

يُحَذِّرُ أهلَ مكةَ لئلا يُكَذِّبوا رسولَهُمْ كما كَذَّبَ [الذينَ][7] مِنْ قَبْلِهِمُ الرسلَ، فيكونوا[8] كما كانَ أولئكَ، ويَصيروا[9] مِثْلَهُمْ.

قالَ القُتَبِيُّ: اللُّدُّ جَمْعُ أَلَدَّ، وهو الخَصْمُ الجَدِلُ، والرِّكْزُ الصوتُ الذي لا يُفْهَمُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الألَدُّ، هو شديدُ الخُصومَةِ. ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ هل تراهُ ﴿رِكْزًا﴾ أي ذِكْراً. والرِّكْزُ أيضاً الصوتُ، وقالَ ﴿هَدًّا﴾ صَوتاً إذا انْهَدَمَتْ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: ولِلْعَرَبِ في البُشْرَى ثلاثُ لُغاتٍ: بَشَرَ بِهِ بالتَّخفيفِ، فأنا أَبْشُرُهُ. وبَشَّرْتُهُ بالتَّشديدِ، فأنا مُبَشِّرُهُ. وأَبْشَرْتُهُ، فأنا مُبْشِرُهُ، والرجُلُ مَبْشورٌ، ومُبَشَّرٌ، ومُبْشَرٌ.

وقولُهُ: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي وَحْدَهُ، ليسَ مَعَهُ مِنْ دُنْياهُ شيءٌ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ قالَ صُمًّا صُمَّ آذانِ القلوبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: فُجّاراً. وقيلَ: عُوجاً عِنِ الحَقِّ. وأصْلُهُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فيكونون. (٩) في الأصل وم: وصاروا.

سورة طـه

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُه[١] تعالى: ﴿طه﴾ قالَ [بعضُ أهلِ][٢] التأويلِ قولُهُ ﴿طه﴾ يا رجلُ بالنَّبَطِيَّةِ، وقال بعضُهُمْ: بالسُّرْيانِيَّةِ، وقيلَ: يا فُلانُ، وقيلَ: هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ الله، وقيلَ: حرفانِ[٣] مِنْ أسمائِهِ، ونَحْوُ ذلكَ قد ذَكَرْنا القولَ في الحروفِ المُقَطَّعَةِ في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا نَزَلَ على الابْتِداءِ مِنْ غَيرِ سَبَبٍ ولا أمرٍ، لكنَّهُ[٤] لم يُبَيِّنِ السَّبَبَ [الذي][٥] بِهِ نَزَلَ هذا، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سَبَبُهُ وجوهاً:

أحَدُها: ما حَمَّلَ نفسَهُ مِنَ الشدائدِ والمُؤَنِ العِظامِ، وأجْهَدَ نفسَهُ في ذلكَ. فنَزَلَ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي لِتَتْعَبَ بِهِ نَفْسَكَ كقولِهِ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] أي تَتْعَبَ. الا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾؟ [طه: ١١٨].

والثاني: أنهُ لَمّا كَفَّ نفسَهُ عنِ الشَّهَواتِ، ومَنَعَها عن جَميعِ ما تَهواهُ مِنَ اللَّذّاتِ، فقالَ أُولئكَ الكَفَرَةُ: إنهُ شَقِيٌّ [حينَ رَأَوْهُ لم][٦] يُعْطِ نفسَهُ شيئاً مِنْ شَهَواتِها ولَذّاتِها.

والثالثُ: أنهم قالوا ذلكَ لَمّا رَأَوْهُ أنهُ دعا الفراعِنَةَ والجبابِرَةَ إلى دينِهِ واتِّباعِهِ، وأظْهَرَ لهمُ الخِلافَ، واسْتَقْبَلَهُمْ بما يَكْرَهونَ. وكانَتْ عادَتُهُمْ قَتْلَ[٧] وإهلاكَ مَنْ يُظْهِرُ لهمُ الخِلافَ، فخاطَرَ بذلكَ. قالوا: إنهُ شَقِيٌّ حينَ[٨] يُخاطِرُ بنفسِهِ. فقالَ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ على ما يَقولُ أولئكَ، بل أنْزَلَهُ عليكَ لِتَسْعَدَ حينَ[٩] أخبَرَ أنهُ عَصَمَهُ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

أو ألّا يُفسَّرَ، ولا يُذْكَرَ ذلكَ الأمرُ والسَّبَبُ الذي بِهِ نَزَلَ لأنهُ لم يُبَيَّنْ. ولا حاجَةَ بنا [إلّا][١٠] إلى مَعْرِفَةِ ما ذُكِرَ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي ما أنْزَلْناهُ لِتَسْعَدَ، وأنزلْناهُ لِتُذَكِّرَ بِهِ من يَخْشَى كقولِهِ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي عِظَةً لِمَنْ يَتَّقي ما بِهِ يُخْشَى. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ كلَّ مؤمنٍ لأنَّ[١١] كلَّ مؤمنٍ يَعْتَقِدُ في أصلِ إيمانِهِ الخَشْيَةَ منهُ والاتِّقاءَ مِنْ نَقْمَتِهِ وعَذابِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ كانَ هذا نَزَلَ على إثْرِ قولٍ قالَهُ أولئكَ الكَفَرَةُ، وهو ما قالوا: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ شاعرٌ، وإنهُ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ونَحْوَهُ. فقالَ جواباً لِقولِهِمْ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ ليسَ كما يقولُ أولئكَ: إنهُ ساحرٌ[١٢]، وإنهُ مُفْتَرٍ، وإنهُ[١٣] ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ بل ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ، القَولُ بالكونِ على العَرْشِ، وهو مَوضِعٌ بمَعْنَى كونِهِ بذاتِهِ أو في كلِّ الأمْكِنَةِ، لا يَعْدو مِنْ إحاطَةِ ذلكَ بِهِ، أوِ الاسْتِواءِ أو مُجاوَزَتِهِ عنهُ أو إحاطَتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: وقوله. (٢) في الأصل وم: بعضهم من. (٣) في الأصل وم: حروف. (٤) من م، في الأصل: لمن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: حيث رآه، في م: حين رآه لم. (٧) في الأصل وم: القتل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لأنه. (١٢) في الأصل وم: سحر. (١٢) في الأصل وم: و.

فإنْ كانَ [على الوجهِ][1] الأوّلِ: فهو إذنْ مَحدودٌ مُحاطٌ بهِ مَنقوصٌ عنِ الخَلْقِ، إذْ هو دونَهُ. ولو جازَ الوصفُ لهُ بذاتِهِ بما تُحيطُ بهِ الأمكنةُ [لَجازَ بما][2] تُحيطُ بهِ الأوقاتُ، فَيصيرُ مُتَناهياً بذاتِهِ مُقصَّراً عَنْ خَلْقِهِ.

وإنْ كانَ على الوَجْهِ الثاني: فلو زيدَ في الخَلْقِ لا يَنْقُصُ أيضاً، وفيهِ ما في الأوّلِ.

ولو كانَ على الوَجْهِ الثالثِ فهو الأمْرُ المَكْروهُ الدالُّ على الحاجةِ وعلى التَّقصيرِ مِنْ أنْ يُنْشِئَ مالا يَفْضُلُ عنهُ مع ما يُذَمُّ ذا مِنْ فِعْلِ الملوكِ، أو يَفْضُلُ عنهمْ مِنَ المَقاعِدِ شيئاً. /٣٢٩ - أ/

وبَعْدُ فإنَّ في ذلك تَجْزِئةً بما كانَ بعضُهُ في ذي إبعاضٍ، وبَعْضُهُ يَفْضُلُ عنْ ذلكَ. وذلكَ كُلُّهُ مِنْ وصفِ الخَلائقِ، واللهُ يَتعالَى عنْ ذلكَ.

وبَعْدُ فإنهُ ليس في الارْتِفاعِ إلى ما يَعْلو مِنَ المكانِ للجلوسِ شَرَفٌ ولا عُلُوٌّ ولا وصفٌ بالعظمةِ والكبرياءِ كَمَنْ يَعْلو السطوحَ أوِ الجبالَ أنهُ لا يَسْتَحِقُّ الرِّفْعَةَ على مَنْ دونَهُ عندَ استواءِ الجَوهرِ، فلا يجوزُ صَرْفُ تأويلِ الآيةِ إليهِ. بل فيها ذِكْرُ العَظَمَةِ والجَلالِ، إذ ذَكَرَ في قولِهِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَصْفَهُ بالعَظَمَةِ والسلطانِ والقُدْرةِ. فكذلكَ على تَعظيمِ العَرْشِ أيُّ شيءٍ كانَ مَنْ نورٍ أو جوهرٍ، لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلْقِ.

وإضافَةُ الاستواءِ إليهِ لِوجْهَينِ:

أحَدُهُما: على تَعْظيمِهِ بما ذَكَرَ على إثْرِهِ، ذَكَرَ سُلْطانَهُ في ربوبيَّتِهِ وقدرَتَهُ وخَلْقَهُ ما ذَكَرَ.

والثاني: على تَخصيصِهِ بالذِّكْرِ بما هو أعظَمُ الخَلْقِ وأجَلُّهُ على المعروفِ مِنْ إضافَةِ الأمورِ العظيمةِ إلى أعظَمِ الأشياءِ كما يُقالُ: تَمَّ لِفُلانٍ مُلْكُ بَلَدِ كذا، أو اسْتَوَى على مَوضِعِ كذا لا على خُصوصِ ذلكَ في الحَقِّ. ولكنْ مَعْلومٌ أنَّ مَنْ لهُ مُلْكُ ذلكَ فَما دونَهُ أحَقُّ بهِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ الآية [المائدة: ٣] بما صارَتْ لهُ أمُّ القرى، وأيِسَ الذينَ[3] كَفَروا مِنْ دينِهِمْ. وكذا ما ذُكِرَ مِنْ إرسالِ الرُّسلِ إلى الفَراعِنَةِ وإلى أمِّ القُرى لا بتَخْصيصِ ذلكَ ولكن بِذِكْرِ عِظَمِ الأمْرِ.

فَمِثْلُهُ أمرُ العَرْشِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقولِهِ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] على لُحوقِ غيرِهِمْ[4] بهِمْ.

وَيحتَمِلُ أنْ يكونَ على المَنْعِ بِوصفِ المكانِ؛ إذ هو أعْلَى الأمْكِنَةِ عندَ الخَلْقِ، ولا تَقْدِرُ العقولُ شيئاً. فأشارَ إليهِ لِيُعْلَمَ عُلُوُّهُ عنِ الأمْكِنَةِ وتَعالِيَهُ عنِ الحاجةِ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآية [المجادلة: ٧].

والنَّجْوى ليستْ مِنْ نَوعِ ما يُضافُ إلى الإسرارِ، فأخْبَرَ بِعُلُوِّهِ عنِ الأمكنةِ وتَعاليهِ عنْ أنْ يَخفَى عليهِ شيءٌ، ثم بِقُدْرَتِهِ وقُوَّتِهِ بقولِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] أي بالسُّلْطانِ والقُوَّةِ، وبِألوهِيَّتِهِ في البِقاعِ كلِّها لأنها أمْكِنَةُ القادَةِ بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ويَمْلِكُ كلَّ شيءٍ بقولِهِ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦] وبقولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧و...] ثم بعُلُوِّهِ وجلالِهِ بقولِهِ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] [وقولِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩ و...]][5] وقولِهِ[6]: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩و...] فَجَمَعَ في هذهِ الأحرفِ ما فَرَّقَ في تلكَ لِيُعْلَمَ أنهُ بكلِّ ما سُمِّيَ بهِ، وَوُصِفَ، كانَ ذلكَ لهُ بذاتِهِ، لا بشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ. وكذلكَ عِزُّهُ وشَرَفُهُ ومَجْدُهُ، جلَّ ثناؤهُ عنِ الأشياءِ، ولا إلهَ غيرُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: يريدُ بالعَرْشِ المُلْكَ؛ إذ هو اسْمُ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأشياءِ، وغَلا، حتى سُمِّيَتْ بهِ السطوحُ ورؤوسُ الأشجارِ والاسْتِواءُ قيلَ فيهِ بأوجهٍ ثلاثٍ[7]:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بمجاز. (٢) من م في الأصل: الذي (٤) في الأصل وم: غير. (٥) في م: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في م: ثلاثة.

أحَدُها: الاستيلاءُ كما يُقالُ: اسْتوى فلانٌ على كُورةِ كذا بمَعْنى اسْتولَى.

والثاني: العُلُوُّ والارْتِفاعُ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقولِهِ: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] أي عَلَوتُمْ.

والثالثُ: التَّمامُ كقولِهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي تَمَّ، واسْتقرَّ.

وقد قيلَ: بالقَصدِ؛ وإلى ذلكَ وجَّهَ بعضُ أهلِ الأدبِ قولَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩و . .] بمَعْنى خَلَقَ على التَّمثيلِ بِفِعْلِ الخَلْقِ في ما يَتْلو فِعْلُهُمْ فِعْلاً أن يكونَ بالقَصْدِ، وإنْ كانَ لا يُقالُ لهُ القَصْدُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم الوجهُ في ذلكَ لو كانَ [الاسْتواءُ بمَعْنَى الاستيلاءِ والانْفِرادِ بالملكِ][1] أنهُ مُسْتولٍ على جَميعِ خَلْقِهِ، وعلى هذا التأويلِ المَحمولِ غَيرُ هذا لَدَلَّ على الأمْرينِ قولُهُ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] بِمَعْنى المُلْكِ العظيمِ، وفيهِ إثباتُ عروشٍ غَيرِهِ. فذلكَ يَحتَمِلُ، ما يُحْمَلُ، وتَحُفُّ بِهِ الملائكةُ، واللهُ الموفِّقُ.

وأمّا على تأويلِ التَّمامِ والعُلُوِّ فهو أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت: ٩] فأخبَرَ بخَلْقِ ما ذَكَرَ في سِتَّةِ أيامٍ على التَّفاريقِ، ثم أجمَلَها في مَوضعٍ، فقالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قولِهِ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٤] بِمَعْنَى خَلَقَ المُمْتَحَنَ مِنْ خَلْقِ الأرضِ والسمواتِ؛ فيهِمْ ظَهَرَ تمامُ المُلْكِ، وعَلا، وارْتَفعَ؛ إذ هُمُ المَقْصودونَ مِنْ خَلْقِ ما بَيَّنّا. فبذلكَ تَمَّ مَعْنَى المُلْكِ، وعَلا؛ إذ وَصَلَ إلى الذينَ لهمْ خُلِقوا.

وقد قيلَ ذا في خَلْقِ البَشَرِ خاصَّةً بقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية [البقرة: ٢٩] وقولِهِ: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] ونَحوِهِ.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنَّ البَشَرَ خُلِقَ اليومَ السابعَ؛ فيهِ التَّمامُ والعُلُوُّ؛ إذْ خُلِقَ لهمْ كلُّ شيءٍ، وهُمْ لِعبادةِ اللهِ، ولَحِقَ بهمُ الجِنُّ بقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] لكنَّ المَقْصودَ البَشَرُ؛ إذْ تَسْخيرُ ما [ذَكَرَ كُلِّهِ إنما][2] يرجِعُ إلى منافِعِهِمْ. واللهُ الموفقُ.

والأصلُ عندَنا في ذلكَ أنَّ اللهَ عز وجل قالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فَنَفَى عن نَفسِهِ شِبْهَ خَلْقِهِ، وقد بَيَّنّا أنهُ في فِعْلِهِ وصِفَتِهِ مُتَعالٍ عنِ الأشباهِ، فَيَجِبُ القولُ [في قولِهِ][3] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] على ما جاءَ بِهِ التَّنْزيلُ، إذْ[4] يَنْفي عنهُ شِبْهَ الخَلْقِ لِما أضافَ إليهِ إذْ لَزِمَ القولُ في اللهِ بالتَّعالي عنِ الأشباهِ ذاتاً وفِعلاً، لم يَجُزْ أن يُفْهَمَ مِنَ الإضافةِ إليهِ المَفْهومُ مِنْ غيرِهِ في الوجودِ، واللهُ الموفِّقُ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضعٍ مِنَ القرآنِ.

الآية ٦ وفي قولِهِ: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ الوَصْفُ لهُ بالسُّلْطانِ والقُدرةِ والمُلْكِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٧ وفي قولِهِ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ الوَصْفُ لهُ بالعِلْمِ في الغَيبِ والسِّرِّ والعَلانِيَةِ جميعاً لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ وخَوفٍ ويَقَظَةٍ في جميعِ أفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ وفي[5] الأوَّلِ لِيَصْرِفوا طَمَعَهُمْ ورجاءَهُمْ مِنَ الخَلْقِ إلى خالِقِهِمْ، وألّا يُطْمَعَ، ولا يُرْجَى غَيرُهُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما أَسْرَرْتَ بهِ إلى غَيرِكَ، ﴿وَأَخْفَى﴾ ما أضمَرْتَهُ، وأخفَيْتَهُ في نَفْسِكَ، لم تُسِرَّهُ إلى أحدٍ. وقالَ[6] قائلونَ: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما أسْرَرْتَ بهِ، وحَدَّثْتَ نَفْسَكَ ﴿وَأَخْفَى﴾ ما عَلِمَ اللهُ أنهُ كائنٌ يكونُ، ولم يكُنْ بَعْدُ، ولم تَعْلَمْ بهِ. وقالَ قائلونَ: ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما أسَرَّهُ في نَفْسِهِ ﴿وَأَخْفَى﴾ ما خَطَرَ في قَلْبِهِ، وهو لا يَضْبِطُهُ، ونَحْوَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: على الاستيلاء والعزيز الملك. (٢) في الأصل وم: ذكرت اما. (٣) في الأصل وم: بـ. (٤) في الأصل وم: و. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

واصلُهُ: أنّ[1] قولَهُ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [على الإضمارِ][2] كأنهُ يقولُ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ أو تُسِرَّ ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ واللهُ أعلمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الأصمُّ: أي مَنْ[3] وَحَّدَ اللهَ بأسمائِهِ فَلَهُ الحُسْنى، وهيَ الجنةُ. وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظاهرُ هذا سُؤالٌ واستِفهامٌ، لكنَّ المُرادَ منهُ الإيجابُ. قالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: قولُهُ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي لم يأتِكَ حديثُ موسى، وسَيأتيكَ. ثم أخبَرَهُ، وأعلَمَهُ بِحَديثِهِ ونَبَئِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أي قد أتاكَ حديثُ موسى لِتُخبِرَهمْ عمّا في كُتُبِهِمْ لِيكونَ ذلكَ آيةً لِنُبُوّتِكَ ورِسالتِكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ قيلَ رأيتُ ﴿نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ ليسَ في هذِهِ الآيةِ بَيانُ أنَّ موسى في أيِّ حالٍ كانَ، وفي أيِّ وقتٍ. لكنْ في مَوضِعٍ آخَرَ بيانُ ذلكَ، وهو ما قالَ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص:٢٩] هذا يدلُّ أنهُ كانَ في حالِ السَّيرِ والسَّفَرِ رأى /٣٢٩ - ب/ ذلكَ، وقالَ[4]: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وهذا[5] يدلُّ أنهُ كانَ في وَقتِ الشتاءِ لأنهُ قالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]. قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ القَبَسُ النارُ، والأقباسُ النيرانُ، ويُقالُ: قَبَسَ يَقْبِسُ قَبَساً، أي جاءَ بالنارِ، ويُقالُ: اقْبِسْني ناراً، واقتَبَسْتُ أيضاً: تَعَلَّمْتُ، وهذا مِنْ ذاكَ، لأنَّ العِلْمَ ضوءٌ. ويُقالُ: اقْبَسْتُكَ عَلَّمْتُكَ، واقتَبَسْتُ النارَ أو العِلْمَ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أبصرْتُ، ويكونُ في مَوضِعٍ آخَرَ: عَلِمْتُ كقولِهِ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء :٦] أي عَلِمْتُمْ منهُ رُشْداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هذا يُشبِهُ أنْ يكونَ قدِ استَقبَلَتْهُ الطُّرُقُ، فلم يَعْلَمِ الطريقَ الذي لهُ مِنْ غيرِهِ، فقالَ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي مَنْ يَدُلُّني، ويُرْشِدُني على الطريقِ، [أو أنْ][6] كانَ قد ضَلَّ الطريقَ، وعَدَلَ عنهُ، فقالَ عند ذلكَ ما قالَ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي نِداءَ وَحْيٍ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما أمَرَهُ أنْ يَخلَعَ نَعْلَيهِ لأنهما كانا مِنْ جِلْدِ مَيتَةٍ. وقالَ قائلونَ: أمَرَهُ بِنَزْعِ نَعْلَيهِ لِتَمَسَّ قَدَماهُ بَرَكَةَ ذلكَ الوادي، أو يُصيبَهُ مِنْ يُمْنِهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: أمَرَهُ بذلكَ لِلتواضُعِ والخُضوعِ لهُ، لأنَّ لِبْسَ النَّعْلِ يُخَرِّجُ مُخرَجَ المباهاةِ. فأمَرَ بذلكَ لِيكونَ أخضَعَ لهُ وأكثَرَ تواضُعاً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وليسَ لنا أنْ نُفَسِّرَ ذلكَ أنهُ لِماذا أمَرَهُ بذلكَ، إذْ لَهُ أنْ يأمُرَ بِخَلْعِ نَعْلَيهِ لا لِمَعْنًى، وليسَ لنا أنْ نقولَ: أمَرَهُ لِهذا، أو لَعَلَّهُ أمَرَهُ بذلكَ لِمَعْنًى آخَرَ، أو لا لِمَعْنًى، فَيُخَرِّجُ ذلكَ مُخرَجَ الشهادةِ على اللهِ تعالى. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المُقَدَّسُ المُطَهَّرُ. ولَعَلَّهُ سَمّاهُ مُطَهَّراً لِما لم يُعْبَدْ عليهِ سِواهُ ودونَهُ، أو سَمّاهُ مُطَهَّراً لِمَعْنًى خَصَّ بهِ لِفَضْلِ عِبادَةٍ أو غَيرِها على ما خَصَّ بِقاعاً بِفَضْلِ عبادةٍ تقامُ فيها مِنْ نَحْوِ المَساجِدِ والحَرَمِ وغَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿طُوًى﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ وَطِئَ الأرضَ، أي وَطِئَ الواديَ المُبارَكَ حافِياً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوًى﴾ قد قُدِّسَ مَرَّتَينِ. وهو قولُ الحَسَنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوًى﴾ يقولُ: يَطوي مَسيرَهُ. نَحْوُ هذا قد قالوا. لكنَّ الأصْوَبَ ألّا يُفَسَّرَ إلّا بَعْدَ حقيقةٍ [مَعْروفةٍ بهِ، لأنَّ أنباءَهُ][7] كانَتْ في كُتُبِهِمْ، ذُكِرَتْ لرسولِ اللهِ لِتكونَ لهُ [حُجَّةً ودلالةً][8] على رسالتِهِ عَليهِمْ؛ ففي التَّفْسيرِ خوفُ دخولِ الغَلَطِ فيهِ والتَّغْييرِ[9]. فإذا تَغَيَّرَ لَمْ يَصِرْ لهُ عليهِمْ حُجَّةٌ ودلالةٌ على رسالتِهِ. كذلكَ كانَ السُّكوتُ عنهُ أوْلَى، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم : في. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ان. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: في آية أخرى (٥) في الأصل وم: فهذا. (٦) في الأصل: والذي، في م: وان. (٧) في الأصل وم : به لأنه أنباء. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وتغيير.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ إمّا بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وإما بأشياء أُخرَى كقولِهِ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١] وقولِهِ[١] في آيةٍ أُخرَى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ [مريم: ٥١] أخلَصَهُ الله لِنَفْسِهِ بأشياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ النِّداءَ الذي نُودِيَ كانَ نِداءَ وَحيٍ، وهو قولُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١]

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ فهو ظاهرٌ. كذلكَ أَمَرَ رُسُلَهُ أوَّلَ ما أمَرَهُمْ[٢] بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لِتكونَ ذاكراً لي، لأنَّ أكثَرَ ما يَذْكُرُ المُؤمِنُ[٣] ربَّهُ إنما يَذْكُرُ في الصلاةِ، لأنَّ الصلاةَ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها: ذِكْرٌ لِلَّهِ. لِذلكَ سُمِّيَتِ[٤] الصلاةُ مُناجاةَ الربِّ.

ويَحْتَمِلُ[٥] أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي لِتَذْكُرَني بها يا موسى. وقالَ قائلونَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إذْ أنتَ نَسِيتَ إذا ذَكَرْتَها. وعلى هذا رُوِيَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ الله ﷺ أنهُ قالَ ذلكَ، وقرأَ هذهِ الآيةَ، إنْ ثَبَتَتْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي أقِمِ الصلاةَ لِتَسْتَوجِبَ بها ذِكْرِيْ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي لِتَذْكُرَني فيها.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿أَكَادُ﴾ صِلَةٌ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أُخفيها. وفي حرفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكادُ أُخفيها مِنْ نَفْسي. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: مِنْ نَفسي وجهَينِ:

أحَدُهما: أُخفيها مِنْ خَلْقي، ولا يَجِبُ أنْ يُفهَمَ مِنْ نفسِهِ ذاتُهُ بالإضافةِ إليهِ كما لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقولِهِ:[٦] ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]وهو أخفَى مِنَ الناسِ ذاتَهُ، ولكنْ فُهِمَ منهُ خَلْقُهُ. فَعَلَى ذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: مِنْ نفسي ذاتُهُ. هذا يُحْتَمَلُ، والله أعلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ مِنْ نَفسي أي مِنْ اخيارِ عبادي، أي أُخفيها مِنْ أخيارِ عِبادي معَ عظيمِ قدرِهِمْ ومَنْزِلَتِهِمْ عندي: مِنْ نَحوِ الملائكةِ والأنبياءِ والرسلِ. إنَّ مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ أنهمْ لا يَكْتُمونَ سرائِرَهُمْ مِنْ خَواصِّهِمْ، بل يُطْلِعونَهُمْ على ذلكَ. فأخبَرَ ﷻ، والله أعلَمُ، أنهُ أخفاها مِنْ خَواصِّ عِبادِهِ وأخيارِهِمْ. فكيفَ مِنْ دونِهِمْ؟ فتكونُ[٧] إضافتُهُ إياهُمْ إلى نَفْسِهِ لِعِظَمِ قَدْرِ أولئكَ وفَضْلِ مَنْزِلَتِهِمْ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] والله لا يُنْصَرُ، ولكنْ إنْ تَنْصُروا دينَ الله يَنْصُرْكُمْ، أو إنْ تَنْصُروا أولياءَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] والله لا يُخادَعُ، ولكنْ يُخادِعونَ أولياءَ اللهِ، ونَحْوُهُ.

فَعَلَى ذلكَ: قولُهُ: ﴿أُخۡفِيهَا﴾ مِنْ نفسي أي مِنْ خَواصِّي وأخيارِ خَلْقي، واللهُ أعلَمُ.

هذا على إسقاطِ قولِهِ: ﴿أَكَادُ﴾ وجَعْلِهِ صِلَةً. وأمّا على إثباتِ ﴿أَكَادُ﴾ فهو على وجهَينِ:

أحَدُهُما: يُقالُ: كادَ أرادَ، أي أُريدُ [أنْ][٨] اخفِيَها، وهو معروفٌ باللغةِ.

والثاني: كادَ؛ يُقالُ: قارَبَ، وهو سائغٌ في اللغةِ، جارٍ كادَ على إرادةِ مقارَبَةٍ [كقولِهِمْ][٩]: كادَتِ الشمسُ أنْ تَطْلُعَ، أو تَغْرُبَ، أي قارَبَتْ [وقولِ مَنْ قالَ:][١٠] كِدْتُ أنْ أسْقُطَ، أي قارَبْتُ [وهو][١١] لا يُريدُ السقوطَ. فإذا كانَ على هذا فهو قالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، على التَّعْظيمِ لها؛ أي قارَبَ أنْ يُخْفِيَها مِنْ نَفْسِهِ، فكيفَ مِنْ غَيرِهِ؟

وقالَ ابنُ عباسٍ قريباً مِنْ هذا: أي ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ مِنْ نفسي، فكيفَ أُعلِنُها لكمْ؟ أي لا أُظْهِرُ عليها أبداً غيري، فكأنهُ اسْتَجازَ الإخفاءَ في مَوضِعِ الإظهارِ [وهو سائغٌ جارٍ في اللغةِ][١٢] نَحْوُ ما قالوا في قولِهِ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: أمروا. (٣) في الأصل: المرور في م: المؤ. (٤) في الأصل وم: سمى. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل : فكيف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وإلا. (١٢) في الأصل وم: باللغة.

[يونس: ٥٤ و سبأ: ٣٣] أي أظهَروا. فعَلى ما كانَ الإسرارُ في مَوضِعِ الإظهارِ والكتمانِ[1] رأَوا الإخفاءَ مُستَعمَلاً في الأمرَينِ جميعاً. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿أُخْفِيهَا﴾ أي أُظهِرُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي لِهذا أُخفِيها[2] ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ لأنها لو كانَتْ ظاهِرةً يُعايِنُها كلُّ أحدٍ، ويَعلَمُها لَما كانَ ذلكَ جَزاءً. ولكنْ كانَ دَفعاً، لأنهُ يُعايِنُ كلُّ إنسانٍ ما[3] نَزَلَ بهذِهِ النفسِ بما سَعَتْ مِنَ العذابِ، فَيَمتَنِعُ هو عنهُ. وإذا رأى كلُّ أحدٍ ثوابَ هذا بسَعْيِهِ يَرْغَبُ في مِثْلِهِ، فيكونُ ذلكَ كُلُّهُ بِحَقِّ الدَّفعِ لا بِحَقِّ الجَزاءِ. فأخبَرَ أنهُ أخفاها لِلْجَزاءِ والمِحْنَةِ، لا لِلدَّفعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي عنِ الإيمانِ بها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ يَعْني الساعةَ، واللهُ أعلَمُ.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ بأسبابٍ ألقاها إليكَ. وقد يمتَنِعُ الإنسانُ عنِ الشيءِ بأسبابٍ تَعتَرِضُ وشُبَهٍ تَستَقبِلُ، وإنْ لم يَقدِرْ على مَنْعِهِ بالتَّصريحِ والإفصاحِ، واللهُ أعلَمُ؛ أي لا يَصُدَّنَّكَ عنِ الإيمانِ بها / ٣٣٠ ـ أ/ يعني الساعةَ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ في التكذيبِ بها بالشُّبَهِ والأسبابِ التي ذكَرْنا ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتَهْلَكَ لو صَدَّكَ عنها.

فالخِطابُ، وإنْ كانَ لرسولِ اللهِ فهو لكلِّ أحدٍ مِنَ المؤمنينَ على ما ذَكَرْنا في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ في ما خاطَبَ رسولَهُ بهِ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ الآيةَ. كانَ موسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، لم يَفْهَمْ مُرادَهُ بسؤالِهِ إيّاهُ أنهُ ما أرادَ بقولِهِ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أنهُ يَسألُهُ عنِ اسْمِها، أو يَسألُهُ عمّا لهُ فيها. فأجابَ لِأمرَينِ جميعاً عنِ اسْمِها وعمّا لهُ فيها حينَ[4] قالَ: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ثم قالَ الحَسَنُ: إنهُ كانَ يَعلَمُ أنَّ في يَدِهِ عَصاً، لكنهُ أرادَ أنْ يقرِّرَ[5] عندَهُ أنها[6] عصاً لا حَيَّةٌ، لِيُرِيَ لهُ منها آيةً، فيَعلَمَ ذلكَ، أو إنهُ[7] يريدُ بذلكَ تَنبيهَهُ وإيقاظَهُ لِيَعلَمَ أنها[8] وَقتَ ما أخَذَها عصاً، فيَعلَمَ أنها صارَتْ كذا بالآيةِ التي جعَلَها لهُ [لا][9] أنها كانَتْ يومَئذٍ كذلكَ حَيَّةً[10]، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٩ و٢٠ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [يحتَمِلُ جعلُها حيَّةً تَسعى أنهُ][12] أرادَ الآيةَ لهُ منها لِما أنَّ قومَ فِرعَونَ كانوا أهلَ بَصَرٍ وحِذْقٍ في ذلكَ النوعِ مِنَ السِّحرِ، فأحَبَّ أنْ يُرِيَهُمُ الآيةَ والعلامةَ مِنَ النوعِ الذي كانَ لهمْ فيهِ بَصَرٌ وحَذاقةٌ لِيَعلَموا بِخُروجِها عنْ وسْعِهِمْ وطَوقِهِمْ أنها آيةٌ وعَلامةٌ سَماويّةٌ ورُبوبيّةٌ لا بَشَرِيّةٌ؛ إذِ الأعلامُ التي جعَلَها اللهُ آياتٍ وأعلاماً لِرُسُلِهِ على رسالتِهِمْ إنما جعَلَها خارجةً عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوقِهِمْ لِيَعلَموا بذلكَ أنها سَماويّةٌ لا بَشَرِيّةٌ [مِنْ سِحرٍ أو كهانةٍ][13] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ على ما كانَتْ في الحالةِ الأُولى عَصاً. كانَ موسى خافَ حينَ صارَتْ حَيَّةً، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [النمل: ١٠ والقصص: ٣١] فَعِندَ ذلكَ قالَ لهُ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وأخبَرَهُ أنهُ يُعيدُها عَصاً على ما كانَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ دلالةُ أنَّ العَصا إنما تُمْسَكُ باليَدِ اليُمنى.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي تَهلِكَ؛ يُقالُ: أرداهُ أهلَكَهُ، ويُقالُ: تَرَدَّى الرجلُ إذا وَقَعَ في البِئرِ أو مِنْ فوقِ حائطٍ،

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: فعلى ذلك. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: لما. (٣) في الأصل وم: بما. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: يقرن. (٦) في الأصل وم: انه (٧) في الأصل وم: ان. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل حيته. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ثم يحتمل جعلها حية تسعى ثم جعلها حية و. (١٣) في الأصل وم: سحراً ولا كهانة.

ويُقالُ: رَدَّيتُهُ، أي ألْبَسْتُهُ الرِّداءَ، وارْتَدَيتُ، أي لَبِستُ الرِّداءَ، وتَرَدَّيتُ مِثْلَهُ. وقولُهُ: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي أستَعينُ بها على المَشْيِ. وقولُهُ: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي أضرِبُ الشجرةَ حتى يَنْتَثِرَ وَرَقُها [فتَأكُلَهُ غنمي][1] والهَشُّ الكريمُ، والبِشْرُ مِنَ البَشاشَةِ. وقالَ. والمَآرِبُ الحَوائجُ والإرْبُ أيضاً الحاجةُ، والآرابُ جميعٌ، ويُقالُ: أرَبْتُ الشيءَ: قَسَمْتُهُ، وجَعَلْتُهُ إرَباً أقساماً[2] أي جَزَّيتُهُ أجزاءً. وفي قولِهِ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ دلالةُ أنَّ الإنسانَ إذا اسْتُخْبِرَ عنْ شيءٍ فإنَّ عليهِ أنْ يُخبِرَ المُسْتَخبِرَ عمّا يَسْتَخبِرُ على الإجابةِ لهُ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنَّ المُسْتَخبِرَ لهُ عنْ ذلكَ عالمٌ بذلكَ؛ لأنَّ موسى كانَ يَعْلَمُ أنَّ ربَّهُ كانَ أعْلَمَ بما في يَدِهِ منهُ، ولم يَقُلْ لهُ اسْتَخبَرَ عمّا في يَدِهِ ربِّ أنتَ أعلَمُ بها[3] مني. ولكنهُ قالَ: هي عَصايَ إجابةً لهُ وتعظيماً لأمرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢] وكانَ في هذا تَفْسيرُ الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مِنْ غيرِ بَرَصٍ، كأنهمْ ذَهبوا إلى أنَّ البَياضَ في الإنسانِ، إذا اشْتَدَّ بهِ حتى يُخالِفَ سائرَ بَدَنِهِ، لا يكونُ إلا بالبَرَصِ. لِذلكَ قالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مِنْ غَيرِ بَرَصٍ بكَ ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ سِوَى آيةِ العَصا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي مِنْ غَيرِ آفةٍ وعَيبٍ بكَ وأذىً، لأنَّ التَّغْييرَ إذا وَقَعَ في بَدَنِ الإنسانِ لا يكونُ إلّا بِعَيبٍ وآفةٍ، تَحُلُّ به. وأخبَرَ أنَّ ذلكَ البَياضَ ليسَ لآفةٍ بكَ، ولا عَيبٍ في بَدَنِكَ، ولا فيهِ أذىً ولكنْ آيةٌ لِنُرِيَها منها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ قالَ قائلونَ: الآيةُ في اليَدِ أكبَرُ مِنَ العَصا، لأنَّ السَّحَرَةَ[4] أولئكَ كانوا أهلَ بَصَرٍ وعِلْمٍ في السِّحْرِ في العِصِيِّ؛ فَخُروجُ عَصا موسى عمّا احْتَمَلَ وُسْعُهُمْ، وما بهِ فيهِ بَصَرٌ وعِلْمٌ يَدُلُّ على أنَّ ما أتى موسى ليسَ هو بِسِحْرٍ، ولكنْ آيةٌ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ فَضْلَ بَصَرِ الرجلِ وعِلْمَهُ في شيءٍ إنما يَظْهَرُ بِمُجاوَزَتِهِ في ذلكَ [عنْ أهلِ البَصَرِ والعِلْمِ في ذلكَ العلمِ][5] لا يَظْهَرُ ذلكَ على أهلِ الجَهْلِ في ذلكَ. فَعَلى ذلكَ أمرُ عصا موسى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ التي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى وهو قولُهُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآياتُ[6] الكُبرى هي التِّسْعُ التي ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ؛ إذ كانَ لِموسى آياتٌ سِوَى التِّسعِ، لكنَّ التِّسْعَ هي أكبَرُ، أو أنْ يكونَ ذلكَ لا على تَخصيصِ آيةٍ دونَ آيةٍ بالكِبَرِ والعِظَمِ، ولكنْ [على][7] وَصْفِ الكُلِّ بذلكَ كقولِهِ: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] وهو على وَصْفِ آياتِهِ كلِّها بالعِظَمِ والكِبَرِ، وهو كقولِهِ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] هو على إثباتِ النَّفْعِ في كلِّ واحدٍ [منهُمْ على ما في الآخَرِ][8] فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ الطُّغيانُ، هو المُجاوَزَةُ عنِ الحدودِ التي جُعِلَتْ. وكذلكَ كانَ فرعَونُ، قد تَعَدّى، وجاوَزَ الحَدَّ في كُلِّ شيءٍ حتى ادَّعى لنفسِهِ الرُّبوبيَّةَ حينَ[9] قالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ إنَّ موسى سَأَلَ ربَّهُ أنْ يَشرَحَ لهُ صَدْرَهُ. [وَذَكَرَ لمحمدٍ أنهُ شَرَحَ لهُ صَدْرَهُ][10] بقولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١ و٢] ثم جائزٌ أنْ يكونَ شَرَحَ صدورَهُمْ لِتَسَعَ ما حَمَّلَ عليهِمْ مِنْ ثِقَلِ النُّبوَّةِ والرسالةِ، لِتَتَّسِعَ صدورُهُمْ لذلكَ، ويَقْدِروا على القيامِ بذلكَ والوَفاءِ بهِ، أو أنْ يكونَ سَأَلَهُ شَرْحَ صَدْرِهِ لِما كانَ الرسلُ يَغْضَبونَ للهِ عندَ [تكذيبِ قومِهِمْ إيّاهُمْ][11] حينَ يَدْعونَهُمْ[12] إلى دينِهِ، ويَحْزَنونَ على ذلكَ، فَيَمْنَعُهُمْ غَضَبُهُمْ وحُزْنُهُمْ عنِ القيامِ بِتَبليغِ الرسالةِ كقولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ الآية

(١) في الأصل: فتأكله غنمه. (٢) في الأصل وم: اقسما. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل: سحرة، ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: النوع وعلم. (٦) أدرج في الأصل قبلها: في. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: منها على ما في الآخرة في م: منها على ما في الآخر. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م ساقطة من الأصل وم. (١١) في الاصل وم: تكذيبهم قومهم. (١٢) في الأصل وم: دعوهم.

[الشعراء: ١١ و١٢]أخبرَ أنهُ يَخافُ عندَ تكذيبِ قومِهِ ضيقَ صَدْرِهِ وثِقَلَ لسانِهِ، فَسَألَهُ لذلكَ أن يَشْرَحَ لهُ صَدْرَهُ، ويُطْلِقَ لهُ لسانَهُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي لَيِّنْ لي قلبي، لأنَّ الرسلَ[1] قد امْتُحِنوا في حالٍ واحدةٍ بِشَيئَينِ مُتَضادَّينِ: بالغَضَبِ للهِ عند تكذيبِ قومِهِمْ إيّاهُمْ، والرأفةِ لهمْ والرَّحْمَةِ بما حَلَّ بهِمْ بالتَّكذيبِ مِنَ العذابِ. فهذانِ[2] أمرانِ مُتَضادّانِ خصَّ الرسلَ بها. فجائزٌ أنْ يكونَ سألَ ربَّهُ أنْ يَشْرَحَ لهُ صَدْرَهُ لِيَتَّسِعَ لِلأمْرَينِ جميعاً: الغَضَبِ لهُ والرحمةِ عليهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ يَحْتَمِلُ تَبْليغَ الرسالةِ إليهِمْ والقيامَ بها، أو سألَهُ التَّيسيرَ لِجميعِ ما أمَرَهُ بِهِ، ونَهاهُ عنهُ.

الآيتان ٢٧ و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أنهُ إذا اشْتَدَّ بهِ الغَضَبُ يَكِلُّ[3] لِسانُهُ، ويَثْقُلُ حتى يَمْنَعَهُ عنِ النُّطْقِ بِهِ، فَيَظُنُّ / ٣٣٠ ـ ب/ ذلكَ اللعينُ أنهُ صارَ كذلكَ، أو أنْ يكونَ سألَ ذلكَ لآفةٍ كانَتْ بلسانِهِ، كانَتْ تَمْنَعُهُ عنِ التَّكلُّمِ بِهِ. فسألَهُ أنْ يَحُلَّ تلكَ الآفةَ الرُّبُوبِيَّةَ[4] التي كانتْ بِهِ.

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ أخذَ بِلِحْيَةِ فِرْعَونَ، فَلَطَمَهُ، فأرادَ أنْ يُعاقِبَهُ، فقالَتْ لهُ امرَأتُهُ: إنهُ فَعَلَ ذلكَ لأنهُ لا يَعْقِلُ. فَأَتَى بِطِشْتٍ مِنْ حُلِيٍّ، فَهَمَّ أنْ يَتَناوَلَ مِنَ الحُلِيِّ، فأهْوَى جِبْرِيلُ بِيَدِهِ إلى الجَمْرِ فأخَذَهُ، وجَعَلَهُ في فيهِ. فتِلْكَ الرُّبُوبِيَّةُ[5] التي سألَهُ أنْ يَحُلَّها لِذلكَ. لكنّ ذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالوَحْيِ عنِ اللهِ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ سألَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ أخاهُ مَعَهُ وزيراً لهُ، يُشاوِرُهُ، يَسْتَحْمِلُ عنهُ بَعْضَ ما حُمِّلَ عليهِ مِنَ الأثقالِ؛ إذْ قيلَ: الوزيرُ هو الذي يَتَحَمَّلُ عنِ المَلِكِ بَعْضَ ثِقْلِ ما حُمِّلَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: قُوَّتي ظَهْري، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي عَوني، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ. وقرَأ بعضُهُمْ: أَشْدُدْ[6] ﴿بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ على الخَبَرِ مِنْ موسى.

الآية ٣٢ وكذلكَ في قولِهِ: وأُشْرِكْهُ[7] ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ وأمّا قراءةُ عامّةِ القُرّاءِ فهي[8] على الدعاءِ والسُّؤالِ.

وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي ظَهْري، ويقالُ: آزَرْتُهُ، فَصِرْتُ لهُ وزيراً. وأصلُ الوِزارةِ مِنَ الوِزْرِ، وهو الحِمْلُ؛ كأنَّ الوزيرَ يَحْتَمِلُ عنِ السلطانِ بَعْضَ الثِّقْلِ، ويَرْفَعُهُ عنهُ؛ موسى سألَ ربَّهُ أنْ يُعينهُ بأخيهِ، ويُقَوِّيَهُ بهِ في ما حَمَّلَهُ، وأنْ يُشْرِكَهُ في ما قَلَّدَهُ مِنَ الرسالةِ والقيامِ بها. فأجابَهُ اللهُ لذلكَ حينَ[9] قالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ بالجماعةِ لأنَّ الصلاةَ بالجماعةِ تتضاعَفُ على الصلاةِ وَحْدَهُ، أو أنْ يُعينَ بَعْضُنا [بعضاً][10] على التَّسبيحِ لكَ والذِّكْرِ ونَحْوِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي إنكَ بِضَعْفِنا وعَجْزِنا في ما حَمَّلْتَنا، وقَلَّدْتَنا بَصيراً عالِماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي أُعْطيتَ ما سَألْتَ. وكانَ سألَهُ أشياءَ، فأُوتِيَ. فقولُهُ ﴿سُؤْلَكَ﴾ وسُؤالَكَ ومَسْألَتَكَ لغاتٌ[11] ثلاثٌ، كلُّها واحدٌ.

الآيات ٣٧ و٣٨ و٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾

---

(١) في الأصل وم: اللسان. (٢) في الأصل وم: فذلك. (٣) في الأصل وم: يحمل. (٤) في الأصل وم: الربوبية والرُّبُوبِيَّةُ مصدر صناعي ل: الرُّبّى وهي العقدة المحكمة. (٥) في الأصل: البوبية انظر الحاشية السابقة. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٧٩. (٧) انظر معجم القراءات القرانيةج٤/ ٨٠. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٠.

الآية. يُشبهُ أنْ تكونَ المِنَّةُ حينَ أنجاهُ في ما ابْتُلِيَ بالبَرْدِ واشْتِباهِ الطريقِ حينَ[1] قالَ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] فتِلْكَ المِنَّةُ الأخرى، أو أنْ تكونَ المِنَّةُ التي ذَكَرَ هي[2] ما أنجاهُ اللهُ [حينَ قَتَلَ][3] ذلكَ القِبْطِيَّ، فاشْتَدَّ لهُ ذلكَ الخوفُ حتى بَلَغَ الإياسَ. فتِلْكَ المِنَّةُ التي ذَكَرَ. أو ما ذَكَرَ مِنَ الوَحْيِ إلى أمِّهِ ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ﴾ مع النُّبُوَّةِ ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ ثم بَيَّنَ النِّعْمَةَ حينَ[4] قالَ: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. وإلى هذا ذَهَبَ أهلُ التأويلِ. وإلّا قَدْ كانَ منهُ إليهِ مِنَ المِنَنِ ما لا يُحْصَى، واللهُ أعلمُ.

ثم الكلامُ في ما أَلْهَمَ أُمَّهُ، وأَلْقَى في رَوعِها أنْ تَقْذِفَهُ في البَحْرِ أنهُ يَسَعُ لها[5] أنْ تَفْعَلَ ذلكَ، ويَحِلُّ، أو لا. إذْ قدْ يجوزُ أنْ يكونَ مِنَ الشيطانِ مِثْلُ هذا نَحْوُ ما ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨] فلم يَعْرِفوا وقْتَ ما كَلَّمَهُمْ بهذا هو شيطانٌ أو غيرُهُ. فعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يُلْقِيَ الشيطانُ إليها. فكَيْفَ وَسِعَ لها أنْ تَعْمَلَ ما عَمِلَتْ[6] مِنَ الأخطارِ؟ [لولا أنْ][7] يجوزَ أنْ يكونَ في ذلكَ الإلهامِ، وما أَلْقَى إليها آيةٌ ومَعْنًى عَرَفَتْ بذلكَ أنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ لا مِنْ أحدٍ سِواهُ، أو أنْ يكونَ اللهُ رَفَعَ الحجابَ والمَوانِعَ مِنْ قَلْبِها،[8] وصارَ لها ذلكَ كالعِيانِ، أو صارتْ كالمُضْطَرَّةِ إلى ذلكَ، فوَسِعَ لها ذلكَ لِما ذَكَرْنا. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أَلْقَى عليهِ مَحَبَّةً في قَلْبِ امرأةِ فِرْعَونَ حينَ[9] قالتْ: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ الآية [القصص: ٩] ولكنْ أَلْقَى عليهِ مَحَبَّةً في قَلْبِ امرأتِهِ وقَلْبِ فِرعَونَ أيضاً حتى كانَ أشْفَقَ الناسِ عليهِ وأحَبَّهُمْ بَعْدَ ما كانَ يَقْتُلُ الوِلْدانَ بِسَبَبِهِ لِيَجِدَهُ، ويَظْفَرَ بهِ؛ يُذَكِّرُهُ ﷺ رَحْمَتَهُ عليهِ ومِنَّتَهُ لهُ، وهي[10] المِنَّةُ التي ذَكَرَ حينَ[11] قال: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ والصُّنْعُ هو فِعْلُ الخَيرِ والمَعْروفِ، أي لِتَصْنَعَ إليكَ المَعْروفَ والإحسانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ [﴿عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾][12] على حِفْظي؛ يُقالُ: عَينُ اللهِ عليكَ، أي كُنْ في حِفْظِ اللهِ، وهو قولُ الحَسَنِ وقَتادَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: لِتُرَبَّى على عَيني، أي على عِلْمي والأوَّلُ أشْبَهُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ أي مَنْ يَضُمُّهُ [ومنهُ][13] يُسَمَّى كافلُ اليتيمِ الذي يَضُمُّهُ، ويَحْفَظُهُ. وهو كقولِهِ: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] أي يَضُمُّها، ويَحْفَظُها. فذا يَدُلُّ أنهُ كانَ عندَهُمْ مِنْ أحَبِّ [الناسِ إليهِمْ][14] وأشْفَقِهِمْ عليهِ [حينَ قالتْ:][15] ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ حينَ[16] قالَ لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: ٧] وَعَدَها[17] أن يَرُدَّهُ إليها، فَرَدَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ أي يَذْهَبَ حُزْنُها الذي كانَ، لأنها كانَتْ حزينةً بِطَرْحِها إيّاهُ في اليَمِّ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ الآيةَ؟ [القصص: ١٠] هذا يدلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ أي يذهَبَ حُزْنُها الذي كانَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الغَمُّ الذي أخبَرَ أنهُ نَجّاهُ منهُ هو الخوفُ الذي كانَ بهِ بِقَتْلِ ذلكَ القِبْطِيِّ حينَ[18] قالَ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤ و القصص: ٣٣] وقالَ[19]: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: ٢١] ونَحْوَهُ. أو نَجّاهُ مِنْ أنواعِ الغُمومِ إذْ كانَ لهُ غُمومٌ.

---

(١) في الأصل وم: حتى. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) في الأصل وم: لهذا. (٦) في الأصل وم: علمت. (٧) في الأصل وم: لكن. (٨) من م، في الأصل: قبلها. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وهو. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لتعدى. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: إليه الناس. (١٥) في الأصل وم: حيث قال. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) في الأصل وم: وعدلها. (١٨) في الأصل وم: حيث. (١٩) في الأصل وم: وقوله.

وفي الآيةِ دَلالةٌ أنْ لا قِصاصَ يَجِبُ في شِبْهِ العَمْدِ، وإنْ كانَ الضَّرْبُ بشيءٍ لا نَجاةَ فيهِ، لأنَّ موسى ﷺ كانَتْ لهُ قُوَّةُ أربَعينَ نَفَراً على ما ذُكِرَ. فإنما لَطَمَهُ لَطْمَةً ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ ثم قولُهُ[1]: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] هذا يدلُّ أنهُ كانَ لا يَحِلُّ لهُ قَتْلُهُ. ثم قولُهُ[2]: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] سَمّاهُمْ ظَلَمَةً. فلو كانَ يَحِلُّ القَتْلُ، ويَجِبُ القِصاصُ، لَكانَ لا يُسَمِّيهِمْ ظَلَمَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فُتُونًا﴾ هو جَمْعُ فِتْنَةٍ، أي فَتَنّاكَ فُتوناً، هو مَصْدَرُ الفِتْنَةِ، أي ابْتَلَيناكَ ابتلاءً أي بَلاءً. والفِتْنَةُ في البلايا والشدائدِ والغُمومِ التي ذَكَرَ أنهُ نَجّاهُ منها. ويَحْتَمِلُ النِّعَمَ والخيراتِ، إذ لم يكُنِ الأنبياءُ في جَميعِ الأوقاتِ في البَلاءِ. ولكنْ كانوا في وَقْتٍ في بَلاءٍ وشِدَّةٍ، وفي وَقْتٍ آخَرَ في نِعْمَةٍ وخَيرٍ أو فِتْنَةٍ: بهما جميعاً على ما أخبَرَ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ مِنَ المِنَّةِ التي ذَكَرَ حينَ[3] قالَ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: بالنُّبُوَّةِ والرسالةِ. وقالَ بعضُهُمْ على مَوْعودٍ أو ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ وَقْتَ المَجيءِ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ أنَّ مَجيءَ العَبْدِ وذهابَهُ وجميعَ سَعْيِهِ يكونُ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ وتَقْديرٍ منهُ. وفيهِ أنهُ يَجْعَلُ الأمورَ /٣٣١ - أ/ بأسبابٍ، وإنْ كانَ يَجْعَلُ[4] بِغَيرِ أسبابٍ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أيِ اخْتَرْتُكَ، واصْطَفَيْتُكَ لِرِسالَتي ونُبُوَّتي. فَذَكَرَ لِنفسِهِ لأنهُ يأمُرُهُ [أنْ][5] يقومَ بأداءِ ذلكَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ هو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تَضْعُفا [في الدعاءِ][6] إلى ديني وتوحيدي. وفي حَرْفِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ: ولا تَهِنا[7] في ذِكري: في البلاغِ إلى فِرْعَونَ ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أمَرَهُما ألّا يُقَصِّرا، ولا يَعْجَزا في تبليغِ الرسالةِ إليهِ والدُّعاءِ إلى دينِهِ حينَ[8] قالَ: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٣و٤٤].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أي تُرَبّى بِعَيني. وسُئِلَ عنِ العَينِ، فقالَ: العَينُ العِلْمُ ههنا، والعَينُ في غَيرِ هذا المالُ. والعَينُ الأديمُ المُنْخَرِقُ. والعَينُ المَصْدَرُ مِنْ عانَ يَعينُ، فهو عايِنٌ، والمفعول بهِ مَعْيُونٌ إذا أصابَهُ بِعَينٍ. والعَينُ الحقيقةُ كقولِكَ: هذا بِعَينِهِ، أي بحقيقَتِهِ. قالَ: والعِينَةُ السَّلَفُ ومِثْلُهُ. وقولُهُ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧ و المؤمنون: ٢٧] [أي بِعِلْمِنا. وقولُهُ][9] ﴿عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي يَضُمُّهُ، ويَضْمَنُهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ أي وَقْتَ المَجيءِ ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي أخْلَصْتُكَ لِنَفسي ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تُقَصِّرا، ولا تَعْجَزا. واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤٣ و٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ لأنَّ القولَ اللَّيِّنَ يكونُ أقَرَّ وأثْبَتَ في القُلوبِ مِنَ القَولِ الخَشِنِ البارِدِ وخاصَّةً في المُلوكِ والرُّؤَساءِ؛ إذْ طِباعُهُمْ لا تَحْتَمِلُ ذلكَ، ولا يَنْجَعُ فيهِمْ، بل أكْثَرُ صَولَتِهِمْ على مَنْ دونَهُمْ إنما يكونُ عندَ استِقْبالِهِمْ بالخِلافِ وبما يَكْرَهونَ. فأمَرَ ﷻ رسولَيهِ[10] موسى وهارونَ. أنْ يقولا لهُ قولاً لَيِّناً، ويُلْطِفا معامَلَتَهُ، ليكونَ [ذلكَ][11] أقْرَبَ وأثْبَتَ في قَلْبِهِ وأنْجَعَ. ولذلكَ قالَ: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ قالَ الحَسَنُ: كُلُّ لَعَلَّ [مِنَ اللهِ هو][12] على الإيجابِ، لأنهُ قد تَذَكَّرَ، وخَشِيَ حينَ[13] قالَ: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٤] وحينَ[14] قالَ: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] لكنْ لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ في ذلكَ الوَقتِ لأنهُ إيمانُ دَفْعٍ واضْطِرارٍ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ادرج قبلها في الأصل: ان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيزج١٠/ ٣٣. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: رسوله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: هومن الله فهو. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: حيث.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ في عُلومِكُمْ. فإنْ كانَ على هذا فهو يَحْتَمِلُ الشَّكَّ. وإنْ كانَ على الأوَّلِ فهو على الإيجاب، لا يَحْتَمِلُ[1] الشَّكَّ.

ثم اخْتُلِفَ في القَولِ اللَّيِّنِ. قالَ ابْنُ عباسٍ: هو[2] قولُ اللهِ: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ و ١٩] فَتُوَحِّدَ. قالَ: هذا القولُ اللَّيِّنُ.

وعَنِ الحَسَنِ: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي قولاً حَقّاً؛ قُولا لَهُ: إنَّ لكَ مَعاداً، إنَّ لكَ مَرْجِعاً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قولُ: لا إله إلّا الله. وقالَ بعضُهُمْ: أي لِياناً[3] ونَحْوَهُ. وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا[4] بَدْياً.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أنْ يُعَجِّلَ[5] بالعُقوبةِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَسْمَعَ حُجَّتَنا ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ بِقَتْلِنا بعد ما يَسْمَعُ الحُجَّةَ منّا.

وجائزٌ أنْ يكونَ أحَدُ هذينِ في الفِعْلِ والآخَرُ في القَولِ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أيُّهما كانَ، لأنهُ قالَ في الجوابِ لهما:

الآية ٤٦ قولُهُ[6] تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وأرى ما يَفْعَلُ بكما.

فهذا يَدُلُّ، والله أعلَمُ، أنَّ قولَهُ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يَرجِعُ أحَدُهما إلى القَولِ والآخَرُ إلى الفِعْلِ لأنهُ قالَ في وقْتٍ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] ونَحْوَهُ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ يَحْتَمِلُ على نَفْيِ الخَوفِ والأمْنِ منهُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧] ليسَ على النَّهْيِ عنِ الحُزْنِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ في النَّصْرِ والمَعونةِ لَكُمْ والذَّبِّ عنكُمْ والدَّفْعِ أسْمَعُ ما يَقولُ، وأرى ما يَفْعَلُ. وقد كانَتْ كُلُّ مِنَّةٍ إليهما النَّصْرَ والمَعونَةَ لهما والدَّفْعَ عنهُما.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ يُشْبِهُ أن يكونَ قولُهُ ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ هذا، أي لا تَضْعُفا في تَبْليغِ الرسالةِ. ولكن قولا ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أوَّلُ ما أتَياهُ قالا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بلْ قد سَبَقَ منهما الدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ والإقرارِ لهُ بالألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. فإذا تَرَكَ الإجابَةَ فَعِنْدَ ذلكَ قالا لهُ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنهُ كانَ يَمْنَعُ بني إسرائيلَ عنِ الإسلامِ، وهمْ أرادوا الإسلامَ، فقالا:[7] ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تَمْنَعُهُمْ عنِ الإسلامِ. وكانَ يَسْتَعْبِدُهُمْ [فأمَرَهُما أنْ يَسْتَنْقِذاهُمْ][8] مِنْ يَديهِ بقولِهِ:[9] ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ وهي[10] ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هذا يَدُلُّ أنهُ لا يُبْدَأُ بالسلامِ على أهلِ الكُفْرِ، ولكنْ بأهلِ الإسلامِ. وفيهِ أنَّ تَحيَّةَ أهلِ الإسلامِ هو السلامُ لا قولُ الناسِ: أطالَ اللهُ بقاءَكَ، ونَحْوَهُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ والعذابُ ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ والسلامُ هو اسْمُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ.

---

(١) في الأصل وم: يحصل. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: لينا. (٤) من م في الأصل: ذكره. (٥) في الأصل وم: يجعل. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: فقال. (٨) في الأصل وم: فامره أن يستنقذهم. (٩) في الأصل وم: كقوله. (١٠) في الأصل وم: وهو.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يُعَجِّلَ، ويَتَقَدَّمَ؛ قالوا: الفَرْطُ التَّقَدُّمُ والسَّبْقُ. وفي الخَبَرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ: «أنا فَرَطُكُمْ على الحَوضِ» [مسلم: ٢٢٨٩] وهو مِنَ السَّبْقِ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي يُعَجِّلَ؛ يُقالُ: فَرَطَ يَفْرُطُ فَرْطاً أي عَجِلَ. وقالَ: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي لا تُقَصِّرا، ولا تَنِيا في البلاغِ ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أي اسْتَخْلَصْتُكَ لِنَفْسي [فإذا لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ ﴿لِنَفْسِى﴾][(1)] ذاتُهُ كيفَ يُفْهَمُ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ما لم يُفْهَمْ مِنَ الخَلْقِ، ولا يُتَصَوَّرُ هذا وأمثالُهُ في وَهْمٍ إلا مَنِ اعتَقَدَ التَّشْبيهَ، ولم يَعْرِفْ ربَّهُ. وإلّا لو عَرَفَ ربَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لكانَ لا يَتَصَوَّرُ في وَهْمِهِ تَشبيهَ الخَلْقِ بِهِ ولا تَشبيهَهُ بِخَلْقِهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآيتان ٤٩ و٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ الآية [الشعراء: ٢٣و٢٤] [وقالَ في آيةٍ أُخرى][(2)] ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٨]

سألَهُ عَنْ ماهِيَّتِهِ، فأجابَهُ موسى عَنْ آثارِ صُنْعِهِ في خَلْقِهِ، وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ وربُّ ما ذَكَرَ. لم يُجِبْهُ عمّا سألَهُ مِنْ ماهِيَّتِهِ وكَيفيَّتِهِ حينَ[(3)] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فجَوابُهُ عَنِ الماهِيَّةِ: ﴿رَبُّنَا﴾ فلانٌ وأنهُ كذا. ففيهِ دَلالَةُ أنَّ اللهَ، لا يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ الماهِيَّةِ والكَيفيَّةِ؛ إذْ لا ماهِيَّةَ لهُ، ولا كَيفيَّةَ، إذ هما أوصافُ الخَلْقِ؛ فاللهُ، سُبْحانَهُ، يَتعالى عَنْ أنْ يوصَفَ بشيءٍ مِنْ صِفاتِ الخَلْقِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وجوهاً:

أحدُها: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [صورَتَهُ وهيئتَهُ. والثاني: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ جِنْسَهُ وشَكْلَهُ. والثالثُ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ مَعاشَهُ وقِوامَهُ. والرابعُ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ما يكونُ بَعْدَ الفَناءِ صورةَ ما قد كانَ[(4)] لِيُعْلَمَ أنهُ قادرٌ على بَعْثِهِمْ على الصورةِ التي كانَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [هو مَبْنِيٌّ][(5)] على قولِهِ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾.

فإنْ كانَ تأويلُ:[(6)] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ صورَتَهُ وهيئتَهُ فقولُهُ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ للنَّجاةِ. وإنْ كانَ [تأويلُ][(7)] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جِنْسَهُ وشَكْلَهُ [فقولُهُ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾][(8)] لِلنَّسْلِ. وإنْ كانَ تأويلُ:[(9)] ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ ما بِهِ مَعاشُهُمْ وقِوامُهُمْ [فقولُهُ: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾][(10)] لِما يَتَعَيَّشونَ بِهِ، ويَقومونَ بِهِ، وهَداهُمْ[(11)] لِما يَصْلُحُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥١ و٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنما سألَ فِرْعَونُ موسى عنِ القُرونِ الأولى لأنهُ سَمِعَ مِنْ ذلكَ الرجلِ المؤمنِ حينَ قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠] ولم يكُنْ لِموسى بهِمْ عِلْمٌ، فَوَكَلَ عِلْمَهُمْ إلى اللهِ، ثم أنْزَلَ اللهُ عليهِ التوراةَ، فَبَيَّنَ لهُ فيها أمْرَهُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: سألَ / ٣٣١ ـ ب/ فِرْعَونُ موسى ذلكَ لأنَّ موسى أخْبَرَ أنهُ يُبْعَثُ، وخَوَّفَهُ على ذلكَ. فعندَ ذلكَ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ لم يُبْعَثوا مُنْذُ أُهْلِكوا، فقالَ لهُ ما قالَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أهُمْ في الجنةِ، أمْ في النارِ؟ فقالَ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنما سألَهُ عَنْ أعمالِهِمْ: فما أعمالُ القرونِ الأولى؟ فقالَ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي أعمالُهُمْ ﴿عِندَ رَبِّى﴾ [وقولُهُ تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ كقولِهِ][(12)]: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩ و٢٠] وقولِهِ: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الكتابُ الذي كُتِبَتْ فيهِ أعمالُهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: في اللَّوحِ المحفوظِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: يكون صورة ما قد كان معاشه وقوامه.
(٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: التأويل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ثم هداه. (٩) في الأصل وم: قوله.
(١٠) في الأصل وم: ثم هداه. (١١) في الأصل وم: وهداه. (١٢) في الأصل وم: في.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ هما واحدٌ [أي][2] لا يَضِلُّ، ولا يَنْسى ذلكَ الكتابَ.

[وقُرِئَ][3]: لَا يُضَلُّ[4] مَنْ خَتَمَ بالهُدى، وقُرِئَ[5]: لا يُضِلُّ ﴿رَبِّى﴾ [في][6] ذلكَ الكتابِ الذي ذَكَرَ لأنهُ[7] يَرْجِعُ إلى قولِهِ: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ هو على قولِهِ: ﴿رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] [وقولُهُ تعالى:][8] ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي فِراشاً ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَذْكُرُ نِعَمَهُ التي أنعَمَها عليهِمْ؛ يقولُ: جَعَلَ لكُمُ الأرضَ بحيثُ تفْتَرِشونَ، وتَتَعَيَّشونَ فيها، وتَقِرّونَ عليها، بَعْدَ ما كادَتْ تَميدُ بكُمْ ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طُرُقاً تَسْلُكونَ فيها، وتَختَلِفونَ إلى البلدانِ النائيةِ في حوائجِكُمْ وما بهِ مَعاشُكُمْ وقِوامُكُمْ ما لولا ذلكَ ما قامَ مَعاشُكُمْ، ولا قُضِيَتْ حَوائجُكُمْ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أيِ الماءِ ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ما به مَعاشُكُمْ وقِوامُكُمْ وقِوامُ أنعامِكُمْ على اختلافِ ما جَعَلَ لِكُلِّ دابَّةٍ مِنْ ذلكَ قُوتاً وغِذاءً، لم يَجْعَلْ ذلكَ لِغَيرِها، لأنَّ مِنَ الدَّوابِّ ما يأكُلُ النباتَ، ومنها ما يأكُلُ اللَّحْمَ ونَحْوَهُ.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى:][10] ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ في ما بهِ قِوامُها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ﴾ أي لأولي العُقولِ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ للذينَ يَتَناهَونَ عمّا نُهُوا عنهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لأولي الوَرَعِ. وأولو النُّهى، همْ أهلُ العقولِ، لأنهُ بالعقلِ يُنْهى، وبهِ يُؤْمَرُ. فذلكَ آياتٌ لهمْ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿لِّأُولِى النُّهَىٰ﴾ [لأولي العقولِ، وقالَ: النُّهْيَةُ العَقْلُ].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]][11] أي ما حالُها؟ يُقالُ: أصلَحَ اللهُ بالَكَ أي حالَكَ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وجوهاً:

أحدُها: منها خلَقْنا أصْلَكُمْ، وهو خَلْقُ آدمَ. لكنهُ أضافَ خَلْقَنا إليهِ، وإنْ لمْ يَخلُقْنا منها كما أضافَ الإنسانَ إلى النُّطْفَةِ، وإنْ لم يكنِ الإنسانُ منها، لكنهُ أضافَ إليها لأنها أصْلُ الإنسانِ. فَعَلَى ذلكَ إضافةُ خَلْقِ أنفُسِنا إلى الأرضِ.

والثاني: نَسَبَنا إليها لأنّا مِنْ أوّلِ ما نَنْشَأُ إلى آخِرِ ما نَنْتَهي إليهِ يكونُ قِوامُنا ومَعاشُنا مِنَ الخارجِ مِنَ الأرضِ. فَنَسَبَ خَلْقَنا إليهِ، وهو ما قالَ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] واللِّباسُ على هَيئةِ ما هو [لم][12] يَنْزِلْ مِنَ السماءِ. لكنهُ أضافَ إليهِ لأنهُ كانَ بأسبابٍ مِنَ السماءِ، وأصلُهُ[13] منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذُكِرَ أنَّ المَلَكَ يَنْطَلِقُ، فيأخذُ مِنْ ترابِ ذلكَ المكانِ الذي يُدْفَنُ فيهِ الإنسانُ، فَيَذُرُّهُ على النطفةِ التي قَضَى اللهُ منها الوَلَدَ، فَيَخْلُقُ مِنَ الترابِ والنطفةِ. فذلكَ مَعنى الإضافةِ إليها. لكنَّ هذا سَمْعَةٌ[14]، لا يُعْرَفُ إلّا بالخَبَرِ. فإنْ ثَبَتَ فهو هو، وإلّا لا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلكَ رأياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا مِتُّمْ، أي تُقْبَرونَ فيها، فَيُخَرَّجُ مُخْرَجَ الامْتِنانِ عليها. وذلكَ لنا خاصَّةً دونَ غيرِنا مِنَ الحيوانِ لئلا يَتَأذّى بهمْ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي تَصيرونَ تراباً إذا مُتُّمْ، فَيُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، أي [إنَّ][15] مَنْ قَدَرَ على أنْ صَيَّرَ الإنسانَ تراباً بَعْدَ أنْ لم يكُنْ تراباً لَقادرٌ على أنْ يُصَيِّرَ إنساناً على ما كانَ بَعْدَ ما صارَ تراباً، وهو ما قالَ: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي منها نَبْعَثُكُمْ، ونُنْشِئُكُمْ مَرّةً أُخرى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٥. (٤) أدرج بعدها في الأصل و م: ﴿رَبِّى﴾. (٥) انظر المرجع السابق. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ليس أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: وأصل. (١٤) في الأصل وم: سمعني. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٦ وقولُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ ولم يُرِهِ جَميعَ آياتِهِ، إنما أراهُ بَعْضَ آياتِهِ. لكنْ إنْ كانَ المُرادُ منها الإعلامَ لهُ فقد أعْلَمَ الآياتِ كلَّها لأنهُ إذا أراهُ آيةً واحدةً أو بَعضَ الآياتِ فَرُؤْيَةُ آيةٍ واحدةٍ أو[1] بَعْضِها تَدُلُّ على إعلامِ غَيرِها مِنَ الآياتِ. فهو على الإعلامِ قد أعلَمَهُ كلَّها. وهو ما قالهُ موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] عَلِمَ اللعينُ أنها الآياتُ، وليستْ[2] بِسِحْرٍ. أو أنْ يكونُ يريدُ بالآياتِ كلِّها الآياتِ التي أرسَلَها إلى موسى، فقد أراهُ تلكَ[3] ﴿كُلَّهَا فَكَذَّبَ﴾ بتِلْكَ الآياتِ ﴿وَأَبَىٰ﴾ أنْ يُصدِّقَها، ويَقْبَلَها، فيُسْلِمَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قد عَلِمَ اللعينُ [أنهُ][4] لم يَجِئْهُمْ لِيُخرِجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ، ولكنهُ يريدُ منهمُ الإسلامَ، لكنهُ أرادَ أنْ يُعَرِّفَ قومَهُ عليهِ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] فهذا إغراءٌ منهُ قومَهُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿سُوًى﴾ المكانُ الذي نَحْنُ فيهِ أو[5] غَيرُ هذا المَجْلِسِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ عَدْلاً؛ لا نُخْلِفُ نَحْنُ [ولا][6] أنتَ ذلكَ المكانَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي مَنْصَفاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي وَسَطاً بَيْنَ فريقينِ. وقالَ الكِسائيُّ: سُوًى وسِوًى، يُريدُ بهِ سَواءً، وهما لُغَتانِ[7]. إلّا أنهُ يُقرأُ ﴿سُوًى﴾ وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: هو مِثْلُ ﴿طُوًى﴾[8] [طه: ١٢ و النازعات: ١٦] وهو النِّصْفُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يومُ عاشوراءَ. وقالَ بعضُهُمْ: يومُ العيدِ. وقالَ بعضُهُمْ: يومُ سُوقِهِمْ. لكنا لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ بنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ؛ وهُمْ قومٌ قد عَرَفوا ذلكَ حينَ[9] رَضُوا بذلكَ، ولم يَتَنازَعوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ بَيَّنوا اليومَ، وبَيَّنوا الوقتَ، وهو وَقْتُ الضُّحى ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ وقالَ بَعْضُهُمْ: أي نَهاراً جِهاراً كقولِهِ: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ [الأعراف: ٩٨]نهاراً؛ يَعْني جِهاراً.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي أقْبَلَ على أمْرِهِ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ ليسَ على الإعراضِ عمّا دَعَوا إليهِ ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بهِمْ، وهو كقولِهِ[10]: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أقْبَلَ على السَّعْيِ ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥] بالفَسادِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ما بانَ لكُمُ الحَقُّ، وظَهَرَ لكُمَ الحُجَّةُ باتِّخاذِكُمْ فِرْعَونَ إلهاً، لأنكُمْ إذا اتَّخَذْتُمْ دونَهُ سِواهُ إلهاً، ولا إلهَ غَيرُهُ، فقدِ افْتَرَيْتُمْ عليهِ.

والثاني: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ما بانَ لكُمُ الحَقُّ، وظَهَرَ لكُمُ الحُجَّةُ، فلا تَفْتَروا على اللهِ كَذِباً بِقَولِكُمْ: إنهُ سِحْرٌ، وإنهُ كَذِبٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ بِرَفْعِ الياءِ ونَصْبِها[11] جميعاً. قالَ أبو مُعاذٍ: يُقالُ: أَسْحَتَهُ، وسَحَتَهُ، وقَهَرَهُ، وأقْهَرَهُ. وقالَ أهْلُ التأويلِ: أي يُهْلِكَكُمْ، ويَسْتَأصِلَكُمْ بِعذابٍ.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ العذابَ في الدنيا؛ أوعَدَهُمْ بعذابٍ، يأتيهِمْ إذا افْتَرَوا على اللهِ كَذِباً بَعْدَما بانَ الحَقُّ، وظَهَرَ لهمْ بالبُرْهانِ[12] والحُجَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: ليس. (٣) في الأصل وم: ذلكَ. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٦. (٨) انظر معجم القراءات القرآنيةج٤/ ٧٢ (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: كقولهم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٨. (١٢) في الاصل وم: البرهان.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ أي السَّحَرَةُ في ما بينَهُمْ سِرًّا مِنْ فِرعَونَ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ مِنْ فِرْعَونَ.

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يَعنونَ موسى وهارونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ مِنْ موسى وهارونَ. فَنَجْوَاهُمْ أنْ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ والأشْبَهُ هذا أنهُمْ اعتزَلُوا قومَهُمْ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾/ ٣٣٢ ـ أ/ عنْهمْ في ما بَيْنَهُمْ أنهما كذا.

ثم قولُهُ: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بالألِفِ[2]. قالَ أبو عُبَيْدَةَ: هذهِ لغةُ قومٍ مِنَ العَرَبِ [تقولُ: مَرَرْتُ برجلانِ][3] ورأيتُ رجلانِ. فهو على تلكَ اللغةِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ هذهِ الألِفَ، لا تَسْقُطُ في الوُحْدانِ بِحالٍ؛ يُقالُ: مَرَرْتُ بهذا، ورأيتُ هذا، ونَحْوُهُ. فهو كالأصلِ، لا يَحْتَمِلُ السقوطَ في الأحوالِ كلِّها في الوُحْدانِ والتَّثْنِيَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ أي: نَعَمْ هذانِ لَساحِرانِ، وتلكَ لُغَةُ قومٍ أيضاً؛ يقولونَ: إنْ مكانَ نَعَمْ كقولِ القائلِ في آخِرِ بيتِهِ: فَقُلْتُ: إنَّهْ[4]، أي: نَعَمْ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ هذا خطأٌ مِنَ الكاتبِ، فقالَ: إني أرَى فيهِ خَطايا، فَيُقَوِّمُها العَرَبُ بألسِنَتِها، أو نَحْوَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾ هذا القولُ إنما أخَذوا مِنْ فرعونَ حينَ[5] قالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ الآية [الأعراف: ١١٠] وقولُهُ أيضاً حينَ[6] ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧] عَلِمَ فِرْعَونُ أنَّ ذلكَ ليسَ بِسِحْرٍ، لكنهُ أرادَ أنْ يُغْرِيَ قومَهُ عليهِ لئلا يَتَّبِعوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ اختُلِفَ فيهِ. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي بعَيشِكُمْ أمْثَلَ العيشِ، لأنهمْ كانوا جَبابِرَةً وفَراعِنَةً، وكانَ[7] بَنو إسرائيلَ لهمْ خَدَماً وخَوَلاً، يَسْتَخدِمونَهُمْ، ويَسْتَعْمِلونَهمْ في حَوائِجِهِمْ، فكانَ تَعَيُّشُهُمْ بهمْ. فقالَ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي يَذْهَبا بِدينِكُمْ ومَذْهَبِكُمْ الأمْثَلِ؛ لأنهُ يقولُ: إنَّ الذي يَدْعُوهمْ هو إليهِ، هو الرشادُ، وإنَّ الذي يَدعُوهمْ موسى إليهِ، هو باطِلٌ، وإنهُ سِحْرٌ وفَسادٌ كقولِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] وقولِهِ[8] ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وقولِهِ[9] ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ونَحْوُهُ: يَدَّعي أنَّ ما يَدْعوهمْ إليهِ، هو الرشادُ، وأنَّ الذي يَدعو موسى إليهِ السِّحْرُ والفَسادُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي خِيارِكُم وأشرافِكُمْ والأمْثَلِ منكُمْ.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾ أي يُهْلِكَكُمْ، ويَسْتأصِلَكُمْ؛ يُقالُ: سَحَتَهُ اللهُ، وأسْحَتَهُ، وقالَ: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي الأشرافِ، ويُقالُ: هؤلاءِ طريقةُ قومِهِمْ، أي أشرافُهُمْ، واشتِقاقُ[10] الطريقةِ مِنَ الشريفِ، ويُقالُ: أرادَ بِسُنَّتِكُمْ ودينِكُمْ. والمُثْلَى مؤنثُ أمْثَلَ، مِثْلُ كُبْرَى وأكبَرَ ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ أي حيلَتَكُمْ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي بدينِكُمُ الأفضَلِ، وهو مِنَ الأمْثَلِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ حرْفُ الإجماعِ يُسْتَعْمَلُ في العَزْمِ مَرَّةً، والاجْتِماعِ ثانياً. أمّا في العَزْمِ فما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «لا صَومَ لِمَنْ لم يُجْمِعْ رأيَهُ مِنَ الليلِ» [أبو داوود ٢٤٥٤] أي لمنْ لم يَعْزِمْ على [ما رُوِيَ في خَبَرٍ آخَرَ][11]: «لا صَومَ لِمَنْ لم يَعْزِمْ مِنَ الليلِ» [الترمذي ٧٣٠] وأمّا الاجْتِماعُ فظاهِرٌ.

---

(١) في الأصل وم: فقال لهم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٨٩. (٣) في الأصل وم: يقال: مررت. (٤) القائل هو الشاعر عبيد الله ابن قيس الرقيات، والبيت:

ويقلن شيب قد علا ... ك وقد كبرت فقلت إنه

انظر الديوان ص ٢١٢

(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم حيث. (٧) في الأصل وم: وكانوا. (٨) أدرج بعدها في الأصل: لأن. في الأصل وم: وحيث قال. (٩) في الأصل وم: وحيث قالوا. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: روى الخبر. انظر جنة المرتاب ج٢/٣٦٥.

فإنْ كانَ على الاِجْتِماعِ فكأنهُ قالَ: فاجْتَمِعوا على عَمَلٍ واحدٍ، لا تَخْتَلِفونَ فيهِ. [وإنْ كانَ][1] على العَزْمِ: فهو[2] اعْزموا شيئاً واحداً، واقصِدوا أمْراً واحداً لكي تَغْلِبوا.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جميعاً غيرَ مُتفرِّقينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أيِ المُصَلَّى الذي كانَ مَوعِدَ الاِجْتماعِ، وهو يومُ الزِّينةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ قيلَ: مَنْ غَلَبَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي غَلَبَ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ مَنْ طَلَبَ العُلُوَّ، وأرادَ أنْ يَسْعَدَ بما وَعَدَ فِرْعَونُ لِلسَّحَرَةِ مِنَ الأجْرِ إذا كانوا هُمُ الغالِبينَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ[4] لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣و ١١٤]، فذلكَ هو ما طَلَبوا منهُ. فأخْبرَ أنهمْ يَظْفَرونَ بذلكَ. هذا إذا كانَ القولُ مِنْ فِرْعَونَ، واللهُ أعلَمُ.

[وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي مُصَلًّى، والصَّفُّ المُصَلَّى، وقالَ: حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنهُ قالَ ما استَطَعْتُ أنْ آتيَ الصفَّ اليومَ المُصَلَّى. وقالَ القُتَبيُّ: ﴿صَفًّا﴾ أي جميعاً، وكذلكَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ، وقولُهُ: ﴿مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي غَلَبَ][5].

الآيتان ٦٥ و٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ بأمْرٍ مِنَ اللهِ وإذْنٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

الآية ٦٧ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي وَقَعَ في قَلْبِهِ الخَوفُ، وخافَ إذْ صَنَعَ القومُ ما صَنَعوا مِنَ السِّحْرِ. ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ الخوفُ منهُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: خافَ على ما طُبِعَ البَشَرُ عليهِ مِنْ خوفِ الطَّبْعِ لا خوفِ غَلَبَةٍ، لأنهُ قالَ لهمْ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١] كانَ يَعْلَمُ ﷺ أنَّ تَمْويهاتِ السِّحْرِ لا تُبْطِلُ حُجَجَ اللهِ وآياتِهِ. فدَلَّ ذلكَ أنهُ خافَ خَوفَ الطَّبْعِ والجِبِلَّةِ لا خوفَ القَهْرِ والغَلَبةِ.

[والثاني:][7]: أنْ يكونَ خَوفُهُ لمّا أخَذَ سِحْرُ أولئكَ أعْيُنَ الناسِ خافَ موسى أنْ يَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنْ أنْ يُبْصِروا ما جاءَ هو بهِ مِنَ الآيةِ والبُرْهانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: خافَ أنْ يَشُكُّوا فيهِ، فلا يُتابِعوا، ويَشُكَّ فيهِ مَنْ تابَعَهُ، وهو ما ذكَرْنا قريباً منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الغالبُ. فإنْ كانَ الخَوفُ الذي ذَكَرَ خَوفَ طَبْعٍ وما جُبِلَ عليهِ المَرءُ فيكونُ قولُهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ على تَسكينِ القَلْبِ وتَثْبيتِهِ. وإنْ كانَ الثانيَ فهو على البِشارَةِ لهُ والإخبارِ على [ألّا يَمْنَعَ أولئكَ السَّحَرَةَ][8] عن أنْ يُبْصِروا ما [تأتيهِمْ بهِ][9] أنتَ مِنَ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ سِحْرَ أولئكَ إنما صارَ بَعْدَما ألْقَوا ما في أيديهِمْ، وكذلكَ عصا موسى إنما صارَتْ آيةً وحُجَّةً بَعْدَ ما ألقاها مِنْ يَدِهِ. لم تكُنْ وقْتَ كونِها في يَدِهِ كذلكَ حينَ[10] قالَ: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾ أي تَـلْـقَـمْ، وتـأكُـلْ ﴿مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بِسِحْرِهِ. وإلّا قد أفْلَحَ سَحَرَةُ فِرْعَونَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسعودٍ: أينَ أتى. وقالَ بعضُهُمْ: حَيثُ كانَ وحَيثُ وحَوثُ لُغَتانِ، وهو قولُ الكسائيِّ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأنهمْ عَرَفوا حقيقَةَ ما أتى بهِ[11] موسى فَعَلِموا أنهُ آيةٌ، ليسَ بِسِحْرٍ، فآمَنوا إيماناً، لم يَرْتابوا فيهِ قَطُّ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إنْ، وهي قراءة ابن عامرة وعاصم وغيرهما انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٨٨. (٥) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم في نهاية تفسير الآية ٦٣ سهواً. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: أن يمنع سحر أولئك. (٩) في الأصل وم: تأتي بهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: بهم.

وهذا يَدُلُّ أنَّ كلَّ ذي بَصَرٍ وعِلْمٍ في شيءٍ يكونُ أبْصَرَ وأعْلَمَ في ذلكَ الشيءِ مِنْ غَيرِهِ [ألا تَرَى أنهمْ][١] لم يَنْظروا لِما رَأوا ما أتى بهِ موسى، وعايَنوا وَقْتاً يَنْظُرونَ[٢] فيهِ؟ بل لِسُرْعَةِ مَعْرِفَتِهِمْ ذلكَ لم يَمْلِكوا أنفُسَهُمْ، بلْ ألْقوا على وجوهِهِمْ على ما أخْبَرَ حينَ[٣] قال: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [وقال:][٤] ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠ و الشعراء: ٤٦]

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي أضْمَرَ خَوفاً. وقالَ غَيرُهُ: وَقَعَ في قَلْبِهِ [حينَ رَأى ما كانَ][٥].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي يَظُنُّ؛ يُقالُ[٦]: يُخَيِّلُ إليَّ، أي يُريني فَهْمي وعِلْمي أنَّ هذا الشيءَ كذا وكذا. ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أي أحَسَّ ﴿تَلْقَفْ﴾ وتَلَقَّمْ واحدٌ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَعْني موسى. وقالَ بعضُهُمْ: كَبيرُ السَّحَرَةِ الذي عَلَّمَ السِّحْرَ. وقالَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ /٣٣٢ ـ ب/ الآية [الاعراف: ١٢٣] قد عَلِمَ فِرْعَونُ أنَّ ذلكَ ليسَ بِسِحْرٍ ولا مَكْرٍ، مَكَروا بهِ. لكنهُ أرادَ أنْ يُمَوِّهَ على قومِهِ، ويُلْبِسَ عليهمْ أمرَ موسى وما جاءَ [بهِ][٧] مِنَ الآياتِ والحُجَجِ لأنهُ هو الذي ربّاهُ، ونَشَأ بَيْنَ ظَهْرانيهِ وأهلِهِ. فَعَلِمَ أنهُ لم يَتَعَلَّمِ السِّحْرَ مِنْ أحدٍ لمّا فارَقَهُ، وخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ إلى مَدْيَنَ، لم يكُنْ هُناكَ [ساحرٌ][٨] يَتَعَلَّمُ منهُ السِّحْرَ لكنهُ أرادَ التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على قومِهِ. وكذلكَ أهلُ مكةَ حينَ[٩] نَسَبوا رسولَ الله إلى السِّحْرِ والكهانَةِ والإفْتِراءِ والجُنونِ وغَيرِهِ عَلِموا أنهُ ليسَ بِساحرٍ ولا كاهنٍ ولا مَجْنونٍ ولا مُفْتَرٍ لأنهُ نَشَأ بينَ أظْهُرِهِمْ صغيراً، لم يُؤخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ على أحدٍ مِنَ الخَلائقِ، فكيفَ على الله تعالى؟ ولا رَأوهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِنَ السَّحَرَةِ والكهنةِ في تَعَلُّمِ ذلكَ. لكنهمْ أرادوا التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على الناسِ لئلا يَتَّبِعوهُ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ مِنْ دينِ اللهِ وتَوحيدِهِ.

ثم الرُّسُلُ، صلواتُ الله تعالى عليهمْ، لو لم يكُنْ معهمُ الآياتُ المُعْجِزَةُ ولا الحُجَجُ النَّيِّرَةُ كانَتْ أنفُسُهُمْ وما عليهِ طُبِعوا مِنَ السِّيرَةِ الحَسَنَةِ والأخلاقِ الكريمةِ الجميلةِ وما اختاروا مِنَ الأمورِ العَظيمةِ الرفيعَةِ دالَّةً على رسالَتِهِمْ ونُبُوَّتِهِمْ. فكيفَ وقد جاؤوا بالآياتِ المُعْجِزَةِ والبراهينِ المُنيرَةِ؟ وما طُبِعَ السَّحَرَةُ مِنَ السِّيرةِ المَذْمومَةِ والأخلاقِ الدَّنِيَّةِ والأمورِ الخَسيسَةِ يَدُلُّ على كَذِبِهِمْ وافْتِعالِهِمْ. فكيفَ أشْكَلَ عليهِمْ مَعْرِفَةُ[١٠] السِّحْرِ مِنَ الرسالةِ والتَّمْويهِ مِنَ الحُجَّةِ؟ لكنهمْ أرادوا بذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّمْويهِ على قومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ الوعيدُ منهُ في وقْتَيْنِ. أوعَدَهُمْ أوَّلاً بِقَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ مِنْ خِلافٍ على الإبقاءِ رَجاءَ أنْ يَنْتَهوا عمّا اختاروا. فإذا لم يَنْتَهوا عنهُ فَعِنْدَ ذلكَ أوعَدَهُمْ بالقَتْلِ والصَّلْبِ، إذ في القَتْلِ والصَّلْبِ إتلافُ ما دونَهُ مِنَ الجَوارحِ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنَّ كلَّ حَدٍّ، يُرادُ بهِ الإبقاءُ [فإنهُ لا يُؤتَى على الجَوارحِ كلِّها، والقطعُ في السرقةِ قدْ يُرادُ بهِ الإبقاءُ لذلكَ لا يُؤتَى على الجَوارحِ كلِّها، وكذلكَ [حَدُّ[١١] قُطّاعِ الطريقِ؛ إذْ يُرادُ بهِ الإبقاءُ][١٢] لم يَزِدْ على قَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ مِنْ خِلافٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ لو ذاقَ اللعينُ شيئاً مِنْ عذابِ ربِّهِ لم يَقُلْ مِثْلَ هذهِ المَقالَةِ، ولولا ما عَرَفَ مِنْ حِلْمِ ربِّهِ، وإلّا لم يَتَجاسَرْ أنْ يَتَكَلَّمَ بِمِثْلِ هذا، ويُوعِدَهُمْ أنَّ عذابَهُ أشَدُّ مِنْ عذابِ الله.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي لن نُؤْثِرَكَ بالرُّبوبِيَّةِ والعِبادةِ لكَ والطاعَةِ على ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ على رُبوبيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ وعِبادَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قال بعضُهمْ: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أيضاً على الذي خَلَقَنا. لكنْ غَيرُهُ أشْبَهُ؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ على القَسَمِ أي بالذي فَطَرَنا؛ كأنهُمْ أيأسوهُ عنِ العَودِ[١٣] إلى عِبادتِهِ وخِدْمَتِهِ.

---

(١) في الاصل وم: حيث. (٢) في الاصل وم: ينظروا. (٣) في الاصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث اتى كان. (٦) في الأصل وم: يقول. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: معجزة. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: العون.

وقولُهُ تعالى: وقولُهُ تعالى: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ ليسَ على الأمرِ، لكنْ الإياسِ عنْ ذلكَ؛ أي أنكَ وإنْ فعَلْتَ بِنا ما أوعَدْتَ فإنّا ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنما تَقضي في هذهِ الحياةِ الدنيا.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ واللهُ خيرُ مَعْبودٍ، وثوابُهُ ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أبقى مِنْ ثوابِ غيرِهِ. أو أنْ يكونَ هذا جَوابَ قولِهِ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ فيقولُ [السَّحرَةُ][1]: عذابُ اللهِ [أشَدُّ][2] وأبقى، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [سُوقُ النَّخلِ وأُصولُها][3].

الآيتان ٧٤ و٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أصلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنَّ مَنْ قَبِلَ مِنَ اللهِ حياتَهُ بالشُّكرِ، وطَيَّبَها بالأعمالِ الصالحاتِ طَيَّبَ اللهُ حَياتَهُ وعَيشَهُ في الآخِرَةِ. ومَنْ لم يَقْبَلْ حياتَهُ مِنَ اللهِ تعالى بالشُّكرِ في الدنيا، بل كَفَرَ بها، وخَبَّثَها، وقَبَّحها بالأعمالِ القَبيحَةِ الخَبيثَةِ الدَّنِيَّةِ، خَبُثَتْ حياتُهُ وعَيشُهُ[4] في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ هي ما تَرْتَفِعُ، وتَعلُو. والدَّرَكاتُ ما تَتَسَفَّلُ، وتَنْحَدِرُ في الأرضِ. والدَّرجاتُ لِلمُؤمِنينَ في الآخرةِ لِاختيارِهِمْ في الدنيا الأعمالَ الصالحةَ الرفيعَةَ العاليةَ. فَعَلَى ما اختاروا في الدنيا مِنَ الأعمالِ الرفيعةِ [العُلْويَّةِ ﴿لَهُمْ﴾][5] في الآخرةِ مُقابلَ ذلكَ ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾. وأمَّا الدَّركاتُ فهيَ لأهلِ الكفرِ مُقابلَ ما اختاروا في الدنيا مِنَ الأعمالِ الدَّنِيَّةِ الخَبيثَةِ، وأخزاهُمْ كَمِثْلِ مَنْ زَرَعَ بُذورَ[6] الشوكِ لم يَحْصُد بُرّاً قَطُّ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي ذلكَ الذي ذَكَرَ جزاءُ مَنْ أصلَحَ عَمَلَهُ، وأنماهُ. والزَّكاةُ هي النَّماءُ في اللغةِ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ وهو السَّيرُ بالليلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أيِ اضرِبْ بعصاكَ البَحرَ، فيَصيرَ[7] لهمْ طريقاً في البَحرِ يابساً كقولِهِ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ الآية [الشعراء: ٦٣]

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي لا تخافُ لُحوقَ فِرعَونَ وجُنودِهِ، ولا تَخشى غَرَقَ البَحرَ. ليسَ على النَّهيِ، ولكنَ على رَفْعِ الخَوفِ عنهُ، والأمنِ عَنِ أنْ يُدرِكَهُمْ، ويَلْحَقَهُمْ. الا تَرى أنهُ ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾؟ [الشعراء ٦١ و ٦٢]

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ دلَّ قولُهُ ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ على أنْ كانَ معهُ جنودٌ لا جُندٌ واحدٌ. وأمّا العَدَدُ فإنهمْ كانوا كذا وكذا ألفاً، وقومُ موسى كذا وكذا ألفاً. فذلكَ لا يُعلَمُ إلا بالخَبَرِ، وليسَ بنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا﴾ هداهُ اللهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا﴾ هـداهُـمْ حيـنَ[8] قـالَ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وقيـلَ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ نَفْسَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦] أي مَنْ آمَنَ؛ وذلكَ أنهُ بالإيمانِ تَزكو الأعمالُ، وتَنمو، وبهِ يُثابُ عليها، ويُؤجَرُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي لحاقاً، وقولُهُ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي لَحِقَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الاصل وم: ساقُ النخل وأصله. (٤) أدرجت في الأصل وم بعد: الآخرة.
(٥) في الأصل وم: العلوة فلهم. (٦) في الأصل وم: بذر. (٧) في الأصل وم: اجعل. (٨) في الأصل وم: حيث.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ هذا خَبَرٌ يُخبِرُ عمّا أنْعَمَ عليهِمْ، ومَنَّ على أوائِلِهِمْ وآبائِهِمْ [ويخاطبُ][(١)] مَنْ حَضَرَ رسولَ اللهِ ﷺ [مِنْ أهلِ الكتابِ الذينَ هُمْ أولادُ بني إسرائيلَ][(٢)] يُذَكِّرُ هؤلاءِ بما أنْعَمَ، ومَنَّ على أولئكَ، وإلّا لم يكُنْ هؤلاءِ يومئذٍ.

وفيهِ تذكيرُ النِّعَمِ والمِنَنِ على الصّحابةِ في أواخرِ أمورِهِمْ لأنهُ أمَّنَهُمْ[(٣)] في آخِرِ أمرِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وإياسِهِمْ مِنْ عَودِ هؤلاءِ إلى دينِهِمْ. وفيهِ تذكيرٌ لنا في ما أنْعَمَ علينا، ومَنَّ [في][(٤)] أوائلِ أمورِنا وآخِرِها. ليسَ التذكيرُ لِبَني إسرائيلَ خاصةً. ولكنْ لنا ولِكُلِّ مَنْ أنْعَمَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ لسنا نَدري أيُّ الأيمَنِ؟ [أهو][(٥)] اسْمُ ذلكَ الجبلِ، أم[(٦)] سَمّاهُ الأيمنَ[(٧)] لِيُمْنِهِ وبَرَكَتِهِ؟ وقالَ ﷻ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] وسَمّاهُ الأيمَنَ [لأنهُ][(٨)] مِنْ يُمْنِ موسى ﷺ فإنْ كانَ هو مِنَ اليُمْنِ والبَرَكةِ فهو كذلكَ لأنهُ بهِ كانَ بَدْءُ وَحْيِ موسى ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ يُذَكِّرُ هؤلاءِ ما وَسَّعَ على أوائِلِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ /٣٣٣ ـ أ/ وأخصَبَهُمْ لِيَسْتَأدِيَ بذلكَ الشُّكْرَ على ما أنْعَمَ عليهِمْ. وذلكَ تذكيرٌ لنا ولِمَنْ وَسَّعَ عليهِ ذلكَ، إذْ لم يَزَلْ علينا يُوَسِّعُ الرِّزْقَ مِنْ أولِ عُمُرِنا إلى آخِرِهِ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][(٩)] ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي مِنْ حَلالاتِ ما رَزَقْناكُمْ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ دلالةٌ أنَّ [مِنَ الرِّزْقِ][(١٠)] ما ليسَ بحلالٍ.

والثاني: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي ما تَطيبُ بهِ أنفسُكُمْ. ففيهِ دلالةُ أنهُ يجوزُ لنا أنْ نَختارَ[(١١)] مِنَ الأطعمةِ ما هو أطيَبُ إنْ كانَ على ما تَستَطيبُ بِهِ الأنفُسُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ الطُّغيانُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحُدودِ التي جُعِلَتْ، أي لا تَطْغَوا في ما رَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيباتِ، وتَجْعَلونَهُ في غَيرِ ما جَعَلَ، وتَتَجاوَزونَ عنِ القَدْرِ الذي جَعَلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ بِرَفْعِ الحاءِ والخَفضِ[(١٢)] جميعاً؛ يَحِلُّ أي يَنْزِلَ عليكُمْ غَضَبي، ويَحُلُّ بالرفعِ يَجِبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ قيلَ: هَوَى هَلَكَ؛ أي مَنْ يَجِبْ عليهِ عذابي فقد هَلَكَ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: هَوَى أي هَلَكَ؛ يُقالُ: هَوَتْ أمُّهُ، أي هَلَكَتْ. وقيلَ ﴿فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ أي سَقَطَ في النارِ؛ يُقالُ: هَوَى في موضِعِ كذا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ [وجهينِ:

أحَدُهُما][(١٣)]: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ عنِ الشِّرْكِ ورَجَعَ عنه ﴿وَءَامَنَ﴾ بِتَوحيدِهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ في ما بَيَّنَ ذلكَ ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ في حِفْظِ أمْرِهِ، وانْتَهَى عمّا نَهَى.

والثاني: ﴿لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ عنْ جَميعِ المَناهي ﴿وَءَامَنَ﴾ بجميعِ ما أَمَرَ [﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي][(١٤)] ما دامَ على ذلكَ، وثَبَتَ، كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى ﷺ خَرَجَ بِنَفَرٍ مِنْ قَومِهِ إلى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م في الأصل: أملهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: هو. (٦) في م: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: يرزق. (١١) من م في الأصل: المختار. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٠٠. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل: وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أما، في م: وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي ما.

الجَبَلِ لِيَأخُذَ التوراة، فَعَجَّلَ حتى خلَّفَهُمْ وتَرَكَهُمْ وراءَهُ. فعندَ ذلكَ قالَ لهُ رَبُّهُ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: لم يَخرُجْ بِنفَرٍ، ولكنْ خرَجَ وحدَهُ، وتَرَكَ قومَهُ، فأصابَهُمْ ما أصابَ مِنَ الافتِتانِ بالعِجْلِ الذي اتَّخذَهُ السامِرِيُّ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ هذا على التأويلِ الأوّلِ، أي هُمْ يَجيئُونَ على أثَري، وعلى التأويلِ الثاني: أي تَرَكْتُهُمْ على ديني وسَبيلي، وهو قولُ الحَسَنِ وقتادةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي عَجِلْتُ إليكَ ربِّي في ما دَعَوتَني إجابَةً وطاعةً في ما أمَرْتَني لِتَرْضى. هذا على التأويلِ الذي قالَ: إنهُ خَرَجَ وحدَهُ، وعلى التأويلِ الذي يقولُ إنهُ خَرجَ بِنفَرٍ، يقولُ، والله أعلَمُ: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ إذْ لم يَكُنْ لي سبَبٌ ولا مَانِعٌ[1] يَمْنَعُني عنِ الإسراعِ إلى ما دَعَوتني، وأمَرْتَني.

وهكذا عندَنا أنَّ مَنْ لَزِمَهُ أمرُ اللهِ وفَرْضُهُ لَزِمَهُ الإسراعُ والعَجَلَةُ إلى القيامِ [بِأدائِهِ، إذا][2] لم يكُنْ هناكَ سَبَبٌ يَمْنَعُهُ عنِ التَّعجيلِ لهُ والقيامِ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ الفِتْنَةُ هي المِحْنَةُ التي فيها شدائِدُ وبَلايا. ومَعْنى الافتِتانِ ههنا هو ما افْتُتِنوا[3] بالعِجْلِ الذي اتَّخَذَهُ السامِرِيُّ؛ جَعَلَهُ جَسَداً بِدَمٍ ولَحْمٍ على ما ذُكِرَ، ونَفَخَ فيهِ الروحَ، وجَعَلَ لهُ خُواراً. فذلكَ مَعْنى الافتِتانِ منهُ إياهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أضافَ الإضلالَ إلى السامِرِيِّ لأنهُ كانَ سَبَبَ إضلالِهِمْ حينَ[4] اتَّخذَ لهمُ العِجْلَ، ودعاهُمْ إلى عِبادَتِهِ، وقالَ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فأضافَ الإضلالَ إليهِ لِما ذَكَرْنا مِنْ دُعائِهِ [إياهُمْ][5] إليهِ والسَّبَبِ الذي كانَ منهُ. وإلا لم يكُنْ لِأحدٍ[6] إضلالُ أحدٍ. وأضافَ الافتِتانَ إلى نفسِهِ لِما ذَكَرْنا مِنْ جَعْلِ العِجْلِ [جَسَدانيّاً مِنْ لَحْمٍ ودَمٍ وروحانيّاً][7] فإنْ قيلَ: ما مَعْنى إجراءِ ما أجْرَى على يَدَيِ السامِرِيِّ مَعَ ضَلالِهِ مِنَ الآيةِ؟ قيلَ: هو، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لوِ ادَّعَى لِنَفْسِهِ الرسالةَ لكانَ لا يَتَهَيّأ لهُ ذلكَ. لكنّهُ إنّما ادَّعى أنهُ إلهٌ، وآثارُ العُبوديّةِ فيهِ ظاهِرةٌ قائمةٌ، يَعْرِفُهُ كلُّ أحدٍ أنهُ ليسَ بإلهٍ.

وأمّا الرسالةُ فإنهُ يجوزُ أنْ تَشْتَبِهَ على الناسِ، وتَلْتَبِسَ عليهِمْ، فَيَمْنَعُ اللهُ ﷻ مَنْ ليسَ بِرَسولٍ إذا ادَّعى الرسالةَ إقامةَ دلالةِ الرسالةِ لِاشْتِباهِها على الناسِ.

وأمّا الألوهيّةُ فلا [يَمْنَعُهُ اللهُ عنْ إجراءِ][8] ذلكَ لأنَّ آثارَ العُبودةِ وأعلامَ العَجْزِ فيها ظاهرةٌ يَعرِفُها[9] كلُّ أحدٍ. وهكذا مَنْ أتَى قَرْيَةً، لم يَبْلُغْهُمْ هذا القرآنُ، فَقَرَأ هذا القرآنَ، وقالَ: إني رسولُ اللهِ إليكُمْ، يُقْدِرُهُ اللهُ على قراءَتِهِ. فلو ادَّعى الرُّبوبيَّةَ لم [يَمْنَعْهُ اللهُ][10]. لأنَّ آثارَ العَجْزِ عنْ إتيانِ مِثْلِهِ ظاهِرةٌ، وفي الرسالةِ لا، لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ الأسفُ هو النِّهايَةُ في الغَضَبِ والنِّهايَةُ في الحُزْنِ. وهكذا جَبَلَ رُسُلَهُ، وأنشأهُمْ على نهايَةِ الغَضَبِ للهِ والأسفِ لهُ عندَ مُعايَنَتِهِمُ الخِلافَ للهِ والتَّكذيبَ لهُ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ الآيةَ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ على تأويلِ الحَسَنِ ﴿وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ هو الثوابُ الذي وَعَدَ لهمْ بالدِّينِ والسَّبيلِ [حينَ][11] ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤] أي على ديني وسَبيلي. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ أي عَدْلاً وصِدْقاً حينَ[12] وعَدَ لهمْ أنهُ يَرْجِعُ إليهِمْ عندَ [رأسِ][13] أربعينَ أو ثلاثينَ ليلةً على ما ذَكَرَ ﷻ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ على تأويلِ الحَسَنِ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ﴾ عَهْدُ ما وَعَدَ لَكُمْ مِنْ دونِ الثوابِ والجَزاءِ على دينِهِ وسَبيلِهِ حتى نَسِيتُمْ ذلكَ. وعلى تأويلِ مَنْ قالَ: إنَّ الوَعْدَ هو ما وَعَدَ أنهُ يَرْجِعُ إليهِمْ عندَ رأسِ كذا؛ يقولُ: أفطالَ ذلكَ عليكُمْ؟ ومَضى وَعْدي؟ حتى فَعَلْتُمْ ما فَعَلْتُمْ.

---

(١) في الأصل وم: معنى. (٢) في الأصل وم: بأداء فاذا. (٣) من م، في الأصل: فتنتم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم أحد. (٧) في الأصل وم: جسداني من لحم ودم وروحاني. (٨) من الأصل يمنع عن جزاء في. (٩) في الأصل وم: يعرفه. (١٠) في الأصل وم: يمنع. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الاصل وم حيث. (١٣) ساقطة من الاصل.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أم تعمَّدْتُمُ الخِلافَ فيَحِلُّ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ يَحْتَمِلُ المَوعِدُ الوجهَيْنِ الَّذَيْنِ ذَكَرْناهما في ما مَضى.

الآية ٨٧ وقولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بِرَفْعِ الميمِ وكَسْرِهِ[1]. فَمَنْ قَرَأَ بِمُلْكِنا بِرَفْعِ الميمِ أي بِسُلْطانِنا وطاقَتِنا، أي لم نَفْعَلْ بسُلْطانِنا وطاقَتِنا. ومَنْ قَرَأَ بِمِلْكِنا بِكَسْرِ الميمِ [أي بما][2] مَلَكَتْ أيدينا.

وقالَ الكِسائيُّ: مَنْ قَرَأَ بِمُلْكِنا فمَعْناهُ[3] بِسُلْطانِنا، ومَنْ قَرَأَ بِمِلْكِنا بِكَسْرِ الميمِ ونَصْبِهِ فمَعْناها ما مَلَكَتْ أيدينا.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ قيلَ أثقالاً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي مِنْ حُلِيِّ القِبْطِ.

وقولُه تعالى: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي قَذَفْنا ما حَمَلْنا مِنْ حُلِيِّهِمْ.

وقولُه تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي كذلكَ قَذَفَ ما حَمَلَ السامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ما أخَذَ مِنْ قَبْضَتِهِ مِنْ أثَرِ الرسولِ كقولِهِ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: ٩٦]

الآية ٨٨ وقولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي عِجلاً جَسَدُهُ جَسَدُ عِجلٍ، وليسَ هو بِعِجلٍ في الحقيقةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ لا يَتَعَيَّشُ كما يَتَعَيَّشُ العِجْلُ المَولودُ مِنَ البَقَرِ، والأوّلُ أشْبَهُ.

وقولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ هذا القولُ إنما قالَهُ السامِرِيُّ.

وقولُه تعالى: ﴿فَنَسِىَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَنَسِىَ﴾ السامريُّ حينَ[4] قالَ لهمْ ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [هذا القولَ][5] فيكونُ النِّسْيانُ /٣٣٣ ـ ب/ على هذا التأويلِ التَّضْييعَ والتَّرْكَ. كأنهُ قالَ: ضَيَّعَ السامِرِيُّ بَعْدَ ما عَلِمَ، وعَرَفَ رَبَّ العالَمينَ، ونَسَبَ الألوهِيَّةَ إلى العِجْلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ السامريَّ لمّا قالَ ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ نَسِيَ هذا حينَ[6] خَرَجَ في طَلَبِ غَيرِهِ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَقْبَلوا هذا القولَ منهُ، ويَجْعَلوا العِجْلَ الذي اتَّخَذَهُ السّامِرِيُّ إلهاً، وقد عَلِموا أنهُ إنما اتَّخَذَهُ مِنْ حُلِيٍّ حَمَلوها[7] مِنَ القِبطِ. لكنهُ كانَ في عَقْدِهِمْ أنهُ يجوزُ اتِّخاذُ إلهٍ دونَ الإلهِ[8] ربِّ العالمينَ، والعِبادةُ لهُ رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَ عبادتُهُمْ تلكَ الآلهةَ إلى اللهِ.

وعلى هذا كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ دونَ اللهِ كقولِهِمْ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[9]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ولذلكَ[10] ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولِذلكَ[11] ما اتَّخَذَ لهم فِرْعَونُ مِنْ آلهةٍ عَبَدوها دونَهُ.

الآية ٨٩ فقالَ عند ذلكَ، ورَدَّ عليهِمُ اعْتِقادَهُمْ[12]: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي ألا يَرَونَ أنْ لا أُذُنَ في عِبادةِ مَنْ [لا][13] يَرْجِعُ إليهِ القولُ [ولا][14] يَمْلِكُ النَّفْعَ والضَّرَّ. فكيفَ إذَنْ في عِبادةِ مَنْ لا يَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يُذَكِّرُ، واللهُ أعلمُ، بهذا رسولَهُ أنَّ الذينَ كَذَّبوكَ، وجَحَدوا رسالَتَكَ، لم يُكَذِّبوكَ لِجَهْلِهِمْ بالرسالةِ، ولكنْ[15] لِتَعَنُّتِهِمْ وعِنادِهِمْ على ما ذَكَرَ، وأنباءُ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٨٧. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: معناهما، وهو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حملوه. (٨) في الأصل وم: إله. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: وكذلك. (١١) في الأصل وم: وكذلك. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: فقال. (١٣) و(١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، في الأصل: ولكنهم.

مِنَ قولِ هارونَ لقومِهِ لمّا عَبَدوا العِجلَ حينَ قالَ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فكأنهُ يُؤيِسُهُ مِنْ إيمانِ أولئكَ لِعِنادِهِمْ، وهوما قالَ: ﴿۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ يَحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: ﴿فُتِنتُم﴾ أي صِرْتُمْ مَفتونينَ بصَوتِهِ وخُوارِهِ أو بغَيرِهِ.

والثاني: ﴿فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أي ضَلَلْتُمْ بهِ أي بالعِجلِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ أي أجيبوا لي إلى ما أدعوكُمْ بهِ ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ أي ماآمُرُكُمْ بهِ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ أي لَنْ نَزالَ على عبادةِ العِجلِ ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مُقيمينَ ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ أي لَنْ نُفارِقَ عِبادتَهُ.

الآية ٩٢ ثم قالَ موسى ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ هذا يدلُّ أنَّ قولَ هارونَ لهمْ: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أرادَ بهِ الضلالَ حينَ[1] قالَ لهُ موسى ﴿إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾.

الآية ٩٣ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ يَحتمِلُ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ أي ما مَنَعَكَ إذ رأيتَهُمْ ضَلّوا؛ ألا صِرْتَ إلى ما كُنْتُ صِرْتُ أنا، وقد عَلِمْتَ إلى أينَ صِرْتُ أنا. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ أي ألا تتّبعُ ديني وسُنّتي وكانَتْ سُنّتُهُ ومذهبُهُ القِتالَ والحَرْبَ معهمْ إذا ضَلّوا وتَرَكوا دينَ اللهِ.

الآية ٩٤ فاعتَذَرَ إليهِ هارونُ، فقالَ ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ هذا أيضاً يُخَرَّجُ أيضاً على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إنِ اتّبعتُكَ، وصِرتُ إلى ما صِرتَ أنتَ ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لأنكَ لو نَهَيتَهُمْ عمّا اختاروا مِنْ عبادةِ العِجلِ، وبيّنْتَ لهمُ السبيلَ، لَعَلّهُمْ يَتّبعونَكَ. فحينَ[2] لم تَفْعَلْ فأنْتَ الذي فَرّقْتَ بينَهُمْ.

والثاني: على تأويلِ القِتالِ والحَرْبِ في قولِهِ: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لو قاتَلْتُهُمْ، ونَصَبْتُ الحَرْبَ بينَهُمْ، صاروا فريقَينِ. فإذا تفرّقوا اقتَتَلوا، وسَفَكوا الدماءَ، وتَفانَوا. فَتَرْكُ القِتالِ لِما أطْمَعوهُ الإيمانَ إذا رَجَعَ إليهِمْ موسى، ونهاهُمْ عنْ ذلكَ. فَلَعَلَّ سُنّتَهُ في القِتالِ مع مَنْ لم يَطمَعْ منهُ الإيمانَ.

هذا على تأويلِ مَنْ يقولُ بأنَّ هارونَ اعتَزَلَهُمْ لمّا عَبَدوا العِجْلَ مع عشرةِ آلافِ نَفَرٍ أكثَرَ أو أقَلَّ على ما ذُكِرَ.

وأمّا الحَسَنُ فإنهُ يقولُ: كُلُّهُمْ قد عَبَدوا العِجلَ إلّا هارونَ. فَعَلى قولِهِ: لا يُحْتَمَلُ الحربُ والقِتالُ مَعَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ قيلَ: هو ما قالَ ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ودلَّ قولُهُ: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ أنهُ[3] كانَ لهُ الشَّعرُ، فكَنّى بالرأسِ عنِ الشَّعرِ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ قالَ الحَسَنُ: ما حُجّتُكَ يا سامِرِيُّ على ما فَعَلْتَ؟ ولا حُجّةَ كانَتْ لهُ قَطُّ.

وقالَ غيرُهُ: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ﴾ ما شأنُكَ؟ وما أمْرُكَ؟ والخَطبُ هو الشأنُ والأمرُ في اللغةِ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: فما شأنُكَ؟ أي ما الذي حَمَلَكَ على صَنيعِكَ الذي صَنَعْتَ؟

الآية ٩٦ ثم قولُهُ تعالى: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ بالياءِ والتاءِ جميعاً[4]. ثم بَيّنَ ما الذي بَصُرَ هو ما لم يَبْصُروا هُمْ، فقالَ: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فحيث. (٣) في الأصل وم: بأن. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١٠٧.

أمّا عامّةُ أهلِ التأويلِ فإنهمْ يقولونَ: إنهُ قَبضَ قَبْضَةً مِنْ تُرابٍ مِنْ أثَرِ فَرَسِ جِبْريلَ، فَنَبذَها. وليسَ في الآيةِ ذِكْرُ الترابِ ولا ذِكْرُ الفَرَسِ ولا أنَّ ذلكَ الرسولَ جِبريلُ أو غَيرُهُ. ويُشْبهُ أنْ يكونَ الذي قَبَضَهُ هو ترابٌ مِنْ أثَرِ الفَرَسِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ. وقد ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيٍّ: فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أثَرِ فَرَسِ الرسولِ.

فإنْ ثَبَتَ ما قالوا، وإلّا لم نَزِدْ على ما ذُكِرَ في الكتابِ لأنَّ هذهِ الأشياءَ والقِصَصَ كانتْ في كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ في القرآنِ لِيَحتَجَّ بها رسولُ اللهِ على أولئكَ لِيَعْرِفوا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. فلو زِيدَ، أو نُقِصَ عمّا في كُتُبِهِمْ لَذَهَبَ مَوضِعُ الاحتِجاجِ عليهِمْ، بل يُوجِبُ ذلكَ شِبْهَ الكَذِبِ عليهِمْ. لِذلكَ وَجَبَ حِفْظُ ما حُكِيَ في الكتابِ مِنَ الأنباءِ والأخبارِ مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ مخافَةَ الكَذِبِ إلّا أنْ يَثْبُتَ شيءٌ يُذكَرُ عنْ رسولِ اللهِ أنهُ كانَ، فَعِنْدَ ذلكَ يُقالُ، وإلّا فالكَفُّ أولى لِما ذَكَرْناهُ في قراءةِ الحَسَنِ وقَتادَةَ: فَقَبَصْتُ قَبْصَةً بالصادِ. والقَبْصَةُ [بالصادِ، هو الأخذُ بأطرافِ الأصابعِ، والقَبْضةُ بالضادِ][1] هو بالكَفِّ. فلا يُحتَمَلُ أنْ يَصِحَّ الحرفانِ جميعاً، لأنَّ الأخذَ بأطرافِ الأصابعِ دونَ الكَفِّ هو[2] خَبَرٌ، يُخبِرُ عمّا في كُتُبِهِمْ. فإمّا أنْ يكونَ ذا أو ذا، وإمّا أنْ يكونا جميعاً، فلا يُحتَمَلُ إلّا أنْ يُقالَ: إنهُ أخَذَهُ بأطرافِ الأصابعِ، ثم رَدَّهُ إلى الكَفِّ. فحينَئذٍ يكونُ تَمَّ بِمَرَّتَينِ، واللهُ أعلَمُ. قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي كذلكَ سَوَّلَتْ لي نفسي: أنكَ متى تأخُذْ قَبْضَةً مِنْ أثرِ الرسولِ، فَتَنْبُذْها في الحُلِيِّ، يَحْيَ.

[والثاني][3]: أنْ يكونَ سَوَّلَتْ لهُ نفسُهُ على ما كانَتْ عادَتُهُمْ وطبيعَتُهُمْ أنهمْ لا يَعْبُدونَ [إلهاً][4] لا يَرَونَهُ، ولا يَقَعُ بَصَرُهُمْ عليهِ حينَ[5] ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقالوا[6] ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فقالَ [7]: ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أنْ أتَّخِذَ لهمْ عِجلاً يَرَونهُ، فَيَعْبُدونَهُ، أو ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أنَّ في أخذِ قَبْضَةٍ مِنْ أثرِ الرسولِ نَبَأً عظيماً أو قالَ ذلكَ اعتِذاراً لجميعِ ما كانَ منهُ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخِرِ أمْرِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٧ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي لا تَزالُ تقولُ: لا مِساسَ، لا تَقولُ غَيرَهُ عُقوبَةً لهُ وجَزاءً لِصَنيعِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لا[8] تَمَسُّني، ولا أمَسُّكَ، أي لا تَمَسُّني أبداً. أخرَجَهُ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ لِما عَلِمَ موسى/ ٣٣٤ ـ أ/ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لِعذابِكَ ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ ذلكَ في الدنيا والآخرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ قولُهُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى﴾ تَزعُمُ أنهُ ألهٌ، لأنَّ موسى سَمّى ذلكَ، وهو كما قالَ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] التي في زَعْمِهِمْ آلهةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ فقولُهُ: ﴿ظَلْتَ﴾ يُقالُ بالنهارِ، وفي الليلِ يُقالُ: باتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ في[9] هذا إثباتُ آيةٍ لِموسى حينَ[10] قالَ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ والعِجلُ الذي هو مِنْ لَحمٍ ودَمٍ ليسَ مِنْ طَبْعِ النارِ إحراقُهُ، وكذلكَ الحُلِيُّ والذهبُ والفضةُ، ليسَ مِنْ طَبْعِ [النارِ][11] إحراقُها حتى تَصيرَ رماداً. ولكنْ مِنْ طَبْعِها الإذابةُ. ثم أخبَرَ أنها[12] مُحرَقَةٌ. فدَلَّ أنهُ آيةٌ.

وفي قولِهِ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ لُغَتانِ: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بِرَفْعِ النونِ، وهو التَّحريقُ بالنارِ، ولَنَحْرُقَنَّهُ[13] بِنَصْبِ النونِ وهو القَطْعُ بالمِبْرَدِ. ومَنْ قَرَأَ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بِرَفْعِ النونِ والتشديدِ يقولُ: ماكانَ لحماً ودماً، فأُحرِقَ بالنارِ، وصارَ رماداً، ثم نُسِفَ في اليَمِّ.

---

(١) في الأصل: بالضاد، والقبضة هو الأخذ بأطراف الأصابع والقبضة، في م: هو الأخذ بأطراف الأصابع والقبضة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١٠٨. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: كقوله. (٧) في الأصل وم: فقالت. (٨) في الأصل وم: لم. (٩) في الأصل وم: وفي. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) من م: ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: أنه. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/١١٠.

قالَ أبو مُعاذٍ: يا سُبحانَ الله إنْ كُنتَ أحرَقتَهُ بالنارِ فما حاجَتُكَ إلى المِبْرَدِ؟ لكنهُ أرادَ مُقاتلٌ أنْ يَجْمَعَ القِراءَتينِ والتأويلَينِ في قراءةٍ واحدةٍ.

لكنهُ عندَنا لا يجوزُ أنْ يكونَ العِجْلُ مِنْ لَحمٍ ودَمٍ في إحدَى القراءَتَينِ، وفي الأخرَى مِنَ الحُليِّ، لا لَحمَ فيهِ، ولا دمَ، وتكونَ القراءتانِ جميعاً مُنزَلَتينِ. وما قالَهُ مقاتلٌ إنهُ حُرِّقَ بالنّارِ، ثم حُرِقَ بالمِبْرَدِ حَسَنٌ، لأنَّ النارَ لا تَحرِقُ العِجلَ إذا كانَ لَحماً ودَماً، ولكنها تُذيبُهُ[1]، فأُبرِدَ بالمِبْرَدِ. فعِندَ ذلكَ نُسِفَ في اليَمِّ.

قالَ أبو مُعاذٍ: تقولُ العَرَبُ: نَسَفْتُ [البُرادَةَ أنسِفُها][2] نَسفاً إذا أخرَجْتُها[3] المِنسَفَةُ، فطَيَّرْتُ غُبارَها[4]. ويُقالُ في المَشْيِ: ما زِلنا نَنسِفُ يَومَنا كُلَّهُ نَسفاً أي نَمشيهِ[5].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي لَنَرْمِيَنَّ بهِ ﴿نَسْفًا﴾ أي رَمْياً. والنَّسفُ القَلْعُ مِنَ الأصلِ. وصَرْفُهُ: نَسَفَ يَنسِفُ نَسفاً. وقالَ: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: ٩١] أي لا نَزالُ. [وقالَ][6]: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي لا يَمَسُّكَ أحدٌ، ولا يؤذيكَ. وقالَ: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ لُغَةُ سَوءٍ، وإنما هو ظِلْتُ، وظَلِلْتُ.

ورُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ إذ جاءَ الرسولُ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ فالقَيتُها، وفي حَرْفِ حَفصَةَ: إذْ مَرَّ الرسولُ. وفي حَرْفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أنْ لا مِساسَ، ليسَ فيهِ أنْ تقولَ، وفي حَرْفِ حَفصَةَ: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ الدنيا ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ: لا تُماسُّ، ولا يُخالِطونَكَ.

قالَ أبو مُعاذٍ: المِساسُ مَصْدَرُ ماسَّهُ مِساساً ومُماسَّةً

كما يُقالُ: ضارَّهُ ضِراراً ومُضارَّةً، وسارَّهُ سِراراً ومُسارَّةً، ومَنْ قَرَأَ: لا مَساسِ كانَ كقيلِكَ: نَزالِ ودَراكِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وانظُرْ كيفَ يُفعَلُ بإلهِكَ ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَجَّعَتْ. وظاهِرُهُ: زَيَّنَتْ لي نَفْسي.

وقيلَ: سُمِّيَ السَّامِرِيُّ سامِرِيّاً لأنهُ كانَ مِنْ قَبيلَةٍ، يُقالُ لها: السامِرَةُ.

وقولُ هارونَ لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ وكانَ أخاهُ لِأبيهِ وأُمِّهِ. وقيلَ: أرادَ بذلكَ أنْ يُرَقِّقَهُ عليهِ، فيَترُكَهُ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ موسى لمّا أَحرَقَ العِجلَ، ونَسَفَهُ في البَحْرِ، قالَ عندَ ذلكَ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ تَعرِفونَهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لا يَعزُبُ عنهُ شيءٌ، ولا يَخفى عليهِ شيءٌ. فَيُشبِهُ أنْ يكونَ موسى ذَكَرَ هذا لَهُمْ لمّا أضمَروا هم، وأسَرُّوا حُبَّ العِجلِ في قلوبِهِم على [ما][7] أخبرَ اللهُ عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] فقالَ لَهُمْ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يَعلَمُ ما تُسِرُّونَ وما [تُظهِرونَ أو][8] لا يَعلَمونَ أنهُ [يَعلَمُ][9] ما يُسِرّونَ وما يُضمِرونَ وما يَغيبُ عنِ الخَلقِ، ويكونُ عندَهُمْ كملوكِ الأرضِ يَعلَمونَ الظاهرَ مِنَ الأمورِ الحاضِرَةِ منها والغائبَ، فأخبَرَ أنهُ ﷻ يَعلَمُ الظاهِرَ والباطِنَ والسِّرَّ والعَلانِيَةَ والحاضِرَةَ والغائبَةَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ليكونَ آيةً لِرسالَتِكَ ونُبُوَّتِكَ. أو يقولُ: كما قَصَصْنا عليكَ هذا النَّبأَ كذلكَ نَقُصُّ عليكَ سائرَ الأنباءِ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الذِّكرُ ههنا القرآنُ، وهو الظاهرُ. ألا تَرى أنهُ [قالَ][10] على إثْرِهِ: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ﴾ كذا؟ وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي شَرَفاً وذِكْراً، يُذْكَرُ[11] بَعْدَهُ أبداً؛ ومَنِ اتَّبَعَهُ، وأجابَهُ إلى ما دَعاهُ، يَصيرُ مَذْكوراً بهِ.

---

(١) في الأصل وم: تذيب. (٢) في الأصل وم: البرد انسفه. (٣) في الأصل وم: أخرجت. (٤) في الأصل وم: غباره. (٥) في الأصل وم: نمشي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: تظهر أو ان يكونوا، في م: تظهرون أو أن يكون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: هو.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ الوزرُ الحِمْلُ، وسُمِّيَتِ الآثامُ حِملاً، لأنَّ الآثامَ تَنْقُضُ ظُهورَ أصحابِها في النارِ، وتكبيرُها كالحِمْلِ يَنْقُضُ ظَهْرَ صاحِبِهِ، ويَكْبيرُهُ، وهو كما[1] ذَكَرَ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢ و٣].

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي في ذلك الوزرِ، أي لَنْ تُفارِقَهُمْ أوزارُهُمْ أبَدَ الآبِدينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ حِمْلُ السَّوءِ حِمْلٌ يُورِدُ صاحِبَهُ النارَ، بئسَ الحِمْلُ حِملٌ يُورِدُ صاحبَهُ النارَ. ويُقالُ: بئسَ ما حَمَلُوا على أنفسِهِمْ مِنَ الأعمالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ يَحْتَمِلُ الإعراضُ عنهُ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي كَفَرَ بِهِ، وكَذَّبَهُ، ولم يَلْتَفِتْ إليهِ. والثاني: ﴿أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي لم يَعْمَلْ بما فيهِ. ومَنْ لم يَعْمَلْ مِنَ المُسْلِمينَ بما فيهِ يَخافُ أنْ يكونَ في وَعيدِ هذهِ الآيةِ.

الآيتان ١٠٢ و١٠٣ وقولُـهُ تـعالـى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ قيلَ: يَتَسارُّونَ بَينهُمْ، ويَتَكَلَّمونَ في ما بَيْنَهُمْ كلاماً خَفِيّاً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ مِثْلُ هذا الكلامِ إنما يقولونَ تَلَهُّفاً وتَحَزُّناً على ما كانَ منهُمْ في وَقْتٍ قليلٍ لِاسْتِقلالِهِمْ واسْتِصغارِهِمُ الدنيا؛ يقولونَ: كيفَ كانَ منّا كلُّ هذا العَمَلِ في ذلكَ الوَقْتِ القليلِ؟ ثم اخْتَلَفوا في ذلكَ اللَّبْثِ الذي قالوا[2]. قالَ بعضُهُمْ: [ذلكَ][3] في الدنيا: اسْتَقَلُّوا مُقامَ الدنيا لمّا عايَنوا الآخرةَ. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ في القُبورِ. ويَسْتَدِلُّ مَنْ يُنكِرُ عذابَ القَبْرِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولُ لأنهمُ اسْتَقَلُّوا مُقامَهُمْ في القُبورِ، ولو كانَ لهمْ عذابٌ في ذلكَ لاسْتَعْظَموا ذلكَ، واسْتَكْثَروا، لأنَّ قليلَ اللَّبْثِ في العذابِ يُسْتَعْظَمُ، ويُسْتَكْثَرُ[4]، لا يُسْتَقَلُّ، ولا يُسْتَحْقَرُ. فلَمّا اسْتَقَلُّوا ذلكَ دلَّ أنهمْ لا يُعَذَّبونَ في القبورِ.

واسْتَدَلُّوا أيضاً بِنَفْيِ العذابِ [في القبرِ][5] بقولِهِ: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥٢].

ومَنْ يقولُ بِعذابِ القَبْرِ يَزْعُمُ أنَّ ذلكَ إنما قالوا في القَبْرِ؛ يقولُ: ذلكَ بينَ النَّفْخَتَيْنِ، يقولُ: هُمْ يُعَذَّبونَ، ويكونونَ في العذابِ إلى النَّفْخَةِ الأولى، ثم يُرْفَعُ عنهمُ العذابُ إلى النَّفْخَةِ الثانيةِ. عندَ ذلكَ يَرْقُدونَ، فَيَسْتَصْغِرونَ مُقامَهُمْ للنومِ؛ وقد يُسْتَصْغَرُ الوَقْتُ الطويلُ، ويُسْتَقَلُّ في حالِ النومِ على ما ذُكِرَ في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ حينَ قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وهُمْ قد أقاموا ثلاثَ مِئَةِ سَنَةٍ وزيادةً. وجائزٌ أنْ يكونَ [عَذابُ القبرِ][6] عذابَ عَرْضٍ، وعَذابُ الآخِرَةِ عَذابَ عَينٍ كقولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ﴾ [غافر: ٤٦] فاسْتَصْغَروا عَذابَ العَرْضِ، واسْتَقَلّوهُ عندَ مُعايَنَةِ عذابِ العَينِ.

ومَنْ يَقولُ ذلكَ في الدنيا يقولُ: تَحاقَرَتِ الدنيا في أعْيُنِهِمْ ومُقامُهُمْ فيها حينَ/ ٣٣٤ ـ ب/ عايَنوا الآخِرَةَ وأهوالَها.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ قولُهُ: ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾ قيلَ أعْقَلُهُمْ، وقيلَ: أفْضَلُهُمْ ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ مَنْ كانَ أبْصَرَ وأعلَمَ بأمورِ الآخِرَةِ وأهوالِها كانَ أكْثَرَ اسْتِخْفافاً بالدنيا واسْتِحْقاراً لها.

وفي [حَرْفِ][7] ابْنِ مَسْعودٍ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ﴾ عيلَ عليهِمْ أنْ ﴿يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾. قالَ أبو مُعاذٍ: قولُهُ: عيلَ عليهِمْ أي اشْتَبَهَ، وخَفِيَ، وفاتَهُمْ عِلْمُهُ، وقالَ: ومنهُ يُقالُ: عالَتِ الفريضةُ. يقولُ: هؤلاءِ إذا جاوَزَتِ السهامُ فَأشْكَلَ على الفارضِ، واشْتَبَهَ، ومنهُ قيلَ: عِيلَ صَبْري.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ سؤالُهُمْ عن أحوالِ الجبالِ في ذلكَ اليومِ لمّا بَيَّنَ أحوالَ الناسِ في الساعةِ بقولِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) أدرج في الأصل وم بعدها: ذلك (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: ويستنكر. (٥) في الأصل وم: فيه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

أَرْضَعَتْ﴾ الآية [الحج: ١و٢] وقولِهِ[1]: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢] وَصَفَ لهمْ أحوالَ الخَلْقِ في ذلكَ اليوم، ولم يَصِفْ أحوالَ الجبالِ والأرضِ. فَعِنْدَ ذلكَ سَألوهُ عنْ أحوالِ الجبالِ، فأمَرَ رسولَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ بما ذَكَرَ أنهُ ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ وما ذَكَرَ أيضاً في آيةٍ أُخرى ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] [وقولِهِ][2]: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤و٥] ونَحْوِهِ. فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ على اختِلافِ الأحوالِ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآيتان ١٠٦ و١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ قيلَ: لا وادياً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ ولا رابيَةً.

وقالَ بعضُهُمْ: العِوَجُ الارْتِفاعُ، والأمْتُ الهُبوطُ. وقالَ بعضُهُمْ: العِوَجُ انْحِناءُ الأودِيَةِ، والأمْتُ التِّلالُ. وقيلَ: لا انْخِفاضاً ولا ارْتِفاعاً [وقيلَ][3]: والقاعُ الصَّفْصَفُ، هو تفسيرُ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [وقولُهُ: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ تفسيرُ قولِهِ: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾][4].

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا خِلافَ[5] لهُ، ليسَ كالداعي في الدنيا؛ مِنْهمْ مَنْ يُطيعُهُ، ويُجيبُهُ، ومِنْهمْ مَنْ لا يُطيعُهُ، ولا يُجيبُهُ. فأخْبَرَ أنهمْ في الآخِرَةِ يُجيبونَ الداعيَ في أيِّ حالٍ كانوا؛ لا يُخالِفونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا تَخْشَعُ الأصواتُ، لكنْ تَنْخَفِضُ، وتَلينُ، عندَ خوفِ أهلِها، وتَرْتَفِعُ عندَ الأمْنِ. أو يكونُ خُشوعُ الأصواتِ كنايَةً عنهمْ، أي يَخْشَعونَ، ويَذِلّونَ، لِشِدَّةِ فَزَعِهِمْ لِأهوالِ ذلكَ اليومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قيلَ: الهَمْسُ الكلامُ الخَفِيُّ الذي لا تكادُ تَسْمَعُهُ. وقيلَ: وَقْعُ الأقدامِ ونَقْلُها، وهو تَحَرُّكُها.

قالَ أبو عَوْسَجَةَ: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٣] أي أخفَى صوتَهُ[6]، وقولُهُ: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [طه: ١٠٤] أي أفضَلُهُمْ. فأمّا ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ فإنَّ[7] القاعَ الأرضُ الصُّلْبَةُ التي لا شيءَ فيها، والصَّفْصَفُ المُسْتَوِيَةُ، والصَّفاصِفُ جَميعٌ، والقِيعانُ جَميعُ القاعِ وعِوَجٌ[8] و عَوَجٌ [واحدٌ][9] ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ والأمْتُ هو العِوَجُ، وهو التَّلُّ. وقولُهُ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي سَكَنَتْ، والهَمْسُ [الكلامُ][10] الخَفِيُّ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ ليسَ أنْ يكونَ لهمُ الشفاعةُ، فلا تَنْفَعُ، ولكنْ لا شافِعَ لهمْ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالشَّفاعةِ، إذْ[11] لا أحَدَ يَتَكَلَّمُ يومئذٍ إلّا بإذنِهِ فَضْلاً ألّا[12] يُؤْذَنَ لأحدٍ بالشَّفاعةِ كقولِهِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقولِ الشَّفاعةِ ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبإ: ٣٨].

والثاني: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ﴾ [وَفَّقَهُ الرحمنُ][13] بما يَسْتَوْجِبُ الشَّفاعَةَ لهُ ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ وسألَهُ ذلكَ، وهو قولُ الشهادةِ والتَّوحيدِ.

فَيَرْجِعُ أحدُ التأويلَيْنِ إلى الشُّفعاءِ: أنهُ لا أحَدَ يَشْفَعُ لأحدٍ إلّا مَنْ وَفَّقَ لهُ الرَّحْمَنُ في الدنيا بالتَّوحيدِ وشهادةِ الإخلاصِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَبْلَ أنْ يُخْلَقوا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بَعْدَ ما خُلِقوا، أو كانوا. أو أنْ يكونَ قولُهُ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما قَدَّمُوا مِنَ الأعمالِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ بعدِهِمْ أو أنْ يكونَ

---

(١) في الأصل وم: وكقوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: اختلاف. (٦) في الأصل وم: صورته. (٧) من م، في الأصل: قال. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: أن. (١٣) في الأصل وم: وقوله.

قولُهُ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ كنايةٌ عنِ الخيرِ، أي يَعْلَمُ ما يَعْمَلونَ مِنَ الخيراتِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الشُّرورِ وما نَبذوا وراءَ ظُهورِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ البَيْنِ والخَلْفِ الأحوالَ كلَّها، أي عالمٌ بجميعِ أحوالِهِمْ وبكلِّ شيءٍ يكونُ منهمْ. وهو كقولِهِ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. أي لا يأتيهِ الباطلُ البَتَّةَ، لأنهُ ليسَ للقرآنِ بَيْنٌ ولا خَلْفٌ، ولكنَّ المُرادَ ما ذكَرْنا فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنهُ ليسَ البَيْنَ ولا الخَلْفَ، ولكنَّ [المُرادَ][1] إخبارٌ عَنْ إحاطةِ عِلْمِهِ بهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما:][2] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ ولكنْ إنما يَعْرِفونَهُ على قَدْرِ ما تَشْهَدُ لهمُ الشواهِدُ مِنَ خَلْقِهِ، لأنَّ الخَلْقَ إنما يَعْرِفونَ رَبَّهُمْ مِنْ جهةِ ما يَشْهَدُ، ويَدُلُّ لهمْ مِنَ الدّلالاتِ مِنَ خَلْقِهِ. والإحاطةُ بالشيءِ إنما تكونُ بما كانَ سَبيلُ معرفتِهِ الحِسَّ والمُشاهداتِ. فأمّا ماكانَ سَبيلُ معرفتِهِ الاستِدْلالَ فإنهُ لا يُحاطُ بهِ العِلْمُ.

والثاني: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي بِعِلْمِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقولِهِ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ و ٢٧].

الآية ١١١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قيلَ ﴿وَعَنَتِ﴾ ذلَّتْ، وخَضَعَتِ ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الوُجوهِ كِنايةً عنْ أنفسِهِمْ لِما بالوُجوهِ تَظْهَرُ الذِّلَّةُ والخُضوعُ. فكَنّى بها عنهُمْ.

فإنْ كانَ ما أخْبَرَ مِنْ خُضوعِهِمْ وذُلِّهِمْ في الآخِرَةِ فهو على [ما][4] أخْبَرَ مِنْ خُضوعِ الخَلائقِ لهُ في الآخِرَةِ. وإنْ كانَ بعضُهُمْ يَتَكَبَّرُ في الدنيا، وإنْ كانَ [المُرادُ][5] في الدنيا، فهو على خُضوعِ الخِلْقَةِ لهُ؛ خَضَعَتْ خِلْقَةُ الخلائقِ كلِّهِمْ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قد ذكَرْنا تأويلَ الحيِّ القَيُّومِ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي قد خابَ مَنْ حَمَلَ الشِّرْكَ. والظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ. وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ما ذُكِرَ مِنَ الحِمْلِ والوِزْرِ، وهو ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠٠ و١٠١] أي خابَ مَنْ حَمَلَ ذلكَ الحِمْلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ أمْرِ الآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أمْرِ الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ﴾ يعني الملائكةَ ﴿عِلْمًا﴾ يقولُ لهمْ: لا يَعْلَمونَ مِنْ كلامِهِ إلّا ما عَلَّمَهُمْ إيّاهُ. فإنْ كانَ هذا في الملائكةِ خاصّةً فإنهُ لا يَحْتَمِلُ ما ذكَرْنا مِنَ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الشُّرورِ، وما نَبَذوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ لأنهمْ مُطيعونَ للهِ، لا يَعْصونَهُ طَرْفَةَ عينٍ، ويَحْتَمِلُ غيرَهُ مِنَ التأويلاتِ التي ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في الشفاعةِ ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ قولَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، مُسْلِماً في الدنيا مُؤمِناً حقًّا. فذلكَ الذي رَضِيَ، والشَّفاعةُ تَحِلُّ لهمْ. فأمّا غيرُهُمْ فلا يَشْفَعُ [لهمْ][6] وهو ما ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقالَ بعضُهُمْ [في قولِهِ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي عَمِلَتِ ﴿ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ وقالوا في تأويلِ ﴿وَعَنَتِ﴾ عَمِلَتْ أي خَضَعَتْ لهُ بالعَمَلِ في الدنيا على ما ذكَرَ بعضُهُمْ][7] مِنَ الرُّكوعِ والسُّجودِ والقيامِ وغيرِهِ. وهو في المؤمنينَ خاصّةً، ليسَ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ ﴿وَعَنَتِ﴾ أي عَمِلَتْ حقيقةً، ولكنْ مِنَ الوَجْهِ الذي ذكَرْنا. وإنْ كانَ التأويلُ في الآخِرَةِ فهو في الفَريقَينِ جميعاً، يَذِلُّونَ جميعاً، ويَخْضَعونَ في الآخِرَةِ، وإنْ كانَ مِنْ بعضِهِمُ التَّكَبُّرُ في الدنيا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فيه دَلالَةٌ / ٣٣٥ ـ أ/ أنهُ يَسْتَحِقُّ اسْمَ الإيمانِ بدونِ الأعمالِ الصالحاتِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وفيه أنَّ الإيمانَ شرطٌ في قبولِ الصالحاتِ وجَعْلِها طاعةً للهِ حينَ[2] شَرَطَ الإيمانَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ الظلمُ ههنا على ما ذَهَبْنا النُّقْصانُ، لا ظُلْمُ الجَورِ لأنَّ الثوابَ على الأعمالِ بِحَقِّ الإفضالِ لا بِحَقِّ العَدْلِ. فإذا كانَ على هذا فَيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ﴾ أنْ يُنْقِصَ مِنْ حَسَناتِهِ شيئاً أو يَزيدَ في سَيِّئاتِهِ شيئاً. ويجوزُ في اللغةِ ذِكْرُ الظلم على إرادةِ النقصانِ كقولِهِ في ذِكْرِ الجَنَّتَيْنِ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣] والجنةُ لا تُوصَفُ بالظُّلْمِ الذي هو ظُلْمُ جَورٍ. فَدَلَّ أنهُ أرادَ بالظُّلْمِ النقصانَ، أي لم تَنْقُصْ، بل آتَتْ ثمارَها وافِيَةً وافِرَةً.

وإنْ كانَ على الظُّلْمِ الذي هو ظُلْمُ الجَورِ فهو على النَّهيِ، أي لا تَخَفْ منهُ الظُّلْمَ والجَورَ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي كما ذَكَرْنا أنَّ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ في القرآنِ العَرَبِيِّ ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

حَرْفُ لَعَلَّ في جميعِ ما ذُكِرَ في القرآنِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على الوَعْدِ أنهمْ يَتَّقُونَ، فهو على الإيجاب.

والثاني: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ألْزَمَهُمْ أنْ يَتَّقُوا بما صَرَّفَ فيهِ منَ الوَعيدِ.

وإنْ كانَ على الوَعْدِ والإيجابِ منهُ فهو لِمَنْ عَلِمَ أنهمْ يَتَّقُونَ. وإنْ كانَ على الإلزامِ، أي ألْزَمَهُمْ فهو في الكُلِّ. ثم إنْ كانَ على الوَعْدِ فَيُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] إذا تَذَكَّرَ خَشِيَ، وإذا خَشِيَ تَذَكَّرَ. فَعَلَى ذلكَ إذ اتَّقى فَقَدْ أحدثَ لهُ الذِّكْرَ، وإذا أحْدَثَ لهُ الذِّكْرَ اتقى. وإنْ كانَ ألْزَمَهُمْ أنْ يَتَّقُوا فهو [على][3] أو. ثم قالَ بعضُهُمْ: ﴿ذِكْرًا﴾ أي عذاباً.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ مِثْلُ هذا إنما يُذكَرُ[4] على نوازِلَ كانَتْ إمّا قولاً أو فِعْلاً. يُقالُ: فَتَعالى اللهُ عنْ ذلكَ. لكنْ لم تُذكَرِ النوازِلُ، واللهُ أعلَمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ جبريلَ كانَ إذا أتاهُ بالسورةِ وبالآيِ فيَتْلُوها كُلَّها[5]، فلا يَفْرُغُ جبريلُ مِنَ التلاوةِ حتى يَتْلُوَها[6] رسولُ اللهِ ﷺ [مِنْ أوَّلِها][7] مَخافةَ أنْ يَنساها. فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ فَتَقرأهُ ﴿مِن قَبْلِ أَن﴾ يَفرُغَ مِنْ تلاوتِهِ عليكَ، وقد أمَّنَهُ مِنَ النِّسْيانِ بقولِهِ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] وقولِهِ:[8] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

ثم أمَرَهُ ﷺ أنْ يَسْألَهُ أنْ يزيدَ لهُ عِلْماً [بقولِهِ][9] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي لا تَعْجَلْ بما ذُكِرَ مِنَ الوعيدِ لهمْ في القرآنِ مِنْ قَبْلِ أنْ يأتِيَ وقتُهُ كقولِهِ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ][10] مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ جائزٌ ما قالَهُ أهل التأويلِ: انهُ كانَ يَتْلُو مع تلاوةِ جبريلَ، فقالَ لهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ إنْ ثَبَتَ عنهُ أنهُ كانَ يَتْلُو مع تلاوةِ جبريلَ: وجائزٌ النَّهيُ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ، على ما نَهى هو عنْ أشياءَ مِنْ [غيرِ][11] أنْ كانَ منهُ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م ساقطة من الأصل (٤) من م، في الأصل: يتذكر. (٥) في الأصل وم: عليها.
(٦) في الأصل وم: يتكلم. (٧) في الأصل وم: بأولها. (٨) في الأصل وم: وكذلك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قالَ الحَسَنُ وعامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي ضَيَّعَ، وتَرَكَ، ليسَ نِسْيانَ السَّهْوِ، لأنهُ عُوتِبَ عليهِ، وعُوقِبَ بهِ. ولا يُعاتَبُ المَرْءُ على ما هو حقيقةُ السَّهوِ والنِّسيانِ. فَدَلَّ أنهُ على التَّضييعِ والتَّرْكِ، ليسَ على النِّسيانِ والسَّهوِ. إلى هذا يذهبُ هؤلاءِ. لكنْ يَقْبُحُ هذا: أنْ يُقالَ في آدمَ أو في نَبِيٍّ مِنْ أنبيائِهِ أو في رسولٍ مِنْ رُسُلِهِ ﷺ إنه[1] ضَيَّعَ. والنِّسيانُ عندَنا على قسمينِ [أحَدُهما][2]: نِسيانٌ يكونُ عنْ غَفْلَةٍ منهُ وشُغْلٍ، ما لولا ذلكَ الشُّغْلُ منهُ والغَفْلَةُ، لَحَفِظَهُ، وذَكَرَهُ، ولا يَنْساهُ. [والمُعاتَبَةُ جائزةٌ][3] على هذا النِّسيانِ؛ إذْ لو كانَ تَكَلَّفَ لكانَ لا يَنْساهُ، ولا يَقَعُ فيهِ. [والثاني: نسيانٌ][4] يَقَعُ فيهِ مِنْ غيرِ سَبَبٍ، كانَ منهُ، لا يَمْلِكُ دَفْعَهُ. وذلكَ نِسيانٌ مالا يُعاتَبُ عليهِ، ولا يُعاقَبُ بهِ.

وهكذا الكُلْفَةُ مِنَ اللهِ تعالى والمِحْنَةُ؛ إنهُ جائزٌ أنْ يُكلِّفَ، ويَمْتَحِنَ مَنْ لا يَعْلَمُ، ولا يَعْقِلُ الكُلْفَةَ وَقْتَ تكليفِهِ إيّاهُ بَعْدَ أنْ يَحْتَمِلَ عَقْلُهُ إدراكَ ذلكَ لوِ اسْتَعْمَلَهُ.

فأمّا مَنْ كانَ عَقْلُهُ لا يَحْتَمِلُ إدراكَ ما كَلَّفَهُ، وإنِ اسْتَعْمَلَهُ، وأجْهَدَ نفسَهُ فيهِ، فإنهُ لا يُكَلَّفُ البَتَّةَ. فَعَلى ذلكَ النِّسيانُ الذي ذَكَرَ مِنْ آدمَ؛ جائزٌ أنهُ لو تَكَلَّفَ لَحَفِظَهُ[5] وذَكَرَهُ. فإنما عوقِبَ[6] لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قالَ الحَسَنُ: أي مَنْعاً مِنَ الشيطانِ. وقالَ بعضُهُمْ: صَبْراً ونَحْوَهُ. والعَزْمُ حقيقةُ القَصْدِ والقَطْعِ على الشَّيْءِ، وهو ضِدُّ النسيانِ الذي ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَزْمُ هو المُحافَظَةُ على أمْرِ اللهِ والتَّمَسُّكِ بهِ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي قالَ:

لولا صَرْفُ[7] أهلِ التأويلِ سجودَ[8] الملائكةِ لآدمَ إلى حقيقةِ السجودِ، وإلّا جائزٌ أنْ يُصْرَفَ الأمْرُ بالسجودِ والخُضوعِ لهُ. والسجودُ هو الخُضوعُ حينَ[9] ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] وقد يُؤْمَرُ الإنسانُ بالخُضوعِ لِمَنْ يَتَعَلَّمُ منهُ العِلْمَ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ليسَ شقاءَ الدينِ، ولكنْ تَعَبُ النفسِ والنَّصَبُ في العَمَلِ.

الآيتان ١١٨ و١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي لا تُصيبُكَ [الشمسُ][10].

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي لا يَفْنَى.

الآية ١٢١ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [طه: ١١١] أي ذَلَّتْ؛ يُقالُ: عَنا يَعْنُو عَنْواً. وقالَ ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] أي ظُلْماً؛ هَضَمْتُهُ، واهضَمْتُهُ مِثْلُهُ.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الهَضْمُ النُّقْصانُ، وقالَ: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٦] القاعُ الأرضُ التي يَعْلُوها الماءُ، وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا واللهُ، أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ كلُّ مَنْ عَصى رَبَّهُ فقد غَوَى. العِصْيانُ والغِوايةُ واحدٌ.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجائز المعاتبة. (٤) في الأصل وم: ونسيان آخر. (٥) في الأصل وم: حفظه. (٦) في م: عوتب. (٧) في الأصل وم: قول. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ وجُوهاً: أحَدُها: اجْتَبَاهُ للتوبةِ وهداهُ لَها. [والثاني:][1] اجْتَبَاهُ ربُّهُ للرسالةِ، وهَداهُ لها. [والثالثُ][2] اجْتَبَاهُ ربُّهُ للدينِ، وهَداهُ لِلتَّوحيدِ. وهذا جائزٌ عندَنا [لأنَّ][3] لِلتَّوحيدِ والإيمانِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ في كلِّ وَقْتٍ وكلِّ ساعةٍ لأنهُ مأمورٌ بِتَرْكِ الكُفرِ ونَفْيِهِ في كلِّ وقْتٍ. فإذا كانَ مأموراً بِتَرْكِ الكُفرِ في كلِّ وقْتٍ مَنْهِيّاً عنهُ كانَ مأموراً بالإيمانِ والتَّوحيدِ. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ للإيمانِ والتَّوحيدِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ، وفي كلِّ وقتٍ. وإلّا ظاهرُ قولِهِ: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أنهُ لم يكُنِ اجْتِباهُ قَبْلَ ذلكَ، فاجْتَباهُ مِنْ بَعْدُ. لكنَّ الوجْهَ ما ذَكَرْنا مِنَ اجْتِبائِهِ إياهُ لِلرِّسالةِ واجْتِبائِهِ لِلتَّوحيدِ والطاعاتِ والخَيراتِ ونَحْوِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وقالَ [في آيٍ أُخَر][4]: ﴿اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦و٣٨ والأعراف: ٢٤] عَنَى آدَمَ وحَوّاءَ وإبليسَ. والهُبوطُ ليسَ هو الانْحِدارَ والتَّسَفُّلَ / ٣٣٥ ـ ب/ مِنَ المكانِ العالي المرتفعِ. إنما هو النُّزولُ في المكانِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أرادَ ذُرِّيَّتَهُما: ذُرِّيَّةَ آدمَ وذُرِّيَّةَ إبليسَ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ يَعْني الذُّرِّيَّةَ ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في النارِ. واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الضَّنْكُ هو الشِّدَّةُ والضِّيقُ. ثم اخْتَلَفوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ في الدنيا، وإنْ كانَتْ واسِعَةً عليهِ، لأنهمْ يُنْفِقونَ، ولا يَرَونَ لِنَفَقَتِهِمْ خَلَفاً ولا عاقِبةً، ويَرَونَ [5] الدنيا تدومُ. فذلكَ يَمْنَعُهُمْ عنِ التَّوسيعِ في الإنفاقِ خَوفاً [مِنْ نَفادِ][6] ذلكَ المالِ وبَقاءِ أنفسِهِمْ لِما ذَكَرْنا أنهمْ لا يَرَونَ لِنَفَقَتِهِمْ خَلَفاً ولا عِوَضاً ولا عاقِبَةَ لها، فذلكَ الضَّنْكُ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لأنهمْ يُنَغَّصونَ [7] بما أُعْطوا مِنَ المالِ، وأُنْعِموا فيهِ، لأنَّ تَوَسُّعَهُمْ يكونُ في مَعْصِيَةٍ، فَنَفَى عَنْهُمُ الانْتِفاعَ بِهِ كما نَفَى عَنْهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ باسْتِعْمالِهِمْ هذه الجوارِحَ في المَعْصِيَةِ على قِيامِها لمّا ذهَبَتْ مَنافِعُها فيها[8].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ في عذابِ القَبْرِ. لكنْ لا يُقالُ لِمَنْ في القَبْرِ: إنَّ لهُ مَعيشةً ضَنْكاً حتى يُوصَفَ بالضِّيقِ. وعذابُ القَبْرِ سبيلُ مَعْرِفَتِهِ السَّمْعُ. فإنْ ثَبَتَ السَّمْعُ. وإلّا فالتَّرْكُ أَولَى.

وقالَ قائلونَ: ذلكَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: نَحْشُرُهُ أعمَى عن حُجَجِهِ في دينِهِ. لكنْ متى كانَتْ لهُ الحُجَجُ في الدنيا حتى يَعْمى عنها في الآخِرَةِ؟ وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ عَمَى الحقيقةِ كقولِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] فهو على حقيقةِ عَمَى البَصَرِ، وهو أشْبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٥ قالَ مُجاهدٌ: قولُهُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ قال: بلا حُجَّةٍ لي ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا. لكنَّ الأشبَهَ، هو ماذَكَرْنا مِنْ حقيقةِ ذهابِ البَصَرِ؛ إذْ لم يكُنْ للكافرينَ حُجَّةٌ في الدنيا حتى يقولَ ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ذلكَ بعدَ ما حُوسِبوا، وسِيقوا إلى النارِ، نعوذُ باللهِ مِنَ النارِ. فعندَ ذلك يَعْمى عليهِ البَصَرُ. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ يُبْعَثونَ مِنْ قبورِهِمْ، ويُحْشَرونَ عُمياناً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي كما أتَتْكَ آياتُنا، فَصَيَّرْتَها كالشيءِ المَنْسِيِّ عن رَحْمَتِهِ [لم تَكْتَرِثْ إليها، ولم تَنْظُرْ فيها، ولم تَرْغَبْ فيها، كذلكَ تَصيرُ في النارِ كالشيءِ المَنْسِيِّ عنْ رَحْمَتِهِ][9] لا يُكْتَرَثُ إليكَ، ولا يُنْظَرُ إليكَ. أو يقولُ: كما ضَيَّعْتَ آياتِنا التي أتَتْكَ لِنجاتِكَ كذلكَ تُضَيَّعُ أنتَ، وتُتْرَكُ في النارِ، لا نَجاةَ لكَ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) في الأصل وم: يريدون. (٦) في الأصل وم: النفاذ. (٧) في الأصل وم: يغصون. (٨) في الأصل وم: في الطاعة. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي كذلكَ نَجزي كلَّ مَنْ أسرفَ في الدنيا، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ ليسَ أحدٌ المخصوصَ بذلكَ دونَ غيرِهِ، ولكنْ كلُّ مَنْ كانَ[1] ضَيَّعَهُ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ كأنهُ قد سَبَقَ منهُ الوَعيدُ لهمْ في عذابٍ. ثم قالَ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مِنَ العذابِ الذي أُوعِدْتُم. وإلّا فَعَلى الابْتِداءِ لا يُقالُ هذا.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ جَميعُ ما ذَكَرَ في القرآنِ مِثْلُ هذا: [قولُهُ][2] ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦و..] [وقولُهُ][3] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [يوسف: ١٠٩و..] [وقولُهُ][4]: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ [الأنعام: ٦و..] وأمثالُهُ. كلُّهُ أنهُ قد بَيَّنَ لهمْ [ما][5] وراءَ ذلكَ، أي قد بَيَّنَ لهؤلاءِ أنهمْ قد وافَقُوا أولئكَ الذينَ أهْلَكَهُمْ مِنَ القُرونِ الماضيَةِ وما نَزَلَ بهمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ والآياتِ التي أَتَوا بها، وهُمْ آمِنونَ ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾.

فكيفَ أَمِنَ هؤلاءِ مِنْ عذابِ اللهِ موافَقَتَهُمْ أولئكَ في جميعِ صنيعِهِمْ؟ أو يقولُ: أفَلَمْ تَتَبيَّنْ لهمْ سُنَّتي في مَنْ كانَ قَبْلَهُمْ مِنَ القرونِ الماضيةِ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وردِّهِمُ الآياتِ، وهُمْ كانوا آمنينَ في مساكِنِهِمْ؟ فكيفَ أمِنَ هؤلاءِ مِنْ عذابِهِ، وقد ساوَوا أولئكَ في جميعِ صَنيعِهِمْ وفِعْلِهِمْ. وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أولُو[6] النُّهَى هُمُ الذينَ انْتَهَوا عمّا نَهاهُمُ اللهُ عنهُ، وهُمْ ذَوُو العقولِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ موضعٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي لا تَظْهَرَ للشمسِ، والظَّمأُ العَطَشُ، والضُّحى الحَرُّ، [وكذلكَ][7] قالَ أبو عُبَيْدَةَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١] ﴿وَطَفِقَا﴾ وعَلِقا واحدٌ؛ يُقالُ: عَلِقَ يَعْلَقُ عَلَقاً فهو عالِقٌ وطافِقٌ. وقالَ: يُقالُ: مِنَ الخَصْفِ خَصَفْتُ الخُفَّ إذا أنْعَلْتُهُ، ونَعَلْتُ الخُفَّ، وتُسَمَّى تلكَ [القطعةُ التي يُخْصَفُ بها][8] النَّعيلَةَ، والنَّعايِلُ جمعٌ. وقالَ ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] أي ضَيِّقَةً. قالَ أبو عُبَيْدَةَ: وكلُّ ضيقِ مَنْزِلٍ أو غيرِهِ فهو ضَنْكٌ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو على التَّقديمِ والتأخيرِ، أي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وأجلٌ مُسَمًّى لكانَ العذابُ لازماً لهمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يُلْزَمُ كلُّ إنسانٍ بما عَمِلَ، والأجَلُ[9] المُسَمَّى الساعةُ التي قالَ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ على غَيرِ التقديمِ والتأخيرِ، لكنهُ على الإضمارِ، أي ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ولكنْ سَيُلْزِمُهُمْ إلى أجلٍ مُسَمًّى، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

وقولُهُ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بما يكونُ بحَقِّ الإفضالِ أو توجيهِ الحكمةِ لكانَ العذابُ لازماً لهمْ.

وحقُّ الإفضالِ ما سَبَقَ منهُ الوعيدِ أنهُ يؤخِّرُهُ[10]. ولا يُقالُ في مَنْ[11] كانَ طريقةُ الإفضالَ: لِمَ تَفَضَّلْتَ؟ وأصلُ هذا: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لولا ما سَبَقَ مِنْ وَعْدِهِ أنهُ لا يُعَذِّبُ هذهِ [الأُمَّةَ][12] تَعْذيبَ إهلاكٍ وَقْتَ تَكْذيبِهِمُ الرسلَ وَرَدِّهِمُ الآياتِ، ولكنْ يُؤَخِّرُهُ[13] إلى أجلٍ مُسَمًّى، وهو ما ذَكَرْنا، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على أذاهُمْ بِلِسانِهِمْ مِنَ السَّبِّ والنِّسْبَةِ إلى السِّحرِ

---

(١) من م، في الأصل: هذا. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لأولي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ما. (١٢) من م: ساقطة من الأصل. (١٣) الهاء ساقطة من الأصل وم.

والجُنونِ والافْتِراءِ على اللهِ تعالى ونَحْوِهِ، وإنْ كانَ وَعدَهُ[1] أنهُ يَعْصِمُهُ منهمْ حتى لا يَقْدِروا على إتلافِهِ وإهلاكِهِ، لأنَّ في حِفْظِ نفسِهِ مِنَ الإتلافِ والإهلاكِ آيَةً مِنْ آياتِ رسالتِهِ؛ إذْ بَعَثَهُ إلى الفراعِنَةِ والجبابِرَةِ الذينَ كانَتْ هِمَّتُهُمْ وعادَتُهُمْ قَتْلَ مَنْ يُخالِفُهُمْ في شيءٍ وإهلاكَ مَنْ يَسْتَقْبِلُهُمْ بما يَكْرَهونَ. فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عَنْ إتلافِهِ وإهلاكِهِ وحِفْظُ نفسِهِ منهمْ أنهُ كانَ ذلكَ لِآيَةٍ في نفسِهِ.

وأمّا أذاهُمْ إيّاهُ باللسانِ فَلَيسَ[2] في حِفْظِهِ عنهُ آيَةٌ، لأنَّ ذلكَ ما [3] كانَ آيَةً. فهمْ وذلكَ ممّا لا يُؤَثِّرُ نَقْصاً في نَفْسِهِ أو شيئاً. ألا تَرَى أنهمْ قالوا في اللهِ ما لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ وغَيرِهِ؟ فَدَلَّ انهُ ليسَ في حِفْظِ نفسِهِ عنْ أذاهُمْ بِلِسانِهِمْ آيَةٌ. إنما الآيَةُ في ما ذَكَرْنا مِنْ حِفْظِ نَفْسِهِ مِنَ الإتلافِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: صَلِّ بأمْرِ ربِّكَ. وتأويلُ قولِهِمْ هذا: صَلِّ بأمْرِ ربِّكَ لأنهُ أمَرَهُ أنْ يُصَلِّيَ لهُ[4] بقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [هود: ١١٤و..] وقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣و..] فيكونُ قولُهُ: ﴿وَسَبِّحْ﴾ أي صلِّ بأمرِ ربِّكَ الذي أمَرَكَ بقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ /٣٣٦ ـ أ/ التسبيحَ في هذهِ الآيَةِ إلى الصلاةِ، وإلّا يجوزُ أنْ يُصْرَفَ إلى غَيرِها مِنَ الأذكارِ في كلِّ وَقْتٍ. لكنْ صَرَفوهُ إلى الصلاةِ، لأنَّ الصلاةَ تَشْتَمِلُ على مَعانٍ قَولاً وفِعْلاً، وسائرَ الأذكارِ لا تَشْتَمِلُ إلّا على مَعْنَى الذِّكْرِ قَولاً. فهيَ أجْمَعُ وأشْمَلُ لِذِكْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قَبْلَ صلاةِ الفَجْرِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةُ العَصْرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [صلاةُ][5] الظهرِ والعَصْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ﴾ قيلَ: صلاةُ الفَجْرِ والعَصْرِ، فهو على التكرارِ والإعادةِ تأكيداً كقولِهِ ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] [ذَكَرَ الصلواتِ كلَّها][6] ثم خَصَّ الصلاةَ [الوُسْطَى بالذكرِ لِتأكيدِ المَعْنَى][7] وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تَكراراً منهُ لِصلاةِ الفَجْرِ والعَصْرِ [لتأكيدِ المَعْنَى][8] وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ ليسَ[9] على إرادةِ وَقْتٍ دونَ وَقْتٍ، ولكنْ يُريدُ بهِ الأوقاتَ كلَّها. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قَولُ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةُ الظهرِ والعَصْرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بالنَّصْبِ والرَّفْعِ جميعاً[10] أي يُرضيكَ ربُّكَ بما عَمِلْتَ، أو يَرْضَى بذلكَ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هذه الآيَةُ تَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تَرْغَبَنَّ في هذه الدنيا، ولا تَرْكُنَنَّ إلى ما مَتَّعْنا هؤلاءِ مِنْ ألوانِها وبُهْرَتِها. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ﴾ الآيَة [التوبة: ٨٥].

والثاني: قولُهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ على حقيقةِ مَدِّ البَصَرِ، أي لا تَمُدَّنَّ بَصَرَكَ إلى أعْيُنِ الدنيا وإلى ظاهرِ ما هُمْ عليهِ مِنَ الغُرورِ والتَّزْيينِ. ولكنِ انْظُرْ إلى الدنيا إلى ما جُعِلَتِ الدنيا وإلى ما فيها مِنْ سُمومِها وتَنْغيصِها على أهلِها؛ فإنَّ مَنْ نَظَرَ إليها لِما فيها مِنْ سُمومِها وتَنْغيصِها زَهِدَ[11] فيها، ورَغِبَ عنها، ومَنْ نَظَرَ إليها وإلى عَيْنِها وظاهِرِ ما هي عليها مِنَ الغُرورِ والتَّزْيينِ لاَغْتَرَّ بها، ورَغِبَ فيها، ورَكَنَ إليها. ومَنْ نَظَرَ إلى حقيقةِ ما هي عليهِ، وجُعِلَتْ، على ما ذَكَرْنا زَهِدَ[12] فيها، ورَغِبَ عنها.

ثم معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ يَمُدُّ بَصَرَهُ إلى الدنيا، أو يَرْكُنُ إليها، ويَرْغَبُ فيها لها. ولكنْ[13] إنما هو ابْتِداءُ نَهْيِ رسولِهِ.

ومعلومٌ أيضاً أنهُ لو رَغِبَ في شيءٍ منها لم يكُنْ يَرْغَبُ لِيَتَمَتَّعَ هو بهِ. إنما يَرْغَبُ، ويَتَناوَلُهُ لِيُوَسَّعَ بهِ على أهلِ الحاجةِ

---

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لو. (٤) من م، في الأصل: لله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: لمعنى، في م: بالذكر لمعنى. (٨) في الأصل وم: لمعنى. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: انه. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٢٠. (١١) من م، في الأصل لذهب. (١٢) في الأصل وم: لزهد. (١٣) في الأصل وم : و.

والفقرِ، ثم نَهاهُ عنْ ذلكَ. فَدَلَ أنَّ الزُّهْدَ فيها والرَّغْبَةَ عنها خَيرٌ مِنَ الأخذِ منها والوضعِ في [المُستحقِّينَ][1] نَهاهُ عنْ ذلكَ على عِلْمٍ منهُ أنهُ لا يَتَناوَلُهُ[2] لِيَتَمَتَّعَ هو بهِ، لِيُوسِّعَ بهِ على نَفْسِهِ، ولكنْ [يأخُذُهُ لِيَضَعَهُ في المُستحقِّينَ لهُ][3].

ثم اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في التقديمِ والتأخيرِ. قالَ الحَسَنُ: هو على تقديمِ قولِهِ: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ يقولُ: تأويلُهُ: لا تَمُدَّنَّ عينَيكَ إلى ما مَتَّعْنا بهِ أزواجاً زَهْرَةَ الحياةِ الدنيا. فَعَلَى تأويلِهِ: أزواجاً زَهْرَةَ الحياةِ الدنيا: أي ألواناً وأصنافاً مِنَ النباتِ. فذلكَ زَهْرَةُ الحياةِ الدنيا.

قالَ بعضُهُمْ: على غَيرِ تقديمٍ، ولكنْ على سِياقِ ما ذُكِرَ في الآيةِ. فَعَلَى هذا يكونُ تأويلُ الأزواجِ أي رجالاً منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي لِنَبْتَلِيَهُمْ، ونَخْتَبِرَهُمْ. وكأنَّ الفِتْنَةَ، هي المِحْنَةُ التي فيها شِدَّةٌ وبلاءٌ. كأنهُ أخبَرَ أنهُ إنما مَتَّعَهُمْ بما مَتَّعَ مِنْ زَهْرَةِ الحياةِ الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ فيها بالشدائدِ كقولِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥٥].

وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقالَ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ففي[4] هذهِ الآياتِ دلالةٌ أنَّ السَّعَةَ والضِّيقَ فيها ليسَ لِفَضْلِ أهلِهِ ولأهوائِهِمْ. ولكنْ إنما هو مِحْنَةٌ؛ يَمْتَحِنُهُمْ، فَيَمْتَحِنُ [بعضَهُمْ][5] بالسَّعَةِ والغِنَى، وبعضَهُمْ بالشِّدَّةِ والضِّيقِ. فالتَّكَلُّمُ بأنَّ هذا خَيرٌ مِنْ هذا [وهذا أفضَلُ مِنْ هذا][6] لا مَعْنَى لهُ معَ ما ذَكَرْنا مِنَ البيانِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أنَّ الزهدَ في الدنيا وتَرْكَ التناوُلِ منها حَلالاً[7] خَيرٌ مِنَ التناولِ منها [حلالاً ووضعِهِ في مَوضِعِهِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي ما رَزَقَكَ ربُّكَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ والتوحيدِ لهُ والإيمانِ بهِ خَيرٌ وأبقى مما مَتَّعَ هؤلاءِ مِنْ ألوانِ زَهْرَةِ الحياةِ الدنيا وأصنافِها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي حَظُّكَ مِنْ ربِّكَ خَيرٌ في الخيرِ في البَقاءِ مِمّا مَتَّعَ بهِ هؤلاءِ مِنْ زَهْرَةِ الدنيا. وهو قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ نَزَلَ بهِ ضَيفٌ، فاسْتَلَفَ مِنْ يَهوديٍّ طعاماً[9]، فَأَبَى أنْ يُعْطِيَهُ إلّا أنْ يَرْهَنَ دِرْعَهُ عندَهُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية تَعْزِيَةً لهُ عنِ الدنيا. لكنْ لسنا نَعْرِفُ [سَبَبَ][10] نزولِ الآيةِ على ما ذُكِرَ إلّا أنْ يُثْبَتَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بأهلِهِ قَوْمَهُ. وقد يُسَمَّى قومُ الرسُلِ أهلَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بالأهلِ الذينَ تأَهَّلَهُمْ، وكانوا في عِيالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي داوِمْ عليها، والزَمْها. فيهِ أنَّ الصلاةَ فُرِضَتْ على الدوامِ عليها واللُّزومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا[تَسألُ لِلخَلْقِ][11] رِزْقاً، بل نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لأهلِ التَّقْوى كقولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ سألوهُ أنْ يأتِيَهُمْ بآيةٍ مِنْ عندِ ربِّهِ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، فقالَ ﷻ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قد أتاهُمْ بِبَيِّنَةٍ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ ﴿مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لأنَّ الكُتُبَ المُتقدِّمَةَ كانتْ بِغَيرِ لسانِ رسولِ اللهِ، ولم يكُنْ يَعْرِفُ الكتابةَ بلسانِهِ فَضْلاً [عنْ أنهُ لم][12] يَعْرِفْ غَيرَها مِنَ الكُتُبِ التي كانتْ على غَيرِ لسانِهِ.

---

(١) في الأصل وم: الحق حيث. (٢) في الأصل وم: ليتناولها لها. (٣) في الأصل وم: يأخذها ليضع في المحقين لهم. (٤) من م، في الأصل نهي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والغناء. (٧) في الأصل وم: حلال. (٨) في الأصل وم: حلال ووضعها موضعها. (٩) في الأصل وم: طعام. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نسألك الخلق. (١٢) في الأصل وم: من أن.

ثم أخبَرَ عنِ الأنباءِ التي كانَتْ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ على ما كانَتْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ تلكَ الأنباءَ والقِصَصَ التي كانَتْ في كُتُبِهِمْ باللهِ تعالى. فهذا، واللهُ أعلَمُ، تأويلُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قد أتاهُمْ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي مِن قَبْلِ رسولِهِ ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: ليسَ للهِ أنْ يُعذِّبَهُمْ تعذيبَ إهلاكٍ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ رسولاً، ويَحْتَجُّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

وعندنا لهُ أنْ يُهْلِكَهُمْ بعذابٍ قَبْلَ الرسولِ إليهِمْ، لأنهُ تعالى قد أقامَ عليهِمْ حُجَّةَ العقلِ ما لو تأمَّلوا، ونَظَروا فيهِ، لَعَرَفوا، وأدرَكوا حقَّ اللهِ عليهِمْ. فإذا كانَ كذلكَ كانَ[1] إهلاكُهُ إياهُمْ إهلاكاً عنْ بَيِّنَةٍ وحُجَّةٍ. لكنهُ بِفَضلِهِ ورحمَتِهِ لا يُهْلِكُهُمْ بأوَّلِ آيةٍ يُرسِلُها[2] عليهِمْ حتى يُرْسِلَ الآياتِ إفضالاً منهُ ومِنَّةً. وإلّا كانَ لهُ إهلاكُهُمْ بآيةٍ واحدةٍ، فيكونُ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ [لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾][3] إنما ذلكَ لِقَطْعِ ذلكَ القولِ منهُمْ لا أنْ كان لهمْ ذلكَ القولُ والاِحتِجاجُ بذلكَ، ولأنَّ قولَهُ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ [لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾][4] يَخْرُجُ مُخْرَجَ الاِمتِنانِ أنهُ لم يُهْلِكْهُمْ قَبْلَ بَعْثِ الرسلِ. فَدَلَّ أنَّ لهُ إهلاكَهُمْ قَبْلَ بَعْثِ الرسولِ لِما ذَكَرْنا مِنْ إقامَةِ حُجَّةِ العَقْلِ عليهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ كانوا يَتَرَبَّصونَ هلاكَ رسولِ اللهِ وانقِلابَ / ٣٣٦ - ب/ أمرِهِ، ورسولُ اللهِ يَتَرَبَّصُ بهِمْ عذابَ اللهِ ومَواعيدَهُ فيهِمْ.

قالَ الحَسَنُ: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي تربَّصوا مَواعيدَ الشيطانِ، ونحنُ نَتَرَبَّصُ مواعيدَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [أي[5] فَستَعْلَمونَ في الآخرةِ عِلْمَ عِيانٍ ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾][6] نَحْنُ أو أنتُمْ.

وفي الدنيا لو تأمَّلوا، ونَظَروا، لَعَلِموا عِلْمَ اسْتِدلالٍ وإدراكٍ ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ والصراطُ السَّوِيُّ: قالَ بعضُهُمْ: العَدْلُ، وقيلَ[7]: السَّوِيُّ القَيِّمُ.

وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ومَنْ على الهُدَى، واللهُ أعلمُ. والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

---

(١) في الأصل وم: فكان. (٢) في الأصل وم: يرسل. (٣) في الأصل وم: كذا. (٤) في الأصل وم: كذا. (٥) في م: قوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: قال.

سورة الأنبياء عليهم السلام

كلُّها مكيةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي مُحاسَبَتُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ ظاهرُ هذا أنهُ نَزَلَ في المُشْرِكينَ لأنها نَزَلَتْ بمكةَ، وكانَ أكْثَرُ أهلِها أهلَ شِرْكٍ. لكنْ لِأهلِ الإسلامِ في ذلكَ [حظٌّ وشِرْكٌ في ما وَصَفَهُمْ بالغَفْلَةِ عَنْ ذلكَ][1] والإعراضِ عنهُ.

وأهلُ الإسلامِ قد يَغْفُلونَ عنِ الحسابِ، إلّا أنَّ غَفْلَةَ أهلِ الكُفرِ غَفْلَةُ تكذيبٍ، وإعراضَهُمْ إعراضُ تكذيبٍ بالحسابِ والآياتِ التي أنزَلَها عليهِمْ. وغَفْلَةَ أهلِ الإسلامِ ليسَتْ كذا؛ قد آمَنوا بالحسابِ، وصَدَّقوا بآياتِهِ، وعَرَفوها، لكنهمْ غَفَلوا عنِ الحسابِ لِشَهواتٍ مُكِّنَتْ فيهِمْ، وغَلَبَتْ شَهواتُهُمْ، وأغْفَلَتْهُمْ عنهُ [فهمْ مِنْ][2] هذهِ الجهةِ كأولئكَ. فأمّا مِنْ جِهَةِ الإيمانِ بهِ والتصديقِ بالآياتِ فَلَيسوا كأولئكَ.

ثم وصفُ الحسابِ والساعةِ بالقُرْبِ والدُّنُوِّ والإتيانِ كقولِهِ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقولِهِ[3]: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ وأمثالُهُ. هي قريبةٌ كالمَأْتِيَّةِ عندَ اللهِ تعالى عَرَّفَ جملةَ الأوقاتِ، فهي في جملةِ ما عَرَّفَ قريبةٌ كالمَأْتِيَّةِ.

وأمّا الخَلْقُ [فإنهمْ قدِ استَبْعَدوها لأنهمْ][4] إنما يُقَدِّرونَ ذلكَ بآجالِهِمْ وأعمارِهِمْ، وما جاوَزَ أعمارَهُمْ فهو عندَهمْ بعيدٌ ليسَ بقريبٍ. وهذا إنما يكونُ بَعْدَ ذهابِ أعمارِهِمْ.

وقالَ قَتادةُ: ذُكِرَ أنهُ لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ والآيةُ[5]: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١] قالَ ناسٌ مِنْ أهلِ الضّلالِ: يَزْعُمُ هذا الرجلُ أنَّ الساعةَ قدِ اقْتَرَبَتْ، فَتَناهَوا قليلاً، ثم عادوا إلى أعمالِهِمْ[6]. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] تناهَوا عنها. ثم لمّا تَأَخَّرَ ذلكَ عنهمْ عادوا إلى ما كانوا مِنْ قَبْلُ. هذا لأنهمْ فَهِموا مِنْ قُرْبِ الساعةِ وإتيانِ أمرِهِ وَقْتاً يَقْرُبُ، ومُدَّةً تَدْنو. فلمّا مَضَى ذلكَ وقَعَ عندَهُمْ أنَّ الخَبَرَ كَذِبٌ، فَكَذَّبوهُ لأنهمْ إنما قَدَّروهُ بآجالِهِمْ وما عَرَفوا هُمْ مِنَ القُرْبِ والدُّنُوِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ غَفْلَةِ تكذيبٍ وإعراضِ تكذيبٍ بَعْدَ ما عَرَفوا أنها آياتُ اللهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ مُحكَمٍ أحْكَمَهُ مِنْ أنْ يأتِيَهُ الباطلُ مِنْ بَينِ يَدَيهِ أو[7] مِنْ خَلْفِهِ، وأحْكَمَهُ لمّا أعْجَزَ الخَلْقَ عنْ أنْ يَأتوا بِمِثْلِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ لأنَّ اللهَ أنْزَلَ هذا القرآنَ بالتفاريقِ، وأحْدَثَ إنزالَهُ في كلِّ وقْتٍ على قَدْرِ الحاجَةِ.

فَعَلى ما نَزَلَ بالتَّفاريقِ أحْدَثوا هُمْ؛ أعني الكَفَرَةَ تَكْذيبَهُ ورَدَّهُ على ما ذَكَرَ ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٥] ونَحْوِهِ. فهو مُحْدَثٌ مِنَ الوُجوهِ التي ذَكَرْنا، لأنَّ كلَّ مَوصوفٍ بالإتيانِ فهو مُحْدَثٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فمن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: أعمارهم. (٧) في الأصل وم: ولا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أنَّ استِماعَهُمْ إيّاهُ استِماعُ استِهزاءٍ بِهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الذي أسَرُّوا في ما بَينَهُمْ ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ هذا كانَ نَجواهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ قيلَ: غافِلَةً قلوبُهُمْ عنِ الذِّكْرِ ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الذي أسَرُّوهُ هو ما ذَكَرْنا قولُهُمْ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ السِّحْرَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: وأسَرُّوا النَّجْوَى الذينَ كَفَروا منهُمْ. وقالَ الكِسائِيُّ: وفي بَعْضِ الحروفِ ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قالَ: وفي حَرْفِنا ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ ثم أخبَرَ ﷻ عنهمْ خَبَراً مُستأنفا، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كقولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: ٧١] ثم قالَ: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ﴾ وهذا على كلامَينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ القَولَ الذي أسَرُّوا في ما بَينَهُمْ ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ﴾ وقولُهُ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وقولُهُ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الآية: ٥] وأمثالَ ما قالوا فيهِ، ونَسَبوهُ إليهِ، أي قُلْ لهمْ: ربّي يَعْلَمُ ذلكَ القولَ منكُمْ في السماءِ والأرضِ لِتَنْتَهوا عنْ ذلكَ، لأنَّ مَنْ يَعْلَمُ في الشاهِدِ أنَّ أحداً يَطَّلِعُ على جميعِ ما يَختارُهُ مِنَ القَولِ والفِعْلِ تَرَكَ ذلكَ، وامْتَنَعَ عنِ التَّفَوُّهِ بِهِ والإقدامِ على ما يَختارُهُ، أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ على الابْتِداءِ والائْتِنافِ أنهُ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميعُ لِقولِهِمْ، العَليمُ بأفعالِهِمْ.

الآية ٥ ثم أخبَرَ عنْ سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ نَظَرِهم في قولِهِمْ وكلامِهِمْ وحِفْظِهِمْ عنِ التَّناقُضِ، فقالَ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ في ما نَسَبوهُ إلى الشِّعْرِ والسِّحْرِ والافْتِراءِ وأنهُ أضغاثُ أحلامٍ: تَناقُضٌ في قولِهِمْ، لأنَّ السِّحْرَ هو غيرُ الافْتِراءِ، والسِّحْرَ غيرُ أضغاثِ الأحلامِ، كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذه الحروفِ التي نَسَبوها[1] إليهِ يُناقِضُ الآخَرَ، ويُبْطِلُهُ. فَدَلَّ أنهمْ إنما قالوا ذلكَ، ونَسَبوهُ إلى ما نَسَبوا مُتَعَنِّتِينَ مُكابِرينَ لا عَنْ معرفةٍ وعِلْمٍ قالوا ذلكَ. وتَناقَضَ[2] قولُهُمْ وكلامُهُمْ؛ إذِ السِّحْرُ لا يَدومُ، ولا يَبْقى في وَقْتٍ آخَرَ.

فإذا عَرَفوا، وعَلِموا أنهُ دائمٌ، ويَبْقى إلى آخِرِ الدهرِ، وكذلكَ ما قالوا مِنْ أضغاثِ الأحلامِ والافْتِراءِ، أعني ما أتى رسولُ اللهِ ﷺ [دامَ، وبَقِيَ، وأنهُ][3] لو كانَ ما أتاهُمْ بهِ سِحْراً كانَ ذلكَ آيةً وعلامةً على صِدْقِهِ ونُبُوَّتِهِ، لأنَّ السِّحْرَ لا يَعْرِفُهُ أحدٌ إلّا بالتعليمِ. فإذا رَأَوْهُ نَشَأَ بَينَ أظْهُرِهِمْ، ولم يكُنْ في قومِهِ ساحرٌ حتى يَتَعَلَّمَ منهُ/ ٣٣٧ ـ أ/ ولا[4] اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِنَ السَّحَرَةِ يَتَعَلَّمُ منهُ السِّحْرَ، ثم أتى بهِ، كانَ[5] ذلكَ يَدُلُّ على أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

فكيفَ وقد أتاهُمْ بالحُجَجِ النَّيِّرَةِ الواضحَةِ والآياتِ المُعْجِزَةِ الخارجةِ عنْ وُسْعِ البَشَرِ وطَوْقِهِمْ؟ لكنهمْ كابَروا، وعانَدوا في رَدِّها وتَكْذيبِها، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قد عَلِموا عِلْمَ حقيقةٍ أنهُ قد أتاهُمْ بآياتٍ وحُجَجٍ ما لو تأمَّلوا فيها، ولم يُكابِروا، لَدَلَّتْهُمْ على صِدْقِهِ ورسالَتِهِ، وقد عَرَفوا أنهُ صادقٌ. لكنهُمْ سألوا في قولِهِمْ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ الآيةَ التي تَنْزِلُ عندَ المُكابَرَةِ والعِنادِ، وهي الآيةُ التي نَزَلَتْ في الأُمَمِ الخاليةِ عندَ مُكابَرَتِهِمُ الآياتِ والحُجَجَ، وهي إهلاكُهُمْ واسْتِئصالُهُمْ؛ إذْ مِنْ سُنَّتِهِ وحُكْمِهِ في الأوَّلينَ الإهلاكُ والاسْتِئْصالُ عندَ مكابَرَتِهِمُ الآياتِ والحُجَجَ. وسُنَّتُهُ وحُكْمُهُ في هذهِ الأُمَّةِ خَتْمُ النُّبُوَّةِ بهِمْ وإبقاءُ شريعةِ محمدٍ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، إلى الساعةِ.

وسُنَّتُهُ في الأُمَمِ الماضيةِ نَسْخُ شرائعِهِمْ واسْتِبْدالُ أحكامِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: نسبوه. (٢) في الأصل وم: إذ تناقض. (٣) في الأصل وم: بهم ويعد فانه. (٤) من م، في الأصل: ولما. (٥) في الأصل وم: لكان.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا جَعَلَ وقتَ إهلاكِهِمُ الساعةَ، وهو ما قالَ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الآية [القمر: ٤٦].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ سألوا الآيةَ سُؤالَ مُكابَرَةٍ وعِنادٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يُؤمِنُ هؤلاءِ، وإنْ آتاهُمْ بآيةٍ فإنهمْ لا يُؤمِنونَ كما لم يُؤْمِنْ أولئكَ المُتَقدِّمونَ، لأنهمْ يَسْألونَ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ واسْتِهْداءٍ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ كأنَّ هذا خَرَجَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ كذا، وجوابَ قولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وجوابَ قولِهِمْ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ فقالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي بَشَراً نوحي إليهِمْ إلى عامَّةِ الخَلْقِ؛ أي الرسالةُ في الأممِ الذينَ منْ قَبْلِهِ إلى عامَّةِ الخَلْقِ كانَتْ في البَشَرِ. لم تَكُنْ في الملائكةِ، وإلّا كانَتِ الرسالةُ إلى الخَواصِّ في الملائكةِ، وهُمُ الرسلُ. فَعَلَى ذلكَ لا تُجعَلُ الرسالةُ في هذهِ الأمَّةِ إلى عامَّةِ الخَلْقِ في الملائكةِ، ولكنْ تُجعَلُ في البَشَرِ على ما جَعَلَ في الأُمَمِ الأولى في البَشَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي [جَعَلْنا الرسالةَ][1] في الذكورِ منهمْ، لم يَجْعَلْها في النساءِ والإناثِ لِما لم يَسْتَكْمِلْنَ شرائِطَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ. فكانَ الأوَّلُ في بَيانِ الجِنْسِ؛ أي لم يَجْعَلِ الرسالةَ إلى عامَّةِ الخَلْقِ إلى الملائكةِ، ولكنْ جَعَلَها في البَشَرِ. والثاني في بَيانِ اسْتِكْمالِ شرائِطِ الرسالةِ واسْتِحْقاقِها.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: وما أَرْسَلْنا قَبْلَهُ إلّا رجالاً نوحي إليهِمْ. فَعَلَى حَرْفِهِما كأنهُ خاطَبَ بِهِ أولئكَ الكَفَرَةَ، أي ما أَرْسَلْنا قَبْلَ محمدٍ إلّا رجالاً نوحي إليهِمْ. وفي القراءةِ الظاهرةِ المشهورةِ يكونُ الخِطابُ لرسولِ اللهِ، أي قُلْ لهمْ: إنهُ ما أرسلَ اللهُ مِنْ قَبْلِكَ إلّا رجالاً يُوحَى[2] إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما خاطَبَ بِهِ مُشْرِكي العَرَبِ، وأمَرَهُمْ أنْ يَسْألوا أهلَ الكتابِ الذينَ كانوا يؤمِنونَ بالرسلِ المُتَقدِّمَةِ لِيُخبِروكُمْ أنهُ لم تُجْعَلِ الرسالةُ فيهِم إلى عامَّةِ الخَلْقِ إلّا في البَشَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنما خاطَبَ بِهِ مَنْ كَفَرَ مِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ لا يَعْرِفُ الكتابَ وغَيْرَهُ بمحمدٍ أنِ اسْألوا أهلَ الذِّكْرِ أي مَنْ آمَنَ منهمْ لِيُخبِروكُمْ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ إليكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتمْ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ خاصَّةً. والتأويلُ الأوَّلُ في جميعِ الرسلِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما جَعَلْناهُمْ[3] أجساداً، لا أرواحَ فيها، لا يَأكلونَ، ولا يَشْرَبونَ. ولكنْ جَعَلْناهُمْ أجساداً فيها أرواحٌ، يَأكلونَ، ويَشْرَبونَ، ويَمْشونَ في الأسواقِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ مِنْ نَحْوِ الملائكةِ والجِنِّ، ولكنْ جَعَلْناهُمْ بَشَراً.

وحاصِلُهُ أنهمْ كانوا يَطْعَنونَ الرسلَ بأشياءَ؛ مَرَّةً قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ومَرَّةً طَعَنوا الرسلَ أنهمْ كانوا يأكلونَ الطعامَ، ويَشْرَبونَ، ويَنْكِحونَ، ويَمْشونَ في الأسواقِ كغَيْرِهِمْ مِنَ الناسِ كقولِهِمْ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] ونَحْوَهُ. فَأَلْزَمَهُمْ ﷻ وأخبَرَهُمْ أنَّ الرسلَ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ كانوا يَأكلونَ، ويَشْرَبونَ، ويَمْشونَ، ويَقْضونَ حوائِجَهُمْ حينَ[4] قالَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا، وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

فَعَلَى ذلكَ هذا الرسولُ المَبْعوثُ إليكُمْ هو كسائِرِ الرسلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ؛ هو مِمَّنْ يأكُلُ، ويَشْرَبُ، ويَنْكِحُ، وهو رسولٌ، وإنهُ بَشَرٌ كسائِرِ الرسلِ. وهو رسولُ اللهِ. على هذا يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ.

(١) في الأصل: جعلنا، في م: جعلها. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٣٠. (٣) في الأصل وم: جعلنا. (٤) في الأصل وم: حيث.

وهذه الآيةُ تَرُدُّ على الباطِنِيّةِ قولَهُمْ ومذهَبَهُمْ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الرسالةَ لا تكونُ في الجوهَرِ الكثيفِ الجَسَدانيّ الذي يأكُلُ، ويَشْرَبُ، ويَفْنَى، ويَبِيدُ، إنما يكونُ في الجوهَرِ البَسيطِ الذي لا يأكُلُ، ولا يَشْرَبُ، ولا يَبِيدُ، ولا يَفْنَى. فأخبَرَ ﷻ أنهُ لم يَجْعَلْهُمْ أجساداً[1]، لا يأكُلونَ الطعامَ، ولا يَبيدونَ، بل جَعَلَهُمْ أجساداً يأكُلونَ، ويَموتونَ، بقولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أخبَرَ أنهُ وَعَدَ الرسلَ وَعْداً لكنهُ لم يُبيِّنْ ما كانَ ذلكَ الوعدُ الذي وَعَدَ رسلَهُ. لكن في آخِرِهِ بيانٌ أنَّ الوَعْدَ الذي وَعَدَهُمْ كانَ وَعْدَ إهلاكٍ وتعذيبٍ لأنهُ قالَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أنَّ الوَعْدَ كانَ وَعْدَ إهلاكٍ. فنقولُ كانَ وَعَدَ ﷺ الرسلَ الذينَ[2] مِنْ قَبْلُ مِنْ إهلاكِ مَنْ كَذَّبَهُمْ، فكانَ كما وَعَدَ، وإنْ تأخَّرَ ذلكَ الموعودُ عَنْ وقْتِ الوَعْدِ. فَعَلَى ذلكَ ما وَعَدَكُمْ محمدٌ مِنَ العذابِ فإنهُ نازلٌ بكمْ، وإنْ تأخَّرَ نُزولُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ ما يُذَكِّرُكُمْ ما تأتونَ، وتتَّقونَ، أو يُذَكِّرُكُمْ مالكُمْ وما عليكُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ أي شَرَفُكُمْ ونُبْلُكُمْ لوِ اتَّبَعْتُمْ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيهِ دينُكُمُ الذي أمْسَكَ عليكمْ بهِ. وقالَ غَيْرُهُ: فيهِ شَرَفُكُمْ ونُبْلُكُمْ لوِ اتَّبَعْتُموهُ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شَرَفٌ لكَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ قَصَمْنا: أهلَكْنا. وأصلُ القَصْمِ الكَسْرُ. يُخوِّفُ أهلَ مكةَ بتكذيبِهِمْ محمداً ما نَزَلَ بأولئكَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ قولُهُ ﴿أَحَسُّوا۟﴾: قالَ بعضُهُمْ: عَلِموا بالعذابِ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي يَفِرّونَ، ويَهْرُبونَ. وقالَ بعضُهُمْ: يَعْدونَ، وهو واحدٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي أُنعِمْتُمْ ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ مِثْلُ هذا يَخْرُجُ مُخرَجَ الاستِهْزاءِ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تُحاسَبونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ الإيمانَ كما سُئِلْتُموهُ قَبْلَ نُزولِ/ ٣٣٧ ـ ب/ العذابِ. وقيلَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنْ قَتْلِ نَبِيِّكُمْ لأنهمْ قَتَلوا [نبيَّهُمْ؛ تُسْألونَ فيمَ][3] قَتَلْتُموهُ؟

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ هذا في نازلةٍ، واللهُ أعلَمُ، تَلَقَّتْهُمُ الملائكةُ، وهُمْ هاربونَ فارّونَ، فقالوا لهمْ: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ استِهزاءً بهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تفقَهونَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ [الأنبياء: ٥] قالَ: الضِّغْثُ ما لا تأويلَ لهُ. ويُقالُ: حُلْمٌ وأحلامٌ.

ويُقالُ: حَلَمَ يَحْلُمُ حُلْماً فهو حالمٌ إذا رأى [حُلْماً أي][4] شيئاً في النومِ، واحْتَلَمَ يَحْتَلِمُ لا يكونُ مِثْلَ: حَلِمَ يَحْلُمُ، ويُقالُ مِنَ الحِلْمِ حَلُمَ [يَحْلُمُ][5] حِلْماً فهو حليمٌ. ويُقالُ: حَلَّمْتُهُ أي جَعَلْتُهُ حَليماً. والافتِراءُ الكذبُ، والشاعرُ إنما سُمّيَ شاعراً لأنهُ يَشْعُرُ مِنَ الكلامِ مالا يَشْعُرُ بهِ غَيرُهُ. والقَصْمُ الكَسْرُ، والمُرادُ منهُ الهلاكُ؛ قَصَمَ غَيرَهُ، وانقَصَمَ بنفسِهِ أيِ انكَسَرَ.

وقالَ: أحَسُّوا، أيِ استَيقَنوا بعذابِنا، ويُقالُ: أحْسَسْتُ، أي وَجَدْتُ، وأحْسَسْتُ، أي عَلِمْتُ، واستَيقَنْتُ. يقالُ: أحْسَسْتُ؛ قَطَعْتُ، وتَحَسَّسْتُ، أي تَخَبَّرْتُ، والمِحَسَّةُ الفِرْجَونُ.

وقالَ: يركُضونَ يَهْرُبونَ ﴿إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي أُنعِمْتُمْ، ومُتِّعْتُمْ، والإترافُ الإكرامُ.

---

(١) في الأصل وم: جسداً. (٢) من م، في الأصل: الذي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو عُبَيدَة: يركُضونَ يَعْدونَ، وقولُهُ ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ ليسَ على الأمرِ، ولكنْ أي لو رَجَعْتُمْ ﴿إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾. وكذلكَ ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النمل: ٣٦،٠٠] ليسَ على الأمرِ، ولكنْ لو سِرْتُمْ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي لو رَجَعْتُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [عمّا أُترِفتُمْ فيهِ][1] مِنْ قَبْلُ. فَيُخَرَّجُ ذلكَ مُخرَجَ الاسْتِهْزاءِ جَزاءً لِصَنيعِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يُقِرّونَ يومئذٍ بالظُّلمِ، لكنْ لا يَنفَعُهُمْ ذلكَ، ويَندَمونَ على سوءِ صَنيعِهِمْ، فَيَطْلُبونَ العَودَ إلى دُنياهُمْ كقولِهِ[2]: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي مازالَتْ تلكَ أقوالُهُمْ: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ في النارِ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ. و﴿حَصِيدًا﴾ أي هالِكاً، وهو محصودٌ. و﴿خَٰمِدِينَ﴾ كما يُقالُ: خَمَدَتِ النارُ إذا طُفِئَتْ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لم يَخْلُقِ السماءَ والأرضَ وما بَينَهما [لِتكونا][3] سماءً وأرضاً على ما هما عليهِ، ثم تَفْنَيانِ، وتَبيدانِ. ولكنْ خَلَقَهُما لعاقبَةٍ قَصَدَها، وهي[4] أنْ يَمْتَحِنَ أهلَها، لأنَّ مَنْ عَمِلَ في الشاهدِ عَمَلاً، لا يَقْصِدُ بهِ عاقبَةً يأمُلُ، ويرجو أمراً، فهو في عَمَلِهِ عابثٌ لاهٍ[5]، ولو كانَ على ما عندَ أولئكَ الكَفَرَةِ بأنْ لا بَعْثَ، ولا حِسابَ، ولا جَزاءَ، ولا ثوابَ، لَكانَ إنشاؤُها وما بَينَهما باطلاً لَعِباً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ عَدَمَ الرجوعِ إليهِ خَلْقَهُمْ شيئاً باطلاً.

وقالَ الحَسَنُ: لم يَخْلُقْهُما عَبَثاً، ولكنْ خَلَقَهُما لِحِكْمَةٍ؛ مَنْ نَظَرَ إليهما دَلّاه[6] على وَحْدانيَّةِ مُنْشِئِهما وسُلْطانِهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ وعلى عِلْمِهِ وتدبيرِهِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهْوًا﴾ أي زوجَةً. لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنهُ احتَجَّ عليهِمْ على نَفْيِ الوَلَدِ بِنَفْيِ الصاحِبَةِ بقولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فلولا أنهمْ أقَرّوا، وعرَفوا أنْ لا صاحِبَةَ لهُ، وإلّا لم يكُنْ لِلاحتِجاجِ عليهِمْ على نَفْيِ الوَلَدِ بِنَفْيِ الصاحِبَةِ مَعْنًى، ويكونُ قولُهُ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي وَلَداً، لأنَّ الناسَ يَتَلَهَّونَ بالوَلَدِ فَسَمّاهُ لَهْواً. لِذلكَ قالَ: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ وهذا[7] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ بحيثُ لا يَبْلُغُ أفهامُكُمْ، ولا يُدْرِكُهُ عِلْمُكُمْ، لأنَّ الولدَ يكونُ مِنْ جِنْسِ الوالدَينِ ومِنْ شَكْلِهِما، وسَبيلَ مَعْرِفَتِهِ وعِلْمِهِ الاسْتِدلالُ الحِسِّيُّ. فإذا لم يَعْرِفوهُ[8] بالحِسِّيِّ، فكيفَ يَعْرِفونَ مَنْ هو يكونُ منهُ لو كانَ؟.

والثاني: إنَّ الغائبَ إنما يُعْرَفُ بالاسْتِدلالِ بالشاهدِ. فلو كانَ لهُ الوَلَدُ على ما تَزْعُمونَ لَكانَ لا يُعْرَفُ لأنهُ لا صُنْعَ لِلوَلَدِ في الشاهِدِ، إذْ هو الواحدُ المُنْفَرِدُ بإنشاءِ العالَمِ، فَتَذْهَبُ مَعْرِفَةُ الولدِ وإدراكُهُ[9] لو كانَ على ما تَزْعُمونَ. وقولُهُ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ ليسَ على أنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لهُ الوَلَدُ، أو أنْ يَحْتَمِلَ أنْ يَتَّخِذَ ولداً، ولكنْ لوِ احْتَمَلَ أنْ يكونَ لم يَحْتَمِلْ أنْ يُدْرِكَ. وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ليسَ [على][10] أنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ فيهما آلِهةٌ [ولكنْ لوِ احْتَمَلَ أنْ يكونَ فيهما آلهةٌ][11] لَفَسَدَتا.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الحقُّ الذي أخبَرَ أنهُ يَقْذِفُ على الباطلِ القرآنَ الذي أنْزَلَهُ على رسولِهِ، والرسولَ نفسَهُ، أوِ الآياتِ التي جَعَلَها لِوحدانيَّتِهِ والوهيَّتِهِ ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي يُبْطِلُ ذلكَ الذي قالوا في اللهِ ما قالوا مِنَ الوَلَدِ والصاحِبَةِ وغَيرِهِ مِمّا لا يَليقُ بهِ. فإذَنْ هو زاهقٌ، أي هو ذاهبٌ مُتَلاشٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كقولهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: لاغ. (٦) في الأصل وم: دالان. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يعرفوا هو. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مِنَ الوَلَدِ والصاحِبَةِ وجميعِ ما وَصَفوهُ مِمّا لا يَليقُ بِهِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنهُ ذَكَرَ جواباً لقولِهِمْ وَرَدّاً على وَصْفِهِمْ إياهُ بالذي وَصَفوهُ، فقالَ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ولا أحَدَ في الشاهدِ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ وَلَداً مِنْ عَبيدِهِ وإمائِهِ. فإذا لم تَرَوا هذا في الخَلْقِ أنَفاً مِنْ ذلكَ واسْتِنْكافاً فكيفَ قُلْتُمْ ذلكَ في اللهِ سُبحانَهُ؟ وأضَفْتُمْ إليهِ؟

أو يُخْبِرُ غِناهُ عنِ الخَلْقِ بأنَّ لهُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، والوَلَدُ في الشاهدِ إنما يُطْلَبُ لِحاجةٍ تَسْبِقُ. فإذا كانَ اللهُ ﷻ غَنِيّاً بِذاتِهِ بما ذَكَرَ بأنَّ لهُ كذا فلا[1] حاجَةَ تَقَعُ لهُ إلى الوَلَدِ. تعالى اللهُ عمّا يقولُ الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لقولِهِمْ: الملائكةُ بَناتُ اللهِ. فأخْبَرَ أنهمْ لَيسوا كما وصَفْتُموهُمْ[2]، ولكنَّهُمْ عَبيدٌ لي، وهُنَّ[3] لا يَسْتَريحونَ عنْ عبادتي، ولا يَفْتُرونَ، ولم يَدَّعُوا هُمْ ألوهِيَّةَ لأنفُسِهِمْ. فكيفَ نَسَبْتُمُ الألوهِيَّةَ إليهِمْ، وعَبَدْتُموهُمْ دوني؟ أو أنْ يكونَ قالَ ذلكَ: إنكمْ إنِ اسْتَكْبَرْتُمْ عنْ عِبادَتي فلم يَسْتَكْبِرْ عنها مَنْ هو أرفَعُ مَنْزِلَةً وأعْظَمُ قَدْراً منكمْ.

الآية ٢٠ [وهو قولُهُ تعالى][4]: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ يُنَزِّهونَ اللهَ، ويُبَرِّؤونَهُ عمّا وَصَفَهُ المُلْحِدَةُ مِنَ الوَلَدِ وجميعِ ما قالوا فيهِ مِمّا لا يَليقُ بهِ.

وهذهِ الآيةُ تَنْقُضُ قولَ المُعْتَزِلَةِ ومذهَبَهُمْ حينَ قالوا: إنَّ الأعمالَ لأنفسِها مُتْعِبَةٌ مُنْصِبَةٌ، ولو كانَتِ الأفعالُ لأنفسِها مُتْعِبَةً على ما ذَكَروا لَكانَ البَشَرُ والملائكةُ شَرْعاً. فلما أخْبَرَ عنهمْ أنهم لا يَعْيَونَ، ولا يَفْتُرونَ، ولا تُتْعِبُهُمُ العبادةُ دلَّ أنها صارَتْ مُتْعِبَةً لِصُنْعِ غَيرٍ فيها لا لأنفسِها. وهذهِ المسألةُ في خَلْقِ أفعالِ العبادِ: هُمْ يُنْكِرونَ خَلْقَها، ونَحْنُ نقولُ: هي خَلْقُ اللهِ ﷻ كَسْبٌ لِلْعِبادِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ موضِعٍ كلاماً كافياً.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨] أي يُبْطِلُهُ. وقالَ غَيرُهُ: يُهْلِكُهُ، وهو مِنْ قولِكَ:/ ٣٣٨ - أ/ ضَرَبْتُ الرجلَ، فَدَمَغْتُهُ إذا وَصَلَتِ الضربَةُ إلى الدماغِ. وإذا كانَ كذلكَ ماتَ. فكذلكَ يَدْمَغُ الحقُّ الباطلَ، أي يُهْلِكُهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهبٌ ومَيِّتٌ. زَهَقَ إذا ماتَ، وهَلَكَ، والزاهقُ في غَيرِ هذا السمينُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] أي لا يَعْيَونَ، ومنهُ ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] ومَحسورٌ أيضاً [وقولُهُ][5]: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ الفتورُ[6] الإعياءُ أيضاً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قولُهُ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ اسْتِفهامٌ في الظاهرِ مِنَ الخَلْقِ، لكنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ على الإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: قدِ اتَّخذوا آلهةً. وهكذا كلُّ ما خَرَجَ في الظاهرِ مِنَ اللهِ على الاسْتِفْهامِ فإنهُ على الإيجابِ لأنهُ عالمٌ بما كانَ، ويكونُ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

وأمّا الخَلْقُ فإنهُ يجوزُ أنْ يَسْتَفْهِمَ بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ لِما يَخْفَى على بَعْضٍ أمورُ بَعْضٍ، فَيَطْلُبُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضِ العِلْمَ والفَهْمَ بذلكَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ][7] وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يَخْلُقونَ؟ أيِ اتَّخذوا آلهةً، لا يَخْلُقونَ، كقولِهِ ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] وكيفَ اتَّخذوا آلهةً؟ لا يَخْلُقونَ، وإنما يُعْرَفُ الإلهُ بالخَلْقِ، وبآثارٍ تكونُ في الخَلْقِ. فإذا لم يكُنْ مِنْ هؤلاءِ خَلْقٌ كيفَ اتَّخذوها آلهةً؟

والثاني: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يَبْعَثونَ؟ ويُحْيونَ؟ فإنْ كانَ على البَعْثِ والإحياءِ فكأنهُ يقولُ: كيفَ اتَّخذوا مَنْ لا يَمْلِكُ البَعْثَ والإحياءَ آلهةً؟

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وصفتهم . (٣) في الأصل وم: قن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: والفتور. (٧) ساقطة من الأصل وم.

وخَلْقُ الخَلْقِ لِلْبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ يُخَرَّجُ على غَيرِ الحِكْمَةِ في الظاهرِ، لأنَّ مَنْ بَنى في الشاهدِ بناءً لِلنَّقْضِ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ يَقْصِدُها[1] بِهِ كانَ غَيرَ حكيمٍ في فِعْلِهِ عابثاً في بِنائِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ خَلْقَ الخَلْقِ لا للرجوعِ إليهِ عَبَثاً، فيُخَرَّجُ هذا على وجهَينِ:

[أحَدُهما][2]: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ أي قد اتَّخذوا ﴿آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾؟.

[والثاني][3]: أولم يَتَّخِذوا ﴿آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ هُمْ يَمْلِكونَ النَّشْرَ أوِ النُّشورَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ: لو كانَ فيهِنَّ آلهةٌ غَيرُ اللهِ لَفَسَدْنَ. ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وُجوهاً:

أحَدُها: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لم يكونا مِنَ الأصلِ، لأنَّ العُرْفَ في الملوكِ أنَّ ما بَنى هذا، وأثبَتَهُ، يُريدُ الآخَرَ نَقْضَهُ وإفناءَهُ، فلم يُثْبِتا، ولم يكونا مِنَ الأصلِ، لو كانَ لِعَدَدٍ.

والثاني: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لم تكُنْ مَنافِعُ إحداهما مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأُخرَى لِلْخَلْقِ؛ إنْ مَنَعَ كلُّ واحدٍ منهُمْ مَنافِعَ ما خَلَقَ هو مِنْ أنْ تَصِلَ إلى الأُخرَى. فإذا اتَّصَلَتْ مَنافِعُ إحداهما بالأُخرَى. دلَّ أنهُ صُنْعُ واحدٍ وتدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

والثالثُ: لو كانَ عَدَداً لكانَ لا يَخرُجُ تدبيرُهما على حدٍّ واحدٍ في كلِّ عامٍ على سَنَنٍ واحدٍ. دَلَّ أنهُ تدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ؛ إذْ لو كانَ لِعَدَدٍ لكانَ يَختلِفُ الأمْرُ في كلِّ عامٍ، ولم يَتَّسِقْ على سَنَنٍ واحدٍ، ولا جَرَى على أمْرٍ واحدٍ.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ هو قولُ اللهِ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] على ما هو مِنْ عادةِ ملوكِ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها: أنهُ لا يُسْألُ، لأنَّ ما يَفعَلُ يَفعَلُ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ، وإنما يُسْألُ مَنْ فَعَلَ في سُلْطانِ غَيرِهِ ومُلْكِ غَيرِهِ. ففي ذلكَ دلالةٌ أنهُ لا يجوزُ التناوُلُ في شيءٍ إلّا بالأمْرِ والإباحةِ مِنْ مالِكِهِ. فَيَبْطُلُ قولُ مَنْ يقولُ هو على الإطلاقِ والإباحةِ في الأصلِ.

والثاني: لا يُسْألُ عما يَفعَلُ لأنهُ حكيمٌ بذاتِهِ، لا يَخرُجُ فِعْلُهُ عنِ الحِكْمَةِ، فإنما يُسْألُ مَنْ يَحتَمِلُ فِعْلُهُ السَّفَهَ. فأمّا مَنْ لا يَحتَمِلُ فِعْلُهُ إلّا الحِكْمَةَ فإنهُ لا يَحتَمِلُ السؤالَ لِمَ فَعَلْتَ؟ ولماذا فَعَلْتَ؟.

والثالثُ: لوِ احتَمَلَ السؤالَ عمّا يَفعَلُ لَاحتَمَلَ الأمْرَ النَّهْيَ أنِ افعَلْ كذا، ولا تَفعَلْ كذا. وذلكَ مُحالٌ. ولو ثَبَتَ الأمْرُ فيهِ لكانَ يُخَرَّجُ سؤالُهُ سؤالَ حاجةٍ، لأنَّ مَنْ يأمُرُ مَنْ فَوقَهُ بأمْرٍ فإنما يكونُ أمْرَ سؤالِ حاجةٍ، ومَنْ يأمُرُ مَنْ دونَهُ فيكونُ أمْرُهُ أمْراً.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فيهِ دلالةٌ لزومِ الدليلِ على النافي، لأنهُ لمّا قالَ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كانَ لهمْ أنْ يقولوا: هاتِ أنْتَ البرهانَ على ما ادَّعَيتَ مِنَ الأُلوهِيَّةِ، ونحنُ نُنْكِرُ ذلكَ. فإذا لم يكونوا يقولونَ ذلكَ دلَّ أنَّ الدلالةَ تَلْزَمُ النافِيَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ أي هذا القرآنُ [﴿ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾][4]. قالَ بَعضُهُمْ: هذا القرآنُ فيهِ ﴿ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ مِنَ الحلالِ والحرامِ لهمْ ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ أي فيهِ ذِكْرُ أعمالِ الأُمَمِ السالِفَةِ وأخبارِهِمْ وما صَنَعَ اللهُ بهِمْ إلى ما صاروا إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: يقصده. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي خَبَرُ مَنْ معي ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أي خَبَرُ مَنْ قبلي، فيكونُ فيهِ دليلُ رسالتِهِ لأنهُ أخبَرَ عن أبناءِ الأُمَمِ السالِفَةِ وأخبارِهِمْ على ما ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ ما في كتبِهِمْ [أو][1] يَتَعَلَّمَ منهُمْ، أو يَنْظُرَ [ما][2] كانَ منهُ فيها لِيَعْلَموا أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ ما ذَكَرَ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] أي ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ وذِكْرُ الرسُلِ مَنْ قَبْلي ومَنْ معهمْ، أي هذا الذِّكْرُ أرسَلَني إلى مَنْ معي وأرسلَ الذينَ مَنْ قبلي إلى قومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ كذلكَ كانوا لا يَعلمونَ الحقَّ بإعراضِهِمْ عنهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ أخبَرَ أنهُ لم يُرْسِلْ رسولاً مِنْ قَبْلُ إلّا بما ذَكَرَ مِنْ قَبْلُ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي وَحِّدوني في الألُوهِيَّةِ؛ لا تَصْرِفوا الألوهيَّةَ إلى غيري، ولا تُشْرِكوا مَنْ دوني في ألوهِيَّتي، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي فاصْرِفوا[3] العِبادَةَ إليَّ، ولا تَصْرِفوا العِبادَةَ إلى مَنْ دوني[4]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أنهمْ لم يَنْسِبوا الولَدَ إليهِ، ولا قالوا ذلكَ: إنهُ اتَّخذَ ولداً على حقيقةِ الوِلادِ، ولكنْ قالوا ذلكَ على الصَّفْوَةِ واصْطِفاءِ مَنْ أضافوا، ونَسَبوا إليهِ، لأنهُ أخبَرَ أنَّ الذينَ قالوا: إنهمْ وَلَدُهُ مِنْ نَحْوِ عيسى وعُزَيرٍ والملائكةِ، لَيسوا كما وَصَفوا، ولكنهمْ عبادٌ مُكْرَمونَ.

الآية ٢٧ ثم أخبَرَ بما أكْرَمَهُمْ، فقالَ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ لا يَتَقَدَّمونَ في قولٍ[5] ولا فِعْلٍ إلّا بإذْنٍ[6] منهُ وأمْرٍ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يأمُرونَ بشيءٍ، ولا يَنْهَونَ عن شيءٍ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ وأمْرٍ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ في سورةِ طه [الآية: ١١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ كقولِهِ[7] في آيةٍ أُخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] فيكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي إلّا لِمَنْ أَذِنَ لهُ.

ثم يَتَوَجَّهُ قولُهُ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ إلى الشفيعِ، أي لا يُؤْذَنُ لِأحدٍ بالشَّفاعةِ إلّا مَنْ كانَ مَرْضِيّاً مُرْتَضى ديناً وعَمَلاً. ويتوجَّهُ قولُهُ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ إلى المَشْفوعِ لهُ ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ عنهُ الرَّبُّ مَذْهباً وعَمَلاً حتى لم يدخُلْ في عملِهِ تَقْصيرٌ.

ثم الشَّفاعةُ إنما جُعِلَتْ/ ٣٣٨ ـ ب/ في الأصلِ لِلتَّجاوُزِ في ما دَخَلَ في العَمَلِ مِنَ التَّقْصيرِ. ثم لا يَخْلو الذي يَشْفَعُ لهُ إمّا أنْ يكونَ صاحِبَ الصغيرةِ فيجوزُ أنْ يُعَذَّبَ عليها، وإمّا[8] أنْ يكونَ صاحِبَ كبيرةٍ، ففيهِ دلالةُ التجاوُزِ، والعَفْوُ عنْ صاحبِ الكبيرةِ لأنّا قد قُلْنا: إنَّ الشَّفاعةَ إنما جُعِلَتْ لِمَنْ منهُ التَّقْصيرُ في العَمَلِ. ففيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ صاحبَ الصغيرةِ مَعْفُوٌّ عنهُ لِلصَّغيرةِ[9] حتى لا يجوزَ أنْ يُعَذَّبَ عليها، وصاحِبُ الكبيرةِ لا يجوزُ العَفْوُ عنهُ لِلتَّجاوُزِ، بل هو مُعَذَّبٌ أبداً.

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٧] أي مِنْ خَشْيَةِ عذابِهِ وَهَيْبَتِهِ لا يَتَقَدَّمونَ بقولٍ، ولا فِعْلٍ، ولا أمْرٍ، ولا نَهْيٍ خوفاً منهُ وَهَيْبَةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ هذا كأنهُ مَقطوعٌ عمّا سَبَقَ، وتقدَّمَ ذِكْرُهُ، غيرُ مَوصولٍ بِهِ، لأنَّ ما سَبَقَ: هو القَولُ منهمْ: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إلي. (٤) من م، في الأصل: دونه. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) من م، في الأصل: بأذنه. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: الصغيرة.

فلو كانَ على اتِّصالِهِ بالأوَّلِ لَكانَ يقولُ: ومَنْ يَقُلْ منهُمْ: إني وَلَدُ إلهٍ لأنهمْ قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ ولم يَقولوا: اتَّخَذَ الرحمنُ إلهاً.

فلو كانَ على الصِّلَةِ بالأوَّلِ والجوابِ لهُ لكانَ[1] يُخَرَّجُ على الجوابِ لهمْ: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ﴾ لكنْ كأنهمْ كانوا فِرَقاً: منهمْ مَنْ قالَ: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ ومنهمْ مَنْ عَبَدَ دونَهُ الملائكةَ، واتَّخَذَهُمْ آلهةً، فَيُخَرَّجُ هذا جواباً لذلكَ، فقالَ: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ الآيةِ.

فإنْ قيلَ لنا في قولِهِ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقد عُبِدَ عيسى دونَهُ، وعُبِدَتِ الملائكةُ دونَهُ، فيكونونَ حَصَبَ جَهَنَّمَ على ظاهرِ ما ذُكِرَ. قُلْنا: تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي إنكم وما تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ بأمرِ الذينَ عُبِدوا، وقالوا لهمُ: اعْبُدوني حَصَبُ جَهَنَّمَ. دليلُهُ ما ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيِ المُشْرِكينَ؛ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ههنا المُشْرِكينَ الكافِرينَ.

ثم قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا يقولونَ ذلكَ لِما وَصَفَهُمْ بالطاعةِ[2] لهُ وتَرْكِ الخِلافِ لأمرِهِ. لكنهُ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنَّ مَنْ قالَ ذلكَ، وإنْ عَظُمَ قَدْرُهُ عندَهُ، وجَلَّتْ مَنْزِلَتُهُ، يَجْزِيهِ[3] بِما ذَكَرَ أنهُ يَسْتَوجِبُ لِذلكَ.

ولكنْ عندَنا المَعْصِيَةُ مِنَ الملائكةِ [مُمْكِنَةٌ مُحْتَمَلَةٌ، دليلُها][4]: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ لأنهُ قد مَدَحَهُمْ بقولِهِ: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ الآيةَ [التحريم: ٦] وقولِهِ[5]: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٩] فَدَلَّ ذلكَ كلُّهُ على أنهمْ مُخْتارونَ في ذلكَ غَيرُ مَجْبورينَ[6] عليهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ هو إبليسُ؛ هو كانَ منهمْ، وهو الذي قالَ ذلكَ: ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ فاعْبُدوني، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾؟ قولُهُ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: أنِ اعْلَموا، ورُوا أنَّ السمواتِ والأرضَ كانَتا كذا.

والثاني: لو تَفَكَّروا، وتأمَّلُوا، لَعَلِموا أنها كذا.

والثالثُ: على التَّنْبيهِ: أنْ قَدَّرُوا، وعَلِموا أنهما كانَتا كذا. وكذلكَ هذا في كلِّ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أو لم تروا﴾ إلى كذا. فهو كلُّهُ يُخَرَّجُ على هذهِ الوُجوهِ.

ثم يكونُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠إلى٣٣] كلُّ هذا كانَ في قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كأنهُ يقولُ: أوَلَمْ يَرَوا كذا؟ [أوَلَمْ يَرَوا ما جَعَلْنا لهمْ][7] مِنْ أنواعِ ما ذُكِرَ.

ثم ذِكْرُ ذلكَ لهمْ يكونُ لِوُجوهٍ:

أحَدُها: أنْ يَذْكُرَ نِعَمَهُ عليهمْ حينَ[8] أخبَرَ أنَّ السمواتِ والأرضَ كانَتا رَتْقاً، فَفَتَقَ منهما أرزاقَهُمْ.

[والثاني:][9] ذَكَّرَهُمْ أنهُ جَعَلَ بالماءِ حياتَهُمْ، وجَعَلَ لهمُ الأرضَ بحيثُ تَقَرُّ بأهلِها، وتَسْكُنُ بهمْ، وجَعَلَها مِهاداً لهمْ وفِراشاً بالجِبالِ حتى قَدَرُوا على المُقامِ بها والقَرارِ.

---

(١) في الأصل وم: فهو. (٢) من م، في الأصل: الطاقة. (٣) ادرج قبلها في الأصل وم: أنهُ. (٤) في الأصل وم: ممكن محتمل دليله. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مجبولين. (٧) في الأصل وم: ما جعلناهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: و.

[والثالث:][1] أنهُ جَعَلَ فيها فِجاجاً سُبُلاً لِيَصلوا إلى حوائجِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ومنافِعِهِمُ التي جُعِلَتْ لهمْ في البلادِ النائيةِ.

[والرابعُ: أنهُ][2] ذَكَّرَهُمْ نِعَمَهُ أيضاً في حِفْظِ السماءِ عنْ أنْ تَسْقُطَ عليهِمْ على ما أخبَرَ أنهُ يُمْسِكُهُما هو بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١].

[والخامسُ:][3] ذَكَّرَهُمْ أيضاً نِعَمَهُ في ما جَعَلَ لهمْ مِنَ الليلِ والنهارِ وفي الشمسِ والقمرِ مِنَ المَنافِعِ:

يَسْتَأْدي بذلكَ كلِّهِ الشُّكْرَ على ما أنْعَمَ عليهِمْ. أو تُذَكِّرُهُمْ بهذا قُدْرَتَهُ وسلطانَهُ، إذْ مَنْ قَدَرَ على فَتْقِ السماءِ والأرضِ وجَعْلِ حياةِ كلِّ شيءٍ في الماءِ وإمساكِ السماءِ وحِفْظِها عنْ أنْ تَسْقُطَ بلا عَمَدٍ وما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الليلِ والنهارِ وقَطْعِ الشمسِ والقَمَرِ بِيَومٍ واحدٍ مَسيرَةَ خَمْسِمِئَةِ عامٍ إنَّ مَنْ قَدَرَ على كلِّ ما ذَكَرَ لَقادِرٌ على بَعْثِهِمْ وإحيائِهِمْ بَعْدَ الموتِ وبَعْدَ ما صاروا تراباً.

[والسادسُ:][4] أنْ يُذَكِّرَهُمْ غِناهُ بذاتِهِ ومُلْكِهِ. إنَّ مَنْ كانَ هذا سَبيلُهُ فأنّى تَقَعُ لهُ الحاجةُ إلى اتِّخاذِ الوَلَدِ أوِ الشَّريكِ أوِ الصاحبةِ ردًّا على ما قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وما ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ [الأنبياء: ٢٤] ونَحْوَهُ؟

وبَيَّنَ فسادَ ذلكَ كلِّهِ وبُطلانَهُ حينَ قالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١] ونَحْوَهُ. يُبَيِّنُ بهذا كلِّهِ فَسادَ ما ادَّعَوا على اللهِ أنهُ اتَّخَذَ كذا.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: فَتَقَ السماءَ بالمَطَرِ، والأرضَ بالنباتِ. فَتَقَ السماءَ، وهيَ أشَدُّ الأشياءِ وأصْلَبُها، بألْيَنِ شيءٍ، وهو الماءُ. وكذلكَ الأرضُ فَتَقَها بألْيَنِ شيءٍ، وهو النباتُ مَعَ شِدَّتِها وصلابَتِها، وهو ما ذَكَرَ مِنْ لُطْفِهِ وقُدْرَتِهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ مُلْتَزِقَتَينِ، فَفَتَقَهُما، وجَعَلَ بَينَهما هواءً مكاناً لِلْخَلْقِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانتِ السماءُ واحدةً والأرضُ كذلكَ، فَجَعَلَ مِنَ السماءِ سَبْعاً [ومِنَ الأرضِ كذلكَ سَبْعاً][5] فكذلكَ فَتْقُهُ إياهُما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الماءُ نُطْفَةٌ، ونُطْفَةُ الرجالِ منهُ يَخْلُقُ الخلائِقَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الذي خَلَقَ في الأرضِ أو أنْزَلَ مِنَ السماءِ حياةَ كلِّ شيءٍ؛ تُعْلَمُ حياةُ خلائِقِ الأرضِ بهذا الماءِ. ولكنْ لا تُعْلَمُ حياةُ أهلِ السماءِ بماذا؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ الأرضَ لم يَكُنْ مِنْ طَبْعِها في الأصلِ التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ في الماءِ على ما قالَهُ بعضُ الناسِ، لأنهُ لو كانَ طَبْعُها التَّسَفُّلَ والتَّسَرُّبَ لَكانَتِ الجبالُ تُريدُ[6] التَّسَفُّلَ في الماءِ والتَّسَرُّبَ. فإذا لم يَكُنْ دلَّ أنَّ طَبْعَها كانَ الاضطِرابَ والزوالَ والتَّحَرُّكَ، والمَيْدَ بأصلِهِ[7] في التَّسَفُّلِ والتَّسَرُّبِ. ولكنْ على ما ذَكَرْنا، فأثْبَتَها بالجبالِ، وإنْ كنا نشاهِدُ بَعْضَ أجزائِها تَسْفُلُ، وتَسْرُبُ.

وهذا كما نقولُ: إنَّ بعضَ العالَمِ مُتَعَلِّقٌ بِبَعْضٍ، وإنهُ لا يَخْلو مِنْ مكانٍ، وكلُّ العالَمِ لا تَعَلُّقَ لهُ بهِ، ولا الأمكنةُ آخذةٌ لها. فَعَلى ذلِكَ الأرضُ. أو إنْ كانَ/ ٣٣٩ ـ أ/ طَبْعُها التَّسَفُّلَ والتَّسَرُّبَ، جَعَلَها بحيثُ تَقِرُّ، وتَسْكُنُ بشيءٍ، طَبْعُهُ[8] التَّسَفُّلُ أيضاً بالُّلطْفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الفِجاجُ والسُّبُلُ واحدٌ، وهي الطُّرُقُ التي جَعَلَها في الجِبالِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الفِجاجُ السَّعَةُ والفُسْحَةُ، والسُّبُلُ الطُّرُقُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الفِجاجُ هي الطُّرُقُ التي في الجِبالِ، والسُّبُلُ هي التي في المَفاوِزِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: تدبر. (٧) في الأصل وم: بأصلها. (٨) في الأصل وم: طبعها.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي مَحْبوساً عنْ أنْ يَسْقُطَ عليهِمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ مِنَ الشَّياطينِ، أي صارَ مَحْفوظاً منهمْ حتى لا يَسْتَمِعوا كلامَ الملائكةِ بَعْدَ أنْ كانوا يَسْتَمِعونَ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الفَلَكُ السماءُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: اِسْتِدارةُ السماءِ. وقيلَ: الفَلَكُ: الجَرْيُ والسُّرْعَةُ. وقيلَ: الفَلَكُ فَلْكَةٌ كَفَلْكَةِ المِغْزَلِ، وهو دَوَرانُهُ، وكذلكَ فَلْكَةُ الطاحونِ، وهو ما يُدَوَّرُ بِهِ الطاحونَةُ، وهيَ الحديدةُ التي تدورُ بها الطاحونَةُ. وقالوا: إنَّ الفَلَكَ هو اسْتِدارةٌ. وكلُّ شيءٍ دارَ فهو فَلَكٌ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: يَجْرونَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: [﴿يَسْبَحُونَ﴾ يَعْمَلونَ][1] وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ عبدِ اللهِ [بْنِ مَسْعودٍ][2]: كلٌّ في فَلَكٍ يَعْمَلونَ.

وظاهِرُ الآيةِ أنْ يكونَ هنالكَ [بَحْرٌ أو نَهَرٌ][3] فيهِ تَجْري الشمسُ والقَمَرُ، وفيهِ تَغْرُبانِ، ومنهُ يَطْلُعانِ، لأنهُ قالَ: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والسِّباحَةُ هي المَعْروفَةُ عندَ الناسِ، وهو ما يُسْبِحُ المَرْءَ في بَحْرٍ أو نَهَرٍ. هذا ظاهِرُ الآيةِ، [على ذلكَ][4] جاءتِ الأخبارُ.

رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «خَلَقَ اللهُ بَحْراً دونَ سماءِ الدنيا، مِقْدارُهُ ثلاثةُ فراسِخَ، وهو موجٌ مَكْفوفٌ قائمٌ في الهواءِ بأمْرِ اللهِ تعالى، لا تَقْطُرُ منهُ قَطْرَةٌ، والبحورُ كلُّها ساكنةٌ، وذلكَ البَحْرُ جارٍ في سُرْعَةِ السَّهْمِ. ثم انْطِباقُهُ في الهواءِ مُسْتوٍ، كأنهُ حَبْلٌ ممدودٌ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، فَتَجْري الشمسُ والقَمَرُ والخُنَّسُ في ذلكَ البحرِ» فذلكَ قولُهُ: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والخُنَّسُ هي التي تَخْنُسُ بالنهارِ، وتَجْري بالليلِ. والفَلَكُ دَوَرانُ العَجَلَةِ في لُجَّةِ غَمْرَةِ ذلكَ البَحْرِ.

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نَفْسِي بيدِهِ لو بَدَتِ الشمسُ مِنْ ذلكَ البَحْرِ لَحَرَقَتْ كلَّ شيءٍ في الأرضِ حتى الصخورَ. ولو بَدَا القَمَرُ مِنْ ذلكَ البَحْرِ لافْتَتَنَ بِهِ أهلُ الأرضِ كُلُّهُمْ، يَعْبُدونَهُ مِنْ دونِ اللهِ إلّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ».

وفي بَعْضِ الأخبارِ: «الفَلَكُ ماءٌ مَكْفوفٌ تَجْري فيهِ الشمسُ والقمرُ والنجومُ والليلُ والنهارُ، كلُّهُ دونَ السماءِ يَدورُ بِهِ الفَلَكُ» ومِثْلُ هذا قد قيلَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وظاهِرُ الآيةِ في الخَبَرِ ما ذَكَرْنا أنَّ الشمسَ والقَمَرَ هما اللذانِ يَجْرِيانِ، ويَسْبَحانِ في ذلكَ المكانِ. وعلى تأويلِ بَعْضِهِمْ أنهما على حالِهِما لا يَجْرِيانِ، لكنْ هو يَجْري، فَيَظْهَرانِ، ويَبْدُوَانِ في وقتٍ، ويَخْتَفِيانِ في وَقْتٍ آخَرَ. ولو كانا هما اللذانِ يَجْرِيانِ لكانا على حالةٍ واحدةٍ، ويَظْهَرانِ في الأحوالِ كلِّها. لكنّا لا نَعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ عنِ اللهِ أنهُ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟ كأنَّ هذا خَرَجَ جواباً لِقولِ أولئكَ الكَفَرَةِ في رسولِ اللهِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ. والأشبَهُ أنْ يكونَ ما أصابَهُمْ مِنَ الشدائدِ والفِتَنِ والهَلاكِ كانوا يَتَشاءمونَ برسولِ اللهِ ﷺ ويَتَطَيَّرونَ بِهِ: إنَّ ذلكَ إنما يُصيبُهُمْ بِهِ، وقالوا: لولا هو ما يُصيبُنا مِنْ ذلكَ شيءٌ. فقالَ جواباً لهمْ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ بل حُكْمُهُ أنْ يموتَ الكُلُّ على ما أخْبَرَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فإذا لم يكُنْ لأحَدٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدُ، بل كلُّهُمْ قد ماتوا، كيفَ يَتَشاءمونَ بكَ؟ إنَّ ذلكَ إنما يُصيبُهُمْ بِسَبَبِكَ وشُؤْمِكَ ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي وإنْ مِتَّ أنتَ، وأُخرِجْتَ[5] مِنْ بَيْنِهِمْ فلا[6] يَخْلُدونَ هُمْ فيها [لا أنَّ][7] مِنْ حُكْمِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؟

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بحراً ونهراً. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وتخرج. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لأن.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ في غيرِ موضعٍ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ آلهتَهُمْ[2] بسوءٍ، ويَعيبُها، فَيَهْزَؤونَ بهِ، مكانَ ما يَعيبُ هو آلهتَهُمْ، ويقولونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؟

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا مِنَ القادةِ منهمْ والرؤساءِ إغراءً لأتباعِهِمْ عليهِ أنهُ يَذْكُرُ آلهتَكُمْ بسوءٍ، أو أنْ يقولَ[3] بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إذا ضَلُّوا عنهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية [البقرة: ٧٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانوا يقولونَ: لا نَعْرِفُ ما الرحمنُ؟ فَيَكْفُرونَ باسمِ الرحمنِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بِنِعْمَةِ الرحمنِ، وهو محمدٌ ﷺ أي يَكْفُرونَ بِنِعْمَتِهِ، أو أنْ يَذْكُرَ هذا لِيُصَبِّرَ رسولَهُ، ويُعَزِّيَهُ، على تكذيبِهِمْ: ليسَتْ أياديكَ إليهِمْ بأكثَرَ مِنْ أيادي الرحمنِ، فهمْ يَكْفُرونَ بهِ، ويُكَذِّبونَهُ، ويقولونَ فيهِ ما يقولونَ. فاصْبِرْ أنتَ على أذاهمْ وما قالوا فيكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ كقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١].

قالَ الحَسَنُ: ﴿عَجُولٗا﴾ أي ضعيفاً، وضَعْفُهُ، هو أن يَضيقَ صدرُهُ، ويُخرِجَ عندَ [إصابَتِهِ بأدنى][5] شيءٍ حتى يَحْمِلَهُ ضِيقُ صَدْرِهِ على أنْ يَدْعُوَ على نَفْسِهِ وعلى مَجيئِهِ بالهلاكِ لِضيقِ صدرِهِ، وذلكَ لِضَعْفِ[6] فيهِ.

وعندَنا أنهُ خَلَقَهُ عَجولاً حتى لا يَصْبِرَ على حالةٍ واحدةٍ، وإنْ كانَتِ الحالةُ حالةَ نِعْمَةٍ ورَخاءٍ حتى يَمَلَّ منها، ويَسْأَمَ، ويُريدَ التَّحَوُّلَ إلى حالةٍ هي دونَ تلكَ الحالةِ، ويَرْضى بشيءٍ دونَهُ.

لكنهُ، وإنْ خَلَقَهُ على ما أخْبَرَ، جَعَلَ في وُسْعِهِ رِياضةَ نَفْسِهِ حتى يَصِيرَ صَبوراً حَليماً، وهو ما أخْبَرَ أنَّ ﴿عَجُولٗا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩و٢٠و٢١ و٢٢] أخْبَرَ أنهُ خَلَقَهُ هلوعاً، ثم اسْتَثْنى المُصَلِّينَ. دلَّ أنهُ بالرياضةِ يَتَحَوَّلُ عنِ الحالةِ التي خَلَقَهُ إلى حالةٍ أُخرى، وهي حالةُ الحِلْمِ والصَّبْرِ. وكذلكَ ما أخْبَرَ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠] كانَ كذلكَ في الابتداءِ. لكنهُ بالرياضةِ والعادةِ يَصيرُ سَخِيّاً جَواداً. وكذلكَ ما قالَ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨] ثم قالَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ [الحشر: ٩ والتغابن: ١٦] أخْبَرَ أنَّ الأنفُسَ الشُّحَّ[7] أحْضِرَتْ، ثم أخْبَرَ أنَّ مَنْ ﴿يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ فَلَهُ كذا.

دَلَّ بهذا كلِّهِ أنهُ بالرياضةِ والعادةِ يَحْتَمِلُ التَّحَوُّلَ إلى حالةِ السَّخاءِ والجودِ[8] بَعْدَ ما كانَ شَحيحاً قَتوراً بَخيلاً. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ العَجَلَةِ والهَلَعِ والجَزَعِ يَحْتَمِلُ [التَّحَوُّلَ][9] بالرياضةِ والعادةِ إلى أنْ يَصيرَ حَليماً صَبوراً في الأمورِ غيرَ ملولٍ فيها.

وليستِ المِحْنَةُ إلّا بالرياضةِ والعادةِ. فأمَرَهُ أنْ يُرَوِّضَ نفسَهُ، ويُعَوِّدَها بالقيامِ بجميعِ ما أمَرَهُ اللهُ، ويَكُفَّها عنْ جميعِ ما نَهى عنهُ، فَيَعْتادُ اتِّباعَ أمْرِهِ والانْتِهاءَ عنْ نَهْيِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونوا سَألوا رسولَ اللهِ ﷺ الآياتِ على رسالتِهِ أنهُ رسولٌ، أو سَألوا آياتٍ على وَحدانِيَّةِ اللهِ ورُبوبِيَّتِهِ، فقالَ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ مِنَ الوَجْهِ الذي يُريدُ ربّي، ويُبَيِّنُ لكُمْ ذلكَ لا مِنَ الوجهِ الذي تريدونَ أنتمْ، وتَسْألونَهُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ في ما نَزَلَ مِنَ العذابِ فيهِمْ وفي مَنازِلِهِمْ ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾/ ٣٣٩ - ب/ أنتُمُ العذابَ على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ. فإنْ سافَرْتُمْ، وضَرَبْتُمْ في الأرضِ رأيتُمْ آثارَ العذابِ فيهِمْ وفي

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: آلهتكم. (٣) من م، في الأصل: يقولوا. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: أصابه أدنى. (٦) في الأصل وم: لضعفه. (٧) أدرجت في الأصل وم بعد: أحضرت. (٨) في الأصل وم: والجواد. (٩) ساقطة من الأصل وم.

منازِلِهِمْ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أنتمُ العذابَ الذي يَعِدُ لَكُمُ الرسولُ؛ كانَ يُخَوِّفُهُمُ العذابَ، ويَعِدُ لَهُمْ إيّاهُ [إنْ يُكَذِّبوهُ][1] في ذلكَ، فقالَ عندَ ذلكَ ما قالَ.

الآية ٣٨ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ويقولونَ أيضاً: متى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنا نُعَذَّبُ؟

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ فيهِمْ بِتكذيبِهِمُ الساعةَ والقيامةَ وإنكارِهِمْ إياها. فقالَ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ التي تكونُ قَبْلَ وقوعِها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وقوعَها ومَجيئَها[3].

دليلُهُ ما ذَكَرَ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩] وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ الآية [الأنبياء: ٤٠].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لو يَعْلَمُ الذين كَفروا ما يَنْزِلُ[4] بهِمْ بوقوعِ القيامةِ حينَ[5] لا يملكونَ [كَفَّ النارِ][6] ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِمّا[7] يُحيطُ بهِمْ حتى لا يَمْلِكونَ هُمْ دَفْعَها عن أنفسِهِمْ، ولا يَمْلِكُ ما اتَّخذوا أنصاراً وأعواناً في الدنيا دَفْعَ ذلكَ أيضاً. وهو كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ الآية [الزمر: ١٦] وقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي فَجأةً، لا يَعْلَمُ أهلُها عن وقْتِ وقوعِها ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال أهلُ التأويلِ: ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فَتَفجأُهُمْ. والبَهْتَةُ كأنها حَيْرَةٌ. يقولُ: ﴿تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ فَجأةً، فَتُحَيِّرُهُمْ، وهو ما أخْبَرَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] وذلكَ لِحَيْرَتِهِمْ في أنفُسِهِمْ، وهُوَ[8] ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢] يَصيرونَ حَيارَى لِشِدَّةِ أهوالِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ لا يَمْلِكونَ دَفْعَها إذا وقَعَتْ بهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ في وقوعِها. إنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بالبلايا في الشاهدِ فإنما يَمْلِكُ دَفْعَها[9] عنْ نَفْسِهِ إمّا بقوةِ نَفْسِهِ وإمّا بأنصارٍ وأعوانٍ، يَنْصُرونَهُ، ويُعينونَهُ في دَفْعِها[10] عنهُ وإمّا بالتَّضرُّعِ والابْتِهالِ والاسْتِسْلامِ كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ الآية [الأنعام: ٤٣] فأخْبَرَ ﷺ [أنهمْ][11] لا يَمْلِكونَ دَفْعَها بِقوى أنفسِهِمْ ولا بأنصارِهِمُ الذينَ اسْتَنْصَروا [بهِمْ حينَ][12] قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بالتَّضرُّعِ والاسْتِسْلامِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيهِ تَصْبيرُ رسولِ اللهِ على ما يَسْتَهزِئُ قومُهُ بِهِ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي لَسْتَ أنتَ بأوَّلِ رسولٍ [مِنَ][13] اللهِ، اسْتَهزأَ بِهِ قومُهُ.

وفيهِ[14] تَخويفُ أولئكَ باسْتِهزائِهِمْ بِهِ بما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ باسْتِهزائِهِمْ برسُلِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: حاقَ: نَزَلَ، ووَجَبَ، ووَقَعَ، وأمثالُهُ. وقالَ بَعْضُ أهلِ المَعاني: الحَيْقُ هو ما اشْتَمَلَ على الإنسانِ مِنْ مَكروهٍ فِعْلِهِ[15] كقولِهِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. وقالَ بَعْضُهُمْ: حاقَ أي رَجَعَ عليهِمْ، وأحاطَ بهِمْ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي مَنْ يَحْفَظُكُمْ، ويَحْرُسُكُمْ مِنْ عذابِ الرحمنِ. وقيلَ: يدفَعُ عنكمْ عذابَ الرحمنِ. ثم هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

---

(١) في الأصل وم: فكذبوه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ووجوبها. (٤) في الأصل وم: نزل. (٥) في الأصل وم: حتى. (٦) في الأصل وم: كفها. (٧) في الأصل وم: إنما. (٨) في الأصل وم: وهم. (٩) في الأصل وم: دفعه. (١٠) في الأصل وم: دفعه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أي بفعله.

أحدُهما: قولُهُ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي لو سألتَهُمْ[1] مَنْ يَكلَؤُكُمْ مِنْ عذابِ الرحمنِ لأقرّوا لكَ أنّ الرحمنَ هو الذي يَكلَؤُهُمْ[2]، ويَحفظُهُمْ مِنْ عذابِ الرحمنِ، لا الآلهةُ التي يَعْبُدونَها. وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] وقولِهِ[3]: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ونَحْوُهُ، فَسَيَقولونَ: اللهُ، لا الآلهةُ التي يَعْبُدونها.

فَقُلْ أنتَ[4] كيفَ عَدَلْتُمْ عنْ عِبادَتِهِ، وعَبَدْتُمْ دونَهُ مَنْ لا يَكلَؤُكُمْ، ولا يَدْفَعُ عنكُمُ العذابَ، وقد عَرَفْتُمْ أنّ اللهَ هو الذي يَكلَؤُكُمْ بالليلِ والنهارِ، وهو إلهُ السمواتِ والأرضِ؟ فكيفَ عَبَدْتُمْ مَنْ ليسَ هو بإلهٍ؟ فيُخرَّجُ على[5] الاحتِجاجِ عليهِمْ ولزومِ الحُجّةِ لهمْ لئلا يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والثاني: يُخرَّجُ على التذكيرِ والتنبيهِ لهمْ لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ الرحمنَ، ويقولونَ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ويقولُ[6]: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فيُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي كيفَ تُنْكِرونَ الرحمنَ، وتكفُرونَ بهِ، وهو يَكلَؤُكُمْ بالليلِ والنهارِ عنْ عذابِهِ؟ وعلى هذا يُخرَّجُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بلْ هُمْ عنْ ذِكْرِ ربِّهِمُ الرحمنِ مُعْرِضونَ، أي مُنْكِرونَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي ليسَ لهمْ آلهةٌ مِنْ دونِنا، تَمْنَعُهُمْ مِنْ عذابِنا، هو على النّفْيِ، أي ليسَ لهمُ الآلهةُ مِنْ دونِهِ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ استِفهاماً. ثم بَيّنَ مَوضِعَ الاحتِجاجِ عليهِمْ، وهو ما أخبَرَ عنْ عَجْزِهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي لا تَستطيعُ الآلهةُ نَصْرَ أنفسِها إذا أرادوا بها سُوءاً ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يُنْصَرونَ.

تأويلُهُ: كيفَ[9] عَبَدْتُمْ مَنْ دونَهُ، واتَّخَذْتُموهُمْ آلهةً رجاءَ شفاعتِهِمْ ووَسيلَتِهِمْ [حينَ قُلْتُمْ:][10] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقُلْتُمْ[11]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨] فإذا كانوا لا يَملِكونَ نَصْرَ أنفسِهِمْ إنْ أصابَها سُوءٌ، ولا يَصْحَبُها مَنْ يدفَعُ عنها السُّوءَ، فكيفَ اتَّخَذْتُمْ آلهةً دونَهُ؟ فَمَنْ كانَ عنْ دفعِ السُّوءِ عنْ نفسِهِ ونَصْرِها عاجزاً فهو عنْ دفعِهِ عنِ الآخَرِ ونَصْرِهِ أعْجَزُ.

الآية ٤٤ ثم بَيّنَ الذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ، وهو ما قالَ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ ولم يأخُذْهُمْ[12] بالعقوبةِ بأعمالِهِمُ التي عَمِلُوها [وما ظَنّوا][13] أنّ اللهَ راضٍ عنهمْ وأنهمْ على الحقِّ. ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ادَّعوا رِضا اللهِ بما هُمْ عليهِ وآباؤُهُمْ.

ثم بَيّنَ أنهُ، وإنْ تَرَكَهُمْ وقتاً طويلاً، ومَتَّعَهُمْ عليهِ[14]، قد نَقَصَ ما[15] كانوا يَملِكونَ حينَ[16] غَلَبَ عليهِمْ رسولُ اللهِ على بَعْضِ أملاكِهِمْ، وجَعَلَهُ مُلْكاً لِلمُسلِمينَ، وهو قولُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [ثم اختُلِفَ في تأويلِ هذا. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾][17] أي اعلَموا ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي نَحشُرُهُمْ يومَ القيامةِ مِنْ أطرافِ الأرضِ إلى المَحشَرِ. فذلكَ نَقْصُها.

وقالَ غيرُهُ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنّ رسولَ اللهِ كلّما بُعِثَ إلى أرضٍ[18] ظَهَرَ عليها [وهو ما][19] قالَ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بالظُّهورِ عليها أرضاً فأرضاً ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي لَيسوا همُ الغالِبينَ، ولكنّ رسولَ اللهِ هو الغالبُ عليهِمْ.

وقالَ ابنُ عباسٍ ﴿نَنقُصُهَا﴾ بذهابِ فُقَهائِها وخِيارِ أهلِها. وقالَ قتادةُ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بالمَوتِ. وقالَ: لو كانتِ الأرضُ تَنْقُصُ لم يوجدْ لِلرَّجُلِ مَجْلِسٌ يَجْلِسُ فيهِ. ونَحْوَ هذا قد قالوا.

---

(١) في الأصل وم: سألتم. (٢) من م، في الأصل: يكلؤكم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ادرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: حيث قالوا.
(١١) في الأصل وم: ونَحْوُهُ وفي يقولهم. (١٢) من م، في الأصل: يأخذ. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ادرج بعدها في الأصل وم: أنهُ. (١٥) في الأصل وم: عما. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) من م، ساقطة من الأصل. (١٨) من م، في الأصل: الأرض. (١٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يُخرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهُما: [أنهُ][1] خرَجَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٤٥] إنهمْ كانوا يُنكِرونَ رسالَتَهُ، ويقولونَ: إنهُ بَشَرٌ، كيفَ خُصَّ هو بِهِ؟ فيقولُ: إني لَستُ أُنذِرُكُمْ لأني بَشَرٌ، ولكنْ ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ مِنَ اللهِ، وأنتُمْ ممّا لا تَقْبَلونَ بِشارَةَ ربّي ونِذارَتَهُ.

والثاني: [أنهُ][2] قالَ ذلكَ لِما تقَدَّمَ منهُ في الآياتِ [مِنَ][3] النِّذارةِ المُرْسَلَةِ غيرَ مضافَةٍ إلى اللهِ، فأمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ: إني في ما أنذَرتُكُمْ مِنَ النِّذاراتِ لم أُنذِرْكُمْ مِنْ ذاتِ نفسي، ولكنْ ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ مِنْ ربّي.

فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، إني في ما أُنذِرُكُمْ بالأُمَمِ[4] المُتَقَدِّمَةِ والأنباءِ التي أخبَرْتُكُمْ عنها ممّا لم أشْهَدْها، ولا أنتُمْ. بل ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ فذلكَ مَوضِعُ الاِحتِجاجِ/ ٣٤٠ ـ أ/ عليهِمْ في إثباتِ رسالَتِهِ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: إنَّ الأصمَّ[6] إذا أُريدَ أنْ يُدْفَعَ عنِ المهالكِ لا سَبيلَ أنْ يُدفَعَ عنها، ويُكَفَّ بالدعاءِ والنداءِ. ولكنْ إنما يُكَفُّ، ويُدفَعُ عنِ المهالكِ بالأيدي والراحاتِ؛ كأنهُ قالَ ذلكَ لمّا كثُرَ [دُعاؤُهُ إياهُمْ][7] إلى ما بِهِ نجاتُهُمْ، فأبَوا ذلكَ، ولم يُجيبوهُ، قالَ[8] حينَئذٍ ذلكَ إنكمْ لا تَسمَعونَ الدعاءَ والنداءَ إلى ما بِهِ نجاتُكُمْ، ولكنْ تَعرِفونَ ذلكَ بالقَتْلِ والسيفِ.

أو يقولُ[9] ذلكَ: إنكُمْ صُمٌّ عنِ الحقِّ حينَ لا تسمعونَهُ [كالأصَمِّ، لا يَسْمَعُ بالسَّمْعِ، والأصَمُّ][10] بالسَّمعِ لا يُدْعَى، ولا يُنادَى، لأنهُ لا يَسْمَعُ. ولكنْ يُدْعَى باليَدِ والإشارةِ. فَعَلَى ذلكَ أنتُمْ صُمٌّ عنِ الحقِّ، لا تُدْعَونَ بالنداءِ، ولكنْ بالذي يُعْرَفُ الدعاءُ، وهو اليَدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [قالَ الحَسَنُ ﴿نَفْحَةٌ﴾ أي طائفةٌ ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾][11] وقالَ بَعضُهُمْ: نَقْمَةٌ مِنْ ربِّكَ. وقالَ بَعضُهُمْ: عُقوبةُ ربِّكَ.

وأصلُ النَّفْحةِ الرَّمْيَةُ، ولذلكَ سُمِّيَتْ[12] نَفْحةُ الدابَّةِ، أي رَمْيَتُها، وهو ما ذُكِرَ مِنْ رَمْيِ الشَّرَرِ كقولِهِ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

[وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾][13].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنَّ الموازينَ هي القِسْطُ، والقِسْطُ هو العَدْلُ لأنهُ قالَ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ فَكَأنَّهُ قالَ: ونَضَعُ الموازينَ التي توضَعُ في الدنيا، وتُعْرَفُ بها حقوقُ الناسِ في الآخِرَةِ، العَدْلَ الذي بِهِ تُعْرَفُ حدودُ الأشياءِ وأقدارُها، فتكونُ الموازينُ العَدْلَ ما ذُكِرَ بقولِهِ: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي لا تَنْقُصُ مِنْ حسناتِهِ، أو تُزادُ على جَزاءِ سَيِّئاتِهِ. ولكنْ يُوفَى كلُّ جزاءِ عَمَلِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ على الإضمارِ، أي نَضَعُ المَوازينَ التي تكونُ في الدنيا يَومَ القيامَةِ بالعَدْلِ؛ لا نُطَفِّفُ، ولا نُنْقِصُ، ولا نُخسِرُ، كما تَفعَلونَ في الدنيا. ولكنْ نَعْدِلُ[14]، ولا نُطَفِّفُ، ولا نُنْقِصُ. ولكنْ نُسَوِّي، ونَسْتَوفي مُسْتَوياً مِنْ غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، لأنَّ الزيادةَ والنُّقصانَ إنما تكونُ في الشاهدِ لِوُجوهٍ: لِلْجهالةِ أو للحاجَةِ أو للجَورِ، فَيَحْمِلُهُ كلُّهُ على الزيادةِ والنقصانِ، واللهُ ﷻ يَتَعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ، غَنِيٌّ بذاتِهِ، عادلٌ، فلا وَجهَ لِلْخُسْرانِ منهُ والزيادةِ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي آتينا بِجَزائها، أو ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي بِعَينِها، لا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الأمة. (٥) في الأصل وم: رسالتهم.
(٦) في الأصل وم: الصم. (٧) في الأصل وم: دعاءهم. (٨) في الأصل وم: فقال. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: كالصم بالسمع والصم. (١١) من م، في الأصل: وقال بعضهم: طائفة من عذاب ربك. (١٢) في الأصل وم: سمى. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: العدل.

يفوتُه[1] شيءٌ، ولا يَغيبُ عنهُ. وليسَ المرادُ مِنْ ذِكرِ مِثقالِ حبَّةٍ ومِثقالِ ذرَّةٍ الذَّرَّةَ والحَبَّةَ. ولكنْ ذُكِرَ على التمثيلِ، أي لا يَفوتُ عنهُ شيءٌ، ولا يَغيبُ، ذلكَ المقدارُ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ غيرُ فائتٍ عنهُ، ولا مَنسِيٍّ، ولكنْ مَحفوظٌ مُحاسَبٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ لا تَشغَلُهُ كَثرَةُ الحسابِ وازدِحامُهُ، ليسَ كَمَنْ يُحاسِبُ آخَرَ في الشاهدِ؛ إنهُ إذا كَثُرَ الحِسابُ عليهِ، وازدَحَمَ، شَغَلَهُ ذلكَ عنْ حِفظِ الحسابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهو ما يُفرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ وبَيْنَ الشَّبيهِ والواضحِ وبَيْنَ ما يُؤتى، ويُتَّقى، وبَيْنَ ما عليهِمْ ولهمْ. والنورُ ما تَتَجلَّى بهِ حقائقُ الأشياءِ، والضياءُ هو ما يَظهَرُ بهِ حُسْنُ ما تَجلَّى، واستَنارَ. والروحُ[2] هو ما بهِ حياةُ كلِّ شيءٍ. والقرآنُ سَمَّاهُ رُوحاً لأنهُ بهِ حياةُ الدينِ. وسَمَّى الماءَ حياةً لأنهُ بهِ حياةُ الأبدانِ. والمُبارَكُ هو ما يُنالُ بهِ [ويُوصَلُ إلى][3] كلِّ خيرٍ. والذِّكرُ هو ما يَذكُرُ ما لهمْ وعليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَذِكْرًا﴾ قيلَ: هو المَوعِظةُ. والمَوعِظةُ قيلَ: هي التي تُلَيِّنُ القلوبَ، وتُوسِّعُ الصُّدورَ، وتَفسَحُ، ويَخشَعُ بها الفؤادُ.

وعلى هذا الوصفِ جميعُ كُتُبِ اللهِ الذي وَصَفَ هذا القرآنَ بها، ثم بَيَّنَ أنها على الوصفِ الذي ذَكَرَ لِمَنْ؟ فقالَ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وإنْ كانَتْ هي في أنفُسِها على الوصفِ الذي ذَكَرَ فإنها إنما تَتَجلَّى بها الشُّبَهُ مِنَ الحقائقِ والحَقُّ مِنَ الباطلِ لِمَنْ قَبِلَها، وأقبَلَ نَحوَها، ونَظَرَ إليها بِعينِ التعظيمِ والإجلالِ.

فأمّا مَنْ أعرَضَ عنها فَلَيسَتْ لهمْ على ما ذَكَرَ. لكنْ على ما أخبَرَ بقولِهِ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٦].

الآية ٤٩ ثم بَيَّنَ مَنِ المُتَّقونَ؟ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾][5] أي يَخشَونَ العذابَ الموعودَ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في الآخِرةِ، فَيَحذَرونَ ما بهِ يَحُلُّ ذلكَ. وأمّا الكفارُ فإنهمْ[6] لم يَخافوا العذابَ الموعودَ، ولم يُصدِّقوهُ. إنما يخافونَ العذابَ المُعايَنَ المُشاهَدَ. فأمّا العذابُ الموعودُ في الغيبِ فلا يخافونَهُ[7].

ويَحتَمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يَهابونَ ربَّهُمْ، ويَخافونَهُ، وإنْ لم يَرَوهُ لِما رَأَوا مِنْ آثارِ سُلطانِهِ ومُلْكِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ يَحتَمِلُ هُمْ مِنْ أهوالِ الساعةِ وأفزاعِها خائفونَ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: وهمْ مِنْ محاسَبَةِ أعمالِهِمْ مُشفِقونَ خائفونَ، فحاسَبوا أنفُسَهُمْ في الدنيا إشفاقاً على محاسَبَةِ أنفسِهِمْ في الآخِرَةِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ الذِّكرُ المبارَكُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ظاهرُهُ، وإنْ كانَ استِفهاماً فهو في الحقيقةِ إيجابٌ، كأنهُ قالَ: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ وتَعرِفونَهُ أنهُ كذلكَ، فأنتمْ في هذا، لهُ مُنكِرونَ؛ يَذكُرُ سَفَهَهُمْ، ويُخبِرُ عنْ عِنادِهِمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قالَ[8] الحَسَنُ: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ دِينَهُ وهُداهُ. وقالَ غيرُهُ: ﴿رُشْدَهُۥ﴾ النُّبُوَّةَ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ حُجَجَهُ وبَراهينَهُ التي حاجَّ بها قومَهُ على غيرِ تعليمٍ مِنْ أحدٍ.

وفيهِ دلالةُ أنْ ليسَ كلُّ رُشدٍ وهُدًى بياناً[9]، لأنهُ لو كانَ كلُّهُ بياناً[10] لم يكُنْ لِتَخصيصِ إبراهيمَ بالرُّشدِ كثيرُ مَعْنًى؛ إذْ هو في ذلكَ وغيرِهِ مِنَ الكَفَرَةِ والفراعِنَةِ سَواءٌ. فدلَّ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أنهُ يكونُ مِنَ اللهِ لِلْمُهتَدينَ فَضلُ صُنعٍ، ليسَ ذلكَ في الكافرينَ، وهو التوفيقُ والعِصمَةُ.

---

(١) من م، في الأصل: يفوت. (٢) في الأصل وم: روح. (٣) في الأصل وم: ويصل إليه من. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) في الأصل وم: يخافون. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: بيان. (١٠) في الأصل وم: بيان.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ قَبْلِ الأوقاتِ التي يُعْطي البَشَرَ الرشْدَ، وهو حالُ الصِّغَرِ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي مِنْ قَبْلِ محمدٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ موسى وهارونَ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قبلَ إيمانِ أهلِ الأديانِ كلِّها، لأنَّ جميعَ أهلِ الأديانِ يَدَّعونَ أنهمْ على دينِ إبراهيمَ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ دِينُهُ ورُشْدُهُ الذي آتاهُ اللهُ هو كلَّ ذلكَ، بل إنما كانَ ذلكَ واحداً[1]. فَوَجَبَ النَّظَرُ فيهِ والتَّأمُّلُ في ذلكَ لِيَظْهَرَ الدينُ الذي كانَ عليهِ إبراهيمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي كُنّا بجميعِ ما يكونُ مِنْ إبراهيمَ عالِمِينَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ﴾ اتَّخَذْتُموها ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ﴾ اتَّخَذْتُموها ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي إنما يُعْبَدُ مَنْ يُعْبَدُ لِفِعْلٍ يكونُ مِنَ المَعْبودِ إلى مَنْ يَعْبُدُهُ. فأمّا أنْ يُعْبَدَ بما يُفْعَلُ بالمَعْبودِ فلا يُحْتَمَلُ. وهو ما قالَ إبراهيمُ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥و٩٦] يُسَفِّهُهُمْ، ويَعيبُ عليهِمْ عِبادَتَهُمْ[2] ما يَنْحِتونَ بأيديهِمْ، ويَتْرُكونَ عبادةَ مَنْ خَلَقَهُمْ، وخَلَقَ أعمالَهُمْ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ قد انْقَطَعَ حِجاجُهُمْ لمّا قالَ إبراهيمُ ما قالَ، وأظْهَرَ سَفَهَهُمْ، فَفَزِعوا إلى تَقْليدِ آبائِهِمْ،/ ٣٤٠ ـ ب/ فقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يُنْكِرْ عليهِمْ فِعْلَ آبائهمْ وعِبادَتَهُمُ الأصنامَ، ولكنْ أقرَّ لهمْ بِصنيعِ آبائِهِمْ، ثم جَمَعَهُمْ وآباءَهُمْ، وأخبَرَ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بعبادةِ الأصنامِ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ لمّا عَلِموا أنَّ مِثْلَ هذا القولِ لا يقولُ إلّا مَنْ كانَ عندَهُ حُجّةٌ وبرهانٌ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ بما تقولُ بِحُجَّةٍ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ تَلْعَبُ بنا، وتَهزَأُ؟

الآية ٥٦ وأخبَرَهُمْ[4] أنهُ جاءَهُمْ بالحقِّ، وبَيَّنَ لهمْ ذلكَ الحقَّ، فقالَ: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها، أي ربُّكُمْ ربُّ السمواتِ والأرضِ الذي يُعْرَفُ بالدلالاتِ والبراهينِ وآثارِ الصَّنْعَةِ في غَيرِهِ لا الذي أحْدَثْتُمْ أنتمْ، واتَّخَذْتُموهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وأنا على جميعِ ما قالَ، وكانَ منهُ مِنَ الحِجاجِ وإقامةِ الحُجَجِ على ألوهيَّتِهِ تَعالى، وتَسْفيهِ أولئكَ في عبادةِ الأصنامِ مِنَ الشاهدينَ، أو مِنَ الشاهِدينَ على خَلْقِها. ويجوزُ أنْ يُقالَ: الشاهدُ المُبَيِّنُ، وأنا على ذلكمْ مِنَ المُبَيِّنينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ الأصنامُ، لا يُقْصَدُ إليها بالكَيدِ، لكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، لأكيدَنَّ لكمْ في أصنامِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ إبراهيمَ إنما قالَ ذلكَ: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عنِ الأصنامِ إلى عيدِكُمْ، لأنهمْ كانوا يَخْرُجونَ إلى عيدِهِمْ مِنَ الغَدِ، فقالَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي لأكيدَنَّ لكمْ في أصنامِكُمْ ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيدِكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عَنّي. وكانوا في ذلكَ الوقتِ بِحَضْرَةِ الأصنامِ. ألا تَرى أنهُ قالَ لهمْ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ [و ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ . . .][5] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عَنّي.

على التأويلِ [الأوّلِ][6] يكونُ تَوَلِّيهِمُ الأدبارَ عنِ الأصنامِ إلى عيدِهِمْ. وعلى التأويلِ الثاني يكونُ تَوَلِّيهِمُ الأدبارَ عنْ إبراهيمَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) في الأصل وم: لعبادتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: وأخبره، في م: وأخبر. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ و ﴿جُذَاذًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قِطعاً. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿جُذَاذًا﴾ فُتاتاً، وكلُّ شيءٍ، كَسَرْتَهُ، جَذَذْتَهُ، ومنهُ قيلَ لِلسَّويقِ جَذيذٌ، والجَذُّ هو القَطْعُ، والمَجْذوذُ المَقْطوعُ، وذلكَ قولُهُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي غيرَ مَقْطوعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ لم يَكْسِرْهُ[1] ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يقولُ: إلى الصنمِ الأكبرِ الذي لم يَكْسِرْهُ إبراهيمُ، ﴿يَرْجِعُونَ﴾ مِنْ عيدِهِمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: لعلَّهُمْ إلى الحُجَّةِ يَرْجعونَ. وقيلَ: [إلى الصَّنَمِ، وهو][2] أحجُّ القولَينِ، أي مِنَ الحُجَّةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي يَتَذَكَّرونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي يَرْجِعونَ إلى ما يُريدُ أنْ يَكيدَ لهمْ في أصنامِهِمْ، لأنهُ إنما يُريدُ أنْ يَكيدَ لهمْ إذا رَجَعوا إلى الأصنامِ، فَرَأوها مَجْذوذَةً. والكَيْدُ هو الأخذُ على الأمْنِ. وكذلكَ المَكْرُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لو تأمَّلوا كانوا هُمُ الظَّلَمَةَ في الحقيقةِ لأنهمْ كانوا يَعْبدونَ تلكَ الأصنامَ رَجاءَ مَنْفَعَةٍ تكونُ لهمْ حينَ[3] قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[4]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فإذا رَأوهُمْ لا يَقْدِرونَ على دَفْعِ الكَسْرِ والقَطْعِ عن أنفُسِهِمْ ودَفْعِ مَنْ فَعَلَ بهمْ ذلكَ كيفَ طَمِعوا منها نَفْعاً أو دَفْعَ الضُّرِّ عن أنفسِهِمْ، لأنَّ مَنْ عَجِزَ عن [دَفْعِ الضُّرِّ عنْ نَفْسِهِ فهو][5] عنْ دَفْعِهِ عنْ غيرِهِ أعْجَزُ.

فهمُ الظَّلَمَةُ في الحقيقةِ حينَ[6] طَمِعوا النَّفْعَ ودَفْعَ الضُّرِّ مِمَّنْ لا يَمْلِكُ ذلكَ لنفسِهِ. لكنْ قالوا ذلكَ سَفَهاً[7] منهمْ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالكَيْدِ لهمْ ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالعَداوةِ، وهو حينَ قالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] أخبَرَ أنَّ أولئكَ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ أعداءٌ لهُ؛ فالمَعْبودُ الذي عَبَدوهُ يكونُ عَدُوّاً لهُ أيضاً. فاسْتَدَلّوا بذلكَ القولِ منهُ أنهُ هو فَعَلَ بهمْ ما فَعَلَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: على رؤوسِ الناسِ. وقيلَ: بِحَيثُ يَراهُ الناسُ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: يَشْهَدونَ عُقوبَتَهُ بما فَعَلَ بأصنامِهِمْ، فيكونُ نَكالاً لهُ وزَجْراً لِغَيرِهِ عنْ أنْ يَفْعَلَ [بها مِثْلَ ما فَعَلَ][8] هو. وذلكَ [ما][9] ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨ والعنكبوت: ٢٤] ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بِفِعْلِهِ الذي فَعَلَ بالأصنامِ. ولم يُريدوا أنْ يُعاقِبوهُ بلا بَيِّنَةٍ ولا حُجَّةٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ انهُ قالَ لآلهتِهِمْ ما قالَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ اخْتُلِفَ في هذا؛ قالَ بَعْضُهُمْ: هذا القولُ مِنْ إبراهيمَ كَذِبٌ في الظاهرِ في ما أرادَ أنْ يَكيدَ لهمْ، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ عندَهُ كَذِباً، وكذلكَ ما قالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وكانَ صحيحاً، وقولُهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٧و٧٨] ومِثْلُ هذا قالوا: هذا في الظاهرِ [كَذِبٌ، وإنْ لم يُرِدْ هو بهِ في الحقيقةِ كَذِباً.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنهُ إنما قالَ ذلكَ على أنْ يُرِيَهُمْ مِنْ نفسِهِ المُوافَقَةَ لهمْ في الظاهرِ لِيَكونوا لِلْحُجَجِ أسْمَعَ ولِلْبَراهينِ أقْبَلَ. فيكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، لَعَلَّ كبيرَهُمْ فَعَلَ بهمْ هذا، أو أنْ يقولَ: أكْبَرُهُمْ[10] فَعَلَ هذا بهمْ. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٧و٧٨].

---

(١) من م، في الأصل: يكسرهم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) تقدمت في الأصل وم على: ذلك. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في م: أكبر.

قالَ بَعْضُهُمْ: ليسَ هذا، ولا فيهِ كَذِبٌ في الظاهرِ][١] ولكنْ قالَ ذلكَ على الشَّرْطِ حينَ[٢] ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ عَلَّقَ فِعْلَهُ بِشَرْطِ النُّطْقِ. فإذا كانوا لا يَنْطِقونَ لم يَفْعَلْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي سأسْقَمُ، وكُلُّ حَيٍّ يَسْقَمُ يوماً. وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦و٧٧و٧٨] أي ليسَ هذا ربِّي. ومِثْلَ هذا قد قالوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي رَجَعوا إلى أنفسِهِمْ باللائمةِ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ في ما بَيْنَهُمْ ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

[أحدُها:][٣] ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حينَ[٤] نَسَبْتُمُ الفِعْلَ بهذِهِ الأصنامِ والكَسْرِ إلى إبراهيمَ، وقُلْتُمْ إنهُ فَعَلَ ذلكَ بهِمْ، وإنما فَعَلَ بهِمْ هذا كبيرُهُمْ لِما وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ كبيرَهُمْ هو الذي فَعَلَ بهِمْ.

والثاني: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حينَ[٥] اتَّخَذْتُمْ مَعَ كبيرِهِمْ آخَرينَ شُركاءَ في العِبادةِ حتى غَضِبَ عليهِمْ، فَكَسَرَهُمْ.

والثالثُ[٦]: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يَعْنونَ الأصنامَ المَكْسورَةَ: يا هؤلاءِ إنكمْ أنتُمُ الظالمونَ حينَ[٧] حَمَلْتُمُ الكبيرَ على كَسْرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ بما أرادوا بذلكَ.

ولا يجوزُ لنا أنْ نزيدَ، أو نَنْقُصَ في هذهِ الأنباءِ المذكورةِ في الكتابِ، أو نَقْطَعَ على جِهَةٍ دونَ جِهَةٍ، لأنها ذُكِرَتْ لِيُحْتَجَّ عليهِمْ بما في كُتُبِهِمْ. فلو زِيدَ، أو نُقِصَ، قُطِعَ على جهةٍ دونَ [جِهَةٍ][٨]، وذهبَ[٩] الاحتِجاجُ بها عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ قولُهُ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ لِلتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في قولِ إبراهيمَ حينَ[١٠] ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] إنما عَلَّقَ فِعْلَ الكبيرِ بهِمْ إنْ نَطَقوا، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾/ ٣٤١ ـ أ/ يا إبراهيمُ ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيفَ قُلْتَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾؟ فإذا كانوا لا يَنْطِقونَ لم يَفْعَلْ كبيرُهُمْ.

الآية ٦٦ [وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ [مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فإنْ قيلَ: إنَّ إبراهيمَ لم يَحتجَّ عليهِمْ أنْ كيفَ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ][١٢] ما لا يَنْطِقُ؟ ولكنْ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟ قيلَ: قد كانَ احتجَّ عليهِمْ [مِنْ ذلكَ النوعِ حينَ][١٣] ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾؟ [الشعراء: ٧٢و٧٣].

وبَعْدُ فإنهُ قد احتجَّ عليهِمْ][١٤] بِعَجْزِهِمْ عنِ النُّطْقِ حينَ[١٥] قالَ: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. ثم قالَ ههنا ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ إنْ عَبَدْتموهُمْ ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنْ تَرَكْتُمْ عبادَتَهُ.

الآية ٦٧ [وقولُهُ تعالى][١٦]: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أفٌ هو كلامُ كلِّ مُسْتَخِفٍّ بآخَرَ ومُسْتَحْقِرٍ لهُ في فِعْلِهِ. يقولُ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ فإبراهيمُ حينَ[١٧] قالَ [ذلكَ لهمْ إنما قالَ][١٨] استِخْفافاً بهِمْ وبِما عَبَدوهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ عبادةَ مَنْ لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ، لا يَصْلُحُ، ولا يَحِلُّ؟ وفي أنباءِ إبراهيمَ خِصالٌ ليسَتْ تلكَ في غَيرِها مِنَ الأنباءِ:

إحداها: أنهُ لم يَتْرُكْ صَنَماً كانَ يُعْبَدُ دونَ اللهِ إلّا وقد نَقَضَ ذلكَ.

والثانيةُ: أنهُ حاجَّ قومَهُ أوّلاً في فَسادِ مذاهِبِهِمْ وفَسادِ ما اعْتَقَدوهُ، ثم بَعْدَ ذلكَ أقامَ عليهِمْ حُجَجَهُ وبراهينَهُ، لأنهُ ﴿قَالَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: أو أن يكون قوله. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يذهب. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ثم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في م: حيث. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: حيث. (١٨) من م، ساقطة من الأصل.

هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] و﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] و﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فلمّا أراهُمْ فسادَ مذهبهِمْ، فعِنْدَ ذلكَ ذَكَرَ حُجَجَهُ وبَراهينَهُ حينَ[1] قالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وقالَ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

وهكذا الواجبُ على كلِّ مُتناظِرٍ أنْ يَبْدَأَ أوّلاً بإظهارِ فَسادِ مَذْهبِ خَصْمِهِ. فإذا أراهُ فسادَ مذهبِهِ فحينئذٍ يَذْكُرُ حُجَجَ مَذْهَبِهِ وبراهينَ ما يَعْتَقِدُ ليكونَ لها أَسْمَعَ وعندَ إقامتِها أَقْبَلَ.

والثالثةُ[2]: أنهُ لم يُبْتَلَ نَبِيٌّ قطُّ بِفِرْعَونٍ مِثْلَ فِرْعَونِهِ ولا قومٍ مِثْلَ قومِهِ في السَّفَهِ والبُغْضِ والهَمِّ بِقَتْلِهِ في النارِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ خُصوصِيَّتُهُ بالخِلْقَةِ[3] لِهذهِ الخِصالِ التي ذَكَرْناها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ هذا ظاهرٌ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ أي جَعَلَها في الخِلْقَةِ بَرْداً وسلاماً على إبراهيمَ خاصّةً. وأمّا على غَيرِهِ فهي على ما هيَ في طَبْعِها مِنَ الإحراقِ والحَرِّ، فيكونُ ذلكَ مِنْ أعظَمِ آياتِ رسالةِ إبراهيمَ ونُبُوَّتِهِ، أو أنْ يكونَ على الوَحْيِ والإلهامِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهُ أوحَى لها: أنْ ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

لكنهُ إنْ كانَ على هذا فجائزٌ أنْ يَجْعَلَ في سِرِّيَّتِها ما تَفْهَمُ أمْرَهُ، ويُمَكِّنَ فيها ما تَفْطَنُ ذلكَ، فلم تَحْرُقْهُ وقولُ أهلِ التأويلِ: إنها بَرَدَتْ حتى لم يَنْتَفِعْ بها أهلُ المَشْرِقِ وأهلُ المَغْرِبِ ثلاثةَ أيامٍ، فذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالسَّمْعِ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ الكَيدُ هو الأخذُ مِنْ حيثُ الأمْنُ. فجائزٌ أنْ يكونوا كادوهُ أنْ حَبَسُوهُ في مَوضعٍ، ثم جَمَعوا عليهِ الحَطَبَ مِنْ غيرِ أنْ عَلِمَ هو ذلكَ، ثم أوقَدوا عليهِ النارَ، أو أنْ أخذوهُ مُخافَضَةً[4]، فجَعَلوهُ في المِنْجَنيقِ، ثم رَمَوهُ في النارِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، أو أنْ يكونوا كادوهُ كَيداً آخَرَ سِوَى ذلكَ لم يُذْكَرْ. فَنَحْنُ لا نَعْلَمُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ لا شَكَّ أنهمْ في الآخِرَةِ مِنَ الأخسَرينَ. وأمّا خُسْرانُهُمْ في الدنيا فلا نَعْلَمُ ما ذلكَ الخُسْرانُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وذلكَ أنهُ لمّا جُعِلَ في النارِ أنجاهُ اللهُ منها، وجَعَلَها عليهِ بَرْداً وسلاماً، وأمَرَهُ اللهُ تعالى بالخُروجِ إلى الأرضِ المُقَدَّسَةِ، فخَرَجَ إليها، فطَلَبوهُ، وبَعَثَ مَلِكُهُمْ إلى أصحابِ المَناظِرِ، فقالَ: لا يَمُرُّ بكُمْ إنسانٌ يَتَكَلَّمُ بالسِّرْيانِيَّةِ إلا حَبَسْتُموهُ. قالوا[5]: فحَوَّلَ اللهُ لسانَهُ، [فَجَعَلَهُ يَنْطِقُ][6] بالعبرانيَّةِ؛ فَمَرَّ بهِمْ، فغُيِّرَ عليهِمْ، فانطَلَقَ إبراهيمُ مُتَوَجِّهاً نَحْوَ أهْلِهِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي الأسفَلينَ، وأعلاهُمْ أبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ دلَّ هذا أنَّ إبراهيمَ كانَ كالمُشْرِفِ على الهلاكِ لأنَّ لَفْظَةَ النَّجاةِ لا تُقالُ إلّا في ما كانَ هنالكَ إشرافٌ على الهلاكِ. وفيهِ أنَّ لوطاً كانَ مَعَهُ، وإنْ كانَ إبراهيمُ هو المُمْتَحَنَ في ذلكَ، وهُمْ كانوا يَقْصِدونَ قَصْدَ إهلاكِ الرُّسُلِ والأتباعِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: بَرَكَتُهُ لِما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] كثيرةِ المياهِ والنَّبْتِ ونَحْوَهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: الثالث. (٣) في الأصل وم: بالخلة. (٤) في الأصل وم: مغافضة. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بَعضُهُمْ: بَرَكَتُهُ سَعَتُهُ على أهلِها. وقالَ بَعضُهُمْ: بَرَكَتُهُ لأنها كانَتْ مكانَ الأنبياءِ والرسلِ، وصارَتْ[1] مُبارَكَةً بإبراهيمَ ولوطاً، لِما بِهِمْ ظَهَرَ الإسلامُ هنالكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قالَ بَعضُهُمْ: النافلَةُ العَطِيَّةُ. وقالَ بَعضُهُمْ: النافلَةُ الفَضلُ.

وأصلُ النافلَةِ الغَنيمةُ كقولِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١] أي الغنائم. والوَلَدُ وَوَلَدُ الوَلَدِ فَضلٌ منهُ وعَطِيَّةٌ وغنيمةٌ، لأنهُ سَمَّى الوَلَدَ هبَةً بقولِهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] وسَمَّى [الوالدَ مُوهَباً][2] وخاصةً إبراهيمَ [إذْ][3] لم يَكُنْ يَطْمَعُ أنْ يُولَدَ لهُ الولَدُ، فكيفَ يَطْمَعُ بولدِ[4] الوَلَدِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ رُسُلاً، أو ﴿صَٰلِحِينَ﴾ في كلِّ أمْرٍ وكلِّ شيءٍ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادةً في أمرِ الدينِ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يَدْعونَ الناسَ بأمْرِنا كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي داعٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي يَهْدونَ الناسَ إلى ما بِهِ أمْرُ اللهِ وإلى دِينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾ أنهمْ كانوا رسلاً. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فِعْلَ العباداتِ][5].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ فيهِ أنَّ الصلاةَ والزكاةَ كانَتا في شرائعِ المُتقدِّمينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ موحِّدينَ، أو عابِدينَ لهُ في كلِّ وَقْتٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: حُكماً؛ يعني النُّبوَّةَ، وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿حُكْمًا﴾ أي الفَهْمَ والعَقْلَ ﴿وَعِلْمًا﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حُكْمًا﴾ أي الحُكمَ بينَ الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ أي العِلْمَ الذي كانَ بِهِ يَحْكُمُ بينَ الناسِ.

ومَنْ قالَ: ﴿حُكْمًا﴾ هو النُّبوَّةُ قالَ: لأنَّ الأنبياءَ إنما يَحْكُمونَ بينَ الناسِ بالنُّبوَّةِ. فَكَنَّوا بالحُكمِ عنِ النُّبوَّةِ. ومَنْ قالَ بالفَهْمِ فهو لأنهُ إنما يَحْكُمُ بينَ الناسِ بَعْدَ ما فَهِمَ مِنَ الخُصومِ، وإلّا حاصلُ الحُكْمِ هو الحُكْمُ بَينَ الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ أي العِلْمَ الذي بِهِ يَحْكُمُ، أو ﴿وَعِلْمًا﴾ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أضافَ عَمَلَ الخَبائِثِ إلى القَرْيَةِ. ومَعْلومٌ أنَّ القَرْيَةَ لا تَعْمَلُ شيئاً، لكنَّ مَعْناهُ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى﴾ كانَ أهلُها يَعْمَلونَ الخَبائِثَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ. وقولُهُ: ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كلُّ أنواعِ الخُبْثِ مِنَ الكُفرِ والتكذيبِ بالآياتِ واللُّواطَةِ وغَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ أي كانوا قَومَ سَوءٍ في أفعالِهِمْ وأعمالِهِمُ التي كانوا يَعْمَلُونَها ﴿فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجينَ عنْ أمْرِ اللهِ تاركينَ لهُ. والفِسْقُ هو الخُروجُ عنِ الأمْرِ.

الآية ٧٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾][6] لأنهُ بِرَحْمَتِهِ يُدْخَلُ فيها، ويُدْرَكُ[7]. وقالَ بَعضُهُمْ[8]: ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي نِعْمَتِنا، ونِعْمَتُهُ النُّبوَّةُ كقولِهِ [عَنْ عيسى][9]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]/٣٤١ ـ ب/ بالنُّبوَّةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي أعْطَيناهُ كلَّ أنواعِ الخَيرِ بِرَحْمَتِنا؛ إذْ كلُّ مَنْ أصابَ خيراً في الدنيا والآخِرَةِ إنما يُدْرِكُهُ بِرَحْمَتِهِ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الولد مواهباً. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: ويترك. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) في الأصل وم: لعيسى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِنَ النَّبِيِّينَ، أو ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لأنهُ[1] كانَ يَعْمَلُ بكلِّ أنواعِ الصلاحِ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ قَبْلِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ لأنهُ ذَكَرَ هؤلاءِ على إِثْرِهِ. ثم اخْتُلِفَ في ندائِهِ. قالَ بَعْضُهُمْ: نِداؤُهُ، هو قولُهُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وقالَ بَعْضُهُمْ: نِداؤُهُ هو قولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥و٦] أو يكونُ ذلكَ قولَهُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقولَهُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ الآية [نوح: ٢٨] وأمثالَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أهْلُهُ أتباعُهُ مِنْ أهْلِهِ وغيرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو الغَرَقُ والهَوْلُ الشديدُ الذي كانَ بِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الكَرْبُ العظيمُ هو [ما قاسى][2] مِنْ قومِهِ، ولَقِيَ مِنْهُمْ بِدُعائِهِ إيّاهُمْ إلى دينِ اللهِ في تِسْعِ مِئَةٍ وخَمْسِينَ عاماً وما كانوا يَسْخَرونَ بهِ، ويُؤْذونَهُ مِنْ أنواعِ الأذى كقولِهِ: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الأذى الذي قاساهُ منهمْ، فأنجاهُ مِنْ ذلكَ الكَرْبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وفي حَرْفِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والنَّصْرُ هو اسمٌ لِأمْرينِ: اسمٌ لِلْمَنْعِ واسمٌ لِلظَّفَرِ. فَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي مَعْناهُ مِنْ أنْ يَقْتُلَهُ قومُهُ، ويُهْلِكوهُ؛ والنَّصْرُ المَنْعُ كقولِهِ: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] أي لا مانعَ لهمْ. ومَنْ قَرَأَ: على القومِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي[3] أظفَرْناهُ على قومِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقد كانَ لهُ الأمرانِ جميعاً: المَنْعُ والظَّفَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ أفعالِهِمْ وأعمالِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ حتى لم يَنْجُ منهمْ أحَدٌ. قالَ أبو عوسَجَةَ: الكَرْبُ واحدٌ، وجَمْعُهُ كُروبٌ، وهي[4] الهُمومُ والشدائدُ، والكُرْبَةُ واحدةٌ، والكُروبُ جميعٌ، وهو مِثْلُ [جَمْعِ][5] الكَرْبِ؛ قالَ: والأكرابُ يكونُ للدِّلاءِ، وهي جَماعَةُ الكَرَبِ، وهو حَبْلٌ يُشَدُّ في عَراقِي الدَّلْوِ، وعَراقِي الدَّلْوِ خَشَباتُ الدَّلْوِ، الواحدةُ عَرْقُوَةٌ؛ قالَ: والكَرّابُ الحَرّاثُ.

الآيتان ٧٨ و٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الآية. قالَ بعضُ الناسِ: دلَّ تَخْصيصُ سُليمانَ بالتَّفْهيمِ على أنهُ لم يُفَهِّمْ داوُدَ ذلكَ. ويَدُلُّ على ذلكَ وجوهٌ:

أحَدُها: إشراكُهُ ﷻ إياهُما جميعاً في الحُكْمِ والعِلْمِ وغيرِهِ حينَ[6] قالَ: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ وقالَ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] ذَكَرَ ما كانا مُشْتَرِكَيْنِ فيهِ، وخَصَّ سُليمانَ بالتَّفْهيمِ. فَدَلَّ التَّخْصيصُ بالشيءِ على أحَدِهِما، والإشراكُ في الآخَرِ على أنهُ كانَ مَخْصوصاً بهِ دونَ الآخَرِ.

والثاني: أنَّ هذهِ الأنباءَ إنما ذُكِرَتْ لنا لِنَسْتَفيدَ بها عِلْماً لم يكُنْ. فلو لم يكُنْ سُليمانُ مَخْصوصاً بالفَهْمِ دونَ داوُدَ لكانَ يُفيدُنا سِوَى الحُكْمِ والعِلْمِ، وكنّا نَعْلَمُ أنهما قد أُوتِيا حُكْماً وعِلْماً، وكانا يَحْكُمانِ بالعِلْمِ. فإذا كانَ كذلكَ فَدَلَّ التَّخْصيصُ بالتَّفْهيمِ لأحدِهِما على أنَّ الآخَرَ لم يكُنْ مُفَهَّماً ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: فيهِ دلالةٌ أنَّ المُجْتَهِدَ إذا حَكَمَ، وأصابَ الحُكْمَ، أنهُ إنما أصابَ بِتَفْهيمِ اللهِ إيّاهُ وبِتَوْفيقِهِ حينَ[7] أخبَرَ أنهُ قد آتاهُما جميعاً العِلْمَ، ثم خَصَّ سليمانَ بالتَّفْهيمِ، والتَّفْهيمُ هو فِعْلُ اللهِ حينَ[8] أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) من م، في الأصل: القاسي. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٤٣. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث.

ثم إنْ كانَ ما ذَكَرْنا كانَ في ذلكَ دلالةٌ لأصحابِنا في مَنْ قَتَلَ مُسلِماً في دارِ الحَرْبِ، أسْلَمَ هنالكَ، أنَّ عليهِ الكفارَةَ، وليسَتْ عليهِ الدِّيَةُ حينَ[1] قالَ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] ذَكَرَ في الأوّلَينِ الدِّيَةَ والكَفارةَ جميعاً، ثم خَصَّ الثالثةَ بِذِكْرِ الكَفّارةِ دونَ الدِّيَةِ، فَدَلَّ التخصيصُ له بأحَدِهما على أنْ ليسَ عليهِ الآخَرُ، لأنهُ لو لم يكُنْ كذلكَ لكانَ يَذْكُرُ في الأوّلِ الدِّيَةَ والكَفّارةَ، ولا يَذْكُرُ في الآخَرَينِ، أو لا يَذْكُرُ ذلكَ كُلَّهُ في الكُلِّ. فإذا لم يَفعَلْ هكذا، ولكنهُ ذَكَرَ كلَّ الواجبِ في الإثْنَينِ على الإبلاغِ، وتَرَكَ في الواحِدِ أحَدَهُما، وذَكَرَ الآخَرَ. فَدَلَّ تَخصيصُ الثالثِ بأحَدِ الحُكْمَينِ على أنْ ليسَ عليهِ الآخَرُ.

ثم اسْتَدَلُّوا بهذهِ الآيةِ على جوازِ العَمَلِ والقضاءِ باجْتِهادِ الرأيِ. فمنهُمْ مَنِ اسْتَدَلَّ بإصابةِ المُجتَهِدِ في ما يَجتَهِدُ، وإنْ يُصِبْ هو الحُكْمَ الذي هو حُكْمٌ عندَ اللهِ فيهِ حقيقةً، وهو قولُ[2] مَنْ يَقولُ: كلُّ مُجتَهِدٍ مُصيبٌ في ما عليهِ مِنَ الاجْتِهادِ في تلكَ الحادثةِ، وهو قولُ أبي يوسفَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ.

ومنهُمْ مَنْ يَستَدِلُّ بهِ بِخَطَإِ أحدِ المُجتَهِدينَ وعُذْرِهِ في خَطَئِهِ، فيذهَبُ إلى أنَّ المَقصودَ ممّا كُلِّفَ مِنَ الحُكْمِ في ذلكَ واحدٌ لا [حُكْمانِ مُختَلِفانِ][3] فإذا كانَ المَقصودُ ممّا كُلِّفَ مِنَ الحُكْمِ فيهِ واحداً فلا يجوزُ أنْ يَحكُمَ اثْنانِ في شيءٍ واحدٍ بِحُكمَينِ مُختَلِفَينِ، والمقصودُ فيهِ واحدٌ، فيكونانِ جميعاً [مُصيبَينِ حينَ][4] خَصَّ أحدَهُما بالتَّفهيمِ بقولِهِ: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ فلو كانا جميعاً مُصيبَينِ كانا جميعاً مُفَهَّمَينِ.

فإذا أخبَرَ أنهُ فَهَّمَ سليمانَ، ولم يُفَهِّمِ الآخَرَ، دلَّ أنَّ المُصيبَ، هو المُفَهَّمُ منهما، وهو قولُ أبي حَنيفةَ وبِشْرٍ وغَيرِهِما.

ومَنِ اسْتَدَلَّ بإصابةِ، يَستَدِلُّ بقولِهِ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فَدَلَّ ذلكَ على أنهُ لم يكُنْ عليهما غَيرُ ما فَعَلا، وحَكَما فيهِ، وإنْ لم يُصيبا الحُكْمَ الذي هو حُكْمُ حقيقةٍ عندَ اللهِ.

ثم ذَكَرَ في الآيةِ أنهما يَحكُمانِ في الحَرْثِ، ولم يَذْكُرْ أنهما حَكَما بالضمانِ أوِ البراءةِ عنِ الضمانِ أو كيفَ كانَ حُكْمُهما؟ فَدَلَّ تَرْكُ بيانِ ما حَكَما فيهِ على أنْ ليسَ علينا ذلكَ الحُكْمُ؛ إذْ بَيَّنَ لنا ما علينا العَمَلُ فيهِ. فَدَلَّ بَيانُ أحَدِهِما وتَرْكُ بَيانِ الآخَرِ على أنْ ليسَ علينا الذي تَرَكَ ذِكْرَهُ وبَيانَهُ.

إلّا أنَّ أهلَ التأويلِ حَمَلوا حُكْمَهما على الضمانِ والبراءةِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ «رُوِيَ أنَّ ناقةً لرجلٍ هاربةً، دَخَلَتْ حائطَ رجلٍ، فأفسَدَتْ ما فيهِ، فَكَلَّمَ رسولَ اللهِ فيها، فَقَضى أنَّ حِفْظَ الحوائطِ بالنهارِ على أهْلِها، وأنَّ حِفظَ المواشي بالليلِ على أهلِها، وأنَّ على أهلِ الماشيةِ ما أصابَتْ ماشِيَتُهُمْ بالليلِ» [أحمد ٥/ ٤٣٦].

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ما أصابتِ الماشيةُ بالليلِ فَعَلَى أهْلِها، وما أصابَتْ بالنهارِ فليسَ على أهْلِها منهُ شيءٌ» [السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٦٤٧] لكنَّ الخَبَرَ إنما جاءَ في المدينةِ. وفي المدينةِ إنما تُرْعَى الماشيةُ في السِّكَكِ، إذْ ليسَ لها مَراعٍ.

ونحنُ نقولُ: إنَّ مَنْ أرسَلَ ماشِيَتَهُ في مكانٍ لا مَرْعَى لها إلّا كَرْمُ إنسانٍ أو حائطٌ، فأفسَدَتْهُ[5]، فإنا نوجِبُ الضمانَ ضَمانَ ما أفْسَدَتْ. وهو كَمَنْ يُرْسِلُ [الماءَ][6] في مُلْكِهِ في مكانٍ، لا يَقَرُّ فيهِ، فَتَعَدَّى إلى مُلْكِ جارِهِ فأفْسَدَهُ. فعليهِ ضمانُ ما أفْسَدَهُ منهُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يَجعَلُ الخَبَرَ مَنْسوخاً بما جاءَ «جُرْحُ العَجْماءِ جُبارٌ» [بنحوه مسلم ١٧١٠] لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا. وإنما يكونُ جُرْحُها جُباراً إذا تَعَدَّتْ مِنْ غَيرِ إرسالِ صاحِبِها. فأمّا إذا كانَ بِصُنْعِ صاحِبِها فَعَلَيهِ/ ٣٤٢ـ أ/ الضمانُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: القول. (٣) في الأصل وم: حكمين مختلفين. (٤) في الأصل وم: مصيبان حيث. (٥) في الأصل وم: فأفسده. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَفَشَتْ﴾ أي رَعَتْ ليلاً. يُقالُ: نَفَشَتِ الغنمُ بالليلِ، وهي إبلٌ نَفْشٌ وأنفاشٌ ونُفَّاشٌ، واحِدُها: نافِشٌ، وسَرَحَتْ، وسَرَبَتْ بالنهارِ.

وقالَ أبو عَوسَجَة: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ يُقالُ: أنفَشْنا الغَنَمَ إذا أرْنَاها في الليلِ، فَرَعَتْ، وهو النَّفْشُ، ونَفَشَتْ[1] أي انْتَشَرَتْ بِغَيرِ عِلْمِ أهلِها؛ نَفَشَتْ تَنفُشُ نَفْشاً، فهي نافِشَةٌ.

قالَ أبو عُبَيدَةَ: النَّفْشُ بالليلِ أنْ تَدْخلَ في زَرْعٍ، فتَأكُلَهُ، أو رَعَتْ، فتأكُلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ ذَكَرَ التسبيحَ هنا في الجبالِ، ولم يَذْكُرْ في الطَّيْرِ. ولكنْ ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرَى حينَ[2] قالَ: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩] أي[3] تُسبِّحُ لَهُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تَسْبيحُ الجِبالِ ههنا [وتَسْبيحُ الطَّيرِ][4] تَسْبيحَ خِلْقَةٍ. لكنهُ لو كانَ تَسْبيحَ خِلْقَةٍ لكانَ تَسْبيحُها مَعَ داوُدَ وغَيرِهِ سَواءً. وقد ذَكَرَ يُسَبِّحْنَ مَعَ داوُدَ لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ جَعَلَ لهذهِ الأشياءِ تَسْبيحاً، يُسَبِّحْنَ اللهَ، ويذكُرونَهُ.

وكذلكَ ما رُوِيَ في الأخبارِ أنَّ الطعامَ سَبَّحَ في كفِّ رسولِ اللهِ ﷺ ورُوِيَ أنهُ أخَذَ حجراً، فَسَبَّحَ في يدِهِ، وأنهُ أخذَ كذا، فَسَلَّمَ عليهِ، وأمثالُ هذا كثيرٌ، وذلكَ كلُّهُ آيةٌ لرسلِ اللهِ على رسالتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي كُنّا فاعلينَ ما نُريدُ: إنْ أردْنا أنْ يُسَبِّحْنَ سَبَّحْنَ، وإنْ أردْنا ألّا يُسَبِّحْنَ لا يُسَبِّحْنَ، أي كنّا فاعلينَ جميعَ ما نُريدُ لَسْنا[5] كالخلائقِ، لأنهمْ يُريدونَ أشياءَ لا تُلائِمُهُمْ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ كقولِهِ[6] في آيةٍ أُخرَى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ الآية [سبإ: ١٠و١١].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ أي عَلَّمْناهُ السببَ الذي بهِ يَلينُ الحديدُ، فَيَصْنَعُ بهِ ما شاءَ كما عَلَّمَ غَيرَهُ مِنَ الخَلْقِ السببَ الذي بهِ يَلينُ الحديدُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ جَعَلَ الحديدَ لَيِّناً بلا سَبَبٍ تَسْخيراً لهُ كما سَخَّرَ لهُ غَيرَهُ مِنَ الأشياءِ الشديدةِ الصلبَةِ كما أعطَى وَلَدَهُ عَينَ القَطْرِ حينَ[7] قالَ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبإ: ١٢] وذلكَ لم يكنْ لأحدٍ سِواهُ وكذلكَ الحديدُ. ألانَ لِوالِدِهِ حتى يَعْمَلَ بِهِ ما شاءَ ما لم يكُنْ ذلكَ لِأحَدٍ[8] سِواهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ قيلَ: دروعُ الحديدِ ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي تَقيكُمْ مِنْ بأسِكُمْ أي مِنْ عَدُوِّكُمْ ومِنْ أمرِ حَرْبِكُمْ.

وفيهِ قراءاتٌ[9]: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاءِ، ولِيُحْصِنَكُمْ بالياءِ، ولِنُحْصِنَكُمْ بالنونِ. قالَ الكسائيُّ: مَنْ قَرَأَ بالتاءِ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي الصنعةُ تُحصِنُكُمْ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ومَنْ قَرَأَ بالياءِ لِيُحصِنَكُمْ أي اللَّبوسُ يُحصِنُكُمْ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ ومَنْ قَرَأَ بالنونِ لِنُحصِنَكُمْ فإنهُ يقولُ اللهُ: نُحصِنُكُمْ نَحنُ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ما أعطاكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ التي ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الجبالِ لهُ والطَّيْرِ والحديدِ والرياحِ وغَيرِها[10] ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلكَ، أي اشكُروا لهُ في نِعَمِهِ، لأنَّ الاِسْتِفهامَ مِنَ اللهِ على الإيجابِ والإلزامِ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ذَكَرَ ههنا عاصفَةً، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي لَيِّنَةً. فهو يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

قالَ بَعْضُهُمْ: كأنها تَشْتَدُّ إذا أرادَ سليمانُ، وتَلينُ إذا أرادَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَتْ تَشْتَدُّ وقْتَ حَمْلِ السَّريرِ، وتَلينُ وقْتَ

---

(١) من م، في الأصل: ونفشنا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: أو. (٤) في الأصل وم: والطير. (٥) في الأصل وم: ليس.
(٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: في حديد. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٤٤. (١٠) في الأصل وم: وغيره.

سَيرِهِ. ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدةً في الخِلقَةِ، لكنّها تَلينُ لهُ، وتَرْخو؛ فكأنهُ يقولُ: سَخّرْنا لسليمانَ الريحَ العاصفةَ الشديدةَ حتى كانَتْ تَلينُ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ لا يَقْصِدُ غيرَها[1] ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

الآية ٨٢ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ذَكَرَ نِعَمَهُ التي كانَتْ [عليهما حينَ][3] أخبَرَ أنهُ سَخّرَ لهما أشدَّ الأشياءِ وأصلَبَها مِنْ نَحوِ الجبالِ والرياحِ والبحارِ والحديدِ والشياطينِ أيضاً، وهُمْ أعداءُ النّبيِّ آدمَ، سَخّرَ لهُ الأعداءَ الشياطينَ والرياحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ حتى لا يُضِلّوا الناسَ.

[والثاني][4]: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ على سليمانَ لئلا يَتفرّقوا عنهُ، لأنَّ سليمانَ كانَ لا يَمْلِكُ إمساكَهُمْ واستِعمالَهُمْ، لكنَّ اللهَ سَخّرَهُمْ لهُ حتى عَمِلوا لهُ، وذَلّوا لهُ، وخَضَعوا.

والثالثُ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ عنِ الخِلافِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ كقولِهِ[5] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ذَكَرَ في سليمانَ أنهُ سَلّطَهُ على الشيطانِ، وجَعَلَهُمْ مُسَخّرينَ لهُ، يَستَعمِلُهُمْ في كلِّ أمرٍ وعَمَلٍ شاءَ. وذَكَرَ في أيوبَ على إثْرِ قِصّةِ سليمانَ أنهُ سَلّطَ الشياطينَ عليهِ، وصارَ هو كالمُسَخّرِ لهمْ حينَ[6] قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ حتى [يُعلَمَ][7] أنَّ تَسخيرَ الشياطينِ لِسُليمانَ، كانَ لهُ إفضالٌ وإنعامٌ، لم يَكُنْ سَبَقَ منهُ ما يَستَوجِبُ بهِ ذلكَ، ويستَحِقُّهُ، ولا كانَ مِنَ أيوبَ إليهِ مِنَ العِصيانِ ما يَستَحِقُّ ذلكَ. وما أصابَهُ مِنَ البَلاءِ منهُ عَدْلٌ. وكانَ ما يُعطي مِنَ السّلامةِ والصّحّةِ رَحمَةً ونِعمَةً. ولهُ أنْ يُعطِيَ مَنْ شاءَ ما شاءَ، ويَحْرِمَ مَنْ شاءَ ما شاءَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ لمّا رَدَّ عليهِ ما أخَذَ منهُ، وكَشَفَ عنهُ البلاءَ ﴿رَحْمَةً﴾؟ [الأنبياء: ٨٤] ولو كانَ ذلكَ حقّاً لهُ على اللهِ لم يكُنْ لِذِكْرِ الرّحمَةِ مَعنًى.

فهذا يَرُدُّ على المُعتَزِلةِ مَذهَبَهُمْ أنَّ على اللهِ الأصلَحَ لهمْ في دينِهِمْ لأنَّ ما أصابَ أيوبَ مِنَ البلايا أضافَ ذلكَ إلى الشياطينِ حينَ[8] قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ولو كانَ ذلكَ أصلَحَ في دينِهِ لكانَ لا يُضيفُ فِعلَ الأصلَحِ لهُ في الدينِ إلى الشياطينِ. فَدَلَّ أنهُ ليسَ على ما يَذهبونَ إليهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ فيهِ إضمارُ دعاءٍ؛ كأنهُ قالَ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ فارحَمْني، وعافِني ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؟ [الأنبياء: ٨٤] دلَّ أنهُ على الدعاءِ خَرَجَ [كقولِهِ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [ص: ٤١]][9] وصِرْتُ بحالٍ يَرْحَمُني مَنْ رَآني مِنَ الخَلْقِ ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ هو ظاهرٌ أنهُ كَشَفَ عنهُ ما أصابَهُ مِنَ البلاءِ في بَدَنِهِ وأهلِهِ حتى عادَ إلى الحالِ التي كانَ قَبلَ ذلكَ. وقالَ بَعضُهُمْ: أُوتِيَ أهلَهُ في الدنيا ومِثْلَ أجورِهِمْ في الآخِرَةِ. وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ فأحياهُمُ اللهُ ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ وكانتِ امرأةُ أيوبَ وَلَدَتْ قَبلَ البلاءِ أولاداً بَنينَ وبَناتٍ، فأحياهُمُ اللهُ. وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ أي ما يَتأهّلُ بهِ مِنَ الأهلِ والأنصارِ على ما كانَ لهُ مِنْ قَبلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ادرج قبلها في الأصل وم: وقوله تعالى. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم حيث. (٤) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: والثاني في قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَين:

أحَدُهما][(١)]: أنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بِبَلاءٍ، فَصَبَرَ على ما صَبَرَ أيوبُ على بلائِهِ[(٢)]، فَفَرَّجَهُ اللهُ عنْ ذلكَ [البلاءِ][(٣)] يُفَرِّجُهُ عنهُ كما فَرَّجَ لأيوبَ.

والثاني: يُعْلِمُ أنَّ ما أصابَهُ ليسَ لأمرٍ سَبَقَ منهُ، ولكنَّهُ ابْتِداءُ مِحْنَةٍ منَ اللهِ، امْتَحَنَهُ بها، ولهُ أنْ يَمْتَحِنَ مَنْ شاءَ بما شاءَ مِنَ المِحَنِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [يُشْبِهُ أنْ يكونَ][(٤)] [ذو الكِفْلِ اسْماً][(٥)] مِنْ أسمائِهِ.

وجائزٌ أنهُ سَمَّى ذا الكِفْلِ لِأمرٍ كانَ منهُ؛ ذُكِرَ أنهُ كانَ رجلاً صالحاً، فَكُفِّلَ لِنَبِيٍّ بأمرِ قومِهِ، فَوَفَى ما تَكَفَّلَ بهِ، فَسُمِّيَ لذلكَ ذا الكِفْلِ. ثم اخْتُلِفَ فيهِ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هو رجلٌ صالحٌ على ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ نَبِيّاً ولَسْنا[(٦)] نَعْلَمُ ذلكَ سِوَى أنهُ ذُكِرَ أنهُ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾/ ٣٤٢ ـ ب/ سَمّاهُمْ صابرِينَ على الإطلاقِ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ جَمَعوا جميعَ أنواعِ الصَّبْرِ وجميعَ أنواعِ الصلاحِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ وهيَ الجنةُ. وجائزٌ أنْ يكونَ جميعُ ما قالوا مِنَ الصَّبْرِ والصلاحِ، كانَ ذلكَ كلُّهُ رَحْمَةَ اللهِ وفَضْلَهُ. وهكذا أنَّ مَنْ نالَ شيئاً مِنَ الخيراتِ والطاعاتِ فإنما يَنالُ ذلكَ كلَّهُ بِرَحْمَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ هو اسْمٌ مِنْ أسمائِهِ، سُمِّيَ بهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: سَمّاهُ ذا النونِ لِكَونِهِ في بَطْنِ النونِ، وهو الحوتُ، أي صاحبَ النونِ؛ سُمِّيَ باسْمَينِ مُخْتَلِفَينِ: أحَدُهما: اسْمٌ مَوضوعٌ، والآخَرُ: مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ وممّا كانَ بهِ، وهو كما[(٧)] سَمَّى عيسى مَرَّةً، وسَمّاهُ مَسيحاً أُخرَى: أحَدُهما: اسْمٌ مَوضوعٌ، والآخَرُ: مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ، وهو ممّا كانَ يَمْسَحُ بهِ المَرْضَى والمَوتى، فَيَبْرَؤونَ. وكذلكَ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ [الأنبياء: ٨٥] يُخَرَّجُ على هذينِ الاسْمَينِ: أحَدُهما: مَوضوعٌ لهُ، والآخَرُ مُشْتَقٌّ مِنْ فِعْلِهِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: مُغاضِباً لربِّهِ أي حزيناً لهُ، لأنهُ كانَ أرادَ أنْ يُهْلِكَ اللهُ قومَهُ لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِ قومِهِ، وقد كَثُرَ عنادُهُمْ ومُكابَرَتُهُمْ، فَخَرَجَ حزيناً لذلكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: مُغاضِباً لِلْمَلِكِ؛ وذلكَ أنَّ قومَهُ قد [أسَرَهُمْ عَدُوُّهُمْ، وقد كانَ اللهُ أوحَى إليهِمْ، فقالَ: إذا][(٨)] أسَرَكُمْ عَدُوُّكُمْ، أو أصابَتْكُمْ مُصيبةٌ، فادْعوني. فإذا دَعَوتُموني اسْتَجَبْتُ لكمْ. فلمّا أُسِروا نَسُوا أنْ يَدْعوهُ زماناً. حتى إذا ذَهَبَتْ أيامُ عُقوبَتِهِمْ، ونَزَلَتْ أيامُ عافِيَتِهِمْ، أوحَى اللهُ إلى نَبِيٍّ مِنْ أنبياءِ بَني إسرائيلَ أنِ ابْعَثوا رجلاً قوياً أميناً فإني مُلْقٍ في قلوبِ الذينَ أسَروا قومَكُمْ[(٩)] أنْ يُرْسِلوهُمْ، وفي القصةِ طولٌ غيرَ أنّا نَخْتَصِرُ، فَبَعَثَ مَلِكُهُمْ يونسَ إلى أولئكَ الأسارَى لِيَسْتَنْقِذَهُمْ مِنْ أيديهِمْ، فَخَرَجَ، وأتَمَرَ[(١٠)] بأمرِهِ، لكنهُ غَضِبَ عليهِ لمّا اشْتَدَّ[(١١)] عليهِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ للملكِ حينَ[(١٢)] أمَرَهُ بالخروجِ إلى أولئكَ الأسْرَى.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومِهِ، وذلكَ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِ قومِهِ؛ خَرَجَ مَكيدَةً لِقومِهِ لأنَّ السُّنَّةَ فيهمْ أنهُ إذا خَرَجَ [رسولُ اللهِ][(١٣)] مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ نَزَلَ بهمُ العذابُ؛ خَرَجَ[(١٤)] مِنْ عندِهم لِيَخافوا العذابَ، فَيُؤْمِنوا.

---

(١) في الأصل وم: وجوهاً أحدها. (٢) في الأصل وم: بلاء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ذا الكفل اسم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ما. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: قومهم. (١٠) من م، في الأصل: أو ائتمر. (١١) من م، في الأصل: اشتدت. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: رسوله. (١٤) في الأصل وم: فخرج.

والثاني: خَرَجَ إشفاقاً على نَفْسِهِ لئلا يُقْتَلَ لِما أنَّ قومَهُ هَمُّوا بِقَتْلِهِ؛ خَرَجَ[١] لئلا يُقْتَلَ إشفاقاً على نَفْسِهِ كما خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ [مِنْ بَينِ أظهُرِ قومِهِ لمّا هَمُّوا بِقَتْلِهِ. لكنَّ رسولَ اللهِ][٢] خَرَجَ بإذْنٍ، ويُونُسَ بِغيرِ إذْنٍ.

والثالثُ: خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ لمّا أكْثَروا العِنادَ والمُكابَرَةَ، وأيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ؛ خَرَجَ [لِيُفَرِّغَ نَفْسَهُ لِعبادةِ ربِّهِ][٣] [إذْ كانَ مأموراً بعبادةِ ربِّهِ][٤] ودَعا قومَهُ إلى ذلكَ. فلما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ خَرَجَ كما[٥] ذَكَرْنا بِغَيرِ إذْنٍ مِنْ ربِّهِ، وإنْ كانَ في خروجِهِ مَنْفَعَةٌ لهُ ولقومِهِ، فَعوقِبَ[٦] لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾][٧] أي لَنْ نُضَيِّقَ عليهِ، ولا نَبْتَلِيَهُ بالضِّيقِ والشدائدِ[٨] لمّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ. يقالُ: فلانٌ مَقْدورٌ[٩] عليهِ، ومُقَتَّرٌ، أي مُضَيَّقٌ عليهِ الأمْرُ، وهو كقولِهِ: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أي يُضَيِّقُ وقولِهِ: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قالوا: في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ: ظُلْمَةِ الليلِ وظُلْمَةِ البَحْرِ وظُلْمَةِ بَطْنِ الحوتِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الْتَقَمَ الحوتَ حوتٌ آخَرُ، فكانَ في بَطْنِ حوتٍ وحوتٍ آخَرَ وظُلْمَةِ البَحْرِ، فقالَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَحَّدَ ربَّهُ، ونَزَّهَهُ عن جَميعِ ما قيلَ فيهِ، ثم اعْتَرَفَ بِزَلَّتِهِ وذنْبِهِ، فقالَ: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الآية ٨٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمِعَ][١٠] اللهُ دعاءَهُ، وقَبِلَ تَوبَتَهُ، وأخْبَرَ أنَهُ كَشَفَ عنهُ الغَمَّ الذي كانَ [بِهِ حينَ][١١] قالَ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وأخْبَرَ أنهُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُنَجّي اللهُ مَنِ ابْتَلاهُ][١٢] بالبلاءِ والشِّدَّةِ، فَدَعا بِما دَعا بِهِ يونُسُ أنْ يُفَرِّجَهُ اللهُ عنهُ حينَ[١٣] قالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ دَعا بِدَعْوَةِ ذي النونِ اسْتُجيبَ لهُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٨٤].

ثم قالَ بَعْضُهُمْ: الْتَقَنَ [اللهُ ﷻ ذلِكَ الدعاءَ][١٤] مِنَ الأرضِ لمّا بَلَغَ إلى[١٥] قرارِ الأرضِ، فقالَ: [﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾][١٦].

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ رجلاً صالحاً عابداً، وكانَ عَوَّدَ نَفْسَهُ ذلكَ [الدعاءَ][١٧] قَبْلَ أنْ يُدْخَلَ بَطْنَ الحوتِ. فلمّا [أُدْخِلَ فيهِ اسْتَمَرَّ يقولُهُ فيهِ على ما كانَ يقولُ][١٨] مِنْ قَبْلُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾][١٩] كقولِهِ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ الآية [الصافات: ١٤٣و١٤٤].

قالَ بَعْضُهُمْ: [﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قَبْلُ][٢٠] هذا، وإلّا لَلَبِثَ فيهِ على ما ذُكِرَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: لولا أنهُ قالَ هذا القولَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَلَبِثَ فيهِ. فيكونُ على هذا التأويلِ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ صارَ مِنَ المُسَبِّحينَ. والأوّلُ أشْبَهُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ الغَمُّ هو ما ابْتَلاهُ اللهُ بالضِّيقِ في بَطْنِ الحوتِ والبَحْرِ، فَنَجّاهُ مِنْ ذلكَ الغَمِّ. وجائزٌ أنْ يكونَ نَجّاهُ مِنَ الغَمِّ الذي كانَ بهِ بِسَبَبِ خروجِهِ مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ يونسَ مَكَثَ في بَطْنِ الحوتِ أربَعينَ يوماً أو ثلاثةَ أيامٍ ونَحْوَ هذا، فذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا بالوَحْيِ. فإنْ أثْبَتَهُ[٢١] الوَحْيُ فهو هو، وإلّا ليسَ بِنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

---

(١) في الأصل وم: فخرج. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في م: إليه لعبادته. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: لما.
(٦) في الأصل وم: فعوتب. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: والشديدة، في م: والشديد. (٩) في الأصل وم: مقدر. (١٠) في الأصل وم: فسمع. (١١) في الأصل وم: له حيث. (١٢) في الأصل وم: فيرجى أن. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: ذلكَ.
(١٥) ساقطة من م. (١٦) في الأصل وم: ذلكَ. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل: دخل فيه على ما كان يقول، في م: دخل فيه فكان يقول فيه على ما كان يقول فيه. (١٩) في الأصل وم: وهو. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: ثبت.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني ذا الحوتِ، والنُّونُ الحوتُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: إنما سُمِّيَ ذا النُّونِ لأنَّ الحوتَ الْتَقَمَهُ، والنُّونُ الحوتُ، والنِّينانُ الجميعُ.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أنْ لَنْ نُضَيِّقَ عليهِ. يُقالُ: فلانٌ مَقْدورٌ[1] عليهِ، ومُقَتَّرٌ. ومنهُ: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضَيَّقَ عليهِ. ومنهُ قولُهُ أيضاً: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] أي يُضَيِّق، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ قوله: ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ في الظاهرِ نَهْيٌ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وأمثالُهُ تَخرُجُ في الظاهِرِ مُخرَجَ النَّهْيِ، وقولُهُ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ونَحْوُهُ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الأمرِ والنَّهْيِ. إذا كانَ مِنَ العَبْدِ لِلسَّيِّدِ فهو تَعَوُّذٌ ودعاءٌ، وإذا كانَ مِنَ السَّيِّدِ للعبدِ فهو أمْرٌ ونَهْيٌ، ليسَ بتَعَوُّذٍ ولا دُعاءٍ، ولكنْ حقيقةُ الأمرِ والنَّهْيِ. وكذلكَ سؤالُ الأميرِ لِرَعِيَّتِهِ أمْرٌ ونَهْيٌ، وسؤالُ الرعيَّةِ للأميرِ تَضَرُّعٌ وتَعَوُّذٌ ودعاءٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ في الطاعةِ والعبادةِ والذِّكْرِ والتَّسْبيحِ والتَّحْميدِ مادُمْتُ حيّاً، ولكنْ أشرِكْ لي في العِبادَةِ والذِّكْرِ مَنْ يُعينُني على ذلكَ، وهو كقولِ موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩ـ ٣٤] [وقولِ زكريا أيضاً][2]: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥و٦] إذا مِتْنا، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ بَعْدَ مَماتي في قَبْري، ولكنْ هَبْ لي مَنْ يَذْكُرُني، ويَدعو لي بَعْدَ وفاتي، ويُحْيِي أمْري.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي وأنتَ خيرُ مَنْ يَرِثُ العِبادَ. على هذا التأويلِ. وعلى التأويلِ الأوَّلِ: أنتَ خَيرُ مَنْ يُعينُ على العبادَةِ والطاعةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي دعاءَهُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنهُ كانَ يَحيَى على ما سَمّاهُ اللهُ في الطاعةِ والعِبادةِ، وفي الآخِرَةِ يَحْيَى في الكراماتِ والثوابِ الجزيلِ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ جَعَلْناها بحيثُ يَرْغَبُ فيها زوجُها ذاتَ هيئةٍ ومَنْظَرٍ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنها بَلَغَتْ في السِّنِّ مِئَةً غيرَ شَيءٍ. والعُرْفُ في النساءِ/٣٤٣ ـ أ/ أنهُنَّ إذا بَلَغْنَ المَبْلَغَ الذي ذُكِرَ أنها بَلَغَتْ زوجةُ زَكَرِيّا يَكُنَّ مِنَ القواعِدِ اللاتي لا يَرْغَبُ فيها أحدٌ. فأخبَرَ أنهُ أصْلَحَها، وصَيَّرَها بحيثُ يُرْغَبُ فيها ذاتَ هيئةٍ ومَنْظَرٍ.

والثاني: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي [جَعَلْناها][3] وَلوداً، بحيثُ تَلِدُ، لأنهُ لمّا بُشِّرَ بيَحْيَى ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨] والعاقرُ هي التي لا تَلِدُ. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [أي جَعَلْناها][4] وَلوداً بحيثُ تَلِدُ، واللهُ أعلَمُ.

هذانِ الوجهانِ مُحْتَملانِ. وأمّا قولُ مَنْ يقولُ: كانَ في لسانِها بَذاءٌ، وفي خُلُقِها سُوءٌ. فذلكَ لا يَحِلُّ أنْ يُقالَ إلّا [أنْ][5] يُثْبِتَ. وهو على خِلافِ ما ذَكَرَهُمْ، ووَصَفَهُمْ حينَ[6] قالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

ثم المُسارَعَةُ في الخيراتِ أنهُ كانَ لا يَمْنَعُهُمْ شيءٌ عَنْ [فِعْلِ][7] الخَيراتِ. وهكذا المؤمنُ، هو يَرْغَبُ في الخَيراتِ كلِّها إلّا أنْ يَمْنَعَهُ شيءٌ مِنْ شَهْوَةٍ أو سَهْوٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [في وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: مقدر. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما:][1] أي يَدْعونَنا رَغَباً في ما عندَنا مِنْ جزيلِ الثوابِ ورَهَباً مِنْ أليمِ عِقابِنا.

والثاني: رَغَباً في ما عندَنا مِنَ اللُّطائفِ مِنَ التوفيقِ على الخَيراتِ والعِصْمَةِ عنِ المَعاصي ورَهَباً ممّا عندَنا مِنَ النِّقْماتِ والخِذلانِ والزَّيغِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الخُشوعُ هو الخَوفُ الدائمُ المُلازِمُ لِلْقَلْبِ، لا يُفارِقُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: مُتواضِعِينَ ذَليلينَ لِأمرِ اللهِ؛ تفسيرُ الخُشوعِ ما ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عَفَّتْ فَرْجَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ جبريلَ أتاها فَنَفَخَ في جَيبِها أي فَرْجِها. وهذا ليسَ في الآيةِ. فلا يجوزُ القولُ إلّا [أنْ][2] يُثْبِتَ. ولكنَّ قولَهُ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كقولِهِ في آدمَ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩ وص: ٧٢] أي أنْشَأْتُ فيهِ مِنْ روحي، إذْ لم يَقُلْ أحدٌ فيهِ بالنَّفْخِ: أي جبريلُ نَفَخَ فيهِ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي أنْشَأْنا فيها مِنْ روحِنا، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ذَكَرَ فيها آيةً واحدةً لأنها وَلَدَتْ بِغَيرِ زوجٍ، وَوَلَدَ هو بلا أبٍ، فهو واحدٌ إذا كانَتْ هي وَلَدَتْهُ بِغَيرِ زَوجٍ، فيكونُ بِغَيرِ أبٍ، فهو آيةٌ واحدةٌ. والآيةُ فيها ما ذَكَرَ ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وآيةُ عيسى حينَ تَكَلَّمَ في المَهْدِ، فقالَ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [مريم: ٣٠].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿أَحْصَنَتْ﴾ أي عَفَّتْ، ويُقالُ: امرأةٌ حَصانٌ أي عفيفةٌ، ومُحْصَنَةٌ أي قد أحْصَنها زوجُها، ومُحْصَنَةٌ أي عَفيفةٌ، وامرأةٌ حَصانٌ، ونِسْوَةٌ حاصِناتٌ وحَواصِنُ. قالَ: والحِصانُ ذَكَرُ الخيلِ، وحُصُنٌ جميعٌ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ هذهِ مِلَّتُكُمْ وشريعتُكُمْ ومذاهِبُكُمْ مِلَّةٌ واحدةٌ وشريعةٌ واحدةٌ؛ يعني شريعةَ الإسلامِ، ومِلَّةٌ واحدةٌ ليسَتْ بِمُتَفَرِّقَةٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ هذا[4] دينُكُم دينٌ واحدٌ ليسَ كَدينِ الأُمَمِ الخاليةِ أدياناً[5] مُخْتَلِفَةً، أو تكونُ الأُمَّةُ ما يُؤَمُّ إليها، ويُقْصَدُ لأنَّ الأُمَّةَ، هي الجماعةُ، وهي المَقْصودةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ إخباراً عنْ هذهِ الأمَّةِ على دينٍ واحدٍ ومِلَّةٍ واحدةٍ، ليسوا بِمُخْتَلِفينَ فيهِ ولا بِمُتَفَرِّقينَ[6] كسائرِ الأُمَمِ الخاليةِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٠٥] [وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]][7] أخبَرَ عنهمْ أنهمْ غَيرُ مُتَفَرِّقينَ، ونهاهُمْ عنْ أنْ يَتَفَرَّقوا كما تَفَرَّقَ الأوّلونَ.

ألا تَرى أنهُ قالَ على إثْرِهِ: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؟ [الأنبياء: ٩٣] هذا يدلُّ على أنهُ إخبارٌ عنْ أهلِ الإسلامِ في [صَدَدِ][8] الأمرِ أنهمْ على شيءٍ واحدٍ.

وقالَ الزَّجاجُ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ما لَزِموا الحَقَّ، واتَّبَعوهُ. وأمّا إذا تَرَكوا لُزومَهُ، وتَرَكوا اتِّباعَهُ، فهي ليسَتْ بأمَّةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ كقولِهِ[9] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢] لِيُعْلَمَ أنَّ العِبادةَ والتَّقْوى واحدٌ في الحقيقةِ لأنَّ الإتِّقاءَ هو ما يُجْتَنَبُ مِنَ الأفعالِ، والعبادةَ ما يُؤْتَى مِنَ الأفعالِ[10]. فإذا اجْتُنِبَ ما يَجِبُ اجْتِنابُهُ فقد أُتِيَ بِما يَجِبُ إتيانُهُ، وإذا أُتِيَ بما يَجِبُ إتيانُهُ فَقَدِ اجْتُنِبَ ما يَجِبُ اجْتِنابُهُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لأنهُ بِفِعْلِهِ إيّاها مُجْتَنِبٌ عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي فَوَحِّدوني على ما قالَ أهلُ التأويلِ، لأنهُ إنما خاطَبَ بهِ أهلَ مكةَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هذه. (٥) في الأصل وم: أديان. (٦) في الأصل وم: بمفترقين. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) ادرج بعدها في الأصل وم: والعبادة.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أخبرَ عنِ الأوّلينَ أنهمْ[1] اختلفوا في دينِهِمْ، وتَفرَّقوا ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ مَنْ تَفرَّقَ [ومَنْ][2] لم يَتفرَّقْ كقولِهِ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] [وقولِهِ:][3] ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ فيهِ دلالةٌ ألّا يُقْبَلَ مِنَ الأعمالِ الصالحاتِ إلّا بالإيمانِ لأنهُ شُرِطَ في قَبولِها الإيمانُ بقولِهِ[4]: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [أي يُشكَرُ][5] سَعْيُهُ، ويُقبَلُ، ولا يُجحَدُ، ولا يُكفَرُ كقولِهِ: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ [آل عمران: ١١٥] [بالياءِ والتاءِ ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾][6].

وأصلُ الكفرانِ السَّتْرُ، والشُّكْرُ هو الإظهارُ. ويُخبِرُ ﷻ أنهُ لا يَستُرُ ما عَمِلوا مِنَ الحسناتِ والخيراتِ، بل يَشكُرُ، ويُظهِرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي يَكتُبُ لهمْ تِلْكَ الحَسناتِ والخَيراتِ كقولِهِ: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: وحِرْمٌ[7] ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ و﴿وَحَرَٰمٌ﴾ بالألِفِ أيضاً. ثم قولُهُ: وحِرْمٌ و﴿وَحَرَٰمٌ﴾ على قولِ أهلِ اللسانِ واللغةِ واحدةٌ. يقولُ: حِرْمٌ عليكَ كذا، وحَرامٌ، كما يُقالُ: حِلٌّ وحَلالٌ.

وأمّا على قولِ أهلِ التأويلِ فإنهمْ يُفرِّقونَ بينَهما، فيقولونَ: وحِرْمٌ حَتْمٌ وواجِبٌ ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أو حُكْمٌ[8] وواجِبٌ ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ إهلاكُهُمْ بَعْدَ ما عَلِمَ ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي لا يَتوبونَ، لأنهُ إنما يُهلِكُهُمْ لِما عَلِمَ منهمْ أنهمْ لا يَتوبونَ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ أرادَ اللهُ إهلاكَها ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [وظاهرُ قولِهِ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾][9] أنْ يكونَ لهمُ الرجوعُ لأنهُ يقولُ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾؟ [الأنبياء: ٩٦] وظاهرُهُ ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦و٩٧] فعندَ ذلكَ يَرجِعونَ لقولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

أو يكونُ ذَكَرَ هذا ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ لِقولِ قومٍ: لأنَّ قوماً يقولونَ: إنَّ الخَلْقَ كالنباتِ[10] يَنبُتُ، ثم يَيْبَسُ، ثم يَنبُتُ. فَعَلى ذلِكَ الخَلْقُ يموتونَ، ثم يَعودونَ، ويَرْجِعونَ.

وبَعْضٌ مِنَ الرَّوافِضِ يقولونَ: يَرْجِعُ عليٌّ وفُلانٌ، فأخبَرَ أنهمْ لا يَرْجِعونَ ردّاً عليهِمْ وتكذيباً لِخَبَرِهِمْ لأنَّ القرآنَ قد صارَ حُجّةً عليهِمْ، وإنْ أنكَروهُ، لمّا عَجِزوا عنْ أنْ يأتوا بِمِثْلِهِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ كلِّهِ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، أضافَ فَتْحَ ذلكَ السَّدِّ إلى أنفسِهِمْ، وهُمْ جماعةٌ، وإلّا لَسْتُ أعرِفُ لِتأنيثِ فَتْحِ السَّدِّ وَجْهاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ قيلَ: الحَدَبُ الشيءُ المُشرِفُ، وقيلَ: الحَدَبُ كلُّ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، وقيلَ: الحَدَبُ الأكَمَةُ. وقيلَ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ مِنْ كلِّ جهةٍ ومِنْ كلِّ مكانٍ ﴿يَنسِلُونَ﴾ قيلَ: يُسْرِعونَ، وقيلَ: يَخرُجونَ.

أخْبَرَ أنهمْ ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ أي مِنْ كلِّ ناحيةٍ ومِنْ كلِّ جهةٍ يُسْرِعونَ؛ كأنهمْ لمّا سُدَّ عليهِمْ ذلكَ السَّدُّ، وحيلَ

---

(١) من م، في الأصل: ثم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كقوله. (٥) من م، في الأصل: والشكر. (٦) من م، انظر معجم القراءات القرآنية ٢/ ٥٩. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٥٠. (٨) من م، في الأصل: حتم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل: والنبات.

بَينَهُمْ وبَيْنَ ما يَتَعَيَّشونَ، ويَرْتَزِقونَ مِنْ هذا العالَمِ، تَفَرَّقوا في تلكَ الأمكنةِ لِطَلَبِ ما يَتَعَيَّشون بِهِ. فإذا بَلَغَهُمْ خَبَرُ [فَتْحِ][1] السَّدِّ أتَوا مِنْ كلِّ جهةٍ وناحيةٍ كانوا[2] مُتَفَرِّقينَ فيها ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسْرِعونَ لأنهم [كانوا][3] مُذْ سُدَّ/ ٣٤٣ ـ ب/ عليهم السَّدُّ [مُتَفَرِّقينَ في كلِّ][4] جِهَةٍ. فلما[5] فُتِحَ خَرَجوا مُسْرِعينَ. وهو ما ذَكَرَ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩].

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [قولُهُ: ﴿وَاقْتَرَبَ﴾ أي وَقَعَ، وَوَجَبَ ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾][6] لأنهُ قد أخْبَرَ مِنْ قَبْلِ هذا الوقتِ أنهُ قَدِ اقْتَرَبَ بقولِهِ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقولِهِ[7]: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ليسَ على القُرْبِ ولكنْ على الوُجُوبِ.

فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إخباراً عنِ الوُقوعِ والوُجُوبِ. وجائزٌ أنْ يكونَ على القُرْبِ أيضاً، ويكونُ وُجُوبُها وَوُقوعُها في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقولِهِ[8]: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وقولِهِ[9]: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية [القمر: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي يقولونَ: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ كأنهمْ تذاكَروا في ما بَيْنَهُمْ أنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ثم تداركوا أنهمْ لم يكونوا في غَفْلَةٍ، ولكنْ قالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في ذلكَ ضالِّينَ. اعْتَرَفوا بالظلمِ والضّلالِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يُقالُ: إنَّ حَرْفَ: مَنْ: يَتَكَلَّمُ عنِ البَشَرِ ونحوِهِ [وحَرْفَ: ما][10]: إنما يَتَكَلَّمُ عمّا سِواهُمْ مِنَ العالَمِ. فإذا كانَ على هذا الذي ذُكِرَ[11] فما يَنْبَغي لِأولئكَ أنْ يَفْهَموا مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ. هؤلاءِ يَقولونَ: هؤلاءِ عُبِدوا دونَ اللهِ، فهمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ على زَعْمِكُمْ. إلى هذا يَذْهَبُ أهلُ التأويلِ، ويَقولونَ.

ثم نَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قالوا: اسْتَثْنَى مِنْ عَمَلِهِ مَنْ عُبِدَ دونَ اللهِ مَنْ سَبَقَتْ لهُ منهُ الحُسْنَى، وهو عُزَيرٌ وعيسى وهؤلاءِ [الملائكةُ][12]. لكنْ قد ذَكَرْنا أنهُ لا يَجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ هذا هؤلاءِ، ولكنِ الأصنامُ والأحجارُ التي عَبَدوها كقولِهِ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] التي عَبَدوها، أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الشّياطينَ الذينَ أمَروهُمْ، وَدَعَوهُمْ إلى عبادةِ غَيرِ اللهِ. فتكونُ العبادةُ لِمَنْ دونَ اللهِ لِلشَّيطانِ حقيقةً لأنهُ هو الآمِرُ لهمْ بذلكَ والداعي إلى ذلكَ دونَ مَنْ ذُكِروا لأنَّ هؤلاءِ، أعني عيسى وعُزَيراً والملائكةَ لم يأمُروهُمْ[13] بذلكَ.

فيكونُ على هذا كأنهُ قالَ: إنكمْ والشياطينَ الذينَ تَعْبُدونَ منْ دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٢٢و٢٣إلى ٥٠ و٥١]. دلَّ هذا أنَّ القرينَ هو الشيطانُ كقولِهِ: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بالصادِ، وقُرِئَ بالطاءِ[14] حَطَبُ جَهَنَّمَ قالَ ابْنُ عباسٍ: الحَصَبُ بِلِسانِ الزِّنْجيَّةِ هو الحَطَبُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو حَطَبٌ بلسانِ الحبشَةِ، ويُقالُ أيضاً بالصادِ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قالَ بَعْضُهُمْ: الحَصَبُ هي مِنَ الرَّمْيِ، يَحْصِبُ جَهَنَّمَ بهمْ، أي يَرْمي بهمْ. والحَطَبُ هو معروفٌ، والحَضَبُ هو التَّهْييجُ أي تُهَيِّجُ النارُ عليهمْ. وقالَ الكسائيُّ: حَضَبْتُ النارَ، أي أَلْقَيْتُ فيها الحَطَبَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: التي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: في. (٥) ادرج قبلها في الأصل وم: من فتح ذلك السد. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: كقوله. (٩) في الأصل وم: كقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ذكروا. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يأمرهم. (١٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ١٥٢.

وعنْ عائشةَ: ﴿حضب جهنم﴾ بالضادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي واقِعونَ فيها.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي لو كانَ الذينَ عُبِدوا دونَ اللهِ آلهةً على ما زَعَموا ما وَرَدوا النارَ. فإنْ قيلَ: إنهمْ لم يُقِرّوا أنها تَرِدُ النارَ، بل أنْكَروا ذلكَ، فكيفَ احتجَّ عليهِمْ بهذا ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾؟ قيلَ: إنهمْ، وإنْ لم يُقِرّوا بذلكَ، ألْزَمَهُمْ ﷺ الحُجَّةَ مِنْ جهةِ الكتابِ [أنهمْ يَرِدون][1] النارَ لمّا عَجزوا عن إتيانِ مِثْلِهِ، فقد لَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ. فكأنهمْ أقرُّوا أنهمْ وارِدُوها، وهو كقولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] لم يُقِرُّوا أنهمْ يَحْيَونَ بَعْدَ ما ماتوا. ولكنْ لمّا عَرَفوا أنهمْ كانوا أمواتاً، فَأَحْياهُمْ، فقد لَزِمَهُمُ الإقرارُ والحُجَّةُ بالإحياءِ بَعْدَ الموتِ. فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ: كأنَّهُمْ أقَرُّوا بأنَّهُمْ[2] وارِدونَ بما لَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [قيلَ: الزَّفيرُ هو الصوتُ الخَفيضُ الذي فيهِ أنينٌ، و][3] قيلَ: الزفيرُ هو الصوتُ الرفيعُ الذي [فيهِ أنينٌ][4] وقيلَ: الشهيقُ هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، والزفيرُ هو آخِرُ نَهيقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيلَ: لا يَسْمَعونَ الخيرَ، ويَسْمَعونَ غَيرَهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهمْ يكونونَ صُمّاً وبُكْماً وعُمْياً في النارِ كقولِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أي حَرامٌ عليهِمْ أنْ يَرْجِعوا، ويُقالُ: واجِبٌ، وقالَ: هو حِرْمٌ وحَرامٌ واحدٌ كما قالَ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي مِنْ كلِّ نَشْزٍ مِنَ الأرضِ وأكَمَةٍ يَنْسِلونَ مِنَ النَّسَلانِ، وهو مُقارَبَةُ الخَطْوِ مَعَ الإسراعِ كَمَشْيِ الذئبِ إذا بادَرَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَدَبُ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، الواحدةُ حَدَبَةٌ ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي يَجيئونَ.

الآية ١٠١ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قالتِ الكَفَرَةُ: إنَّ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ قد عُبِدوا مِنْ دونِ اللهِ، فهمْ حَصَبُ جهَنَّمَ، فنَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ استثْنَى مَنْ سَبَقَ لهُ الحُسْنَى منهُ، [وهُم عيسى وعُزَيرٌ والملائكةُ][6] وكذلكَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: إلّا الذينَ سَبَقَتْ لهمْ منّا الحُسْنَى على الاستِثْناءِ.

عن عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][7] قالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآية ذلِكُم عُثْمانُ وطَلْحةُ والزبيرُ، وأنا مِنْ شِيعةِ عُثْمانَ وطَلْحةَ والزبيرِ. ثم قالَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ الآية [الأعراف: ٤٣ والحجر: ٤٧].

ولكنْ قد ذَكَرْنا الوجهَ فيهِ. فإنْ[8] ثَبَتَ أنهُ نَزَلَ بِشأْنِ هؤلاءِ، وإلّا فهو لكلِّ مَنْ سَبَقَ لهُ مِنَ اللهِ الحُسْنَى.

ثم الحُسْنَى تَحْتَمِلُ الجنةَ كقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥و٦] أي بالجنةِ فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ وتَحْتَمِلُ الحُسْنَى السَّعادةَ والبِشارَةَ بالجنةِ وثوابِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي لا يَعودونَ إليها أبداً. ليسَ على بُعْدِ المكانِ كقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] أي لا يَعودونَ إلى الهُدَى أبداً. أو يكونُ قولُهُ: ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ مكاناً.

لكنْ قد ذَكَرَ في آيةٍ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤و٣٥] وقالَ في آيةٍ: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] ولا نَعْلَمُ هذا: أنهُ يَجْعَلُ في قِوَى أهلِ الجنةِ أنهمْ متى أرادوا أنْ يَنْظُروا إلى

---

(١) في الأصل وم: أنها ترد. (٢) في الأصل وم: بأنها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أنين فيه. (٦) في الأصل وم: وهو عيسى والملائكة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: قال.

أولئكَ، ويَرَوهُمْ، يَقْدِروا على ذلكَ، أو تُقرِّبَ النارُ إليهمْ، فَيَنظُروا إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ. والأوّلُ أشبهُ، أنهمْ لا يَعودونَ إليها أبداً.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي صَوتَها، وهو ما ذَكَرَ مِنَ الأبعادِ، وإذا بَعُدوا مِنها لم يَسْمَعوا حَسيسَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ وهو ما قالَ في [آيةٍ][1] أخرى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ أي لا يَحزُنُهُمْ أهوالُ يومِ القيامةِ وأفزاعُها ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالبِشارةِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا﴾ الآية [فصلت: ٣٠] أو ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ أي لا يَحزُنُهُمْ ما يَحُلُّ بالكَفَرَةِ مِنَ الفَزَعِ والعذابِ، ليسَ كَمَنْ رَأى في الدنيا إنساناً في بلاءٍ وشِدَّةٍ، أو يُعَذَّبُ بعذابٍ، فإنهُ يَحزَنُ / ٣٤٤ ـ أ/ ويَهتَمُّ بما حلَّ بهِ. فأخبَرَ أنهمْ لا يَحزَنونَ بما حَلَّ بالكَفَرَةِ مِنَ العذابِ والشدائدِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قالَ: الحَصَبُ [والحَطَبُ][2] واحدٌ. قالَ: وما أكثَرُ [الناسِ][3] مِنَ العَرَبِ مَنْ يَتَكلَّمُ بهذهِ اللفظةِ. قالَ: ولا أعرِفُ: حَصَبَ جهنَّمَ بالضادِ. وقالَ غَيرُهُ ما ذَكَرْنا مِنْ إلقاءِ الحَطَبِ فيهِ والتَّهييجِ. وقولُهُ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي داخِلونَ، وقولُهُ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ الزفيرُ هو شِدَّةُ النَّفَسِ في الصدرِ؛ يُقالُ: زَفَرَ يَزْفِرُ زفيراً. وقالَ بَعضُهُمْ: الزفيرُ هو أنينُ كلِّ مَحزونٍ ومَكروبٍ، وهو قريبٌ مما ذَكَرْنا. وقولُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي صَوتَها، وهو مِنَ الحِسِّ والصَّوْتِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما أُلقِيَ فيها. وأصلُهُ مِنَ الحَصْباءِ، وهي الحَصا، ويُقالُ: حَصَبْتُ فلاناً أي رَمَيْتُهُ حَصْباً بِتَسكينِ الصادِ، وما رَمَيْتُ بِهِ حَصَبٌ بِفَتحِ الصادِ، وكما تقولُ: نَفَضْتُ الشجرةَ نَفْضاً، وما وَقَعَ نَفَضٌ، واسْمُ حَصَا الجِمارِ حَصَبٌ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كأنَّ هذا قد خُرِّجَ على إثْرِ سُؤالٍ سألوهُ على غيرِ ابْتِداءٍ؛ لأنَّ الاِبْتِداءَ بِمِثْلِهِ على غَيرِ تَقدُّمِ أمْرٍ لا يُحتَمَلُ. فكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، لمّا ذَكَرَ أهلَ النارِ في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قولِهِ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧و٩٨] وذَكَرَ أهلَ الجنةِ، ووَصَفَهُمْ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣] فكأنهُمْ قالوا: متى يكونُ ذلكَ؟ فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أخبَرَ أنَّ السماءَ تُطوَى كما يُطوَى السِّجِلُّ لِلْكُتُبِ.

ثم ذَكَرَ في السماءِ الطَّيَّ مَرَّةً والتَّبديلَ في آيةٍ أُخرى بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وذَكَرَ الاِنْشِقاقَ في [آياتٍ بقولِهِ][4]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقولِهِ[5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] ونَحْوِهِ كما ذَكَرَ في الجِبالِ أحوالاً: مَرَّةً قالَ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وقالَ في آيةٍ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ونَحْوَهُ.

فجائزٌ أنْ تكونَ كذلكَ على اخْتِلافِ الأحوالِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ، ثم تَتَلاشَى، وتَفْنَى، حتى لا يَبْقَى منها شيءٌ كما ذَكَرَ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ فَعَلَى ذلكَ السمواتُ والأرَضونَ، تَختَلِفُ عليها الأحوالُ على ما ذَكَرَ، ثم آخِرُها التبديلُ كما ذَكَرَ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: آية كقوله. (٥) في الأصل وم: و.

وفي(١) ما ذَكَرَ في هؤلاءِ الآياتِ مِنْ تَغْيِيرِ الجبالِ والسمواتِ والأرَضِينَ دليلُ فَناءِ هذا العالَمِ بِجُمْلَتِهِ وأسْرِهِ، لأنَّ فَناءَ السمواتِ والجبالِ والأرضِ يَبْعُدُ عنْ أوهامِ الخَلْقِ، وأمّا غيرُها مِنَ الخلائقِ فإنهمْ يُشاهِدونَ فَناءَهُ، فَذَكَرَ فَناءَ ما يَبْعُدُ في أوهامِهِمْ لِيَعْلَموا أنَّ هذا العالَمَ يَفْنَى بِأسْرِهِ، ويُسْتَبْدَلُ عالَماً آخَرَ، يَحْتَمِلُ البقاءَ لِلْجزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ هذا أيضاً لا يُحْتَمَلُ إلّا على تَقَدُّمِ ذِكْرٍ؛ فهو مُحْتَمِلٌ ما ذَكَرْنا ممّا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ أهلِ الجنةِ وأهلِ النارِ. فقالوا: كيفَ يَحْيَوْنَ؟ فقالَ(٢) عندَ ذلكَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: فقالَ بَعْضُهُمْ: نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عِظاماً ثم لَحْماً ثم تَنْفُخُ فيها(٣) الروحَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ حُفاةً عُراةً على ما خُلِقوا في الابْتِداءِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ يعني السمواتِ [السَّبْعَ](٤) يَطْويها اللهُ، فَيَجْعَلُها سماءً واحدةً كما كانَتْ أوّلاً قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ منها(٥) سِتَّ سمواتٍ، والأرَضِينَ كذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا إخباراً أنهُ قادرٌ على أنْ يُعيدَهُمْ كما قَدَرَ على ابْتِداءِ خَلْقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي [كانَ](٦) بَعْثُهُمْ وَعْداً علينا لا نُخْلِفُ ذلكَ على ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩و...].

ثم اخْتُلِفَ في السِّجِلِّ وفي قراءتِهِ(٧): قالَ بَعْضُهُمْ: السِّجِلُّ: اسمُ رجلٍ، وهو كاتبُ رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ بَعْضُهُمْ: هو اسْمُ المَلَكِ الذي يَكْتُبُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: السِّجِلُّ الصحيفةُ. ثم قالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ: السُّجُلّ بالتشديدِ(٨) فهو الصحيفةُ، ومَنْ قَرَأَ: السَّجْلِ بالتخفيفِ فهو(٩) مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالصُّحُفِ، اسْمُهُ(١٠) السَّجْل [ويَقْرَأُ: لِلْكِتابِ](١١).

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قالَ: يُقالُ: أَسْجَلْتُ(١٢)، وسَجَّلْتُ، أي كَتَبْتُ إسْجالاً وتَسْجيلاً، وسَجَلْتُ أيضاً عَمِلْتُ، وسَجَلَ خَلَقَ؛ يُقالُ: منهُ سَجَلَ يَسْجُلُ سَجْلاً، والمُساجَلَةُ المُفاخَرَةُ، ويُقالُ: ساجَلْتُهُ فاخَرْتُهُ، ويُقالُ: أَسْجَلْتُ الكلامَ، فهو مُسْجَلٌ، أي أطْلَقْتُهُ، وأرْسَلْتُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ كلَّ كُتُبِ اللهِ التي أنْزَلَها، هي [زُبُرٌ، وقولُهُ](١٣): ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي الكتابِ الذي عندَ اللهِ، وهو اللوحُ المَحْفوظُ؛ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، على هذا التأويلِ: كَتَبْنا في الكتبِ التي أنْزَلْناها بَعْدَ ما كانَ مكتوباً في اللوحِ المَحْفوظِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها كذا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كَتَبَ اللهُ في الزَّبورِ المَعْروفِ، وهو زَبورُ داوُدَ، بَعْدَ ما كَتَبَ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي التوراةِ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني الجنةَ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ كَتَبَ ذلكَ في هذا القرآنِ، فقالَ: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ أي زَبورِ داوُدَ بَعْدَ ما كَتَبَ في الذِّكْرِ الذي عندَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ في بعضِ الكتابِ أي في بَعْضِ السُّوَرِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي بَعْدِ السورةِ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ كذا.

وجائزٌ أيضاً ﴿كَتَبْنَا فِى﴾ الكتابِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي مِنْ بَعْدِ ما ذَكَّرَهُمْ، ووَعَظَهُم ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ كذا.

ثم اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هي الجنةُ؛ أخْبَرَ أنَّ الجنةَ إنما

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فقالوا. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قراءة. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٥٤. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: باسمه. (١١) في الأصل وم: وبقراءة الكتاب. (١٢) في الأصل وم: أسجل. (١٣) في الأصل وم: زبور.

يرثُها عبادِيَ الصالحونَ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠و١١] فيكونُ هذا تفسيراً لذلكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أرضَ بيتِ المَقْدِسِ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ وهو كذلكَ: كانَ، ولم[1] يَزَلْ بها عِبادُ اللهِ الصالحونَ إلى يَومِ القيامةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ أُمَّةُ محمدٍ كقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «زُوِيَتْ لِيَ الأرضُ فأُريتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتي ما زُوِيَ لي منها» [مسلم ٢٨٨٩] فذلكَ وِراثَتُها، وهُمْ عبادُهُ الصالحونَ كقولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠] أخبَرَ أنها خيرُ الأُمَمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ في هذا أي في ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في ذلكَ بلاغاً ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي لِقومٍ هَمُّهُمُ العِبادةُ أو لِقومٍ مُطيعينَ مُوَحِّدينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قولِهِ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧و٩٨] وما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ كلِّهِ ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ بلاغاً للناسِ جَميعاً كقولِهِ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فيكونُ قولُهُ: ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي لِقومٍ يُلْزِمُهُمُ العبادةَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي هذا القرانِ ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أبْلَغَهُمْ عنِ اللهِ ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: إنَّ في هذا لَذِكْرَى[2]/ ٣٤٤ ـ ب/ لِقومٍ عابدينَ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كلُّ رُسُلِ اللهِ رَحْمَةً مِنَ اللهِ لِلْعالَمينَ، وكذلكَ كلُّ كُتُبِ اللهِ رَحْمَةٌ لِلعالَمينَ على ما ذَكَرَ في عيسى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

وجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ خاصَّةً، فيكونُ في وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي[3] جعلْناكَ ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

والثاني[4]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ رحمةً منّا لِلْعالَمينَ. و﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هُمُ[5] الجنُّ والإنسُ لأنهُ بُعِثَ إليهِمْ.

ثم الرَّحْمَةُ فيهِ تَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: تأخيرُ العذابِ عنهمْ.

والثاني: أنهُ رَحْمَةٌ حتى إذا اتَّبَعوهُ تكونُ بِهِ نجاتُهُمْ، وبِهِ عِزُّهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ.

والثالثُ: شَفاعَتُهُ لأهلِ الكَبائرِ في الآخِرَةِ ونَحْوُ ذلكَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كأنهُ على الدعاءِ خَرَجَ الأمْرُ، كأنهُ قالَ: أمَرَني ربّي أنْ أُخبِرَكُمْ أنَّ إلهَكُمْ إلهٌ واحدٌ، فاصْرِفوا العبادَةَ إليهِ، ولا تُشرِكوا فيها غيرَهُ. أو يقولُ: أُوحِيَ إليَّ أنْ أدْعُوَكُمْ إلى إلهِكُمُ الذي هو إلهٌ واحدٌ. وإلّا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ أنهُ إلهٌ واحدٌ، لكنَّهُ خَرَجَ على الدعاءِ والإخبارِ، وأنه إلهٌ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: أي في هذا. (٣) في الأصل وم: إلا. (٤) في الأصل وم: أو أن يقال. (٥) في الأصل وم: هو.

واحدٌ، أو يُخبِرُهُمْ أني إلى ما أدْعوكُمْ إليهِ، وآمُرُكُم بهِ، إنما أدْعوكُمْ، وآمُرُكُمْ بالوَحْيِ بما أُوحِيَ إليَّ لا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي [لقولِهِ تعالى:][1] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظاهرُهُ، وإنْ كانَ اسْتِفهاماً، فهو على الأمْرِ والإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: قد أُوحِيَ إليَّ أنَّ إلهَكُمْ إلهٌ واحدٌ، فأسْلِموا، وأخلِصوا العِبادةَ لهُ، لا تُشْرِكوا فيها غيرَهُ. والإسلامُ هو أنْ تُجْعَلَ كُلِّيَّةُ الأشياءِ، والأعمالُ كلُّها للهِ ﷻ ثم هو يكونُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الاعْتِقادِ أنْ تُعتَقَدَ كُلِّيَّةُ الأشياءِ للهِ لا على تَحْقيقِ ذلكَ الفِعْلِ.

والثاني: على تحقيقِ جَعْلِ الأشياءِ كلِّها للهِ اعْتِقاداً وفِعْلاً وقَولاً؛ منهُ يَخافُ، ومنهُ يَرْجو، لا يَخافُ غيرَهُ، ولا يَرْجو مَنْ دونَهُ. فهذا[2] حقيقةُ الإسلامِ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ الأوَّلَ خَرَجَ على الأمْرِ والدعاءِ حينَ[3] قالَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عنِ الإجابَةِ إلى ما دَعوتَهم[4] إليهِ: ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ﴾ أي أعْلَمْتُكُمْ[5] على عَدْلٍ وحَقٍّ كقولِهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] أي عَدْلٍ بَيْنَنا وبينَكُمْ. فَعَلَى ذلِكَ هذا مُحْتَمَلٌ: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۖ﴾ أي على عَدْلٍ وحَقٍّ.

ويَحْتَمِلُ أيضاً: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۖ﴾ أي أعْلَمْتُكُمْ حتى صِرْتُ أنا وأنتُمْ في العِلْمِ على سَواءٍ، أي على الِاسْتِواءِ في العَداوَةِ والمُخالَفَةِ، وفي كلِّ أمْرٍ على الِاسْتِواءِ. وهو كقولِهِ: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: ٥٨] على الِاسْتِواءِ في العَداوَةِ، أي انْبِذْ إليهِمْ حتى تكونَ أنتَ وهُمْ على الِاسْتِواءِ في العِلْمِ بالمُنابَذَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي ما أدري أقريبٌ أمْ بَعيدٌ ما توعَدونَ؟ ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ الساعةَ والقِيامةَ التي كانوا يُوعَدونَ بها، وهُمْ كانوا يَسْتَعْجِلونَ بها كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ﴾ [الشورى: ١٨] فيقولُ: ما أدري أقَريب ما تُوعَدونَ أمْ بَعيدٌ؟

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ العذابِ الذي كانَ يَعِدُ لَهُمْ أنهُ نازلٌ بهِمْ في الدنيا، وهُمْ كانوا يَسْتَعْجِلونَ بهِ قولَهُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] فيقولُ: ما أدري أقريبٌ أمْ بَعيدٌ ما تُوعَدونَ مِنَ العذابِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ يُخَرَّجُ ذلكَ على الوَعيدِ والتَّنْبيهِ والزَّجْرِ عنِ المَكْرِ برسولِ اللهِ والقولِ فيهِ بما لا يَليقُ بهِ. يُخْبِرُ أنهُ يَعْلَمُ ما تُظْهِرونَ مِنَ القولِ وما تكتُمونَ، أي ما تُسِرُّونَ مِنَ المَكْرِ بهِ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ حينَ[6] أخبَرَهُمْ عمّا أسَرُّوا في ما بَينَهُمْ مِنَ المَكْرِ بهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ذَكَرَ: أني[7] ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ذَكَرَ: أنهُ ما يَدْري[8]﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ ولم يُبَيِّنْ ما الذي يكونُ فِتْنَةً لهم.

لكنَّ بَعْضَ أهلِ التأويلِ قالَ: ما أدري ما قُلْتُ لكُمْ مِنَ العذابِ والساعةِ لِمَدِّكُمْ[9] ومَتاعٌ لكُمْ إلى حينٍ. فَيصيرُ ما قَرَّبْتُ لكُمْ مِنَ العذابِ والساعةِ فِتْنَةً لكُمْ، فيقولونَ: لو كانَ ما خَوَّفَنا بهِ محمدٌ حَقّاً لكانَ نَزَلَ بَعْدُ، فَيصيرُ قولي ذلكَ فِتْنَةً لكُمْ. هذا مُحْتَمَلٌ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو لمّا قالَ: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أنهُ كانَ خَوَّفَهُمْ نُزولَ العذابِ بهِمْ، ولكنْ لم يُبَيِّنْ لهمُ الوقتَ أنهُ متى يَنْزِلُ بهِمْ؟ فيقولُ: ما أدري لَعَلَّ تَخْويفي إيّاكُمُ العذابَ على بَيانِ وقتِهِ فِتْنَةً لكُمْ، لأنهُ إذا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فهو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: دعوتكم. (٥) من م، في الأصل: أعلمتم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أنه. (٨) في الأصل وم: أدري. (٩) في الأصل وم: لمدتكم.

تأخَّرَ عنهُمُ العذابُ مَتاعاً لهمْ يَأْمَنونَ منهُ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على تكذيبِهِ في ما خَوَّفَهُمْ منَ العذابِ، ويكونُ ما يَأْمَنونَ[1] مِنَ العَذابِ مَتاعاً لهمْ، لأنهُ لو كانَ وَقْتُ نُزولِ العذابِ مُبَيَّناً لهمْ لكانوا[2] أبداً على خَوفٍ، فَيُنغِّصُ ذلكَ الخوفُ [عيشَهُمْ][3] ويَمْنَعُهُمْ عنِ المَتاعِ.

وإنْ لم يُبَيِّنْ لهمُ الوقتَ، فإذا تأخَّرَ عنهُمْ يَأْمَنونَ، ويَتَمَتَّعونَ، فيقولُ: ما أدري لَعَلَّ تخويفي إيّاكُمْ لكمْ فِتْنَةٌ.

إذَنْ[4] لا يَجِبُ أنْ يُفَسَّرَ قولُهُ: ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ لأنَّ[5] أيَّ شيءٍ أرادَ هُمْ قد عَرَفوا ما أرادَ بهِ. وليسَ لنا أنْ نُفَسِّرَ ذلكَ أنهُ أرادَ كذا إلّا بِبَيانٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ تَعَلَّقَ أكثرُ المُعْتَزِلَةِ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ في مسائلَ لهمْ:

يقولونَ: يَجوزُ أنْ يُدْعَى بِدَعَواتٍ، يَعْلَمُ الداعي أنهُ قد أُعطِيَ ذلكَ لهُ مِنْ نَحْوِ سؤالِ المَغْفِرَةِ: ربِّ اغْفِرْ لي، وهو مَغْفورٌ [لهُ][6]، و: ربِّ أعْطِني كذا، وهو مُعْطًى لهُ ذلكَ، ويقولُ: ربِّ اغْفِرْ لي، وهو يَعْلَمُ أنهُ لا يُغْفَرُ لهُ ونَحْوِ هذا مِنَ المسائلِ لهمْ، فَيَحْتَجّونَ بظاهِرِ قولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أمَرَ رسولَ اللهِ أنْ يَدْعُوَ بهِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ لا يَحْكُمُ [إلا][7] بالحقِّ.

ونحنُ نقولُ: إنهُ لا يجوزُ أنْ يُدْعَى بِمِثْلِ هذا الدعاءِ على الإطلاقِ إلّا على اعْتِقادِ مَعْنًى آخَرَ في ذلكَ، كانَ للهِ[8] فِعْلُ ذلكَ، فيكونُ ذلكَ منهُ عَدْلاً [وحقاً][9] نَحْوَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالنَّصْرِ لهُ والظَّفَرِ على أعدائِهِ. ولهُ ألّا يَنْصُرَهُ، ويكونُ ذلكَ عَدْلاً منهُ وحقاً، أو أن يكونَ المُرادُ بهِ: احْكُمْ بالحَقِّ أي بالعَذابِ الذي هو حُكْمُكَ على مُكَذِّبي الرسلِ.

[فأمّا أنْ يَعْتَقِدَ مِنْ قولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ما اعْتَقَدَ المُعْتَزِلَةُ فَيَجْعَلَ الدعاءَ بهِ: اللهمَّ لا تَجُرْ، وربِّ اعْدِلْ. ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ هكذا فهو ليسَ يَعْرِفُ حقيقَتَهُ[10]].

وقالَ أبو عُبَيدَةَ في قولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾][11] ربِّ احْكُمْ بِحُكْمِكَ، وهو الحَقُّ، وهو مُحْتَمَلٌ مُسْتَقيمٌ. وقد ذَكَرْنا هذهِ المَسْألةَ وأمثالَها في ما تَقَدَّمَ.

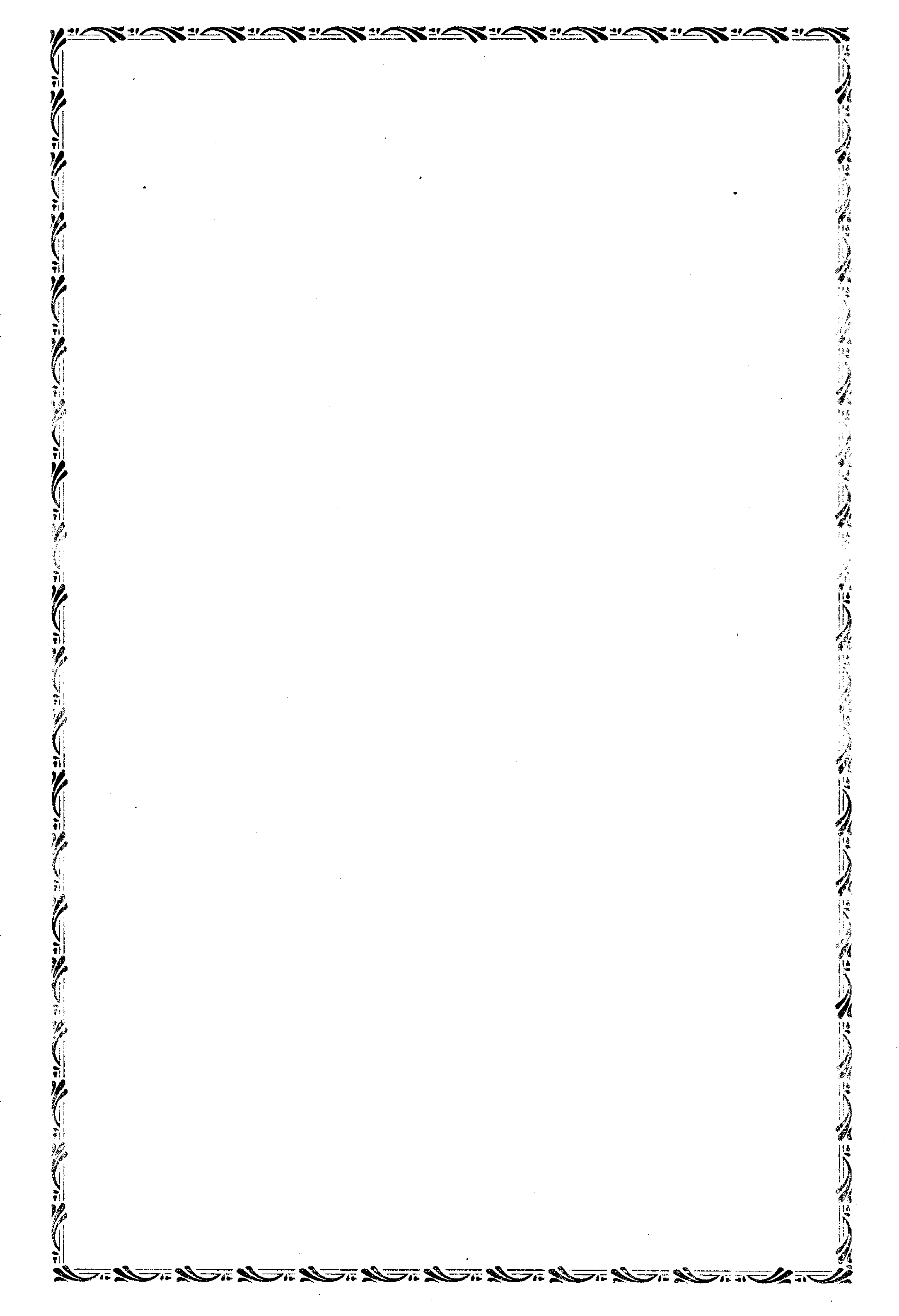
وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أمَرَ رسولَهُ أنْ يستَعينَ باللهِ تعالى على ما يقولونَ مِنْ تكذيبِهِمْ إياهُ في ما يَدْعو، ويَعِدُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعْلَمْتُكُمْ، فَصِرْتُ أنا وأنتُمْ على سَواءٍ. وإنما يُريدُ بـ: آذَنْتُكُمْ: أخْبَرْتُكُمْ، وأعْلَمْتُكُمْ، ذلكَ. فاسْتَوَيْنا في العِلْمِ. وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي كُلَّكُمْ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمَآبُ، وعليهِ التُّكْلانُ.

---

(١) في الأصل وم: يؤمنون. (٢) في الأصل وم: لكان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: أنهُ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الله. (٩) من م، في الأصل: لاحقاً. (١٠) انظر الحواشي المتعلقة بالآية الرابعة من سورة الفاتحة. (١١) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الحج

سورةُ[1] الحجِّ /٣٤٥ ـ أ/ كُلُّها مَكِّيَّةٌ إلّا ثلاثَ آياتٍ [﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الآية: ١٩] وغيرَها][2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ بينَ يَدَي الساعةِ آياتٍ تَحْجُبْنَ التوبةَ وقبولَ الإيمانِ: منها الزَّلْزَلَةُ التي ذَكَرَ، ومنها طُلوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها، وخُروجُ الدَّجّالِ، والدابَّةُ، وخُروجُ يَأجوجَ ومَأجوجَ [وأمثالُها، وهي][3] كقولِهِ: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وجائزٌ عندَنا أنْ تكونَ هذهِ الآياتُ غايةً لِقَبولِ التوبةِ، والإيمانُ يُقْبَلُ إلى ذلكَ الوقتِ، ولا يُقْبَلُ بَعْدَ ذلكَ، وإنْ تابوا، وآمَنوا، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنهمْ لا يُؤْمِنونَ لِما تَشْغَلُهُمْ تلكَ الآياتُ عنْ ذلكَ، فلا يُؤْمِنونَ، لأنَّ تلكَ الآياتِ تَعُمُّ الخَلائقَ كلَّهُمْ: المؤمِنَ والكافِرَ جميعاً؛ فلا يَعْرِفُ المُبْطِلُ والضّالُّ أنهُ على الضَّلالِ والباطِلِ، فَيَرْجِعَ إلى الهُدَى والحَقِّ، ليسَتْ[4] كَعَذابٍ يَنْزِلُ على قومٍ خاصٍّ لأنَّ ذلكَ يَعْرِفُ أولئكَ أنهُ إنما يَنْزِلُ بهمْ خاصَّةً لِما فيهِمْ مِنَ التكذيبِ والعِنادِ.

وإذا كانَتِ الآياتُ عامَّةً لم يَعْرِفْ أهلُ الضَّلالِ أنهمْ على باطلٍ، وأنهُ إنما يَنْزِلُ بِسَبَبِهِمْ لِما يَرَونَهُ أنهُ قد عَمَّ الخَلائِقَ كلَّها.

فقولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لأنهمْ لا يُؤْمِنونَ كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا يكونُ لهمْ مَنْ يَشْفَعُ، ليسَ أنْ يكونَ لهمْ شُفَعاءُ، فَيَشْفَعونَ، فلا تُقْبَلُ شَفاعَتُهُمْ.

فَعَلى ذلِكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ﴾ لأنهمْ يُشْغَلونَ عنِ الإيمانِ، فلا يُؤْمِنونَ، فلا يَنْفَعُ لهمْ على ما ذَكَرْنا.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ قيلَ: الساعةُ، وقيلَ: القِيامَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ وَصَفَها بالشِّدَّةِ والفَزَعِ.

الآية ٢ فقالَ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ أي تُشْغَلُ ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ لِشِدَّةِ أهْوالِها وأفزاعِها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

هذا على قَولِ مَنْ يَقولُ: إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ قَبْلَ الساعةِ؛ تكونُ على التَّحْقيقِ، أي تَذْهَلُ عَمّا أرْضَعَتْ، وتَضَعُ حَمْلَها لأنها تكونُ في ذلكَ الوقْتِ مُرْضِعاً وحامِلاً [فَتَذْهَلُها أهوالُ ذلكَ اليومِ][5] وأفزاعُها عنْ وَلَدِها، وتَضَعُ ما في بَطْنِها كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ إلى ٣٧]][6] يذكرُ هؤلاءِ لأنَّ مَنْ أصابَ شيءٌ[7] مِنَ البَلاءِ في هذهِ الدنيا يَفْزَعُ إلى هؤلاءِ، فَيُخْبِرُ [أنهُ في][8] ذلكَ اليومِ يَفِرُّ بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ لِشِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَولِهِ لِشُغْلِهِ بِنَفْسِهِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: وامثاله وهو. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) في الأصل وم: فتذهل الأهوال ذلك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: شيئاً. (٨) في الأصل: أن، في م: أن في.

وعلى قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ هي السّاعةُ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ الآية على التمثيلِ، أي تَذْهَلُ عمّا أرضعَتْ أنْ لو كانتْ مُرْضِعَةً، وتَضَعُ حَمْلَها أنْ لو كانتْ حاملاً لِشِدَّتِهِ وهَولِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي [مَنْ][1] مَكَّنَ لهُ، وقوّى، يَرى الناسَ كأنهمْ سُكارى، وما هُمْ بِسُكارى، وإلّا لم يَجزْ أنْ يُريَهُمْ سُكارى، وليسوا هُمْ بِسُكارى في الحقيقةِ، وإنما قُلْنا: إنهُ يُرِي مَنْ مَكَّنَ لهُ، وقوّى، وإلّا لو كانوا كلُّهُمْ سُكارى [لَكانَ لا يُريهِمْ سُكارى][2] لأنَّ السَّكْرانَ لا يَرى مَنْ كانَ في مِثْلِ حالِهِ سَكْرانَ. أو يكونُ خاطَبَ بِهِ رسولَهُ، ولا يكونُ فيهِ ذلكَ الهَولُ الذي يكونُ في غَيرِهِ. أو يكونُ ذلكَ على التَّمْثيلِ، ليسَ على التحقيقِ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: يقولُ لآدَمَ في ذلكَ: قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النارِ، فيقولُ: يا ربِّ كمْ، فَيَقولُ: مِنْ كلِّ ألْفٍ تِسْعَ مِئةٍ [وتِسْعاً][3] وتسعينَ في النارِ، وواحداً[4] في الجنةِ.

ويَرْوُونَ الأخبارَ في ذلكَ عنْ رسولِ اللهِ. فإنْ ثَبَتَ ما رُوِيَ عنهُ في ذلكَ، وإلّا فالكَفُّ[5] عن مِثْلِهِ أولى، لأنهُ يَحزَنُ حينَ[6] يؤمرُ أنْ يَتَوَلّى بَعْثَ وَلَدِهِ إلى النارِ مِنْ غَيرِ أنْ يَسْتَوجِبَ هذهِ العُقوبَةَ.

قالَ القُتَبِيُّ: تَذْهَلُ أي تَسْلُو عَنْ وَلَدِها، وتَتْرُكُهُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: تَذْهَلُ أي تَنْسَى؛ يقالُ: ذَهَلَ يَذْهَلُ ذُهولاً، وأذْهِلْتُهُ أي أُنسِيتُهُ. وقالَ غَيرُهُ: أي تُشْغَلُ. والحَمْلُ بالنَّصْبِ ما في البَطْنِ، والحِمْلُ بالخَفْضِ ما على الظَّهْرِ، والزَّلْزَلَةُ الرَّجْفَةُ؛ يُقالُ: زَلْزَلَتْ أي حَرَّكَتْ، وتَزَلْزَلَتْ أي تَحَرَّكَتْ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ذَكَرَ المُجادَلَةَ في اللهِ، ولم يُبَيِّنْ فيمَ جادَلوا؟ وقد كانَتْ مُجادَلَتُهُمْ مِنْ وجوهٍ: منهُمْ مَنْ جادَلَ في مَشيئةِ اللهِ، تَبارَكَ وتَعالى ومنهُمْ مَنْ جادَلَ أنَّ هذا العالَمَ مُنْشأٌ أوْ لا، ومنهُمْ مَنْ جادَلَ في وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى: واحدٌ أو عَدَدٌ، ومنهُمْ مَنْ جادَلَ في بَعْثِ الأنبياءِ وإرسالِ الرُّسُلِ، ومنهُمْ مَنْ جادَلَ في إنْزالِ الكُتُبِ، ومنهُمْ مَنْ جادَلَ في دينِ اللهِ المَدْعُوِّ إليهِ.

وبِمِثْلِ هذا قد كَثُرَتْ مُجادَلاتُهُمْ في ما ذَكَرْنا. وكلُّ ذلكَ كانَ مُجادَلَةً بِغَيرِ عِلْمٍ، لأنهمْ لو تَفَكَّروا في هذا العالَمِ، ونَظَروا فيهِ حَقَّ النَّظَرِ لَعَرَفوا أنَّ لهذا العالَمِ مُنْشِئاً، وأنهُ واحدٌ، لا عَدَدٌ، وأنهُ عالِمٌ قادرٌ بذاتِهِ، وأنهُ بَعَثَ الرسُلَ والكُتُبَ، وعَرَفوا أيضاً أنهُ يَبْعَثُ هذا العالَمَ، ويُحْيِيهِمْ، وأنهُ قادرٌ على ذلكَ.

لكنهمْ [لم][7] يَتَفَكَّروا فيهِ، ولم يَنْظُروا حَقَّ النَّظَرِ، فجادَلوا فيهِ بِغَيرِ عِلْمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ الشيطانَ المَعْروفَ، يُتابِعُهُ في كلِّ ما يَدْعوهُ. وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ [أنهُ][8] يتبعُ كلَّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الشيطانِ، وهُمُ القادةُ الذينَ كانوا يَدْعُونَ إلى اتِّباعِ ما يَدْعُو الشيطانُ، ويُوحي إليهِمْ [كقولِهِ][9]: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] أخبَرَ أنَّ الشياطينَ يُوحونَ إلى أوليائِهِمْ مِنَ الإنْسِ لِيُجادِلوكُمْ.

فذلكَ مَعْنى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ قيلَ: فَعيلٌ بِمَعْنى فاعلٍ ما ذُكِرَ في آيةٍ أخرى ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧] وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ مُتَمَرِّدٍ في العِنادِ والمُكابَرَةِ فهو ماردٌ. وقالَ بعضُهُمْ: الماردُ هو المُجاوِزُ عَنْ جِنْسِهِ في عُتُوِّهِ وتَمَرُّدِهِ، ولذلكَ سُمِّيَ الذي لا لِحْيَةَ لهُ أمْرَدَ لِخُروجِهِ [ومُجاوَزَتِهِ أجناسَهُ مِنَ الذكورِ][10] والماردُ بالفارسِيَّةِ: سِتَنْبَه.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كُتِبَ على مَنْ تَوَلّى الشيطانَ، واتَّبَعَهُ أنْ[11] يُضِلَّهُ، أي يَدْعُوَهُ إلى ما بِهِ ضَلالُهُ وهلاكُهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وواحد. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ومجاوزة أجناسه ورجاله. (١١) في م: أنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ قِيلَ: حُكِمَ، وقيلَ: قُضِيَ. وكُتِبَ يَحْتَمِلُ الإثباتَ، أي أثْبَتَ في أمِّ الكتابِ أنَّ مَنْ تَوَلّى الشيطانَ، واتَّبَعَهُ، يُضِلُّهُ[١]. وقد ذُكِرَ إضلالُ الشيطانِ في غَيرِ موضعٍ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي خلَقْنا أصْلَكُمْ مِنْ ترابٍ، وخَلَقْنا أولادَهُ مِنْ نُطْفةٍ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ الآية.

تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ كيفَ تَشُكُّونَ في البَعْثِ، وتُنْكِرونَهُ، وليسَ سَبَبُ إنكارِكُمُ البَعْثَ إلّا أنْ تَصيروا تُراباً أو ماءً في العاقِبةِ وقد كنْتُمْ في مَبادِئِ أحوالِكُمْ تراباً وماءً، فكيفَ أنْكَرْتُمْ بَعْثَكُمْ إذا صِرْتُمْ تراباً؟ أو أنْ يكونَ مَعْناهُ: أنْ كيفَ أنْكَرْتُمُ البَعْثَ، وقد رَأيتُمْ/ ٣٤٥ - ب/ أنهُ يُقَلِّبُكُمْ مِنْ حالِ النُّطْفةِ إلى حالِ العَلَقةِ ومِنَ العَلَقةِ إلى المُضْغَةِ، ولا يُقَلِّبُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ بلا عاقبةٍ تُقْصَدُ.

فلو لم يكُنْ بَعْثٌ كما تَزْعُمونَ لَكانَ خَلْقُكُمْ وتَقْليبُكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ عَبَثاً على ما أخبَرَ أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لا لِلرُّجوعِ إليهِ عَبَثٌ لقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَ الخَلْقِ لا لِلرُّجوعِ إليهِ عَبَثاً. فَعَلى ذلِكَ الأوَّلُ.

أو يكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخرِ الآيةِ. ولوِ اجْتَمَعَ حُكَماءُ البَشَرِ وعُلَماؤُهُمْ لِيَعْرِفوا السَّبَبَ الذي خَلَقَ البَشَرَ مِنْ ذلكَ الترابِ أو مِنَ النُّطْفةِ ما قَدَرُوا عليهِ، وما وَجَدُوا لِلبَشَرِ فيهِ أثَراً ولا مَعْنًى لِلْبَشَرِيَّةِ فيهِ. فَمَنْ قَدَرَ على ابْتِداءِ إنشاءِ هذا العالَمِ مِنَ الترابِ أو مِنَ النُّطْفةِ مِنْ غَيرِ سَبَبٍ، يوجَدُ فيهِ، ولا أثَرٍ [فهو قادرٌ][٢] على إعادَتِهِمْ. وإعادةُ الشيءِ في عقولِكُمْ أهْوَنُ وأيْسَرُ مِنَ الابْتِداءِ. فَمَنْ قَدَرَ على الابْتِداءِ فهو على الإعادةِ أقْدَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي تامَّةٍ ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غيرِ تامَّةٍ خَلْقاً، وهو الأشبَهُ لأنَّ التشديدَ إنما يُذْكَرُ لِتَكْثيرِ خَلْقِ[٣] الفعلِ، والتَّخفيفَ لِتَقْليلِهِ. فكأنهُ قالَ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ أي قد أتَمَّ خَلْقَها مِنَ الجَوارحِ والأعضاءِ ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غيرِ تامَّةٍ خَلْقاً بل ناقصةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ كأنَّ قولَهُ: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ موصولٌ[٤] بقولِهِ: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مِنْ سِتَّةِ أشْهُرٍ إلى سَنَتَينِ أو ما شاءَ اللهُ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ مِنَ الأرحامِ بَعْدَ الإقرارِ فيها ﴿طِفْلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ثم نُخْرِجُ كُلًّا منكُمْ طِفلاً. وقالَ بعضُهُمْ: واسْمُ الطفلِ يُجْمَعُ، ويُفْرَدُ.

[وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأشُدُّ هو ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنْ ثماني عشرةَ سنةً إلى ثلاثينَ سنةً.

وأصلُ الأشُدِّ هو اشْتِدادُ كلِّ شيءٍ، وتَقَوّي كلِّ شيءٍ عنهُ مِنَ الجَوارحِ والأعضاءِ، وكلِّ ما رُكِّبَ فيهِ مِنَ العقلِ وغَيرِهِ. ثم عندَ ذلكَ يُبَيِّنُ لهمْ. ويكونُ قولُهُ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بَعْدَ هذا كُلِّهِ إذا بَلَغوا المَبْلَغَ الذي تعرفونَ تَقْليبَهُ إيّاكمْ[٧] مِنْ حالٍ إلى حالٍ على ما ذَكَرَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على تَحْويلِهِمْ مِنْ حالِ الترابِ إلى حالِ الإنسانيَّةِ والبَشَرِيَّةِ ومِنْ حالِ النُّطْفةِ إلى حالِ العَلَقةِ ثم إلى آخِرِ ما ذَكَرَ يَقْدِرُ[٨] على البعثِ والإحياءِ بَعْدَما صاروا تُراباً.

---

(١) في الأصل: أن يضله، في م: أنه يضله. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) في الأصل وم: خلقها. (٤) في الأصل وم: موصولاً. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: إياهم. (٨) في الأصل وم: قدر.

والثاني[1]: يُبيِّنُ عِلْمَهُ في الظُّلماتِ الثلاثِ التي[2] كانَ الولَدُ فيها: أنْ كيفَ قَلَّبَهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ في تلكَ الظُّلماتِ لِيَعْلَموا أنهُ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ.

والثالثُ[3]: يُبيِّنُ حِكْمَتَهُ وتَدْبيرَهُ في خَلْقِ الإنسانِ مِنَ الترابِ ومِنَ النُّطفَةِ ما لَوِ اجْتَمَعَ جميعُ الحُكَماءِ مِنَ البَشَرِ والعُلَماءِ لِيَعْرِفوا المَعْنَى الذي بِهِ خُلِقَ الإنسانُ منهُ، وصارَ بِهِ بَشَراً، ما قَدَروا عليهِ، ولا عَرَفوا السَّبَبَ الذي بِهِ صارَ كذلكَ لِيَعْلَموا أنهُ حكيمٌ بذاتِهِ وعالِمٌ قادرٌ بذاتِهِ لا بِتَعْليمِ غَيرِهِ ولا بإقدارِ غَيرِهِ.

فَمَنْ كانَ هذا سبيلُهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؛ يُنْشِئُ الأشياءَ مِنَ الأشياءِ ولا مِنَ الأشياءِ على ما شاءَ وكيفَ شاءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي يُتَوَفَّى قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ أشُدَّهُ. دليلُهُ: قولُهُ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي مِنْ قَبْلِ أنْ يَبْلُغَ ذلكَ المَبْلَغَ، وهو الأشُدُّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي إلى وَقْتٍ يُسْتَقْذَرُ منهُ، ويُسْتَخْبَثُ.

ليسَ كالصغيرِ، لأنَّ الصغيرَ والطِّفْلَ مِمّا يُؤَمَّلُ منهُ في العاقبةِ المَنافعُ والزِّياداتُ، وهذا[4] لا يرجى منهُ، ولا يُؤَمَّلُ منهُ العاقبةُ. كلّما مَرَّ عليهِ وقْتٌ كانَ أضْعَفَ في عَقْلِهِ ونَفْسِهِ. ولا كذلكَ الصغيرُ، وهو ما قالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي الخَرَفِ والهَرَمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي لكيلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِما كانَ يَعْلَمُهُ شيئاً.

ثم ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ، فقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَيْتَةً. وقيلَ: خاشِعَةً، وقيلَ: يابِسَةً. وقيلَ: بالِيَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ قالَ الزَّجاجُ: ﴿وَرَبَتْ﴾ مِنَ الزِّيادةِ والنَّماءِ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: يُقالُ: رَبا يَرْبو، أي زادَ، وهو الرِّبا، ورَبَواتٌ مِنَ الارْتِفاعِ، ربا يَرْبو رَبْوَةً كقولِهِ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ثم أضافَ الاهْتِزازَ والزِّيادَةَ إلى الأرضِ، وهي لا تَهْتَزُّ، ولا تَرْبو. وإنما يَرْبو، ويَهْتَزُّ ما يَخْرُجُ منها مِنَ النباتِ. لكنْ أضافَ ذلكَ إليها لِما بها كانَ اهْتِزازُ ذلكَ النباتِ، وبها كانَ النَّماءُ، فأُضيفَ إليها، أو إنْ كانَ مِنَ الارتفاعِ والرَّبْوَةِ فهيَ تَرْتَفِعُ، وتَنْتَفِخُ، وتَهْتَزُّ بالمَطَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ قيلَ: البَهيجُ: الحَسَنُ. يُخْبِرُ في هذا [عَنْ][5] كلِّ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بَعْدَما كانَتْ يابِسَةً مَيْتَةً [هو قادرٌ][6] على إحياءِ المَوتَى بَعْدَ الموتِ وبَعْدَما صاروا تراباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي مِنْ كلِّ جِنْسٍ حَسَنٍ بَهيجٍ، أي يُبِرُّ، وهو فَعيلٌ بِمَعْنى فاعِلٍ. يُقالُ: امْرأةٌ ذاتُ خُلُقٍ باهِجٍ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الهامِدُ البالي، يُقالُ: هَمَدَ[7] الثوبُ إذا بَلِيَ، والهامِدُ أيضاً الخامِدُ، خَمَدَتِ النارُ تَخْمُدُ خُموداً.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي ضاعَفَتِ[8] النباتَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلكَ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الساعةِ وزَلْزالِها وأهوالِها وما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الإنسانِ وتَقْليبِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وما ذَكَرَ مِنَ البَعْثِ والإحياءِ وإحياءِ الأرضِ بَعْدَما كانَتْ هامِدَةً، هو الحقُّ، أي كائنٌ لا مَحالَةَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الذي. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لقادر. (٧) من م، في الأصل: همدت. (٨) في الأصل وم: أضعفت.

الآية ٧ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾؟ هذا كُلُّهُ يَدُلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في تَحقيقِ البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ وأنهُ قادِرٌ بذاتِهِ عالِمٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ يقولُ: هذا الذي فَعَلَ، وظَهَرَ، مِنْ صُنْعِهِ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ وغَيرُهُ مِنَ الآلهةِ التي يَعْبُدُونَها باطِلٌ ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ في الآخِرَةِ لا الآلِهَةُ التي يَعْبُدونَها ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على ما يَشاءُ. وهو ما أخبَرَنا.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿الْحَقُّ﴾ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، سُمِّيَ بِهِ لأنهُ يَحْكُمُ بالحقِّ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حِسِّيٍّ ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي لا بَيانٍ دَليلِيٍّ مِنْ جِهَةِ الفِعْلِ ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي ولا وَحْيٍ مُنيرٍ ما يُجادِلُ فيهِ، ويُخاصِمُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾][1] أي بغيرِ إذعانٍ مِمَّنْ عندَهُ العِلْمُ ﴿وَلَا هُدًى﴾ ولا اسْتِسْلامٍ لِمَنْ عندَهُ الدليلُ ولا خُضوعٍ لِمَنْ عندَهُ كتابٌ مُنيرٌ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لاوِيَ عُنُقِهِ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ناظراً في عِطْفِهِ أي في جانِبِهِ. وقيلَ مِثْلُ هذا. لكنَّ حقيقَتَهُ تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على التمثيلِ والكِنايَةِ عنْ إعراضِهِ عنْ دينِ اللهِ الحَقِّ والصُّدودِ عنهُ كقولِهِ: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١] وقولِهِ: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ونَحْوَهُ، كلُّهُ على التمثيلِ والكِنايَةِ عنِ الإعراضِ عنِ الحَقِّ والصُّدودِ لا على حقيقةِ الانْقِلابِ على الأعقابِ. فَعَلَى ذلِكَ/٣٤٦ ـ أ/ جائزٌ قولُهُ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ يُخَرَّجُ على التمثيلِ والكنايةِ عنِ الإعراضِ عنِ الحَقِّ.

والثاني[2]: جائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ عَطْفِ العُنُقِ والمَيلِ عنهُمْ تَكَبُّراً وتَجَبُّراً منهُ عليهِمْ.

ثم بَيَّنَ أنهُ لم يَفْعَلْ [ذلكَ][3] فقالَ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ثم أخبرَ مالَهُ في الدنيا [بِصُنْعِهِ، فقالَ: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخِزْيُ][4] هو العذابُ الذي يَفْضَحُهُ.

وأصْلُ الخِزْيِ الهَوانُ والذُّلُّ. وهُمْ لمّا أعْرَضوا عنْ عبادةِ اللهِ ودينِهِ بُلُوا بعبادَةِ الأصنامِ واتِّباعِ الشيطانِ، فذلكَ الخِزْيُ لهمْ في الدنيا. ثم أخبَرَ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنَ الجَزاءِ، فقالَ: ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وعامّةُ أهْلِ التأويلِ يَصْرِفونَ الآيَةَ إلى واحِدٍ منهُمْ، وهو النَّضْرُ بْنُ الحارِثِ، ويقولونَ ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لأنهُ أُسِرَ يومَ بَدْرٍ، فَضُرِبَ عُنُقُهُ، وقُتِلَ صَبْراً. فذلكَ الخِزْيُ لهُ.

والحَسَنُ يقولُ: هذا الخِزْيُ لِجَميعِ الكَفَرَةِ لأنهُ لم يَزَلْ هذا صَنيعُهُمْ مُنْذُ كانوا، فَلَهُمُ الخِزْيُ، في الدنيا الخَسْفُ والحَصْبُ على ما كانَ في الأممِ الخاليةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ليسَ على تَحْقيقِ تَقْديمِ الأيدي، ولكنْ على التمثيلِ لِما بالأيدي يُقَدَّمُ، فَذَكَرَ اليَدَ لِذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنَ انْقِلابِ الأعقابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأنهُ لا يأخُذُ أحداً بِغَيرِ ذنبٍ، ولا يأخُذُهُ[5] بذنبِ غَيرِهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على شَكٍّ، يَمْتَحِنُ ربَّهُ على أنهُ [إنْ][6] أعطاهُ طَمَعَهُ وأمَلَهُ في هذهِ الدنيا حَقَّقَ [لهُ الأُلوهيَّةَ والعبادةَ، وإنْ لم يَجِدْ طَمَعَهُ وأمَلَهُ لا يُحَقِّقْ][7] لهُ ذلكَ، ويَقُلْ[8]: ليسَ هو بإلهٍ؛ إذْ لو كانَ إلهاً لأعطاهُ ما يَطْلُبُ منهُ. على هذا الشَّكِّ يَعْبُدُ بالامْتِحانِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م،في الأصل: خزي. (٥) من م، في الأصل: يأخذ. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ويقول.

وقالَ بعضُهُم: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على شَرْطِ الإعطاءِ. يقولُ: إنْ أعطاني أَمَلي عَبَدْتُهُ، وأنْ لم يُعْطِني ذلكَ لم أعبُدْهُ؛ تكونُ عبادَتُهُ على هذا الشَّرْطِ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على حالٍ واحدةٍ، على جِهَةٍ واحدةٍ، ليسَ يَعْبُدُهُ على حالَينِ: كالمؤمِنِ يَعْبُدُهُ في حالَينِ جميعاً حالَةِ الظاهرِ وحالةِ الباطِنِ وحالةِ الضَّرَّاءِ والسَّرَّاءِ وحالةِ السَّعَةِ والشِّدَّةِ على ما تَعَبَّدَهُ اللهُ كقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحْوَهُ.

عَبَدَهُ المُؤمِنُ على الحالَينِ جميعاً على ما تَعَبَّدَهُ اللهُ. والمُنافِقُ إنما يَعْبُدُهُ على حالةِ السَّعَةِ والخِصْبِ لأنهُ ليسَ يَعْرِفُ ربَّهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ، فإنما يَعْبُدُ السَّعَةَ والرَّخاءَ.

وأمّا المُؤمِنُ فَقَدْ[1] عرفَ ربَّهُ، وعَبَدَهُ[2] في الأحوالِ كلِّها لِما عَرَفَ نفسَهُ عَبْداً لِسَيِّدِهِ، ولم يَرَ لِلْعَبْدِ سَعَةَ تَرْكِ العِبادةِ لِمَولاهُ في كلِّ حالٍ، ورأى لِلْمَعْبودِ حَقَّ اسْتِعْبادِهِ واسْتِخْدامِهِ في كلِّ حالٍ: في حالِ الضِّيقِ وحالِ السَّعَةِ، أو [لأنْ يكونَ رأى ما][3] يُصيبهُ مِنَ الشدائدِ والبَلايا بِتَقْصيرٍ كانَ منهُ وتَفْريطٍ، فَعَبَدَهُ[4] في الأحوالِ كلِّها، أو لِما رأى، وعَرَفَ نِعَمَ ربِّهِ عليهِ كثيرةً، ورأى شُكْرَ تلكَ النِّعَمِ عليهِ لازِماً، فَعَبَدَهُ في الأحوالِ كلِّها شُكْراً لِتِلْكَ النِّعَمِ.

وأمّا أولئكَ، لم يَرَوا لِلهِ على أنْفُسِهِمْ نِعَماً، فإنما عَبَدوهُ على الجِهَةِ التي ذَكَرْنا: [كانَ الكَفَرَةُ فِرَقاً أيضاً: منهُمْ][5] مَنْ يَعْبُدُ اللهَ في حالِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ، ولا يَعْبُدُهُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ونَحْوُهُ.

ومنهُمْ مَنْ كانَ يَعْبُدُهُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ، وهو ما ذَكَرْنا مِنْ أمْرِ المُنافِقِ.

وأمّا المُؤمِنُ فهو يَعْبُدُهُ في الأحوالِ كلِّها لِما رآهُ مَعْبوداً حقيقَةً على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الفِتْنَةَ هي التي فيها بلاءٌ وشِدَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ قالَ[6] بعضُهُمْ: هو على التمثيلِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقولِهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقالَ بعضُهُمْ: على تَحْقيقِ انْقِلابِ وجْهِهِ، لأنهُ كانَتْ[7] عبادَتُهُ ظاهِرةً، لم يَكُنْ يَعْبُدُهُ في الباطِنِ في حالِ السَّعَةِ. فلمّا أصابَتْهُ الشِّدَّةُ تَرَكَ عبادَتَهُ الظاهِرةَ، وانْقَلَبَ على ما كانَ باطِنُهُ، فهذا[8] انقلابُ وجْهِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أمّا خُسْرانُ الدنيا فَلأنَّهُ[9] فاتَ عنهُ ما كانَ يَأمُلُهُ بِزَوالِها، وخُسْرانُ الآخِرَةِ ظاهِرٌ[10] العذابُ والشدائدُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ خُسْرانُ الدنيا، هو خضوعُهُ لِمَنْ لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ لِلْعِبادةِ للأصنامِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ لأنهُ خَسِرَ في الدارَينِ جميعاً أمَلَهُ وطَمَعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ قيلَ: إنَّ الآيَةَ في المُنافقينَ، وهُمْ كانوا لا يَعْبُدونَهُ[12] على حرفٍ [لأنَّ العبادةَ على حَرْفٍ][13] ليستْ بعبادةِ اللهِ، إنما هي عبادةُ الشيطانِ. فأخبرَ أنهُ [يَعْبُدُ ما لا يَضُرُّهُ][14] إنْ تَرَكَ العبادةَ لهُ، ولا يَنْفَعُهُ إنْ عَبَدَهُ، يدلُّ على ذلكَ [قولُهُ][15]: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾. لأنهُ عبدَ مَنْ لا يَضُرُّهُ إنْ لم يَعْبُدْهُ، ولا يَنْفَعُهُ إنْ عَبَدَهُ. فذلكَ هو الضَّلالُ البَعيدُ.

---

(١) في الأصل وم: فإذا. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أن يكون أي بما. (٤) في الأصل وم: وعبدوه. (٥) في الأصل وم: كانوا فرقاً من الكفرة. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) في الأصل وم: ظاهر. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: يعبدون. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تأويلُهُ[1]: يدعو من ضرُّهُ[2] أقربُ مِنْ نَفْعِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ هذا إنْ عَبَدَهُ ضَرَّتْهُ عبادَتُهُ إيّاهُ في الآخِرَةِ.

[وذَكَرَ في الآيةِ][3] الأولى حينَ[4] قالَ: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إنْ تَرَكَ عبادَتَهُ في الدنيا ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إنْ عَبَدَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أي الوليُّ ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾][5] يعني الصاحبَ كقولِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. أي صاحِبوهُنَّ بالمَعْروفِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أي الوليُّ، وهو الشيطانُ ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي القرينُ الذي لا يُفارِقُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: أيِ الصاحبُ والخَليلُ، وهو ما ذَكَرْنا، كُلُّهُ واحدٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿الْعَشِيرُ﴾ الرفيقُ الذي تُعاشِرُهُ، وتُصاحِبُهُ، وتُخالِطُهُ، والعَشيرُ الزوجُ أيضاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ يَتَكَبَّرُ مُعْرِضاً. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي مُتَكَبِّراً مُتَجَبِّراً. والعِطْفُ في الأصلِ الجانبُ، والأعطافُ جَميعٌ، وقولُهُ: ﴿مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قالَ: لا يَدْري أحقٌّ هو أم باطلٌ؟ وهو الشَّكُّ. يُقالُ: إني مِنْ هذا الأمْرِ على حَرْفٍ أي على شَكٍّ، لَسْتُ بِمُسْتَيقِنٍ. وقالَ القُتَبِيُّ: على حَرْفٍ واحدٍ وعلى وَجْهٍ واحدٍ وعلى مَذْهبٍ واحدٍ. وقالَ قَتادَةُ على شَكٍّ على ما ذَكَرْنا. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: على حَرْفٍ أي لا يَدومُ، ويَقولُ: إنما أنا [على][6] حَرْفٍ أي لا أثِقُ بكَ، ونَحْوَ هذا. وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ في الآخِرَةِ ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ انقَلَبَ على وَجْهِهِ، أي رَجَعَ إلى دينِهِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ المُعْتَزِلَةُ كَذَّبَتْ هذهِ الآيةَ والآيةَ التي تلي هذهِ الآيةَ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦] لأنهمْ يقولونَ: أرادَ اللهُ إيمانَ جميعِ الخلائقِ، ثم لم يَفْعَلْ ذلكَ، وأرادَ جميعَ الخيراتِ والكَفَّ عنِ الشرورِ، ثم لم يَقْدِرْ على وفاءِ ما أرادَ، ويقولونَ: لا صُنْعَ لهُ في أفعالِ العِبادِ، ولا تَدْبيرَ.

فَعَلَى قولِهِمْ لم يَفْعَلِ اللهُ ممّا أرادَ واحداً مِنْ ألوفٍ. ويقولونَ: إنَّ اللهَ أرادَ هُدَى جميعِ الخلائقِ، لكنهمْ لم يَهْتَدوا، وهو أخْبَرَ أنهُ يَهْدي مَنْ يُريدُ. وهُمْ يَقولونَ: يُريدُ هُدَى الخَلْقِ كُلِّهِمْ، فلم يَهْتَدوا.

ونَحْنُ نقولُ: مَنْ أرادَ اللهُ هُداهُ اهْتَدَى، وما أرادَ أنْ يُفْعَلَ [فُعِلَ [ما يريدُ][7]. وهو ما أخْبَرَ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧ والبروج: ١٦] أخْبَرَ أنهُ يَفْعَلُ ما يُريدُ][8] فيخرجُ على قولِهِمْ على أحدِ الوجهَينِ: إمّا على الخِلافِ في الوَعْدِ، وإمّا على الكذبِ في القولِ والخَبَرِ/ ٣٤٦ ـ ب/ فَنَعوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القولِ.

الآية ١٥ وقولُـهُ تـعـالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ تأويلُ الآيةِ عندنا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن﴾ يَنْصُرَ اللهُ محمداً، صلواتُ اللهِ تعالى عليهِ، وسلَّمَ، ثم نَصَرَهُ، فغاظَهُ نَصْرُهُ [إيّاهُ][9]، فَيَدومُ غَيظُهُ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي بِحَبْلٍ مِنَ السماءِ، فَيَخْتَنِقَ، ويَقْتُلَ نفسَهُ، لِيُذْهِبَ غَيظَهُ الذي غاظَهُ نَصْرُهُ لِيَسْتَريحَ ممّا غاظَهُ.

والثاني: يُخَرَّجُ على الوَعْدِ بالنَّصْرِ والخَبَرِ أنهُ يَنْصُرُهُ. يقولُ: مَنْ كانَ يَظُنُّ أنَّ ما وَعَدَ لهُ مِنَ النُّصْرةِ لا يَفْعَلُ ذلكَ لهُ، ولا يَنْصُرُهُ، ولا يُنْجِزُ ما وَعَدَ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي لِيَبْخَسْ ما وَعَدَ لهُ مِنَ النَّصْرِ إنْ غاظَهُ ما وَعَدَ لِيُذْهِبَ غَيظَهُ الذي غاظَهُ. فَعَلَى هذا التأويلِ تكونُ السماءُ سماءَ الأصلِ، أي يَبْخَسُ السببَ الذي يَنْزِلُ مِنَ السماءِ.

---

(١) أدرجت في الأصل وم: بعد يدعو. (٢) في الأصل وم: يضره، في م: يضر به. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أنْ لنْ يَرْزُقَهُ اللهُ، ويَجْعَلُهُ صلةَ قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] لأنهُ يَجْعَلُ الآيةَ في أهلِ النِّفاقِ، يقولُ: مَنْ كانَ يظُنُّ مِنْ أهلِ النِّفاقِ أنَّ اللهَ لا يَرْزُقُهُ إذا كانَ في ذلكَ الدينِ الذي كانَ فيهِ، ودامَ، فَلْيَمْدُدْ بما ذَكَرَ.

وقالَ مجاهدٌ: ﴿كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ قالَ ذلكَ خِيفةَ ألّا يُرْزَقَ، وأهلُ التأويلِ صَرَفوا السماءَ إلى سَقْفِ البيتِ، ويقولونَ: القطعُ الخَنْقُ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أنْ لَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ، وهو قولُ أبي عُبَيدَةَ؛ يُقالُ: مَطَرٌ ناصرٌ، وأرضٌ مَنصورةٌ أي مَمْطورةٌ.

وقالَ المُفَسِّرونَ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ محمداً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بِحَبْلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى سَقْفِ البيتِ ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي لِيَختَنِقْ ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي حيلَتُهُ ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غَيظَهُ، أي لِيُجهِدْ جَهْدَهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ قالَ: هذا شيءٌ لا يكونُ، ولا يُقْدَرُ عليهِ، وهذا ذَمٌّ لِلْمَقولِ فيهِ لأنهُ جَعَلَ السماءَ سماءَ الأصلِ، وقولُهُ: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ أي يَمُدَّ يَدَهُ، وقولُهُ: ﴿بِسَبَبٍ﴾ والسَّبَبُ في الأصلِ الحبلُ، أي يُعَلِّقُ سَبَباً، فَيَرْتَقِي في السماءِ، والسِّبُّ الخِمارُ، وسُبوبٌ جميعٌ أي خُمُرٌ، والسَّبَبُ الحَبْلُ بِلُغَةِ هُذَيلٍ، وقولُهُ: ﴿مَا يَغِيظُ﴾ هو شدةُ الغَضَبِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي مِثْلُ هذا أنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ، تُبَيِّنُ ما لَهُمْ وما عليهِمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ أمّا الصائبونَ فإنَّ الناسَ اختَلَفوا فيهِمْ: قالَ أهلُ التأويلِ: هُمْ عُبّادُ الملائكةِ، وقد ذَكَرْنا أقاويلَهُمْ فيهِ في سورةِ المائدةِ، فَتَرَكْنا ذِكْرَهُ ههنا لِذلكَ. ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ قيلَ: هُمْ مُشْرِكو العَرَبِ، وهُمْ عَبَدَةُ الأوثانِ والأصنامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يَحكُمُ بَينَ هؤلاءِ يومَ القيامةِ لاختِلافِهِمْ في الدنيا كقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] وقولِهِ[1]: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يَحكُمُ بَينَ هؤلاءِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١١٣].

فالفَصْلُ بَينَهُمْ يومَ القِيامةِ، هو الحُكْمُ الذي ذَكَرَ في الآيةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في المَقامِ؛ يَبْعَثُ هؤلاءِ إلى الجنَّةِ وهؤلاءِ إلى النارِ. فذلكَ الفَصْلُ بينَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَفْصِلُ﴾ أي يُبَيِّنُ لهمُ الحقَّ مِنَ الباطلِ حتى يُقِرُّوا[2] جميعاً بالحقِّ، ويُؤْمِنوا[3] بهِ. ولكنْ لا يَنفَعُهُمْ ذلكَ يومَئذٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مِنْ أعمالِهِمْ وأفعالِهِمْ وأقرارِهِمْ وأقوالِهِمْ وجَميعِ ما كانَ منهُمْ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حَرْفُ ﴿مَن﴾ في ظاهِرِ اللغةِ واللسانِ إنما يُعَبَّرُ بهِ عنِ المُمْتَحَنِ مِنَ البَشَرِ والجنِّ والملائكةِ. وأمّا المَواتُ فإنهُ لا يُعَبَّرُ بهِ عنهُ، وإنما يُعَبَّرُ عنهُ بِحَرْفِ: ما.

لكنْ ذَكَرَ في آخِرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ﴾ الآيةَ ما يَدُلُّ أنهُ أرادَ الكلَّ المُمْتَحَنَ والمَواتَ جميعاً حينَ[4] قالَ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وإلّا ظاهرُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ إنما يُعَبَّرُ بـ: مَنْ عنِ المُمْتَحَنِ وبِحَرْفِ ما عنِ الكلِّ. جائزٌ أنْ يكونَ عندَ الاجتِماعِ يُذْكَرُ باسْمِ المُمْتَحَنِ على ما يُذْكَرُ عندَ اجتِماعِ الذَّكَرِ والأنثى باسْمِ[5] الذكورِ.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ سُجودِ هذهِ[6] الأشياءِ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: سُجودُ خِلْقِهِ؛ يَسْجُدُ كلُّ شيءٍ ذَكَرَ بِخِلْقَتِهِ للهِ على ما ذَكَرْنا في التسبيحِ.

والثاني: سُجودُ عبادةٍ؛ وهو سُجودُ كلِّ مُمْكِنٍ [منهُ السجودُ][7] وتركُهُ، وهو سُجودُ المُمْتَحَنِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: يقرون. (٣) في الأصل وم: ويؤمنون. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: باسمه. (٦) في الأصل وم: وهذه. (٧) ساقطة من الأصل وم.

والثالثُ: سُجودٌ[١] بِذُلٍّ؛ فما[٢] جعلَ في هذهِ الأشياءِ مِنَ المنافعِ، لا تأتي بِتَذَلُّلِها[٣] لأحدٍ مِنَ الماءِ والشمسِ والشجرِ والدَّوابِّ وكلِّ شيءٍ.

والرابعُ: ما أَلْهَمَ هذهِ الأشياءَ مِنَ الطاعةِ للهِ والخضوعِ لهُ. أَلا تَرى أنهُ قالَ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾؟ [فصلت: ١١] أَلا تَرى أنهُ أَلْهَمَ الدَّوابَّ مَعْرِفَةَ إتيانِ الصالحِ واتِّقاءَ المَهالِكِ؟ فجائزٌ أنْ يَعْرِفْنَ طاعَتَهُ والخُضوعَ لهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ في الجنَّةِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: مَنْ خَذَلَهُ اللهُ، وطَرَدَهُ عنْ عبادَتِهِ وبابِهِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ كقولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣ والزمر: ٢٣و٢٦].

والثاني[٤]: يقولُ: ومَنْ أهانَهُ اللهُ في النارِ بالعذابِ فَما لهُ مِنْ مُنْجٍ يُنْجيهِ عنْ ذلكَ.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ هذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: شاءَ أشياءَ، فَلَمْ يَفْعَلْ. وهو يقولُ: يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ اختلَفوا في تأويلِهِ. قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ في سِتَّةِ نَفَرٍ تبارَزوا: ثلاثةٌ مِنَ المسلمينَ: حمزةُ بْنُ عبدِ المطلبِ وعليُّ بْنُ أبي طالبٍ وعُبَيْدَةُ بْنُ الحارثِ ﷺ، وثلاثةٌ مِنَ المُشْرِكينَ: عُتْبَةُ بْنُ ربيعةَ وشَيْبَةُ بْنُ ربيعةَ والوليدُ بْنُ عُتْبَةَ. فذلكَ اخْتِصامُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: [اخْتَصَمَ][٦] أهلُ الإسلامِ وأهلُ الكتابِ في الدينِ: قالتِ اليَهودُ والنَّصارَى نَحْنُ أولى باللهِ منكُمْ يا مَعْشَرَ المُسلِمينَ لأنَّ نَبِيَّنا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ودينَنا قَبْلَ دينِكُمْ وكتابَنا قَبْلَ كِتابِكُمْ. فقالَ: المُسْلِمونَ: بل نَحْنُ أولى باللهِ؛ آمنَّا بِكِتابِنا وكِتابِكُمْ ونَبِيِّكُمْ وبكلِّ كتابٍ أَنْزَلَهُ، ثم كَفَرْتُمْ أنتمْ بِنَبِيِّنا وكتابِنا وبكلِّ نَبِيٍّ كانَ قَبْلَ نَبِيِّكُمْ. فأنزَلَ اللهُ تعالى ما فَصَلَ بَينَ المؤمنِينَ وأهلِ الكتابِ فقالَ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمدٍ وبالقرآنِ، وهُمُ اليهودُ والنَّصارَى ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ.

وقالَ في المؤمنينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [الحج: ٢٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ النارُ والجنةُ. قالتِ النارُ: جَعَلَني اللهُ لِلْعُقوبةِ لِلْعُصاةِ والفَسَقَةِ، وقالَتِ الجنةُ: جَعَلَني اللهُ لِلرَّحْمَةِ لِلأنبياءِ والأولياءِ ونَحْوَهُ. لكنْ متى يكونُ للنارِ مُخاصَمَةٌ وكذلكَ الجَنَّةُ؟ وهو بَعيدٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: اخْتَصَمَ المُسْلِمُ والكافرُ في البَعْثِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اخْتِصامُهُمْ ما ذَكَرَ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى هذا المَوضِعِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية: ٨] وقولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الآية: ١١] وقولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الآية: ١٧].

يكونُ الاخْتِصامُ[٧] بينَ هؤلاءِ الذينَ ذَكَرَ في هذهِ السورةِ؛ وهُمْ أهلُ الإسلامِ وأهلُ [الكفرِ. وفي][٨] الآيةِ بيانُ ذلكَ حينَ[٩] قالَ: /٣٤٧ ـ أ/ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ وقالَ في المؤمنينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية: ٢٣].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ هذا الذي ذَكَرَ في الآيةِ الأولى: حينَ[١٠] قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية: ١٧] يُنْزِلُ أهلَ الإسلامِ في الجنةِ، وأهلَ الكُفْرِ في النارِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: سجوده. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: بذلها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: اختصامهم. (٨) في الأصل وم: الكفرة لي. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ كقولِهِ: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٥٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ قيلَ: الحَميمُ الماءُ الحارُّ الذي انْتَهى حَرُّهُ غايَتَهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: يُصْهَرُ يُذابُ، يُقالُ: صَهَرَتِ النارُ الشَّحْمَةَ، والصُّهارَةُ ما أُذيبَ مِنَ الإلْيَةِ، وكذلكَ يُقالُ[1]: الصُّهارَةُ ما يَبْقى مِنَ الشَّحْمِ والإلْيَةِ إذا أُذيبا. يقالُ: صَهَرْتُ الشَّحْمَ أي أذبْتُ أصْهَرُهُ صَهْراً.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَقامِعُ الأعْمِدَةُ مِنَ الحديدِ، وهو قولُ أبي مُعاذٍ. وقالَ بعضُهُمْ: المَقامِعُ: شِبْهُ العُصِيِّ، الواحدةُ مِقْمَعَةٌ.

قالَ أبو مُعاذٍ: يَعْني قولَهُ: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ أي يُذابُ ما في بُطونِهِمْ خاصةً. وأمّا الجلودُ فإنها تُحْرَقُ لأنَّ الجِلْدَ لا يُصْهَرُ، ولا يَنْصَهِرُ، وقالَ: هذا مِثْلُ قَولِ العَرَبِ: أتيْتُهُ، فأطْعَمَني، واللهِ، ثَريداً، واللهِ ولَبَناً قارِصاً، أي حامضاً، واللهِ وإزاراً ورِداءً أي واللهِ وحُمْلاناً فارِهاً؛ تُضْمِرُ لكلِّ شيءٍ فِعْلاً يُشاكِلُهُ. وفي القرآنِ مِثْلُهُ كثيرٌ، وكذلكَ في اللسانِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ جَهَنَّمَ إذا جاشَتْ ألْقَتْ مَنْ فيها إلى أعلاها، فَيُريدونَ الخُروجَ منها، فَيُعيدُهُمُ الخُزّانُ فيها بالمقامِعِ، ويقولُ لهمُ الخَزَنَةُ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ في جهَنَّمَ دَرَكاتٍ، فإذا اشْتَدَّ العذابُ بهِمْ يَنْقَلِبونَ مِنَ الدَّرَكَةِ السُّفْلَى إلى الدَّرَكَةِ العُلْيا، ويَصْعَدونَ، ثم يُريدونَ الخروجَ منها فَيُعادونَ فيها [كقولِهِ][3]: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ النارَ تَضْرِبُهُمْ بِلَهَبِها، فَتَرْفَعُهُمْ، حتى إذا كانوا في أعلاها ضُرِبوا بِمَقامِعَ مِنْ حديدٍ، فإذا انْتَهَوا إلى أسْفَلِها ضَرَبَهُمْ زُفُرُ لَهَبِها، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي مِنْ تَحْتِ أهلِها، وهو كما ذُكِرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣و . . .].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لقومٍ رَغِبوا في هذهِ الدنيا في[4] التَّحَلّي، وتَفاخَروا بهِ فيها، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣] والأقَلُّ ما يَرْغَبُ الناسُ في الدنيا في التَّحَلّي بما ذَكَرَ إلّا النساءَ خاصَّةً. فأمّا ما[5] ذَكَرَ للنساءِ أو لقومٍ تَفاخَروا بهِ في الدنيا [فقد وَعَدَ][6] لهمْ في الآخِرَةِ ذلك [بقولِهِ][7]: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قالَ الكِسائيُّ: مَنْ قَرَأَ: ولُؤْلُؤٍ بالخَفْضِ[8] فهو [يُخَرِّجُهُ على وجهَيْنِ][9]

أحَدُهما: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [ولُؤْلُؤٍ][10].

والثاني[11]: يُحَلَّونَ فيها: مِنْ لُؤْلُؤٍ: حِلْيَةً سِوَى الأساوِرِ.

ومَنْ قَرَأَ بالنصبِ: ولُؤْلُؤاً [يُخَرِّجُهُ على][12] يُحَلَّونَ فيها لُؤْلُؤاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ: «هو لهم في الدنيا ولنا في الآخِرَةِ» [ابن ماجه ٣٥٩٠].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا في الدنيا والآخِرَةِ. أما في الدنيا فهو[13] التوحيدُ وشَهادةُ الإخلاصِ. وأمّا في الآخِرَةِ [فهو][14] كقولِهِ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فهو القولُ الطَّيِّبُ الذي هُدُوا إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بـ. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: فوعد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية: ح٤/ ١٧٢. (٩) في الأصل وم: يخرج. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: أي. (١٣) في الأصل وم: هو. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ هو القرآنُ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ الإسلامِ وشرائِعِهِ.

وقالَ قتادةُ: أُلهِموا التّسبيحَ والتّحميدَ كما أُلهِموا النَّفَسَ، وقالَ: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ هو كلُّ قولٍ حَسَنٍ، وقولُهُ: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ يَحتَمِلُ صِراطَ الحَميدِ أي صِراطَ اللهِ كقولِهِ: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٣] ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ نَعتَ ذلكَ الصِّراطِ أي صِراطٍ حَميدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قولُهُ: ﴿كَفَرُواْ﴾ هو خَبَرٌ ماضٍ، وقولُهُ: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ خَبَرٌ مُستقبَلٌ، فَنَسَقَ المُستقبَلَ على الماضي. وقالَ الزّجّاجُ: [معناهُ:][1] إنَّ الكافِرينَ والصادِّينَ عنْ سَبيلِ اللهِ ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾.

وعندَنا تأويلُهُ: إنَّ الذينَ كَفَروا قَبلَ أنْ يُبعَثَ محمدٌ، ويَصُدّونَ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ إذا بُعِثَ محمدٌ. ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهُما:][2] كانوا يمنَعونَ المُسلِمينَ عنْ دخولِ المَسْجِدِ الحرامِ للإسلامِ والسؤالِ عنهُ.

والثاني: إخراجُهُمْ منهُ كقولِهِ: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ الذي جَعَلَ فيهِ العاكفَ والباديَ سَواءً المَسْجِدَ الحرامَ لأنهُ قالَ: ﴿جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾.

لكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا ذلكَ إلى مكةَ، وقالوا: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ في النُّزولِ في المَنازِلِ.

وظاهِرُهُ ما ذَكَرْنا. ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ المَسْجِدُ مَخصوصاً بهذا ليسَ كسائرِ المَساجِدِ التي لها أهْلٌ أنَّ أهْلَها أحَقُّ بها مِنْ غَيرِهِمْ. وأمّا المَسْجِدُ الحرامُ فإنَّ الناسَ شَرْعٌ[3] سَواءٌ العاكفُ فيهِ والبادي.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ [ذَكَرَ في][4] المسجِدِ الحرامِ أنَّ الناسَ فيهِ [سَواءٌ][5] لِيَعلَموا أنَّ الحُكْمَ في سائرِ المَساجِدِ كذلكَ أي[6] الناسُ فيها سَواءٌ أهْلُها وغَيرُ أهْلِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الإلحادُ فيهِ، هو الشِّرْكُ والكُفْرُ، وقالَ [بعضُهُمْ][7]: الإلحادُ هو كلُّ المَعاصي. وأصْلُ الإلحادِ، هو العُدولُ والمَيلُ عنِ الطريقِ. وتأويلُهُ: ومَنْ يُلْحِدْ فيهِ إلحادَ ظُلْمٍ نُذِقْهُ كذا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَنْ هَمَّ فيهِ بإلحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ كذا.

ثم يَحتَمِلُ تخصيصُ ذلكَ المكانِ بما ذَكَرَ وجوهاً:

أحَدُها: لِيَعْلَموا أنَّ كَثْرَةَ الخَيراتِ وتَضاعُفَها ممّا لا يَعْمَلُ في إسقاطِ المَساوِئِ فيهِ وهَدْمِها لِما رُوِيَ: «إنَّ صلاةً واحدةً بمكّةَ تَعدِلُ كذا صلاةً في غَيرِها مِنَ الأماكنِ، وكذلكَ حَسَنَةٌ فيها» [بنحوه الطبراني في الكبير ١/ ٩٠٧].

والثاني: خُصَّتْ بالذِّكْرِ على التَّغليظِ والتّشديدِ على ما خُصَّتْ تلكَ البُقْعَةُ بِتضاعُفِ الحَسَناتِ.

والثالثُ: أُولئكَ ادَّعَوا أنهُمْ أولَى باللهِ مِنْ غَيرِهِمْ لِنُزولِهِمْ ذلكَ المَكانَ. فأخبَرَ أنَّ مَنْ يُرِدْ فيهِ بكذا نُذِقْهُ. ليسَ تَخصيصُ ذلكَ المكانِ بما ذَكَرَ والعَفْوِ في غَيرِهِ، ولكنْ بما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: مَعناهُ: مَنْ يُرِدْ فيهِ إلحاداً بظُلْمٍ، والباءُ زائدةٌ. ومِثْلُهُ قولُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] مَعناهُ، تُنْبِتُ الدُّهْنَ.

رُوِيَ بالخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «احْتِكارُ الطعامِ بمكةَ إلحادٌ» [أبو داوود: ٢٠٢٠] وكذلكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وابنِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: شرعا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أن. (٧) ساقطة من الأصل وم.

عُمَرَ. وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّغليظِ والتَّشديدِ وتضاعُفِ العُقوبةِ. ولِذلكَ كَرِهَ قومٌ الجِوارَ بمكةَ لِما تَتضاعَفُ بها[1] العقوبةُ إذا ارْتُكِبَ [فيها مأثَمٌ، وأُلْحِدَ فيها][2] وجائزٌ ما ذَكَرْنا.

وقد كَرِهَ قومٌ بَيْعَ[3] رباعِ مكةَ وإيجارَها[4] بقولِهِ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾. وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ بالنَّهْيِ عن ذلكَ.

رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][5] قال: «مكةُ مُباحَةٌ، لا تُباعُ رِباعُها، ولا تُؤْجَرُ بيوتُها» [السيوطي في الدر المنثور: ٦/٢٦].

وعن[6] عمرَ رضي الله عنه «يا أهْلَ مكةَ لا تَتَّخِذوا لِدورِكُمْ أبواباً لِيَرِدَ البادي حيثُ شاءَ» [عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٩٢١١] ونهاهُمْ أنْ يُغْلِقوا أبوابَ دورِهِمْ.

وليسَ في ظاهرِ الآيةِ ذِكْرُ مكةَ، بل[7] في الآيةِ ذِكْرُ المَسْجِدِ حينَ[8] قال: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ وإنما ذَكَرَ ذلكَ في المَسْجِدِ/ ٣٤٧ - ب/ الحرام خاصَّةً.

وقالَ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ: أكْرَهُ إيجارَ[9] بيوتِ مكةَ في المَوْسِمِ مِنَ الحاجِّ والمُعْتَمِرِ. فأمّا المُقيمُ والمُجاوِرُ فلا نَرى بِأَخْذِ ذلكَ منهمْ بأساً، وهو قولُ محمدٍ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال بعضُهُمْ: بَوَّأْنا أي هَيَّأْنا لهُ[10] مكانَ البيتِ لِيَنْزِلَ فيهِ، والتَّبوِئَةُ الإنزالُ. كأنهُ قالَ: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ لِيَتَّخِذَ فيهِ بيتاً، وقُلْنا لهُ: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ وهكذا بُعِثَ الأنبياءُ جميعاً، بُعِثوا ألّا يُشْرِكوا باللهِ، وأُمِروا أنْ يَدْعُوا الناسَ إلى تَرْكِ الإشراكِ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ وادْعُ الناسَ أيضاً إلى ألّا يُشْرِكوا باللهِ شيئاً. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ مِمَّنْ[11] ذَكَرَ أي طَهِّرْهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ التي فيهِ لئلّا يُعْبَدَ غيرُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ مِنْ جميعِ الخَبائثِ ومِنْ كلِّ أنواعِ الأذى مِنَ الخُصوماتِ والبِياعاتِ وغَيرِها. وذلكَ المَسْجِدُ الحرامُ كَغَيرِهِ[12] مِنَ المساجِدِ يُطَهَّرُ، ويُجَنَّبُ جميعَ أنواعِ الأذى والخُبْثِ والفُحْشِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال أهلُ التأويلِ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ هُمُ القادمونَ مِنَ البلدانِ ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ المُقيمينَ هنالكَ ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المُصَلّينَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ لكلِّ طائفٍ بهِ ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ والعاكِفينَ لكلِّ عاكِفٍ نَحْوَهُ، أي لكلِّ مُصَلٍّ، وهذا أشْبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: على الإعلامِ، أنْ أعْلِمِ الناسَ أنَّ للهِ عليهِمُ الحَجَّ بالبيتِ كقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٧].

والثاني: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي ادْعُ الناسَ، ونادِهِمْ أنْ يَحُجّوا البيتَ.

قالَ أهلُ [التأويلِ][13]: لَمّا أمرَ اللهُ إبراهيمَ أنْ يُناديَ في الناسِ بالحَجِّ، فَنادَى، فأسْمَعَ اللهُ صَوتَهُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ حتى أَسْمَعَ صوتَهُ ونداءَهُ مَنْ [في][14] أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ، قالوا[15]: لَبَّيكَ، ومَنْ حَجَّ بَيْتَهُ فهو الذي أجابَ إبراهيمَ لَمّا ناداهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: عليها. (٢) في الأصل وم: فيه مأثماً وألحد فيه. (٣) في الأصل وم: البيع. (٤) في الأصل وم: وإجارتها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: إجارة. (١٠) في الأصل وم: ٥. (١١) في الأصل وم: ومن. (١٢) في الأصل وم: ولغيره. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: فقالوا.

لكنْ لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخبَرِ عنْ رسولِ اللهِ أنهُ كانَ ما ذَكَروا، وإلّا فالسُّكوتُ[١] عنهُ وعَنْ مِثْلِهِ أولَى.

وقالوا: إنَّ قولَهُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ موصولٌ[٢] بقولِهِ: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية [الحج: ٢٦].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ لِرسولِ اللهِ أو لِكُلِّ رسولٍ، بُعِثَ، الأمْرَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ أي على الأرجُلِ مُشاةً ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أي يَضْمُرُ، ويَذْهَبُ سِمَنُهُ لِبُعْدِ المَضربِ، وهو ما ذَكَرْنا: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ أي مِنْ كلِّ طريقٍ بَعيدٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ على الدعاءِ والأمْرِ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ دلالةُ لزومِ الحَجِّ على المُشاةِ؛ كأنهُ قالَ: مُرْهُمْ [أنْ يَحُجّوا][٣] مشاةً على الأرجُلِ ورُكْباناً. وإنْ كانَ على الإعلامِ فهو على الوَعْدِ والجَزاءِ يَأتوكَ[٤] على الأرجلِ مُشاةً [وعلى الدَّوابِّ رُكْباناً][٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ أضافَ الإتيانَ إلى الدَّوابِّ لأنهُ بالدَّوابِّ يأتونَ، فأضافَ إليها لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٣] مِنَ الحَلْيِ مِنَ الذهَبِ والفضةِ. يُقالُ: حَلَّيْتُ المرأةَ أي اتَّخذْتُ [لها][٦] حُلِيّاً. ويقالُ: حَلِيَ الشَّيءُ، يَحْلَى حِلاً إذا ما حَسُنَ. ويُقالُ: حَلِيَ بعينِهِ إذا حَسُنَ في عينِهِ، ويُقالُ: حَلَا الشَّيءُ يَحْلُو حَلاوَةً، فهو حُلْوٌ، ويُقالُ: تَحَلَّيْتُ: إنْ شِئْتُ جَعَلْتُهُ [مِنَ الحُلْوِ][٧] أكلتُ حَلاوَتَهُ، وإنْ شِئْتُ جَعَلْتُهُ مِنَ الحَلْيِ.

[ويُقالُ: حَلَّيْتُ الشَّيءَ، وأحْلَيْتُهُ، أي جَعَلْتُهُ حُلْواً][٨]. [ويقالُ:][٩] حلأتُ الإبلَ عنِ الماءِ، أي مَنَعْتُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الحج: ٢٥] [العاكفُ أيِ المُقيمُ، والبادي، هو][١٠] الطارئُ مِنَ البَدْوِ. وسَواءٌ فيهِ؛ ليسَ المُقيمُ فيهِ بأولَى مِنَ النازعِ إليهِ. وقولُهُ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ أي مَنْ يَرِدْ فيهِ إلحاداً، وهو الظُّلْمُ والمَيلُ عنِ الحَقِّ، فَزيدتِ الباءُ كما يُقالُ [في][١١]: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وهو ما ذَكَرْنا. وقولُهُ: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أي رُكْباناً [أي على كلِّ بَعيرٍ ضامِرٍ][١٢] مِنْ طولِ السَّفَرِ ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ أي بَعيدٍ غامِضٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: العاكِفُ المقيمُ، والبادي: مَنْ كانَ في البادِيةِ، والإلحادُ المَيْلُ عنِ الحقِّ، ومنهُ اشْتُقَّ اللَّحْدُ لَحَدَ القَبْرَ، و ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أي على كلِّ بَعيرٍ ضامِرٍ أي خَميصِ البَطْنِ، و[١٣] ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ يقولُ: رَجِلَ الرجُلُ يَرْجَلُ [هُمْ رَجْلَةٌ، وهو][١٤] راجِلٌ، والفجُّ الطريقُ، والعَميقُ[١٥] البعيدُ، يُقالُ: عَمُقَ أي بَعُدَ يَعْمُقُ عُمْقاً فهو عميقٌ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ قالَ الحَسَنُ: يَشهدونَ مَشاهِدَ فيهِ، فَيَذْكُرون اللهَ فيها، ويَكْتَسِبونَ أشياءَ، تَنْفَعُ لهمْ في الآخِرَةِ. فذلكَ ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ التي يَشْهَدونَها.

وقالَ غَيرُهُ مِنْ أهْلِ التأويلِ: ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ التّجاراتِ والمَنافِعَ التي يَكْسِبونَها إذا خَرَجوا لِلْحَجِّ. وقالَ بعضُهُمْ: التجارةُ في الدنيا، والأجْرُ في الآخِرَةِ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ الأرزاقَ التي جُعِلَتْ لهمْ في البلدانِ النائيةِ البَعيدةِ ما لو لم يَشْهَدوها لم يَسُقِ اللهُ ذلكَ إليهمْ، لأنَّ مِنَ الأرزاقِ التي جُعِلَتْ لهمْ في البلدانِ ما يُساقُ إلى أهْلِها، وهُمْ في مُقامِهِمْ وأمْكِنَتِهِمْ. ومِنَ[١٦] الأرزاقِ ما يُساقُ أهْلُها إليها ما لو لم يَأتوها لم يُسَقْ ذلكَ إليهِمْ.

فجائزٌ ما ذُكِرَ مِنَ المنافِعِ، وهو ما غابَ عنهُمْ مِنَ المَنافِعِ والأرزاقِ التي جُعِلَتْ لهمْ في البُلْدانِ النائيةِ والبَعيدةِ؛ إذا خَرَجوا للحجِّ نالوها، وإذا لم يَخْرُجوا لهُ لم يَنالوها.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: موصولاً. (٣) في الأصل وم: يحجون. (٤) في الأصل وم: أنهم يأتون. (٥) أدرجت في الأصل وم قبل: وإن كان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرجت في الأصل وم: بعد: أي منعت. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: والبادي أي المقيم والبادي وهو، (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: عل ضمر. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: رجلة فهو. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي مَتاجِرَهُمْ وقَضاءَ مَناسِكِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ الحَسَنُ: هو يومُ النَّحْرِ خاصَّةً.

وجائزٌ إضافةُ الواحدةِ إلى الجماعةِ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] وإنما جَعَلَ في السماءِ الدنيا، وكما يُقالُ: تَوارَى[1] فلانٌ في دورِ بني تميمٍ، وإنما توارى في دارٍ مِنْ دورِهِمْ. ومِثْلُ هذا كثيرٌ. وذلكَ جائزٌ في اللِّسانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأيامُ المَعْلوماتُ هو يومُ النَّحْرِ ويومانِ بَعْدَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الأيامُ المَعْلوماتُ والمَعْدوداتُ هي أيامُ التَّشريقِ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: الأيامُ المعلوماتُ [هي أيامُ العَشْرِ لأنها][2] هي أيامُ الذِّكْرِ فيها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ كِنايةً عنِ الذَّبحِ وأيامُ الذَّبحِ ثَلاثةٌ: يومُ النَّحْرِ ويومانِ بَعْدَهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ذَكَرَ الأكْلَ[3]، ولم يذكرِ الذَّبحَ؟ فذلكَ يدلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عنِ الذَّبحِ. وإنما كانَ كِنايةً عنهُ لأنهُ بالذِّكْرِ تُقَدَّمُ الذبائحُ، ولا يَخْلو منهُ دونَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الأضاحي لأنَّ التَّناوُلَ مِنَ الأضاحي، كانَ لا يَحِلُّ، فَخَرَّجَ ذلكَ مُخْرَجَ رُخْصَةِ التَّناوُلِ منها. والحِلُّ لكلِّ[4] الأضاحي لا يَحْتَمِلُ لأنَّ الوقتَ ليسَ هو وقتَ الأضاحي ولا أماكِنَها، إنما هو وَقْتُ دَمِ المُتْعَةِ والقِرانِ ودَمِ التَّطَوُّعِ، وفيهِ إباحَةُ التَّناوُلِ مِنْ دمِ المُتْعَةِ والقِرانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: البائِسُ مِنَ البُؤْسِ، وهو ما اشْتَدَّ بهِ مِنَ الحاجَةِ والشِّدَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: البائِسُ الذي سألَكَ، والفَقيرُ المُتَعَفِّفُ الذي لا شَيءَ لهُ، وقالَ بعضُهُمْ: البائِسُ هو الذي بهِ زَمانَةٌ، والفَقيرُ الصحيحُ الذي لا شَيءَ لهُ. وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لْيَقْضُوا۟/ ٣٤٨ - أ/ تَفَثَهُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ الأدَبِ: التَّفَثُ لا يُعْرَفُ في لسانِ العَرَبِ. ما يُرادُ بهِ.

وقالَ الحَسَنُ: التَّفَثُ هو التَّقَشُّفُ، وهو تَرْكُ الزِّينَةِ. يَدُلُّ على ذلكَ ما رُوِيَ أنهُ سُئِلَ عنِ الحاجِّ، فقالَ: «كُلُّ أشْعَثَ تَفِلٍ» [بنحوه الترمذي ٢٩٩٨].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّفَثُ في الأصلِ الوَسَخُ؛ يُقالُ: امْرَأةٌ تَفِثَةٌ إذا كانَتْ خَبيثَةَ الريحِ، وهو قريبٌ ممَّا قالَ الحَسَنُ: إنهُ تَرْكُ الزينَةِ.

وأهْلُ التأويلِ يقولونَ: التَّفَثُ هو حَلْقُ الرأسِ وقَصُّ الأظفارِ والشارِبِ والرَّمْيُ والذَّبحُ ونَحْوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ المناسِكَ كلَّها.

ورُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ وقَفَ مِنْ عَرَفَةَ بِلَيلٍ، ووَصَلَ مَعَنا الجَمْعَ، فقد تَمَّ حَجُّهُ، وقُضِيَ تَفَثُهُ» [أبو داود ١٩٤٩] ظاهِرُ: قُضِيَ تَفَثُهُ، أي نُسُكُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: «وقُضِيَ تَفَثُهُ» أي جاءَ وقتُ الزينةِ، وهو وَقْتُ الحَلْقِ واللباسِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ أي لِيُوفوا ذَبْحَ ما أوجَبُوا ذبحَهُ. ذَكَرَ ممّا ساقَ مِنَ الهَدْيِ لِمُتْعَتِهِ ولِحَجَّتِهِ الأكْلَ منهُ لقولِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ ولم يَذْكُرِ الأكْلَ ممّا أوجَبَ بالنَّذْرِ. فكذلكَ يقولُ أصحابُنا: إنهُ يجوزُ التَّناوُلُ مِنْ هَدْيِ المُتْعَةِ والقِرانِ، ولا يَجوزُ التَّناوُلُ مِمّا كانَ وجوبُهُ بالنَّذْرِ والكَفّارَةِ. بل عليهِ أنْ يَتَصَدَّقَ بالكُلِّ، وهو ما قالَ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، في الأصل: نوراتي. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: الكل. (٤) في الأصل وم: لكن.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طوافُ الزِّيارةِ، وهو طوافُ يومِ النَّحرِ، وهو الفَرْضُ عندَنا.

ولا يَحتمِلُ ما قالَ بَعْضُ الناسِ: إنهُ طَوافُ الصَّدَرِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] وحِجُّ البيتِ هو الطَّوافُ بالبيتِ، لا غيرَ. وطَوافُ الدخولِ وطَوافُ الصَّدَرِ، ليسَ على أهلِ مكةَ ذانِكَ[2] الطَّوافانِ، وعليهِمُ الحَجُّ كما كانَ على غيرِهِمْ مِنَ الناسِ. فَدَلَّ ما ذَكَرْنا على أنَّ قولَهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هو طَوافُ الزِّيارةِ، وهو حَجُّ البيتِ الذي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ عَتيقاً لأنهُ أعْتَقَهُ اللهُ عَنِ الجبابرةِ عنْ أنْ يَتَجَبَّروا عليهِ. وكمْ مِنْ جَبَّارٍ قد صارَ إليهِ لِيَهْدِمَهُ، فَمَنَعَهُ اللهُ عنْ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ عَتيقاً لأنهُ يُرْفَعُ إلى السماءِ الرابعةِ، فذلكَ المَرْفوعُ، هو البيتُ العَتيقُ.

والبيتُ العَتيقُ عندَنا، هو الذي بَناهُ إبراهيمُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وأسَّسَهُ. ويكونُ قولُهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الذي أسَّسَ إبراهيمُ لا البيتَ الحادثَ الذي أسَّسَ الناسُ.

ألا تَرى أنهُ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ لعائشةَ: «لولا أنَّ قومَكِ حديثو عَهْدٍ بالإسلامِ وإلّا رَدَدْتُ البيتَ على أساسِ إبراهيمَ، وجَعَلْتُ لهُ بابَينِ: باباً يُدخَلُ فيهِ، وباباً يُخرَجُ منهُ»؟ [بنحوه البخاري ١٥٨٦].

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ [خَبَرٌ][3] يرويهِ عبدُ اللهِ بْنُ الزبيرِ؛ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنما سُمِّيَ البيتَ العتيقَ لأنهُ لم يَظْهَرْ عليهِ جَبّارٌ» [الترمذي ٣١٧٠] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو هو.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الذي تقدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الآيتان: ٢٧و٢٨] إلى آخِرِ ما ذُكِرَ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على ذلكَ. ولكنَّ [ذلكَ][4] حرفٌ يُذْكَرُ عندَ خَتْمِ قصةٍ والفراغِ منها لِمُبْتَدَإٍ لا على رَبْطِ شيءٍ نَحْوُ قولِهِ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ص: ٤٩] كذا [وقولِهِ[5]][6]: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ [ص: ٥٥] كذا.

وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [وقولُهُ][7]: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ يصِحُّ دونَ ذِكْرِ ﴿هَذَا﴾. لكنَّهُ ذُكِرَ عندَ خَتْمِ الكلامِ الأوّلِ وابتداءِ آخَرَ. فَعَلى ذلِكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ وخَرَجَ للحجِّ، وأنفقَ المالَ، وأتعَبَ النَّفْسَ [في ما][8] لهُ عندَ ربِّهِ مِنَ الثوابِ، فذلكَ خَيرٌ لهُ مِنْ حِفْظِ مالِهِ وحِفْظِ نَفْسِهِ. وإلّا فلا[9] شَكَّ أنَّ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ خيرٌ لهُ مِمَّنْ لم يُعَظِّمْها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: وأُحِلَّتْ لكمْ بَهيمةُ الأنعامِ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ المُحَرَّماتِ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ وما ذُكِرَ في سورةِ المائدةِ[10]. وقد ذَكَرْنا هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [هو اجْتِنابُ][11] الأوثانِ، وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ عبادةَ الأوثانِ؛ فإنهُ رِجْسٌ. وليسَ فيهِ أنَّ غيرَ الأوثانِ، ليسَ بِرِجْسٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] ليسَ فيهِ أنهُ يَحِلُّ قتلُ الأولادِ في غيرِ خَشْيَةِ الإملاقِ. فَعَلى ذلِكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ويَحتمِلُ الزُّورَ الذي قالوا في اللهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ وما لا يَليقُ بهِ. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: واجْتَنِبوا قولَ الزُّورِ، وكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ قد ذَكَرْنا. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ تفسيرَ قولِهِ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي كونوا مُخْلِصينَ للهِ في جَميعِ أمورِكُمْ غيرَ مُشْرِكينَ بهِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فما. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الآية الثالثة. (١١) في الأصل وم: وهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يَحتمِلُ ضَرْبُ مَثَلِ مَنْ أشْرَكَ باللهِ بالساقِطِ مِنَ السماءِ [وخَطْفِ الطيرِ إيّاهُ وهُوِيِّ الريحِ بِهِ][1] في مكانٍ سَحيقٍ وجوهاً:

أحَدُها: ما وَصَفَ، وضَرَبَ مَثَلَهُ بشيءٍ لا قَرارَ لَهُ، ولا ثَباتَ، نَحْوُ ما قالَ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] ونَحْوُ ما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآية [النور: ٣٩] ضَرَبَ مَثَلَ الكُفرِ بشيءٍ، لا قَرارَ لَهُ، ولا ثَباتَ. فَعَلَى ذلِكَ [ضَرْبُ][2] مَثَلِهُ بالساقِطِ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ لا يَدْري أينَ [هو؟ ولا أينَ يَطْلُبُ إنْ أرادَ][3] طَلَبَهُ؟ ولا يَظْفَرُ بِهِ. فَعَلَى ذلِكَ الكافرُ.

والثاني: [ما][4] ضربَ مَثَلَهُ بالساقِطِ مِنَ السماءِ، وهي أبْعَدُ البِقاعِ في الأوهامِ، لا يَنْتَفِعُ مَنْ[5] سقطَ منها ولا بشيءٍ مِنْ نَفْسِهِ، ولا تَبْقَى نَفْسُهُ. فَعَلَى ذلِكَ الكافرُ لا يَنْتَفِعُ بشيءٍ مِنْ مَحاسِنِهِ، ولا تَبْقَى نفسُهُ، يَنْتَفِعُ بها، لِبُعْدِهِ عَنْ دينِ اللهِ.

والثالثُ: [ما ضَرَبَ مَثَلَهُ بالساقِطِ][6] مِنَ السماءِ إثْرَ سُقوطِهِ منها في نفسِهِ وفي جَميعِ جَوارِحِهِ وظهورِ[7] ذلكَ فيهِ حتى لا يُرْجَى[8] بُرْؤُهُ وصِحَّتُهُ. فَعَلَى ذلِكَ الكافرُ تَظْهَرُ آثارُ الكُفرِ في نفسِهِ وجوارِحِهِ لِبُعْدِهِ عَنْ دينِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِمَنْ أشْرَكَ بِهِ في هلاكِهِ وبُعْدِهِ مِنَ الهُدَى. والسَّحيقُ البعيدُ وهو قريبٌ مِمّا ذَكَرْنا.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥] [وقولِهِ][9]: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ[10] مَنْ يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ بالجوارحِ، فذلكَ التعظيمُ مِنْ تَقْوَى القلوبِ. وهكذا الأمْرُ الظاهرُ في الناسِ أنهُ إذا كانَ في القَلْبِ شيءٌ مِنْ تَقْوَى أو خيرٍ ظَهَرَ ذلكَ في الجَوارِحِ. وكذلكَ الشَّرُّ أيضاً إذا كانَ في القَلْبِ ظَهَرَ في الجوارحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[11]: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هما واحدٌ، وهي المناسكُ. وقالَ بعضُهُمْ: الحُرُماتُ هي جميعُ مَحارِمِ اللهِ ومَعاصيهِ يتَّقيها تعظيماً لها. وقد ذَكَرْنا تأويلَ ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ في سورةِ المائدةِ[12].

[وقولُهُ تعالى: ﴿سَحِيقٍ﴾ بعيدٍ][13] يقالُ: سَحَقَ المَكانُ يَسْحَقُ سُحْقاً فهو سَحيقٌ إذا بَعُدَ. والسُّحْقُ أيضاً الشيءُ الخَلَقُ؛ يُقالُ: أسْحَقَ الثوبَ. وسَحُقَ يَسْحُقُ، وسَحِقَ[14] يَسْحَقُ [سُحْقاً، والسَّحُوقُ:][15] النخلةُ الطويلةُ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي تَذْهَبُ بِهِ؛ هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً[16] أي ذهبَ بنَفْسِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في ما ذَكَرَ مِنَ الشعائرِ ﴿مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ مِنْ ظُهورِها وألبانِها وأصوافِها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنْ تُقَلَّدَ، وتُهْدَى/٣٤٨-ب/ ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ إذا قُلِّدَتْ وأُهْدِيَتْ ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

وكذلكَ يقولُ أصحابُنا: إنَّ مَنْ أوجَبَ بُدْنَةً، أو أهْدَى بُدْنَةً، لا يَحِلُّ لهُ الانْتِفاعُ بها ولا بِشَيْءٍ منها إلّا في حالِ الاضطِرارِ فإذا بَلَغَتْ مَحِلَّها، وذُبِحَتْ، حَلَّ الانْتِفاعُ بِلَحْمِها.

ومِنْهُمْ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتِ مَحِلِّها مِنَ الرُّكوبِ وحَلْبِ اللَّبَنِ وجَزِّ الصوفِ وغيرِ ذلكَ مِمّا كانوا يَنْتَفِعونَ بها مِنْ قَبْلُ، ويَرْوي في ذلكَ خَبَراً؛ رُوِيَ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ «رأى رجلاً، ساقَ بَدَنَةً، فقالَ: ارْكَبْها، فقالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: ارْكَبْها فقالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ، قالَ: ارْكَبْها، قالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ. قالَ: ارْكَبْها وَيْلَكَ» [البخاري ١٦٩٠] وبهِ يقولُ بَعْضُ الناسِ؛ يُبيحُونَ الانْتِفاعَ بالهدايا والقلائدِ قَبْلَ أنْ تُنْحَرَ، وتُذْبَحَ.

---

(١) في الأصل وم: واختطاف الطير أو تهوي به الريح. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: يطلب إن أرادوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ممن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وظهر. (٨) من م، في الأصل: يرجو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الآية الثانية. (١٣) السحيق هو المكان البعيد. (١٤) في الأصل وم: وأسحق. (١٥) في الأصل: والسحق، في م: والسحوق. (١٦) في الأصل وم: هواء.

لكنْ عندنا ذلكَ في وَقْتِ الحاجةِ الشديدةِ [في][1] المُضطَرِّ إليها. ففي مثلِ ذلكَ يجوزُ الانتِفاعُ بِتِلْكَ غَيْرَ بَدَلٍ. فَعَلَى ذلكَ بالهدايا: يُنْتَفَعُ بها بما ذَكَرْنا، ويُضْمَنُ ما نَقَصَها ركوبُهُ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنْ تَهْلِكَ أو تُهْلِكوا أنتمْ كقولِهِ: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] فَعَلَى ذلِكَ الأوَّلُ.

ثم يكونُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ واللهُ أعلَمُ، ابْتِداءَ سُؤالٍ سُئِلَ عنْ مَحَلِّ الهدايا والقلائدِ، فقالَ: عندَ ذلكَ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ واللهُ أعلَمُ. والأوَّلُ أشْبَهُ وأقْرَبُ لما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ذَكَرَ البيتَ العَتيقَ. ومَعْلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ نَفْسَ البيتِ، ولكنْ إنما أرادَ بِهِ البُقْعَةَ التي فيها البَيْتُ، لأنَّ الدماءَ لا تُراقُ في البيتِ، إنما تُراقُ في تلكَ البُقْعَةِ التي هو فيها [لأنَّ][2] الحرمَ كلَّهُ مَنْحَرٌ ومَذْبَحٌ. وأرادَ بِهِ بقولِهِ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ نَفْسَ البيتِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ ههنا ﴿بِٱلْبَيْتِ﴾ لِما[3] يطافُ بِهِ، وقالَ هنالكَ ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [لِما][4] أضافَ إليهِ؟ دلَّ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ نَفْسَ البيتِ، ولكنْ [أرادَ][5] البقعةَ التي فيها البَيْتُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَنْسَكُ المَوضِعُ الذي يَعْبُدونَ، ويَنْسُكونَ فيهِ، ويَصيرونَ إليهِ لِعبادَتِهِمْ. ومِنْ ثَمَّةَ يُقالُ للرجلِ العابدِ: ناسِكٌ. ولذلكَ قالَ مَنْ قالَ: ﴿مَنسَكًا﴾ أي يَصيرونَ، ويَخرجونَ إليهِ للعبادةِ، وقالَ: المَنْسَكُ الدينُ، وقالَ: الشريعةُ. وقالَ بعضُهُمْ: المَنْسَكُ المَنْحَرُ والمَذْبَحُ.

وجائزٌ أنْ يُسَمَّى في اللغةِ الذَّبحُ نُسُكاً كقولِهِ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] وهو الذَّبحُ، وقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ولو كانَ النُّسُكُ عبادةً كذِكْرِ الصلاةِ، وهي عبادةٌ، لَكانَ لا يَذْكُرُ النُّسُكَ. فَدَلَّ أنهُ أرادَ بالنُّسُكِ الذَّبْحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ ذِكْرَ اسمِ اللهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبيحةِ حينَ[6] ذكرَ اسْمَ اللهِ، ولم يَذْكُرِ[7] الذبحَ، فَفَهِموا مِنْ ذِكْرِ اسْمِ اللهِ الذَّبحَ أنهُ مِنْ شَرْطِ جَوازِهِ وحِلِّهِ سِوَى الشافِعِيِّ فإنهُ لم يَفْهَمْ ما فَهِمَ الناسُ والأمَمُ جميعاً حينَ[8] لم يجعلْ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبيحةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كأنهُ ذَكَرَ قولَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ لقومٍ أنكروا الذبائحَ، فقالَ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي ذَبْحاً ذَبَحُوهُ، وذَكَروا اسْمَ مَعْبودِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى:][9] ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي أخلِصوا ذلكَ كُلَّهُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قالَ [بعضُهُمْ][10]: المُتَواضِعينَ، وقالَ بعضُهُمْ: المُطْمَئِنِّينَ. وقالَ بعضُهُمْ: الخاشِعينَ. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ مُجْتَهِدٍ في العبادَةِ هو المُخْبِتُ، ويُقالُ: المُخلِصينَ. وتفسيرُ المُخْبِتينَ[11] ما ذكرَ على إثْرِهِ حينَ[12] قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية. ومَنْ قالَ: المُخْبِتينَ[13] المُطْمَئِنِّينَ قالَ: والخَبْتَةُ الطُّمَأنينَةُ.

وقولُهُ[14] تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾ ومَنْسِكاً لُغَتانِ[15]. قالَ الكِسائيُّ: مَنْ قَرَأَ مَنْسِكاً بكسرِ السينِ فهو مِنْ نَسَكَ يَنْسِكُ، ومَنْ قَرَأَ مَنْسَكاً بالنصبِ فهو مِنْ نَسَكَ يَنْسُكُ[16].

ثم لا خِلافَ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ في أنَّ البُدْنَ التي تُساقُ والهَدايا التي تُقَلَّدُ في الحجِّ لا يَجوزُ أنْ تُنْحَرَ في غَيرِ الحَرَمِ، إنما اختَلَفوا في المُحْصِرِ إذا أرادا أنْ يَنْحَرَ، ويَذْبَحَ هَدْيَهُ الذي يَحِلُّ بِهِ. وقد ذَكَرْنا أقاويلَهُمْ واختِلافَهُمْ في سورةِ البقرةِ[17] ولم يُخْتَلَفْ في أنَّ مَعْنَى قولِ اللهِ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يَدْخُلُ فيهِ الحَرَمُ كُلُّهُ على ما ذَكَرْنا وعلى [ما رَوَتِ][18] الأخبارُ.

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فإنما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: يذكروا. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) في الأصل وم: المخبت. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: المخبت. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: فيه. (١٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٨٠. (١٧) في تفسير الآية/١٩٦. (١٨) في الأصل وم: رويت.

رُوِيَ عَنْ جابرِ بْنِ عبد اللهِ [أنهُ] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَرَفَةُ، كُلُها مَوقِفٌ، وكلُّ مِنًى مَنْحَرٌ، وكُلُّ فِجاجِ مكةَ طريقٌ ومَنْحَرٌ» [مسلم ١٢١٨/١٤٩].

وعَنْ عليٍّ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أتَى الجَمْرَةَ، فَرَمَى بها، ثم أتَى المَنْحَرَ، فقالَ: «هذا المَنْحَرُ، ومِنًى كلُّها مَنْحَرٌ» [مسلم ١٢١٨/١٤٩].

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: إنما المَنْحَرُ بمكةَ، ولكنها نُزِّهَتْ عنِ الدماءِ، ومِنًى بمكةَ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافَتْ، وفَرِقَتْ خوفاً منهُ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ المَصائبِ والرَّزايا ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذهِ الآيةُ قد ذَكَرْنا تأويلَها في سورةِ الأنفالِ[2].

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ فَرائضِ اللهِ. وقالَ الحَسَنُ: مِنْ دينِ اللهِ والأشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ مَعالِمِ دينِ اللهِ وعِبادَتِهِ ونُسُكِهِ، لأنَّ الشعائرَ، هي المَعالِمُ في اللغةِ خُصَّتْ بها المَناسِكُ دونَ غَيرِها مِنَ العِباداتِ، فَجَعَلَها مَعالِمَ لها.

والبَدَنَةُ سُمِّيَتْ بَدَنَةً لِما تَعْظُمُ في نَفْسِها، وتَبْدُنُ. ويُقالُ للرجلِ إذا عَظُمَ في نَفْسِهِ: بَدُنَ فلانٌ.

وظاهِرُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «البَدَنَةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ والبَقَرَةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ» أنَّ البَدَنَةَ هي الجَزورُ والإبلُ حينَ[3] قالَ: «البَدَنَةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ [والبقرةُ تُجزِئُ عنْ سَبْعَةٍ» [بنحوه مسلم ١٢١٣/١٣٨] قَرَنَ][4] بينَ البَدَنَةِ والبَقَرَةِ بالذِّكْرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المَنافِعُ الحاضِرَةُ مِنَ الركوبِ والحَلْبِ والحَمْلِ عليها بَعْدَما قُلِّدَتْ، وأُوجِبَتْ هَدْياً. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ إلى أنْ تُقَلَّدَ، فإذا قُلِّدَتْ فَلَهُمُ الأجرُ في الآخِرَةِ، وكانَ هذا أشْبَهَ أنْ[5] يكونَ قولُهُ ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الأجرَ[6] في الآخرةِ، لأنَّ الانتِفاعَ بها لا يَحِلُّ إلّا إذا أُوجِبَتْ بَدَنَةً إلّا في حالِ الاضْطِرارِ لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢] وفي الانْتِفاعِ بها إحْلالُ شَعائِرِهِ لذلكَ قالَ أصحابُنا: لا يُنْتَفَعُ بالبُدْنِ.

وما رُوِيَ عنهُ ﷺ «أنهُ رَأَى رجلاً يَسوقُ بَدَنَةً، فقالَ لهُ: ارْكَبْها فقالَ: إنها بَدَنَةٌ يا رسولَ اللهِ، فقالَ النَّبِيُّ: ارْكَبْها، فقالَ: إنها بَدَنَةٌ، فقالَ: ارْكَبْها وَيحكَ» [البخاري ١٦٩٠] وفي بَعْضِ الأخبارِ: «وَيْلَكَ».

وهذا عندَنا لمّا رَأَى بالرجلِ الحاجَةَ الشديدةَ إلى رُكوبِها، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الانْتِفاعَ بالمُحَرَّماتِ يجوزُ في حالِ الاضْطِرارِ، ولا يَجوزُ في حالِ الاخْتِيارِ[7]؛ إذِ الانْتِفاعُ بالمُحَرَّماتِ يَجوزُ في حالِ الاضْطِرارِ. فَعَلَى ذلِكَ بالبُدْنِ التي جُعِلَتْ مَعالِمَ لِلْمَناسِكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ دلَّ هذا أنَّ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ مِنْ شَرْطِ الذَّبيحةِ لأنهُ لم يَذْكُرِ الذَّبْحَ بِنفسِهِ، ولكنْ إنما ذَكَرَ اسْمَهُ. فَلَولا أنهمْ فَهِموا مِنْ ذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليها ذَبْحَها ونَحْرَها، وإلّا لم يَكْتَفِ بِذِكْرِ اسْمِهِ دون ذِكْرِ الذَّبْحِ. فَدَلَّ أنهمْ عَرَفوا ذلكَ بهِ، وأنهُ مِنْ شَرطِ [جَوازِ ذَبْحِها][8] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ /٣٤٩ ـ أ/ فيهِ لُغاتٌ ثلاثٌ: إحْداها: صَوافِيَ بالياءِ، وهو مِنَ الإخلاصِ للهِ والصَّفوِ للهِ. والثانيةُ[9]: صوافِنَ بالنونِ، وهو مِنْ عَقْلِ ثلاثِ قَوائِمَ منها وتَرْكِ واحدةٍ مُطْلَقَةٍ. والثالثةُ: صَوافًا بالتنوينِ أي قِياماً مُصْطَفَّةً[10]. وكانَ جميعُ ما ذُكِرَ يُرادُ أنْ يُجْمَعَ فيها مِنَ الإخلاصِ لهُ وعَقْلِ القَوائِمِ والقِيامِ. وكذلكَ جاءتِ السُّنَّةُ والآثارُ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: صَوافِنَ بالنونِ. وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا. وظاهِرُ الآيةِ يَدُلُّ على القِيامِ لأنهُ قالَ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآيتين الثانية والثالثة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: فرق. (٥) في الأصل وم: أي.
(٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) من م، في الأصل: الاختيار. (٨) في الأصل وم: جوازها. (٩) من م، في الأصل: والثاني.
(١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٨١و/ ١٨٢.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سَقَطَتْ. والسقوطُ إنما يكونُ مِنَ القِيامِ. فَدَلَّ أنها تُنْحَرُ قِياماً لا مُضْطَجِعَةً، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى:][1] ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في قولِهِ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] البائسُ الفقيرُ مَنْ سَأَلَكَ. هذا قولُ بَعْضٍ. وقالَ بعضُهُمْ: البائسُ المَعْروفُ بالبؤسِ، والفَقيرُ المُتَعَفِّفُ الذي لا يَسْأَلُ. وقالَ بعضُهُمْ: البائسُ المسكينُ، والفَقيرُ فَقيرٌ. وقالَ بعضُهُمْ: البائسُ الضريرُ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿الْقَانِعَ﴾ الراضيَ، وهو مِنَ القناعةِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو السائلُ، وهو مِنَ القُنُوعِ ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يَعْتَريكَ، ولا يَسْأَلُ، والقانعُ: هو الجالسُ في بيتِهِ ونَحْوُهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: القانعُ السائلُ؛ يُقالُ: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنوعاً، ومِن الرِّضا قَنِعَ يَقْنَعُ قناعَةً ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يَعْتَريكَ، ولا يَسْأَلُ. يُقالُ: [عَرَّني، واعْتَرَّني][3].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: القانعُ السائلُ، والقُنُوعُ السُّؤالُ، والقَناعَةُ مِنَ الرِّضا؛ يُقالُ مِنْهُ: قَنِعَ يَقْنَعُ قَناعَةً، ويقولُ: أقْنَعْتُهُ[4] أي أرضَيتُهُ، وقَنَّعْتُهُ أي غَطَّيْتُ رأسَهُ بالقِناعِ ونَحْوُهُ. ؛ ويُقالُ مِنَ المُعْتَرِّ: اعْتَرَّ اعْتِراراً وعَرَّ عَرًّا، وكلُّها واحدةٌ.

وقالَ: ﴿صَوَافَّ﴾ أي قِياماً مُصْطَفَّةً. وقالَ: ويكونُ: صَوافِنَ [وصَوافِيَ أي قِياماً][5] على ثلاثِ قَوائِمَ؛ يُقالُ: صَفَنَ الفرسُ يَصْفِنُ صُفوناً إذا قامَ على ثلاثِ قوائِمَ.

وقولُهُ: ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سَقَطَتْ إلى الأرضِ. يُقالُ: وَجَبَ يَجِبُ وُجوباً فهو واجبٌ إذا سَقَطَ، ووَجَبَتِ الشمسُ إذا غابَتْ. وهذا كلُّهُ مِنَ الصوتِ؛ يُقالُ: سَمِعْتَ وَجْبَتَهُ أي [صَوتَ سَقْطَتِهِ][6].

وقالَ: ﴿مَنسَكًا﴾ أي مَوضِعاً يَنْسُكونَ إليهِ لِلعبادةِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: القانعُ الذي يَقْنَعُ بما أعطَيْتَهُ، والمُعْتَرُّ الذي يُريكَ نفسَهُ، ولا يَسْأَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي البُدْنَ التي ذَكَرْناها. ثم يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِهِ إيّاها لنا وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي كما سَخَّرْناها لكُمْ لركوبِها والحَمْلِ عليها وأنواعِ الإنْتِفاعِ بها في حالِ الحياةِ.

[والثاني][8]: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي مثلَ الذي وصَفْتُهُ لكُمْ كلُّ ذلكَ مِنْ تَسْخيرِنا[9] إيّاها لكُمْ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لَنْ يَقْبَلَ اللهُ تِلْكَ[10] إلّا مِمَّنْ كانَ مِنْ أهلِ التَّقْوَى، ولا يَقْبَلُها مِنْ أهلِ الكُفْرِ لأنهمْ كانوا يَنْحَرونَ البُدْنَ في الجاهليةِ على ما ذَكَرْنا. فأخبَرَ أنهُ لا يَقْبَلُ ذلكَ إلّا مِمَّنْ كانَ مِنْ أهلِ التَّقْوَى. وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ﴾ أي لَنْ يُرْفَعَ إلى اللهِ إلّا الأعمالُ الصالحةُ الزاكِيَةُ وما كانَ بالتَّقْوَى. وأمّا ما كانَ [بِغَيرِ التَّقْوَى فلا][11] يُرفعُ، ولا يُصْعَدُ بها. وهو ما قالَ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ذَكَرَ هذا لأنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا إذا نَحَروا البُدْنَ نَضَحوا بِدِمائِها حَولَ البيتِ، ويقولونَ: هذا قُرْبَةٌ إلى اللهِ. فأرادَ المُسْلِمونَ أنْ يَصْنَعوا صنيعَهُمْ. فنَزَلَ: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾: قد ذَكَرْنا ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: اعتراني وعرني واعتراني. (٤) في الأصل وم: قنعته. (٥) في الأصل وم: وصوافن أي قائماً. (٦) في الأصل وم: صوتا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تسخيرها. (١٠) في الأصل وم: ذلك. (١١) في الأصل: بالتقوى لا ، في م: غيرها لا .

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:][1] أي لِتَصِفُوا اللهَ بالعظمةِ والكِبْرِياءِ على ما هداكُمْ مِنْ أسبابِ تَسْخيرِ البُدْنِ التي بها يُوصَلُ إلى الانْتِفاعِ؛ إذْ لولا ما هدانا اللهُ، وعَلَّمَنا مِنَ الأسبابِ التي بها تُسَخَّرُ، وتُذَلَّلُ، وإلّا ما قَدَرْنا على الانْتِفاعِ بها لِقُوَّتِها وشِدَّتِها وصَلابَتِها.

والثاني: بأنْ يكونَ[2] قولُهُ: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ منْ أمرِ الدينِ والهُدَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على وجوهٍ:

أحَدُها: المُحْسِنونَ[3] إلى انفسِهِمْ،

[والثاني: المُحْسِنونَ][4] إلى إخوانِهِمْ.

[والثالثُ:][5] الذينَ حَسُنَتْ أفعالُهُمْ، وصَلُحَ عَمَلُهُمْ [فأمّا المحسنونَ][6] إلى اللهِ فلا يُحْتَمَلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وفي بعضِ القراءاتِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يَدْفَعُ ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[7] [بغيرِ الفٍ][8].

وتأويلُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي يَدْفَعُ عنِ الذينَ آمَنوا جميعَ شُرورِ الكَفَرَةِ وأذاهُمْ. وتأويلُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي يُدافِعُ الكفارَ عنهُمْ بِنَصْرِ المؤمنينَ عليهِمْ.

وكانَ قولُهُ[9]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إنما نزلَ بمكةَ وَعْداً[10] للذينَ آمَنوا هنالكَ النَّصْرَ والدفعَ عنهمْ في حالِ قِلَّتِهِمْ وضَعْفِهِمْ وكَثْرَةِ أولئكَ الكَفَرَةِ وقُوَّتِهِمْ، وهنالكَ كانوا كذلكَ؛ أعني بمكةَ قليلاً ضُعفاءَ، ويكونُ نزولُ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بالمدينةِ، لأنهُ هنالكَ كانَ أهلُ الخيانةِ، لأنهمْ كانوا أهلَ كتابِ ائْتُمِنوا على رسالةِ محمدٍ وأتباعِهِ، فخانوهُمْ، وكَتَموها، ولم يكُنْ يومئذٍ بمكةَ أحدٌ منهُمْ، إنما كانوا جميعاً أهلَ شِرْكٍ.

فَيُشْبِهُ أنْ [يكونَ ما ذَكَرْنا، أو][11] يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بإزاءِ ما قالتِ ﴿ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فأخبَرَ أنهُ ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ على ما يقولونَ[12]، بل يُبْغِضُهُمْ.

وفيهِ إثباتُ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ [أنَّ اللهَ يَنْصُرُ المؤمنينَ][13] ويدفعُ عنهمْ [أذَى الكَفَرَةِ][14] وشَرَّهُمْ، وأنهمْ خَوَنَةٌ. فكانَ على ما أخبَرَ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ المشركينَ كانوا لا يَزالونَ يُؤْذونَ أصحابَ رسولِ اللهِ، ويُقاتِلونَهُمْ، وهُمْ لم يُؤْمَروا بِقِتالِهِمْ بَعْدُ. فلمّا هاجَروا إلى المدينةِ أُمِروا بِقِتالِهِمْ [بقولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ لم يكُنْ لهمُ الأمْرُ بِقِتالِهِمْ][15] ولا الإذنُ حتى أُمِروا بذلكَ، وأُذِنوا، فقالَ أولئكَ: لم تُؤْمَروا بِقِتالِنا، فكيفَ تُقاتِلونَنا؟ فأخبَرَ أنهمْ أُذِنوا، وأُمِروا بالقِتالِ مَعَهُمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وظاهِرُهُ أنهُ كانَ هنالكَ مَنْعٌ عنِ القِتالِ حتى أُذِنوا، وأُمِروا. ولكنْ لا نَدْري لأيةِ جِهَةٍ كانَ ذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ظاهِرٌ على ما أخبَرَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: أخرَجَ الكفارُ أصحابَ رسولِ اللهِ مِنْ مكةَ بِغَيرِ حقٍّ بأنْ قالوا: ربُّنا اللهُ، وآمَنوا به، ووَحَّدوهُ. لهذا[16] أخرجوهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: يكونوا. (٣) في الأصل وم: محسنين. (٤) في الأصل وم: أو المحسنين. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل: فإن المحسنين، في م: فأما المحسنين. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ١٨٤. (٨) من م، في الأصل: جميع. (٩) من م، في الأصل: قولهم. (١٠) في الأصل وم: وعد. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يقول. (١٣) في الأصل وم: أنه ينصرهم. (١٤) في الأصل وم: أذاهم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ما.

وقالَ بعضُهُمْ: على التقديمِ والتأخيرِ؛ يقولُ: كأنهُ قالَ: أُذِنَ للذينَ ظُلِموا، وأُخرِجوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيرِ حقٍّ، أنْ يُقاتِلوهُمْ إلّا أنْ يَقولوا ربُّنا اللهُ. فإذا قالوا ذلكَ يُرْفَعُ عنهمُ القِتالُ لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا لا يُقِرّونَ [بِوَحدانِيَّةِ اللهِ، ويُشرِكونَ][1] بهِ فإذا قالوا ذلكَ، وأقَرّوا أنهُ رَبُّهُمْ رُفِعَ عنهمُ القِتالُ. وأمّا مَنْ يُقِرُّ بهِ، ويُصَدِّقُهُ، لكنهُ يُنْكِرُ رسالةَ محمدٍ ونُبُوَّتَهُ، فَمَنْ[2] لم يُقِرَّ بها، ولا يُصَدِّقُ بها، فإنَّ القِتالَ لا يُرْفَعُ عنه[3]، ومنْ يُقِرُّ بهِ ويُصَدِّقُهُ بأنهُ رسولُهُ، إلّا أنهُ يُنْكِرُ الشَّرائعَ فإنهُ يُقاتَلُ حتى يُقِرَّ بها، ويُصَدِّقَ بها. فإذا أقَرَّ بها رُفِعَ عنهُ[4] القتالُ.

وذلكَ كلُّهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يَقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ. فإذا قالوها عَصَموا مني دِماءَهُمْ وأموالَهُمْ إلّا بِحَقِّها» [البخاري ٢٥].

وفي خَبَرٍ آخَرَ: [«حتى][5] يقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ. فإذا قالوا ذلكَ عَصَموا مني كذا».

وفي خَبَرٍ آخَرَ: «حتى يَقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ. وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ» [البخاري ٢٥] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

فالأوَّلُ [في الذينَ][6] لا يُقِرّونَ بِوَحدانِيَّةِ اللهِ. فإذا أقَرّوا بهِ/ ٣٤٩ ـ ب/ رُفِعَ عنهُمُ القِتالُ.

والثاني: في الذينَ يُقِرّونَ بهِ، ولا يؤمِنونَ بالرسالةِ. فإذا آمَنوا بها رُفِعَ عنهُمُ القِتالُ.

والثالثُ: في الذينَ يُقِرّونَ باللهِ، ويؤمِنونَ برسولِهِ، لكنهُمْ يُنْكِرونَ الشرائعَ. فإذا أقَرّوا بها رُفِعَ عنهُمُ القِتالُ.

كانوا أنواعاً ثلاثةً على ما ذَكَرْنا، فجاءَ في كلِّ فريقٍ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ كقولِهِ[7] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وكقولِهِ[8] في موضعٍ آخَرَ: ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] ونَحْوُهُ.

قالَ بعضُهُمْ: دَفَعَ بالنَّبِيِّينَ عَنِ المؤمنينَ، ودَفَعَ بالمُجاهِدينَ عَنِ القاعِدينَ ما لو لم يَدْفَعْ لَهُدِّمَتْ كذا وما ذَكَرَ، أي دَفَعَ بالأخيارِ عَنِ الأشرارِ وبالأخيَرِ عَنِ الأدْوَنِ، وإلّا لَهُدِّمَتْ، وفَسَدَ ما ذَكَرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لو لا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يُصَلّي عَمَّنْ لا يُصَلّي وبِمَنْ يَصومُ عَمَّنْ لا يَصومُ وبِمَنْ يَحُجُّ عَمَّنْ لا يَحُجُّ، وبِمَنْ يُزَكّي عَمَّنْ لا يُزَكّي وبِمَنْ يَفْعَلُ الخَيراتِ عَمَّنْ لا يَفْعَلُ وإلّا لَفَسَدَتِ الأرضُ ولَهُدِّمَتِ الصَّوامِعُ وما ذَكَرَ.

وعلى ذلكَ عنْ أبي الدَّرْداءِ ﷺ أنهُ صلّى بأهلِ دمشقَ صلاةَ الصبحِ، فقالَ: لو يَعْلَمُ الناسُ [ما][9] في هذهِ الصلاةِ مِنَ الخَيرِ لَحَضَروها. ثم قالَ: لولا أنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِمَنْ يَحْضُرُ المَساجِدَ عَمَّنْ لا يَحْضُرُها، وبالغُزاةِ عَمَّنْ لا يَغْزو لَجاءَهُمُ العذابُ قُبُلاً، أو كلاماً[10] نحوَ هذا.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ [في][11] الصوامعِ والبِيَعِ والكَنائِسِ مِنَ الرُّهْبانِ والأحبارِ [مَنْ][12] يَتَمَسَّكُ بالإسلامِ وشرائِعِهِ، فَيَدْفَعُ بهمْ عَمَّنْ لا يَتَمَسَّكُ منهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: لولا دَفْعُ اللهِ بأهلِ هذا الدينِ كُلِّهِمْ[13] لكانَ كذا. وقالَ بعضُهُمْ: دَفَعَ بالمُسْلِمينَ عنْ مَسْجِدِهِمْ وبالنَّصارَى عَنْ بِيَعَتِهِمْ وباليهودِ عَنْ كَنيسَتِهِمْ. إلى هذا ذَهَبَ أهلُ التأويلِ والمُتَقَدِّمونَ.

ولو قيلَ غَيرُ هذا كانَ أشْبَهَ وأقرَبَ؛ وهو أنَّ اللهَ خَلَقَ هذا الخَلْقَ، وجَعَلَ[14] بعضَهُمْ عَوناً لِبَعْضٍ ورِدْءاً في أمْرِ المَعاشِ والدينِ جميعاً، وجَعَلَ بعضَهُمْ مَنافِعَ مُتَّصِلَةً بِبَعْضٍ لِما[15] لو كَلَّفَ كُلّاً القِيامَ بنفسِهِ لَهَلَكوا، ولم يَكُنْ في وُسْعِهِمْ

---

(١) في الأصل وم: بالله ولا يؤمنون. (٢) في الأصل وم: فما. (٣) في الأصل وم: عنهم. (٤) في الأصل وم: عنهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: للذين. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: كلام.
(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كلها. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: ما.

القيامُ بذلكَ، نَحْوَ أنْ لم يُكَلِّفْ أحداً القِيامَ بجميعِ ما يَحتاجُ إليهِ مِنَ الحراثةِ والزراعةِ والحَصادِ والدِّراسِ والتَّذْرِيةِ والطَّحْنِ والخَبْزِ وغَيرِها لِما[1] لو كُلِّفَ بنفسِهِ بذلكَ كلِّهِ لَهَلَكَ. ولكنْ جَعَلَ بَعْضَهُمْ عَوناً لِبَعْضٍ ورِدْأً [في انْتِفاعِ][2] بعضِهِمْ بِبَعْضٍ.

وكذلكَ الغَزْلُ والنَّسْجُ والخِياطَةُ والقَطْعُ والغَسْلُ كلُّهُ على هذا القِياسِ لِما[3] لو كُلِّفَ [كُلٌّ][4] بنفسِهِ القِيامَ بذلكَ كلِّهِ لَهَلَكُوا، ولو هَلَكُوا هَلَكَ ما لَهُمْ خَلَقَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما سَخَّرَ لَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: دَفَعَ بما يَذْكُرُ أهلُ المساجدِ في المساجدِ مِنْ أسماءِ[5] اللهِ عنْ أهلِ الصَّوامعِ والبِيَعِ والكنائسِ، وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ.

ثم اخْتُلِفَ في ما ذَكَرَ مِنَ الصَّوامعِ والبِيَعِ والصَّلَواتِ. قالَ بعضُهُمْ: الصَّوامِعُ لِلرّاهِبِينَ، والبِيَعُ لِلنصارى، والصَّلَواتُ لِلْكَنائسِ التي تكونُ لِلْيَهودِ، والمَساجِدُ لِلْمُسْلِمِينَ. وقالَ بعضُهُمْ: الصَّلَواتُ لِلصّابِئِينَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصَّوامِعُ لِلصّابِئِينَ، والبِيَعُ لِلنَّصارى، والصَّلَواتُ[6] بيوتُ صَلَواتِ اليَهودِ، والمساجِدُ للمسلِمينَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الصَّوامِعُ لِلرَّهبانِيَّةِ، والبِيَعُ لِلنَّصارى ومُصَلّاهُمْ، والصَّلَواتُ لِلْيَهودِ، وهي شِبْهُ البِيعَةِ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [أي مَنْ نَصَرَ][7] أولياءَ اللهِ نَصَرَهُ. وقالَ الحَسَنُ: مِنْ حِكَمِهِ: أنَّ مَنْ نَصَرَ[8] اللهُ نَصَرَهُ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَقَوِيٌّ﴾ لِنَصْرِ أوليائِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ لِانتقامِ أعدائِهِ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَوِيّاً[9] يضْعُفُ كلُّ قويٍّ مِن دونِهِ عندَ قواهُ [وعَزيزاً][10] يذلُّ كلُّ عَزيزٍ، أو قَوِيّاً[11]، لا قويَّ سِواهُ، عَزيزاً[12] لا عزيزَ سِواهُ.

وفي [قولِهِ تعالى][13]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ و ما ذَكَرَ دلالةُ تَرْكِ هَدْمِ الكنائسِ و البِيَعِ و ما ذَكَرَ، و النَّهْيِ عن هَدْمِها لأنهُ ذَكَرَ الصَّوامِعَ و البِيَعَ. و على ذلكَ تُرِكَتِ الكنائسُ و البِيَعُ في أمصارِ المُسْلِمينَ لم تُهْدَمْ. ولا خِلافَ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ في ذلكَ، وإنما يَمنَعونَ عن إحداثِ البِيَعِ والكَنائسِ في أمصارِ المُسْلِمينَ وقُراهُمْ. وأمّا العَتيقَةُ منها فإنهمْ يَتْرُكونَ ذلكَ[14]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى آخِرِهِ. قالَ بعضُهُمْ: هذا نَعْتٌ مِنَ اللهِ ﷻ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ومَنْ تَبِعَهُ، ومَدْحٌ لهمْ بالدوامِ على دينِ اللهِ الذي[15] قَبِلوهُ، وأخَذوهُ في حالِ الخَوفِ، بَعْدَما مَكَّنَ لهمْ في الأرضِ، وأمَّنَهُمْ مِنْ ذلكَ الخَوفِ الذي كانَ في الابْتِداءِ. وأخبَرَ أنهمْ داموا على ذلكَ، ولم يَتْرُكوا ما كانوا عليهِ، بل زادَ لَهُمْ حِرْصاً على ذلكَ وجُهْداً.

وكذلكَ الآيةُ التي ذَكَرَ في سورةِ النورِ، وهو قولُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [٥٥].

فإنْ كانَ التأويلُ هذا فهو يَرُدُّ على الرَّوافِضِ قَولَهُمْ ومَذْهَبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ لَمّا وُلِّيَ أبو بَكْرٍ ارْتَدّوا جميعاً، وتَركوا الدينَ الذي اختاروهُ. فالآيتانِ تَدُلّانِ على نَقْضِ قولِهِمْ: إنهمْ ارْتَدُّوا لأنَّ اللهَ ﷻ أخْبَرَ أنهُ مُمَكِّنٌ لهمْ في الأرضِ، واسْتَخْلَفَهُمْ، ووَعَدَ لهمُ الجنةَ. وإنما ارْتَدَّ مَنْ كانَ إسلامُهُ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، فإذا مَكَّنَ لهمْ تَرَكوا ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: والانتفاع. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: اسم. (٦) في الأصل وم: وصلوات. (٧) في الأصل: أو من نصر، في م: أو من. (٨) في الأصل وم: نصره. (٩) في الأصل وم: أي قوي فيضعف. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: قوي. (١٢) في الأصل وم: عزيز. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وذلك. (١٥) في الأصل وم: الذين.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الآيةَ، وإنْ كانَ ظاهِرُها خَبَراً فهيَ في الحقيقةِ أمْرٌ: أنِ افْعَلوا كذا إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. وهو كقولِهِ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٧]][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي ترجِعُ إليهِ الأمورُ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وجائزٌ أنْ تكونَ عاقِبةُ الأمورِ لأوليائِهِ مِنَ النَّصْرِ والقَهْرِ على أعدائِهِ. فالمُرادُ بالإضافةِ إليهِ أولياؤُهُ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] أي إنْ تَنصُروا أولياءَهُ، أو تَنصُروا دينهَ يَنصُرْكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٤٢ و٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ [وَعَادٌ وَثَمُودُ]﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾][2].

هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: وإنْ يُكَذِّبوكَ في ما أخبَرْتَ لهمْ، وذَكَرْتَ مِنَ التَّمْكينِ والثُّبُوتِ على الدينِ، وَوَعَدْتَ لهمُ الجنةَ، فقد كَذَّبَتِ[3] الأممُ الذينَ مِنْ قبلِكَ رُسُلَهُمْ إذا أخبَروا لهمْ بشيءٍ، أو وَعَدوا لهمْ بنَصْرٍ أو نَحْوِهِ.

والثاني[4]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في الرسالةِ وفي ما تُخبِرُ عنِ اللهِ مِنَ الأخبارِ، يُصَبِّرُ رسولَهُ: لَسْتَ أنتَ بأوَّلِ مُكَذَّبٍ في الخَلْقِ، ولكنْ قد كَذَّبَ الأقوامُ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكَ رسلَهُمْ في الرسالةِ. وهو ما قالَ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ الآية [هود: ١٢٠].

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي لم يُعاقِبِ اللهُ قوماً كَذَّبوا رسلَهُمْ وقتَ تكذيبِهِمُ الرسلَ، بل أمْهَلَهُمْ حتى اغتَرّوا بتأخيرِ العذابِ عنهُمْ، وزادوا[5] لهمْ تكذيباً وعِناداً. فعِنْدَ ذلكَ أُخِذوا، وعُوقِبوا بالتكذيبِ، وهو ما أخْبَرَ عنهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

قالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ لم يُهلِكْ قوماً بأوَّلِ التكذيبِ، ولكنْ أمْهَلَهُمْ قَرْناً فقَرْناً وقوماً بَعْدَ قومٍ ورسولاً بَعْدَ رسولٍ، فعِنْدَ ذلكَ إذا عَلِمَ منهُمْ أنهمْ لا يُؤمِنونَ أهْلَكَهُمْ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ في الأزلِ مَنْ يُؤمِنُ منهُمْ ومَنْ لا يُؤمِنُ؛ حتى يَعْلَمَ عِلْمَ ظهورٍ وعِلْمَ ابتلاءٍ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ. وهو كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: ٣١] عِلْمَ[6] ظهورٍ في الخَلْقِ/ ٣٥٠ ـ أ/ وإنْ كانَ يَعْلَمُ عِلْمَ باطنٍ وخَفِيٍّ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ لم يُهلِكِ اللهُ ﷻ أهلَ قَرْيَةٍ إهلاكَ استِئْصالٍ وتعذيبٍ إلّا بَعْدَ عِنادِ أهلِها وظُلْمِ شِرْكٍ كقولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وكقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [هود: ١١٧] وأمثالُهُ كثيرةٌ[7].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [قالَ بعضُهُمْ][8]: فإذا ذهبتِ السُّقُفُ وبقِيَتِ[9] الحيطانُ ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وقالَ بعضُهُمْ: خاويةٌ: خَرِبَةٌ ساقِطةٌ حيطانُها على سُقوفِها.

وقالَ الحَسَنُ: العريشُ: كلُّ ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، وعَلا؛ يُقالُ: عَرْشٌ، وعُروشٌ جميعٌ. وهكذا كانَ ما أهْلَكَ اللهُ مِنَ القُرى: منها ما أهْلَكَ أهْلَها، وتَرَكَ القُرى والبُنْيانَ على حالِها لأوليائِها؛ مِنْ ذلكَ فِرْعَونُ [وقومُهُ وغيرُهُمْ][10] مِنَ الأقوامِ، ومنها ما أهلكَ القُرى بأهْلِها، لم يَتْرُكْ منها شيئاً مِنْ نَحْوِ قُرَياتِ لوطٍ وثمودَ وعادٍ وغيرِها[11].

وقالَ بعضُهُمْ: العُرُوشُ[12] هي أجزامُ الشجرِ، وكأنَّها أساطينُها[13]. وأصلُ الخاويةِ خَلاؤُها عنِ الأهلِ[14].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عَطَّلَها أهلُها، ليسَ بها أحَدٌ. لا أنَّها خُرِّبَتْ على [ما][15] ذَكَرْنا مِنْ إهلاكِ أهلِها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الآية. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وزاد.
(٦) في الأصل وم: على. (٧) في الأصل وم: كثير. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بقية. (١٠) في الأصل وم: وقوله وغيره.
(١١) في الأصل وم: وهؤلاء. (١٢) في الأصل وم: والعرش. (١٣) في الأصل وم: اسطوانته. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وكذلك.
(١٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَّشِيدٍ﴾ مُجَصَّصٍ، والشِّيدُ الجِصُّ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَّشِيدٍ﴾ مُرْتفِعٍ، والمُشَيَّدُ بالتَّشديدِ المُطَوَّلُ المُرْتَفِعُ.

قالَ القُتَبِيُّ: المَشيدُ المَبْنِيُّ بالشِّيدِ، وهو الجِصُّ، والمُشَيَّدُ المُطَوَّلُ، ويُقالُ: هما سَواءٌ، وهو مُطَوَّلٌ. وكذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ أو قريباً [منهُ][1].

وكأنهُ ذَكَرَ هذا لأهلِ مكَّةَ لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ كانَتْ لهمْ قريةٌ، فيها قصورٌ مُشيَّدَةٌ مُحصَّنَةٌ، يَتَحصَّنونَ بها. يُخبِرُ أنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ أشدُّ قُوَّةً وأكثَرُ حِصناً وقُصوراً. فلما كَذَّبوا رسلَهُمْ لم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، ولكنْ نَزَلَ بهمُ العذابُ. فَعَلَى ذلِكَ أنتمْ يا أهلَ مكةَ إذا كَذَّبْتُمْ رسولَكُمْ يَنْزِلُ بِكُمْ مِثْلُ ما نَزَلَ بأولئكَ.

[والثاني][2]: أنْ يكونوا آمِنينَ فيها مُطمئِنِّينَ. فقالَ: إنَّ أولئكَ قد كانوا آمِنينَ مُطْمَئنِّينَ في قراهُمْ كأمْنِكُمْ، ثم نَزَلَ بهمْ ما نَزَلَ. فأنتمْ وإنْ كُنْتُمْ آمنين فَسَيَنْزِلُ بكمْ ما نَزَلَ بأولئكَ. وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هَلَّا ساروا في الأرضِ؟ ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فَيَنْظُروا لِيَعْرِفوا ما حَلَّ بأولئكَ بالتكذيبِ، فَيَمْتَنِعوا[3] عنهُ ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي [أفلَمْ][4] يسيروا فَيَسْتَمِعوا إلى الأخبارِ التي[5] فيها ذِكْرُ هلاكِهِمْ وما نَزَلَ بهمْ بالتَّكْذيبِ والعِنادِ؟ لأنَّ ما حَلَّ بالأوَّلينَ إنما يُعْرَفُ[6] بأحدِ أمْرَينِ: إمّا بالمُعايَنَةِ بالنَّظَرِ إليهِمْ وإمّا بالسماعِ مِنَ الأخبارِ.

[ويَحْتَمِلُ][7] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قد ساروا في الأرضِ لكنْ لم تَكُنْ لهمْ قُلوبٌ وعقولٌ[8] أو أفهامٌ يَعْقِلونَ بها ما نَزَلَ بأولئكَ بالتَّكْذيبِ فَيَعْتَبِروا بذلكَ، ولا كانَتْ لهم آذانٌ يَسْمَعونَ [بها][9] ما حَلَّ بهِمْ. أي كانَتْ لهمْ عقولٌ، يَعْقِلونَ بها لو نَظَروا حَقَّ النَّظَرِ، وآذانٌ يَسْمَعونَ بها لو سَمِعوا حَقَّ السَّماعِ، لكنهُمْ لم[10] يَنْتَفِعوا بعقولِهِمْ وأسْماعِهِمْ.

نَفَى ذلكَ عنهُمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ الظاهرةُ ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وهو ما نَفَى عنهمُ السَّمْعَ والبَصَرَ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بها [كقولِهِ][11]: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨و١٧١].

وقالَ بعضُهُمْ: هذهِ الآيَةُ في شأنِ عبدِ اللهِ بْنِ زائدةَ بْنِ مَكْتُومٍ الأعْمَى. مَعْناهُ: أنَّ العَمَى عَمَى القَلْبِ ليسَ عَمَى البَصَرِ، وهو كانَ [أعْمَى][12] البصرِ لا أعْمَى القَلْبِ. هذا مَعْناهُ إنْ ثَبَتَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي لَنْ يُخْلِفَ اللهُ وعْدَهُ الذي وَعَدَ في نزولِ العذابِ، أي يَنْزِلُ بهمْ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأخَّرُ عن ميعادِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ نَحْوُ ابنِ عباسٍ والضَّحّاكِ ومجاهِدٍ وغيرِهِمْ[13]: إنها هي الأيامُ التي خَلَقَ اللهُ فيها الدنيا، وجَعَلَها أجلاً لها؛ يُعَدُّ كلُّ يومٍ مِنْ تلكَ الأيامِ كَألْفِ سَنَةٍ. إلى هذا صَرَفَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ، فلا نَعْلَمُ لِذلكَ[14] وجهاً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ مِنْ عَذابِهِمْ في الآخِرَةِ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا؛ اليومُ الواحدُ ألفُ سَنَةٍ. وَوَجْهُ هذا أنَّ الوقْتَ القصيرَ القليلَ يَجوزُ أنْ يَصيرَ مَديداً طويلاً لِشِدَّةِ العَذابِ والبَلاءِ نَحْوَ ما قِيلَ لَهُمْ: ﴿كَم

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: فيمتنعون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل: هم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لما. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: وهؤلاء. (١٤) في الأصل وم: ذلك.

﴿لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] قَصَّرُوا[1] مقامَهُمْ في الدنيا لِشِدَّةِ ما عايَنوا مِنَ العَذابِ. فَعلَى ذلِكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا لا لِلتَّوقيتِ والمُدَّةِ، إذِ الآخِرَةُ، مِمّا لا غايَةَ لِانْتِهائِهِ. وكلُّ شيءٍ لا غايَةَ لِانْتِهائِهِ، فَذِكْرُ الوقْتِ لهُ[2] يُخرَّجُ مُخرجَ التمثيلِ لا التوقيتِ كقولِهِ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]. وقولِهِ[3]: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ليسَ على التَّحديدِ لها والتَّوقيتِ، ولكنْ على ما خَرَجَ عنِ الأوهامِ ذَكَرَ ذلكَ، ومَثَّلَها بهِ. فَعلَى ذلِكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾: لم آخُذْها وقْتَ [ظُلْمِ أهلِها][4] ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ مِنْ بَعْدُ ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هو ظاهرٌ، قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِذُنوبِهِمْ ومَعاصيهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ رِزقاً كَريماً لأنَّ مَنْ رُزِقَ ذلكَ، وأُعطِيَ، يُكَرَّمُ، ويُعَظَّمُ قَدْرُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ كريماً لأنَّ الكريمَ هو الذي تُقْضَى عندَهُ الحوائجُ والحاجاتُ. فَعلَى ذلِكَ هذا الرزقُ؛ مَنْ نالَهُ، وأصابَ، قُضِيَتْ عندَهُ الحَوائجُ. لذلكَ سُمِّيَ كريماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ في بَعْضِ القراءاتِ: مُعْجِزينَ[5]. قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مُثَبِّطينَ مُبَطِّئينَ؛ يُبَطِّئونَ الناسَ عنِ اتِّباعِ الشيءِ.

والأشْبَهُ عندَنا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ سابِقينَ فائتينَ، لكنَّهُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ على ظَنٍّ منهُمْ أنَّهُمْ سابِقونَ فائتونَ عَنْ عذابِهِ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ أي تَلا ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قيلَ: في تلاوَتِهِ وقراءَتِهِ الآيةَ.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ أي تَلا في صلاتِهِ، أو حَدَّثَ نفسَهُ، ألْقَى الشيطانُ على لسانِهِ عندَ تِلاوَتِهِ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] حتى إذا انْتَهَى إلى قولِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩و٢٠]. [قالَ:][6] تلكَ الغَرانيقُ العُلا، شفاعَتُهُنَّ تُرْجَى. وذَكَروا[7] أنهُ أتاهُ على صورةِ جبريلَ ﷺ فألْقَى عليهِ ما ذَكَروا.

ثم أتاهُ جبريلُ ﷺ فأخبرَهُ النَّبيُّ بذلكَ، فقالَ: لهُ: إنهُ لم يُنْزِلْ عليهِ قطُّ شيئاً مِثْلَهُ. وأمثالَ هذا قالوا. لكنهُ لو كانَ ما ذَكَرَ هؤلاءِ كيفَ عَرَفَهُ في المَرَّةِ الثانيةِ أنهُ جبريلُ؟ وأنهُ ليسَ بشيطانٍ؟ ولا يُؤْمَنُ أنْ يُلْبَسَ عليهِ في وقْتٍ آخَرَ في أمثالِهِ.

وقالَ قتادةُ: إنهُ ﷺ كانَ يَتَمَنَّى أنْ يَذْكُرَ اللهُ آلهتَهُمْ بِعَيبٍ. فلما قَرَأَ تلكَ الآيتَينِ[8]: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩و٢٠] قالَ: إنهنَّ الغَرانيقُ العُلا، وإنَّ شفاعَتَهُنَّ تُرْجَى عندَهُمْ. يعني بِهِ عندَ أُولئكَ الكَفَرَةِ، وهُمْ على ذلكَ كانوا يَعْبُدونَها.

وقالَ الحَسَنُ: إنهُ أرادَ بقولِهِ: تلكَ الغَرانيقُ العُلا، وشفاعَتُهُنَّ تُرْتَجَى، الملائكةَ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ رَجاءَ أنْ يَشْفَعوا/ ٣٥٠ ـ ب/ لهمْ يومَ القيامةِ، فأخْبَرَ أنَّ شَفاعةَ الملائكةِ تُرْجَى. وهذانِ التأويلانِ أشْبَهُ مِنَ الأوّلِ.

والأشْبَهُ عندَنا أنْ يكونَ على غَيرِ هذا الذي قالوا، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾

---

(١) في الأصل وم: قصر. (٢) في الأصل وم: لم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: ظلمهم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/١٩١. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتذكروا. (٨) في الأصل وم: الآية.

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي عندَ تِلاوَتِهِ القرآنَ في قلوبِ الكَفَرَةِ ما يُجادِلونَ بِهِ رسولَ اللهِ، ويُحاجّونَهُ، فَيُشَبِّهونَ بذلكَ على الأتباعِ لِيَتَّبِعوهُمْ. وهو نَحْوُ قولِهِمْ: إنهُ يُحَرِّمُ ما ذَبَحَهُ اللهُ، ويُحِلُّ ما ذَبَحَ هو بِنَفْسِهِ، ونَحْوُ قولِهِمْ عندَ نزولِ قولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: إنَّ[1] عيسى وعزيراً والملائكةَ عُبِدُوا دونَ الملائكةِ، فهمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ إذَنْ، ونَحْوُ صَرْفِهِمْ قولَهُ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١و٢] إلى حسابِ الجُمَّلِ، وأمثالُ هذا ممّا حاجُّوا رسولَ اللهِ، وجادَلُوهُ بِهِ. فأخبَرَ أنهُ يَنْسَخُ مُجادَلَتَهُمْ ومُحاجَّتَهُمْ رسولَهُ، وأنهُ يُحْكِمُ آياتِهِ: حينَ[2] قالَ عندَ قولِهِمْ: إنهُ يُحِلُّ ذَبيحَ نفسِهِ، ويُحَرِّمُ ذَبيحَ اللهِ. فَبَيَّنَ أنهُ بِمَ حَرَّمَ هذا؟ وبِمَ أحَلَّ الآخَرَ؟ وهو قولُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] ولكنْ كُلُوا ممّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ. فَبَيَّنَ أنهُ إنما أحَلَّ هذا بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ، وحَرَّمَ الآخَرَ بِتَرْكِ ذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ.

وبَيَّنَ [ما][3] في قلوبِهِمْ أنَّ عيسى عُبِدَ دونَ اللهِ، والملائكةَ عُبِدُوا دونَهُ، فَهُمْ ليسوا بِحَصَبِ جَهَنَّمَ حينَ[4] استثنى أولئكَ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] فأبطَلَ مُجادَلَتَهُمْ ومُحاجَّتَهُمْ وصَرْفَهُمُ الآيةَ إلى حسابِ الجُمَّلِ بقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

فهذا تأويلُ قولِهِ: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ نَسْخُ ما ألْقَى الشيطانُ في قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ ما بِهِ جادَلوهُ، وأحْكَمَ آياتِهِ بما ذَكَرْنا.

ثم وإنْ ثَبَتَ ما ذَكَرَ ابنُ عباسٍ وعامّةُ مَنْ ذَكَرْنا حينَ[5] قالوا: جَرَى على لِسانِهِ ذلكَ، فجائزٌ عندَما جَرَى الخَطَأُ على لسانِ مَنْ عُصِمَ، إذا عَرَفَ السامعُ منهُ مذهَبَهُ ودينَهُ الذي يَدينُ بِهِ، عَرَفَ أنَّ ما جَرَى غَلَطٌ[6] وخطأٌ نَحْوَ مَنْ يَعْتَمِدُ مذهباً، ويَنْتَحِلُ نِحْلَةً، فَجَرَى على لسانِهِ خِلافُ ما يُعْرَفُ منهُ الاعْتِقادُ، يَعْرِفُ أنهُ جرى على لسانِهِ غَلَطاً.

فَعَلَى ذلِكَ الذي ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ إنْ ثَبَتَ ما ذَكَروا عنهُ أنهُ قالَ ذلكَ.

والأشبَهُ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ إلقاءِ الشيطانِ في قُلوبِ الكَفَرَةِ ما يُجادلونَ بِهِ رسولَ اللهِ، ويُحاجّونَهُ[7] كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١].

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي تَلا القرآنَ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي[8] في تلاوتِهِ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ، وقالَ: أمانِيُّ مشددةً جميعٌ.

وقالَ غَيرُهُمْ: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ إذا حَدَّثَ، و﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [في حديثِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: تَمَنَّى في أمْنِيَّتِهِ][9] هو مِنْ تَمَنّي النفسِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ الآية [النساء: ٣٢] ونَحْوُهُ، وهو قولُ الحَسَنِ: تَمَنَّى كَبَعْضِ ما تَمَنَّى الناسُ مِنَ الدنيا. وقالَ قتادةُ: و﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ تَمَنّي النفسِ أنْ يَذْكُرَ آلهتَهُمُ التي كانَتْ تُدْعَى، وتُرْجَى شَفاعَتُهُنَّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هذا تأويلُهُ[10]: ليجعلَ ما يُلْقي الشيطانُ في قلوبِ أولئكَ الكَفَرَةِ فِتْنَةً للذينَ ذَكَرَ لِما ظَنّوا العِلَّةَ؛ لا يَقْدِرُ [على][11] الإجابةِ لهمْ، أو لا يَحْضُرُهُ ما يُجيبُهُمْ، فيكونُ ذلكَ فِتْنَةً لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كأنهمْ هُمُ المُنافِقونَ، لأنهمْ هُمُ المَوصوفونَ المُسَمَّونَ بهذا الاسْمِ كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ كأنهمْ هُمُ الرُّؤَساءُ المُكابِرونَ المُعانِدونَ لرسولِ اللهِ والكَفَرَةِ، كُلُّهُمْ مَوصوفونَ بِقَساوَةِ قُلوبِهِمْ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

---

(١) ادرج بعدها في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: غلطاً. (٧) في الأصل وم: ويجادلونه. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: تأويل القوم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أي في عِنادٍ وفي مكابَرَةٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ عنِ الإجابَةِ لهُ أو ﴿بَعِيدٍ﴾ [عنِ استِماعِ][1] الحقِّ وقَبولِهِ. وقيلَ: ﴿شِقَاقٍ﴾ أي خِلافٍ بعيدٍ أي لا يَرْجِعونَ إلى الوِفاقِ[2] أبداً.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قولُهُ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ أي تَخضَعَ، وتَذِلَّ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ هذهِ الآيةُ كالآياتِ التي ذَكَرْناها في ما تَقَدَّمَ: مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية [التوبة: ١٢٤و١٢٥] ونَحْوُها مِنَ الآياتِ التي وصَفَتْ[3] أهلَ التوحيدِ بالقَبولِ لها والخُضوعِ والإقبالِ إليها، وَوَصَفَتْ[4] أهلَ الكُفرِ بالرَّدِّ والتكذيبِ.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ عِلْمَ الذينَ آمَنوا[5] أنَّ القرآنَ ومحمداً الحقُّ مِنْ ربكَ لأنهمْ نَظَروا إليهِ بالتَّعظيمِ والتَّبجيلِ والخُضوعِ لهُ، فأقَرُّوا بهِ، فَزادَ لهمْ بذلكَ هدًى ورحمَةً وشِفاءً. وأولئكَ نظروا إليهِ بالاستِخفافِ والهواءِ والتكذيبِ فزادَ لهمْ بذلكَ رِجْساً وضَلالاً وفَساداً[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو يومُ بَدْرٍ، وقالَ بعضُهُمْ: هو عذابُ يومِ القيامةِ، وهو شديدٌ. وجائزٌ أنهُ سَمّاهُ عقيماً لأنهُ لا تُرْجَى النجاةُ منهُ ولا الخيرُ. وكذلكَ سُمِّيَتِ المرأةُ التي لا تَلِدُ عقيماً [لِما][7] لا يُرْجَى منها الولدُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ قالَ الحَسَنُ: المُلْكُ في الأحوالِ كلِّها للهِ في الدنيا والآخِرَةِ.

لكنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أيِ الحُكْمُ بينَهُمْ دونَ الخلائقِ لأنَّ في الدنيا مَنْ قد حكَمَ غيرُهُ. فأمّا يومئذٍ فالحُكْمُ لهُ [خاصَّةً.

وعندَنا][8] تخصيصُ المُلْكِ يومئذٍ لهُ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ المُلْكُ في الأيامِ كلِّها للهِ، لأنهمْ جميعاً يُقِرّونَ لهُ بالمُلْكِ يومئذٍ، لا أحدَ يُنازِعُ، وفي الدنيا مَنْ قدِ ادَّعى المُلْكَ لنفسِهِ، وهو ما ذَكَرَهُ في قولِهِ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] [وقولِهِ][9]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨و...] [وقولِهِ][10]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠و...] ونَحْوُهُ. فَعَلَى ذلِكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

الآية ٥٧ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ظاهرٌ [تأويلُهُما في

الآية ٥٨ قولِهِ تعالى][12]: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾.

أمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ صَرَفوا تأويلَ الآيةِ إلى الغُزاةِ والمُجاهدينَ في سَبيلِ اللهِ قُتِلوا، أو ماتوا حَتْفَ أنفِهِمْ، فإنَّ لهمْ ما ذُكِرَ مِنَ الرِّزْقِ الحَسَنِ والمُدْخَلِ المَرْضِيِّ.

وظاهرُهُ أنْ يكونَ في الذينَ هاجَروا إلى رسولِ اللهِ. فإنْ كانَ فيهِمْ ففيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ الرَّوافِضِ حينَ[13] قالوا: ارتدَّ عامَّتُهُمْ حينَ[14] شهدَ اللهُ لهمْ بالجَنَّةِ والرِّزْقِ الحَسَنِ والمُدْخَلِ المَرْضِيِّ؛ قُتِلوا، أو ماتوا حَتْفَ أنفِهِمْ. فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ منهمْ ما قالوا.

---

(١) في الأصل وم: لاستماع. (٢) من م، في الأصل: الوفاء. (٣) في الأصل وم: وصف. (٤) في الأصل وم: وصف. (٥) في الأصل وم: أوتوا العلم. (٦) من م، في الأصل: وفسادة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عندنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: تأويله و. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: حيث.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تَخضعَ، وتَذِلَّ. وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ وقالَ: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ عَنْ أنْ يكونَ فيهِ خَيرٌ أو فَرَجٌ للكافِرِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ شديدٍ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيلَ: هو الجنةُ، لأنهُ إنما ذَكَرَ بَعْدَ المَوتِ والقَتْلِ. فلا يكونُ/ ٣٥١ ـ أ/ رِزْقٌ حَسَنٌ إلّا في الجنةِ، فَيَسْتَحْسِنُها كلُّ طَبْعٍ وعَقْلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أخْبَرَ أنهُ خيرُ الرازقينَ، وإنْ لم يكُنْ رازقٌ سِواهُ، لأنهمْ كانوا يَطْمَعونَ ويَطلُبونَ الرِّزقَ والسَّعَةَ مِنْ عندِ مَنْ سِواهُ حينَ كانوا يَعْبُدونَ مَنْ دونَهُ طَمَعاً في السَّعَةِ. فأخْبَرَ أنهُ هو الرازقُ، ومنهُ يُطْمَعُ الرزقُ والسَّعَةُ، لأنهُ هو المالكُ لذلكَ. وهو ما قالَ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، [وقالَ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]][(١)] وإنْ لم يكُنْ خالقٌ سِواهُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وهو الجنةُ أيضاً، يَرْضَى بها كلُّ طَبْعٍ وعَقْلٍ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: عليمٌ بما صَنَعَ بأوليائِهِ أعداؤهُ أو ما صَنَعَ هو بأوليائِهِ ﴿حَلِيمٌ﴾ حينَ[(٢)] أخَّرَ الانْتِقامَ مِنْ أعدائِهِ، لم يَنْتَقِمْ منهمْ وقْتَ صَنيعِهِمْ ما صَنَعوا بأوليائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ جائزٌ في اللغةِ ذِكْرُ حَرْفِ: ذلكَ وحَرْفٍ. هذا على الابْتِداءِ، وإنْ كانَ ممّا يُخْبَرُ بهِ عنْ غائبٍ، نَحْوُ قولِهِ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩] [وقولِهِ][(٣)]: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥] يستقيمُ ذِكْرُهُ بدونِ ذِكرِ هذا، وهو أنْ يقولَ: وإنَّ لِلْمُتَّقينَ كذا، وإنَّ لِلطّاغينَ كذا. فَعَلَى ذلِكَ هذا، أو أنْ يكونَ ذَكَرَ ذلكَ صلةَ ما سَبَقَ مِنْ ذِكرِ الأنبياءِ؛ يقولُ: ذلكَ الذي ذَكَرْتُ لكَ، وأنْبَأتُكَ: مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بهِ.

ثم اخْتُلِفَ في سَبَبِ نُزولِ هذهِ الآيةِ: قالَ بعضُهُمْ: هي في القِصاصِ. مَنْ قَتَلَ وليَّ آخَرَ، فاقْتُصَّ منهُ، ثم إنَّ المُقْتَصَّ منهُ بَغَى على وَلِيِّ المَقْتولِ، فَقَتَلَهُ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على مَنْ بَغَى عليهِ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ثم قالَ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ [عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾][(٤)] [البقرة: ١٧٨].

لكنْ ذَكَرَ ههنا الاعْتِداءَ بَعْدَما أخَذَ المالَ، وعَفَا. وفي الأوّلِ ذَكَرَ البَغْيَ بَعْدَ القِصاصِ، وهو واحدٌ في مَعْناهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ في المُؤمنينَ والمُشْرِكينَ؛ وذلكَ أنَّ المُشْرِكينَ عاقَبوا المُؤمِنينَ بِعُقوباتٍ، واعْتَدَوا عليهِمْ. ثم إنَّ المُسْلِمينَ ظَفِروا بهِمْ، فَعاقَبوهُمْ جَزاءَ عقوبَتِهِمْ، ثم إنَّ المُشْرِكينَ بَغَوا على المُؤمِنينَ، فَوَعَدَ اللهُ لهمْ بالنَّصْرِ عليهِمْ بَعْدَ البَغْيِ.

وقالَ بعضُهُمْ قريباً مِنْ هذا؛ وهو أنَّ المُشْرِكينَ كانوا يُؤذونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ومَنْ آمَنَ منهُمْ، ويُعاقِبونَهُمْ في أشْهُرِ الحجِّ، ولم يكُنْ لِلْمُؤمِنينَ إذْنٌ بِقِتالِهِمْ في ذلكَ الوقْتِ، فَقاتَلوهُمْ مُكافَأةً لهمْ. فأخْبَرَ اللهُ ﷻ وَوَعَدَ لهُمُ النَّصْرَ إذا بَغَى أولئكَ عليهِمْ مِنْ بَعْدُ. فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ وَعْدُ النَّصْرِ لهمْ إذا بَغَى أولئكَ عليهِمْ مِنْ بَعْدُ. وعلى التأويلِ الأوّلِ يكونُ لهُمُ الوَعْدُ بالنَّصْرِ بَعْدَما بَغَى أولئكَ على هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أمْرٌ للمؤمنينَ بِقِتالِهِمْ أولئكَ في أشْهُرِ الحجِّ [حينَ][(٥)] كانَ لم يأذَنْ لهمْ بالقِتالِ، أو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إذا تابوا، ورَجَعوا عمّا فَعَلوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ صَرْفَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَسْتَقيمُ ذِكْرُهُ على الابْتِداءِ والائْتِنافِ على غَيرِ صِلَةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كذا. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي ذلكَ النصرَ لِمَنْ ذَكَرَ، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إيلاجِ الليلِ في النهارِ وإيلاجِ النهارِ في الليلِ قادرٌ على ما وَعَدَ مِنَ النَّصْرِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالِهِمْ ﴿بَصِيرٌ﴾ بِحَوائجِهِمْ. والسَّميعُ: يُقالُ: هو المُجيبُ، أي مجيبٌ لدعائِهِمْ، بَصيرٌ بما يكونُ مِنَ الأعداءِ. أو يكونُ على الابْتِداءِ في كلِّ أمْرٍ. وكذلكَ [قولُهُ][1]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] ما ذَكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ بأنَّ اللهَ هو الذي يَفْعَلُ هذا.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قالَ الحَسَنُ: الحَقُّ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ، بهِ يُعْطِي، وبهِ يَحْكُمُ بَيْنَ الخَلْقِ[2]، وبهِ يَقْضِي، ونَحْوُهُ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي عندَهُ يَتَحَقَّقُ ما يُطْمَعُ في العِبادةِ، ويُطْلَبُ؛ إذْ هو المالكُ لذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي ما يَطْمَعونَ في عبادَةِ مَنْ دونَهُ باطلٌ، وهو الأصنامُ التي عَبَدوها رَجاءَ الشَّفاعةِ وطَمَعاً في السَّعَةِ. فأخبَرَ أنها لا تَمْلِكُ ذلكَ. وإنما [يَمْلِكُ][3] ذلكَ اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي مِنْ عندِهِ يُطْلَبُ العُلُوُّ، ومِنْ عندِهِ يُطْلَبُ، ويُطْمَعُ الرِّزْقُ والسَّعَةُ والشَّفاعَةُ والنَّصْرُ والظَّفَرُ والإجابةُ، لا مِنْ عندِ هؤلاءِ الأصنامِ التي يَعْبُدونها. يُذَكِّرُ سَفَهَهُمْ بعبادَتِهِمُ الأصنامَ مِنْ دونِ اللهِ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[4] إنما هو حرفُ تَعْجيبٍ؛ يُعَجِّبُ رسولَ اللهِ جميعَ ما يَفْعَلُ مِنْ أفعالِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حرفُ إيضاحِ الحُجَجِ وإنارةِ براهينِهِ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] ونَحْوُهُ.

وأصْلُهُ أنَّ ظاهِرَهُ، وإنْ كانَ اسْتِفْهاماً فهو في الحقيقةِ تحقيقٌ وإيجابٌ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي قد رأيتَ، وقد أُخبِرْتَ. وهكذا جميعُ ما خَرَجَ الظاهرُ في الكتابِ مَخْرَجَ الاسْتِفهامِ فهو في الحقيقةِ إيجابٌ وإلزامٌ.

ثم في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ وجهانِ مِنَ الاسْتِدْلالِ على مُنْكِري البَعْثِ:

أحَدُهُما: يُخْبِرُ عنْ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ وشَقِّ الأرضِ وإخراجِ النباتِ منها معَ لِينِهِ وضَعْفِهِ وصَلابةِ الأرضِ وشِدَّتِها قادرٌ على إحياءِ الخَلْقِ بعدَ الموتِ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

والثاني: [أنَّ مَنْ][5] قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بَعْدَ مَواتِها ويُبْسِها قادرٌ على البعثِ والإحياءِ، وقد عَرَفوا أنَّ إعادةَ الشيءِ أهونُ مِنِ ابْتِدائِهِ، أو يَقْدِرُ على الإعادةِ مَنْ [يَمْلِكُ القُدْرَةَ][6] على الابْتِداءِ إذا عَرَفَ الابْتِداءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: اللطيفُ في الشاهدِ إنما يُقالُ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنهُ يُقالُ للشيءِ لطيفٌ لِرِقَّتِهِ، وذلكَ عنِ اللهِ مَنْفِيٌّ.

والثاني: لِما تَتَأَتَّى لهُ الأشياءُ، ولا تَصْعُبُ عليهِ.

والثالثُ: اللطيفُ هو الرحيمُ الرؤوفُ. وهذانِ الوجهانِ يُضافانِ[7] إلى اللهِ، والأولُ لا يَجوزُ إضافَتُهُ إليهِ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾ أي][8] عليمٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [يحتمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ وجهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الحق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) بين المؤلف أبو منصور أحوال هذا الحرف في تفسير الآية: ٧٠ من هذه السورة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: ان حرف ﴿أَلَمْ﴾ حرف يتوجه إلى وجوه: إلى التعجب مرة وإلى التنبيه والإيقاظ ثانياً وإلى إيضاح الحجج والبراهين ثالثاً. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: لا يملك. (٧) في الأصل وم: يضاف. (٨) في الأصل وم: خبير.

أحدُهما:][1] يخبرُ أنَّ لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وأنهمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، وأنهُ لم يَخْلُقْهُمْ لحاجةِ نفسِهِ. ولكنْ إنما خَلَقَهُمْ لحاجةِ أنفُسِهِمْ حينَ[2] أخبرَ أنهُ الغَنيُّ بذاتِهِ.

والثاني: يُخْبِرُ أنهُ لم يَأْمُرْهُمْ، ولم يَنْهَهُمْ، ولا امْتَحَنَهُمْ لِمَنافِعَ، تكونُ لهُ، ولكنْ لِمَنافِعِ المُمْتَحَنينَ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ هو المحمودُ في أفعالِهِ، أو[4] ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ الحامدُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ لِيَسْتَأْدِيَ بهِ شُكْرَهُ، لأنهُ أخبرَ أنهُ سَخَّرَ لهمْ ما في الأرضِ منْ أنواعِ المَنافِعِ لِيَعْلَموا أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ عَبَثاً لِيَتْرُكَهُمْ سُدًى؛ لأنَّ مَنْ كانَ خَلْقُهُ لِما ذَكَرَ لم يكنْ خَلْقُهُ ليكونَ خَلْقاً مَتْروكاً سُدًى.

ويُخْبِرُ أنهُ أعْطَى لهمُ الأسبابَ التي بها يَصِلونَ إلى مَنافِعِ الأرضِ معَ شِدَّتِها وصلابَتِها، والأسبابَ التي بها يَصِلونَ إلى مَنافِعِ البَحْرِ، وهي الفُلْكُ التي خَلَقَها لَهُمْ لِيَصِلوا بها إلى مَنافِعِ البَحْرِ حينَ[5] خلقَ الخَشَبَ قارَّةً على وجْهِ الماءِ غَيرَ مُتَسَرِّبَةٍ. وغَيرُهُ مِنَ الأشياءِ، مِنْ طَبْعِها التَّسَفُّلُ والتَّسَرُّبُ في الماءِ كالحديدِ[6] والحجرِ ونَحْوِهِما مِنَ الأشياءِ لِيعرفوا فَضْلَهُ ورَحْمَتَهُ، أنْ كيفَ ثَبَتَ، وقَرَّ هذا / ٣٥١ ـ ب/ على وَجْهِ الماءِ؟ ولم يَثْبُتِ الحديدُ والحجرُ ونَحْوُهُما[7]؟ ثم يَثْبُتُ الحديدُ على وجْهِ الماءِ معَ الخَشَبِ؟ إذِ السُّفُنُ لا تَخْلو مِنَ الحديدِ، وبهِ تقومُ السفنُ، ثم لم يَتَسَرَّبْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي يُمْسِكُ السماءَ لا بالأسبابِ ولا بالأشياءِ التي تُمْسِكُ الأشياءَ في الشاهدِ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ الآية [فاطر: ٤١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي رأفَتُهُ ورحمَتُهُ ما خَلَقَ لهمْ، وسَخَّرَ ما ذَكَرَ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أيِ الكافرَ ﴿لَكَفُورٌ﴾ للبَعْثِ، أي جاحدٌ لهُ. والكَفورُ لربِّهِ في نِعَمِهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ حينَ[8] ذَكَرَ أنهُ سَخَّرَها لهمْ في قولِهِ: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ كذا، لأنهُ يَنْظُرُ في النِّعَمِ إلى أسبابِهِ والحِيَلِ التي يَحْتالُ لا إلى فَضْلِ ربِّهِ وأفضالِهِ في تلكَ النِّعَمِ. لِذلكَ صارَ كَفوراً لربِّهِ في نِعَمِهِ.

وأمّا المُؤْمِنُ فإنهُ ليسَ يَنْظُرُ إلى الأسبابِ والحِيَلِ فيها، ولكنْ يَنْظُرُ إلى فَضْلِ اللهِ وإفضالِهِ وإنعامِهِ عليهِ فيها، فيكونُ شَكوراً لهُ فيها غَيرَ كَفورٍ. والكافرُ يَنْظُرُ إلى ما ذَكَرْتُ.

لذلكَ كانَ ما ذَكَرْتُ على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ لأنهُ يقولُ: هذا الذي سَخَّرَ الفُلْكَ، وهم يَقولُونَ: لم يُسَخِّرِ الفُلْكَ، ولكنْ إنما سَخَّرَ الخَشَبَ [الذي منهُ][9] تُتَّخَذُ الفُلْكُ لأنهمْ لا يَرَونَ للهِ في فِعْلِ العِبادِ تدبيراً ولا صُنْعاً، وهُمْ يَكْفُرونَ نِعْمَةَ ربِّهِمْ في ما ذَكَرَ مِنْ تَسْخيرِ الفُلْكِ لنا، وهُمْ داخلونَ في ظاهِرِ هذهِ الآيةِ على الوجْهِ الذي ذَكَرْنا.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ اخْتُلِفَ في المَنْسَكِ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَنسَكًا﴾ [ديناً][10] أي جَعَلْنا لكلِّ أمّةٍ ديناً، يَدعونَ إليهِ، أي كلُّ أمّةٍ تُدْعَى إلى دينٍ واحدٍ، وهو قولُ الحَسَنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي شَريعةً. فهذا على الاخْتِلافِ، أي جَعَلْنا لكلِّ أمّةٍ شريعةً على حِدَةٍ ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ذلكَ كقولِهِ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقالَ عامّةُ أهْلِ التأويلِ ﴿مَنسَكًا﴾ أي ذبائحَ وعيداً. قالوا ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَنْكِرُ أنْ يكونَ الذَّبْحُ شَريعةَ اللهِ. فأخْبَرَ أنَّ الذَّبْحَ سُنَّةُ اللهِ وشَريعَتُهُ في الأُمَمِ كلِّها. ليسَ على ما قالتِ الثَّنَوِيَّةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: من الحديد. (٧) في الأصل وم: ونَحْوُهُ. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: التي منها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ على تأويلِ[1] من يقولُ: إنَّ المَنسَكَ هو الدينُ، أي لا يُخالِجَنَّكَ في نفسِكَ [شَكٌّ][2] أنَّ الذي أنتَ عليهِ، هو دينُ اللهِ، وادْعُ الناسَ إليهِ.

وعلى تأويلِ مَنْ [يقولُ:][3] هو الذبحُ يقولُ: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ أي لا يَصُدَّنَّكَ عنِ الذَّبحِ مَنْ يُنْكِرُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٨٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي ادْعُ إلى توحيدِ ربِّكَ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ إلى عبادةِ ربِّكَ، وانْهَهُمْ عن عِبادةِ مَنْ دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذا يدلُّ أنَّ التأويلَ الذي ذَكَرْنا في المَنْسَكِ، وهو الدينُ، أشْبَهُ، وأقربُ، لأنهُ ذَكَرَ ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فلا يَتخالَجَنَّ في نفسِكَ شكٌّ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أمْرِ الذبيحةِ أو في الدينِ كثيراً. لكنَّ ذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ، عندَ إياسِهِ مِنْ توحيدِهِمْ وإسلامِهِمْ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: و﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في الدينِ والتوحيدِ ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

الآية ٦٩ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ مِنَ الدينِ. وقالَ: بعضُ أهلِ التأويلِ: هذهِ الآيةُ مَنسوخةٌ نَسَخَتْها آيةُ القِتالِ[5] لأنَّ فيها حَظْراً عنِ القتالِ والتَّرْكَ على ما هُمْ عليهِ وتَسليمَ الأمرِ إلى اللهِ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يومَ القيامةِ. لكنْ جائزٌ ما ذَكَرْنا أنهُ إنما قالَ ذلكَ عندَ الإياسِ منهُمْ مِنْ توحيدِهِمْ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ أنَّ حَرْفَ ﴿أَلَمۡ﴾ حَرْفٌ يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ: إلى التَّعْجيبِ مَرَّةً وإلى التَّنْبيهِ والإيقاظِ ثانياً وإلى إيضاحِ الحُجَجِ والبراهينِ ثالثاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ حُجَجاً وبراهينَ ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ أنهمْ يَعْبُدونَ غيرَ اللهِ، ولا سلطانَ، ولا حُجَّةَ لهمْ في ذلكَ، ولا عِلْمَ، لأنهمْ كانوا لا يُؤْمِنونَ برسولٍ يُخبِرُهُمْ، ولا كانَ لهمْ كتابٌ، فَيَعْلَمونَ بهِ، فيقولُ: إنهمْ يقولونَ: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ، ولا حُجَّةَ لهمْ في ذلكَ، ولا عِلْمَ.

وفيهِ أنهُ إنما بَعَثَ الرسلَ إليهِمْ على عِلْمٍ لهُ منهمْ أنهمْ يُكَذِّبونَ الرسلَ، لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْثَ الرسلِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُمْ، ويَتْرُكُ إجابَتَهُمْ؛ كَمَنْ لا يَبْعَثُ في الشاهدِ رسولاً إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ولا يُجيبُهُ. فَعَلَى ذلِكَ يقولونَ: لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ يَبْعَثُ الرسولَ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ولا يُجيبُهُ.

لكنَّ اللهَ أخْبَرَ أنهُ على عِلْمٍ منهمْ بالتكذيبِ وتَرْكِ الإجابةِ. بَعَثَهُمْ [لا على الجَهْلِ حينَ][6] قالَ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

وأمّا قولُهُمْ: إنَّ مَنْ عَلِمَ في الشاهدِ تكذيبَ المُرْسَلِ إليهِ رسولَهُ فإنهُ لا يَبْعَثُهُ إليهِ، لأنَّ المُرْسِلَ إنما يَبْعَثُهُ لِحاجةِ نفسِهِ ومَنافِعِهِ. فإذا عَلِمَ منهُ تَكْذيبَهُ وتَرْكَ الإجابةِ لهُ لم يَبْعَثْهُ.

فأمّا اللهُ ﷻ إنما يُرْسِلُ الرسولَ لِحاجةِ [المُرْسَلِ إليهِ ومَنافِعِهِ لا لحاجةِ][7] نفسِهِ ومَنْفَعَتِهِ. فلا ضَرَرَ يَلْحَقُهُ في تكذيبِهِ وجُحودِهِ. فجائزٌ [أنْ يكونَ][8] أرْسَلَهُ على عِلْمٍ منهُ بالتكذيبِ[9].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ذلكَ في الكتابِ الذي عندَهُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ يقولُ: حِفْظُهُ يَسيرٌ على اللهِ بِغَيرِ كتابٍ، لا يَصْعُبُ عليهِ حِفْظُ شيءٍ، لأنهُ عالِمٌ بِذاتِهِ لا بِسَبَبٍ ولا تَعْليمٍ. وإنما يَصْعُبُ ذلكَ على مَنْ كانَ عِلْمُهُ بالشيءِ بِسَبَبٍ أو تَعْليمٍ.

(١) في الأصل وم: التأويل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: بتكذيب.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيهِ دلالةُ ردِّ قولِ القَدَريَّةِ حينَ[1] قالوا: يُكَذِّبُ مَنْ كَذَّبَ الرسُلَ لا بإرادةِ اللهِ. فَذَكَرَ أنهُ بَعَثَهُمْ[2] على علمٍ منهُ ذلكَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «سيكونُ في آخِرِ الزمانِ ناسٌ مِنْ أُمَّتي يُكَذِّبونَ بالقَدَرِ. سَيَكْفيكُمْ مِنَ الرَّدِّ عليهِمْ أنْ تقولوا ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾» [السيوطي في الدر المنثور٦/ ٧٤].

وتأويلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنْ يُسألوا، فَيُقالَ لهمْ: أَأرادَ[3] اللهُ أنْ يُصَدَّقَ في خَبَرِهِ الذي أخبَرَ، أم[4] يُكَذَّبَ. فإنْ قالوا: أرادَ أنْ يُصَدَّقَ في خَبَرِهِ[5] لَزِمَهُمْ أنْ يقولوا: أرادَ اللهُ جميعَ ما كانَ منهُمْ. وإنْ قالوا: أرادَ أنْ يُكَذَّبَ خَبَرُهُ، فيكونُ كُفراً مَحضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يُسَفِّهُهُمْ بِعبادتِهِمْ دونَ اللهِ بلا حجَّةٍ ولا بُرْهانٍ ولا عِلْمٍ وتَرْكِهِمْ عبادةَ اللهِ معَ الحُجَجِ والبراهينِ والعِلْمِ أنهُ إلهٌ وأنهُ ربُّهُمْ مُسْتوجِبٌ لِلْعبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يَنْصُرُهُمْ، ويَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ. ففيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهُ قالَ ذلكَ لِلرُّؤساءِ منهُمْ والقادةِ. فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ نَصْرُهُمْ[6] بشيءٍ ولا رَدُّهُمْ[7] ما قالَ بشيءٍ. دلَّ أنهُ باللهِ كانَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾/ ٣٥٢ ـ أ/ تَحتَمِلُ الآياتُ الحُجَجَ والبراهينَ، وتَحتَمِلُ القرآنَ المُنْزَلَ عليهِ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الإنكارَ وأثَرَ العِنادِ والرَّدِّ لآياتِهِ والكَراهِيَةَ والبُغْضَ لهُ ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ وشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ وعُتُوِّهِمْ عندَ تِلاوةِ الآياتِ عليهِمْ وإقامةِ الحُجَجِ عليهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يَسطونَ: قيلَ: يأخذونَ أخذاً، وقيلَ: [يَبْطُشونَ بَطْشاً].

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ قد يَتَناولونَهُمْ بالمَكْروهِ مِنَ الشَّتْمِ والضَّرْبِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي يُوقِعونَ بهِمْ، يُقالُ: سَطا يَسْطو][9] سَطْوَةً، ورجلٌ ذو سَطْوَةٍ وبَطْشَةٍ أي ذو قُوَّةٍ وقُدْرَةٍ. قالَ: ويُقالُ: سَطَوْتُ بفلانٍ، أي أخَذْتُهُ أخذاً شَديداً، أو بَطَشْتُ بهِ كذلكَ. ثم قالَ: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ظاهرُ الآيةِ ليسَ بجوابٍ لِما تقَدَّمَ، ولا صِلَتَهُ، وليسَ على الابْتِداءِ، ولكنْ على نازلةٍ وأمْرٍ كانَ منهُمْ، لم يَذْكُرْ لنا ذلكَ.

فأمّا ابنُ عباسٍ وغيرُهُ مِنْ أهْلِ التأويلِ فقالوا: إنما نَزَلَتْ جواباً لِما قالوا لرسولِ اللهِ ﷺ ولأصحابِهِ حينَ[10] قالوا: ما نَعْلَمُ قوماً أشْقى منكُمْ حينَ رَأوهُمْ، قد [حُظِرَتِ الدنيا عنهمْ][11]، لم يُعطَوا مِنَ الدنيا شيئاً، فَنَزَلَ جواباً لهمْ ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ كقولِهِ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ قد ذَكَرْنا مَعْنى ضَرْبِ الأمثالِ والحاجةِ إليها. وذلكَ أنَّ العقولَ يجوزُ أنْ يَعْتَرِضَها[12] ما يسترُ عليها سبيلَ الحقِّ، ويَحْجُبُ عنها إدراكَ الحقِّ. فَضَرَبَ الأمثالَ لِيَرْفَعَ عنها ذلكَ الحِجابَ والسِّتْرَ لِتُدْرِكَ العقولُ سَبيلَ الحَقِّ. وإلّا لم يَجُزْ ألّا تُدْرِكَ العُقولُ لِما جُعِلَتِ العُقولُ [مِمَّنْ يُدْرِكُ][13] الحقَّ. لكنْ يَمْنَعُ عنْ دَرْكِ الحَقِّ وسَبيلِهِ ما ذَكَرْنا مِنِ اعْتِراضِ السَّواتِرِ والحُجُبِ، فَيُسْتَكْشَفُ ذلكَ بِما ذَكَرْنا مِنَ الأمثالِ. ثم في هذا المَثَلِ وجْهانِ:

أحَدُهُما: يُخبِرُ عنْ تَسْفيهِ أحْلامِهِمْ في عِبادَتِهِمْ مَنْ لا يَقْدِرُ على خَلْقِ أضْعَفِ خَلْقٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ وتَرْكِهِمْ عبادةَ مَنْ هو خالِقُهُمْ وخالقُ جميعِ الخلائِقِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرجت في الأصل وم: بعد ذلك. (٣) همزة الاستفهام ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: خبرهم. (٦) في الأصل وم: نصره. (٧) في الأصل وم: رده. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حظر الدنيا. (١٢) في الأصل وم: يعترض. (١٣) في الأصل وم: من درك.

والثاني: يُخبِرُ عنْ قَطعِ ما يَأمُلُونَ، ويَطْمَعونَ مِنْ عبادَتِهِمُ الأصنامَ حينَ[1] قالَ: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾ ويَترُكونَ عبادَةَ مَنْ يُؤمَلُ منهُ، ويُطْمَعُ كلُّ خيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أجيبوا لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: استَمِعوا لهُ استِماعَ مَنْ يَنظُرُ، ويَأمُلُ الحقَّ، ويَقْبَلُهُ [لا استِماعَ][2] مَنْ لا يَنْظُرُ إلى الحقّ، ولا يَقْبَلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَدْعُونَ﴾ أي تَعْبُدونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقالَ [بعضُهُمْ][3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [لا][4] على الدعاءِ، أي تُسَمُّونَهُمْ آلهةً مِنْ دونِ اللهِ.

وقد كانَ منهُمُ الأمرانِ جميعاً: العِبادةُ للأصنامِ مِنْ دونِ اللهِ، وتَسْمِيَتُهُمْ آلِهَةً مِنْ دونِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنْ تَسْفيهِ أحلامِهِمْ في عِبادَتِهِمْ مَنْ لا يَمْلِكُ خَلْقَ أضْعَفِ خَلْقِ اللهِ وعَجْزِهِمْ عَمّا يَأْمُلُونَ مِنَ النَّفْعِ وعَنْ دَفْعِ مَنْ يَرومُ بهِمُ الضَّرَرَ والسَّلْبَ ما ذَكَرَ منها.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطالبُ الصَّنَمُ، والمَطلوبُ، هو الذُّبابُ لكنْ على هذا التأويلِ يُضْمَرُ فيهِ: لو، أي ضَعُفَ الصَّنَمُ، لو كانَ طالباً. وقالَ بعضُهُمْ: الطالبُ هو الذُّبابُ، والمَطْلوبُ، هو الصَّنَمُ. فإنْ قيلَ: وَصَفَهُما جميعاً بالضَّعْفِ: الذُّبابَ والصَّنَمَ جميعاً على تأويلِهِمْ؛ أعني هؤلاءِ.

فالصَّنَمُ ضَعيفٌ عاجزٌ عَمّا وَصَفَ. وأمّا الذُّبابُ فهو ليسَ بضعيفٍ لأنهُ غَلَبَ ذلكَ الصَّنَمَ، وإنْ كانَ طالباً أو مَطلوباً. فكيفَ وَصَفَهُ بالضَّعفِ، وهو[5] الغالبُ عليهِ في الحالَينِ؟

لكنهُ كأنهُ [أرْجَعَ قولَهُ][6] ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ إلى العابِدِ والمَعْبودِ، كأنهُ قالَ: ضَعُفَ العابدُ عمّا يأمُلُ، ويَطْمَعُ مِنْ عِبادَتِهِ إيّاهُ، وضَعُفَ المَعْبودُ عن إيفاءِ ما يُؤمَلُ، ويُطْمَعُ منهُ. فهذا كأنهُ أشْبَهُ وأقْرَبُ إليهِ مِنَ التأويلِ الأولِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عَرَفوا اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. قالوا لهُ بالشريكِ والوَلَدِ والصاحبَةِ. [وما][7] قالوا فيهِ ممّا لا يَليقُ بهِ، لأنهمْ لو عَرَفوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ لم يَنْسِبوا إليهِ، ولا وَصَفوهُ بالذي وَصَفوهُ، وعَرَفوهُ[8] بذاتِهِ وتعاليهِ عنْ ذلكَ. لكنْ حينَ[9] لم يَعْرِفوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ شَبَّهوهُ بواحدٍ مِنْ خَلْقِهِ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عَظَّموا اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ حينَ[10] صَرَفوا العبادةَ والشُّكْرَ إلى غَيرِهِ؛ إذْ لو عَظَّموهُ حَقَّ تعظيمِهِ ما صَرَفوا عِبادَتَهُمْ وشُكْرَهُمْ إلى غَيرِ الذي أنْعَمَ عليهِمْ، وما أشْرَكوا غَيرَهُ في ذلكَ على عِلْمٍ منهمْ أنهُ إنما وَصَلَتْ إليهِمْ تلكَ النِّعَمُ مِنَ اللهِ لا مِمَّنْ عَبَدوهُ، وباللهِ العِصْمَةُ والصَّوابُ.

ثم يكونُ تعظيمُهُ ومَعْرِفَتُهُ على الحقيقةِ بِتَعْظيمِ أمورِهِ وقَبولِها والقِيامِ بها، لا في قولِهِ: يا عظيمُ، يا كبيرُ ونَحْوُهُ. ولكنْ على ما ذَكَرْتُ مِنْ تَعْظيمِ أمورِهِ وقِيامِهِ بها. وكذلكَ المَحَبَّةُ للهِ، إنما تكونُ في القِيامِ بأمورِهِ وإقْبالِهِ نَحْوَها والانْتِهاءِ عَنْ مَناهيهِ لا في ما في قولِهِ: أنا حَبيبُكَ، أو تصويرِ شيءٍ في قَلْبِهِ. ولكنْ ما ذَكَرْتُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ لِنَصْرِ أوليائِهِ وجَعْلِ العاقبةِ لهمْ ﴿عَزِيزٌ﴾ أي مُنْتَقِمٌ مِنْ أعدائِهِ. أو يقولُ: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لأنهُ تَضْعُفُ كلُّ القُوى عندَ قُوَّتِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾ تَذِلُّ كلُّ العِزِّ عندَ عِزَّتِهِ. أو يقولُ: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ لأنهُ بهِ يَقْوى مَنْ قَوِيَ، ومنهُ يَسْتَفيدُ القُوَّةَ[11] ﴿عَزِيزٌ﴾ لأنهُ بهِ يَعِزُّ مَنْ عَزَّ[12]، ومنهُ كانَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ومعناه إذا ظهر له الاستماع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) في الأصل وم: رجع قول. (٧) من م، في الأصل: ومما. (٨) في الأصل وم: وعرفوا. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ذلك. (١٢) في الأصل وم: عزته.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ أي اختارَ رُسُلاً مِنَ الملائكةِ في بَعْضِ ما امْتَحَنَهُمْ. ويَحتمِلُ ﴿يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ إلى الرسلِ مِنَ الإنسِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي اختارَ منهُمْ؛ أعني مِنَ الناسِ رُسُلاً إلى الإنسِ، واللهُ أعلَمُ [وهو][1] كقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَصِيرٞ﴾ بِمَنْ يَصْلُحُ للرسالةِ ومَنْ لا يَصْلُحُ، و﴿بَصِيرٞ﴾ بِمَنِ اختارَ لها ومَنْ لم يَختَرْ ﴿سَمِيعُۢ﴾ لِما يَتَلَقَّى المُرْسَلُ إليهِ الرسولَ مِنَ الإجابةِ والقبولِ والرَّدِّ والتَّكذيبِ. وإنهُ على عِلْمٍ منهُ بالرَّدِّ والتَّكذيبِ لِلرُّسُلِ.

وفيهِ دلالةٌ أنهُ إنما اصْطفاهُمْ لِلرِّسالةِ لا بِشيءٍ، يَستَوجِبونَ منهُ ذلكَ، ولكنْ إفضالاً منهُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ أي يَعْلَمُ ما كانَ قَبْلَ أنْ يَخلُقَهُمْ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ بَعْدَما خَلَقَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: يَعْلَمُ بِأوائِلِ أُمورِهِمْ وبِأواخِرِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنَ الدنيا ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ مِنَ الآخِرَةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنَ الآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ مِنَ الدنيا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وما عَمِلوا بأنْفُسِهِمْ في حياتِهِمْ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ ما سَنُّوا لِغَيرِهِمْ مِن بَعْدِهِمْ كقولِهِ: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الانفطار: ٥] ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ ما عَمِلوا هُمْ، وما ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ ما سَنُّوا لِغَيرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على حقيقَةِ: بَيْنَ الأيدي، ولا خَلْفَ. ولكنْ [على التمثيلِ، أي][2] لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى:][3] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾/ ٣٥٢ ـ ب/ قد ذَكَرْنا معناهُ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ، هو شيءٌ خاصٌ، وشيءٌ واحدٌ، لا اسْمُ جَميعِ الخيراتِ، وهو التَّصْديقُ، لأنهُ أثْبَتَ لهمُ اسْمَ الإيمانِ، ثم أمَرَهُمْ بالرُّكوعِ والسُّجودِ وفِعْلِ الخيراتِ، لأنَّ جَميعَ المُخاطَبينَ بهذهِ الآيةِ عَرَفُوا مَنْ خُوطِبَ بها. فلو كانَ اسْماً لِجميعِ الخيراتِ لَكانَ لا يُعْرَفُ المُخاطَبُ بها، لأنهُ لا يَقْدِرُ واحدٌ على جميعِ الخيراتِ. فَدَلَّ أنهُ شيءٌ مَعْروفٌ خاصٌّ مِمَّا يُرْجِعُ صاحِبَهُ إلى حدِّ المَعْرِفَةِ حينَ[4] عُرِفَ المُخاطَبُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ وجوهاً:

أحَدُها: أنِ اجْعَلوا رُكوعَكُمْ وسُجودَكُمْ وعبادَتَكُمْ عبادةً للهِ، لا تُشْرِكوا فيها غَيْرَهُ على ما أشْرَكَ أهْلُ مكةَ وغَيرُهُمْ مِنَ الكفارِ في عبادَتِهِمْ غَيرَهُ، وهي الأصنامُ التي عَبَدوها.

والثاني: اعْبدوا ربَّكُمْ بالأسبابِ والأشياءِ التي عَرَّفَكُمْ أنها عبادةٌ، وكذلكَ افْعَلوا الخَيراتِ التي عَرَّفَكُمْ أنها خَيراتٌ.

والثالثُ: أنِ اجْعَلوا أحوالَكُمْ التي أنتُمْ عليها مِنْ قِيامٍ وقُعودٍ وحَرَكَةٍ وسُكونٍ عبادةً للهِ، واجْعَلوا تَقَلُّبَكُمْ أيضاً لِلْمعاشِ الذي أُبيحَ لكُمْ، وأُذِنَ فيهِ، عبادةً للهِ تعالى.

فالأوَّلُ: هو عبادةٌ بِنَفْسِهِ التي جَعَلَها اللهُ نَصّاً. والثاني: هو الذي يُصَيِّرُهُ عبادةً بالنِّيَّةِ والقَصْدِ. فيكونُ في جَميعِ أحوالِهِ مُؤَدِّيَ عِبادَةٍ.

وهكذا الواجبُ على المَرْءِ أنْ يكونَ في جَميعِ ما يُؤَدِّي مِنَ النوافِلِ مِنَ الصلاةِ والصيامِ وغَيرِهِ مُؤَدِّيَ فَرْضٍ؛ وهو أنْ يُؤَدِّيَ جميعَ ذلكَ بِنِيَّةِ الشُّكْرِ لِنِعَمِهِ وتَكْفيراً لِمَعاصيهِ. وكِلاهما لازِمانِ واجبانِ. فإنْ فَعَلَ ذلكَ كانَ مُؤَدِّيَ لازمٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ظاهرُهُ خرجَ على التّرجّي، وفي الحقيقةِ على الوجوبِ على ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ليسَ لِحَقِّ اللهِ غايةٌ يُوصَلُ إليها. وكذلكَ قولُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] لأنهُ لو كانَ لِحَقِّهِ غايةٌ لكانَ الرسلُ والملائكةُ يقومونَ بِوفاءِ ذلكَ، ويُتَوَهَّمُ منهُمُ المُجاوَزَةُ عن ذلكَ؛ إذْ كلُّ ذي حَدٍّ وغايةٍ تُتَوَهَّمُ المُجاوَزَةُ فيهِ. فإنْ لم يَحْتَمِلِ المُجاوَزَةَ دَلَّ أنَّ حَقَّهُ ليسَ بذي حَدٍّ وغايةٍ. ويكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وقولِهِ[1]: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حَقَّهُ الذي احْتَمَلَ وُسْعَكُمْ وبُنْيَتَكُمْ وطاقَتَكُمْ كقولِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فيكونُ هذا تفسيراً لقولِهِ: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وقولِهِ[2]: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي جاهِدوا في أنفسِكُمْ في شَهَوَتِها وأمانِيِّها، أو جاهِدوا أعداءَ اللهِ في دفعِ الوَسواسِ والمُحاربَةِ مَعَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ للإيمانِ والهُدى والتوحيدِ.

[والثاني][3]: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ جِنساً مِنْ أفضلِ الأجناسِ وأكْرَمِهِمْ مِنْ بَينِ سائرِ الأجناسِ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالَ عامةُ أهْلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي وَحِّدوا رَبَّكُمْ؛ اجْعَلوا كلَّ عبادةٍ مَذْكورةٍ في الكتابِ توحيداً. فيكونُ ذِكْرُ العبادةِ ههنا كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] كأنهُ قالَ: يا أيُّها الذينَ آمَنوا وَحِّدوا رَبَّكُمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فيهِ وجوبُ سَجْدَةِ التلاوةِ على ذلكَ، وهي في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «فُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ بِسَجْدَتَيْنِ على غيرِها مِنَ السُّوَرِ. فَمَنْ لم يَسْجُدْهُما فلا يَقْرَأْهما» [بنحوه الموطأ ١/ ٢٠٥ و٢٠٦] وكذلكَ رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قرأَها، فَسَجَدَ فيها مَرَّتَيْنِ، ثم قالَ ما ذَكَرْنا.

وتأويلُهُ عندنا أنَّ قولَهُ: «فُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ بِسَجْدَتَيْنِ»: السَّجْدَةُ[4] التي هي مِنْ صُلْبِ الصلاةِ[5]، وسجدةُ التلاوةِ في أوَّلِ السورةِ[6]. فمنْ لم يَسْجُدْهُما فلا يَقْرَأْهُما.

وأصْلُهُ في وجوبِ سَجْدَةِ التلاوةِ أنَّ كلَّ سُجودٍ في القرآنِ لِلْخُضوعِ للهِ فهو واجبٌ لِلتِّلاوةِ لازمٌ لهُ. وكلُّ سجودٍ كانَ الأمْرُ بهِ لِحَقِّ سجودِ الصلاةِ فإنهُ لا تَلْزَمُهُ السَّجدةُ بالتلاوةِ[7]. فالأمرُ بالسُّجودِ في قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أمْرٌ بِسُجودِ الصلاةِ، لا غيرُ. لم يُلْزِمْ تالِيَهِ السجودَ بالتِّلاوةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ تأويلُهُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ عليهِمْ مَعْرِفَةَ وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ وتَعاليهِ عنِ الأشباهِ والشركاءِ، وعليهِمْ معرفةَ نِعَمِهِ والقيامَ بِشُكْرِها لهُ والخضوعَ لهُ في كلِّ وَقْتٍ، وإنْ [لم][8] يبعثِ الرسلَ.

ولكنهُ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ بَعَثَ إليهِمُ الرسلَ ليكونَ أيْسَرَ عليهِمْ مَعْرِفَةُ ذلكَ وأهْوَنَ، والقيامُ بأداءِ ذلكَ أخَفَّ، لأنَّ مَعْرِفَةَ الأشياءِ بالسماعِ مِنْ لِسانِ الصَّدوقِ والعَدْلِ أيْسَرُ، والإدراكُ أهْوَنُ مِنْ مَعْرِفَتِها بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

أخْبَرَ أنهُ لولا فَضْلُهُ ورَحْمَتُهُ في بَعْثِ الرسلِ لاتَّبَعوا الشيطانَ إلّا قليلاً. والقليلُ الذينَ اسْتَثْناهُمُ الذينَ يَتَفَكَّرونَ، ويَنْظُرونَ، فَيَعْرِفونَ بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ، وذلكَ لا يُعْرَفُ إلا بِجَهْدٍ وتَكَلُّفٍ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من م. (٥) المقصود بها الآية: ٧٧. (٦) المقصود بها الآية: ١٨. (٧) في الأصل وم: للتلاوة. (٨) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ولكنْ بَعَثَ إليكُمُ الرسلَ ليكونَ أوضحَ لِسَبيلِ الحَقِّ ومَعْرِفَتِهِ. وإنْ كانَ لهُ ألّا يُرْسِلَ، ويُكَلِّفَ ذلكَ بالنَّظرِ والتَّفَكُّرِ.

والثاني: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [في قَطْعِ ما][1] تقعُ لكمُ الحوائجُ وتحريمِ كلِّ أنواعِ المَطاعِمِ والمَشارِبِ واللِّباسِ عليكُمْ، لكنهُ إذا حَرَّمَ نوعاً منها أباحَ آخرَ بِإزائِهِ مِمّا يَسُدُّ بهِ حاجَتَهُ، ويُزِيحُ بهِ عِلَّتَهُ. ولو حَرَّمَ كلَّ أنواعِها كانَ [ذلكَ][2] حَرَجاً في الدينِ وضِيقاً.

والثالثُ: لم يَجْعَلْ عليهِمْ مِنَ العِباداتِ والفَرائضِ التي كَلَّفَهُمْ بها والقيامِ بأدائِها ما لا يَحْتَمِلُ وسْعُهُمْ ولا بُنْيَتُهُمْ، ولا حَمَلَ عليهِمْ أموراً شاقَّةً خِلافَ ما عليهِ طِباعُهُمْ وأمْرُ مَعاشِهِمْ. ولكنْ كَلَّفَهُمْ بِعِباداتٍ، احْتَمَلَ بها وُسْعُهُمْ وبُنْيَتُهُمْ، وحَمَلَ عليهِمْ أموراً غيرَ شاقَّةٍ مُوافِقَةً لِما عليهِ أمْرُ مَعاشِهِمْ وطِباعِهِمْ وإنْ بَعُدَ، ونَأى عنهُمْ.

والرابعُ: أنهُ لم يَجْعَلْ تَوبَتَهُمْ عمّا ارْتَكَبُوا مِنَ المَعاصي والمآثِمِ قَتْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً وإهلاكَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً على ما جَعَلَ ذلكَ بقومٍ [حينَ قالَ موسى لقومِهِ][3]: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ولو كَلَّفَ ذلكَ كانَ حَرَجاً في الدينِ وأمثالَ ذلكَ.

والخامسُ: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي مِنْ شَكٍّ وشُبَهٍ، أي قد أزاحَ عنكُمُ الشُّبَهَ والشَّكَّ بالحُجَجِ والبراهينِ التي أقامَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: على[4] الأمرِ أنِ الزَمُوا مِلَّةَ إبراهيمَ.

والثاني: أنَّ هذا الذي ذُكِرَ هو مِلَّةُ أبيكُمْ إبراهيمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ. قالَ عامَّةُ أهْلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي اللهُ سَمّاكُمُ المسلمينَ، وقالَ بعضُهُمْ: إبراهيمُ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ حينَ[5] قالَ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ورسولُ اللهِ محمدٌ ﷺ كانَ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ، وقد دعا لهُ ولِذُرِّيَّتِهِ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي في القرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأُمَمِ الذينَ كانوا/ ٣٥٣ ـ أ/ مِنْ قَبْلُ، لأنهُ ما مِنْ قومٍ وأُمَّةٍ إلّا وفيهِمْ مُسْلِمونَ مُتَّسِمونَ بهذا الاسْمِ ﴿وَفِي هَذَا﴾ في قومِهِ، أي[6] كنتمْ مُتَّسِمينَ[7] بهذا الاسْمِ في الأُمَمِ الخالِيَةِ كقولِهِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي كُنْتُمْ خيرَ أُمَّةٍ في الأُمَمِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلِ أنها تَخْرُجُ في هذا الوقتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى: لَكُمْ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ. فَعَلَى ذلِكَ جائزٌ في هذا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي لكُمْ.

ويكونُ تأويلُهُ: يكونُ الرسولُ لكمْ شهيداً بالتصديقِ لهُ ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بالتصديقِ لرسولِ اللهِ إذا صَدَّقْتُمْ إياهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ تأويلُهُ: يكونُ شهيداً عليكُمْ إذا خالَفْتُموهُ، ولم تُصَدِّقوهُ، ﴿وَتَكُونُوا﴾ أنتمْ إذا صَدَّقْتُمْ رسولَكُمْ، ووافَقْتُموهُ ﴿شُهَدَاءَ عَلَى﴾ سائرِ ﴿النَّاسِ﴾ إذا كَذَّبوا رسولَهُمْ أنهمْ كَذَّبوهُ، وخالَفوهُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ اتّفاقِ قَرْنٍ حُجَّةٍ على مَنْ بَعْدَهُمْ حينَ[8] جَعَلَهُمْ شُهداءَ على مَنْ بَعْدَهُمْ ومَنْ قَبْلَهُمْ. وقد ذَكَرْنا تأويلَ الآيةِ في سورةِ البقرةِ[9].

(١) في الأصل: قطع ما لم، في م: قطع ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث قالوا لهم. (٤) ادرج قبلها في الأصل وم: إن. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: أن. (٧) في الأصل وم: متسمون. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) الآية: ٨٤.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإذا أرادَ الصلاةَ المَعْروفةَ والزَّكاةَ المَعْروفةَ فَفي الأمْرِ بإقامةِ الصلاةِ أمْرٌ بإصلاحِ [ما][1] بينَهُمْ وبَيْنَ ربِّهِمْ، وفي الزكاةِ [أمْرٌ بإصلاحٍ][2] ما بينَهُمْ وبَيْنَ الخَلْقِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي حرفِ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ: إنّ الصلاةَ تأمُرُ بالعَدْلِ، وتَنْهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكرِ.

وقولُهُ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بدينِ اللهِ، وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ إلى ما ذَكَرَ فكأنهُ يقولُ: اعْتَصِموا بالذي ذَكَرَ.

وأصلُ الاعْتِصامِ هو الالْتِجاءُ إليهِ. فكأنهُ قالَ: اعْتَصِموا بهِ مِنْ كلِّ ما نَهى عنهُ مِنَ الشرورِ وبكلِّ ما أمَرَ بهِ مِنَ الخَيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: هو مَولَى كلِّ مَنْ تَوَلّاهُ بالطاعةِ. وقالَ بعضُهُمْ: المَولَى النَّصيرُ أي هو ناصِرُكُمْ وحافِظُكُمْ ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ المانِعُ والنَّصيرُ المُنْتَصِرُ: يَنْتَصِرُ لهمْ مِنَ أعدائهِمْ، ويَمْنَعُ عنهمُ الأعداءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي ربُّكُمْ وسَيِّدُكُمْ كما يُقالُ: المَولَى العَبْدُ، هذا مَولاهُ وسَيِّدُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويكونُ في قولِهِ: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ انهُ قد بَلَّغَكُمْ ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بأنَّ الرسولَ قد بَلَّغَكُمْ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤] أي ما عَرَفوا اللهَ حقَّ مَعْرِفَتِهِ. يُقالُ في الكلامِ: ما قَدَرْتُكَ حقَّ قَدْرِكَ، أي ما عَرَفْتُكَ، وقالوا: الحَرَجُ الضِّيقُ[3] في هذا، وفي غيرِ هذا المَوضِعِ قيلَ: هو شَكٌّ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢] أي شَكٌّ. والضِّيقُ إنما يكونُ مِنَ الشَّكِّ، إذا شَكَّ في شيءٍ ضاقَ صَدْرُهُ منهُ.

قالَ أبو معاذٍ: وأصلُ الحَرَجِ في كلامِ العَرَبِ: شَجَرٌ مِنْ شوكٍ مُلْتَفٌّ، والواحدةُ حَرَجَةٌ، منهُ حَرَجَةُ سَلَمٍ، وقولُهُ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي اخْتارَكُمْ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: هو اجْتَباكُمْ، وسَمّاكُمُ المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ. وهذا يُؤَيِّدُ تأويلَ مَنْ يقولُ: هو سَمّاكُمُ المُسْلِمينَ، أي اللهُ سَمّاكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قالَ: لمْ يَفْرِضِ اللهُ على هذهِ الأمّةِ شيئاً إلّا جَعَلَ فيهِ رُخْصَةً لهمْ عندَ الاضْطِرارِ مِثْلَ التَّيَمُّمِ إذا لم تَجِدْ ماءً، [وأنْ][4] تصليَ قاعداً أو مُضْطَجِعاً في المرضِ، وتُفْطِرَ إذا كُنْتَ مريضاً. في نَحْوِ هذا ليسَتْ فريضةٌ إلّا فيها رُخْصَةٌ، ولم يكنْ مِنْ قَبْلُ ذلكَ، وهو قولُ مُقاتِلِ بْنِ حَيّانَ.

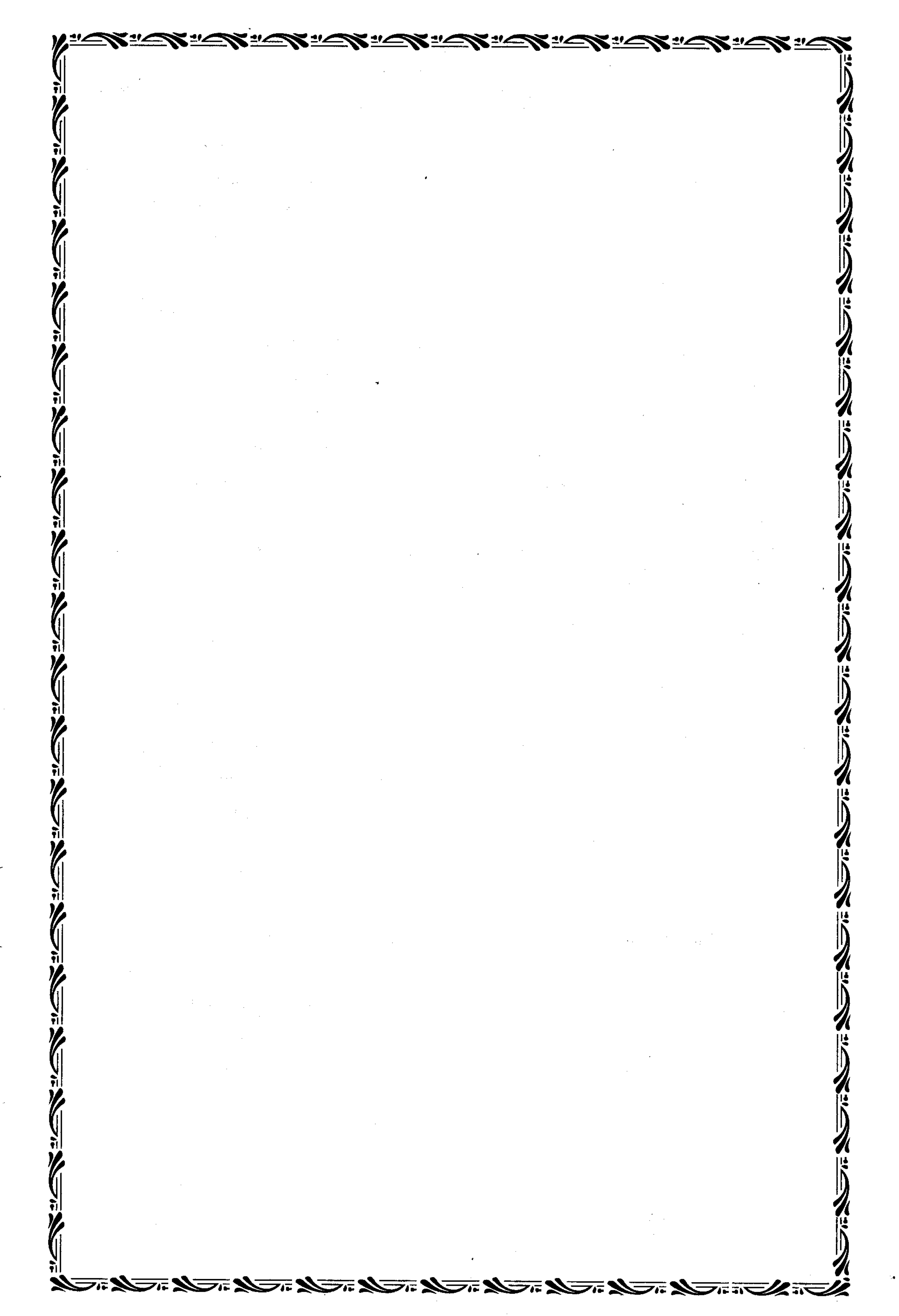
وقالَ قتادةُ: قولُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضِيقٍ. قالَ: أُعْطِيَتْ هذه الأمةُ ثلاثاً، لم يُعْطَها إلّا نَبِيٌّ: كانَ يُقالُ للنَّبِيِّ: اذْهَبْ فليسَ عليكَ حَرَجٌ، وقالَ اللهُ لهذهِ الأمّةِ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وكانَ يُقالُ للنَّبِيِّ: أنتَ شهيدٌ على قومِكَ، وقالَ اللهُ لهذهِ الأمةِ: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وكانَ يقولُ لِلنَّبِيِّ: سَلْ تُعْطَهُ، وقالَ اللهُ [لهذهِ][5] الأمةِ ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي صَلّوا للهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] يقولُ: صَلّوا لا يُصَلّونَ.

وقالَ قَتادةُ: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ قالَ: لا صَلاةَ إلّا بِرُكوعٍ، وإنَّ أقواماً أحْدَثوا بِدَعاً، يَسْجُدُ أحَدُهُمْ مِئَةَ سَجْدَةٍ لا يَرْكَعُ فيهنَّ. وكانَ يُقالُ: مِمّا أحْدَثَ الناسُ رَفْعُ الأيدي في الدعاءِ والأصواتُ عندَ المسألةِ والاخْتِصارُ في السُّجودِ. وقالَ أبو هُرَيْرَةَ: لا يَصْلُحُ سُجودٌ إلّا بِرُكوعٍ. واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ، وصلّى اللهُ على محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إصلاح. (٣) في الأصل وم: الضعيف. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.



سورة المؤمنون

وهي مكّيّةٌ أيضاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الفَلَاحُ هو البقاءُ، أي بَقِيَ المؤمنونَ، وقالَ قائلونَ: الفَلاحُ السعادةُ. وقالَ [آخرونَ][١]: الفَلاحُ الفوزُ وأمثالُهُ.

وفي[٢] قولِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دلالةٌ أنَّ مِنَ المؤمنينَ مَنْ [لم يَكنْ][٣] بهذا الوصفِ الذي وَصَفَ هؤلاءِ، وأنَّ اسْمَ الإيمانِ يَقَعُ بدونِ الذي ذَكَرَ[٤]، لأنهُ لو لم يكُنْ لِذِكْرِ ما ذَكَرَ مِنَ الخُشوعِ في صلاتِهِمْ والحِفظِ لِفُروجِهِمْ و الإعراضِ عنِ اللَّغوِ مَعْنىً، دلَّ أنهُ يكونُ مؤمناً بِغَيرِ الوَصْفِ الذي وَصَفَ هؤلاءِ. وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وقوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فَدَلَّ أنَّ فيهِمْ مَنْ ليسَ بِعَدْلٍ، وفيهِمْ مَنْ لا يُرْضَى في الشهداءِ حينَ[٥] خصَّ العَدْلَ و المَرضِيَّ في الشهادةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: الخُشوعُ، هو الخَوفُ الدائمُ اللازِمُ في القَلْبِ. وقالَ غَيرُهُ: الخُشوعُ في القَلْبِ.

وأصلُ الخُشوعِ، هو آثارُ ذُلٍّ مِنْ خوفٍ يَظْهَرُ في الوجهِ والجوارحِ كلِّها. ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ[٦]: الخُشوعُ في الصلاةِ، هو ألّا يَعْرِفَ مَنْ عَنْ يَمينِهِ وشِمالِهِ، لأنَّ ذلكَ يَشْغَلُهُ عَنِ العِلْمِ [بِما يَتْلُوهُ][٧]. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللَّغْوُ كأنهُ اسْمُ كلِّ باطلٍ، واسْمُ كلِّ ما يُلْغَى، ولا يُعْبَأُ بِهِ. أَخْبَرَ أنهمْ يُعْرِضونَ عنْ كلِّ باطلٍ وعنْ كلِّ مانُهُوا عنهُ، ويُقْبِلونَ على كلِّ طاعةٍ وكلِّ[٨] ما أُمِروا بِهِ.

الآية ٤ [وقولُهُ تعالى:][٩] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الزكاةُ الزكاةَ التي بها تَزْكو أنفُسُهُمْ عند اللهِ. وجائزٌ [أنْ تكونَ][١٠] الزكاةَ المعروفةَ المَعْهودةَ، أَخْبَرَ أنهمْ/ ٣٥٣ ـ ب/ فاعلونَ ذلكَ مُؤَدُّونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا مِنَ المؤمنينَ [إخباراً عَنْ طاعَتِهِمْ][١١] للهِ تعالى والائْتِمارِ لأمْرِهِ والرِّضا بهِ مُقابلَ ما كانَ مِنَ المُنافِقينَ مِنَ الكراهيةِ في الإنفاقِ والصلاةِ على الكَسَلِ والمُراآةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [النساء: ١٤٢] وقولِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقولِهِ[١٢]: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧] نَعَتَهُمْ بالكَسَلِ والخِلافِ وتَرْكِ الإنفاقِ والمُراآةِ في الطاعاتِ. ونَعَتَ المُؤمِنينَ بِضِدِّ ذلكَ وبالرَّغْبَةِ في أوامِرِهِ والانْتِهاءِ عَنْ مَعاصيهِ ونَواهيهِ.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ اسْتَثْنى في هذا، لأنَّ هذا ممّا يَحِلُّ في حالٍ، ويُحَرَّمُ في حالٍ. وأمّا اللَّغْوُ وما ذَكَرَ فلا[١٣] يَحِلُّ بِحالٍ، واللَّغْوُ حَرامٌ في الأحوالِ كُلِّها، وكذلكَ تَرْكُ أداءِ الأمانةِ والزكاةِ والصلاةِ مِمّا لا يَحِلُّ تَرْكُهُ بِحالٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هؤلاء. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: في الآية. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بعض. (٧) في الأصل وم: بمن بابه. (٨) في الأصل وم: وبكل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: من الطاعة. (١٢) في الأصل وم: وقولهم. (١٣) في م: من أول الآية إلى آخرها لا.

[وقولُهُ تعالى:][(١)] ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ذَكَرَ[(٢)] ألّا تَلْحَقَهُمْ لائمةٌ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ لوجهَينِ:

أحَدُهُما: [لِرَدِّ قولِ][(٣)] الثَّنَوِيَّةِ، لأنهمْ لا يَرَونَ التَّناكُحَ، فأخبَرَ أنْ [لا لائمةَ][(٤)] في هذينِ وإنما اللّائِمَةُ في غَيرِ هذينِ.

والثاني: ذَكَرَ لإبطالِ المُتْعَةِ، لأنهُ استَثْنَى الأزواجَ وما مَلَكَتْ أيمانُهُمْ، والمُتْعَةُ لَيسَتْ في هذينِ اللَّذينِ استَثْناهُما.

ثم أخبَرَ أنْ لا لائمةَ في هذينِ، وفي ما عَداهُما لائمةٌ. والمُتْعَةُ مِمّا عدا هذينِ، وهي[(٥)] ما قالَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣]. وإلى هذا يُصْرَفُ حِفْظُ الفروجِ. وإلّا كانَ عامّةُ الناسِ يَحْفَظُونَ فُروجَهُمْ عنِ الزِّنا، ويَعْرِفونَ حُرْمَتَهُ، لكنهُمْ كانوا يَسْتَبيحونَ المُتْعَةَ والإجازةَ فيها، فَحَرَّمَ ذلكَ.

الآية ٧ ثم قالَ: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ والعادي هو المُتَجاوِزُ[(٦)] عنِ الحَدِّ الذي حُدَّ لهُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الأماناتُ العباداتِ أوِ الفرائضَ التي فُرِضَتْ عليهِمْ، راعَوها أي أدَّوها في أوقاتِها، والعُهودُ التي فيما بَينَهُمْ وبَينَ الحَقِّ راعَوها أي حَفِظوها، وأدَّوها إلى أربابِها، ولم يُضَيِّعوها واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ تكونُ [المحافظةُ على الصلاةِ][(٧)] بوجوهٍ:

أحَدُها: [يُحافِظونَ عليها][(٨)] بأركانِها وفَرائِضِها ولَوازِمِها وآدابِها.

والثاني: [يُحافِظونَ عليها][(٩)] بأسْبابِها التي جُعِلَتْ لها مِنَ الأوقاتِ والطَّهاراتِ وسَتْرِ العَوْراتِ وغَيرِها منَ الأسبابِ التي لا تقومُ الصلاةُ إلّا بها.

والثالثُ: [يُحافِظونَ عليها][(١٠)] بالخُشوعِ والوَقارِ وإظهارِ الذُّلِّ لهُ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ مِمّا نُدِبَ المُصَلّي إليهِ. وعلى ذلكَ جميعُ ما ذُكِرَ مِنَ الأماناتِ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الوارثُ هو الباقي عَنِ المُوَرِّثِ. وقالَ اللهُ ﷻ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] أي إنا نَحْنُ باقونَ عَنِ الخَلْقِ، أي يَفْنَى الخلائقُ، وهو يَبْقَى. أو يكونُ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ هكذا هو ما وَعَدَ اللهُ عبادَهُ: الجنةُ إنْ أجابوهُ، وإليها دعاهُمْ بقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] فَمَنْ تَرَكَ إجابَتَهُ يَصِرْ [إلى المُوعَدِ الذي أُوعِدَ بهِ][(١١)]. فتلكَ الوِراثةُ التي ذَكَرَ اللهُ تعالى.

وقولُهُ[(١٢)] تعالى: ﴿الْفِرْدَوْسَ﴾ قيلَ: هو بلسانِ الرومِ: بُسْتانٌ. سَمّى اللهُ تعالى الجنةَ بأسماءٍ مُختلِفَةٍ. منْها: عَدْنٌ [ومنها نَعيمٌ، ومنها مَأوى، ومنْها فِرْدَوسٌ، وهي في][(١٣)] الحقيقةِ واحدٌ، لأنَّ العَدْنَ هو المُقامُ، والنعيمُ هو ما يُنْعِمُ، ومَأوَى، فهي كذلكَ. ثم فِرْدَوسٌ وعَدْنٌ ومَأوَى نَعيمٌ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الفِرْدَوسُ رَبْوَةُ الجنةِ العُلْيا، وهي أوسَطُها وأحْسَنُها» [الترمذي ٣١٧٤] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو ما ذُكِرَ. وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][(١٤)] قالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] الخُشوعُ[(١٥)] الإقبالُ عليها. وعنِ ابْنِ عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][(١٦)] قالَ: الخُشوعُ في القَلْبِ، وأنْ تُلينَ كَنَفَكَ لِلْمَرْءِ المُسْلِمِ، وألّا تَلْتَفِتَ في صلاتِكَ. وقيلَ: التواضُعُ، وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ حُرٍّ، أي مِنْ أجْوَدِ الطينِ. ذَكَرَ مَرَّةً ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ومَرَّةً ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦و٢٨و٣٣] ومَرَّةً قالَ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] ومَرَّةً

---

(١) ساقطة من م. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لقول. (٤) في الأصل: الائمة، في م: اللائمة. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: المجازي. (٧) في الأصل وم: محافظة الصلاة. (٨) في الأصل وم: يحافظونها. (٩) في الأصل وم: يحافظونها. (١٠) في الأصل وم: يحافظونها. (١١) في الأصل وم: الموعد الذي وعد له إن أجاب من أجابه. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ونعيم ومأوى وفردوس وفي. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: قال. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

[قال][1]: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ونَحوَهُ، وهو آدمُ ﷺ وذلكَ على تَغييرِ الأحوالِ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ أي ثم خَلَقْنا وَلَدَهُ وذُرِّيَّتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ. أخْبَرَ [عن][2] أصْلِ ما خَلَقَ آدمَ منهُ، وأصلِ ما خَلَقَ وَلَدَهُ منهُ، وهي النُّطْفَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الرَّحِمُ. وجائزٌ أنْ يكونَ القرارُ هو صُلْبَ الرجلِ، لأنَّ النُّطْفَةَ لا تُخْلَقُ في الصُّلْبِ أوّلَ ما يُخْلَقُ الإنسانُ، ولكنْ تُجْعَلُ فيهِ مِنْ بَعْدُ. فيكونُ الصُّلْبُ قَرارَها ومكانَها إلى وَقْتِ خُروجِها منهُ إلى الرَّحِمِ. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨] الرَّحِمُ. وقالَ بعضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ الرَّحِمُ، والمُسْتَوْدَعُ الصُّلْبُ.

وجائزٌ أنْ يكونا جميعاً واحداً، أيُّهما كانَ الرَّحِمَ أوِ الصُّلْبَ، لأنَّ كِلَيْهِما قَرارٌ، وما يَسْتوعِبُ فيه.

وقالَ ابنُ عباسٍ وغَيْرُه: السُّلالةُ صَفْوَةُ الماءِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ والنُّطْفَةُ هي المَعْروفةُ. والعَلَقَةُ: الدَّمُ[3]. والمُضْغَةُ القِطْعَةُ مِنَ اللحمِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ يُخْبِرُهمْ عَنْ تَحويلِهِ إياهُمْ و تَقْليبِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ لِوُجوهٍ:

أحَدُها: يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ وعلْمِهِ وتَدْبيرِهِ، لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ العَلَقَةِ مِنَ النُّطْفَةِ، ما لوِ اجْتَمَعَ الخَلائقُ جميعاً على أنْ يَعْرِفوا سَبَبَ خَلْقِ هذا مَعَ إحاطَةِ عِلْمِهِمْ أنْ ليسَ فيها مِنْ آثارِ العَلَقَةِ شيءٌ، ما قَدَروا على ذلكَ، وعلى ذلكَ جميعُ ما ذَكَرَ [العَلَقَةُ مِنَ النُّطْفَةِ][4] والمُضْغَةُ مِنَ العَلَقَةِ، والعَظْمُ مِنَ المُضْغَةِ، والإنسانُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ؛ يُخْبِرُ[5] أنه قادرٌ بذاتِهِ.

فَمَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على إنشائِهِمْ مِنَ الأصلِ مِنْ لا شيءٍ، ويَقْدِرُ على إحيائِهِمْ بَعْدَ ما صاروا تراباً. والأُعجوبَةُ في خَلْقِ الإنسانِ ممّا ذَكَرَ مِنَ النُّطْفَةِ والعَلَقَةِ والمُضْغَةِ، ليسَ بدونِ خَلْقِهِ إياهُمْ مِنَ الترابِ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

والثاني[6]: فيهِ دلالةُ عِلْمِهِ الذاتيِّ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على تحويلِهِمْ من حالٍ إلى الحالِ[7] التي ذَكَرَ في الظُّلُماتِ الثلاثِ دلَّ أنهُ عالِمٌ بذاتِهِ، لا بِعِلْمٍ مُسْتَفادٍ مِنْ أحدٍ، ولا قُوّةٍ مُكْتَسَبَةٍ، ولكنهُ بالعِلْمِ الذاتيِّ والقُوّةِ الذاتيّةِ، لأنَّ مِنْ عِلْمِهِ يُسْتَفادُ، ومِنْ قُوّتِهِ يُسْتَفادُ[ويُكْتَسَبُ، لا يَبْلُغُ أحَدٌ][8] ذلكَ.

والثالثُ[9]: فيهِ دلالةُ تَدْبيرِهِ لِخُروجِ الخَلْقِ جميعاً وتوالُدِهِمْ مِنْ أوّلِ أمْرِهِمْ إلى آخرِ ما يَنْتَهونَ على جَرْيٍ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ على غَيرِ تَغْييرٍ في التوالُدِ والتَّناسُلِ الذي جَعَلَ فيهِمْ.

وكذلكَ جميعُ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ النباتُ ومِنَ الأشجارِ الأوراقُ في كلِّ عامٍ وفي كلِّ سنةٍ، يَخْرُجُ على جَرْيَةٍ واحدةٍ وسَنَنٍ واحدٍ، لا يَتَغَيَّرُ، ولا يَتَفاوَتُ وَقْتُ خُروجِهِ. بل على تقديرٍ واحدٍ وميزانٍ واحدٍ. دلَّ أنهُ على تَدْبيرِ ذاتِ خَرْجَ، لا على الجُزافِ. وباللهِ الحَولُ والقُوّةُ.

والرابعُ[10]: في ما ذَكَرَ مِنْ تحويلِهِ إياهمْ وتَقْليبِهِمْ[11] مِنْ حالٍ إلى [حالٍ][12] دلالةُ أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ لأنفُسِهِمْ، وأنَّ مَنْ أنشأَ مِنَ العالَمِ سِواهُمْ إنما أنشأَهُ لهمْ، وأنشأَ أنْفُسَهُمْ لِعاقبةٍ. لأنهُ لو كانَ أنشأَ إياهُمْ لأنفُسِهِمْ ولِلْفَناءِ الذي ذَكَرَ في قولِهِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] لَكانَ يَتْرُكُهُمْ على حالٍ واحدةٍ، ولا يُحَوِّلُهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

فإذا حَوَّلَهُمْ وقَلَّبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ دلَّ أنهُ لا لِلْمَوتِ الذي ذَكَرَ خَلَقَهُمْ خاصّةً بقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ/ ٣٥٤ ـ أ/ لَمَيِّتُونَ﴾ ولكنْ لعاقِبَةٍ تُقْصَدُ، وهي[13] البقاءُ الدائمُ [الذي][14] لا فناءَ فيهِ، وهو [ما][15] ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: الدم. (٤) في الأصل من العلقة من النطفة، في م: من النطفة و المضغة. (٥) في الأصل وم: على. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: حال. (٨) في الأصل وم: ومكتسبة لا يبلغ. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: وتقلب. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: و هو. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أمّا [أهلُ][1] التأويل فَمِنهُمْ مَنْ قال: نَفَخَ الرُّوحَ فيهِ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنباتُ الشَّعْرِ ونَحْوُهُ، وهو قولُ قَتادَة وغَيرِهِ [وعَنِ الحَسَنِ وغَيرِهِ][2]: ذَكَرٌ أو أُنثى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ غَيرَ ما قالَ هؤلاءِ، وهو إظهارُ الجَوارِحِ والأعضاءِ وتركيبُها ما فيهِ دلالةُ [ذلكَ][3] لأنهُ أخبَرَ أنهُ يُقَلِّبُهُ شيئاً واحداً مُصَمَّتاً، ليسَ بِهِ هذهِ الجَوارِحُ والأعضاءُ، إنما يكونُ فيهِ آثارُها لا أعيُنُها، فَيُرَكِّبُ فيهِ أعْيُنَ الجَوارِحِ والأعضاءِ حتى يكونَ إنساناً. فذلكَ هو إنشاءُ خَلْقٍ آخَرَ، ويكونُ نَفْخُ الروحِ ونَبْتُ الشعرِ في تركيبِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ومَنْ يُنكِرُ خَلْقَ الشيءِ لا مِنْ شيءٍ، أو يقولُ بِقِدَمِ العالَمِ، إنما يُنكِرُ ذلكَ لِما لم يَرَ في الشاهِدِ صُنْعَ شيءٍ لا مِنْ شَيءٍ، فَيُقالُ لهُ: وهل رَأيتَ إنشاءَ شيءٍ مِنْ لا شَيءٍ على إتلافِ الأصلِ حتى لا يَبْقَى لهُ أثرٌ. فإذا لم تَرَ هذا في الشاهِدِ، وقد رَأيتَ في الغائبِ إنشاءَ شَيءٍ مِنْ لا شَيءٍ على إتلافِ الأوَّلِ منهُ نَحْوَ النُّطْفَةِ تصيرُ عَلَقَةً على إتْلافِ النُّطْفَةِ فيهِ، ونحوَ العَلَقَةِ تصيرُ مُضْغَةً على إتلافِ العَلَقَةِ فيها إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. كلُّ ذلكَ مُنْشَأً مِنْ آخَرَ. إنما كانَ بَعْدَ إتلافِ الأصلِ. فَهَلّا دلَّ[4] ذلكَ أنَّ عَدَمَ الإنشاءِ في الشاهِدِ لا مِنْ شَيءٍ، لا يَدُلُّ على عَدَمِهِ في الغائبِ أنهُ حينَ[5] قَدَرَ [على][6] هذا يَقْدِرُ على كُلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يَستَدِلُّ على أنهُ إذا لم يكُنْ سِواهُ خالقاً لم يكُنْ لقولِهِ: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ معنى قولِهِ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١ و...] وقولِهِ[7]: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ونَحْوِهِ. وإنما قالَ هذا لِما يكونُ سِواهُ رحيماً حكيماً كريماً، فأخبَرَ أنهُ ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ و ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. فَعَلَى ذلكَ ما قالَ: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

ولكنْ جائزٌ القولُ بِمِثْلِ هذا عندَ الناسِ على غَيرِ إثباتِ آخَرَ سِواهُ في ذلكَ حقيقةً. وهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ مِمّا تَنسُبونَ أنْتُمْ إليهِ، وتَجعَلُونَهُ خالقاً عندَكُمْ كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]. فإبراهيمُ[8] لم يُسَمِّ مَعْبودَهُمُ الذي[9] عَبَدُوهُ إلهاً على جَعْلِ الألوهيَّةِ لهُ. ولكنْ على ما سَمَّوهُ هُمْ، ونَسَبوا الألوهيَّةَ إليهِ. وكذلكَ قولُ موسى حينَ[10] قالَ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] على ما عندَهُمْ، ليسَ على تَسْمِيَةِ الآلِهَةِ لهُ حقيقةً.

دلَّ ما ذَكَرْنا على أنَّ تَسْمِيَةَ ما ذَكَرَ وذِكْرَهُ يجوزُ، وإنْ لم يكنْ هنالكَ سِواهُ إلهاً خالقاً. وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ليسَ على أنَّ لهمْ شُفَعاءَ، يَشْفَعونَ لهمْ، ولكنْ لا شُفَعاءَ لهمْ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرْنا.

والثاني: تأويلُ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي لو جازَ أن يكونَ خالقٌ آخَرُ سِواهُ لكانَ[11] هو أحْسَنَ الخالِقِينَ.

ولكنْ لا يَجوزُ. وهو كقولِهِ: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] أي لو جازَ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمّا ذَكَرَ. لكنْ لا يَجوزُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي لو جازَ أنْ يكونَ كذا لكانَ كذا ليسَ على أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١] أي لو جازَ أنْ يكونَ معهُ إلهٌ لَذَهَبَ بما ذَكَرَ. لكنْ لا يَجوزُ. فَعَلَى ذلك قولُهُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي لو جازَ أنْ يكونَ هنالكَ خالقٌ غَيرُهُ لَكانَ هو أحْسَنَ الخالِقينَ. ولكنْ لا يَجوزُ. واللهُ المُوَفِّقُ.

والثالثُ: ذَكَرَ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لِما أنَّ العَرَبَ تُسَمّي كلَّ صانِعِ شيءٍ خالقاً. فَخَرَّجَ الذِّكْرُ لهمْ على ما يُسَمّونَهُ[12]

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كل. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: الذين. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لكن. (١٢) في الأصل وم: يسموه.

هِمْ، ليسَ على حقيقَةِ الخَلْقِ لِمَنْ دونَهُ كقولِ عيسى حينَ[1] قالَ ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ [آل عمران: ٤٩] أو أنْ ذَكَرَ أنَّ العالَمَ، أصلُهُ مِنْ أربعِ طَبائِعَ: مِنَ الحرارةِ والبُرودةِ واليُبوسَةِ والرُّطوبَةِ.

أو يكونُ كقولِ[2] بَعْضِ الفلاسِفَةِ: إنّ العالَمَ، أصلُهُ مِنْ أربعٍ أو مِنْ خَمْسٍ: مِنَ الماءِ والأرضِ والنارِ وغَيرِهِ.

فأخبَرَ أنهُ ليسَ كذا، ولكنْ هو خالِقُهُمْ لا مِنَ الأشياءِ التي تَوَهَّمُوا هُمْ.

وعلى قولِ مَنْ يقولُ: إنهُ [لو][3] يكونُ غَيرُهُ خالقاً لَكانَ الخَلْقُ غَيرَ دالٍّ على الخالقِ. وقد جَعَلَ اللهُ الخَلْقَ سَبَباً لِمَعْرِفَةِ الخالقِ. فلو كانَ غَيرُهُ خالقاً لَكانَ الخَلْقُ غَيرَ دالٍّ على مَعْرِفَةِ الخالقِ لأنهُ قالَ: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الرعد: ١٦]

أخبَرَ أنهُ لو كانَ سِواهُ في ذلكَ لَتَشابَهَ الخَلْقُ عليهِمْ، فإذا تَشابَهَ لم يكُنْ سَبَباً لِمَعْرِفَةِ ما أخبَرَ في إثباتِ عَدَدِ الآلهةِ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] فإذنْ بَطَلَ هذا، ولم يَجُزْ عَدَدُ الآلهةِ و إثباتُ الألوهِيَّةِ لِغَيرِهِ. فَعَلَى ذلكَ في الخَلْقِ على الوُجوهِ [التي ذَكَرْناها][4].

الآيتان ١٥ و١٦ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ قد ذَكَرْنا فيما تَقَدَّمَ أنَّ المَقصودَ مِنْ خَلْقِ هذا العالَمِ لم يَكُنِ الإماتَةَ والإفناءَ، ولكنَّ [المَقصودَ][5] عاقِبَةٌ، تَأَمُّلٌ، وتُقصَدُ، حينَ[6] قَلَبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ثم لم يَتْرُكْهُمْ على حالةٍ واحدةٍ.

فلو كانَ المَقْصودُ مِنْ خَلْقِهِمُ الفَناءَ والهَلاكَ، لا غَيرَ، لَكانَ تَرَكَهُمْ على حالٍ واحدةٍ، ولم يُقَلِّبْهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ. فَدَلَّ التَّحْويلُ والتَّقْليبُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ على أنَّ المَقْصودَ مِنَ الخَلْقِ العاقبةُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ إخبَرَ أنَّ خَلْقَهُمْ، بلا عاقِبَةٍ، يُقْصَدُ بها، عَبَثٌ حينَ[7] قالَ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ خَلْقَهُمْ لا لِلرُّجوعِ إليهِ عَبَثاً، وقالَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ الآية [النحل: ٩٢] صَيَّرَ نَقْضَ الغَزْلِ بَعْدَ إبرامِهِ وقُوَّتِهِ سَفَهاً منها.

فلا جائزٌ أنْ يُسَفَّهَ تلكَ المرأةَ بِنَقْضِ غَزْلِها بَعْدَ الإحكامِ والإبرامِ بلا نَفْعٍ يكونُ لها، ثم هو يَفْعَلُ ذلكَ، إذْ خَلْقُ الخَلْقِ لِلْفَناءِ والهلاكِ خاصَّةً عَبَثٌ ولَهْوٌ. وعلى ذلكَ بِناءُ البناءِ في الشاهدِ لا لِعاقِبَةٍ ومَنْفَعَةٍ، ولكنْ لِلْهَدْمِ والنَّقْضِ سَفَهٌ ولَعِبٌ. لذلكَ قُلْنا: إنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لا لِلْمَوتِ خاصَّةً، ولكنْ لِما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ أي تُحْيَونَ.

قالَ القُتَبِيُّ [في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢]][8] يُقال لِلْوَلَدِ: سُلالَةُ أبيهِ، ولِلْخَمْرِ سُلالَةٌ، ويُقالُ: إنما جَعَلَ آدَمَ مِنْ سُلالَةٍ لأنهُ سُلَّ مِنْ كلِّ تُرْبَةٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: السُّلالَةُ: الخالصُ مِنْ كُلٍّ. قالَ أبو مُعاذٍ: النَّسْلُ الوَلَدُ يُنْسَلُ مِنْ [تَحْتِ][9] كلِّ شَعْرَةٍ. وقالَ القُتَبِيُّ: المُضْغَةُ اللحمةُ الصغيرةُ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها بِقَدْرِ ما يُمْضَغُ كما قيلَ: غُرْفَةٌ بِقَدْرِ ما يُغْرَفُ. وقولُهُ: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ أي [مكانٍ حَريزٍ][10] وهو الرَّحِمُ أو الصُّلْبُ، أيُّهما كانَ فهو ما وَصَفَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَبْعَ سمواتٍ. وقالَ بعضُهُمْ: سَبْعَةَ أفلاكٍ.

يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، أيُّهما كانَ السمواتِ أو الأفلاكَ التي جَعَلَ لأمرِ[11] الخَلْقِ ولِحوائِجِهِمْ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: يُخْبِرُ عَنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ وغِناهُ أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ ما ذَكَرَ وإنشائِهِ بلا سَبَبٍ قادرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شيءٍ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لقول. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الذي ذكرناه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: مكانا حريزا. (١١) من م، في الأصل: الأمر.

والثاني: أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا يَقْدِرُ على بَعْثِهِمْ وإحيائِهِمْ بَعْدَ الموتِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي سَبْعَ سمواتٍ، كلُّ سماءٍ طريقةٌ، ويُقالُ: هي الأفلاكُ، كلُّ واحدٍ طريقٌ، وإنما سَمّى طرائقَ لأنَّ بَعْضَها فَوقَ بَعْضٍ، يُقالُ طارَقْتُ الشيءَ إذا جَعَلْتُ بَعْضَهُ على بعضٍ. ويُقالُ: ريشُ [الطائِرِ][1] طرائقُ. وغَيرُهُ قالَ: طرائقُ أهواءٌ مُخْتَلِفَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي لم نَخْلُقْهُمْ على جَهْلٍ/ ٣٥٤ ـ ب/ مِنّا بأحوالِهِمْ، ولكنْ على عِلْمٍ مِنّا بذلكَ. ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ خَلْقُهُ إيّاهُمْ على عِلْمٍ منهُ، ثم يَخْلُقُهُمْ لِلْفَناءِ لا للعاقِبَةِ تُتَأَمَّلُ. لأنَّ مَنْ فَعَلَ هذا في الشاهِدِ فإنما يَفْعَلُ إمّا لِلْجَهْلِ أو لِحاجَةٍ، واللهُ يَتعالى عنْ ذلكَ كلِّهِ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ خَلْقَ ما ذَكَرَ. أي إذا عَرَفْتُمْ أنَّ خَلْقَ هذهِ الأشياءِ لا لأنفُسِها ولكنْ لأنفُسِكُمْ ولِمَنافِعِكُمْ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ خَلْقُها لكُمْ بِلا مِحْنَةٍ ولا ابْتِلاءٍ. فإنْ ثَبَتَتِ المِحْنَةُ فيكُمْ ثَبَتَ الثوابُ والعقابُ. فإذا ثَبَتَ [هذا ثَبَتَ][2] البعثُ والحياةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ بِعِلْمٍ منّا. وقالَ بعضُهُمْ: ما تَقَعُ لهمُ الحاجةُ والكِفايَةُ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي مَعْلُومٍ مُقَدَّرٍ، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتَأَخَّرُ، ولا يَزْدادُ، ولا يَنْتَقِصُ. ولكنْ على ما قَدَّرَ. وكذلكَ جميعُ الأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَذْكُرُ هذا، ويُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على اسْتِنْزالِ الماءِ مِنَ السماءِ يَقْدِرُ على البَعْثِ وعلى خَلْقِ الشيءِ لا مِنْ شيءٍ، إذْ لا أحَدَ مِنَ الخَلائِقِ يَقْدِرُ على ذلكَ إلّا بالحِيَلِ التي عَلَّمَهُ اللهُ. أو[3] يقولُ: إنهُ حينَ[4] جَعَلَ مَنافِعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ [السماءِ][5] ومَنافعَ السماءِ [مُتَّصِلَةً][6] بمنافِعِ الأرضِ [مَعَ بُعْدِ][7] ما بَيْنَهُما دَلَّ اتِّصالُ مَنافِعِ أحدِهِما بالآخَرِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ، ومُدَبِّرَهُما واحدٌ عالمٌ بذاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ الآية [الملك: ٣٠].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماءِ ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي الكرومِ [يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ][8] التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنَ الماءِ الذي بِهِ حياةُ الأبدانِ والأشياءِ جَميعاً لِيَسْتَأْدِيَ بهِ شُكْرَهُ وعبادَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجَنّاتِ حينَ[9] ذَكَرَ أنهُ أنشأها لنا ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ ففيهِ حُجَّةٌ لأبي حَنيفَةَ[10]، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ مَنْ حَلَفَ ألّا يأكُلَ فاكِهَةً فأكَلَ عِنَباً لم يَحْنَثْ لأنَّهُ[11] ذَكَرَ النَّخيلَ والأعنابَ، وذَكَرَ فيها الفواكِهَ على حِدَةٍ، وإنْ كانَ يَعْني بِهِ النَّخيلَ والأعنابَ، فليسَ فيهِ حُجَّةٌ لهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي أنْشَأْنا لَكُمْ أيضاً شَجَرَةً في طورِ سيناءَ.

ثم الشجرةُ التي تكونُ في الجبالِ، لا صُنْعَ لِلْخَلْقِ في إنباتِها، وما يكونُ في الجِنانِ والبَساتينِ إنّما يكونُ بإنْباتِ الخَلْقِ. ثم أضافَ كِلَيهِما: ما يكونُ لِلْخَلْقِ فيهِ صُنْعٌ، وما لا يكونُ. دلَّ إضافةُ ذلكَ إليهِ كلِّهُ على أنَّ [للهِ في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً][12] وأنَّ جميعَ ما يكونُ إنما يكونُ بِصُنْعٍ منهُ ولُطْفٍ، ويُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنْ إنشاءِ الجِنانِ لهمْ والنخيلِ والأعنابِ والفَواكِهِ التي ذَكَرَ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شكرَهُ.

وفيهِ دلالةُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ حينَ[13] أنشأَ الشَّجَرَةَ، وأخرَجَها مِنَ الجَبَلِ، وهو أشَدُّ الأشياءِ وأصْلَبُها، [ثم أنشأَ][14] في تلكَ الشَّجَرَةِ الدُّهْنَ، وهو ألْيَنُ الأشياءِ وألْطَفُها. فَيُخْبِرُ أنَّ [مَنْ][15] قَدَرَ على إخراجِ ألْيَنِ الأشياءِ مِنْ أشَدِّها وأصْلَبِها لا يُعْجِزُهُ شيءٌ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: أن يكون. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: لبعد. (٨) في الأصل وم: يذكر نعمة الله. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، في الأصل: يوسف. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: الله في فعل العباد صنع. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وفيه أنْ لا بأسَ بِقِرانِ شيءٍ إلى شيءٍ، فَيُؤْكَلانِ[1] جميعاً، وضَمِّ بَعْضِهِ[2] إلى بَعْضٍ، فَيُجْمَعُ في الأكلِ حينَ[3] قالَ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ وهو الإدامُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ بالسُّرْيانيَّةِ، والسِّيناءُ الحَسَنُ بالحَبَشيَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ وما ذُكِرَ، والسِّيناءُ الشَّجَرَةُ الحسناءُ. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ هو الجَبَلُ الذي كَلَّمَ اللهُ موسى [مِنْ جانِبِهِ][4] وأوحَى إليهِ، والشَّجَرَةُ الزيتونَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: السِّيناءُ الحِجارةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ، والسِّيناءُ المُبارَكُ بما أُوحِيَ إلى موسى. وقالَ بعضُهُمْ: الطُّورُ الجَبَلُ والسِّيناءُ شَجَرٌ حَوْلَهُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وحَفْصَةَ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ تُخْرِجُ الدهنَ ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾. قالَ بعضُهُمْ: تُخْرِجُ الثَّمَرَ. قالَ أبو مُعاذٍ: أَنْبَتَ النَّباتُ، ونَبَتَ لُغَتانِ كَقولِكَ: أَسْرَى، وسَرَى. وقالَ زهيرٌ:

[رَأَيْتُ ذَوِي الحاجاتِ حَوْلَ بُيوتِهِمْ ... قَطيناً لهمْ حتى][5] إذا أَنْبَتَ البَقْلُ[6]

قالَ الكِسائيُّ: تقولُ: خَرَجْتُ بِزَيدٍ، وأَخْرَجْتُ زيداً. ولا تقولُ: أَخْرَجْتُ بزيدٍ إلّا أنْ تقولَ: أَخْرَجْتُ بِزَيدٍ عَمْراً.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ مِثْلِ الصِّباغِ كما يُقالُ: دِبْغٌ ودِباغٌ[7]، ولِبْسٌ ولِباسٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ أي الصِّباغُ، وهو ما اصْطَبَغْتَ بهِ مِنْ شيءٍ، أي غَمَرْتَهُ فيهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وفي[8] سورةِ النحلِ: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [الآية: ٢١] قالَ بعضُهُمْ: إنما ذَكَرَهُ على الفَرْدِ والوُحْدانِ، وفي ما ذَكَرَهُ على التَّأْنيثِ [أرادَ بِهِ][9] الجمْعَ. وقالَ بعضُهُمْ في ما ذَكَرَهُ بالتَّذكيرِ أرادَ بِهِ جِنْساً مِنَ الأنعامِ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي﴾ بُطونِهِ، وهذا أشْبَهُ. وقد ذَكَرْنا هذا فيما تَقَدَّمَ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ وَجْهُ[10] العبرةِ فيها مِنْ وجهَيْنِ:

[أحَدُهُما][11]: ما قالَ ابْنُ عباسٍ، وهو ما ذَكَرَ ﷺ ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ الآية [النحل: ٦٦] ففي ذلكَ عِبْرَةٌ ودلالةٌ على وَحْدانِيَّتِهِ و رُبوبِيَّتِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وتَدْبيرِهِ ولُطْفِهِ، إذْ ليسَ شيءٌ منها إلّا وفيهِ[12] دلالةُ وَحْدانِيَّتِهِ و رُبوبِيَّتِهِ ودلالةُ عِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وتَدْبيرِهِ.

[والثاني][13]: فيهِ أنهُ لم يُنْشِئْ هذهِ الأنعامَ لأنفُسِها، ولكنْ أنْشأَها للبَشَرِ حينَ[14] أخْبَرَ أنهُ سَخَّرَها لنا لِيَمْتَحِنَهُمْ بها.

ثم اخْتُلِفَ في الأنعامِ: قالَ مُقاتِلٌ الأنعامُ كلُّ شيءٍ يُؤكَلُ لَحْمُهُ، ويُشْرَبُ لَبَنُهُ. وما لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ، ولا يُشْرَبُ لَبَنُهُ فَليسَ مِنَ الأنعامِ. وقالَ أبو مُعاذٍ: إنَّ مِنَ الأنعامِ ما لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ، ولا يُشْرَبُ لَبَنُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الأنعامُ كلُّ بَهيمةٍ حتى الوحشُ. والأشْبَهُ أنْ تكونَ الأنعامُ هي[15] الإبلَ، ولكنا لا نَعْلَمُ حقيقةً، إنما هو اللسانُ، فهو على ما يُسَمّيهِ أهلُ اللسانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ قيلَ: مِنَ الحَمولَةِ وغَيرِها، وقد ذَكَرْنا هذا في سورةِ النحلِ[16].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ في ما سَخَّرَ لهمْ مِنَ الأنعامِ والسفنِ لِيَسْتَأْدِيَ بهِ شُكْرَهُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ يُرَدِّدُ ﷺ أنباءَ أولي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وأخبارَهُمْ، ويُكَرِّرُها على رسولِ اللهِ ليكونَ أبداً يَقْظانَ[17] مُنْتَبِهاً، ويَعْرِفَ أنْ كيفَ عامَلَ أولو العَزْمِ قَوْمَهُمْ؟ كيفَ صَبَرَ أولو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ على أذَى قَوْمِهِمْ وتَكْذيبِهِمْ إياهُمْ لِيُعامِلَ[18] هو قومَهُ مِثْلَ مُعامَلَتِهِمْ، ويَصْبِرَ على

---

(١) من م، في الأصل: فهو كان. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: بعضهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) انظر الديوان ص ١١١. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: على. (١٠) في الأصل وم: ووجه. (١١) في الأصل وم: وجه أحدها. (١٢) في الأصل وم: و فيها. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: هو. (١٦) في تفسير الآية: ١٦. (١٧) في الأصل وم: يقظانا. (١٨) في الأصل وم: ليتعامل.

أذى قومِهِ مثلَ ما صَبَرَ أولئكَ على أذى قومِهِمْ وتكذيبِهِمْ إياهُمْ. لهذا ما يُرَدِّدُ، ويُكَرِّرُ أنباءَهُمْ عليهِ، ويَعْرِفُ قومُهُ أيضاً ألّا يَظْفَروا[1] بما يأمُلونَ مِنْ تكذيبِهِمُ العاقِبَةَ. بلِ العاقبةُ تَصيرُ لهُ على ما صارَتْ لِأُولي العَزْمِ مِنَ الرسلِ لا لِقومِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ؟.

[والثاني: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾][2] مخالفة رسولِهِ؟.

[والثالث][3]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادةَ غيرِ اللهِ؟.

[والرابعُ[4]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَهُ ونَقمَتَهُ ووَعيدَهُ][5].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا الذي قالوا، هو مُتَناقِضٌ، لأنهم قالوا: إنهُ ﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بما ادّعَى مِنَ الرسالةِ والإجابةِ إلى [ما][6] دعاهُمْ. ثم هُمْ أعني الرُّؤساء منهمْ والقادةَ ادَّعَوا لأنفُسِهِمُ الفَضلَ بما استَبَقوا هُمُ السَّفَلَةَ، وطَلَبوا منهُمُ المُوافَقَةَ لهمْ والإجابةَ، وهمْ بَشَرٌ أمثالُهُمْ. فذلكَ تناقُضٌ في القولِ.

ثم أقَرّوا بِتَفضيلِ بعضِ الخَلْقِ على بعضٍ، وعَرَفوا قُدْرَةَ اللهِ على ذلكَ حينَ[7] قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ فَمَنْ[8] قَدَرَ على تَفْضيلِ/ ٣٥٥ - أ/ [الملائكةِ على البَشَرِ قَدَرَ على تَفْضيلِ][9] بعضِ البَشَرِ على بَعْضٍ. ثم أخبَرَ عَنْ نوحٍ أنهُ لا يُريدُ بما ادّعَى مِنَ الرسالةِ التَّفَضُّلَ عليهِمْ، ولكنْ يُريدُ النُّصْحَ لهمْ والإشفاقَ عليهِمْ حينَ[10] قالَ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩ والشعراء: ١٣٥] وقالَ[11]: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ونَحْوَ ما قالَ أخبَرَ أنهُ إنما أرادَ النُّصحَ والشفَقَةَ لا التَّفَضُّلَ الذي قالوا هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ هذا قولُهُمْ وقد كَذَبوا في قولِهِمْ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قد عَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جنونٌ [ولكنْ أرادوا التَّلبيسَ والتَّمويهَ على قومِهِمْ حينَ[12] خالَفَهُمْ في جميعِ أمورِهِمْ، وعادَى الرُّؤساءَ منهمْ والقادةَ، ويقولونَ: ما يَفْعَلُ هذا إلّا لِجُنونٍ][13] فيهِ وآفَةٍ أصابَتْهُ في عَقْلِهِ، وإلّا عَرَفوا همْ في أنفسِهِمْ، أعني القادةَ، أنهُ ليسَ بِمَجْنونٍ، ولكنْ أرادوا التَّمويهَ على قومِهِمْ، ثم قالوا: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لسْنا ندري ما أرادوا بالحينِ: أردوا الموتَ أو وقْتَ ارْتِفاعِ ما قالوا فيهِ مِنَ الجنونِ أو أرادوا وقتاً آخَرَ.

قالَ مُقاتِلٌ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بالرسالةِ، وليسَ عليكُمْ فضلٌ في شيءٍ، فَتَتَّبِعونَهُ. وقولُهُ: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بالعذابِ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ويُقالُ: ما سَمِعْنا التوحيدَ ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ كما يَدْعُو نوحٌ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ لم يَدْعُ عليهِمْ بأوّلِ ما كَذَّبوا، وإنما دعا عليهِمْ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ عَودِهِمْ إلى تَصديقِهِ، وهو ما قالَ: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وقالَ أهلُ التأويلِ: انْصُرْني بِتَحقيقِ ما وَعَدْتَ لهمْ مِنَ العذابِ، بأنهُ نازلٌ بهمْ في الدنيا، وعذابِهِمْ بما كَذَّبوني في قولي بأنَّ العذابَ نازلٌ بهمْ في الدنيا. أو يكونُ قولُهُ: ﴿انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أيِ اجْعَلْ ليَ الظَّفَرَ عليهِمْ بالتكذيبِ ونَحْوِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يظفرون. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في م: أو. (٥) من م، مدرجة قبل: أو ﴿أفلا تتقون﴾ عبادة غير الله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: فإن. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في م: حيث. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: بِمَنْظَرٍ منّا. وقالَ بعضُهُمْ: بِمَرْأًى منّا.

وجائزٌ أنْ يكونَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، ظنّ لمّا أمَرَ باتخاذِ الفُلْكِ أنهمْ لا يَتْرُكونَهُ أنْ يَتَّخِذَ الفُلْكَ؛ فأخبرَهُ ﷺ أنكَ تتّخِذُهُ بحيثُ نَراهُ؛ ونَنْصُرُكَ عليهِمْ بحيثُ لا يَمْلِكونَ مَنْعَكَ عنِ اتّخاذِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي بأمرِنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي إذا جاءَ المَوعودُ بأمرِنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أو أنْ يقولَ: إذا جاءَ وقتُ أمرِنا بالعذابِ، وفارَ ما ذَكَرَ أي خَرَجَ الماءُ مِنَ التَّنُّورِ، وظَهَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ قيلَ: أدْخِلْ فيها. يُقالُ: سَلَكْتُ [واسْلَكْتُ، وهو مِنَ][1] الإدخالِ كقولِهِ: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [القصص/ ٣٢] أي أدْخِلْ. وتفسيرُ ﴿فَٱسْلُكْ﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ نَعْتاً[2] لقولِهِ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ مِنَ الذَّكَرِ والأُنثى. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي كلُّ زَوجَينِ عَدَدَينِ لَونَينِ أبيضَ واسْوَدَ وطيّبٍ وخبيثٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي احْمِلْ أهْلَكَ أيضاً في السفينةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذابِ والهلاكِ، وقد ذَكَرْنا هذا في سورة هودٍ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيه. قالَ قائلونَ: إنما نهاهُ عنْ مُخاطَبَتِهِ في الذينَ ظَلَموا حينَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥] نهاهُ عَنْ أنْ يَسألَهُ. فإنْ كانَ على هذا فَقولُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ أي لا تُراجِعْني في نَجاتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ مِنَ المؤمنينَ ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ أنجاهُ اللهُ مِنَ الظَّلَمَةِ أنْ يَحمِدَ ربَّهُ على ذلكَ، يَسألُهُ النَّجاةَ إذا ابْتُلِيَ بهِمْ كما عَلَّمَ نوحاً أنْ يقولَ ما ذَكَرَ، ويَحْمَدُهُ على النَّجاةِ منهُمْ، وكما قالَ موسى حينَ خَرَجَ مِنْ عندِهِمْ خائفاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، وكما سألَتِ امْرأةُ فِرْعونَ النَّجاةَ مِنْ فِرْعونَ وقومِهِ حينَ قالتْ: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

الآية ٢٩ ثم علّمَهُ ربُّهُ أنْ يَسألَهُ الإنزالَ في مُنْزَلٍ مُبارَكٍ حينَ[4] قالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾. ثم يَحتَمِلُ سؤالُهُ المُنْزَلَ المُبارَكَ جميعَ الخيراتِ[5] والحَسَناتِ وعَمَلَ الصالحاتِ. ويَحتَمِلُ سؤالُهُ المُنْزَلَ المُبارَكَ المَوضِعَ الذي فيهِ السَّعَةُ والخِصْبُ على ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: المُبارَكُ بالماءِ والشجرِ وغيرِهِ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ دلالةُ إباحةِ سُؤالِ السَّعَةِ والخِصْبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي [إنَّ][6] في إهلاكِ قومِ نوحٍ وإغراقِهِمْ لآياتٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ بآياتٍ تَفَضُّلاً مِنّا وإحساناً سِوَى ذلكَ. ويَحتَمِلُ وَجْهاً آخرَ، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ بِسُوَرِ الآياتِ التي كانتْ.

وجائزٌ في اللغةِ إنْ بِمَعْنَى ما.

ويَحتَمِلُ وَجْهاً آخرَ، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي قدِ ابْتلاهُمْ قَبْلَ إهلاكِهِ إياهُمْ.

ولسْنا نَعْرِفُ ما حقيقةُ هذا الكلامِ؟ وما مُرادُهُ؟ واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي أدْخِلْ فيها. يُقالُ: سَلَكْتُ الخَيطَ في الإبرةِ، وأسْلَكْتُهُ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ كذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: و هو. (٢) في الأصل وم: نعت. (٣) في تفسير الآية ٤٠ (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: الخير. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ هذا مِنَ الابتلاءِ، أي الاختِبارُ. ومِنَ البَلاءِ: لَمُبْلِينَ[1].

الآيتان ٣١ و٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ عاداً وغيرَهُمْ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قالوا هوداً ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ جميعُ الأنبياءِ والرسلِ إنما بُعِثوا بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وجَعْلِ العبادةِ[2] لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَتَهُ أو عبادةَ مَنْ دونَهُ وجميعَ مَعاصيهِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي بالبَعْثِ ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ أو بَسَطْنا لهمْ في الدنيا حتى رَكِبوا المَعاصيَ. وقالَ بعضُهُمْ: المُترَفُ الغَنيُّ الطاغي. وقولُهُ تعالى: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

الآية ٣٤ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ الآية. قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهمْ تناقَضُوا[4] في قولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قولِهِمْ[5]: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ لِما أنهمْ مَنَعوا الأتباعَ عَنْ أنْ يَتَّبِعوا الرسولَ[6]، ويُطيعوهُ، لأنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، ثم طَلَبوا منهمُ الطاعةَ لهمْ والاتِّباعَ في أمورِهِمْ، وهمْ بَشَرٌ أمثالُهُمْ. فذلكَ تَناقُضٌ في القولِ وفَسادٌ.

الآيتان ٣٥ و٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ استِبْعادُ الأمرِ وإنكارُهُ، أي بَعيداً بعيداً، أي الأمرُ[7] لا يكونُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ إنْ كانَ هذا القولُ مِنَ الثَّنَوِيَّةِ والدَّهْرِيَّةِ فقولُهُمْ[8]: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ همْ بأنفسِهِمْ، لأنهمْ يقولونَ: يموتُ الإنسانُ، فَيَحْيا غيرُهُ مِنَ البَقَرِ والحُمُرِ، وغيرُهُ مِنْ تُرابِهِ إذا أُكِلَ.

وإنْ كانَ هذا القولُ مِنْ غيرِ الثَّنَوِيَّةِ فنقولُ: قولُهُمْ[9]: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموتُ نَحْنُ، ويَحْيا الأبناءُ[10]. وذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ: نَحْيا، ونَموتُ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ هذا قولُهُمْ[11].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي عنْ قريبٍ يَنْدَمونَ بتكذيبِ[13] هذا القولِ الذي قالوهُ، والإنكارِ الذي أنكَرُوهُ، لا شَكَّ في ذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]/ ٣٥٥ ـ ب/ أي وَسَّعْنا عليهمْ حتى أُترِفوا، والتُّرْفَةُ النِّعْمَةُ[14]، ومِثْلُها تُحْفَةٌ، كأنَّ المُترَفَ، هو الذي يُتْحَفُ.

وقالَ غيرُهُ: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ أي وأنْعَمْنا عليهمْ، وبَسَطْنا لهمْ. فَكُلُّهُ يَرْجِعُ إلى واحدٍ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] هذا تَبْعيدٌ للأمرِ، أي إنهُ أمرٌ بَعيدٌ على ما ذَكَرْنا أنهُ لا يكونُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ قالَ بعضُهُمْ: الغُثاءُ اليابِسُ الهامِدُ كَنَباتِ الأرضِ إذا يَبِسَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغُثاءُ هو الذي يَحْمِلُهُ السَّيْلُ [مِنَ العيدانِ][15]. قالَ أبو معاذٍ ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥] أي أسودَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غُثَاءً﴾ أي مَوتَى.

---

(١) في الأصل وم: مبلون. (٢) في الأصل وم: عبادة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تناقض. (٥) في الأصل وم: قوله.
(٦) في الأصل وم: الرسل. (٧) في الأصل وم: آمر. (٨) في الأصل وم: فقوله. (٩) في الأصل وم: قوله. (١٠) من م، في الأصل: الأنبياء.
(١١) من م، في الأصل: قوله. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: بالتكذيب عن. (١٤) في الأصل وم: منه. (١٥) في الأصل وم: بالموج.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿غُثَآءً﴾ أي كالشّيءِ المَنسِيّ الذي لا يُذكَرُ البتّةَ، لأنّ أولئكَ الفراعنةَ والأكابرَ إذا هلَكوا لم يُذكَروا البتّةَ [ولا][1] افتخرَ أحدُهُم مِنْ أولادِهِمْ بهِمْ مِنْ بَعْدِ إهلاكِ كما افتخرَ أولادُ الأنبياءِ والرُّسُلِ والصالِحينَ بآبائهِمْ وأجدادِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، وصاروا مذكورينَ إلى أبَدِ الآبِدينَ. فأمّا أولئكَ فصاروا خامِلِي الذِّكرِ كالشّيءِ الخسيسِ المَنسِيّ المَتروكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ الغُثاءُ ما ذَكَرْنا، وعلى[2] قولِ بعضِهِمْ: كالرَّميمِ الهامِدِ الذي يَحمِلُهُ السيلُ، وعلى[3] قولِ بعضِهِمْ: كالشيءِ البالي المُتغيِّرِ، وعلى [قولِ بعضِهِمْ][4]: الغُثاءُ ما ارتفَعَ على الماءِ ممّا لا يُنتفَعُ بِهِ، وكُلُّهُ واحدٌ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿غُثَآءً﴾ أي هَلْكَى كالغُثاءِ، وهو ما على السَّيْلِ مِنَ الزَّبَدِ والقَمْشِ، لأنهُ يَذهَبُ، ويتفَرَّقُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الغُثاءُ ما يَحمِلُ السَّيْلُ مِنَ العِيدانِ والبَعْرِ، والأغْثِيَةُ جميعٌ، والغُثاءُ حَمْلُ السَّيْلِ.

ثم ذَكَرَ أنفُسَ قومِ عادٍ وثَمودَ، وشبَّهَها بما ذَكَرَ مِنَ الغُثاءِ، وكذلكَ يَذكُرُ جميعَ أهلِ الشرورِ والفَسادِ، وذَكَرَ في أهلِ الخَيرِ أعمالَهُمْ لا أنفُسَهُمْ، لأنّ لهمْ أعمالَ الخَيرِ والصلاحِ، فتَجعَلُ أنفُسَهُمْ حَيّةً بالأعمالِ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤] جَعَلَ أعمالَهُمْ أحاديثَ في ما بَينَهُمْ.

وأمّا أهلُ الكُفرِ والشَّرِّ فإنهمْ[5] لا أعمالَ لهمْ تُذكَرُ، فتُذكَرُ أنفُسُهُمْ بُعْداً وسُحقاً.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ قيلَ: مِنْ بَعْدِ قومِ عادٍ وهؤلاءِ ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾.

الآية ٤٣ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ كأنهُ ذَكَرَ هذا لِما كانوا يَستَعجِلونَ العذابَ المَوعودَ والهَلاكَ الذي أُوعِدُوا. فأخبَرَ أنّ لكلّ أمةٍ أجلاً[7]، لا تَسبِقُ أجَلَها باستِعجالِ[8] مَنْ يَستَعجِلُ ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أجَلَهُمْ[9] الذي جُعِلَ لهمْ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [تِباعاً واحداً][10] بَعْدَ واحدٍ وبَعضاً[11] على إثرِ بَعْضٍ ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهَلاكِ الأوّلِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ ولِمَنْ بَقِيَ منهمْ، يعني [مِنَ][12] الذينَ أُهلِكوا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ٤٥ [وقولُهُ تعالى][13]: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ٤٦ [وقولُهُ تعالى][14]: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] قالَ[15] بعضُهُمْ: مُتكَبِّرينَ مُتجبِّرينَ وقالَ[16] أبو عَوسَجَةَ: هو مِنَ العُلُوِّ، ليسَ مِنَ التَّعالي، والتَّعالي لا يُوصَفُ بِهِ الخَلْقُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿تَتْرَا﴾ أي تَتَتابَعُ بِفَترَةٍ بَينَ كلِّ رسولَينِ، وهو مِنَ التَّواتُرِ. والأصْلُ: وَتْرَى، فَقُلِبَتِ الواوُ تاءً كما قَلَبوها في التَّقوى والتُّخَمَةِ والتُّكلانِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَتْرَا﴾ بَعضُهُمْ على إثرِ بعضِهِمْ [وهو مِنَ المُتابَعَةِ][17].

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ دلالةُ أنّ أهلَ الفَترَةِ ومَنْ كانَ في ما بينَ بَعْثِ الرسلِ، لا عُذرَ لهمْ في شيءٍ لإبقاءِ الحُجَجِ والبراهينِ قَبْلَ أنْ يُبعَثَ آخَرُ وحُسْنِ آثارِهِمْ وأعلامِهِمْ. أخبَرَ أنهُ أرسَلَ الرُّسُلَ تِباعاً بَعْضاً على [إثْرِ][18] بعضٍ وأنهُ[19] كانَ بينَ بَعْثِهِمْ فَترَةٌ لِما أبقَى الحُجَجَ والبراهينَ وآثارَ الرُّسُلِ وأعمالَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بعض. (٥) في الأصل وم: فإنه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أجل. (٨) في الأصل وم: بالاستعجال. (٩) في الأصل وم: أجلها. (١٠) في الأصل وم: تباع واحد. (١١) في الأصل وم: وبعض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وقال. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، في الأصل: وهي من التابعة. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل دم: وإن.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَذهَبُ: تَرْفَعُهُمْ بَعْدَ ما كُنّا عالينَ عليهِمْ، تَجْعَلُهُمْ عالينَ علينا، وكانوا لنا عابدينَ؟ أي تَرْفَعُهُمْ فَوقَنا، ونكونَ تَحتَهُمْ، ونحنُ اليومَ فَوقَهُمْ، وهُمْ تَحتَنا. كيفَ تَصْنَعُ ذلكَ؟ [ذلكَ][1] واللهُ أعلَمُ، حينَ أتَوهما[2] بالرسالةِ.

الآية ٤٨ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالتكذيبِ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ حَرْفُ لَعَلَّ لِموسى، أي آتينا موسى الكتابَ لَعَلَّهُمْ يَهتدونَ عندَهُ. ولَعَلَّ: حَرْفُ رَجاءٍ وتَرَجٍّ. ولكنْ يُسْتَعمَلُ مَرَّةً على الإيجابِ والإلزامِ، ومَرَّةً على النَّهْيِ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] أي لا تَبْخَعْ نفسَكَ، وقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ١٢] أي لا تَتْرُكْ بَعْضَ ما يُوحَى إليكَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لَعَلَّكَ تَفعَلُ كذا، أي لا تَفعَلْ. ونَحوُهُ.

وحَرْفُ: لَعَلَّ مِنَ اللهِ يَحتَمِلُ الإيجابَ والإلزامَ والنَّهْيَ، ومِنَ الخَلْقِ على النَّهْيِ والتَّرَجّي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ خصَّ عيسى ﷺ وأمَّهُ بأنْ جَعَلَهُما آيةً. وجميعُ البَشَرِ في مَعْنى الآيةِ واحدٌ، إذْ خُلِقوا جميعاً مِنْ نُطفَةٍ، ثم حُوِّلَتِ النُّطفَةُ عَلَقَةً، والعَلَقَةُ مُضغَةً، إلى آخِرِ ما يَنتَهي إليهِ، فَيَصيرُ إنساناً.

فالآيةُ والأُعجوبةُ في خَلْقِ الإنسانِ مِنَ النُّطفَةِ ومِمّا ذَكَرْنا إنْ لم تكنْ أكثَرَ وأعظَمَ لم تكنْ دونَ خَلْقِهِ بلا أبٍ ولا زوجٍ وما ذَكَرَ، لكنهُ خَصَّهما بِذِكْرِ الآيةِ فيهما لِخُروجِهما عنِ الأمرِ المُعْتادِ في الخَلْقِ، إذِ العادةُ الظاهرةُ فيهمْ أنْ يُخلَقوا مِنَ النُّطفَةِ والأبِ والتَّزاوُجِ [والأسبابِ التي][4] جُعِلَتْ للتَّوالُدِ والتَّناسُلِ الذي يجري في ما بينَهُمْ[5]. والأُعجوبةُ في خَلْقِ البَشَرِ مِنَ النطفةِ وما ذَكَرَ إنْ لم تكُنْ أكثَرَ وأعظَمَ لم تكنْ دونَهُ: وهو ما خَصَّ بني إسرائيلَ بالخِطابِ بالشكرِ لِما أنْعَمَ عليهِمْ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى، ولِما أنجاهُمْ مِنْ [فِرْعَونَ وآلِهِ بقولِهِ:][6]: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [إبراهيم: ٦] وقولِهِ[7]: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧و١٢٢].

وقد كانَ عليهِمْ مِنَ النِّعَمِ ما هو أعظَمُ وأكثَرُ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى ونَجاتِهِمْ مِنْ فِرْعَونَ وآلِهِ. لكنَّهُ خَصَّهُمْ بِذِكْرِ المَنِّ والسَّلْوى، واسْتَأْدى منهُمُ الشكرَ بذلكَ مِنْ بَيْنِ سائرِ النِّعَمِ لأنها خَرَجَتْ عنِ المُعْتادِ مِنَ النِّعَمِ المَعْروفةِ، وهُمْ كانوا مَخصوصينَ بهذا مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ.

فَعَلى ذلكَ عيسى وأُمُّهُ كانا خارجَينِ عنِ الأمرِ المُعْتادِ ومَخصوصَينِ بذلكَ. لذلكَ خَصَّهُما بِذِكْرِ الآيةِ، والآيةُ ما ذَكَرَ بَعضُ أهْلِ التأويلِ أنهُ خُلِقَ مِنْ غَيرِ أبٍ؛ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ غَيرِ بَعْلٍ وأمثالُها.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في عيسى بأنْ كَلَّمَ الناسَ في المَهْدِ صَبِياً ونَحوِهِ مِنْ إبراءِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ وإحياءِ المَوتى ومِثْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ ذَكَرَ أنهُ آواهُما إلى رَبْوَةٍ كما يُؤْوِي الأبُ والأمُّ الوَلَدَ إلى مَكانٍ، يَتَعَيَّشُ بِهِ؛ إذِ الرَّبْوَةُ هي مكانُ التَّعَيُّشِ فيهِ. ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ ﴿ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ هو المكانُ الذي يُسْتَقَرُّ فيهِ، ويُتَعَيَّشُ، وقالَ[8]: ﴿وَمَعِينٖ﴾ المَعينُ هو الماءُ الجاري الظاهرُ الذي تأخُذُهُ العيونُ، وتَقَعُ عليهِ الأبصارُ؟.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنما خاطَبَ بهذا محمداً خاصَّةً على ما يُخاطِبُ هو. والمُرادُ منهُ جميعُ أُمَّتِهِ في ذلكَ. ولكنْ جائزٌ أنْ يُقالَ: خاطَبَ به جميعَ الرُّسُلِ لأنهمْ جميعاً مُخاطَبونَ بهذا كلِّهِ مِنْ أكلِ الطَّيِّباتِ والعَمَلِ الصالحِ؛ هذا الخِطابُ فيهِ وفي غَيرِهِمْ؛ إذْ عَمَّهُمْ جميعاً بهذا. ثم [قولُهُ تعالى][9]: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يُرادَ بِهِ الحَلالاتُ؛ كأنهُ قالَ: كُلوا حَلالاً غَيرَ حَرامٍ.

---

(١) في م: وذلك، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أتوهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: و الأسباب التي جعل للتوالد في الخلق لخروجها عن الأمر المعتاد في الخلق و العادة الظاهرة خصهما بذكر الآية. (٦) في الأصل وم: آل فرعون. (٧) في الأصل وم: و قال. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ألا ترى/ ٣٥٦ ـ أ/ أنهُ قالَ: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [أي اعملوا صالحاً][1] ولا تعملوا سيِّئاً؟ فعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي كُلُوا حلالاً، ولا تأكُلوا حراماً: ما خَبُثَ.

وفيهِ أنهمْ يُمْتَحَنونَ كما يُمْتَحَنُ غيرُهُمْ بالأمرِ والنَّهيِ.

ويَحتَمِلُ أيضاً قولُهُ: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما طابَتْ بِهِ أنفُسُكُمْ، وتَلَذَّذَتْ. فإنْ كانَ على هذا فهو يُخَرَّجُ على الإباحةِ والرُّخصَةِ، ليسَ على الأمرِ. مَعناهُ: لكُمْ أنْ تأكُلوا ما تستَطيبُ بِهِ أنفُسُكُمْ، ولكُمْ أنْ تُؤثِروا غيرَكُمْ بِهِ على أنفُسِكُمْ. وإنْ كانَ على الأمرِ فهو على الأمرِ يُخرَّجُ والنَّهيِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ ظاهرٌ، وهو وعيدٌ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ وعلى لسانِ الرُّسُلِ السالِفَةِ كقولِهِ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي كُنتُمْ خيرَ أُمَّةٍ في الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ وفي الأُمَمِ الماضيَةِ. فعلى ذلكَ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي دينُكُمْ دينٌ واحدٌ، ومِلَّتُكُمْ مِلَّةٌ واحدةٌ، وهي الإسلامُ. وقالَ بعضُهُمْ: لسانُكُمْ لسانٌ واحدٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ لا تختلِفونَ في رسولِكُمْ إلى يومِ القيامةِ كما اختلَفَ الأُمَمُ الذينَ مِنْ قَبلِكُمْ في رسلِهِمْ، بل تَجعَلونَ[2] رَسولَكُمْ رسولاً على ما هو عليهِ. وأمّا سائرُ الأُمَمِ فإنهمْ قد فرَّطوا فيهِمْ حتى كانَ فيهِمْ جَعَلُ الرسولِ ابْناً لهُ كقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠] وأمّا هؤلاءِ فإنهمْ لا يزالونَ على أمرٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ كقولِهِ[3] في آيةٍ أخرى ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] جائزٌ أنْ يكونا واحداً. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ اتَّقُوا[4] مُخالفَتي [وقولُهُ][5]: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ اعبُدوني[6]، وأطيعوني.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ وقَطَّعوا[7] واحدٌ، وهما لُغتانِ: تفرَّقوا وفرَّقوا. ﴿زُبُرٗاۖ﴾ برَفْعِ الباءِ، وزُبَراً بنَصْبِ الباءِ[8].

قالَ أبو مُعاذٍ: مَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ: زُبَراً فمَعْناهُ قِطَعاً كقولِهِ: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ [الكهف: ٩٦] وزُبُراً بالرَّفعِ أي كُتُباً كقولِهِ: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقولِهِ: ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩] ونَحوُهُ؛ وقالَ: في حَرفِ ابنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ: وقَطَّعوا الزَّبورَ بَيْنَهُمْ. قالَ أبو مُعاذٍ: قَطَّعوا، وتَقَطَّعوا لُغتانِ كَقولِكَ عَلِقْتُ الشيءَ، وتَعَلَّقْتُهُ، وحَوَّلْتُ، وتَحَوَّلْتُ، ووَلَّيْتُ، وتَوَلَّيْتُ، ونَحوُهُ كثيرٌ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ راضونَ أو مَسْرورونَ بما لَدَيْهِمْ مِنَ الدينِ أو ما ذَكَرْنا.

الآية ٥٤ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كقولِهِ[11] في آيةٍ أُخرى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ [الزخرف: ٨٣] وقولِهِ[12]: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فذلكَ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: قالَ ذلكَ[13] عندَ الإياسِ عَنْ إجابَتِهِمْ لمّا عَلِمَ أنهمْ لا يؤمنونَ؛ وذلكَ في قومٍ مَخصوصينَ، كأنهُ قالَ: ذَرْ هؤلاءِ، واقْبَلْ[14] هؤلاءِ الذينَ يَقْبَلونَ بأمرِكَ، ويُجيبونَ دعاءَكَ، ويَسْمَعونَهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تجعلوا. (٣) في الأصل وم: و قال. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ادرج قبلها في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: و تقطعوا. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٤/ ٢١٥ (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) من م، في الأصل: كذلك. (١٤) من م، في الأصل: وقيل.

والثاني: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ حتى أنا أكافِئُهُمْ كقولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥].

والثالثُ: أمَرَهُ أنْ يَذَرَهُمْ، ويُعْرِضَ عنهمْ لئلّا يَخوضوا في سَبِّ اللهِ والطَّعْنِ في الآيةِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآيةَ [الأنعام: ٨٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ القيامَةَ، ويَحْتَمِلُ وقتاً[1] آخرَ، لم يُبَيِّنْ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] الربوةُ المكانُ المُرْتَفِعُ، وآوَيْتُهُ أي آوَيْتُهُ. وقالَ القُتَبِيُّ: الرَّبْوَةُ الارْتِفاعُ، وكلُّ شيءٍ ارْتَفَعَ، أو زادَ، فقد ربا، ومنهُ الرِّبا في البيعِ. قالَ أبو مُعاذٍ: لِلْعَرَبِ في الرَّبْوَةِ أربعُ لُغاتٍ: رَبْوَةٌ ورِبْوَةٌ ورُبْوَةٌ ورَباوَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَعينُ الماءُ الظاهرُ الجاري، والقَرارُ الثباتُ، وتقولُ منهُ: [قَرَّ][2] يَقَرُّ قَراراً، فهو قارٌّ، وأقْرَرْتُهُ أي أثْبَتُّهُ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: وقالَ: ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماءٌ ظاهرٌ، وهو مَفْعُولٌ مِنَ العَينِ، كانَ أصْلُهُ مَعْيُونًا[3] كما يُقالُ: ثوبٌ مَخيطٌ، وبُرٌّ مَكيلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ قيلَ: في ضَلالَتِهِمْ. [قالَ القُتَبِيُّ:][4] الغَمْرُ الماءُ الكثيرُ، وغَمْرَةُ الحَرْبِ وَسَطُها، وغَمْرَةُ[5] الموتِ [شِدَّتُهُ، ورجلٌ][6] غَمْرٌ أي سَخِيٌّ، ليسَ لهُ جَمْعٌ، وجَمْعُهُ غِمارٌ، ويقالُ: غَمَرَهُ الماءُ أي صارَ فوقَهُ، والغِمْرُ العَداوةُ[7]، والغُمْرُ الذي لم يُجَرِّبِ الأمورَ، وقومٌ أغمارٌ، والغَمَرُ الدَّسَمُ، والغَمْرَةُ الشِّدَّةُ، والغَمَراتُ جميعٌ، والغُمَرُ القَدَحُ الصغيرُ، والمُغامَرَةُ المُخاطَرَةُ، تقولُ: غامَرَ بِنَفْسِهِ أي خاطَرَ [بها][8].

الآيتان ٥٥ و٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ حَسِبَ أولئكَ الكَفَرَةُ أنَّ ما أَمَدَّ لهمُ اللهُ مِنَ الأموالِ والبنينَ وما[9] أعطى لهمْ أنَّ ما أعطى خيراً وبِرّاً، لا شرًّا. فأخبَرَ ﷻ وكَذَّبَهُمْ في حسابِهِمْ الذي حَسِبوا، فقالَ: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهُ إنما أعْطى لهمْ ذلكَ شرًّا وإثماً. فَعَلى ما حَسِبَ أولئكَ الكَفَرَةُ في ما أُعطوا مِنَ الأموالِ والبَنينَ إنما أُعطَوا خيراً.

حَسِبَ المُعْتَزِلَةُ في قولِهِمْ: أنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بأحدٍ مِنَ الخَلْقِ إلّا ما هو أصلحُ لَهُمْ في الدينِ، فأخبَرَ ﷻ أنَّ ذلكَ ليسَ بِخَيْرٍ لهمْ في الدينِ، ولا أصْلَحَ لهمْ، وهو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وهمْ يقولونَ: إنما نُمْلي لهمْ لِيَزْدادوا خيراً وبِرّاً. وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥و٨٥] وهمْ يقولونَ: لا بل إنما أرادَ لِيَرْحَمَهُمْ بها. فَيُقالُ لهمْ: أأنتمْ أعلَمُ أمِ اللهُ كما قالَ لأولئكَ الكَفَرَةِ حينَ قالَ: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ [البقرة: ١٤٠] إلّا أنْ يُكابِروا.

وقولُهُ[10] تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لِما أنهمْ قالوا ذلكَ على الظَّنِّ والحُسْبانِ لا على العِلْمِ حينَ[11] قالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ فقالَ: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ حينَ[12] قالوا ذلكَ ظَنًّا وحُسْباناً. وإنما الواجبُ عليهمْ أنْ يَعْلَموا ذلكَ عِلْمَ إحاطةٍ ويقينٍ.

فجوابُ هذا أنْ يُقالَ: إنَّ عندَهُمْ أنَّ ذلكَ إنما أُعْطِيَ لهمْ، وأُمْلِيَ خيراً وبِرّاً لهمْ، فكانوا على يَقينٍ مِنْ ذلكَ وإحاطةٍ عندَ أنفسِهِمْ، وإنما ذلكَ الظَّنُّ والحُسْبانُ لهمْ ممّا عندَ اللهِ، وإلّا كانوا على حقيقةِ العِلْمِ عندَ أنفسِهِمْ أنهُ إنما أعطاهُمْ، وأمَدَّ لهمْ خيراً. فأكْذَبَهُمُ اللهُ في ذلكَ، وردَّ عليهِمْ قولَهُمْ أنهُ إنما أعطاهُمْ ذلكَ لِما ذَكَروا، بل أخبَرَ أنَّ ما أعطاهُمْ لِمُضادَّةِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: معيون. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و قال. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: شدتها رجل. (٧) في الأصل وم: عداوة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: في قوله. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا موصولاً بقولِهِ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على التَّقديمِ والتَّأخير. فكأنهُ قالَ: إنما نُسارعُ في[1] الخيراتِ للذينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشفِقونَ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [لا لأولئكَ][2] الكَفَرَةِ.

وجائزٌ[3] أنْ يكونَ على الابْتِداءِ وَصَفَ الذينَ آمَنوا، ونَعَتَهُمْ، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي مِنْ عذابِ ربِّهِمْ مُشفِقونَ، أي مِنْ عذابِ ربِّهِمْ خائفونَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمانُ بالآياتِ يكونُ إيماناً باللهِ حقيقةً لأنَّ الآياتِ هُنَّ الأعلامُ التي تَدُلُّ على وَحْدانيَّةِ اللهِ ورُبوبيَّتِهِ. والإيمانُ هو التصديقُ. فإذا صَدَّقَ آياتِهِ، وهُنَّ أعلامٌ وأخبارٌ، تُخبِرُ عن وَحْدانيَّةِ اللهِ. فإذا صَدَّقَها صَدَّقَ اللهَ، وآمَنَ بهِ. لِذلكَ قُلْنا: الإيمانُ بآياتِهِ يكونُ إيماناً باللهِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي لا يُشرِكونَ غَيرَهُ في عبادتِهِمْ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ وفي بعضِ القراءاتِ: والذينَ يأتونَ ما آتوا: مَقصورةٌ، وهي قراءةُ عائشةَ[4]. فَمَنْ قرَأَ: يأتونَ ما آتوا فتأويلُهُ[5]: أي الذينَ يَعْمَلونَ مِنْ عَمَلٍ، وَجِلَتْ/ ٣٥٦ ـ ب/ لهُ قُلوبُهُمْ: أيَتقبَّلُ[6] منهمْ أمْ لا؟ ومَنْ قرَأَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ فهو مِنَ الإعطاءِ والإنفاقِ؛ يقولُ: والذينَ يُعطونَ، ويُنْفِقونَ ما أنْفَقوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أنَّ ذلكَ يُقْبَلُ منهمْ أمْ لا.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ المُطيعَ في ما يُطيعُ ربَّهُ يكونُ على خَوفٍ منهُ كالمُسيءِ في إساءَتِهِ وكذلكَ «رُوِيَ عنْ عائشةَ أنها سَألَتْ رسولَ اللهِ، صلّى اللهُ تعالى عليهِ، وسَلَّمَ عنْ هذهِ الآيةِ، قالَتْ: أهُمُ الذينَ يَشْرَبونَ الخَمْرَ، ويَسْرِقونَ، ويَزْنونَ؟ فقالَ: لا، ولكنهمُ الذينَ يَصومونَ، ويُصَلّونَ، ويَتَصدَّقونَ، وهم يَخافونَ ألّا يُقْبَلَ منهمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]» [الترمذي ٣١٧٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ لا على ذلكَ، ولكنْ على ما يَذْكُرُ: أي قلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنهمْ يَرْجِعونَ إلى ربِّهِمْ على السَّعادةِ أمْ على الشَّقاوةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ الذينَ نَعَتَهُمْ، ووَصَفَهُمْ، هُمُ الذينَ يُسارعونَ في الخَيراتِ لا أولئكَ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أي سَبَقوا أولئكَ الكَفَرَةَ بها.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا، وقالَهُ، لمّا عَمِلَ أولئكَ مِنَ الأعمالِ[7] التي لا تَسَعُ، ولا تَحِلُّ، فقالوا: اللهُ أَمَرَهُمْ بذلكَ بقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فقالَ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلّا ما يَسَعُها، ويَحِلُّ كقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] رَدّاً لِقولِهِمْ وتَكذيباً.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يقولَ: لا نُكَلِّفُ نفساً مِنَ الأعمالِ إلّا وُسْعَها أي طاقَتَها. وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي لا يُكَلَّفُ أحدٌ مِنَ العَمَلِ ما يُتْلِفُ طاقَتَهُ وَسَعَتَهُ فيهِ؛ لا يُكَلَّفُ الغَنِيُّ مِنَ الإعطاءِ ما يُتْلِفُ بهِ طاقَتَهُ وحياتَهُ، ولكنهُ إنما أمَرَهُ، وكَلَّفَهُ، بأمورٍ تَحْتَمِلُ طاقتَهُ[8] ذلكَ العملَ والأمْرَ. فإنْ كانَ كذلكَ فَدَلَّ ذلكَ أنهُ لم يُرِدْ بهِ طاقَةَ العَمَلِ وقدرَتَهُ، ولكنْ طاقةَ الأحوالِ التي يَجوزُ تَقَدُّمُها عنِ الأفعالِ[9].

والثاني: ذلكَ هذا لئلّا يقولوا: إنا لم نُطِقْ ما كَلَّفَنا لأنهمْ تَرَكُوا الأعمالَ التي أُمِروا بها، وكُلِّفوا بأعمالٍ، مِثْلُها التي

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: لهم. (٢) في الأصل: لانه أولئك، في م: لأولئك. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) أنظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢١٧. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أي يتقبل. (٧) في الأصل وم: أعمال. (٨) في الأصل وم: طاقتهم.
(٩) في الأصل وم: الأحوال.

تَركوها، وهي المَعاصي التي عَمِلوها. فما أُمِروا مِنَ الأعمالَ ليسَ يَفوقُ التي عَمِلوها، ولكنْ مِثْلُها، فلا يكونُ لهمْ في ذلكَ احْتِجاجٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ قالَ قائلونَ: هو الكتابُ الذي يَكْتُبُ فيهِ أعمالَهُمْ وأفعالَهُمْ مِنَ الخَيراتِ والسَّيِّئاتِ. وذلكَ كُلُّهُ مَحفوظٌ مَحصِيٌّ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فإنْ كانَ هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتصديقِ.

وقالَ قائلونَ: هو الكتابُ الذي أُنْزِلَ إلينا، وهو هذا القرآنُ، يَنْطِقُ عليكُمْ بالحقِّ، أي بالحَقِّ الذي يكونُ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ، وهو كقولِهِ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الحَقِّ الذي لهُ علينا ومِنَ الحَقِّ الذي لِبَعْضِنا على بعضٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هو اللوحَ المحفوظَ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ أنَّ اللهَ لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ، في الأوقاتِ التي تكونُ [إلى][1] أبدِ الآبِدينَ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فإنْ كانَ على الكتابِ الذي يَكْتُبُ فيهِ أعمالَهُمْ فيكونُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنْقَصُ مِنْ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا مِنَ الخَيراتِ، ولا يُزادُ فيهِ على سَيِّئاتِهِمْ. بل يُحْفَظُ ما عَمِلوا. أو يكونُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُزادُ على الجزاءِ على قَدْرِ أعمالِهِمْ، ولا يُنْقَصُ مِنْ قَدْرِها. بل يُجْزَوْنَ على قَدْرِ أعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قيلَ في عَمَايَةٍ وجَهالةٍ وغَفْلَةٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِنَ الكتابِ الذي كَتَبَ فيهِ أعمالَهُمْ، وأحصَى عليهِمْ. وقالَ قائلونَ في[3] قولِهِ: ﴿فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي مِنْ هذا القرآنِ الذي يَنْطِقُ بالحَقِّ، أي قلوبُهُمْ في عَمَايَةٍ وغَفْلَةٍ مِنْ هذا القرآنِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِنَ الأعمالِ التي ذَكَرَ للمؤمنينَ في ما تَقَدَّمَ: مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧و٥٨] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ أعمالِهِمْ. فأخبَرَ أنَّ قلوبَ أولئكَ الكَفَرَةِ في غَفْلَةٍ وعَمايَةٍ عنِ الأعمالِ التي عَمِلَها المُؤمِنونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي مِنْ دونِ ما عَمِلَ أولئكَ الكَفَرَةُ مِنَ الأعمالِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها مِنْ قولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤إلى٥٦] على [ما][4] ذَكَرَ. ثم أخبرَ أنَّ لهمْ أعمالاً مِنْ دونِ ما ذَكَرَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ يعني المؤمنينَ[5] الذينَ ذَكَرَ أعمالَهُمْ، أي لهمْ أعمالٌ دونَ التي[6] ذَكَرَ، لهمْ دونَ تلكَ الأعمالِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: ذلكَ في العذابِ الذي أخَذَ أهْلَ مكةَ في الدنيا مِنَ الجوعِ سِنينَ حتى أكلوا الجِيَفَ والعِظامَ [المُحَرَّمَةَ ونَحْوَها][7].

لكنَّ الأشبَهَ أنْ يكونَ ذلكَ في عذابِ الآخِرَةِ. ألا تَرَى أنهُ يقولُ: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي يَتَضرَّعونَ؟

الآيتان ٦٥ و٦٦ ويقولُ أيضاً: [﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾][8] ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾؟ فإنما [يُخبِرُهُمْ أنكُمْ][9] كنتمْ تَفعَلونَ كذا في الدنيا، ويَذْكُرُ ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَتَضرَّعوا إليهِ في الدنيا، ثم لا يَقْبَلُ منهمْ ذلكَ التَّضرُّعَ [أو يَنهاهُمْ][10] عنِ التَّضرُّعِ بقولِهِ ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فَدَلَّ ذلكَ أنهُ في الآخِرَةِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤].

---

(١) ساقطة في الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: المؤمنون. (٦) في الأصل وم: الذي. (٧) في الأصل وم: المحرقة ونَحْوُهُ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يخبر أن. (١٠) من م، في الأصل: بقوله نهاهم.

مِثْلُ هذا يكونُ في الآخِرَةِ، وفي الدنيا ما ذَكَرَ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] ذَكَرَ في عذابِ[1] الدنيا أنهمْ لم يَتضرَّعوا [فلا يُحتَمَلُ أنْ يَتضرَّعوا][2] في الدنيا عندَ نزولِ العذابِ بهمْ [ثم][3] لا يُقْبَلُ منهمُ التَّضرُّعُ والاِسْتِكانَةُ. دلَّ ذلكَ أنهُ ما ذَكَرْنا. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾؟ نهاهُمْ عنِ التَّضرُّعِ، ولا يُحتَمَلُ النَّهيُ عن ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي تُمْنَعونَ مِنْ عذابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ تَرْجِعونَ على التمثيلِ لا على التحقيقِ لأنهمْ إذا رَجَعوا على الأعقابِ صارَ ما كانَ أمامَهُمْ وراءَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ نَبَذوا ذلكَ وراءَ ظُهورِهِمْ، أو[4] يكونُ المُنْقَلِبُ على الأعقابِ كالمُكبِّ على الوَجْهِ. والمُكَبُّ على وجهِهِ مَذمومٌ عندَ جميعِ مَنْ رآهُ، وعايَنَهُ. لهذا [شَبَّهَهُ بِهِ، وضَرَبَ مَثَلَهُ][5] بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ قالَ عامةُ أهْلِ التأويلِ: قولُهُ ﴿بِهِۦ﴾ أي بالبيتِ. وَوَجْهُ هذا أنهمْ لمّا رَأَوا أنفُسَهُمْ آمِنينَ بِمُقامِهِمْ عندَ البيتِ وفي حَرَمِ اللهِ، وأهلُ سائِرِ البقاعِ في خَوفٍ ظَنّوا أنَّ ذلكَ لهمْ لِفَضْلِ كَرامَتِهِمْ ومَنْزِلَتِهِمْ عندَ اللهِ. فَحَمَلَهُمْ ذلكَ إلى الاِسْتِكْبارِ على رسولِ اللهِ ومَنْ تابَعَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآنِ. وتأويلُهُ: أيِ اسْتَكْبَروا على اللهِ ورسولِهِ لمّا نَزَلَ القرآنُ. وإضافةُ الاِسْتِكْبارِ إلى القرآنِ لأنهمْ بِنُزولِهِ تكبَّروا على اللهِ، فأضافَ اسْتِكْبارَهُمْ إليهِ لأنهُ كانَ سَبَبَ تَكَبُّرِهِمْ. وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤و١٢٥] أضافَ زيادةَ رِجْسِهِمْ إلى السورةِ لِما بها يَزْدادُ رِجْسُهُمْ، وكانَتْ [سَبَبَ][6] رِجْسِهِمْ، وإنْ كانَتْ لا تزيدُ رِجْساً في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: السَّمَرُ حديثٌ[7] بالليلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قالَ قائلونَ: تَهْذونَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ القرآنَ أي كانوا لا يَعْمَلونَ بهِ، ولا يَعْبَأونَ. فهو الهَجْرُ.

وفيهِ لُغَةٌ أُخرَى: تُهْجِرونَ[8] وهو/ ٣٥٧ ـ أ/ كلامُ الفُحْشِ والفسادِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ قيلَ: أي في القرآنِ. يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾ أي فَهَلّا تَدَبَّروا ذلكَ القولَ الذي يقولونَ في الآخِرَةِ في الدنيا، وهو قولُهُمْ ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وما ذَكَرَ مِنْ تَضَرُّعِهِمْ في الآخِرَةِ، وهو قولُهُ: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي قد تَدَبَّروا القولَ، لكنهمْ تعانَدوا، وكابَروا، واسْتَكْبَروا، ولم يَخْضَعوا لهُ أنفاً واسْتِكْباراً. أوَلا تَرَى أنهُ إذا قَرَعَ أسماعَهُمْ قولُهُ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقولُهُ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية؟ [الإسراء: ٨٨] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَدَّبَّروا فيه. دَلَّ أنَّهُمْ قد تَدَبَّروا فيهِ، وعَرَفوهُ، إلّا أنهمْ تعانَدوا، وكابَروا، واسْتَكْبَروا، أنفاً منهمْ واسْتِكْباراً واسْتِنكافاً عنِ اتِّباعِهِ والخُضوعِ لهُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي يَسْتَغيثونَ. قالَ: وأصلُهُ مِنَ الصِّياحِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ يَصْرُخونَ، وقيلَ: يَصيحونَ. وقولُهُ: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ الحديثِ بالليلِ. ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي تَهْذونَ كما يَهْذي النائمُ والمريضُ الشديدُ المَرَضِ. قالَ: وهَجَرَ يَهْجُرُ مِنَ الهُجْرِ، وهو الفُحْشُ، وهَجَّرَ يُهَجِّرُ إذا سارَ في الهاجِرَةِ، وهي شِدَّةُ الحَرِّ وقولُهُ:

---

(١) في م، في الأصل: العذاب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أشبه وبه ضرب مثل به. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: هو ظل القمر فيه كانوا يهجرون، والسمو. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/٢١٨.

﴿تَنكِصُونَ﴾ قالَ [بعضُهُمْ: ترجِعونَ، وقالَ][1] بعضُهُمْ: تَستأخِرونَ كقولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] تَرْجِعونَ، وتَستأخِرونَ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على تَرْكِ التَّدْبيرِ فيهِ والتَّفَكُّرِ[2] والإعراضِ عنهُ، أي لم يَدَّبَّروا فيهِ، ولم يَتَفَكَّروا.

والثاني: على إيجابِ حقيقةِ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ، أي قد تَدَبَّروا فيهِ، وعَرَفوا أنهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ، لكنهمْ تَرَكوا مُتابَعَتَهُ عِناداً وتَمَرُّداً إشفاقاً على ذهابِ رئاسَتِهِمْ وطَمَعاً في إبقائها ودَوامِ مَآكِلِهِمْ.

فَأيُّ الوجهَينِ كانَ ففيهِ لُزومُ حُجَجِ اللهِ وبَراهينِهِ على مَنْ جَهِلَها، ولم يَعْرِفْها، بالإعراضِ عنها وتَرْكِ التَّدَبُّرِ فيها حينَ[3] استَوجَبوا عذابَ اللهِ ومَقْتَهُ لِجَهْلِهِمْ بها بِتَرْكِ التَّدَبُّرِ فيها بَعْدَ أنْ[4] كانَ لهمْ سَبيلُ الوُصولِ إلى مَعْرِفَتِها.

وظاهرُ قولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾ استِفهامٌ إلّا أنهُ في الحقيقةِ إيجابٌ لِما[5] لا يجوزُ أنْ يَستَفْهِمَ اللهُ أحداً. فهو على الإيجابِ لأنهُ عَلّامُ الغُيوبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قد جاءَهُمْ [ما جاءَ آباءَهُمْ][6] الأوَّلينَ مِنَ الرسولِ؛ لم[7] يأتِ هؤلاءِ شيءٌ إلّا ما أتى آباءَهُمْ، لم يُخَصُّوا هُمْ بالرسولِ. فكيفَ أنكَروهُ؟

ألا تَرى أنهمْ قالوا: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] قد أقَرُّوا أنَّ في الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ رسولاً حينَ[8] قالوا ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؟

الآية ٦٩ وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ أي قد عَرَفوا رسولَهُمْ، لكنهمْ أنكَروهُ، وتَرَكوا اتِّباعَهُ بِما[9] ذَكَرْنا في القرآنِ مِنْ أحدِ الوجهَينِ عِناداً وتكبُّراً وإشفاقاً على رئاسَتِهِمْ لكي تَبْقى.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآيةَ؟ [البقرة: ١٤٦ والأنعام: ٢٠].

الآية ٧٠ وعلى هذا [يُخَرَّجُ قولُهُ][10]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي قد عَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جِنَّةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جاءَ هؤلاءِ ما لم يأتِ آباءَهُمْ، وخَصَّ هؤلاءِ بِما لمْ يُخُصَّ آباءَهُمْ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: لَعَمْري لقد جاءَهُمْ ما لم يأتِ آباءَهُمُ الأوَّلينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ يُخَرَّجُ[11] على الأمرِ بالتَّدَبُّرِ فيهِ ومَعْرِفةِ الرسولِ أنهُ ليسَ كما يَصِفونَهُ مِنَ الجُنونِ وغيرِهِ لقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] أي تَفَكَّروا فيهِ فإنهُ ليسَ بهِ جِنَّةٌ على ما تَصِفونَهُ، أو على ما ذَكَرْنا أنهمْ تفكَّروا، وعَرَفوا أنهُ ليسَ بهِ جنونٌ، ولا شيءَ مِمّا وَصَفوا بهِ. لكنهُمْ أرادوا أنْ يُلْبِسوا على أتباعِهِمْ وسَفَلَتِهِمْ إشفاقاً على إبقاءِ ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِنَ البَراءَةِ مِنَ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالرسالةِ والقرآنِ مِنْ عندِ اللهِ وجَعْلِ العِبادةِ لهُ مِنْ دونِ الأصنامِ التي عَبَدوها، ولكنَّ أكثَرَهُمْ ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ كَرِهوا الحَقَّ لَمّا ظَنّوا أنَّ في [اتِّباعِهِ ذهابَ الرئاسةِ والأسبابِ التي كانَتْ لهمْ[12] على][13] أتباعِهِمْ بعدَ معرفتِهِمْ أنهُ حقٌّ. أو كَرِهوا لَمّا لم يَعْرِفوا في الحقيقةِ أنهُ حقٌّ. وإلّا فلا أحَدَ مِمَّنْ يُوصَفُ بِصِحَّةِ العقلِ وسَلامَتِهِ يَكْرَهُ الحَقَّ، ويَتْرُكُ اتِّباعَهُ إلّا لِلْوَجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهُما، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الحَقُّ ههنا، هو اللهُ أي لوِ اتَّبَعَ اللهُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل: حقيقة التفكر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: لها. (٦) في الأصل وم: ما جاءهم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (١٢) في م: وهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

أهواءَهُمْ في كُفرِهِمْ وشِرْكِهِمْ ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وتأويلُ [هذا][1] أنَّ الكُفرَ والشِّركَ مِمّا لا عاقبةَ لهُ. فهو في الحِكْمَةِ والعقلِ فاسدٌ باطلٌ غيرُ مُستَحسَنٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحقُّ ههنا كتابُ اللهِ، وهو القرآنُ على ما يَهْوَونَ هُمْ لَفَسَدَ ما ذُكِرَ لأنهُ يكونُ خارجاً عنِ الحِكْمَةِ.

وجائزٌ أنْ يُوصَلَ قولُهُ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بالحقّ[2] الذي سَبَقَ ذكرُه، وهو قولُهُ: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي [لوِ اتَّبَعَ][3] ذلكَ الحقُّ أهواءَهُمْ، وجاءَ على ما هَوِيَتْهُ[4] أنفسُهُمْ، واشتَهَتْ، [والحقُّ][5] اسمُ كلِّ مُستَحسَنٍ ومَمْدوحٍ في العقلِ والحِكْمَةِ. ولَوِ اتَّبَعَ ذلكَ الحقُّ أهواءَهُمْ، وجاءَ على ما هَوِيَتْهُ[6]أنفسُهُمْ، واشتَهَتْ مِنْ عبادةِ غيرِ اللهِ وتَسْمِيَتِهِمْ إيّاها آلهةً وإنكارِهِمُ البَعْثَ والتوحيدَ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأفعالِ التي كانوا اختاروها وعَمِلوا ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وما ذُكِرَ لأنهُ يكونُ خَلْقُهُمْ وخَلْقُ ما ذُكِرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما فيهنَّ لا لِما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ والعقلُ إذ[7] خلقَهُمْ، وخَلَقَ ما ذُكِرَ لأفعالِهِمُ التي يَفْعَلونَ.

فإذا[8] خُرِّجَتْ أفعالُهُمْ على غيرِ ما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ والعقلُ بل على السَّفَهِ والجَهْلِ خُرِّجَ الذي لها خُلِقَ مِنْ أجْلِها الشيءُ. كذلكَ إذْ خَلْقُ الشيءِ وفِعْلُهُ لا لعاقبةٍ تُقْصَدُ خارجٌ عنِ الحِكْمَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الحقُّ، هو رسولُ اللهِ؛ أي رسولُ اللهِ لَوِ اتَّبَعَ أهواءَهُمْ لَفَسَدَ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: بِشَرَفِهِمْ وذِكْرِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي عَنْ شَرَفِهِمْ مُعْرِضونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذِّكْرُ هو الحقَّ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، أي لَوْ قَبِلوا [ذلكَ الحقَّ، وأقْبَلوا][9] نَحْوَهُ يكونُ في ذلكَ ذِكْرُهُمْ مِنْ بَعْدِ هلاكِهِمْ كما يُذْكَرُ أصحابُ رسولِ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ماتوا. ألا تَرَى أولادَهُمْ بِذِكْرِ آبائِهِمْ يَتَعَيَّشونَ؟ يقولونَ: إنا مِنْ بَني فلانٍ، فَيَبَرُّهُمُ الناسُ بذلكَ، ويُكْرِمونَهُمْ.

وأمّا أولئكَ فإنهمْ لا يُذْكَرونَ بشيءٍ مِنْ ذلكَ. فذلكَ يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ الثناءَ عليهِمْ: أي لو آمَنوا كقولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠] وقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقولِهِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ونَحْوِ ذلكَ مِمّا أثْنَى اللهُ على مَنْ آمَنَ منهُمْ. فهمْ لو آمَنوا اسْتَوجَبوا بذلكَ الثناءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بِدُعاءٍ لهمْ، وهو ما دَعَا الملائكةُ والرُّسُلُ للمؤمنينَ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [غافر: ٧] وقولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥ ومحمد: ١٩] [وقولِ[10] نوحٍ]: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ الآية [نوح: ٢٨] وقولِ إبراهيمَ ودعائِهِ لهمْ [﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]][11] لو آمنوا اسْتَوجَبوا دعاءَ هؤلاءِ الملائكةِ والرسلِ جميعاً، أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا مِنْ إبقاءِ ذِكْرِهِمْ إلى يومِ القيامةِ كما بَقِيَ ذِكْرُ أولئكَ الذينَ آمَنوا بهِ، وصَدَّقوهُ. فيكونُ في ذلكَ كلِّهِ شَرَفُهُمْ وقَدْرُهُمْ على ما قالَهُ أهْلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٨و٦٩] أي قد عَرَفوا رسولَهُمْ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٧٠] أي ليسَ بِهِ/٣٥٧ - ب/ جِنَّةٌ، أي ليسَ بهِ شيءٌ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ والإيمانِ بهِ بما يُعْذَرونَ هُمْ في تَرْكِ الإيمانِ بهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الحق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هوت به. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: هوت به. (٧) في الأصل وم: إذا. (٨) في الأصل وم: فإذ. (٩) في م: ذلك الحق الذي واقبلوا. (١٠) في الأصل وم: وقوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

فَعَلَى ذلِكَ قولُهُ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي لم تَسألْهُمْ أجراً على ما تَدعوهُمْ إليهِ حتى يَمنَعَهُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ عن إجابتِهِ وتَصديقِهِ كقولِهِ أيضاً: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠والقلم: ٤٦] يَقطَعُ ممّا ذَكَرَ جميعَ أعذارِهِمْ وحِجاجِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ [لهمْ][1] عُذرٌ ولا حُجَّةٌ في تَرْكِ الإجابةِ لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخَراجُ: الرِّزقُ[2]، أي تسألهمْ رِزقاً. ثم أخبَرَ أنَّ أجرَ ﴿رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المُستَقيمُ القائمُ بالآياتِ والحُجَجِ ليسَ كالسبيلِ التي يَسلُكونَ هُمْ بلا آياتٍ ولا حُجَجٍ ولا بُرهانٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ إنكارَهُمُ البَعثَ والآخِرَةَ هو الذي حَمَلَهُمْ على العدولِ عنِ الصِّراطِ المُستَقيمِ.

والثاني: أنَّ الصراطَ الذي في الدنيا هو المَجعولُ للآخِرَةِ. فإذا تَركوا سلوكَهُ لِشَهَواتٍ مَنَعَتْهُمْ عن ذلكَ أنكَروا الآخِرَةَ. أو كلامٌ نَحوُ هذا.

وقولُهُ: ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ أي لَعادِلونَ، مِنَ العُدولِ عنهُ والمُجانَبَةِ والمَيلِ إلى غَيرِهِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ذَكَرَ الضُّرَّ، ولم يَذكُرْ أيَّ شيءٍ كانَ. وليسَ لنا أنْ نَقولَ كانَ الجوعَ، أو كذا إلّا بِثَبَتٍ. وفيهِ وجهانِ مِنَ المُعتَبَرِ:

أحَدُهُما: أنَّ دَفعَ المِحَنِ التي امتَحَنَهُمْ مِنَ البَلايا والشدائدِ إنما يكونُ بِرَحمَةٍ منهُ وفَضلٍ لا على ما قالَهُ بعضُ الناسِ بالاستِحقاقِ حينَ[3] ذَكَرَ [أنَّ][4] رَحمَتَهُ تَكشِفُ ذلكَ عنهمْ.

والثاني: فيهِ دلالةُ إثباتِ رِسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ أنهُ، وإنْ كَشَفَ ذلكَ الضُّرَّ عنهم لَجُوا[5] في طُغيانِهِمْ. فَكَشَفَ عنهمْ ذلكَ، فَلَجُوا في طُغيانِهِمْ على ما أخبَرَ. فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وجَهلِهِمْ باللهِ وقَسوَةِ قلوبِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ وعِنادِهِمْ حينَ[6] أخبرَ أنهمْ، وإنْ أُخِذوا بالعذابِ، لم يَتَضَرَّعوا إليهِ، وما استَكانوا لهُ لِجَهلِهِمْ بعذابِ اللهِ حينَ[7] أخبرَ أنهمْ، وإنْ أُخِذوا [بالعذابِ، لم يَتَضَرَّعوا إليهِ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى][8]: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المُبْلِسُ الآيِسُ مِنْ كلِّ خيرٍ، وهو ما وَصَفَهُ[9] ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩] فَيَؤوسٌ قَنوطٌ ونَحوُهُ.

قالَ الزَّجاجُ: المُبْلِسُ الساكتُ المُتَحَيِّرُ، لا يَدري ما يَعمَلُ بهِ. فَعَلَى ذلكَ هُمْ كانوا حَيارَى لَمّا نَزَلَ بهمُ العذابُ لا يَدرونَ ما يَعمَلونَ بهِ في رَفعِ ذلكَ عنهمْ.

وقالَ الكسائيُّ: المُبْلِسُ المُنقَطِعُ السَّيِّئُ الظَّنِّ. قالَ: ومنهُ سُمِّيَ إبليسُ لأنهُ أيِسَ مِنْ رَحمَةِ اللهِ، وانقَطَعَ رجاؤُهُ عندَهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: اليائسُ الحزينُ، ويُقالُ: إبليسُ الرجلُ إنْ[10] أيِسَ، فَحَزِنَ، وإبليسُ غَيرُهُ أيضاً، وإنما سُمِّيَ إبليسُ إبليسَ لأنهُ يَئِسَ مِنْ رَحمَةِ اللهِ، فَحَزِنَ. قالَ: وقولُهُ: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يَذِلّوا لربِّهِمْ بالطاعةِ لهُ والخضوعِ لِما ذَكَرْنا.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعمَهُ التي[11] أنعَمَها عليهمْ لِيَستَأديَ بذلكَ الشُّكرَ لهُ عليها. ذَكَرَ أُمَّهاتِ النِّعَمِ، لم يَذكُرْ غيرَها، وهي[12] السَّمْعُ والبَصَرُ والفؤادُ الذي ذَكَرَ، إذْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والرزق. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: للجوا.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وصفهم. (١٠) في الأصل وم: أي.
(١١) من م، في الأصل: الله. (١٢) في الأصل وم: وهو.

بها يُوصَلُ إلى مَعْرِفةِ كُلِّ نافِعٍ وضارٍّ وكُلِّ طَيِّبٍ وخَبيثٍ وكُلِّ لَيِّنٍ وخَشِنٍ وكُلِّ سَهْلٍ وشديدٍ وكُلِّ حُلْوٍ ومُرٍّ، وكانَ الإنسانُ مطبوعاً على حبِّ النافعِ والطَّيِّبِ واللَّيِّنِ والسَّهْلِ، واختيارُهُ على أضدادِهِ، والهَرَبُ مِنْ كُلِّ ضارٍّ ومُؤْذٍ والفِرارُ مِنْ أضدادِ ما ذَكَرْنا مِنَ المُختاراتِ عندَهُ.

فأخبَرَ أنهُ أعْطَى لهمْ ما يَعْرِفونَ بِهِ النافعَ مِنَ الضارِّ والطَّيِّبَ [مِنَ][1] الخبيثِ مُشاهَدَةً وخَبَراً، وما بِهِ يُمَيِّزونَ ذا مِنْ ذا، ويَختارونَ ما هو المُختارُ عندَهُمْ مِنْ غَيرِهِ، وما يَنْفَعُهُمْ مِمّا يَضُرُّهُمْ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ.

الآية ٧٩ وذَكَّرَهُمْ[2] في قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بِقُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، وأخبَرَ أنهُ لم يَخلُقْكُمْ عَبَثاً، ولكنْ: لِلْبَعْثِ بَعْدَ الموتِ والحَشْرِ إليهِ كما ذَكَرْنا في غَيرِ موضعٍ، وأنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً لا لِلْبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ عَبَثٌ ولَعِبٌ.

الآية ٨٠ وأخبَرَ عنْ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أنَّ مَنْ قَدَرَ، ومَلَكَ إحياءَ المَوتى وإماتَةَ الحَيِّ قادرٌ على البَعْثِ، ومَنْ مَلَكَ إنشاءَ الليلِ بَعْدَما ذَهَبَ أثَرُ النهارِ وإنشاءَ النهارِ بَعْدَما ذَهَبَ أثَرُ الليلِ قادرٌ على الإحياءِ والبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ.

ثم قالَ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ كذلكَ، فكيفَ تُنْكِرونَ قُدرَتَهُ على البعثِ والإحياءِ بَعْدَما صِرْتُمْ رماداً وتُراباً؟ وكيفَ تُشركونَ[4] غيرَهُ في عبادَتِكُمْ إيّاهُ؟ وتَصْرِفونَ الشُّكْرَ إلى غَيرِهِ في ما أنْعَمَ عليكُمْ؟

ثم أهْلُ التأويلِ صَرَفوا قولَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ إلى آخِرِهِ إلى الكُفّارِ، وهُمْ يَكْفُرونَ بِنِعْمَتِهِ التي ذَكَرَ، ويُنْكِرونَها، وهُمْ لا يَشْكُرونَ رَأْساً بقولِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إلّا أنْ يُقالَ: إنهمْ في بعضِ الأحايِينِ ربّما يَشْكُرونَ اللهَ، ويَتَضَرَّعونَ إليهِ نَحْوَ قولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [العنكبوت: ٦٥] ونَحْوَهُ مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ فيها دعاءَهُمْ وتَضَرُّعَهُمْ إلى اللهِ عندَما أصابَهُمُ الضُّرُّ. فذلكَ منهمْ شُكْرٌ. أو أنْ يُقالَ: إنَّ قولَهُ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قليلاً ما تَشْكُرونَ رَأْساً كقولِ الرجلِ لآخَرَ: قليلاً ما تَفْعَلُ كذا، أي لا تَفْعَلُ أصلاً. فَعَلَى ذلكَ هذا إنْ كانَ المُرادُ منها والخِطابُ بها أولئكَ الكَفَرَةَ، وإلّا فالخطابُ[5] بها يجيءُ أنْ يكونَ راجعاً إلى المؤمنينَ، إذْ هُمُ الذينَ يَقومونَ بِبَعْضِ الشُّكْرِ لِنِعَمِهِ وقَليلِهِ. وأمّا الكَفَرَةُ فهمْ يَكْفُرونَها، ويُنْكِرونَ رأساً.

الآيتان ٨١ و٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ يُخْبِرُ جلَّ، وعلا، رسولَهُ سَفَهَ قومِهِ وقولَهُمُ الذي قالوا بَعْدَ ما بَيَّنَ[6] لهمْ حِكْمَتَهُ في خَلْقِهِمْ وإنشائِهِمْ. وذَكَّرَهُمْ نِعَمَهُ التي أنْعَمَ عليهِمْ، وذَكَرَ قُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ في ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون ٧٨ و٧٩ و٨٠].

ذَكَّرَهُمْ ما ذَكَرَ في هؤلاءِ الآياتِ مِنْ حِكْمَتِهِ في خَلْقِهِمْ وقُدرَتِهِ في إنشاءِ ما أنْشَأَ لهمْ، وعَرَّفَهُمْ ذلكَ حتى عَرَفوا ذلكَ كلَّهُ. ثم بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في جوابِهِمْ رسولَهُ، فقالَ: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يُخْبِرُ رسولَهُ أنَّ هؤلاءِ لَيسوا بأوَّلِ مُكَذِّبي الرسُلِ، ولكنْ كانَ لهمْ شُركاءُ وأصحابٌ في التكذيبِ، قَلَّدَ هؤلاءِ أولئكَ الأوَّلينَ، يُصَبِّرُ رسولَهُ على سَفَهِ هؤلاءِ وأذاهُمْ لِيَصْبِرَ على ذلكَ كما صَبَرَ إخوانُهُ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ، أو يَذْكُرُ هذا لِيُسَلِّيَ[7] بعضَ ما تداخَلَ فيهِ بِتَرْكِهِمْ إجابَتَهُ وخوضِهِمْ في ما فيهِ هلاكُهُمْ لأنهُ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ [كادَتْ نفسُهُ تَهلِكُ][8] حتى قالَ [لَهُ][9]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ[10]: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣].

فبَيَّنَ ما ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يذكرهم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: تشكرون. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم (٦) في الأصل وم: تبين (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: السبيل. (٨) في الأصل وم: كان أن تهلك نفسه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و.

الآية ٨٣ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقولونَ: قد وُعِدَ[1] آباؤنا بِمِثْلِ ما وُعِدْنا نحنُ، فَلَمْ يَنْزِلْ بهِمْ ما أُوعِدوا مِنَ العذابِ، ولا يَنْزِلُ أيضاً بنا ما تَعِدُنا، وهو أساطيرُ الأوَّلينَ، أي أحاديثُ الأوَّلينَ.

ثم أمَرَ رسولَهُ أنْ يَسْأَلَهُمْ ما يُلْزِمُهُمُ الإقرارَ والإعْتِرافَ بما كانوا يُنْكِرونَ.

الآيتان ٨٤ و٨٥ فـقـالَ:/ ٣٥٨ ـ أ/ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾] فقالوا: للهِ. لم يَجِدوا بُدّاً مِنْ أنْ [يقولوا للهِ][2] ويُقِرُّوا بهِ لأنهمْ [لو انكروا ذلكَ جَهِلَهُمْ، وأظْهَرَ][3] جهلَهُمْ عند كلِّ الخلائِقِ.

فقالوا: للهِ، فيقولُ: فإذا عَرَفْتُمْ أنَّ ذلكَ كلَّه لهُ، وهو خالِقُكُمْ[4]، فكيف ترَكْتُمْ طاعَتَهُ، وأنا لَسْتُ أدعوكُمْ إلّا إلى ذلكَ: أنْ تَجْعَلوا الأرضَ وما فيها كلَّهُ للهِ؟ أفلا تَتَّعِظونَ، وتُقِرّونَ بما أدعوكُمْ إليهِ؟

الآيتان ٨٦ و٨٧ وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لا بُدَّ لهمْ مِنْ أنْ يُقِرُّوا بذلكَ. فإذا اعْتَرَفْتُمْ[5] بذلكَ، وأقْرَرْتُمْ بهِ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَتَهُ، وتتَّقونَ نَقْمَتَهُ؟

الآيتان ٨٨ و٨٩ وكذلكَ ما قالَ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فإذا عَرَفْتُمْ ذلكَ، وأقْرَرْتُمْ بهِ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ قيلَ: فأنَّى تُصْرَفونَ عنْ ذلكَ؟ وقالَ بعضُهُمْ: فأنَّى تُخْدَعونَ، وتُغَرُّونَ [إذا عَرَفْتُمْ أنّ ذلكَ][6] كلَّهُ للهِ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ رسولَ ﷺ وتقولونَ: إنهُ ساحِرٌ كذابٌ، وهو ليسَ يَدْعوكُمْ إلّا إلى ما أقْرَرْتُمْ، واعْتَرَفْتُمْ بهِ، فأنَّى تَنْسِبونَهُ إلى السِّحْرِ؟ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾أي يُؤَمِّنُ كلَّ خائفٍ، ولا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يُؤَمِّنَ مَنْ أخافَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٧].

قالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يَمْنَعُ[7] ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي لا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَمْنَعَ منهُ أحداً [وقولُهُ][8]: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي تُغَرُّونَ، وتُخْدَعونَ؟ تقولُ: سُحِرْتُ أي خُدِعْتُ، وغُرِرْتُ.

وقالَ: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ أي تُخْدَعونَ، وتُصْرَفونَ عنْ هذا.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بِوَحدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ وتَعالِيهِ عنِ الشركاءِ والوَلَدِ وعمّا وَصَفوهُ.

[والثاني][9]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالقرآنِ الذي عَرَفوهُ أنهُ حقٌّ وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

[والثالثُ][10]: أنْ يُريدَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ محمداً ﷺ عَرَفوا أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ.

[والرابعُ][11]: أنْ يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِهِمْ وما فيهِ شَرَفُهُمْ ومَنْزِلَتُهُمْ.

[والخامسُ: أنْ يكونَ][12] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يكونُ للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ مِنَ الحقوقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في وَصْفِهِمْ ربَّهُمْ [في ما][13] وَصَفوهُ بما لا يَليقُ وصْفُهُ بهِ، أو كاذبونَ [بأنَّ القرآنَ][14] مُفْتَرىً ومُخْتَلَقٌ مِنْ عندِ اللهِ، أو كاذبونَ في قولِهِمْ بأنهُ ساحرٌ وأنهُ مَجنونٌ وأنهُ ليسَ برسولٍ. كَذَبوا في جميعِ ما أنْكَروا، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: وعدنا (٢) في الأصل و م: يقول الله (٣) في الأصل: انكروا ذلك جهلهم، في م: لو أنكروا ذلك جهلهم و يظهر (٤) في الأصل و م: خالقهم (٥) في الأصل و م: عرفتم. (٦) في الأصل: في ذلك، في م: في ذلك فإذا عرفتم ذلك. (٧) أدرج قبلها في م: لا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل و م: أو. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: مما. (١٤) في الأصل وم: بالقرآن.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذه الحروف موصولاً بَعْضُهُ بِبَعْضٍ بما[1] تقدَّمَ. وجائزٌ أن يكونَ كلُّ حرْفٍ من هذهِ الأحْرُفِ مُنْفَصِلاً عنِ الأوَّلِ مُسْتَبِدّاً بذاتِهِ.

فإنْ كانَ على الأوَّلِ فيكونُ قولُهُ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لو[2] كانَ اتَّخَذَ وَلَداً لكانَ إلهاً، إذِ الوَلَدُ يكونُ مِنْ جِنْسِ الوالدِ ومِنْ جوهَرِهِ، لا يكونُ مِنْ خِلافِ جوهرِهِ ولا مِنْ غَيرِ جِنْسِهِ في المُتَعارَفِ.

فإذا كانَ إلهاً منَ الوجْهِ الذي ذَكَرْنا ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

وإنْ كانَ مُنْفَصِلاً فهو على ما ذُكِرَ مِنْ فسادِ ذلكَ كلِّهِ لأنهُ قالَ: ولو كانَ معهُ إلهٌ على ما زَعَموا ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ مِنَ الخَيرِ و الشَّرِّ [وذَهَبَتِ][3] الدَّلالةُ على الوهيَّتِهِ ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي قَهَرَ، وغَلَبَ بعضُهُمْ بَعْضاً على ما يكونُ مِنْ عادةِ ملوكِ الأرض. فإذا كانَ ما قالوا ذهبَتْ دلالةُ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. فإذا لم يكنْ ذلكَ دلَّ أنهُ واحدٌ لا شريكَ معهُ، ولا وَلَدَ لهُ؛ إذِ اتِّساقُ التدبيرِ وجَرْيُ الأشياءِ على حدٍّ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ دلَّ على ألوهيَّةِ واحدٍ لا لِعَدَدٍ؛ إذْ لو كانَ لِعَدَدٍ لَكانَ ما ذُكِرَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ثم مَعْلومٌ أنَّ مِثْلَ هذا الاحْتِجاجِ لا يكونُ معَ الذينَ يُنْكِرونَ ألوهيَّةَ اللهِ، ويَعْبُدونَ الأصنامَ، وهمْ مُشْركو العَرَبِ وكُفَّارُ مكةَ. ولكنْ إنما يكونُ مع الذينَ يُقِرّونَ بألوهيَّةِ اللهِ، لكنْ يَجْعَلونَ مَعَهُ شريكاً لِحاجةٍ تَقَعُ لهُ، وهُمُ الثَّنَوِيَّةُ والدَّهْرِيَّةُ والمَجوسُ وأولئكَ الذينَ يَجْعلونَ خالقَ الشَّرِّ غَيرَ خالقِ الخيرِ وخالقَ هذا غَيرَ خالقِ هذا.

فيكون قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ على هذا، أي يَتَعالىَ عمّا وَصَفوهُ بالحاجَةِ لهُ في خَلْقِ ما خَلَقَ والنَّفْعِ لهُ في ذلكَ.

الآية ٩٢ وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وأمّا على ظاهرِ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنِ اتِّخاذِ الولدِ والشَّريكِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ وما قالوا فيهِ، ونَسَبوا إليهِ ممّا لا يَليقُ بهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كما يُوصَفُ[4] المخلوقُ المُحْدَثُ، لأنهمْ وَصَفوهُ بالوَلَدِ [والوَلَدُ][5] في متعارَفِ الخَلْقِ لا يكونُ إلّا مِنَ الوالِدِ والأمِّ. هذا التَّوالُدُ المعروفُ في ما بَينَ الخَلْقِ.

فإنْ وَصَفوهُ باتِّخاذِ الوَلَدِ شَبَّهوهُ بالمَخْلوقِ المحدَثِ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، فَنَزَّهَ نفسَهُ عنْ ذلكَ.

الآيتان ٩٣و٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قولُهُ[6]: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما][7]: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنهُ كانَ وَعَدَ لهُ أنْ يُرِيَهُ بَعْض ما وَعَدَ لهمْ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦والرعد: ٤٠] فلا نُريكَ شيئاً، فقالَ: ربِّ إنْ أرَيْتَني ما يُوعَدونَ، أو لا تُرِني ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والثاني: إنكَ وإنْ أرَيْتَني ما تقَدَّمَ على التحقيقِ ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم[8] يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في العذابِ الذي وَعَدْتَ لهمْ أنْ [تُنْزِلَهُ عليهِمْ][9] لأنهُ مِنَ العَدْلِ أنْ يُعَذِّبَهُ ويُعامِلَهُ معامَلَةَ أهلِ العَدْلِ. كأنهُ يقولُ: ربِّ لا تُعامِلْني مُعامَلَتَكَ إياهُمْ، وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ العَدْلِ أنْ تُعامِلَني مثلَ ما تُعامِلُ أولئكَ، لأنَّ رسولَ اللهِ، وإنْ لم يَكُنْ [لَهُ][10] زلاتٌ ظاهرةٌ فَلَقَدْ كانَ مِنَ اللهِ إليهِ مِنَ النِّعَمِ والإحْسانِ ما لو أخَذَ بِشُكْرِ ذلكَ لم يَقْدِرْ على أداءِ شُكْرِ واحدةٍ منها فَضْلاً عنْ أنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ الكُلِّ.

---

(١) في الأصل وم: لما. (٢) في الأصل وم: ولو. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: يصف. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لم. (٩) في الأصل وم: تنزل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

ألا ترَى أنهُ رُوِيَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يَدْخلُ أحدٌ الجنةَ إلّا بِرَحْمَةِ اللهِ، فقيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحْمَتِهِ» [مسلم/ ٢٨١٦/ ٧١و. . و٢٨١٨/ ٧٨].

[والثاني][(١)]: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في الزَّيْغ والغِواية. يَسْأَلُ ربَّهُ أنْ يَعْصِمَهُ عنِ الزَّيغ في الضَّلالِ[(٢)] والغِوايةِ التي عليه القومُ الظالمونَ[(٣)]، وهو كدعاءِ إبراهيمَ ربَّهُ وسؤالِهِ[(٤)] العصمةَ عنِ الزَّيغ بقولِهِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وإنْ كانَ وَعَدَ لهمُ العِصْمَةَ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يُخبِرُ رسولَهُ أنهُ ليسَ لِعَجْزٍ يُؤَخِّرُ ما وَعَدَ لهمْ منَ العذابِ ولكنْ لِحِلْمٍ منهُ وعَفْوٍ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا.

والثاني: يُعَزِّي رسولَهُ[(٥)]، ويُصَبِّرُهُ على أذاهمْ إيّاهُ؛ يقولُ: إني معَ قُدْرَتي على إنزالِ العذابِ عليهِمْ والانتِقامِ مِنهمْ أحْلُمُ، وأؤَخِّرُ عنهمْ، فأنتَ مع ضَعفِكَ عَنْ ذلكَ أولَى أنْ تَصْبِرَ على أذاهُمْ.

الآية ٩٦ وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [على وجهَينِ:

أحَدُهما:][(٦)] أي لا تُكافِئْهُمْ لأذاهُمْ إياكَ، ولا تَشْتَغِلْ بهمْ بِمُجازاةِ ذلكَ [ولكنِ ادْفَعْ بالتي هيَ أحْسَنُ][(٧)] وَكِلْ مُكافَأتَهُمْ إليَّ حتى أنا أكافِئُهُمْ، و﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ منَ الكذبِ والأذى الذي يُؤذونَكَ.

والثاني: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ/ ٣٥٨-ب/ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي ادفَعْ سَيِّئاتِهِمُ المُتَقَدِّمَةَ بإحسانٍ يكونُ منكَ إليهِمْ ليكونوا لكَ أولياءَ وإخواناً في حادثِ الأوقاتِ. وهو كقولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

الآيتان ٩٧ و٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ كقولِهِ[(٨)] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت: ٣٦] عَلَّمَ رسولَهُ، وأمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ بهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ اللَّعينِ إذا نَزَغَهُ، ونزَغُهُ [وَسوَسَ لهُ][(٩)]. وأمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ من هَمْزِهِ أيضاً، وهو هَمُّهُ وقَصْدُهُ بذلكَ، وأمَرَهُ أنْ يَتَعَوَّذَ به مِنْ حضورِهِمْ مكانَ الوَسْوَسَةِ حتى [يَدْفَعَهُمْ عنهُ ولا يَحْضُروا] ذلكَ المكانَ.

وكانَ التَّعَوُّذُ مِنْ نَزْغِهِمْ لِيَدْفَعَ عنهُ لئلا يُؤَثِّروا في نفسِهِ بَعْدَ ما حَضَروهُ [وَوَسْوَسُوا لهُ][(١٠)] والتَّعَوُّذُ مِنْ هَمْزِهِمْ هو أنْ يَدْفَعَ عنهُ[(١١)] طَعْنَهُمْ ونَخْسَهُمْ لِئلّا يَشْغَلُوهُ بالذي قَصَدوهُ بهِ، والتَّعَوُّذُ مِنْ حُضورِهِمْ مكانَ الوسوسةِ.

قالَ الحَسَنُ: هَمْزُ الشيطانِ المُوتَةُ، والمُوتَةُ غَشَيانُ القَلْبِ.

رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ مِنْ[(١٢)] همزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ [أبو داوود ٧٦٤]. وقالَ بَعْضُهُمْ: هَمَزاتُهُ ونَزَغاتُهُ واحدٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: هَمَزاتُ الشياطينِ نَخْسُها وطَعْنُها، ومنهُ قيلَ للعائِبِ: هُمَزَةٌ لأنهُ[(١٣)] يَطْعنُ، ويَعيبُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: هَمَزاتُ الشياطين وَساوِسُهُمْ، يُقالُ: هَمَزَ يَهمِزُ هَمْزاً، أي وَسْوَسَ، ومِنْ وَجهٍ آخَرَ: هَمَزَ يَهْمُزُ هَمْزاً، أي عابَ يَعيبُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

ثم في قولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وجهانِ على المُعْتَزِلَةِ:

أحَدُهُما: أنهُ أمَرَ رسولَهُ [أنْ يَتَعَوَّذَ بهِ][(١٤)] مما ذَكَرَ، فَدَلَّ أنَّ عندَهُ لُطْفاً، لم يُعْطِهِ، ما لو أعطاهُ اللهُ لَدَفَعَ بهِ ما ذَكَرَ،

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في م: بالضلال (٣) في الأصل وم: الظالمين. (٤) في الأصل وم: وسؤال. (٥) في الأصل وم: رسول الله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: احسن ذلك، في م: بأحسن ذلك. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وسوسه. (١٠) في الأصل وم: ووسوسوه. (١١) في الأصل وم: عنهم. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال في. (١٣) في الأصل وم: كأنه. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

وأنهُ مالكٌ لِذلكَ؛ إذْ لو كانَ غَيرُهُ مالكاً[1] لذلكَ لَخُرِّجَ السؤالُ بهِ مُخرَجَ الهُزْءِ بِهِ، إذْ مَنْ طَلَبَ مِنْ آخَرَ شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عندَهُ ذلكَ، خُرِّجَ ذلكَ الطَّلَبُ مُخرَجَ الهُزْءِ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: أنَّ كلَّ مأمورٍ بالتَّعوُّذِ جَعَلَ اللهُ لهُ الإعاذةَ عمّا يَتَعوَّذُ عنهُ.

فالوَجْهانِ يَنْقُضانِ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ قد أعطى كلّاً الأصْلَحَ في الدينِ، وأعطى كُلّاً العِصْمَةَ عن كلِّ زَيغٍ وضَلالٍ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ بَعْدَ المَوتِ وبَعْدَ ما عايَنَ أهوالَ الآخِرَةِ وأفزاعَها، لأنَّ الموتَ ليسَ هو شيئاً يأتي مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، إنما هو شيءٌ يذهَبُ بالحياةِ التي فيهِمْ.

إلّا أنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: إنَّ ذلكَ عندَ مُعايَنَتِهِمْ مَلَكَ الموتِ وعندَ هجومِهِ عليهِمْ بأهوالِهِ فَعندَ ذلكَ يَسْألونَكَ الرَّجْعَةَ إلى الدنيا. والأوَّلُ أشْبَهُ، وأقْرَبُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ليسَ هو صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ ولا جوابَهُ لأنهُ ليسَ مِنْ نَوعِهِ ولا مِنْ جِنْسِ ذلكَ، ولكنهُ، واللهُ أعْلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠] وجَوابُ قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] ونَحْوُهُ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. يقولُ: وإنهمْ على ذلكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فعندَ ذلكَ يَرْجِعُ إلى الحقِّ والتَّصْديقِ. لكنَّ ذلكَ لا يَنْفَعُهُ في ذلكَ الوقْتِ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ولم يَقُلْ: ربِّ أرجِعْني. وذلكَ يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهُما: سَأَلَ على ما يُسْألُ الملوكُ، ويُخاطَبونَ: افْعَلوا كذا على الجماعةِ، وإنْ كانَ إنما يُخاطِبُ واحداً على ما خُرِّجَ جوابُ اللهِ وقولُهُ: إنا فَعَلْنا كذا، ونَفْعَل كذا.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ يَسْألُ رَبَّهُ أنْ يأمُرَ الملائكةَ الذينَ يَتَوَلّونَ قَبضَ أرواحِهِمْ، أنْ يُرْجِعوهُ إلى ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي في ما كَذَّبْتُ. وقالَ بعضُهُمْ: في ما تركْتُ في الدنيا مِنَ الأعمالِ الصالحةَ فأعْمَلَ بها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ مِنَ الأموالِ، فَأُؤَدّيَ منهُ حقَّكَ لأنَّ مِنَ الكَفَرَةِ ما كانَ سَبَبُ كُفرِهِمْ مَنْعَ الزكاةِ وجحُودَها[2] كقولِهِ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦ و: ٧] فَيَسألُ أنْ يَرْجِعَ إلى المالِ الذي تَرَكَهُ لِيُؤَدّيَ الحَقَّ الذي كانَ فيهِ، فَمَنَعَهُ كقولِهِ: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] وقولُهُ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّقَ بالصَّدَقَةِ التي مَنَعْتُها لأنَّ الخِطابَ في الصدقةِ بقولِهِ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ الآيةِ [المنافقون: ١١] وهذا أشْبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ هو ردٌّ لِما سَألوا مِنَ الرجْعَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ [هُوَ قَآئِلُهَا]﴾: أي اللهُ تعالى قالَها، وتلكَ الكلمةُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ الآيةَ [المنافقون: ١١] وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[3] يعني الكافرَ عندَ معايَنَةِ العذابِ، وهو قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

ثم قولُهُ ﴿كَلَّآ﴾ على هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ لا حقيقةَ لِسؤالِهِ الذي يَسألُهُ مِنَ الرجعَةِ ليَعْمَلَ العَمَلَ الصالحَ، أي إنهُ، وإنْ رُدَّ، ورجَعَ، لا يَعْمَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) في الأصل وم: مالك. (٢) في الأصل وم: وجحوده. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: هو قول الله ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾.

والثاني: أنهُ لا مَنْفَعَةَ لهمْ في سؤالِهمُ الرَّجْعَةَ؛ إذْ لو رُجِعوا لا يَصِلُونَ إلى ما يَأْمُلونَ لأنهمْ إنما يَسْألونَ ليؤمِنوا، والإيمانُ، سبيلُهُ الاسْتِدْلالُ. فإذا لم يَسْتَدِلّوا بهِ وَقْتَ أمْنِهِمْ وفُسْحَتِهِمْ فكيفَ يَقْدِرونَ على الاسْتِدْلالِ في وَقْتِ خَوفِهِمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي أمامَهُمْ. قالَ أبو مُعاذٍ: [إنه مُشتقٌ][1] مِنْ تَوارَيْتُ عنكَ، فكلُّ ما تَوارَى عنكَ، أمامَكَ كانَ أو خَلفَكَ، فهو وراءَكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ على حقيقةِ الوَراءِ ﴿بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: البَرْزَخُ، هو ما بَينَ النَّفْخَتَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: البَرْزَخُ هو الأجَلُ بينَ المَوتِ والبَعْثِ، وهو قولُ الكَلْبِيِّ وقَتادَةَ. وقالَ مُجاهِدٌ: البَرْزَخُ، هو حاجِزٌ بَينَ المَوتِ والرجوعِ إلى الدنيا.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عُبَيدَةَ: البَرْزَخُ، ما بَينَ الدنيا والآخِرَةِ، وقالا: كلُّ شيءٍ بَينَ شَيئَينِ فهو بَرْزَخٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: البَرْزَخُ ما بَينَ الحَدَّينِ، يعني الدنيا والآخِرَةِ [وقالَ: البَرْزَخُ][2] الأرضُ المُسْتَوِيَةُ.

وأصلُ البَرْزَخِ الحاجِزُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣] أي حاجزاً. وتأويلُهُ أي صاروا إلى الوقتِ الذي يَحْجُزُهُمْ عمّا يَتَمَنَّونَ، ويَشْتَهونَ، وهو كقولِهِ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبإ: ٥٤] وإنما يَشْتَهونَ، ويَتَمَنَّونَ، الإيمانَ والأعمالَ الصالحةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [أي مِنْ ورائِهِمْ][3] أحوالُهُمُ المُمْكِنَةُ. الإيمانُ فيهِ أحوالٌ، لا يُمْكِنُ فيها الأمانُ[4] وما تَمَنَّوا مِنَ العَمَلِ الصالحِ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الباطِنيّةِ لأنهمْ يقولونَ: البَعْثُ هو أنْ يُجْعَلَ لِلْمُؤمِنِ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ صورةٌ روحانيّةٌ، تَبْقَى أبداً ثِيابُ تلكَ الصورةِ الروحانيّةِ: مِنَ الأعمالِ القبيحةِ السَّيِّئَةِ لِلْكافِرِ صورةٌ قَبيحَةٌ روحانيَّةٌ، هي تُعاقَبُ، وتُعَذَّبُ أبداً. فذلكَ البَعْثُ عندَهُمْ.

فأخْبَرَ ﷺ أنَّ بَينَ مَوتِهِمْ وبَينَ البَعْثِ البَرْزَخَ، وهو الأجَلُ الذي ذَكَرْنا أو الحاجِزُ. فَدَلَّ ذلكَ على نَقْضِ قولِهِمْ أنْ ليسَ البَعْثُ إلّا خُروجَ الصورةِ الروحانيّةِ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إنْ كانَ قولُهُ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ في الناسِ كلِّهِمْ فذلكَ في اخْتِلافِ المَواطِنِ على ما قالَهُ ابنُ عباسٍ وغيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ واخْتِلافِ الأوقاتِ: لا يَتَساءلونَ في مَوطِنٍ أو في وَقْتٍ، ويَتَساءلونَ في وقْتٍ آخَرَ.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧و..] ونَحْوَهُ؟

وإنْ كانتِ الآيةُ في الكَفَرَةِ[5]/ ٣٥٩ ـ أ/ خاصةً فهو يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لأنهُ كانَ يَتَناصَرُ بعضُهُمْ بِبَعْضٍ على غَيرِهِمْ، ويَسْتَعينُ بعضُهُمْ بِبَعْضٍ، [وكانَ ذلكَ][6] رِدْءاً لهمْ في هذه الدنيا وشُفَعاءَ وأعواناً وأنصاراً. فأخبَرَ أنَّ ذلكَ يَنْقَطِعُ منهمْ، ويَذْهَبُ ذلكَ التَّناصُرُ عنهُمْ في الآخِرَةِ. والعَرَبُ خاصّةً كانَ يَتَفاخَرُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ بالأنسابِ، ويَتَناصَرُ. فأخْبَرَ أنَّ ذلكَ مُنْقَطِعٌ عنهُمْ في الآخِرَةِ.

والثاني: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وما ذَكَرَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [إلّا][7] لِشُغْلِهِمْ بأنفسِهِمْ لِفَزَعِ ذلكَ اليوم وأهوالِهِ؛ يَنْسَى بعضُهُمْ بعضاً، ويَهْرُبُ منهُ كقولِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٣] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وقولِهِ[8] في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ومشتقة. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل.
(٤) في الأصل وم: الإيمان. (٥) في م: الكفر. (٦) في الأصل وم: ويكون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال.

فذلكَ كلُّهُ لِشِدَّةِ أهوالِ ذلكَ اليومِ وأفزاعِهِ، كانَ لكلٍّ في نفسِهِ شُغْلٌ[(١)] حتى لا يتفرغَ إلى أحدٍ، وإنْ قَرُبَ عنهُ لِشُغْلِهِمْ بأنفسِهِمْ.

وإنْ [كانَتِ الآيةُ][(٢)] في الناسِ جميعاً فهو ما ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ يكونُ في اختِلافِ المَواطِنِ والأوقاتِ، يَسْألونَ في وَقْتٍ، ولا يَسْألونَ في وَقْتٍ، ويَسْألونَ في مَوطِنٍ، ولا يَسْألونَ في مَوضِعٍ، أو يَسْألونَ عَنْ شيءٍ، ولا يَسْألونَ عَنْ آخَرَ.

ورَوَى الخَبَرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «كلُّ نَسَبٍ كانَ فهو مُنْقَطِعٌ إلّا نَسَبي» [بنحوه أحمد٤/ ٣٢٣] أو كلاماً[(٣)] نحوَ هذا. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: «إلّا نَسَبي» وجهَينِ:

أحدُهُما: الشَّفاعةُ لهُ في أنسابِهِ، لا يكونُ ذلكَ لِغَيرِهِ في نَسَبِهِ. فإذا أرادَ هذا فهو على حقيقةِ نَسَبِهِ.

والثاني: أرادَ بقولِهِ: «إلّا نَسَبي» المُعَيَّنَ لهُ في دينِهِ، لأنَّ كلَّ مِنِ اتَّبَعَهُ فَقَدِ انْتَسَبَ إليهِ، فكأنهُ قالَ: إنَّ كلَّ شَفاعةٍ دوني فهو مُنْقَطِعٌ إلّا شَفاعتي، فَمَنِ اتَّبَعَني فَقَدِ انْتَسَبَ إليَّ بِقَبولِهِ ديني.

الآيتان ١٠٢و١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أنَّ[(٤)] مِنْ عَظُمَ قَدْرُهُ ومَنْزِلَتُهُ عندَ اللهِ بالأعمالِ التي عَمِلَها[(٥)] مِنَ الصالحاتِ والحَسَناتِ فهو مِنَ المُفْلِحينَ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ مَنْزِلَتُهُ وقَدْرُهُ عندَ اللهِ بأعمالِهِ الخَبيثةِ السَّيِّئةِ فهو مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ واللهُ أعلَمُ. وقد ذَكَرْنا أقاويلَ أهلِ التأويلِ في المَوازِنِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَلْفَحُهُمُ[(٦)] النارُ لَفْحةً، فلا[(٧)] تدعُ لَحْماً على عَظْمٍ إلّا ألْقَتْهُ ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عابِسونَ. وقالَ [بعضُهُمْ][(٨)]: ﴿تَلْفَحُ﴾ أي تَنْفَحُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَلْفَحُ﴾ تَشْوي وتَحْرِقُ. وذلكَ عادةُ النارِ أنها تَعْمَلُ كلَّ هذا العَمَلِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَلْفَحُ﴾ أي تَضرِبُ، واللَّفْحُ الضَّرْبُ؛ يُقالُ: لَفَحَتْهُ النارُ، أي ضَرَبَتْهُ، فأحرَقَتْ وَجْهَهُ، تَلْفَحُ لَفْحاً، فهي[(٩)] لافحةٌ، والكالحُ العابِسُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كذلكَ كانوا يُكَذِّبونَ. وقد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أمّا[(١٠)] ما قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [كُتِبَ علينا][(١١)] مِنَ الشَّقاوةِ فإنهُ لا يُحْتَمَلُ لأنهمْ يقولونَ ذلكَ القَولَ اعْتِذاراً لما كانَ منهمْ مِنَ التَّفْريطِ في أمْرِهِ والتَّضْييعِ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَطْلُبوا لأنفسِهِمْ عُذْراً في ما كانَ منهمْ؛ إذْ لو كانَ ما ذَكَرَ أولئكَ لَكانَ في ذلكَ طَلَبُ العُذْرِ لأنفُسِهِمْ، وهمْ في ذلكَ الوقتِ لا يَطْلُبونَ عُذْراً لأنفسِهِمْ، ولكنْ يُقِرّونَ بما كانَ منهُمْ كقولِهِ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ١١].

لكنْ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولونَ: ربَّنا شَقِينا بأعمالِنا التي عَمِلْناها، وظَلَمْنا أنفُسَنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾.

والثاني: عَمِلْنا أعمالاً اسْتَوجَبْنا بِتِلكَ[(١٢)] الأعمالِ جَزاءً، فنحنُ أولَى بذلكَ الجزاءِ، فَغَلَبَ علينا جَزاءُ تلكَ الأعمالِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وأمّا ما قالَه أولئكَ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿غَلَبَتْ﴾ أي كُتِبَتْ فهو بعيدٌ لأنهُ إنما يُكْتَبُ ما يَفْعَلُ العبدُ وما يُعْلَمُ أنهُ يَخْتارُهُ، لا يُكْتَبُ غَيرُ الذي عُلِمَ أنهُ يَفْعلُهُ[(١٣)]، ويَخْتارُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: شغلا. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) في الأصل وم: كلام. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: عملوها. (٦) في الأصل وم: لفحتهم. (٧) في الأصل وم: فلم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فهو. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: بذلك. (١٣) في الأصل وم: يفعل.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ ظُلۡمَ عِيانٍ [وظُلماً ظاهراً][1] وإلّا قد كانوا أقرّوا بالظُّلمِ بقولِهِمْ: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ [الملك: ١١]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ قد أقرّوا بالظُّلمِ، لكنهمْ أقرّوا بظُلمِ خَبَرٍ وظُلمِ سَماعٍ لا ظُلمِ عِيانٍ، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ ظُلمَ عِيانٍ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ أي اسْكُتوا، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي ابْعُدوا فيها.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ: خَسَأْتُ فُلاناً، وأخْسأتُهُ، أي باعَدْتُهُ، فَخَسِئَ، أي تباعَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: جائزٌ أنْ يكونَ هذا السؤالُ منهمْ في أوّلِ ما أُدخِلوا، فقالَ لهمْ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فإنكُمْ ماكِثونَ.

[والثاني: جائزٌ][2] أنْ يكونَ هذا السؤالُ منهمْ بَعْدَ ما سألوا المَلَكَ الموتَ مَرَّةً بقولِهِ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] وسألوا مَرَّةً تخفيفَ العذابِ بقولِهِ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فلمّا أَيِسوا منهُ، فعندَ ذلكَ يَسألونَ ربَّهمْ إخراجَهُمْ منها والإعادةَ إلى المِحْنَةِ، فقالَ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي ابْعُدوا فيها ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي تَصيرونَ بِحالٍ، لا تَقْدِرونَ على الكلامِ لِشِدَّةِ العذابِ، فَعندَ ذلكَ يكونُ منهمُ الشَّهيقُ والزَّفيرُ.

الآيتان ١٠٩و١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ يُخبِرُ ﷻ أولئكَ الكَفَرَةَ الذينَ يَسألونَ الإخراجَ منَ النارِ أنكمْ قدْ أخَذْتمْ فَريقاً منْ عبادي، آمَنوا بي ﴿سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ يَذكُرُ هذا لهمْ، واللهُ أعْلَمُ، ليَكونَ حَسْرَةً ونِكايَةً.

وقولُهُ تعالى: [﴿سِخۡرِيًّا﴾][3] اخْتُلِفَ في قراءَتِهِ و تَأويلِهِ: [قَرَأَ بعضُهُمْ: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ بِكَسْرِ السينِ، وقرأَ بعضُهُمْ: بِرَفْعِهِ][4].

قالَ أبو مُعاذٍ: مَنْ قَرَأَ برَفْعِ السينِ فهو منَ العُبودَةِ والخُوَلَةِ، أي اتَّخَذْتُموهُمْ خَوَلاً وعَبيداً، ومَنْ قَرَأَ][5] بكسرِ السينِ فهو مِنَ الاسْتِهْزاءِ والهَمْزِ.

وقالَ الكِسائيُّ: بالرَّفْعِ والكَسْرِ جميعاً مِنَ الاسْتِهزاءِ، ولا يُقالُ في العُبودَةِ إلّا برَفْعِ السينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: [هُما سَواءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ قالَ بعضُهُمْ][6]: حتى أنساكُمُ الهُزْءُ بهمْ عنِ العَمَلِ بطاعتي. وقيلَ: أضافَ الإنساءَ إلى الذِّكْرِ لأنهمْ كانوا بِذِكْرِهِمْ ودعائِهِمْ إلى ذِكْرِ اللهِ يَهْزَؤونَ بهمْ، فأضافَ إليهِ ذلكَ، فكانَ كإضافةِ الرِّجْسِ إلى السورةِ[7] لأنَّ ذلكَ إنما يزدادُ لهمْ عندَ تلاوةِ السورةِ، فأُضيفَ ذلكَ إليهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي إني جَزَيْتُهُمُ اليومَ الفوزَ بما صَبَروا في الدنيا على أذى أولئكَ الكَفَرَةِ أو على أداءِ ما أُمِروا بهِ، ونُهوا عنهُ، أو يكونُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [غافر: ٥١] ونَصْرُهُ إيّاهُمْ، هو أنْ صارتْ لهمُ العاقبةُ[8]، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١١٢و١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ مُقاتِلُ بنُ سليمانَ: في القبورِ. قالَ أبو مُعاذٍ: أخطَأَ مُقاتِلٌ، وذلكَ قولُ مَنْ يُنْكِرُ عذابَ القَبْرِ، وهو قولُ الجَهْمِيَّةِ،

---

(١) في الأصل وم: وظلم ظاهر. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ٢٦٦. (٥) ساقطة من م. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]. (٨) في الأصل وم: عاقبة.

لأنَّ مَنْ كانَ في عذابٍ وشدةٍ لا يَقْتَصِرُ المُقامَ فيهِ كلَّ هذا الاقتِصارِ حتى يقولَ: لَبِثْتُ يوماً أو بَعضَ يوم، بل يزدادُ لهُ مُقامُ [يوم][1] في العذابِ على سنةٍ أو أكثَرَ. فقالَ: إلّا أنْ يكونَ عَنَى ما بَينَ النَّفْختَينِ/ ٣٥٩ ـ ب/ حتى يُؤْذَنَ لأرواحِ، فتَرْقُدَ. فإذا بُعِثوا اسْتَقَلّوا رَقْدَةَ ذلكَ المِقدارِ بما كانوا قاسوا قَبْلَ الرَّقْدَةِ مِنَ العذابِ في القبورِ: إلى هذا يَذْهَبُ بعضُ أهلِ التأويلِ.

وجائزٌ عندنا ما قالَ مُقاتِلٌ ومحمدُ بنُ إسحاقَ بأنَّ ذلكَ يكونُ في القبرِ. وذلكَ لا يَدُلُّ على نَفْيِ عذابِ القَبْرِ لأنهمْ لا يُعَذَّبونَ في القبورِ العذابَ الذي يُعَذَّبونَ في الآخِرَةِ. فجائزٌ أنْ يَسْتَقِلّوا عذابَ القَبْرِ بعذابِ الآخِرَةِ، ويَسْتَقْصِروا[2] ذلكَ الوقتَ بعذابِ الآخِرَةِ لِشِدَّتِهِ وأهوالِهِ. وذلكَ جائزٌ في مُتَعارَفِ الخَلْقِ أنْ يكونَ الرجلُ في بَلاءٍ و شِدَّةٍ، ثم يَزدادَ له البَلاءُ والشِّدَّةُ، فَيَسْتَقِلُّ ذلكَ البلاءَ الذي كانَ بِهِ لِشِدَّةِ ما حَلَّ بِهِ.

فَعَلَى ذلكَ همْ؛ جائزٌ أنْ يكونوا في عذابٍ في قبورِهِمْ، لكنهمْ إذا عايَنوا عذابَ الآخِرَةِ اسْتَقَلّوا عذابَ القبرِ، واسْتَقْصَروهُ لِشِدَّةِ عذابِ الآخِرَةِ، أو أنْ يكونَ عذابُ القَبْرِ على النَّفْسِ الرُّوحانيِّ الدَّراكِ، الذي يَخْرُجُ في حالِ النومِ ليسَ على رُوحِ حياةِ النائمِ؛ يَرَى نفسَهُ في بَلاءٍ وعَذابٍ في نومِهِ، ويكونُ في أفْزاعٍ، وكانَتْ نفسُهُ مُلْقاةً في مكانٍ، لا عِلْمَ لها بذلكَ، ولا خَبَرَ، وبها آثارُ الأحياءِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ عذابُ القبرِ على هذا السبيلِ على الرُّوحِ الذي بِهِ يُدْرِكُ الأشياءَ لا على رُوحِ الحياةِ الذي بِهِ يَحْيَى.

وقالَ قائلونَ: ذلكَ في الدنيا؛ اسْتَقَلُّوا حياةَ الدنيا بالحياةِ[3] الآخِرَةِ. وهو كقولِهِ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾؟ هذا يَدُلُّ على أنَّ ذلكَ في الحياةِ الدنيا أشْبَهُ حينَ[4] أمرَ أنْ يَسْأَلَ الذينَ يَعُدُّونَ؛ وذلكَ إنما يكونُ في الدنيا لا في الآخِرَةِ.

ثم اخْتُلِفَ في العادِّينَ: قالَ بعضُهُمْ: همُ الملائكةُ الذينَ يَكْتُبونَ أعمالَهُمْ في هذهِ الدنيا، ويَرْقُبونَهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ مَلَكُ المَوتِ وأعوانُهُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولكنْ لا تَعْلَمونَ.

قالَ القُتَبيُّ ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسْرِ السينِ، أي تَسْخَرونَ منهمْ، وسُخْرِيّاً بضَمِّها، أي تُسَخِّرونَهُمْ مِنَ السُّخْرَةِ[5] عَبَثاً. وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي شَغَلَكُمْ أمْرُهُمْ عنْ ذِكري. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ صَيَّرَ خَلْقَهُ الخَلْقَ لا لِلرُّجوعِ والبَعْثِ عَبَثاً لوجهَينِ:

أحَدُهُما: لأنَّ خَلْقَهُ إياهُمْ لا لِعاقِبَةٍ تُتَأَمَّلُ أو لِمَنافِعَ تُقْصَدُ، لِلْهلاكِ خاصَّةً ولِلْفَناءِ عَبَثٌ كبناءِ الباني لا لِمَنْفَعةٍ تُقْصَدُ بِهِ، ولكنْ لِلنَّقْضِ يكونُ عَبَثاً في الشاهِدِ. وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢] سَفَّهَها في غَزْلِها لِلنَّقْضِ خاصَّةً لا لِمَنْفَعةٍ قَصَدَتْ بِهِ، ونهانا أنْ نَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِها [فلو لم][6] يكنِ المَقصودُ مِنْ خَلْقِ الخَلْقِ إلّا الموتَ والفَناءَ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ تُقْصَدُ كانَ سَفَهاً وعَبَثاً.

والثاني: ما أخْبَرَ أنهُ إنما أنْشَأَ هذا العالَمَ غَيرَ البَشَرِ لهذا البَشَرِ، ولهُ سَخَّرَ ذلكَ كلَّهُ حينَ[7] قالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] إذ ليسَ لغَيرِ البَشَرِ مَنْفَعةٌ بهذهِ النِّعَمِ التي أنْشَأها لهمْ مِنْ نَحْوِ الجنِّ والملائكةِ ونَحْوِهِمْ، إذْ لهمْ قِوامٌ بدونِ ذلكَ مِنَ الشمسِ والقمرِ ونَحْوِهِ مِنَ النِّعَمِ إنما ذلكَ لِلْبَشَرِ خاصَّةً.

فإذا كانَ كذلكَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَجْعَلَ لهمْ كلَّ هذهِ النِّعَمِ التي ذَكَرَها، وأنشَأَها لهمْ، ثم لا يَمْتَحِنُهُمْ بالشكرِ على ذلكَ، ولا يأمُرُهُمْ بأوامِرَ، ولا يَنْهاهُمْ بِمَناهٍ. فَدَلَّ ما أنشَأَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ، وسَخَّرَ لهمْ مِنَ الأشياءِ أنهمْ يُبْعَثونَ، ويُرْجَعونَ إليهِ حتى

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويستقصرون. (٣) في الأصل وم: الحياة. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: السخرية. (٦) من م، في الأصل: فلم. (٧) في الأصل وم: حيث.

يُجزَوا جميعاً: لِلْمُحْسِنِ [جزاءُ الإحسانِ ولِلْمُسِيءِ][١] جزاءُ الإساءَةِ؛ إذْ في العقولِ التَّفْرِقَةِ بيْنَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبيْنَ المُحْسِنِ والمُسِيءِ وبيْنَ الشاكِرِ والكافِرِ. ثم رَأيناهُمْ جميعاً في هذهِ الدنيا عاشوا على سَواءٍ في الضِّيقِ والسَّعَةِ، لم نَرَ ما يَفْصِلُ بيْنَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ وبيْنَ المُحْسِنِ والمُسِيءِ وبيْنَ الشاكِرِ والكافِرِ. فَدَلَّ ما لم نَرَ مِنَ التَّفْرِقَةِ ما ذَكَرْنا في هذهِ الدنيا على أنَّ هنالكَ داراً أُخْرَى: دارُ الجزاءِ.

هناكَ يَفْصِلُ بيْنَ ما ذَكَرْنا في الجزاءِ، واللهُ الموفِّقُ.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ قيلَ: لا تُبْعَثُونَ، وقيلَ: لا تُرْجَعونَ إليهِ بالأعمالِ التي عَمِلْتُموها كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] وقولِهِ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي يَتَعالَى اللهُ عنْ أنْ يكونَ خَلْقُ الخَلْقِ لا لِحِكْمَةٍ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ [الحُسْنَى][٣] أوِ المَلِكُ الذي خَلَقَ الخَلْقَ لِحِكْمَةٍ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تنْزيهٌ وتَبْرِئَةٌ مِنْ جميعِ ما قالوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ على الأوَّلِ: يَتَعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ وربُّ العَرْشِ الكريمِ عنْ أنْ يَخْلُقَهُمْ لا لِحِكْمَةٍ أو للعَبَثِ.

وقالتِ الباطِنِيَّةُ: العَرْشُ القيامَةُ على ما قالوا هُمْ، إلّا أنهمْ يقولونَ: هو قائِمُ الزمانِ، وقُلْنا نحنُ: هي القيامَةُ المَعْروفةُ، وهي الساعةُ [وهو][٤] ربُّ القِيامةِ، وهي المُلْكُ الذي ذَكَرْنا كقولِهِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] خَصَّ ذلكَ اليومَ بالمُلْكِ لهُ، وإنْ كانَ المُلْكُ لهُ في الدارَيْنِ جميعاً لما لا يُتَنازَعُ في مُلْكِهِ يومَئِذٍ، قد نُوزِعَ في الدنيا، فَخَلَصَ له مُلْكُ ذلكَ اليومِ، وصَفا لهُ يومئذٍ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: العَرْشُ السريرُ، أضافَ إلى نفسِهِ لِمَنْزِلَتِهِ[٥] عندَ اللهِ، و﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ هو نَعْتُ ذلكَ السريرِ، أي الحَسَنِ كقولِهِ: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي حَسَنٍ. وهكذا يُوصَفُ كلُّ كريمٍ بالحُسْنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو نَعْتُ الرَّبِّ، أي ذو عَفْوٍ وصَفْحٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ظاهِرُ هذا يُوحِي أنَّ هنالكَ إلهاً آخَرَ لأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩] وكقولِهِ[٦]: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الذريات: ٥١].

والثاني: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [أي مَنْ يُسَمِّ معَ اللهِ إلهاً آخَرَ][٧] إذ كانوا يُسَمُّونَ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها آلِهةً. على هذينِ الوجْهَيْنِ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي لا حُجَّةَ لهُ[٨] بذلكَ، لأنَّ الحجَّةَ إنما تكونُ بوجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا بالأخبارِ التي تجوزُ الشهادةُ على صِدْقِها وصِحَّتِها، وإمّا بالعُقولِ تَشْهَدُ على ذلكَ، وإمّا مِنْ جِهَةِ الحِسِّ يَدُلُّ على ذلكَ. فلم يَكُنْ [لهُ][٩] واحدٌ مِنْ هذهِ الوجوهِ.

ثم الحِسُّ يكونُ بالدلالةِ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: بوقوعِ الحِسِّ عليهِ بالبَديهَةِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ومنزلته. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) في م: لهم، ساقطة من الأصل.

[والثاني][1]: بآثارٍ تَدُلُّ على الألوهيّةِ.

فلا كانَ في ظاهرِ وقوعِ الحِسِّ دلالةُ ذلكَ، ولا كانَ بها آثارٌ تدلُّ على ذلكَ، بل فيها آثارُ العُبودةِ والذُّلِّ فَضلاً ألّا تكونَ لها آثارُ الألوهيّةِ. ولا عُذرَ لهمْ في ذلكَ، لأنَّ العبادةَ لِآخَرَ إنما تكونُ لوجوهٍ:

إمّا لِلنِّعَمِ والأيادي تكونُ منهُ إليهِ، فَيَعْبُدُهُ[2] شكراً لما أنْعَمَ عليهِ، وأحْسَنَ إليهِ، وإمّا لِحَوائِجَ[3]، يطمعُ قضاءَها لهُ من عندِهِ، أو لِما يَرَى لهُ في نفسِهِ منْ آثارِ العُبودةِ لهُ. فإذا لم يكُنْ واحدٌ مِنْ هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا لا عُذْرَ لهمْ في عبادةِ تلكَ الأصنامِ.

فإنْ قالوا: لنا برهانٌ وحُجّةٌ في ذلك قيلَ: قَطَعَ حِجاجَكُمْ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨] وقولِهِ: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ونحوِ ذلكَ منَ الآياتِ فيها قَطْعُ حِجاجِهِمْ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾ أي لا سُلْطانَ/ ٣٦٠ ـ أ/ لهُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ هو قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: حِسابُهُ: جَزاؤُهُ لِصَنيعِهِ عندَ ربِّهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥و٢٦].

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا تَعْظيماً مِنَ اللهِ لكلِّ أحدٍ [سَأَلَ][4] سُؤالَ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ. وقيلَ: هو لِرسولِ اللهِ ﷺ.

فهو يُخرَّجُ على وجْهَينِ:

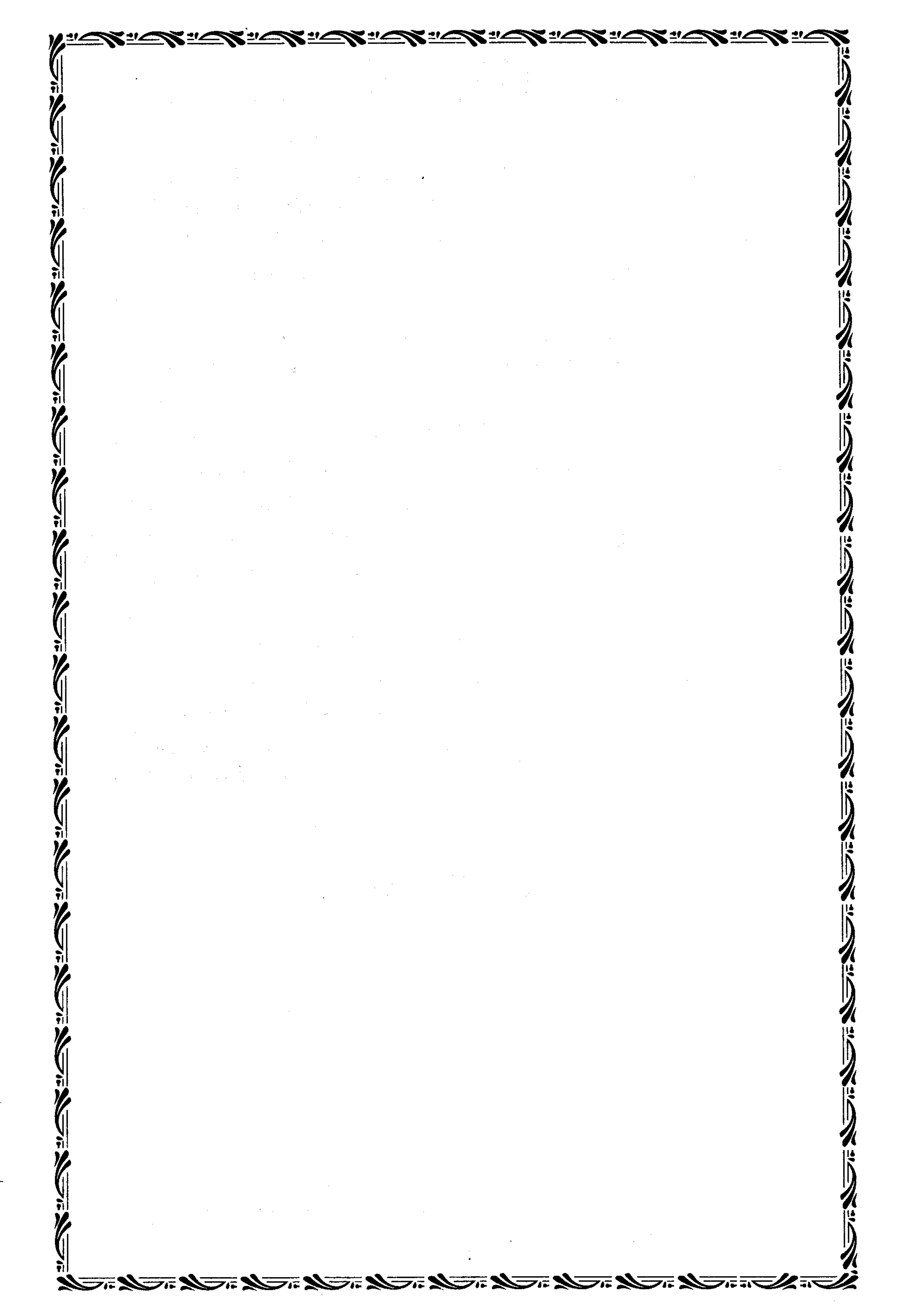
[أحَدُهما][5]: أنَّ في حكْمَتِهِ وعَدْلِهِ ألّا [يَغْفِرَ، ولا يَرْحَمَ][6] أحداً، وإنْ كانَ في فَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أنْ يَرْحَمَ، ويَغْفِرَ.

والثاني: يَجْعَلُ لهُ العِصْمَةَ والرَّحْمَةَ بهذا الدعاءِ، أو تكونُ العِصْمَةُ، تزيدُ في الخَوفِ كقولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنَّ رَحْمَتَهُ إذا أدركَتْ أحداً أغْنَتْهُ عنْ رَحْمَةِ غَيرِهِ [ورَحْمَةُ غَيرِهِ][7] لا تُغْنيهِ عنْ رَحْمَتِهِ. واللهُ الموَفِّقُ [وصلّى الله على سَيِّدِنا محمدٍ وآله أجمعينَ][8].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: فيعبدوه. (٣) في الأصل وم: لحوائجهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: يرحم ويغفر. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.



سورة النور

كلُّها[١] مدنيةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ سَمّاها سُورَةً، وجَعَلَ تِلاوتَها سُورَةً، ولم يَجْعَلْ لِغَيرِها مِنَ السُّوَرِ[٢] التِّلاوَةَ كما جَعَلَ لِهذهِ[٣].

فجائزٌ ذلكَ لِكَثْرةِ ما فيها مِنَ الأحكامِ ومِنَ[٤] الفَرائضِ والآدابِ ما بالناسِ إلى ذلكَ حاجةٌ، أو لِمَعْنىً [لم يَذْكُرهُ، أو لا لمعنىً][٥] ولكنهُ ذَكَرَ هذا، إذْ[٦] لهُ الخَلْقُ والأمرُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: السُّورَةُ القِطْعَةُ مِنْ كلِّ شيءٍ. يقولُ: سَوَرْتُ الشيءَ، أي قَطَعْتُهُ.

وقالَ بعضُ العلماءِ: إنما سُمِّيَ القرآنُ لِجَماعةِ السُّوَرِ، وسُمِّيَتِ السُّورَةُ [لأنها][٧] مَقطوعةٌ مِنَ الأخرى. فلمّا قُرِنَ بَعْضُها إلى بَعْضٍ سُمِّيَ قُرآناً كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ أي تأليفَ بَعْضِها إلى بَعْضٍ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧و١٨] أي فإذا جَمَعْناهُ، وألَّفْناهُ، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ أي ما جُمِعَ فيه، فاعْمَلْ بهِ مِنْ أمْرٍ ونَهْيٍ. ويُقالُ: ليسَ لِشِعْرِهِ قُرآنٌ أي نَظْمٌ وتأليفٌ. ويُقالُ للمرأةِ: ما قَرَأَتْ سَلىً قَطُّ، أي لم تَجْمَعْ في بَطْنِها وَلَداً.

وقالَ بعضُهُمْ: سُورةٌ بلا هَمْزٍ أي المَنزِلَةُ والرِّفْعةُ، وبالهَمْزِ سُؤْرَةٌ: البَقيَّةُ، ومنهُ سُمِّيَ سُؤْرُ الكلبِ وسُؤْرُ الهِرِّ وسُؤْرُ الطائرِ أي بَقِيَّتُهُ والقِطعَةُ منهُ.

ثم قُرِئَتْ بالنَّصْبِ[٨] سُورةً ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ والرَّفْعِ جَميعاً ﴿سُورَةٌ﴾، وَهيَ القراءةُ الظاهِرةُ.

فَمَنْ قَرَأها بالنَّصْبِ أوقَعَ الفِعْلَ عليها، أي أنْزَلْناها سُورَةً. والفعلُ إذا وَقَعَ على شيءٍ انْتَصَبَ، تَقَدَّمَ الفِعْلُ، أو تأخَّرَ، كقولِكَ: زيداً ضَرَبْناهُ، وضَرَبْنا زيداً. وقالَ بعضُهُمْ: إنما انْتَصَبَ لإضمارٍ فيهِ كأنهُ قالَ: اتَّبِعوا سورةً أنزَلْناها كقولِهِ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] بالنصبِ، أي احْذَروا ناقةَ اللهِ.

ومَنْ قَرَأ بالرفعِ [رَفَعَ][٩] على الابْتِداءِ. فكلُّ ما يُبْتَدَأُ بِهِ فهو رَفْعٌ. وقالَ بعضُهُمْ: رُفِعَ [على][١٠] إضمارِ: هذهِ، سورةٌ أنزَلْناها، وذلكَ كلُّهُ جائزٌ في اللغةِ. واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وبالتَّشديدِ: وفَرَّضْناها[١١].

قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ: وفَرَّضْناها بالتَّشْديدِ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي كَثَّرْنا فيها الفرائضَ والأحكامَ.

والثاني: فَرَّضْناها، أي فَصَّلْنا فيها بَيْنَ ما يُؤْتَى وبَيْنَ ما يُتَّقَى وبَيْنَ ما [أُمِرَ وبَيْنَ ما][١٢] نُهِيَ.

وقالَ: وأمّا التَّخْفيفُ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فَمَعْناهُ: الْزَموا ما فيها مِنَ الفَرائِضِ وآدابِهَا.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن سورة النور، وفي م: سورة النور. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: سورة. (٣) من م، في الأصل لهذا. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٣٣.
(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٣٣. (١٢) ساقطة من الأصل.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ بالتَّخفيفِ أي بيّنّا فيها الفَرائِض.

وقالَ أبو عوسَجَة: مَنْ قَرَأها بالتَّخفيفِ ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي أنْزَلنا فيها فَرائِضَ مُخْتَلِفَةً، ومَنْ قَرَأَ: فَرَّضناها بالتَّشديد يَقُلْ: فَرَّضْناها عليكُمْ وعلى مَنْ بَعْدَكُمْ على التَّكثيرِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي حُجَجاً بَيِّنَةً، يَقُصُّها، ويَعْرِفُها كلُّ أحدٍ بالبديهةِ والتَّأمُّلِ، أو أنْ يُريدَ بالآياتِ الآياتِ التي جَمَعَ فيها أشياءَ، وتُتْلَى لأنَّ الآيةَ إنما تَسْتَحِقُّ اسْمَ الآيةِ إذا جُمِعَ فيها كلماتٌ وحُروفٌ، فأمّا كلمةٌ واحدةٌ وحَرْفٌ واحدٌ فلا تُسَمَّى بهذا الإسْمِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ماذَكَرَ فيها، وبَيَّنَ مايُؤْتَى ويُتَّقَى، وبَيَّنَ ما يَحِلُّ ويَحْرُمُ. فذلكَ كلُّهُ مُبَيَّنٌ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّعِظونَ بما ذَكَرَ فيها مِنَ المَواعِظِ، وبَيَّنَ فيها ما يَزْجُرُ عنِ المُعاوَدَةِ، وهي الحدودُ التي ذَكَرَ فيها لأنَّ سَبَبَ الإتِّعاظِ أحدُ شيئَينِ: المَواعِظُ التي تُلينُ القلوبَ والحدودُ التي تَزْجُرُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ لو كانَ الخِطابُ يَجِبُ اعْتِقادُهُ على ظاهِرِ المَخْرَجِ والعمومِ على ما قالَهُ بَعْضُ الناسِ لَكانَ [لكل][1] أحدٍ أنْ يُقيمَ على آخَرَ حَدًّا بِظاهِرِ قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فيقولَ: اللهُ أمرَني ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ أو أنْ يَضْرِبوا جميعاً واحداً مِنَ الزُّناةِ بظاهِرِ قولِهِ: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ فَيَزْدادُ الضَّرْبُ والحَدُّ على ما حَدَّ اللهُ أضعافاً مُضاعَفَةً.

فَدَلَّ أنَّ اعْتِقادَ العُمومِ فاسدٌ بِظاهِرِ المَخْرَجِ، أو أنْ يقولَ قائِلٌ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَهُ قَالَ: «العَيْنانِ تَزْنِيانِ واليَدانِ تَزْنِيانِ، والرجلانِ تَزْنِيانِ والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ كلَّهُ ويُكذِّبُ» [مسلم: ٢٦٥/٢١] سَمَّى الناظِرَ إلى ما لا يَحِلُّ نَظَرُهُ إليهِ زانياً والماسَّ لَهُ[2] كذلكَ، فَيَلْزَمُهُ الحَدُّ بِظاهِرِ قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾.

فإذا لم يُفْهَم مِنْ ظاهِرِ قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ مَا ذَكَرْنَا كلَّهُ دلَّ أنَّ الاعْتِقادَ على عُمومِ المَخْرَجِ فاسدٌ، وأنَّ المُرادَ بقولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ راجِعٌ إلى الخُصوصِ إلى مُقيمٍ دونَ مُقيمٍ، وإلى زانٍ دونَ زانٍ، وهو الزاني الذي يَجْمَعُ في فِعْلِ الزِّنَى جميعَ بَدَنِهِ: العَيْنَ واليَدَ والرِّجْلَ والفَرْجَ وجميعَ بَدَنِهِ. ورَجَعَ الخِطابُ بهِ إلى البِكْرَيْنِ الحُرَّيْنِ والثَّيِّبَيْنِ الحُرَّيْنِ اللَّذَيْنِ لم يَسْتَجْمِعا جميعاً أسبابَ[3] الإحصانِ. فأمّا مَنِ اسْتَجْمَعَ جميعَ أسبابِ الإحصانِ فإنَّ حَدَّهُ الرَّجْمُ على اتِّفاقِ القولِ منهمْ جميعاً.

إلّا أنَّ طائفةً مِنْ أهلِ العِلْمِ أوجَبوا عليهِ مَعَ الرَّجْمِ الجَلْدَ، وفي البِكْرِ مَعَ الجَلْدِ تَغْريبَ عامٍ. والدليلُ على أنَّ المُرادَ راجِعٌ إلى الحُرَّيْنِ البِكْرَيْنِ أوِ الثَّيِّبَيْنِ اللَّذَيْنِ لم يَسْتَجْمِعا أسبابَ الإحْصانِ ما ذَكَرْنا مِنَ القَولِ المُتَّفَقِ [عليهِ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ/ ٣٦٠ ـ ب/ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

دلَّ إيجابُ نِصْفِ ما على المُحْصَناتِ على الإماءِ على أنهُ أرادَ بالمُحْصَناتِ الحَرائرَ اللاتي لم يَسْتَجْمِعْنَ جميعَ أسبابِ الإحْصانِ، وأنَّ الخِطابَ بِقولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ إلى آخِرِ مَا ذَكَرَ راجِعٌ إلى الحُرَّيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْناهما. ثم لم يَضْرِبْ في الزِّنى الذي بِهِ زَنَى، وهو الفَرْجُ، وقَطَعَ في السرقةِ [التي بها سَرَقَ، وهي][5] اليَدُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما جَعَلَ الحدودَ زَواجِرَ عنِ المُعاوَدَةِ، لم تُجْعَلْ دافِعَةً مُذْهِبَةً إمكانَ ذلكَ الفِعْلِ مِنَ الأصلِ. وفي ضَرْبِ الفَرْجِ ذهابُ إمكانِ الفِعْلِ مِنَ الأصلِ، ولا كذلكَ في قطعِ اليَدِ في السرقةِ، إذْ تَبْقَى أُخْرَى، بها يأخُذُ، وبها يَقْبِضُ. لذلكَ افْتَرَقا؛ إذْ أنْ يُقالَ: في ضَرْبِ الفَرْجِ خوفُ [هَلاكِ المرءِ][6] في الأغلَبِ، وليسَ ذلكَ في قَطْعِ اليَدِ، بل يَبْقَى حيّاً في الغالبِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ الحدودَ لم تُجْعَلْ مُهْلِكَةً مُتْلِفَةً، ولكنْ جُعِلَتْ زَواجِرَ عنِ المُعاوَدَةِ لذلكَ افْتَرَقا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: لها. (٣) في الأصل وم: أحكام. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الذي به سرق وهو. (٦) في الأصل وم: هلاك.

وفي قولِهِ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النَّفيَ ليسَ مِنْ عَذابِ الزانِيَيْنِ ولا مِنْ عُقوبَتِهِما لأنهُ قالَ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والنَّفيُ ممّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يُؤمَرَ بِشُهودِهِ لأنهُ لا يُمْكِنُ. فَدَلَّ أنهُ ليسَ مِنْ عذابِهِما.

ويَدُلُّ أيضاً قولُهُ: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [على ذلكَ][1] لأنهمْ أجْمَعوا على أنْ لا نَفيَ على الإماءِ إذا زَنَيْنَ، وقد أوجَبَ عليهِنَّ إذا زَنَيْنَ نِصفَ ما على المُحْصَناتِ أو إنْ ثَبَتَ النَّفيُ فهوَ يَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

[أحَدُها][2] أنهُ أرادَ بِهِ قَطْعَ الشَّينِ الذي لَحِقَهُما بِفِعْلِ الزِّنَى لأنهُ ليسَ جُرْمٌ مِنَ الأجرامِ أكْثَرَ شَيناً وأشَدَّ مِنْ فِعْلِ الزِّنَى، فَأرادَ أنْ يَنْقَطِعَ ذلكَ مِنْ بَينِ الناسِ.

[والثاني][3]: أنْ يَكونَ أرادَ بِه قَطْعَ الشَّهوَةِ التي حَمَلَتْهُما على الزِّنَى بِذُلِّ السَّفَرِ وذِلَّةِ الغُرْبَةِ.

[والثالثُ: أنهُ][4] صارَ مَنْسوخاً لمّا شُدِّدَ في الضَّرْبِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

وفي ما ذَكَرَ النَّفيَ لم يَذْكُرْ فيه الشِّدَّةَ، إنما ذَكَرَ فيهِ الجَلْدَ فَحَسْبُ بقولِهِ عليهِ السلامُ: «أمّا على ابنِكَ هَذا فَجَلْدُ مئةٍ وتَغْريبُ عامٍ» [البخاري: ٢٦٩٥ و٢٦٩٦] فجائزٌ أنْ يكونَ الضربُ كانَ بالتَّخفيفِ. وفيهِ نَفيٌ. فلما شُدِّدَ في الضَّرْبِ ارْتَفَعَ النَّفيُ.

وقد جاءَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ نَفَى رجلاً، فارْتَدَّ عنِ الإسلامِ، ولَحِقَ بالرومِ، فقالَ: كَفَى بالنَّفيِ فِتْنَةً، وقالَ: لا أنْفي بَعْدَ هذا أبداً.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ في تَخفيفِها. فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ مِنْ أعْظَمِ الأجرامِ في الشَّينِ.

ثم لِلْمُعتَزِلةِ تَعَلُّقٌ بظاهِرِ قولِهِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قالوا: إنَّ اللهَ وَصَفَ نَفسَهُ بالرحمةِ بقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ثم نَهاهُمْ أنْ تَأخُذَهُمْ رَأفَةٌ على الزانِيَيْنِ وقْتَ إقامةِ الحَدِّ عليهِما. دَلَّ أنَّ الزانيَ قد خَرَجَ بِفِعْلِهِ عنِ الإيمانِ لِما ذَكَرْنا مِنْ رَفْعِ الرَّأفَةِ والرحمةِ عنهُما.

لكنْ عندَنا في الآيةِ دلالةٌ أنهُ ليسَ على ما ذَهَبوا إليهِ، لأنَّ الزَّانيَ لو كانَ يَخْرُجُ عنِ الإيمانِ بِفِعْلِ الزِّنَى لَكانَ لا يَحْتاجُ إلى أنْ يقولَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لأنهمْ كانوا على ما وَصَفَهُمُ اللهُ بالشِّدَّةِ على غَيرِ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾.

دَلَّ أنَّ الزِّنَى لم يُخرِجْهُ عنِ الإيمانِ، فَنَهَى ألّا تَأخُذَنا بهما رَأفَةُ الإيمانِ والدينِ في تَعْطيلِ الحَدِّ وتَخْفيفِهِ، ويكونُ النَّهيُ عنْ أخْذِ الرَّأفَةِ لِيَتَحَمَّلا[5] ذلكَ الحَدَّ. وإلّا لم يُنْتَفَعْ بِهِ في الآخِرةِ، وهو ألّا يُعَذَّبَ بِه.

الا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؟ وفائدتُهُ ما ذَكَرْنا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ إضاعةَ الحَدِّ لِما يُتأمَّلُ مِنَ النَّفعِ في الآخِرةِ نَحْوُ مَنْ يَشْرَبُ الأدويةَ الكريهةَ، ويَفْتَصِدُ، ويَحْتَجِمُ، لِما يَطْمَعُ البُرْءَ بِهِ والنَّفعَ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يَكونَ النَّهيُ عنْ أخْذِ الرأفَةِ في حَدِّ الزِّنَى لِيُقامَ ذلكَ عليهِ، فَيَنْجُوَ في الآخِرةِ مِنْ عذابِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الطائفةُ واحدٌ أو إثْنانِ فصاعداً. وكذلكَ قالوا في قولِهِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٣) في الأصل وم. : أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥)في الأصل وم: وجهين: أحدهما.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] هما رَجُلانِ اقْتَتَلا. دَلَّ عَلى ذلكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وهما اثْنانِ في الظاهرِ لكنْ أنْ يَنْضَمَّ إلى كلِّ واحدٍ منهما جماعةٌ مِنْ عَشيرَتِهِ، فتكونُ الطائفةُ جَماعةٌ لا واحداً.

وقالَ بَعضُهُم: الطائِفَةُ جَماعةٌ مِنَ العَشَرَةِ[1] فَصاعداً.

ثم يَجِبُ أنْ يُنْظَرَ لأيِّ مَعْنىً أمَرَ أنْ يَشْهَدَ عذابَهُما طائفةٌ مِنْ بَينِ سائرِ الأجرامِ. فهو، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: لِلْمِحْنَةِ: أرادَ أنْ يَمْتَحِنَ مَنْ حَضَرَ ذلك؛ إذِ[2] المَرْءُ قد يَتَألَّمُ على ضَرْبِ آخَرَ، وما يَحُلُّ بِغَيرِهِ لِيَنْزَجِرَ عن مِثْلِهِ.

الثاني: لِانْتِشارِ الخَبَرِ في الناسِ لِيَنْزَجِروا عن مِثْلِهِ.

والثالثُ: لئلا يَتَعَدّى الضاربُ والمُقيمُ ذلكَ الحَدَّ، ويُجاوِزَهُ على الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ؛ فإنْ هو يَتَعَدَّ مَنَعَهُ مَنْ حَضَرَهُ عنِ المجاوَزَةِ والتَّعَدّي.

والرابعُ: لِدَفْعِ التُّهَمَةِ عنِ الحاكمِ: لئلا يَتَّهِمَهُ الناسُ أنه أقامَ عَلَيهِ الحَدَّ بلا سَبَبٍ، كانَ منهُ، ولا جُرْمٍ.

فإنْ كانَ الأمْرُ بِشُهودِ الطائفةِ عذابَهُما هذهِ الوجوهَ الأربَعَةَ[3] التي ذَكَرْنا مِنِ انْتِشارِ الخَبَرِ ودَفْعِ التُّهَمَةِ عنهُ ومَنْعِ المُجاوَزَةِ [والمِحْنَةِ فهو][4] يَحتاجُ أن تكونَ جماعةٌ لأنَّ[5] الواحدَ غَيرُ كافٍ لذلكَ.

فإنْ كانَ الأولُ، وهو المِحْنَةُ، فالواحدُ وما فَوقَهُ يكونُ: يَمْتَحِنُ كلّاً في نفسِهِ بِحُضورِ ذلكَ الحَدِّ لِيَتَألَّمَ بِهِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ بعضَ أهلِ العِلْمِ قالوا: إنهُ يُجْمَعُ معَ الرَّجْمِ الجَلْدُ، واحْتَجُّوا بما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه قَالَ: «الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ جَلْدُ مئةٍ ورَجْمٌ بالحجارةِ، والبِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مئةٍ وتَغْريبُ عامٍ» [مسلم: ١٦٩٠]. فأمّا الجَلْدُ فلا خِلافَ في أنهُ حَدُّ البِكْرِ. وأمّا النَّفْيُ [فقدِ اختَلَفوا فيهِ][6]: فمنهُمْ مَنْ رآهُ واجباً، ومنهُمْ مَنْ رآهُ عقوبَةً، [لم يَضُمُّهُ][7] إلى الحَدِّ.

ونحنُ قد ذَكَرْنا المَعْنى في ذلكَ إنْ ثَبَتَ ما يُغْنينا عنْ تَكرارِهِ. ونزيدُ أيضاً نُكْتَةً، وهي أنَّ الحدودَ[8] ذاتُ نِهاياتِ مقدارٍ[9] وغاياتٍ، ولذلكَ سُمِّيَتْ حُدوداً لأنَّ لها نِهايةً وغايةً كما يُقالُ: حَدُّ الدارِ[10] مُنْتَهاها وآخرُها.

فلما لم يكُنْ لِلنَّفْيِ مكانٌ معلومٌ، يُنْفَى الزاني إليهِ، دلَّ أنهُ ليسَ بِحَدٍّ، ولكنْ أرادَ بهِ الوجوهَ التي ذَكَرْنا: إمّا حَبْساً كما يُحْبَسُ الدّاعِرُ حتى يُحْدِثَ توبَةً [وإمّا][11] قَطْعَ الشَّينِ والذِّكْرِ الذي يَتَحدَّثُ الناسُ بهِ لِيُنْسَى ذلكَ، ويُتْرَكَ [وإمّا][12] قَطْعَ الشَّهَواتِ التي حَمَلَتْهُما[13] على ذلكَ بِذِلَّةِ السَّفَرِ والغُرْبَةِ. وإنْ كانَ ثَمَّ صارَ مَنْسوخاً بما شُدِّدَ فيهِ الضَّرْبُ، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا قولُ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في إزالةِ الجَلْدِ عنِ الثَّيِّبِ إذا كانَ مُحْصَناً لِقولِ النَّبيِّ ﷺ[14] «اغْدُ يا أُنَيسُ على امْرَأةِ هذا فإنِ اعْتَرَفَتْ فارْجُمْها» [البخاري: ٢٦٩٥ و٢٦٩٦] ولم يَذْكُرْ جَلْداً.

وذهبوا أيضاً إلى أنَّ حديثَ ماعِزِ بْنِ مالكٍ لمّا رَجَمَهُ النَّبيُّ ﷺ باعْتِرافِهِ، ولم يُذْكَرْ أنهُ جُلِدَ.

ورُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ ﷺ قالَ لهُ [لمّا][15] اعْتَرَفَ ثلاثاً. لو اعْتَرَفْتَ في المَرةِ الرابعةِ لَرَجَمْتُكَ[16]، ولم يَقُلْ: لَجَلَدْتُكَ. عُلِمَ أنهُ لا يُجْمَعُ معَ الرجمِ الجَلْدُ.

وما رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ أمرَ برَجْمِ امرأةٍ زَنَتْ، ولم يَجْلِدْها. ورُوِيَ عنِ ابنِ عُمَرَ عن عُمَرَ مِثْلُهُ. إلى هذه الأخبارِ ذَهَبَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ.

ويَقولونَ: لا يَجْتَمِعُ على رجلٍ في فِعْلٍ واحدٍ حَدّانِ الجَلْدُ والرَّجْمُ جميعاً كما يَجْتَمِعُ في غَيرِهِ مِنَ الأجْرامِ في فِعلٍ واحدٍ حَدّانِ أو عُقوبَتانِ / ٣٦١ ـ أ/ .

---

(١) في الأصل وم: العشيرة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: الثلاثة. (٤) في الأصل وم: فالطائفة. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) في الأصل وم: فما اختلفوا. (٧) في الأصل وم: لهم يضم. (٨) في الأصل وم: ذو. (٩) في الأصل وم: المقدار. (١٠) في الأصل وم: الدارين أنه. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: حملتهم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل: قال حيث، وفي م: حيث قال. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: لرجمك.

وقولُهُ ﷺ «الثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ يُجلَدُ، ويُرجَمُ» [مسلم ١٦٩٠] يَحتَمِلُ الجَلْدَ ثَيِّباً غيرَ مُحصَنٍ والرجمَ[1] ثَيِّباً آخرَ مُحصَناً أوِ الجَلْدَ[2] ثَيِّباً في حالٍ والرجمَ[3] ثَيِّباً في حالٍ. وقد ذَكَرْنا هذِه المسألةَ في سورةِ النساءِ[4].

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ في ظاهرِ الآيةِ ألّا يَحِلَّ للزاني أنْ يَنكِحَ إلّا الزانيةَ مِنَ المؤمناتِ [أو المشركةَ، وكذلكَ الزانيةُ مِنَ المؤمناتِ][6] لا يَنكِحُها العَفيفُ مِنَ المؤمنينَ، وإنما يَنكِحُها الزاني[7] منهم والمُشرِكُ.

وفي ظاهرِ الآيةِ النَّهيُ للزاني عن نِكاحِ العَفائفِ وإباحةِ نِكاحِ الزانياتِ أو المُشرِكاتِ. فإنْ كانَ ذلكَ، فكانَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] إلّا الزُّناةَ منكُمْ، فإنهُ يَحِلُّ لهمْ أنْ يَنكِحوا المُشرِكاتِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١] إلا الزانياتِ فإنهُ يَحِلُّ.

هذا ظاهرٌ، لكنهم أجمعوا على ألّا يَحِلَّ للمؤمِنِ، وإن كانَ زانياً أنْ يَنكِحَ المُشرِكةَ، وكذلكَ لا يَحِلُّ لِلمُشرِكةِ أنْ تَتزوَّجَ بالزاني مِنْ أهلِ الإيمانِ.

ثم اختلَفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِهِ: قالَ مُقاتِلٌ ومحمدُ بنُ إسحاقَ: وهؤلاءِ: الزاني من أهلِ الكتابِ لا يَنكِحُ، أي لا يَتزَوَّجُ إلّا زانيةً مِن أهلِ الكتابِ [أو لا يَنكِحُ إلّا مُشرِكةً مِنْ][8] غيرِ أهلِ الكتابِ، والزانيةُ مِن أهلِ الكتابِ لا يَنكِحُها إلّا زانٍ مِنْ أهلِ الكتابِ أو مُشرِكٌ مِن غيرِ أهلِ الكتابِ، والزانيةُ مِن أهلِ الكتابِ لا يَنكِحُها إلّا زانٍ مِن أهلِ الكتابِ أو مُشرِكٌ مِن غيرِ أهلِ الكتابِ؛ يَزنونَ[9] علانيةً.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: [أنهُ][10] قالَ: نَزَلَتِ الآيةُ في نَفَرٍ مِن أهلِ مكةَ هاجَروا إلى المدينةِ وكانوا ذَوي عُسْرةٍ، وكانَ بالمدينةِ بَغايا يَبْغِينَ بأنفُسِهِنَّ ظاهراتٍ بالفُجورِ، وكنَّ مُخصِباتٍ أو مَخاصيبَ البيوتِ، فَهَمَّ أولئكَ المهاجرونَ أنْ يَتزوَّجوا بأولئكَ البَغايا لِيُصيبوا مِنْ خِصْبِهِنَّ وسَعَتِهِنَّ، فَذَكَروا ذلكَ لرسولِ اللهِ، واستَأذَنوهُ في ذلكَ، فَنَزَلَتِ الآيةُ في شأنِهِمْ: الزَّاني مِنْ أهلِ القِبْلةِ المُعلِنِ بهِ لا يَنكِحُ إلّا زانيةً مِنَ اليهودِ أو مُشرِكةً، وحُرِّمَ ذلكَ على المؤمنينَ.

لكنَّ هذا، يَصلُحُ[11] لو كان أولئكَ المُهاجرونَ مثلَهُنَّ زُناةً. فأمّا أنْ كانوا مهاجرينَ أهلَ الإيمانِ والعِفّةِ، فلا يَصلُحُ أنْ يُقالَ فيهِمْ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وهُمْ لم يكونوا زُناةً إلّا أنْ يُقالَ على الابتداءِ: إنهُ لا يُفعَلُ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ أي لا يُجامِعُ، ولا يَزني ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ إلّا بزانيةٍ مِثلِهِ. وكذلكَ الزانيةُ لا تَزني إلّا بِزانٍ مِثلِها أو مُشرِكٍ، لا يُحَرِّمُ الزِّنى، وهو قولُ الضَّحّاكِ[12].

وقالَ سعيدُ بنُ المُسيَّبِ: نَسَخَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] قولَهُ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية.

وسُئِلَ ابنُ مَسعودٍ ﷺ عن رجلٍ، يَزني بالمرأةِ، ثم يَتزَوَّجُها. قالَ: هما زانيانِ ماصْطَحَبا.

وجائزٌ أنْ يكونَ النَّهيُ عنْ نِكاحِ الزانيةِ والزّاني نَهياً عنِ الزِّنى نفسِهِ لا عنْ نكاحٍ؛ كأنهُ قالَ: لا تَزْنوا فإنكُمْ إذا زَنَيْتُمْ، وصِرْتُمْ مَعروفينَ بهِ، لا تَجِدونَ أنْ تَنكِحوا إلّا زانيةً أو مُشرِكةً[13]، لا تُحَرِّمُ الزِّنى، لأنَّ العَفائفَ مِنهُنَّ، لا يَرْغَبْنَ [في نكاحِ مَنْ صارَ يُعلِنُ الزِّنى، فإذا لم يَرْغَبْنَ][14] لم يَجِدوا إلّا مَنْ ذَكَرَ، وهو ما قالَ: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] ليسَ النَّهيُ عنْ قُربانِ الصلاةِ، ولكنَّ النَّهيَ عنِ السُّكرِ وشُرْبِ المُسْكِرِ.

وكذلكَ ما رُوِيَ أنهُ قالَ: «لا صَلاةَ لِلمرأةِ الناشِزةِ ولا لِلعَبدِ الآبِقِ» [بنحوه مسلم: ٧٠ ليسَ فيه ذِكرُ المرأةِ] إنما النَّهيُ عنْ نُشوزِها وعَنْ إباقتِهِ[15]، ليسَ عنِ الصلاةِ.

---

(١) في الأصل وم: ويرجم. (٢) في الأصل وم: يرجم. (٣) في الأصل: يرجم. (٤) في تفسير الآية /٢٥/. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: الزانية. (٨) في الأصل وم: أي لا ينكح أو مشركة. (٩) في الأصل وم: يزنين. (١٠) في الأصل وم: يزنين. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وهؤلاء. (١٣) ادرج بعدها في الأصل وم: التي. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: إباقة.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إنما [هو][1] نَهيٌ عنِ الزِّنى، أي لا تَزنوا لِتَرْغَبَ العَفائفُ مِنَ المؤمناتِ فيكُمْ، ولا تَزنِ النساءُ لِيَرْغَبَ أهلُ العَفافِ مِنَ المؤمنِينَ [فيهنَّ][2] فإنكُم إذا زَنيتُمْ، وصِرْتُمْ مَعْروفينَ به مُعلِنينَ، لا تَجِدوا إلا نِكاحَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الزانيةِ أو المُشْرِكةِ، أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا: لا يَرْغَبُ الزّاني إلّا في نِكاحِ زانيةٍ أو مُشْركةٍ[3]، لا تُحرِّمُ الزِّنى، وكذلكَ الزّانيةُ لا تَرْغَبُ إلّا بِزانٍ مِثْلِها أو مُشْرِكٍ[4]، لا يُحرِّمُ الزِّنى.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وحُرِّمَ الزِّنى على المؤمنِينَ.

أو إنْ كانَ على النّكاحِ فيكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَحُرِّمَ﴾ أي مُنِعَ عنْ ذلكَ المُؤمنونَ؛ أعْني نِكاحَ الزانياتِ والزُّناةِ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ يُقالُ منهُ: زَنى يَزْني زِنىً [وزِناءً، وزَنَأ][6] يَزْنَأُ زُنوءاً، أي ارْتَقى يَرْتَقي، ويُقالُ الزَّناءُ الضِّيقُ، ويُقالُ: زَنَنْتُهُ أزُنُّهُ زَنّاً، أي ظَنَنْتُ بهِ ظَنّاً. والقَذْفُ التُّهَمةُ، والرَّمْيُ أشدُّ مِنَ القَذْفِ.

ومَنْ جَعَلَ الآيةَ في الزّانينَ المُسْلِمينَ، وجَعَلَ قولَهُ: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ على التَّزْويجِ لَزِمَهُ أنْ يُجيزَ للزانيةِ المُسْلِمةِ أنْ تَتزوَّجَ الزّانيَ المُسْلِمَ والمُشْرِكَ على مَا ذَكَرْنا بَدْءاً. وهذا لا يقولُهُ أحدٌ. وفي بُطلانِ هذا القولِ بَيانُ أنَّ الآيةَ، إنْ كانَ المُرادُ بها عَقْدَ النّكاحِ، فإنها نَزَلَتْ في الزّانيةِ المُشْركةِ، يُريدُ المُسْلِمُ أن يَتزوَّجَها كما ذُكِرَ في حديثِ مَرْثَدٍ[7]. وإنْ كانَ المُرادُ بِهِ بِذِكْرِ النّكاحِ منها الوَطْءَ، فهو كما قالَ ابْنُ عباسٍ في إحْدَى الروايَتَينِ عنهُ: إنهُ الجماعُ، ليسَتْ تَحْتَمِلُ الآيةُ غَيرَ هذينِ الحالَينِ، واللهُ أعلَمُ بما أرادَ.

وقد زَعَمَ قومٌ أنَّ المرأةَ إذا زَنَتْ حَرُمَتْ على زَوجِها، فكأنهمْ ذَهَبوا إلى أنهُ لِما لم يَحِلَّ أنْ يَطَأها لأنها إذا كانَتْ زانيةً لم يَحِلَّ المُقامُ عليها إذا زَنَتْ، وهي زوجةٌ.

لكنَّ التأويلَ في الآيةِ على خِلافِ ما تَوَهَّمَ أولئكَ بِما وصَفْنا، فلا وَجْهَ لِتَحْريمِهِمُ الزانيةَ على زوجِها. ولو كانَ التأويلُ على ما تَوَهَّموهُ لَوَجَبَ[8] أنْ تَحْرُمَ الزانيةُ على زوجِها مِنْ حينِ[9] أنْ كانَ مَمْنوعاً مِنْ تَزَوُّجِها[10].

ألا تَرى أنهُ لا يجوزُ للرجلِ أنْ يَتزوَّجَ امْرأةً في عِدَّةٍ مِنْ غَيرِهِ؟ ولو أنَّ رَجلاً وَطِئَ امْرأةَ رَجلٍ بِشُبْهةٍ [في ما وَجَبَ][11] عليها مِنْ عِدَّةٍ، لم تَحْرُمْ على زَوجِها. ألا تَرى أنَّ العِدَّةَ، إذا كانتْ على النّكاحِ، تُخالِفُهُ في العِدَّةِ؟

واحتَجّوا أيضاً بأنَّ الرجلَ إذا قَذَفَ امْرأتَهُ لُعِنَ [وفُرِّقَ بَينهما][12] لكنَّ الوجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ ذَكَرَ الرَّمْيَ، ولم يَذْكُرْ بِمَ؟ فَيُعْرَفُ ذلكَ بالنازلةِ وبقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ ذَكَرَ الأربعةَ الشهودَ، والزِّنى هو المَخصوصُ بالشُّهودِ الأربعةِ دونَ غَيرِهِ مِنَ الأجرامِ. فَدَلَّ ذِكْرُ ذلكَ على إثْرِ ذلكَ على أنَّ الرَّمْيَ المَذكورَ فيهِ، هو الزِّنى.

ثم قولُهُ: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنَّ الحرائرُ في هذا المَوضِعِ لا العفائِفُ، لأنَّ قاذفَ الأمَةِ يَلْزَمُهُ التَّعْزيرُ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [النساء: ٢٥] ألا تَرى أنهُ أوجَبَ على الإماءِ نِصْفَ ما على المُحصَناتِ أي الحرائرِ؟ ولأنّا [لو][13] جَعَلْنا المُحصناتِ عِبارةً وكِنايةً عنِ العَفائفِ دونَ الحرائرِ لأسْقَطْنا شهادةَ الشهودِ لأنَّ العِفَّةَ تُكَذِّبُها. وكذلكَ يَدُلُّ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣] أنَّ الغافلاتِ عِبارةٌ عنِ العَفائفِ.

فَدَلَّ أنَّ المُحْصَناتِ [عِبارةٌ عنِ الحرائرِ، ثم أدْخَلَ المُحْصَنِينَ][14] في حُكْمِ هذهِ الآيةِ في الرَّمْيِ والقَذْفِ وغَيرِهِ، وإنْ لم يُذْكَروا في الآيةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ادرج بعدها في الأصل وم: التي. (٤) ادرج بعدها في الأصل وم: الذي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وإما زناء. (٧) انظر أبو داوود ٢٠٥١. (٨) في الأصل وم: فوجب. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: تزويجها. (١١) في الأصل وم: فوجب. (١٢) من م، في الأصل: بينهما وفرق. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

ثم شَدَّدَ اللهُ تعالى في الزِّنَى، وغَلَّظَ في أمرِهِ ما لم يُشَدِّدْ، ولم يُغَلِّظْ في غَيرِهِ مِنَ الأجرامِ مِثْلَهُ [في وجوهٍ:][1] منها ما نَهَى عنْ تَعطيلِ الحَدِّ فيهِ وإضاعَتِهِ وتَخفيفِهِ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] ومنها ما أَمَرَ بِرَجْمِهِ إذا كانَ مُحصَناً مِثْلَ ما يُرجَمُ الكلبُ، ويُقتَلُ بالحجارةِ. ومنها ما أوجَبَ على الرامي بهِ مِنَ[3] الحَدِّ إذا لم يأْتِ بأربعَةِ شهداءَ.

والزِّنَى/ ٣٦١ ـ ب/ بهذا كُلِّهِ مَخصوصٌ مِنْ بينِ غَيرِهِ منَ الأجرامِ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لِقُبْحِهِ في العَقلِ والطَّبعِ جميعاً وكذلكَ في الشَّرعِ.

والدليلُ على أنهُ قَبيحٌ في الطَّبعِ والعَقلِ جميعاً، ما يَنْفُرُ عنهُ طَبْعُ كلِّ مُسلم، ويَنْفُرُ عنهُ كلُّ عَقلٍ سليم، فإنْ قيلَ: لو كانَ يَنفُرُ عنهُ لكانَ لا يَرتكِبُهُ، ولا تأتيهِ، قيلَ: يَنفُرُ عنهُ، إلا أنَّ الشَّهوَةَ التي مُكِّنَتْ فيهِ، ورُكِّبَتْ، تَغلِبُهُ، وتَمنَعُهُ عنِ النِّفارِ عنهُ.

الا تَرَى أنهُ [لو][4] تَفكَّرَ بِمِثلِهِ في المُتَّصِلاتِ بهِ منَ الأمِّ والابْنَةِ وجميعِ المَحارمِ لم يَحتَمِلْ قَلْبُهُ ذلكَ؟

وبِمِثْلِهِ رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ «أنَّ رجلاً أتاهُ، فقالَ لهُ: ائذَنْ لي في الزِّنَى، فقالَ: ارأيتَ لو فُعِلَ بابنَتِكَ وأُمِّكَ مِثْلُهُ، أكُنتَ تَكرَهُهُ؟ فقالَ: نعم، فقالَ: اكْرَهْ لِغيرِكَ ما تكرَهُ لِنفسِكَ» [أحمد: ٥/ ٢٥٦] دلَّ ذلكَ أنهُ قبيحٌ في الطبعِ والعقلِ جميعاً، إلا أنَّ الشَّهوَةَ [لم][5] تَمنَعُهُ عنِ النِّفارِ عنهُ.

وفيهِ اشْتِباهُ الأنساب والمَعارفِ التي جُعِلَتْ في ما بَينَ الخَلْقِ حتى لا يَهْتَدِيَ أحدٌ إلى مُعَلِّم، يُعَلِّمُ الحِكمَةَ والآدابَ ومَعالِمَ السُّنَنِ، لا[6] الدعاءُ بالإباءِ وارْتِفاعُ التواصلِ وحِفْظُ الحقوقِ التي يَقومُ بعضٌ لبعضٍ، والشَّفَقَةُ التي جُعِلَتْ لبعضٍ على بعضٍ منَ التربيةِ في الصغارِ وحقوقُ المَحارمِ وغيرِهِمْ.

وبهِ[7] امتُحِنَ البَشَرُ والعالَمُ الصغيرُ، وبَطَلَ خَلْقُ ما ذَكَرَ مِنَ الإنشاءِ لهذا العالَمِ وتَسخيرُ ما ذَكَرَ ممّا في السمواتِ والأرضِ لهمْ.

فهذا كلُّهُ يَدُلُّ على قُبحِ الزِّنى ونهايَتِهِ في الفُحشِ والمُنْكَرِ حتى لا يَعْرِفُ هذا العالَمُ قُبحَهُ ونهايَةَ فُحشِهِ، وإنما يَعرِفُهُ العالَمُ الرُّوحانيُّ الذي لم يكُنْ فيهِمْ هذهِ الشَّهْوَةُ، ولم يُمتَحَنوا بها.

وأمّا هذا العالَمُ الذي جُعِلَتْ فيهِمُ الشَّهْوَةُ، فلا[8] يَعرِفونَ قَدْرَ قُبحِهِ وفَحشائِهِ، لِما تَغلِبُهُمْ، وتَمنَعُهُمْ عنِ النِّفارِ عنهُ والنَّظَرِ في مَعْرِفَةِ قُبْحِهِ.

لهذا، واللهُ أعلَمُ، ما شَدَّدَ اللهُ تعالى أمْرَ الزِّنَى، وغَلَّظَ في أحكامِهِ، ما لم يُغَلِّظْ بِمِثْلِهِ في غَيرِهِ مِنَ الأجرامِ، وعَظَّمَ شَأنَهُ مِنْ بَينِ سائرِ الآثامِ.

ثم الذِّكْرُ إنما جَرَى في الحَرائرِ بما ذَكَرْنا، فهو بالرجالِ مِنَ الأحرارِ، إنْ لم يكُنْ ممّا يكونُ، دونَهُ، لأنَّ العُذرَ فيهنَّ أكثَرُ، وهي الشَّهوَةُ التي تَغلِبُ، وتَمنَعُ عنِ النِّفارِ عنهُ، وفي الرجالِ أقلُّ، فالعُذْرُ فيهمْ أقَلُّ.

الا تَرَى أنهُ ذَكَرَ الحَدَّ في الإماءِ بقولِهِ: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ولم يَذكُرْ في العَبيدِ شيئاً، فَيَلْزَمِ العبدَ ذلكَ الحَدُّ إذا ارْتَكَبَهُ؟

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الحَدِّ في النساءِ والقَذْفِ، فهو في الرجالِ مِثْلُهُ.

ثم أجْمَعوا على أنَّ على قاذفِ الأمَةِ التَّعزيرَ، ولا حَدَّ عليهِ.

ثم سَمَّى الزوجةَ، وإنْ كانتْ مُحصَنَةً أمَةً، وقالَ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] سَمَّى مُلكَ اليَمينِ مُحصَنَةً بقولِهِ: ﴿أُحْصِنَّ﴾ أي تَزَوَّجْنَ وقولِهِ: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي الحرائرِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: عن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: وبها. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم.

فقد بانَ بهذه الآيةِ أنَّ الإحصانَ، قد يكونُ بالحُرِّيَّةِ، ويكونُ بالزواجِ، وإنْ كانتِ الزوجةُ أَمَةً؛ إذا كانَ لها زوجٌ.

وتُسمَّى الطَّبَقَةُ مِنَ النساءِ مُحْصَنَةً. قال تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] يعني العفائِفَ.

فالإحصانُ على ثلاثةِ أوجُهٍ، وإنما يجبُ الحَدُّ على قاذفِ الحُرِّ المُسْلِمِ والحُرَّةِ المُسْلِمَةِ.

فإنْ كانَ حُرّاً أو حُرَّةً فَعَليهِ[1] الحَدُّ ثمانينَ، وإنْ كانَ عَبْداً أو أَمَةً فَعَلَيْهِ الحَدُّ أربعينَ سَوطاً على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [يَحْتَمِلُ هذا الحَدُّ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ ظاهِرَهُ[2] لا يَقَعُ عندَ حَضْرَةِ القَذْفِ، ولكنْ لهُ أنْ يأتيَ إلى وَقْتِ إياسِهِ، وهو المَوتُ، كَمَنْ يَحْلِفُ بيمينٍ، ولم يُوَقِّتْ لها وَقْتاً، فإنما وَقَعَتْ إلى وَقْتِ إياسِهِ، فَحَنِثَ عندَ ذلكَ.

فَعَلَى ذلكَ يَجيءُ على ظاهِرِهِ: أنْ يَقَعَ على الأبَدِ، ليسَ عندَ حَضْرَةِ المَوتِ، لكنْ لو وَقَعَ إلى الأبَدِ لكانَ فيهِ سُقوطُهُ؛ إذْ لا يُقامُ الحَدُّ عندَ المَوتِ، أو أنهُ[3] أرادَ بِذِكْرِ الشهودِ الأربعةِ زَجْرَهُ عنْ قَذْفِ المُحصَناتِ لما لا يَجِدُ الشُّهودَ على الحُلولِ[4]، فالذي، هو أخفى، وأسَرَّ، أبْعَدُ.

والثاني: أنَّ الحَدَّ قد لَزِمَهُ بالقَذْفِ. فإن أرادَ إسقاطَهُ لم يَسْقُطْ إلّا بِبَيِّنَةٍ، تَقومُ [على][5] حَضْرَةِ ذلكَ كَمَنْ يُقِرُّ بِقِصاصٍ[6] أو حَقٍّ مِنَ الحقوقِ، ثم ادَّعَى العَفْوَ في ذلكَ أو إسْقاطَ ما أقَرَّ بِهِ[7] والخروجَ منهُ، لم يُصَدَّقْ إلا بِبَيِّنَةٍ تقومُ على حَضْرَةِ ذلكَ.

فَعَلَى ذلك قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وَقَعَ ذلكَ [الحَدُّ][8] على حَضْرَةِ القاذفِ[9]. فإنْ أتَى بِهِ، وإلا حُدَّ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المسألةُ بأنهُ إذا أتى بأربَعَةٍ فُسّاقٍ دَرَأ عنْ نَفْسِهِ الحَدَّ عندَنا.

والقياسُ ألا يُطالَبَ بشهودٍ عُدولٍ، لأنَّ العدولَ، لا يَشْهَدونَ ذلكَ المَشْهَدَ، ولا يَنْظُرونَ إليهِ، إنما يَشْهَدُهُ الفُسّاقُ، [فهو أحَقُّ][10] أنْ يَدْرَأَ بهِمُ الحَدَّ عنهُ مِنَ العدولِ، وليسَ كالشهادةِ على إقامةِ حَدِّ الزِّنَى، لأنَّ قَصْدَهُمْ بالنَّظَرِ إلى ذلكَ المكانِ قَصْدُ إقامةِ الشهادةِ وإيجابِ الحَدِّ على فاعلِ ذلكَ.

لذلكَ لم يَصيروا فَسَقَةً، ولأنهمْ لا يَشْهَدونَ بذلكَ إلا عنْ تَوبَةٍ تكونُ منهمْ، إذْ يَمْلِكونَ التوبةَ.

ولأنَّ الفسّاقَ مِنْ أهلِ الشهادةِ لَيسوا[11] كالكفّارِ والعبيدِ. وهؤلاءِ، وإنْ كانَتْ لا تُقْبَلُ شهادةُ الفُسّاقِ، فهمْ من أهلِ الشهادةِ.

ألا تَرى أنَّ مَنْ قَذَفَ [كانَ][12] فاسقاً، أو [إنْ][13] كانتِ امرأةً، قَذَفَها[14] زوجُها، وهو فاسقٌ، فإنا[15] نَجِدُ القاذفَ[16] الفاسقَ، ويُلاعَنُ بينَ الزوجِ وبينَ امرأتِهِ؟ وإنْ قَذَفَ مُسْلِمٌ كافراً، أو قَذَفَ حُرٌّ عبداً، أو إنْ قَذَفَ أحَدُهُما زوجَهُ[17]، لم يُلاعَنْ بينَهُما؟

فَمَنْ خالَفَنا في هذا اللِّعانِ فليسَ يُخالِفُنا في أنَّ الحُرَّ إذا قَذَفَ العَبْدَ، والمُسْلِمَ إذا قَذَفَ الكافِرَ، فلا حَدَّ على واحدٍ منهما، فهذا كلُّهُ يَدُلُّ أنَّ الفاسقَ مِنْ أهلِ الشهادةِ والكافِرَ والعبدَ والمَحْدودَ في القَذْفِ لَيسوا مِنْ أهلِ الشَّهادةِ.

فإذا كانوا مِنْ أهلِ الشهادةِ، ولم تُقْبَلْ شهادَتُهُمْ في غَيرِهِ، فَأَوجَبَ ذلكَ شُبْهَةً، والحدودُ ممّا تُدْرَأُ بالشُّبُهاتِ. لِذلكَ دُرِئَ عنهُ[18] الحَدُّ.

---

(١) في الأصل وم: فليهما. (٢) في الأصل وم: فظاهر هذا أنه. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: الحلال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل: له. (٧) في الأصل وم: له. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: القذف. (١٠) في م: أحق، ساقطة من الأصل. (١١) من م، في الأصل: ليس. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فقذفها. (١٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: قاذف. (١٧) في الأصل وم: زوجته. (١٨) يعود الضمير على الفاسق.

وأمّا الكافرُ والعَبْدُ والمَحْدودُ في قَذْفٍ، فإنْ لم يكونوا مِنْ أهلِ [الشهادةِ][1] لم تَجِبْ شُبْهَةٌ في دَرْءِ الحَدِّ عنهُمْ[2] لِذلكَ افْتَرَقا.

ثم المسألةُ: إذا جاءَ الشهودُ مُتَفَرِّقينَ حُدُّوا، ولم تُقْبَلْ شهادَتُهُمْ.

والقياسُ عندَنا ألا يُحَدُّوا لأنهم إنما يقومونَ في الشهادةِ مُحْتَسِبينَ، لا يَقْصِدونَ بها قَذْفَهُ وشَتْمَهُ. وأمّا الرامي فإنهُ يَقْصِدُ قَصْدَ شَتْمِهِ وقَذْفِهِ، ولأنَّ الشاهدَ، يقولُ: رأيتُهُ فَعَلَ كذا، والرامي، يقولُ: أنت كذا، فكانَ كمَنْ يقولُ [عن آخَرَ][3]: رأيتُهُ كَفَرَ، لم يُضْرَبْ بهذا القولِ، ولو قالَ: يا كافرُ ضُرِبَ لأنَّ هذا خَرَجَ [مَخْرَجَ][4] الشَّتْمِ، والأوّلَ لا. فَعَلى ذلكَ الأوّلُ.

لكنهُمْ أقاموا الحَدَّ على الشُّهودِ، إذا جاؤوا مُتَفَرِّقينَ، لأنَّ اللهَ أكَّدَ الشَّهادةَ بالزِّنَى بأمْرَيْنِ:

أحَدُهما: ألّا يُقْبَلَ فيها أقَلُّ مِنْ أربَعَةٍ، وألّا تُقْبَلَ حتى يَقولوا: زَنَى بها، فيأتوا[5] بهذهِ اللفظةِ، ويَصِفوا بأكثرَ ممّا يُوصَفُ غَيْرُهُ مِنَ النِّكاحِ وغَيرِهِ. فالشهادةُ بالزِّنَى أحْوَجُ على اجْتِماعِ الشهودِ في مَوطِنٍ واحدٍ مِنَ اجْتِماعِ الشهودِ على النِّكاحِ، إذا عُقِدَ بشاهِدَينِ مُتَفَرِّقَيْنِ لم يكنْ نكاحاً.

فالزّنى/ ٣٦٢ ـ أ/ الذي كانَ أمْرُهُ أوكَدَ[6]، والحاجةُ إليهِ أحْوَجَ، وأكثَرَ، أحَقُّ ألا يُقْبَلَ.

والثاني: ما جاءَ عن عُمَرَ أنَّ ثلاثةَ شَهِدوا على رجلٍ بالزِّنَى، وفيهِم أبو بَكْرَةَ، فَجَلَدَهُمْ عُمَرُ جميعاً لِما لَمْ يَشْهَدِ الرابعُ كما شَهِدوا هُمْ. وكانَ ذلكَ بِحَضْرَةِ أصحابِ النَّبِيِّ، فلم يُنْكِرْ عليهِ أحدٌ. فكانَ ذلكَ إجماعاً.

ألا تَرَى أنَّ أبا بَكْرَةَ قالَ بَعْدَ ذلكَ: أنا أشْهَدُ، فَهَمَّ عُمَرُ أنْ يَجْلِدَهُ، فقالَ لهُ عليٌّ ﷺ: إنْ جَلَدْتَ هذا فارْجُمْ صاحِبَكَ؟ فلم يُنْكِرْ عليهِ عليٌّ جَلْدَهُ إياهُمْ إذا لم يَتِمَّ أربعةً، إنما أنْكَرَ إذا تَمَّ، واللهُ أعلمُ.

لذلكَ قُلْنا: إنهمْ إذا جاؤوا فُرادَى مُتَفَرِّقِينَ، صاروا قَذَفَةً، ولا يُنْظَرُ بهِ حضورُ مَنْ بَقِيَ منهمْ كما لم يَنْتَظِرْ عُمَرُ.

ثم مسألةٌ أُخرَى: أنهُ إذا جاءَ أربعةٌ، واحِدُهُمْ زوجٌ قُبِلَ عندَنا، ودُرِئَ عنهُ الحَدُّ لِما رُوِيَ [عنِ][7] ابْنِ عباسٍ ﷺ وغيرِهِ مِنَ السَّلَفِ ولأنَّ الشهادةَ عليها وشهادَةَ الزوجِ على امرأتِهِ تُقْبَلُ، وإنما تُرَدُّ إذا شَهِدَ لها.

ألا تَرَى أنهُ لو شَهِدَ عليها في الديونِ والقِصاصِ والسرقةِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الحقوقِ قُبِلَ؟ فَعَلَى ذلكَ في هذا ماقيلَ: إنَّ الزوجَ إنما يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ، وفيهِ مَنْفَعَةٌ لهُ لأنَّ حَدَّهُ اللِّعانُ، إذا قَذَفَها فهوَ يُزيلُ اللِّعانَ عنْ نَفْسِهِ.

قيلَ: إنما يكونُ حدُّ الزَّوجِ اللِّعانَ إذا قَذَفَها قَبْلَ أنْ يَرْتَفِعا إلى الحاكمِ. فإذا فَعَلَ ذلكَ، ثم شَهِدَ مع ثلاثةٍ [لم تَجُزْ شهادتُهُ. وأمّا إذا كانَ أوّلَ ما بدأ بهِ أنْ جاءَ مع ثلاثةٍ][8]، فَشَهِدوا عليها بالزِّنَى فليسَ يُبْطِلُ بِشهادتِهِ عنْ نفسِهِ شيئاً، وَجَبَ عليهِ.

ألا تَرَى أنَّ الأجنبِيَّ إذا قَذَفَ امرأتَهُ، ثم جاءَ لِيَشْهَدَ بذلكَ عليها مع ثلاثةٍ، فإنَّ[9] شهادتَهُ، لا تجوزُ لأنَّ الحَدَّ قد لَزِمَهُ قَبْلَ شهادتِهِ؟ وهو يدفَعُ الحَدَّ الذي وجَبَ عليهِ بِشهادتِهِ، فلا تُقْبَلُ. وأنهُ لو جاءَ مع ثلاثةٍ، وكانَ أوّلَ أمرِهِمْ أنْ يَشْهَدوا عليها بالزِّنَى، فَشهادَتُهُمْ جائزةٌ، ولا يُقالُ: إنَّ أحداً منهمْ يدفَعُ عنْ نفسِهِ شيئاً، وَجَبَ عليهِ، فَعَلَى ذلكَ الزوجُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تَسْمِيَةُ الفِسْقِ لهمْ لا تَخْلو: إمّا أنْ كانَ لَمّا رَمَوا، وقَذَفُوا بهِ بَريئاً من ذلكَ، أو لَمّا هَتَكوا عليهِ السِّتْرَ مِنْ غيرِ أنْ هَتَكَ هو على نفسِهِ.

فإنْ كانَ الأوّلُ فذلكَ لا يَعْلَمُ إلا اللهُ. فَعَلَى ذلكَ تَوبَتُهُ، لا تَظْهَرُ عندَنا؛ فإنما ذلكَ في ما بَيْنَهُ وبَينَ رَبِّهِ. فكأنهُ قالَ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عندكُم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النور: ٥].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لآخر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيأتون. (٦) في الأصل وم: واكد. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: أو، في م: إن.

وإنْ كانَ الثاني فإنا نُعلِمُهُ. فكأنهُ قالَ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ عندكُمْ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ لا تَظْهَرُ توبَتُهُ عندَنا، لأنَّ توبتَهُ هو أنْ يَعْزِمَ ألّا يَهْتِكَ على آخَرَ سِتْرَهُ، أو يَعْزِمَ ألّا يَقْذِفَ بَرِيئاً مِنَ الزِّنَى أبداً.

فأيُّ الوجهَيْنِ كانَ تَسْمِيَتُهُ فِسقَهُمْ فإنَّ التوبَةَ مِنْ ذلكَ لا تَظْهَرُ عندَ الناسِ. لذلكَ لم تُقْبَلْ [شَهادَتُهُمْ][1] ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: وإنما تَوبَتُهُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ؛ إذا تابَ غَفَرَ اللهُ لهُ ذنبَهُ: الفِرْيَةَ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ غَيرِ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْ نَحوِ الحَسَنِ وإبراهيمَ وأمثالِهِما[2]؛ قالوا: تَوبَتُهُ [في ما][3] بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ ليسَ ثَمَّةَ شهادةٌ، رُفِعَتْ إلى الحاكمِ، فَرَدَّها. ولكنْ لا تَقْبَلوا لهمْ شهادةً يَرْفَعونَها إلى الحاكمِ. فالحَرَجُ على كلِّ شهادَةٍ، يرفَعونَ مِنْ بَعْدُ.

ثم إذا شَهِدوا بَعْدَ ما قُذِفَ قَبْلَ أنْ يُجلَدَ قُبِلَتْ شَهادَتُهُمْ. إنما تُرَدُّ بَعْدَ ما جُلِدَ لِما اتُّهِمَهُ الحاكِمُ.

وكلُّ شهادةٍ رُدَّتْ لِتُهَمَةٍ فهي لا تُقْبَلُ أبداً. والتُّهَمَةُ التي بها جَلْدُ القاذفِ، هي لا تَزولُ أبداً.

أو تكونُ توبَتُهُ قولَهُ: فقد كذَبْتُ في ما قَذَفْتُ، فكنا نَرُدُّ شهادَتَهُ [لِتُهَمَتِهِ بالكَذِبِ][4] فإذا أكْذَبَ نفسَهُ نَقْبَلُها لِتَحقُّقِ الكذبِ، فهذا بعيدٌ.

الآية ٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أصلُهُ][5] أنَّ كلَّ توبةٍ كانتْ بَعْدَ التَّمكينِ فهيَ لا تَرْفَعُ الحُكْمَ الذي جُعِلَ لهُ بالحَدِّ، وكلُّ توبةٍ كانتْ قَبْلَ التَّمكينِ فهي تَرْفَعُ العقوباتِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: ٣٤] فلو لم يَرْفعوا عنهمْ تلكَ العقوباتِ لكانوا يَتَمادَوْنَ في السَّعْيِ في الأرضِ بالفَسادِ. وأمّا في ما نَحْنُ فيهِ فليسَ في ذلكَ التَّمادي فيهِ.

وزَعَمَ الشافِعِيُّ أنَّ حالَهُ قَبْلَ الحَدِّ وبَعْدَ ذلكَ سواءٌ. هذا خِلافُ ما نصَّ اللهُ عليهِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ الآية. وقالَ: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فَجَعَلَهُمْ كاذِبينَ عندَ العَجْزِ عنِ [الإتيانِ بالشهداءِ][6] وكانَ أمرُهُمْ قَبْلَ ذلكَ مَوقوفاً.

فالواجبُ أنْ يَجْعَلَهُمْ كاذبينَ عندَ عَجْزِهِمْ عنْ تَصْحيحِ ما قالوا، وهي الحالُ التي جَعَلَهُمُ اللهُ فيها كاذبينَ.

فَبانَ بما وَصَفْنا أنَّ مَنْ جَعَلَ حالَ المَحْدودِ بَعْدَ أنْ ضُرِبَ الحَدَّ كحالِهِ قَبْلَ ذلكَ مُخطِئٌ. ودَلَّ ما وَصَفْنا على أنهُ لا يجبُ أنْ يُسْتَدَلَّ بجوازِ شهادَتِهِ قَبْلَ أنْ يُجلَدَ على جوازِ شهادَتِهِ إذا تابَ بَعْدَ الجَلْدِ على ما ذَكَرْنا، لأنّا بالجَلْدِ عَلِمْنا أنهُ قاذفٌ لا بما كانَ مِنْ رَمْيِهِ المَرْأَةَ قَبْلَ أنْ يُجلَدَ.

ومِنَ الدليلِ على اختلافِ الحالَيْنِ أنَّ عُمَرَ لمّا جَلَدَ أبا بَكْرَةَ قالَ لهُ: إنْ تُبتَ قَبِلْتُ شهادَتَكَ، وأنهُ قَبْلَ أنْ يُجلَدَ لم يَرُدَّ شَهادَتَهُ، لأنهُ لو كانَ عندَهُ مجروحاً بالقَذْفِ لم يَسْمَعْ شهادَتَهُمْ. ولا أعلَمُ بَيْنَ أهلِ العِلْمِ خِلافَ أنهُ لا تُقْبَلُ شهادَتُهُ بَعْدَ الجَلْدِ ما لم يَتُبْ، وإنما يَخْتَلِفونَ في شهادَتِهِ بَعْدَ التوبَةِ، وأنَّ شهادَتَهُ قَبْلَ الجَلْدِ مَقْبولةٌ. فكيفَ تَشْتَبِهُ الحالتانِ مَعَ ما وَصَفْنا؟

وقالَ غَيرُهُمْ: التوبةُ تُزيلُ فِسقَهُ، ولا تجوزُ شهادَتُهُ؛ قالوا: الاِسْتِثْناءُ على آخِرِ الكلامِ على الذي يليهِ. وقد رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «المُسْلِمونَ عُدولٌ بعضُهُمْ على بَعْضٍ إلّا مَحْدوداً في قَذْفٍ» [البيهقي في الكبرى ١٠/١٩٧]

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ وذَكَرَ حديثاً[8]، فيه طولٌ، وفيهِ: لم يَلْبَثوا إلا قليلاً حتى «جاءَ هِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ، وهو أحدُ الثلاثةِ الذينَ تابَ اللهُ عليهِمْ. قالَ: يارسولَ اللهِ لقد رأيتُ فلاناً معَ أهلي، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ما تقولُ يا هِلالُ؟ قالَ: واللهِ يا رسولَ اللهِ لقد رأيتُهُ، وسَمِعْتُهُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأمثاله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لتهمة الكذب. (٥) في الأصل وم: وأصله. (٦) في الأصل وم: إقامة الشهداء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حديث.

بأذني. قالَ: فَشَقَّ على رسولِ اللهِ ﷺ الذي جاءَ بهِ، ثم قالَ: أيُجلَدُ هلالٌ، وتَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمين؟» [أحمد ١/ ٢٣٨] فاشتَدَّ ذلكَ على رسولِ اللهِ ﷺ وجَعَلَ يقولُ: أيُجلَدُ هِلالٌ، وتَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمينَ؟ وقولُ رسولِ اللهِ ﷺ: أيُضرَبُ هِلالٌ، وتَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمينَ؟ وما ظَهَرَ مِنْ غَمِّهِ بذلكَ وجَزَعِهِ يَدُلّانِ على أنَّ المحدودَ لا تُقبَلُ شهادتُهُ بَعْدَ توبَتِهِ لأنَّ توبَتَهُ، لو قُبِلَتْ، وكانَ كسائرِ الأشياءِ التي إذا أُتيبَ منها جازَتْ شهادتُهُ، لَقالَ النَّبيُّ: تَبْطُلُ شهادتُهُ في المُسْلِمينَ حتى يَقْرِنَ إلى ذلكَ إلّا أنْ يَتوبَ.

وقد ذَكَرْنا عنِ ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [أنهُ] قالَ: فَتابَ اللهُ عليهِمْ مِنَ الفِسْقِ، فأمّا الشهادةُ فلا تجوزُ.

وكذلكَ رُويَ عَنْ كَثيرٍ مِنَ السَّلَفِ أنهمْ قالوا: توبَتُهُ في ما بَيْنَهُ وبينَ ربِّهِ.

وفيهِ وَجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّ القاذفَ إذا ضُرِبَ الحَدَّ، فهو يقولُ ما لم يُرجِعْ: أنا صادقٌ في نفسي، ولم يَلْزَمْني الحَدُّ في ما بيني وبَينَ ربي، وإنما لَزِمَني/ ٣٦٢ ـ ب/ في ذلكَ الحُكْمِ. فإذا تابَ، فهو يقولُ: كانَ الحَدُّ واجباً عليَّ في ما بَيني وبَينَ ربّي. وفي الحُكْمِ فذلكَ أحرَى ألا يَزولَ عنهُ مِنْ إبطالِ شهادَتِهِ بذلكَ.

وَوَجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّ القاذفَ، لم تَبْطُلْ شهادتُهُ بقولِهِ: فلانٌ زانٍ لأنهُ مُدَّعٍ بقولِهِ هذا شيئاً، قد يجوزُ أنْ يكونَ حقّاً، وإنما يَصيرُ قاذفاً إذا عَجِزَ عن إقامةِ البَيِّنَةِ، وضَرَبَهُ الحاكمُ الجَلْدَ.

فإذا كانَتْ شهادتُهُ إنما بَطَلَتْ بِحُكْمِ حاكمٍ، لم يُزَلْ ذلك الحكْمُ إلا بِحُكْمِ حاكمٍ. فإذا حَكَمَ حاكمٌ بجوازِ شهادتِهِ في شيءٍ جازَتْ شهادتُهُ فيهِ. فإنْ قيلَ: يَلْزَمُكُمْ على هذا أنْ تقولوا: إنْ قالَ حاكمٌ: قد أجَزْتُ شهادتَهُ في كلِّ شيءٍ فإنها[1] تَجوزُ، لأنَّ الحاكمَ، قد رَفَعَ ما لَزِمَ مِنْ بُطلانِ شهادَتِهِ بالحُكْمِ الأوّلِ. قيلَ: قَولُ الحاكمِ: قد أجَزْتُ شهادَتَهُ، ليسَ بِحُكْمٍ، إنما هو فَتْوَى.

والحُكْمُ إنما يكونُ في ما تُقامُ لهُ البَيِّنَةُ، أو يَقَعُ لهُ الإقرارُ. فإنْ قيلَ: فما تقولونَ في رجلٍ، زَنَى، فَحَدَّهُ الحاكمُ: هل تجوزُ شهادتُهُ إنْ تابَ. قيلَ: بَلَى.

فإنْ قيلَ[2]: قد بَطَلَتْ شهادتُهُ بِحُكْمِ آخَرَ، وتوبَتُهُ مقبولةٌ بِغَيرِ حُكْمِ حاكمٍ، فما مَنَعَ أنْ يكونَ القَذْفُ مثلَ ذلكَ؟ وما الفَرْقُ؟ قيلَ: الزِّنَى فِعْلٌ ظاهرٌ، يُعْرَفُ بهِ فِسقُ الزّنَى، وإنْ لم يُحَدَّ، والقَذْفُ لا يُعْلَمُ كَذِبُ القاذفِ فيهِ مِنْ صِدْقِهِ لأنهُ شيءٌ يَدَّعيهِ على غَيرِهِ، وإنما يُعْلَمُ أنهُ كاذبٌ في قَذْفِهِ بما يُنَفَّذُ عليهِ مِنْ حكمِ الحاكمِ. فلذلكَ افْتَرَقا.

ومنَ الدليلِ أيضاً على أنَّ شهادةَ القاذفِ، إذا حُدَّ، لا تُقْبَلُ، وإنْ تابَ، أنهُ إذا قالَ: تُبتُ عَنْ [قَذْفي فلاناً][3] أو: كُنْتُ في ذلكَ كاذباً[4]. فَلَسْنا نَدْري هل هو صادقٌ في قولِهِ: [كنتُ كاذباً أو هو في قولِهِ][5] ذلكَ [كانَ][6] كاذباً لأنَّ المقذوفَ، إنْ كانَ في الحقيقةِ زانياً فقولُ القاذِفِ: كُنْتُ في قَذْفي إيّاهُ كاذباً [كَذِبٌ][7] منهُ، وهو في ذلكَ آثمٌ.

فإذا كنا لا نَقِفُ بتكذيبِهِ نفسَهُ على كَذِبِهِ مِنْ صدقِهِ لم [نَجْعَلْ توبَتَهُ][8] توبَةً؛ لأنَّ التوبةَ إنما تكونُ أنْ يَظْهَرَ عندَ الحاكمِ[9] مِنَ الأفعالِ ما يَعْلَمُ بنفسِها أنها طاعةٌ، وأنهُ فيها على خِلافِ ما ظَهَرَ مِنْ نفسِهِ في الوَقْتِ الأوّلِ، فلمّا لم يُعْرَفْ كَذِبُ المُكَذِّبِ لنفسِهِ مِنْ صِدْقِهِ لم يُجْعَلْ ذلكَ منهُ تَوبَةً، وقُلْنا: توبَتُهُ في ما بَينَهُ وبَينَ ربِّهِ، لأنَّ اللهَ يَعْلَمُ هل هو كاذبٌ في تكذيبِهِ نفسَهُ أو صادقٌ؟ ونحنُ لا نَعْلَمُ، ولا دليلَ لنا مِنَ الظاهرِ عليهِ، فلم نَجْعَلْ توبَتَهُ توبةً في الحُكْمِ، وقُلْنا: حالُكَ الآنَ كَحالِكَ قَبْلَ ذلكَ.

ودليلٌ آخَرُ أنّا قد عَلِمنا كَذِبَهُ بقولِ اللهِ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فإذا قالَ: كَذَبْتُ في قذفي قُلْنا: لم تُفِدْنا بِتَكذيبِكَ نفسَكَ فائدةً، لم نَعْرِفْها، فأنتَ في هذا الوقتِ كاذبٌ؛ فإنكَ في الوَقْتِ الأولِ تُعْلِمُنا أنكَ كاذبٌ، فَحالُكَ الآنَ في شهادَتِكَ كحالِكَ قَبْلَ ذلكَ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، في الأصل: قذف فلاناً. (٤) في الأصل وم: كذباً. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم، نجعله. (٩) في الأصل وم: الحكم.

على أنَّ الشافعيَّ، يقولُ: لا تُرْجَعُ المُلاعِنَةُ إلى زَوجِها، وإنْ تابَ. فإذا كانَتْ توبَتُهُ لا تُبْطِلُ ما لَزِمَها[١] من الحُكْمِ في رُجوعِها إليهِ فكذلكَ لا يُبْطِلُ ما لَزِمَهُ مِنَ الحُكْمِ في بُطلانِ شهادَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ إنْ كانَ الجَلْدُ مأخوذاً مِنَ الجُلودِ فَجائزٌ أنْ يُستَخرَجَ منهُ حدُّ الضَّرْبِ، وهو ألا يُجاوِزَ الجُلودَ، ولكنْ يُضرَبُ مِقْدارُ ما يَتألَّمُ بِهِ، ويَتَوَجَّعُ، ولا تُمَزَّقُ بهِ الجُلودُ، ولا يَخرِقُها، ويُسْتَخرَجُ منهُ التَّفريقُ في الأعضاءِ كلِّها والجَوارِحِ، لأنهُ لو ضُرِبَ في مكانٍ واحدٍ لَخَرَقَهُ، ومَزَّقَهُ، سِوَى الرأسِ والوَجْهِ والمَذاكيرِ لِما فيهِ مِنَ التأثيرِ والمُجاوَزَةِ.

فإنْ كانَ كذلكَ ففيهِ حُجَّةٌ لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: إنَّ الشُّهودَ إذا شَهِدوا على حدٍّ، فَضَرَبَ بهِ الإمامُ، فأصابَهُ بالجِراحاتِ، ثم رجَعوا، لا يَضْمَنونَ ما أصابَهُ مِنَ الجِراحاتِ لأنهمْ لم يَشْهَدوا على ضَرْبٍ يَجْرَحُ، ويُؤثِّرُ فيهِ ما أصابَهُ. لِذلكَ لم يَضْمَنوا.

وقولُ عُمَرَ لأبي بَكْرَةَ: تُقْبَلُ شهادتُكَ إنْ تُبْتَ، فهو يَحْتَمِلُ أي تُقْبَلُ روايَتُكَ عنْ رسولِ اللهِ ومَشاهِدُكَ التي شَهِدْتَها. قد ذُكِرَ أنَّ الحُكْمَ والحَدَّ في الآيةِ إنما جَرَى في قَذْفِ المُحْصَناتِ دونَ المُحْصَنينَ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية. لكنَّ قَذْفَ المُحْصَنِ وشَتْمَهُ، إنْ لم يكُنْ أكثَرَ في الشَّيْنِ وأعظَمَ في الوِزْرِ، فلا يكونُ دونَهُ. فالذِّكْرُ، وإنْ جَرَى في المُحْصَناتِ، فأمكَنَ وجودُ المَعْنَى الذي بهِ، جَرَى [في المُحْصَنينَ][٢] وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣] وهو الإيمانُ والإحصانُ والعِفَّةُ. لذلكَ لَزِمَ الحُكْمُ في المُحْصَنينَ[٣] كما لَزِمَ في المُحْصَناتِ.

وقد ذَكَرْنا أيضاً في ما تَقَدَّمَ ألا يُجلَدَ مَنْ قَذَفَ مَمْلوكَةً، أو قَذَفَ كافِرَةً [أو كافِراً، أمّا قاذفُ المَمْلوكِ فَلِقولِهِ][٤] ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ وقد ذَكَرْنا الدليلَ على أنَّ المرادَ بالمحصَناتِ الحرائرُ دون غيرِهِنَّ. لذلك لم يُجلَدْ قاذِفُ المَمْلوكِ [أو المملوكَةِ][٥] ولأنّا لو أوجَبْنا جَلْدَهُ ثمانينَ فهو لو أتَى بِفِعْلِ الزِّنى حُدَّ خَمسينَ، فلا يجوزُ أنْ يُوجَبَ في عَينِ ذلكَ الفِعْلِ، لو أتَى بِهِ. فَسَقَطَ بما ذَكَرْنا الجَلْدُ عنْ قاذفِ المَمْلوكِ.

وأمّا الكافرُ والكافرةُ [فقد سَقَطَ] عنْ قاذِفِهِما الحَدُّ لِما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ شَرَطَ فيهِ الإيمانَ والإحصانَ والعِفَّةَ. فإذا عُدِمَ واحدٌ ممّا ذَكَرْنا لم يُقَمْ [عليهِ][٦] الحَدُّ، ولأنّا لو أوجَبْنا [حَدَّهُ حَدَدْناهُ][٧] لِقَذْفِ عَدُوِّ اللهِ.

ولا يجوزُ أنْ يُجلَدَ مسلمٌ يَقْذِفُ عَدُوّاً مِنْ أعداءِ اللهِ مع ما في ما ذَكَرْنا مِنَ المسائلِ إجماعٌ بَينَ أهلِ العِلْمِ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][٨] قال: لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قال [عاصمُ][٩] بْنُ عَدِيٍّ الأنصاريُّ: [إنْ][١٠] دَخَلَ مِنّا رجلٌ بيتَهُ، فَوَجَدَ رجلاً على بَطْنِ امْرأتِهِ، فأرادَ أنْ يَخرُجَ، فَيَجيءَ بأربعةِ رجالٍ شهودٍ يَشْهَدونَ على ذلكَ [يَكُنْ][١١] قد قَضَى الرجلُ حاجَتَهُ، وخَرَجَ. وإنْ هو عَجِلَ، فَقَتَلَهُ[١٢]، قُتِلَ بِهِ. وإنْ هو قالَ: وَجَدْتُ فلاناً معَ فلانةٍ، ضُرِبَ بِهِ الحَدُّ، ولاعَنَ امْرَأتَهُ. وإنْ سَكَتَ سَكَتَ على غَيظٍ. فَذَكَرَ أنهُ ابْتُلِيَ بذلكَ مِنْ بَينِ الناسِ.

فأتَى رسولَ اللهِ، فأخبَرَهُ بذلكَ، وقالَ: وَجَدْتُ فلاناً [على][١٣] بَطْنِها، فأرسلَ رسولُ اللهِ إلى امرأتِهِ وإلى فلانٍ، فَجَمَعَ بَينَهما وبَينَ عاصمٍ، فقالَ للمَرْأةِ: وَيْحَكِ! ما يقولُ زوجُكِ؟ قالَتْ: يا رسولَ اللهِ إنهُ لكاذبٌ، ما رَأى شيئاً مِنْ ذلكَ،

---

(١) من م، في الأصل: لزمهما. (٢) في الأصل وم: ذلك في المحصنات في المحصن. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: أما المملوك لقوله. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الحد وحددناه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عبد الله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فقتل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ولكنهُ رجلٌ غيورٌ، فذلكَ الذي حَمَلَهُ على أنْ يَتكلَّمَ بالذي تَكَلَّمَ. [فكانَ][1] فلانٌ ضَيفاً عندَهُ؛ يَدْخُلُ، ويَخرُجُ عليَّ، وهو يَعْلَمُ ذلكَ، فلم يَنْهَنِي عنْ ذلكَ ساعةً مِنْ ليلٍ أو نهارٍ أنْ يَدْخُلَ عليَّ، فسألَهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: يا عاصِمُ اتَّقِ اللهَ في حَليلَتِكَ، ولا تَقُلْ إلا حقّاً. قالَ: يا رسولَ اللهِ، أُقسِمُ باللهِ ما قُلْتُ إلا حقّاً، ولقد رَأَيتُهُ يَغْشَى على بَطْنِها، وهي حُبْلَى، وما قَرِبْتُها مُنْذُ كذا وكذا. فأمَرَهما رسولُ اللهِ أنْ يَتلاعَنا عندَ ذلكَ.

الآية ٧ وقالَ: يا عاصِمُ قُمْ، فاشهَدْ أربعَ شَهاداتٍ باللهِ إنهُ لَكما قُلْتَ، وإنكَ لَمِنَ الصادقينَ في قولِكَ عليها، ثم قُلْ[2] ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ﴾ عليكَ إنْ كُنتَ مِنَ الكاذبينَ. فَفَعلَ ما ذَكَرَ.

الآيتان ٨ و٩ ثم قالَ للمرأةِ مِثْلَ [ذلكَ][3] فَشَهِدَتْ ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ عليها / ٣٦٣ ـ أ/ في قولِهِ.

فلمّا تلاعَنا، وفَرَغا من اللِّعانِ، فَرَّقَ بَينَهما، ثم قالَ للمرأةِ: إذا وَلَدْتِ فلا تُرْضِعيهِ حتى تأتِيَني بهِ. فلما انصرفوا عنهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنْ وَلَدَتْهُ أحْمَرَ مِثْلَ الدِّبسِ فهو الذي يُشْبِهُ أباهُ الذي نَفاهُ [وإنْ وَلَدَتْهُ][4] أسْوَدَ أدْعَجَ جَعْداً قَطَطاً فهو يُشْبِهُ الذي رُمِيَتْ بهِ. فلّما وضَعَتْ أتَتْ بهِ رسولَ اللهِ ﷺ، فَنَظَرَ إليهِ، فإذا هو أسْوَدُ أدْعَجُ جَعْدٌ قَطَطٌ على ما نَعَتَهُ رسولُ اللهِ ﷺ يُشْبِهُ الذي رُمِيَتْ بهِ. فقالَ رسولُ[5] اللهِ: لولا اللِّعانُ والأيمانُ التي سَلَفَتْ لكانَ لي فيها رأيٌ» [البخاري ٤٧٤٧].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ لمّا جَمَعَ بينَهما قالَ لهما[6]: «اتَّقِيا اللهَ، فإنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذبٌ، فهل منكما تائبٌ، فإنَّ عذابَ الآخِرَةِ أشَدُّ مِنْ عذابِ الدنيا» [البخاري ٤٧٤٧].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ الآيةَ نزلَتْ في شأنِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ، فَذُكِرَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذا مسائلُ: إحداها: أنهُ ذَكَرَ قَذْفَ الأزواجِ، وذَكَرَ فيهِ اللِّعانَ، ولم يُبَيِّنْ.

فظاهرُ الآيةِ الزوجُ والزوجةُ كافرانِ أو حُرّانِ مُسْلمانِ أو مَمْلوكانِ أو كيف؟

فعندَنا أنهُ إذا كانَ أحَدُهُما كافراً أو مملوكاً أو كانا جميعاً لم يكنْ بَينَهما لِعانٌ إلّا أنْ يكونا جميعاً مِنْ أهلِ الشهادةِ.

وحُجَّتُنا[7] في ذلكَ أنَّ اللهَ جَعَلَ على الأجنبيِّ الحُرِّ إذا قَذَفَ أجنبيَّةً حُرَّةً الحَدَّ ثمانينَ، وجَعَلَ حَدَّ الزَّوجِ إذا قَذَفَ زَوجَتَهُ، وهما حُرّانِ مُسْلمانِ، اللِّعانَ.

ثم قد ذَكَرْنا إجماعَهُمْ على أنَّ الحُرَّ إذا قَذَفَ أَمَةً أو يهوديَّةً فلا حَدَّ عليهِ. فلما لم يكُنْ على الحُرِّ القاذِفِ الأمَةَ مِنَ الحَدِّ[8] لم يَكُنْ على زوجِ الأمةِ مِنَ اللِّعانِ ما على زوجِ الحُرَّةِ.

وأصلُ هذا بأنَّ اللهَ ذَكَرَ الشهادةَ في رَمْيِ الأجنبيَّةِ المُحْصَنَةِ وإبراءِ القاذفِ عنِ الحدِّ إذا أتَى بها، وأمَرَ بإقامةِ الحَدِّ إذا عَجِزَ عَنْ إتيانِها[9].

ثم استَثْنى مِنَ الشهداءِ الذينَ ذَكَرَ في قَذْفِ الأجنبيَّةِ شهادةَ الزوجَينِ بقولِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِاللَّهِ﴾ فإذا لم يَدْخُلا في تلكَ الشهادةِ إذا كانا مَمْلوكَينِ أو كافِرَينِ، أو أحَدُهما لم يَدْخُلْ في ما استَثْنى، إذِ الثُّنيا استِخراجٌ مِنْ تلكَ الجُمْلَةِ المُستَثْناةِ وتَحْصيلٌ منها. لِذلكَ بَطَلَ اللِّعانُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ في الكافِرَةِ، وهو أنَّ المرأةَ تقولُ في الخامسةِ: إنَّ ﴿غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ وغَضَبُ اللهِ يكونُ عليها بِغيرِ شَرْطٍ. فَمُحالٌ أنْ يقولَ القاضي لها: عليكِ غَضَبُ اللهِ بِشَرْطٍ إنْ كانَ الزوجُ صادقاً، وهو[10] يَعْلَمُ أنَّ غَضَبَ [اللهِ][11] عليها في كلِّ حالٍ. لِذلكَ بَطَلَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل: يا. (٦) في الأصل وم: لها. (٧) في الأصل وم: وحجتهم. (٨) أدرج بعدها في الأصل: على ما قاذف الأمة. (٩) في الأصل وم: إقامتها. (١٠) في الأصل وم: وهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

والمُخالِفُ لنا أولى بإبطالِ اللِّعانِ بَينَ الحُرَّةِ والأمَةِ والمُسْلِمةِ والذِّمِّيَّةِ منّا لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ العبدَ ليسَ بِكُفْءٍ لِلْحُرَّةِ، ولا الكافرُ بِكُفْءٍ لِلْمُسْلِمِ في القِصاصِ في النفسِ وفي ما دونَ النَّفْسِ. فكيفَ جَعَلوها في أيمانِها مُكافِئَةً[1] لِأيمانِ الأحرارِ المُسْلِمينَ؟ كانَ يجبُ أن يقولوا: ليستْ يَمينُ الكافرِ بِمُجازِيَةٍ لِيَمينِ المسلمِ، فلا يُوجبونَ بَينَهما لِعاناً. والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

ثم المسألةُ [الثانيةُ][2]: في إباءِ الأيمانِ [في وجهَينِ:

أحَدُهما][3] إذا أبَى أحدُهُمُ الأيمانَ حُدَّ عِنْدَ بَعْضِ أهلِ العِلْمِ، وهو قولُ الشافِعِيِّ.

وعِنْدَنا أنهُ لا يُحَدُّ بالإباءِ، فَذَهبَ مَنْ أوجبَ الجَلْدَ بالإباءِ إلى ظاهرِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] أوجبَ الجَلْدَ في قَذْفِ الأجْنَبِيِّ إذا عَجِزَ عن إتيانِ[4] الشهودِ، ودَرَأَ عنهُ الحَدَّ إذا أتَى بأربعةٍ، يَشْهَدونَ. فَعَلَى ذلكَ دُرِئَ عَنِ الزَّوجَينِ الحَدُّ إذا شَهِدَ كلُّ واحدٍ منهما أربعَ شَهاداتٍ باللهِ. فَوَجَبَ إذا أبَى أحدُهُما الأيمانَ أنْ يُحَدَّ؛ إذ بالأيمانِ يُدرَأُ الحَدُّ، ويُوجَبُ اللِّعانُ.

والثاني: ما قالَ ﷺ ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ جَعَلَ الأيمانَ سَبَبَ دَرْءِ الحَدِّ عنها. فإذا أبَتْ ذلكَ لَزِمَها[5] الحَدُّ.

وعِنْدَنا أنهُ لا يُحَدُّ بالإباءِ، لأنهُ ليسَ بالإباءِ ظُهورُ الكَذِبِ، إذْ ليسَ كلُّ مَنْ أبَى اليَمينَ يَظْهَرُ كَذِبُهُ فيه، وإنما يُحَدُّ لظهورِ كَذِبِهِ في القَذْفِ، وهو لا يَعْلَمُ، لا يَظْهَرُ بالإباءِ. وإنَّما حُدَّ في الأجنبيَّةِ إذا لم يَأتِ بأربعةِ شُهداءَ، لأنهُ في الظاهرِ عندَ الناسِ كاذِبٌ، لأنهُ ليسَ بَينَهُ وبَينَ الأجنبيَّةِ سَبَبٌ ولا مَعْنى يَبْعَثُهُ على إظهارِ ما ذَكَرَ.

وأمّا في ما بَينَهُ وبَينَ زوجَتِهِ سَبَبٌ ومَعْنًى يَحْمِلُهُ على إظهارِ ذلكَ، وهو الغِيرةُ. فإذا كانَ كذلكَ فهو في قَذْفِ الزوجَةِ في الظاهِرِ صادقٌ عندَ الناسِ للسَّببِ الذي ذَكَرْنا لأنهُ طالبُ حقٍّ قِبَلَها على ما رُوِيَ: «لا يُوطِئْنَ فُرُشَهُنَّ مَنْ يَكْرَهُ الأزواجُ» [بنحوه الترمذي: ١١٦٣] فلا يُزالُ صِدْقُهُ بإباءِ اليَمينِ.

وأمّا في قَذْفِ أجنَبيَّةٍ فهو كاذبٌ في الظاهرِ لِعَدَمِ السَّبَبِ الحاملِ على إظهارِ ذلكَ الكَذِبِ حتى يأتِيَ ما بهِ يُزيلُ الكَذِبَ، وهو الشُّهودُ. وفي [قَذْفِ][6] الزوجةِ على الصِّدْقِ حتى يَظْهَرَ بالإباءِ. لذلكَ افْتَرَقا؛ ولأنَّ الحَدَّ لا يُقامُ بالإباءِ البَتَّةَ، ولأنَّ الأيمانَ لا تُقابَلُ بشهادةِ العُدولِ بحالٍ.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ شَهِدَ عليهِ شاهدا عَدْلٍ بِحَقٍّ، فَحَلَفَ هو بأيمانٍ، لم تَكُنِ الأيمانُ بِتلكَ الشهادةِ في سقوطِ الحقِّ؟

وأمّا قولُهُ: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ فجائزٌ[7] أنْ يكونَ ذلكَ في تلكَ المرأةِ التي في أمْرِها نَزَلَتِ الآيةُ؛ عَلِمَ رسولُ اللهِ ﷺ كَذِبَها بالوَحْيِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: «إذا جاءَتْ بكذا فهو لِكذا، وإذا جاءَتْ بكذا فهو لِكذا»؟ ثم جاءَتْ به شَبيهاً بالذي رُمِيَتْ بِهِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لولا الأيمانُ لكانَ لي ولها شأنٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] عَلِمَ كَذِبَها حينَ[8] قالَ: «لولا الأيمانُ لكانَ لي ولها شأنٌ» فَدَرَأَتْ تلكَ المرأةُ العذابَ عنها بالأيمانِ.

أو أنْ يكونَ العذابُ الذي دُرِئَ عنها الحَبْسَ؛ إذْ مِنْ قولِنا: أيُّهما أبَى اليَمينَ حُبِسَ حتى يَشْهَدَ أربعَ شهاداتٍ باللهِ، أو يُقِرَّ بالزِّنى، أو يُكَذِّبَ نفسَهُ. فَدَرْءُ الحَبْسِ عنهُما بالأيمانِ التي ذَكَرَ.

وإنما لم يُحَدَّ بالإباءِ لأنَّ الإباءَ لا يُظْهِرُ الكَذِبَ كالإقرارِ ولأنَّ الإباءَ في الحقيقةِ إباحَةٌ. ولو أنَّ إنساناً أباحَ للحاكِمِ أنْ يُقيمَ عليهِ الحَدَّ لم يُقِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا. أو لِما يجوزُ أنْ يأبَى عنِ الأيمانِ صَوناً لِنَفْسِهِ عن اللَّعْنِ أو الغَضَبِ الذي ذَكَرَ، لم[9] يُحَدَّ لِما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: اكفاء. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إقامة. (٤) في الأصل وم: إقامة. (٥) في الأصل وم: لزم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في م: فلم.

ثم مَسْألتانِ[1] في هذا، نَذْكُرُهما، وإنْ لم تكونا في ظاهِرِ هذهِ الآيةِ:

إحداهُما: في إلحاقِ الوَلَدِ أمَّهُ. والأُخرَى: في تفريقِ الحاكمِ بَيْنَهما إذا تَلاعَنا.

قالَ بَعْضُ أهلِ العِلْمِ: إذا فَرَغَ الزَّوجُ مِنْ [أيمانِهِ وَقَعَتْ بَينَهما الفُرْقَةُ، وإنْ لم يُفَرِّقِ الحاكمُ. وقُلْنا نحنُ: لا تَقَعُ الفُرْقَةُ بَيْنَهما حتى يَفْرَغا مِنْ تَلاعُنِهما. ويُفَرِّقُ الحاكمُ بَيْنَهما.

والأولَى[2] في إلحاقِ الوَلَدِ. قال أُولئكَ أيضاً: إذا فَرَغَ [الزَّوجُ][3] مِنْ][4] لِعانِهِ لَحِقَ الوَلَدُ أمَّهُ، وإن لم تَلْتَعِنِ المرأةُ.

والقياسُ في لُحوقِ الولدِ ما قالَ أُولئكَ: إنهُ يَلْحَقُ بِفَراغِ الزَّوجِ مِنَ اللِّعانِ. والقياسُ في وُقوعِ الفُرْقةِ ما قالَ أصحابُنا: إنهُ لا يَقَعُ إلا بَعْدَ فَراغِ الزَّوجَينِ جميعاً وتَفريقِ الحاكِمِ بَينَهما؛ لأنَّ الزَّوجَ إذا شَهِدَ ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قد ألْزَمَ امْرأتَهُ الزِّنى في الظاهِرِ.

فإذا ظَهَرَ أنَّ الوَلَدَ ليسَ منهُ فَجائزٌ لُحوقُهُ بالأُمِّ بفَراغِهِ مِنَ اللِّعانِ.

وأمّا الفُرْقَةُ فإنها لا تَقَعُ بِظُهورِ الزِّنى. ألا تَرَى أنَّ امْرَأةَ الرجلِ إذا زَنَتْ لا تَقَعُ/ ٣٦٣ ـ ب/ بَينَهما[5] الفُرْقَةُ؟

ألا تَرَى أنَّ دَعْوَى المَرْأةِ باقِيَةٌ بعدَ فَراغِ الزَّوجِ مِنْ أيمانِهِ؟ لِذلكَ افْتَرَقا.

والأخبارُ تَدُلُّ لِمَذْهَبِ أصحابِنا في المسألَتَينِ جميعاً لأنهُ رُوِيَ عنْ نافِعٍ [بنِ مالكٍ][6] عنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ رجلاً لاعَنَ امْرأتَهُ في زَمانِ رسولِ اللهِ ﷺ وانْتَفَى مِنْ وَلَدِها، فَفَرَّقَ رسولُ اللهِ ﷺ بَينَهما، وألْحَقَ الوَلَدَ بالمَرْأةِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمّا لاعَنَ بَينَهما فَرَّقَ بَينَهُما. ورُوِيَ في الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لهما: «اللهُ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذبٌ، فَهَلْ منكُما تائبٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] قالَ ذلكَ لهما ثَلاثاً، فأبَيا، فَفَرَّقَ بَينَهما. وفي بَعْضِ الأخبارِ قالَ: «حِسابُكُما على اللهِ[7]» [البخاري: ٥٣٥٠].

فإنْ قيلَ: إنما فَرَّقَ بَينَهما النَّبِيُّ لأنَّ الفُرْقَةَ قد وَقَعَتْ بينَهما، فأخبَرَهُ النَّبِيُّ أنها[8] لا تَحِلُّ لهُ، وقالَ: لا سبيلَ لكَ عليها. قيلَ: قولُكَ: إنَّ الفُرْقَةَ قد وَقَعتْ بَينَهما باللِّعانِ دَعْوَى منكُمْ، وظاهرُ الأخبارِ يَشْهَدُ لنا، وعلى وَهْمِ الخَصْمِ.

ثم يُقالُ لهمْ: ألَسْتُمْ تقولونَ في المَولَى: إذا مَضَتْ مُدَّتُهُ، فارْتَفعا إلى الحاكِمِ، هل تَقَعُ الفُرْقَة بينَهما إذا امْتَنَعَ مِنْ قُرْبانِها وطلاقِها ما لم يَقُلِ القاضي: قد فَرَّقْتُ بَينَكما؟

فإنْ قيلَ: فُرْقَةُ الإيلاءِ طَلاقٌ، وفُرْقَةُ اللِّعانِ غَيرُ طلاقٍ عندَنا، قيلَ: هما عندنا طَلاقٌ.

فإنْ قيلَ: إنكُمْ تَزْعُمونَ أنَّ فُرْقَةَ الإيلاءِ تَقَعُ بِمُضِيِّ الأجَلِ، فما مَنَعَ أنْ تَقَعَ الفُرْقَةُ باللِّعانِ بِتَمامِ اللِّعانِ؟ قيلَ: لم يَكُنْ للحاكِمِ في الإيلاءِ صُنْعٌ، فلا تُحْتاجُ إلى حُكْمِهِ. وفي الآخَرِ لا يَتِمُّ اللِّعانُ إلّا بالقاضي، فلا تَقَعُ الفُرْقَةُ إلّا بالقاضي.

ويُقالُ لهمْ: ما تَقولونَ في رجلٍ، ادَّعَى حَقًّا، فأقامَ عليهِ شاهدانِ[9] عندَ قاضٍ. هل يَلْزَمُ الحُكْمُ قَبْلَ أنْ يقولَ القاضي: قد حَكَمْتُ بذلكَ؟ فإنْ قالوا: لا يَلْزَمُ الحُكْمُ حتى يقولَ: قد حَكَمْتُ. فَيُقالُ: ما مَنَعَ أنْ [يكونَ اللِّعانُ مِثْلَهُ][10]؟

ويُقالُ لهمْ أيضاً: ما تَقولونَ في العِنِّينِ: أجَلُهُ [حُكْمُ][11] الحاكمِ بَينَهما. فإنْ قالوا: لا تَقَعُ [الفُرْقَةُ بَينَهما][12] حتى يُفَرِّقَ الحاكمُ بَينَهما. قيلَ: [ما مَنَعَ][13] في فُرْقَةِ اللِّعانِ أنهُ كذلكَ؟ فإنْ قالوا: إنما صارتِ الفُرْقَةُ، لا تَقَعُ في العِنِّينِ والمَولَى حتى يُوقِعَها الحاكمُ: يقولُ: طَلِّقْها، أو فِئْ إليها، ويقولُ لامْرَأةِ العِنِّينِ: اخْتاري في الفُرْقَةِ أو المُقامِ مَعَهُ.

---

(١) هما الثالثة والرابعة، في الأصل وم: مسئلتنا. (٢) في الأصل: والأخرى. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، في الأصل: بظهور. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: أحدكما كاذب لا سبيل لك عليها. (٨) في الأصل وم: أنه. (٩) في الأصل وم: شاهدين. (١٠) في الأصل وم: اللعان لمثله. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: مانع.

فلمّا كانَ الحاكمُ يَنْتَظِرُ[١] ما يَقولُ المَولَى وامْرأةُ العِنِّينِ لم تَقَع الفُرْقَةُ حتى يُوقِعَها. وليسَ في اللِّعانِ شيءٌ يَنْتَظِرُهُ الحاكمُ. لذلكَ افْتَرقا.

فقيلَ: بل يَنْتَظِرُ الحاكمُ تكذيبَ المَرْأةِ نَفْسَها، فَيَحُدُّها، وتكونُ امْرَأتَهُ. وكذلكَ إنْ أكْذَبَ الزَّوجُ نفسَهُ حَدَّهُ، وتَرَكَ عندَهُ امْرَأتَهُ.

وأصْلُهُ: أنهُ لا تَقَعُ الفُرْقَةُ إلا بَعْدَ الْتِعانِهِما جميعاً وتَفريقِ الحاكِمِ بَينَهما إذا الْتَعَنا جميعاً. عند ذلكَ يكونُ أحَدُهُما مَلعوناً؛ أيُّهما كَذَبَ. والانْتِفاعُ بالمَلْعونِ حرامٌ.

ألا تَرى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ «أنها مُوجِبَةٌ» [البخاري: ٤٧٤٧] أي اللَّعْنَةُ التي ذُكِرَتْ؟ فإنما يَلْحَقُ اللَّعْنُ أحَدَهُما إذا الْتَعَنا جميعاً. فأمّا بِالْتِعانِ الزَّوجِ خاصّةً فلا تَقَعُ. فإذا كانَ كذلكَ فَيُحتاجُ إلى أنْ يُفَرِّقَ الحاكمُ بينَهما، ويَطْرُدَ أحَدَهُما مِنْ صاحِبِهِ؛ إذِ اللَّعْنُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ.

وهو عندَنا كالعقودِ التي تُفْسَخُ، لا تكونُ إلا بالحاكمِ نَحْوَ ما ذَكَرْنا مِنَ العِنِّينِ والذي يَأْبَى الإسلامَ وغَيرِها مِنَ العقودِ، فإنهُ لا تَقَعُ بينَهما الفُرْقَةُ إلّا بالحاكِمِ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ أنهُ قالَ: المُتلاعِنانِ يُفَرَّقُ بينَهما، ثم لا يَجْتَمِعانِ أبداً.

ثم مَسْألَةٌ أخرَى: أنهُ إذا فُرِّقَ بينهما باللِّعانِ، فَأكْذَبَ المُلاعِنُ نَفْسَهُ، أيَجوزُ[٢] لهُ أنْ يَتَزَوَّجَها أم لا؟

فعندَ بعضِ أهلِ العِلْمِ ليسَ لهُ أنْ يَتَزَوَّجَها. احْتَجّوا بما رُوِيَ عن عُمَرَ وعليٍّ ﷺ: المُتَلاعنانِ لا يَجْتَمِعانِ أبداً، وعَنْ عبدِ اللهِ كذلكَ.

وعندَ أبي حَنيفةَ ومحمدٍ، رحِمَهُما اللهُ: لهُ أنْ يَتَزَوَّجها إذا أكْذَبَ نَفْسَهُ. وليسَ في الخَبَرِ: لا يَجْتَمِعانِ أبداً، وإنْ تابَ، وأكْذَبَ نَفْسَهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ قَولُهُمْ[٣]: لا يَجْتَمِعانِ أبداً ما داما في تَلاعُنِهما، وما أقامَ على قولِهِ، ولم يُكَذِّبْ نَفْسَهُ.

وإنْ كانَ فيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ قالَ: إذا قالَ: لا يَجْتَمِعانِ قَبْلَ التوبَةِ وبَعْدَها يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠] قولُهُ: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ما قاموا في مِلَّتِهِمْ. فأمّا إذا انْقَلَعوا منها فقد أفلحوا. فَعَلَى ذلكَ لا يَجْتَمِعانِ [ما داما][٤] في تَلاعُنِهما وما[٥] أقامَ الزَّوجُ على قولِهِ. فأمّا إذا رَجَعَ عنْ ذلكَ فَلَهما الاجْتِماعُ.

[واجْمَعُوا على أمرَينِ:

أحَدُهما][٦]: أنهُ إذا أكْذَبَ نفسَهُ، وادَّعَى الوَلَدَ، أُلحِقَ بِهِ، فَعَلَى ذلكَ هي.

والثاني: لو أكْذَبَ الزَّوجُ نفسَهُ بَعْدَ اللِّعانِ قَبْلَ الفُرْقَةِ، وَجَبَ أنْ يُحَدَّ، ويكونانِ على نِكاحِهِما[٧]. فَيَجِبُ إذا أكْذَبَ نَفْسَهُ بَعْدَ اللِّعانِ [أنْ يُجْلَدَ، ولَهُ][٨] أنْ يَتَزَوَّجَها.

ثم فُرْقَةُ اللِّعانِ عندَنا طلاقٌ، وهي تَطليقَةٌ بائنةٌ لِما رُوِيَ عن[٩] النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][١٠] لمّا لاعَنَ بَينَ عُوَيمِرٍ وامْرأتِهِ قالَ: «كَذَبْتَ عليها إنْ أمْسَكْتَها. هي طالقٌ ثلاثاً» [البخاري: ٥٢٥٩] فصارَتْ سُنَّةً في المُتَلاعِنَينِ. فإذا كانَتْ سُنَّةُ الفُرْقَةِ بَينَ المُتَلاعِنَينِ الطَّلاقَ الذي أوقَعَهُ [على][١١] عُوَيمِرٍ. فواجبٌ أنْ تكونَ كلُّ فُرْقَةٍ تَقَعُ باللِّعانِ طلاقاً.

ومِنَ الدليلِ على ذلكَ أنَّ قَذْفَ الزوجِ كانَ سَبَبَ هذهِ الفُرْقَةِ، وكلُّ فُرْقَةٍ تكونُ مِنَ الزَّوجِ، أو [يكونُ فِعْلُ][١٢] الزَّوجِ

---

(١) في الأصل وم: ينظر. (٢) همزة الاستفهام ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله. (٤) في الأصل: إذا ما داموا، في م: ما داموا. (٥) من م، في الأصل: وأما. (٦) في الأصل وم: واجتمعوا. (٧) من م، في الأصل: النكاحهما. (٨) في الأصل وم: فجلد فله. (٩) في الأصل وم: أن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: أن يكون.

سَبَبَها، وتَقَعُ بقولِهِ، فإنها طلاقٌ [كما في العِنِّينِ][1] والخُلْعِ والإيلاءِ [ونحْوُ ذلكَ][2] فعَلَى ذلكَ فُرْقَةُ اللِّعانِ تَطليقَةٌ بائِنَةٌ، لأنَّ الزَّوجَ سَبَبُها، وتَقَعُ به.

وعلى ذلكَ جاءتِ الآثارُ عنِ السَّلَفِ: أنَّ كلَّ فُرْقَةٍ، وَقَعَتْ مِنْ قِبَلِ الرجالِ بِقولٍ فهيَ طلاقٌ، مِنْ نَحْوِ إبراهيمَ والحَسَنِ وسَعيدٍ وقَتادَةَ وهؤلاءِ، وكذلكَ بِقولِ أصحابِنا: إنَّ كلَّ فُرْقَةٍ جاءَتْ مِنَ الرجالِ بِقَولٍ فهي تَطليقَةٌ. فإنْ عُورِضَ بأفعالٍ، تكونُ مِنَ الرجالِ، فَتَقَعُ بِهِ الفُرْقَةُ والحُرْمَةُ مِنْ نَحْوِ الجِماعِ ونَحْوِهِ، فذلكَ ليسَ بِمُعارَضَةٍ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ ثم وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ هذا الحَرْفُ ممّا يَقْتَضي الجَوابَ. ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جوابُهُ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لأظْهَرَ الكاذبَ منهُما والصادقَ والمُذْنِبَ مِنْ غَيرِهِ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لأظْهَرَ المَلْعونَ منهُما مِنْ غَيرِهِ، لكنْ لا يُنْتَفَعُ بِهِ، إذْ أحَدُهما ممّا لَحِقَهُ اللَّعْنُ الذي ذَكَرَهُ، ولا يَحِلُّ الانْتِفاعُ بالمَلْعونِ.

الا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ امْرَأةً رَكِبَتْ ناقَتَها، فَلَعَنَتْها[3]، فاسْتُجيبَ، فأُمِرَتْ أنْ تَرْفَعَ ثيابَها، وتُخَلِّيَ سَبيلَها. لكنْ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ سَتَرَ على المَلْعونِ حتى يَجوزَ لِغَيرِهِ أنْ يَنْتَفِعَ بِهِ، وإنْ كانَ لا يجوزُ لواحِدٍ منهُما أنْ يَنْتَفِعَ بِصاحِبِهِ ما دامَتِ اللعنةُ فيهِما قائمةً؟

وجائزٌ أنْ يكونَ وَجْهٌ آخَرُ، وهو أنْ يقالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لأظْهَرَ المَلْعونَ منهُما، وإلا لَجَعَلَ العُقوبَةَ بَيْنَ الزَّوجَينِ كَهِيَ في الأجْنَبِيَّيْنِ، وهي الحَدُّ، ولأظْهَرَ [الزانيَ منهُما][4]. لكنْ بِفَضْلِهِ لم يَجْعَلْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُ][5] ﴿تَوَّابٌ﴾ يَقْبَلُ التوبةَ، إذا تابَ، وأكْذَبَ نَفْسَهُ، فَيَرفَعُ اللَّعْنَ عنهُما بالتوبَةِ. فإذا رُفِعَ اللَّعْنُ جازَ لهُما الانْتِفاعُ والاجْتِماعُ بَيْنَهُما.

ففيهِ حُجَّةٌ لِقَولِ أبي حنيفةَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ، في جوازِ نكاحِهِما إذا أكْذَبَ نفسَهُ/ ٣٦٤ ـ أ/

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿حَكِيمٌ﴾ حينَ[7] حَكَمَ بما حَكَمَ بَيْنَ المُتلاعِنَيْنِ، أو ﴿حَكِيمٌ﴾ [حينَ][8] وَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ بأحَدٍ إلا ما هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ. وأخْبَرَ أنَّهُ[9] لو لم يَكُنْ لهُ أنْ يَفْعَلَ غيرَ الذي فَعَلَ، لم يَكُنْ لِتَسْمِيَتِهِ ما فَعَلَ فَضْلٌ[10] ولا مَعْنًى. فَدَلَّ أنَّ لهُ أنْ يَفْعَلَ غَيرَ الأصلَحِ في الدينِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي بالكذبِ ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعةٌ منكُمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِّنكُمْ﴾ قالَ قائلونَ: كانوا مِنْ أصحابِ [عائشَةَ رَمَوها بما ذُكِرَ][11] في الآيةِ. وقالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ مِنَ الفَريقَينِ جميعاً مِنْ أصحابِ أبي بَكْرٍ وأقْرِبائِهِ والمُنافِقينَ أيضاً.

فإنْ كانَ ذلكَ مِنْ أصحابِ عائشَةَ رضي الله عنها وأقْرِبائها فذلكَ يُخَرَّجُ منهمْ على الغَفْلَةِ والعَثْرَةِ، ليسَ على الانْتِقامِ والحِقْدِ، لأنَّ القَراباتِ والمُتَّصِلينَ بالرجلِ، لا يَقْصِدُ بَعضُهُمْ بِبَعْضِ الانْتِقامَ والحِقْدَ بِمِثْلِهِ. فإذا كانَ كذلكَ فَيُخَرَّجُ ذلكَ منهمْ، إنْ كانَ، مُخْرَجَ الغَفْلَةِ والزَّلَّةِ لا مُخْرَجَ الانْتِقامِ.

وإنْ كانَ ذلكَ مِنَ المُنافِقينَ فهو على الانْتِقامِ وطَلَبِ الشَّيْنِ منهمْ لها.

وكانَ في ظاهِرِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ ابْتِداءَ ذلكَ الإفْكِ مِنَ المُنافِقينَ، ثم تَسامَعَ المؤمنونَ بَعدَ ذلكَ، وتَلَقَّى[12] بعضُهُمْ مِنْ بَعضٍ حينَ[13] قالوا: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] فإن كانَ ذلكَ فهو على ما وَصَفْنا أنَّ ذلكَ مِنَ المؤمنينَ غَفْلَةٌ وزَلَّةٌ وعَثْرَةٌ، ومِنَ المُنافِقينَ انْتِقامٌ وطَلَبُ شَيْنٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: كالعنين. (٢) من نسخة الحرم الملكي، في الأصل وم: ونحوه. (٣) في الأصل وم: فلعنت. (٤) في الأصل: الزنا منهما، في م: الزاني. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: حيث، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: إذ. (١٠) في الأصل وم: فضلاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ويتلقى. (١٣) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال[1] بعضهُم: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنكمْ تُؤجَرونَ على ما قيلَ فيكُمْ مِنَ الفُحشِ والقَذْفِ بما قُرِفوا بهِ ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الآخِرةِ على ما ذَكَرنا مِنَ الأجرِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا لِما برّأهُمُ الله مِمّا قُرِفوا بهِ، ودَفَعَ عنهمْ تمكينَ ما قُرِفوا بهِ، ووَعَدَ لهمُ الجنةَ بقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وكانَ قَبْلَ نُزولِ هذهِ الآيةِ مَوهوماً[2] عندَ الناسِ فيها مُتَمكّناً[3] احتِمالُ ذلكَ الفِعْلِ.

ألا ترَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وقال: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: ٣١] كانَ الأمرانِ جميعاً مَوهومَينِ[4] عنهُنَّ عندَ الناسِ ومُحتَمَلينِ[5] ذلكَ؟

فلما قُرِفَتْ رَفَعَ اللهُ ما كانَ موهوماً عندَ الناسِ قَبْلَ ذلكَ، ووَعَدَ لهمُ الثوابَ الكريمَ والرِّزقَ الحَسَنَ بقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فلا شكَّ أنَّ ذلكَ خيرٌ لهمْ في الدنيا والآخِرةِ وشرٌّ لأولئكَ الذينَ رَمَوها حتى لا[6] يَتجاسَرَ أحدٌ بَعْدَ ذلكَ، ولا يَجْتَرِئَ أنْ يَظُنَّ فيها ظَنَّ السَّوءِ فَضلاً عن أنْ يقولَ فيها شيئاً.

وقصةُ عائشةَ، رضي الله عنها طويلةٌ لكنّا نَذْكُرُ ما كانَ بنا إلى ذلكَ حاجةٌ، أي أنْ يُقالَ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لِما أنزَلَ اللهُ تعالى بِشأنِهِمْ آياتٍ فيها براءتُهُمْ عمّا قُرِفوا بهِ، تُتْلَى تلكَ الآياتُ إلى يومِ القيامةِ؛ وذلكَ خيرٌ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي إثمِ ما قَرَفَها بهِ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو ذلكَ [المُنافِقُ الذي ألْقَى ذلكَ][7] في الناسِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فيهِ دلالةُ أنهُ يَموتُ على نِفاقِهِ. وكذلكَ [ماتَ][9] على نِفاقِهِ، فَلَحِقَهُ هذا الوَعيدُ، قِيلَ: هو عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ بْنِ سَلولٍ ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأنهُ كانَ مُنافِقاً.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضُهمْ: هلّا إذْ سَمِعْتُمْ[10] قَذْفَ عائشةَ رضي الله عنها بِصَفوانَ كَذَّبْتُمْ بهِ أولئكِ القَذَفَةَ؛ يقولُ: ألا ظَنَّ بَعضُهُمْ بِبَعْضٍ خَيراً، وهلّا قالوا: ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يقولُ اللهُ: هلّا قالوا: [هذا][11] القَذْفُ كَذِبٌ مُبينٌ.

الآية ١٣ وعلى هذا يُخَرَّجُ أيضاً قولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هَلّا قالوا لهمْ: جِيئوا بأربعةِ شُهَداءَ على قَذْفِكُمْ إيّاها[12] ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ظَنَنْتُمْ بهمْ ظَنّاً ما ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دونَ أنْ قالوا: ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أو أنْ يكونَ التأويلُ: إنْ لم يَظُنَّ أحدٌ منكُمْ بِنفسِهِ إذا كانَ مع أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ فكيفَ ظَنَّ بصَفوانَ[13] ذلكَ إذا كانَ مع أزواجِهِ؟ أو أنْ يُقالَ: إذا لم يكُنْ يَظُنُّ أحدٌ بِأُمّهاتِهِ ومَحارِمِهِ ذلكَ فكيفَ ظَنَّ بأزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ وهُنَّ[14] أمهاتُكُمْ وأُمّهاتُ جَميعِ المؤمنينَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي لم يكنْ لهم بما قَذَفوا شُهَداءُ، ولا يَجِدونَ على ذلكَ شُهَداءَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّوْلَا﴾ أي لم يكُنْ كقولِهِ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي لم يكنْ ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا﴾ [هود: ١١٦] وإلّا على تأويلِ: هَلّا يَبْعُدُ لأنهُ لم يكُنْ لهمْ شُهداءُ على ذلكَ، فكيفَ يأتونَ؟

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: موهوم. (٣) في الأصل وم: متمكن. (٤) في الأصل وم: مرهوم. (٥) في الأصل وم: ومحتمل. (٦) في الأصل وم: لم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: سمعتموه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: إياهم. (١٣) في الأصل وم: يصفون. (١٤) في الأصل وم: وهي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وإنْ أتوا بالشُّهداءِ على أمْرِ عائشة كانوا كاذِبينَ أيضاً. فدَلَّ أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي لم يكُنْ لهمْ شُهَداءُ، فكيفَ قذَفوها؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهينِ:

[أحدُهُما][1]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ حينَ[2] أنزَلَ في قَذْفِكُمْ عائشة بِصَفْوانَ آياتٍ في بَراءَتِهِما حتى تُبْتُمْ عن ذلكَ، وإلا لَمَسَّكُمُ العذابُ في الآخِرَةِ بذلكَ.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ العذابُ، ولَعاقَبَكُمْ بما قُلْتُمْ في عائشةَ في الدنيا.

على هذا التأويلِ العذابُ الموعودُ ف الدنيا. وعلى التأويلِ الأوّلِ الوَعيدُ في الآخِرَةِ. لكنْ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ رُفِعَ عنكُمْ، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي خُضْتُمْ فيه.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي بأمْثالِهِمْ خيراً، تأويلُهُ: لولا ظَنَّ المؤمنونَ بأمْثالِهِمْ خيراً دونَ أنْ يَظُنُّوا بهِمْ شَرّاً[3].

وفي ما عَظَّمَ اللهُ ﷻ أمْرَ القَذْفِ، وشَدَّدَ فيهِ مالَمْ يُشَدِّدْ في غَيرِهِ، ولَمْ يُعَظِّمْ وجوهٌ:

أحدُها: قَطْعُ طَمَعِ أهلِ الفُجورِ والرِّيبَةِ فيهِنَّ لئلا يَطْمَعَ أحدٌ منهمْ في المُحْصَناتِ وأولادِ الكِرامِ ذلكَ الفِعْلَ[4]، فَقَطَعَ طَمَعَهُمْ بما شَدَّدَ فيهِ لئلا يُقْرَفْنَ بذلكَ، ولا يُطْمَعُ فيهِنَّ ذلكَ.

والثاني: لِيَتْرُكَ[5] الناسُ الرَّغْبَةَ في مُناكَحَةِ المُحْصَناتِ وأولادِ الكرامِ، ويَرْغَبوا[6] في مَنْ دونَهُنَّ.

[والثالثُ: لئلا][7] تَحْدُثَ الضَّغائنُ والعَداوةُ بَيْنَ القَذَفَةِ وبينَ المُتَّصِلينَ بالمَقْذوفاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكانَ كذا، هذا مِنَ اللهِ على الإيجابِ؛ أي قد كانَ منهُ ذلكَ. وإذا كانَ مُضافاً إلى الخَلْقِ فهو على أنهُ لم يكُنْ ذلكَ، ولذلكَ تأوَّلوهُ: هلّا.

وعنِ ابنِ عباسٍ أنهُ قالَ في قولِهِ: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ [النور: ١٢] يقولُ: قالَ لِلْمُؤْمِنينَ: ﴿لَّوْلَا﴾ هلّا إذْ بَلَغَكُمْ عنْ عائشةَ/ ٣٦٤ ـ ب/ وصَفْوانَ ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ يقولُ: فَظَنَنْتُمْ بعائشةَ ظَنَّكُم بأنفسِكُمْ، وعَلِمْتُمْ أنَّ أُمَّكُمْ، لا تَفْعَلُ ذلكَ، وكذلكَ المؤمنةُ، لا تَفْعَلُ ذلكَ، وقُلْتُمْ: ﴿هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿لَّوْلَا﴾ هلّا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [يَشْهَدونَ][8] على قولِهِمْ، ويُصَدِّقونَهُمْ على مقالَتِهِمْ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ كَذَّبْتُموهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بالتَّشْديدِ، أي تَقْبَلُونَهُ، وتَلِقونَهُ بالتخفيفِ، أي تأخذونَهُ مِنَ الوَلْقِ، وهو الكَذِبُ، وكذلكَ قَرَأَتْ[9] عائشةُ رضي الله عنها.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تقولونَهُ، قالَ: تَلَقَّيْتُ الكلامَ، ولَقِنتُ، وتَلَقَّنْتُ، واحدٌ. ثم قولُهُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ مِنْ غَيرِكُمْ ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ في مابَينَكُمْ. جائزٌ أنْ يكونا جميعاً واحداً، أي تَتَكَلَّمونَ ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي مِنْ غَيرِ أنْ تعلَموا أنَّ الذي قُلْتُمْ مِنَ القَذْفِ قد كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَحْسَبونَ القَذْفَ ذَنْباً هَيِّناً ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوِزْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ ولا تَحْسَبونَهُ ﴿هَيِّنًا﴾ في الدينِ؛ لأنَّ القَذْفَ يُحْدِثُ نَقصاً في الدينِ. والنُّقْصانُ في الدينِ عظيمٌ عندَ اللهِ، وتَحْسَبونَهُ أنتمْ هَيِّناً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: شر. (٤) في الأصل وم: الفضل. (٥) في الأصل: وم بترك. (٦) في الأصل وم: ويرغبون. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ٢٤٠.

الآية ١٦ ثم وَعَظَ الذينَ خاضوا في أمرِ عائشةَ، فقالَ: ﴿وَلَوْلَا﴾ يقولُ: هلّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي القَذْفَ ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أي [ما][1] يَنبَغي لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الأمرِ. وهَلّا قُلْتُم: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لِعِظَمِ ما قالوا فيها. والبُهْتانُ الذي يَبْهَتُ، فيقولُ ما لم يكنْ مِنْ قَذْفٍ أو غيرِهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: البُهْتانُ الكَذِبُ؛ يُقالُ: بَهَتَ أي كَذَبَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي القَذْفِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ في بيانِ ذلكَ وبراءَتِهِم. أو يُبَيِّنُ أوامِرَهُ ونَواهِيَهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيءٍ مِنْ قولٍ أو فِعْلٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [قيلَ في عائشةَ وفي المؤمِنينَ][3]: كانَ أهلُ[4] النفاقِ [هم][5] الذينَ أحبّوا أنْ تَشيعَ الفاحِشةُ. وأمّا[6] أهلُ الإسلامِ فلا[7] يُحِبّونَ ذلكَ أبداً[8] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِنِفاقِهِمْ وقَذْفِ عائشةَ.

وأمّا [ماقيلَ:][9] في المؤمِنينَ فهو ما قالَ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ورُوِيَ عنْ عَمْرَةَ عنْ عائشةَ [أنها][10] قالَتْ: لمّا نَزَلَ عُذْري قامَ رسولُ اللهِ ﷺ على المِنبَرِ، فَذَكَرَ ذلكَ، وتَلا القرآن، فلمّا نَزَلَ أمَرَ برجلَينِ وامْرَأةٍ، فَضُرِبوا حَدَّهُمْ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ [بْنِ سَلولٍ][11] وحسّانَ بْنَ ثابتٍ[12] ومِسْطَحَ بْنَ أثاثَةَ الحَدَّ، وفي بَعْضِ الأخبارِ: وامْرأةً أيضاً، وهي حَمْنَةُ [بِنْتُ جَحْشٍ][13]: لكلِّ واحدٍ ثمانونَ جَلْدَةً.

ثم ما ذَكَرَ مِنْ قَذْفِ عائشةَ أنهُ ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وقولُهُ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] ونَحْوُهُ فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ في قَذْفِ كلِّ مُحْصَنَةٍ بَريئةٍ دونَ أنْ يكونَ ذلكَ خصوصاً لِعائشةَ، وهو كما ذَكَرَ في قَذْفِ المُحصناتِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية [النور: ٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: يُشيعونَ الفاحِشةَ، ويُذيعونَها في الذينَ آمَنوا هُمُ الذينَ تَوَلَّوا إشاعَتَها[14] وإذاعَتَها [بأنفُسِهِمْ][15] فيهِمْ لهمْ ما ذَكَرَ مِنَ العذابِ الأليمِ.

والثاني: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لِيكونَ[16] ذلكَ ذَريعةً لهمْ في المؤمنينَ، فيقولوا[17]: إنَّ دينَكُمْ لم يَمْنَعْكُمْ عنِ الفواحشِ والمُنْكَرِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنهمْ كانوا مُنافِقينَ: منهمْ كانَ أوّلُ بَدْءِ القَذْفِ، وبهمْ شاعَ. لِذلكَ كانَ لهمْ هذا الوَعيدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي واللهُ يَعْلَمُ حَقائقَ الأشياءِ، وأنتُمْ لا تَعْلَمونَ حقائقَها.

وفيهِ دلالةُ تَعْليقِ الحُكْمِ بالظّواهِرِ دونَ تَعْليقِهِ بالحَقائقِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لم يَذْكُرْ جوابَ قولِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فَجَوابُهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] بِفَضْلِهِ يَزْكو مَنْ زَكا، وبِرَحْمَتِهِ يَصْلُحُ مَنْ صَلَحَ، لا يَصْنَعُ [شيئاً][18] مِنْ نفسِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وإلا. (٧) الفاء ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: في المؤمنين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أشياعهم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ليكونوا. (١٧) في الأصل وم: فيقولون. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ نَهى المؤمنينَ أنْ يَتَّبِعوا خُطُواتِ الشيطانِ، ولم يُبيِّنْ ما خُطُواتُ الشيطانِ؟ لكنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ فجوابُهُ أنْ يقولَ: فإنَّ خُطُواتِهِ كذا. ولم يَقُلْ أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ يَفعَلُ الفاحشةَ، ولكنهُ قالَ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾.

لكنَّ جوابَهُ ما قالَ في آيةٍ أُخرى. وما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٨ و ١٦٩] أخبرَ [أنَّ مَن اتَّبَعَهُ][1] أُمِرَ بالفحشاءِ والمُنكَرِ.

[ثم][2] خُطُواتٌ مِنَ الخُطْوَةِ، والخَطْوَةِ؛ وهما مِنْ رَفعِ القَدَمِ وَوَضعِهِ.

وأصلُهُ نَهيٌ عنِ اتّباعِ آثارِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ التَّزكِيَةُ تَحتَمِلُ التَّوفيقَ والعِصمَةَ [أو][3] يَزكونَ بما أعطى لهمْ مِنَ التَّوفيقِ والعِصمةِ، أو يَزكونَ بما أرسَلَ إليهِمْ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُلِ [لكنَّ التّوفيقَ][4] والعِصمَةَ أشبَهُ.

وفيهِ نَقضُ قولِ المُعتَزِلةِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ مَنْ زكا فإنما يَزكو بِفَضلِهِ ورَحمَتِهِ، وهُمْ يقولونَ: لو فَعَلَ بهمْ غيرَ الذي فَعَلَ كانَ جائزاً عندَهُمْ. فَعَلى قولِهِمْ: ليسَ بِمُفضِلٍ، ولكنَّهُ[5] عادلٌ لأنهُ فَعَلَ ما عليهِ أنْ يَفعَلَ.

فَعَلى قولِهِمْ: لا يكونُ مُفضِلاً، ولكنْ عادلاً؛ إذْ لم يُسَمَّ في الشاهدِ مَنْ فَعَلَ ما عليهِ أنْ يَفعَلَ مُفضِلاً. وعلى قولِهِمْ: إنهُ قد أعطى كُلّاً ما بهِ [يَزكو، ويَصلُحُ][6] لكنهمْ لم يَزكوا همْ [باختيارِهِمْ][7] فَعَلى قَولِهِمْ: لم يَزكُ مَنْ زَكا بهِ، ولكنه إنما زَكا بما أعطاهُ لهُ. فقد أخبَرَ أنَّ مَنْ زَكا فإنما زَكا بهِ، وأنهُ قد أبقى عندَهُ ما لو أعطاهُمْ ذلكَ لَزَكَوا. وقد أعطى ذلكَ مَنْ زَكا، وصَلَحَ، ولم يُعطِ مَنْ لم يَزكُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي سميعٌ لأقوالِهِمْ وعليمٌ بأفعالِهِمْ. وأصلُهُ ما ذَكَرَ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧و . .]

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ أي ولا يَحلِفْ، وهو يَفعَلُ، مِنَ الإيلاءِ.

وقال أبو عَوسَجَةَ: لا يأتَلِ: لا يَعجَزْ، ولا يُقصِّرْ؛ يُقالُ: ائتَلى يأتَلي، ولا يَألُ ألواً، وهو التَّقصيرُ وتركُ المُبالَغةِ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ أي مَنْ لهُ الفَضلُ والسَّعةُ. ويَحتَمِلُ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ﴾ مَنْ لهُ الأفضالُ والمَعروفُ وبِرُّ ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ أبا بَكرٍ كانَ حَلَفَ ألا يَنفَعَ مِسْطَحاً بِنافِعَةٍ، وكانَ قَريبَهُ، بما تَكَلَّمَ في عائشةَ فأنزَلَ اللهُ النَّهيَ عن ذلكَ، فقالَ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ/ ٣٦٥ ـ أ/ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾.

لكنَّ الآيةَ، وإنْ نَزَلَتْ في أمرٍ ومَعنىً كانَ مِنْ أبي بَكرٍ فإنَّ غَيرَهُ مِنَ الناسِ يَشتَرِكُ في مَعنَى ذلكَ؛ وفي ذلكَ النَّهيِ، وكذلكَ ما قالَ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢٤] ذَكَرَ أنَّ قوماً يَحلِفونَ ألّا يَبَرّوا الناسَ، ولا يُصلِحوا [في ما بينَ الناسِ، يُريدونَ][8] بذلكَ أنْ يكونَ حَلِفُهُمْ في ذلكَ عُذراً لهمْ في تَركِ الإنفاقِ عليهم والتَّعاونِ والإصلاحِ بَينَ الناسِ، فَنُهوا عنْ ذلكَ. وذلكَ النَّهيُ[9] لهمْ ولِمَنْ كانَ في مَعناهُمْ، ليسَ لهمْ خاصةً.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ولكن. (٦) في الأصل وم: يزكون ويصلحون. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: اليمين.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية. وإنْ كانَ في أبي بكرٍ فهو فيهِ وفي الذينَ في مَعْناهُ. وإنْ كانَ حَلَفَ هذا بِتَرْكِ الإنفاقِ لإساءةٍ كانَتْ منهمْ إليهِ، والأوَّلُ على الإبْتِداءِ [لا][1] لِإساءةٍ كانَتْ منهمْ إليهِمْ.

وكذلكَ هذهِ الآياتُ نَزَلَتْ لنازلةٍ كانَتْ في عائشةَ وصَفْوانَ [بْنِ المُعَطَّلِ][2] فإنما نَزَلَتْ لِتِلْكَ النازلةِ لِمَعْنىً، لا نَزَلَتْ لأنها كانَتْ عائشةُ وأبو بكرٍ، ولكنْ لِمَعْنىً بكلِّ مَنْ وَجَدَ ذلكَ، فيهِ شِرْكٌ في ذلكَ، ويَجْعَلُ كأنَّ هذهِ الآياتِ كلَّها نَزَلَتْ فيهِ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فكلُّ مُحْصَنَةٍ مؤمنةٍ غافلةٍ بَريئةٍ ممّا رُمِيَتْ بهِ، دَخَلَتْ في هذهِ الآيةِ، وكلُّ رامي مُحْصَنٍ مؤمنٍ غافلٍ بَريءٍ [مِمّا رُمِيَ بهِ دَخَلَ][3] في الآيةِ لوجودِ المَعْنى الذي نَزَلَتْ الآيةُ [لهُ][4].

وعلى ذلكَ القرآنُ إذا نَزَلَ بِسَببٍ أو[5] نازلةٍ لِمَعْنىً، يَشْتَرِكُ مَنْ وَجَدَ فيه ذلكَ المَعْنى [في ذلكَ الحُكْمِ][6]. فعلى ذلكَ ما نَزَلَ في أبي بكرٍ مِنَ النَّهْيِ بِتَرْكِ الإنفاقِ وما عَوَّدَهُ مِن اصْطِناعِ المَعروفِ إليهِ لما كانَ منهُ إليهِ مِنَ الإساءةِ.

ثم أمَرَهُ بالعَفْوِ والصَّفْحِ، وهو قولُهُ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي اعْفُوا عن إساءتِهِ، واصْفَحوا، أي لا تَذْكُروا عَفْوَكُمْ إيّاهُ عَنْ إساءتِهِ، ولا تَذْكُروا زَلَّتَهُ أيضاً، لأنَّ ذِكْرَ العَفْوِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ الإمْتِنانِ كقولِهِ ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. أخْبَرَ أنَّ المَنَّ يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ وذِكْرَ الزَّلَّةِ يُخْرِجُ مُخْرَجَ التَّعْييرِ والتوبيخِ. فأمَرَهُ بالعَفْوِ، وهو ظاهرٌ، والصَّفْحِ [وهو][7] ما ذَكَرْنا مِنْ تَرْكِ ذِكْرِ العَفْوِ والزَّلَّةِ والإساءةِ جميعاً، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي قد تُحِبّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لكمْ ماكانَ منكمْ إليهِ مِنَ الإساءةِ؛ فإنْ أحْبَبْتُمْ ذلكَ فاعْفُوا عَمَّنْ أساءَ إليكُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المُحْصَناتِ ههنا، هُنَّ الحرائرُ، والغافلاتِ، هُنَّ البَريئاتُ مِنَ الفاحشةِ، والمؤمناتِ: ظاهرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ كأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في المُنافِقينَ الذينَ كانَ[8] منهمُ ابْتِداءُ القَذْفِ وإشاعَتُهُ في الناسِ. لذلكَ ذَكَرَ فيهمُ اللَّعْنَ والعذابَ العظيمَ.

فهوَ كما قالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩] والمؤمنُ لا يُحِبُّ شُيُوعَ[9] الفواحِشِ في المؤمنينَ؛ إنما ذلكَ عادةُ المُنافِقينَ.

ثم اللَّعْنُ في الدنيا، هو الحَدُّ الذي ضُرِبَ، وفي الآخِرةِ العذابُ الأليمُ العظيمُ. كأنهُ ذَكَرَ اللَّعْنَ والعذابَ الأليمَ إذا لم يَتوبوا، وماتوا على النِّفاقِ. فعندَ ذلكَ يكونُ لهمْ ما ذَكَرَ.

الآية ٢٤ ويَدُلُّ لِما ذَكَرْنا أنَّ الآيةَ في المُنافقينَ قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآية. وإنما تَشْهَدُ هذهِ الجوارحُ على الكافرِ كإنكارِهِ باللسانِ.

وأمّا المؤمنُ فإنهُ مُقِرٌّ بذلكَ كلِّهِ، لا يَحْتاجُ إلى أنْ تَشْهَدَ عليهِ الجوارحُ، وهو ما قالَ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية [يس: ٦٥] كأنهمْ يُنْكِرونَ ذلكَ في الآخِرةِ كما أنكروا في الدنيا كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. أخْبَرَ أنهمْ يَحْلِفونَ للهِ في الآخِرةِ كما يَحْلِفونَ لرسولِ اللهِ في الدنيا.

فجائزٌ [أنْ تكونَ] ألسِنَتُهُمْ تَشْهَدُ عليهمْ بَعْدَ ما أنْكَروا، وتَشْهَدُ عليهمْ سائرُ الجوارحِ إذا أنْكَروا، وهو ما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ﴾ الآية ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ الآية [فصلت: ٢٠و٢١] تكونُ شهادةُ الألْسُنِ بعدَ ما أنْكَروا هُمْ ذلكَ، وحَلَفوا، فعندَ ذلكَ تَشْهَدُ عليهِمْ ألسِنَتُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: دخل مما رمي به، في م: مما رمي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بالمرء أمر. (٦) في الأصل: فيه شرك، في م: فيه شرك في ذلك الحكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كانت. (٩) في الأصل وم: شياع.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يؤمنونَ بهِ جميعاً يومئذٍ، ويُقِرّونَ بالحقِّ، لكنْ لا يَنفعُهُمْ إيمانُهُمْ يومئذٍ كقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي يَعْلَمونَ أنَّ ما دَعاهُمُ الرسولُ إليهِ مِنْ توحيدِ اللهِ والإقرارِ بالرّبوبيّةِ لهُ والألوهيّةِ ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي يُبيِّنُ ذلكَ، والحَقُّ المُبِينُ ما يُبيِّنُ ما يُؤتى وما يُتّقى، وما يَحِلُّ، وما يَحرُمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ مِنَ الكلماتِ [﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ الناسِ][2] ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ مِنَ الكلماتِ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ الناسِ ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ مِنَ الناسِ ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ مِنَ الكلماتِ.

وقالَ مجاهِدٌ: هو القَولُ السَّيِّئُ والقَولُ الحَسَنُ، فالحَسَنُ للمؤمنِينَ، والسَّيِّئُ للكافرينَ؛ وذلكَ ما قالَ: الكافرونَ [بريئونَ من كلِّ][3] كلمةٍ طيّبةٍ، هي[4] للمؤمنينَ، وما قالَ: المؤمنونَ [بريئونَ][5] مِنْ كلِّ خبيثةٍ، هي للكافرينَ؛ كلٌّ بريءٌ ممّا ليسَ لهُ نَحوٌ مِنَ الكلامِ.

ثم قالَ: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يَعْني عائشةَ وصَفوانَ ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا﴾ يَقولُ أولئكَ القَذَفَةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي حَسَنٌ. فَابْنُ عباسٍ صَرَفَ الآيةَ إلى عائشةَ وصَفوانَ وإلى قَذَفَتِهِمْ؛ وذلكَ مُحتَمَلٌ، وهو قريبٌ مِنَ الأوّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ مِنَ النساءِ ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ الرجالِ، ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ مِنَ الرجالِ ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ مِنَ النساءِ، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ مِنَ النساءِ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ الرجالِ. لكنَّ هذا يَتَوَجَّهُ إلى النّكاحِ شَرْعاً وَوُجوداً.

أمّا الشّرعُ [فهو][6] نَهْيُهُ المؤمنِينَ عنْ نِكاحِ المُشركاتِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١] وقولِهِ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] فالمشركاتُ مِنَ الخَبيثاتِ، هنَّ لخَبيثينَ منهُمْ، وهُمُ المُشركونَ. وكذلكَ الزانياتُ للزُّناةِ منهم، والمؤمناتُ، هُنَّ الطَّيِّباتُ، فهنَّ للمؤمنِينَ. وكذلكَ المُحصَناتُ الغافلاتُ، هُنَّ الطَّيِّباتُ، فَهنَّ لِلْمُحْصَنينَ مِنْ أهلِ العَفافِ والصلاحِ. هذا، هو الشَّرْعُ.

وأمّا الوجودُ، فهو ما صَبَّرَ أزواجَ المنافِقِينَ والكَفَرَةِ على كُفرِ أزواجِهِنَّ، والسَّبُّ لرسولِ اللهِ، والأذى لهُ؛ وذلكَ لِخُبثِهِنَّ وكُفرِهِنَّ ومُوافَقَةِ أزواجِهِنَّ. فلو كُنَّ طَيِّباتٍ لَكُنَّ لا يَصْبِرْنَ على ذلكَ كما لا تَصْبِرُ المؤمنةُ [على كُفرِ][7] زَوجِها [ولا يَصْبِرُ الزَّوجُ على كُفرِ][8] امْرَأتِهِ.

ومَنْ صَبَرَ على ذلكَ فإنما صَبَرَ لِخُبثِهِ؛ فَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أكفاءُ: الخَبيثاتُ لِلْخَبيثينَ، والخَبيثونَ لِلْخَبيثاتِ، وكذلكَ الطَّيّباتُ والطَّيّبونَ، واللهُ أعلَمُ.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنَ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: قالَ: إنَّ الكلمةَ الخَبيثةَ لَتكونُ في جوفِ الرجلِ الصالحِ، فلا يكونُ لها في قَلبِهِ مُستقَرٌّ حتى يَلْفِظَها، فَيَسْمَعَها الرجلُ الخبيثُ، فَيَضُمُّها إلى ما عندَهُ مِنَ الشّرِّ، وإنَّ الكلمةَ الصالحةَ لَتكونُ في جوفِ الرجلِ الخبيثِ، فلا يكونُ لها في قَلْبِهِ مُستقَرٌّ حتى يَلْفِظَها، فَيَسْمَعَها الرجلُ الصالحُ، فَيَضُمُّها إلى ما عندَهُ مِنَ الخيرِ، ثم تَلا عبدُ اللهِ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ الآيةَ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الخبيثاتُ هي الدَّرَكاتِ التي تكونُ في النارِ لِلّذينَ عَمِلوا أعمالاً خَبيثةً في الدنيا، والطّيّباتُ هي الدّرَجاتِ التي تكونُ في الجنةِ للطَّيِّبينَ الذين عَمِلوا في الدنيا. / ٣٦٥ ـ ب/

فالدرجاتُ في الجنةِ لِلطَّيِّبينَ الذين عَمِلوا الطَّيّباتِ في الدنيا والدَّرَكاتُ في النارِ للذينَ عَمِلوا الخَبائثَ والمَعاصِيَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والقول. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: فهي. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يصبر. (٨) في الأصل وم: والزوج بكفر. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أُنزِلَ[1] في المُنافِقينَ الذين قَذَفوا عائشةَ [وهمْ][2] عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ [ابنِ سَلولٍ][3] وأصحابُهُ.

وكانَ قَذَفَها مُنافِقونَ ومؤمنونَ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ المؤمنينَ لَمْ يَقْصِدوا بهِ قَذْفَها، ولكنْ كانَ ذلكَ زَلَّةً منهمْ أو غَفْلَةً. وأمّا المُنافِقونَ فقد قَصَدوا بهِ القَذْفَ والفِرْيَةَ.

فأوجبَ لِلْمُنافِقينَ الحدَّ واللَّعْنَ والعَذابَ العظيمَ على ما ذَكَرَ: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

وأمّا المؤمنونَ فقالَ لهمْ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

وقالَ بعضُهُمْ: فَضْلُهُ الإسلامُ ورَحْمَتُهُ القرآنُ، أي لولا ذلكَ لَعَذَّبَكُمْ كما عَذَّبَ أولئكَ.

ثم قالَ [بعضُهُمْ: قولُهُ][4] ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ﴾ مِنَ القولِ [والعَمَلِ][5] ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ الناسِ كما ذَكَرَ أولئكَ. إلا أنهُ زادَ فيهِ: والعَمَلِ[6]. وذلكَ كلُّهُ قريبٌ بعضُهُ [مِنْ بعضٍ][7] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ [بعضُهُمْ][8]: إنَّ الرجلَ الصالحَ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ العوراءِ، فيقولُ القائلُ: قالَ فلانٌ كذا وكذا، فيقولُ الآخَرُ: ما هذا مِنْ كلامِ فلانٍ.

ورُوِيَ عنْ أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ أنهُ قالَ مِثْلَ قولِ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ][9] إنَّ الكلمةَ الخبيثةَ، تَخْرُجُ مِنْ لسانِ العبدِ، فَتَصْعَدُ إلى السماءِ، فلا تُفْتَحُ لها أبوابُ السماءِ، وتَرْجِعُ إلى الأرضِ، فلا تَجِدُ لها مُسْتَقَرّاً، وتَذْهَبُ إلى البُحورِ، فلا تَجِدُ لها مكاناً، فتقولُ: ما أَجِدُ لي مَوْضِعاً أَسْكُنُهُ غيرَ المَوْضِعِ الذي خَرَجْتُ منهُ، فَتَرْجِعُ إلى صاحِبِها. ثم تلا كعبٌ هذه الآيةَ: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ الآيةَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ أنهُ كانَ يَقْرَؤُها: حتى تَسْتَأْذِنوا[10]، وتُسَلِّموا على أهلِها، وقالَ: تَسْتَأْنِسوا وَهْمٌ مِنَ الكاتِبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الاِسْتِئْناسُ الاِسْتِئْذانُ. وقالَ بعضُهُمْ: الاِسْتِئْناسُ الاِسْتِعْلامُ، وهو أنْ يَطْلُبَ مِنْ أهلِ البيتِ الإذْنَ بالدُّخولِ، والاِسْتِئْذانُ هو طَلَبُ الإذنِ منهمْ للدُّخولِ.

«ورُوِيَ عنْ أبي أيّوبَ [أنهُ][11] قالَ: قُلْنا: يا رسولَ اللهِ هذا السلامُ قد عَرَفْناهُ، فما الاِسْتِئْذانُ؟ قالَ: أنْ يَرْفَعَ صوتَهُ بالتَّحْميدِ أو بالتَّسبيحِ أو بالتكبيرِ لِيُؤْذَنَ لِلدُّخولِ» [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٢] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو إلى الاِسْتِعْلامِ أقْرَبُ، وهو قولُهُ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي عَلِمْتُمْ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي حتى تُسَلِّموا، وتَسْتَأْنِسُوا، وهو أنْ تَبْدَأَ، فتقولَ: السلامُ عليكمْ، ورَحْمَةُ اللهِ [أَنَدْخُلُ؟ نُسَلِّمُ أولاً، ثم نَسْتَأْذِنُ][12] وهو ما رُوِيَ: «السلامُ قَبْلَ الكلامِ» [الترمذي: ٢٦٩٩]

ولكنْ عندَنا: الاِسْتِئْذانُ[13] لِلدُّخولِ، فإذا أُذِنَ بالدُّخولِ، فَدَخَلَ، فعندَ ذلكَ يُسَلِّمُ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١] فإنما أَمَرَ بالسلامِ بعدَ الدخولِ.

---

(١) في الأصل: أنزلت، في م: نزلت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ادرج قبلها في الأصل وم: من القول. (٧) في الأصل وم: ببعض. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بمثل قيل عبد الله فقال. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ح٤/ ٢٤٦. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أادخل يسلم أولاً ثم يستأذن. (١٣) ادرج قبلها في الأصل وم: أن.

فَعَلى ذلكَ هذا يُستَأذَنُ للدُّخولِ. فإذا أُذِنَ لهُ دَخَلَ، فَبَعْدَ الدخولِ يُسَلِّمُ عليهِمْ لأنهُ[1] لو سَلَّمَ أوّلاً، ثم استَأذنَ، احْتاجَ أن يُسَلِّمَ ثانياً إذا دَخَلَ. فهذا الذي ذَكَرْنا أشبهُ بِعَمَلِ الناسِ وظاهرِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ لم يَرْجِعْ إلى المَساجدِ ونَحْوِها[2]، بل يَرْجِعُ ذلكَ إلى بُيوتٍ مَسْكونةٍ. فذلكَ يدلُّ لِقَولنا: إنَّ مَنْ حَلَفَ ألا يَدخُلَ بيتاً، فَدَخَلَ المَسْجِدَ، لم يَحْنَثْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي ذلك الاِسْتِئذانُ والتَّسليمُ خَيرٌ لكمْ مِنْ تَرْكِ الاِسْتِئذانِ لأنهُ تَرْكَ التَّأدُّبِ بما أدَّبَهُ اللهُ، وعَلَّمَهُ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّعِظونَ بأدبِ اللهِ.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ مَنْ دَخَلَ بَيتاً بِغيرِ إذْنٍ قالَ لهُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بهِ: عَصَيْتَ، وآذَيْتَ، فَيَسْمَعُ صوتَهُ الخَلْقُ كلُّهُ غَيرَ الثَّقَلَينِ، ويَصْعَدُ صوتُهُ إلى السماءِ الدنيا، فتقولُ ملائكةُ السماءِ: أُفٍّ لفلانٍ عَصَى رَبَّهُ، وآذى.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ هذا يَدلُّ على أنَّ الاِستِئذانَ وطَلَبَ الإذنِ لا لِحَيثُ أنفسِهِمْ خاصةً، ولكن لانفسِهِمْ ولما لهمْ في البيوتِ مِنَ الأموالِ لأنهُ قالَ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لم يأذَنْ لهمْ بالدخولِ فيها، وإن لم يكُنْ فيها أحدٌ حتى يَأْذَنَ أربابُ الأموالِ والمنازِلِ بالدخولِ فيها لِيُعْلَمَ أنَّ النَّهْيَ عنِ الدخولِ لِلأنفُسِ والأموالِ جميعاً، لأنَّ الناسَ يَتَّخِذونَ البيوتَ والمنازلَ صَوناً لِلأنفُسِ والأموالِ جميعاً. فكما يَكْرَهونَ اطِّلاعَ غَيرِهِمْ على أنفسِهِمْ وعِيالاتِهِمْ، فلا تَطيبُ أنفُسُهُمْ أيضاً [باطِّلاعِ غَيرِهِمْ][3] على اموالِهِمْ وأمْتِعَتِهِمْ، فلا تَدْخَلُ إلا بإذنٍ مِنْ أهلِها، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ الاِستِئذانَ ثلاثٌ؛ مَنْ لم يُؤذَنْ لهُ فيهنَّ فَلْيَرْجِعْ. أمّا الأولَى[4] فَيَسْمَعُ الحيُّ، وأمّا الثانيةُ فيأخُذونَ حِذْرَهُمْ، وأمّا الثالثةُ فإنْ شاؤوا أذِنوا، وإنْ شاؤوا رَدّوا.

وقيلَ: لا تَقْعُدَنَّ على بابِ قومٍ رَدّوكَ عنْ بابِهِمْ؛ فإنَّ للناسِ حاجاتٍ، ولهمْ أشغالٌ، واللهُ أعْذَرَ بالعُذْرِ.

وفي بَعضِها: وما تَنْقِمُ مِنْ شيءٍ يا ابْنَ آدمَ هو أزكي لكَ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ لأنهُ إذا لم يُؤذَنْ بالدخولِ، فَقَعَدوا على بابِهِمْ، ولم يَرْجِعوا، أورثَ ذلكَ مَعانِيَ تُكْرَهُ.

أحَدُها: تُهَمَةٌ على أهلِ الدارِ على ما يُقْعَدُ على أبوابِ أهلِ التُّهَمِ مِنَ الشُّرْطِيِّ وغَيرِهِ، فذلكَ مَكروهٌ عندَ الناسِ.

والثاني: يكونُ للناسِ أشغالٌ وحاجاتٌ في منازلِهِمْ وخارجَ المَنازِلِ. فإنِ انْتُظِرَ، وقُعِدَ على بابِهِمْ، ضاقَ بذلكَ ذَرْعُهُمْ، وشَغَلَ قلوبَهُمْ ذلكَ، فَلَعَلَّ حاجاتِهِمْ، لا تَلْتَئِمُ لِشُغْلِهِمْ بهِ، لذلكَ كانَ الرجوعُ أزكى لهمْ وخيراً لهمْ مِنَ القُعودِ على البابِ والاِنْتِظارِ، واللهُ أعلَمُ.

ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: «الاِستئذانُ ثلاثٌ، فإنْ أذِنَ فيهنَّ، وإلّا فَارْجِعْ» [الموطأ ٢/ ٩٦٣] وقالَ بعضُهُمْ: مَعناهُ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ يقولُ: إنْ سَكَتَ عنكُمْ، فلم يُؤذَنْ لكُمْ، فقد قيلَ لكمْ: ارْجِعوا، وإنْ لم يَقولوا بألسِنَتِهِمْ: ارجِعوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيدٌ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

ثم الاِستِئذانُ على مَحارمِهِ لازمٌ، وإنْ كانَ يجوزُ لهُ أنْ يَنْظُرَ إلى شَعْرِ ذاتِ مَحْرَمَةٍ ووَجْهِها، فإنهُ مَنْهِيٌّ عنِ النَّظَرِ إلى ما سِوَى ذلكَ مِنْ عَورَتِها، لِما يُخْشَى أن يَبْدُوَ مِنْ عَورَةِ المرأةِ إنْ دُخِلَ عليها بِغَيرِ إذْنٍ. «رُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ نَبيَّ اللهِ ﷺ فقالَ: أنا أخدُمُ أمي، وأفْرُشُها، أأسْتَأذِنُ[7] عليها؟ قالَ: نعمْ، فسألَهُ ثلاثاً، فقالَ لهُ: أيَسُرُّكَ أنْ تراها عُريانَةً؟ قالَ: لا، [قالَ][8]: فاستَأذِنْ عليها» [الموطأ: ٢/ ٩٦٣].

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الأول. (٥) في الأصل وم: لكم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

«وكذلكَ رُوِيَ عنْ خديجةَ أنَّ رجلاً سألَهُ؛ فقالَ[1]: أأسْتأذِنُ على أختي؟ فقال: إنْ لم تَستأذِنْ عليها رأيتَ ما يَسوؤكَ»[2] وكذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ عنْ أحدِهما في الأمِّ، وعنِ الآخَرِ في الأختِ لكنَّ/ ٣٦٦ ـ أ/ أمْرَهُ في الاستئذانِ على هؤلاءِ أسْهَلُ وأيْسَرُ مِنْ أمْرِ الأجنبيِّ؛ إذْ كانَ مُطْلقاً لهُ أنْ يَنْظُرَ إلى شَعْرِ مَحْرَمَةٍ ووجْهِها، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ وجهَيْنِ.

أحدُهما: بيوتاً غيرَ مُحتَمِلَةٍ لِلسُّكْنَى، وهي الخَرِباتُ والمواضِعُ التي تُقْضَى فيها الحَوائجُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ حَفْصَةَ: بيوتاً غَيرَ مَعْمورَةٍ لكمْ فيها منافِعُ لكمْ.

[والثاني: بُيوتاً غيرَ][3] مسكونةٍ مُحْتَمِلَةً لِلسُّكْنَى، إلّا أنَّ أهلَها لم يَسْكُنوها لِنُزُولِ الناسِ فيها، وهي نَحوُ الخاناتِ والرِّباطاتِ[4] التي تكونُ للمارَّةِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ الاستئذانُ: قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ فكيفَ بالبيوتِ التي بَينَ مكةَ وبينَ المدينةِ، ليس فيها ساكنٌ؟فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ: ليس عليكم جُناحٌ في بيتٍ، ليسَ فيه ساكنٌ، أنْ تدخُلوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ إنْ [كانتْ تلكَ][5] البيوتُ الخاناتِ والبيوتَ التي يَنْزِلُ فيها أهلُ السَّفَرِ فيكُونُ قولُهُ ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني[6]: فيها مَنْفَعَةٌ لكُمْ مِنَ الدِّفءِ في الشتاءِ والظِّلِّ في الصيفِ ودَفْعِ الحَرِّ في أيامِ الحَرِّ ودَفْعِ البَرْدِ في أيامِ البَرْدِ.

وإنْ كانَتِ البُيوتُ هي الخَرِباتِ [والأقْتابَ والأمْتِعاتِ][7] التي كانوا يَصنعونَ [لِلطُّهورِ وقَضاءِ][8] الحَوائِجِ فيكونُ قولُهُ: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني[9] الخَلاءَ والبَوْلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ قيل: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ مِنَ السلامِ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وما تُخْفُونَ منهُ، أو في كلِّ شيءٍ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] يذكُرُ هذا لِنكونَ[10] أبداً على حِذْرٍ أو خَوفٍ واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ [أنهُ][11] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عليُّ إنَّ لكَ لَكَنْزاً في الجنةِ، وإنكَ لَذو قَرْنَيها، فلا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فإنَّ لكَ الأولى، ولَيسَتْ لكَ الآخِرَةُ» [أحمد: ١/ ١٥٩].

وعَنْ أنسٍ ﷺ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [قولُهُ:][12] «يا ابنَ آدَمَ لكَ أوَّلُ نَظْرَةٍ فإيّاكَ الثانيةَ» [بنحوه أحمد: ٥/ ٣٥٢] وعَنْ جَريرِ [بْنِ عبدِ اللهِ أنهُ][13] قالَ: سألْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الفُجاءَةِ، فأمَرَني أنْ اصْرِفَ بَصَري.

وعنِ ابنِ عباسٍ [ﷺ قولُهُ][14] يَغُضّوا أبصارَهُمْ عنْ شَهَواتِهِمْ في ما يَكْرَهُ اللهُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ وجوهاً ثلاثةً.

أحَدُها: غَضُّ[15] أبْصارِهِمْ لكي يَحْفَظوا فُروجَهُمْ؛ فإنَّ حِفْظَ الفَرْجِ إنما يكونُ[16] بِغَضِّ البَصَرِ وحِفْظِهِ.

والثاني: غَضُّ[17] أبْصارِهِمْ عنِ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ مِنَ الأجْنَبِيّاتِ، لأنَّ النَّظَرَ إلى المَحارِمِ [لا يَحِلُّ، وحِفْظَ][18] فُروجِهِمْ عنِ الكُلِّ مِنَ المَحارِمِ والأجْنَبِيّاتِ إلّا الذينَ اسْتَثْناهُمْ في [الآيةِ التاليةِ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج هذا في تفسير ابن جرير الطبري على أنه قول ابن جرير وهو ليس حديثا: ١٨/ ١١٢. (٣) في الأصل وم: الثاني بيوتاً. (٤) في الأصل وم: والرباط. (٥) في الأصل وم: كان ذلك. (٦) في الأصل وم: أي. (٧) في الأصل وم: وأقباب وأمتعات. (٨) في الأصل وم: في الطهور لقضاء. (٩) في الأصل وم: فيكون. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: غضوا. (١٦) من م، في الأصل: يكونوا. (١٧) في الأصل وم: يغضوا. (١٨) في الأصل وم: يحل ويحفظوا.

والثالثُ: غَضُّ[1] أبصارِهِمْ عمّا في أيدي الخَلْقِ [وألّا يُفَتِّحوها][2] إلى ما في أيديهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [طه: ١٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أطْهَرُ لهمْ وأدْعَى إلى الصلاحِ مِنَ النَّظَرِ.

الآية ٣١ وعلى هذا[3] يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ الرِّداءُ مِنَ الثيابِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الكُحْلُ والخاتَمُ، وفي روايةٍ أُخرَى: الكَفُّ والخاتَمُ.

وعَنْ عائشةَ ﷺ [أنها][6] قالَتْ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: القُلْبُ، والفَتَخَةُ، وهي خاتَمُ إِصْبَعِ الرِّجْلِ.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيرِ [قولُهُ: الزِّينةُ][7] زِينَتانِ: زِينةٌ باطنةٌ، لا يَراها إلا الزَّوجُ [كالإكليلِ والسِّوارِ والخاتَمِ. وأمّا الزِّينةُ الظاهرةُ فالثِّيابُ][8].

فإنْ كانَ التأويلُ ما رُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ [حينَ خَصَّ الرِّداءَ مِنَ الثيابِ][9] ففيهِ دلالةُ ألا يَحِلَّ النَّظَرُ إلى امرأةٍ أجْنَبِيَّةٍ وإنْ كانَ ما قالَ ابنُ عباسٍ ففيهِ دلالةُ حِلِّ النَّظَرِ إلى وَجْهِ المرأةِ لا بِشَهْوَةٍ.

وإنْ كانَ ما قالتْ عائشةُ مِنَ القُلْبِ والفَتَخَةِ ففيهِ دلالةُ جوازِ النَّظَرِ إلى الكَفَّيْنِ والقَدَمَيْنِ لأنهما ظاهِرَتانِ بادِيَتانِ

ألا ترى أنهما مِنَ الظَّواهِرِ في فَرْضِ غَسْلِ الوُضوءِ؟ وإنْ كانَ ذلكَ ففيهِ دَلالةُ جوازِ صَلاتِها مَعَ ظُهورِ القَدَمِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ النَّظَرُ إلى وجهِ المَرْأةِ حَلالاً إذا لم يَكُنْ بِشَهْوَةٍ. لكنْ غَضُّ البَصَرِ وتَرْكُ النَّظَرِ أوفقُ وأزْكَى كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهُنَّ حرائرُ ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] كما يُؤذى الإماءُ.

والذي يدلُّ أنَّ للمَرْأةِ ألّا تُغَطِّيَ وَجْهَها، ولا يَنْبَغي للرجُلِ أنْ يَتَعَمَّدَ النَّظَرَ إلى وجْهِ المرأةِ إلّا عندَ الحاجةِ إليهِ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ لِعَليٍّ ﷺ: «إنَّما لكَ الأُولَى وليستْ لكَ الآخِرَةُ» [الترمذي: ٢٧٧٧] وفي بَعْضِها: «الأُولَى لكَ والآخِرَةُ عليكَ» [بنحوه الترمذي: ٢٧٧٧] لأنهُ كأنهُ إنما يَتَعَمَّدُ النَّظَرَ في الثانيةِ لِشَهْوَةٍ تَحْدُثُ في قَلْبِهِ.

وإذْنُهُ للذي تُريدُ أنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأةً أنْ يَنْظُرَ إليها يَدُلُّ على أنَّ نَظَرَ الرجلِ إلى وَجْهِ المرأةِ غَيرُ حرامٍ، لأنهُ لو كانَ حَراماً لم يأذَنْ فيهِ النَّبِيُّ لأحدٍ.

ونَرَى، واللهُ أعلَمُ، أنَّ النَّظَرَ إلى وجهِ المرأةِ ليسَ بِحرامٍ إذا[10] لمْ يَقَعْ في قَلْبِ الرجُلِ مِنْ ذلكَ شَهْوَةٌ. فإذا وَجَدَ لذلكَ شَهْوَةً، ولم يَأْمَنْ أنْ [يُوْدِيَ بهِ][11] ذلكَ إلى ما يُكْرَهُ، فَمَحْظورٌ عليهِ أنْ يَنْظُرَ إليها إلّا أنْ يُريدَ بهِ مَعْرِفَتَها والنِّكاحَ، فإنهُ قد رُخِّصَ في ذلكَ.

رُوِيَ أنَّ المُغيرةَ [بْنَ شُعْبَةَ][12] أرادَ أنْ يَتَزَوَّجَ امْرأةً، فقالَ لهُ رسولُ[13] اللهِ ﷺ «اذْهَبْ، فانْظُرْ إليها، فإنهُ أحْرَى أنْ يُؤْدَمَ بَينَكُما» [أحمد: ٤/ ٢٤٥].

وقالَ في بَعْضِ الأخبارِ: «إذا خَطَبَ أحَدُكُمُ المَرأةَ فلا بأسَ أنْ يَنْظُرَ إليها إذا كانَ إنما يَنْظُرُ إليها لِلْخِطْبَةِ، وإنْ كانَتْ لا تَعْلَمُ» [بنحوه أحمد: ٣/ ٣٦٠].

---

(١) في الأصل وم: آية أخرى والثالث يغضوا. (٢) في الأصل وم: ولا تفتحوا لها. (٣) في الأصل وم: هذه. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: الزينة، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فأما الزينة الظاهرة فالثياب، والباطنة فالإكليل والسوار والخاتم. (٩) في الأصل وم: حيث خص من الثياب وغيره. (١٠) في الأصل وم: إذ. (١١) في الأصل وم: يؤد به.
(١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: لرسول.

والحسنُ لِلشابَّةِ وأفضلُ لها أنْ تَستُرَ وجهَها ويَدَيها عنِ الرجالِ، ليسَ أنَّ ذلكَ حَرامٌ[1] ولكنْ لِما يُخافُ في ذلكَ مِنْ حُدوثِ الشَّهْوَةِ ووقوعِ الفِتْنَةِ بهنَّ.

فإذا لم يكُنْ لِلناظِرِ في ذلكَ شَهْوَةٌ بأنْ كانَ شيخاً كبيراً، أو كانتِ المرأةُ دَميمةً أو عجوزاً، فإنهُ لا يُحظَرُ النَّظَرُ إلى وجوهِ أمثالِهنَّ، ولا يُنظَرُ إلى[2] ما سِوَى ذلكَ.

واصْلُهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وممّا يَدُلُّ على أنَّ الوجهَ والكفَّينِ جائزٌ ألّا يكونا[3] بِعورةٍ: بأنَّ المرأةَ، لا تُصَلّي وعَورَتُها مَكشوفةٌ، ويجوزُ أنْ تُصَلّيَ وَوَجْهُها ويَداها ورِجْلاها مَكشوفةٌ. فإذا كانَ كذلكَ دلَّ ذلكَ على أنَّ النَّظَرَ إلى ذلكَ جائزٌ، إذا لم يكُنْ ذلكَ لِشَهْوَةٍ، دَخَلَ في ذلكَ مَعْنَى قَولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «العَينانِ تَزْنِيانِ» لأنَّ زِناءَ العينِ لا يكونُ إلّا بالنَّظَرِ لِلشَّهْوَةِ. فإذا كانَ لِشَهْوَةٍ دَخَلَ في ذلكَ مَعْنَى قَولِ رسولِ اللهِ ﷺ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ما يَدُلُّ على أنَّ الوجهَ والكَفَّينِ، لَيسا بِعورةٍ ما رُوِيَ عَنْ عائشةَ [أنها][4] قالَتْ: «دخَلَتْ عليَّ أختي أسماءُ، وعليها ثيابٌ شاميةٌ رِقاقٌ، وهي اليومَ عندكُمْ صِفاقٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: هذه ثيابٌ، لا تُجِبُّها سورةُ النورِ، فأمَرَ بها، فأُخرِجَتْ، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ زارَتني أختي، فقُلتُ لها ما قُلْتَ، فقالَ ياعائشُ إنَّ الحُرَّةَ إذا حاضَتْ لا يَنْبَغي أنْ يُرَى إلّا وجْهُهَا وكَفّاها» [بنحوه أبو داوود: ٤١٠٤] فإنْ ثَبَتَ هذا فإنهُ يُبَيِّنُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ/ ٣٦٦ ـ ب/.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المرأةَ يُكرَهُ لها النَّظَرُ إلى الرجالِ مِنْ غَيرِ مَحْرَمِها كما يُكرَهُ للرجلِ [النَّظَرُ][5] إلى المرأةِ الأجنبيّةِ.

ألا تَرَى أنهُ «رُوِيَ أنَّ [عبدَ اللهِ ابْنَ أمِّ مَكتومِ المؤذِّنَ الأعمى، دَخَلَ][6] على رسولِ اللهِ ﷺ وبَعْضُ أزواجِهِ عندَهُ: عائشةُ وأخرَى. فقالَ لهما رسولُ اللهِ ﷺ: قوما، فقالَتا: [يا رسولَ اللهِ أليسَ هو أعمَى؟][7] فقالَ لهما: [أفَعَمْياوانِ أنتما؟ ألستما تُبْصِرانِهِ» [الترمذي: ٢٧٧٨] أو كلاماً][8] نَحْوَ هذا. فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

وعلى ذلكَ أخبارٌ: رُوِيَ عنْ خالدِ بْنِ مَعْدانَ [أنهُ][9] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا يَحِلُّ لِامْرأةٍ، تؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ تَبيتَ في مَكانٍ، تَسْمَعُ نَفَسَ رجلٍ، ليسَ بِمَحْرَمٍ. ولا يَحِلُّ لامْرِئٍ، يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يَبيتَ في مكانٍ، يَسْمَعُ نَفَسَ امْرَأةٍ، ليسَتْ بِمَحْرَمَةٍ» [بنحوه البخاري: ٣٠٠٦].

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ [قالَ:][10] «لا يُرَخَّصُ لِلمرأةِ أنْ تُرِيَ غَيرَ ذي مَحْرَمٍ منها إلا الوَجْهَ والكَفَّ وما ظَهَرَ، وقُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ على كُوعِ عائشةَ، وقالَ: هذا» [بنحوه أبو داوود: ٤١٠٤].

وعنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجهَ وما ظَهَرَ مِنَ الثيابِ.

فإنْ ثَبَتَ ما ذَكَرْنا مِنَ المَرْوِيِّ عن رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[11] رَخَّصَ النَّظَرَ إلى الوَجْهِ والكفِّ لقولِهِ: «إلّا الوَجْهَ والكَفَّ» اسْتِثْناءَ الوَجْهِ والكَفِّ مِنْ بَينِ سائرِ الجَوارِحِ، كانَ ذلكَ تفسيراً لِقولِهِ: «إلّا ما ظَهَرَ منها» كأنهُ قالَ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ للأجْنَبِيِّينَ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهو الكُحْلُ والخاتَمُ.

ثم الكُحْلُ [يكونُ][12] في الوَجْهِ، والخاتَمُ في اليَدِ. فَذِكْرُ الزِّينةِ يكونُ كنايَةً عن مَواضِعِها لأنَّ النَّظَرَ إلى الزِّينةِ [حلالٌ لِكلِّ أحدٍ إذا كانَ المُرادُ بالزِّينةِ][13] الحُلِيَّ. وما ذَكَرَهُ القومُ يَدُلُّ أنَّ المُرادَ بِذِكْرِ الزِّينةِ مَواضِعُ الزِّينةِ لا نَفْسُ الزِّينةِ والحُلِيِّ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: إليها للخطبة. (٢) من م، في الأصل: أن. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أعميين دخلا، انظر الإصابة ج٤/ ١١. (٧) في الأصل وم: أنهما عميان يا رسول الله. (٨) في الأصل وم: هما وإن كانا أعميين فأنتما لستما بأعميين أو كلام. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ثم رَخَّصَ للأجنَبِيِّينَ النظرَ إلى بَعْضِ الزِّينةِ، وهو ما ظَهَرَ منها مِنَ الوَجْهِ والكَفِّ، ولم يُرَخِّصْ ما خَفِيَ منها وما بَطَنَ، ثم استَثْنَى المَحارِمَ منها [ورَخَّصَ لهمُ النَّظَرَ][1] إلى ذلكَ بقولِهِ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ثم مَواضِعُ الزِّينةِ الخَفِيَّةِ؛ منها الصَّدْرُ، ومنها الأُذُنانِ، وهما في الرأسِ، ومنها الساقُ.

ثم جَمَعَ بَينَ الأبِ ومَنْ سَمَّى مَعَهُ وبَينَ الزَّوجِ في النَّظَرِ إلى زينةِ المرأةِ. ولا خِلافَ في أنَّ الأبَ، لا يَجوزُ لهُ أنْ يَنْظُرَ مِنْ عَوراتِ ابنَتِهِ إلّا إلى رَأسِها، وفي الرأسِ الأُذُنانِ، وقد يكونُ فيهما القِرطانِ[2]، ونَحْوِهِ.

وإذا جازَ لهُ أنْ يَنْظُرَ إلى رأسِها، ولا خِمارَ عليها، فَلَهُ أن يَنْظُرَ إلى صَدرِها، وهو موضِعُ الزِّينةِ، لأنهُ مِمّا يُغَطّيهِ الخِمارُ، ويَنْظُرَ إلى ذِراعَيها ومَوضِعِ الخَلْخالِ مِنْ قَدَمَيها ورِجْلَيها، وهيَ[3] مَواضِعُ الزِّينَةِ الباطنةِ التي لا يجوزُ للأجنَبِيِّ أنْ يَنْظُرَ إليها.

ثم النَّظَرُ إلى الوَجْهِ أحقُّ أنْ يَحرُمَ النَّظَرُ إليهِ للأجنَبِيِّ مِنَ الرأسِ وغَيرِهِ مِنْ مَواضِعِ الزِّينَةِ لأنَّ الوَجْهَ يَجْمَعُ فيه جميعَ المحاسِنِ، وغَيرَهُ مِنْ مَواضِعِ الزِّينةِ، ليسَ فيها محاسِنُ. لكنْ إنما حُرِّمَ النَّظَرُ إلى هذهِ المَواضِعِ لأنها عَورةٌ في نَفْسِها، فالنَّظَرُ إلى العورةِ حَرامٌ للأجنَبِيِّ، ولأنَّ النَّظَرَ إليها؛ أعني مَواضِعَ الزِّينةِ، لا يكونُ إلّا لِلشَّهْوَةِ، والنَّظَرُ إلى الشَّهْوَةِ حَرامٌ[4].

فأمّا المحارِمُ منها فإنهمْ لا يَنْظُرونَ إلى هذهِ المَواضِعِ منها لِشَهْوَةٍ، ولا يَقْصِدونَ بِهِ ذلكَ البَتَّةَ، فأُبيحَ لهمُ النَّظَرُ إليها. وكلُّ مَنْ يَخْشَى مِنَ المَحارِمِ النَّظَرَ إليها لِشَهْوَةٍ لا يَنْظُرُ إليها. وكذلكَ الأجنبيُّ [حينَ أُبيحَ لهُ][5] النَّظَرُ إلى الزِّينةِ الظاهرةِ، فإنْ خَشِيَ بهِ الشَّهْوَةَ لم ينظُرْ إليها. وضرورةٌ[6] ثُمَّ غَيرُها مِنَ العَجَزَةِ، لا يَحِلُّ لأحدٍ النَّظَرُ إليها: للأبِ وغَيرِهِ إلّا للزَّوجِ خاصّةً أو للمَولَى إلى مَملوكَتِهِ، وهو ما قالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥و٦].

اسْتَثْنَى الأزواجَ والمَواليَ مِنْ بَينِ غَيرِهِمْ لأنَّ النَّظَرَ إلى ذلكَ لا يكونُ إلا للشَّهْوَةِ، لا تَقَعُ فيهِ حاجةٌ، فلا يباحُ ذلكَ إلّا لِمَنْ لهُ قضاءُ الشَّهْوَةِ والوَطءِ، وهو الزَّوجُ والمَولَى.

فانقسمَتِ العَورةُ إلى جِهَتَينِ: جِهَةٍ تُحِلُّ للمَحارِمِ النَّظَرَ إليها لحاجةٍ وضرورةٍ، تَقَعُ لهمْ، وجِهَةٍ لا تُحِلُّ لهمْ إلّا للأزواجِ لما لا تَقَعُ لهمْ حاجةٌ ولا ضرورةٌ بالنَّظَرِ إلى ذلكَ.

ألا تَرَى أنَّ الأمَةَ يَنْظُرُ [الأجنبيُّ][7] إلى شَعْرِها وذراعَيها وساقَيها وصَدْرِها إذا أرادَ شِراءَها؟ فلا يَنْظُرُ إلى ما سِوَى ذلكَ. فإذا جازَ للأجنبيِّ أنْ يَنْظُرَ إليهِ مِنَ الأمَةِ جازَ لِمَحْرَمِها النَّظَرُ إلى ذلكَ مِنَ المرأةِ لِلحاجةِ التي ذَكَرْنا.

ثم ذَكَرَ في الآيةِ المَحارِمَ جميعاً إلّا الأعمامَ والأخوالَ. قالَ بعضُهُمْ: إنما لم يَذْكُرْهُمْ[8] في هذهِ الآيةِ لأنها تَحِلُّ لِبَنيهِمْ[9] بالنكاحِ، فَكَرِهَ أنْ [يَصِفوها لِبَنيهِمْ][10] ولهذا كَرِهَ [في ماكَرِهَ مِنَ المرأةِ][11] المسلمةِ إبداءَ الزِّينة الخَفِيَّةِ للكافرةِ مِنَ اليهوديّةِ والنصرانيّةِ لِما لَعَلَّها تَصِفُ ذلكَ لِلْمُشرِكينَ، فَيَرْغَبونَ فيها، ويَتَكَلَّفونَ ذلكَ، وصَرَفَ قولَهُ: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ إلى[12] المسلماتِ.

لكنْ جائزٌ عندنا أنَّ العَمَّ والخالَ إنما لم يَذْكُرْهُما لِلْكَثْرَةِ والتَّطويلِ لِما يَكْرَهُ ذلكَ، أو لِما ذَكَرَ مِنْ أجناسِهِمْ وأمثالِهِمْ؛ فَذِكْرُ الرُّخصَةِ في أمثالِهِمْ كافيةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

---

(١) في الأصل وم: ورخصهم نظرا. (٢) في الأصل وم: القرط. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إليها. (٥) في الأصل وم: حيث أبيح. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يذكر. (٩) في الأصل وم: لبنيهما. (١٠) في الأصل وم: يصفاها لبنيهما. (١١) من كره للمرأة. (١٢) في الأصل وم: أي.

يَحتَمِلُ النساءَ [اللواتي][(١)] يَختَلِطنَ بهنَّ، أو نساءَ قرابَتِهِنَّ أو النساءَ اللاتي[(٢)] توافَقنَ في دينهِنَّ وهنَّ المسلماتُ على ما قالَهُ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ قالَ قائلونَ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ كقولِهِ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] ونَحوَهُ.

وقالَ قائلونَ. الإماءُ [والعبيدُ جميعاً. فإنْ كانَ المُرادُ بِهِ الإماءَ][(٣)] فهو ظاهرٌ، وإنْ كانَ المُرادُ بِهِ الأمَةَ والعَبْدَ ففيهِ إباحةُ نَظَرِ العَبْدِ إلى شَعْرِ مَولاتِهِ على ما يقولُهُ بعضُ الناسِ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ المُرادُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ، الإماءَ دونَ العَبيدِ [وهو][(٤)] ما ذَكَرَ في آخرِ الآيةِ: ﴿أَوِ التَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ العَبيدُ[(٥)] مِنَ الرجالِ. أو ذَكَرَ التابعينَ[(٦)]؛ والتابعُ، وإنْ كانَ خَصِيّاً أو غَبِيّاً أو مَعتوهاً على ما قالوا فإنهُ لا يَحِلُّ لهؤلاءِ النَّظَرُ إلى تلكَ المَواضِعِ على حالٍ. فَعَلَى ذلكَ العبدُ.

فيكونُ الدخولُ عليهِنَّ مُضمَراً[(٧)] في الآيةِ، وتكونُ[(٨)] النساءُ متأهّباتٍ وَقتَ دخولِ العَبيدِ والتابعينَ عليهِنَّ، لأنهُ ذَكَرَ التابعينَ، وهم تابِعو الأزواجِ، وَوَقتُ دُخولِ هؤلاءِ يكونُ مَعْلوماً عندَهُنَّ، فَيَتَأهَّبْنَ لهم، وتَسَرَّنَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ألا تَرَى [أنهُ][(٩)] لا يَحِلُّ للمرأةِ أنْ تُسافِرَ بِعَبْدِها؟ دَلَّ أنهُ ليسَ بِمَحْرَمٍ لها. لِذلكَ لم يَحِلَّ لهُ النَّظَرُ إلى شعرِ مَولاتِهِ.

فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى: إمائِهِنَّ ونسائِهِنَّ؟ وكلُّ النساءِ يجوزُ لهنَّ النَّظَرُ إلى المرأةِ وإلى هذه المَواضِعِ التي ذَكَرْنا؟ قيلَ: خَصَّ اللهُ ﷻ بالذِّكْرِ إماءَهُنَّ ونساءَهُنَّ دونَ النساءِ الأجنبياتِ تأديباً لا خَطراً. وذلكَ أنَّ المرأةَ قد يَضيقُ عليها أنْ تَستَتِرَ مِنْ أمَتِها ونساءِ أهلِ بَيتِها لِكَثْرَةِ رؤيَتِهِنَّ لها، وقد تَقْدِرُ أن تَسْتُرَ مِنَ الأجْنَبِيَّةِ مَحاسِنَها وزينَتَها لِقِلَّةِ رُؤيَتِها لها.

ألا تَرَى أنهُ قد نَهَى المرأةَ أنْ تَضرِبَ برجلِها لِتُعلِمَ ما تُخفي مِنْ زينتِها. وفي ذلكَ صِيانَةٌ للرجلِ والمرأةِ وإبعادٌ لهما عمّا[(١٠)] يُحذَرُ عليهِما، ويُخافُ؟ فليسَ بِبَعيدٍ أنْ يَجعَلَ نَهْيَهُ المرأةَ أنْ تُظهِرَ زينَتَها ومحاسِنَها للأجنبيةِ لِما يُخافُ على الأجنبيةِ مِنْ فَسادٍ[(١١)] قَلْبِها وحدوثِ الشَّهْوَةِ لها صيانةً /٣٦٧ ـ أ/ للنِّساءِ والرجالِ جميعاً وإبعاداً لهمْ مِنَ الزينةِ، ولِئلّا تَصِفَها لِرَجلٍ، يَفْتَتِنُ بها، ويَتَكَلَّفُ الوصولَ إليها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ رُوِيَ عن عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: لمّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ أخَذَتِ النساءُ أُزُرَهُنَّ، فَشَقَقْنَها مِنْ قِبَلِ الحواشي، فاختَمَرْنَ بها[(١٢)].

وعَنِ ابْنِ عباسٍ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يقولُ: ولْيَشْدُدْنَ بِخُمُرِهِنَّ على الصَّدْرِ والنَّحْرِ، فلا تُرينَ منهما شيئاً. قالَ: وكانَ[(١٣)] النساءُ قَبْلَ هذهِ الآيةِ إنما تَسْدُلْنَ خُمُرَهُنَّ سَدْلاً مِنْ ورائِهِنَّ كما يَصْنَعُ النَّبَطُ. فلما نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ سَدَلْنَ الخُمُرَ على النَّحْرَ والصَّدْرِ.

وفي الآيةِ دلالةُ أنَّ دُروعَ النساءِ كانَتْ ذاتِ جَيبٍ، لأنَّ الجَيبَ إنما تكونُ لِلدُّروعِ، وذلكَ كانَ لباسُ النساءِ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ نَهَى الرجالَ عَنْ لِبْسَةِ النساءِ وأنهُ لَعَنَ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرجالِ بالنساءِ. ورُوِيَ أنهُ لَعَنَ الرجلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المرأةِ، والمرأةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرجلِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ: لَعَنَ النَّبِيُّ المُؤَنَّثِينَ مِنَ الرجالِ والمُذَكَّراتِ مِنَ النساءِ. وكأنهُ مَكْروهٌ للرجلِ، واللهُ أعلَمُ. أنْ يَلْبَسَ قَراعةً وحْدَها، لا قَميصَ تَحْتَها، لأنَّ ذلكَ لِباسُ النساءِ، إلا أنْ يكونَ لها شَقُّ ذيلٍ، فَخَرَجَتْ مِنْ لُبْسِ النساءِ، ولم يُكْرَهْ للرجالِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التي. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والعبد. (٦) في الأصل وم: التابع. (٧) في الأصل وم: مضمر. (٨) في الأصل وم: وكن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) من م، في الأصل: فشا. (١٢) في الأصل وم: به. (١٣) في الأصل وم: وكن.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إنما يُباحُ النَّظَرُ إلى الوَجْهِ للحاجةِ، وأمّا على غَيرِ الحاجةِ فلا يُباحُ لِما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٩] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فَعَلَى ذلكَ تَرْكُ النَّظرِ إلى وَجْهِ المرأةِ أطْهَرُ للنساءِ وللناسِ جميعاً. فلا يُباحُ ذلكَ إلّا عندَ الحاجةِ إليهِ، وهو مَعْرِفَتُها لتُقيمَ بهِ الشهادةَ.

فإنْ قيلَ: أليسَ النَّظَرُ يَسَعُ إلى مَواضِعِ الزّينةِ الخَفيَّةِ للأجْنَبيِّ لِلتَّداوي(١)؟ قيلَ: يَسَعُ ذلكَ للضرورةِ، وأمّا للحاجةِ فلا. ومَسْألَتُنا في الحاجةِ ليسَتْ في الضرورةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ جائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بِرُخصةِ النَّظرِ إلى الزِّينةِ لهؤلاءِ المُسمَّينَ في الآيةِ رُخصةَ النَّظرِ إلى نَفْسِ الزِّينةِ في مَوضِعِ الزِّينةِ لا مَوضِعِ الزِّينةِ. فَيَدْخُلُ في هذهِ الرُّخصةِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ ﴿ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ونَحْوُهُ، لأنَّ الزِّينةَ في الصدرِ وما ذَكَرَ إنما تكونُ مِنْ وراءِ ثيابٍ، تكونُ على الصدرِ(٢).

ثم رَخَّصَ النَّظَرَ للمَحارمِ إلى مَواضِعِ الزينةِ ولِغَيرِ المَحارمِ مِنَ المَماليكِ والتابعينَ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾

و[أمّا في](٣) ذِكْرِ رخصةِ الدُّخولِ عليهِنَّ فيكونُ في الآيةِ إضمارُ الدُّخولِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ المَحارمِ: ولا يَدْخُلُ عليهِنَّ إلا العَبيدُ والتابعونَ ومَنْ ذَكَرَ مِنْ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ فَيَكُنَّ في وَقْتِ دُخولِ هؤلاءِ مُتَأهِّباتٍ، لأنَّ وقتَ دُخولِ هؤلاءِ يكونُ مَعْلوماً، يَعْرِفْنَهُ(٤)، فَيَتَأهَّبْنَ، لأنَّ العَبيدَ إنما يَدْخُلونَ على سَيِّداتِهِمْ ومَوليَاتِهِمْ عندَ حاجَتِهِنَّ إليهِمْ [ولأنَّ](٥) التابعينَ ومَن ذَكَرَ إنما يَدْخُلونَ إذا دَخَلَ أزواجُهُنَّ عليهِنَّ، فَيَتَأهَّبْنَ لذلكَ.

ومِثْلُ هذا(٦) الإضمارِ جائزٌ في الكلامِ؛ بَيَّنَ ذلكَ بالثُّنيا كقولِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١]

دَلَّ قولُهُ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ أنهُ كانَ الصَّيدُ مذكوراً؛ إذْ لو لم يَكُنْ مذكوراً لم يَكُنِ اسْتَثْنَى منهُ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ في الأوَّلِ إضمارُ الدُّخولِ فيهِ لهؤلاءِ الذينَ لا يَحِلُّ لهمُ النَّظَرُ إلى مَواضِعِ الزِّينةِ منهنَّ، ورُخصةُ الإبْداءِ(٧) لِلْمَحارمِ، أو أنْ يكونَ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشيخُ الكبيرُ الذي لا حاجةَ لهُ في النساءِ وقالَ بعضُهُمْ: المَعْتوهُ الأحْمَقُ الذي لا تَشْتَهيهِ النساءُ، ولا يَغارُ منهُ(٨) الأزواجُ، وقالَ بعضُهُمْ: العِنّينُ والخِصيُّ وهؤلاءِ [همُ](٩) الذينَ لا يُطيقونَ الجِماعَ.

لكنْ عندَنا: لا يَسَعُ العِنّينَ أوِ الخِصيَّ أنْ يَخْلُوَ بامرأةٍ أجنبيةٍ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ همُ الرجالُ المُخَنَّثونَ.

رُوِيَ عَنْ عائشةَ [أنها قالَتْ: كانَ](١٠) يَدْخُلُ على أزواجِ النَّبيِّ ﷺ مُخَنَّثٌ، وكانوا يُعِدّونَهُ مِنْ ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ قالَتْ: فدخَلَ النَّبيُّ ذاتَ يومٍ، وهو يَنْعَتُ امرأةً، فقالَ: «لا أرى هذا يَعْلَمُ ما ههنا، لا يدخُلَنَّ عليكُمْ، فَحَجَبوهُ» [مسلم: ٢١٨١].

وعنْ أمِّ سَلَمَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَلَ عليها، وعندَها مُخَنَّثٌ، فأقْبَلَ على أخي أمِّ سَلَمَةَ، فقالَ: يا عبدَ اللهِ إنْ فَتَحَ اللهُ لكم غداً الطائفَ دَلَلْتُكَ على بِنتِ غَيلانَ، فإنها تُقْبِلُ بأربعٍ، وتُدْبِرُ بِثَمانٍ، فقالَ: [رسولُ اللهِ ﷺ](١١) «لا أرى هذا يَعْرِفُ ما ههنا، لا يدخُلَنَّ عليكُمْ» [بنحوه مسلم: ٢١٨٠].

---

(١) في م: للتداوي بها، في الأصل: المتداوي بها. (٢) من م، في الأصل: وقوله. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) في الأصل وم: يعرفن.
(٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: هذه. (٧) في الأصل وم: الابتداء. (٨) في الأصل وم: عليه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قالت: كانت. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُم: ﴿غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ الذينَ لا تَهُمُّهُمْ إلا بُطونُهُم، ولا [يُخافُ منهم][1] على النساءِ.

وكلُّهُ واحدٌ، وهمُ الذينَ ليسَتْ لهمُ الحاجةُ إلى النساءِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الإِرْبَةُ الحاجةُ، والإِرَبُ جَميعٌ، وكذلكَ قالَ القُتَبيُّ. وقالَ ابْنُ عباسٍ: هو الذي لا تَستَحْيِي منهُ النساءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو [مِنَ][2] الإِطّلاعِ؛ أي لم يَطَّلِعوا، ولم يَدْروا ما هو مِنَ الصِّغَرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لم يَبْلُغوا الحُلُم؛ والأوّلُ أشْبَهُ عندنا؛ وذلكَ لأنَّ الطِّفلَ الذي لم يَحتَلِمْ قد أُمِرَ بالاِسْتِئْذانِ في بَعْضِ الأوقاتِ لقولِهِ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور: ٥٨] فالذي يُؤمَرُ بالاِسْتِئْذانِ، هو الطِّفلُ الذي لم يَحتَلِمْ، وقد يَطَّلِعُ على عوراتِ النساءِ.

والذي لا يُؤمَرُ بالاِسْتِئْذانِ، هو أصْغَرُ مِنْ ذلكَ. وهو الذي لا يَطَّلِعُ على عَوراتِ النساءِ لِصِغَرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي لا يَضرِبْنَ إحْدَى [الرجْلَينِ بالأُخرَى][3] لِيُقْرِعَ الخَلْخالُ بالخَلْخالِ ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي ما تُواري الثيابُ مِنَ الزّينةِ، وهو الخَلْخالُ [الذي أخفَتْهُ][4] الثيابُ.

نُهِيَتِ المرأةُ عنْ ضَرْبِ رِجْلِها لِتُعْلِمَ الرجالَ ما تُخفي مِنْ زينَتِها. وذلكَ مَحظورٌ عليها، لم يُخَرَّجْ ذلكَ مُخرَجَ تَرْغيبِ الناسِ وحَثِّهِمْ عليها، إذِ الزّينةُ في الأصلِ ما جُعِلَتْ إلّا للتّرغيبِ والتّحريضِ على أنفسِهِمْ، وهي الداعِيةُ إلى النَّظَرِ والشَّهوَةِ.

وفي تَرْكِ ذلكَ وفي تَرْكِ إبداءِ الشَّهوَةِ صِيانَتُها وصِيانةُ الرجالِ وإبعادُهُم جميعاً مِنَ الزّينةِ والرَّغبةِ.

فكَشْفُ الشابةِ عن وَجهِها ونَظَرُ الرجلِ لِشَهوَةٍ إليها أحرَى أنْ يكونَ مَحظوراً عليهِ مَنهيّاً عنهُ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [يَحتَمِلُ وَجهَينِ:

أحَدُهما][6]: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ارْجِعوا إلى اللهِ بالطاعةِ لهُ والخُضوعِ لِتَكونوا مُفْلِحينَ.

[والثاني][7]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ارْجِعوا عمّا قَدَّمْتُمْ مِنَ المَعاصي والمَساوِئِ، واجْعَلوا مكانَ ذلكَ طاعةً لهُ لِيَغفِرَ عنكُمْ ما قَدَّمْتُمْ مِنَ المَعاصي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ الأمْرُ بالإنكاحِ، وإنْ خُرِّجَ مُخرَجَ أمْرٍ واحدٍ في الظاهرِ فهو في الحقيقةِ على أقسامٍ:

الأمْرُ في تَزويجِ الإماءِ والعَبيدِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّرغيبِ والتَّحريضِ فيهِ، وفي الأحرارِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَعونةِ والتَّقويَةِ، لأنَّ مَنْ بَلَغَ وَلَدُهُ النِّكاحَ ذَكَراً أو أُنثى اسْتَشارَ أقرباءَهُ وأهلَ أنسابِهِ / ٣٦٧ ـ ب/ والمُتَّصِلينَ بهِ في ذلكَ [فاسْتَعانَ بهِمْ][8] على ذلكَ. ولا كذلكَ الساداتُ في المَماليكِ، دَلَّ أنَّ الأمْرَ في أحَدِهِما يُخَرَّجُ على المَعونةِ وفي الآخَرِ على التَّرغيبِ.

ثم تزويجُ العبدِ يُخَرَّجُ كأنهُ فِعْلُ المعروفِ؛ إذْ في ذلكَ إلزامُ مُؤَنٍ بلا عِوَضٍ؛ يَحْصُلُ[9] لهُ.

ألا تَرَى أنهُ لا يَمْلِكُ [الأمْرَ][10] إلّا مَنْ يَمْلِكُ المَعْروفَ: مِنْ نَحوِ الوَصِيِّ والأبِ والمُكاتِبِ والعَبْدِ المأذونِ لهُ في التجارةِ؟ ولا كذلكَ تَزويجُ الإماءِ؛ إذْ يَمْلِكُهُ[11] هؤلاءِ وكلُّ مُكْتَسِبٍ خيراً[12] لنفسِهِ أو لِغَيرِهِ.

ثم جَرَى الوِفاقُ بَينَهُمْ أنَّ لِلْمَولَى أنْ يُزَوِّجَ أمَتَهُ، شاءَتْ هي، أو أبَتْ. واخْتَلَفوا في تَزويجِ العبدِ امْرَأةً:

قالَ بعضُهُمْ: لهُ ذلكَ إلّا بِرِضا العَبْدِ. وقالَ بعضُهُمْ: لهُ ذلكَ، شاءَ، أو أبَى.

---

(١) في الأصل وم: يخافون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: رجليها على الأخرى. (٤) في الأصل وم: قد أخفاق. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: هذا يحتمل قوله، في م: هذا يحتمل وجهين يحتمل. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: فاستعانهم. (٩) من م، في الأصل: يحتمل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: يملك. (١٢) في الأصل وم: خير له.

ثم الناسُ اختلَفوا في قولِهِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ قالَ: بعضُهُمْ: الأَيامَى منهُنَّ: الإناثُ مِنَ الأحرارِ دونَ الذكورِ. واسْتَدَلُّوا بِبُطلانِ النكاحِ وفسادِهِ إذا كانَ بِغَيرِ إذْنِ الوَلِيِّ بهذهِ الآيةِ، لأنَّ اللهَ تعالى أمرَ الأولياءَ، وخاطَبَهُمْ أنْ يُزَوِّجُوهنَّ كما أمَرَ المَولَى بِتَزويجِ أَمَتِهِ. فأوجَبَ لِلْوَلِيِّ الوِلايَةَ كما أوجَبَها لِلْمَولَى، وإنْ كانا مُختلِفَينِ في الوِلايةِ.

لكنْ عندَنا لو كانتِ الآيةُ خُرِّجَتْ على التفسيرِ على ما يقولُ خُصومُنا﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الإناثَ لم يكُنْ فيهِ دليلٌ على ما قالوا هُمْ. ويُخرَّجُ ذلكَ على وجوهٍ.

أحَدُها: على التَّرغيبِ في إنكاحِهِنَّ لِما [لا تَتَوَلَّى النساءُ][1] النكاحَ بأنفُسِهِنَّ حَياءً، ويَسْتَحْيِينَ التكلمَ بذلكَ حتى مَنْ فَعَلَتْ ذلكَ منهنَّ بِنَفْسِها صارَتْ مَطْعونةً عندَهُنَّ.

[والثاني][2]، أنْ يُخَرَّجَ مُخرَجَ المَعونةِ لهنَّ على ما ذَكَرْنا. ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ [قالَ][3]: «مَنْ بَلَغَ وَلَدُهُ النِّكاحَ، وعندَهُ ما يُنْكِحُهُ فأحْدَثَ، فالإثْمُ بَيْنَهما» [الديلمي في الفردوس: ٥٥٠٧] فهذا يدُلُّ، واللهُ أعلَمُ، على وَجْهِ المَعونةِ في تزويجِ الأبِ الابْنَ البالغَ.

فإذا كانَ الأبُ مأموراً مِنْ جهةِ التأديبِ على المَعونةِ بتزويجِ ابنِهِ، ولا يوجِبُ ذلكَ عليهِ وِلايَةً إذا كَرِهَ[4] ذلكَ، فكذلكَ يكونُ مأموراً بِتَزويجِ ابْنَتِهِ مِنْ طريقِ المَعونةِ أو جِهةِ الحَياءِ.

[والثالثُ][5]: أنْ يُخَرَّجَ ذلكَ على ما قالَ خُصومُنا مِنْ إيجابِ الوِلايةِ عليها.

ثم رَأينا أنها إذا رَغِبَتْ في النكاحِ، ورَضِيَتْ بِهِ، وَكَرِهَ وَلِيُّها ذلكَ، أُجْبِرَ الوَلِيُّ على الإنكاحِ. وإنْ هي كَرِهَتِ النِّكاحَ، وأبَتْهُ، ورَغِبَ الوَلِيُّ ذلكَ، وشاءَهُ، لم تُجْبَرْ هيَ على ذلكَ.

دلَّ ذلكَ على أنَّ الحَقَّ لها عليهِ دونَ أنْ يكونَ الحَقُّ في ذلكَ لهُ عليها. فإذا كانَ الحَقُّ لها عليهِ جازَ ذلكَ إذا تَوَلَّتْ بِنَفْسِها لِما ذَكَرْنا أنَّ الخِطابَ للأولياءِ يُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

هذا إذا كانَ في الآيةِ ذِكْرُ الإناثِ دونَ الذكورِ، فكيفَ إنْ ليسَ في الآيةِ ذِكْرُ تَخصيصِ الإناثِ دونَ الذكورِ؟ واسْمُ الأيِّمِ تَقَعُ على الإناثِ والذكورِ جميعاً؟

ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: لمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ ما رأيتُ [مَنْ يَحْبِسُ][7] بَعْدَ هذهِ الآيةِ أيِّماً: الْتَمِسوا الغِنَى في الباءَةِ.

وما رُوِيَ عنْ نَجْدَةَ أنَّ عُمَرَ دعانا أنْ نَنْكِحَ مِنْ أيامِنا. وفي الشِّعْرِ:

لِلَّهِ دَرُّ بَني عَلِيٍّ ... أيِّمٍ مِنْهُمْ وناكِحْ[8]

وفي بَعْضِها:

وأيِّمٍ[9] تأبَى مِنَ الـ ... ـقومِ [الكِرامِ][10] أيِّماً

جَمَعَ فيها اسْمَ الأيِّمِ الرجالَ والنِّساءَ.

ومِنَ الدليلِ أيضاً على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فَدَلَّ ذلكَ على أنهُ حَثٌّ على تَزويجِ البالِغينَ مِنَ الأحرارِ رجالَهُمْ ونساءَهُمْ.

فإنْ قِيلَ: فما وَجْهُ أمرِهِ بِتَزويجِ الرجالِ والأمْرِ إليهِمْ؟ فجوابُ ذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ المَعونةِ والترغيبِ فيه.

---

(١) في الأصل وم: تولى هن. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: ذكره. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: مثل ما يلتمس. (٨) هذا البيت من قصيدة لأمية بن أبي الصلت: انظر الديوان ص: ٣٥٠، وأدرج في الأصل: الله در بني إيم منهم وناكح. (٩) في الأصل وم: وابنة. (١٠) ليست في الأصل وم.

ثم قولُهُ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي المؤمنينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ منْ طَلَبَ منكُمُ الصلاحَ، أو ذَكَرَ الصالِحينَ لِما كانَتِ العادةُ في الملوكِ أنهمْ يُخاطِبونَ أهلَ الصَّلاحِ مِنْهُمْ والأخيارَ لا على إخراجِ غيرِهِمْ منْ حُكْمِ ذلكَ الخطابِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ أنَّ العَبْدَ يَمْلُكُ لأنهُ ذَكَرَ العبيدَ والأحرارَ جميعاً، ثم ذَكَرَ في آخرِهِ الإغناءَ[1] دلَّ أنهُ يَمْلُكُ، ويُسْتَدَلُّ بقولِهِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أضافَ الأجورَ والإيتاءَ إليهنَّ دَلَّ أنَّهنَّ يَمْلِكْنَ.

لكنْ عندَنا أنَّ المماليكَ يَمْلِكونَ مُلْكَ التَّوسيعِ [ومُلْكَ التَّصرُّفِ، ويَقَعُ لهمْ غِنَى التوسيعِ وغِنَى][2] التَّصرُّفِ، ولا يَقَعُ لهمُ التَّمْليكُ ولا حقيقةُ المُلْكِ. والدلالةُ على ذلكَ [ثلاثةُ أقوالٍ.

أحدُها][3] قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾ [النحل: ٧١] لو كانَ ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ يَمْلِكونَ ما يَمْلِكُ الموالي والساداتُ لَكانَ المَماليكُ يُفَضَّلونَ على الساداتِ في المُلْكِ؛ إذ هُمُ الذينَ يَتَصرَّفونَ، ويَكْتَسِبونَ الأموالَ دونَ الساداتِ، فَدَلَّ ذِكْرُ تَفْضيلِ بعضٍ على بَعْضٍ أنهمْ لا يَمْلِكونَ ما يَمْلِكُ الموالي.

والثاني: قولُهُ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ الآية [الزمر: ٢٩] ولو كانوا يَمْلِكونَ ما[4] يَمْلِكُ الساداتُ لكانوا [فيهِ سواءً][5]. دلَّ أنهمْ لا يَمْلِكونَ حقيقةَ المُلْكِ، ولكنْ يَمْلِكونَ مُلْكَ التَّوسيعِ والتَّصرُّفِ.

والثالثُ[6]: قولُهُ ﴿يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يَرْجِعُ[7] إلى الأحرارِ منهمْ دونَ المَماليكِ. وذلكَ جائزٌ في اللسانِ كقولِهِ [هذا][8].

ثم رُوِيَ عن أبي هُرَيرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ تعالى أنْ يُغْنِيَهُمْ: المُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، والناكحُ يُريدُ العَفافَ، والمُكاتِبُ يُريدُ الأداءَ» [النسائي: ٦/ ٦١].

وعَنْ عُمَرَ [أنهُ][10] قالَ: ما رأيتُ مثْلَ الرجلِ لا يَلْتَمِسُ الغِنى في الباءةِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ[11] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «يا مَعْشَرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ منكُمُ الباءةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنهُ أغَضُّ لِلْبَصَرِ وأحصَنُ لِلفَرْجِ. ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيهِ بالصومِ فإنهُ لهُ وِجاءٌ» [البخاري: ٥٠٦٥].

ورُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][12] قالَ لِعُمَرَ بنِ الخَطّابِ «ما فَعَلَتْ بِبَناتِكَ؟ قالَ: هُنَّ عندي يا رسولَ اللهِ. قالَ: وقد حِضْنَ؟ قالَ: نعم. قالَ: إنكَ لم تَحْبِسْ واحدةً منهنَّ عنْ كُفْءٍ إلّا نَقَصَ مِنْ أجرِكَ قيراطٌ».

وفي بَعْضِ الأخبارِ: «مَنْ بَلَغَ وَلَدُهُ النكاحَ وعندَهُ ما يُنْكِحُهُ فَأحدَثَ فالإثْمُ بينَهُما» [الديلمي في الفردوس: ٥٥٠٧]

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الاسْتِعْفافُ، هو طَلَبُ العَفافِ؛ كأنهُ قالَ: يَطْلُبُ الأسبابَ التي تَمْنَعُهُ عنِ الزِّنى، وتُصَيِّرُهُ عفيفاً، حتى يُغْنِيَهُ اللهُ مِنْ فضلِهِ.

وأسبابُ العِفَّةِ تكونُ بأشياءَ[13]:

أحَدُها: ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ «يا مَعْشَرَ الشبابِ مَنِ استطاعَ منكُمُ الباءةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنهُ أغَضُّ لِلْبَصَرِ وأحصَنُ لِلفَرْجِ. ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيهِ بالصومِ فإنهُ لهُ وِجاءٌ» [البخاري: ٥٠٦٥].

---

(١) في الأصل وم: الغنى. (٢) من م، في الأصل: وغناء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٥) في الأصل وم: لهم فيه شركاء. (٦) في الأصل وم: أو أن يكون. (٧) في الأصل وم: راجعاً. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قال. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: أشياء.

وبِنَحْوِهِ[1]: يَكْتَسِبُ أسبابَ العِفَّةِ إنْ لم يكُنْ عندَهُ ما يَنْكَحُ حتى لا يَقَعَ في الزِّنَى إلى أنْ يُغْنِيَهُ[2] اللهُ، كقولِهِ عليهِ السلامُ: «مَنِ اسْتَعَفَّ أعَفَّهُ اللهُ» [النسائي: ٥/٩٨].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ﴾ أي لِيَتَعَفَّفِ الذينَ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ لم يَجْعَلِ اللهُ ﷻ للذي عَجزَ عنِ النِّكاحِ اسْتِباحةَ الفُروجِ/٣٦٨ ـ أ/ والاسْتِمْتاعَ بها إذا لم يكُنْ عندَهُ ما يَنْكَحُ كما جَعَلَ في الأموالِ وغَيرِها رُخْصَةَ التَّناوُلِ مِن مُلْكِ غَيرِهِ عندَ الحاجةِ والضرورةِ بِبَدَلٍ لوجوهٍ.

[أحَدُها][3]: أنَّ رخصةَ التَّناوُلِ مِن مُلْكِ غَيرٍ إنما تكونُ عندَ الضرورةِ. والضروراتُ لا تَقَعُ في الفروجِ وفي الاسْتِمْتاعِ بها بحالٍ، لذلكَ لم تُبَحْ.

والثاني: الاسْتِمْتاعُ بالنساءِ في الأصلِ كانَ إنما جُعِلَ، وأبيحَ لِبَقاءِ النَّسْلِ والتَّوالُدِ لا لحاجةِ أنفسِهِمْ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ. فإذا لم يكُنْ عندَهُ ما يَنْكَحُ ارْتَفَعَ عنهُ إبقاءُ النَّسْلِ والتَّوالُدِ.

والثالثُ: أنَّ السَّعَةَ والغِنى وأنواعَ النِّعَمِ هي الداعِيةُ إلى الحاجةِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ. فإذا كانَ فَقيراً، لا يَجِدُ ما يَنْكَحُ، زالَ عنهُ الأسبابُ التي تَدْعوهُ إلى ذلكَ. لِذلكَ لم يُبَحْ.

وأمّا الحاجاتُ والضروراتُ وما ذَكَرْنا فَكُلُّها تَقَعُ في الأموالِ. وإنما الحاجةُ في التَّناوُلِ منْها لأنفسِهِمْ ولإبقائها. لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [وقولِهِ ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾][4] وَجْهانِ مِنَ المُعْتَبَرِ على نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ:

أحَدُهما: أنهُ أضافَ الإغناءَ إلى نفسِهِ، وهو ليسَ يُعْطي أحداً شيئاً، يَطْرَحُهُ، ويُلْقيهِ في يَدِهِ بِلا سَبَبٍ ولكنْ إنما يُغْنيهِ، ويُعْطيهِ[5]، بأسبابٍ [يَجْعَلُها لهُ. فَدَلَّتْ][6] إضافةُ الإغناءِ إلى نفسِهِ على أنَّ لهُ في تلكَ الأسبابِ التي [للناسِ بها غِنىً][7] صُنْعاً وفِعْلاً، ليسَ على ما تقولُهُ المُعْتَزِلَةُ: إنهُ لا صُنْعَ للهِ في أفعالِ عبادِهِ.

والثاني: فيهِ دلالةٌ أنَّ غِناهُمْ وسَعَتَهُمْ فَضْلٌ منهُ[8] ورَحْمَةٌ، لا شيءَ يَسْتَوجِبونَهُ[9] بأنفسِهِمْ [قِبَلَهُ. لكنَّهُ إفضالٌ منهُ لهمْ وإحسانٌ][10] إذْ لو كانَ عليهِ[11] ذلكَ كانَ منهُ عَدْلاً، لا فَضْلاً.

فَدَلَّتْ تَسْمِيَةُ الفَضْلِ ذلكَ على أنَّ مَنْ أعطاهُ اللهُ يُقالُ: أعطاهُ ذلكَ فضلاً منهُ وإنعاماً لا اسْتِيجاباً واسْتِحْقاقاً. وذلكَ رَدٌّ عليهِمْ في الأصْلَحِ في الدينِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذهِ الآيةِ بقولِهِ ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقولِهِ ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ على تفضيلِ الغِنى على الفَقْرِ؛ فقالوا[12]: لأنهُ سَمّاهُ فضلاً بقولِهِ: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وسَمّاهُ في غَيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ رَحْمَةً وحَسَنَةً، وسَمّاهُ خَيراً أيضاً في غَيرِ مَوضعٍ، وسَمّى الفَقْرَ والضِّيقَ بلاءً مَرَّةً، وسَيِّئَةً ثانياً، وضُرّاً وشِدَّةً ثالثاً[13] بقولِهِ ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقولِهِ[14] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وكانَ ما سَمّى مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ والشَّرِّ والضُّرِّ والسَّيِّئَةِ كلُّهُ عِبارةً وكِنايةً عنِ الضيقِ والفَقْرِ، وما ذَكَرَ مِنَ الخَيرِ والرَّحْمةِ ونَحْوِها كلُّهُ عبارةً عنِ السَّعَةِ والغِنى.

فَدَلَّتْ تَسْمِيَةُ الغِنَى خَيراً وحَسَنَةً ورَحْمَةً على أنهُ أفْضَلُ؛ إذْ لا شَكَّ أنَّ الخَيرَ والحَسَنَةَ والرَّحْمَةَ خَيرٌ مِنَ الشَّرِّ والسَّيِّئةِ والبَلاءِ. لِذلكَ كانَ الغِنَى أفْضَلُ مِنَ الفقرِ.

---

(١) في الأصل وم: ونحوه. (٢) في الأصل وم: أغناه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ويعطيها. (٦) في الأصل وم: تجعل لهم فدل. (٧) في الأصل وم: مالهم غناء. (٨) في الأصل وم: منهم. (٩) في الأصل وم: يستوجبون هم. (١٠) في الأصل وم: ذلك قبله لكن إفضالاً منهم لهم وإحساناً. (١١) من م، في الأصل: حكمه. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: وقال.

فيُقالُ لهمْ: هو كما قُلْتُمْ: إنها خَيرٌ ممّا ذَكَرْتُم.

إلّا أنّ هذهِ الأسبابَ التي ذَكَرْتُمْ هي الداعيةُ إلى الفَسادِ والباعثةُ على قَضاءِ الحاجاتِ والشَّهَواتِ وأنواعِ المعَاصي والمُحرَّماتِ، ولا كذلكَ الفَقْرُ والضيقُ والشِّدَّةُ، بل هُنَّ أسبابٌ تَمْنَعُ صاحبَها عَنِ التَعاطي في أنواعِ المَعاصي والمُحَرَّماتِ فَضْلاً أنْ تَدْعُوَهُ، وتَبْعَثَهُ إلى ذلك.

فقولُنا: إنهُ أفضلُ لِلْمَعنى الذي ذكَرْنا لا لِمَعْنىً فَهِمْتُموهُ أنتمْ، أو أنْ يكونَ ما ذُكِرَ، وسُمّيَ خيراً؛ أعني السَّعَةَ عندَ الناسِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ الضيقِ شَرّاً وسَيِّئةً عندَهُمْ، لأنهُ كذلكَ عندَ الناسِ، لا إنهما في الحقيقةِ كذلكَ لِما يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الغِنَى والسَّعَةُ سَبَبَ الفَسادِ، والضيقُ والفقرُ سَبَبَ مَنْعِهِ عنِ الفسادِ، أو ألّا يُتَكَلَّمَ في تفضيلِ أحَدِهِما على الآخَرِ؛ إذْ هما مِحْنتانِ يَمْتَحِنُ [اللهُ][1] بهما العبادَ؛ هؤلاءِ بالصَّبْرِ على الفَقْرِ والضيقِ، وهؤلاءِ بالشُّكْرِ على النِّعْمَةِ والسَّعَةِ. والتَكَلُّمُ في فَضْلِ أحَدِهما على الآخَرِ فَضْلٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ظاهرُ هذا ليسَ على الكتابةِ، ولكنْ على الكتابِ المَعْروفِ، وهو كتابُ اللهِ تعالى، لأنَّ الكتابَ المُطْلَقَ، هو كتابُ اللهِ تعالى؛ يَسْألونَ ساداتِهِمْ تَعليمَ الكتابِ لهمْ. إلّا أنَّ الناسَ لم يَفْهَموا مِنْ هذا هذا، ولكنْ فَهِموا كتابَةَ العبيدِ والإماءِ حينَ صَرَفوا الآيَةَ إليها.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ليسَ على الوَجوبِ والإلزامِ، ولكنْ على التَّرغيبِ فيها والحَثِّ. دليلُهُ تَرْكُ الأُمَّةِ المماليكَ بَعْدَ موتِهِمْ مواريثَ لِوَرَثَتِهِمْ مِنْ لَدُنْ رسولِ اللهِ إلى يومِنا هذا.

ولو كانَ على الوجوبِ واللُّزومِ لم يكونوا يَتْرُكونَهُ لازماً واجباً عليهِمْ. فَدَلَّ تركُهُمْ ذلكَ على أنهُ خُرِّجَ مُخْرَجَ التَّرغيبِ [فيها والحثّ عليها][2] لا على الوُجوبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: أي كاتِبوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ أنهم في أنواعِ الخَيرِ وإقامةِ الصلاةِ وأنواعِ الصلاحِ، وفَرَّغوا أنفسَهُمْ لذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي وَفاءً وأمانَةً وصلاحاً، وهو قولُ الحَسَنِ. وتأويلُ هذا: أي كاتِبوهُمْ إنْ عَلِمْتُمْ أنهم يَقْدِرونَ على وفاءِ ما كوتِبوا أو أداءِ ذلكَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿خَيْرًا﴾ أي حِيلَةً. وقالَ قائلونَ: مالاً، وقالَ قائلونَ ﴿خَيْرًا﴾ أي حرفَةً، ورَوَوا في ذلكَ حديثاً عن رسولِ اللهِ ﷺ مُفَسَّراً عنْ يَحْيَى بْنِ أبي[3] كثيرٍ «إنْ عَلِمْتُمْ [منهُمْ حِرْفَةً][4] فلا تُرْسِلوهُمْ كلاباً على الناسِ» [البيهقي في السنن الكبرى١٠/٣١٧].

إنْ ثَبَتَ هذا فلا[5] يَحْتاجُ إلى غَيرِهِ مِنَ التفسيرِ. ولو كانَ قالَ: إنْ عَلِمْتُمْ لهمْ[6] خيراً جازَ أنْ يُقالَ: مَعْنى ذلكَ مالٌ[7]. ولكنهُ قالَ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والمالُ لا يكونُ فيهِمْ، وإنما يكونُ لهمْ. فأشْبَهَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ أنْ يكونَ الخَيرُ حِرْفَةً لِما[8] رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ وفاءٌ وأمانةٌ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ أنَّ العَبيدَ لا يَمْلِكونَ شيئاً، لأنهمْ لو كانوا يُمَلَّكونَ لكانَ يُرَغِّبُهُمْ، ويَحُثُّهُمْ على العِتاقِ دونَ الكتابةِ. فَدَلَّ تَرْغيبُهُ إياهُمْ عليها أنهمْ لا يُمَلَّكونَ حتى تُجْعَلَ الكتابةُ الكَسْبَ لهمْ والخِدْمَةَ دونَ المَوْلَى.

وفي الكتابةِ أيضاً نَظَرٌ لِلْمَوالي لأنهمْ إنْ قَدَروا على وفاءِ ما قَبِلوا أو أدائِهِ. وإلّا كانَ للمَوالي رَدُّهُمْ إلى مَنافِعِ أنفُسِهِمْ، ولو كانَ عِتْقاً لم يَمْلِكوا رَدَّهُمْ إلى مَنافِعِ أنفسِهِمْ، ويَبْطُلُ حَقُّهُمْ بلا شيءٍ، يَصِلُ إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ دلالةُ القولِ بِعِلْمِ العَمَلِ على ظاهرِ الأسبابِ دونَ تحقيقِ العِلْمِ بهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عليها والحث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: فيهم خيراً أي حركة، في م: فيهم خيراً أي حرفة. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيهم. (٧) في الأصل وم: مالاً. (٨) في الأصل وم: الجباء.

حينَ[1] قالَ: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وإنما يُوصَلُ ما ذُكِرَ مِنَ الخَيرِ بأسبابٍ تكونُ لهمْ على نَحْوِ ما ذَكَرُوا فيهِ مِنَ الحِرْفَةِ والوَفاءِ وأداءِ الأمانةِ وأمثالِهِ. وتلكَ أسبابٌ توصِلُ إلى الخَيرِ على أكْبَرِ الظَّنِّ والعِلْمِ لا على الحقيقةِ.

وفيهِ دلالةُ العَمَلِ بالِاجْتِهادِ على ما يُرَى بهِم مِنْ مَظاهِرِ الأسبابِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اخْتُلِفَ في خِطابِهِ.

قالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: هو شيءٌ، حَثَّ الناسَ عليهِ مولاهُ وغَيرُهُ. فَيُخَرَّجُ ذلكَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما جَعَلَ اللهُ مِنَ الحَقِّ لِلْمُكاتَبِينَ في الصَّدَقاتِ لِقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] وَهُمُ المُكاتَبونَ. أمَرَ أربابَ الأموالِ بِدَفْعِ الصَّدَقاتِ إلى المُكاتَبِينَ، وجَعَلَهُمْ أهلاً لها لِيَسْتَعينوا بها على أداءِ ما عليهِمْ مِنَ الكتابَةِ. فإنْ كانَ ذلكَ فذلكَ حَقٌّ لهمْ.

والثاني: جائزٌ أنْ يأمُرَ الناسَ بِمَعونةِ هؤلاءِ المُكاتَبِينَ على أداءِ ما عليهِمْ مِنَ الكتابةِ بأموالِهِمْ سِوَى الصَّدَقاتِ لِيَفُكُّوا رِقابَهُمْ عَنْ ذُلِّ الرِّقِّ والكَسْبِ.

وقالَ /٣٦٨ ـ ب/ قائلونَ: إنما الخِطابُ لِلْمَوالي خاصَّةً لِما أنَّ أوَّلَ الخِطابِ بالكتابَةِ راجعٌ إلى المَوالي. فَعَلَى ذلكَ هذا. ثم اختَلَفوا فيهِ.

رُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][2] قالَ: يَتْرُكُ المَولَى[3] الثُّلُثَ مِنْ مُكاتَبَتِهِ لهُ، ورُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: رُبُعَ المُكاتبةِ لهُ.

ورُوِيَ عن عُمَرَ رضي الله عنه أنهُ كاتَبَ غلاماً لهُ، فَحَطَّ عنهُ أوَّلَ نُجومِهِ، وقالَ لهُ: حُطَّ عني آخِرَهُ، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَعَلِّي، لا أصِلُ إليهِ، أو كلاماً[4] نَحْوَ هذا، ثم تَلا هذهِ الآيةَ: قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآيةَ.

ورُوِيَ عن غُلامٍ لِعُثمانَ بْنِ عَفّانَ رضي الله عنه [أنهُ][5] قالَ: كاتَبَني عثمانُ رضي الله عنه ولم يَحُطَّ عني شَيئاً. دَلَّ ما رُوِيَ عن عثمانَ أنهُ لم يَحُطَّ عنهُ شيئاً على أنَّ الأمْرَ بالإيتاءِ لِلْمُكاتَبِينَ مِنَ الأموالِ والحَطَّ عنهمْ إنما هو على الِاختِيارِ والإفضالِ، وليسَ على الوُجوبِ واللزومِ، لأنهُ لو كانَ على الوجُوبِ لكانَ عثمانُ بْنُ عفانَ لا يَحْتَمِلُ ألّا يَحُطَّ عنهُ شيئاً.

ومَنْ جَعَلَ ذلكَ واجباً على المَولَى أنْ يُؤتِيَهُ مِنْ مالِهِ، ويُعَجِّلَهُ لهُ، كانَ ذلكَ خارجاً عمّا رُوِيَ عنِ الصحابةِ رضي الله عنهم أجمَعِينَ خِلافاً لهمْ، لأنهُ رُوِيَ عن بَعْضِهِمُ الحَطُّ عنهُمْ والوَضْعُ دونَ الإيتاءِ مِنْ مالِهِمْ[6].

ورُوِيَ عن بعضِهِمْ: الِاسْتيفاءُ على الكمالِ، لا حَطَّ فيهِ، ولا إيتاءَ. دَلَّ أنَّ قولَ مَنْ يأمُرُهُمْ بالإيتاءِ مِنْ أموالِهِمْ دونَ الكتابةِ خارجٌ مِنْ قولِهِمْ جُمْلَةً. ثم يَبْطُلُ ذلكَ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ مَنْ قالَ لعبدِهِ: إذا أدَّيتَ إليَّ كذا فأنتَ حُرٌّ، فَحَطَّ عن بَعْضِ ذلكَ، فأدّى البَقِيَّةَ، لم يُعْتَقْ حتى يُؤَدِّيَ الكُلَّ، فَدَلَّ أنَّ قولَهُ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليسَ على الوُجوبِ، ولكنْ على الِاختِيارِ.

والثاني: أنهُ لا يُسَمَّى بعدَ الأداءِ مُكاتَباً، وإنما هو حُرٌّ، وإنما ذِكْرُ الإيتاءِ إيّاهُمْ، وهُمْ مكاتَبونَ حينَ[7] قالَ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ثم قالَ: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ فلو كانَ على ما يقولُهُ قومٌ لكانَ باطلاً لِلْوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ بِشَرْطٍ منهُ، لأنهنَّ لا يُكْرَهْنَ على البِغاءِ، وإنْ لم يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ. دَلَّ أنَّ ذلكَ ليسَ بشرطٍ فيهِ، ولا يَتَمَكَّنُ الإكراهُ فيهِ إذا كُنَّ أطَعْنَ فيهِ، لكنَّهُ خَرَّجَ ذلكَ على ما ذُكِرَ في القِصةِ:

كانوا يُكْرِهونَهُنَّ على الزِّنَى ابْتِغاءَ المالِ، وهُنَّ كُنَّ يُرِدْنَ التَّحَصُّنَ، فَخَرَجَ الخطابُ والنَّهْيُ على فِعلِهِمْ دونَ أنْ يكونَ ذلكَ شَرْطاً فيهِ، أو أنْ يكونَ ذلكَ إكراهاً إذا كُنَّ مُطاوِعاتٍ في ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الموالي. (٤) في الأصل وم: كلام. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ماله. (٧) في الأصل وم: حيث.

وفيهِ دلالةُ بُطلانِ المُتعَةِ وفَسادُها لأنهمْ كانوا يُكرِهونَ إماءَهم على أنْ يُؤاجِرْنَ أنفُسَهُنَّ لِلزِّنَى ابْتِغاءَ الأجْرِ، وليستِ المُتعَةُ إلّا كذلكَ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في نَفَرٍ في المنافقينَ: عبدِ اللهِ بْنِ أُبيٍّ وفلانٍ وفلانٍ، كانوا يُكرِهونَ فَتَياتِهِمْ على الزِّنَى ابْتِغاءَ عَرَضِ الدنيا. فإنْ كانَ ما ذَكَروا ففيهِ دلالةُ أنَّ الزِّنَى حَرامٌ في الأديانِ كلِّها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: يرجِعُ إلى الإماءِ؛ يقولُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهنَّ. وكذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الحروفِ أنهُ قُرِئَ[1]: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ لهنَّ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والثاني: يرجِعُ إلى الساداتِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهمْ إذا تابوا، وأصْلَحوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بِخفضِ الياءِ ونَصْبِها[2]. ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالآياتِ آياتِ القرآنِ جميعاً، وقولُهُ: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخَفضِ أي تُبَيِّنُ لِلْخَلْقِ ما لهمْ وما عليهِمْ وما للهِ عليهِمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بعضٍ، ومُبَيَّناتٍ بالنَّصْبِ أي مُبَيَّناتٍ أنها مِنْ عندِ اللهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ بالآياتِ الحُجَجَ والبراهينَ فإنْ كانَ هذا فقولُهُ: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخَفضِ أنها[3] تُبَيِّنُ وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وعلمَ رسالةِ رسولِهِ، وقولُهُ[4]: مُبَيَّناتٍ بالنَّصْبِ أنها [مُوضَحاتٌ أنها][5] حُجَجٌ وبراهينُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي أنْزَلْنا إليكُمْ أيضاً مَثَلَ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ما حَلَّ بهِمْ، ونَزَلَ بالمُكَذِّبينَ مِنَ العذابِ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما يَتَّعِظُ المُتَّقونَ، أو جَعَلَ لكمْ في ما أنْزَلَ مِنَ الآياتِ عليكُمْ أمثالاً ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لِتَتَّعِظوا بها[6]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اللهُ هادي السمواتِ والأرضِ. ثم انْقَطَعَ الكلامُ، فأخَذَ في نَعْتِ محمدٍ ﷺ وما ضَرَبَ لهُ مِنَ الأمثالِ، فقالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يقولُ: نورُ محمدٍ إذْ كانَ في صُلْبِ أبيهِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي كُوَّةٍ بِلُغَةِ الحَبَشِ غيرِ نافِذَةٍ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سِراجٌ ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ذلكَ السراجُ المُضيءُ، ضَوءُهُ ﴿فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ نَعْتُها الصافيةُ التامَّةُ الصفاءِ. والمِشكاةُ صُلْبُ أبيهِ عبدِ اللهِ. والزُّجاجةُ وصفاؤُها محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ وطُهْرُهُ مِنَ الأدناسِ والمَعاصي. والمِصْباحُ نورُهُ وصفاؤُهُ قَلْبُ رسولِ اللهِ ﷺ، وما فيهِ مِنَ الإيمانِ والحِكمَةِ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي محمدٌ ﷺ ذِكْرُهُ مَعَ أسماءِ الأنبياءِ والرسلِ في اللَّوحِ المَحفوظِ عندَ اللهِ في الفَضيلةِ على تلكَ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ كَفَضْلِ الكوكَبِ الدُّرِّيِّ أي المُضيءِ، وهو الزُّهَرَةُ، على سائرِ الكواكبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اسْتَنارَ نورُ محمدٍ مِنْ نورِ إبراهيمَ، لأنَّ محمداً على دينِ إبراهيمَ وعلى سُنَّتِهِ ومِنْهاجِهِ. فَمَثَلُ إبراهيمَ مَثَلُ الشجرةِ المباركةِ، وأصلُ محمدٍ مِنْ نَسْلِ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [أرادَ بالزيتونةِ][7] المَحاسِنَ وطاعةَ إبراهيمَ لربِّهِ، فَنَفَعَهُ اللهُ بِحُسْنِ طاعتِهِ يومَ القيامةِ وفي غيرِهِ مِنَ المَواطِنِ كما نَفَعَ بالزيتونةِ[8] أهلَها في الدنيا؛ فهي فاكهةٌ وطعامٌ، وهي إدامٌ، وهي[9] الصِّباغُ والدُّهْنُ والدِّباغةُ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يقولُ: إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ على نَبِيِّنا، وعليهِ، لم يَكُنْ نَصْرانِيّاً لِقَوْلِ النَّصارَى: هو نصرانيٌّ: يُصَلِّي إلى قِبْلَةِ النَّصارَى مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ، ولا يهودياً لِقَولِ اليهودِ: إنهُ كانَ على دِينِنا، يُصَلِّي قِبَلَ المَغْرِبِ لبيتِ المَقْدِسِ[11].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٥١. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٥١. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: و.
(٥) في الأصل وم: واضحات مبينات أي. (٦) في الأصل وم: به. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: والزيتونة. (٨) الباء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: يعني. (١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠].

يقولُ اللهُ تعالى: لم يكُنْ كما قالَ هؤلاءِ ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] مُصَلِّياً إلى الكعبةِ، وهي قِبْلَتُهُ، وإليها حَجَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يقولُ: واللهُ أعلمُ: لو أنَّ إبراهيمَ لم يكُنْ نَبِيًّا [لَمَا أصابَ][1] بِحُسْنِ طاعةِ اللهِ الفَضْلَ مَعَ الأنبياءِ والرسلِ في الدنيا والدَّرَجاتِ العُلَا في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لأنَّ محمداً ﷺ وما جاءَ بِهِ مِنَ الدينِ والكتابِ، أصلُ نورِهِ مِنْ قِبَلِ إبراهيمَ لأنهُ على دينِهِ وسُنَّتِهِ وكتابِهِ ومِنْهاجِهِ.

ثم قولُهُ[2]: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ وهو النورُ، وهو القرآنُ [يَهْدي بِهِ][3] ﴿مَن يَشَآءُ﴾ /٣٦٩ ـ أ/ مِمَّنْ سَبَقَ لهُ في عِلْمِهِ السعادةُ، ويُضِلُّ[4] عنهُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِمَّنْ سَبَقَ لهُ في عِلْمِهِ الشقاءُ.

ثم قولُهُ[5]: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: ويَصِفُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لِيُؤْمنوا باللهِ، ويُوَحِّدوهُ، ويَعْرِفوا رُبوبِيَّتَهُ[6] مِنْ صُنْعِهِ، ويُصَدِّقوا بإبراهيمَ ومحمدٍ، عليهما السلام أنهما رسولا الربِّ وهو تأويلُ مُقاتِلٍ.

وقالَ أهلُ الكلامِ: قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أنارَ اللهُ لأهلِ السمواتِ والأرضِ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي بِهِ أنارَ ما ذَكَرَ مَثَلُ المِشْكاةِ التي ذَكَرَ إلى آخِرِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي باللهِ نورُ أهلِ السمواتِ والأرضِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ كذا، ولم يَقُلْ مِثْلَهُ؟ ولو كانَ النورُ هو اللهَ، على ما قالَهُ المُشَبِّهَةُ[7]، وفَهِموهُ، لَقالَ: اللهُ نورُ السمواتِ والأرضِ، مِثْلُهُ كذا، ولم يَقُلْ: مِثْلَ نورِهِ فَدَلَّ قولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ كذا [أنهُ][8] لم يُرِدْ بالنورِ نفسَهُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا أنهُ بِهِ نورُ أهلِ السمواتِ والأرضِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أنهُ لم يُرِدْ بالنورِ ما فَهِموا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؟

دلَّ أنهُ ليسَ على ما [فَهِمَهُ المُشَبِّهَةُ][9] أنهُ نورٌ كسائرِ الأنوارِ التي [عايَنوها، وشاهَدوها][10].

على هذا يُخَرَّجُ تأويلُ ابْنِ عباسٍ: قولُهُ[11] تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللهُ [هادي][12] أهلِ السمواتِ والأرضِ، وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مِثْلُ نورِ المؤمنِ الذي في قلبِهِ مِثْلُ مِشكاةٍ فيها مصباحٌ، لأنّ المِشْكاةَ هي الكُوَّةُ التي لا مَنْفَذَ لَها، تَدْخُلُ فيها الأنوارُ؛ تكونُ مُظْلِمةً، فإذا جُعِلَ فيها المِصْباحُ، أضاءَ ذلكَ كُلَّهُ، وأنارَهُ، حتى لا يَبْقَى فيها ناحيةٌ إلّا وقد أصابَها الضياءُ والنورُ. فَعَلى ذلكَ القَلْبُ، وهو مُظْلِمٌ؛ إذْ ليسَ لهُ مَنْفَذٌ، يَدْخُلُ فيهِ النورُ مِنَ الخارجِ، فإذا آمَنَ أنارَ اللهُ قلبَهُ بإيمانِهِ حتى ظَهَرَ ذلكَ النورُ وأثَرُهُ في جميعِ نَواحيهِ وَجَوارِحِهِ. وهو ما قالَ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

أخبَرَ أنَّ مَنْ ﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهذا يدلُّ أنَّ قولَهُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ إنما هو مَثَلُ نورِ المؤمنِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أنهُ قَرَأَ: مَثَلُ نورِ المؤمنِ كَمِشْكاةٍ، وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: مَثَلُ نورِهِ في قَلْبِ المؤمِنِ، وقالَ الحَسَنُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قالَ: مَثَلُ القرآنِ في قَلْبِ المؤمِنِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كُوَّةٍ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: لأصاب. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفضل. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) في الأصل وم: نور نبيه. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قوم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فهموا به.
(١٠) في الأصل وم: عاينوه وشاهدوه وهم المشبهة. (١١) في الأصل م: حيث قال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

[ويحتمِلُ][١] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بهِ تَنجَلي الظُّلُماتُ، وتَنكَشِفُ الحُجُبُ والسَّواتِرُ؛ إذ النورُ إنما سُمِّيَ نوراً لِما بهِ تَنجَلي المَظالِمُ، وتَنكَشِفُ السَّواتِرُ والحُجُبُ، لا لأنهُ[٢] نورٌ.

ألا تَرَى أنهُ سَمَّى القرآنَ نوراً، والرسولَ نوراً، لِما بهما[٣] تَنجَلي الشُّبهاتُ والظُّلُماتُ، وبهما[٤] ترتفعُ السَّواتِرُ والحُجُبُ، وإنْ كانا في نَفْسَيهِما[٥] لَيسا بنورٍ سَمَّاهُما[٦] نوراً لِما ذَكَرْنا مِنَ [انجلاءِ الشُّبهاتِ][٧] بهما وارْتفاعِ السَّواتِرِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يُسَمِّيَ اللهُ نوراً [كلَّ ما][٨] بهِ يكونُ انجلاءُ[٩] الظُّلُماتِ والشُّبَهِ وانكِشافُ السَّواتِرِ وارْتِفاعُ الحُجُبِ، لا لأنه[١٠] نورٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَثَلُ نورِ المؤمِنِ على ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في صَدْرِ المؤمِنِ. وقالَ بعضُهُمْ: مَثَلُ نورِ محمدٍ على ما ذَكَر مُقاتلٌ وغيرُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: مَثَلُ نورِ القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قالَ [بعضُهُمْ:][١١] الكُوَّةُ التي لا مَنفَذَ لَها للنورِ على ما ذَكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: مَوضِعُ الفَتيلةِ مِنَ القنديلِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَدائدُ التي يُعَلَّقُ بها القنديلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي شجرةٌ مُضحَرَةٌ؛ تَطلُعُ عليها الشمسُ إذا طَلَعَتْ، وتَغرُبُ عنها إذا غَرَبَتْ، وزيتُها[١٢] أجوَدُ الزيتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هي شجرةٌ في كَنٍّ، لا تَطلُعُ عليها الشمسُ إذا طَلَعَتْ، ولا تَغرُبُ عنها[١٣] إذا غَرَبَتْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَتْ شرقيَّةً، لا غَرْبَ لها، ولا غربيَّةً، لا شَرْقَ لها، ولكنها شرقيَّةٌ غربيَّةٌ؛ فكيفَ ما كانَ فإنما ذَكَرَ الزيتَ لِصفائِهِ وخُلوصِهِ، فَيَجِبُ أن يُسألَ أهلُهُ، فيقالَ: أيُّ الزيتِ أجودُ وأصفَى؟ الذي تُصيبُهُ الشمسُ، أمِ[١٤] الذي لا تُصيبُهُ، أمِ[١٥] الذي تُصيبُهُ في وقتٍ، ولا تُصيبُهُ في وقتٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو اللهُ سبحانَهُ هادي أهلِ السمواتِ والأرض [يُضيءُ هُداهُ قَلْبَ][١٦] المؤمنِ كما يكادُ الزيتُ الصافي يُضيءُ قَبْلَ أنْ تَمَسَّهُ النارُ [فإذا مَسَّتْهُ النارُ][١٧] ازدادَ ضَوءاً على ضوءٍ. كذلكَ يكونُ قَلْبُ المؤمِنِ يَعمَلُ الهُدَى قَبْلَ أنْ يأتِيَهُ العِلْمُ [فإذا جاءَهُ العِلْمُ][١٨] ازدادَ هُدىً على هُدىً ونوراً على نورٍ.

وعنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ [أنهُ][١٩] قالَ في قولِهِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يقولُ: مَثَلُ نورِ المؤمِنِ، وكذلكَ يَقرَؤها: مَثَلُ نورِ المؤمِنِ على ما ذَكَرنا مِنْ قَبْلُ؛ قالَ: فهو عبدٌ، قد جَعَلَ القرآنَ والإيمانَ في صَدْرِهِ.

قالَ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قالَ: المِشكاةُ صَدْرُهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قالَ: المصباحُ القرآنُ والإيمانُ الذي جَعَلَ في صَدْرِهِ. قالَ: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ فالزجاجةُ قلبُهُ.

قالَ: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ يقولُ: كوكبٌ مُضيءٌ ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قالَ: الشَّجرةُ المُبارَكَةُ: [أصلُ المبارَكِ: الإخلاصُ][٢٠] للهِ وحدَهُ، لا يُشرِكُ بهِ.

قالَ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قالَ: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ، الْتَفَّ بها الشَّجَرُ، فهي خضراءُ ناعمةٌ، لا تُصيبُها الشمسُ على أيِّ حالٍ كانَتْ: لا إذا طَلَعَتْ، ولا إذا غَرَبَتْ. وكذلكَ هذا المؤمِنُ، قد أُجيرَ مِنْ أنْ يَصِلَهُ شيءٌ مِنَ الفِتَنِ، وقدِ ابْتُلِيَ بها، فَثَبَّتَهُ اللهُ فيها؛ فهو بَينَ أربعِ خِلالٍ: إنِ ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإنْ أُعطِيَ شَكَرَ، وإنْ قالَ صَدَقَ، وإنْ حَكَمَ عَدَلَ، فهو في سائرِ الناسِ كالرجلِ الحَيِّ، يمشي في قبورِ الأمواتِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: وبه. (٥) في الأصل وم: أنفسهما. (٦) في الأصل وم: سمى. (٧) في الأصل وم: تجلي الأشياء. (٨) الأصل وم: لما. (٩) في الأصل وم: تجلي. (١٠) في الأصل وم: انه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل وم: عليه. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: كما هداه في. (١٧) من م، ساقطة من الأصل. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل: اصله فالمبارك والإخلاص، في م: اصله فالمبارك الاخلاص.

قالَ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قالَ: فهو يَتَقلَّبُ في خمسةٍ مِنَ الأنوارِ[١]: كلامُهُ نورٌ، وعَمَلُهُ[٢] نورٌ، ومَدْخَلُهُ نورٌ، ومَخْرَجُهُ نورٌ، ومَصيرُهُ إلى النورِ يومَ القيامةِ إلى الجنةِ.

قالَ: ثم ضَرَبَ مَثَلَ الكافرِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية [النور: ٣٩] [يَجيءُ يومَ القيامةِ، وهو يَحْسَبُ][٣] أنَّ لهُ عندَ اللهِ خيراً، فلا يَجِدُهُ، فَيُدْخِلُهُ اللهُ إلى النارِ.

وقالَ: [وضَرَبَ مَثَلاً آخرَ في آيةٍ أُخرى][٤] فقالَ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] فهو يَتَقلَّبُ في ظُلُماتٍ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بنورِهِ يَهْتَدي مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ على ما ذَكَرْنا ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ في قَلْبِ المؤمنِ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ هي الكُوَّةُ غيرُ النافذةِ على ما ذَكَرْنا ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سراجٌ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مُضيءٌ، أي مَنسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الكُوَّةُ التي تكونُ في الحائطِ، ومَشاكٍ جَماعةٌ، وكُوىً جَماعةٌ، و﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [شديدُ الضَّوءِ، ودُرِّيٌّ هو أيضاً مِنَ الضوءِ مأخوذٌ، هما جميعاً مِنَ الضوءِ[٥]، وكواكبُ درارٍ[٦] مُضيئةٌ.

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ [في قولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أنهُ][٧] قالَ: ضَرَبَ مَثَلَ محمدٍ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾][٨] مَثَلَ لسانِهِ وصَدْرِهِ وقَلْبِهِ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ قالَ: يَكادُ محمدٌ يُبَيِّنُ للناسِ، وإنْ لم يَنْطِقْ [أنهُ نَبِيٌّ كما يكادُ ذلكَ الزيتُ يضيءُ ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾][٩].

وعنِ الضَّحّاكِ بْنِ مُزاحِمٍ [في قولِهِ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أنهُ][١٠] قالَ: خُلِقَتِ الكواكبُ مِنْ نارٍ، ويُقالُ لها: درارٍ، فَمِنْ ثَمَّةَ قالَ ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

وقد ذَكَرْنا قولَهُمْ في المِشْكاةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: الكُوَّةُ التي لا مَنْفَذَ لها. وقالَ بعضُهُمْ: الفَتيلَةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الفَتيلَةُ التي في جَوفِ القِنْديلِ نفسِهِ وقالَ /٣٦٩ ـ ب/ بعضُهُمْ: هي الحدائدُ التي يُعَلَّقُ بها القِنْديلُ، وأمّا الزُّجاجةُ فهي القِنْديلُ.

ثم إنْ كانَ قولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي نورِ المؤمنِ فليسَ ذلكَ وَصْفَ كلِّ مؤمنٍ ونَعْتَهُ، ولكنْ وَصْفُ المؤمنِ الذي تَجتَمِعُ فيهِ جَميعُ شَرائطِ الإيمانِ وجميعُ الأخلاقِ الحَسَنَةِ والآدابِ لأنهُ وَصَفَهُ بِطهارةِ نفسِهِ وجَسَدِهِ وقلبِهِ وجميعِ أعمالِهِ وأفعالِهِ لأنهُ قالَ: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي قَلْبُهُ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو صَدْرُهُ الذي فيهِ[١١] قَلْبُهُ ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ وهو الإيمانُ الذي في صَدْرِهِ.

ثم نَعَتَ الزُّجاجَ، فقالَ: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي مُضيءٌ. وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ الدُّرِّ فَوَصَفَ الكُلَّ بالضِّياءِ والنورِ وطَهارةِ الداخِلِ منهُ والخارجِ ونَقاوَتِهِ.

فهو المؤمنُ الذي تَجتَمِعُ فيهِ جميعُ الشرائطِ والخِصالِ المَحمودةِ، وأمّا كلُّ مؤمنٍ فلا يَحتَمِلُ، وهذا أشبَهُ. ألا ترى أنهُ ذَكَرَ نَعْتَ الكافرِ مِنْ بَعْدِ [هذا][١٢] وخُبْثَهُ حينَ[١٣] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾؟ [النور: ٣٩].

وإنْ كانَ [قولُهُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾][١٤] وَصْفَ محمدٍ ففيهِ جميعُ ما ذُكِرَ، ونَعْتُهُ.

وإن كانَ القرآنَ فهو كذلكَ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ الذي[١٥] ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: النور. (٢) في الأصل وم: وعلمه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: في آية أخرى مثلاً، في م: في آية أخرى له مثلاً. (٥) في الأصل: الدر. (٦) في الأصل: مراري. (٧) في الأصل: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾. (٨) ساقطة من م. (٩) من الدر المنثور ٦/ ١٩٦. ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: التي.

[وقولُهُ تعالى][١]: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يَحتَمِلُ ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لِنورِ محمدٍ ﷺ ويَحتَمِلُ القرآنَ، ويَحتَمِلُ الإيمانَ والهُدى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: فالزيتُ[٢] نورٌ، والمصباحُ [نورٌ][٣] والقِنْدِيلُ نورٌ، وقالَ [بعضُهُمْ][٤]: المؤمِنُ نورٌ وعَمَلُهُ نورٌ، وكلامُهُ نورٌ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي بنورِهِ أضاءتِ السمواتُ والأرضُ على ما ذَكَرْنا: مَثَلُ نورِهِ يكونُ[٥] في قَلْبِ المؤمِنِ.

وهو في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ في قَلْبِ المؤمنِ: وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ للإيمانِ والقرآنِ والقَلْبِ حينَ يَدْخُلُهُ الإيمانُ والقرآنُ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يعني الكُوَّةَ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعني الإيمانَ والقرآنَ ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ يعني القَلْبَ، والمِشْكاةُ الصدرُ؛ كما دَخَلَ هذا المصباحُ في الزُّجاجةِ، فأضاءَه، فكذلكَ أضاءَ القَلْبَ.

ثم خَرَجَ منَ الزُّجاجةِ، فأضاءَ[٦] المِشْكاةَ. فكذلكَ أضاءَ الصدرَ. ثم نَزَلَ الضوءُ مِنَ الكُوَّةِ، فأضاءَ البيتَ. فكذلكَ نَزَلَ النورُ مِنَ الصدرِ، فأضاءَ الجوفَ كُلَّهُ، فلم يَدْخُلْهُ حَرامٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ يَحتَمِلُ ضَرْبُ الأمثالِ لهم وجهَينِ:

أحدُهما: ضَرَبَ لأفعالِهِمْ وأقوالِهِمْ مَثَلاً لِيَعْرِفوا مَقاديرَها في الحُسْنِ والجمالِ، لِيَعْلَموا قَدْرَها مِنَ الجَزاءِ والثوابِ.

[والثاني][٧] ضَرَبَ الأمثالَ لهمْ للأنفُسِ المُكَرَّمينَ المُعَظَّمينَ المُسْتَوجِبينَ كلَّ خيرٍ، ليرغَبوا في مِثْلِ ذلكَ، فَيَسْتَوجِبوا ما اسْتوجَبَ أولئكَ.

وكانَ ضَرَبَ مَثَلَ الإيمانِ والقرآنِ ومحمدٍ[٨] وما كانَ على اختِلافِ ما قالوا بالأنوارِ التي ضَرَبَها، واللهُ أعلَمُ، لِما أنهُ قد أقامَ الحُجَجَ والبراهينَ على الإيمانِ والقرآنِ ومحمدٍ حتى صاروا كالأنوارِ التي شَبَّهَهُمْ بها مِنَ الحُسْنِ والجَمالِ والضِّياءِ والبَهاءِ حتى يَعْرِفَ حُسْنَ هذهِ الأنوارِ وبهاءَها كلُّ أحدٍ.

فَعَلَى ذلكَ المَضروبُ بها المَثَلُ: صارَ في الحُسْنِ والبهاءِ بالحُجَجِ والبراهينِ كالأنوارِ التي لا يَخْفَى حُسْنُها وبَهاؤُها على أحدٍ، ولا يُنْكِرُها إلّا مُعانِدٌ ومُكابِرٌ.

وكانَ مَثَلُ الكُفرِ والعِنادِ مِنَ القُبحِ والفَسادِ والبُطلانِ كالظُّلُماتِ التي ذَكَرَ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠] وكالسَّرابِ والزَّبَدِ الذي ذَكَرَ حينَ[٩] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] وكالظُّلُماتِ التي ذَكَرَ حينَ[١٠] قالَ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وقالَ[١١]: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ [في قولِهِ][١٢] ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ الأنجُمُ[١٣] الخَمْسَةُ كُلُّهُنَّ دُرِّيٌّ الزُّهَرَةُ وعُطارِدُ والمُشْتَري والمِرِّيخُ[١٤] وزُحَلُ.

قالَ قَتادةُ: الدُّرِّيُّ الضَّخمُ المُنيرُ. قالَ الكِسائيُّ: مَنْ هَمَزَ دِرِّيءٌ [فقد أرادَ حُسنَهُ][١٥] وظُهورَهُ وارْتِفاعَهُ؛ يقولُ: دَرَأَ النَّجْمُ، وهو [دارِئٌ، وهو][١٦] فاشٍ ظاهرٌ في كلامِ العَرَبِ.

ومَنْ رَفَعَ الدالَ، ولم يَهْمِزْ، فهو يَنْسُبُهُ إلى الدُّرِّ، ومنهمْ مَنْ يَرْفَعُ الدالَ، ويَهْمِزُ، وأظُنُّها لُغَةً[١٧].

وقالَ أبو عَمْرِو بْنُ العَلاءِ: الدُّرِّيُّ النجمُ الذي تَراهُ يَتَلأْلأُ، كأنهُ يَجيءُ، ويَذْهَبُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يقول. (٦) في الأصل وم: فأضاءت. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، في الأصل: أو محمداً. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: الآية. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٤) في الأصل وم: وبهرام، وهي بالفارسية. (١٥) في الأصل: فهو حسن، في م: فهو حسنه. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٥٣.

وقد رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: «إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ عِلِّيِّينَ لَيُشرِفُ على أهلِ الجنةِ، فتُضيءُ الجنةُ بوجهِهِ، كأنهُ كوكبٌ دَرِّيٌّ، وإنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ ﵄ لَمِنهُمْ، وأنعِما» [أبو داوود: ٣٩٨٧].

وأيضاً رُوِيَ دُرِّيٌّ بالرَّفعِ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ عنهُ: «إنَّ أوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجنةَ، وجوهُهُمْ على صورةِ القَمَرِ ليلةَ البَدْرِ، والذينَ يَلونَهُمْ على أضواءِ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماءِ. لكلِّ امْرِىءٍ منهمْ زَوجانِ اثْنَتانِ آدَمِيَّتانِ، يُرى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وَراءِ اللَّحْمِ. والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ ما فيها عَيْبٌ[2]» [بنحوه مسلم: ٢٨٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ اخْتُلِفَ في قراءَتِهِ[3]: قرأَ بعضُهُمْ: يُوقَدُ بالياءِ ورَفْعِها ونَصْبَ القافِ؛ يقولُ: المصباحُ يُوقَدُ. ومَنْ قَرَأَ: توقَدُ بالتاءِ ورَفْعِها يَعْني الزُّجاجةَ التي تُوقَدُ. وأهلُ مكةَ [قرَؤوا][4]: تَوَقَّدَ بِنَصْبٍ وتَشديدِ القافِ؛ يَعْنونَ[5] المِصْباحُ تَوَقَّدَ، فلِذلكَ انْتَصَبَ. ومَنْ قَرَأَ: يُوقَدُ؛ يَعْني الكوكبَ[6] أو المِصْباحَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قد ذَكَرْنا بَعضَ أقاويلِهِمْ في ما تَقَدَّمَ. لكنّا نَزيدُ فيها شيئاً: قالَ قائلٌ: هي شَجَرَةٌ ضاحِيَةٌ مِنْ حينِ تَطْلُعُ الشمسُ إلى أنْ تَغْرُبَ، ليسَ لها ظِلٌّ شَرْقِيٌّ ولا غَرْبِيٌّ، وزَيْتُها أصْفى الزَّيتِ وأعْذَبُهُ وأطْيَبُهُ.

وقالَ قائلٌ: لَيسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ، يَجوزُها المَشْرِقُ دونَ المَغْرِبِ، ولَيستْ[7] بِغَرْبِيَّةٍ، يَجوزُها المَغْرِبُ دونَ المَشْرِقِ.

ولكنّها في صحراءَ أو في رأسِ جَبَلٍ، تُصيبُها الشمسُ النهارَ كلَّهُ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقالَ الكسائيُّ: لَيسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ وَحْدَها، ولا بِغَرْبِيَّةٍ وَحْدَها، ولكنّها شَرْقِيَّةٌ وغَرْبِيَّةٌ كما تقولُ: لا آتيكَ، ولا آتي فلاناً: لهُ مَعْنَيانِ؛ إنْ شِئْتَ كانَ مَعْناهُ: لا تأتي واحداً منهُما، وإنْ شِئْتَ كانَ مَعْناهُ: أنكَ لا تأتيهُما معاً. ومِثْلُهُ: واللهِ لا آكُلُ، ولا يَأكُلُ زَيدٌ، لهُ[8] مَعْنَيانِ.

وكذلكَ يُقالُ: رجلٌ، لا يَرْجو الجنةَ، ولا يَخافُ النارَ، ويُحِبُّ الفِتْنَةَ؛ إنهُ رجلٌ صالحٌ. أمّا الفِتْنَةُ فالمالُ والوَلَدُ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨ والتغابن: ١٥] وهو يرجو الجنةَ، ويخافُ النارَ على ما فَسَّرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ يقولُ: لا تَضْحَى للشمسِ مِنْ أوَّلِ النهارِ إلى آخِرِهِ ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تُصيبُها الشمسُ والظِّلُّ. والعَرَبُ تقولُ: لا خَيرَ في شَجَرَةٍ [في مَضْوَاةٍ[9]، ولا خَيرَ في شَجَرَةٍ][10] في مَضْحاةٍ.

وقائلٌ يقولُ: لا تَطْلُعُ الشمسُ، ولا تَغْرُبُ، وقائلٌ يقولُ: هي شَجَرَةٌ بالشامِ، لَيسَتْ [بالمَشْرِقِ، ولَيسَتْ][11] بالمَغْرِبِ.

والحَسَنُ يقولُ: واللهِ لو كانَتْ هذهِ الزَّيتونَةُ في الأرضِ لكانَتْ شَرْقِيَّةً أو غَرْبِيَّةً. واللهِ ما هي في الأرضِ. ولكنَّ هذا مَثَلٌ، ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لِنورِهِ، وهو هذا القرآنُ.

وأمّا قولُهُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [فقد][12] قالَ: بعضُهُمْ: إيمانُ المؤمنِ نورٌ [وعِلْمُهُ نورٌ][13]، فهو نورٌ على نورٍ. وقالَ[14] بعضُهُمْ: نورُ النارِ على نورِ الزيتِ، فذلكَ نورٌ على نورٍ، وهو بِجَوْدَتِهِ؛ يَعْني الزيتَ. وقالَ بعضُهُمْ: نورُ النارِ ونورُ الزيتِ حينَ اجْتَمَعا أضاءا، ولا يُضيءُ واحدٌ بِغَيرِ صاحبِهِ. كذلكَ نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ إذا اجْتَمَعا لا يكونُ أحَدُهُما مُضيئاً إلّا بصاحِبِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: / ٣٧٠ ـ أ/ ما ذَكَرْنا مِنْ نورِ الإيمانِ والعَمَلِ.

ثم مَعْنى تشبيهِ ما ذَكَرَ بالزيتِ لأنَّ الزيتَ أصْفَى شيءٍ وأظْهَرُ وأطْيَبُ شيءٍ وأضْوَأُ للسِّراجِ، كلُّ المَنافِعِ مِنَ الإدامِ والدَّواءِ وغَيرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غرب. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٢٥٥. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعني. (٦) من م، في الأصل: الكواكب. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) في م: مضيأة. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) الواو ساقطة من الأصل.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي تُعَظَّمَ، ويُرْفَعَ قَدْرُها، وهي المساجِدُ، على غَيرِها مِنَ البُيوتِ المَسْكونةِ، يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ فيها والتَّسبيحُ والتَّنْزيهُ مِنَ الأقذارِ والأنجاسِ ومِنَ الأمورِ الدُّنيَوِيَّةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي تُبْنَى، وتُتَّخَذَ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا ففيهِ الأمرُ ببناءِ المساجِدِ واتِّخاذِها. وإنْ كانَ الأوَّلَ ففيهِ الأمرُ بتَعْظيمِ المساجِدِ ورَفْعِ قَدْرِها بما ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ والتَّسبيحِ فيها.

ثم الإذْنُ في هذا الأمرِ لوجهَينِ:

أحَدُهُما: لِحَقِّ إقامةِ الجماعاتِ فيها في هذهِ الصَّلَواتِ المَعْروفةِ؛ إذ الأرضُ كلُّها في الأصلِ جُعِلَتْ مَسْجداً حينَ[1] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجداً وطَهوراً» [البخاري: ٣٣٥] فهي في حَقِّ جوازِ الصلاةِ مَسْجِدٌ. فَيُخَرَّجُ الأمرُ مِنْ مُخرَجِ الأمرِ بِبِنائها لإقامةِ الجماعاتِ.

والثاني: أمَرَ بها خصوصاً لِلمساجِدِ؛ إذْ غَيرُها مِنَ البُيوتِ المَسْكونةِ إنما اتُّخِذَتْ وبُنِيَتْ بالإذْنِ والإباحةِ، فَخَصَّ المساجِدَ بالإذنِ بِبِنائِها خُصوصاً لها؛ إذْ لو كانَ إذناً على ظاهِرِ ما ذَكَرَ لكانَتِ المساجِدُ وغَيرُها مِنَ البُيوتِ سَواءً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فإنْ كانَ تأويلُ قولِهِ ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أي تُعَظَّمَ، ويُرْفَعَ قَدْرُها فيكونُ قولُهُ ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ تَفسيراً لذلكَ التَّعظيمِ [ورَفعِ القَدْرِ][2] الذي أمَرَ، أي أنْ تُعَظَّمَ، ويُرْفَعَ قَدْرُها، بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ فيها وما ذَكَرَ مِنَ التَّسبيحِ.

وإنْ كانَ التأويلُ هو الأمرَ بالبناءِ يَكُنْ[3] قولُهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ كذا على الابْتِداءِ أي أمَرَ أنْ تُبْنَى بيوتٌ أي مساجدُ، وأمَرَ أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ، ويُسَبَّحَ لهُ في الغُدُوِّ والآصالِ.

ثم اخْتُلِفَ في تِلاوةِ[4] قولِهِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ قَرَأَ بعضُهُمْ: يُسَبَّحُ لهُ بِنَصْبِ الباءِ[5] وقرأ بعضُهُمْ: يُسَبِّحُ بِخَفْضِ الباءِ.

فَمَنْ قَرَأَها بالنَّصبِ صَيَّرَهُ على الأوَّلِ: يُذْكَرُ فيها اسْمُهُ يُسَبَّحُ لهُ بالغُدُوِّ والآصالِ. ثم ابْتَدَأَ، فقالَ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾.

ومَنْ قَرَأَها بالخَفْضِ؛ أعني خَفْضَ الباءِ صَيَّرَهُ مَقْطوعاً مِنَ الأوَّلِ مُبْتَدأً بهِ، أي يُسَبِّحُ لهُ بالغُدُوِّ والآصالِ. ثم ابْتَدأَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾. ثم قولُهُ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ جائزٌ [أنْ يُرادَ][6] بِذِكْرِ اسْمِهِ الصَّلَواتُ وكذلكَ [المُرادُ][7] بالتَّسبيحِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُرادَ بِذِكْرِ اسْمِهِ جميعُ أنواعِ الأذكارِ مِنَ الخَيرِ، ويُرادَ بالتَّسْبيحِ بالغُدُوِّ والآصالِ الصَّلواتُ المَفروضَةُ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الغُدُوُّ صلاةُ الغَداةِ، والآصالُ: صلاةُ الظُّهرِ والعَصْرِ والمَغْرِبِ والعِشاءِ، فَيَجْعَلُ الأصيلَ عِبارةً عنْ هذهِ الصَّلَواتِ في أوقاتِها.

وقالَ بعضُهُمْ: الآصالُ صلاةُ العَصْرِ خاصَّةً. وأمّا غَيرُها مِنَ الصلاةِ [فإنها عُرِفَتْ][8] لا بهذا، ولكنْ بشيءٍ آخَرَ، والغُدُوُّ هو صلاةُ الفَجْرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي لا تَشْغَلُهُمْ تِجارةٌ ولا بَيعٌ. ذَكَرَ التِّجارةَ والبَيعَ، والبَيعُ تِجارةٌ. ولكنْ كانَ اسْمُ التجارةِ يَجْمَعُ كلَّ أنواعِ التَّقَلُّبِ، واسْمُ البَيعِ، يَقَعُ على خاصٍّ. وكذلكَ يُقالُ لِلَّذي يَجْمَعُ أنواعَ التَّقَلُّبِ تاجِرٌ، ولِلَّذي يَبيعُ شيئاً خاصاً بائِعٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: والقدر. (٣) في الأصل وم: يكون. (٤) في الأصل وم: تلاوته. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢٥٧. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وإنما عرف.

أخبرَ أنهُ لا تَشغَلُهُمْ تِجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكرِ اللهِ، أي لا يَشتَغِلونَ بالتّجارةِ والبيعِ، ولكنْ فرَّغوا أنفسَهُمْ لِذِكرِ اللهِ وإقامةِ الصلاةِ وما ذَكَرَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا[1] يتّجِرونَ، ويبيعونَ، لكنَّ تِجارَتَهُمْ وبيعَهُمْ، لا تَشغَلُهُمْ، ولا تَمنَعُهُمْ عن ذِكرِ اللهِ. يكونونَ أبداً في ذِكرِ اللهِ. ثم قولُهُ: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ الصلاةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إتمامِ الصلاةِ بِركوعِها وسُجودِها وقِراءتِها وجميعِ أسبابِها وشَرائطِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الخُطبَةَ ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاةَ الجُمُعَةِ لأنهُ قالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً﴾ الآيةَ [الجمعة: ١١] وقالَ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ وهو الخُطبَةُ، غيرُ مَسموعٍ مِنْ أهلِ التأويلِ، ولكنهُ مُحتَمَلٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وهو يومُ القيامةِ. يُخبِرُ عن شِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ وخَوفِهِ، لا تَثبُتُ القُلوبُ والأبصارُ فَزَعاً منهُ وخَوفاً كقولِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٤٣] وكقولِهِ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يَعرِفونَ مَرّةً، ويَجهَلونَ تارةً، ويَعتَبِرونَ يومئذٍ بما لم يَعتَبِروا في الدنيا، ويُقِرّونَ بما لم يُقِرّوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾ حينَ تُزالُ[2] عَنْ أماكِنِها مِنَ الصدورِ، فَتَنشَقُ[3] في حُلوقِهِمْ عندَ الحَناجِرِ، ثم قالَ: ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي تُقلَبُ أبصارُهُمْ، فيكونونَ زُرقاً، وهو قولُ القائلِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي لِيَجزِيَهُمْ اللهُ جَزاءَ إحسانِهِمْ، ويُكفِّرُ عن مَساويهِمْ، ولا يَجزيهِمْ بها كقولِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ الآيةَ [الأحقاف: ١٦] وكقولِهِ: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على قَدرِ حَسَناتِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: لَيسَ فوقَهُ مَلِكٌ يُحاسِبُهُ، فهو المَلِكُ يُعطي ﴿مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يَخافُ مِنْ أحدٍ يُحاسِبُهُ كقولِهِ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يُعطيهِمْ بلا حسابٍ، يُحاسِبُهُمْ، ويُدْخِلُهُمُ الجنةَ بلا محاسَبَةٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يُعطيهِمْ بلا حِسابٍ أضعافاً مُضاعَفَةً ما لا يُحصَى لا على قَدرِ أعمالِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ضَرَبَ مَثَلَ أعمالِ الكَفَرَةِ بالسَّرابِ الذي ذَكَرَ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهمْ قد عَمِلوا في الظاهرِ أعمالاً طَمِعوا أنْ يَصِلوا إليها في الآخِرَةِ، ويَنتَفِعوا بها مِنْ نَحوِ الصَّدَقاتِ والنَّفَقاتِ وَصِلَةِ الأرحامِ ونَحوِها[4] ممّا هي في الظاهرِ أعمالُ الخَيرِ، فإذا هُمْ حُرِموا ذلكَ، ولم يَجِدوا شيئاً كالذي يَرَى السَّرابَ مِنْ بَعيدٍ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فسارَ إليهِ، فإذا هو، لا شيءَ.

فَعَلى ذلكَ الكُفّارُ عَمِلوا تلكَ الأعمالَ على طَمَعٍ منهمْ أنهمْ يَنتَفِعونَ بها، فإذا هُمْ على [لا][5] شيءَ كالعَطشانِ الذي يَرَى السَّرابَ، فَيَحسَبُهُ أنهُ ماءٌ، فإذا هو سَرابٌ.

والثاني: ضَرَبَ مَثَلَ أعمالِهِمْ بالسَّرابِ الذي ذَكَرَ؛ وذلكَ لأنهمْ[6] قد عَبَدوا الأصنامَ والأوثانَ رَجاءَ أنْ يَنتَفِعوا

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) في الأصل وم: زالت. (٣) في الأصل وم: فنشقت. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أنهم.

بِشفاعَتِهِمْ في الآخِرَةِ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وكانَتْ عبادَتُهُمُ الأصنامَ لِما ذَكَروا مِنْ [طَمَعِهِمْ بِشفاعَتِهِمْ][1] فإذا هُمْ لم يَنْتَفِعوا، فصاروا[2] كالعَطْشانِ الذي يَرَى السَّرابَ، فَيَحْسَبُهُ أنهُ ماءٌ. فإذا جاءَهُ وَجَدَهُ سَراباً، لم يَجِدْهُ ما حَسِبَهُ. إلى هذا تَمامُ المَثَلِ.

ثم ابْتَدَأَ، فقالَ: /٣٧٠ ـ ب/ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي وَجَدَ اللهَ يُوَفِّيهِ حِسابَ عَمَلِهِ وجزاءَهُ، أو يقولُ: قَدِمَ على عَمَلِهِ يومَ القِيامةِ، لم يَجِدْ عَمَلَهُ الذي عَمِلَ في الدنيا شيئاً إلا كما وَجَدَ هذا العطشانُ هذا السَّرابَ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ يقولُ: قَدِمَ على اللهِ، فَوَفّاهُ حِسابَهُ أي عَمَلَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا المَثَلُ ضُرِبَ لِلْكُفّارِ؛ وذلكَ أنهمْ يُبْعَثونَ يومَ القِيامةِ، وقد تَقَطَّعَتْ أعناقُهُمْ مِنَ العَطَشِ، فَيُرْفَعُ لهمْ سَرابٌ بِقِيعَةٍ مِنَ الأرضِ، فإذا نَظَروا إليهِ حَسِبوهُ ماءً، فَأَمُّوهُ لِيَشْرَبوا منهُ، فلم يَجِدوا شيئاً، ويُؤْخَذونَ ثَمَّةَ، فَيُحاسَبونَ. وكذلكَ أعمالُهُمْ تَضْمَحِلُّ يومَ القيامةِ، فلا يُصيبونَ منها.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ هذا مَثَلٌ آخَرُ ضَرَبَ اللهُ لأحوالِ الكافِرِ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ جَسَدُهُ شَبَّهَهُ بِظُلُماتٍ؛ وذلكَ أنَّ البَحْرَ إذا كانَ عميقاً كانَ أشَدَّ ظُلْمَةً[3]، فقالَ: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ والبَحْرُ اللُّجِّيُّ قَلْبُ الكافرِ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ فوقَ الماءِ ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهي[4] ظُلْمَةُ المَوجِ وظُلْمَةُ الليلِ، وظُلْمةُ السحابِ هذهِ ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فكذلكَ الكافرُ: قلبُهُ مُظْلِمٌ: في صَدْرٍ مُظْلِمٍ في جَسَدٍ مُظْلِمٍ؛ لا [يُبْصِرُ نورَ الإيمانِ][5] كما أنَّ صاحبَ البَحْرِ ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ في تلكَ الظُّلْمَةِ ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي لم يَرَها البَتَّةَ.

أو يكونُ ضَرَبَ المَثَلَ: ظُلُماتٌ[6] ثلاثٌ بِظُلُماتِ أحوالٍ، لا تزالُ تزدادُ ظُلْمَةً: كُفْرُهُ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حالٍ بِعَمَلِهِ[7] الذي يَعْمَلُهُ كالظُّلُماتِ التي ذَكَرَ.

فكانَ كَضَرْبِ المَثَلِ الذي سَبَقَ لأنوارِ أحوالِ المؤمِنِ حينَ[8] قالَ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] والنورُ جَسَدُهُ وصَدْرُهُ وقَلْبُهُ.

ثم قولُهُ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ ليسَ هو حَرْفَ شَكٍّ، ولكنهُ كأنهُ قالَ: إنْ ضَرَبْتَ مَثَلَ عَمَلِهِ بالسَّرابِ فَمُسْتقيمٌ، وإنْ ضَرَبْتَهُ بالظُّلُماتِ التي ذَكَرْتُها[9] فَمُسْتقيمٌ. بأيِّهِما ضَرَبْتَ فَمُسْتقيمٌ وصحيحٌ، لا أنه ذا، أو ذا.

ثم ذَكَرَ في أعمالِ الكَفَرَةِ مَثَلَيْنِ: أحَدُهُما: السَّرابُ، والثاني: الظُّلُماتُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ في المؤمِنِ، أيضاً مَثَلانِ[10]: الظُّلْمَةُ التي ذَكَرَ [في الكافِرِ تُقابِلُ النورَ الذي ذَكَرَ][11] في المؤمِنِ، والسَّرابُ الذي ذَكَرَ [لأعمالِ الكافرينَ يُقابِلُ][12] ما ذَكَرَ مِنْ أعمالِ المؤمِنينَ حينَ[13] قالَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨] وقالَ[14]: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ إيماناً ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مِنْ إيمانٍ. وقيلَ: هُدىً فما لهُ مِنْ هُدىً، وهما واحدٌ.

والآيةُ على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: لم يَجْعَلِ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ النورِ إلا وقد جَعَلَ مِثْلَهُ للكافرِ، وفي الآيةِ إخبارٌ أنهُ لم يَجْعَلْ للكافِرِ النورَ؛ إذْ لو كانَ جَعَلَ [للكافِرِ كما جَعَلَ][15] لِلْمُؤْمِنِ لم يَكُنْ لقولِهِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مَعْنىً. دَلَّ أنهُ لم يَجْعَلْ للكافِرِ النورَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ يقولُ: فَجازاهُ بِعَمَلِهِ، فلم يَظْلِمْهُ، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ.

---

(١) في الأصل وم: شفاعتهم. (٢) في الأصل وم: فصار. (٣) في الأصل وم: لظلمته. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: يبصرون الإيمان. (٦) في الأصل وم: بظلمات. (٧) في الأصل وم: يعلمه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: مثلين. (١١) في م: مقابل النور الذي ذكر، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لأعمالهم مقابل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: وقوله. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

قالَ القُتَبِيُّ: السَّرابُ ما رأيتَهُ مِنَ الشمسِ كالماءِ نِصْفَ النهارِ، والآلُ ما رأيتَهُ في أوَّلِ النهارِ وآخِرِهِ، [وهو][1] الذي يَرْفَعُ كلَّ شيءٍ، والقِيعَةُ القاعُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: السَّرابُ الذي يُثيرُهُ الحَرُّ، فتَراهُ كأنهُ ماءٌ يَجْري، وهو يكونُ نِصْفَ النهارِ إلى السماءِ والآلُ في أوَّلِ النهارِ إلى قريبٍ مِنْ نِصْفِ النهارِ، والقِيعَةُ القاعُ، وهي الأرضُ اليابسةُ التي يَسْتَنْقِعُ فيها الماءُ، وقاعٌ واحدٌ، وقيعانٌ جَمْعٌ، والظَّمْآنُ العَطْشانُ، وقومٌ ظِماءٌ، وامرأةٌ ظَمْأى، ونِسْوةٌ ظِماءٌ وأظماءٌ، وأظمأتُهُ أعطشْتُهُ، وظَمَّأْتُهُ أيضاً ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ كثيرِ الماءِ، واللُّجَّةُ وسطُ البَحْرِ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ أي يَصيرُ فوقَهُ. قالَ: المَوجُ طرائقُ في الماءِ، تكونُ إذا هَبَّتِ الريحُ.

وقالَ الكِسائيُّ: الظَّمْآنُ والصَّدْيانُ والعَطْشانُ واحدٌ، والسَّرابُ قَبْلَ الزَّوالِ، والآلُ قَبْلَ الزَّوالِ، وهو أرفَعُ مِنَ السَّرابِ، والرَّواقُ [بالكَسْرِ والضَّمِّ][2] بَعْدَ العَصْرِ.

وقالَ بعضُهُم في قولِهِ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ يقولُ: لم يُقارِبْهُ البَصَرُ كقولِهِ: الرجلُ، لم يُصِبْ، ولم يُقارِبْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألمْ تعلَمْ ونَحْوُهُ حَرْفُ تَعجيبٍ واستِفْهامٍ. يقولُ الرجلُ لآخَرَ: ألَمْ تَرَ كذا؟ و: ألَمْ تَعْلَمْ كذا؟ على التَّعجيبِ أو على الاستِفْهامِ. لكنهُ يُخرَّجُ مِنَ اللهِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قد رَأيتَ، وعَلِمْتَ؛ إذِ الاستِفْهامُ لا يَجوزُ عنهُ.

والثاني: على الأمْرِ: أي اعْلَمْ، وَرَ[3] على ما ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن﴾ ذَكَرَ وجهَينِ:

أحَدُهما: يُسَبِّحُ خَلْقَهُ وصُنْعَهُ؛ إذْ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ دَلالةُ وَحْدانيَّتِهِ وتَعاليهِ عنِ الأشباهِ وتنزيهِهِ، والشهادةُ لهُ بالرُّبوبيَّةِ والتَّفرُّدِ بالألوهيَّةِ لهُ.

والثاني[4]: يَجْعَلُ اللهُ تعالى في هذهِ الخلائقِ مِنَ الطيورِ والدَّوابِّ وغيرِها مَعْنًى؛ يُسَبِّحونَ لهُ بذلكَ، يَفْهَمونَ هُمْ ذلكَ مِنْ أنفسِهِمْ، ويَعرِفونَ أنهُ تَسْبيحٌ، وإنْ لم يَفْهَمْ غيرُهُمْ مِنَ الخَلائقِ، نَحْوَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسْبيحِ الجبالِ والطَّيرِ في قصةِ سُلَيمانَ في قولِهِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وقولِهِ[5] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ و ١٩].

ولو كانَ التَّسْبيحُ مِمَّنْ ذَكَرَ تَسْبيحَ خِلْقَةٍ لَكانَ سُليمانُ وغَيرُهُ مِنَ الناسِ في ذلكَ شَرْعاً سَواءً، والعَشِيُّ وغيرُهُ مِنَ الأوقاتِ سَواءً.

فَدَلَّ تَخصيصُ سليمانَ في ذلكَ وتخصيصُ الأوقاتِ مِنْ بَينِ غَيرِها[6] على أنَّ تَسْبيحَ هذهِ الأشياءِ ليسَ تسبيحَ خِلْقَةٍ، ولكنهُ تَسْبيحُ عِبادةٍ بالمَعْنَى الذي جَعَلَهُ لهُ فيهِ، وإنْ لم يَفْهَمْ غيرُهُ[7] مِنَ الخَلائقِ تَسْبيحَها[8].

الا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عنِ النملةِ حين[9] قالَ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ الآية [النمل: ١٨].

ثم مَعْلومٌ أنهُ لم تكنْ حقيقةُ قولِهِ كقولِ المُمَيِّزِ والمُمْتَحَنِ، ولكنهُ مَعْنًى فَهِموهُ منها ذلكَ [الفَهْمَ][10] فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

الا تَرَى أنهُ أخبَرَ عنْ نُطْقِ الجَوارحِ وشهادَتِها عليه يومئذٍ حينَ[11] قالَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] [وقالَ: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾؟ [فصلت: ٢٠]][12] فَفَهِمَ هؤلاءِ مِنْ شهادةِ الجَوارحِ عليهِمْ ما لَمْ يَفْهَمْ غيرُهُمْ[13] حتى أنكروا عليها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وازأ. (٤) من م، في الأصل: والشهادة. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: غيرهم. (٧) من م، في الأصل: غير. (٨) في الأصل وم: تسبيحهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: غيرها.

دلَّ ذلكَ أنهُ ما ذَكَرْنا. وذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ لِمَعْنىً فيهِمْ فَهِمُوا هم، ولا يَفْهَمُ غيرُهُمْ.

ألا ترَى أنَّ اللهَ جَعَلَ في سِرِّيَّةِ الماءِ مَعْنىً يَحْيا بهِ كلُّ شيءٍ، إذا أصابَهُ، وَوَصَلَ إليه؟ وذلك المَعنى لا يَعْلَمُهُ إلّا اللهُ أو مَنْ أطْلَعَهُ اللهُ عليهِ، وارْتَضاهُ لِنَفْسِهِ رسولاً.

فَعَلَى ذلكَ تَسْبيحُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ والطَّيْرِ. وغَيْرُهُمْ[١] جَعَلَ في سِرِّيَّتِهِمْ مَعْنىً، يَعْرِفونَهُ[٢] هُمْ مِنْ أنفسِهِمْ ذلكَ تَسْبيحاً لهُ وتَنْزيهاً، وإنْ لم يَفْهَمْ غَيْرُهُمْ[٣]، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حَرْفُ ﴿مَن﴾ إنما يُعَبَّرُ بهِ عنِ المُمَيِّزِ[٤]، وحَرْفُ: ما يُعَبَّرُ بهِ [عنِ غيرِ][٥] المُمَيِّزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلُّ مَنْ فيها، قد عَلِمَ صلاتَهُ وتَسْبيحَهُ مِنَ الملائكةِ وغيرِهِمْ[٦] بِلُغَتِهِ ولِسانِهِ غَيرَ كُفّارِ الإنْسِ والجِنِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ كُلاً منهمْ يَعْرِفُ، ويَفْهَمُ أنهُ يُسَبِّحُ لهُ، وإنْ لم يَفْهَمْ غَيْرُهُ؛ كأنهُ يَذْكُرُ سلطانَهُ ومُلْكَهُ وغِناهُ عن عبادةِ هؤلاءِ [وتَسْبيحِهِمْ، وأنَّ][٧] مَنْ يُسَبِّحُ لهُ كلُّ شيءٍ في السمواتِ والأرضِ، وتَرْكَ[٨] عِبادةِ هؤلاءِ لهُ وعبادَتَهُ بِمَحَلٍّ واحدٍ، لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ.

أو أنْ يقولَ: مَنْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ، لا تَقَعُ لهُ/ ٣٧١ ـ أ/ الحاجةُ إلى عِبادةِ أحدٍ ولا طاعةِ [أحدٍ][٩]، وإنما الحاجةُ والمَنْفَعَةُ في الطاعةِ والعِبادةِ لهمْ دونَ اللهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٤٢] على [إثْرِ][١٠] ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا على الأوَّلِ، أي عليمٌ بما يَفْعَلُ مَنْ ذَكَرَ مِنَ التَّسْبيحِ وغيرِهِ، أو أنْ يكونَ على ابْتِداءِ وَعيدٍ لِلْخَلْقِ، أي عليمٌ بِجَميعِ ما يَفْعَلونَ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ قد ذُكِرَ في غَيرِ موضعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي قد صَفَّتْ أجْنِحَتَها في الطَّيَرانِ. كذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ، أي صَفَّتْ أجْنِحَتَها في الهواءِ، فلا تُحَرِّكُها.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ قيلَ: يَسوقُ سَحاباً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي [يَضُمُّ][١١] بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ قالَ: [بعضُهُمْ][١٢]: فيها تَقْديمٌ وتَأخيرٌ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي قِطَعاً يُحْمَلُ [بعضُهُ][١٣] على إثْرِ بَعْضٍ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يَضُمُّ السَّحابَ بَعْضَهُ أي[١٤] الرُّكامَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يُزْجِي﴾ أي يُخْرِجُهُ مِنَ الأرضِ، فَيُسَخِّرُهُ بَيْنَ السماءِ والأرضِ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وقيلَ: خِلَلِهِ[١٥]، أي مِنْ خِلالِ السَّحابِ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جبالٌ مِنْ ثَلْجٍ: يُنَزِّلُ اللهُ تعالى [مِنَ السَّحابِ] الثَّلْجَ والبَرَدَ. وقالَ بعضُهُمْ: جبالٌ خَلَقَها اللهُ تعالى مِنْ بَرَدٍ [في][١٦] السماءِ، ثم يُنَزِّلُ.

وليسَ في الآيةِ بيانُ الجبالِ التي ذَكَرَ أنها[١٧] مِنَ السماءِ أنها مِنْ ثَلْجٍ أو بَرَدٍ سِوَى أنها مِنْ ثَلْجٍ أو بَرَدٍ سِوَى أنهُ خَبَرٌ أنَّ فيها بَرَداً.

---

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) في الأصل وم: يعرفون. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل وم: التمييز. (٥) في م: عن، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وغيره. (٧) في الأصل وم: والتسبيح أن. (٨) في الأصل وم: فترك. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: بعد. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٦٢. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: أنه.

فالأشياءُ تُشبَّهُ بالجبالِ، وتُنسَبُ إليها إمّا لِلْكثرَةِ [أوّلاً][1] وإمّا لِلشدَّةِ والغِلَظِ والعِظَمِ ثانياً كقولِهِ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ الآية [النمل: ٨٨].

فجائزٌ أنْ تكونَ الجبالُ المذكورةُ في هذهِ الآيةِ هي الجبالَ التي أخبرَ أنهُ يُنَزِّلُ منها، إذْ لا يُدْرَى أينَ هي؟ أفي[2] السماءِ أم[3] في ما بَينَ السماءِ والأرضِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ في نَفْسِهِ أو زَرْعِهِ أو ثَمرِهِ، فَيَضُرُّهُ ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فلا يُصيبُهُ. فإنْ كانَ على هذا فهو يُخَرَّجُ على التَّعْذيبِ. وكذلكَ عَمَلُ البَرَدِ يُفْسِدُ في مكانٍ، ويَترُكُ مكاناً، لا يَعُمُّ، ولكنْ يُصيبُ مَكاناً، ويُخطِئُ مَكاناً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ بَرَكَتِهِ ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ مِنْ بَرَكَتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][4] ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ قيلَ: ضَوْءُ بَرْقِهِ، يكادُ ضوءُ البرقِ يَذْهَبُ بالأبصارِ مِنْ شِدَّةِ نورِهِ.

الآية ٤٤ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تَقليبُهُ الليلَ والنهارَ اختِلافُهُما: يأتي بهذا، ويَذْهَبُ بالآخرِ. يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلمُ، صِلَةً لقولِهِ[6]: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٤٢] يُخبِرُ عنْ سُلْطانِهِ وقُدْرَتِهِ وتدبيرِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وَوَحْدانيَّتِهِ.

أمّا سُلْطانُهُ وقُدْرَتُهُ فما[7] ذَكَرَ مِنْ سَوقِ السَّحابِ بَيْنَ السماءِ والأرضِ، وتَسْخيرِهِ، وضَمِّ بَعْضِهِ إلى بَعْضٍ. دَلَّ ذلكَ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ودَلَّ نُزولُ المطرِ وإصابَتُهُ في مَكانٍ دونَ [مَكانٍ][8] وتَخَطّيهِ مَوضِعاً دونَ مَوضعٍ معَ اتِّصالِ السَّحابِ وانْضِمامِ بَعْضِهِ إلى بعضٍ على السَّواءِ أنهُ على التَّدبيرِ والعِلْمِ، كانَ ذلكَ لا بِطباعِ السَّحابِ أو على جُزافٍ.

ودَلَّ جَرَيانُ الأمرِ واتِّساقُ التَّدبيرِ في ما ذَكَرْنا، وفي اخْتِلافِ الليلِ والنهارِ، وتَقْليبِها مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنَ النُّقصانِ إلى الزِّيادةِ [ومِنَ الزِّيادةِ][9] إلى النُّقْصانِ، واتِّصالِ مَنافِعِ الأرضِ [بالسماءِ][10] على بُعْدِ ما بينَهما، أنهُ تَدبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ؛ إذ لو كانَ تدبيرَ عَدَدٍ لَمَنَعَ بَعْضٌ بَعْضاً عمّا يُريدُ مِنَ التَّدبيرِ والنَّفْعِ.

دَلَّ ذلكَ كُلُّهُ على أنهُ واحدٌ عليمٌ قادرٌ مُدَبِّرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لِما ذَكَرْنا ما فيهِ مِنْ وجوهِ الاسْتِدْلالِ والاعْتِبارِ.

قالَ القُتَبيُّ وأبو عوسَجةَ: ﴿يُزْجِى﴾ أي يَسوقُ ﴿رُكَامًا﴾ بَعْضَهُ فوقَ بَعْضٍ ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي المَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وخِلَلِهِ ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ ضَوءُ بَرْقِهِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: [الرُّكامُ والرُّكْمُ الكثيرُ][11] المُتراكِمُ الذي بَعْضُهُ فَوقَ بَعْضٍ، يُقالُ: ارْتَكَمَ الشيءُ، أي صارَ بَعْضُهُ فوقَ بَعْضٍ، ويُقالُ: رَكَمْتُ المَتاعَ أرْكُمُهُ كما إذا جَعَلْتُ بَعْضَهُ فوقَ بَعْضٍ، والوَدْقُ المَطَرُ، يُقالُ: وَدَقَتِ السَّماءُ تَدِقُ وَدْقاً أي أمْطَرَتْ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي مِنْ بَيْنِهِ، وواحدُ الخِلالِ خَلَلٌ ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ السَّنَى مقصورٌ [وممدودٌ هو][12] الضَّوءُ. يُقالُ: السَّنَى النارُ، وهو واحدٌ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ][13] واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيات[14] [النور: ٤٢ و٤٣ و٤٤] ذَكَرَ السحابَ وما فيهِ مِنَ التدبيرِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ، وذَكَرَ أيضاً تَقْليبَهُ الليلَ والنهارَ وما فيهما مِنَ التَّدْبيرِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ والقُدْرَةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قوله. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: والركام والكثير. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) في الأصل وم: هو. (١٤) في الأصل وم: الآية.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ يَذْكُرُ قُدرَتَهُ وسُلْطانَهُ وعلْمَهُ وتَدْبيرَهُ. أخبَرَ أنهُ خَلَقَ الخَلائِقَ كلَّهُمْ مِنْ هذا الماءِ على اختِلافِ أجناسِهِمْ وجَواهِرِهِمْ، مِنْ شيءٍ واحِدٍ، أنهمْ لم يكونوا بالطِّباعِ كذلكَ، ولكنْ بتَدْبيرِ واحِدٍ عالمٍ بذاتِهِ، لا بِعِلْمٍ وتَدْبيرٍ مُسْتَفادٍ، ولكنْ بِعِلْمٍ[1] ذاتِيٍّ؛ إذْ لو كانوا بالطِّباعِ لَخَرجوا على تقديرٍ واحِدٍ وصِفَةٍ واحدةٍ.

والثاني: أنهُ لا أحَدَ مِنْ حُكَماءِ البَشَرِ يُدْرِكُ كَيفِيَّةَ إنشاءِ هذا العالمِ وخَلْقِ هذهِ الخَلائقِ مِنْ هذِهِ المِياهِ. فإنهُ خَلَقَ ذلكَ، وليسَ في تلكَ المِياهِ مَعْنىً، ولا شَيءَ مِنْ جواهِرِ الخَلائِقِ.

دلَّ إنشاؤهُ إياهُمْ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ لِخَلْقٍ بِسَبَبٍ وبِغَيرِ سَبَبٍ، وأنهُ خَلَقَ الخَلائِقَ بِحِكْمَةٍ ذاتِيَّةٍ؛ إذْ لم تُدرِكْ ذلكَ حِكْمَةُ[2] البَشَرِ.

ودَلَّ خَلْقُ هذهِ الخَلائِقِ على هذهِ المَعاني والأسبابِ أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ عَبَثاً لِيَتْرُكَهُمْ سُدىً، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ. فإذا ثَبَتَ الأمرُ والنَّهيُ ثَبَتَ الإحياءُ مِنْ بَعْدِ المَماتِ لِلْجزاءِ.

ودَلَّتْ قُدرَتُهُ على خَلْقِ هذهِ الخَلائقِ مِنَ الماءِ أنهُ قادرٌ على الإحياءِ، وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا قادرٌ على ما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، لأحدِ وجهَينِ:

[أحدُهما: تَذْكيرُهُ إياهُمْ][3] نِعَمَهُ ومِنَنَهُ وفَضْلَهُ الذي أعطاهُمْ وإحسانَهُ الذي أحْسَنَ إليهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنهُ خَلَقَ هذا العالَمَ مُعْتَدِلاً سَوِيًّا مِنْ غَيرِ أنْ كانَ مِنْهُمُ اختيارٌ لذلكَ، أو [كانوا][4] يَسْتَوجِبونَ ذلكَ قِبَلَهُ، وخَلَقَ غَيرَهُمْ مِنَ الدَّوابِّ مُنْكَبِّينَ على وجوهِهِمْ وماشِينَ على بطونِهِمْ. وذلكَ فَضْلٌ منهُ ونعمَةٌ.

[والثاني: ذِكْرُ مِثالٍ لِحالِ][5] الكَفَرَةِ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ الآية [الملك: ٢٢] أخبَرَ أنَّ الكَفَرَةَ يكونونَ مُنْكَبِّينَ على وجوهِهِمْ، وأهلَ الإسلامِ يَمْشونَ مُنْتَصِبِينَ مُسْتَوِينَ.

[وقولُهُ تعالى:][6] ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بِسَبَبٍ وبِغَيرِ سَبَبٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنهُ قادرٌ بذاتِهِ لا بِقُدْرَةٍ مُسْتَفادَةٍ مِنْ غَيرِهِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ الآية: قد ذَكَرْنا.

الآيتان ٤٧ و٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ابنُ عباسٍ وغَيرُهُ: إنهُ قد وقَعَتْ بَينَ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ وبَيْنَ عُثمانَ [بْنِ عَفّانَ][7] رضي الله عنهما خُصومَةٌ في الأرضِ [التي][8] اشْتَراها عُثْمانُ مِنْ عَلِيٍّ، فاخْتَصما إلى رسولِ اللهِ ﷺ في تلكَ [الأرضِ][9] فَقَضى لِعَلِيٍّ على عُثْمانَ، والزَمَهُ الأرضَ. فقالَ قومُ عُثْمانَ: إنهُ ابنُ عمِّهِ، وأكْرَمُ عليهِ، فَقَضى [لهُ عليكَ][10] أو نَحْوَ /٣٧١ ـ ب/ هذا مِنَ الكلامِ. فَنَزَلَ في قومِ عُثْمانَ ذلكَ إلى آخِرِ ما ذَكَروا[11].

لكنَّ هذا بَعيدٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عُثْمانُ وقومُهُ يَخْطُرُ ببالِهِمْ [ما ذُكِرَ في رسولِ اللهِ][12].

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في بِشْرٍ المُنافِقِ؛ وذلكَ أنَّ رجلاً مِنَ اليهودِ كانَ بَينَهُ وبَينَ بِشْرٍ خصومَةٌ، وأنَّ اليَهوديَّ دعا بِشْراً إلى رسولِ اللهِ ﷺ ودعاهُ بِشْرٌ إلى كَعْبِ ابْنِ الأشْرَفِ، فقالَ: إنَّ محمداً يَحيفُ علينا، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ. فَنَزَلَ هذا.

---

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: حكماء. (٣) في الأصل وم: أما تذكيرا أياه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو ذكر مثالاً بحال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليك له. (١١) في الأصل وم: ذكر. (١٢) في الأصل وم: في رسول الله ما ذكر.

لكنا لا نَعْلَمُ أنهُ في مَنْ نَزَلَ[1] سِوَى أنَّ فيهِ بَياناً [أنهُ إنما نَزَلَ][2] في المُنافقينَ وفي ظاهِرِ الآيةِ دلالةٌ أنهمْ عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَقْضي إلّا بالحَقِّ.

الآية ٤٩ ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مُسْرِعينَ مُطيعينَ، ولو كانَ عندَهُمْ أنهُ يَقْضي بالجَورِ لَكانوا لا يَأتونَهُ لِلْقَضاءِ، وإنْ كانَ الحَقُّ لهمْ مَخافَةَ الجَورِ والظُّلْمِ عليهِمْ؟ لكنَّ ما ذَكَرَ في سِياقِ هذا يَمْنَعُ هذا التأويلَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ في هذا مِنَ الدلالةِ أنَّ عندَهُم أنهُ لا يَقْضي بالحَقِّ لهمْ، وأنهُ يَجوزُ حينَ[3] قالَ: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فَمَنْ كانَ على هذا الوصْفِ فهو يَخافُ جَورَهُ وحَيفَهُ إلّا أنْ يَجْعَلَ الآيةَ في فِرَقٍ [مِنَ][4] المُنافِقينَ: فِرْقَةٌ منهمْ عَرَفُوا أنهُ لا يَقْضي إلّا بالحَقِّ، وفِرْقَةٌ منهمْ كانَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ، وفِرْقَةٌ [منهمْ][5] ارْتابوا، وفِرْقَةٌ [منهمْ][6] خافوا جَورَهُ. فهم كانوا فِرَقاً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٥] ومنهُمْ مَنْ قالَ كذا، ومنهُم [مَنْ][7] قالَ كذا؟

أو يكونُ تأويلُ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي وإنْ يكُنْ لهمُ القَضاءُ بالحَقِّ أتَوهُ مذعِنينَ أي إذا عَرَفوا أنهُ يُقْضَى لهمْ، لا محالةَ، أتَوهُ. وإلّا لا يأتونَهُ.

فإنْ كانَ على هذا فما ذَكَرَ على سِياقِهِ مِنَ المَرَضِ والارْتِيابِ والخَوفِ مِنَ الحَيفِ فَمُسْتَقيمٌ على هذينِ الوجهَينِ يَحْتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ. وأمّا على غَيرِ ذلكَ فإنا لا نَعْلَمُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ[8] مِنَ ارتابَ، أو شَكَّ في رسالَتِهِ، أو خافَ جَورَهُ وحَيفَهُ فهو كافرٌ ليسَ بمؤمنٍ.

وقولُهُ[9] تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ حَرْفَ[10] شَكٍّ:

أحَدُهُما: على الإيجابِ والتَّحقيقِ، أي في قلوبِهِمْ مَرَضٌ، وارْتابوا، وخافوا[11]، على ما ذَكَرْنا في حَرْفِ الاسْتِفْهامِ أنهُ في الظاهِرِ، وإنْ كانَ اسْتِفْهاماً، فهو في التَّحقيقِ عِلْمٌ وإيجابٌ، أي عَلِمْتَ، ورأيتَ، ونَحْوَهُ، لِما لا يَجوزُ الاسْتِفْهامُ منهُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنهُ في فِرَقٍ: فِرْقَةٌ [منهُمْ][12] عَرَفَتْ أنهُ لا يَقْضي إلّا بالحقِّ، وفِرْقَةٌ منهمُ ارْتابَتْ، وفِرْقَةٌ منهم خافَتْ جورَهُ وظُلْمَهُ.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ أي خاضِعينَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: مُسْرِعِينَ مُطيعينَ؛ يُقالُ: ناقَةٌ مِذْعانٌ أي سريعةٌ، ونوقٌ، والحَيفُ الجَورُ، حافَ يَحيفُ حَيفاً، فهو حائفٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قولُهُ: ﴿دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَحْتَمِلُ إضافةُ الدعاءِ إلى اللهِ وجهَينِ:

أحَدُهُما: دُعُوا إلى كتابِ اللهِ وإلى رسولِهِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

والثاني: إضافَتُهُ إلى اللهِ هي إضافَتُهُ إلى رسولِهِ كقولِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] جَعَلَ إطاعةَ الرسولِ إطاعةَ اللهِ تعالى.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يُرادَ بإضافةِ الدعاءِ إلى اللهِ الدعاءُ[13] إلى رسولِ اللهِ.

---

(١) في الأصل وم: تنزل. (٢) في الأصل وم: أنها إنما نزلت. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: كان. (٩) في الأصل وم: وفي قوله. (١٠) من م، في الأصل: خوف. (١١) من م، في الأصل: أو يخافوا. (١٢) ساقطة من الأصل: وم. (١٣) في الأصل وم: دعا به.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ لا يَحتَمِلُ أنْ يكونوا يَخافونَ حَيفَ اللهِ وجَورَهُ، لكن إنما يَخافونَ جَورَ رسولِهِ أو كتابِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا إضافةَ الدعاءِ إلى اللهِ ورسولِهِ في قصةِ المُنافِقينَ ونَعْتِهِمْ. فَعلى ذلك في نَعْتِ المؤمِنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَمِعْنَا﴾ أي سَمِعْنا الدعاءَ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الأمْرَ. ويَحْتَمِلُ ﴿سَمِعْنَا﴾ أجَبْنا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الأمْرَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ليسَ على حَقيقةِ القَولِ منهمْ والنُّطقِ بِهِ، ولكنْ إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى عمّا عليهِ، واعْتَقدوا بِهِ؛ إذْ كلُّ مؤمنٍ يَعْتَقِدُ في أصْلِ اعْتِقادِهِ طاعةَ اللهِ وطاعةَ رسولِهِ، فيكونُ كما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

هذا إخبارٌ عمّا أطْعموا هُمْ ليسَ أنهمْ قالوا باللسانِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ لكذا، ولكنْ إخبارٌ عمّا في قُلوبِهِمْ فَعلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المُفْلِحُ هو الذي يَظْفَرُ بِحاجَتِهِ [الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ][١] يُقالُ: فلانٌ أفْلَحَ أي ظَفِرَ بِحاجَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي يَخْشَ اللهَ على ما مَضَى مِنْ ذُنوبِهِ ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ في ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ، أو يَخْشَ اللهَ على ما يكونُ منهُ مِنَ التَّقْصيرِ والتَّفْريطِ، ويَتَّقِ ذلكَ وكلَّ مَعْصِيَةِ اللهِ ومُخالَفَتَهُ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ فأولئكَ هُمُ المؤمنونَ، وهما واحِدٌ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كلُّ يَمينٍ باللهِ فهو جَهْدُ اليَمينِ لأنهمْ مِنْ عادتِهِمْ أنهمْ[٢] كانوا لا يَحْلِفونَ باللهِ إلا في العَظيمِ مِنَ الأمرِ والخَطيرِ. فأمّا الأمْرُ الدّونُ فإنما يَحْلِفونَ بِغَيرِهِ. فيكونُ على هذا كلُّ يَمينٍ باللهِ فهو جَهْدُ اليَمينِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا حَلَفوا أيماناً[٣] غليظةً شديدةً على ما يُغَلِّظُ الناسُ في أيمانِهِمْ، ربّما سُمِّيَ ذلكَ جَهْدَ اليَمينِ. أو أنْ يكونَ جَهْدُ اليَمينِ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ قولُهُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ هو جَهْدُ أيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ قولُهُ ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[يَحْتَمِلُ][٤]: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ مِنْ أرضِهِمُ التي تخاصَموا إليهِ فيها، أي لَيَخْرُجُنَّ، ويُسَلِّمُنَّها إلى خَصْمِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ مِنْ جميعِ أملاكِهِمْ وما تَحويهِ أيديهِمْ تَعْظيماً لأمْرِك وإجلالاً [لكَ][٥] فكيف لا يَتَّبِعونَ قضاءَكَ، ويَنْقادونَ لِحُكْمِكَ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ مِنَ المدينةِ بِعِيالاتِهِمْ وجَميعِ حَواشيهِمْ إلى بلدةٍ أُخرَى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي أمَرْتَهُمْ أنْ يَخْرُجوا في الجِهادِ ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ لأنهمْ كانوا يَتَخَلَّفونَ.

ثم أمَرَ رسولَهُ أنْ يَنْهاهُمْ عنِ القَسَمِ الذي أقْسَموا [فقالَ][٦] ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾.

[وقولُهُ تعالى][٧] ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ فإنَّ اللهَ، لو بَلَغَ منكُمُ الجَهْدُ، لَنْ[٨] تَبْلُغوهُ. ثم قالَ ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ يقولُ: أطيعوهُ، وقولوا لهُ المَعْروفَ.

(١) في الأصل وم: دنيوية أو أخروية. (٢) من م، في الأصل: كأنهم. (٣) في الأصل وم: يمين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لم.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ تَمَّ الكلامُ، ثم قالَ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وفي الكلامِ حَذْفُ الإيجازِ، يُسْتَدَلُّ بِظاهِرِهِ عليهِ: كأنَّ القومَ، كانوا يُنافِقونَ، ويَحلِفونَ في الظاهِرِ/ ٣٧٢ ـ أ/ على ما يُضمِرونَ خِلافَهُ، فقيلَ لهمْ: لا تُقْسِموا؛ هي طاعةٌ مَعْروفةٌ صحيحةٌ، لا نِفاقَ فيها، ولا طاعةَ فيها نِفاقٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا تَحْلِفوا، ولَكِنْ هذهِ منكُم لِلنَّبِيِّ طاعةٌ مَعْروفةٌ حَسَنةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ تُعرَفُ أنها طاعةٌ بالقَولِ والعَمَلِ. لا تكونوا كاذبينَ فيها بالقَولِ دونَ العَمَلِ. وبَعْضُهُ قريبٌ من بعضٍ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تُقْسِموا.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ، لأنهمْ كانوا يُسِرّونَ، ويُضمِرونَ في ما بينَهُمُ التَّوَلِّيَ والإعراضَ عنْ حُكْمِهِ، ثم أخبَرَهُمْ بذلكَ، فَعَلِموا أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي تَوَلَّوا عن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ قالَ: فإنما على النَّبِيِّ ما أُمِرَ بِتَبْليغِ الرسالةِ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وأُمِرْتُم مِنَ الطاعةِ للهِ ورسولِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أداءُ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ مِنَ الفرائضِ ﴿وَعَلَيْكُم﴾ أداءُ ﴿مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وأُمِرْتُم مِنَ الفرائضِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي لا يُسأَلُ هو، ولا يُؤاخَذُ بما عليكُم، ولا تُسألونَ أنتمْ، ولا تُؤاخَذونَ أيضاً بما عليهِ؛ يُسأَلُ كلٌّ عمّا عليهِ كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ ولا شَكَّ؛ إنهمْ إنْ أطاعوهُ اهْتَدَوا ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ظاهرٌ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: «مَكَثَ رسولُ اللهِ بمكةَ سِنينَ مِنْ بَعْدِ ما أُوحِيَ إليهِ خائفاً هو وأصحابُهُ، يَدْعُونَ الناسَ إلى اللهِ سِرّاً وعَلانِيَةً، ثم أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينةِ، فكانوا بها خائفينَ؛ يُصبِحونَ في السِّلاحِ؟ فقالَ: رسولُ اللهِ ﷺ لَنْ تَلْبَثوا إلّا يسيراً حتى يَجْلِسَ الرجلُ منكُمْ في المَلإِ مُحْتَبِياً[2] ليسَ عليهِ[3] حَديدَةٌ» [السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ٢١٥] فأنْزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ على إثْرِ ما ذُكِرَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لمّا صَدَّ المُشركونَ رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابَهُ يومَ الحُدَيبِيَةِ وَعَدَ اللهُ المُسلِمينَ أنْ يُظهِرَهُمْ وأنْ يَفتَحَ لهمْ مكةَ، وقالوا[4]: وتَصديقُ ذلكَ ما ذُكِرَ في سورةِ الفتحِ، وهو قولُهُ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] [وقولُهُ][5] في آخِرِ ذلكَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ الآية [الفتح: ٢٨].

وَعَدَ رسولَهُ في القرآنِ أنهُ يَستَخلِفُهُمْ في الأرضِ، ويُنْزِلُهُمْ[6] فيها كما استَخلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَجَعَلَهُمْ خُلَفاءَ في الأرضِ.

[وقالَ قائلونَ][7]: كانَ وَعْدُهُ إيّاهُمْ في التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ أنهُ يَجْعَلُهُمْ خُلَفاءَ في الأرضِ كما فَعَلَ بالذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

ولكنْ كيفَما كانَ ذلكَ الوَعْدُ لهمْ في القرآنِ أو في الكُتُبِ المتقدِّمَةِ ففيهِ أمرانِ اثنانِ:

أحَدُهُما: البِشارةُ لِلْمُسْلِمينَ.

[والثاني][8]: الحُجَّةُ على الكافرينَ؛ لأنهُ وَعَدَ لهمُ الأمْنَ[9] في النَّصْرِ في وَقْتٍ، لا يَرْجونَ، ولا يَطْمَعونَ النجاةَ فَضْلاً أنْ يَطْمَعوا الاستِخْلافَ والتَّمَكُّنَ في الأرضِ وإظهارَ الدِّينِ الذي ارْتَضى لهمْ، وهو الإسلامُ على الأديانِ كلِّها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مختبئاً. (٣) في الأصل: عليهم، في م: فيهم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: حتى قال. (٦) في الأصل وم: وينزل. (٧) من م، في الأصل: وينزلون فيها. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: إلا.

فإذا كانَ مِثْلُ ذلكَ الوَعْدِ والبِشارَةِ، لا يُطْمَعُ، ولا يُرْجَى في مِثْلِ ذلكِ الوَقْتِ والخَوْفِ عُلِمَ أنهُ إنما بَشَّرَهُمْ بذلكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ وَوَعْدٍ منهُ، فكانَ ما وَعَدَ.

دَلَّ أنهُ باللهِ وَعَدَ ذلكَ، وبَشَّرَ. فذلكَ حُجَّةٌ على أولئكَ، وبِشارَةٌ لِلْمُؤمِنينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ليسَ بِشَرْطٍ لأنهُ لو كَفَرَ قَبْلَ ذلكَ أيضاً فهو فاسقٌ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ﴾ هذهِ النِّعَمِ التي أنْعَمَها عليهِمْ، ولم يَشْكُرْهُ عليها فهو كذا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ وليسَ لهُ جوابٌ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في ما أمَرَكُمْ بهِ، ونَهاكُمْ عنهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [أي تُرْحَمونَ][1] هو ظاهرٌ، قد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ[2] تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي فائِتِينَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ هَرَباً مِنْ عذابٍ، فلا يُدْرِكُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: سابِقينَ في الأرضِ هَرَباً أيضاً حتى لا يُجْزَوا[3] بِكُفْرِهِمْ، وهو واحدٌ ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قد ذَكَرْنا أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ أنهمْ لَيسوا بِفائتينَ ولا سابِقينَ عنهُ، لكنهُ ذَكَرَ لهُ هذا كما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] هما واحدٌ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ: أحَسِبَ الذينَ كَفَروا أنْ يُعْجِزوا[4] اللهَ في السمواتِ والأرضِ. إنهُ وإنِ اخْتَلَفَتِ الحروفُ فالمَعْنى واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: «ذُكِرَ أنَّ رَجُلاً وامْرَأتَهُ، تُسَمَّى أسماءُ بنتُ مَرْثَدٍ اتَّخذوا طعاماً لِلنَّبِيِّ، فَجَعَلَ الناسُ يَدْخُلونَ بِغَيرِ إذْنٍ، فقالَتْ أسماءُ: ما أقْبَحَ هذا يا رسولَ اللهِ: أنْ يُدْخَلَ على الرجلِ وامْرأتِهِ بِغَيرِ إذْنٍ، وهما في ثوبٍ واحدٍ، غُلامُهُما المَمْلوكُ: فأنْزَلَ اللهُ: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾» [السيوطي في الدر المنثور: ٦/٢١٧].

وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَ هذا في شأنِ عُمَرَ بنِ الخطابِ، وهو ما قالَ: وافَقْتُ ربي في ثلاثٍ: ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ [بَعَثَ][5] غلاماً مِنَ الأنصارِ، يُقالُ لهُ: مُدْلِجٌ، إلى عُمَرَ بنِ الخطابِ ظَهيرَةً لِيَدْعُوَهُ، فانطَلَقَ الغلامُ إليهِ لِيَدْعُوَهُ، فوجَدَهُ قايلاً، قد أغْلَقَ عليهِ البابَ، فقامَ مِنْ خَلْفُ، وحَرَّكَهُ، فلم يَسْتَيقِظْ، فقالَ الغلامُ: اللهمَّ أيْقِظْهُ[6] لي. قالَ: فَدَفَعَ البابَ، ثم ناداهُ، ودَخَلَ، فاسْتَيقَظَ عُمَرَ، فَجَلَسَ، فانْكَشَفَ منهُ شيءٌ، فَرَآهُ الغلامُ، وعَرَفَ عُمَرُ أنَّ الغُلامَ [قد رَأى ذلكَ منهُ، فقالَ عُمَرُ: وَدِدْتُ، واللهِ، أنَّ اللهَ نَهى][7] أبناءَنا ونساءَنا وخَدَمَنا أنْ يَدْخُلوا هذِهِ الساعاتِ علينا إلّا بإذْنٍ[8]، ثم انْطَلَقَ مَعَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَهُ قد نَزَلَتْ عليهِ هذه الآيةُ، وأمَرَ بالإستِئذانِ على دخولِهِمْ في هذه الساعاتِ. لكنْ لا حاجَةَ لنا[9] إلى أنْ نَتَعَرَّفَ أنها نَزَلَتْ في شأنِ فلانٍ أو فلانٍ أو في أمْرِ فلانٍ وسَبَبِهِ سِوَى أنْ نَتَعَرَّفَ المُودَعَ فيها وما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ الآدابِ والأحكامِ.

ثم خاطَبَ بالإستِئذانِ المُستأذَنَ عليهِ لا المُستأذِنَ والساداتِ والآباءَ ومَنْ لهُ الصِّغارُ حينَ[10] قالَ: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ وذلكَ الخِطابُ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الأمْرِ للآباءِ والساداتِ بِتَعليمِ أمورِ الدينِ والقِيامِ بِما يَحتاجونَ إليهِ والتأديبِ على ذلكَ، إنْ أبَتْ أنْفُسُهُمْ.

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: يجزون. (٤) في الأصل وم: يعجزه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: أيقظ. (٧) من م: ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بإذنه. (٩) في الأصل وم: لها. (١٠) في الأصل وم: حيث.

وكذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[1] قالَ: «مُرُوا صِبْيانَكُمْ بالصلاةِ إذا بَلَغوا سَبْعاً، واضْرِبوهُمْ إذا بَلَغوا عَشْراً، وفَرِّقوا بَيْنَهُمْ في المضاجِعِ» [أحمد: ٢/ ١٨٠] خاطَبَ بِهِ الآباءَ والأولياءَ أنْ يأمُروهُمْ بأمورِ الدينِ أمْرَ العبادةِ[2] والتَّعْليمِ لهمْ والتأديبِ إنِ امْتَنَعوا عنْ ذلكَ، ولم يُخاطِبْهُمْ في أنفسِهِمْ لِجَهْلِهِمْ وقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بأمْرِهِمْ.

وإذا بَلَغوا، وعَرَفوا الأمْرَ، فعندَ ذلكَ خاطَبَهُمْ بأنفسِهِمْ بالاِسْتِئْذانِ حينَ[3] قالَ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ/ ٣٧٢ ـ ب/ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩] خاطَبَهُمْ إذا بَلَغوا [الحُلُمَ][4] وأمَرَهُمْ بالاِسْتِئْذانِ في أنفسِهِمْ. وما داموا صغاراً خاطبَ بِهِ الآباءَ والأولياءَ لِما لا يَجْري عليهِمُ القَلَمُ.

وليسَ الخِطابُ والأمْرُ والنَّهْيُ إلّا لِجَرْيَةِ القَلَمِ عليهِمْ، وتَرْكُ الأمرِ والخِطابِ لِدَفْعِ القَلَمِ عنهمْ.

وأمّا أمْرُ الآباءِ لهمْ بذلكَ فَيَخْرُجُ مُخْرَجَ الشَّفَقَةِ لهمْ عليهِمْ والقيامِ لِبَعْضِ مَصالِحِهِمْ. وذلكَ جائزٌ.

ثم اخْتُلِفَ في ما مَلَكَتْ أيمانُنا. قالَ جماعةٌ [مِنْ أهلِ التأويلِ][5]: هُنَّ النساءُ دونَ الرجالِ. وأمّا الرجالُ فإنهمْ يَسْتأذِنونَ في جميعِ الأوقاتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ النساءُ والرجالُ جميعاً، والنَّهْيُ عنِ الدخولِ في هذهِ الأوقاتِ الثلاثِ؛ إذْ هذهِ أوقاتُ غِرَّةٍ وساعاتُ غَفَلٍ لِلذُّكورِ والإناثِ جميعاً.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: الكِبارُ منهمْ دونَ الصِّغارِ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ في الصِّغارِ منهمْ لأنَّ الكِبارَ منهُمْ والأحرارَ سَواءٌ في خَطَرِ النَّظَرِ إلى العَوْرَةِ وإباحتِهِ.

ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؟ وهمُ الأحرارُ والصِّغارُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الصِّغارُ منهمْ. أمَرَ الساداتِ بتعليمِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأمورِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ أي لم يَحْتَلِموا[6] ويَحْتَمِلُ: ﴿لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ أي لم يَبْلُغوا مَبْلَغَ الحُلُمِ بَعْدَ ما جَعَلَهُمْ في مَراتِبَ ثلاثٍ؛ أعني الصِّغارَ:

في حالٍ لا يُؤْمَرونَ، ولا يُنْهَوْنَ، وهي الحالُ التي لا يُمَيِّزونَ بينَ العَوْرَةِ وبينَ غيرِ العَوْرَةِ، وهي[7] ما قالَ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] أي لا يَعْرِفونَ العَوْرَةَ مِنْ غَيرِ العَوْرَةِ.

وحالٍ يَعْرِفونَ ذلكَ إلّا أنهُ لا تَقَعُ لهمُ الحاجةُ إليها، فَيُؤْمَرونَ بالسَّتْرِ عنهُمْ.

وحالٍ تَقَعُ [لهمُ][8] الحاجةُ إليها وقضاءُ الوَطَرِ، فَيُؤْمَرونَ بالحجابِ والتَّفريقِ في المضاجِعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ثلاثُ أوقاتٍ: عَوراتٌ لكُمْ وساعاتُها.

[والثاني][9]: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ أي ثلاثُ حالاتٍ: تَظْهَرُ فيها العَوْرَةُ كقولِهِ ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] أي ليسَتْ[10] ممّا يَمْنَعُ السارقَ[11] عنِ السَّرِقَةِ فيها.

وفيهِ أنَّ العَمَلَ بالاِجْتِهادِ في الأغلَبِ والأكثرِ[12] مِنَ الرَّأْيِ، والأمْرَ ليسَ [في الحقيقةِ جائزاً، لأنهُ][13] قد سَمّى ثلاثَ عَوراتٍ في الأمْرِ، ونَهى عنِ الدخولِ بلا اسْتِئْذانٍ، وإنْ كانَ يَجوزُ أنْ تكونَ العَوْرَةُ مَسْتورةً، وأباحَ في غَيرِها مِنَ الأوقاتِ الدخولَ بلا اسْتِئْذانٍ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: عادة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل: يحتمل. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويحتمل. (١٠) في الأصل وم: ليس.
(١١) في الأصل وم: السرق. (١٢) في الأصل وم: والأكبر. (١٣) في الأصل: في الحقيقة جائز لأمر، في م: على الحقيقة جائز لأنه.

ويَجوزُ أنْ يكونَ هنالكَ كَشفُ العَورةِ حينَ[1] قالَ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ أي بَعْدَ ثلاثِ ساعاتِ [هم][2] ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ لكنهُ أباحَ وحَظرَ بالأغلَبِ والأكثَرِ[3] لا على الحقيقةِ وهكذا العَمَلُ بالِاجتِهادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي يَخدِمونكُمْ بعدَ هذهِ ثلاثِ الساعاتِ، وفي الثلاثِ لا.

قالَ القُتَيْبي: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ العبيدُ والإماءُ ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ يريدُ هذهِ الأوقاتَ لأنها أوقاتُ التَّجرُّدِ وظُهورِ العَورةِ: أمّا قَبْلَ صلاةِ الفَجرِ فَلِلخُروجِ مِنَ الثيابِ للنَّومِ ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ أي بَعْدَ هذهِ الأوقاتِ. ثم قالَ: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ يريدُ أنهمْ خَدَمُكُمْ، فلا بأسَ بأنْ يَدخُلوا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] أي يَطوفُ عليهِمْ في الخِدْمةِ.

وقالَ أبو عَوسَجةَ: ﴿ٱلظَّهِيرَةِ﴾ نِصفُ النهارِ، وظهايرُ جمعٌ، وأظهَرْتُ أي دخلتُ في الظَّهيرةِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ فقد ذَكَرْنا أنهُ خاطَبَ بهِ الأولياءَ في تَعليمِ الآدابِ وأمورِ الدِّينِ الصِّغارَ، ولم يُخاطِبْهُمْ هو حينَ[4] قالَ: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ وإذا بَلَغوا خاطَبَهُمْ بأنفُسِهِمْ حينَ[5] قالَ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾.

ثم[6] يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ﴾ وجهين: يَحتَمِلُ: إذا احتَلَموا، ويَحتَمِلُ إذا بَلَغوا وقتَ الحُلُمِ؛ فالأوّلُ على حَقيقةِ الِاحتِلامِ، والثاني على قُرْبِ بُلوغِ الِاحتِلامِ. فكانَ الأوّلُ أشبَهَ لأنهُ خاطَبَهُمْ في أنفُسِهِمْ، وأمَرَهُمْ بالِاستِئذانِ. فلو لم يكونوا بالِغينَ لم يُخاطِبْهُمْ، ولكنْ خاطبَ بهِ الأولياءَ كما خاطَبَهُمْ في الآيةِ الأولى.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الحدَّ في بُلوغِ الصَّغيرِ الِاحتِلامُ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ القَولِ منهمْ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؟ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما[7] أمَرَ بهِ قَبْلَ هذهِ الآيةِ البالغينَ ألّا يَدخُلوا بيتاً حتى يَستأنِسوا [ويُسلِّموا][8] على أهلِهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ يعني الكبارَ: أنْ يكونَ الِاستِئذانُ في الكبارِ مَعروفاً ظاهراً، وفي الصِّغارِ لا. فأمَرَ إذا بَلَغوا أنْ يَستأذِنوا كما يَستأذِنُ الكبارُ منهمْ.

ورُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يُوافِقُ ظاهرَ الآيةِ، وهو ما قالَ: «رُفِعَ القَلَمُ عنْ ثلاثةٍ: أحَدُها: الصَّبيُّ حتى يَحتَلِمَ»[9] وأمّا إذا بَلَغَ خَمسَ عشرةَ سنةً فِيمَا اختَلَفَ أصحابُنا فيهِ:

ما رَآهُ أبو يوسفَ ومحمدٌ بالغاً لحديثِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أجازَهُ في القِتالِ، وهو ابنُ خَمسَ عشرةَ سَنةً، ولم يُجِزْ لهُ، وهو ابنُ أربعَ عشرةَ سَنةً. لكنْ ليسَ فيهِ أنهُ أجازَهُ لِبُلوغِهِ، ولم يُجِزْهُ لأنهُ لم يَبْلُغْ. جائزٌ إجازَتُهُ في العامِ الثاني لِتَقْوِيَتِهِ[10] وطاقَتِهِ على القِتالِ. ولم يُجِزْ في العامِ الأوّلِ لِضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ وعَجْزِهِ عنِ القِتالِ.

واحتَجَّ بَعْضُ مَشايِخِنا، وَوَجَدوا المَعْروفَ في مَنْ نَقَصَتْ سِنُّهُ عنِ اثْنَتَي عشرةَ [سَنَةً][11] ألّا يَحْتَلِمَ، فإذا بَلَغَها فَرُبَّما احْتَلَمَ، فَجَعَلَ حَدَّ الزِّيادةِ على الخَمسَ عشرةَ سَنةً التي هي وَسَطٌ بَيْنَ المُخْتَلِفينَ ثلاثَ سِنينَ كما كانَ مِقدارُ النُّقصانِ عنها ثلاثَ سِنينَ. وهذا القولُ مِنْ قولِهِ اسْتِحْسانٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أعلامَهُ أي يُبَيِّنُ لكمُ الأعلامَ التي تَحتاجونَ إليها، وتَعْرِفونَ ما يَسَعُ لكُمْ وما لا يَسَعُ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى. وقالَ بعضُهُمْ: آياتُهُ ههنا أمْرُهُ ونَهْيُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: والأكبر. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: لم. (٧) في الأصل وم: ما (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور: ٢٧]، ساقطة من الأصل وم. (٩) عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم» انظر سنن أبي داوود ج٤/٣٠٣ رقم الحديث ٤٣٩٩. (١٠) في الأصل وم: تقويه. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ قال أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يُرِدْنَ نِكاحاً. لكنَّ الأشبَهَ أن يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي لا يَطْمَعْنَ أنْ يَرْغَبَ فيهِنَّ الرجالُ لِكِبَرِهِنَّ، وإلّا كُنَّ يُرِدْنَ النِّكاحَ، وإنْ كَبِرْنَ، وعَجِزْنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بقولِهِ: ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ الرِّداءَ. وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ أنهُ قرَأ: أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيابِهِنَّ وهو الرِّداءُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو الجِلْبابُ؛ يُقالُ: الجِلْبابُ، هو القِناعُ الذي يكونُ فوقَ الخِمارِ، فلا بأسَ أنْ تَضَعَ ذلكَ عندَ أجْنَبِيٍّ وغيرِهِ بَعْدَ أنْ يكونَ عليها خِمارٌ صَفِيقٌ غيرَ مُتبرِّجةٍ بزينةٍ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: مِنْ غيرِ أنْ تكونَ وَضَعَتِ الرِّداءَ والجِلْبابَ، تريدُ بذلكَ إظهارَ الزينةِ والتَّبرُّجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن/ ٣٧٣ ـ أ/ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي وإلّا يَضَعْنَ ما ذَكَرْنا مِنَ الثيابِ خَيرٌ لهنَّ مِنْ أنْ يَضَعْنَ. وقالَ بعضُهُمْ: الخِمارُ، لكنهُ لا يُحْتَمَلُ لأنهُ معلومٌ أنَّ المرأةَ، وإنْ كَبِرَتْ، أو عَجِزَتْ، لا تَكْشِفُ عورَتَها لأحَدٍ.

ثم الزينةُ رُبّما تُكْشَفُ لِلْمَحارِمِ، ولا تُكْشَفُ لِلْغَريبِ [وهي في][1] الرأسِ والصَّدرِ ونَحْوِهما[2]. فإذا بَلَغَتْ في السنِّ مَبْلَغاً لا تَطْمَعُ أنْ تُرْغَبَ في نِكاحِها، لا تَتَزَيَّنُ. ومع ما لا تَفْعَلُ لا يَحِلُّ للأجْنَبِيِّ أنْ يَنْظُرَ إلى شَعْرِها ولا إلى صَدْرِها ولا إلى ساقِها. وإنها، وإنْ صَلَّتْ، ورأسُها مَكْشوفٌ [فَصلاتُها][3] فاسدةٌ.

وإذا كانَ كذلكَ فليسَ يَجوزُ أن يُجْعَلَ تأويلُ وَضْعِ الثيابِ الخِمارَ لما ذَكَرْنا. ولكنَّ الرداءَ والجِلْبابَ الذي يَلْبَسْنَ إذا خَرَجْنَ مِنْ مَنازِلِهِنَّ.

فإنْ قيلَ: إنما أُطْلِقَ لها بهذهِ الآيةِ أنْ تَضَعَ خِمارَها عنْ رأسِها إنْ لم يَرَها أحَدٌ. قيلَ: الشابَّةُ أيضاً يَجوزُ لها أنْ تَضَعَ الخِمارَ عنْ رأسِها إذا دَخَلَتْ في البيتِ. فَذلكَ يدلُّ على أنَّ العجوزَ أُذِنَ لها أنْ تَضَعَ الخِمارَ عنْ رأسِها إذا دَخَلَتْ في البيتِ. فَذلكَ يدلُّ على أنَّ العجوزَ أُذِنَ لها أنْ تَضَعَ ثَوبَها، وهو الجِلْبابُ أو المُلاءةُ التي كانَتْ تُغَطّى بها وَجْهَها إذا خَرَجَتْ.

وإذا كانَ المُطْلَقُ لها هذا فالواجبُ على الشابَّةِ ألّا تُظْهِرَ [وجهَها][4] إذا كانَتْ تُشْتَهى ولا يَدَيها. فإذا كانَ كذلكَ كانَ قولُهُ ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] وهو الزينةُ التي لا يُمْكِنُ سَتْرُها بِحالٍ، وهو الكُحْلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي مُظْهِراتٍ مَحاسِنَهُنَّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ أي غيرَ مُتَزَيِّناتٍ بزينةٍ، والمتبرِّجَةُ المُتَزَيِّنَةُ لإظهارِ الزِّينةِ، والزِّينةُ هي الداعِيَةُ المُرَغِّبَةُ في النَّظَرِ إليها وقضاءِ الشَّهْوَةِ. فَكأنَهُ أباحَ لها وَضْعَ الثيابِ إذا كانَتْ غيرَ مُتَزَيِّنَةٍ. وإذا كانَتْ مُتَزَيِّنَةً فلا.

وأباحَ لها أيضاً إذا لم يَكُنْ بها محاسِنُ، يُرْغَبُ فيها، وإذا كانَ بها ذلكَ لم يُبِحْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][5]: يَحْتَمِلُ ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ ولا يُبدينَ محاسِنَهُنَّ ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِنْ أنْ يُبدينَ.

والثاني: ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِنَ الوَضْعِ كقولِهِ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] أي يُعْرَفْنَ أنهنَّ حَرائرُ فلا يُؤْذَينَ كما تُؤْذَى الإماءُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كأنَّ قولَهُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ههنا صِلَةُ قولِهِ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وإلّا ليسَ في هذهِ الآيةِ ما يُوصَلُ بهِ، أو يكونُ جواباً لهُ.

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

قالَ القُتَبيُّ: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ هُنَّ العُجَّزُ، واحِدَتُها[1] قاعِدٌ، ويُقالُ: إنما قيلَ لها: قاعدٌ لِقُعودِها عنِ الحَيضِ والوَلَدِ، ومِثْلُها تَرْجو النِّكاحَ، أي تَطْمَعُ فيه [ولا أراها][2] سُمِّيَتْ قاعداً بالقُعودِ عمّا ذُكِرَ، إلّا أنها إذا أَسَنَّتْ عَجِزَتْ عنِ التَّصرُّفِ وكَثْرَةِ الحَرَكةِ، وأطالتِ القُعودَ، فَقيلَ لها: قاعدٌ بلا هاءٍ لِيَدُلَّ بِحَذْفِ الهاءِ على أنهُ قُعودٌ كبيرٌ كما قالوا: امرأةٌ حاملٌ بلا هاءٍ لِيُعْرَفَ على أنهُ حَمْلُ حَبَلٍ. وقالوا في غيرِ ذلكَ: قاعِدةٌ في بَيتِها، وحامِلةٌ على ظَهرِها.

وقالَ: والعَرَبُ تقولُ: وامرأةٌ واضِعٌ إذا كَبِرَتْ، فَوَضَعَتِ الثيابَ، ولا يكونُ هذا إلّا في الهَرِمةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ﴾ أي غيرَ مُظْهِراتٍ محاسِنَهُنَّ، والمُتَبَرِّجةُ المُتَزَيِّنَةُ. وحاصِلُ[3] قولِهِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ، واللهُ أعلَمُ:

أحدُهما: يكونُ مَعْنى قولِهِ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ كلُّ واحدٍ مِنَ الحَرْفَينِ يكونُ مَعْناهُ مَعْنى الآخَرِ كقولِهِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥] إذا كُنَّ مُحصناتٍ كُنَّ غيرَ مُسافِحاتٍ، وإذا كُنَّ غيرَ مُسافِحاتٍ كُنَّ مُحصناتٍ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ إذا كُنَّ لا يَرْجونَ النِّكاحَ كُنَّ غيرَ مُتَبَرِّجاتٍ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ التَّزَيُّنَ إنما يكونُ منهنَّ طَمَعاً في النِّكاحِ.

والثاني: مع ما لا يَرْجونَ النِّكاحَ يَتَزَيَّنَّ، ويَتَبَرَّجْنَ، فقالَ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ غيرَ مُظْهِراتِ الزينةَ.

على هذينِ الوجهَينِ جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ. وقولُهُ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ عن ذلك كلِّهِ ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية. اخْتُلِفَ في تأويلِهِ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرجلَ الصحيحَ كانَ يَتَحَرَّجُ مُؤاكَلَةَ الأعمَى والأعرَجِ والمريضِ إشفاقاً عليهِمْ ورَحْمَةً؛ يقولُ: إنهُ لا يُبْصِرُ طَيِّبَ الطعامِ، ولعلَّهُ يأكلُ الخبيثَ، وأنا آكلُ الطَّيِّبَ، ويقولُ: إنَّ الأعرَجَ، لا يَسْتَوي جالساً إذا قَعَدَ، فلا يَقْدِرُ أنْ يَتناوَلَ [كما أتناوَلُ][4] أنا، وإنَّ المَريضَ، لا يأكلُ مِثْلَ ما يأكلُ الصحيحُ. وكانَ الرجلُ، لا يأكلُ مِنْ بيتِ أبيهِ ولا مِنْ بيتِ أمِّهِ إذا لم يكونا فيهِ. وكذلكَ الصديقُ وهؤلاءِ. فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ رُخْصَةً لِذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ هؤلاءِ المَرضَى: العُمْيانَ والعُرْجَ والمَرْضَى وأُولي الحاجةِ منهمْ، يَسْتَتْبِعُهُمْ رجالٌ إلى بيوتِهِمْ، ويَسْتَضيفونَهُمْ، فإنْ لم يَجِدوا لهمْ طعاماً أو شيئاً يأكلونَهُ ذهبوا بهمْ إلى بيوتِ آبائهمْ ومَنْ عَدَّدَ مَعَهمْ، فَكَرِهَ ذلكَ المُسْتَتْبَعونَ التَّناوُلَ في غيرِ بُيوتِ أولئكَ بِلا دَعْوَةٍ ولا إذْنٍ، سَبَقَ منهُمْ. فأنزَلَ اللهُ في ذلكَ إباحَةً لهمْ ورُخْصَةً، وأحَلَّ لهمُ الطعامَ حيثُ وَجَدوهُ.

وقالَ [بعضُهُمْ][5]: إنَّ الأعمَى والأعرَجَ والمَريضَ وهؤلاءِ الذينَ كانَتْ بهمْ زَمانَةٌ، كانوا يَتَحَرَّجونَ مُؤاكَلَةَ الأصِحّاءِ مَخافَةَ أنْ يَتَقَزَّزوا منهمْ، ويَسْتَقْذِروا.

يقولُ الأعرَجُ: لا أُآكِلُ الناسَ لأني آخُذُ مِنَ المَجْلِسِ مَكانَ رجلَينِ، وأُضَيِّقُ عليهِمْ.

ويقولُ[6] الأعمَى: إني أُفْسِدُ عليهِمْ طعامَهُمْ، وكذلكَ المريضُ منهمْ، يقولُ مثلَ ذلكَ.

فأنزَلَ اللهُ الرُّخْصَةَ في ذلكَ، ورَفَعَ عنهُمُ الجُناحَ في مُؤاكَلَتِهِمْ؛ يقولُ: إنَّ الحَقَّ عليهِمْ أنْ يَرْحَموكُمْ لما بكُمْ مِنَ الزَّمانَةِ وأنْ يَدْعوا لكمْ بالرفعِ عنكُمْ لا التَّقَزُّزُ والاسْتِقْذارُ منكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الرجلَ الغَنِيَّ كانَ يدخلُ على الرجلِ الفقيرِ والزَّمِنِ، فَيَدْعوهُ[7] إلى طعامِهِ، فيقولُ: واللهِ إني لا أَجْنَحُ، ولا أَحْرَجُ أنْ آكلَ مِنْ طعامِكَ، وأنا غَنِيٌّ، وأنتَ فَقيرٌ، فأنزَلَ اللهُ في ذلكَ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ.

---

(١) في الأصل وم: واحدها. (٢) من م، في الأصل: ولا إذا بها. (٣) من م، في الأصل: والتزين. (٤) في م: فيما أتناول، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) من م، في الأصل: فيدخل.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ هذا في أهلِ الجهادِ، وإنَّ الرجلَ كانَ يَخرُجُ إلى الجهادِ، فَيُخلِفُ آخَرَ في منزلِهِ في حِفظِ مالِهِ وأهلِهِ والقيامِ بِكفايتِهِمْ، فكانَ يَحرَجُ، ولا يأكلُ مِنْ مالِهِ شيئاً لا مِنْ طعامِهِ لِما لم يَسْبِقْ منهُ الإذنُ في ذلكَ. [فأنزَلَ اللهُ][1] في ذلكَ رُخصَةً وإباحةَ التَّناوُلِ مِنْ ذلكَ.

إلى هذا انْتَهَتْ أقاويلُ أهلِ التأويلِ وتَأويلُهُمْ.

والأشبَهُ عندَنا أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ في غَيرِ ما ذَهبوا هم إليهِ، وهو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ أي ليسَ على هؤلاءِ حَرَجٌ أنْ يأكلوا مِنْ بيوتِ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ أو بُيوتِ إخوانِهِمْ أو بُيوتِ أخواتِهِمْ أو بُيوتِ أعمامِهِمْ إلى قولِهِ: ﴿أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ﴾ لأنهمْ إنما يأكلونَ بالحَقِّ لأنَّ مَنْ كانَ بهِ زَمانَةٌ كانَ لهُ التناوُلُ مِنْ أموالِ ما ذَكَرَ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ والقراباتِ؛ إذْ تُفرَضُ لهمُ النَّفَقَةُ في أموالِهِمْ، فيكونُ في ذلكَ دلالةُ وُجوبِ النَّفَقَةِ لهمْ في أموالِهِمْ، ويكونُ ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ جُناحٌ ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ . . . ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ أي بأسَ أنْ تأكلوا مِنْ بيوتِكُمْ أو ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أو صديقِكُمْ؛ إذْ ليسَ يُباحُ للرجلِ التَّناوُلُ مِنْ مالِ نفسِهِ ومِنْ مالِ صديقِهِ في حالِ عُذْرٍ، ولا يُباحُ في حالِ الصِّحَّةِ والسلامةِ، بل يُباحُ في الأحوالِ كلِّها.

دلَّ أنَّ التأويلَ الذي ذَكَرْنا أشبَهُ؛ فَيُصْرَفُ تَناوُلُ الزَّمْنَى مِنْ أموالِ القراباتِ بِحَقِّ النَّفَقَةِ، والحَقُّ لِمَنْ[2] ليسَ بهِ زَمانَةٌ في مالِهِ ومالِ صَديقِهِ بِحَقِّ المُلْكِ والصداقةِ، لأنَّ الزَّمانَةَ تَرفَعُ الصداقةَ مِنْ بينِهِمْ، وكذلكَ وجوبُ النَّفَقَةِ في مالِ الصَّديقِ تَرفَعُ الصداقةَ / ٣٧٣ - ب/ ولا تَرفَعُ القرابَةَ، ولا تَزولُ صِلَتُها.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنْ بُيوتِ أولادِكُمْ. وقالَ بعضُهُم: مِنْ بُيوتِ [أزواجِكُم ونسائِكُمْ][3]. وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ بُيوتِ أنفسِكُمْ[4]، وهو ما يَجِدُ الرجلُ في بَيتِهِ مِنْ طعامٍ، فإنهُ لا بأسَ أنْ يأكُلَهُ، ولذلكَ لا بأسَ للرجلِ أنْ يَتناوَلَ مِنْ بَيتِ زَوجتِهِ لأنهُ لم يَذْكُرْ في الآيةِ بَيتَ الوَلَدِ، وبَيتُ الزوجةِ على الإشارةِ والتفسيرِ، فَيَصْرِفونَ تأويلَ قولِهِ: ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ إلى هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي خَزائِنَهُ؛ يَحتَمِلُ العَبيدَ لأنَّ السَّيِّدَ يَملِكُ مالَ عَبْدِهِ، ويَحتَمِلُ الوكيلَ والخازنَ: أنْ يأكلَ مِنْ طَعامِهِ وأدْمِهِ بِغَيرِ إذْنِ السَّيِّدِ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ السَّيِّدَ نفسَهُ صاحبَ الخِزانةِ ومالِكَها.

ثم ذِكْرُ الأكْلِ مِنْ بُيوتِ مَنْ ذَكَرَ على التأويلِ الذي ذَكَرْنا، واسْتَدْلَلْنا على إيجابِ النَّفَقَةِ لهؤلاءِ الزَّمْنَى في أموالِ مَنْ ذَكَرْنا مِنَ القراباتِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ذَكَرَ البيوتَ لأنهمْ إذا كانوا زَمْنَى يَستوجبونَ السُّكنَى أيضاً مع النَّفَقَةِ، فَذَكَرَ البيوتَ لِكَونِهِمْ فيها وسُكْناهُمْ معَهُمْ.

والثاني: ذَكَرَ الأكْلَ مِنْ بُيوتِهِمْ لئلا يُفهَمَ مِنَ الأكْلِ الأخذُ منها لأنهُ ذَكَرَهُ في آياتِ الأكْلِ، والمُرادُ المفهومُ منهُ الأخذُ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠] وقولِهِ: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [آل عمران: ١٣٠] مَفهومُ المُرادِ مِنَ الأكلِ في هذهِ الآياتِ الأخذُ لا الأكْلُ نفسُهُ.

فَذَكَرَ ههنا الأكْلَ مِنْ بُيوتِهِمْ لئلا يُفهَمَ منهُ الأخذُ كما فُهِمَ مِنْ تِلْكَ.

وعلى تأويلِ أهلِ التأويلِ مُستَقيمٌ ظاهرٌ ذِكْرُ البُيوتِ إذْ لا يَجعلونَ ذلكَ الأكْلَ والتَّناوُلَ منهُ أكْلاً وتَناوُلاً بِحَقٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذَكَرَ هذا لأنَّ قوماً كانوا لا يأكُلونَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ومن. (٣) في الأصل وم: أزواجهم ونسائهم. (٤) في الأصل وم: أنفسهم.

وَخدَمُهُم(١)، ولا يَرونَ ذلكَ حَسَناً في الخُلُقِ، ويَتَحرَّجونَ [عنْ](٢) ذلكَ حتى يكونَ معهمْ غيرُ [واحدٍ](٣) فَرَخَّصَ اللهُ تعالى لهمْ ذلكَ، ورَفَعَ عنهمُ الحَرَجَ، فقالَ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾.

وعلى تأويلِ مَنْ يقولُ: إنهمُ استَضافوا قوماً، فلم يَجدوا في بَيتِهِمْ شيئاً يأكلونَ، فَذَهبوا بهمْ إلى بُيوتِ هؤلاءِ، فَيَتَحرَّجُ أولئكَ الأضيافُ الأكْلَ مِنْ بيوتِ مَنْ ذَكَرَ، وأربابُ البُيوتِ لَيسوا فيها، فرخَّصَ لهمْ في ذلكَ.

وعلى تأويلِ مَنْ يقولُ: إنهمْ كانوا يَتَحرَّجونَ الأكْلَ مَعَ العُميانِ(٤) إشفاقاً عليهِمْ وتَرَحُّماً لِما لا يُبْصِرونَ طَيِّبَ الطعامِ، ولا يَأكلونَ ما يأكُلُ الصحيحُ، فَرَفَعَ عنهمْ ذلكَ الحَرَجَ، ورَخَّصَ لهمْ في ذلكَ.

وعلى تأويلِ مَنْ يقولُ: إنهمْ كانوا يَتَحرَّجونَ الأكْلَ مَعَ هؤلاءِ تَقَزُّزاً واسْتِقْذاراً، فَرَغَّبَهُمْ في الأكْلِ مَعَ أولئكَ وتَرْكِ التَّقَزُّزِ مِنْ ذلكَ.

ويَدُلُّ التأويلُ الأوَّلُ [على](٥) ما رُوِيَ عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ؛ رُوِيَ عَنْ محمدِ بنِ عليٍّ [أنهُ](٦) قالَ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ لا يَرَى أحَدُهُمْ أنهُ أحقُّ بالدّنانيرِ والدراهمِ مِنْ أخيهِ المُسْلِمِ. قالَ: وقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيأتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ يكونُ الدينارُ والدراهمُ أحَبُّ إلى الرجلِ مِنْ أخيهِ المُسْلِمِ» [بنحوه أحمد: ٢/ ٤٢].

وعَنِ ابنِ عُمَرَ [أنهُ](٧) قالَ: «لقد رَأيتني ومالُ الرجلِ المُسْلِمِ أحَقُّ بدينارِه ودِرْهَمِهِ مِنْ أخيهِ المُسْلِمِ» [بنحوه أحمد ٢/ ٨٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ يحتملُ قولُهُ ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي يُسَلِّمُ بعضُكُمْ على بعضٍ. فَصَيَّرَ المُسْلِمينَ أجمَعينَ(٨) بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ كأنفُسِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وقولِهِ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

فَصَيَّرَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ كأنفسِهِمْ لأنهمْ كشيءٍ واحدٍ؛ يَتَألَّمُ بَعْضُهُمْ بألمِ بَعْضٍ، ويَحْزَنُ بَعْضُهُمْ بِحُزْنِ بَعْضٍ، ويُسَرُّ بَعْضُهُمْ بسرورِ بَعْضٍ ونَحْوَهُ. فَهُمْ جميعاً كَشيءٍ واحدٍ، وأنفسُهُمْ جميعاً كَنَفْسٍ واحدةٍ. لِذلكَ جَعَلَ سَلامَ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ في حقِّ السَّلامةِ(٩) واحداً.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، وهو أنَّ بَعْضَهُمْ إذا سَلَّمَ على بَعْضٍ، رَدَّ عليهِ مِثْلَهُ، فَيَصيرُ كأنهُ هو يُسَلِّمُ على نَفْسِهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ أي لا يَقْتُلْ أحدٌ آخَرَ، فَيُقْتَلَ بهِ، فيكونَ قاتلَ نفسِهِ، إذْ لولا قَتْلُهُ إيّاهُ، لم يُقْتَلْ بهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إنهُ إذا أكلَ مالَ غيرِهِ بِغيرِ رضاهُ ضَمَّنَهُ، فإذا ضَمَّنَهُ فكأنهُ أكلَ مالَ نَفْسِهِ بالباطلِ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ أرادَ بهِ السَّلامَ على أنْفُسِهِمْ، أي يُسَلِّمُ كلٌّ على نفسِهِ، وإنْ لم يكُنْ فيهِ أحدٌ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ](١٠) قالَ: أرادَ المساجدَ؛ إذا دَخَلْتَها فَقُلِ السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالِحينَ [وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ دَخَلَ بَيتاً أو مَسْجِداً ليسَ فيهِ أحدٌ فَلْيَقُلْ: السلامُ علينا مِنْ رَبِّنا، والسلامُ على عبادِ اللهِ الصالحينَ»](١١) [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/ ١٧٤].

وعلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بِتَرْكِ الإنفاقِ عليها وغَيرِهِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

وجائزٌ أنْ يُرادَ بالأنفُسِ أهلُهُمْ، أي سَلِّموا على أهْلِكُمْ، وهو الأولَى.

ثم اخْتُلِفَ في السَّلامِ: قالَ بَعْضُهُمْ: السَّلامُ مِنَ السَّلامةِ مِنْ جميعِ الآفاتِ والنَّكَباتِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: السَّلامُ هو اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى الحُسْنَى؛ فَتأويلُهُ: عليكَ اسْمُ اللهِ الذي لا [يَضُرُّكَ مَعَهُ](١٢) شيءٌ، ولا يَلْحَقُكَ بِهِ أذًى كقولِهِ «بسمِ اللهِ الذي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ» [أحمد: ١/ ٦٢ و٦٣].

---

(١) في الأصل وم: وحده. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الأعمى ومن ذلك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أجمع. (٩) في الأصل وم: السلام. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يضر معك.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ التّحِيَّةُ كأنّها الكَرامَةُ، كأنهُ قالَ: كَرامَةٌ مِن عندِ اللهِ لكُم.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ المُبارَكُ هو الذي يُنالُ بهِ كلُّ خَيرٍ وبِرٍّ، أو [سُمِّيَ مُباركاً][1] لِما فيهِ يَنمو الشيءُ، ويَزكو.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي ما يَستطيبُهُ[2] كلُّ أحدٍ. وقالَ بَعضُهُم: ﴿طَيِّبَةً﴾ أي حَسَنَةً؛ فتأويلُهُ: ما يَستَحسِنُهُ[3] كلُّ أحدٍ. وقالَ بَعضُهُم: قولُهُ: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ: سَلامٌ مِن أمرِ اللهِ لكُم ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ بالأجرِ ﴿طَيِّبَةً﴾ بالمَغفِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ﴾ أي مَثَلَ الذي ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تَعقِلوا ما لَكُم وما عليكُم وما للهِ عليكُم وما لِبَعضِكُم على بَعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ ما ذَكَرْنا. قالَ بَعضُهُم: المساجِدُ، وقالَ بعضُهُم: البيوتُ المَسكونةُ كقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧].

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ كقولِهِ[4] في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الآية [الحجرات: ١٥] وقولِهِ[5] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

هذا، واللهُ أعلَمُ، ليسَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الاستِئذانِ وتَرْكِ الارتيابِ وزيادةِ الإيمانِ بالتّلاوةِ ونَحوَهُ مِن شَرطِ الإيمانِ. ولكنْ، واللهُ أعلَمُ، إنَّ الأولَى بالمُؤمِنينَ هذا: ألّا يَذهَبوا حتى يَستَأذِنوا رسولَهُ، وألّا يَرتابوا، وأنْ يُجاهِدوا، وأن تَزيدَهُم[6] التّلاوةُ ما ذَكَرَ. ليسَ على جَعْلِهِ شَرطاً للإيمانِ، ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنَ الأولَى بهِمْ والاختِيارِ لهمْ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ أنَّ المؤمنينَ لا يَذهبونَ عنهُ، ولا يُفارِقونَهُ إلّا بالاستِئذانِ منهمْ من رسولِ اللهِ، وذَكَرَ أنَّ المُنافِقينَ يَذهبونَ، ويُفارِقونَ تَسَلُّلاً ولِواذاً حينَ[7] قالَ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤] ذَكَرَ أنهم لا يَستأذِنونَكَ، وإنما يَستأذِنُكَ/ ٣٧٤ ـ أ/ المنافِقونَ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥].

فهذهِ الآياتُ في ظاهِرِ المَخرَجِ مُختَلِفَةٌ، وإنْ كانَتْ في المَعاني المُدرَجَةِ فيها مُتَوافِقَةً[8]. فهذا يُبطِلُ قولَ مَن يَحتَجُّ بظاهِرِ المَخرَجِ؛ إذْ لِلمُلحِدَةِ أنْ تَقولَ: هو مُختَلِفٌ في الظاهِرِ، وإنهُ مِن عندِ غَيرِ اللهِ يقولُهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنَّ الاحتِجاجَ بِظاهِرِ المَخرَجِ باطلٌ، والاعتِقادَ بهِ فاسدٌ خَبالٌ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِن استِئذانِ المؤمِنينَ وتَرْكِ استِئذانِ أولئكَ لِلخُروجِ منهُ لِما لا يَستَأذِنُهُ المؤمنونَ لِلخُروجِ مِن عندِهِ إلّا بِعُذرٍ، وأولئكَ يَستَأذِنونَهُ لِلخُروجِ لا لِلعُذرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣]. وأمّا المؤمنونَ فلا يَستَأذِنونَهُ إلّا بِعُذرٍ، أو أنْ يكونَ ذلكَ في نوازِلَ مُختَلِفَةٍ أو في فِرَقٍ، أو أنْ يكونَ المؤمنونَ يُظهِرونَ لهُ عُذرَهُم، ويُفَوِّضونَ أمورَهُم إلى رسولِ اللهِ على أنْ يَنظُرَ في ذلكَ؛ فإنْ رَأى الصوابَ الكَونَ والمُقامَ مَعَهُ أقاموا مَعَهُ، والمُنافقونَ لا على ذلكَ كانوا يَفعَلونَ.

وعلى هذا، واللهُ أعلَمُ، جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآياتِ التي ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي مَعَ رسولِ اللهِ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعضُهُم: يومُ الجُمُعةِ ويومُ

---

(١) في الأصل وم: يسمى مباركة. (٢) في الأصل وم: يستطيب به. (٣) في الأصل وم: يستحسن به. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: يزداد لهم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: موافقة.

العيدِ. وقالَ بعضُهُمْ: في الغَزْوِ والجهادِ في سَبيلِ اللهِ؛ يُخبِرُ أنَّ المؤمنينَ يكونونَ مَعَهُ، لا يَذْهَبونَ عنهُ إلّا بإذْنٍ، والمُنافِقينَ يَتَسَلَّلونَ، ويَذْهَبونَ: مُسْتَخْفِينَ منهُ، ويَقْعُدونَ، ويَخْرُجونَ مِنْ عندِهِ.

وأصْلُهُ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أي مَعَ رسولِ اللهِ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ على أمْرِ طاعةٍ ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

قالَ بَعْضٌ مِنْ أهلِ التأويلِ: هذه الآيةُ نَسَخَتِ الآيةَ التي في سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ حيثُ قالَ في ذاكَ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية [الآية: ٤٣] وقالَ في سورةِ النورِ ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أذِنَ لهُ بالإذْنِ لهمْ. لكنَّ الوجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأمْرُ بالاسْتِغْفارِ لهمْ يُخرَّجُ مُخرَجَ الأمْرِ بالتَّشَفُّعِ لهمْ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ إيّاكُمْ إلى ما يَدْعوكُمْ إليهِ ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ مَرَّةً تُجيبونَهُ، ومَرَّةً لا تُجيبونَهُ كما يُجيبُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً إذا دعاهُ مَرَّةً، ولا يُجيبُهُ تارةً. بَلْ أجيبوا رسولَ اللهِ في جميعِ ما يَدْعوكُمْ إليهِ في كلِّ حالٍ تكونونَ.

والثاني: لا تَجْعلوا دُعاءَكُمُ الرسولَ إذا دَعَوتُموهُ كما يَدْعو بَعْضُكُمْ بَعْضاً: يا فلانُ، ويا فلانُ، ولكنِ [ادْعُوهُ بِاسْمِهِ المَخْصوصِ][1] بهِ: يا رسولَ اللهِ، ويا نَبِيَّ اللهِ على ما أقْرَرْتُمْ أنهُ مَخْصوصٌ مِنْ بَيْنِكُمْ، ليسَ كَمِثْلِكُمْ.

فَعَلى ذلكَ في الدُّعاءِ والإجابةِ اجْعَلوهُ مَخْصوصاً تَعْظيماً لهُ وإجلالاً خصوصيَّةً لهُ وفَضيلَةً، وهو ما ذَكَرَ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ المُنافقينَ إذا كانوا في أمْرٍ جامعٍ، فَيَسْمَعونَ رسولَ اللهِ، يَذْكُرُ مَثالِبَهُمْ ومَساوِئَهُمْ وعُيوبَهُمْ، فَيَتَسَلَّلونَ كراهيةً لِما سَمِعوا؛ يَلوذُ بَعضُهُمْ [بِبَعْضٍ، وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ][3] هذهِ في المُنافقينَ الذينَ كانوا يَذْهَبونَ عنهُ، ويَخْرُجونَ مِنْ عندِهِ بغيرِ اسْتِئْذانٍ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِوَاذًا ۚ﴾ أي يَسْتَتِرونَ بالشيءِ، ويَلوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، ويَسْتُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً[4]، فَيَخْرُجونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي يُخالِفونَ أمْرَهُ، وحَرْفُ ﴿عَنْ﴾ يكونُ صِلَةً فيهِ.

وجائِزٌ أنْ يكونَ على ظاهِرِ ما ذَكَرَ ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ فإنْ كانَ على هذا فكأنهُ قالَ: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي[5] يَعْدِلونَ عنْ أمْرِهِ، ويَزيغونَ عنهُ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبإ: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ تَحْتَمِلُ الفِتْنَةُ الكُفْرَ [وتَحْتَمِلُ][6] القِتالَ والتَّعْذيبَ في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ليسَ ههنا ما يَسْتَقيمُ أنْ يَجْعَلَ قولَهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ صِلَةً لهُ؛ اللَّهُمَّ إلّا أنْ يَجْعَلَ ذلكَ صِلَةَ قولِ[7] مَنْ يَجْعَلُ لهُ الوَلَدَ والشريكَ أو صِلَةَ قولِهِ: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فنقولُ: مَنْ لهُ ما في السمواتِ والأرضِ لا يَحْتَمِلُ أنْ تَقَعَ [لهُ][8] الحاجةُ إلى الوَلَدِ أو الشَّريكِ، ومَنْ لهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ يختارُ لِرسالتِهِ مَنْ يَشاءُ بَشراً أو مَلَكاً، ليسَ لأحدِ القولُ في ذلكَ القولِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل: ادعوا باسم هو مخصوص. (٢) من م، في الأصل: ذكرنا. (٣) في الأصل: نزل، في م: ببعض، وقال بعضهم: نزل. (٤) في الأصل وم: ببعض. (٥) من م، في الأصل: و. (٦) من م، في الأصل: و. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

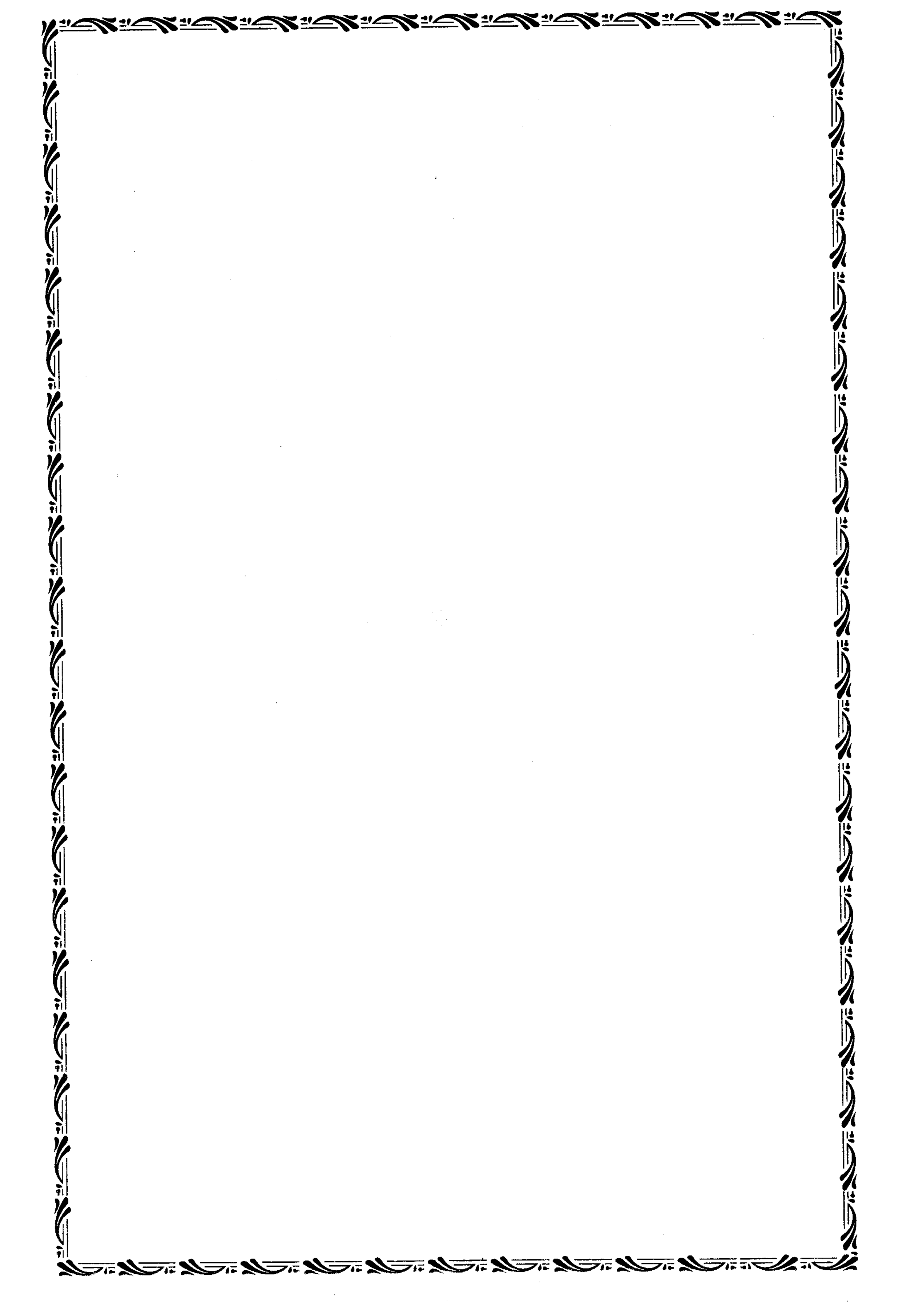
وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ هذا وعيدٌ وإعلامٌ أنهُ مُراقِبُهُمْ مُطَّلِعٌ عليهمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ليكونوا أبداً على حَذَرٍ؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ رقيباً وحافظاً كانَ أنْبَهَ وأيْقَظَ وأحْذَرَ مِمَّنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ، أو يكونُ على عِلْمٍ بأحوالِكُمْ وما أنتُمْ عليهِ مِنَ الخِلافِ لأمْرِهِ [لأنهُ خَلَقَكُمْ، وأرسلَ إليكمْ رُسُلاً][1] لا على جَهْلٍ بذلكَ وغَفْلَةٍ، أو يُؤَخِّرُ عنكُمُ العذابَ على عِلْمٍ بما أنتُمْ عليهِ لِلْيومِ المَوعودِ لا بِسَهْوٍ وغَفْلَةٍ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢].

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ أي إنما يُؤَخِّرُ ذلكَ عنهمْ إلى يومِ الرجوعِ إليهِ. فعندَ ذلكَ يُنَبِّئُهُمْ ﴿بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ أي يَذْهبونَ مُسْتَخْفِينَ، ويقالُ: انْسَلَّ الرجُلُ أي انْسَرَقَ مِنَ الناسِ، أي فارَقَهُمْ، ولا يَعْلَمونَ بهِ والتَّسَلُّلُ [إنما يُسْتَعْمَلُ][2] إذا كانَ الِاسْتِخْفاءُ مِنَ الجماعةِ، وقولُهُ: ﴿لِوَاذًاۚ﴾ يُقالُ: لاذَ مِنّي، أي اسْتَتَرَ، واخْتَبَأَ مِنّي، واخْتَفَى، ويُقالُ: لاذَ بي، أي اسْتَتَرَ بي.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ﴾ أي [يَسْتَتِرُ كُلٌّ][3] بِصاحِبِهِ في انْسِلالِهِ، ويَخْرُجُ، يُقالُ: لاذَ فلانٌ، واللِّواذُ مَصْدَرٌ [وصَلَّى اللهُ سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ، وبهِ نَستعينُ][4].

(١) في الأصل وم: خلقكم أو أرسل إليكم رسولاً. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: من يستتر. (٤) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الفرقان

مكية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿تَبَارَكَ﴾ مِنَ التَّفاعُلِ، وهو مِن تَعالى لأنَّ البَرَكَةَ هي اسْمُ كلِّ رِفْعَةٍ وفَضِيلَةٍ وشَرَفٍ، فكانَ تأويلُهُ: تَعالَى مِنَ التَّعالي والارْتِفاعِ.

وقالَ أهلُ الأدبِ: ﴿تَبَارَكَ﴾ هو مِنَ البَرَكَةِ، والبَرَكَةُ هي اسْمُ كلِّ فَضْلٍ وبِرٍّ وخَيرٍ، أي بِهِ يُنالُ كلُّ فَضْلٍ/ ٣٧٤ ـ ب/ وشَرَفٍ وبِرٍّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿تَبَارَكَ﴾ هو تَنْزيهٌ، مِثْلُ قولِكَ: تَعالى: وقالَ الكِسائيُّ والقُتَبِيُّ: هو مِنَ البَرَكَةِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ سَمَّاهُ فُرْقاناً. قالَ بعضُهُمْ: لأنهُ يُفَرِّقُ بَينَ الحَقِّ والباطلِ وبَينَ الحلالِ والحرامِ وبَينَ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى.

وعلى هذا جائزٌ أنْ تُسَمَّى جميعُ كُتُبِ اللهِ التي أنْزَلَها على رُسُلِهِ فُرْقاناً لأنها تُفَرِّقُ بَينَ الحَقِّ والباطلِ وبَينَ ما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ وبَينَ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى. ولذلكَ سَمَّى التوراةَ فُرْقاناً بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وأمَّا القرآنُ فهو مِنْ قَرَنَ بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ؛ يُقالُ: قَرَنْتُ الشيءَ إلى الشيءِ، إذا ضَمَمْتُهُ إليهِ، قَرَنَ يَقْرِنُ قَرْناً.

وقالَ بعضُهُمْ: سَمَّى [القُرْآنَ فُرْقاناً](٢) لأنهُ أنْزَلَهُ بالتَّفاريقِ مُفَرَّقاً، وسائرُ الكُتُبِ أُنْزِلَ مَجْموعةً. لكنَّ الوَجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً، وهو أقْرَبُ وأشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أيِ القرآنُ الذي أنْزَلَهُ على عبدِهِ يكونُ نذيراً لِمَنْ ذَكَرَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي ليكونَ محمدٌ بالقرآنِ الذي أُنْزِلَ عليهِ نَذيراً كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وكقولِهِ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي مَنْ بَلَغَهُ القرآنُ مِنَ الخَلْقِ فَرسولُ اللهِ نَذيرُهُ.

ثم قولُهُ: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يُرادَ بِهِ الإنْسُ والجِنُّ.

ثم ذَكَرَ النِّذارَةَ فيهِ، ولم يَذْكُرِ البِشارَةَ. فإنْ كانَ على هذا فهو حُجَّةٌ لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنْ ليسَ لِلْجِنِّ ثوابٌ إذا أطاعوا سِوَى النَّجاةِ مِنَ العِقابِ، ولهمْ عِقابٌ بالأجْرامِ، لأنَّ اللهَ تعالى، لم يَذْكُرْ لهمُ الثوابَ في الكتابِ، وذَكَرَ لهمُ العِقابَ بالعِصْيانِ حينَ(٣) قالَ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ الآية [الأحقاف: ٣١] جَعَلَ ثوابَهُمْ نَجاتَهُمْ مِنْ عَذابٍ أليمٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في النِّذارةِ بِشارةٌ أيضاً؛ [بِشارةٌ](٤) ما كانَ وما يكونُ إلى يوم القِيامةِ؛ لأنهمْ إذا اتَّقَوا مُخالَفَةَ اللهِ ومَعاصِيَهُ كانَتْ لهمُ العاقبةُ، فَلَهُمْ بِشارةٌ في ذلكَ ونِذارةٌ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

---

(١) من م، أدرج قبلها في الأصل: كلها أنزلت بمكة وهي. (٢) من م، في الأصل: الفرقان قرآنا. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وَوَجْهُها[1]، واللهُ أعلَمُ: أي تعالى عَنْ أنْ يكونَ النَّذيرَ الذي بَعَثَهُ إليهِمْ، إنما بَعَثَهُ لِحاجةِ نفسِهِ: لِجَرِّ مَنْفَعَةٍ إليهِ أو لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ عنهُ على [ما يَبْعَثُ][2] ملوكُ الأرضِ مِنَ الرُّسُلِ لِحَوائجِ أنفسِهِم: إمَّا لِجَرِّ مَنْفَعَةٍ إليهِمْ أو لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ عنهُمْ.

ولكنْ إنما يَبْعَثُ النَّذيرَ والبَشيرَ إلى الخَلْقِ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ، إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَنْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ أنْ يَبْعَثَ النَّذيرَ والبَشيرَ لِمَنافِعِ نفسِهِ ولحاجَتِهِ لِغِناهُ.

وأمَّا مُلوكُ الأرضِ فلا يَمْلِكونَ ذلكَ، ويَبْعَثونَ[3] الرُّسُلَ، ويُرْسِلونَ لِمَنافِعِ أنفُسِهِمْ وحوائجِهِمْ: لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ أو جَرِّ مَنْفَعَةٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تَعالَى عَنْ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً أو شَريكاً في المُلْكِ على ما نَسَبوا إليهِ مِنَ الوَلَدِ أو الشَّريكِ، فقالَ: تَعالَى عنْ أنْ يكونَ لهُ الوَلَدُ أوِ الشريكُ؛ إذْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ. فالوَلَدُ في الشاهِدِ إنما يُتَّخَذُ لإحْدَى خِلالٍ ثلاثٍ، وقد ذَكَرْنا.

وبَعْدُ فإنَّ الوَلَدَ في الشاهِدِ إنما يكونُ مِنْ جِنْسِ الوالدِ ومِنْ جَوهَرِهِ، ويكونُ مِنْ أشكالِهِ. وكلُّ ذي شَكْلٍ تكونُ فيهِ مَنْفَعَةٌ وآفَةٌ. وكذلكَ الشريكُ إنما يكونُ مِنْ جِنْسِهِ ومِنْ شَكْلِهِ، وإنما تَقَعُ الحاجةُ إلى [الوَلَدِ أو الشريكِ إمَّا لِعَجْزٍ أو آفَةٍ][4].

فإذا كان اللهُ، سُبْحانَهُ، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو خالِقَها، فأنَّى تَقَعُ لهُ الحاجةُ إلى الوَلَدِ أو الشريكِ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: فيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ كلَّ شيءٍ. وعلى قولِهِمْ: أكْثَرُ الأشياءِ، لم يَخْلُقْها، مِنَ الحَرَكاتِ والسُّكونِ والاجْتِماعِ والافْتِراقِ[5] وجميعِ الأعراضِ؛ فَهُمْ[6] يقولونَ: إنها ليسَتْ بمخلوقَةِ اللهِ، ولا صُنْعَ لهُ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ لِحِكْمَةٍ، أو قَدَّرَهُ تَقْديراً لِوَحْدانيَّتِهِ[7] والوهيَّتِهِ، أو قَدَّرَهُ تقديراً؛ أي جَعَلَ لهُ حَدّاً؛ لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائقُ على ذلكَ ما عَرَفوا قَدْرَهُ ولا حَدَّهُ مِنْ صلاحٍ وغيرِهِ ما لو لم يُقَدِّرْ ذلكَ لَفَسَدَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي مَعْبودِينَ[8]. ثم تَسْمِيَتُهُ إيَّاها؛ أعني الأصنامَ التي عَبَدوها، آلِهَةً، [على ما عندَهمْ وفي زعمِهِمْ][9] فالإلهُ عندَ العَرَبِ مَعْبودٌ، ويُسَمُّونَ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً [وهو كقولِهِ][10]: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] عندَهُمْ وفي زَعْمِهِمْ، وقولِ موسى ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] في زَعْمِهِمْ وعندَهم أنَّ كلَّ معبودٍ إلهٌ.

لقد[11] عابَهُمْ بِتَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ آلِهَةً، ثم بَيَّنَ سَفَهَهُمْ وقلةَ فَهْمِهِمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ وتَسْمِيَتِهِمْ إيَّاها آلِهَةً حينَ[12] قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي يَتْرُكونَ عبادةَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ خالِقُ كلِّ شيءٍ، ويَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهمْ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي[13] يَتْرُكونَ عبادةَ مَنْ يَعْلَمونَ [أنهُ يَمْلِكُ النَّفْعَ والضَّرَّ][14] [[ويَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ][15] أنهُ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ لهمْ ولا الضَّرَّ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي يَعْبُدونَ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ لهمْ إنْ عَبَدوهُ ولا الضَّرَّ إنْ تَرَكوا عبادَتَهُ، ولا يَمْلِكونَ النَّفْعَ والضَّرَّ][16] لأنفسِهِمْ أيضاً، وهو قولُهُ: ﴿وَلَا

---

(١) في الأصل وم: ووجهه. (٢) في الأصل وم: يبعثه. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: من الرسل إنما يبعثو من. (٤) في الأصل: إما لعجز لا رأفة، في م: الولد إما لعجز أو آفة. (٥) في الأصل وم: والتفرق. (٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) في الأصل وم: لوحدانية الله. (٨) في الأصل وم: معبود. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وكذلك قوله. (١١) في الأصل وم: وإلا. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من م.

يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ لِغيرِهِمْ. فَعَلَى هذا الظاهِرُ يَجيءُ أنْ يكونوا هم سَمَّوا أنفُسَهُم [الأصنامَ آلهةً](١) لأنهمْ يَمْلِكونَ ضَرَرَ الأصنام، ولا(٢) تَمْلِكُ ذلكَ لهمْ ولا لأنفُسِها.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي المَوتَ الذي(٣) كانَ قبلَ أنْ يُخلَقَ الناسُ كقولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾؟ [البقرة: ٢٨]. وأما قولُهُ: ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ فيقولُ: لا يَمْلِكونَ أنْ يَزيدوا في هذا الأجَلِ المُؤَجَّلِ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أي بَعْثاً بَعْدَ المَوتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أنْ يُميتوا حَيًّا قَبْلَ أجلِهِ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ ولا يُحْيُوا(٤) مَيْتاً إذا جاءَ أجلُهُ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ أي بَعْثاً على ما ذَكَرْنا، وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يَعْنونَ هذا القرآنَ الذي أُنْزِلَ على رسولِهِ(٥)، وكانَ يَقْرَؤُهُ عليهِمْ، فيقولونَ(٦): ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كَذِبٌ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ واخْتَرَعَهُ(٧) من نَفْسِهِ.

إنَّ أهلَ الشركِ كانوا يُكَذِّبونَ الأنباءَ والأخبارَ مِنْ غَيرِ أنْ كانَتْ لهمُ الأسبابُ التي بها ما يُوصَلُ إلى مَعْرِفَةِ صِدْقِ الأخبارِ وكَذِبِها. وكذلكَ كانَتْ عادَتُهُمْ وهِمَّتُهُمْ. والأسبابُ التي يُعْرَفُ بها صِدْقُ الأخبارِ وكَذِبُها، هي الكُتُبُ السماويَّةُ والرُّسُلُ الذينَ(٨) نَطَقوا عنْ وَحْيِ السماءِ.

فَكُفَّارُ مكةَ لم يكُنْ لهمْ واحدٌ مِنْ هذينِ. فكيفَ ادَّعَوا على رسولِ اللهِ اخْتِلافَ هذا القرآنِ واخْتِراعَهُ مِنْ نفسِهِ وأنهُ مُفْتَرٍ على غَيرِ كَونِ أسبابِ مَعْرِفَةِ الكَذِبِ والصِّدْقِ لهمْ في الأخبارِ مَعَ ما ظَهَرَتْ لهمْ آياتُ رسالتِهِ وأعلامُ صِدْقِهِ في الإخبارِ حينَ(٩) لم يُؤْخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، ولا رَأَوْهُ اخْتَلَفَ إلى أحدٍ مِنْ أهلِ الكتابِ، ولا كانَ يُحْسِنُ أنْ يَخُطَّ بيدِهِ كتاباً، وما قَرَعَ أسماعَهُمْ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخِرِ الأبَدِ [التَّحْريرُ والتَّقْريعُ بقولِهِ](١٠): ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقولِهِ: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

فَدَلَّ عَجْزُهُمْ وتَرْكُ تَكَلُّفِهِمْ ذلكَ على أنهمْ عَرَفوا أنهُ مِنْ عندِ اللهِ وأنهمْ/ ٣٧٥ـأ/ كَذَبَةٌ في قولِهِمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قالوا: إنهُ إفْكٌ مُفْتَرًى، وأعانَهُ على ذلكَ قومٌ آخرونَ في افْتِرائِهِ واخْتِراعِهِ، وهم قومٌ مِنْ أهلِ الكتابِ، أسْلَموا، وقد كانوا يَجِدونَ في التوراةِ والإنجيلِ بَعْثَهُ(١١) وصِفَتَهُ وماكانَ أَنْبَأَهُمْ رسولُ اللهِ، وأخْبَرَهُمْ(١٢) مِنَ الأنباءِ المُتَقَدِّمَةِ والأخبارِ الماضيةِ، فأخْبَرُوهُمْ بذلكَ حينَ سأَلَهُمْ أولئكَ المُشْرِكينَ عمَّا يُخْبِرُهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ وقالوا: إنهُ كما يَقولُ، وإنهُ صادقٌ في ذلكَ كلِّهِ، وإنا نَجِدُ ذلكَ في كِتابِنا.

فلما سَمِعوا ذلكَ مِنْ أهلِ الكتابِ ما سَمِعوا مِنْ تَصْديقِهِمْ إياهُ؛ عندَ ذلكَ قالوا: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

ثم أَخْبَرَ أنهمْ﴿جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾. أمَّا قولُهُ: ﴿ظُلْمًا﴾ فلأنهمْ كذَّبوهُ [وقالوا](١٣): إنهُ مُفْتَرًى مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لهمْ أسبابُ الكَذِبِ والصِّدْقِ. فهو ظُلْمٌ حينَ(١٤) وَضَعوا ذلكَ [في غَيرِ مَوْضِعِهِ](١٥).

وأمَّا قولُهُ: ﴿وَزُورًا﴾ فلأنهمْ(١٦) قالوا: إنهُ مُخْتَلِفٌ، وإنهُ سِحْرٌ، وإنهُ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وإنهُ أعانَهُ ﴿عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

الآية ٥ [وقولُهُ تعالى](١٧): ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قد ظَهَرَ كَذِبُهُمْ بهذا في ما بَيْنَهُمْ، لأنهمْ، ما(١٨) رَأَوْهُ اخْتَلَفَ إلى واحدٍ منهمْ، يُعَلِّمُهُ ذلكَ، وما(١٩) رَأَوْهُ كَتَبَ شيئاً قَطُّ، أو يُحْسِنُ الكِتابَةَ قَطُّ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: آلهة لا أصنام. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: التي. (٤) في الأصل وم: يحيون. (٥) من م، في الأصل: رسول الله. (٦) من م، في الأصل: بقوله. (٧) في الأصل وم: ويخترعه. (٨) في الأصل وم: الذين. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قوله. (١١) في الأصل وم: نعته. (١٢) في الأصل وم: ويخبرهم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل: غير موضوعه، في م: غير موضعه. (١٦) في الأصل: كأنهم، في م: لأنهم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: متى. (١٩) في الأصل وم: أو متى.

فإذا عَرَفَ تلكَ الأنباءَ والأحاديثَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ، ولاشَكَّ أنها لم تكنْ بلسانِ أولئكَ، دلَّ إخبارُهُ عمَّا في كُتُبِهِمْ بلسانِهِ أنهُ عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: غُدُوًّا وعَشِيًّا. فلو كانَ على ذلكَ لكانَ [الكَفَرَةُ][1] يَحضُرُونَهُ في البُكْرَةِ والعَشِيِّ، فَيَسْمَعُونَهُ، ويُشاهِدونَ[2] ما يُملَى عليهِ؛ إذِ الوَقْتُ وَقْتُ الحُضورِ.

ولكنْ عندَنا كأنَّهُمْ أرادوا بالبُكْرَةِ والعَشِيِّ أوَّلَ الليلِ وآخِرَهُ الأوقاتَ التي هي ليسَتْ بأوقاتِ الحُضورِ والجلوسِ؛ يقولونَ: يأتونَهُ سِرًّا [وهي، تُملَى عليهِ، ويَتَعلَّمها][3]. فلو كانَ ذلكَ أيضاً لكانوا يُراقِبونَهُ، ويُحافِظونَهُ سِرًّا لِيَعْرِفوا ذلكَ، ويُشاهِدوهُ. فإذا لم يَفْعَلوا ذلكَ دلَّ أنهم كانوا يَعْرِفونَ صِدْقَهُ وأنهمْ كَذَبَةٌ في زَعْمِهِمْ. لكنهمْ كابَروهُ، وعانَدوهُ في ذلكَ.

الآية ٦ ثم أخبَرَ أنهُ إنما أنزَلَهُ عليهِ ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حينَ[4] قالَ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ بِمُختَلَقٍ منهُ ولا مُفتَرًى.

ثم قولُهُ: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يَعْلَمُ الأعمالَ الخَفِيَّةَ والسِّرِّيَّةَ مِنْ أهلِ السمواتِ والأرضِ، أي يَعْلَمُ الكوامِنَ التي في السموات والأرضِ وخَفِيَّاتِها.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي قُلْ لهمْ يا محمدُ: أنزَلَهُ أي هذا القرآنَ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ.

وذلكَ لأنهمْ[5] قالوا بمكةَ سِرًّا: ﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بل هو ساحِرٌ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

ففي ذلكَ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ لأنهمْ قالوا سِرًّا في ما بَيْنَهُمْ، ثم أخبَرَهُمْ بذلكَ. دلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ في تأخيرِ العذابِ. يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إذا تابوا عنْ ذلكَ، وآمنوا بهِ، ورَجَعوا إلى الحقِّ أو ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، أي برحْمَتِهِ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، لَعَلَّهُمْ يَتوبونَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿تَبَارَكَ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ البَرَكَةِ. وكذلكَ قالَ الكِسائيُّ، وقد ذَكَرْنا ذلكَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: تَنْزيهٌ مِثْلُ قولِكَ: تعالى على ما ذَكَرْنا، وقالَ: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو الحقُّ، فَرْقٌ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والقرآنُ، هو مِنْ قَرَنَ بَعْضاً إلى بَعْضٍ، والزَّبورُ، هو اسْمُ كتابٍ، والزُّبُرُ جَميعٌ، وزَبَرْتُ كَتَبْتُ، والزُّبَرُ قِطَعُ الحديدِ كقولِهِ: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] الواحدةُ[6] زُبْرَةٌ. والتوراةُ اسْمُ كتابٍ لا أظُنُّهُ بالعربيَّةِ[7]. وقالَ أبو مُعاذٍ: الأساطيرُ الأحاديثُ، واحِدَتُها[8] أُسطورَةٌ كأُرْجوزَةٍ وأراجيزَ وأُحْدوثَةٍ وأحاديثَ وأُعْجوبَةٍ وأعاجيبَ. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وهي تُمَلُّ عليهِ، وهما لُغتانِ[9]. وفي سورةِ البقرةِ: ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كانَ الكَفَرَةُ يَطْعَنونَ رسولَ اللهِ ﷺ بِشَيْئَيْنِ:

أحَدُهما: أنهُ مِنَ البَشَرِ بقولِهِ: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقولِهِ[10] ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] كانوا لا يَرَوْنَ أنْ يكونَ مِنَ البَشَرِ رسولٌ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الآية [الأنعام: ٨] وقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] ونَحْوُ ذلكَ.

والثاني: كانوا يَطْعَنونَهُ[11] بالفَقْرِ والحاجةِ وصَفارَةِ اليَدِ حينَ[12] قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويشاهدونه. (٣) في الأصل وم: فتملى عليه وتعلمه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: الواحد. (٧) دليل ظنه ما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]: وقيل سمي إنجيلاً لما يجلي، وهو من الإظهار في اللغة، وقيل: سمي التوراة توراة أوريت الزند: وهو كذلك، والله أعلم. (٨) في الأصل وم: واحدها.
(٩) الأولى: أملى من مادة: م ل ي، والثانية: أمَلَّ من مادة: م ل ل، انظر اللسان، ثم انظر معجم القراءات القرآنية ج١/ ٢٢١ وج٤/ ٢٧٤.
(١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: يطعنون. (١٢) في الأصل وم: حيث.

[الفرقان: ٨] وحينَ[1] قالوا: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] يُنكِرونَ الرِّسالةَ في الفقراءِ وذوي الحاجةِ، ويَرونَها في ذَوي المُلْكِ والأموالِ. ولذلكَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فَعَلى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وفي حوائجِهِ كما يَمْشي الفقراءُ. ولو كانَ رسولاً لكانَ مَلِكاً غنيًا، يأكلُ طعامَ الملوكِ، ولا تقعُ لهُ الحاجةُ إلى أنْ يَمْشيَ في الأسواقِ وفي حوائجِهِ.

فأجابَ لهمْ في طَعْنِهِمْ فيهِ أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ وإنكارِهِمُ الرسالةَ في البَشَرِ في وُجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الآية [الأنعام: ٨] مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ. أنهُ لا يُنزِلُ المَلَكَ إلّا بالعذابِ. فلو أنْزَلَ لأنْزَلَ بالعذابِ، فأُهلِكوا.

والثاني: ما قالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ الآية [الأنعام: ٩] تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لم يَجْعَلْ في وُسْعِ البَشَرِ رُؤيَةَ المَلَكِ على صُورَتِهِ وعلى ما هو عليهِ؛ إذْ جِنْسُ هذا غيرُ جِنْسِ أولئكَ، وجَوْهَرُهُ غيرُ جوهرِ أولئكَ. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ هكذا كُنّا لَبَسْنا عليهِمْ ما كانَ يَلْبِسُ أولئكَ القادةُ على الأتباعِ كقولِهِمْ[2]: إنهُ ساحِرٌ، وإنهُ كذّابٌ، وإنهُ مَجنونٌ، فكانَ ذلكَ تَلْبيساً[3] عليهِمْ.

والثالثُ: ما قالَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ الآية [الإسراء: ٩٥] أي لو كانَ أهلُ الأرضِ ملائكةً لكُنّا أنزَلْنا عليهِمُ الرسولَ مَلَكاً مِنْ جِنْسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ لأنهُمْ أعرَفُ بهِ، وأظهَرُ صِدْقاً عندَهُمْ مِمَّنْ هو مِنْ غيرِ جَوهَرِهِمْ وجِنْسِهِمْ.

فإذا كانَ أهلُ الأرضِ بَشَراً فالرسولُ إذَنْ كانَ منهمْ؛ فهُمْ أعرَفُ بهِ، وصِدْقُهُ أظهَرُ عندَهُمْ، وقلوبُهُمْ إليهِ أميَلُ إلى مَنْ هو مِنْ غيرِ جِنْسِهِمْ.

وأجابَ لِطَعْنِهِمْ في أكلِهِ ومَشْيِهِ في الأسواقِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] في حَوائجِهِمْ، أي[5] غيرُهُ مِنَ الرسلِ الذينَ تُؤمنونَ أنتمْ بهمْ كانوا فُقراءَ، يأكلونَ الطعامَ، ويَمشونَ في حَوائجِ أنفسِهِمْ. ثم لم يَمْنَعْ ذلكَ عنْ أنْ يكونوا مَوضِعاً لِرسالَتِهِ.

فَعَلى ذلكَ محمدٌ: الفَقيرُ وذو الحاجةِ أحقُّ أنْ يكونَ مَوضِعاً لِرسالَتِهِ مِنَ الغَنيِّ، الثَّريِّ لأنَّ الناسَ يَتْبَعونَ الغَنيَّ ومَنْ لهُ المُلْكُ والثَّرْوَةُ. فلو كانَ الرسولُ غنيًا ثَرِيًا مَلِكاً لكانَ لا يَظْهَرُ مُتْبِعُ الحَقِّ مِنْ غيرِهِ. وإذا كانَ فَقيراً مُحتاجاً لَظَهَرَ ذلكَ، اللهُمَّ إلّا أنْ يكونَ مُلْكُهُ[6] هو آيةً لِرسالَتِهِ[7] نَحْوَ مُلْكِ سُليمانَ وداوودَ. [وذلكَ بِنَفْسِهِ][8] آيةٌ لِرسالَتِهِ على ما قال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ كأنهمْ قالوا ذلكَ لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ قالوا / ٣٧٥ ـ ب/ عندَ ذلكَ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

الآية ٨ وقالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ عندَ سَماعِ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٢] أي قالوا: لو كانَ محمدٌ رسولَ مَنْ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ونذيراً لِلعالَمينَ على ما يقولُ لكانَ أُنزِلَ معهُ مَلَكٌ نذيرٌ، أو لكانَ أُعطِيَ هو كَنزاً أي مالاً ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ على ما يكونُ لِرُسُلِ ملوكِ الأرضِ.

لكنَّ الجَوابَ لهمْ ما ذُكِرَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [الفرقان: ١٠] أي لو شاءَ اللهُ أعطاكَ خَيراً مِمّا يقولونَ مِنَ البُستانِ والقُصورِ على ما أعطى غَيرَكَ. لكنْ ليسَ في ما مَنَعَ مَنْقَصَةٌ لكَ، ولا في ما أعطاهُمْ فَضيلَةٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) في الأصل وم: تلبيس. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: إلى.
(٦) في الأصل وم: ملكا. (٧) في الأصل وم: الرسالة. (٨) في الأصل وم: ذلك لنفسه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتَّبِعونَ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ لا تَزالُ عادَتُهُمْ بِنِسْبَةِ الرسولِ إلى السِّحْرِ والجُنونِ والكَذِبِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟﴾؟ فتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أيِ انْظُرْ إلى سَفَهِهِمْ أنْ ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ وشَبَّهوكَ بها؟ نَسَبوكَ مَرَّةً إلى السِّحْرِ، وقالوا: إنكَ ساحرٌ، ومَرَّةً إلى الجُنونِ، وقالوا: إنكَ مَجنونٌ، ومَرَّةً إلى الكَذِبِ حينَ[1] قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] ونَحْوَ هذا ممّا كانوا يَنْسِبونَهُ إليهِ.

فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: انْظُرْ إلى سَفَهِهِمْ أنْ ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ ونَسَبوكَ إلى ما ذَكَروا، وعلى عِلْمٍ منهمْ أنكَ لَسْتَ كذلكَ، ولا على ذلكَ، وإنكَ على الحَقِّ، وهُمْ على باطلٍ وكَذِبٍ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾؟ ما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وأمثالُ ما سَألوا، وقالوا[2]: لو كانَ ما يَقولُ: إنهُ رسولٌ لَكانَ ذلكَ لهُ أعلامُ الرسالةِ وأماراتُ صِدْقِهِ، فَيُخْبِرُ أنَّ الأعلامَ والآياتِ لَيسَتْ تأتي على شَهَواتِ سُؤالِ المُعانِدينَ وأمانيهِمْ.

ولكنْ إنما تَجيءُ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ ما يدلُّ على صِدْقِ ما ادَّعى، ويُظْهِرُ كَذِبَ مَنْ عانَدَ، وتَولّى. وقد أتاهُمْ بِحَمْدِ اللهِ بِحُجَجٍ وبَراهينَ ما أظْهَرَ لهمْ صِدْقَ ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، ولكنَّهُمْ عانَدوها، وكابَروا، فلم يُقِرُّوا بها خَوفاً أنْ تَذْهَبَ عنهُمْ رئاسَتُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَلُّوا۟﴾ لاشكَّ أنهمْ قد ضَلُّوا عنِ الهُدى، أي عَدَلوا بِضَرْبِهِمُ الأمثالَ لهُ ونَسَبِهِمْ إيّاهُ إلى ما نَسَبوهُ إليهِ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الهُدى أو إلى ما سَألوا مِنَ الأشياءِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: فلا يَهْتَدونَ سبيلاً. وقالَ بعضُهُمْ: فلا يَسْتَطيعونَ مَخْرَجاً مِنَ الأمثالِ التي ضَرَبوها لكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ خَرَجَ جوابَ ما سألوا مِنَ الأشياءِ مِنَ المَلَكِ والكَنْزِ والجنةِ وأنواعِ الطعنِ الذي طَعَنوهُ، أي لو شاءَ لأعطاكَ خَيراً مِنْ ذلكَ.

ثم أخْبَرَ أن الذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ السؤالِ وأنواعِ الطَّعْنِ فيه، هو تكذيبُهُمْ بالساعةِ حينَ[3] لم يَرَوا لأمورِهِمْ عاقبةً، يَنْتَهونَ إليها: يُثابونَ عليها، أو يُعاقَبونَ.

الآية ١١ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾][4].

ثم أخْبَرَ ما أعَدَّ لهمْ بِتَكْذيبِهِمُ الساعةَ، فقالَ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

الآية ١٢ ثم وَصَفَ ذلكَ السَّعيرَ، فقالَ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][5]: يَجْعَلُ لها أسباباً: تَراهُمْ بها كما يَرَونَها [بتلكَ الأسبابِ.

والثاني: إذا صارَ الكَفَرَةُ][6] في مكانٍ بحيثُ يَرَونَها كأنها رأتْهُمْ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ قيلَ: إنَّ النارَ، تَرْفَعُ، وتُغْلي لَهَبَها، وتَرِدُ مِنْ مكانٍ مِنْ أعلاها إلى أسْفَلِها [وتَرِدُ مِنْ مكانٍ مِنْ أسْفَلِها][7] فَتَجْمَعُهُمْ جميعاً، فَيَضيقُ عليهمُ المكانُ، ويَشْتَدُّ بهمُ العذابُ؛ كلَّما ضاقَ عليهمُ المكانُ كانَ العذابُ لهمْ أشَدَّ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فيقولون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم، وإذا صار ما. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُه تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُقَيَّدِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الشيطانُ يُقرَنُ، ويُقَيَّدُ: كلٌّ بشيطانِهِ الذي دَعاهُ إلى ما دَعاهُ، وأتْبَعَهُ، كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَٰنًا﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقالَ بعضُهُمْ: يُقرَنُ العابدُ والمَعْبودُ مِنْ دونِ اللهِ، وهو الأصنامُ التي عَبَدوها كقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية [الصافات: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي هلاكاً. والثُّبورُ الهلاكُ كقولِه: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي هالكاً. والثُّبورُ والوَيلُ، هما حَرْفانِ، يَدْعُو بهما كلُّ مَنْ كانَ في الهَلَكَةِ والشِّدَّةِ.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي لا تَدْعُوا هلاكاً واحداً كما يكونُ في الدنيا أنَّ مَنْ هَلَكَ مَرَّةً لا يَهْلِكُ ثانياً. وأمّا في النارِ فإنَّ لأهلِها هَلَكاتٍ لا تُحصى كقولِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابُ الموتِ تأتيهِ[2] مِنْ كلِّ مكانٍ ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] وكقولِهِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ الآية [النساء: ٥٦].

وإنما يَسْألونَ، ويَدْعونَ بالهلاكِ لِما يَرْجونَ مِنَ الهلاكِ النجاةَ مِنْ ذلكَ العذابِ. وهكذا كلُّ مَنِ ابْتُلِيَ بِبَلاءٍ شديدٍ يَتَمَنّى الهَلاكَ والمَوتَ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قالَ هذا لِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ و٨] فيقولُ: أذلكَ الذي سألْتُموهُ أنتم ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؟ أو يكونَ قالَ ذلكَ لِما رَأَوا لأنفسِهِمُ الفَضْلَ والمَنْزِلَةَ في الدنيا لَمّا وَسَّعَ عليهِمُ الدنيا، وأُعْطُوا مِنْ حُطامِها، فقالَ: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي أُعْطيتُمْ في الدنيا مِنَ السَّعَةِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ مما سَألَتْهُ لهمُ الملائكةُ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية [غافر: ٨] أو[3] سؤالِ الرُّسُلِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٤] أو ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ ممّا سألوا ربَّهُم، فَوَعَدَ لهمْ ذلكَ.

فهذا يَدُلُّ أنهمْ إنما يَدْخُلونَ الجنةَ بالسؤالِ والتَّشَفُّعِ لهمْ والتَّضَرُّعِ، لا أنهمْ يَسْتَوجِبونَ ذلكَ بأعمالِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ في السَّلاسِلِ؛ ذلكَ أنهمْ إذا أُلْقُوا فيها تَضايَقَتْ عليهِمْ كتَضايُقِ الزُّجِّ في الرُّمْحِ، فالأسفَلونَ، يَرْفَعُهُمُ اللَّهَبُ، والأعلَونَ، يُخْفِضُهُمُ اللَّهَبُ، فَيَزْدَحِمونَ في تلكَ الأبوابِ الضَّيِّقَةِ، فَتَضيقُ[4] عليهِمْ. فعندَ ذلكَ يَدْعونَ بالثُّبورِ؛ يقولونَ: يا ثُبوراهُ، ويا وَيلاهُ.

ورُوِيَ مِثْلُهُ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ؛ وكانَ يقولُ: إنَّ جَهَنَّمَ لَتَضيقُ على الكافِرِ كَضِيقِ الزُّجِّ في الرُّمْحِ، وقولُهُ: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ يقولونَ[5]: وَيْلاً، وهَلاكاً، ويقولُ[6] اللهُ تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ثم يقولُ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يَعْني الذي ذَكَرَ ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ أي مَنْزِلاً.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّغَيُّظُ مِنَ الغَيظِ، والزَّفيرُ [والشَّهيقُ، يكونانِ][7] في الحَلْقِ، وشَهَقَ يَشْهَقُ شَهيقاً وشَهْقاً، وهو نَفَسٌ في الحَلْقِ شَديدٌ، لهُ صوتٌ. وقالَ: ﴿ثُبُورًا﴾ أي هَلاكاً، وصَرْفُهُ: ثَبَرَ يَثْبُرُ ثَبْراً، فهو مَثْبورٌ. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي تَغَيُّظاً عليهِمْ. كذلكَ قالَ المُفَسِّرونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: بل يَسْمَعونَ فيها تَغَيُّظَ المُعَذَّبينَ وزَفيرَهُمْ، واعْتَبَروا ذلكَ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

---

(١) في الأصل وم: فقال. (٢) في الأصل وم: يأتيهم. (٣) في م: و. (٤) في الأصل وم: تضايق. (٥) في الأصل وم: يقول. (٦) في الأصل وم: قال. (٧) في الأصل وم: الشهيق يكون.

[هود: ١٠٦]. واعتبَرَهُ الأوَّلونَ بِقولِهِ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]. وهذا أشْبَهُ التَّفْسيرَيْنِ، إنْ شاءَ اللهُ، لأنهُ قالَ: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ ولم يَقُلْ: سَمِعوا فيها، ولا: منها.

وقالَ: ﴿ثُبُورًا﴾ أي يالَلْهَلَكَةِ كما يقولُ القائلُ: واهلاكاهُ، واللهُ أعلَمُ/ ٣٧٦ ـ أ/

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ اختُلِفَ [فيهِ][1] قالَ بعضُهُمْ: يَحْشُرُ أولئكَ الذينَ عَبَدوا دونَ اللهِ والمَعْبودِينَ، وهُمُ الملائكةُ، لأنَّ مِنَ العَرَبِ مَنْ قَدْ عَبَدوا [الملائكةَ مِنْ دونِ اللهِ][2] كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية [سبأ: ٤٠ و٤١].

وقالَ [بعضُهُمْ: هو][3] عيسى، يَحْشُرُ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَنْ عَبَدوهُ لأنهُ قد عُبِدَ دونَ اللهِ، فيقولُ لهُ ما ذُكِرَ [وهو قولُهُ][4] ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ١١٥].

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْشُرُ الأصنامَ ومَنْ عَبَدها، ثم يَأْذَنُ لها في الكلامِ، فيقولُ: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨ و٢٩]

ولو كانَ عيسى ﷺ والملائكةُ لكانوا عالِمينَ بِعبادَتِهِمْ إيّاهُمْ غَيرَ غافلينَ. دلَّ ذلكَ أنها الأصنامُ التي عَبَدوها دونَ اللهِ، وإيّاها يُسْألونَ، وكلُّ ذلكَ مُحتمِلٌ، إذْ قد كانَ منهمْ ذلكَ كلُّهُ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ واللهُ ﷻ كانَ عالماً ما كانَ منهمْ. لكنَّ السؤالَ إيّاهُمْ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ مُخرَجَ توبيخِ أولئكَ الكَفَرَةِ وتَعْييرِهِمْ لأنهمْ يَعْبُدونَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ دونِ اللهِ، ويقولونَ: هُمْ أمروهُمْ بذلكَ، وكانوا مَقبولِي القولِ عندَهُمْ صادِقِينَ في ما يُخبِرونَ، ويَقولونَ.

فأرادَ أنْ يُظْهِرَ كَذِبَهُمْ عندَ الخَلائقِ. لذلكَ سألَهُمْ، واللهُ أعلَمُ، بالكائنِ منهمْ مِنْ أنفسِهِمْ. لكنهُ يُخَرَّجُ على ما ذَكَرْنا. ثم نَزَّهوهُ عن جميعِ ما لا يَليقُ بِهِ، وبَرَّؤوا أنفسَهُمْ عن أنْ يكونَ منهمْ أمرٌ أو شيءٌ مما نَسَبوا أولئكَ إليهِمْ، وهو أعلَمُ بهِمْ:

الآية ١٨ فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي أرباباً، وهُمْ لم يَتَّخِذوا أرباباً مِنْ دونِهِ.

لكنهُ عندَنا يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحَدُهما: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هُمُ المؤمنونَ.

[والثاني][5]: أنْ يكونَ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن﴾ دونِ وِلايَتِكَ وِلايةَ سِواكَ.

وفي بعضِ القراءاتِ أنْ نُتَّخَذَ مِنْ دونكَ مِنْ أولياءَ بِرَفْعِ النونِ[6]. لكنَّ أهلَ الأدبِ يقولونَ: هو خَطأٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ آباءَهُمْ قد أُمْهِلوا، ومُتِّعوا في هذهِ الدنيا حتّى ماتوا على ذلكَ مِنْ غَيرِ [أنْ][7] أصابَهُمْ شيءٌ مِمّا أُوعِدوا في كِتابِهِمْ وما أوعَدَهُمُ الرُّسُلُ مِنَ العذابِ والهلاكِ على ما اختاروا مِنَ الدينِ وصَنيعِهِمْ، فَظنُّوا أنهمْ على حقٍّ مِنْ ذلكَ حينَ[8] لم يُصِبْهُمْ مِنَ المواعيدِ المذكورةِ في كتابِهِمْ. أو ما أوعَدَهُمْ رُسُلُهُمْ بشيءٍ. فَعلى هذا التأويلِ الذِّكْرُ الذي إنهمْ نَسُوهُ، هو كتابُهُمْ، أو ما أوعَدَهُمْ رُسُلُهُمْ، واللهُ أعلَمُ، فإنْ كانَ على هذا فالآيةُ في أهلِ الكتابِ منهم.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: من دون الله، في م: الملائكة. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: كقوله. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢٧٩. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث.

[والثاني][1]: يَحتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في الفراعنةِ والقادةِ مِنْ هؤلاءِ الكَفَرَةِ، مُتِّعوا بأحوالٍ ورئاسةٍ، وَوَسَّعَ عليهمُ المعيشةَ حتى دَعَوُا الناسَ وأتْباعَهُمْ إلى ما هُمْ عليهِ مِنَ التكْذيبِ برسولِهِ وما أُنْزِلَ عليهِ، فأُجيبوا بالأموالِ عندَهُمْ، فَنَسُوا ما في القرآنِ مِنَ الوَعيدِ ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

والبُورُ: قالَ بعضُهُمْ: الهلاكُ، وقالَ بعضُهُمْ: البُورُ الفَسادُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي فقد كذَّبكُمْ أولئكَ المَعْبودونَ بما تقولونَ: إنهمْ أمَرونا بذلكَ، وكانوا عندَهُمْ صَدَقَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها: أي ما يَسْتَطيعُ أولئكَ الكَفَرَةُ صَرْفَ قولِ مَنْ عَبدوهُمْ[2] وتَكْذيبَهُمْ حينَ كذَّبوهُمْ قولَهُمْ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي ولا استطاعوا الاِنْتِصارَ منهمْ حينَ كَذَّبوهُمْ. وعلى ذلكَ تُخَرَّجُ قراءةُ مَنْ قرأ بالتاءِ[3] ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾.

[والثاني][4]: يَحتَمِلُ: فما يَسْتَطيعُ[5] أولئكَ المَعْبودونَ صَرْفَ عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ عنكُمْ، ولا كانوا لهمْ نُصَراءَ، لأنهم قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا[6]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

والثالثُ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أي فِداءً ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا يُقْبَلُ منهمُ الفِداءُ، ولا كانَ لهمْ ناصرٌ، يَنْصُرُهُمْ في دَفْعِ العذابِ عنهمْ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: [قالَ بعضُهُمْ: الصَّرْفُ الحِيلَةُ مِنْ قولِهِمْ لِيَنْصَرِفَ، و][7] قالَ بعضُهُمْ: الصَّرْفُ النافِلَةُ، سُمِّيَتْ صَرْفاً لأنها زيادةٌ على الواجبِ والعَدْلِ: الفَريضةُ.

وقد رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ طَلَبَ صَرْفَ الحديثِ لِيَبْتَغِيَ بهِ إقبالَ وُجوهِ الناسِ لم يُرَحْ رائحةَ الجَنَّةِ» [بنحوه الترمذي ٢٦٥٤]. أي مَنْ طَلَبَ تَحْسينَهُ بالزيادةِ فيهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الصَّرْفُ [والعَدْلُ: الفِدْيةُ][8]: رجلٌ مِثْلُهُ [كأنهُ يريدُ، لا يُقْبَلُ منهُ أنْ يُفْتَدى برجلٍ مِثْلِهِ][9] وعَدْلِهِ، ولا يَصْرِفُ عنْ نفسِهِ بِدِيَتِهِ. ومنهُ قيلَ: [صَرَّافٌ: صَرَفَ][10] الدَّراهِمَ بالدنانيرِ لأنهُ[11] يَصْرِفُ هذا [إلى هذا][12]. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

قالَ القُتَبِيُّ وأبو عُبَيدَةَ: ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ أي هَلْكَى، وهو مِنْ بارَ يَبورُ إذا هَلَكَ، وبَطَلَ، يُقالُ: بارَ الطَّعامُ، إذا كَسَدَ، وبارَتِ الأَيِّمُ إذا لم يُرْغَبْ فيها. وفي الخَبَرِ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ بَوارِ الأَيِّمِ.

قالَ أبو عُبَيدَةَ: يُقالُ: رَجُلٌ بُورٌ، وقومٌ بُورٌ؛ لا يُثَنَّى، ولا يُجْمَعُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ لا خَيرَ فيهِمْ، ورجلٌ بائرٌ. وكذلكَ قالَ أبو زيدٍ: ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ ليسَ فيهِمْ مِنَ الخَيرِ شيءٌ. وقالَ قَتادَةُ: ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ فاسِدينَ بِلُغَةِ أهلِ عُمانَ، وقالَ: ما نَسِيَ قومٌ ذِكْرَ اللهِ قَطُّ إلاّ باروا، وفَسَدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أمّا على قولِ الخوارجِ، كلُّ ظُلْمٍ ارْتَكَبَهُ [امْرُؤٌ][13] فهو في ذلكَ الوعيدِ على أصلِ مَذْهَبِهِمْ، وعلى قولِ المُعْتَزِلَةِ: كلُّ صاحبِ كبيرةٍ في ذلكَ الوعيدِ. وأمّا على قولِ المسلمينَ: فذلكَ الوعيدُ لِمُرْتَكِبي الظُّلْمِ: ظُلْمِ [الكُفْرِ والشِّرْكِ][14]، وأمّا ما دونَ ذلكَ فهو في مَشيئةِ اللهِ، إنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شاءَ عفا عنهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قد ذَكَرْنا في

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: عبدوه. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٨٠. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يستطيعون. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: الدية والعدل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: صارفي وصرف. (١١) في الأصل وم: لأنك. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: كفر وشرك.

ما تقدَّمَ أنَّ هذا إنما أُخرِجَ جواباً لِقولِ أولئكَ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] فأخبرَ أنَّ الرسُلَ الذينَ[١] كانوا مِنْ قَبْلِ محمدٍ كانوا يأكلونَ الطعامَ، ويَمشونَ في الأسواقِ على ما يأكُلُ هو، ويَمْشي.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ كَرِهَ الركوبَ في الأسواقِ بهذا، وقالَ: إنهُ أخبرَ عنِ الأنبياءِ والرسلِ جُملَةً أنهمْ كانوا، يَمْشونَ في الأسواقِ، لم يَذْكُرْ منهمُ الركوبَ، فَدَلَّ ذلكَ منهمْ أنهُ مَكروهٌ مَنْهِيٌّ.

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ ما قالَ هؤلاءِ: إنهُ[٢] يكونُ مكروهاً، لأنهُ يُخرَجُ الركوبُ في الأسواقِ مُخرَجَ التَّعَزُّزِ والمُباهاةِ.

فالواجبُ على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يكونَ تَعَزُّزُهُ بالإسلامِ وبدينِهِ الذي[٣] اختارَهُ اللهُ تعالى، وخاصَّةً على العلماءِ يجبُ أنْ يكونَ تَعَزُّزُهُمْ ومُباهاتُهُمْ بالعِلْمِ الذي أعطاهُ اللهُ لهمْ، وأكرَمَهُمْ [بهِ][٤] فإنهُ عِزٌّ، لا يَعْقُبُهُ ذُلٌّ، ولا يُورِثُ[٥] صَغاراً ولا قَهراً. وأمّا كلُّ عِزٍّ كانَ سِوَى ما ذَكَرْنا فهو إلى ذُلٍّ، يَصيرُ[٦] سَريعاً، كأنهُ ليسَ بِعِزٍّ في الحقيقةِ، لو تُؤُمِّلَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الفِتْنَةُ كأنها، هي المِحْنَةُ التي فيها شِدَّةٌ وبَلاءٌ.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ: لمّا أسلَمَ عبدُ اللهِ وأبو ذَرٍّ وعَمّارٌ وبِلالٌ وصُهَيبٌ وأمثالُ هؤلاءِ قالَ الفَراعِنَةُ مِنْ قريشٍ نَحْوُ أبي جَهْلٍ والوليدِ/ ٣٧٦ ـ ب/ وأمثالُهُما: انظُروا إلى هؤلاءِ الذينَ اتَّبعوا محمداً: [الذينَ][٧] اتَّبعوهُ مِنْ مَوالينا وأعرابِنا: رِذالَةُ كلِّ قومٍ [فازوَرُّوا عنهمْ][٨] وآذَوهُمْ، واستَهزَؤوا بهمْ. فأنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ لهؤلاءِ الفُقَراءِ الذينَ اتَّبعوا رسولَ اللهِ لِيُصَبِّرَهُمْ على أذاهُمْ، فقالَ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أيِ اصْبِروا على الأمرِ. هذا مُحتَمَلٌ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ جَعَلَ أهلَ البَلْوَى فِتْنَةً لِغَيرِهِمْ، وغَيرَ أهلِ البَلْوَى [فِتْنَةً لأهلِ البَلْوَى][٩]؛ يقولُ الأعمَى: لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَني بَصيراً مِثْلَ فُلانٍ، ويقولُ الفقيرُ: لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَني غَنِيًّا مِثْلَ فُلانٍ، وكذلكَ يقولُ السقيمُ: لو شاءَ اللهُ لَجَعَلَني صَحيحاً مِثْلَ فُلانٍ.

لكنهُ أعطَى لأهلِ البَلْوَى [البَلاءَ][١٠] وأمَرَهُمْ بالصَّبْرِ عليهِ، وأعطَى لأهلِ النِّعْمَةِ النِّعْمَةَ، وأمَرَهُمْ بالشُّكْرِ عليها.

وجائزٌ أنْ يكونَ غَيرَ هذا، وهو قريبٌ مِنْ هذا، وذلكَ أنهُ أعطَى بَعْضاً النِّعْمَةَ والسَّعَةَ، وجَعَلَ بعضَهُمْ أهلَ ضِيقٍ وشِدَّةٍ، ثم جَعَلَ كلَّ فَريقٍ مُحتاجاً إلى الفَريقِ الآخَرِ، جَعَلَ الغَنِيَّ والثَّرِيَّ مُحتاجاً إلى الفقيرِ في بَعْضِ أمورِهِ، والفَقيرَ مُحتاجاً إلى الغَنِيِّ لِغِناهُ، وجَعَلَ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ مُؤْنَةً ما لولا فَقْرُ الفقيرِ لم يَعْرِفِ الغَنِيُّ قَدْرَ غِناهُ ولا الفَقيرُ قَدْرَ فَقْرِهِ، ولا قامَ بَعْضٌ بِكِفايَةِ مُؤْنَةِ بَعْضٍ.

ثم أمَرَ كُلاً بالصَّبْرِ على تَحَمُّلِ مُؤْنَةِ الآخَرِ بقولِهِ: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيِ اصْبِروا، على الأمرِ يُخَرَّجُ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ اسْتِفْهاماً وسُؤالاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي على بَصَرٍ وعِلْمٍ، جَعَلَ بَعْضاً فِتْنَةً لِبَعْضٍ، ليسَ على سَهْوٍ وغَفْلَةٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يَخافونَ، ولا يَخْشَونَ ﴿لِقَآءَنَا﴾ أيِ البَعْثَ بعدَ المَوتِ.

وقالَ أهلُ الكلامِ: الرجاءُ، هو الرجاءُ لا الخَوفُ. لكنْ جائزٌ أنْ يكونَ في الرَّجاءِ خَوفٌ، وفي الخَوفِ رَجاءٌ، لأنَّ الرَّجاءَ الذي لا خَوفَ فيهِ، هو أمْنٌ، والخَوفَ الذي، لا رَجاءَ فيهِ، إياسٌ؛ فكلاهُما مَذمومانِ: الإياسُ والأمْنُ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رُسُلاً دونَ أنْ أُنزِلَ البَشَرُ رُسُلاً إلينا لإنكارِهِمُ البَشَرَ رُسُلاً كقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و٣٣].

ويَحتَمِلُ قولُهُمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الوَحْيُ والرِّسالَةُ لنا دونَكَ، ونحنُ الرُّؤَساءُ والمُلوكُ والقادةُ دونَكَ؛

---

(١) في الأصل وم: الذي. (٢) في الأصل وم: وإنه. (٣) في الأصل وم: التي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يورثه. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فازورهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

يقولونَ: لو كانَ ما تَقولُ حقًّا وصِدْقاً: إنكَ رسولٌ، وإنهُ يُنَزَّلُ عليكَ الوَحْيُ والمَلَكُ، فنحنُ أولَى بالرسالةِ منكَ؛ إذْ نحنُ الملوكُ والرُّؤساءُ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وأمثالُ هذا لإنكارِهِمُ الرسالةَ لِمَنْ هو دونَهُمْ في الدنياويَّةِ، أو أنْ يكونَ ذلكَ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] أو يكونَ لهُ شاهداً أنهُ رسولٌ.

[وقولُهُ تعالى](1): ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عِياناً، ونُكَلِّمُهُ، ونَسألُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الاِسْتِكْبارُ، هو ألاّ يَرَى [المَرْءُ](2) غيرَهُ مَثَلاً لهُ ولا عَدْلاً ولا شَكْلاً في نَفْسِهِ وأمْرِهِ. فإنْ كانَ هذا فهو ما لم يَرَوا رسولَ اللهِ أهْلاً لِلرِّسالةِ ومَوضِعاً لِصِغَرِ يَدِهِ وحاجَتِهِ، ورَأَوا أنفُسَهُمْ أهلاً لها. فاستِكْبارُهُمْ، هو ما لم يَرَوا غيرَهُمْ(3) مَثَلاً ولا شَكْلاً لأنفسِهِمْ.

فاستَكْبَروا، ولم يَخْضَعوا لرسولِ اللهِ، ولم يُطيعوهُ، ولم يَتَّبِعوهُ أنَفاً منهُ بَعْدَ عِلمِهِمْ أنهُ نُجِزَ لذلكَ، وأنهُ رسولٌ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: العُتُوُّ هو الحَرادَةُ، وهو أشَدُّ مِنَ الاِسْتِكْبارِ. وقالَ بعضُهُمْ: العُتُوُّ هو الغُلُوُّ في القولِ غُلُوًّا شديداً. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ التَّكَبُّرِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [قالَ الحَسَنُ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ هي كلمةٌ](4) مِنْ كلامِ العرَبِ؛ إذا كَرِهَ أحَدُهُمُ الشيءَ قالَ: حِجْراً [مَحجوراً، أي حَراماً مُحَرَّماً](5) فإذا رَأَوُا الملائكةَ [يَكرَهُونَهُمْ قالوا](6): حِجْراً مَحجوراً.

فَعَلَى هذا القولِ الكَفَرَةُ: همْ يقولونَ: حِجْراً مَحجوراً إذا رَأَوُا الملائكةَ وما مَعَهُمْ مِنَ المَواعيدِ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الملائكةَ يَتَلَقَّونَ المؤمنينَ بالبُشْرَى على أبوابِ الجنةِ، ويقولونَ لِلكَفَرَةِ: لا بُشْرَى لَكُمْ، ويقولونَ: حِجْراً مَحجوراً، أي تقولُ الملائكةُ: حرامٌ البُشْرَى لِلمُجْرِمينَ، أو حرامٌ عليهِمُ الجنةُ أنْ يَدْخُلوها. والحِجْرُ على هذا القولِ، هو الحرامُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحِجْرُ ههنا، هو المَنْعُ والحَظْرُ؛ يقولونَ: إنهمْ يُمْنَعونَ، ويُحْظَرونَ عمَّا طَمِعوا، وقَصَدوا، بِعِبادَتِهِمُ الملائكةَ والأصنامَ التي عَبَدوها حينَ(7) قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا(8): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فيقولُ: يُمْنَعُ عنهمْ ما قَصَدوا، وطَمِعوا، بِعِبادَتِهِمُ [الملائكةَ](9).

أو يكونُ المَنْعُ ثوابَ الخَيراتِ التي عَمِلوها في هذهِ الدنيا مِنْ صِلَةِ الأرحامِ والصَّدقاتِ ونَحْوِها ممَّا هي في الظاهِرِ خَيراتٌ، مُنِعُوا ثوابَها في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ونَحْوَ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنَ الأعمالِ [التي](10) عَمِلوها في هذهِ الدنيا رَجاءَ أنْ يَصِلوا إليها في الآخِرَةِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي وعَمِدْنا، وقَصَدْنا إلى ما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ.

لكنْ عندَنا: جَعَلْنا أعمالَهُمْ تلكَ في الأصلِ ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وهو رَهْجُ الدَّوابِّ(11). وقالَ بعضُهُمْ: الهَباءُ المَنْثورُ، هو(12) غُبارُ الثيابِ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الغُبارُ الذي يكونُ في شَعاعِ الشَّمْسِ، وهو(13) الذي يُسَمَّى الذَّرَّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل: كله، في م: قالَ الحسن: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كله. (٥) في الأصل وم: حرام هذا. (٦) في وم: كرهتهم وقال. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: الدابة. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) الواو ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي عَوْذاً مُعاذاً؛ يقولُ: المُجْرِمونَ، يَسْتَعِيذونَ مِنَ الملائكةِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ هو مِنَ التَّكَبُّرِ، ويُقالُ: مِنَ الخِلافِ عَتا عُتِيًّا إذا خالَفَ، يُقالُ في الكلامِ: لا تَعْتِ عَلَيَّ، أي لا تُخالِفْني، وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الشِّدَّةِ واليُبْسِ كقولِهِ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، أي يابساً. وقالَ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حَراماً مُحَرَّماً، وحَجَرْتُ عليهِ مالَهُ، أي مَنَعْتُهُ مِنْ مالِهِ، أحْجُرُ حِجْراً. ويُقالُ: حَجَرْتُ [عَيْنَيهِ، أي][1] لَطَخْتُ أجْفانَها بشيءٍ مِنَ الدواءِ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي لا شيءَ، والهَباءُ هَباءُ النارِ، أي رمادٌ يكونُ على أعْلَى النارِ إذا خَمَدَتْ، ويُقالُ: هَبَتِ النارُ، تَهْبُو هَبْواً إذا خَمَدَتْ، والجَمْرَةُ على حالِها إلّا [أنها قد غَطّاها][3] ذلكَ الهَباءُ، وكلُّ شيءٍ، ليسَ بِشيءٍ، فهو هَباءٌ، وتقولُ: هذا هَباءٌ، أي لا شيءَ، ومَنْثورٌ، قد نُثِرَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وَصَفَ ﷻ أعمالَ الكَفَرَةِ مَرَّةً بالهَباءِ المَنْثورِ ومَرَّةً بالرَّمادِ ومَرَّةً بالسَّرابِ ومَرَّةً بالترابِ الذي يكونُ على الصَّفْوانِ، وهو الحَجَرُ الأمْلَسُ إذا أصابَهُ الوابلُ. وَوَصَفَ أعمالَ المؤمنينَ بالثَّباتِ والقَرارِ ونَحْوِهِ.

وعنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: لا يَنْتَصِفُ النهارُ يومَ القيامةِ حتى يَقيلَ أهلُ النارِ [في النارِ][4] وأهلُ الجنةِ في الجنةِ. ثم قَرَأَ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وكذلكَ ذَكَرَ في حَرْفِهِ في سورةِ الصافاتِ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الآية: ٦٨] أي إلى الجحيمِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لقولِهِمْ: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي لنا أموالٌ وجَناتٌ، وليسَ لهُ مِنْ ذلكَ/ ٣٧٧ ـ أ/ شيءٌ، فقالَ جواباً لهمْ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وَصَفَ السماءَ لِهَولِ ذلكَ اليومِ بأوصافٍ، وذَكَرَ لها أحوالاً، فقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١] وقالَ[5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقالَ[6]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقالَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقالَ[7]: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ونَحْوَ ذلكَ.

وذلكَ في اخْتِلافِ الأوقاتِ، يكونُ في كلِّ وَقْتٍ على الحالِ التي وَصَفَ، وكذلكَ ما وَصَفَ [الجبالَ][8] مَرَّةً بالهَباءِ المَنْثورِ [بقولِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وشَبَّهَها مَرَّةً بالعِهْنِ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]][9] ومَرَّةً [قالَ][10]: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ومَرَّةً قالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ الآية [النمل: ٨٨] ونَحْوَهُ مِنَ الأوصافِ التي وَصَفَها، وذلكَ في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ تكونُ في كلِّ وَقْتٍ على حالٍ وَوَصْفٍ.

فَعَلَى ذلكَ السماءُ لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ وفَزَعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي تَنْشَقُّ عنِ الغَمامِ، فَتَبْقَى بِلا غَمامٍ كقولِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي يَبْقَى الغمامُ فَوقَ رؤوسِ الخلائقِ يُظِلُّهُمْ. وهذا يدلُّ على أنَّ قولَهُ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] إنما مَعْناهُ: يُظَلِّلُ مِنَ الغَمامِ.

فإنْ كانَ على هذا فَيَرْتَفِعُ الاشْتِباهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ تَحْتَمِلُ إضافةُ مُلْكِ ذلكَ اليومِ إليهِ، وإنْ كانَ المُلْكُ لهُ في جميعِ الأيامِ في الدنيا والآخِرَةِ، وُجوهاً:

---

(١) من م، في الأصل: عيشه أو. (٢) من م، في الأصل الغداوة. (٣) في الأصل وم: إنه قد غطاه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُها: لِما أنَّ مُلكَ الآخِرَةِ مُلكٌ دائمٌ باقٍ، لا[1] فَناءَ لهُ، ومُلكَ الدنيا، جَعَلَهُ فانياً، لا دَوامَ [لهُ][2]، ولا بَقاءَ.

والثاني: يُقِرُّ لهُ جميعُ الخلائقِ بالمُلْكِ لهُ في ذلكَ اليومِ، وإنْ لم يُقِرَّ لهُ البَعْضُ بِمُلْكِ الدنيا.

والثالثُ: لِما [لا][3] يُنازِعُهُ أحَدٌ في مُلْكِ ذلكَ اليومِ، وإنْ كانَ لهُ مُنازِعٌ في الدنيا.

أو أنْ يكونَ المَقصودُ بِخَلْقِ هذا العالَمِ لِذلكَ[4] اليومِ، يَظْهَرُ لِلخَلْقِ [يومئذٍ. ثم][5] يَعْلَمُ كُلٌّ أنَّ خَلْقَهُمْ في الدنيا لذلكَ اليوم كانَ لا للدُّنيا خاصَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ذَكَرَ هنا الرحمنَ، وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] لِتَعْلَمَ العَرَبُ أنَّ الرَّحْمنَ المَذْكورَ في هذهِ الآيةِ، هو اللهُ الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ٢٥٥ و...] [والذي][6] ذَكَرَ في تلكَ الآيةِ لأنَّ العَرَبَ تُسَمّي، وتَعْرِفُ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، ولا تَعْرِفُ الرحمنَ مَعْبوداً ولا تَسْمِيةَ الرَّحْمنِ، فَعَرَّفَهُمْ أنَّ اللهَ والرَّحْمنَ [اللَّذَينِ ذَكَرَهُما][7] واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ ظاهِرٌ، لا شَكَّ فيهِ، فكذلكَ يكونُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتِ الآيةُ في عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ؛ كانَ يُؤاخي رسولَ اللهِ ﷺ، ويُوادُّهُ، وكانَ رسولُ اللهِ يُجيبُهُ إذا دعاهُ إلى طَعامِهِ، فَدَعا يوماً رسولَ اللهِ إلى طَعامِهِ، فقالَ: لا حتى تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ، فَشَهِدَ بذلكَ، فَطَعِمَ مِنْ طَعامِهِ، فَبَلَغَ ذلكَ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ، فأتاهُ، فقالَ: صَبَوتَ يا عُقْبَةُ [إلى محمدٍ][8] وأجَبْتَهُ إلى ما دَعاكَ إليهِ، وَعَيَّرَهُ[9] على ذلكَ حتى رَجَعَ عُقْبَةُ عنْ ذلكَ، وارْتَدَّ عنْ دينِهِ. وفي الحديثِ طولٌ. فنزلتِ الآيةُ في شأنِهِ وصَنيعِهِ ونَدامَتِهِ وحَيرَتِهِ على ما فَعَلَ، فقالَ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. وذُكِرَ أنَّ عُقْبَةَ، وأُبَيَّ بنَ خَلَفٍ قُتِلا: أحَدُهما يومَ بَدْرٍ والآخَرُ يومَ أُحُدٍ [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٠ و٢٥١].

ولكنَّ الآيةَ في كلِّ ظالم وكلِّ كافرٍ يكونُ على ما ذَكَرَ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ على التَّمْثيلِ والكِنايةِ عنِ النَّدامَةِ والحَسْرَةِ، لأنَّ مَنِ اشْتَدَّتْ بهِ النَّدامَةُ والحَسْرَةُ والغَيظُ على شيءٍ، يكادُ يَعَضُّ يديهِ غَيظاً منهُ على ذلكَ، كما كَنّى بِغُلِّ اليَدِ عنْ تَرْكِ الإنفاقِ وبالبَسْطِ عنْ كَثْرَةِ الإنفاقِ والمُجاوَزَةِ فيهِ، وكما كَنّى بالنَّبْذِ وراءَ الظَّهْرِ عنْ تَرْكِ الانْتِفاعِ وقِلَّةِ النَّظَرِ فيهِ والاكْتِراثِ إليهِ كقولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] عنِ الرُّجوعِ ونَحْوِهِ وقولِهِ: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وقولِهِ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤] وأمثالُ هذا على التَّمْثيلِ والكِنايةِ عنِ الرجوعِ والثَّباتِ والأخْذِ والتَّرْكِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ عَضُّ الأيدي كِنايةً عنْ شِدَّةِ النَّدامةِ والغَيظِ على ما حَلَّ بهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على التَّحْقيقِ تَحْقيقِ عَضِّ اليَدِ [إذْ][10] يَجْعَلُ اللهُ عُقوبَتَهُ بِعَضِّ اليَدِ كما جَعَلَ عُقوبَةَ أنفُسِهِمْ بأنفُسِهِمْ حينَ[11] جَعَلَ أنفسَهُمْ حَطَباً للنارِ، يُعَذَّبونَ، ويُعاقَبونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ السبيلَ الذي دعاهُ الرسولُ إليهِ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يَحْتَمِلُ الإنسانَ، ويَحْتَمِلُ الشيطانَ، أي لم أتَّخِذِ الشيطانَ خليلاً، ولَمْ أُطِعْهُ في ما [دعاني إليهِ][13]، والإنسانَ الذي قَلَّدَهُ في ما قَلَّدَهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ الشَّرَفَ الذي يُذْكَرُ بهِ المَرْءُ ﴿أَضَلَّنِى عَنِ﴾ الشرفِ ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أو ﴿أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي عنِ القرآنِ وما فيهِ مِنَ الذِّكْرى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: في ذلك. (٥) في الأصل وم: ويومئذ يتم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الذي ذكرها. (٨) في الأصل وم: محمدا. (٩) من م، في الأصل: فعير. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: دعاه.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي تاركاً لهُ مُتبرِّئاً منهُ؛ يقولُ كما قالَ في آيةٍ أُخرى حِكايةً عنهُ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦] ويقولُ كما قالَ: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] أو يكونُ كما ذَكَرَ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] أو يكونُ ذلكَ الخُذلانُ [منهُ لهُ][1] في الدنيا [إذْ][2] يُمَنِّيهِ بأمانيَّ [ويُزَيِّنُ لهُ][3] أشياءَ، ثم لا يُوصِلُهُ إليها.

الآية ٣٠ وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ قالَ بعضُهُم: المَهجورُ، هو الذي لا يُنْتَفَعُ [بهِ][4] ولا يُعْمَلُ [بهِ][5].

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي تَرَكوهُ مَهجوراً. ويُقالُ: ﴿مَهْجُورًا﴾ أي كالهَذَيانِ، والهُجْرُ الإسْمُ[6]، يُقالُ، فُلانٌ، يَهْجُرُ في مَنامِهِ، أي يَهْذي، وهو بالفارِسيَّةِ: بلابه كفتى.

الآية ٣١ وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي مِثْلَ الذي جَعَلْنا لكَ مِنَ العَدُوِّ مِنَ الكَفَرَةِ جَعَلْنا لكلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلِكَ عَدُوًّا.

ثم العَداوَةُ، تكونُ في الدينِ مَرَّةً، ومَرَّةً في الأنفُسِ وأحوالِها. فإنْ كانَ العَدُوُّ عَدُوًّا في الدينِ فجميعُ[7] الكَفَرَةِ لهُ أعداءٌ لِخِلافِهِمْ لهُ في الدينِ، ويكونُ حَرْفُ: مِنْ صِلَةً، أي جَعَلْنا لكلِّ نبيٍّ المُجْرِمينَ أعداءً.

وإنْ كانَ على تَحقيقٍ مِنْ وإثباتِها فالعَداوةُ عَداوةٌ في [الأنفُسِ وأحوالِها][8] وذلكَ راجعٌ إلى الفَراعنةِ وأضدادِ الرُّسُلِ: ما مِنْ رسولٍ [إلاّ][9] ولَهُ فَراعِنَتُهُ، وأضدادُهُ، يُنازِعونَهُ، ويُقاتِلونَهُ [ويَهُمّونَ بِقَتْلِهِ][10].

ثم بَشَّرَ رسولَهُ بالحِفظِ لهُ والنَّصرِ والظَّفَرِ على أعدائِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

الآية ٣٢ وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ أهلَ مكةَ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ، فيَمْتَحِنونَهُ، ويَسْألونَهُ، ويقولونَ: يا محمدُ أتزعُمُ أنكَ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ؟ أفَلا أتيتنا بالقرآنِ جُمْلَةً كما أُنزِلَتِ التوراةُ جُمْلَةً واحدةً على موسى والإنجيلُ على عيسى والزَّبورُ على داوُودَ؟

فقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ /٣٧٧ - ب/ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي بِمِثْلِ الذي نُثَبِّتُ بهِ فؤادَكَ. ثم يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وَجْهَينِ:

أحدُهما: أنزَلْناهُ مُتفرِّقاً لِنُثَبِّتَهُ في فؤادِكَ، فتَحفَظَهُ[11]، وتَذْكُرَهُ، لأنَّ حِفظَ الشيءِ إذا كانَ سَماعُهُ بالتَّفاريقِ، كانَ حِفظُهُ أهْوَنَ وأيْسَرَ مِنْ حِفظِهِ إذا سُمِعَ جُمْلَةً واحدةً وخاصَّةً إذا كانَ الكلامُ مِنْ أجناسٍ وأنواعٍ.

والثاني: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي لِنُثَبِّتَ بما في القرآنِ مِنَ الحكمةِ والمَعاني فؤادَكَ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فُؤَادَكَ﴾ أنهُ يُرادُ بهِ فؤادُ مَنْ يَستَمِعُ إليهِ، ويَسمَعُهُ. فإنْ كانَ هذا فهو كقولِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٦] على ما ذَكَرْنا أنهُ يكونُ أسْرَعَ حِفظاً وأهْوَنَ ثَباتاً مِنْ سَماعِهِ جُمْلَةً.

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ [بهِ][12] فؤادَهُ كقولِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ و١٧] وقولِهِ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأعلى: ٦ و٧] كانَ يُعَجِّلُ بِحِفظِهِ إذا قُرِئَ عليهِ خَوفاً أنْ يَذْهَبَ، فأخبَرَهُ أنهُ يُثَبِّتُ فؤادَهُ[13]، ويُنَزِّلُهُ بالتَّفاريقِ لكي يَحفَظَهُ، ويَذْكُرَهُ.

ثم إن كانَ المُرادُ تَثبيتَهُ في الفؤادِ، هو ما فيهِ مِنَ الحكمةِ والمعاني وقراءَتَهُ على الناسِ على مُكْثٍ كذلكَ، فهو، واللهُ أعلَمُ، يُنَزِّلُهُ على قَدْرِ النَّوازِلِ والحَوائِجِ ليكونوا أحْفَظَ لتلكَ المَعاني وأعْرَفَ بِمَواضِعِها وتقديرِ غَيرِها مِنَ النوازِلِ بهِ مِنْ أنْ يَنْزِلَ جُمْلَةً في دفعةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: منزله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويزينه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: كاسم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الدين والأحوال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ويهمونه قتله. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: فؤادك.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بِصِفَةٍ، يُشَبِّهونَ بها على الخَلْقِ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بِصِفَةٍ هي أحَقُّ مِمَّا أتَوها هُمْ، فتَرْتَفِعُ تلكَ الشُّبْهَةُ عنهمْ؛ أعني عنِ الخَلْقِ، أو يُقالُ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بِصِفَةٍ، هي باطلٌ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بصفةٍ، هي حَقٌّ، فَتَبطُلُ تلكَ، وتَضمَحِلُّ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي بَياناً مِنَ الأوَّلِ. وعلى التأويلِ الثاني ظاهرٌ، ولاشَكَّ أنهُ أحْسَنُ وأحَقُّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي أنْزَلْنا بَعْضَهُ بَعْدَ بَعْضٍ وعلى إثْرِ بَعْضٍ؛ لم يُنْزِلْهُ في مَرَّةٍ واحدةٍ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي بَيَّنَّاهُ تِبياناً.

وقالَ بعضُهُمْ: في قولِهِ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ قالَ: لا يُخاصِمونَكَ بشيءٍ، ولا يُجادِلونَكَ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقولُ[1]: جِئْناكَ بالقرآنِ بِأحْسَنَ مِمَّا جاؤُوا بهِ تفسيراً. وهو قريبٌ ممَّا ذَكَرْنا بَدْءاً. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: إلاّ جِئْناكَ بأحَقَّ مِنْهُ وأحْسَنَ تَفْسيراً. وهو شبيهٌ بِبَعْضِ التأويلاتِ التي ذَكَرْنا.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا على مُقابَلَةٍ سَبَقَتْ. وإلاّ على الابْتِداءِ لا يَسْتَقيمُ ذِكْرُهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ ذكرَهُ على مُقابَلَةِ قولِهِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ الآية [الفرقان: ٢٤] هذا ذِكْرُ مُقامِ أهلِ الجنةِ. فَذَكَرَ مُقابِلَ ذلكَ مكانَ أهلِ النارِ، فقالَ: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي شَرٌّ مكاناً في الآخِرَةِ، وأضَلُّ سَبيلاً في الدنيا.

أو أن يكونَ مُقابِلَ قولِهِ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؟ [مريم: ٧٣] فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مِنَ الذينَ آمَنوا، بل مُقامُهُمُ الجنةُ؛ أعني المؤمنينَ، ومُقامُ الكَفَرَةِ النارُ، فَهُمْ شَرٌّ مكاناً منهُمْ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ رجلاً قالَ: يا نَبِيَّ[2] اللهِ كيفَ يُحْشَرُ الكافرُ على وجهِهِ يومَ القيامةِ؟ فقالَ: إنَّ الذي أمْشاهُ على رِجْلَيهِ قادرٌ على أنْ يُمْشِيَهُ على وجْهِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراةَ ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ ذَكَرَ هَهُنا أنهُ كانَ وزيراً لهُ، وذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وفي آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] حينَ[3] قالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

فكانَ [في][4] ما ذَكَرَ ذلكَ كلِّهِ نَبِيًّا ورسولاً. وكانَ له وزيراً، والوزيرُ هو العَونُ والعَضُدُ، كأنهُ قالَ: وجَعَلْنا معهُ أخاهُ هارونَ وزيرا عَوناً وعَضُداً كقولِهِ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ و٣٢] سألَ ربَّهُ المَعونَةَ لهُ والإشراكَ في أمْرِهِ.

وقالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤].

وقالَ الزَّجّاجُ: الوزيرُ هو الذي يُلْتَجأُ إليهِ في النوائبِ، ويُعْتَصَمُ بأمْرِهِ، وهو واحدٌ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي أهْلَكْناهُمْ إهلاكاً.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ [أرادَ بهِ][5] نوحاً خاصةً لأنهُ ذَكَرَ قومَ نوحٍ. فإنْ كانَ ذلكَ ففيهِ دلالةُ جوازِ تَسْمِيَةِ الواحدِ باسمِ الجماعةِ، وجائزٌ أنْ يكونَ نوحٌ دَعاهُمْ إلى الإيمانِ [باللهِ ﷻ][6] وبجميعِ الرسلِ، فَكَذَّبوهُ، وكذَّبوا الرسلَ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بقوله. (٢) من م، في الأصل: ليتني. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ لم يُغْرِقْهُمْ على إثْرِ تكذيبِهِمْ إيَّاهُ، ولكنْ إنما أغرقَهُمْ بَعْدَ ما دعاهُمْ ألفَ سنةٍ إلاّ خَمْسين عاماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي آيةً لِلْمُكَذِّبينَ والمُصَدِّقين [لمَا بَيَّنَ حُكْمَهُ: في المُكَذِّبينَ][1] منهُمُ الإهلاكَ والاسْتِئْصالَ، وفي المُصَدِّقينَ منهُمُ النجاةَ [والخَلاصَ. فذلكَ آيةٌ لكلِّ مُكذِّبٍ ومُصَدِّقٍ لِما إليه تؤولُ عاقبةُ أمْرِهِمْ: عاقبةُ المُكَذِّبينَ الإهلاكُ، وعاقبةُ المُصَدِّقينَ النجاةُ][2].

فإنْ قيلَ: إنهمْ جميعاً، قد هَلَكوا: المُصَدِّقونَ منهمْ والمُكَذِّبونَ قيلَ: أُهْلِكَ المُكَذِّبونَ منهُمْ إهلاكَ عُقوبةٍ وتعذيبٍ [وهلاكُ المُصَدِّقينَ][3] بانقضاءِ آجالِهِمْ لا هلاكُ عُقوبةٍ.

ثم ذَكَرَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ فَمَعْنَى جَعَلَ أنفُسَهُمْ آيةً ما ذَكَرْنا. وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] أي السفينةَ.

قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ السفينةَ آيةً لأنَّ مِنْ طَبْعِ السُّفُنِ أنها إذا امْتَدَّتِ الأوقاتُ، وطالَ الزمانُ، تَفْسُدُ[4]، وتَتَلاشَى، وهي بَعْدُ باقيةٌ كما هي؛ أعني سَفينةَ نوحٍ. لكنَّ ذلكَ لا يُعْلَمُ أنهُ كما ذَكَرَ أوْ: لا. فالوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هكذا جزاءُ كلِّ ظالمٍ ظُلْمَ كُفرٍ وشِرْكٍ أنْ يُعَدَّ لهُ العذابُ الأليمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أخبرَ أنهُ أهلكَ هؤلاءِ كلَّهُمْ عاداً، وهُمْ قومُ هودٍ، وثَموداً، وهُمْ قومُ صالحٍ ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ لأنهمْ رَسُّوا نَبِيَّهُمْ في بِئْرٍ، أي رَسُّوهُ فيها.

وقالَ بعضُهُمْ: الرَّسُّ هو اسْمُ البِئْرِ، كانوا نُزُولاً عليها، فَبَعَثَ اللهُ تعالى إليهمْ شُعَيباً، فَكَذَّبوهُ، فَسُمُّوا بذلكَ، ونُسِبوا إلى تلكَ البِئْرِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ أنهُ سألَ كَعْباً عنِ الرَّسِّ، فقالَ: إنكُمْ. مَعاشِرَ العربِ. تَدْعُونَ البِئْرَ رَسًّا، والقَبْرَ رَسًّا، وتَدْعونَ الخَدَّ رَسًّا [وقد خَدَّ قومٌ قَبْلَكُمْ][5] أُخدوداً في الأرضِ، فأوقَدوا فيها النارَ لِلرَّسولَيْنِ اللَّذينِ ذَكَرَ اللهُ في يس: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [الآية: ١٤] واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي ذَكَرْنا لأهلِ مكةَ أمثالَ مَنْ تَقَدَّمَ منهمْ مِنَ الأُمَمِ، مِنَ المُكَذِّبينَ والمُصَدِّقينَ وما حَلَّ بهمْ وما إليهِ آلَتْ عاقبةُ أمورِهِمْ بالتكذيبِ حتى[6] قالَ: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلَكْنا إهلاكاً. وقالَ بَعْضُهُمْ: تَبَّرْنا أي كَسَّرْنا بالنَّبَطِيَّةِ؛ يقولُ أحدُهُمْ [عنِ الشَّيْءِ][7] إذا أرادَ أنْ يَكْسِرَهُ: أُتَبِّرُهُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ يَعْني، واللهُ أعلَمُ، أهلَ مكةَ ﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ وهي الحجارةُ؛ يعني، واللهُ أعلَمُ، قُرَياتِ لوطٍ أي/ ٣٧٨ ـ أ/ يَمُرُّ عليها[8] أهلُ مكةَ في تجارتِهِمْ، ويأتونَها، وهو كما قالَ في الصافاتِ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الآية: ١٣٧].

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ ما حَلَّ بهمْ بالتَّكذيبِ فَيَعْتَبِرُوا، ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، أي بَعْثاً بعدَ الموتِ وإحياءً. إنما كَذَّبوا الرسلَ لأنهمْ لا يؤمنونَ بالبَعْثِ، ولا يخافونَ نُشوراً.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟ كانوا إذا رَأَوهُ هَزِئوا بِهِ، وإذا خَلا بعضُهُمْ إلى بعضٍ يقولونَ في ما بَيْنَهُمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ [الإسراء: ٩٤] هكذا كانَتْ عادةُ الكَفَرةِ يَهْزَؤُونَ بِهِ إذا حَضَروهُ، وإذا غابوا عنهُ قالوا ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: والمصدقين. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أنها. (٥) في الأصل وم: فخدوا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: للشيء. (٨) في الأصل وم: عليهم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٢ [وهو][1] قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

[وفي][2] قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ﴾ عبادةِ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ دلالةٌ أنهُ إنما أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ عن عبادَتِهِمُ الأصنامَ بالحُجَجِ والآياتِ؛ إذْ ليسَ في وُسْعِ النَّبِيِّ صَرْفُهُمْ ومَنْعُهُمْ عن ذلكَ إلاّ مِنْ وجْهِ لزومِ الآياتِ والحُجَجِ [إلاّ أنهُمْ عانَدوا تلكَ الآياتِ والحُجَجِ][3] وكابَروها، وثَبَتُوا على عِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ. وإلاّ عَلِموا مِنْ جهةِ الآياتِ والحُجَجِ التي أقامَها عليهِمْ أنهُ على الحَقِّ وأنهمْ على باطلٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي يَعْلَمونَ حينَ لا يَقْدِرونَ على الجُحودِ والإنكارِ إذا نَزَلَ بهمُ العذابُ، وَوَقَعَ ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هُمْ أوِالمُؤمنونَ لأنهمْ[4] عَلِموا بالآياتِ والحُجَجِ أنهُ على حقٍّ وأنهمْ على باطلٍ وعَلِموا المَوعودَ مِنَ العذابِ.

فأخبَرَ أنهمْ يَعْلَمونَ عندَ وقوعِهِ بهِمْ عِلْماً، لا يَقْدِرونَ على جُحودِهِ ولا إنكارِهِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤] وهذهِ الآيةِ وقولُهُ: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وأمثالُ ذلكَ إذا عايَنوا المَوعودَ في الدنيا يُقِرُّونَ بهِ، لا يَقْدِرونَ على الجُحودِ؛ فكذلكَ قولُهُ: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [عِلْماً][5] لا يَقْدِرونَ على الإنكارِ والجُحودِ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ كانوا يَعْبدونَ أشياءَ: حَجَراً وغَيرَهُ. فإذا رَأوا أحْسَنَ منهُ في رَأْيِ العَينِ والمَنْظَرِ تَرَكوا عبادةَ ذاكَ، وعَبَدوا ما هو أحْسَنُ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كلَّما هَوَتْ أنفُسُهُمْ شيئاً عَبَدوهُ، وكلَّما اشْتَهَوا شيئاً أتَوهُ، لا يَحْجُزُهُمْ عن ذلكَ وَرَعٌ ولا تَقْوى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ وجهَينِ آخَرَينِ سِوَى [ما][6] ذَكَرَ هؤلاءِ:

أحدُهما: تَرَكوا عبادةَ الإلهِ الذي قامتِ الحُجَجِ والبراهينُ بألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ، ولَزِموا عبادةَ مَنْ لم تَقُمْ لهُ الآياتُ والحُجَجُ بذلكَ بِهَواهُمْ.

والثاني: أنهمْ عَبَدوا [ما عَبَدوا][7] مِنَ الأصنامِ بلا أمْرٍ كانَ لهمْ بالعبادةِ [إذْ][8] لا بُدَّ مِنْ أمْرٍ [يأتَمِرونَ بهِ][9] بل عَبَدوا بِهَواهُمْ أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي لَسْتَ أنتَ بوكيلٍ ومُسَلَّطٍ عليهِمْ، ولا حافظٍ، أي لا تُسْألُ أنتَ عن أعمالِهِمْ، ولا تُحاسَبُ عليها، بل همُ المَسْؤولونَ عنها، وهُمْ مُحاسَبونَ عليها كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآيةَ [النور: ٥٤] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ قولُهُ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ وإنْ كانَ في الظاهِرِ استِفْهاماً فهو في الحقيقةِ على الإيجابِ. وهكذا كلُّ استِفهامٍ مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ على الإيجابِ أو على النَّهْيِ. كأنهُ قالَ: قد حَسِبْتَ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ [بما يَسْمعونَ، ولا يَنْتَفِعونَ][10] بما يَعْقِلونَ.

[أو يكونُ على النَّهْيِ، أي لا تَحْسَبْ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بما يَسْمعونَ، ولا يَنْتَفِعونَ بما يَعْقِلونَ، واللهُ أعلَمُ][11].

[وقولُهُ تعالى][12]: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ لأنَّ هِمَّتَهُمْ، ليستْ إلاّ كَهِمَّةِ الأنعامِ، وهي[13] الأكلُ والشُّرْبُ، ليستْ لهمْ هِمَّةٌ سِواها[14]، ولَيْسَتْ للأنعامِ هِمَّةُ العاقبةِ. فَعَلى ذلكَ الكَفَرَةُ؛ فهمْ كالأنعامِ مِنْ هذهِ الجهةِ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وإن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يؤتمر به. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) في الأصل وم: سواه.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿أَضَلُّ﴾ لأنَّ الأنعامَ، تَعرِفُ ربَّها وخالِقَها، وتَذْكُرُهُ، وهُمْ لا يَعْرِفونَ ربَّهُمْ، ولا يَذْكُرونَ. أو هُمْ أضَلُّ لأنهمْ يَنْسِبونَ إلى اللهِ ما لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ، ويُشْرِكونَ غَيرَهُ في العبادةِ، والأنعامُ [لا تَفْعَلُ ذلكَ؛ فهمْ][1] أضَلُّ.

[وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ أضَلُّ][2] لأنَّ الأنعامَ إذ هُدِيَتْ إلى الطريقِ اهْتَدَتْ، وهُمْ يُهْدَونَ، ويُدْعَونَ إلى الطريقِ، فلا يَهْتَدونَ، ولا يُجيبونَ، فهمْ أضَلُّ. أو يُقالُ: همْ أضَلُّ لأنهمْ يَضِلُّونَ [ويُضِلُّونَ][3] غيرَهُمْ، ويَمْنَعونَهُمْ[4] مِنَ الهُدَى، والأنعامُ لا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ حَرْفَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو حَرْفُ تَعْجيبٍ واسْتِفْهامٍ، لكنَّهُ[5] في الحقيقةِ على الإيجابِ؛ أي قد رأيتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى تدبيرِ ربِّكَ ولُطْفِهِ[6]: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وهو لا يُؤذي، ولا يَضُرُّ، ولا يُمَسُّ، ولا يَشْعُرُ بهِ أحدٌ، ولا يَثْقُلُ، ولا يَخِفُّ، ولا يَستُرُ، ولا يَكْشِفُ عنْ وجوهِ الأشياءِ.

[إنما النورُ][7] هو الكاشفُ عنْ وجوهِ الأشياءِ، والظُّلْمَةُ هي الساتِرَةُ لذلكَ.

ونَحْوُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ ممَّا يُحيطُ بالخلائقِ كلِّها لِيُعْلَمَ أنَّ [مِنَ][8] المَحسوساتِ التي تَقَعُ عليها الحَواسُّ ما لا تُدْرَكُ حقيقتُهُ: مِنْ نَحْوِ الظِّلِّ الذي ذَكَرْنا. هو ما [لا][9] تُدْرَكُ حقيقتُهُ، ومِنْ نَحْوِ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ والنُّطْقِ لِيُعْلَمَ أنَّ الذي سَبيلُ مَعْرِفَتِهِ الاسْتِدلالُ، وهو مُنْشِئُ هذهِ الأشياءِ، أحَقُّ ألّا يُدْرَكَ، ولا يُحاطَ بِتَدْبيرِهِ ولُطْفِهِ، لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ بَلَغَ تَدْبيرُهُ ولُطْفُهُ هذا المَبْلَغَ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ، أو يَخْفَى عليهِ شيءٌ؛ يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ وتدبيرِهِ ولُطْفِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ قادرٌ ومُدَبِّرٌ [ولطيفٌ بذاتِهِ][10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي دائماً[11]، لا يَذْهَبُ أبداً، ولا تُصيبُهُ الشمسُ، ولا يَزولُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿سَاكِنًا﴾ أي مُستقِرًا دائماً، لا تَنْسَخُهُ الشمسُ كَظِلِّ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [قالَ بعضُهُمْ: أي تَليهِ، وتَتْبَعُهُ، حتى تأتيَ على كُلِّهِ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾][12] يقولُ: حيثُما [تكُنِ الشمسُ يكُنِ][13] الظِّلُّ.

وأصْلُهُ: أنهُ بالشمسِ يُعْرَفُ الظِّلُّ أنهُ ظِلٌّ، ولولا الشمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ. فهي دليلُ مَعْرِفَتِهِ وكونِهِ أنهُ ظِلٌّ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هَيِّناً خَفِيًّا. وأصلُهُ أنهُ يَقْبِضُ بالشمسِ الظِّلَّ، ويَنْسَخُهُ شيئاً فَشيئاً حتى تأتيَ على كلِّهِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ قيلَ: سَكَناً، يَسْكُنُ فيهِ الخلائقُ، وقيلَ: ﴿لِبَاسًا﴾ أي سِتْرا ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي راحةً؛ يُقالُ: سَبَتَ الرجلُ، يَسْبُتُ سُباتاً، فهو مَسْبوتٌ. وقالَ بعضُهُمْ: أصلُ السَّبْتِ التَّمَدُّدُ. وقالَ بعضُهُمْ: سَبَتَ الرجلُ إذا نَعَسَ. وقيلَ: رجلٌ مَسْبوتٌ، لا يَعْقِلُ، كأنهُ مَيِّتٌ ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.

فَمَنْ جَعَلَ السُّباتَ النومَ جَعَلَ قولَهُ: ﴿النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي حياةً يَحْيَونَ فيهِ، ومَنْ يقولُ: السُّباتُ راحةٌ يَجْعَلُ قولَهُ ﴿النَّهَارَ نُشُورًا﴾ يُنْتَشَرُ فيهِ لِلْمَعاشِ والكَسْبِ وابْتِغاءِ الرِّزْقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يَذْكُرُ نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ على عبادِهِ لِيَسْتَأْدِيَ شُكْرَهُ.

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويمنعوهم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٧) من م، في الأصل: والظلمة. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: بذاته لطيف. (١١) في الأصل وم: دائبا. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل: يكون، في م: تكون الشمس يكون.

وقالَ أبو مُعاذٍ: قالَ مُقاتلٌ: ؟ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ يَعْني الفَيْءَ مِنْ أوّلِ وقْتِ صلاةِ الفَجْرِ إلى طُلوعِ الشمسِ، وأخطأ؛ ولا يُسَمّى ذلكَ الظِّلُّ فَيْئاً.

وقالَ الكسائيُّ: العَرَبُ، تقولُ: الظِّلُّ مِنْ حينِ يَصْبَحُ إلى انْتِصافِ النهارِ، فإذا زالتِ الشمسُ مِنْ كَبِدِ السماءِ، فما خَرَجَ مِنْ ظِلٍّ فذلكَ الفَيْءُ، ويُقالُ: الفَيْءُ الظِّلُّ، ولا يُقالُ: الظِّلُّ الفَيْءُ قَبْلَ الزوالِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ قالَ بعضُهُمْ: نُشراً[1] أي حياةً، وقالَ بعضُهُمْ: نَشراً لِلسَّحابِ، أي تَبْسُطُهُ. وعلى التأويلِ الأوّلِ أي [يُحْيِي بها][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي بَينَ يَدَي/ ٣٧٨ ـ ب/ المَطَرِ. سَمّى المَطَرَ رَحْمَةً لِما بِرَحْمَتِهِ يَكونُ. وكذلكَ سَمّى[3] الجنةَ رَحْمَةً لأنها بِرَحْمَةٍ منهُ[4] يَدْخُلُ مَنْ يدخلُ[5] فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنهُ لا يُفْهَمُ [مِنَ اليَدِ][6] اليَدَ المَعْروفَةَ التي هي الجارحَةُ حينَ[7] ذَكَرَ ذلكَ، ولا تُعْرَفُ؛ أعني اليَدَ لِيُعْلَمَ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣ والحديد: ٢٩] وقولِهِ[8]: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١] ذلكَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقَرأَ بعضُهُمْ: ﴿بُشْرًۢا﴾ بالباءِ، وهو مِنَ البِشارَةِ كقولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] أي تُبَشِّرُهُمْ بالرَّحْمَةِ والسَّعَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي ماءً يُطَهِّرُ بِهِ الأنجاسَ والأقْذارَ الظاهِرَةَ منها والباطِلَةَ. وكذا الطَّهورُ؛ إنهُ يُطَهِّرُ حيثُ ما أصابَهُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [فيهِ لُغتانِ: أسْقَى، وسَقَى: بالألِفِ وبِغَيرِ الألِفِ[9] يُقالُ: سَقَى بهِ حَرْثَهُ وماشِيَتَهُ، وأسْقَيتُهُ[10] أي ناوَلْتُهُ ما يَشْرَبُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ وأبي عَوسَجَةَ][11].

وقولُهُ[12] تعالى: ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأناسِيُّ جمعُ إنْسِيٍّ، وقالَ بعضُهُمْ: هو جَمْعُ إنسانٍ؛ وأصْلُهُ بالنونِ: أناسينُ، لكنْ أُبْدِلَتِ النونُ ياءً.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ ﴿وَأَنَاسِىَّ﴾ مُشَدَّدَةً؛ يعني آناساً[13]. وأناسِيُّ جماعةُ الإنسانِ على ما ذَكَرْنا. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي نَسْقِيهِ مِنَ الماءِ الطَّهورِ المُنْزَلِ مِنَ السماءِ كثيراً مِنَ الأنعامِ وكثيراً مِنَ الآناسِ وكثيراً ممّا يُسْقَى مِنَ المِياهِ المُنْزَعَةِ مِنَ الأرضِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي صَرَّفْنا المَطَرَ والسَّحابَ بَيْنَهُمْ؛ يُمْطِرُ في مَكانٍ، ويَسوقُ السَّحابَ إلى مَكانٍ، ولا يَسوقُ إلى مَكانٍ آخَرَ كقولِهِ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤] وكقولِهِ: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ الآية [فاطر: ٩].

يُذَكِّرُهُمْ في هذهِ الآياتِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ تَدْبيرَهُ وقُدْرَتَهُ وحِكْمَتَهُ ونِعَمَهُ.

أمّا تَدْبيرُهُ [فهو حينَ][14] تَرَى السَّحابَ في مَوضِعٍ، ولا تَراهُ في مَوضِعٍ، وتَراهُ مُنْبَسِطاً في الآفاقِ، ثم يُمْطِرُ في

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٨٨. (٢) في الأصل وم: يحييها. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٤) من م، في الأصل: ما. (٥) في الأصل وم: دخل. (٦) في الأصل وم: باليد. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: و. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٢٨٩. (١٠) في الأصل: وسقيته. (١١) ساقطة من م. (١٢) الواو ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: أناسي. (١٤) في الأصل وم: حيث.

مَوضعٍ آخرَ، ولا يُرْسِلُهُ[١] في مَكانٍ، ويُرْسِلُهُ[٢] في مَكانٍ آخرَ؛ لِيُعلَمَ أنهُ عَنْ تدبيرٍ كانَ هكذا لا بالطَّبْعِ؛ لأنهُ لو كانَ بالطَّبعِ كانَ ذلكَ لَكانَ جائزاً[٣] أنْ يُمطِرَ في مكانٍ، ويَترُكَ في مَكانٍ آخرَ. دلَّ أنهُ بالتدبيرِ كانَ ما كانَ وبالأمرِ.

وأمّا قُدرَتُهُ [فهي][٤] ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ الأرضِ المَيْتَةِ بَعْدَ مَوتِها وإنباتِها بَعْدَ إحيائِها ممّا يَعْلَمُ كلُّ أحدٍ حياتَها وموتَها، ويُقِرُّ بذلكَ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا [فهو][٥] قادرٌ على إحياءِ المَوْتَى بَعْدَ الموتِ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وأمّا حِكْمَتُهُ فإنَّ[٦] ما خَلَقَ ممّا ذَكَرَ، وأنشأ، لم يُنْشِئْهُ عَبَثاً. يُهْمِلُهُمْ[٧]؛ لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، ولا يَمْتَحِنُهُمْ بشيءٍ، ولا يَجْعَلُ لهمْ عاقبةً؛ يُثابونَ [ولا][٨] يُعاقبونَ، ولا يَسْتأدِي منهمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ أنواعِ [النِّعَمِ][٩] ممّا تَعجزُ عقولُهُمْ عنْ إدراكِهِ، وتَقْصُرُ أفهامُهُمْ عنْ تَقديرِ مِثْلِهِ. [أنْشأهُ][١٠] لِيُعْلَمَ أنهُ قادرٌ بذاتِهِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ثم قولُهُ[١١] تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قالَ الكِسائيُّ: الكُفورُ برفْعِ الكاف الكُفْرِ، والكَفورُ بِفَتْحِ الكافِ الكافرُ، والشُّكورُ بِضَمِّ الشينِ الشُّكْرُ، والشَّكورُ بِفَتْحِ الشينِ الشاكرُ، وهو المؤمِنُ. فيكونُ تأويلُهُ: فأَبَى أكثرُ الناسِ إلّا كُفراً باللهِ وتكذيباً لِنِعَمِهِ بِصَرْفِهِمُ العبادةَ إلى غَيرِهِ ولِتفاؤُلِهِمْ وتَطَيُّرِهِمْ: أنَّ هذا مِنْ نَوءِ كذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لو شِئْنا لَرَفَعنا عنكَ بَعْضَ ما حَمَّلْنا عليكَ مِنَ المُؤَنِ: مِنْ مُؤْنَةِ التَّبْليغِ والقِيامِ بذلكَ، وحَمَّلْناها[١٢] غَيرَكَ، فيكونُ عليكَ أيْسَرَ وأهْوَنَ مِنَ القِيامِ بالكُلِّ.

والثاني: لو شِئْنا لجَعَلْنا غَيرَكَ أيضاً أهلاً للرِّسالةِ ومَوضِعاً لها في زمانِكَ وحِينِكَ، فَبَعَثْناهُ في بَعْضِ القُرَى والمُدُنِ لكنّا لم نَجْعَلْ غَيرَكَ أهلاً لها، وخَصَّصْناكَ لها مِنْ غَيرِكَ[١٣] مِنَ الناسِ. فهو على الامْتِنانِ يُخَرَّجُ والاخْتِصاصِ لهُ.

ثم لا يَخلو ذلكَ مِنْ أنْ يكونَ فيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ للرسالةِ، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ أهلاً لها ومَوضِعاً، فلم نُرْسِلْ، أو كانَ لم يَكُنْ فيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ لذلكَ. فيكونُ تأويلُهُ: لو شِئْنا لَجَعَلْنا فيهِ مَنْ يَصْلُحُ للرسالةِ، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ أهلاً لها وموضِعاً.

فأيُّ الوجهَينِ كانَ فهو يَنْقُضُ على المُعْتَزِلةِ قولَهُمْ لأنهُ إنْ كانَ فيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ لها، وأرسَلَ، كانَ أصْلَحَ لهُ، فلم يُرْسِلْ، فقد تَرَكَ ما هو أصْلَحُ لهُ وأخيَرُ، أو يكونُ، لا يَصْلُحُ فيهِمْ أحدٌ لذلكَ، لكنهُ يَمْلِكُ أنْ يُصْلِحَهُ، ويَجْعَلَهُ أهلاً لها، فهو أصْلَحُ لهُ وأخيَرُ، ثم لم يَفْعَلْ.

دَلَّ أنَّ [لهُ][١٤] أنْ يَتْرُكَ الأصْلَحَ والأخْيَرَ في الدينِ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فيه وَجْهانِ:

أحَدُهُما: أنهُ لا يجوزُ للرسُلِ التَّقِيَّةُ والامْتِناعُ عنِ التبليغِ إليهِمْ والقِيامِ بِمُجاهَدَتِهِمْ، وإنْ خافوا على أنفسِهِمُ الهلاكَ، حينَ[١٥] قالَ: ﴿تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ ولم يكنْ مَعَهُ[١٦] يومئذٍ إلّا قليلٌ مِمَّنِ اتَّبَعَهُ، إذْ كانَ ذلكَ بمكةَ لأنَّ سورةَ الفرقانِ فيها نَزَلَتْ.

والثاني: فيهِ دلالةُ إثباتِ لِرِسالَتِهِ لأنهُ أمْرٌ بالخِلافِ لهمْ والقِيامِ بِمُجاهَدَتِهِمْ بالحُجَجِ والآياتِ، وهُمْ يَعْلَمونَ ألّا يكونَ في وُسْعِ واحِدٍ القِيامُ لذلكَ لِأمثالِهِمْ، وكانَتْ هِمَّتُهُمُ القَتْلَ والإهلاكَ لِمَنْ خالَفَهُمْ، فَعَلِموا أنهُ إنما قامَ لِذلكَ باللهِ لا بنفسِهِ، إذْ لا يَمْلِكُ واحدٌ القِيامَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَرَجَ أي خَلَعَ ماءَ المالحِ عن ماءِ العذبِ، وقالَ

---

(١) و(٢) في الأصل وم: يرسل. (٣) في الأصل وم: جائز. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يُمْهلهم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قال. (١٢) في الأصل وم: وحملنا. (١٣) الكاف ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: معهم.

بعضُهُمْ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلَ البَحْرينِ؛ أحَدُهُما: عَذْبٌ، والآخَرُ أُجاجٌ، وقالَ بعضُهُمْ: مَرَجَ أي أفاضَ أحَدَهُما على الآخَرِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: العرَبُ تقولُ: مَرَجْتُ الدابَّةَ إذا خَلَعْتُها، وتَرَكْتُها تَذْهَبُ حيثُ أمْرُجُها إمراجاً، وإنما سُمِّيَ المَرْجُ مَرْجاً لأنهُ مَتْروكٌ للسِّباعِ غيرُ معمورٍ، والمُمْرِجُ[1] الذي يَرْعَى دابَّتَهُ في المَرْجِ، والدَّابَّةُ المُمْرَجَةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مَرَجَهُما: خَلَطَهُما، فهو مارِجٌ، وقالَ ﷻ: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] أي مُخْتَلِطٍ، ويُقالُ: مَرَجْتُ عن كلِّ شيءٍ إذا خَلَعْتُ[2]، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في البَحْرَينِ، قالَ بعضُهُمْ: أحَدُهما: بَحْرُ الأرضِ، والآخَرُ بَحْرُ السماءِ، وجَعَلَ بَيْنَهما بَرْزَخاً أي حاجِزاً عَنْ أنْ يَخْتَلِطَ أحَدُهُما بالآخَرِ، وهو [الهواءُ][3].

وقالَ بعضُهُمْ: أحَدُهُما: بَحْرُ السماءِ، والآخَرُ: بَحْرٌ تَحْتَ الأرضِ، وجَعَلَ بَيْنَهما بَرْزَخاً، وهو الأرضُ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَحْرانِ: أحَدُهُما: بَحْرُ الرومِ، والآخَرُ: بَحْرُ الهندِ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَحْرانِ: أحَدُهُما: بَحْرُ الشامِ، والآخَرُ: بَحْرُ العِراقِ، أحَدُهُما: مالحٌ أُجاجٌ، والآخَرُ: عَذْبٌ.

وكانَ الأُجاجُ، هو الذي بَلَغَ في المُلوحَةِ غايَتَهُ، والفُراتُ، هو الذي بَلَغَ في العُذوبَةِ غايَتَهُ.

ذَكَرَ مِنَّتَهُ وفَضْلَهُ ولُطْفَهُ حينَ[4] لم يَخْلِطْ أحَدَهُما بالآخَرِ، بل حَفِظَ كُلّاً على ما هو عليهِ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، فعندَ ذلكَ يصيرُ الكُلُّ واحداً كقولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

ثم إنْ كانَ أحَدُهُما بَحْرَ السماءِ والآخَرُ بَحْرَ الأرضِ [فالحاجزُ بَيْنَهما الهواءُ][5] وإنْ كانَ البَحْرانِ[6] في الهواءِ، فالحاجزُ بَيْنَهما ليسَ إلّا اللطفَ، وكذلكَ إنْ كانَ الثالثَ، يُعْلَمُ إنَّ مَنْ قَدَرَ على حِفْظِ هذا مِنْ هذا بِلا حِجابٍ ولا حاجِزٍ باللُّطْفِ، لَقادِرٌ على إحياءِ المَوتَى وبَعْثِهِمْ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولهُ الحَولُ والقُوَّةُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ماءٌ أُجاجٌ شديدُ المُلوحَةِ، ويُقالُ: أجَّ الماءُ يَأجُّ أجّاً [فهو أُجاجٌ][7] ويُقالُ: تَجّاجٌ/ ٣٧٩ ـ أ/ أي ماءٌ، رُوِيَ بهِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي مِنَ النُّطْفَةِ. يُخْبِرُ عنْ فَضْلِهِ ومِنَّتِهِ وقُدْرَتِهِ ولُطْفِهِ.

[أمّا لُطْفُهُ وقُدْرَتُهُ ففي][8] خَلْقِ البَشَرِ مِنَ النُّطْفَةِ، ولوِ اجْتَمَعَ جميعُ حُكَماءِ البَشَرِ على أنْ يَعْرِفوا، ويُدْرِكوا كَيْفِيَّتَهُ، لم يَقْدِروا على ذلكَ. دلَّ أنهُ قادِرٌ بذاتِهِ لطيفٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وأمّا فَضْلُهُ ومِنَّتُهُ فما[9] أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ لهمْ نَسَباً وصِهْراً. أمّا النَّسَبُ ففيهِ[10] يَتَعارَفونَ، ويَتَواصَلونَ، ما لولا ذلكَ ما تَعارَفوا، ولا تَواصَلوا. وأمّا الصِّهْرُ فَلِما بِهِ يَتَزاوَجونَ، ويَتَوادُّونَ، ويَتَوالَدون، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢] وقولِهِ[11] ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] يَذْكُرُ فَضْلَهُ ومِنَّتَهُ لِيَسْتَأدِيَ بِهِ شُكْرَهُ لِيُعْلَمَ أنَّ مِثْلَ هذا لا يَخْرُجُ عَبَثاً باطلاً بِلا مِحْنَةٍ ولا عاقِبَةٍ.

وكانَ النَّسَبُ مِمّا لا يَجْري بَيْنَهُمُ التَّناكُحُ والتَّزاوُجُ، والصِّهْرُ ما يُحِلُّ بَيْنَهُمُ التَّناكُحَ والتَّزاوُجَ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وهو الذي خَلَقَ مِنَ الماءِ نَسَباً وصِهْراً.

قالَ أبو مُعاذٍ: الصِّهْرُ الفَتَى وآلُهُ، والخَتَنُ أبو المرأةِ، والخَتَنَةُ أمُّ المرأةِ والأختانُ المرأةُ وأهلُها، والأصهارُ آلُ الفَتَى وأهلُهُ.

---

(١) في الأصل وم: والممروج. (٢) في الأصل وم: خلعت. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بحرين. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: وقدرته حيث، في م: أما لطفه وقدرته حيث. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقال.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَصِهْرًا﴾ مِنَ المُصاهَرَةِ، وكلُّهُم أصهارٌ مِنَ الجانبَيْنِ جميعاً. والمَعْروفُ عندَنا أنهُ إنما تُسَمَّى قَرابةُ الزَّوْجِ أختاناً، وقَرابَةُ المرأةِ أصهاراً، وذلكَ لِسانٌ؛ فهو على ما تَعارَفوهُ بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما يَعْلَمونَ أنهُ لا يَنفَعُهُمْ في الآخِرَةِ إنْ عَبَدُوهُ، ولا يَضُرُّهُمْ إنْ تَرَكوا عِبادَتَهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨] وأمثالُ ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ مِنَ القُرآنِ سَفَهُ أولئكَ بِعِبادَتِهِمْ للأصنامِ وتَرْكِهِمْ عِبادَةَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: وكانَ الكافرُ للكافرِ وَوَلِيِّهِ[1] ظَهيراً على مَنْ أطاعَ ربَّهُ؛ يكونُ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ عَوناً وظَهيراً على أولياءِ اللهِ، وإلاّ لا يكونُ الكافرُ على اللهِ ظَهيراً، ولكنْ على أوليائِهِ. ويكونُ ذَكَرَ الذي على إرادةِ وليِّهِ ومَنْ أطاعَهُ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وكقولِهِ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] ونَحْوَ ذلكَ ممّا يُرادُ بهِ أولياؤُهُ لا نفسُهُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مُبَشِّرا لمن أطاعَهُ، ونذيراً لِمَنْ عصاهُ. والبِشارَةُ هي الإعلامُ لِما يَلْحَقُ مِنَ السرورِ والفَرَحِ في العاقِبَةِ بالأعمالِ الصالِحَةِ. والنِّذارَةُ هي الإعلامُ لِما يَلْحَقُ مِنَ المَكْروهِ والمَحْذورِ في العاقِبَةِ بالأعمالِ السَّيِّئَةِ القبيحةِ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي ما أسألُكُمْ على الدين الذي أدعوكم إليهِ من أجرٍ كقولِهِ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] أي لا أسألُكُمْ أجراً على ذلكَ حتى يَمْنَعَكُمْ ثِقَلُ المَغْرَمِ عن إجابَتي.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: كأنَّ فيهِ إضماراً، أي لا أسألُكُمْ عليهِ أجراً إلّا مَنْ شاءَ، ولكنْ إنما أسألُكُمْ أنْ تَتَّخِذوا إلى ربِّهِ سَبيلاً، أو[2] يقولُ: قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي ولكنْ مَنْ أرادَ أنْ يَتَّخِذَ إلى ربِّهِ سبيلا أطاعَني، وأجابَني.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على تَبليغِ الرسالةِ إليكمْ وما أدعوكُمْ إليهِ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فَيَبَرُّني، أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فَيَوَدُّني كقولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي تَوَكَّلْ على اللهِ. والتَّوَكُّلُ هو الاعْتِمادُ عليهِ بكلِّ أمْرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي نَزِّهْ ربَّكَ، وبَرِّئْهُ مِنَ الآفاتِ كلِّها والعُيوبِ بِثَناءٍ، تُثْني عليهِ، وهو التَّسْبيحِ بِحَمْدِهِ. وقالَ أهلُ التأويلِ: أي صَلِّ بأمرِ ربِّكَ. لكنَّ التأويلَ عندَنا ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي كَفَى بهِ عِلْماً بذنوبِ عبادِهِ، أي لا أحَدَ أعْلَمُ بها منهُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قد ذَكَرْنا هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قالَ قائلونَ: فاسْألْ باللهِ خَبيراً لِما تَسْألُ عنهُ [يا محمدُ][3] وذلكَ أنَّ بَعْضَ كفارِ مكةَ، قالوا: يا محمدُ إنْ كُنْتَ تَتَعلَّمُ الشِّعْرَ فَنَحْنُ لكَ، فقالَ النَّبِيُّ: أشِعْرٌ[4] هذا؟ إنَّ هذا كلامُ الرحمنِ، فقالوا: أجلْ لَعَمْرُ اللهِ إنهُ لَكَلامُ الرحمنِ الذي باليَمامَةِ، هو يُعَلِّمُكَ، فقالَ النَّبِيُّ: الرحمنُ، هو اللهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِنْ عندِهِ يأتيني ذلكَ، فقالوا: أيَزْعُمُ أنَّ اللهَ واحدٌ، وهو يقولُ: اللهُ يُعَلِّمُني، والرحمنُ يُعَلِّمُني، ألَسْتُمْ تَعْلَمونَ أنَّ هذينِ[5] إلهانِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لِما لا يَعْرِفونَ الرحمنَ، وعَرَفوا اللهَ، فأنْكَروا ذلكَ لِما لم يكونوا يَسْمَعونَ ذلكَ، فَعَرَّفَهُمْ بقولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية [الإسراء: ١١٠].

---

(١) في الأصل وم: وليه. (٢) أدرج بعدها في م: أن. (٣) في الأصل وم: محمد. (٤) في الأصل وم: الشعر. (٥) في الأصل وم: هذا.

أو أنْ يكونوا يَعْرِفونَ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، وكذلكَ يُسَمُّونَ الأصنامَ التي عَبَدوها آلهةً، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ دعاهُمْ إلى عبادةِ الرحمنِ، فَظَنوا أنهُ غيرٌ، فقالوا: فلئنْ جازَ أنْ يُعْبَدَ غيرُ اللهِ فنحنُ نَعْبُدُ الأصنامَ، فَلِمَ تَمْنَعُنا عنْ ذلكَ؟ فأخبرَ [أنَّ][1] الرحمنَ والإلهَ واحدٌ، ليسَ وهو غيراً حينَ قالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ [الفرقان: ٦١ . . .] يقولُ اللهُ تعالى: لا[2] يكونُ الرحمنُ غيرَ الإلهِ، بلِ الرحمنُ هو ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ وقد كانوا يَعْلَمونَ أنَّ الذي جَعَلَ في السماءِ البُروجَ، وهي النجومُ، وجَعَلَ فيها السُّرُجَ، وهي الشمسُ والقَمَرُ، هو اللهُ. فأخبرَ أنَّ الرحمنَ هو ذلكَ، لا غيرُ.

وفي قولِ بعضِهِمْ: إنَّ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية دلالةٌ أنهُ ليسَ مِنَ المَكْتومِ، ولكنهُ ممّا يُعْلَمُ، ويُفَسِّرُ حينَ[3] قالَ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ولو كانَ ممّا لا يُعْلَمُ لَكانَ لا يأمُرُهُ أنْ يَسألَ بهِ خبيراً، أو لو[4] أمَرَهُ بالسؤالِ لَكانَ لا يُحْتَمَلُ ألّا يُخْبِرَهُ. دلَّ ذلكَ أنهُ ليسَ مِنَ المَكْتومِ، ولكنّهُ ممّا يُعْلَمُ، لكنْ لا يَعْلَمُهُ إلّا الخَبيرُ، والخَبيرُ هو العالِمُ.

ثم يَحْتَمِلُ اللهُ أو جبريلَ أو مَنْ يُعَلِّمُهُ اللهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: باللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: بالذي سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قد ذَكَرْنا ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [بالتاءِ والياءِ][5] جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادَهُمْ دعاؤُهُ إلى عبادةِ الرحمنِ نُفوراً مِنْ رسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يقولُ: ما أخْبَرْتُكَ مِنْ شيءٍ فهو كما أخْبَرْتُكَ، لاشَكَّ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قولُهُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ بعضَهُمْ يقولونَ: هو مِنَ البَرَكةِ، وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ التعالي: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ خَرَجَ جواباً لقولِهِمْ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

الآية ٦٢ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي جَعَلَ أحدَهُما خَلْفَ الآخَرِ: إذا ذَهَبَ هذا جاءَ هذا ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي يُذَكِّرُ الليلَ والنهارَ، لِمَنْ أرادَ أنْ يَتَذَكَّرَ الموعِظَةَ، أو يَشْكُرَ لِنِعَمِهِ لأنهما يُذَكِّرانِ قدرتَهُ وسُلْطانَهُ حينَ[6] يَقْهَرَ الجَبابِرَةَ والفَراعِنَةَ ويَغْلِبُهُمْ[7] حينَ يَظْلِمونَ، ويأتيانِهِمْ، شاؤوا، أو كَرِهوا، لا يَقْدِرونَ دَفْعَهُما عنْ أنفسِهِمْ.

وفيهما دلالةُ الإحياءِ والبَعْثِ بَعْدَ الفناءِ والهلاكِ [حينَ يذهبُ بهذا، ويأتي][8] بآخَرَ بَعْدَ/ ٣٧٩ ـ ب/ أنْ لم يَبْقَ مِنْ أثَرِهِ شيءٌ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا قَدَرَ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ وذَهابِ أثَرِهِ.

ويُذَكِّرانِ أيضاً نِعَمَهُ وآلاءَهُ لأنهُ جَعَلَ النهارَ مُنْقَلَباً لِمَعاشِهِمْ ومَطْلَباً لِرِزْقِهِمْ وما بِهِ قِوامُ أنفُسِهِمْ، وجَعَلَ الليلَ مُسْتَراحاً لأبدانِهِمْ [وسُكوناً؛ إذْ][9] لا قِوامَ للأبدانِ لأحدٍ دونَ الآخَرِ.

ألا تَرَى أنهُ كيفَ ذَكَرَ نِعَمَهُ فيهما حينَ قالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [القصص: ٧١] وقالَ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧٢] يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ فيهما؟ أعني في الليلِ والنهارِ لِيَسْتأدِيَ بهِ شُكْرَهُ. فَعَلَى ذلكَ هذا ما ذَكَرْنا [في][10] قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ النعمةَ التي جَعَلَ فيهما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: بالياء والتاء، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٢. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ويغلبانهم. (٨) في الأصل وم: حيث ذهب بهذا أتي. (٩) في الأصل وم: وسكونهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي يكونُ كلُّ واحدٍ منهما خَلَفاً للآخَرِ في ما يَفوتُ مِنَ التَّذكُّرِ والتَّشكُّرِ؛ يُقْضى في الآخَرِ.

وقالَ الحسَنُ قريباً ممَّا ذَكَرْنا، وقالَ: مَنْ فاتَهُ شيءٌ باللَّيلِ أدْرَكَهُ بالنهارِ، ومَنْ فاتَهُ شيءٌ بالنهارِ أدْرَكَهُ بالليلِ، وعلى مِثْلِ ذلكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أنَّ رجلاً، قالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ إنِّي فاتَتْني الصلاةُ الليلةَ، فقالَ عُمَرُ: أدْرِكْ ما فاتَكَ مِنْ لَيلِكَ في نَهارِكَ الآخَرِ.

ثم يَحْتَمِلُ الاخْتِلافُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: مَجيءُ هذا وذهابُ الآخَرِ على ما ذَكَرْنا كقولِهِ: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والثاني: هو اخْتِلافُ اللَّونِ مِنَ السَّوادِ والبَياضِ؛ أحَدُهُما أسْوَدُ، والآخَرُ أبيضُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: البُروجُ، هي النجومُ العِظامُ، والواحدُ بُرْجٌ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ إلى الأعرابيِّ. وقالَ بعضُهُمْ: البُروجُ القُصورُ في السماءِ، فيها تَنْزِلُ الشمسُ في كلِّ ليلةٍ.

ورُوِيَ مثلُ قولِ عُمَرَ عن سَلْمانَ أنَّ رجلاً أتاهُ، فقالَ: إني لا أستطيعُ قِيامَ الليلِ، قالَ: إنْ كُنْتَ لا تَستَطيعُ قيامَ الليلِ فلا [تَعْجَزْ عنهُ][1] بالنهارِ.

وذَكَرَ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كانَ يقولُ: «أصيبوا مِنَ الليلِ ولو ركعتَينِ ولو أربعاً» وذَكَرَ لنا أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «والذي نفسي بيَدِهِ إنَّ في كلِّ ليلةٍ ساعةً، لا يُوافِقُها رجلٌ مسلمٌ يسألُ فيها خيراً إلّا أعْطِيَ لهُ في هذا الليلِ والنهارِ، فإنهما مَطِيَّتانِ، تَحمِلانِ الناسَ إلى آجالِهِمْ؛ تُقَرِّبانِ كلَّ بَعيدٍ، وتُبْلِيانِ كلَّ جديدٍ، وتَجيئانِ بكلِّ مَوعودٍ، حتى يُؤَدِّيَ[2] ذلكَ إلى ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] يَصيرُ الناسُ بأعمالِهِمْ إلى الجنةِ وإلى النارِ ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]»[3] [بنحوه مسلم ٧٥٧].

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وَصَفَ ﷻ أهلَ الصَّفْوَةِ والإخلاصِ مِنْ عبادِهِ أنهمْ يَمشونَ على الأرضِ هَوناً إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وإلّا كانوا كلُّهُمْ عِبادَ الرحمنِ لكنْ وَصَفَ أهْلَ الصَّفْوَةِ منهمْ والإخلاصِ والتُّقى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: حُلَماءُ أتْقِياءُ بِغَيرِ مَرَحٍ ولا بَطَرٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هُوناً[4] أي مُتَواضِعينَ، لا خُيلاءَ، ولا كِبْرياءَ، ولا مَرَحاً.

وعنِ الحسَنِ [أنهُ][5] قالَ: هُمُ المؤمنونَ، قَومٌ ذُلُلٌ، ذلَّتْ [منهُمْ][6] واللهِ الأسْماعُ والأبصارُ والجَوارِحُ حتَّى يَحْسَبَهُمُ الجاهِلُ مَرْضَى، واللهِ ما بالقَومِ مَرَضٌ، وإنهمْ لأصِحَّةُ القُلوبِ، ولكنْ دَخَلَهُمْ مِنَ الخَوفِ ما لم يَدْخُلْ غَيرَهُمْ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ مَرْفوعاً عن رسولِ ﷺ قالَ: «المؤمنونَ هَيِّنونَ لَيِّنونَ كالجَمَلِ الإلْفِ، إنْ قيدَ انْقادَ، وإنْ أُنيخَ على صَخْرَةٍ اسْتَناخَ» [ابن المبارك في الزهد ٣٨٧].

وأصلُهُ أنهمْ يَمشونَ هَوناً مِنْ غَيرِ أنْ يَتَأذّى بهم أحَدٌ أو يَلْحَقَ بأحدٍ منهمْ ضَرَرٌ أو ضَنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا جاهَلَهُمُ[7] الجاهلونَ، وسافَهَهُمُ السُّفَهاءُ لا يُجاهِلونَ أهلَ الجَهْلِ والسَّفَهِ، ولكنْ يقولونَ[8]: السَّلامُ عليكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: وإذا سَمِعوا الشَّتْمَ والأذى قالوا: سَلاماً، أي سَداداً وصَواباً مِنَ القَولِ ورَدًّا مَعْروفاً؛ أعْرَضوا عَنْ سَفَهِهِمْ وجَهْلِهِمْ بهِمْ، ولم يُكافِئوهُمْ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ الآية [القصص: ٥٥] يُخبِرُ.

---

(١) في الأصل وم: تعجزه. (٢) من م، في الأصل: يرد. (٣) أدرج هذا الحديث في صحيح مسلم في كتاب الجمعة بلفظ آخر. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٢٩٣. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: معنى. (٧) في م: خاطبهم. (٨) في الأصل وم: قالوا.

ﷺ عن صُحبتِهِمْ أهلَ السَّفَهِ والجهلِ وحُسْنِ مُعاشَرَتِهِمْ إيَّاهُمْ ورِفْقِهِمْ. فكيفَ يُعامِلونَ أهلَ الخيرِ والعقلِ منهمْ، ويُصاحبونَهُمْ[1]؟ فهذهِ معامَلَتِهِمُ الخلائقَ على الوَصْفِ الذي وَصَفَهُ.

الآية ٦٤ ثم أخبرَ عنْ صَنيعهمْ وركونِهِمْ إليهِ، فقالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ الذينَ يَبِيتُونَ الليلَ، وأيديهِمْ على رُكَبِهِمْ، ثم قالَ: مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشاءِ فقد تابَ للهِ تعالى ساجداً قائماً».

وقالَ الحَسَنُ: كانوا يَبِيتونَ للهِ على أقدامِهِمْ، ويَفْتَرِشونَ وجوهَهُمْ سُجَّداً لِرَبِّهِمْ تَجْري دموعُهُمْ على خُدودِهِمْ فَرَقاً مِنْ رَبِّهِمْ. وقالَ: لأمرٍ ما سَهِرَ لهُ ليلُهُمْ، ولأمرٍ ما خَشَعَ لهُ نهارُهُمْ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا إخباراً مِنَ اللهِ تعالى عمّا في ضَميرِهِمْ ليسَ على حقيقةِ القولِ والدُّعاءِ لأنَّ مَنْ بَلَغَ في العِبادةِ والوَرَعِ المَبْلَغَ الذي وَصَفَ لا يَشْغَلونَ أنْفُسَهُمْ بالسُّؤالِ عنْ دَفْعِ المَضارِّ أو دَفْعِ المَنْفَعَةِ. ويَحْتَمِلُ على ما أخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ عَنْ عذابِها [فقالَ:][3] ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قالَ الحَسَنُ: الغَرامُ اللازمُ الذي لا يُفارِقُ صاحِبَهُ، وكلُّ غَريمٍ، يُفارِقُ غَريمَهُ غَيرَ عذابِ جَهَنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغَرامُ الهَلاكُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي جَهَنَّمُ، بِئْسَ المُسْتَقَرُّ، وبِئْسَ المُقامُ لأهلِها، وهو[4] مُقابِلُ ما ذَكَرَ لأهلِ الطاعةِ الجنةَ حينَ[5] قالَ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَرَامًا﴾ غَرِموا في الآخِرَةِ ما نَعِموا في الدنيا. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ إنّا أُنبِئْنا أنَّها ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿هَوْنًا﴾ هو مِنَ الرِّفْقِ، يُقالُ: هانَ يَهونُ هَوناً، فهو هائنٌ [ومنهُ يُقالُ:][6] إذا عَزَّ أخوكَ فَهُنْ: أي إذا اشْتَدَّ فارْفُقْ بِهِ، والغَرامُ الهلاكُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ ﴿غَرَامًا﴾ أي هَلَكَةً، وقالَ: مَشْياً ﴿هَوْنًا﴾ رُوَيداً ﴿سَلَامًا﴾ أي سَداداً مِنَ القولِ؛ لا رَفَثَ فيهِ، ولا هُجْرَ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ في غَيرِ حقٍّ؛ كَسَبوا طَيِّباً، وأنْفَقوا قَصْداً، وأعْطَوا فَضْلاً [لا جُحوداً، واسْتَيْسَروا][7] ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي ولم يُمْسِكوا عنِ الحَقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي بَيْنَ الإسرافِ والتَّقْتيرِ مَقْصَداً، وهو تأويلُ مُقاتِلٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الإسرافُ هو الإنفاقُ في مَعْصِيَةِ اللهِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي لم يَمْنَعوا عن طاعةِ اللهِ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي عَدْلاً؛ لا يُمْسِكُ عنْ حَقٍّ، ولا يُنْفِقُ[8] في باطلٍ، ولكنْ نَفَقَةٌ في طاعةِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الإسرافُ في النفقةِ، هو الإنفاقُ في ما لا يُنْتَفَعُ [بهِ][9] مِنْ نَحْوِ البَحيرَةِ والسائِبَةِ والوَصِيلَةِ التي كانوا يَتْرُكونَها سُدًى، ولا يَنْتَفِعونَ بها. والإقْتارُ، هو الإمساكُ عنِ الإنفاقِ فيما يُنْتَفَعُ/ ٣٨٠ ـ أ/ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الإسرافُ، هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ في الإنْفاقِ، في الإكثارِ. والإقتارُ هو المَنْعُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي وَسَطاً كقولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ولكنْ بَينَ ذلكَ.

وأصْلُهُ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ أي لم يُنْفِقوا، ولم يَضَعوا إلّا في ما أُمِروا أنْ يَضَعوا فيهِ [أموالَهُمْ][10] ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي قائماً في ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ويصاحبون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: وقوله. (٧) في الأصل وم: والجحود واستبشروا. (٨) في الأصل وم: ينفقون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أخبَرَ أنهمْ ما يَفْعَلونَ [ما يَفْعَلونَ][1] إلا بأمرٍ.

الآية ٦٨ وأخبَرَ أنهمْ ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ثم يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحَدُهما:][2] ﴿لَا يَدْعُونَ﴾ أي لا يَعْبُدونَ دونَ اللهِ غيرَهُ.

[والثاني][3]: لا يُسَمُّونَ غيرَ الله [إلهاً][4]. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

أخبَرَ في الآيةِ الأولَى في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] عن مُعامَلَتِهِمُ الخَلْقَ وصَنيعِهِمْ بَيْنَهُمْ وبَينَ العبادِ حين[5] أخبَرَ أنهمْ يَمْشونَ هَوناً، ولا يُؤْذُونَ أحداً، ولا يَضُرُّونَهُ، وإذا آذاهُمْ أهلُ الجَهْلِ والسَّفَهِ لم يُكافِئوهُمْ لِأذاهُمْ، ولكنِ احْتَمَلوا ذلكَ عنهمْ، وتَجاوَزوا، وقالوا لهمْ قولاً سديداً.

هذهِ مُعامَلَتُهُمْ في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ الخَلْقِ بالنهارِ.

وأخبَرَ عنْ مُعامَلَتِهِمْ ودعائِهِمْ ربَّهُمْ بالليلِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٤و٦٥].

ثم أخبَرَ عنْ صنيعِهِمْ في أموالِهِمُ التي في أيديهِمْ أنهمْ لا يَضَعونَها إلاّ في ما أُمِروا بالوَضْعِ فيها، وأخبَرَ عنْ صَفْوَتِهِمْ وإخلاصِهِمْ للهِ في العبادةِ وكَفِّهِمْ عنْ مَحارِمِ اللهِ حينَ[7] قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧] وقالَ[8]: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ موصولٌ بهذا ومُقَدَّمٌ على قولِهِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ كأنهُ قالَ: ولا يزنونَ، ولا يشْهَدونَ الزُّورَ، ومَنْ يَفْعَلْ ذلكَ أي ما ذَكَرِمِنْ قَتْلِ النَّفْسِ المُحَرَّمَةِ والزِّنى وشهادةِ الزُّورِ والشِّرْكِ يَلْقَ أثاماً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَثَامًا﴾ أي وادياً في جَهَنَّمَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَثَامًا﴾ عذاباً في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] قالَ بعضُهُمْ: لا يَشْهَدونَ مَكانَ الزُّورِ، وهو الغِناءُ، أي لا يَشْهَدونَ المكانَ الذي يُتَغَنَّى فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: لا يَشْهَدونَ بِشَهادةِ الزُّورِ، وهو الكَذِبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ مُرورَ الكِرامِ، أي إنْ قَدَروا على تَغْييرِ ما عايَنوا مِنَ اللَّغْوِ والمُنْكَرِ غَيَّروهُ، ومَضَوا على وجوهِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَدْخُلَ في ذلكَ فَسادٌ، وإنْ لم يَقْدِروا مَضَوا، ولم يَعْبَؤوا بهِ، ولا اشْتَغَلوا بهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ الخوارجِ بإكفارِهِمْ أصحابَ الكبائرِ لأنهُ أخبَرَ أنها مُحَرَّمَةٌ بَعْدَ ارْتِكابِها الزِّنى[9] كما هي قَبْلَ ارْتِكابِها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ حينَ[10] قالَ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ دلَّ أنها مُحَرَّمَةٌ بِحَقٍّ[11] غيرُ كافِرَةٍ إلاّ بالحَقِّ: إمَّا بِحَقِّ القِصاصِ، وإما بِحَقِّ الزِّنى، وإمّا بِحَقِّ الارْتِدادِ. وعلى ما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «لا يَحِلُّ قَتْلُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاّ في ثَلاثِ خِصالٍ: زِنًى بَعْدَ إحصانٍ، وكُفْرٌ بَعْدَ إيمانٍ، وقَتْلُ نَفْسٍ بِغَيرِ حَقٍّ» [بنحوه البخاري ٦٨٧٨] ولو كانَتْ كافِرَةً بارْتِكابِ ما ذَكَرَ لكانَتْ غَيرَ مُحَرَّمَةٍ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الإسرافُ الفَسادُ، والتَّقْتيرُ التَّضْييقُ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي لم يُنْفِقوا قليلاً، لا يَكْفي عيالَهُمْ، والقَوامُ الوَسَطُ، ويُقالُ: لا قَوامَ لي في هذا الأمْرِ أي لا طاعَةَ لي فيه، ولا أقاوِمُ هذا الأمْرَ أي لا أُطيقُهُ، والقِوامُ القَصْدُ.

قالَ أبو مُعاذٍ في قولِهِ: ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ لُغاتٌ أرْبَعٌ: لم يُقْتِروا بِرَفْعِ الياءِ وبِخَفْضِ التاءِ غيرَ مُثَقَّلٍ [ويُقَتِّروا: مُثَقَّلاً][12]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: والقتل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: بعد. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ويَقْتِروا بِنَصْبِ الياءِ وخَفْضِ التاءِ، ويُقْتِروا بِرَفْعِ التاءِ ونَصْبِ الياءِ، والمَعْنَى كلُّهُ واحدٌ[1]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] قالَ بعضُهُمْ: يقولُ: إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِمْ لم يَصَمُّوا عنِ الحَقِّ، ولم يَعْمَوا. قالَ: هُمْ. واللهُ أعلَمُ. قومٌ عَقَلُوا عنِ اللهِ، وانْتَفَعُوا بما سَمِعوا مِنْ كتابِ اللهِ.

وقالَ الحَسَنُ: مَنْ يَقْرَأُها بِلِسانِهِ يَخِرُّ عليها أصَمَّ وأعْمَى؛ كأنَّهُ يُخْبِرُ أنَّ أولئكَ؛ أعني أهلَ صَفْوَةِ اللهِ وإخلاصِهِ لم يَخِرُّوا على تلكَ الآياتِ صُمًّا وعُمْياناً كالكَفَرَةِ العَنَدَةِ، ولكنْ خَرُّوا عليها مُتَذَكِّرينَ ومُتَفَقِّهينَ مُتَيَقِّظينَ عالِمينَ بما فيها كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ إنْ[2] قيلَ: أخبَرَ ههنا أنهُ يُضاعِفُ لهُ العذابَ، وقالَ في آيةٍ أُخرى ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] فما مَعْنَى الضِّعْفِ ههنا؟

قيلَ: يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحدُها:][3] أنهُ يُضاعِفُ العذابَ لِلَّذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ: إذا كَفَروا باللهِ بَعْدَ ما بَلَغوا المَبْلَغَ الذي وَصَفَهُمْ والرُّتْبَةَ التي ذَكَرَ، وهو قولُهُ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] أنَّ واحداً منهُمْ، إذا كَفَرَ ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ يَتَضاعَفُ عذابُهُ على قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ ومَرْتَبَتِهِ عندَ اللهِ وعلى قَدْرِ نِعَمِ اللهِ عليهِ إذا كانَ منهُ عِصْيانٌ وكُفْرانٌ لذلكَ؛ وهو كما قالَ لِرسولِهِ[4] ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤ و٧٥] أي ضِعْفَ عذابِ الحياةِ وضِعْفَ عذابِ المَماتِ، وما ذَكَرَ لأزواجِهِ حينَ[5] قالَ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

كلُّ مَنْ كانَ أعْظَمَ قَدْراً وأكْثَرَ نِعَماً عليهِ فَعُقوبَتُهُ إذا عَصَى رَبَّهُ أكْثَرُ وأشَدُّ مِنَ الذي لم يَبْلُغْ ذلكَ ولا تلكَ الرُّتْبَةَ[6]، فتكونُ ضِعْفَ غَيْرِهِ وجزاءَ مِثْلِهِ.

والثاني: أنْ يكونَ ذلكَ لِلأئِمَّةِ؛ أعني الكَفَرَةَ والرُّؤساءَ دونَ الأتباعِ لأنهمْ عَمِلوا هُمْ بأنفُسِهِمْ، ودَعَوا غَيْرَهُمْ إلى ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

والثالثُ[7]: أنْ يكونَ ذلكَ [لِلْعِنادِ][8] الذي كانَ منهمْ والمُكابَرَةِ.

الآية ٧٠ ثم اسْتَثْنَى مَنْ تابَ منهُمْ، فقالَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية.

[فإنْ كانَتِ الآيةُ][9] في الذينَ قالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فكانَ[10] فيهِ دلالةُ قَبولِ تَوْبَةِ المُرْتَدِّ إذا تابَ، ورَجَعَ إلى الإسلامِ حينَ[11] اسْتَثْنَى مَنْ تابَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: يُوَفِّقُهُمُ[12] اللهُ إذا تابوا، ونَدِموا على ما فَعَلوا مِنَ السَّيِّئاتِ في الدنيا حتى يَعْمَلوا مَكانَ [كلِّ][13] سَيِّئَةٍ عَمِلوها [حَسَنَةً][14] فذلكَ مَعْنَى تَبْديلِ اللهِ [سَيِّئاتِهِمْ][15] حَسَناتٍ، أي يُوَفِّقُهُمْ على ذلكَ.

والثاني: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ في الآخِرَةِ لِما كانَ منهمُ النَّدامَةُ والحَسْرَةُ على كلِّ سَيِّئَةٍ كانَتْ منهُمْ في الدنيا.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ][16]: «لَيَأتِيَنَّ أقوامٌ يومَ القِيامَةِ/ ٣٨٠ ـ ب/ وَدُّوا أنهمُ اسْتَكْثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ، فَقيلَ لهُ: [ومَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ][17]؟ قالَ: هُمُ الذينَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨١] وكأنهُ رُوِيَ مِثْلُهُ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٤. (٢) في الأصل وم: فإن. (٣) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٤) في الأصل وم: لرسول الله.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: الزينة. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: لهم المعتاد. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: فكأنه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: يوفق. (١٣) ساقطة من الأصل وم.
(١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: قال. (١٧) في الأصل: يا أبا هريرة ومن هم.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ على الأمرِ؛ كأنهُ قالَ: ومَنْ تابَ فَلْيَتُبْ إلى اللهِ مَتاباً، لا يرجعُ عنهُ][1] أبداً. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] أي إنْ يكنْ منكُمْ عشرونَ، فَيَثْبُتوا، يَغْلِبوا مِئتَينِ على الأمرِ؛ دليلُهُ قولُهُ حينَ[2] قالَ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٦].

والثاني: أنْ يكونَ ذلكَ لِقومٍ خاصٍّ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ إذا تابوا توبَةً لا يَرْجِعونَ عنها أبداً. وإلّا ليسَ كلُّ مَنْ تابَ يكونُ على تَوبَتِهِ أبداً.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قد ذَكَرْناهُ ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ قد ذَكَرْناهُ أيضاً. وقالَ[3] بعضُهُمْ: إذا أُوذوا صَفَحوا، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنهمْ كانوا إذا أَتَوا على ذِكْرِ النِّكاحِ أو غَيرِهِ كَفُّوا عنهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي عُقوبَةَ الأثامِ، وقولُهُ: ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي لم يَخوضوا فيهِ، وأكْرَموا أنفسَهُمْ عنهُ.

الآية ٧٣ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يَتغافَلوا عنها، وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ إذا وُعِظوا بالقرآنِ ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ عندَ تِلاوَةِ القرآنِ، فلا يَسْمَعونَ، ولا يُبْصِرونَ، ولكنْ يَخِرّونَ عليها سَمْعاً وبَصَراً، وهو واحدٌ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قد نَعَتَهُمْ ﷻ في مُعامَلَتِهِمْ: أنْ كيفَ عامَلوا ربَّهُمْ بالليلِ والنهارِ نَعَتَهُمْ أيضاً في مُعامَلَتِهِمْ عبادَهُ: أنْ كيفَ عامَلوا عبادَهُ. ثم نَعَتَهُمْ في معامَلَتِهِمْ أهليهِمْ ودعائِهِمْ لهمْ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ لَمّا أمرَهُمْ أنْ يَتوبوا [ويَقُوا][5] أنفسَهُمْ وأهليهِمُ النارَ بقولِهِ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية [التحريم: ٦] فعندَ ذلكَ دَعَوا ربَّهُمْ، وسألوهُ أنْ يَهَبَ لهمْ مِنْ أزواجِهِمْ وذُرِّياتِهِمْ ما تَقَرُّ بهِ أعيُنُهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: اجْعَلْهُمْ صالِحينَ مُطيعِينَ فإنَّ ذلكَ يُقِرُّ أعيُنَنا. قالَ الحَسَنُ: واللهِ ما شيءٌ أحبُّ إلى العبدِ المُسْلِمِ مِنْ أنْ يَرَى وَلَدَهُ أو حَميمَهُ، يُطيعُ اللهَ، وقالَ: نَراهُمْ، يَعْمَلونَ بِطاعَةِ اللهِ، فَتَقَرُّ بذلكَ أعيُنُنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اجعَلْنا أئِمَّةَ هُدَى، يُقْتَدَى بِنا. وقالَ بعضُهُمْ: واجْعَلْنا بِحالٍ يَقْتَدي بنا المُتَّقونَ.

وأصْلُهُ، واللهُ أعلَمُ: كأنهُمْ[6] سألوا ربَّهُمْ أنْ يَجْعَلَهُمْ بِحالٍ مَنِ اقْتَدَى بِهِمْ صارَ تَقِيًّا، لا مَنِ اقْتَدَى صارَ ضالاً فاسِقاً. هذا، واللهُ أعلَمُ: تأويلُهُ. وإلّا سُؤالُهُمْ: اِنِ اجْعَلْنا إماماً لِلْمُتَّقينَ، لا مَعْنَى لهُ أنْ يَطْلُبوا لأنفسِهِمُ الإمامَةَ، ولكنْ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ ثم أخبَرَ عَنْ جزائِهِمْ في الآخِرَةِ بِصَنيعِهِمْ في الدنيا وصَبْرِهِمْ على ما أُمِروا، فقالَ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ والغُرْفَةُ، هي أعْلَى المَنازِلِ، وأشْرَفُها. أخبَرَ أنهمْ يُجْزَوْنَ ذلكَ، ويكونونَ فيها. وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ؓ، أولئكَ يُجْزَوْنَ الجنةَ بما عَمِلوا. فجائزٌ أنْ تكونَ الغُرْفَةُ المذكورةُ في الآيةِ كِنايةً عنِ الجنةِ بدلالةِ[7] حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ.

وجائزٌ أنْ يُرادَ بها[8] نَفْسُ الغرفَةِ لِارْتِفاعِها وعُلُوِّها على غَيرِها مِنَ المَنازِلِ؛ وذلكَ مِمّا يُخْتارُ السكونُ فيها في الدنيا؛ والناسُ يَرْغَبونَ فيها لِإشرافِها وارْتِفاعِها على غَيرِها، فَرَغَّبَهُمْ في ذلكَ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: لا يرجع عنها. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فإنهم. (٧) في الأصل وم: يدله. (٨) في الأصل وم: به.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ [بالتّشديدِ، والتّخفيفِ][1]: ويَلْقَونَ فيها تَحِيَّةً وسَلاماً، أي تَلْقاهُمُ الملائكةُ بالتَّحِيَّةِ والسلامِ كقولِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٤] وقولِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣] أي[2] يَلْقَى بعضُهُمْ بعضاً بالتَّحِيَّةِ والسلامِ، ويُحَيِّي بعضُهُمْ بعضاً، ويُسَلِّمُ بعضُهُمْ على بَعْضٍ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ دائِمينَ ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي حَسُنَتِ الجنةُ لهمْ مُسْتَقَرًا ومُقاماً حتى لا يَمَلُّوا فيها، ولا يَسْأموا، ولا تأخُذَهُمُ الوَحْشَةُ والكآبةُ كنعيمِ الدنيا، يُمَلُّ، ويُسْأمُ فيها، عندَ الكَثْرةِ وطولِ المقامِ فيها.

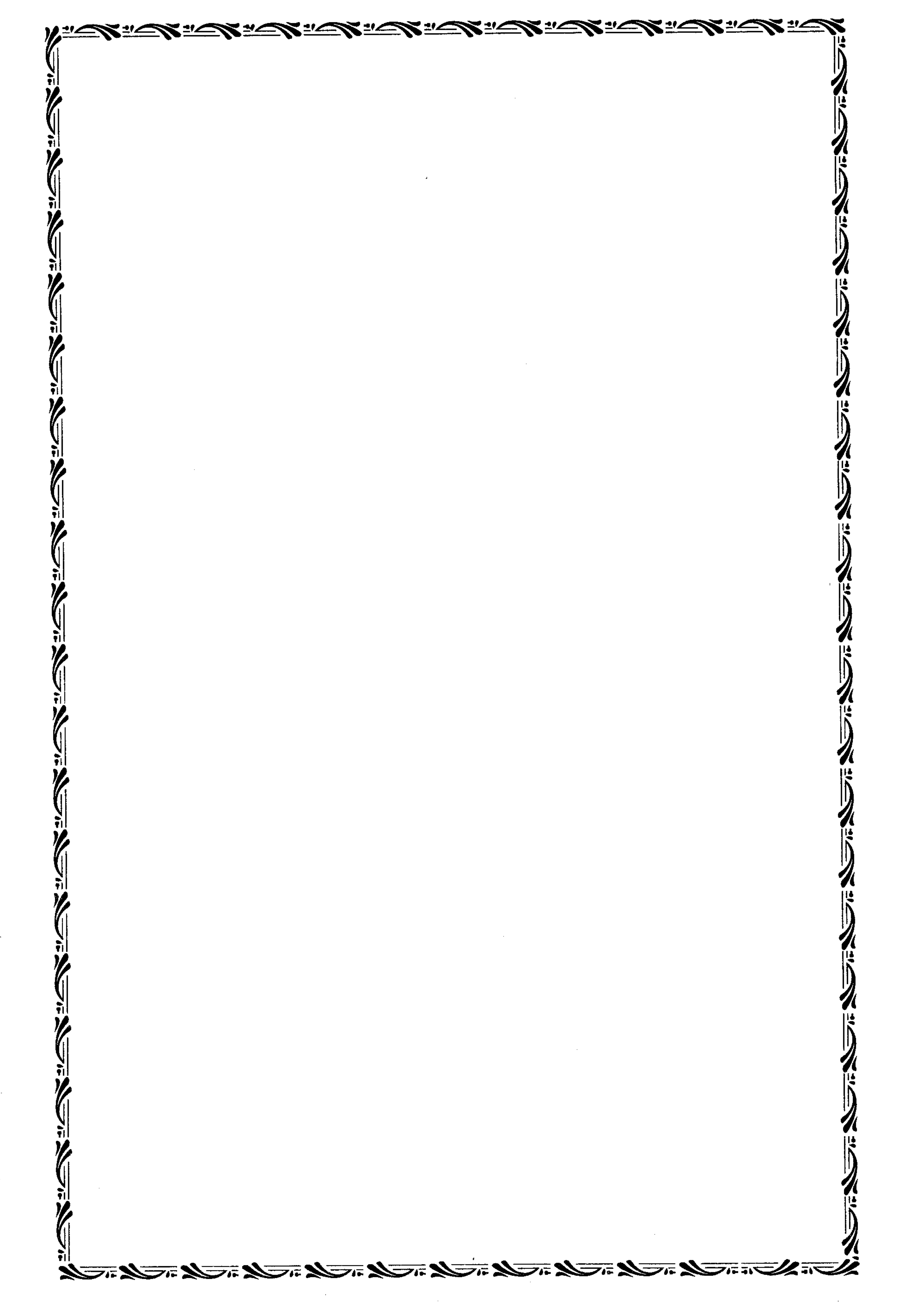
الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا﴾ دعاؤُهُ][3] إياكُمْ إلى التَّوحيدِ لِتُوَحِّدوهُ، وتُطِيعُوهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ أي ما يَصْنَعُ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي ما يَصْنَعُ ربي بعذابِكُمْ، إنْ شَكَرْتُمْ، وآمَنْتُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو عذابُ يومِ بدرٍ، يَعْني ألْزَمَ بَعْضَهُمْ بعضاً، وكذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ، قالَ: مَضَتْ آيَةُ الدخانِ والبَطْشَةِ[4]، واللِّزامُ يومُ بدرٍ، وقالَ: ﴿لِزَامَۢا﴾ أي عذاباً مُلازِماً غَيرَ مُفارِقٍ، وهو عذابُ الآخِرَةِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ أي ما يَصْنَعُ؛ يُقالُ: عَبَأَ يَعْبَأُ عِبْئاً، فهو عابِئٌ، إذا احْتاجَ إليكُمْ، ويُقالُ: ما أعْبَأُ بهذا الأمرِ، أي ما أصْنَعُ، ويُقالُ: عَبَأْتُ بِفُلانٍ أي احْتَجْتُ إليهِ. وكذلكَ قولُ القُتَبِيِّ. واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

***

(١) في الأصل وم: بالتخفيف والتشديد، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٢٩٩. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل.
(٤) وهي قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ و١٦]



[سورة الشعراء

وهي](١) مَكِّيَّةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ الحُروفِ المُعْجَمَةِ في ما تَقَدَّم، وكذلكَ قولُهُ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ أيضاً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ كانَ يَشْتَدُّ على رسولِ اللهِ تَرْكُهُمُ الإيمانَ وتكذيبُهُمْ إيّاهُ إشفاقاً وخَوفاً عليهِمْ وتَعْظيماً وإجلالاً لِحَقِّهِ حتى كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ حُزْناً على ذلكَ. [وهو](٢) كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. والأسَفُ، هو النهايةُ في الحُزْنِ كقولِ يَعْقوبَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]. وقالَ /٣٨١ ـ أ/ بَعْضُهُم: الأسفُ، هو النهايةُ في الغَضَبِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] قيلَ: أغْضَبُونا.

وقد ذَكَرْنا في سورةِ يوسفَ على ما ذَكَرَ اللهُ رسولَهُ، وَوَصَفَهُ [أنهُ](٣) كانَ مَطْبوعاً بِحُزْنٍ وتأسُّفٍ لِمَكانِ كُفْرِهِمْ وتكْذيبِهِمْ كقولِهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٨] يَحْزَنُ عليهِمْ إشْفاقاً عليهِمْ [ويَغْضَبُ عليهِمْ](٤) للهِ تَعْظيماً لهُ وإجلالاً لأمْرِهِ لِما ضَيَّعُوا أمْرَهُ ونَهْيَهُ.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ رَأى آخَرَ في فاحشةٍ أو كَبيرةٍ أنْ يَحْزَنَ، ويَتَرَحَّمَ عليهِ، ويَغْضَبَ للهِ لِما(٥) ارْتَكَبَ مِنَ الفاحِشَةِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قالتِ المُعْتَزِلَةُ: قولُهُ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ مَشيئةُ قَسْرٍ وقَهْرٍ حتى يُضْطَرُّوا لها، فَيُؤْمِنوا.

لكنْ عندَنا مَشيئةُ الإيمانِ والإختيارِ أي إنْ نَشَأْ إيمانَهُمْ نُنْزِلْ عليهِمْ آيةً فَيُؤْمِنوا، لأنَّ الآيَةَ، لا تَضْطَرُّ أحداً، ولا تَقْهَر على الإيمانِ، دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] أخبرَ أنهُمْ لا يؤمنونَ، وإنْ فَعَلَ ما ذَكَرَ، ولا يَضْطَرُّهُمْ ذلكَ على الإيمانِ، وكذلكَ ما أخْبَرَ عنهمْ في الآخِرَةِ بقولِهِ(٦): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ١٨] وقولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٣] أخبرَ عنْ حَلْفِهِمْ وإنْكارِهِمْ في الآخِرَةِ أنهمْ لم يكونوا على ما كانوا. ولا تكونُ آيةٌ أعْظَمَ ممَّا عايَنوا مِنْ أنواعِ العذابِ.

ثم لم يَمْنَعْهُمْ ذلكَ عنِ التَّكْذيبِ، ولا اضْطَرَّهُمْ على الإقرارِ والتَّصْديقِ. دَلَّ، وإنْ كانَتْ عظيمةً، لا تَضْطَرُّ أهلَها على الإيمانِ والتَّصْديقِ. وقد ذَكَرْنا هذهِ المسألةَ في ما تَقَدَّمَ ما يُغْنينا عنْ ذِكْرِها في هذا الموضِعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي مالَتْ، وخَضَعَتْ لها أعناقُهُمْ، والأعناقُ كأنها كِنايةٌ عنْ أنفسِهِمْ، وعنِ

---

(١) من م، في الأصل: قيل: سورة الشعراء. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: عقلاً. (٦) في الأصل وم: قال.

ابْنِ عباسٍ [أنهُ][1] قالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قالَ: سيكونُ لنا دُولَةٌ على بني أُمَيَّةَ، فَتَذِلُّ لنا أعناقُهُمْ [خضوعاً][2] بَعْدَ صُعوبَةٍ وهَواناً بَعْدَ عِزَّةٍ، فقد كانَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الأعناقُ السَّادةُ والقادةُ، والواحدُ عُنُقٌ، أي إذا أَسْلَمَ القادةُ أَسْلَمَ الأتباعُ اتِّباعاً لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يقولُ: كلَّما نَزَلَ شيءٌ بَعْدَ شيءٍ مِنَ المَوعظةِ والذِّكْرِ فهو مُحْدَثٌ مِنَ الأزَلِ[3].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ ممَّا بهِ فيهِ ذِكْرُهُمْ في الآخَرينَ، وشَرَفُهُمْ في الخَلْقِ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ لأنهمْ لو آمَنوا لَذُكِروا في الناسِ، وبَقِيَ لهمْ ذِكْرٌ وشَرَفٌ كَذِكْرِ الأنبياءِ والرسلِ فيهمْ إلى آخِرِ الدَّهْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُحْدَثٍ﴾ هو مُحْدَثٌ على هذينِ الوجهَينِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْناهُما.

قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَة: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ كما تقولُ: ظَلِلْتُ اليومَ. قالا: والأعناقُ السَّادَةُ، والواحدُ منهُ: عُنُقٌ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ الآية [هو ظاهرٌ][4] قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تقدَّمَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قد رَأَوا ما أنْبَتْنا، وأخرَجْنا منها.

والثاني: على الأمْرِ، أي رُوا ما أنْبَتْنا في الأرضِ، وأخرَجْنا منها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

قالَ الحَسَنُ: الكريمُ الحَسَنُ كالبَهيجِ، وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي جِنْسٍ حَسَنٍ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ لِوَحدانيَّةِ اللهِ والوهيَّتِهِ، وآيةً لِسُلْطانِهِ وقدرتِهِ، وآيةً لِعِلْمِهِ وتدبيرِهِ، لأنَّ مَنْ قَدَرَ على إحياءِ النباتِ مِنَ الأرضِ بَعْدَ ما يَبِسَ، وجَفَّ، قادرٌ على إحياءِ المَوتى وبَعْثِهِمْ. ودلَّ إخراجُ النباتِ مِنَ الأرضِ في كلِّ عامٍ على حَدٍّ واحدٍ وعلى قَدْرٍ وميزانٍ واحدٍ، على [أنهُ][5] إنما خَرَجَ ذلكَ عنْ تَدْبيرِ [مدبِّرٍ عليمٍ؛ لهُ تدبيرٌ ذاتيٌّ][6] وعِلْمٌ ذاتيٌّ وقُدْرَةٌ ذاتيَّةٌ، ليسَتْ بِمُسْتَفادَةٍ. فَدَلَّ ذلكَ كلُّهُ أنهُ فِعْلُ واحدٍ قادرٍ ومُدَبِّرٍ عالمٍ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثرُ الذينَ بُعِثَ إليهِمْ محمدٌ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ وهمُ الذينَ كانوا وقْتَ مَبْعَثِهِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ [وما يكونُ][7] أكثرُهُمْ مؤمنينَ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جائزٌ أنْ يُقالَ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المُنْتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على الخَلائقِ كلِّهِمْ، وهمْ أذِلَّاءُ دونَهُ؛ بهِ يَعِزُّ مَنْ عَزَّ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ أي أمَرَ ربُّكَ موسى، وأوحى ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ موسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، كانَ مَبْعوثاً مُرسَلاً إلى فِرْعَونَ وقومِهِ، وإنْ كانَ لم يَذْكُرْ في بعضِ الآياتِ قومَهُ حينَ[8] قالَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤ والنازعات: ١٧] وقالَ في بَعْضِها: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣ و . . .] [والمَلأُ: هُمُ][9] الرُّؤساءُ والقادةُ. فإذا آمَنوا هُمُ اتَّبَعَهُمُ الأتباعُ في ذلكَ، فكانَ[10] مَبْعوثاً في الحقيقةِ رسولاً إليهِ وإلى قومِهِ جميعاً الأتباعِ والمَتْبوعِينَ لِما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كأنهُ على الإضمارِ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقُلْ لهمْ: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: أحَدُهُما: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مُخالفةَ أمرِ اللهِ ونَهْيِهِ.

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأول. (٤) في الأصل وم: هي ظاهرة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فهذه لأنهم كانوا. (١٠) في الأصل وم: والاكان.

والثاني[1]: ألا يتّقونَ نَقمَةَ اللهِ وعقوبَتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لم يَقطعْ موسى القولَ في التكذيبِ، ولكنهُ على الرَّجاءِ قالَ ذلكَ. وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] فكأنهُ رجا ذلكَ منهُ لهذا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على القَطعِ والعِلْمِ منهُ بالتكذيبِ؛ كأنهُ قالَ: إني أعلَمُ أنهمْ يُكذّبوني، وذلك[2] جائزٌ في اللغةِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ لأنَّ عليهِ أنْ يَغضبَ لِلّهِ إذا كذَّبوهُ، فإذا اشْتَدَّ بالمَرْءِ الغَضَبُ ضاقَ صَدْرُهُ، وكَلَّ لسانُهُ، وهو ما دَعا ربَّهُ، وسألَهُ حينَ[3] ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٥ و٢٦ و٢٧] وهو ما ذَكَرنا إذا اشْتَدَّ بالمَرْءِ [الغَضَبُ][4] يَضيقُ صَدْرُهُ حتى يَمْنَعَهُ عنِ الفَهمِ، ويَكِلُّ لسانُهُ حتى يَمْنَعَهُ عنِ العبارةِ والبَيانِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ لآفةٍ، كانَتْ بلسانِهِ.

ثم ضِيقُ الصَّدْرِ يكونُ لِوَجهَينِ:

أحدُهُما: لِعِظَمِ أمْرِ اللهِ وجَلالِ قَدْرِهِ إذا كَذَّبوهُ، ورَدُّوا رسالَتَهُ وأمْرَهُ، ضاقَ لِذلكَ صَدْرُهُ.

[والثاني][5]: لِما يَنْزِلُ مِنْ عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ بالتكذيبِ إشفاقاً عليهِمْ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٣ و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾: قولُهُ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ كسؤالِهِ إيّاهُ حينَ[6] قالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِى﴾ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٢] فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ يكونُ معي في الرسالةِ، وقولُهُ[7]: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ الآية [القصص: ٣٤].

وذَنْبُهُ الذي ذَكَرَ أنهُ عليهِ، هو قَتْلُ ذلكَ القِبْطِيِّ، وهو قولُهُ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] ذلكَ ذنبُهُ الذي لهمْ عليهِ.

الآية ١٥ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ على قولِ موسى ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ كأنهُ قالَ: لا تَخفْ، وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى حينَ[9] ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بالفِعْلِ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿كَلَّا فَٱذْهَبَا﴾ [أي لا تخافا][10] / ٣٨١ ـ ب/ ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

وقالَ في تلكَ الآيةِ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولونَ لكما، وأرى ما يَفْعَلونَ بكما[11]، فأمْنَعُهُمْ عنكما؛ لأنهما ذَكَرا الخَوفَ منهُ مِنْ شيئَيْنِ: مِنَ الفِعْلِ والقولِ حينَ[12] ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بالفِعْلِ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] باللِّسانِ.

الآيتان ١٦ و١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليسَ على حقيقةِ الإرسالِ معهُ، ولكنْ على تَرْكِ استِعْبادِهِمْ كقولِهِ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] أي خَلِّ بَيْنَهُمْ وبَينَ استِخدامِكَ إيَّاهُمْ واستِعْبادِكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ ثم قالَ لهُ فرعونُ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ يَذْكُرُ نِعَمَهُ التي أنْعَمها عليهِ بِتَربِيَتِهِ إيّاهُ صَغيراً وكونِهِ فيهِمْ دَهْراً، وكُفرانَ موسى لِما أنْعَمَ عليه:

الآية ١٩ وهو ما قالَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهو قَتْلُ ذلكَ القِبْطِيِّ الذي وَكَزَهُ موسى، فَقَضَى عليهِ، فَأقَرَّ لهُ موسى بذلكَ، فأخبَرَ أنهُ فَعَلَ ذلك حينَ[13] ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

(١) في الأصل وم: ونقول. (٢) من م، في الأصل: وكذلك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو يضيق. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وكقوله. (٨) في الأصل وم: ثم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: بكم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي فَعَلْتُ ذلكَ، وأنا كنتُ مِنَ الجاهِلينَ؛ لا يَعْلَمُ أنَّ وَكْزَتَهُ تلكَ، تَقْتُلُهُ، وإلّا لو عَلِمَ ما وَكَزَهُ، لأنهُ لم يكُنْ يَحِلُّ لهُ قَتْلُهُ حينَ[1] ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] دلَّ ذلكَ منهُ أنه كانَ لم يُحِلَّ قَتْلَهُ إلّا أنهُ جَرَى ذلكَ على يَدِهِ خَطأً وجَهْلاً.

وفيهِ دلالةُ أنَّ الرجلَ، قد يُنْهَى، ويُؤاخَذُ بما يَجْري على يَدِهِ خَطأً وجَهْلاً، ويُخاطَبُ بذلكَ حينَ[2] ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ وهو حينَ قالَ لهُ ذلكَ الرجلُ ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ الآية ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢٠ و٢١] وذلكَ فِرارُهُ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿حُكْمًا﴾ أي عِلْماً بالحُكْمِ ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقد كانَ ذلكَ لهُ كُلُّهُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو اسْتِعْبادُكَ إيّاهُمْ، أي إذا ذَكَرْتَ هذا فاذْكُرْ ذاكَ. وهذا[3] يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنْ تَذْكُرَ ما أنعَمْتَ عَلَيَّ، وتَمُنُّها، ولا تَذْكُرَ مَساوِئَكَ بِبَني إسرائيلَ، وهو اسْتِعْبادُكَ إيّاهُمْ، أي إذا ذَكَرْتَ هذا فاذْكُرْ ذاكَ.

والثاني: أنَّ تلكَ ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ حينَ[4] لم تُعَبِّدْني، وعَبَّدْتَ بَني إسرائيلَ؛ يُخْرِجُهُ[5] على قَبولِ المِنَّةِ منهُ.

والثالثُ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ لو تَخَلَّيْتَ[6] عنْ بَني إسرائيلَ، ولم تَسْتَعْبِدْهُمْ، لَوَلُوا ذلك عنهُ.

وتَمامُ هذا بقولِ موسى لِفِرعَونَ: أتَمُنُّ عليَّ يا فِرْعَونُ بأنِ اتَّخَذْتَ بَني إسرائيلَ عَبيداً، وكانوا أحراراً، فَقَهَرْتَهُمْ، وقولِهِ[7] ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي مِنَ الجاهِلينَ بذلكَ: أنهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ وَكْزَتِهِ الموتُ.

وكذلكَ رُوِيَ في بعضِ الحروفِ: وأنا مِنَ الجاهِلينَ[8]. دلَّ أنهُ على الجهلِ فَعَلَ[9] ذلكَ لا على القَصْدِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ يقولُ: وهذهِ مِنَّةٌ تَمُنُّها عليَّ بقولِكَ[10] ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يقولُ: تَمُنُّ بها عَلَيَّ أنْ تَسْتَعْبِدَ بَني إسرائيلَ، وتَمُنُّ عَلَيَّ بذلكَ.

الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِموسى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقالَ لهُ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مِنْ خَلْقٍ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ثم ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.

إنما قالَ اللَّعينُ هذا، واللهُ أعلَمُ [لِما][12] وَقَعَ عندَهُ أنَّ موسى حادَ عنْ جوابِ ما سَأَلَهُ لأنهُ إنما قالَ اللَّعينُ هذا، فهو إنما أجابَهُ عنْ [فِعْلِ وربوبِيَّةِ ربِّ العالَمينَ][13]، فَظَنَّ أنهُ حائِدٌ عَنْ جوابِ ما سألَهُ، ولِذلكَ[14] قالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى ما يقولُ موسى تَعَجُّباً منهُ: إني أسألُهُ عنْ شيءٍ، وهو يُجيبُني عنْ شيءٍ.

الآيتان ٢٦ و٢٧ ثم قالَ موسى: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ نَسَبَهُ إلى الجُنونِ لِما ذَكَرْنا أنهُ [ظَنَّهُ حائداً][15] عنِ الجَوابِ في كلِّ ما ذَكَرَ؛ إنما كانَ السؤالُ منهُ عنِ الماهِيَّةِ، وهو لم يُجِبْهُ عنها.

الآية ٢٨ فَعِنْدَ ذلكَ قالَ موسى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لم يُجِبْهُ موسى في كلِّ ما ذَكَرَ لهُ عنِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يخرج. (٦) في الأصل وم: خليت. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) هذه قراءة ابن مسعود وابن عباس، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٠٨. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) في الأصل وم: بقوله. (١١) في الأصل وم: ثم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: فعله وربوبية. (١٤) في الأصل وم: وكذلك. (١٥) في الأصل وم: ظن حائد.

الماهيّةِ، ولكنْ أجابَهُ في الأوّلِ عنْ بَيانِ [الرُّبوبيّةِ والألوهيّةِ حينَ][1] ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] ذلكَ، فَعَرَفَ اللعينُ أنهُ ليسَ هو ربَّ السمواتِ والأرضِ لِما يَعْلَمُ أنهُ لا صُنْعَ لهُ في ذلكَ، وأنهُ لم يُنْشِئْهُما، ولكنْ أنْشَأَهُما ربُّ العالَمينَ على ما ذَكَرَ موسى.

لكنْ كأنهُ لم يَعْرِفْ حَدَثَهُما ولا فَناءَهما بِما ذَكَرَ لهُ موسى لِما [لم][2] يُشاهِدْ حَدَثَهُما وفَناءَهُما، فلم يَتَقَرَّرْ ذلكَ عندَهُ أنهما كذلكَ كانا، ويكونونَ أبداً. فَعِنْدَ ذلكَ احْتاجَ إلى أنْ يَذْكُرَ لهُ ما يُشاهِدُ [حَدَثَهُ وفَناءَهُ][3] وهو ما ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ذَكَرَ لهُ ما شاهَدَ حَدَثَهُ وفَناءَهُ.

فإذا عَرَفَ حَدَثَ ما ذَكَرَ وفَناءَهُ يَعْرِفُ أنهُ إذا لم يَكُنْ بِنَفْسِهِ، ولا يكونُ نَفْسُهُ إلاّ بِمُحْدِثٍ أحْدَثَهُ وبِمُدَبِّرٍ، دَبَّرَهُ.

ثم ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ ذَكَرَ ههنا قُدْرَتَهُ وسُلْطانَهُ، وهو يأتي بالنهارِ مِنَ المَشْرِقِ وباللَّيلِ مِنَ المَغْرِبِ، ويُطْلِعُ الشمسَ مِنَ المَشْرِقِ، ويُغْرِبُها في[4] المَغْرِبِ، وكذلكَ القَمَرُ والنُّجومُ.

ففيهِ دلالةُ البَعْثِ لأنَّ مَنْ قَدَرَ على أنْ يأتِيَ بالنهارِ مِنْ كذا وباللَّيلِ مِنْ ناحِيَةِ كذا والشمسِ والقَمَرِ من كذا قادرٌ على البَعْثِ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. ففي كلِّ حَرْفٍ مِنَ الأحْرُفِ دلالةٌ واسْتِدلالٌ على شيءٍ، ليسَ في الأُخرَى.

وفي قولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دلالةُ رُبوبيّةِ اللهِ وأُلوهيّتِهِ. وفي قولِهِ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دلالةُ حَدَثِ ما ذَكَرَ وفنائِهِ ودلالةُ مُحْدِثٍ ومُدَبِّرٍ. وفي قولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ دلالةُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ على البَعْثِ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

وفي ذلكَ دلالةُ أنَّ اللهَ تعالى لا يُعْرَفُ بالماهِيَّةِ ولا بما يُحَسُّ[5]، ولكنْ إنما يُعْرَفُ مِنْ جهةِ الاسْتِدْلالِ بِخَلْقِهِ وبالآياتِ التي تَدُلُّ على وَحدانيّتِهِ حينَ[6] سَأَلَ فِرْعَونُ موسى عنِ الماهِيَّةِ، فأجابَ على الاسْتِدْلالِ بِخَلْقِهِ.

الآية ٢٩ ثم قالَ اللَّعينُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما أوعَدَهُ السِّجْنَ، ولم يوعِدْهُ القَتْلَ لأنهُ طَلَبَ منهُ الحُجَّةَ على ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ حينَ[7] قالَ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ الآية [الشعراء: ٣١] ولو قَتَلَهُ لَكانَ لا يَقْدِرُ على إتيانِها. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ كانَ سِجْنُهُ أشَدَّ مِنَ القَتْلِ ومِنْ كلِّ عُقوبةٍ.

الآية ٣٠ فقالَ لهُ موسى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما يُبَيِّنُ رُبوبيَّةَ اللهِ وأُلوهيّتَهُ، أو ما يُبَيِّنُ أني رسولُ اللهِ.

الآية ٣١ فقالَ لهُ فِرْعَونُ: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالرسالةِ وبما ادَّعيتَ.

فَدَلَّ قولُ فرعونَ لِموسى حينَ[8] قالَ لهُ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنهُ قد عَرَفَ أنهُ رسولٌ، وأنهُ ليسَ بإلهٍ على ما ادَّعَى، وأنَّ الإلهَ غَيْرُهُ حينَ طَلَبَ هذهِ الآيةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] بالآياتِ التي تَدُلُّ على وحدانيّةِ اللهِ/ ٣٨٢ ـ أ/ تعالى ومَشيئَتِهِ.

ذَكَرَ هذا مُقابِلَ إنكارِهِمُ الصانعَ. والإيمانُ هو العِلْمُ [الذي][9] يُسْتَفادُ مِنْ جِهَةِ الاسْتِدْلالِ.

لِذلكَ لا يُقالُ للهِ: موقِنٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] [مُقابِلُ][10] قولِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الثُّعْبانُ، هو[11] الكبيرةُ العظيمةُ مِنَ الحَيّاتِ، وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] وقالَ في موضعٍ آخَرَ ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]. فجائزٌ أنْ تكونَ كالثُّعْبانِ بَعْدَ ما طَرَحَها، وألقاها، وقَبْلَ أنْ يَطْرَحَها كالجانِّ، وهي الحيةُ الصغيرةُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ربوبيته وألوهيته حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حدثهما وفناءهما. (٤) في الأصل وم: من.
(٥) في الأصل وم: يحسن. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وهو.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بَياضاً خارجاً عنْ خِلْقَةِ البَشَرِ وخارجاً عنِ الآفةِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢ و...].

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ هذا منهُ إغراءٌ وتَحريشٌ منهُ لِقَومِهِ على موسى لئلا يَنْظُروا إليهِ بِعَينِ التَّعظيمِ لِعَظيمِ ما أتاهُمْ مِنَ الآيةِ؛ [أراهُمْ حينَ][1] قالَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ أنهُ[2] لم يُرِدْ إخراجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ[3]، ولكنَّ ذلكَ إغراءٌ منهُ لهمْ عليهِ لئلاّ يَتَّبِعوهُ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ فَيُفْسِدَ عليكُمْ مَعاشَكُمْ، ويُضَيِّقَ عليكُمْ مُقامَكُمْ ومُتَقَلَّبَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ هذا يُبَيِّنُ أنهُ كانَ عَرَفَ أنهُ ليسَ بإلهٍ، فَيُبَيِّنُ دَناءَتَهُ وقِلَّةَ مَعْرِفَتِهِ، لأنهُ لا يقولُ مَلِكٌ مِنَ الملوكِ لِقومِهِ: ماذا تأمُرونَ؟ وخاصَّةً مَنْ يَدَّعي لِنَفْسِهِ الأُلوهيَّةَ. بقولِهِ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] فَدَلَّ أنهُ كانَ خَسيسَ الهِمَّةِ دَنيءَ الرأيِ والبالِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ احْبِسْهُ، وأَخِّرْهُ ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ الحاشرُ: الجامعُ، والحَشْرُ الجَمْعُ.

الآية ٣٧ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ كانَ يَجِبُ أنْ يَعْرِفَ أنَّ السِّحْرَ يُقابَلُ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، ولا يَحْتاجُ إلى أنْ يَسْأَلَ قومَهُ ذلكَ. لكنهُ كانَ اللَّعينُ ما ذَكَرْنا مِنْ قِلَّةِ البَصَرِ في الأمْرِ وخَساسَةِ الهِمَّةِ ودَناءَةِ الرأيِ.

الآيات ٣٨ و٣٩ و٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ قالَ اللعينُ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ولم يَقُلْ: نَتَّبِعُهُمْ إنْ كانَتْ مَعَهُمُ الحُجَّةُ، لِيُعْلَمَ أنهُ قد عَلِمَ، وعَرَفَ أنْ لا حُجَّةَ مَعَهُمْ، وأنَّ الحُجَّةَ مَعَ موسى حينَ[5] وَجَدَ[6] أتباعَ الغالبينَ دونَ مَنْ مَعَهُمُ الحُجَّةُ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسعودٍ: قالَ للناسِ: أنتمْ مُسْتَمِعونَ إلى السَّحَرَةِ أنهُمُ الغالبونَ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ منهمُ الغالبينَ.

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ هذا ظاهرٌ، لكنَّ أهلَ التأويلِ قالوا: كانَ السَّحَرَةُ كذا كذا عَدَداً، وإنَّ موسى قالَ لِأكْبَرِهِمْ ساحراً: أتُؤمِنُ لي إنْ غَلَبْتُكَ؟ وقالَ الساحرُ: كذا وغيرَ ذلكَ مِنَ الكلامِ ممَّا ليسَ ذلكَ، في الكتابِ ذِكْرُهُ، وليسَ يَنْبَغي لهمْ أنْ يَشْتَغِلوا بِشيءٍ مِنْ ذلكَ أو أنْ يَتَأوَّلوا شيئاً، ليسَ في القرآنِ لِما يُدْخِلُ في ذلكَ مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ، فيكونَ لِلْكَفَرَةِ مَقالٌ في ذلكَ وطَعْنٌ في رسالةِ رسولِ اللهِ، لأنَّ هذهِ الأنباءَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ، فَذُكِرَتْ لرسولِ اللهِ لِتكونَ آيةً لهُ في الرسالةِ، فإنْ زادوا، أو نَقَصوا، يقولوا: هذا كَذِبٌ، لم يُذْكَرْ في كتابِنا ذلكَ.

فلهذا الوجهِ ما يَنْبَغي أنْ يَزيدوا على ما ذُكِرَ في الكتابِ، أو يُنْقِصوا، لئلا يَجِدَ أولئكَ مَقالاً في تكذيبِ رسولِ اللهِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ موسى لأولئكَ السَّحَرَةِ: ﴿أَلۡقُواْ﴾ وهو يَعْلَمُ أنَّ ما يُلْقونَ، هو سِحْرٌ؟ فكيفَ أمَرَهُمْ بالسِّحْرِ؟ قيلَ: هذا [يَحْتَمِلُ وجوهاً]:

أحدُها[7]: إنْ كانَ في الظاهِرِ أمراً فهو في الحقيقةِ تَوَعُّدٌ كقولِهِ لإبليسَ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ الآية [الإسراء: ٦٤] [لا][8] يُخَرَّجُ على الأمْرِ، ولكنْ على التَّوَعُّدِ والتَّهَدُّدِ، أي وإنْ فَعَلْتَ ذلكَ فلا سلطانَ لكَ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقولِهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠].

والثاني: أمَرَهُمْ بذلكَ لِما كانَ ذلكَ سَبَبَ إيمانِ أولئكَ السَّحَرَةِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ السَّحَرَةَ كانوا

---

(١) في الأصل وم: أراهم حيث. (٢) في الأصل وم: وموسى كأنه. (٣) في الأصل وم: أرضكم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وعد. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَعْبُدونَ فِرْعَونَ حينَ[1] قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ وعَلِمُوا عَجْزَ فِرْعونَ وضَعْفَهُ حينَ[2] فَزِعَ إليهِمْ، وقالَ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وقد قُرِئَ تَلَقَّفُ بالتَّشديدِ[3].

قالَ أبو عَوسَجَةَ: تقولُ: لَقِفْتُ الشيءَ، والشيءَ، والتَقَفْتُهُ، أي أخَذْتُهُ. وقالَ غيرُهُ: تَلْقَفُ، أي تَلْقَمُ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وهو الفاعلُ بِمَعْنَى المَفْعولِ أي مَأفوكٌ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. وأمثالُهُ كثيرٌ كقولِهِ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] ونَحْوُهُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أخبَرَ [عَنْ سُرْعَةِ][4] ما سَجَدوا كأنهُمْ أُلْقُوا لِما بانَ لهمْ مِنَ الحقِّ، وظَهَرَ.

الآية ٤٧ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ فِرْعَونَ قالَ عندَ ذلكَ: أنا ربُّ العالَمينَ.

الآية ٤٨ فقالَتِ السَّحَرَةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ لكنَّ الامتِناعَ عنْ هذا وأمثالِهِ ممَّا لم يُذْكَرْ في الكِتابِ أولَى لِما ذَكَرْنا أنهُ إنما يُحتَجُّ عليهِمْ بهذهِ الأنباءِ على تصديقٍ مِنْ أهلِ الكتابِ لهُ في ذلكَ لِما هي مذكورةٌ في كُتُبِهِمْ، فَتُخافُ الزِّيادةُ والنُّقصانُ، فَيُكَذِّبونَهُ في ذلكَ. فَيُذْكَرُ القَدْرُ الذي في الكتابِ لئلا تُدْخَلَ فيهِ الزِّيادةُ والنقصانُ، فَيُفَرَّقَ بهِ، ويُكَذَّبَ، إلَّا ما ظَهَرَ عنْ رسولِ اللهِ القولُ بهِ، فَيُقالُ، وإلَّا[6] الامتِناعُ والكَفُّ أولَى.

الآية ٤٩ ثم قالَ فِرْعَونُ: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إنَّ فِرْعَونَ قد عَلِمَ أنَّ ما جاءَ بهِ موسى هو حُجَّةٌ، لكنهُ كانَ يُلْبِسُ على قومِهِ وأصحابِهِ، ويُغْويهِمْ عليهِ:

فقالَ مَرَّةً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وقالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقالَ مَرَّةً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] وقالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أوعَدَ لهمْ بِوَعائِدَ، فقالَ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي إنَّا إلى ثوابِ ربِّنا الذي وَعَدَ لنا لَراجِعونَ، لا يَضُرُّنا ما تُوعِدُنا بهِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: لا ضَيْرَ: هو مِنْ ضارَهُ يَضُورُهُ، ويَضِيرُهُ، بِمَعْنى ضَرَّهُ. وقد قُرِئَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [الأعراف: ١٢٠] لا يَضُرْكُمْ بالتَّخفيفِ[7] بِمَعْنَى لا يَضُرُّكُمْ.

الآية ٥١ فقالوا ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنْ كُنَّا أوَّلَ المؤمِنينَ [مِن قومِ فرعونَ][8] وقالَ بعضُهُمْ: إنْ كُنَّا أوَّلَ أهلِ مِصْرَ إيماناً. وجائزٌ: إنْ كُنَّا أوَّلَ المؤمِنينَ للحالِ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ فِرْعَونَ قد فَعَلَ بهمْ ما أوعَدَ مِنْ قَطْعِ الأيدي والأرجُلِ والصَّلْبِ. لكنْ ليسَ في الآيةِ بَيانُ حُلولِ ما أوعَدَ بهِمْ، فلا نَقولُ بهِ مَخافَةَ الكَذِبِ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ السُّرَى سَيرُ الليلِ، وهو [ما][9] قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] أي يَتْبَعُكُمْ فِرْعَونُ وقومُهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: بالتخفيف، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣١١. (٤) في الأصل وم: لسرعة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ولا. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٦١. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أرسَلَ في المَدائِنِ مَنْ يَحْشُرُ الجُنودَ/ ٣٨٢ ـ ب/ والعَساكِرَ.

وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْنونَ أصحابَ موسى ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي عصابةٌ قليلةٌ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفةٌ قليلةٌ.

الآية ٥٥ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ في الحَلْيِ الذي استَعاروهُ منّا، أي ذَهبوا بهِ مُغايَظَةً لَنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ بما فَعَلْنا بهِمْ مِنْ قَتْلِ أولادِهِمْ واستِعْبادِ نِسائِهِمْ ورجالِهِمْ يَفْعَلونَ بنا ما فَعَلْنا بهِمْ إنْ ظَفِروا.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وحَذِرونَ[2]. قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الحَذَرِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي مُؤْدُونَ أي مُقْوَونَ، أي معنا أدواتُ[3] أصحابِ الحَرْبِ، والمُقْوَى الذي دابَّتُهُ قَوِيَّةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَٰذِرُونَ﴾ أي مُسْتَعِدُّونَ للحَرْبِ، وقالَ بعضُهُمْ: حاذِرونَ لِما حَدَثَ لهمْ مِنَ الحُزْنِ، والحَذِرُ للحالِ، حَذِروا المُعاوَدَةِ، أي حَذِروا أنْ يَعودوا إليهِمْ، وحَذِرونَ أي كُنّا، ولم[4] نَزَلْ منهمْ على حَذَرٍ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: حاذِرونَ مُؤْدُونَ مِنَ الأداةِ أي تامُّو السِّلاحِ.

وفي خروجِ موسى بِبَني إسرائيلَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ على ما ذُكِرَ أنهمْ كانوا سِتَّمِئَةِ ألفٍ فَصاعِداً مِنْ غَيرِ أنْ عَلِمَ القِبْطُ بذلكَ آيةٌ عظيمةٌ؛ إذْ لا يَقْدِرُ نَفَرٌ الخروجَ مِنْ مَحَلَّةٍ أو ناحِيَةٍ إلاّ ويَعْلَمُ أهلُها بِخُروجِهِمْ.

ففي ذلكَ كانَتْ آيةٌ عظيمةٌ حينَ[5] خَرَجوا مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ عَلِمَ أحَدٌ منهمْ بذلكَ.

الآيات ٥٧ ـ ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ يَعْني فِرْعَونَ وقومَهُ ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي حَسَنٍ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي تَبِعَ فِرْعَونُ وقومُهُ حينَ شَرَقَتِ [الشمسُ][6] أي طَلَعَتْ، وقيلَ[7]: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أي كانوا في الشمسِ، أي قومُ موسى صاروا في الشمسِ. يُقالُ: أشْرَقوا[8] إذا صاروا فيها.

الآيتان ٦١ و٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ جَمْعُ موسى وجَمْعُ فِرْعَونَ، أي رَأى بَعْضُهُمْ بَعْضاً ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. كانَ قومُ موسى لم يَعْلَموا بالبِشارةِ التي بَشَّرَها اللهُ موسى أنهُم لا يُدْرَكُونَ، وهو ما قالَ: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] أي لا تَخافُ دَرَكَهُمْ، ولا تَخْشَى فِرْعَونَ وقومَهُ. لذلكَ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

وكانَتِ البِشارةُ لهمْ لا لِموسى خاصَّةً. يَدُلُّ [على][9] ذلكَ قولُ موسى ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ على إثْرِ قولِهِمْ ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي كلا إنهمْ لا يُدْرِكونَكُمْ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ أي انْشَقَّ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: فانْشَقَّ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي كالجَبَلِ العَظيمِ، والطَّودُ واحدٌ، وأطْوادٌ جماعةٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: أزْلَفْنا أي أهْلَكْنا ثَمَّ الآخَرينَ. وقالَ بعضُهُمْ: جَمَعْنا، ومنهُ قيلَ: ليلةُ المُزْدَلِفَةِ أي ليلةُ الإزْدِلافِ، وهو الإجْتِماعُ، وكذلكَ قيلَ لِلْمَوْضِعِ: جَمْعٌ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا ففيهِ دلالةُ أنَّ [للهِ في][10] فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً وتَدْبيراً لأنهُ أضافَ الجَمْعَ إليهِ، وهمْ إنما كانوا خَرَجوا لِلْمَعْصِيَةِ، فَدَلَّ ذلكَ أنهُ على ما ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي أدْنَيناهُمْ وقَرَّبْناهُمْ، ومنهُ أزْلَفَكَ اللهُ [أي قَرَّبَكَ اللهُ][11].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣١٣. (٣) في الأصل وم: أداة. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: أشرقنا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: الله ما. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

ويُقال: أزْلَفَني كذا عندَ فلانٍ، أي قَرَّبَني منهُ، والزُّلَفُ المَنازلُ والمَراقي لأنها تَدْنو بالمُسافِرِ [إلى المَقْصِدِ، ومنهُ قولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] أي أُدْنِيَتْ وقُرِّبَتْ. وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ.

الآيتان ٦٥ و٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ الآيةُ ظاهِرَةٌ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي في هَلاكِ فِرْعَونَ وإنجاءِ موسى ومَنْ مَعَهُ مُتَّعَظٌ ومَزْجَرٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ [حينَ يَرَونَ][2] أنهُ أهْلَكَ الأعداءَ، وأبْقى الأولياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجْهَينِ:

أحَدُهما: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: لم يَكُنْ أكْثَرُ أهلِ مِصْرَ بِمُصَدِّقِينَ بِتَوحيدِ اللهِ؛ إذْ لو كانَ أكْثَرُهُمْ مؤمِنينَ لم يُعَذَّبوا في الدنيا. ولكنْ غَيرُ هذا، كأنهُ أشْبَهُ، أي لو لم يُهْلِكْهُمُ اللهُ تعالى، ولكنْ أبْقاهُمْ، لم يُؤْمِنْ أكْثَرُهُمْ.

[والثاني: ما][4]: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ مِنْ بَني إسرائيلَ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لم يَدُمْ أكْثَرُهُمْ على الإيمانِ، بلِ ارْتَدَّ أكْثَرُهُمْ مِنْ بَعْدِ ما أنجاهُمْ حينَ[5] قالوا لِموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المُنْتَقِمُ مِنْ فِرْعَونَ وقومِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بِموسى ومَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ. هذا في هذا المَوضعِ يَسْتَقيمُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُ العزيزِ إلى الأعداءِ والرحيمِ إلى الأولياءِ: كلُّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ إلى الفَريقِ الذي يَسْتَوجِبُ ذلكَ: الرَّحْمَةُ إلى المؤمنينَ والنِّقْمَةُ إلى الأعداءِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وخَبَرَهُ لأنهمْ كانوا مِنْ أولادِ إبراهيمَ ومِنْ نَسْلِهِ، يُقَلِّدونَ آباءَهُمْ في عِبادَتِهِمُ الأصنامَ، وإبراهيمُ وبَعْضُ أولادِهِ إسماعيلُ وإسحاقُ وهؤلاءِ كانوا مُسْلِمينَ عُبّادَ ربِّ العالَمينَ لا عُبّادَ الأصنامِ. فَهَلّا اتَّبعوا إبراهيمَ ومَنْ كانَ مَعَهُ على دِينِهِ مِنْ آبائِهِمْ دونَ [أنْ يَتَّبِعوا][6] مَنْ عَبَدَ الأصنامَ.

يُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ وتَقْليدِهِمْ أُولئكَ الذينَ [مِنْ آبائِهِمْ عَبَدوا][7] الأصنامَ وتَرْكِهِمْ تَقْليدَ مَن لم يَعْبُدْها، وعَبَدَ اللهَ.

الآية ٧٠ ثم قولُ إبراهيمَ حينَ[8] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَئِفْكًا﴾ [الصافات: ٨٥ و٨٦] ويَحْتَمِلُ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي مَنْ تعبدونَ؟

الآية ٧١ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ ﴾][9] ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي نُقيمُ لها عابِدِينَ، أي نَدومُ على عِبادَتِها. والعُكوفُ على الشيءِ، هو الإقامةُ عليهِ، والدَّوامُ.

قالَ أبو مُعاذٍ النَّحْوِيُّ: ظَلَّ: لا يُقالُ إلّا بالنهارِ، ومُحالٌ أنْ يقالَ: ظَلَّ ليلَهُ يَصْنَعُ كذا، وإنما[10] يُقالُ: باتَ ليلَهُ، ومنهُ الحديثُ: «ظَلَّ نهارَهُ صائماً، وباتَ ليلَهُ قائماً» [بمعناه النسائي ٤/ ٢١٠].

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ][12]: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي هل يُجيبونَكُمْ إذْ تَدْعونَهُمْ، ويَحْتَمِلُ: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ على السَّماعِ نفسِهِ، أي هل يَسْمَعونَ دُعاءَكُمْ إذْ تَدْعونَهُمْ كقولِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآية؟ [فاطر: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ تَعْبُدونَ، ويَحْتَمِلُ الدعاءَ نفسَهُ، فإنْ كانَ على العبادةِ فلا يَحْتَمِلُ السَّماعَ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي[13] هل يَقْدِرونَ على نَفْعِكُمْ وضَرِّكُمْ إنْ أرادوا ذلكَ بكُمْ، أو شاؤوا؟ [ويَحْتَمِلُ][14] أنْ يكونَ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ: هل ﴿يَنفَعُونَكُمْ﴾ إنْ عَبَدْتُموها، وأطَعْتُموها؟ ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إنْ عَصَيْتُموها؟ فَبُهِتوا، ولم يَقْدِروا على الجوابِ لهُ سِوَى ما ذَكَروا مِنْ تَقْليدِ آبائِهِمْ في ذلكَ:

---

(١) في الأصل وم: ومنه. (٢) في الأصل وم: حيث رأوا. (٣) في الأصل وم: وجوها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: من اتبعوا. (٧) في الأصل وم: عبروا من آبائهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فقالوا. (١٠) في الأصل وم: حتى. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرجت في الأصل وم قبل الآية. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧٤ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا﴾[1] بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لمَّا عَرَفوا أنَّ تلكَ التي عَبَدوها، لا تَملِكُ ضَرّاً ولا نَفْعاً، لكنهمْ عَبدوها تَقْليداً لِآبائِهِمْ لِما وَقَعَ عندَهُمْ أنَّ آباءَهُمْ ما عَبَدوها إلاَّ بأمْرٍ؛ إذْ لو لم يكُنْ ذلكَ بأمْرٍ لتَركوا[2].

لكنْ قد ذَكَرْنا أنَّ مِنْ آبائِهِمْ مَنْ لم يَعْبُدْها قطُّ، ثم لم يُقَلِّدوهُمْ، فكيفَ قَلَّدُوا أولئكَ؟ دَلَّ أنَّ الاعْتِلالَ فاسِدٌ.

الآيات ٧٥ ـ ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [قالَ بعضُهُمْ][3] إنهمْ وآباءَهُمُ الذينَ عَبَدوا الأصنامَ مِنْ قَبْلُ عَدُوٌّ لهُ ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اسْتَثْنَى رَبَّ العالَمينَ؛ يقولُ: هُمْ عَدُوٌّ لي، وأنا بريءٌ منهمْ إلاّ مَنْ يكونُ فيكُمْ مَنْ يَعْبُدُ ربَّ العالمينَ؛ فيكونُ على الإضمارِ، أي فإنهمْ جميعاً عَدُوٌّ لي إلاّ مَنْ عَبَدَ ربَّ العالَمينَ.

وقالَ بعضُهُمْ/ ٣٨٣ ـ أ/ يقولُ: إنَّ [العابدينَ والمَعْبودينَ][4] كلُّهُمْ ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إلاَّ المَعْبودَ بالحقيقةِ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ، فإنهُ وَلِيِّي.

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ على الاسْتِثْناءِ، ولكنْ على الابْتِداءِ؛ كأنهُ قالَ: أنتُمْ وآباؤُكُمُ الأقدمونَ عَدُوٌّ لي.

الآيات ٧٨ ـ ٨٢ ولكنْ ربُّ العالمينَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: فَهْماً وعِلْماً. وجائزٌ أنْ يكونَ إبراهيمُ سَألَ رَبَّهُ الإبقاءَ على الحُكْمِ، إذْ قد كانَ أعطاهُ العِلْمَ والحُكْمَ كقولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥] أو سألَ الزِّيادةَ على ما أعطاهُ كقولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سألَ رَبَّهُ قَبولَ حُكْمِهِ في الخَلْقِ ورَفْعَ الحَرَجِ لهُ عن قلوبِهِمْ على ما ذَكَرَ في حُكْمِ رسولِ اللهِ حينَ[5] قالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي تَوَفَّني على ما تَوَفَّيْتَ الصالِحينَ حتى ألْحَقَ بهِمْ. هذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى سؤالِهِ الإلحاقَ بالصالِحينَ أنْ يَتَوفّاهُ على الذي تَوَفَّى أولئكَ وهو [الإسلامُ][6] لِيَلْحَقَ بهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أيِ اجْعَلْ لِيَ الثَّناءَ الحَسَنَ في الناسِ. وكذلكَ [كانَ][7] إبراهيمُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، [وكانَ][8] جميعُ أهلِ الأديانِ على اخْتِلافِهِمْ قدِ انْقادوا لهُ، وانْتَسَبوا إليهِ، وادَّعَوا أنهمْ على دِينِهِ، وأنَّ دينَهُ الذي هو عليهِ ليسَ مِنْ أهلِ مِلَّةٍ إلاَّ وهُمْ يَتَوَلَّوْنَهُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي اجْعَلْني باقياً مِنْ بَعْدِ مَوتي في جَنَّةِ النَّعيمِ، إذِ الوارثُ، هو الباقي عنِ المَوروثِ. وكذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقَى بَعْدَ فَناءِ أهلِها، إذِ الوارثُ، هو الباقي. فَعَلَى ذلكَ قولُ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ، واللهُ أعلَمُ، على ظاهِرِ ما ذُكِرَ في ظاهِرِ الآية ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَدْعُوَ لهُ، وهو كذلكَ. لكنْ كانَ مِنْ إبراهيمَ الاسْتِغْفارُ لهُ. فأخْبَرَ اللهُ أنهُ[9] كانَ مِنَ الضَّالِّينَ؛ فيكونُ هذا الثاني إخباراً مِنَ اللهِ لإبراهيمَ أنهُ مِنَ الضالِّينَ، والأوَّلُ قولُ إبراهيمَ.

وكذلكَ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قصةِ بِلْقيسَ حينَ[10] ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ

---

(١) في الأصل وم: فقالوا. (٢) في الأصل ومَ: ما تركوا. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: العابد والمعبود. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: له. (١٠) في الأصل وم: حيث.

أذِلَّةً﴾ فَصدَّقَها تعالى في مَقالَتِها، وقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] يَجْعلونَ قولَهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تَصديقاً مِنَ اللهِ لها [لا قولَ][1] تلكَ المرأةِ.

ومِثالُ ذلكَ كثيرٌ في القرآنِ، يكونُ بعضُهُ مَفصولاً مِنْ بَعْضٍ [كقولِهِ تعالى][2]: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٥ و١٦] قولُهُ: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ مفصولٌ مِنْ قولِهِ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ لا وَصْلَ بَينَهما. فَعَلَى ذلك دُعاءُ إبراهيمَ، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ مَفصولاً مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

هذا جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ أي أعْطِ لهُ ما بِهِ تَغْفِرُ خطاياهُ، وهو التَّوحيدُ، فيكونُ سُؤالُهُ سُؤالَ التَّوحيدِ لهُ والتَّوفيقِ على ذلكَ؛ [إذْ بِهِ][3] يَغْفِرُ مِنَ الخطايا كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ دعاءُ هودٍ لقومِهِ حينَ[4] أمَرَهُمْ أنْ يَستَغْفِروا ربَّهُمْ، وهو قولُهُ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وأَسْلِموا لهُ.

طَلَبَ منهُمُ ابْتِداءَ الإسلامِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَ لهمْ: قولوا: نَسْتَغْفِرُ[5] اللهَ، ولكنْ أمَرَهُمْ أنْ يأتوا بِما بِهِ يُغْفَرُ لهمْ، وهو التَّوحيدُ. وكذلكَ قولُ نوحٍ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ إبراهيمَ كَذَبَ ثلاثاً كلامٌ لا مَعْنى لهُ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ يَخْتارُهُ، ويَجْعَلَ رسالَتَهُ في الذي يُكْذَبُ بِحالٍ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ أي ولا تُعَذِّبْني ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ وكانَ الإخزاءُ هو العذابَ الذي يَهْتِكُ السِّتْرَ على صاحِبِهِ. فَسَأَلَهُ ألاّ يَهْتِكَ السِّتْرَ عليهِ لِما خاف أنْ كانَ منهُ ما يَهْتِكُ السِّتْرَ عليهِ، فَسأَلَ ربَّهُ ذلكَ؛ إذِ العِصمَةُ، لا تَرْفَعُ عنْ أصحابِها الخوفَ، بل كلَّما عَظُمَتِ العِصمَةُ كانَ الخوفُ أشدَّ، لأنَّ الأنبياءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، كانَ خَوفُهُمْ أشدَّ على دينِهِمْ وأنفُسِهِمْ مِنْ غَيرِهِمْ، ثم الأمثَلُ فالأمثَلُ بهمْ كانوا[6] أشدَّ خوفاً منهُمْ مِمَّنْ هو دونَهُمْ.

ألا تَرَى إلى قولِ إبراهيمَ حينَ[7] قالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقولِ[8] يوسفَ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟ [يوسف: ١٠١] ومِثْلُهُ كثيرٌ.

الآيتان ٨٨ و٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لا يَنْفَعُ، ويَضُرُّ، لا يكونُ في نَفْيِ النَّفعِ دَفْعُ الضَّرَرِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] وكقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦] وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] وقولُهُ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و٣٥] وقولُهُ: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: ١١ و١٢] وقولُهُ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي ظاهرِ ما اسْتَثْنَى مِنَ الآيةِ دلالةٌ أنهُ يَنْفَعُ المالُ والبَنونَ إذا أتَوا اللهَ بِقَلْبٍ سليمٍ حينَ[9] قالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ كذلكَ يَنْفَعُهُمْ [مالُهُمْ][10] وأولادُهُمْ إذا أتَوا رَبَّهُمْ بقلوبٍ سَليمةٍ لِما اسْتَعْمَلوا أموالَهُمْ في الطاعاتِ وأنواعِ القُرَبِ، وعَلَّموا الأولادَ الآدابَ الصالحةَ والأخلاقَ الحَسَنَةَ، فَيَنْفَعُهُمْ ذلكَ يومئذٍ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [سبإ: ٣٧] أخبَرَ أنهمْ إذا آمَنوا، وتابوا، تُقَرِّبُهُمْ أموالُهُمْ وأولادُهُمْ عندَهُ.

---

(١) في الأصل: قوله، في م: قول. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وبه. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: استغفروا. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غيرِ ذلكَ، أي لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ، وإنما يَنْفَعُ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سليم. والقَلْبُ السليمُ هو السالمُ مِنَ الشِّرْكِ، أوِ السليمُ مِنَ الآفاتِ والذنوبِ، والخالِصُ لربِّهِ، لا يَجْعَلُ لِغَيرِهِ فيهِ حقًّا ولا نَصيباً. وشَرَطَ فيهِ إتيانَهُ ربَّهُ ما ذَكَرَ لِيُعْلَمَ أنهُ ما لم يُقْبَضْ على السَّلامةِ والتَّوحيدِ لا يَنْفَعُهُ ما كانَ منهُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الطاعاتِ إذا لم يُقْبَضْ على التَّوحيدِ.

وكذلكَ شَرَطَ في الحَسناتِ الإتيانَ، فقالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا، ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بالحَسَنَةِ. وهو ما ذَكَرْنا أنْ يَخْرُجَ مِنَ الدنيا على التوحيدِ، ولا يُفيدُ ما عَمِلَ مِنَ الحَسَناتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩٠ و٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ وأُبَيّ ﷺ وقُرِّبَتِ الجَحيمُ لِلضَّالينَ. وفي هذهِ القراءاتِ[١] الظاهرة بُرِّزَتْ أُظْهِرَتْ.

الآيتان ٩٢ و٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا / ٣٨٣ ـ ب/ أي ثُمَّ يُقالُ لهمْ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ ويَمْنَعونَكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ هُمْ مِنَ العذابِ؟ لأنهمْ يُطْرَحونَ جميعاً: العابِدونَ والمَعْبودُونَ في النارِ كقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وإنما قالوا ذلكَ لهمْ [لأنهمْ][٢] كانوا يقولونَ في الدنيا﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [ويَقولونَ:][٣] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فَيُقالُ لهمْ مُقابِلَ ذلكَ في الآخرَةِ: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ الآية؟

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: هو مِنْ كُبَّ أي كُبُّوا لكنْ ذَكَرَ كُبْكِبوا على التَّكْرارِ والإعادةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ أي يُكَبُّونَ [ثم يُكَبُّونَ][٤] لم يَزَلْ عَنْهُمْ[٥] ذلكَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ أُلقوا على رُؤوسِهِمْ، وقُذِفوا. وأَصْلُ الحَرْفِ كُبُّوا؛ مِنْ ذلكَ كَبَبْتُ الإناءَ، فأُبْدِلَتْ مكانَ الباءِ الكافُ، وهو الطَّرْحُ والإلقاءُ على الوجوهِ. يُقالُ: كَبْكَبْتُهُمْ أي طَرَحْتُهُمْ في النارِ أو في البِئْرِ. [ومنهُ][٦] قولُهُ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠].

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ قيلَ: الضَّالُّون. يُقالُ: غَوَى يَغْوي غَيًّا وغَوايَةً، فهو غاوٍ، أي ضَلَّ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ. وقالَ أبو مُعاذٍ [النَّحْوِيُّ][٨]: أصْلُهُ كُبُّوا. وقالَ بعضُهُمْ: جُمِعوا فيها.

الآية ٩٥ [وقولُهُ تعالى][٩]: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الغاوُونَ، هُمُ الشياطينُ، وجنودُ إبليسَ ذُرِّيَّتُهُ، أيِ الشياطينُ الذينَ أضَلُّوا بَني آدمَ، وهو قولُ قَتادَةَ. وقالَ بعضُهُمْ: الغاوُونَ: هُمْ كُفّارُ الجِنِّ، وجُنودُ إبليسَ: هُمُ الشياطينُ. وقالَ بعضُهُمْ: الغاوُونَ: هُمُ الأئِمَّةُ مِنَ الكُفّارِ، وجُنودُ إبليسَ سائرُ الكُفّارِ: أتباعُهُمْ وذُرِّيّاتُهُمْ[١٠]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ذُكِرَ أنهمْ يَخْتَصِمونَ في النارِ، ولم يُذْكَرْ فيمَ تكونُ خصومَتُهُمْ؟ [وجائزٌ أنْ تكونَ ما ذَكَرَ][١١] في آيَةٍ أخرى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وقولُهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقولُهُ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا﴾ الآيةَ [الأعراف: ٣٨] وأمثالُهُ [كثيرٌ في القرآنِ][١٢] مِنَ المُجادلاتِ التي تَجْري في ما بَينَ الأتباعِ والمَتْبوعِينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: اختِصامُهُمْ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ و٩٨] هذهِ مُخاصَمَتُهُمْ.

الآيتان ٩٧ و٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنْ كانَ قولُهُمْ هذا للأصنامِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣١٩. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: وم: وإنما. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عملهم. (٦) في الأصل وم: هو من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وذريتهم. (١١) في الأصل: ما ذكر، في م: وجائز أن تكون. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

التي عَبَدوها فذلكَ في تَسْمِيَتِهِمْ آلهةً وجَعْلِهِمُ العبادةَ لها يُسَوُّونَها بِرَبِّ العالَمينَ في التَّسْمِيَةِ والعبادةِ. وإنْ كانَ قولُهُمْ هذا للشياطينِ فهو في اتِّباعِهِمْ أمْرَهُمْ ودعاءَهُم الذي دَعَوهُمْ، وإلاّ لا أحَدَ مِنَ الكَفَرَةِ يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادَةِ الشيطانِ، أو يُسَمِّيهِ إلهاً. ولكنْ على ما ذَكَرْنا مِنْ مُتابَعَتِهِمْ أمْرَهُمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إذْ كنَّا نُشْرِكُكُمْ بربِّ العالَمينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إذْ كنَّا نُطيعُكُمْ كما نُطيعُ ربَّ العالَمينَ. وقالَ بعضُهُمْ: إذْ نَعْدِلُكُمْ بِرَبِّ العالَمينَ.

وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي وما أضَلَّنا إلاّ أوَّلُنا. وكذلكَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ: وما أضَلَّنا إلّا الأوَّلونَ. وتأويلُ هذا أنهمْ لَمَّا رَأَوُا الأوَّلينَ، تُرِكُوا على ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، ولم يُعَذَّبوا في الدنيا، ولا أصابَتْهُمْ نِقْمَةٌ، ظَنُّوا أنهمْ أُمِروا بذلكَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ لأنهمْ قالوا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فلم يَشْفَعوا لهمْ، أي ليسَ لنا شُفَعاءُ يَشْفَعونَ لنا، ولو كانَ لهمْ شُفَعاءُ لا تَنْفَعُهُمْ شَفاعَتُهُمْ على ما قالَ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وهو ما قالَ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ١٨] ليسَ أنهُ كانَ يَنْفَعُهُمْ، فَعَلى ذلكَ [هذا][1].

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الحميمُ القريبُ، أي ليسَ لهمْ حَميمٌ، يَهْتَمُّ بأمْرِهِمْ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقولُهُ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي لو أنَّ لنا رَجْعَةً إلى المِحْنَةِ ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأخْبَرَ اللهُ أنهمْ لو رُدُّوا لَعادوا بقولِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقد ذَكَرْناهُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ والأنباءِ الآيةُ والعِبْرَةُ[2] لِمَنْ اعتَبَرَ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لو كانَ أكْثَرُهُمْ مؤمنينَ ما عُذِّبوا في الدنيا. وجائزٌ أنْ يكونَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ إلى المِحْنَةِ التي سَألوا الرَّجْعَةَ إليها [﴿لَعَادُوا۟﴾][3] ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ نَفَرٌ منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ذَكَرَ ﴿كَذَّبَتْ﴾ بالتأنيثِ على إضمارِ جماعةٍ، كأنهُ قالَ: كَذَّبَتْ جماعةُ قومِ نوحٍ، وإلاّ القومُ يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ. [وإنما ذَكَرَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهم كَذَّبوا نوحاً][5] لأنَّ مَنْ كَذَّبَ رسولاً مِنَ الرسُلِ فقد كَذَّبَ الرُّسُلَ جميعاً لأنَّ كلَّ رسولٍ، يَدْعو الخَلْقَ إلى الإيمانِ بِجَميعِ الرُّسُلِ.

وبَعْدُ فإنَّ نوحاً كانَ يَدْعو قومَهُ إلى الإيمانِ بالرُّسُلِ الذينَ يكونونَ بَعْدَهُ. لِذلكَ قالَ، واللهُ أعلَمُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: كانَ أخاهُمْ في النَّسَبِ، وليسَ بأخيهِمْ [في الدينِ][6]. قالَ الشيخُ أبو مَنْصورٍ، رَحْمَةُ اللهِ عليهِ: إنَّ اللهَ سَمَّى الناسَ بَني آدَمَ على بُعْدِهِم مِنْ آدَمَ، فيجوزُ أيضاً تَسْمِيَتُهُمْ إخوةً على بُعْدِ بعضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ نِقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ في مُخالَفَتِكُمْ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، أو يقولُ: ألا تَتَّقونَ عبادةَ غيرِ اللهِ وطاعةَ مَنْ دونَهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وعبرة. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَين.

أحَدُهما: أني كُنْتُ أميناً فيكُمْ قَبْلَ هذا، فَتُصَدِّقونَني في جميعِ ما أخبَرْتُكُمْ، وأنبأْتُكُم. فما بالُكُمْ لا تُصَدِّقونَني الآنَ إذا أخبَرْتُكُمْ أني رسولُ اللهِ إليكُمْ؟

والثاني: يقولُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ائْتَمَنَني اللهُ، وجَعَلَني أميناً على وَحْيِهِ، فَأُبلِّغُكُمُ الرسالةَ، وأؤدِّي الأمانةَ، شِئْتُمْ، أو أبَيْتُمْ، قَبِلْتُمْ، أو لم تَقْبَلوا، فلا أخافُكُمْ بما تَتَوَعَّدونَني بَعْدَ أنْ جَعَلَني اللهُ أميناً، وائْتَمَنَني على أمانَتِهِ [وهو][1] كقولِهِ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتَّقوا نِقْمَةَ اللهِ وعَذابَهُ، واتَّقوا مُخالَفَةَ اللهِ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أُبلِّغُكُمْ عنِ اللهِ، وأدعوكُمْ إليهِ.

الآية ١٠٩ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أسألُكُمْ على ما أدْعوكُمْ إليهِ، وأُبلِّغُكُمْ، أجراً أو شيئاً، فَيَمْنَعَكُمْ[3] ثِقَلُ ذلكَ عنِ الإجابةِ، ولا أُحَمِّلُكُمْ في أموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ مُؤْنَةً في ما أدعوكُمْ إليهِ، بل أدعوكُمْ إلى عبادةِ الواحدِ، وعِبادةُ الواحِدِ أهْوَنُ وأخَفُّ على أنفُسِكُمْ مِنْ عبادةِ العَدَدِ، ولا أُحَمِّلُكُمْ في أموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ مُؤْنَةً في ما دَعَوكُمْ[4] إليهِ مِنْ عِبادةِ العَدَدِ، ولا أُحَمِّلُكُمْ أيضاً مُؤْنَةً تَمْنَعُكُمْ تَحَمُّلَ ذلكَ عنْ إجابَتي ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجْري ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ١١٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتَّقوا اللهَ ما ذَكَرْنا، أيِ اتَّقُوا نِقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ، واتَّقوا مُخالَفَةَ اللهِ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أدعوكُمْ إليهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾/ ٣٨٤ - أ/ يقولونَ: نُصَدِّقُكَ، وإنما اتَّبَعَكَ الضُّعَفاءُ منَّا والسَّفَلَةُ مِمَّنْ[6]، لا رَأْيَ لهمْ، ولا تَدْبيرَ. ولو كُنْتَ صادِقاً لاتَّبَعَكَ الأشرافُ والرُّؤَساءُ.

فكانَ في اتِّباعِ الأراذِلِ لهُ ومَنْ ذَكَرَ أعْظَمُ آيةٍ مِنْ [آياتِ][7] الرسالةِ مِنِ اتِّباعِ الأشرافِ؛ وذلكَ أنَّ الأرذالَ مِنَ الناسِ هُمْ أتباعٌ لِغَيرِهِمْ لِما يَأْمُلونَ مِنْ فَضْلِ مالٍ ونَيْلٍ منهمْ أو رئاسةٍ ومَنْزِلَةٍ تكونُ لهمْ.

والفَضْلُ[8] بَصَرٌ وحَظٌّ وعِلْمٌ في الدينِ، فَيَصيرونَ أتباعاً لِمَنْ كانَ عندَهُ مِنْ هذهِ الخِصالِ شيءٌ.

فالرسُلُ، صَلَواتُ اللهِ تعالى عليهِمْ، حينَ[9] لم يكنْ عندَهُمْ أموالٌ، ولا طَمَعُ رئاسةٍ، ولا مَنْزِلَةٌ، اتَّبَعَهُمُ الضُّعفاءُ والسَّفَلَةُ مَعَ خوفِهِمْ[10] على أنفسِهِمْ مِنْ أولئكَ الأشرافِ مِنَ القَتْلِ والصَّلْبِ لِمُخالَفَتِهِمْ[11] إياهُمْ. فما اتَّبَعوهُمْ إلاّ لَمَّا تَبَيَّنَ عندَهُمْ أنهمْ على حقٍّ، وأنَّ ما يَدْعونَ صِدْقٌ.

ففي اتِّباعِ ما ذَكَرْنا أعظَمُ دلالةٍ على صِدْقِ الرسُلِ في ما دَعَوا مِنَ الرسالةِ لو تَأَمَّلوا، وتَفَكَّروا[12] في ذلكَ.

الآية ١١٢ [وقولُهُ تعالى][13]: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: لم أكُنْ أعلَمُ أنَّ اللهَ يَهْدِيهِمْ للإيمانِ والتوحيدِ مِنْ بَينِكُمْ، يعني الضُّعَفاءَ، ويَدَعُكُمْ؛ لا يَهْدِيكُمْ. ثم قالَ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ما جزاءُ هؤلاءِ الذينَ اتَّبَعوني مِنَ الأرذالِ ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

والثاني: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما أنا بعالِمٍ بما يَعْمَلونَ [هُمْ في السرِّ][14] وما ذلكَ عَلَيَّ.

الآية ١١٣ [وقولُهُ تعالى:][15]: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي حِسابُهُمْ عليهِمْ في ما يَعْمَلونَ في السرِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أدعوكم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: من. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو الفضل. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: خوف لهم. (١١) في الأصل وم: لمخافتهم. (١٢) في الأصل وم: والتفكر. (١٣) في الأصل وم: وقول نوح. (١٤) من م، في الأصل: في السر. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

فهذا يدلُّ على أنَّ التأويلَ الأخيرَ أشبَهُ وأقربُ مِنَ الأوَّلِ. وكانَ مِنْ أولئكَ طَعْنٌ في الذينَ آمَنوا بأنهمْ يَعْملونَ في السِّرِّ على خِلافِ ما أظهَروا حتى قالَ لهمْ ذلكَ.

وفي بعضِ القراءاتِ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ بالياءِ[1] فهو راجعٌ إلى المؤمنينَ الذينَ اتَّبَعوهُ؛ يقولُ: حسابُهُمْ على اللهِ في ما يَعْمَلونَ في السِّرِّ، أي لو يَشْعُرُونَ ذلكَ، ولا يَعْمَلونَ في السِّرِّ خلافَ ما يَعْمَلونَ في العلانيَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنهمْ سَألوا نوحاً أنْ يَطْرُدَ أُولئكَ الذينَ آمَنوا بهِ مِنَ الضُّعَفاءِ حتى يُؤْمِنوا هُمْ بهِمْ[2]. فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وجائزٌ أن يكونوا طَعَنُوا في الذينَ آمَنوا [بأنهمْ آمَنوا][3] ظاهراً. وأمَّا في السِّرِّ فليسوا على ذلكَ، فقالَ نوحٌ عندَ ذلكَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على ذلكَ قولُ نوحٍ حينَ[4] قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١].

هذا القولُ منهُ يَدُلُّ على أنْ كانَ منهمْ طَعْنٌ في أولئكَ الذينَ آمَنوا بهِ حينَ[5] وَكَلَ أَمْرَهُمْ إلى اللهِ، فقالَ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ المَرجومُ المَقتولُ بالحِجارةِ، وهو أشَدُّ قَتْلٍ، لِذلكَ أوعَدوهُ. وقالَ بعضُهُمْ: لَتكونَنَّ مِنَ المَرجومينَ[6] باللسانِ. لكنَّ الأوَّلَ أقْرَبُ لأنهُ قد كانَ منهُمُ الشَّتْمُ فلا يُحْتَمَلُ الوعيدُ بهِ.

الآيتان ١١٧ و١١٨ ثم دعَا نوحٌ عندَ ذلكَ، فقالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ أي اقْضِ بيني وبَينَهُمْ قَضاءً، أيِ اقْضِ عليهِمْ بالعذابِ والهلاكِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ فَدَلَّ سُؤالُهُ نَجاةَ نفسِهِ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ على أنَّ قولَهُ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ سألَ رَبَّهُ هلاكَ مَنْ كَذَّبَهُ، وهو ما قالَ في آيةٍ[7] أُخرى ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] الذي وَعَدْتَ أنهُ يَنْزِلُ بهِمْ، وهو العذابُ. فَعَلى ذلكَ هذا.

ثم لا يُحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهُ في أوَّلِ تكذيبٍ كانَ منهمْ، بل كانَ ذلكَ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ لأنهُ لَبِثَ فيهِمْ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وفي كلِّ ذلكَ دعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ. وإنما دعا عليهِمْ بالهَلاكِ بَعْدَ ما أخبَرَ اللهُ عنْ أمْرِهِمْ وإياسِهِ مِنْ إيمانِهِمْ، فقالَ: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وأُذِنَ لهُ بالدُّعاءِ عليهِمْ بما دَعا، إذِ الأنبياءُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، لا يَدْعونَ على قومِهِمْ بالهلاكِ إلّا بإذْنٍ مِنَ اللهِ في ذلكَ.

ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ أنهُ عاتَبَ يونسَ بالخُروجِ مِنْ بَينِهِمْ بلا إذْنٍ، كانَ مِنَ اللهِ لهُ بالخُروجِ مِنْ بَينِهِمْ[8]؟ فإذا عوتِبَ هو بالخُروجِ بلا إذْنٍ فلا يُحْتَمَلُ أنْ يَدْعُوَ بالهَلاكِ بلا إذْنٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١١٩ و١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ الفُلْكُ المَشحونُ: قيلَ: المَملوءُ.

قالَ أبو مُعاذٍ: شَحَنْتُ السفينةَ، فلم يَبْقَ إلاّ الدَّفْعُ، وهو السَّوقُ، وتقولُ العَرَبُ: شَحَنّا عليهِمْ بلادَهُمْ خَيلاً ورِجالاً، أي مَلأناها. وقالَ بعضُهُمْ: المَشحونُ المُجَهَّزُ الذي قد فُرِغَ منهُ، فلم يَبْقَ إلّا دَفْعُهُ، وهو واحدٌ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٠. (٢) في الأصل وم: به. (٣) في الأصل وم: انهم قالوا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: المشتومين (٧) في الأصل وم: قصة. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠].

وإنما شُحِنَتِ السَّفينةُ بأصنافٍ مِنَ الخَلْقِ. وكانَ[1] المؤمنونَ قَليلي العَدَدِ، وهو ما قالَ: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أخْبَرَ أنهُ أنجى مَنْ كانَ مَعَهُ في الفُلْكِ المَشْحونِ وأهْلَكَ الباقِينَ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي في نَبَإِ نوحٍ الآيةَ لِمَنْ كانَ بَعْدَهُمْ. أو إنَّ في هَلاكِ قومِ نوحٍ وإغراقِهِمْ لَعِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلى آخِرِ قصةٍ قد ذَكَرْنا.

الآية ١٢٢ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ][2].

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو، واللهُ أعلَمُ، ما ذَكَرْنا، أي كَذَّبَتْ جماعةُ عادٍ المُرْسَلينَ.

وقولُهُ: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ رسولٍ، كانَ دعا قومَهُ إلى الإيمانِ بهِ وبجميعِ الرسلِ. فَمَنْ كَذَّبَ واحداً منهمْ فقد كَذَّبَ الكُلَّ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ هو كانَ أخاهُمْ في النَّسَبِ لأنهمْ جَميعاً وَلَدُ آدمَ على بُعْدٍ مِنْ آدَمَ. فَعَلَى ذلكَ هُمْ إخوةٌ في ما بَيْنَهُمْ على بُعْدِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ:

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: ألَا تَتَّقونَ نِقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ.

[والثاني][3]: ألَا تَتَّقونَ مُخالَفَةَ أمْرِ اللهِ ومَناهِيَهُ.

الآية ١٢٥ [وقولُهُ تعالى:][4] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ في ما ائْتَمَنَني اللهُ، وبَعَثَ علي يَدَيَّ هِدايَتَهُ وأمانَتَهُ. أو يكونُ ما ذَكَرْناهُ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٢٦و١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ما ذَكَرْنا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أسْعَى في نَجاتِكُمْ وتَخليصِكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ، وما أسألُكُمْ على ذلكَ أجْراً.

وفي الشاهِدِ: لا يَعْمَلُ أحدٌ إلّا ويَطْمَعُ على ذلكَ منهُ أجراً، وأنا لا أسألُكُمْ على ذلكَ أجراً فَيَمْنَعَكُمْ ذلكَ عَنْ قَبولِ ذلكَ مني ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجْري ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآيتان ١٢٨و١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: كأنهُمْ كانوا يَبْنونَ بُنْياناً، لا حاجةَ لهمْ إلى ذلكَ البُنْيانِ، ولا يَنْتَفِعونَ بهِ، فهو عَبَثٌ، لأنَّ كلَّ مَنْ بَنى بناءً أو عَمِلَ عَمَلاً، لا يَنْتَفِعُ بِهِ، ولا يَحْتاجُ إليهِ، فهو عابِثٌ. لِذلكَ سَمَّى ما بَنَوا عَبَثاً.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ المكانُ لهم، كانَ مَكانَ العَبَثِ والاجْتماعِ لِلَّهْوِ، فَبَنَوا ذلكَ المَكانَ، فَسَمّاهُ عَبَثاً لِما لم يكُنِ اجْتِماعُهُمْ في ذلكَ إلّا لِلعَبَثِ واللَّهْوِ.

والثالثُ: أنْ يكونَ ذلكَ المَكانُ مَكاناً، يَمُرُّ فيهِ الناسُ، فَبَنوا أعلاماً، يُضِلُّونَ الناسَ بها لِما يَرَونَ أنهُ طريقٌ، ولم يكُنْ ذلكَ، فكانَ قَصْدُهُمْ بذلكَ البناءِ باطلاً. وكلُّ باطِلٍ عَبَثٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ولا تَموتونَ، أي تُنْفِقونَ نَفَقةَ مَنْ يَطْمَعُ أنْ يَخْلُدَ في هذهِ الدنيا، ليسَتْ بِنَفَقةِ مَنْ يموتُ، ويَرْجو ثوابَهُ [لا عِقابَهُ][5]، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ لَمّا وسَّعَ عليهِمُ الدنيا، ورَزَقَهُمُ[6] / ٣٨٤ ـ ب/ الدَّعَةَ، يَحْسَبونَ أنهمْ يَخْلُدونَ، لأنَّ مَنْ وَسَّعَ عليهِ الدنيا، ونالَ[7] الدَّعَةَ والسَّعَةَ في هذهِ الدنيا، يَطْمَئِنُّ فيها، ويَسْكُنُ، وهو كما قالَ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: إلا كان. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وعاقبته. (٦) في الأصل: أو رزق لهم، في م: ورزق. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ويكون.

الآية ١٣٠ وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ عَنى، واللهُ أعلَمُ، بالجَبَّارِ الظالِمَ والمُتَعَدِّيَ، أي وإذا بَطَشْتُمْ ظالِمينَ.

والرِّيعُ، هو المكانُ المُرْتَفِعُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الطريقُ: و﴿مَصَانِعَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: البُنْيانُ، وقيلَ: الحِياضُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الرِّيعُ: ما ارْتَفَعَ مِنَ الأرضِ، وجَمْعُ الرِّيعَةِ رِيعٌ، وجَمْعُ الرِّيعِ أرياعٌ، وهما واحدٌ، والرَّيْعُ الرِّبْحُ أيضاً. تقولُ: أراعَ [المالُ][1] إذا رَبِحتَ عليهِ، وجَمْعُهُ أرياعٌ. ومصانِعُ: في مَوضِعِ قُصورٌ، ومَوضِعِ حِياضٌ يَجْتَمِعُ فيها الماءُ، الواحدُ: مَصْنَعَةٌ مِنْ كِلَيهما. وقالَ: البَطْشُ: الأخْذُ؛ يُقالُ: بَطَشْتُ بفلانٍ، أبطِشُ بَطْشاً، إذا أخَذْتُهُ، وقَبَضْتُ عليهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ أيضاً: الرِّيعُ: الارْتِفاعُ مِنَ الأرضِ، والمَصانِعُ البِناءُ، واحدُها مَصْنَعَةٌ، فكانَ المَعْنى أنهمْ يَسْتَوثِقونَ في البِناءِ والحصونِ، ويذهبونَ إلى أنها[2] تُحَصِّنُهُمْ مِنْ أقدارِ اللهِ وقضائِهِ. وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ لأنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي تَبْنونَ بِناءً، كأنكُمْ تَخْلُدونَ، ولا تموتونَ، وقالَ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي إذا ضَرَبْتُمْ بالسِّياطِ ضَرَبْتُمْ ضَرْبَ الجَبّارينَ، وإذا عاقَبْتُمْ قَتَلْتُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: بَطَشْتُمْ أخَذْتُمْ بالظُّلْمِ والاعْتِداءِ والاسْتِحلالِ لِما حَرَّمَ اللهُ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: وكلُّ بِناءٍ مَصْنَعَةٌ. وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وتَبْنونَ مَصانِعَ كأنكُمْ خالدونَ. والآيَةُ العَلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرِّيعُ ما اسْتَقْبَلَ الطريقَ مِنَ الجبالِ والظِّرابِ.

وقالَ قَتادَةُ: كلُّ نَشْزٍ في الأرضِ، وقالَ محمدُ بْنُ إسحاقَ: إنهمْ كانوا إذا سافَروا فلا يَهْتَدونَ إلّا بالنجومِ فَبَنَوا القُصورَ الطِّوالَ عَبَثاً عَلَماً بكلِّ طريقٍ يَهْتَدونَ بها في طُرُقِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَصَانِعَ﴾ أي مَجالِسَ ومَساكِنَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ما بَقِيَتْ مَصانِعُكُمْ، والجَبّارُ، هو الذي يَضْرِبُ، أو يَقْتُلُ بلا حقٍّ بلا خوفِ تَبِعَةٍ في العاقِبَةِ.

الآية ١٣١ وقولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ١٣٢ وقولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أمَدَّكُمْ؛ قيلَ أعطاكُمْ، وهو مِنَ المَدَدِ، أي أعطاكُمُ النِّعَمِ تِباعاً واحدةً بَعْدَ واحدةٍ، لا تَنْقَطِعُ، ثم هو يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: اتَّقُوا كُفرانَ الذي أعطاكُمُ النِّعَمَ، فلا تُوجِّهوا شُكْرَها إلى مَنْ لم يُنْعِمْ عليكُمْ، ولم يُمِدَّها لكُمْ، وأنتمْ تَعْلَمونَ[3] عِبادَتَكُمُ الأصنامَ التي لا تَقْدِرُ[4] على إعطاءِ شيءٍ مِنَ النِّعَمِ.

والثاني: اتَّقُوا نِقْمَةَ [اللهِ الذي][5] أعطاكُمْ هذهِ النِّعَمِ، فإنَّ الذي قَدَرَ على إنعامِها قادرٌ[6] على صَرْفِها عنكُمْ. على هذينِ الوجْهَينِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآيات ١٣٣ ـ ١٣٥ ثم ذَكَرَ الذي أمَدَّهُ لهمْ مِنَ النِّعَمِ، فقالَ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذا وغيرُهُ مِمّا لا يُحْصَى ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أي أعْلَمُ أنْ يَنْزِلَ بكُمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الخَوفُ ههنا هو الخَوفُ نفسُهُ لأنه كانَ يرجو الإيمانَ منهمْ بَعْدُ، فقالَ: إني أخافُ عليكُمُ العذابَ إذا مِتُّمْ على هذا.

الآية ١٣٦ فقالوا عندَ ذلكَ جَواباً لهُ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الوَعْظُ هو الإخبارُ عن عَواقِبِ الأمورِ: مِنْ تَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ؛ أي سواءٌ علينا أتُخَوِّفُنا العذابَ، أم لم تُخَوِّفْنا، [لا][7] نُصَدِّقُكَ، ولا نُجيبُكَ إلى ما تَدْعونا إليهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنهم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: يقدرون. (٥) في الأصل: التي، في م: الله. (٦) في الأصل وم: قدر. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قيلَ: فيهِ وجوهٌ.

أحدُها: أي ما هذا الذي نَحْنُ عليهِ إلاّ دينُ الأوَّلينَ، وما أُوتيتَ أنتَ، وتدعُونا إليهِ، هو حادثٌ بَديعٌ، والخَلْقُ يجوزُ أنْ يُكَنّى بهِ عنِ الدينِ كقولِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي لِدينِ اللهِ.

[والثاني: ما][1] قالَ بعضُهُمْ: الوَعْظُ هو النَّهيُ كقولِهِ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] أي يَنهاكُمْ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ عليهِ على ما تَزْعُمُ، وتُخبِرُ، كما لم يُعَذَّبِ الآباءُ.

الآية ١٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ قيلَ: أُهلِكوا بالريحِ كقولِهِ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الآية [الحاقة: ٦].

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: خَلْقُ الأوَّلينَ: أيِ اختِلاقُهُمْ وكَذِبُهُمْ؛ يُقالُ: خَلَقْتُ الحديثَ، واختَلَقْتُهُ إذا افتَعَلْتُهُ. قالَ الفَرّاءُ: والعَرَبُ تَقولُ: لِلْخُرافاتِ أحاديثَ الخَلْقِ، قالَ: ومَنْ قَرَأَ ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بضمِّ الخاءِ[2] أرادَ عادَتَهُمْ وشأنَهُمْ.

الآيات ١٤١و١٤٢و١٤٣و١٤٤و ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ . . . ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي كنتُ أميناً قَبْلَ ذلكَ، فكيفَ تَتَّهِمونَني اليومَ؟ ويُقالُ: ﴿أَمِينٌ﴾ على الرسالةِ، ناصِحٌ لكمْ. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ إلى[3] قولِهِ: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ هكذا[4]. وإنْ خُرِّجَ على الاستِفْهامِ فكأنهُ قالَ على الإخبارِ: ولا تُتْرَكونَ في ما ذَكَرَ آمِنينَ.

والثاني: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ أي أتَظُنّونَ أنْ تُتْرَكوا.

الآيتان ١٤٧و١٤٨ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الهَضيمُ المُتَهَشِّمُ. وقالَ بعضُهُمْ: الذي أرْطَبَ بعضُهُ، وهو الذي يُسَمّى المُذَنِّبُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][6] قالَ: هو الذي قد أرْطَبَ، واسْتَرْخى، وهو اللَّيِّنُ [وعنِ الحسنِ قولُهُ][7]: الذي ليسَ لهُ نَوًى. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الرُّطَبِ الهَضيمِ الطَّلْعِ قَبْلَ أنْ يَنْشَقَّ عنهُ القِشْرُ، ويَنفَتِحَ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الهَضيمُ الذي لا شَوكَ فيه، ولا مَشَقَّةَ. وقالَ بعضُهُمْ: الهَضيمُ: هو الذي يَتَراكَمُ بَعْضُهُ [فوقَ بَعْضٍ][8] ولو قيلَ: إنَّ الهَضيمَ، هو الهَنيءُ المَريءُ الذي، لا داءَ فيهِ، ولا مَشَقَّةَ، يُهْضَمُ كلُّهُ[9]، ما فيهِ داءٌ ومَرَضٌ. ولِذلكَ سُمِّيَ الهاضومُ هاضوماً[10]، وهو الذي يَهْنِئُ الطعامَ، ويَهْضِمُهُ لَجازَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بالألِفِ، وفَرِهينَ بِغَيرِ ألِفٍ[11]: فارِهينَ: أي حاذِقينَ مُجيدينَ أي لهمْ حَذاقَةٌ وبَصَرٌ في نَحْتِ البيوتِ في الجبالِ، يقالُ: فلانٌ فارِهٌ في أمرِ كذا أي حاذِقٌ. وفَرِهينَ: أشِرينَ بَطِرينَ أي فَرِحينَ.

قالَ القُتَبِيُّ: والفَرَحُ قد يكونُ السرورَ، ويكونُ الأشَرَ. ومنهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] أي الأشِرينَ. قالَ: وَمَنْ قَرَأَها: ﴿فَرِهِينَ﴾ بالألِفِ فهي لغةٌ أُخرَى، يُقالُ: فَرِهٌ وفارِهٌ كما يُقالُ: فَرِحٌ وفارِحٌ، ويقالُ: فارِهينَ حاذِقينَ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٢. (٣) في الأصل وم: إلا. (٤) في الأصل وم: هذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: عن الحسن، في م: وعن الحسن. (٨) في الأصل وم: بعضا. ويكون فوق بعض. (٩) في الأصل وم: كل. (١٠) من م، في الأصل: هاضوم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٤.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَرِهِينَ﴾ وفرِهينَ أي مَسْرورينَ، ويُقالُ: فَرِهَ يَفْرَهُ فَرَهاً، فهو فَرِهٌ وفارِهٌ.

الآيات ١٥٠ ـ ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾/ ٣٨٥ ـ أ/ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: اتَّقوا نِقْمَةَ اللهِ في مُخالَفَتِكُمْ أمْرَهُ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا تُطيعوا أمْرَ مَنْ ظَهَرَ منهُ الإسرافُ والفسادُ، ولكنْ أطيعوا أمري؛ إذْ لم يَظْهَرْ لكمْ مني إسرافٌ ولا فسادٌ، ولا تُطيعوا الذينَ تَعْلَمونَ أنهمْ يُفْسِدونَ في الأرضِ، ولا يُصْلِحونَ.

[ويَحتمِلُ][1] أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾، مُؤَخَّراً عن قولِهِ: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] يقولُ لهمْ صالحٌ: أتَتْرُكونَ طاعتي والإجابةَ لي لأني بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فلا تُطيعوا إذنْ بَشَراً، هُمْ[2] دوني، وهُمُ الذينَ ظَهَرَ لكمْ منهمُ الفَسادُ والإسرافُ. ولم يَظْهَرْ لكمْ مني شيءٌ. يُخبِرُ عن سَفَهِهِمْ وقِلَّةِ تَمْييزِهِمْ حينَ[3] تَركوا اتِّباعَ الرسُلِ وطاعتَهُمْ لأنهمْ بَشَرٌ دونَهُمْ في كلِّ شيءٍ.

ثم أجابوا صالحاً [في قولِهِ][4]: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيه:

قالَ بعضُهُمْ: يقولونَ: إنما أنتَ سوقَةٌ مِثْلُنا، لَسْتَ بأفضلِنا، وإنما نَتَّبِعُ نحنُ الملوكَ [وذوي الثروةِ][5] مِنَ المالِ، وأنتَ لَسْتَ بِمَلِكٍ ولا لكَ ثَرْوَةٌ. فهمْ، واللهُ أعلَمُ، طَعَنوا صالحاً كما طَعَنَ كُفّارُ مكةَ رسولَ اللهِ حينَ[6] قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقالَ بعضُهُمْ: يقولونَ: أنتَ بَشَرٌ مِثْلُنا في المنزلةِ، لا تَفْضُلُنا بشيءٍ، لستَ بِمَلِكٍ ولا رسولٍ ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنكَ رسولٌ فَنَتَّبِعَكَ كما أطَعْنا أولئكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي مِنَ المُعَلَّلينَ بالطعامِ والشرابِ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ مِمَّنْ لهُ سَحْرٌ، والسَّحْرُ الرِّئَةُ، وأسحارٌ جمعٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنَ المَسْحورينَ، لكنهُ عند الكَثْرَةِ يُشَدَّدُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥٥ ثم قالَ صالحٌ: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الماءَ مُنْقَسِمٌ بينَهُمْ؛ كانَ يومٌ لهمْ ويومٌ للناقةِ؛ استَدَلُّوا بقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فلمّا كانَ يومٌ لها مَعْلومٌ [كانَ يومٌ لهمْ مَعْلومٌ][7] لكنْ ليسَ في الآيةِ دلالةٌ أنَّ الأمْرَ ما وصَفوا، ولكنْ في الآيةِ ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨] وظاهرُهُ أنَّ الماءَ بينَهُمْ بالقِسْمَةِ لا الشربِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الماءُ بينَهُمْ: بَعْضُهُ للناقةِ، وبَعْضُهُ لهمْ. ثم لهمْ يومٌ مَعْلومٌ، ليسَ للناقةِ في ذلكَ اليومِ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ هذهِ الأنباءَ إنما ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ حُجَّةً لرسولِ اللهِ، فلا يُزادُ على ما ذُكِرَ في الكتابِ مَخافَةَ أنْ تَذْهَبَ حُجَّتُهُ عليهمْ؛ أعني أهلَ الكتابِ لئلا يُكَذِّبوا رسولَ اللهِ في ما يُخبِرُ مِنَ الأنباءِ التي في كُتُبِهِمْ.

الآيتان ١٥٦و١٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ إذا هَلَكوا. وإلّا لو نَدِموا على صنيعِهِمْ، وتابوا قَبْلَ أنْ يهلِكوا لَقُبِلَ ذلكَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كلُّ آيةٍ أتاهُمْ [الرسولُ بها][8] على إثْرِ السؤالِ، فَكَذَّبوها، أخَذَهُمُ العذابُ، فأُهلِكوا.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وذي ثروة. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الرسل.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآيات ١٦٠و١٦١و١٦٢و١٦٣و١٦٤و ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ قد ذَكَرَ بالتأنيثِ على إضمارِ: جماعةٍ؛ كأنهُ قالَ: كَذَّبَتْ [جماعةُ][1] قومِ لوطٍ المُرْسَلينَ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ أي تَذَرونَ ما جَعَلَ اللهُ ذلكَ طَلَباً لإبقاءِ هذا النَّسْلِ، لأنهُ لم يَجْعَلِ النِّساءَ لهمْ لِقَضاءِ الشَّهْوَةِ خاصَّةً، ولكنْ إنما جَعَلَ لهمُ الأزواجَ لإبقاءِ هذا النَّسْلِ ودَوامِهِ، فَيُعَيِّرُهُمْ لوطٌ بِتَرْكِهِمْ إتيانَ النِّساءِ لِما في ذلكَ انْقِطاعُ ما جُعِلْنَ لهُ، وهو إبقاءُ النَّسْلِ واشْتِغالِهِمْ بالرجالِ. وليسَ في ذلكَ إبقاءُ النَّسْلِ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ وإنما خَلَقَ لِبَقاءِ النَّسْلِ لا لِقَضاءِ الشَّهْوَةِ خاصَّةً. لكنْ جعَلَ فيهِمْ، ومَكَّنَ قَضاءَ الشَّهْوَةِ لِيُرَغِّبَهُمْ في ذلكَ لِيَبْقَى هذا النَّسْلُ إلى يومِ القِيامةِ. وإلاّ لو لم يَجْعَلْ ذلكَ فيهِمْ لَعَلَّهُمْ لا يَتَكَلَّفونَ ذلكَ، ولا يَتَحَمَّلونَ هذهِ المُؤَنَ التي يَتَكَلَّفونَ حَمْلَها لذلكَ.

وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ المرأةَ، هي المَمْلوكةُ عليها دونَ الزوجِ، والزوجَ، هو المالكُ عليها ذلكَ حينَ[3] قالَ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ وقالَ [في][4] آيةٍ أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [الروم: ٢١] أخبَرَ أنهُ خَلَقَ النِّساءَ لنا، لا أنهُ خَلَقَنا لهنَّ. وفي ذلكَ حُجَّةٌ لأصحابِنا في قولِهِمْ: إنَّ المُسْلِمَ إذا تَزَوَّجَ نَصْرانيَّةً بِشهادةِ نَصْرانِيَّيْنِ جازَ النِّكاحُ لأنهُ هو المُتَمَلِّكُ عليها بالنِّكاحِ، وهي المملوكةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي بل أنتمْ قومٌ مُتَجاوِزونَ حَدَّهُ الذي حَدَّ لكُمْ، أو عادونَ حَقَّهُ الذي لهُ عليكُمْ.

الآية ١٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ذَكَرَ الانْتِهاءَ، ولم يُبَيِّنْ مِمَّاذا؟ فجائزٌ أنْ يكونوا ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ مِنْ تَعْييرِكَ الذي تُعَيِّرُنا بهِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ بقولِكَ[5]: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] وقولِكَ[6] ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦].

ويَحْتَمِلُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ مِنْ دُعائِكَ الذي تَدْعونا إليهِ ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ كذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ يَحْتَمِلُ نَفْسَ الإخراجِ، أي نُخْرِجُكَ مِنَ القريةِ ومِنْ بَيْنِنا.

وجائزٌ أنْ يكونوا[7] أرادوا بالإخراجِ إخراجاً بالقَتْلِ كقولِ[8] قومِ نوحٍ حينَ[9] ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وهو أشبَهُ.

الآية ١٦٨ ثمَّ قالَ لوطٌ: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي مِنَ المُبْغِضِينَ، أي كيفَ تُوعِدونني بالإخراجِ، وإني لِعَمَلِكُمُ الذي تَعْمَلونَ مِنَ المُبْغِضِينَ؛ أكْرَهُ المُقامَ فيكمْ، وأبْغَضُ رُؤْيَةَ أعمالِكُمُ التي تَعْمَلونَ، فكيفَ تُوعِدونني بالإخراجِ؟

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: قالَ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ربِّ نَجِّني وأهلي مِنْ عَذابِ ما يَعْمَلونَ وجَزائِهِ.

[والثاني][10]: ربِّ نَجِّني وأهلي مِنْ عَمَلِ ما يَعْمَلونَ مِنَ الخبائثِ كقولِ إبراهيمَ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

[والثالث][11]: ربِّ نَجِّني وأهلي مِنْ رُؤْيَةِ ما يَعْمَلونَ [ومُعايَنَتِهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: وقوله تعالى. (٧) في الأصل وم: يكون. (٨) في الأصل وم: كقولهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: أو أن يكون. (١١) في الأصل وم: أو أن يقول.

الآيات ١٧٠ ـ ١٧٢ وقولُهُ تعالى[(١)]: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أمْطَرَ عليهِمُ الحجارةَ بَعْدَما قَلَبَهُمْ ظَهراً لِبَطْنٍ وبَطْناً لِظَهْرٍ كقولِهِ: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ [هود: ٨٢].

وجائزٌ أنْ يكونَ جَعَلَ عالِيَها سافِلَها بما أمْطَرَ عليهِمْ مِنَ الحجارةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ [جَعَلَ][(٢)] القَرْياتِ ومَنْ فيها عالِيَها سافِلَها، وأمْطَرَ على مَنْ كانَ غائباً منهُمُ الحجارةَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي مِنَ المُبْغَضينَ؛ يُقالُ: قَلَيْتُ الرجلَ إذا أبْغَضتُهُ، ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] والغابرُ: الباقي.

الآيتان ١٧٤و١٧٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد ذَكَرْنا][(٣)].

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والأيْكَةُ: قالَ بعضُهُمْ: هي شَجَرةٌ، نُسِبوا إليها. وقالَ بعضُهُمْ: الأيْكَةُ الغَيضَةُ.

الآية ١٧٧ [وقولُهُ تعالى][(٤)]: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنما لم يَقُلْ ههنا في شُعَيبٍ أخاهُمْ[(٥)] لأنَّ شُعَيباً، لم يكنْ مِنْ نَسْلِهِمْ؛ أعني مِنْ نَسْلِ أصحابِ الأيْكَةِ. لِذلكَ[(٦)] لم يَقُلْ: إذْ قالَ لهمْ أخوهُمْ شُعَيبٌ، وقالَ في سورةِ هودٍ حينَ[(٧)] قالَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥] لأنهُ كانَ مِنْ نَسْلِ أهلِ مَدْيَنَ. ويقولونَ: إنَّ شُعَيباً، كانَ بُعِثَ إلى أهلِ مَدْيَنَ، وهو كانَ منهمْ/ ٣٨٥ ـ ب/ وإلى أصحابِ الأيْكَةِ، وهو لم يَكُنْ منهمْ. لِذلكَ[(٨)] قالَ ثَمَّ: أخاهُمْ، ولم يَقُلْ ههنا.

لكنْ ليسَ في ما لم يَقُلْ: إنهُ أخوهُمْ ما يَدُلُّ أنهُ لم يَكُنْ مِنْ نَسْلِهِمْ ولا مِنْ نَسَبِهِمْ لأنَّ جميعَ أولادِ آدَمَ إخوةٌ؛ إذْ يُسَمَّى جميعُ البَشَرِ بَنيهِ[(٩)]. فَعَلى ذلكَ أولادُهُ إخوةٌ وأخواتٌ.

ثم لا نَدْري أنَّ مَدْيَنَ غيرُ الأيْكَةِ، والأيْكَةَ غيرُ [مَدْيَنَ، أبْعِثَ][(١٠)] شُعيبٌ إليهِمْ جميعاً، أمْ[(١١)] هما واحدٌ؟ نُسِبوا إلى مَدْيَنَ [مَرَّةً، وإلى الأيْكَةِ أُخرى][(١٢)]؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الأيْكَةُ الغَيضَةُ، وجَمْعُها أيْكٌ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الأيْكَةُ شَجَرةٌ، والأيكُ جَمْعُ أيْكَةٍ، ولا أعرِفُ لَيكَةَ بلا ألِفٍ. وكذلكَ قالَ أبو عُبَيْدَةَ. وقالَ أبو زيدٍ: أصحابُ لِيكَةٍ[(١٣)] أصحابُ باديةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ١٧٨ ـ ١٨٠ [وقد ذَكَرْنا تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾][(١٤)].

الآية ١٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ وكذلكَ قالَ لأهلِ مَدْيَنَ في سورةِ هودٍ ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] ذَكَرَ فيهما جميعاً إيفاءَ الكَيلِ، فَلَسْنا نَدري: أظَهَرَ[(١٥)] فيهما جميعاً نُقصانُ الكَيلِ والوَزْنِ، فأمَرَهُما بإيفاءِ ذلكَ، أمْ[(١٦)] كانَتِ القصةُ واحدةً، فَذَكَرَ فيهما ذلكَ؟

ثم في قولِهِ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥ والشعراء: ١٨٣] جوازُ الاِسْتِدْلالِ مِنْ وجهَينِ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ومعاقبته ثم قال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أخوهم. (٦) في الأصل وم: كذلك. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: كذلك. (٩) في الأصل وم: بنوه. (١٠) في الأصل وم: المدين فبعث. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل: وإلى الأيكة مرة ثانيا، في م: وإلى الأيكة مرة إلى مدين ثانيا. (١٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٢٤. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: أنه ظهر. (١٦) في الأصل وم: أو.

أحَدُهما: وُقوعُ المَبيعِ بِمُلْكِ المُشتَري، وإنْ لم يَقْبِضْهُ المُشتَري.

والثاني: جوازُ بَيعِ الجُزْءِ مِنَ الكَيليِّ والوَزْنيِّ شائعاً مِنَ الكلِّ، لأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أضافَ الأشياءَ إلى الناسِ، ونَسَبَها إليهِمْ. فلولا أنَّ ذلك مُلْكٌ لهمْ، وإلاّ لم تَكُنْ أشياءَهُمْ، ولكنْ كانَتْ أشياءَ هؤلاءِ؛ إذْ لا يَخلو ذلك: إمّا أنْ كان ثَمَناً وإمّا[1] كانَ مَبيعاً.

فكيفَ ما كانَ فهو موصوفٌ بالمُلْكِ لهمْ دونَ الذينَ عليهِمْ إيفاءُ ذلكَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ والوَزنَ في ما عليكُمْ إيفاؤُهُ، ولا تَستَوفوا مِنَ الناسِ أكثرَ ممّا لكمْ عليهِمْ.

الآية ١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ القِسْطاسُ: قالَ بعضُهُمْ: العدلُ، أي وَزِنوا للناسِ حُقوقَهُمْ بالعَدْلِ، ولا تُنْقِصوها. وقالَ بعضُهُمْ: القِسْطاسُ، هو القَبّانُ، وهو الميزانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المُستَوي؛ كأنهُ قالَ: وزِنوا بالميزانِ المُستَوي، لا تَجْعَلوا إحْدَى الكِفَّتَينِ أثقَلَ مِنَ الأُخرى؛ كأنهمْ [كانوا][2] يَجْعَلونَ الكِفَّةَ التي يُوفونَ بها حقوقَ الناسِ أثقَلَ، والكِفَّةَ التي يَستَوفونَ [بها][3] مِنَ الناسِ أخفَّ. فأمَرَهُمْ أنْ يُسَوُّوا الكِفَّتَينِ جميعاً.

الآية ١٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تُفْسِدوا فيها.

الآية ١٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي اتَّقوا نِقْمَةَ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ الجِبِلَّةَ الأوَّلينَ أي كيف عَذَّبَهُمْ، وانْتَقَمَ منهمْ بِظُلْمِهِمْ، والجِبِلَّةُ، هي الخليقة، يُقالُ: جُبِلَ أي خُلِقَ.

الآية ١٨٥ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو الذي سُحِرَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. فَعَلَى هذا التأويلِ يكونُ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ ويكونُ[5] التَّشديدُ لِلتَّكْثيرِ.

الآية ١٨٦ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنما أنتَ مَخلوقٌ وبَشَرٌ مِثْلُنا. وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هذا يدلُّ أنهمْ إنما قالوا ذلك ظَنّاً منهمْ لا يَقيناً وحقّاً.

الآية ١٨٧ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ سألوا شُعَيباً العذابَ على التَّعَنُّتِ كما سَألَ غَيرُهُمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فَنَزَلَ بهمُ العذابُ مِنْ حيثُ سألوا مِنَ السماءِ.

وعَنِ الحَسَنِ [أنهُ][8] قالَ: سَلَّطَ اللهُ الحَرَّ على قومِ شُعَيبٍ سبعةَ أيامٍ ولَيالِيَها حتى كانوا لا يَنْتَفِعونَ بِظِلِّ بيتٍ ولا بِبَرْدِ ماءٍ، ثم رُفِعَتْ سَحابةٌ في البَرِّيَّةِ، فَوَجَدوا تَحْتَها الرَّوحَ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَدْعو بَعْضاً حتى إذا اجْتَمَعوا تَحْتَها أشْعَلَها اللهُ تعالى ناراً، فأحْرَقَتْهُمْ، فذلكَ قولُهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ الآية [الشعراء: ١٨٩].

وقالَ بعضُهُمْ: سَقَطَتْ عليهمْ تلكَ السحابةُ، فَقَتَلَتْهُمْ.

والظُّلَّةُ: قالَ أبو عَوسَجَةَ: حَرٌّ شديدٌ، وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿كِسَفًا﴾ أي قِطَعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والكِسَفُ القِطَعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أصابَهُمْ حَرٌّ شديدٌ وغَمٌّ في بُيوتِهِمْ، فَخَرَجوا يَلْتَمِسونَ الرَّوحَ قِبَلَهُ، فلمّا غَشِيَتْهُمْ تلكَ السحابةُ أخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨ و...].

وقالَ بعضُهُمْ: ظَلَّلَ العذابُ إيّاهُمْ. وبَعْضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وعنِ ابنِ عباسٍ قريبٌ مِنْ هذا: قالَ: بَعَثَ اللهُ عليهِمْ وَمَدَةً وحَرًّا شديداً، فأخذَ بأنفاسِهِمْ، فلمَّا أحسُّوا[1] بالموتِ، بَعَثَ لهمْ سَحابَةً، فأظَلَّتْهُمْ، فتنادَوا تحتَها، فلما اجْتَمعوا سَقَطَتْ عليهِمْ. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ والظُّلَّةُ السحابَةُ، وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

الآيات ١٨٩ ـ ١٩١ وقولُ شُعَيبٍ: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ نُقصانِ الكَيلِ وغَيرِهِ مِنْ صَنيعِهِمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ كَذَّبوهُ في ما أخْبَرَ مِنْ نُزولِ العذابِ بهِمْ، أو كَذَّبوهُ في ما ادَّعَى مِنَ الرسالةِ وما سيُرَى ذلكَ [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾][2] هو مَذْكورٌ في ما تَقَدَّمَ.

الآيتان ١٩٢و١٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي نَزَّلَهُ ربُّ العالَمينَ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [رَدًّا لِقولِهِمْ][3]: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

الآية ١٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أنَّ جبريلَ لمَّا يُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ إنما يُنَزِّلُ على قَلْبِهِ.

والثاني: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي لا يَذْهَبُ عنهُ، بل اللهُ يَجْمَعُهُ في قَلْبِكَ، كقولِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ و١٧].

[والثالثُ][4]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي يُثَبِّتُهُ على قَلْبِكَ لِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾ [وقولِهِ تعالى][5]: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

[والرابعُ][6]: أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لمَّا انْتَهَى إلى قَلْبِهِ، وحَفِظَهُ غايةَ حِفْظِهِ قالَ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ كأنهُ أُلْقِيَ في قَلْبِهِ. وكذلكَ يُقالُ.

الآية ١٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، على التَّقديمِ والتَّأخيرِ يُخرَّجُ، أي: نَزَلَ بهِ الروحُ الأمينُ على قَلْبِكَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ لتكونَ مِنَ المُنْذِرينَ.

والباطِنِيَّةُ يقولونَ: أنْزَلَهُ على رسولِهِ كالخَيالِ غَيرَ موصوفٍ بلسانٍ، ثم إنَّ رسولَهُ، أدَّاهُ بلسانِهِ العَرَبيِّ المُبينِ، أي بَيَّنَهُ. لكنهُ ليسَ كذا لأنهُ[7] قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] فَيَبْطُلُ قولُهُمْ: إنهُ أدَّاهُ بلسانِهِ عَرَبيًّا مِنْ غيرِ أنْ أنْزَلَهُ كذلكَ. ولو كانَ على ما يقولُهُ الباطِنِيَّةُ: إنهُ لم يُنْزِلْهُ بهذا اللسانِ؛ أعني اللسانَ العَرَبيَّ، وإنَّ الرسولَ، هو الذي صَيَّرَهُ بهذا اللِّسانِ، وأدَّاهُ بهِ، لكانَ لا يَصيرُ جواباً لقولِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ولا حُجَّةً عليهِمْ. فاذْكُرْ هذا جواباً لقولِهِمْ وحُجَّةً عليهِمْ.

دَلَّ أنهُ إنما أُنْزِلَ عليهِ عربيًّا، وأنَّ تأويلَ الآيةِ[8] ما ذَكَرْنا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ.

الآية ١٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي بَعْثَ محمدٍ وَوَصْفَهُ كانَ في كُتُبِ الأولينَ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]: هذا[9] القرآنُ كانَ ذِكْرُهُ في كُتُبِ الأولينَ، أنهُ يُنَزَّلُ على رسولِ اللهِ ﷺ محمدٍ، لا أنهُ[10] عَينَهُ، كانَ فيها [أو أنَّ بَعْضَهُ، كانَ][11] في زُبُرِ الأوَّلينَ، لا الكُلَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أوَ لم يكُنْ محمدٌ آيةً: أنَّ عُلماءَ بَني إسرائيلَ، كانوا يَعْلَمونَ أنهمْ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى [ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾][12] [الأعراف: ١٥٧]؟

(١) في الأصل وم: حسبوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لقوله. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، في الأصل: إنه. (٨) في الأصل وم: الأول. (٩) في الأصل وم: هذه. (١٠) في الأصل وم: أن. (١١) في الأصل: وإن كان بعضه، في م: او ان كان بعضه. (١٢) في الأصل وم: الكتب.

لكنَّ تأويلَهُ: أوَلم يَكفِهِم عِلمُ عُلَماءِ بَني إسرائيلَ آيةَ أنهُ رسولٌ؟

ثم/ ٣٨٦ ـ أ/ الآيةُ تكونُ على وجهَين:

أحَدُهما: ما ذُكِرَ أنَّ أهلَ مكةَ، أرسَلوا إلى اليهودِ بالمدينةِ يَسْألونَهُمْ عن رسولِ اللهِ، فأخبَروهُمْ عنهُ أنهُ، يَخرُجُ في وَقتِ كذا، وهذا وَقتُ خروجِهِ.

والثاني: يقولُ: أوَلَمْ يَكفِهِمْ آيةَ إسلامُ عُلَماءِ بَني إسرائيلَ وفُقهائِهِمْ أنهُ رسولٌ نَحوِ ابْنِ سَلَامٍ وغَيرِهِ؛ إذْ كانوا لا يُسْلِمونَ إلاّ عن عِلمٍ وثَبَتٍ أنهُ رسولٌ، إذْ[1] كانَ في إسلامِهِمْ ذَهابُ مَمْلَكَتِهِمْ[2] ورئاسَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٩٨و١٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَزَّلْناهُ على رجلٍ منهمْ عربيٌّ، فلم يُؤمِنوا بهِ، فكيفَ لو نَزَّلْناهُ على أعْجَمِيٍّ؟

وقالَ بعضُهُمْ: لو نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعضِ الأعْجَمِيِّينَ، فَقَرَأَهُ عليهِمْ؛ يقولُ: إذنْ لكانوا شَرَّ الناسِ فيهِمْ، ما فَهِموهُ [وما دَرَوا ماهو][3] وهو قريبٌ [مِنَ][4] الأوَّلِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ مِنَ الدَّوابِّ، فكَلَّمَهُمْ هذا ما صَدَّقوهُ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وتَعَنُّتَهُمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي نَزَّلْناهُ أعْجَمِيًّا، فلم يَفْهَموهُ ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤] ولكنْ نَزَّلْناهُ عَرَبِيًّا لئلاّ يقولوا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هكذا سَلَكْنا الكُفْرَ والتَّكذيبَ، وأدْخَلْناهُ في قلوبِ المُجْرِمينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ يعني البَيانَ والحُجَجَ في قلوبِ المُجرِمينَ حتى عَقَلُوهُ، ولَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ. لكنهُمْ تَركوا الإيمانَ تَعَنُّتاً وعِناداً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ حينَ لا يَنفَعُهُمْ إيمانُهُمْ، لأنَّ إيمانَهُمْ عندَ مُعايَنَةِ العذابِ إيمانُ دَفْعٍ واضْطِرارٍ[5] لا إيمانُ اختيارٍ، وهو كما قالَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤] لأنهُ إيمانُ دَفْعِ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ [حينَ خَرَجَتْ أنفُسُهُمْ][6] مِنْ بَينِ أيديهِمْ، وإيمانُ اضْطِرارٍ[7] لا إيمانُ اختيارٍ. لذلكَ لم يَنفَعْهُمْ.

الآية ٢٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي يَأتِيَهُمُ العذابُ فَجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهُ ﷺ إذْ عَلِمَ منهمْ أنهمْ، لا يُؤْمِنونَ أبداً، فأنزَلَ عليهِمُ العذابَ بَغْتَةً. ولو عَلِمَ منهُمْ أنهمْ[8] يُؤْمِنونَ حقيقةً عندَ مُعايَنَةِ العذابِ لأنزَلَ عليهِمُ العذابَ مُعايَنَةً مُجاهَرَةً لِيُؤْمِنوا، فَيَقْبَلُ منهمْ ذلكَ، ويَرْفَعُ العذابَ عنهمْ كما قَبِلَ إيمانَ قومِ يونسَ حينَ[9] قالَ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨] قَبِلَ منهـمُ الإيمانَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ لمَّا عَلِمَ منهمْ أنهمْ يُحقِّقونَ الإيمانَ في ذلكَ [الوَقتِ][10].

وأمّا مَنْ كانَ هَمُّهُمُ العِنادَ والمُكابَرَةَ فهمْ لا يُحقِّقونَ الإيمانَ.

الآية ٢٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لا يَزالونَ، يَطْلُبونَ الرَّجْعَةَ إلى الدنيا وتَأخيرَ العذابِ عنْ أنفسِهِمْ، [إذا نزلَ][11] بهِمْ كقولِهِمْ ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وكقولِهِمْ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]. فَيَتَمَنَّونَ الرجوعَ والنَّظِرَةَ، لكنْ لا يُجابونَ [إلى ذلكَ].

الآية ٢٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هذا جوابٌ لهمْ لمَّا أوعَدَهُمُ النَّبِيُّ العذابَ، يَنزِلُ بهِمْ: مَتَى العذابُ؟ تكذيباً لهُ واسْتِهزاءً. يقولُ اللهُ عندَ ذلكَ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾[12] لِقولِهِمْ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس:

---

(١) من م، في الأصل: إذا. (٢) في الأصل وم: ماكلتهم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: واضطراب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: اضطراب. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: فأنزل. (١٢) ساقطة من م.

٤٨ و . . .] وقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] ومِثْلِهِ وإلّا ليسَ في الظاهِرِ جواباً لِقولِهِمْ[1]: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

الآيات ٢٠٥ ـ ٢٠٧ [وجَوابُ هذين][2]، واللهُ أعلَمُ، قولُهُ[3] تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ يقولُ: ما يُغْنِي تأخيرُ العذابِ عنهُمْ وإمهالُهُمْ عنْ وقتٍ، يُمْنَعونَ منْ عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ؟ [أي][4] لا يَنْفَعُهُمْ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ[5] أنْ يكونوا سَألوا العذابَ في الظاهِرِ، واسْتَمْهَلوهُ في الحقيقةِ، فَخرَجَ قولُهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ الآيات[6] جواباً لِاسْتِمْهالِهِمْ، ويَحْتَمِلُ[7] أنْ يكونَ: بعضُهُمُ اسْتَعْجَلَ العذابَ، واسْتَمْهَلَ غَيْرُهُمْ، فَخرَجَ هذا جوابَ مَنِ اسْتَمْهَلَ.

الآية ٢٠٨ وقولُهُ تعالى: فقالَ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ إهلاكَ اسْتِئصالٍ وانْتِقامٍ إلّا بَعْدَ الإنذارِ وإقامةِ الحُجَّةِ والبيانِ.

الآية ٢٠٩ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي مَوعِظَةً وزَجْراً عمّا همْ فيهِ، أو ﴿ذِكْرَىٰ﴾ يُذَكِّرُ ما لهمْ وما عليهمْ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبِهِمْ، أي لم نُعَذِّبْهُمْ بِلا ذَنْبٍ ولا[9] جُرْمٍ، ولكنْ بِعِنادِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ لأنَّ العذابَ في الدنيا، لا يكونُ لِنَفْسِ الكُفْرِ، ولكنْ لِعِنادٍ ومُكابَرَةٍ. وإنما عذابُ الكُفْرِ في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] أي ما كنّا مُعَذِّبينَ في الدنيا تعذيبَ انْتِقامٍ حتى نَبْعَثَ رسولاً، فَيَظْهَرَ منهُمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ. فعندَ ذلكَ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي ما كنا نُعَذِّبُهُمْ إلّا مِنْ بَعْدِ البَيانِ والحُجَّةِ وقَطْعِ العُذْرِ، واللهُ أعلَمُ. وفي مُصْحَفِ أُبَيٍّ: وما أهْلَكْنا مِنْ قريةٍ إلّا بِذُنوبِ أهلِها.

الآيتان ٢١٠و٢١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما تَنَزَّلَتْ بالقرآنِ الشياطينُ. فذلكَ جواباً لِقَولِ أهلِ مكةَ: إنَّ محمداً كاهنٌ، مَعَهُ رِئِيٌّ، هو يَأْتيهِ بما يَقولُ، يَعْنونَ بالرِّئِيِّ الشيطانَ. وكانتِ الشياطينُ مِنْ قَبْلُ يَقْعُدونَ مِنَ السماءِ مَقاعِدَ، يَسْتَمِعونَ فيها الوَحْيَ مِنَ الملائكةِ، فَيَنْزِلونَ بهِ على الكُهّانِ، فَهُمْ[10] بينَ مُصيبٍ ومُخْطِئٍ، فقالوا: محمدٌ كذلكَ، فأكْذَبَهُمُ اللهُ تعالى في مَقالَتِهِمْ تلكَ، فقالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بالقرآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أنْ يَنْزِلوا بالقرآنِ، وما كانوا يَسْتَطيعونَ، أي قد حِيلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ السَّمْعِ بالملائكةِ والشُّهُبِ.

الآية ٢١٢ وأخبَرَ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ عَنْ ذلكَ.

[وفي قولِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾][11] دلالةٌ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يَجْعَلَ القرآنَ حُجَّةً لِغَيرِ الذي جُعِلَ هو حَجَّةً لم يَقْدِرْ على النُّطْقِ بهِ ولا التِّلاوَةِ نَحْوُ مَنْ يَأْتِ أُفُقاً مِنْ آفاقِ الأرضِ، لم يَنْتَهِ إليهِ[12] هذا القرآنُ، فادَّعَى[13] لنفسِهِ النُّبُوَّةَ، وجَعَلَ يَحْتَجُّ بهذا القرآنِ، فإنهُ لا يَقْدِرُ على تِلاوَتِهِ ولا النُّطْقِ لأنهُ إنما جُعِلَ حُجَّةً وبُرْهاناً لِلْمُحِقِّ لا لِلْمُبْطِلِ حينَ[14] قالَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أنْ [يَنْزِلوا بهِ][15] ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلكَ.

الآية ٢١٣ وقد ذَكَرْنا وَجْهَ النَّهْيِ لرسولِ اللهِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وأمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لقوله. (٢) من م، في الأصل: جواب. (٣) في الأصل وم: وقوله. في م: وجواب هذان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: وما. (١٠) في الأصل وم: فمن. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: إليهم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فالمدعى. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: ينزلون.

الآية ٢١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمَعَ رسولُ اللهِ ﷺ قُرَيشاً، فَخصَّ، وعَمَّ، وقالَ: «يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ أنْقِذوا أنفسَكُمْ منَ النارِ فإنِي لا أمْلِكُ لكمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفْعاً. وقالَ يا مَعْشَرَ بَني قُصَيٍّ أنْقِذوا أنْفُسَكُمْ مِنَ النارِ فإني لا أمْلِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً. وقالَ: يا مَعْشَرَ بَني عبدِ مَنافٍ: أنْقِذوا أنْفُسَكُمْ منَ النارِ فإني لا أمْلِكُ لكمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً. وكذلكَ قالَ لبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ، وقالَ لفاطمةَ: يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ أنْقِذي نَفْسَكِ مِنَ النارِ فإني أمْلِكُ لكِ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفْعاً. ولكنْ لَكِ رَحِمٌ، سَأَبُلُّها بِبَلاها» [مسلم ٢٠٤] أي سَأَصِلُها.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنهُ قالَ عندَ نزولِ هذهِ الآيةِ: «إني أُرسِلْتُ إليكُمْ يا بني هاشمٍ وبَني عبد المُطلِبِ خاصَّةً» [عن عائشة مسلم ٢٠٥] وهمُ الأقْرَبونَ، وهمْ إخوانٌ، أبناءُ عَبْدِ مَنافٍ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][1] قالَ: ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جَمَعَ أهلَ بيتِهِ قَبْلَ موتِهِ، فقالَ «ألا إنَّ لي عملي، ولكمْ عَمَلُكُمْ، ألا إني لا أمْلِكُ لكُمْ منَ اللهِ شيئاً» «ألا إنَّ أوليائي منكُمُ المُتَّقونَ، ألا لأعْرِفَنَّكُمْ/ ٣٨٦ ـ ب/ يَوْمَ القِيامةِ: تأتونني بالدنيا، تَحْمِلونَها على رِقابِكُمْ[2] ويأتيني الناسُ بالآخِرَةِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٩/ ١٢٣].

وعنْ قَتادَةَ: ذُكِرَ لنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يأتي ليلةً على الصَّفا، يُفَخِّذُ عَشيرَتَهُ فَخِذاً فَخِذاً، يَدْعوهُمْ إلى اللهِ.

وقالَ[3] في ذلكَ المُشْرِكونَ: لَيَأتِ هذا الرجلُ، يُهَوِّتُ منذُ الليلةِ، يقولُ: يَصيحُ. فأنزَلَ اللهُ في ذلكَ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ الآية [سبأ: ٤٦].

ومعنى التَّخصيصِ في إنذارِهِ عَشيرَتَهُ[4] في هذهِ الآيةِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ، وإنْ كانا داخِلينَ في جُمْلَةِ إنذارِ الناسِ جميعاً في قولِهِ: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إذْ هُمْ مِنَ العالَمِينَ:

أحَدُهما: جائزٌ أنْ يكونوا هُمْ يَطْمَعونَ بشفاعةِ رسولِ اللهِ يومَ القيامةِ، وإنْ لم يُطيعوهُ، ولم يُجيبوهُ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ على ما رُوِيَ عنهُ أنهُ قالَ: «كلُّ نَسَبٍ وسَبَبٍ مُنْقَطِعٌ يومئذٍ إلَّا نَسَبي وسَبَبي» [الحاكم في المستدرك ٣/ ١٤٢]. فَيُشْبِهُ أنْ يكونوا[5] يَطْمَعونَ بِشفاعَتِهِ يومئذٍ، وإنْ خالَفوهُ بِحَقِّ القَرابَةِ والوُصْلَةِ ما لا يَطْمَعُ بذلكَ غَيرُهُمْ مِنَ الناسِ إلَّا بالطاعةِ والإجابةِ.

فأمَرَهُ أنْ يُنْذِرَهُمْ لِئلا يَكِلوا [أمْرَهُمْ][6] إلى شَفاعَتِهِ. ولكنِ اختالوا حيلَتَهُمْ بالطاعةِ والعَمَلِ لِما يَأمُرُهُمْ؛ وهو ما ذُكِرَ في الأخبارِ التي ذَكَرْنا: «إني لا أمْلِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ ضَرًّا ولا نَفعاً ألا إنَّ أوليائي منكُمُ المُتَّقونَ» [الطبري في تفسيره: ١٩/ ١٢٣]. أخبَرَ أنْ [لا][7] وَلايَةَ لهمْ [إذا لم][8] يَتَّقوا مخالَفَتَهُ.

والثاني[9]:

الآية ٢١٥ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهُ أمَرَ [رسولَهُ أنْ][11] يَتواضَعَ لهمْ، ويَرحَمَهُمْ[12].

وقالَ في الوالِدَينِ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقالَ في المؤمنينَ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢ و...] ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ذَكَرَ الذُّلَّ في ما بَيْنَهُمْ والرَّحْمَةَ، ولم يذكُرْ في رسولِ اللهِ ﷺ الذُّلَّ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ الذُّلَّ كأنهُ يَرْجِعُ إلى الخُضوعِ واسْتِخْدامِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. وذلكَ في رسولِ اللهِ بعيدٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَأمُرَهُ بالخدمةِ لهمْ.

وجائزٌ أنْ يَمْتَحِنَ بَعْضَهُمْ بِخِدْمَةِ بَعْضٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: ركابها، في م: رقابها. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وعشيرته. (٥) من م، في الأصل: يكون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أشار الناسخ في الأصل وم في حاشيته أن بعد هذه الكلمة بياضاً ليدل أن المؤلف لم يأتِ بالوجه الثاني. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: رسول الله. (١٢) في الأصل وم: ويرحم.

الآية ٢١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قالوا: إنهُ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وموصولٌ بهِ؛ كأنهُ قالَ: وأَنْذِرْ عشيرَتَكَ الأقربِينَ. فإنْ عصوْكَ فقُلْ: إني بريءٌ ممَّا تعْمَلونَ. قد كانَ رسولُ اللهِ بريئاً ممَّا كانَ يَعْمَلُ أولئكَ الكفَرَةُ.

لكنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أولئكَ لَمَّا أنْذَرَهُمْ رسولُ اللهِ طَلَبوا منهُ أنْ يُطيعَهُمْ في بَعْضِ أمورِهِمْ، ويُشارِكَهُمْ في بَعْضِ أعمالِهِمْ حتى يُطيعوا أولئكَ لهُ في بَعْضِ ما يأمُرُهُمْ، ويَدْعوهُمْ إليهِ، ويُشاركوهُ[1] في بَعْضِ أعمالِهِ.

فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ أي ممَّا يَدْعونَهُ إليهِ، ويَطْلُبونَ[2] منهُ مساعدَتَهُ إياهُمْ والإغماضَ عمَّا يَعْمَلونَ.

الآية ٢١٧ وقولُهُ[3] تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولا تَخَفْ مُخالَفَتَهُمْ إياكَ في ما تَدْعوهُمْ[4]. أو أمَرَهُ أنْ يَكِلَ نَفْسَهُ إليهِ، ويُفوِّضَ جميعَ أمورِهِ [إليهِ][5] في كلِّ وَقْتٍ، فقالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المُنْتَقِمِ بأوليائِهِ أو الشديدِ بأعدائِهِ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأوليائِهِ. أو ذَكَرَ العزيزَ لأنهُ بهِ يَعِزُّ مَنْ يُعِزُّ، وهو يَرْحَمُ مَنْ يَرْحَمُ، ومَنْ لم يُعِزُّهُ هو فلا[6] يكونُ عزيزاً، ومَنْ لم يَرْحَمْهُ هو [فلا يَنْفَعُهُ][7] تَرَحُّمُ غيرِهِ. والعزيزُ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآيتان ٢١٨و٢١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في ظُلْمَةِ الليلِ وَحْدَكَ قائماً وجالساً وعلى حالاتِكَ، يَراكَ ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أيضاً ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في الصلاةِ معَ الناسِ في الجماعةِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: في تَقَلُّبِكَ في الساجدينَ: في المُصَلِّينَ؛ يقولُ: كانَ يَرَى مَنْ خَلْفَهُ مِنَ الصفوفِ كما يَرَى مَنْ أمامَهُ[8]. لكنَّ هذا ليسَ تأويلَ الآيةِ [إنما هو][9] كلامٌ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ. ولو كانَ ما ذَكَرَ لكانَ يقولُ: يُريكَ بِرَفْعِ الياءِ لا بالنَّصْبِ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ: «أنا إمامُكُمْ فلا تَسْبِقوني بالرُّكوعِ ولا بالسُّجودِ ولا بالقيامِ فإني أراكُمْ خَلْفي كما أراكُمْ أمامي. والذي نفسي بيدِهِ لو رَأيتُمْ ما رَأيتُ لَضَحِكْتُمْ قليلاً ولَبَكَيْتُمْ كثيراً. قالوا: يا رسولَ اللهِ وما رَأيتَ؟ قالَ: رأيتُ الجنةَ والنارَ» [مسلم ٤٢٦].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاةِ، فتُصَلِّي وَحْدَكَ، ويَراكَ معَ المُصَلِّينَ في جماعةٍ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: [وتَقَلُّبَ وَجْهِكَ][10] ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

الآية ٢٢٠ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السَّميعُ لِمقالَتِهِمْ ممَّا يُخْفونَ، ويُسِرُّونَ، وما يُعْلِنونَ. والعَليمُ بِضمائِرِهِمْ وخَفِيَّاتِهِم. والسَّميعُ المُجيبُ لِمَنْ دَعاهُ. والعَليمُ بأفعالِهِمْ وأعمالِهِمْ.

الآيتان ٢٢١و٢٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خَرَجَ هذا، واللهُ أعلَمُ، وما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الآياتِ جواباً لِقولٍ كانَ مِنْ رُؤساءِ الكَفَرَةِ وقادَتِهِمْ، لا يزالونَ يُلْبِسونَ على أتباعِهِمْ والسَّفَلَةِ أمْرَ رسولِ اللهِ، وما يَنْزِلُ [عليهِ][12]. فقالوا: مَرَّةً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] ومَرَّةً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] [ومَرَّةً إنهُ ﴿شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥ والطور: ٣٠]][13] [ومَرَّةً إنهُ][14] ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ [يونس: ٢ وص: ٤] ومَرَّةً قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وأمثالَ هذا.

فجائزٌ إنْ كانَ منهُمْ أيضاً قولٌ: إنَّ الشياطينَ همُ الذينَ يَتَنَزَّلونَ بهذا القرآنِ عليهِ على ما ذُكِرَ أنهُمْ قالوا: إنما يَجيءُ بهِ الرَّئِيُّ، وهو الشيطانُ، فَيُلْقِيهِ على لسانِهِ. فقالَ عندَ ذلكَ جواباً لهمْ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ و٢١١] وإنما يَتَنَزَّلُ بهِ جبريلُ حينَ[15] قالَ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ الآية [النحل: ١٠٢].

---

(١) في الأصل وم: ويشاركونه. (٢) في الأصل وم: وطلبوا. (٣) في الأصل وم: فقال. (٤) في الأصل وم: تدعونهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لا. (٧) في الأصل وم: ولا ينفع. (٨) من م، في الأصل: أمام. (٩) في الأصل وم: إلا. (١٠) في الأصل وم: وتقلبك. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في م: وإنه شاعر. (١٤) في الأصل وم: وإنه. (١٥) في الأصل وم: حيث.

ثم أخبَرَ عنِ الشياطينِ أنهمْ على مَنْ [يَتنزَّلونَ حين][1] قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ذَكَرَ هذا لمَّا عَرَفوا همْ أنَّ الشياطينَ لا يَتنزَّلونَ إلاّ بِكَذِبٍ وباطِلٍ. [فَمَنْ لا يَتنزَّلُ إلاّ بِكذِبٍ وباطلٍ لا يَتنزَّلُ][2] إلاّ ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وكانَ مَعْلوماً[3] ما عندَهُمْ أنَّ محمداً، لم يَكْذِبْ قطُّ، ولا أفِكَ أبداً، إذْ لم يأخذوهُ بِكَذِبٍ قطُّ.

فنقولُ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ تَتنزَّلُ عليهِ الشياطينُ، وهو معروفٌ عندكُمْ أنهُ ليسَ بِكذّابٍ ولا أفّاكٍ، وقد تَعْلَمونَ أنَّ الشياطينَ لا يَتنزَّلونَ إلّا بِكَذِبٍ باطلٍ، على هذا يُخَرَّجُ تأويلُ هذهِ الآياتِ، وإلاّ على الابْتِداءِ لا يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ.

الآية ٢٢٣ ثم أخبَرَ عنْ صَنيعِ الشياطينِ، فقال ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُلقي الشياطينُ بآذانِهِمْ إلى السمعِ في السماءِ لِكَلامِ الملائكةِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ إذا أرادَ أمراً في الأرضِ عَلِمَ بهِ أهلُ السماءِ مِنَ الملائكةِ، فيَتَكلَّمونَ بهِ، فيَسمَعُ الشياطينُ ذلكَ، فيُخبِرونَ بهِ الكَهَنَةَ أهلَ الأرضِ بذلكَ، فيقولونَ: إنهُ يكونُ في الأرضِ كذا في وقتِ كذا.

ثم قالَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ على [هذا التأويلِ؛ أي][4]: وأكْثَرُ الشياطينِ كاذبونَ في ما يُخبِرونَ الكَهَنَةَ مِنْ أخبارِ السماءِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الجِنَّ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فيَسْتَرِقونَ أسماعَهُمْ إلى السماءِ، فيَسْمَعونَ مِنْ أخبارِ أهْلِها، ثم يَنْزِلونَ بهِ على الكَهَنَةِ، ويَسْمَعُ الكَهَنَةُ أيضاً مِنْ أخبارِ الرسلِ، ويَخلِطونَ ما سَمِعوا مِنَ الرسلِ مِنَ الحَقِّ بما سَمِعوا مِنَ الشياطينِ مِنَ الباطِلِ، فيُحدِّثونَ الناسَ بذلكَ. فما كانَ مِنَ الرسُلِ حقٌّ، وما كانَ مِنَ الشياطينِ فيكونُ باطلاً.

فذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ أي أكْثَرُ الكَهَنَةِ كاذبونَ في ما يُخبِرونَ الناسَ في ما سَمِعُوا مِنَ الشياطينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانوا يَسْمَعونَ مِنَ الجِنِّ حقًّا. لكنهُمْ يَخلِطونَ مِنْ عندِ أنفسِهِمْ كَذِباً، فيُحدِّثونَ بهِ الناسَ، حتى إذا كانَ الناسُ، يتْرُكونَ ما يَسْمَعونَ منهُمْ مِنَ الكَذِبِ، حَدَّثوهُمْ بذلكَ الحَقِّ الذي يَنْزِلُ مِنَ السماءِ، ويُراجِعُونَهُمْ/ ٣٨٧ ـ أ/ ويُصَدِّقونَهُمْ، فذلكَ قولُ اللهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ أي أكْثَرُ قولِهِمْ كَذِبٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: رجلانِ شاعرانِ، كانا على عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ أحَدُهما مِنَ الأنصارِ، والآخَرُ مِنْ قومِ آخرينَ، فهَجَوَا رسولَ اللهِ وأصحابَهُ، ومعَ كلِّ واحدٍ منهما غُواةٌ مِنْ قومِهِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾. قالَ: فاسْتَأْذَنَ شُعراءُ المُسْلِمينَ النَّبِيَّ أنْ يَقْتَصُّوا مِنَ المُشْرِكينَ، فأذِنَ لهمُ النَّبِيُّ، فهَجَوُا المُشْرِكينَ، ومَدَحوا النَّبِيَّ. فذلكَ قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. أخبَر في الأوَّلِ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فاسْتَثْنى شُعراءَ المُسْلِمينَ [منهُمْ][5] بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الشُّعراءُ عُصاةُ الجِنِّ، يَتْبَعُهُمْ غُواةُ الإنْسِ كقولِهِ: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقالَ بعضُهُمْ: همُ الكفَّارُ يَتْبَعونَ ضُلاّلَ الجِنِّ والإنْسِ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

الآيتان ٢٢٥ و ٢٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: في كلِّ فَنٍّ يأخُذونَ، أي يَمْدَحُونَ قوماً بباطلٍ، ويَذُمونَ قوماً بباطلٍ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وأنهم يَصِفونَ ما لا يَعْلَمونَ، وكذلكَ ذُكِرَ في بعضِ الحروفِ أنهُ كذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهمْ في كل لَغْوٍ وباطلٍ يَخوضونَ، وإنهمْ ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي يقولونَ: فَعَلْنا كذا، وهُمْ كَذَبَةٌ، لم يَفْعَلوا ذلكَ.

وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: ﴿يَهِيمُونَ﴾ أي يَذْهَبونَ، ويَمْضونَ، ويَرْكَبونَ في كلِّ وادٍ، هامَ يَهيمُ هَيْماً. وهَيمانُ عَطْشانُ، وقومٌ هِيمٌ، والهائمُ الوامِقُ المُحِبُّ الذي هو عَطْشانُ إلى لِقاءِ مَنْ يُحِبُّ، والتَّهْويمُ: النومُ، يُقالُ: هَوَّمَ يُهَوِّمُ تَهويماً، وقولُهُ: ﴿فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] همُ العِطاشُ، والواحدُ هَيمانُ.

---

(١) في الأصل: تنزل الشياطين، وفي م: ينزلون حيث. (٢) من م، في الأصل: لا ينزل. (٣) في الأصل وم: معلوم. (٤) في الأصل: التاويل. في م: هذا التأويل. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي في كلِّ وادٍ مِنَ القولِ وفي كلِّ مَذْهَبٍ، يَذْهَبونَ، كما يَذْهَبُ الهائمُ على وَجْهِهِ.

الآية ٢٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ هذا الاسْتِثْناءُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ وهو ما ذَكَرْنا. كأنهُ[1] قالَ: أولئكَ الشُّعراءُ، وهمُ[2] القادةُ منهُمْ: نَحْنُ نقولُ بِمِثْلِ ما أتى محمدٌ ﷺ وقالوا الشِّعْرَ، وأنْشَدوهُ، واجْتَمَعَ إليهِمْ غُواةٌ مِنْ قومِهِمْ، يَسْتَمِعونَ أشعارَهُمْ، ويَرْوُونَ عنهُمْ، حينَ يَهْجونَ النَّبِيَّ وأصحابَهُ.

فاسْتَثْنَى شُعراءَ المُسْلِمينَ الذينَ قالوا الشِّعْرَ، وأنْشَدوهُ، في انْتِصارِ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهمْ لا يَتْبَعُهُمُ الغاوُونَ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ الاِسْتِثْناءُ مِنْ قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهمْ لا يَهيمونَ في كلِّ وادٍ، ويقولونَ ما يَفْعَلونَ، ولا يقولونَ ما لا يَفْعَلونَ. بل يَذْكُرونَ اللهَ كثيراً ويَنْصُرونَ[4] رسولَهُ وأنفسَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا.

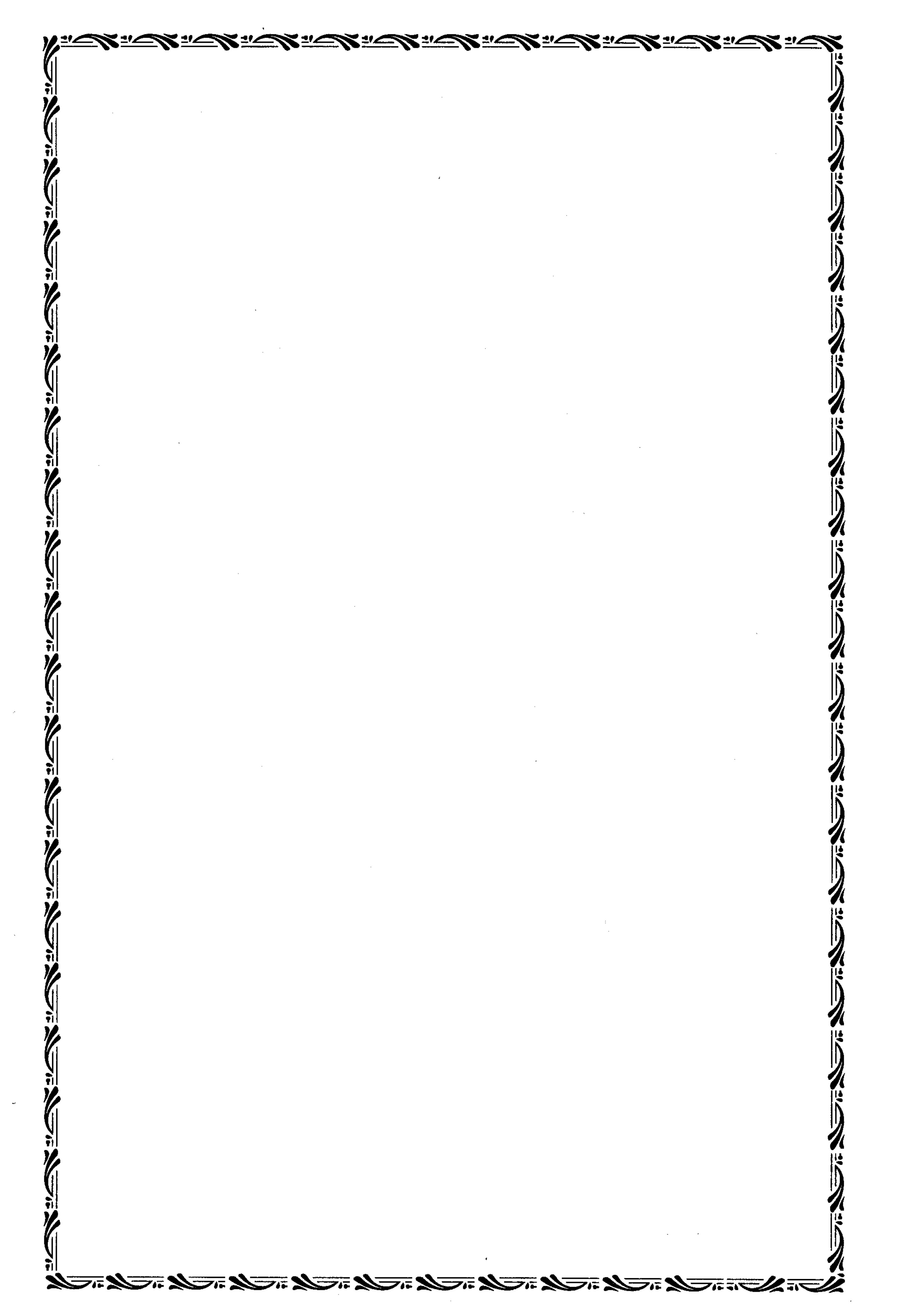
فيكونُ الاِسْتِثْناءُ في أحدِ التأويلَينِ مِنَ الاتِّباعِ في الآخِرَةِ مِنَ الأئِمَّةِ والقادةِ، فكانَ منهُمْ قولٌ سَبَقَ في ذلكَ حتى قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ على الاِبْتِداءِ دونَ قولٍ كانَ منهُمْ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] وقولِهِ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١].

قد كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ قولٌ وطَعْنٌ بأنَّ الشياطينَ همُ الذينَ يَتَنَزَّلونَ بهِ عليهِ حتى خَرَجَ جواباً لهمْ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ و٢١١] وإنْ لم يَذْكُرْ ذلكَ يَظْهَرْ ذلكَ في الجوابِ، إنْ كانَ منهُمْ قولٌ وطَعْنٌ، وإنْ لم يَذْكُرْ.

ثم أوعَدَهُمْ، وقالَ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. ويَحْتَمِلُ في الآخِرَةِ في مُنْقَلَبِ الظَّلَمَةِ، وهي النارُ، أي يَعْلَمونَ عِلْمَ عِيانٍ يومئذٍ، وإنْ لم يَعْلَموا ذلكَ في الدنيا عِلْمَ الاِسْتِدلالِ لِما تَرَكوا النَّظَرَ فيهِ، أو يَعْلَمونَ ذلكَ عِلْمَ عِيانٍ في الآخِرَةِ، وإنْ عَلِموا في الدنيا عِلْمَ اسْتِدْلالٍ، لكنَّهُم تَعانَدوا، وكابَروا، فلم يُؤمِنوا، واللهُ أعْلَمُ بالصوابِ.

---

(١) في الأصل وم: كانهم. (٢) من م، في الأصل: وهو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في م: وينتصرون.



سورة[1] النمل

وهي مكيةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿طسٓ﴾ قد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ تأويلَ الحروفِ المُعْجَمَةِ وأقاويلَ الناسِ فيها وكذلكَ الآياتِ [المذكورةَ على إثْرِها][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بَيِّنٌ واضحٌ لأنَّ أبانَ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ بانَ، يُقالُ: بانَ وأبانَ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي يُبَيِّنُ ما لِلّهِ عليهِمْ [وما لِبَعْضِهِمْ عليهِمْ][3] وما لهمْ، وما عليهِمْ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: دعاءٌ كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي داعٍ، يَدْعو الخَلْقَ إلى توحيدِ اللهِ تعالى.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ أي دعاءٌ يَدْعوهُمْ إلى توحيدِ اللهِ تعالى. فإنْ كانَ هذا فهو للناسِ كافَّةً.

والثاني: جائزٌ أنْ يُريدَ بالهُدَى الهُدَى الذي هو نَقيضُ الضَّلالِ وضِدُّهُ، فهو للمؤمنينَ خاصَّةً، وإنْ كانَ أرادَ بهِ البَيانَ والدعاءَ فهو لِلْكُلِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يَدْعوهُمْ إلى الإيمانِ باللهِ وبرسولِهِ. فإذا آمنوا بهِ كانَ لهمْ بُشْرَى.

الآية ٣ ثم نَعَتَ المؤمنينَ، وَوَصَفَهُمْ، فقالَ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يُقِرُّونَ بها، ويُؤمنونَ، لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ وبرسولِهِ، لكنهمْ أبَوُا الإيمانَ بالصلاةِ والزكاةِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]

لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُمْ بِحَبْسِهِمْ إلى أنْ تَمْضِيَ السنةُ، فَتَجِبَ الزكاةُ عليهِمْ، فَيُؤْتوا[4]. فحينئذٍ يُخَلُّونَ سَبيلَهُمْ، ولكنَّ الأمْرَ بِحَبْسِهِمْ إلى أنْ يُقِرُّوا بها، ويؤمِنوا، فَيُخَلُّونَ عندَ ذلكَ سبيلَهُمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٧]/ ٣٨٧ ـ ب/ لا يَقْبَلونها، ولا يُقِرُّونَها، ليسَ على فِعْلِ الإيتاءِ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، يَحْتَمِلُ هذا، والثاني، يَحْتَمِلُ الأمْرَيْنِ جميعاً: القبولَ والإقرارَ بها والإيتاءَ جميعاً، أي قَبِلوها، وأقَرُّوا بها، وأعْطَوها. فَحينئذٍ يَسْتَوجِبونَ هذهِ البِشارةَ التي ذُكِرَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقانُ بالشيءِ، هو العَمَلُ به مِنْ جِهَةِ الاسْتِدْلالِ والاجْتِهادِ والأسبابِ التي يُسْتَفادُ بها لِلْعِلْمِ بالأشياءِ، لا العِلْمُ الذاتيُّ. لذلكَ لا يُوصَفُ اللهُ على الإيقانِ بالشيءِ، ولا يُقالُ: يا موقِنُ لأنهُ عالمٌ بذاتِهِ لا بالأسبابِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأعْمالُ التي هُمْ فيها بما رُكِّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ

---

(١) من م، أدرج في الأصل قبلها: ذكر ان. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قد ذكرنا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فيؤتون.

والأمانِيّ. ويَحتَمِلُ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأعمالَ التي هي عليهِمْ، أي زَيَّنَ لهمُ الخيراتِ والطاعاتِ. لكنهمْ أبَوا أنْ يأتوا بها.

فالمُعتزِلَةُ قالوا بهذا التأويلِ، وأبَوا أنْ يقولوا بالأوَّلِ: أنْ يكونَ مِنَ اللهِ تَزْيينُ ما همْ فيهِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفرِ، إذْ أضافَ تَزيينَ ذلكَ إلى الشيطانِ حينَ[1] قالَ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] وقالَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الآياتِ، فقالوا: أضافَ إلى الشيطانِ، ولا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى اللهِ. ذلكَ بُغْيَتُهُ.

فَدَلَّ أنَّ اللهَ إنما زَيَّنَ أعمالَهُمُ التي عليهِمْ مِنَ الإيمانِ والخيراتِ لا الأعمالَ التي هُمْ فيها.

لكنْ عندَنا يجوزُ إضافةُ تَزيينِ أعمالِهِمُ التي هُمْ فيها إلى اللهِ مِنْ جِهَةِ ما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ والأمانِيّ التي تُوافِقُ طباعَهُمْ وأنفُسَهُمْ لأنَّ التَّزيينَ يَقَعُ بِنَفْسِ الكُفْرِ وأفعالِهِ؛ إذِ الكُفرِ نفسُهُ ليسَ بِمُزَيَّنٍ ولا مُسْتَحْسَنٍ. إنما هو شَتْمُ ربِّ العالَمينَ، ولكنَّ تَزْيينَهُ واسْتِحْسانَهُ، هو مُوافَقَةُ ما يُعْمَلُ مِنَ الأعمالِ طِباعَةً والجهةُ التي تضافُ إلى اللهِ، إذِ الجِهَةُ التي تُضافُ إلى الشيطانِ هي دعاؤُهُ وتَمْنِيَتُهُ إلى ما يُوافِقُ طباعَهُمْ. فَمِنْ هذهِ الجهةِ تجوزُ إضافَتُهُ إلى الشيطانِ.

والجِهَةُ التي تُضافُ إلى اللهِ هي ما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ الشَّهَواتِ والأمانِيّ، وجَعَلَ الطِّباعَ مُوافِقَةً[2] لها.

وإلّا الصِّدْقُ وجميعُ الخيرِ يأتي[3]؛ إنما يكونُ مُزَيَّناً مُسْتَحْسَناً في العقلِ لِلعاقِبَةِ. وجميعُ المَعاصي مُسْتَقْبَحٌ في العَقْلِ لِلعاقِبَةِ: إذا حُمِدَ أحَدُهُما، وأُثيبَ على فِعْلِهِ، ذُمَّ[4] الآخَرُ، وعُوقِبَ لِسوءِ اختيارِهِ.

ويَحْتَمِلُ[5] أنْ تكونَ إضافةُ ذلكَ إلى اللهِ لِما خَلَقَ أفعالَهُمْ وأعمالَهُمُ التي عَمِلوها، وأخْرَجَها مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ، وهي مِنْ هذهِ الجِهَةِ فِعْلُهُ. وهو يَرُدُّ قولَهُمْ في إبائِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العبادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيلَ: يَتَرَدَّدونَ. وأصلُ العَمَهِ الحَيرةُ، أي يَتَحيَّرونَ.

الآية ٥

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي لهمْ ما يَسوءُهُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ لِاختيارِهِمْ سوءَ الأفعالِ في الدنيا ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ الأخسَرونَ [والخاسرونَ][7] واحدٌ.

وجائزٌ أنْ يُقالَ: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ لِلقادةِ منهمْ والرُّؤساءِ لأنهمْ ضَلُّوا بانفسِهِمْ، وأضَلّوا غيرَهُمْ، هُمْ أخسَرُ مِنَ[8] الأتباعِ كقولِهِ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النحل: ٢٥].

الآية ٦

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: لَتُلَقَّى القرآنَ مِنَ اللهِ [والثاني][9] على يَدَي رسولِهِ، وهو جبريلُ، وهو حكيمٌ، يَضَعُ الوَحْيَ والقرآنَ حيثُ أُمِرَ بوضْعِهِ فيهِ؛ إذِ الحكيمُ، هو المُصيبُ في فِعْلِهِ، الواضِعُ الشيءَ موضِعَهُ، وعليمٌ بما أُمِرَ به، وأُرسِلَ. وهو كذلكَ كانَ؛ إذْ يجوزُ أنْ يُقالَ لِلمَخلوقِ: حكيمٌ عليمٌ. ألا تَرى إلى [قولِ يوسفَ][10]: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؟ [يوسف: ٥٥].

فَعَلَى ذلكَ هذا جائزٌ، والأوَّلُ أشْبَهُ، أي إنكَ لَتَأخُذُ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ على [يَدَي][11] رسولِهِ جبريلَ. فما يأخُذُ مِنْ رسولِهِ كأنهُ يأخذُهُ مِنْ عندِ مُرْسِلِهِ؛ إذِ الرسولُ إنما يُؤَدِّي كلامَ مُرْسِلِهِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُقالُ: تَلَقَّيْتُهُ أخَذْتُهُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ ﴿لَتُلَقَّى﴾ أي لَتَأخُذُهُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي لَتُؤتَى بالقرآنِ كقولِهِ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥] أي ما يُؤتاها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: موافقاً. (٣) في الأصل وم: بات. (٤) في الأصل وم: وذم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ومن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ قيلَ: رَأيتُ، وأبصرْتُ ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] هذا يدلُّ أنهُ كانَ ضَلَّ الطريقَ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ. وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

ذَكَرَ على التَّقديمِ والتأخيرِ على اختِلافِ الألفاظِ والحُروفِ، والقصةُ واحدةٌ، والمُمْتَحَنُ بذلكَ موسى لا غَيرُهُ. فهذا يدلُّ أنْ ليسَ على الناسِ تَكَلُّفُ حِفظِ الألفاظِ والحروفِ بلا تَقديمٍ ولا تأخيرٍ ولا تَغْييرٍ بَعْد أنْ أصابوا المَعْنَى المُودَعَ فيها؛ أعني في الألفاظِ، وحَفِظوها مِنْ غَيرِ تَغْييرٍ يَدخُلُ في المَعْنَى المُودَعِ؛ إذْ قصةُ موسى هذهِ وغَيرُها مِنْ قِصَصِ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، ذُكِرَتْ[1] في الكتابِ على التَّقديمِ والتأخيرِ على اختِلافِ الألفاظِ والحروفِ في كثيرٍ مِنَ الأحكامِ في الشَّهاداتِ والأخبارِ وغَيرِها، إنما عليهِمْ إصابةُ المَعْنَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشِّهابُ خَشَبَةٌ، في طَرَفِها نارٌ، والقَبَسُ النارُ، وشُهْبانُ[2] جميعٌ، ولا تُسَمّى النارُ قَبَساً إلّا ما يُحمَلُ مِنْ مَوضِعٍ إلى مَوضِعٍ؛ يُقالُ: قَبَسْتُ النار قَبَساً، واقْتَبَسْتُ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: القَبَسُ الجَمْرُ، والشِّهابُ النارُ المُوقَدَةُ، وهو قولُ أبي عُبَيدَةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي شُعْلَةٍ مِنْ نارٍ، والجَذْوَةُ كأنها خَشَبَةٌ فيها نارٌ، وهو مِثْلُ الأوَّلِ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ على أنَّ الوقتَ [وقتُ][3] البردِ وأيامِ الشتاءِ حينَ[4] ذَكَرَ الاصْطِلاءَ، وهو الاسْتِدْفاءُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اضطَرَبَتْ أقاويلُ أهلِ التأويلِ في هذا: صَرَفَ بعضُهُمْ[5] تأويلَهُ إلى ما لا يَزيدُهُ إلّا سَماجَةً وبُعْداً عنِ الحَقِّ والصوابِ وعَمًى. لكنْ لو جازَ أنْ يُعَبَّرَ، ويُكَنّى بِحَرْفِ: مَنْ عَنْ غَيرِ مُمَيِّزٍ وغَيرِ ذي فَهْمٍ وعَقْلٍ لَاسْتَقامَ التأويلُ فيهِ [ولم تَقَعْ فيهِ شُبْهَةٌ، وجُعِلَ][6] كأنهُ قالَ: أنْ بُورِكَ ما فيهِ مِنَ النارِ وما حولَها، ويكونَ عِبارَةً عنِ المكانِ الذي فيهِ النارُ وما حولَها مِنَ الأمكنةِ، أي بُورِكَ في ذلكَ المكانِ الذي فيهِ النارُ وما حولَها لأنهُ قالَ لهُ في آيةٍ [أُخرَى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] أي طَوَى فيهِ البَرَكاتِ، وقالَ في آيةٍ][7]: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] عنْ بَرَكَةِ ذلكَ المكانِ.

فَعَلَى ذلكَ لو جازَ أنْ يُعَبَّرَ بحرفِ: مَنْ عَنْ غَيرِ المُمَيِّزِ [وذي][8] الفَهْمِ، ويُكَنّى بهِ، جازَ صَرْفُ التأويلِ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ المكانِ، أو يُقالَ: بُورِكَ ما في النارِ مِنَ النورِ وما حولَ ذلكَ وما يُسْتَنارُ بهِ ويُسْتَضاءُ، وهو ما اسْتَفادَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ. هذا كلُّهُ إذا جازتِ العِبارةُ والكِنايَةُ بحرفِ مَنْ [عنْ][9] غَيرِ ذي التَّمْييزِ والفَهْمِ.

فإنْ جازَ هذا لَاسْتَقامَ أنْ يُقالَ هذا، أو أنْ يكونَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى ما ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ على طَرْحِ حَرْفِ: منْ وحَرْفِ: في؛ ذُكِرَ أنَّ في حَرْفِهِما: نُودِيَ أنْ بُورِكَتِ النارُ ومَنْ حولَها. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ أنْ يُقالَ: بُورِكَ في فلانٍ، وبورِكَ فلانٌ[10]، وبُورِكْتَ، وبُورِكَ فيكَ.

وكذلكَ ذُكِرَ عنِ الكِسائيِّ أنهُ قالَ ذلكَ.

فإنْ كانَ ما ذُكِرَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ ثابتاً[11] صحيحاً، لم تَقَعْ فيهِ شُبْهَةٌ ولا رَيْبٌ، أو إنْ لم تَجُزِ العبارةُ بِحَرْفِ: مَنْ عنْ غيرِ [ذي][12] التَّمْييزِ فجائزٌ أنْ يُصْرَفَ حَرْفُ: مَنْ إلى موسى، فيكونُ كأنهُ قالَ: بُورِكَ في الذي أتى النارَ، وهو موسى، أو بُورِكَ في مَنْ جُعِلَ لهُ اقْتِباسُ النارِ، فَيَنْصَرِفُ تأويلُ: مَنْ إلى موسى/٣٨٨ ـ أ/ وقد جُعِلَ لهُ مِنَ البَرَكَةِ في تلكَ النارِ ما لا يُحْصَى مِنِ اسْتِفادَةِ النُّبُوَّةِ والإرشادِ إلى الطريقِ والاصْطِلاءِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: بعضه. (٦) في الأصل: ويجعل، في م: ولم تقع فيه شبه ويجعل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فلانا. (١١) في الأصل وم: ثانيا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذَكَرَ هذا تَنْزِيهاً عنْ جميعِ ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ تَبْرِئَةً منهُ عنْ ذلكَ كلِّهِ مِنْ نَحْوِ مُقاتِلٍ ومَنْ قالَ بِمِثْلِ قولِهِ مِمّا يُؤَدِّي إلى التَّشْبِيهِ والشُّبَهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أيِ الذي أعطاكَ ذلكَ ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أو يقولُ: إنَّ الذي جَعَلَ لكَ ذلكَ ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أو يقولُ: إنهُ الذي جَعَلَ لكَ ذلكَ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العَزيزُ: الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، الحَكيمُ: المُصيبُ في فِعْلِهِ، غَيرُ المُخْطِئِ[1]، أو يقولُ: العزيزُ [الذي][2] لا يَذِلُّ أبداً قَطُّ لأنهُ عَزيزٌ بذاتِهِ، الحكيمُ [الذي][3] يَضَعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، لا يُخطِئُ.

قالَ أبو معاذٍ: قال مُقاتِلُ بْنُ سُليمانَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يقولُ: إنَّ النورَ الذي رَأيتَ ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾. وهذا مُحالٌ لأوجُهٍ:

أحَدُها[4]: لأنكَ لا تقولُ: إنَّ الذي رأيتُ أنا الإنسانُ، رآهُ، أو لِشَيءٍ آخَرَ، ولكنْ تقولُ: أنا الذي رَأيتَ.

[والثاني][5]: مُحالٌ أيضاً قولُهُ لِما ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: نُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لا تَخَفْ [﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾][6] يُكَلِّمُهُ اللهُ، ويُخاطِبُهُ، ثم يقولُ: إنَّ النورَ الذي رأيتَ أنا.

[والثالثُ][7]: مُحالٌ أيضاً لِقولِ اللهِ ﴿ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ قالَ اللهُ: [﴿مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وقالَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾][8] ولم يَقُلْ: [منهُ بِخَبَرٍ . . . جاءَهُ][9].

[والرابعُ][10]: مُحالٌ أيضاً أنْ يكونَ ﴿ٱللَّهُ﴾ نَعْتاً لأنكَ لا تقولُ: [إنَّ الذي][11] رأيتُ أنا أخوكَ.

فقالَ[12]: قولُ مُقاتِلٍ مُحالٌ مِنْ أربعةِ أوجهٍ [خِلافاً لِظاهِرِ][13] الآيةِ.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ في الآيةِ الأمْرُ بإلقاءِ العَصا، ولم يَذْكُرْ أنهُ ألقاها، ولكنْ فيهِ إضمارٌ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ: أنَّ الجانَّ هي الحَيَّةُ الصغيرةُ، ليسَتْ بعظيمةٍ. لكنهُ أخبَرَ أنَّ موسى خافَها، وَوَلَّى مُدْبِراً.

وموسى لا يُحْتَمَلُ أنْ يَخافَ مِنْ حَيَّةٍ صغيرةٍ على الوصفِ الذي ذُكِرَ؛ فكأنها كانتْ عظيمةً، لكنها في تحرُّكِها والتِوائِها، كأنها صغيرةٌ، إذِ الحَيَّةُ العظيمةُ الكبيرةُ، لا تَقْدِرُ على التَّحَرُّكِ والإلْتِواءِ كالصغيرةِ. لِذلكَ خافَها موسى حتى نَهاهُ اللهُ عنْ ذلكَ، وقالَ: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لم يَرْجِعْ، وقالَ بعضُهُمْ: لم يَلْتَفِتْ، وهو مأخوذٌ مِنَ العَقِبِ.

والجانُّ: قالَ بعضُهُمْ: مِنَ الجِنِّ، والجانُّ الحَيَّةُ، ولا يكونُ إلّا مِنَ الجِنِّ [وهو قولُ][14] أبي عُبَيْدَةَ [أيضاً][15].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ نَهاهُ عنِ الخوفِ؟ وأخبَرَ أنهُ لا يخافُ لديهِ المُرْسَلونَ، وقد مَدَحَ اللهُ الملائكةَ وغيرَهُمْ مِنَ الخَلائِقِ بالخوفِ مِنْ ربِّهِمْ حينَ[16] قالَ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] [وقالَ في آيةٍ أُخرَى][17] ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وأمثالَ ذلكَ مِنَ الآياتِ ممّا فيها مَدْحُهُمْ بالخَوفِ مِنْ ربِّهِمْ. لكنه يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ قد أمَّنَ موسى حينَ[18] قالَ: ﴿وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]. فكأنهُ قالَ ههنا: لا تَخَفْ بَعْدَما أمَّنْتُكَ ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذ أمَّنْتُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: مخطئ. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: له. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فلما أتاه. (٩) في الأصل وم: أتاه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: بأن الله. (١٢) الضمير يعود على أبي معاذ. (١٣) في الخلاف الظاهر، في م: خلاف لظاهر. (١٤) في الأصل وم: وقول. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) في الأصل وم: و. (١٨) في الأصل وم: حيث.

والثاني: لا تَخَفْ مِنْ غَيري ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْ غَيري. فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ: على هذا التأويلِ: إنما نَهاهُ عنِ الخَوفِ مِنْ غَيرِهِ، وأخبَرَ أنهُ لا يَخافُ لَدَيهِ المُرسَلونَ.

والثالثُ: إخبارٌ وأمْنٌ منهُ مِنْ خَوفِ الآخِرَةِ وأهوالِها، كأنهُ قالَ: لا تَخَفْ فإني سأُؤَمِّنُ المُرسَلينَ مِنْ خوفِ يومئذٍ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: فقالَ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ هذا [أيضاً][1] يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ إذا بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ[2] سُوءٍ.

والثاني: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولكنْ مَنْ ظَلَمَ مِمَّنْ سِواهُمْ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. رَجاءَ المَغفِرَةِ وطَمَعَ العَفْوِ في ما كانَ منهُ.

والثالثُ: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ منهمْ مِنْ نَحوِ موسى بِقَتْلِهِ النَّفْسَ وإخوةُ يوسفَ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ وتابَ عنْ ذلكَ، فإنهُ يَخافُ أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فاللهُ تعالى قادرٌ أنْ يَجعَلَ يَدَهُ بيضاءَ مِنْ غَيرِ إدخالِهِ إيّاها في جَيبِهِ، لكنهُ امْتَحَنَ موسى بالأمرِ بإدخالِها في جَيبِهِ، وكذلكَ قادرٌ أنْ يُصَيِّرَ عَصاهُ في يَدِهِ حَيَّةً، لكنهُ امْتَحَنَهُ[3] بالأمرِ بإلقائِها. ولِلّهِ أنْ يَمْتَحِنَ عِبادَهُ بكلِّ أنواعِ المِحَنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قيلَ: مِنْ غَيرِ آفةٍ مِنْ بَرَصٍ أو غَيرِهِ. وقد ذَكَرْنا مَعناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: [يدُ موسى مِنْ][4] تِسعِ آياتٍ، وقد يَجوزُ اسْتِعْمالُ حَرْفِ في مَكانَ [مِنْ][5] كما يُقالُ: لِفُلانٍ كذا كذا نوقاً، فيها فَحْلانِ، أي منها فَحْلانِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ قالَ أبو مُعاذٍ: قد يكونُ مَعْنَى: في و مَعَ واحداً في ما لا يُحصَى عَدَدُهُ؛ تقولُ: خَرَجْتُ في أهلِ مَرْوَ إلى أهلِ مكةَ، ومَعَ أهلِ مَرْوَ إلى أهلِ مكةَ. فإذا قُلْتَ: خَرَجْتُ في تِسعَةٍ اخْتَلَفَ لأنكَ أحْصَيْتَ العَدَّ في تِسعَةٍ، أنتَ تاسِعُهُمْ، ومَعَ تِسعَةٍ، أنتَ عاشِرُهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على الاِنقِطاعِ مِنَ الأوَّلِ؛ كأنهُ قالَ لِرسولِهِ محمدٍ: ولقد [أرسَلْنا][6] موسى في تِسعِ آياتٍ إلى فِرعَونَ كما قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ دلَّ هذا أنهُ كانَ مَبعوثاً إلى فِرعَونَ وقومِهِ جميعاً؛ إذْ ذُكِرَ في آيةٍ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤ و...] خاصَّةً، وفي آيةٍ أُخرَى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: ١٠٣ و...] وذُكِرَ ههنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ فكانَ مَبعوثاً إلى الكلِّ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي يُبْصَرُ بها، ويُعْلَمُ، كقولِهِ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ١٧] أي يُبْصَرُ بِهِ. وقَرَأَ بَعضُهُمْ: مُبْصَرَةً بِنَصْبِ[7] الصادِ أي بَيِّنَةً ظاهِرةً، يُبْصَرُ فيها. وكذلكَ قالَ موسى لِفِرْعَونَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لم تَزَلْ عادةُ فِرعَونَ اللَّعينِ تَلْبِيسَ أمْرِ موسى وآياتِهِ على قومِهِ لئلا يُؤمِنوا بهِ، ولا يُطيعوهُ في ما يَدعوهُمْ؛ مَرَّةً قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] [ومَرَّةً قالَ][9]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٤ و٣٥] وأمثالُ ذلكَ ممّا يُلَبِّسُ على قومِهِ أمْرَهُ، ويُغْرِيهِمْ عليهِ لئلا يُطيعوهُ في ما يَدْعوهُمْ إليهِ، ولا يُجيبوهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ وجائزٌ في اللغةِ أنْ يقالَ: جَحَدَ بها، وجَحَدَها، كلاهما واحدٌ. ثم قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الجُحودَ ليسَ إلّا الإنكارُ، وقد يكونُ الإنكارُ للشيءِ لِلْجَهْلِ بهِ وبُعْدِ المَعْرِفَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بعده. (٣) في الأصل وم: امتحن. (٤) في الأصل وم: موسى في. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٣٣٩. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، كأنهُ قالَ: فلما جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً جَحَدوا بها ظُلماً وعُلُوًّا، واسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهُمْ أنها مِنَ اللهِ وأنها آياتُهُ، ليسَتْ بِسِحْرٍ. ولو كانَ سِحراً في الحَقيقةِ لكانَ آيةً لأنَّ السِّحْرَ على غَيرِ تَعَلُّمٍ يكونُ منهُ آيةٌ سماويَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ظُلْمًا﴾ لأنهمْ جَحَدوا الآياتِ، وسَمَّوها[1] سِحراً، فَوَضعوا الآياتِ مَوضِعَ السِّحْرِ، لم يَضَعوها مَوضِعَها، والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي تكبُّراً وعِناداً ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ليسَ على الأمرِ لهُ بالنَّظَرِ في ذلكَ، ولكنْ على تَنْبيهِ أولئكَ والزَّجْرِ لهمْ عمّا همْ فيهِ، أيِ انْظُرْ ما يُنْزِلُ بِهِمْ جُحودُ[2] الآياتِ وعنادُهُمْ/ ٣٨٨ ـ ب/ فيها على ما نَزَلَ بأوائِلِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيهِ وَجْهانِ مِنَ الاسْتِدْلالِ:

أحَدُهما في خَلْقِ أفعالِ العِبادِ.

والثاني: في تَرْكِ الأصْلَحِ.

أمّا الاستِدْلالُ على خَلْقِ الأفعالِ فَلِأنهُ[3] قالَ: ﴿آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ وقالَ على إثْرِهِ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وقالَ في رسولِ اللهِ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] وقالَ: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] ونَحْوَهُ مِنَ الآياتِ في ما أضافَ التَّعْليمَ والفِعْلَ إلى نفسِهِ. فلو لم يَكُنْ لهُ في ذلكَ صُنْعٌ لم يَكُنْ لإضافَةِ ذلكَ إليهِ مَعْنًى. فَدَلَّ أنهُ خَلَقَ أفعالَهُمْ منهمْ.

فإنْ قيلَ: إنما أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ بالأسبابِ التي أعطاهُمْ قيلَ: لا يَحْتَمِلُ ذلكَ لأنهُ قد أعْطَى رسولَ اللهِ ﷺ جميعَ أسبابِ الشِّعْرِ، ولم يَكُنْ غَيرُهُ مِنَ الشُّعَراءِ أحَقَّ بأسبابِ الشِّعْرِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ثم أخبَرَ أنهُ لم يُرِدْ بهِ الأسبابَ، ولكنْ أرادَ ما ذَكَرْنا.

وأمّا في تَرْكِ الأصْلَحِ فهو ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ . . . ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إنهُ إنما ذَكَرَ هذا على الامْتِنانِ والإفضالِ. فلو كانَ لا يجوزُ أنْ يُعْطِيَهُ ذلكَ، ولا كانَ لهُ تَرْكُ ما فَعَلَ بهمْ مِنَ الأفضالِ لم يكُنْ لِذِكْرِ ذلكَ لهُ على الإفضالِ والامْتِنانِ مَعْنًى، ولا كانَ داوُودُ وسُلَيمانُ يَحْمَدانِ على ما أعطاهُما، ولا كانَ لهُ تَرْكُ الحَمْدِ بذلكَ أو فِعْلِ ما عليهِ أنْ يَفْعَلَ.

دَلَّ أنهُ إنما أعْطَى ذلكَ، وفَعَلَ بهمْ ذلكَ على جِهَةِ الإفضالِ والامْتِنانِ، وكانَ لهُ تَرْكُ ما فَعَلَ، وإنْ كانَ ذلكَ لهمْ أصْلَحَ في الدينِ.

فهذانِ الوَجْهانِ يَنْقُضانِ على المُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ في إنكارِهِمْ خَلْقَ الأفعالِ وجوازِ تَرْكِ الأصْلَحِ في الدينِ. ثم قولُهُ: ﴿عِلْمًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: عِلْماً بالقَضاءِ والحُكْمِ، والعِلْمَ بكلامِ الطَّيْرِ والدَّوابِّ. وقالَ بعضُهُمْ: فَضْلاً بالنُّبُوَّةِ والعِلْمِ.

لكنْ عندَنا ذَكَرَ أنهُ آتاهُما العِلْمَ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ العِلْمُ أنهُ عِلْمُ ماذا؟ مَخافَةَ الكَذِبِ على اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: وَرِثَ النُّبُوَّةَ والحُكْمَ، والوارِثُ هو الباقي بَعْدَ هَلاكِ الآخَرِ وفَنائِهِ كقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقَى بَعْدَ هَلاكِ أهلِها وفَنائِهِمْ وقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣] أي الباقونَ بَعْدَ فَنائِهِمْ.

إلّا أنهُ وَرِثَ شيئاً، لم يكُنْ لهُ مِنْ قَبْلُ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٢٧] أي

(١) في الأصل وم: وسموا. (٢) في الأصل وم: الجحود. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أبقاكُمْ، وتَرَكَكُمْ في أرضِهِمْ ودِيارِهِمْ، وقولُهُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] أي أُبقيتُم فيها. وأمثالُ ذلكَ كلِّهِ راجعٌ إلى البَقاءِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي بَقِيَ في مُلْكِهِ ونُبُوَّتِهِ. وعلى ذلكَ ما سَأَلَ زَكَرِيّا ربَّهُ مِنَ الوَلَدِ حينَ[1] قالَ: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ و٦]. لا يَحْتَمِلُ أنْ يَسْأَلَ ربَّهُ وَلَداً، يَرِثُ مالَهُ مِنْ بَعْدِ وَفاتِهِ. ولكنْ كأنهُ سَأَلَ ربَّهُ الوَلَدَ لِيَبْقَى في نُبُوَّتِهِ ورِسالَتِهِ بَعْدَ وَفاتِهِ لِتَبْقَى النُّبُوَّةُ في نَسْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَذْكُرَ هذا، صلواتُ اللهِ عليهِ، على الإفتِخارِ والتَّياهَةِ، ولكنْ ذَكَرَ فَضْلَ اللهِ ونِعَمَهُ التي أعطاهُ، ومَنَّ عليهِ، كقولِهِ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾؟

ثم قولُهُ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يَحْتَمِلُ كلَّ شَيءٍ [لأنهمْ لم يُؤتَوا كلَّ شيءٍ][2] حتى لم يَبْقَ شيءٌ، إنما أُوتوا شيئاً دونَ شيءٍ، ولكنْ كأنهُ قالَ: وأُوتِينا مِنْ كلِّ شيءٍ سَأَلْناهُ أنْ يُؤتِيَنا، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا يُؤتَى الأنبياءُ والمُلوكُ وما يُحتاجُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسُ أوَّلُهُمْ على آخِرِهِمْ: كأنهُ لا يَدَعُهُمْ أنْ يَنْتَشِروا، ويَتَفَرَّقوا، ولكنْ يُسَيِّرُهُمْ مَجموعينَ على كلِّ صِنْفٍ منهمْ وَزَعَةٌ، تَرُدُّ أوَّلَهُمْ على آخِرِهِمْ؛ ذلكَ مِنْ سِيرَةِ المُلوكِ أو أُمراءِ العَساكِرِ أنْ يُسَيِّروا جُنودَهُمْ مَجموعةً غيرَ مُنْتَشِرَةٍ ولا مُتَفَرِّقَةٍ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُساقونَ. ويُقالُ: أوزِعْني أي أَلْهِمْني، والوَزْعُ مِنَ الكَفِّ والسَّوقِ. تقول: وَزَعَ أي كَفَّ، وَوَزَعَ أي ساقَ.

وقالَ مَرَّةً [أُخرى][3]: ﴿يُوزَعُونَ﴾ مُجمَعونَ[4]. يُقالُ: وَزَعْتُ الإبلَ، أي جَمَعْتُهُ أزَعُ وَزْعاً.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُدْفَعونَ. وأصلُ الوَزْعِ الكَفُّ والمَنْعُ. يُقالُ: وَزَعْتُ الرجلَ، أي كَفَفْتُهُ، ووازِعُ الجيشِ، هو الذي يَكُفُّهُمْ عنِ التَّفَرُّقِ والانْتِشارِ، وهو الذي ذَكَرَ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ هذا يدلُّ أنَّ النَّمْلَ، وقتَئِذٍ لا تُخالِطُ الناسَ حينَ[5] أضافَ [الوادي][6] إليها بقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ ولو كانتْ تُخالِطُ الناسَ كَهِيَ الآنَ لَقالَ: حتى إذا أتَوا على الوادي الذي فيهِ النَّمْلُ. دلَّ أنها لا تُخالِطُ الناسَ، وكانَ لَهُنَّ مَكانٌ على حِدَةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ على وجهَينِ:

[أحدُهما][7]: على حَقيقةِ القولِ مِنَ النَّمْلَةِ كما يكونُ مِنَ البَشَرِ؛ أَطْلَعَ اللهُ تعالى سُليمانَ [على][8] ذلكَ، وألقاهُ في مَسامِعِهِ لُطفاً منهُ وفَضلاً مِنْ سائرِ الخلائقِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤].

والثاني: أنْ يَجْعَلَ اللهُ في سِرِّيَّةِ النَّمْلِ مَعْنًى يَفْهَمُ بَعضُها مِنْ بَعْضٍ لِما يُريدونَ في ما بَيْنَهُمْ مِنْ أنواعِ الحَوائِجِ على غَيرِ حَقيقةِ القولِ؛ أَطْلَعَ اللهُ سُليمانَ على ذلكَ حتى فَهِمَ منها ما كانَ يَفْهَمُ بَعضُها مِنْ بَعضٍ لُطفاً منهُ وفَضلاً. وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] ليسَ أحَدٌ يقولُ لآخَرَ إذا تَصَدَّقَ عليهِ ذلكَ. لكنَّ اللهَ أخبَرَ عمّا عَلِمَ مِنْ ضَميرِهِمْ ومُرادِهِمْ مِنَ التَّصَدُّقِ على غَيرِ حَقيقَةِ القولِ منهمْ.

فَعَلَى ذلكَ قَولُ النَّمْلةِ؛ أَخبَرَ عمّا كانَ في سِرِّيَّتِها في ما بَيْنَهُمْ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ منها نُطْقٌ أو كلامٌ يَفْهَمُ منهُ الخَلْقُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم، والضمير على أبي عوسجة. (٤) في الأصل وم: مجتمعون. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقالتِ الباطِنِيَّةُ: ليسَ المُرادُ مِنَ [الذِّكرِ النملةَ][١] المَعروفَةَ وقولَها، وكذلكَ مِنَ [الذِّكرِ][٢] الهُدْهُدَ، إنهُ لم يُرِدْ بهِ الهُدْهُدَ المَعروفَ[٣]؛ إذْ لا يجوزُ لِلْهُدْهُدِ مِنَ العِلْمِ أكثرُ ممّا يكونُ لِسُلَيمانَ ولِغَيرِهِ، ولكنْ أرادَ بهِ الرجلَ، وهو الإمامُ الذي يَدْعو الناسَ إلى الهُدَى، ويَدُلُّهُمْ على الرُّشْدِ. وليسَ كما قالوا لأنهُ إنما ذُكِرَ هذا على التَّعَجُّبِ.

ولو كانَ ذلكَ إنساناً مِمَّنْ يكونُ لهُ قولٌ وكلامٌ لم يَكُنْ لِذِكْرِ[٤] ذلكَ منهُ كبيرُ تَعَجُّبٍ ولا فائدةٍ. دلَّ أنهُ ليسَ كما قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي لا يَكْسِرَنَّكُمْ، والحَطْمُ هو الكَسْرُ. وفي حرف ابْنِ مَسْعودٍ: لا يَحْطِمُكُمْ على طَرْحِ النونِ والتَّشْديدِ[٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا مِنَ النَّمْلَةِ ثَناءٌ على سليمانَ ومَدْحٌ [لهُ لِعَدْلِهِ][٦] في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ. إنهُ لو شَعَرَ بكُمْ لم يَحْطِمْكُمْ، ولم يُهْلِكْكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يَشْعُرُ جنودُهُ كلامَ النَّمْلِ. وعلى كلِّ رئيسٍ وسَيِّدِ القومِ أنْ يَحْفَظَ رَعِيَّتَهُ وحَواشِيَهُ [مِنَ المهالِكِ][٧] أو ما يَحْمِلُهُمْ على الفَسادِ.

وقولُ مَنْ قالَ: إنَّ النَّمْلَ يومَئذٍ كانَتْ كالذُّبابِ عظيماً، لا يُحْتَمَلُ؛ لأنها لو كانَتْ كما ذُكِرَ/ ٣٨٩ ـ أ/ لم يَكُنْ لقولِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مَعْنًى لأنها لو كانَتْ كالذبابِ لَشَعَروا بها. فَدَلَّ أنها كانَتْ على ما هي اليومَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أي سَبَّحَ اللهَ لِما فَهِمَ مِنْ قَولِ النَّمْلَةِ، وحَمِدَ عليهِ. وتَبَسُّمُ الأنبياءِ التَّسْبيحُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ التَّبَسُّمُ هو السُّرورَ؛ إذِ التَّبَسُّمُ إنما يكونُ لِسُرورٍ يدخُلُ في الإنسانِ. فقولُهُ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أي سُرَّ بما أعطاهُ اللهُ مِنْ عِظَمِ النِّعْمَةِ لهُ والمُلْكِ.

ألا تَرَى أنهُ سَأَلَ ربَّهُ الإلهامَ [لِيَشْكُرَ نِعْمَهُ التي آتاهُ اللهُ حينَ][٨] قالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؟ سَأَلَ ربَّهُ الإلهامَ واللُّطْفَ الذي يكونُ فيهِ لِيَشْكُرَ نِعَمَهُ. ولو كانَ الإلهامُ][٩] هو الإعلامَ على ما قالَهُ بعضُ الناسِ لم يَكُنْ سليمانُ لِيَسْأَلَهُ ذلكَ لأنهُ كانَ يَعْلَمُ أنَّ عليهِ شُكْرَ نِعَمِهِ.

وكذلكَ يَعْلَمُ كلُّ أحدٍ أنَّ عليهِ شُكْرَ مُنْعِمِهِ. فَدَلَّ سؤالُهُ الإلهامَ على الشُّكْرِ أنهُ إنما سَأَلَ اللُّطْفَ الذي عندَهُ، بهِ يَشْكُرُ نِعَمَهُ، إذا أعطاهُ، وهو التَّوفيقُ، لا الإعلامُ[١٠] الذي قالوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فيهِ أنهُ يَجِبُ على المَرْءِ شُكْرُ النِّعَمِ التي أنْعَمَ اللهُ على والِدَيهِ. وسَأَلَ ربَّهُ أيضاً أنْ يُوَفِّقَهُ على العَمَلِ الذي يَرْضاهُ منهُ [حينَ قالَ][١١] ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ سُؤالُهُ هذا بإدخالِهِ في ما ذَكَرَ كسؤالِ يوسفَ حينَ[١٢] قالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] سألَ ربَّهُ التَّوَفِّيَ على الإسلامِ والإلحاقَ بالصالحينَ.

فَعَلَى ذلكَ سؤالُ سُليمانَ، يُشْبِهُ أنْ يُخَرَّجَ على ذلكَ. ثم فيهِ دلالةٌ أنَّ النَّجاةَ ودخولَ الجنةِ إنما يكونُ بِرَحْمَةِ اللهِ لا بالعَمَلِ حينَ[١٣] قالَ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ بَعْدَ ما سَأَلَ ربَّهُ العَمَلَ الصالِحَ المَرْضِيَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي ألْهِمْني. والإيزاعُ الإلهامُ، والوَزْعُ الكَفُّ والسَّوقُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: وأصلُ الإيزاعِ الإغراءُ بالشيءِ؛ يُقالُ: أوزَعْتُهُ بكذا، أي أغْرَيْتُهُ، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا.

---

(١) في الأصل وم: ذكر النمل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: قوله. (٤) من م، في الأصل: قوله. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ٤/ ٣٤١. (٦) في الأصل وم: عليه العدل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إعلام. (١١) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، [أنهُ][1] قالَ: تدرونَ كيفَ تفقَّدَ سُليمانُ الهُدْهُدَ؟ ثم قالَ: إنهُ إذا كانَ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ دعا الهُدْهُدَ، فَسَأَلَهُ عنْ بُعْدِ الماءِ في الأرضِ وغَورِهِ، فهو يَعْلَمُهُ مِنْ بينِ غيرِهِ مِنَ الطيورِ. لِذلكَ تفقَّدَهُ، وسألهُ عَنْ حالِهِ. وذُكِرَ أنهُ سألَ ابنَ سَلامٍ عنْ ذلكَ، فأخبرَ بذلكَ.

لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنَّ سُليمانَ، صلواتُ اللهِ عليهِ، كانَتْ لهُ الريحُ مُسخَّرةً، وذُكِرَ أنها كانتْ تحمِلُهُ، وتَسيرُ بهِ كلَّ غداةٍ مَسيرةَ شَهرٍ وكلَّ عَشيَّةٍ كذلكَ. وهو قولُهُ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] فلا يُحتَمَلُ إذا وَقَعَتْ لهُ الحاجةُ إلى الماءِ ألّا يَبْلُغَ إلى الماءِ حتى يَحتاجَ إلى أنْ يُحفَرَ له اليَسيرُ، فَيُستَخرَجُ منهُ الماءُ، وما كانَ لهُ مِنَ الشياطينِ والجِنِّ مُسخَّرينَ لهُ مُذلَّلينَ حتى قالَ واحدٌ منهمْ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ [النمل: ٣٩] يَعني عَرْشَ بِلقيسَ ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ وقالَ الآخَرُ: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

فَمَنْ لهُ سلطانٌ وقوةٌ على القَدْرِ الذي ذُكِرَ لا يُحتَمَلُ أنْ تقَعَ لهُ الحاجةُ إلى الماءِ. وإذا وَقَعَتْ يَحتاجُ إلى أنْ يَتكلَّفَ وصولَهُ إليهِ بالهُدْهُدِ مع تكلُّفِ الحَفرِ في الأرضِ. هذا يُبْعِدُ عِزَّهُ، واللهُ أعلمُ. إلّا أنْ يُخرَّجَ على الامْتِحانِ ويكونَ تَفَقُّدُهُ الطيرَ لِما كانَ عليهِ حِفظُهُمْ جميعاً ومَنْعُهُ إياهُمْ عنِ الانْتِشارِ في الأرضِ والتَّفرُّقِ لا لِما ذَكَروا هُمْ، واللهُ أعلَمُ، لِما على كلِّ مَلِكٍ وأميرٍ حِفظُ رَعِيَّتِهِ وحاشِيَتِهِ والتَّفقُّدِ عنْ أحوالِهِمْ وأسبابِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم يُحتَمَلُ أنْ يكونَ مِنْ كلِّ صِنفٍ مِنَ الطيرِ واحدٌ لا عَدَدٌ حتى قالَ: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ إذْ لو كانَ عَدَداً مِنَ الهَداهِدِ لَقالَ: مالي لا أرى الهَداهِدَ إلّا أنْ يكونَ الذي فَقَدَهُ كانَ رئيساً لِغيرِهِ مِنَ الهداهِدِ وسَيِّدَهُمْ.

فجائزٌ أنْ يُقالَ ذلكَ ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ مِنْ بينِ غيرِهِ[2]، يَغيبُ عنْ بَصَري، ولا أُدرِكُهُ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ منهمْ. فكأنهُ سألَ واحداً منهمْ عنْ ذلكَ، فأخبرَ أنهُ مِنَ الغائبينَ.

الآية ٢١ فَعِنْدَ ذلكَ قالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الآيةَ.

فقالَتِ الباطِنيَّةُ في ذلكَ: إنَّ سليمانَ لا يُحتَمَلُ أنْ يُعذِّبَ مَنْ ليسَ بِمُخاطَبٍ في شيءٍ، ولا يُجري عليهِ القَلَمَ، فَدَلَّ وَعيدُهُ إيّاهُ مِنَ التَّعذيبِ والذَّبحِ أنهُ لم يَكُنْ هُدْهُداً مَعروفاً، ولكنْ كانَ رجلاً مِمَّنْ يُخاطَبُ، ويَجري عليهِ القَلَمُ. وكذلكَ قالوا في النَّملَةِ: إنهُ كانَ رجلاً مِمَّنْ يكونُ منهُ الكلامُ والفَهمُ. وأمّا النَّملَةُ المَعروفَةُ فلا يُحتَمَلُ. لكنَّ الجوابَ لهمْ في ذلكَ أنَّ اللهَ خَلَقَ هذهِ الدوابَّ والطَّيرَ وغيرَها مِنَ الأشياءِ لِمَنافِعِ البَشَرِ ولِحاجاتِهِمْ. فجائزٌ تَعذيبُها وذَبحُها لِلرَّدِّ إلى مَنافِعِهِمْ إذا امْتَنَعَتْ عنِ الانتِفاعِ بها على ما تُؤدَّبُ الدَّوابُّ، وتُعذَّبُ لِلرِّياضَةِ والتَّعليمِ لِرَدِّها إلى الانتفاعِ بها. أو أنْ يُعذِّبَ لِما [يَشغَلُ أحداً][3] عنْ ذِكرِ اللهِ القِيامُ[4] بِبَعضِ أمورِهِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[5] قالَ: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣١ و٣٢] لِما شَغَلَهُ عنْ ذِكرِ ربِّهِ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ تعذيبُ الهُدْهُدِ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

ومِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذا على مُخاطبةِ الطُّيورِ والدَّوابِّ وغيرِها وتكليفِها بالأمورِ كما يُكلَّفُ غيرُها مِنَ الخلائقِ، واحتَجَّ على هذا بقولِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]. أخبرَ أنَّ الطَّيرَ وغيرَهُ أمَمٌ أمثالُنا. وأخبرَ في آيةٍ أخرى لم تَخلُ أمَّةٌ عنْ أنْ يكونَ فيها نذيرٌ بقولِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[ولكنّا نقولُ: إنَّ المُرادَ بقولِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾][6] الأمَّةُ التي هي أمثالُنا مِنَ الإنسِ والجِنِّ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقولُهُ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٧٩] ونَحوُهُ كثيرٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: غيرهم. (٣) في الأصل وم: يشغله. (٤) في الأصل وم: والقيام. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ ليسَ في الخطابِ ولكنْ في أشياءَ كثيرةٍ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي لم يَمْكُثْ طويلاً حتى جاءَهُ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ثم جاءَهُ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ كأنهُ سألَ: أينَ كُنْتَ؟ فقالَ عندَ ذلكَ لهُ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أنتَ ولا واحدٌ مِنْ جُنودِكَ، أي بَلَغْتُ ما لم تَبْلُغْ أنتَ، أي[1] عَلِمْتُ ما لم تَعْلَمْ أنتَ ولا واحدٌ مِنْ جنودِكَ.

ثم قالَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ لاشَكَّ فيهِ.

فكأنهُ سألَهُ عنْ ذلكَ النَّبَإِ، فقالَ عندَ ذلكَ:

الآية ٢٣

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُؤْتى المُلوكُ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] ثم العَجَبُ مِنْ أمرِ بِلْقيسَ أنْ كيفَ خَفِيَ خَبَرُها وأمْرُها على سليمانَ كلَّ ذلكَ الخَفاءِ، وكانَتْ بِقُرْبٍ منهُ؟ وكانَتْ ملكةً جَبّارَةً ذاتَ سُلْطانٍ ومُلْكٍ. وكانَ يَذْهَبُ في كلِّ غُدُوٍّ مَسيرَةَ شَهْرٍ وفي كلِّ رَواحٍ كذلكَ.

كيفَ لم يَطَّلِعْ على أمْرِها وخَبَرِها؟ وكانَتِ الجِنُّ والشياطينُ مُسَخَّرينَ لهُ ومُذَلَّلينَ يَعْمَلونَ لهُ الأعمالَ الصَّعْبَةَ الشَّديدةَ، ويَطوفونَ في الآفاقِ والأُفُقِ. وكانَ هو بُعِثَ إلى الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ. كيفَ خَفِيَ عليهِ أمْرُها وخَبَرُها كلَّ هذا الخَفاءِ حتى أخْبَرَهُ بذلكَ الهُدْهُدُ؟

هذا، واللهِ، أمْرٌ عَجَبٌ! ومِنْ عادةِ الملوكِ أيضاً أنهمْ يَطَّلِعُ بعضُهُمْ على أمورِ بَعْضٍ، ويَعْلَمُ بأحوالِهِ.

لكنْ يُحْتَمَلُ خفاءُ خَبَرِها لِما لا يَتَجاسَرُ كلُّ أحدٍ أنْ يُكَلِّمَهُ في ذلكَ وأنْ يُعْلِمَهُ عنْ حالِها، وإنْ كانَ لا يَعْلَمُ هو ذلكَ إلّا بَعْدَ السؤالِ وطَلَبِ الخَبَرِ تعظيماً لهُ وإجلالاً. وهكذا الملوكُ ليسَ يَتَجاسَرُ كلُّ أحَدٍ على أنْ يُخْبِرَهُمْ[2] /٣٨٩ ـ ب/ عنْ كلِّ أمْرٍ وخَبَرٍ إلّا بَعْدَ السُّؤالِ إيّاهُ تعظيماً لهمْ وتَوقيراً.

فَعَلى ذلكَ أمْرُ سُليمانَ معَ بِلْقيسَ، أو أنْ يكونَ لأمْرٍ وسَبَبٍ لم يَبْلُغْنا ذلكَ، ولم نَشْعُرْ بهِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] إنما طَلَبَ، وتَفَقَّدَهُ لأنَّ الطَّيرَ قد تُظِلُّهُ على رأسِهِ مِنَ الشمسِ. فلمّا نَظَرَ إلى الطَّيرِ وَجَدَ مَوضِعَ الهُدْهُدِ خالياً، تَقَعُ عليهِ الشمسُ، فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾؟

وقالوا في قولِهِ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] أي لأنْتُفَنَّ ريشَهُ حتى تُصيبَهُ الشمسُ. فذلكَ هو العذابُ الشديدُ. لكنْ لا نُفَسِّرُ ما ذلكَ العذابُ الشديدُ الذي أوعَدَهُ سُليمانُ مَخافَةَ الكَذِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] قالَ بعضُهُمْ: غَيرَ طويلٍ. وجائزٌ أنْ يكونَ: فَمَكَثَ وقتاً، يأتي في مِثْلِهِ مَنْ كانَ بعيداً[3]، لأنهُ إنما يُعَبِّرُ عنِ المكانِ لا عَنِ الوقْتِ في الظاهرِ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ كأنهُ يُريهِ المُناصَحَةَ لهُ والشَّفَقَةَ؛ يقولُ: أتيتُكَ مِنَ العِلْمِ والخَبَرِ ما لم تأتِ أنتَ ولا أحدٌ مِنْ جُنودِكَ، فكيفَ تُعَذِّبُني؟

وفي حَرْفِ عبدِ اللهِ [بْنِ مسعودٍ][4]: فَتَمَكَّثَ غَيرَ بعيدٍ، ثم جاءَهُ. قالَ أبو مُعاذٍ: مَكَثَ بِنَصْبِ الكافِ ورَفْعِها يَمْكُثُ لُغَتانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: حقٌّ، لاشَكَّ فيهِ، أي عندَ الهُدْهُدِ.

أمّا عندَ سُليمانَ فلا. ألا تَرى أنَّ سُليمانَ ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؟ [النمل: ٢٧].

---

(١) من م، في الأصل: أو. (٢) في الأصل وم: يخبره. (٣) في الأصل وم: بعيد. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقَفَ في خَبَرِهِ لِيَنْظُرَ أصدَقَ ما يقولُ أم كَذِبٌ؟ وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي عَجيبٍ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: سَبَأٌ اسْمُ رجلٍ، تُنْسَبُ القريةُ إليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: اسْمُ بلدةٍ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: سَبَأٌ أبو اليَمَنِ. فَمَنْ جعَلَها اسْمَ بَلْدَةٍ لم يَجُرَّهُ[١]، ومَنْ جَعَلَها اسْمَ رجلٍ جَرَّهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ كأنهُ[٢] على الإضمارِ، أي وَجَدْتُ امرأةً تَمْلِكُهُمْ أي تَمْلِكُ أهلَ سَبَإٍ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ [النمل: ٢٤] ذِكْرُ القومِ في آخِرِ الآيةِ دلَّ أنَّ الأهلَ كانَ مُضمَراً فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في بلادِها ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي لها سريرٌ حَسَنٌ عظيمٌ ضَخْمٌ، كذا كذا ذِراعاً [طولُهُ، وكذا كذا ذِراعاً][٣] عَرْضُهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ العرشُ كنايةً عنِ المُلْكِ؛ كأنهُ قالَ ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أي مُلْكٌ عظيمٌ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [قالَ هذا لِعِظَمِ ما وَقَعَ عندَ الهُدْهُدِ مِنَ السُّجودِ لِغيرِ اللهِ لِيُعْلَمَ أنَّ الطَّيرَ وغيرَها مِنَ البهائِمِ يَعرِفونَ اللهَ، ويُوَحِّدونَهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾][٤] يَعْبُدونَ الشمسَ مِنْ دونِ اللهِ. وجائزٌ أنهمْ يُطيعونَ [الشمسَ ويَخضَعونَ لها][٥] مِنْ دونِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الخبيثَةَ السَّيِّئَةَ حتى رَأَوْها حَسَنَةً ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو سَبيلُ اللهِ لأنَّ المُطْلَقَ هو سَبيلُ اللهِ، وهو الإسلامُ، والكتابُ المُطْلَقُ كتابُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ فإنْ كانَ هذا القولُ مِنْ هُدْهُدٍ، وتأويلُهُ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهم غَيرُ مُهْتَدينَ فإنهُ[٦] لا يَحْتَمِلُ أنْ يَعرِفَ أنهمْ لا يَهْتَدونَ في حادِثِ الوَقْتِ.

وإنْ كانَ مِنَ اللهِ فهو إخبارٌ أنهمْ لا يَهْتَدونَ [أبداً لِما عَلِمَ أنهم لا يَهْتَدونَ][٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[٨].

فَمَنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ ﴿أَلَّا﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على طَرْحِ: لا، كأنهُ يقولُ: فهمْ لا يَهْتَدونَ أنْ يَسْجُدوا، أي همْ لا يَهْتَدونَ أن يَسْجُدوا.

والثاني: [على][٩] صِلَةِ قولِهِ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لِئَلّا يَسْجُدوا.

ومَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ فهو يُخَرَّجُ على الأمْرِ، أي ألا يا اسْجُدوا للهِ[١٠].

وقالَ بعضُهُمْ: ألا بالتَّخفيفِ: هَلَا يَسْجُدونَ لِلّهِ. وكذلكَ ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ أنهُ قَرَأَ: هَلَا يَسْجُدونَ لِلّهِ، وهو حُجَّةُ مَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ. وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ألا تَسْجُدونَ لِلّهِ بالتاءِ على المُخاطَبَةِ إلى قولِهِ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾.

وذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: ألا تَسْجُدونَ بالنونِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٤٤. (٢) في الأصل وم: كأنها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: للشمس ويخضعونها. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القرءات القرآنية ج٤/ ٣٤٦ و٣٤٧. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرجت العبارة التالية في نسخة الحرم المكي: ينبغي على التالي أن يقف على قوله: ألا يا، ثم يبتدئ، فيقول: اسجدوا على الأمر، إلا أنه عند الوصل تذهب ألف الوصل التي في: اسجدوا، وتذهب الألف التي في: يا لأنها ساكنة أيضا، ولا يجمع بين ساكنين، فصارت: ألا يسجدوا، وأنشد لذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيَّ على البِلَى ولا زالَ مُنْهَلًا بِجَرْعائِكِ القَطْرُ

انظر الديوان ج١/ ٥٥٩

قالَ الكِسائيُّ: ومَنْ شَدَّدَ ﴿أَلَّا﴾ فتأويلُهُ: زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ألّا يَسْجُدوا على ما ذَكَرْنا. وأمّا التَّخفيفُ فهو على وجهِ الأمْرِ، أي اسْجُدوا، وألّا: صِلَةٌ، ويا: صِلَةٌ أيضاً.

ثم قالَ بعضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ يَلْزَمُهُ السُّجودُ لأنهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَلْزَمَ السُّجودُ بما يأمُرُ غيرَهُ بالسُّجودِ، ولا يَلْزَمُ في ما يُخْبِرُ عنهمْ أنهمْ لا يَسْجدونَ. بل لزومُ السُّجودِ في ما يُخْبِرُ أنهمْ لا يَسْجُدونَ أولَى خِلافاً لِصَنيعِهِمْ وإظهاراً لِلطّاعةِ للهِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخَبْءُ ما يُخْبَأُ مِنَ الشيءِ ممّا[1] كانَ. قالَ بعضُهُمْ: خَبَأَ في السماءِ المَطَرَ، فيُخْرِجُ، وفي الأرضِ النباتَ، فيُخْرِجُ ذلكَ النَّبْتَ. ويَحْتَمِلُ الخَبْءُ ما يُخَبِّئُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويُسارُّ[2] بَعْضُهُمْ بَعْضاً. يُخْبِرُ أنهُ يُظْهِرُ ذلكَ، ويُعْلِنُهُ[3]. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على الوَعيدِ ليكونوا على حَذَرٍ أبداً؟

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: ألّا يَسْجُدونَ للهِ الذي يَعْلَمُ غيبَ السمواتِ والأرضِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، جوابَ قولِهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [يقولُ: ربُّ العَرْشِ العَظيمِ][4] هو اللهُ الذي لا إلهَ إلّا هو، لا هِيَ؛ أعني بِلْقيسَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نَنْظُرُ أصَدَقْتَ في ما أخْبَرْتَ، وأتيتَ مِنْ أمْرِ بِلْقيسَ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ذلكَ. وَقَفَ في خَبَرِهِ، ولم يُصَدِّقْهُ، ولم يُكَذِّبْهُ، إلى أنْ يَظْهَرَ لهُ الصِّدْقُ أوِ الكَذِبُ. وهكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ أُخْبِرَ بِخَبَرٍ أنْ يَقِفَ فيهِ إلى أنْ يَظْهَرَ لهُ الحَقُّ في ذلكَ إنْ كانَ الخَبَرُ ممّا[5] يَحْتَمِلُ الغَلَطَ والكَذِبَ.

الآية ٢٨ ثم قالَ لهُ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ سُليمانُ أمَرَ الهُدْهُدَ بالذهابِ[6] بالكتابِ إليها، ويُوَلِّيَهُ تَبْليغَ ذلكَ إليها، وهو أعْظَمُ مِنْ خَبَرِهِ الذي أخْبَرَهُ بذلكَ [إلّا][7] بَعْدَ ما وَقَفَ في خَبَرِهِ[8] قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ، ويَظْهَرَ لهُ صِدْقُهُ في خَبَرِهِ. فَدَلَّتْ تَوليتُهُ إيّاهُ تبليغَ الكتابِ إليها أنهُ قد ظَهَرَ لهُ صِدْقُهُ في ما أخْبَرَهُ مِنْ أمرِ تلكَ المرأةِ إمّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ تعالى إليهِ، [وإمّا بما][9] انْتَهَى إليهِ مِنَ الخَبَرِ ما قد عَلِمَ بذلكَ عِلْمَ يَقينٍ وإحاطةٍ. فعِنْدَ ذلكَ وَلّاهُ تَبليغَ الكتابِ [إليها حينَ][10] قالَ لهُ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ألْقِ الكتابَ إليهِمْ، ثم تَوَلَّ عنهُمْ، فانْظُرْ ماذا يقولونَ؟ وماذا يُرَدِّدونَ في ما بَيْنَهُمْ مِنَ الكلامِ والجوابِ؟

والثاني: على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: ألْقِ الكتابَ إليهِمْ، فانْظُرْ ماذا يَرْجعونَ مِنَ الجوابِ ثم تَوَلَّ عنهمْ، أي أعْرِضْ عنهمْ.

الآية ٢٩ ففَعَلَ ما قالَ لهُ سليمانُ مِنْ إلقاءِ الكتابِ إليها، وإنْ لم يَذْكُرْ في الآيةِ حينَ[11] ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ كأنهمْ قالوا: مِمَّنْ ذلكَ الكتابُ؟

الآية ٣٠ فقالَتْ عندَ ذلكَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي حَسَنٌ لِما رَأَتْ فيهِ مِنَ الكلامِ الحَسَنِ والقولِ اللطيفِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أي مختومٌ. وقد ذُكِرَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][12] قالَ: «مَنْ كَرَّمَ الكتابَ خَتَمَهُ» [السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣] أو كلامٌ نَحْوُ هذا أو شِبْهُهُ.

---

(١) من م، في الأصل: ما. (٢) في الأصل وم: ويسر. (٣) في الأصل وم: ويعلمه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ممن. (٦) في الأصل وم: الذهاب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: خبر. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: إليهم حيث. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ فيهِ إضمارٌ، أي إني أُلقِيَ/ ٣٩٠ ـ أ/ إليَّ كِتابٌ مِنْ إنسانٍ كريمٍ، وسليمانُ كانَ مَعْروفاً بالكَرَمِ؛ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قد أتاهُمْ خَبَرُ كَرَمِهِ، والمَلأُ قالوا: هُمُ الأشرافُ وأهلُ السُّؤْدُدِ.

قالَ الزَّجّاجُ: سُمُّوا لِما اجْتَمَعَ عندَهُمْ مِنْ حاجاتِ الناسِ وحُسْنِ الرَّأْيِ والتَّدْبيرِ في كلِّ شيءٍ مِنَ الأمورِ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ كأنهمْ سَألوها: مِمَّنْ ذلكَ الكتابُ؟ فقالَتْ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾ وسَألوها أيضاً: ما في ذلكَ الكتابِ؟ فقالَتْ ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

الآية ٣١ وقولُهُ[1] تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ أي ألّا تَسْتَكْبِروا، ولا تَتَعَظَّموا عليَّ ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مُخْلِصينَ للهِ بالتوحيدِ، أي اجْعَلوا أنْفُسَكُمْ سالِمَةً للهِ خالِصَةً لهُ، لا تَجْعَلوا لأحدٍ سِواهُ فيها شِرْكاً ولا حقًّا، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ كانوا يَسْجُدونَ للشمسِ مِنْ دونِ اللهِ، فَتُخْبِرُ في الكتابِ حينَ[2] افْتَتَحَ بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنَّ الذي يَسْتَحِقُّ السُّجودَ والعِبادةَ، هو اللهُ الرحمنُ الرحيمُ، لا ما تَعْبُدونَ أنتمْ.

ثم مِنْ[3] عادةِ الأنبياءِ والرسلِ الإيجازُ في الكلامِ والرسائِلِ، لا يَشْتَغِلونَ بِفُضولِ الكلامِ وتَطويلِهِ على ما ذُكِرَ مِنْ كتابِ سُلَيمانَ إلى بِلْقيسَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ ذُكِرَ أنَّ هذا القَدْرَ، كانَ الكتابُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ اسْتَشارَتْ أشرافَ قَومِها، وطَلَبَتْ منهمُ الرَّأيَ في ذلكَ. وهكذا عَمَلُ المُلوكِ وعادَتُهُمْ: أنهمْ إذا أرادوا أمراً، أوِاسْتَقْبَلَهُمْ أمْرٌ، يَسْتَشيرونَ أُولي الرَّأْيِ مِنْ قومِهِمْ وأهْلَ الحِجا والتَّدْبيرِ منهمْ، ثم يَعْمَلونَ بِتَدبيرٍ، يكونُ لهمْ، وما يَرَوْنَ ذلكَ صواباً.

وعلى ذلكَ أمَرَ اللهُ رسولَهُ أنْ يُشاوِرَ أصحابَهُ بقولِهِ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ثم أمَرَهُ إذا عَزَمَ على الأمرِ أنْ يَتَوَكَّلَ على اللهِ في ذلكَ، وأنْ يَكِلَ الأمرَ إليهِ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ تَحْضُروني. أو ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أنهُ صوابٌ حقٌّ. فأجابوها في ما طَلَبَتْ منهمُ الرَّأيَ والتَّدْبيرَ في ذلكَ.

الآية ٣٣ فقالوا: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نَحْنُ أُولو قُوَّةٍ في أنْفُسِنا وأُولو بأسٍ أي حَرْبٍ وقِتالٍ شديدٍ، أي لَنا مَعْرِفَةٌ في ذلكَ. ومَعَ ما قالوا [ذلكَ][4] وَكَلُوا الأمرَ إليها حينَ[5] قالوا ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

وهكذا الواجبُ على وزراءِ الملوكِ والرَّعِيَّةِ أنهمْ إذا اسْتَشاروهُمْ في أمرٍ أنْ يَدُلّوهُمْ على الأصْوَبِ والأحْسَنِ[6] إليهِمْ، ثم يَكِلُوا الأمْرَ إليهِمْ.

وقصةُ سليمانَ ﷺ مَعَ ما فيها مِنَ العجائبِ والآدابِ ففيها مَعْرِفَةُ سِياسةِ الملوكِ وتَعَلُّمِ آدابِهِمْ:

مِنْ ذلكَ ما قالَ سُلَيمانُ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] ومِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ الآية [النمل: ٢٠] وقولُهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١]، ومِنْ ذلكَ اسْتِشارةُ بِلْقيسَ أشرافَ قَومِها في ذلكَ، وجَواباتُ قَومِها لها، وإخبارُها إيّاهُمْ: مِنْ طَبْعِ الملوكِ وعادتِهِمُ الإفسادُ والقَتْلُ والإذلالُ حينَ[7]

الآية ٣٤ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قالَ أهلُ التأويلِ: هذهِ شهادةٌ مِنَ اللهِ لها بما قالَتْ، والتصديقُ لها في ما أخْبَرَتْ أنهمْ كذلكَ يَفْعلونَ بِكُبرائِهِمْ.

الآية ٣٥ ثم قالَتْ: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ذُكِرَ أنها قالَتْ: إنَّ لي في هذا رأياً: فإنْ يَكُ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج بعدها في الأصل: أن، وأدرج قبلها في م: أن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: والحسن. (٧) في الأصل وم: حيث.

صاحبَ دُنيا فَعَسى أنْ نُرْضِيَهُ بالمالِ، فَيَسْكُتَ عنّا، ويَكُفَّ شَرَّهُ، وإنْ يكُنْ نَبِيًّا فلا يَقْبَلُ ذلكَ مِنّا، وسَنَعْرِفُ. فَعَمِلَتْ ذلكَ، وأرْسَلَتْ إليهِ بِهَدايا، فلم يَقْبَلْها سُليمانُ، فَعَرَفَتْ أنهُ نَبِيٌّ.

وهذا كانَ منها تدبيراً وحُسْنَ رَأيٍ[١] في الأمْرِ واختِيالاً؛ وَقَفَتْ في ذلكَ، لم تَشْتَغِلْ بالحَرْبِ والقِتالِ على ما أشارَ لها قَومُها.

وقالَ ابنُ عباسٍ: قالَتْ بِلْقيسُ لَمّا أتاها كتابُ سُليمانَ، واستشارَتْ قَومَها في ذلكَ، وطَلَبَتْ فُتياهُمْ، فأفْتَوا لها بما أفْتَوا، قالَتْ: أبْعَثُ إليهِ بهديةٍ، فإنْ قَبِلَها فهو مَلِكٌ، فأُحارِبُهُ، وإنْ لم يَقْبَلْها فهو نَبِيٌّ، أتابِعُهُ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أنْظَرْتُهُ نِظْرَةً أي أمْهَلْتُهُ، والنَّظْرَةُ في الدَّينِ خاصَّةً، وهي[٢] الإنظارُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ الرسولُ الذي [بَعَثَتْهُ بِلْقيسُ إليهِ بالهديّةِ][٣] ويَحتَمِلُ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ المالُ الذي بُعِثَ إليهِ. يَحْتَمِلُ ذا أو ذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي أتَقْطَعُونَني[٤] بِمالٍ. وقالَ أهلُ الأدبِ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ مِنَ المَدَدِ، والمَدَدُ الزِّيادةُ كما يُمَدُّ القومُ، ويكونُ الإعطاءُ كقولِهِ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢] ويَحتَمِلُ هذا[٥] الزِّيادةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي ما آتانِيَ اللهُ مِنَ النُّبُوَّةِ والعِلْمِ والحِكْمَةِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مِنَ الأموالِ. ويَحتَمِلُ ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ فاديتُكُمْ[٦] إذا أتيتُموني مُسلمينَ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ إنْ لم تُؤتوني [مُسلِمينَ][٧] أو أبَيتُمُ الإسلامَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ المُلْكِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مِنَ المُلْكِ لأنهُ سَخَّرَ لهُ الجِنَّ والإنسَ والشياطينَ والطيورَ والرِّياحَ وجَميعَ الأشياءِ. فذلكَ خَيرٌ لهُ وأعظَمُ مِن مُلْكِها.

والأوّلُ أشبَهُ وأقرَبُ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَفْتَخِرَ سُليمانُ بِمُلْكِهِ على غَيرِهِ، إنما يكونُ افتِخارُهُ بالدِّينِ والنُّبُوَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ قال بعضُهُمْ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إذا رُدَّتْ إليكُمْ. لكنَّ هذا بَعيدٌ [لأنَّ المُهْدِيَ][٨] لا يَفْرَحُ بِرَدِّ الهَدِيَّةِ إذا رُدَّتْ عليهِ هَدِيَّتُهُ، ولم تُقْبَلْ [بل يَحْزَنُ][٩] على ذلكَ، ويَهْتَمُّ. لكنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بل أنتُمْ أولَى بالفَرَحِ بالمالِ والهَدايا مِنّا؛ إذْ مُرادُكُمُ المالُ والدنيا، ومُرادُنا الدِّينُ والدارُ الآخِرَةُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ قالَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ لِلرَّسولِ الذي أتاهُ بالهَدِيَّةِ ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لَنَأتيَنَّهُمْ بجنودٍ، لا طاقةَ لهمْ بها، إنْ لم يأتوني مُسلمينَ ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ إنْ لم يَأتوني مُسلِمينَ.

الآية ٣٨ ثم قالَ سليمانُ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ إنما خاطَبَ بهِ أشرافَ قومِهِ. وهكذا العادةُ في المُلوكِ أنهمْ إذا خاطَبُوا أحداً بشيءٍ إنما يُخاطِبونَ أهلَ الشَّرَفِ والمَنْزِلَةِ منهُمْ ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنما قالَ هذا لأنهُ عَلِمَ، نَبِيُّ اللهِ، أنهمْ متى[١٠] أسْلَموا تَحْرُمُ أموالُهُمْ مع دمائِهِمْ، فأحَبَّ أنْ يُؤتَى بهِ قَبْلَ أنْ يكونَ ذلكَ عليهِ.

لكنَّ هذا مُحالٌ بَعيدٌ وَحشٌ مِنَ القولِ؛ لا يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ رَغْبَةُ سُليمانَ في الأموالِ هذا الذي ذَكَرَ بَعْدَما رَدَّ هَدايَاها

---

(١) في الأصل وم: الرأي. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: بعث بلقيس الهدية. (٤) في الأصل وم: أتعطونني. (٥) في الأصل وم: هذه. (٦) من م، في الأصل: فانبتكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالحرب. (١٠) من م، في الأصل: حينما.

إليها، وأخبرَ أنكُمْ تفرَحونَ بها لأنكُمْ أهلُ دُنيا؛ إذْ رَغْبَةُ أهلِ الدنيا في الأموالِ، ونَحْنُ، أهلَ الدِّينِ، رَغْبَتُنا في الدِّينِ، بهِ نَفْرَحُ، ويَسْتَعْجِلُ كلَّ هذا الاِسْتِعْجالِ رَغْبَةً في مالِها وعَرْشِها.

لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ أرادَ أنْ يُرِيَهُمْ قُوَّتَهُ وسُلْطانَهُ: أنْ يَرْفَعَ واحدٌ مِنْ جُنودِهِ عَرْشَها مَعَ عِظَمِهِ بِمُعايَنَةٍ منهمْ ومُشاهَدَةٍ، وحَمْلَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، لِيَعْلَموا إنَّ مَنْ قَدَرَ على هذا لَقادِرٌ أنْ يأتِيَهُمْ بجنودٍ، لا طاقَةَ لهمْ [بها][1] تَصْديقاً لِما قالَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [وإنهُ][2] يَقْدِرُ على قَهْرِهِمْ وغَلَبَتِهِمْ.

والثاني: أرادَ أنْ يُرِيَهُمْ آيةً مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ إذا أتَوهُ [وهي أنْ يأتوهُ] مُسْلِمينَ لِيَعْلَموا أنهُ نَبِيٌّ، ليسَ بِمَلِكٍ.

وهذا التأويلُ الذي ذَكَرْنا آيةٌ لِقَولِهِ[3]: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾/ ٣٩٠ ـ ب/ لِيَعْلَموا أنهُ ليسَ بِمَلِكٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي صالِحينَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مَقامُهُ مَجْلِسُهُ الذي كانَ يَقْضي فيه إلى أنْ يَفْرُغَ مِنْ قَضائِهِ حتى يُؤتَى بهِ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ لأنَّ الجِنَّ أقْوى مِنَ الإنْسِ.

وَصَفَ نَفْسَهُ بالأمانَةِ لأنَّ الجِنَّ، لا يَرْغَبونَ الأموالَ ما تَرْغَبُ الإنسُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أمينٌ على عَرْشٍ[4] تلكَ المرأةِ، مَقامُهُ: مَجْلِسُ الرجلِ، يكونُ فيه حتى يقومُ. ولكنْ لا نَدْري ما أرادَ بِمَقامِهِ الذي ذُكِرَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: أرادَ سُليمانُ أنْ يكونَ أعْجَلَ مِنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ذُكِرَ أنهُ كانَ رجلاً يَعْلَمُ اسْمَ اللهِ الأعْظَمَ الذي إذا دُعِيَ بهِ أجابَ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في ارْتِدادِ طَرْفِهِ. قالَ بعضُهُمْ: هو أنْ يَبْعَثَ رسولاً إلى مُنْتَهى طَرْفِهِ، فلا يَرْجِعُ حتى يُؤتَى بهِ [وقالَ][5] بعضُهُمْ: هو الرجلُ، يَنْظُرُ إلى الشيءِ البَعيدِ [فَيُؤتَى بهِ][6] قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إليهِ طَرْفُهُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: دَخَلَ في نَفَقِ الأرضِ، فَخَرَجَ بَينَ يَدَيِ سُليمانَ؛ يعني العَرْشَ. كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، أتاهُ إذْ دعاهُ بذلكَ الاسْمِ مِنْ غَيرِ أن يَتَحَمَّلَ هو حَمْلَهُ وإتيانَهُ.

فهذا يَدُلُّ أنَّ الآياتِ قد تَجْري على غَيرِ أيدي الرسلِ. لكنْ تكونُ الآيةُ للرسلِ، وإن كانَتْ تَجْري على غَيرِهِمْ. ثم ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واللهِ ما جَعَلَهُ فَخْراً ولا أشَراً ولا بَطَراً، لكنهُ جَعَلَهُ شُكْراً وتواضُعاً.

وقالَ[8] بعضُهُمْ: لمّا دعا ذلكَ الرجلُ بذلكَ الاسْمِ، فَرَآهُ مُسْتَقِرًّا عندَهُ، وَقَعَ في قَلْبِ سُلَيمانَ شيءٌ، وخَطَرَ ببالِهِ أنّى يكونُ رجلٌ عندَهُ عِلْمٌ ما لَيسَ عندَهُ مِنَ العِلْمِ قالَ، فَعَزَمَ اللهُ لهُ على الخَيرِ؟ وقيلَ لهُ: إنهُ مِمَّنْ خَوَّلَكَ اللهُ، فقالَ سُليمانُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ يقولُ: ما أعْطَى ذلكَ الرجلَ ما لم يُعْطِني ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ إذ كانَ مِثْلُهُ تَحتَ يَدِيَّ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ لكنْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَشْكُرَ اللهَ على ما أعْطَى غَيرَهُ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ إتيانَهُ أولئكَ مُسْلِمينَ أوِ النُّبُوَّةَ والعِلْمَ الذي آتاهُ اللهُ.

[ويَحْتَمِلُ قولُهُ][9]: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ تَسْخيرَ[10] ما سَخَّرَ لهُ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي لِيَمْتَحِنَني ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لِيَعْلَمَ أنهُ إنما يَمْتَحِنُ بالشكرِ، ويأمُرُهُ بهِ لا لِمَنْفَعَةِ المُمْتَحِنِ [ولكنْ لِمَنْفَعَةِ][12] المأمورِ بهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: لكنه. (٤) في الأصل وم: فرح. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: أراد. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غنيٌّ عنْ شكرِهِ، كريمٌ، يَقْبَلُ القليلَ منهُ واليسيرَ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿نَكِّرُوا﴾ أي غيِّروا لها عرْشَها، كأنهُ أمرَ أنْ يُغيِّروا بَعْضَ ما عليهِ مِنَ الزِّيادةِ والنُّقصانِ لِيَمْتَحِنَها: أتَعْرِفُ[1] أنهُ عرْشُها أمْ لا؟

والمُنكَرُ هو الذي لا يُعْرَفُ كقولِهِ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] وقولِهِ: ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] أي لم يَعْرِفْهُمْ، وقولِهِ: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ كانْ يَجيءُ أنْ يُقالَ: نَكِّروا عرْشَها، وتكونَ ﴿لَهَا﴾ زائدةً، إلّا أنْ يُقالَ ﴿نَكِّرُوا لَهَا﴾ أي نكِّروا لأجلِها عرْشَها، وهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ أنهُ عرْشُها أمْ لا تَهْتَدي إليهِ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿نَنظُرْ﴾: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى دينِ اللهِ وتَوحيدِهِ أمْ تكونُ مِنَ الذينَ لا يَهْتَدونَ إلى دينِ اللهِ؟

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَبَّهَتْ هي عليهِمْ، ولَبَّسَتْ أمْرَهُ كما فَعَلوا هُمْ بها مِنْ تَغْييرِ عَرْشِها عليها وتَلْبيسِهِ عليها. لكنَّ قولَها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لم تَقْطَعْ فيهِ القولَ لمّا رَأَتْ فيهِ مِنَ التَّغْييرِ والتَّنكيرِ، ورأَتْ فيهِ سَريرَها[2]؛ وقَفَتْ فيهِ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أنَّ العَرْشَ، لم يُحْمَلْ، وهي نائمةٌ، على ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ حُمِلَ دونَها مِنْ قَبْلُ، ثم جاءَتْ بَعْدَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ألَا تَرى أنهُ لو أمَرَهُمْ أنْ يُغيِّروا عَرْشَها، وهي عليهِ، لم تَشْعُرْ بهِ؟ هذا بَعيدٌ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إنْ كانَ هذا القولُ مِنْ سُليمانَ فكأنهُ يقولُ: قد أُوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِ عِلْمِنا بهِ أنهُ عَرْشُها، ولَنا غُنْيَةٌ عنِ السؤالِ لها عنهُ، لكنْ نَسْألُها مُسْتَخْبِرينَ عنْ ذلكَ مُمْتَحِنينَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أي صِرْنا مُسْلِمينَ جميعاً، أو يكونُ هذا [القولُ: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾][3] صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] فهذا العِلْمُ الذي قالَ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وإلّا في الظاهرِ ليسَ هذا صِلَةَ ما تَقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: وصَدَّها عِبادَتُها الشمسَ والأصنامَ التي عَبَدوها دونَ اللهِ عنِ الإسلامِ وعِبادةِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: وصَدَّها سُليمانُ عنْ عِبادَتِها [التي][4] كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دونِ اللهِ لأنها ذُكِرَ أنها أسْلَمَتْ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [وقالَ بعضُهُمْ: الصَّرْحُ][5] صَحْنُ الدارِ، وهو قولُ الزَّجّاجِ.

وقالَ القُتَبيُّ وأبو عَوسَجَةَ وأكثرُ أهلِ التأويلِ: الصَّرْحُ هو القَصْرُ. ثم لا نَدْري ما سَبَبُ بِناءِ[6] ذلكَ الصَّرْحِ؟ وما سَبَبُ أمْرِهِ إيّاها بالدخولِ فيهِ وكَشْفِها عنْ ساقَيْها؟

أمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ قدِ اختَلَفوا في ذلكَ: قالَ بعضُهُمْ: قالَتِ الجِنُّ: لمّا أقْبَلَتْ بِلْقيسُ لقد لَقينا[7] مِنْ سُليمانَ ما لَقينا مِنَ التَّعَبِ، فلوِ اجْتَمَعَ سليمانُ وهذهِ المرأةُ وما عِنْدَها مِنَ العِلْمِ لَهَلَكْنا، وكانَتْ أمُّ هذهِ المرأةِ جِنّيَّةً، تعالَوا [نَعيبُها، ونُكَرِّهُها][8] إلى سليمانَ. فقيلَ لِسُليمانَ: إنَّ رِجْلَيْها مِثْلُ حافِرِ الدَّوابِّ، لأنَّ أمَّها، كانتْ جِنّيَّةً، فأمَرَ سُليمانُ عندَ ذلكَ، فَبُنِيَ لَهُ بيتٌ مِنْ قواريرَ فوقَ الماءِ، وأرسلَ فيهِ السمكَ لِتَحسَبَ أنهُ ماءٌ، فَتَكْشِفَ عنْ رِجْلَيْها، فَيَنْظُرَ سليمانُ: أصَدَقَتِ الجِنُّ أم كَذَبَتْ؟

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فَنَظَرَ إليها سُليمانُ، فإذا هي أحْسَنُ الناسِ قَدَمَيْنِ وساقَيْنِ. فلما رَأَتِ الجِنُّ أنَّ سُليمانَ رَأى ساقَيْها قالَتِ الجِنُّ: لا تَكْشِفي عنْ ساقَيْكِ ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

---

(١) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: سرورها، في م: سررها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: هناء. (٧) في الأصل وم: أتينا. (٨) في الأصل وم: ننقصها ونكرها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ ذُكِرَ لِسُليمانَ أنَّ على ساقَيها شَعْراً، وأنهما شَعْراوانِ، فَأَمَرَ بذلكَ لِيَعْرِفَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ خافَتِ الجِنُّ عندَ ذلكَ أنْ يَتَزَوَّجَها سُليمانُ، فَتُفْشِيَ إليهِ[1] أشياءَ كانُوا اطَّلَعوها عليها[2]، وأفشَوا إليها، فأرادوا أنْ يُكَرِّهوها إليهِ، فَطَعَنوها بِعُيوبٍ في عَقْلِها وجِسْمِها[3]، فقالوا: يا نَبِيَّ اللهِ ألا نُريكَ عَقْلَها؟ فإنَّ في عَقْلِها شيئاً. قالَ: بَلَى، فجاءَتِ الجِنُّ بماءٍ، فأَجْرَوهُ [في صَحْنِ الدارِ][4] فَتَرَكوهُ لُجَّةً، ثم جاؤوا بالسمكِ والضفادعِ، فأرسَلوها في الماءِ، ثم جِيءَ بها إلى ذلكَ الماءِ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ فقالوا لِسُليمانَ: في عَقْلِها آفةٌ، ألَا تَرَى أنها لا تَعْرِفُ الصَّرْحَ مِنَ الماءِ، ولا تُمَيِّزُ بينَهما، أو نَحْوَ هذا مِنَ الكلامِ؟

لكنْ لا نَعْلَمُ ما سَبَبُ ذلكَ؟ ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ سُليمانُ يَحْتالُ هذهِ [الحِيلةَ][5] لِيَنْظُرَ إلى ساقَيها، وهي أجنبيَّةٌ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ لِغَيرِ ذلكَ أرادَ أنْ يُرِيَها آيةً مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ حينَ[6] اتَّخَذَ صَرْحاً مُمَرَّداً مِنْ قواريرَ، يُرَى [أنهُ ماءٌ][7] لِلَطافَتِهِ، وذلكَ خارجٌ عنْ تدبيرِ البَشَرِ لِتَعْلَمَ هيَ أنَّ ذلكَ تَدْبيرُ السماءِ لا تَدْبيرُ البَشَرِ، أو أنْ يكونَ أرادَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ / ٣٩١ ـ أ/ أنْ يُرِيَها عِظَمَ مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ لِتَعْلَمَ أنهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ، قادرٌ على ذلكَ، لا تَنْفَعُها سِوى الطاعةِ لهُ والإجابةِ والخُضوعِ للهِ والإسلامِ لهُ.

فعندَ ذلكَ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في ما عَبَدْتُ دونَ اللهِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخلَصْتُ، وأسلَمْتُ نفسي للهِ ربِّ العالَمينَ.

قالَ القُتَبِيُّ: عِفريتٌ، أي شديدٌ وَثيقٌ. وأصْلُهُ العِفْرُ، زِيدَتِ التاءُ فيهِ؛ يُقالُ: عِفريتٌ، نِفريتٌ، [وعُفاريةٌ ونُفاريةٌ][8]، وعَفاريتُ ونَفاريتُ.

قالَ القُتَبِيُّ: العِفريتُ الخَبيثُ الماردُ، وعَفاريتُ جميعٌ، وقالَ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ أي رَدَّها، ومَنَعَها، وقالَ: الصَّرْحُ القَصْرُ، والصُّروحُ جميعٌ، ولُجَّةُ الماءِ المُجْتَمِعُ الكثيرُ، وقالَ: المُمَرَّدُ، وهو المُمَلَّسُ بالطِّينِ أو بالجِصِّ أو بما كانَ. وقالَ غَيرُهُ: المُجَرَّدُ الطويلُ. وقالَ القُتَبِيُّ: ومِنْ ذلكَ يُقالُ: الأمْرَدُ الذي لا شَعْرَ على وَجْهِهِ، ويُقالُ لِلرَّمْلَةِ التي لا تُنْبِتُ مَرْداءُ، ويُقالُ: المُمَرَّدُ المُطَوَّلُ، ومنهُ قيلَ لِبَعْضِ الحُصونِ: ماردٌ.

وقالَ الكِسائيُّ: المُمَرَّدُ الأملَسُ، ويُقالُ: منهُ سُمِّيَ الأمْرَدُ أمْرَدَ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وأمَرْناهُ أنْ يقولَ لهمْ: اعْبُدوا اللهَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بالرسالةِ التي أرْسَلْناهُ لِيَدْعُوَهُمْ إلى عبادةِ اللهِ.

وقولُهُ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ: وَحِّدوا اللهَ، ويَحْتَمِلُ العِبادةَ نَفْسَها: أنِ اعْبُدوا اللهَ، ولا تُشْرِكوا غَيرَهُ في العِبادةِ والألوهيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قيلَ: فريقانِ: [مُؤْمِنٌ بصالحٍ، ومُكَذِّبٌ][9] بهِ، ولم يُبَيِّنْ فيمَ كانَتْ خصومَتُهُمْ؟ وبَينَ مَنْ كانَتْ[10] في هذهِ الآيةِ. لكنهُ بَيَّنَ في آيةٍ أُخرى، وفَسَّرَ، وهو ما ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ و٧٦].

هذهِ الخُصومَةُ التي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ بَينَ الرُّؤَساءِ مِنَ الكَفَرَةِ والمؤمنينَ بصالحٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في م: إليها. (٢) في الأصل وم: عليه. (٣) في الأصل وم: ونفسها. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وعفريت ونفريت. (٩) في الأصل وم: وهو من يصالح ويكذب. (١٠) من م، في الأصل: كان.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ أي لِمَ تَستَعْجِلونَ بالسيِّئَةِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ، واستِعْجالُهُمُ العذابَ والسَّيِّئَةَ ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فذلكَ استِعْجالُهُمُ السَّيِّئَةَ قَبلَ الحَسَنَةِ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي لولا تُوَحِّدونَ، ولا تُشْرِكوا غيرَهُ في العِبادةِ وتَسْمِيَةِ الإلهيَّةِ لِكَي يَرْحَمَكُمْ. وفيهِ إطماعٌ لهمْ: لو آمَنوا، وتابوا [عنِ الشِّرْكِ][1] لَرَحِمَهُمْ كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أي تَشاءَمْنا منكَ وبِمَنْ مَعَكَ. لم يَزَلِ الكَفَرَةُ [يقولونَ][2] لِرُسُلِ اللهِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، ولِمَنْ آمَنَ مَعَهُمْ: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾ إذا أصابَتْهُمُ الشِّدَّةُ والبَلاءُ؛ يَتَطَيَّرونَ بهِمْ، ويَتَشاءَمونَ، ويقولونَ: إنما أصابَنا هذا بِشُؤْمِكُمْ. وإذا أصابَهُمْ رَخاءٌ وسَعَةٌ قالوا: هذا لنا، بِنا، ومِنْ أنفُسِنا، وهو ما قالَ قومُ موسى حينَ[3] قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣١] وكذلكَ قالَ أهلُ مكَّةَ لرسولِ اللهِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النساء: ٧٨].

كانوا يَتَطَيَّرونَ برسولِ اللهِ، ويَتَشاءَمونَ بِما يُصيبُهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ وما يَنْزِلُ بهِمْ مِنَ البَلاءِ، فأخبَرَ اللهُ رسولَهُ، وأمَرَهُ أنْ يقولَ لهمْ: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] أي الرَّخاءُ والشِّدَّةُ مِنْ عِندِ اللهِ يَنْزِلُ، وهو باعثُ ذلكَ لا أنا.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي ما يَنْزِلُ بكُمْ، ويُصيبُكُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ إنما يَنْزِلُ مِنْ عندِ اللهِ، لا بِنا، ولا بكُمْ. أو يُقالُ: ما يَنْزِلُ بكُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ إنما يُصيبُ بتكذيبِكُمْ إيّايَ في الدنيا، أو يُقالُ: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي جَزاءُ طِيَرَتِكُمْ عندَ اللهِ؛ هو يَجْزيكُمْ بها بعذابِ الدنيا والآخرةِ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ بالعذابِ بما تَكْسِبونَ مِنَ الأعمالِ في الدنيا، أي تُعَذَّبونَ بها.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ يقولُ: اللهُ أعلَمُ بطائِرِكُمْ وما تَطَيَّرْتُمْ[6] بهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي ليسَ ذلكَ بي، وإنما هو مِنَ اللهِ، وهو ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الرَّهْطُ إنما يُقالُ: مِنْ ثلاثةٍ إلى تِسْعَةٍ، وإذا نَقَصَ عنْ ذلكَ، أو زادَ، يُقالُ: رِجالٌ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الرَّهْطُ: النَّفَرُ، وأراهِطُ ورُهوطٌ جميعٌ.

ثم يَحْتَمِلُ الرَّهْطُ وجْهَينِ

أحَدُهما: ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ أي تِسْعَةُ نَفَرٍ مِنَ الأتباعِ والرُّؤَساءِ[7]، ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾

والثاني: ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ أي[8] تِسْعَةُ نَفَرٍ مِنَ الرُّؤَساءِ، ولِكلِّ واحدٍ منهمْ رَهْطٌ مِنَ الأتباعِ ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾.

وجائزٌ[9] أنْ [يكونَ][10] هذا إخباراً مِنَ اللهِ أنهمْ يُفْسِدونَ أبداً في الأرضِ، ولا يُؤْمِنونَ أبداً. وجائزٌ أنْ يكونَ إخباراً عنْ حالِهِمْ، أي يَعْمَلونَ الفَسادَ والمَعاصِيَ، ولا يُصْلِحونَ، أي لا يَسْعَونَ بالصَّلاحِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ هؤلاءِ التسعةَ كانوا مِنْ أبناءِ أشرافِهِمْ، وكانوا [في أرضِ حِجْرِ ثَمودَ][11] وكانوا فُسّاقاً، فقالَ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَنَقْتُلَنَّ صالحاً وأهْلَهُ ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لِقومِهِ مِنْ وَرَثَتِهِ: ما قَتَلْناهُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ فتحالَفوا على

---

(١) في الأصل وم: عنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: تطيركم. (٧) في الأصل وم: وغيره. (٨) في الأصل وم: لا. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالحجرة، انظر جامع البيان ج١٩/ ١٧٢.

ذلكَ، فأتَوا صالحاً ليلاً، فَدَخلوا عليهِ بأسيافِهِمْ لِيَقْتُلوهُ، وعندَ صالحٍ ملائكةٌ، جاؤوا مِنَ اللهِ تعالى، يَحْرُسونَهُ، فَقَتلوا الرَّهْطَ في دارِ صالحٍ بالحِجارةِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ بِصالحٍ وأهلِهِ ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ أي أهْلَكْناهُمْ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنهمْ يَهْلِكونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: هؤلاءِ التسعةُ الرَّهْطُ توافَقوا أنهُمْ يُبَيِّتونَ صالحاً، ويَقْتُلونَهُ وأهلَهُ بَعْدَ ما عَقَروا الناقةَ، وقالوا في ما بَيْنَهُمْ: فإنْ خُوصِمْنا في ذلكَ لَنقولَنَّ، ونُقاسِمَنَّ ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ أي ما حَضَرْنا في هلاكِهِمْ. على هذا التأويلِ يكونُ على التَّقديمِ والتأخيرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هؤلاءِ التِّسْعَةُ، كانوا شِرارَ قَوْمِهِ، خَرَجوا بِخَمْرٍ إلى بَعْضِ المَغارِ [لِيَشْرَبوا هناكَ][1] ثم لِيُبَيِّتوا على صالحٍ وأهلِهِ، فَشَربوا هناكَ، فانْهَدَمَتْ بهِمُ الصخرةُ، وعُذِّبوا فيه. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ بِقَتْلِ صالحٍ وهلاكِهِ ﴿مَكۡرٗا﴾ ومَكَرْناهُمْ حينَ[2] أهْلَكْناهُمْ ﴿مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ والمَكْرُ هو الأخذُ بَغْتَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي جَزَيْناهُمْ جزاءَ مَكْرِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في قراءةِ ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنونِ. فذلكَ قولُ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ. وقَرَأَ بعضُهُمْ: بالتاءِ[3]: لَتُبَيِّتُنَّهُ وأهلَهُ، ثم لَتقولُنَّ. فذلكَ قولُ الرُّؤساءِ للأتباعِ. ومَنْ قَرَأهُ بالياءِ[4] يَجْعَلُهُ خَبَراً عنِ اللهِ تعالى لهمْ.

الآية ٥١ [وقولهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾. هذا ظاهرٌ][5].

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ أي لم نُسْكِنْ فيها أحداً، ولكنْ تَرَكْناها خاليةً كذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَاوِيَةَۢ﴾ أي خَرِبَةً ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ كقولِهِ: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] /٣٩١ـ ب/ أي ساقِطَةٌ خَرِبَةٌ. وقد كانَ ذلكَ كلُّهُ؛ منها جَعَلَ لِغَيرِهِمْ سَكَناً إذا أهْلَكَهُمْ مِنْ نَحْوِ ما أَوْرَثَ بَني إسرائيلَ دِيارَ القِبْطِ وأموالَهُمْ، وأنْزَلَهُمْ فيها، ومنها ما تَرَكَها كذلكَ خاليةً بَعْدَما أهْلَكَ أهلَها، وخَرَّبَها، وتَرَكَها كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ في هلاكِ مَنْ ذَكَرَ [في][6] الآيةِ، ولَعِبْرَةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يَعْتَبِرونَ.

الآية ٥٣ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَةَ أمْرِهِ ونَهْيِهِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ كأنَّ فيهِ إضماراً[8]؛ كأنهُ قالَ: أرْسَلْنا لوطاً ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾؟ أي أتأتونَ الفاحِشَةَ، وأنتُمْ تُبْصِرونَ، وتَعْلَمونَ أنها فاحشةٌ؟

الآية ٥٥ [وقولُه تعالى][9]: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ﴾ أي اشتِهاءً لكُمْ ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾؟ يَقولُ: أتأتونَ الذكورَ، وتَدَعونَ النساءَ؟ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ولكنْ أنتُمْ قومٌ تجهَلونَ، أي تَجْهَلونَ الأمْرَ، فَتَعْصُونَ.

فَيُشْبِهُ أنْ [يكونَ][10] هذا جَوابَ قولٍ، كانَ مِنْ قومِهِ، نَحْوَ ما ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ ما تقولونَ، أي عن جَهْلٍ ما تقولونَ ذلكَ أو كلامٌ نَحْوُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ قولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ كذا في وَقْتٍ لا في الأوقاتِ كلِّها، لأنهُ قد كانَ منهمْ قولٌ وجَواباتٌ نَحْوُ ما ﴿قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٩] ونَحْوُهُ وقولُهُمْ: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

---

(١) من م، في الأصل: جائز. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٣٥٨. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/٣٥٨. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إضمار. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

دَلَّ هذا منهمْ أنهمْ قد عَلِموا أنَّ ما يأتونَ، ويَعْمَلونَ، أنهُ خُبْثٌ وفُحْشٌ ومُنْكَرٌ حينَ[1] قالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ هذا وُجوهاً:

أحَدُها: أنهمْ قالوا ذلكَ اسْتِهزاءً منهمْ بهمْ.

والثاني: ﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ فإنهم يَسْتَقْذِرونَ[2] أعمالَنا وأفعالَنا.

والثالثُ: على التَّحقيقِ: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ غيرَ الزَّوجةِ يجوزُ أنْ تُسمّى أهلاً. قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: أهلُهُ بناتُهُ.

وقولُهُ: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العِبادِ حينَ[3] أخبَرَ أنهُ ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ والغُبورُ البقاءُ بِفِعْلِها[4]. فأخبَرَ أنهُ قَدَّرَ ذلكَ منها، وخلَقَ. وقولُهُ: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي الباقينَ في عذابِ اللهِ. وفي[5] حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: ولقد وَقَّينا إليهِ أهْلَهُ كلَّهُمْ[6] ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١ والصافات: ١٣٥].

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي ساءَ مَطَرُ المُنْذَرينَ [الذينَ][7] لم يَقْبَلوا الإنذارَ، ولم تَنْفَعْهُمُ النِّذارةُ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أمَرَ نَبيَّهُ بالحَمْدِ لهُ والثَّناءِ عليهِ على إهْلاكِ[8] أعداءِ الرُّسُلِ الخاليةِ.

ثم قالَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وهُمُ الرُّسُلُ والأنبياءُ، صَلواتُ اللهِ عليهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أمْرُهُ إيّاهُ بالحَمْدِ لهُ والثناءِ عليهِ لِما أنْعَمَ عليهِ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ: منها ما [ذَكَرَ مِنْ إهْلاكِ][9] أعداءِ الرُّسُلِ وإبقاءِ أوليائِهِمْ تخويفاً لأعداءِ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُهْلِكَهُمْ[10] كما أهْلَكَ أعداءَ الرُّسُلِ الخاليةِ. أو أنْ يكونَ أمْرُهُ إيّاهُ بالحَمْدِ لهُ والثناءِ عليهِ لِما أنْعَمَ عليهِ مِنْ أنواعِ [النِّعَمِ: مِنَ][11] النُّبُوَّةِ والرسالةِ والهِدايةِ ونَحْوِها[12]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يَحْتَمِلُ الرسلَ كقولِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] ويَحْتَمِلُ الأمْرَ بالسَّلامِ على أصحابِهِ وجميعِ المؤمنينَ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أمَرَ رسولَهُ بالسلامِ على المُرْسَلينَ وعلى أصحابِهِ وعلى المُؤْمِنينَ.

ثم في قولِهِ: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ دلالةُ أنْ لا أحَدَ يَسْتَوجِبُ الصَّفْوَةَ إلّا باللهِ حينَ[13] قالَ: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: أالذي فَعَلَ هذا بالأُمَمِ[14] الخاليةِ مِنَ [إهلاكِ الأعداءِ][15] وإبقاءِ الرُّسُلِ والأولياءِ أمِ الأصنامُ التي تُشْرِكونَ في عبادَتِهِ، وهي لا تَمْلِكُ شيئاً مِنْ ذلكَ؟

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنكُمْ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ، يَمْلِكُ ما ذَكَرَ مِنْ إهلاكِ أعدائِهِ وإبقاءِ رُسُلِهِ، والأصنامَ التي تَعْبُدونَها، لا تَمْلِكُ شيئاً. فكيفَ تُشْرِكونَ في أُلوهيَّتِهِ؟ وإلّا لم يَذْكُرْ جوابَ قولِهِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ جوابُهُ أنْ يقولوا: بلِ اللهُ خيرٌ.

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ إنْ ثَبَتَ: «أنه كانَ إذا قَرَأَ هذهِ الآيةَ قالَ: بلِ اللهُ خيرٌ وأبقى وأجَلُّ وأكْرَمُ» [القرطبي في تفسيره: ١٣/ ٢٠٤].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ بهذا وجهانِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يستقذفون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: فعلها. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: كلها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: هلاك. (٩) في الأصل وم: ذكروا من هلاك. (١٠) في الأصل وم: يهلكوا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ونحوه. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من م، في الأصل: بالاثم. (١٥) في الأصل وم: الهلاك للأعداء.

أحدُهما: قُدرَتُهُ و سُلْطانُهُ في خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وإنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ وإنباتِ النباتِ مِنَ الأرضِ وإخراجِهِ على أفرادِهِمْ. إنَّ اللهَ خالقُ ذلكَ كلِّهِ، فكيفَ أشرَكْتُمْ غيرَهُ: مَنْ لا يَمْلِكُ ذلكَ، ولا يُقْدَرُ في تَسْمِيةِ الإلهيَّةِ والعبادةِ؟

والثاني: يُخبِرُ عنِ اتِّساقِ الأمورِ والتَّدْبيرِ فيهما جميعاً واتِّصالِ مَنافِعِ أحَدِهِما بالآخَرِ على تباعُدِ ما بَيْنَهما [لِيُعْلَمَ أنَّ مُنشِئَهما][1] ومُدَبِّرَهُما واحِدٌ، لا عَدَدٌ. فإنْ عَرَفْتُمْ ذلكَ فكيفَ أشرَكْتُمْ غَيرَهُ فيها؟ وهو كقولِهِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهذا الحَرْفُ على الثَّنَويَّةِ والدَّهْرِيَّةِ؛ وهؤلاءِ لِقولِهِمْ بالعَدَدِ وإنكارِهِمُ الواحدَ، والأوَّلُ: على المُقِرِّينَ بالواحدِ إلّا أنهمْ أشرَكوا الأصنامَ في التَّسْمِيَةِ والعبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحدائقُ: الحيطانُ والبَساتينُ ما دونَ الحيطانِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحدائقُ: الحَوائطُ التي خُصَّتْ بالأشجارِ، والبَساتينُ هي المُلْتَفَّةُ بها.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الحدائقُ البَساتينُ والرياضُ، والحَديقةُ الرَّوضَةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الحدائقُ البساتينُ، واحِدَتُها حديقةٌ، سُمِّيَتْ بذلكَ لأنها تَحْدُقُ بها، أي تَحْظُرُ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ لِما يَبْتَهِجُ صاحِبُها إذا نَظَرَ إليها، ويُسَرُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ أي ما تَقْدِرونَ أنتُمْ أنْ تُنبِتوا شَجَرَها فَمَنْ هو دونَكُمْ أشَدُّ وأبْعَدُ، فكيفَ أشرَكْتُمْ في العِبادَةِ وتَسْمِيَةِ الإلهِيَّةِ مَنْ هو دونَكُمْ في كلِّ شيءٍ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إلهَ مَعَ اللهِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[2]: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي يَجْعَلونَ مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ عديلاً لِلّهِ.

والثاني: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ أي يَعْدِلونَ عنِ اللهِ ويَميلونَ إلى غَيرِهِ مِنَ العُدولِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يَقِرُّونَ عليها، ويَتَعَيَّشونَ فيها، أو يَبيتونَ ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ يَنْتَفِعونَ بها بأنواعِ المَنافِعِ، ويَشْرَبونَ ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جِبالاً[4] لِئَلّا تَميدَ بهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلَ بَينَ بَحْرِ [الفُرْسِ وبَحرِ][6] الرومِ جزيرةَ العَرَبِ حاجزاً، وسُمِّيَ جزيرةً لِما جُزِرَ الماءُ فيها، أي ذهَبَ. وقالَ بعضُهُمْ: بَحْرُ الشامِ وبَحْرُ العراقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بَينَ العَذْبِ والمالحِ حاجزاً بِلُطْفِهِ، ولا يَخْتَلِطُ هذا بهذا، ولا هذا بهذا لُطْفاً منهُ؛ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهِمْ ولُطْفَهُ: أنْ كيفَ أشرَكْتُمْ في عبادتِهِ وألوهِيَّتِهِ مَنْ لا يَمْلِكُ ذلكَ، وصَرَفْتُمْ شُكْرَها إلى غَيرِ المُنْعِمِ؟

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][8]: لأنَّ مَنْ لا يَنْتَفِعُ/ ٣٩٢ ـ أ/ بما يَعْلَمُ فكأنهُ جاهِلٌ. نَفى عنهُمُ العِلْمَ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بهِ كما نَفى عنهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ والعَقْلَ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بهذهِ الجَوارحِ والحَواسِّ، وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الجَوارِحُ والحَواسُّ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ نَفْيُ العِلْمِ عنهمْ لِتَرْكِهِمُ الانْتِفاعَ بهِ.

والثاني: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما لا يَتَكَلَّفونَ النَّظَرَ في ما ذَكَرَ، أو لا يَعْلَمونَ أنَّ بَينَهما حاجزاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يحتمل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الجبال. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: الفارس بحر، في م: الفارس و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يُخرَّجُ على الصِّلَةِ بقولِهِ ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: مَنْ يَمْلِكُ إجابةَ المُضطَرِّ وكَشْفِ السوءِ عنهُ وجَعَلَكُمُ الخُلَفاءَ في الأرضِ خَيْرٌ أَمَّنْ لا يَمْلِكُ مِن ذلكَ شيئاً؟

فجوابُ ذلكَ أنْ يقولوا: بلِ الذي يَمْلِكُ ذلكَ خيرٌ مِمَّنْ لا يَمْلِكُ، ولا يَقْدِرُ ذلكَ. أو يُخرَّجُ على الوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتُهُما:

أحَدُهما: أنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ الذي يُجيبُ المُضطَرَّ، ويَكْشِفُ السُّوءَ، هو اللهُ تعالى، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها، فيكفَ أشْرَكْتُموها في الإلهيَّةِ والعِبادةِ؟

والثاني: أنهُ إذا أجابَ دَعْوَةَ المُضطَرِّ، وكَشَفَ السُّوءَ [عنهُ، وجَعَلَكُمْ خُلَفاءَ الأرضِ بَعْدَ هلاكِ أوائِلِكُمْ، فَيَدُلُّ ذلكَ أنهُ واحدٌ لا عَدَدٌ؛ إذْ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ إذا أجابَ هذا، وكَشَفَ السُّوءَ، رَدًّا][1] الآخَرُ، ومَنَعَ. فَدَلَّ بَقاءُ ذلكَ كلِّهِ واتِّساقُ الأمرِ أنهُ واحدٌ، لا شَريكَ لهُ.

فهذا على التَّنْويةِ، والأوَّلُ على المُشْرِكينَ غَيْرَهُ في العِبادةِ لهُ وتَسْمِيَةِ الإلهيَّةِ [وهو قولُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إلهَ مَعَ اللهِ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

الآية ٦٣ وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ على الوجوهِ التي ذَكَرْناها.

الآية ٦٤ وكذلكَ قولُهُ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مَنْ يَقْدِرُ على ما تقدَّمَ ذِكْرُهُ يَمْلِكُ البَعْثَ بَعْدَ الموتِ [والإحياءَ. ومَنْ يَقْدِرُ أنْ يَرْزُقَ الخَلْقَ كلَّهُ؟][2] يُلْزِمُهُمُ البَعْثَ بهذا، أي مَنْ يُقْدِرُ هذا يُقْدِرُ ما ذَكَرَ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي لا إلهَ معَ اللهِ، بلِ اللهُ المُتَفَرِّدُ بذلكَ دونَ مَنْ يَعْبدونَ، ويُشْرِكونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي مَنْ لَجَّ في هذا، أو أنْكَرَ ذلكَ، ادَّعى الشِّرْكَ فيهِ لِغَيْرِهِ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالَتِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُشْرًۢا﴾ مِنَ البِشارةِ [ومَنْ قَرَأَ نُشُراً ونُشْراً ونَشْراً بالنونِ فهو][3] مِنَ التَّفريقِ والرَّفْعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَخْلُفونَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَمِ.

قالَ أبو معاذٍ: وَواحِدُ الخُلَفاءِ خَليفٌ، وَواحِدُ الخَلائِفِ خَليفةٌ، والخَليفُ مِنَ الخالِفِ كالعَليمِ مِنَ العالِمِ. وقولُهُ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَفْعَلُ ذلكَ بكُمْ: يَرْزُقُكُمْ، ويُنْزِلُ لكُمْ مِنَ السماءِ ماءً، ويُنْبِتُ مِنَ الأرضِ ما تأكلونَ، وتَرْعى أنعامُكُمْ. أوَ مَعَ اللهِ إلهٌ، يَهْديكُمْ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ، ويُرْسِلُ لكُمُ الريحَ بُشْراً، أو يُجيبُ المُضطَرَّ، ويَكْشِفُ السُّوءَ عنهُ، وكُلُّ ما ذَكَرَ؟ أي ليسَ معهُ إلهٌ سِواهُ. بلِ اللهُ يَفْعَلُ ذلكَ كلَّهُ بكمْ، فكيفَ أشْرَكْتُمْ غَيْرَهُ في إلهيَّتِهِ وعِبادَتِهِ على عِلْمٍ منكُمْ أنَّ الذي تَعْبُدونَ مِنْ دونِهِ، لا يَمْلِكُ شيئاً: أنْ يَفْعَلَ ذلكَ بكُمْ؟ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ وقِلَّةَ بَصَرِهِمْ ومَعْرِفَتِهِمْ.

ثم قال[4]: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أنَّ مَعَ اللهِ إلهاً فَعَلَ ذلكَ بكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الآية ٦٥ وقولُهُ[5] تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كأنهُ قالَ، واللهُ أعلَمُ، لرسولِهِ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾ [أحدٌ][6] مِمَّنْ تَعْبُدونَ مِنْ أهلِ السمواتِ ومَنْ في الأرضِ ﴿ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنَّ بعضَهُمْ كانَ يَعْبُدُ أهلَ السمواتِ، وهُمُ الملائكةُ، وبعضُهُمْ كانوا يَعْبدونَ مَنْ في الأرضِ. يقولُ: لا يَعْلَمُ [أحدٌ][7] مِمَّنْ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ: مَنْ في السمواتِ والأرضِ الغَيْبَ. إنما يَعْلَمُ الغَيْبَ اللهُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وإحياءه. (٣) في الأصل: ونشرا من النون، في م: ونشرا بالنون، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٦٤. (٤) الضمير يعود على أبي معاذ. (٥) في الأصل وم: ثم قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم قولُهُ: ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما يَغيبُ بعضُهُمْ عنْ بَعْضٍ فهو يَعْلَمُ ذلكَ.

والثاني: لا يَعْلَمُ الغَيبَ إلّا اللهُ، أي ما كانَ، وما يكونُ إلى أبَدِ الآبِدينَ، لا يَعْلَمُ ذلكَ إلّا اللهُ. وإذا عَلِموا عَلِموا ذلكَ [مِنَ اللهِ تعالى][1].

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الغَيبَ إلى البَعْثِ والساعةِ، يقولُ: لا يَعْلَمُ الساعةَ أحدٌ مَتَى تكونُ إلّا اللهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: وما يَشعُرُ أهْلُ مكةَ مَتَى يُبْعَثونَ؟ لكنْ لو كانَ الجَهْلُ عن وقْتِ البَعْثِ فأهْلُ مكةَ وغَيرُهُمْ مِنْ أهْلِ السمواتِ والأرضِ في جَهْلِهِمْ بِوَقْتِ البعثِ شَرْعاً سَواءٌ، لا أحَدَ يَعْلَمُ مِنْ أهلِ السمواتِ والأرضِ أنهُ مَتَى يُبْعَثُ؟ إلّا أنْ تكونَ الآيةُ في مُنْكِرِ البَعْثِ، فحينئذٍ جائزٌ صَرْفُهُ إلى بَعْضٍ دونَ بَعْضٍ.

فأمّا في وَقْتِ البَعْثِ فالناسُ في جَهْلِهِمْ بوقْتِ البَعْثِ سَواءٌ، وهو ما قالَ في [آيةٍ][2] أُخرَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧ والنازعات: ٤٢] أخبَرَ أنهُ لم يَطَّلِعْ أحدٌ على عِلْمِ ذلكَ عندَ اللهِ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قراءَتِهِ وتأويلِهِ. أمّا القراءةُ[3] فإنهُ قَرَأَ بعضُهُمْ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ بالتَّشديدِ والألِفِ، وقَرَأَ بعضُهُمْ: بلْ أدْرَكَ بإسقاطِ الألِفِ والتَّشديدِ، وقَرَأَ بعضُهُمْ: بَلَى بإثباتِ الياءِ في بَلَى وعلى الوَقْفِ عليها، و: أَأدّارَكَ على الاستِفهامِ: بَلَى. أأدّارَكَ؟

ومنهمْ مَنْ قَرَأَ على الاسْتِفهامِ: بَلَ ادّارَكَ على غَيرِ إثباتِ الياءِ في حَرْفٍ: بَل وعلى غَيرِ قَطْعٍ منهُ؟

فَمَنْ قَرَأَ: ادّارَكَ بالتَّشديدِ على غَيرِ الاسْتِفْهامِ فيقولُ: مَعناهُ: تَدارَكَ، واجْتَمَعَ، أي تَدارَكَ علمُهُمْ في الآخِرَةِ. يقولُ: أبَلَغَ[4] عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ؟ أي لم يَدْرِكْ، ولم يَبْلُغْ [في الدنيا][5] ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ بِسَفَهِهِمْ[6] وبِجَهْلِهِمْ. يقولُ: ما بَلَغَ عِلْمُهُمْ بالآخِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: بَلِ ادّرَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ؟ أي أمِ ادّرَكَ عِلْمُهُمْ؟ وقالَ بعضُهُمْ: بلْ أدْرَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ، أي غابَ عِلْمُهُمْ عنِ الآخِرَةِ، وأدْرَكَ في الآخِرَةِ حينَ لم يَنْفَعْهُمْ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: بل آدْرَكَ عِلْمُهُمْ [أي اضْمَحَلَّ][8] وذَهَبَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ [أنهمْ][9] قالوا: بلِ ادّارَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ [بلِ اجْتَمَعَ علمُهُمْ بأنَّ الآخِرَةَ][10] كائنةٌ، وهم مُشْرِكو العَرَبِ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ قالَ: يقولونَ مَرَّةً: الآخِرَةُ كائنةٌ، ثم يَشُكُّونَ فيها، فَيَقولونَ: ما نَدْري أكائنةٌ هي أمْ لا ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ يعني: جَهَلَةٌ بها.

وجائزٌ أنْ يُسَمّى الشاكُّ في شيءٍ أعمى[11].

وأبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ يَقولانِ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ أي تدارَكَ ظَنُّهُمْ في الآخِرَةِ، وتتابَعَ بالقولِ[12] ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ اي مِنْ عِلْمِها.

وقالَ بعضُهُمْ: مِنْ أهلِ الأدبِ: لا تَسْتَقيمُ قِراءةُ مَنْ قَرَأَ بإثباتِ الياءِ في بَلَى والصِّلَةِ بالأوَّلِ؛ لأنَّ بَلَى بالياءِ إنما يُقالُ في الإيجابِ والإثباتِ، وما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، هو على الإنكارِ والنَّفْيِ، وذلكَ غيرُ مُسْتَقيمٍ في اللغةِ والكلامِ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ كأنهم قالوا ذلكَ لأحَدِ وجهَينِ: إمّا استِهْزاءً بما يُخبِرُهُمُ الرُّسُلُ أنكمْ تُبْعَثونَ، أو قالوا ذلكَ احْتِجاجاً؛ احْتَجُّوا بهِ على الرُّسُلِ بقولِهِمُ الذي قالوا:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧. (٤) في الأصل وم: أبلغ. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: ليفهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: عميا. (١٢) في م: في القول.

الآية ٦٨ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحتجُّونَ، فيقولونَ: لقد وُعِدَ[١] آباؤُنا بالبَعْثِ كما وُعِدْنا نَحْنُ، ثم لم نَرَهُمْ بُعِثوا مُنْذُ ماتوا. فعَلَى ذلكَ نَحْنُ وإنْ وُعِدْنا فلا نُبعَثُ كما لم يُبعَثْ آباؤنا.

الآية ٦٩ وقولُهُ[٢] تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقولُ، واللهُ أعْلَمُ: لو سِرْتُمْ، فَنَظَرْتُمْ إلى ما حَلَّ بِمُكَذِّبي الرُّسُلِ مِنَ العذابِ، والرُّسُلُ إنما كانوا يَدْعونَ إلى توحيدِ اللهِ والإقرارِ بالبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ، فَعَلَى[٣] ذلكَ يَنْزِلُ بكُمْ ما أُنْزِلَ بأولئكَ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ بالبَعْثِ وغَيرِهِ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ على حقيقةِ الأمْرِ بالسَّيرِ، ولكنْ على ما ذَكَرْنا، أي لو سِرْتُمْ لَعَرَفْتُمْ ما حَلَّ بهمْ بِتَكْذيبِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ[٤] أنْ يكونَ الأمْرُ بالسَّيرِ في الأرضِ أمْراً بالتَّفَكُّرِ في ما نَزَلَ بأولئكَ، والأمْرُ/ ٣٩٢ - ب/ بالنَّظَرِ في عاقبةِ أمْرِهِمْ أمراً[٥] بالاعْتِبارِ فيهِمْ. وفي أمْرِ أولئكَ أمَرَ بهذا لِيَزْجُرَهُمْ ذلكَ عنْ مثلِ صَنيعِهِمْ وفِعْلِهِمْ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بما يَحُلُّ بهمْ مِنَ العذابِ إنْ لم يَحْزَنوا هُمْ على أنفسِهِمْ، ولم يَرْحَموها.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إنْ لم يُسْلِموا كقولِهِ[٦]: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وكقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وأمثالُ ذلكَ.

كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ، وتَتْلَفُ إشفاقاً عليهِمْ بما يَنْزِلُ بهمْ بِتَرْكِهِمُ الإسلامَ، فقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [وقالَ][٧] ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] ليسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على تَسْكينِ نفسِهِ وتَقْريرِها على ما هي عليهِ لئلا تَتْلَفَ، وتَهْلِكَ. وهو ما قالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا﴾ يَسْتَهْزِئونَ بكمْ، ويَسْخَرونَ، بما تُوعِدُهُمْ مِنَ العذابِ والهَلاكِ.

ألا تَرَى أنهمْ قالوا على إثْرِ ذلكَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ [النمل: ٧١] قالوا ذلكَ لهُ اسْتِهْزاءً بما يوعِدُهُمْ.

فكأنهُ قالَ لرسولِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا﴾ يَسْتَهْزِئونَ بما تُوعِدُهُمْ فإنَّ اللهَ يَجْزيهِمْ جزاءَ اسْتِهْزائِهِمْ بكمْ.

والثاني: ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مِمّا يُريدونَ، ويَهُمّونَ بِقَتْلِكَ، فإنَّ اللهَ يَحْفَظُكَ، ويَحوطُكَ، فلا يَصِلونَ إليكَ ممّا يُريدونَ مِنْ قَتْلِكَ وإهلاكِكَ، وهو ما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ حينَ[٨] أمَّنَهُ، وأخْبَرَهُ أنهُ يَحْفَظُهُ، ويَعْصِمُهُ مِنْ جَميعِ الأعداءِ، وهو بَينَ أظْهُرِهِمْ. فتِلْكَ آيةٌ مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ إنما يقولونَ ذلكَ اسْتِهْزاءً وتكذيباً بِما كانَ يُوعِدُهُمْ مِنَ العذابِ بِتَكْذيبِهِمْ إيّاهُ. ثم كانَ يُوعِدُهُمْ مَرَّةً بعذابٍ يَنْزِلُ بهمْ في الدنيا كما نَزَلَ بأوائلِهِمْ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، ومَرَّةً يُوعِدُهُمْ بعذابٍ يَنْزِلُ بهمْ في الآخِرَةِ، فيُكَذِّبونَهُ في ذلكَ كلِّهِ، ويَسْتَهْزِئونَ بهِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وكذلكَ قالَ أوائلُهُمْ لِرُسُلِهِمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

الآية ٧٢ وقولُهُ[٩] تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ بَعْدَ هذهِ الحالِ وبَعْدَ هذا القَوْلِ الذي قالوا: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يَنْزِلُ بكُمْ بَعْدَ هذهِ الحالِ بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلونَ، وهو العذابُ. وقولُهُ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ أي يَدْنو منكمْ، ويَقْرُبُ.

---

(١) في الأصل وم: وعدنا. (٢) في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: فكل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أمر. (٦) من م، في الأصل: لقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

والثاني: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ بَعْدَ الحُزنِ والمَكْروهِ الذي يَحُلُّ بكُمْ بالموتِ ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو عذابُ القَبرِ، لأنهمْ وَقْتَ المَوتِ يَحزَنونَ، ويَكْرَهونَ، لِما شاهَدُوا، وعايَنوا مِنْ حالِهِمْ. ولذلكَ يَسْألونَ رَبَّهُمُ الرُّجوعَ والرَّدَّ إلى المِحْنَةِ ثانياً نَحْوَ قولِهِمْ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] وقولِهِمْ: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] ونَحْوَهُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وجوهاً:

أحدُها: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ في تأخيرِ العذابِ عنهمْ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلكَ الفَضلَ، ولكنْ يَستَعْجِلونَ.

والثاني: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في دينِهِمْ في بَعْثِهِ وإرسالِهِ إليهِمْ مَنْ يَزْجُرُهُمْ، ويَصْرِفُهُمْ عمّا يَسْتوجِبونَ مِنْ عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ، وهو الرسولُ. لكنهمْ لا [يَعْتَرِفونَ بهذا][1] الفَضلِ، ولا يَشْكُرونَهُ، بل يُعانِدونَهُ، ويُكابِرونَهُ.

والثالثُ[2]: ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في ما أنْعَمَ عليهِمْ في أموالِهِمْ وأنفسِهِمْ. لكنَّهُمْ لا يَشْكُرونَ في ذلكَ، بل يَصْرِفونَ شُكْرَهُ إلى غَيرِ المُنْعِمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما تُكِنّونَ أنتمْ في صدورِكُمْ، وتُسِرّونَ فيها، وما تُعلِنونَ أي ما تُبْدونَ، وتُظْهِرونَ منها[3]. يَعْلَمُ ذلكَ كلَّهُ.

والثاني[4]: ما تُكِنُّ صُدورُهُمْ، أي ما تُخْفي أنفُسُ الصُّدورِ، وتُسِرُّ فيها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما تَحْمِلُ الصدورُ أصحابَها على إبداءِ ما فيها وإظهارِهِ، وهو ما ذُكِرَ في الخَبَرِ حينَ[5] قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ في الإنسانِ مُضْغَةً؛ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ جميعُ بدَنِهِ» [البخاري ٥٢٠] وهو القَلْبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ممّا كانَ، ويكونُ أبَدَ الآبِدينَ إلّا كانَ مُبَيَّناً ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ يُخبِرُ أنهُ كانَ، ولم[6] يَزَلْ عالماً بما كانَ منهُمْ [ويكونُ][7] أبَدَ الآبِدينَ، وأنهُ عَنْ عِلْمٍ بأفعالِهِمْ وصَنيعِهِمْ؛ خَلَقَهُمْ، وأنْشأَهُمْ، لا عَنْ جَهْلٍ وغَفْلَةٍ.

والثاني: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما مِنْ غائبةٍ عنِ الخَلْقِ: ما يَغيبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ويُسِرُّ بَعْضُهُمْ [مِنْ بَعْضٍ][8] إلّا كانَ ذلكَ ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إلّا كانَ ذلكَ عندَ اللهِ مَحفوظاً مَرقوباً، يُنَبِّهُهُمْ ليكونوا على حَذَرٍ يقولُ: إن ما يَغيبُ بعضُهُمْ على بعضٍ فإنه عندَ اللهِ محفوظٌ رقيبٌ، لا [يَغيبُ][9] عنهُ شيءٌ، كقولِهِ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] واللهُ المُوَفِّقُ.

قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي أعْجَلَ لكُمْ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مَقطوعٌ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كأنهُ قالَ: يَقُصُّ على بني إسرائيلَ، أي يُبَيِّنُ لهمْ. ثم قالَ على الاسْتِئْنافِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لا، ولكنْ هو موصولٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ أي يُبَيِّنُ ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ﴾ ممّا اخْتَلفوا فيهِ.

فإنْ كانَ على ما يقولُ هذا فهمْ بأنفسِهِمْ يُبَيِّنونَ الاخْتِلافَ الذي همْ فيه، لا يَحتاجونَ[10] إلى أنْ يُبَيِّنَ القرآنُ الذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفونَ إذْ هُمْ يُبَيِّنونَ ما اخْتَلَفوا فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: يعرفون هذا. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بعضا. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: يحتاج.

ولكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ هذا القرآنَ يُبَيِّنُ لهمُ الحُكمَ في أكثَرِ ما يَختَلِفونَ فيهِ، أو يُبَيِّنُ لهمُ الحَقَّ في أكثَرِ ما يَختَلِفونَ فيهِ.

وفي ظاهرِ الآيةِ أنهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وأنهُ[1] قد بَقِيَ شيءٌ ممّا اختَلَفوا فيهِ لم يُبَيِّنْ حينَ[2] قالَ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

لكنَّ قولَهُ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يُبَيِّنُ لهمْ ما فيهِ نَصُّ القرآنِ، ولم يُبَيِّنْ لهمْ ما فيهِ دليلُ القرآنِ، أو يُبَيِّنُ لهمْ ما فيهِ نَصُّ القرآنِ، ولم يُبَيِّنْ ما فيهِ سُنَّةُ القرآنِ ونَحوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآنَ الذي ذَكَرَ ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هُدًى ورَحمَةٌ، أي هُدًى مِنَ الضَّلالَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ في الدنيا، وعَمِلَ بهِ، ورَحمَةٌ في رَفعِ العذابِ عنهُمْ في الآخِرَةِ، فيكونُ هو هُدًى ورَحمَةٌ لِمَنْ آمَنَ بهِ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ حُكمُهُ هو عَدلُهُ. كأنهُ يقولُ: إنَّ ربَّكَ يَقضي بينَهُمْ بِعَدْلِهِ؛ لا يَجورُ، ولا يَظلِمُ في الحُكمِ والقَضاءِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العَزيزُ: الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، العَليمُ: الذي لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، عَزيزٌ بذاتِهِ، عالمٌ بِذاتِهِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي تَوَكَّلْ على اللهِ، واعتَمِدْ عليهِ، ولا تَخَفْ مَكرَهُمْ وما يُريدونَ، ويَقصِدونَ أنْ يكيدوا بكَ، كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ/ ٣٩٣ ـ أ/ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ لأنَّ مَعَكَ حُجَجاً[3] وبَراهينَ، ليسَ مع أولئكَ حُجَجٌ وبراهينُ، [وإنْ][4] كانَ كلُّ منهمْ يقولُ: أنا على الحَقِّ، فأنتَ على الحَقِّ المُبينِ، لا هُمْ، لأنَّ مَعَكَ حُجَجاً[5] وبراهينَ [أنَّ][6] الذي أنتَ عليهِ حَقٌّ، وأنَّ الذي هُمْ عليهِ باطلٌ، ليسَ بِحَقٍّ.

الآية ٨٠ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: بَلَغَنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نادَى يومَ بَدرٍ: يا فُلانُ، ويا فُلانُ، وهُمْ قَتلَى بَعدَما أمَرَ أنْ يُجمَعوا في قُلَيبٍ، هل وَجَدتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا؟ ألم تُكَذِّبوا نَبِيَّكُمْ، وتَكفُروا بربِّكُمْ[8]، وتَقطَعوا أرحامَكُمْ. فأنزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾.

لكنْ عندَنا أنَّ اللهَ تعالى سَمَّى [الكَفَرَةَ مَوتَى][9] في غَيرِ آيةٍ[10] مِنَ القرآنِ لِما لم يُجهِدوا أنفُسَهُمْ في عِبادةِ [اللهِ][11] ولا استَعمَلوها في طاعَتِهِ. فهمْ كالمَوتَى، وسَمّاهُمْ صُمًّا لِما لم يَسمَعوا الحَقَّ، ولم يَقبَلوهُ، وسَمّاهُمْ بُكماً لِما لم يَنطِقوا بالحَقِّ، ولا تَكَلَّموا بهِ، وسَمّاهُمْ عُمياً لِما لم يُبصِروا الحَقَّ، وسَمّاهُمْ مَوتَى لِما لم يَستَعمِلوا أيدِيَهُمْ في الحَقِّ. فَنَفَى عنهمْ هذهِ الحواسَّ لِما لم يَنتَفِعوا بهذهِ الحواسِّ، ولا استَعمَلوها في ما أُنشِئَتْ، وخُلِقَتْ، وإنْ كانَتْ لهمْ هذهِ الحواسُّ.

فَعَلَى ذلكَ سَمّاهُمْ مَوتَى وهَلكَى، وفي مَوضِعٍ آخَرَ شَبَّهَهُمْ بالأنعامِ، وأخبَرَ أنهمْ ﴿أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لِما لَمْ يَستَعمِلوا أنفُسَهُمْ في ما أُنشِئَتْ هي لهُ، ولم يَنتَفِعوا بها.

فإنْ قيلَ: ما مَعنَى قولِهِ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لا يَقدِرُ على أنْ يُسمِعَ الصُّمَّ، إذا وَلَّوا مُدبِرينَ، ولا يَقدِرُ على أنْ يُسمِعَ الصُّمَّ، وإنْ أتَوا مُقبِلينَ، ولم يُوَلُّوا؟ قيلَ: مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهم صاروا صُمًّا، لا يَنتَفِعونَ بما سَمِعوا لإعراضِهِمْ وتَرْكِ مَكانِ[12] النَّظَرِ فيهِ، ولو أقبَلوا إليهِ لانتَفَعوا بهِ، فَيَصيرُ مُسمِعاً لهمْ؛ يُخبِرُ عن شِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ أنهمْ كالصُّمِّ المُدبِرينَ، لا يُمكِنُ إسماعُهُمْ وتَفهيمُهُمْ بِجَهدٍ: بالإشارةِ والإيماءِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ وفي بَعضِ القراءاتِ: وما أنتَ تَهدِي العُميَ عنْ

---

(١) الواو ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حججٌ. (٤) من م، في الأصل: و. (٥) من الأصل وم: حججٌ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: ربكم. (٩) في الأصل وم: الكافر ميتا. (١٠) في الأصل وم: آي. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: المكان.

ضَلالَتِهِمْ[١]. هذا يَدُلُّ أنْ ليس كلُّ الهُدَى البَيانَ على ما قالتِ المُعْتَزِلَةُ لأنهُ لو كانَ الهُدَى كلُّهُ بياناً في جميعِ المَواضِعِ على ما قالوا هُمْ لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقْدِرُ أنْ يُبَيِّنَ [لِلْكَفَرَةِ ضَلالَهُمْ][٢] وقد بَيَّنَ لهمْ.

ثم أخْبَرَ رسولَهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ فَدَلَّ هذا أنَّ عندَ اللهِ هدايةً ولُطْفاً لو[٣] سألوهُ، وطَلَبوا منهُ ذلكَ، فأعطاهُمْ، لَاهْتَدَوا، وآمَنوا. فهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ما تُسْمِعُ إلّا أهلَ الإيمانِ بالآياتِ وأهلَ الإسلامِ منهمْ. فأمّا أهلُ العِنادِ والمُكابَرَةِ فلا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي إذا وَقَعَتِ الحُجَّةُ عليهِمْ، ولَزِمَتْ، فَكَذَّبوها ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾. وقالَ بعضُهُم: وإذا وَقَعَتِ السَّخْطَةُ والغَضَبُ عليهِمْ أخْرَجْنا لهمْ دابَّةً. وقالَ قائلونَ: إذا وَقَعَ القولُ عليهم، أي إذا بَلَغوا في الكُفْرِ حَدًّا يَعْلَمُ اللهُ أنهمْ لا يُؤمِنونَ أبداً بَعْدَ ذلكَ أخْرَجْنا لهمْ دابَّةً.

لكنْ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ أنَّ هذا، لا يَصِحُّ، ولا يَجوزُ، لأنَّ[٤] اللهَ ﷻ لم يَزَلْ عالماً بما كانَ، ويكونُ منهمْ أبدَ الآبِدينَ. فليسَ عِلْمُهُ بأحوالِهِمْ بما يكونُ منهُمْ إذا بَلَغوا ذلكَ الحَدَّ، بل لم يَزَلْ عالِماً بما يكونُ منهمْ.

وهذا الحَرْفُ الذي يقولُ هذا القائلُ يُومِئُ إلى أنهُ إنما يَعْلَمُ ذلكَ منهمْ إذا بَلَغوا ذلكَ الحَدَّ، وقبلَ ذلكَ لا. فهو قبيحٌ.

وقولُ مَنْ قالَ: إذا وَقَعَتِ الحُجَّةُ عليهِمْ فلا يُحْتَمَلُ أيضاً، لأنَّ الحُجَّةَ قد كانَتْ قامَتْ قَبْلَ ذلكَ الوقْتِ. وليستْ تقومُ الحُجَّةُ عليهِمْ في ذلكَ الوقْتِ.

فيكونُ التأويلُ أحَدَ وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا مِنْ وقوعِ العذابِ ووجوبِ العُقوبةِ والسَّخْطَةِ عليهِمْ كقولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [الأحقاف: ١٨] أي العذابُ وَجَبَ عليهِمْ.

والثاني: أي وإذا أتى وقتُ خُروجِ الدابَّةِ التي وَعَدْنا لهمْ أنها تَخْرُجُ أخْرَجْناها[٥] لهمْ في ذلكَ الوقْتِ، أي لا يَتَقَدَّمُ خروجُها عنِ الوقْتِ المَوْعودِ، ولا يَتأخَّرُ، كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وهكذا كلُّ شيءٍ جَعَلَ اللهُ لظهورِهِ[٦] وكونِهِ وقتاً، لا يَتَقَدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ ذلكَ الوقتُ. هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ قراءةُ العامَّةِ بالتَّشديدِ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ مِنَ التَّكليمِ والتَّحديثِ[٧]، وكذلكَ في بَعْضِ الحروفِ: تَحَدِّثُهُمْ وتُنَبِّئُهُمْ، وقد قُرِئَ: تُكْلِمُهُمْ بالتَّخفيفِ[٨]، وهو مِنَ الجراحةِ، وهو ما ذُكِرَ في الأخبارِ والقِصصِ أنَّ الدابَّةَ إذا خَرَجَتْ تَجْرَحُ الكافِرَ، وتَسِمُهُ بِسِمَةٍ وعلامةٍ حتى يُعْرَفَ الكافرُ مِنَ المؤمِنِ، فَيُقالُ: يا مُؤمِنُ، ويا كافِرُ. وسُئِلَ ابْنُ عباسٍ عنْ ذلكَ، وقالَ: تُكَلِّمُ المؤمنَ، وتُحَدِّثُهُ، وتَجْرَحُ الكافِرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ وتأويلِهِ.

[قَرَأ بعضُهُمْ][٩]: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بِنَصْبِ الألِفِ، و: إنَّ الناسَ بِكَسْرِها. فَمَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ جَعَلَ ذلكَ القولَ مِنَ الدابَّةِ، ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٠. (٢) في الأصل وم: للكافر عن ضلالتهم. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: أخرجنا. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: والتحديد. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٠ و/ ٣٧١. (٩) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: تقولُ الدابّةُ: إنَّ الناسَ كانوا بي وبِخُروجي لِما وَعَدَهُ لا يوقِنونَ.

[والثاني: أنها تُخبِرُ مِنَ اللهِ، وتُنبِئُ، أنَّ الناسَ كانوا بالدابّةِ وبِغَيرِها مِنَ الآياتِ لا يوقِنونَ][1].

ومَنْ قَرَأَ بالخَفضِ[2]: إنَّ الناسَ... يَجْعَلُ ذلكَ القولَ مِنَ اللهِ ابْتِداءَ إخبارٍ. إنهمْ كانوا، لا يَزالونَ لا يوقِنونَ. وفي خروجِ الدابّةِ أعظَمُ آياتٍ في إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ ﷺ ونُبُوَّتِهِ، لأنهُ أخبَرَ أنها تَخرُجُ في وقْتِ كذا، فَتَخرُجُ على ما أخبَرَ في ذلكَ الوقْتِ على الوَصْفِ الذي وَصَفَ، فَيَدُلُّهُمْ على صِدْقِهِ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يُجْمَعُ القادةُ منهمْ والأتباعُ والمتبوعونَ، فَيُساقونَ إلى النارِ جميعاً كقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] وكقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الآية [الزمر: ٧١] وكقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩].

قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسُ أوَّلُهُمْ على آخِرِهِمْ حتى يَجْتَمِعوا. وقد ذَكَرْنا الوَزْعَ في ما تَقَدَّمَ وما قيلَ فيهِ[3].

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ أي حتى إذا جاؤوا جميعاً، واجْتَمَعوا، يعني الكفارَ، قالَ لهمْ: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهُما:][4] أي قد أحَطْتُمْ بها عِلْماً أنها آياتٌ، لكنْ كَذَّبْتُمْ، وأنكَرْتُمْ أنها آياتٌ عِناداً ومُكابَرَةً؛ إذْ يجوزُ أنْ يُتَكَلَّمَ بالنَّفْيِ على إثباتِ ضِدِّهِ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أي نَعْلَمُ بِضِدِّ ذلكَ وبِخِلافِ ما تقولونَ أنتُمْ. وذلكَ جائزٌ، في القرآنِ كثيرٌ.

والثاني[5]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ لِما لم تَتَفَكَّروا فيها، ولم تَنْظُروا إليها نَظَرَ التَّعظيمِ والإجلالِ لكي تَعرِفوا، وتُحيطوا[6] بها علماً أنها آياتٌ.

وإلّا لو كانَ التأويلُ على ظاهِرِ ما ذُكِرَ لكانَ لهمْ عُذْرٌ في تكذيبِها إذا لم يُحيطوا بها عِلْماً؛ إذ مَنْ لم يُحِطِ العِلْمَ بالشيءِ فَلَهُ عُذْرُ الرَّدِّ وتَرْكِ القَبولِ. لكنْ يُخَرَّجُ على الوَجْهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْتُهُما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في تكذيبِ الآياتِ والأعمالِ التي عَمِلوها بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ.

الآية ٨٥ [وقولُهُ تعالى][8] ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي وَجَبَ القولُ بالعَذابِ، وَوَقَعَ ما وُعِدوا مِنَ العَذابِ ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ حينَ[9] قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ونحوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا يَنْطِقونَ بالحُجَّةِ ممّا يكونُ لهمْ بهِ عُذْرٌ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ/ ٣٩٣ ـ ب/ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في الليلِ والنهارِ آياتٌ لِقومٍ يُؤْمِنونَ.

ثم الآياتُ التي ذَكَرَ فيها دلالاتٌ[10] مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: دلالةُ وَحْدانِيَّتِهِ، والثانيةُ[11]: دلالةُ عِلْمِهِ وتَدْبيرِهِ وحِكْمَتِهِ، والثالثةُ[12]: دلالةُ كَرَمِهِ وجودِهِ، والرابعةُ[13]: دلالةُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ، والخامسةُ[14] دلالةُ القُدْرَةِ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ ما صارَ رَماداً وتُراباً.

أمّا دَلالةُ كَرَمِهِ وجودِهِ فما[15] جَعَلَ لهمْ في الليلِ والنهارِ مَنافِعَ تَدومُ ما داموا هُمْ. ثم تلكَ المَنافِعُ تكونُ مِنْ وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧١. (٣) في تفسير الآية ١٧ من السورة. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وأحطتم. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث.
(١٠) في الأصل وم: تكون. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: جَعْلُ النهارِ لِلتَّقلُّبِ فيهِ والتَّصرُّفِ لِمَعاشِهِمْ وما بهِ قِوامُ دُنياهُمْ، وجَعْلُ الليلِ راحةً لهمْ وسُكوناً. ولو جَعَلَهُما جميعاً لِلتَّقلُّبِ ما قامَ بهِ مَعاشُهُمْ وما بهِ قِوامُ أنفسِهِمْ وأبدانِهِمْ أبداً، لأنهُ لا يَلْتَئِمُ ذلكَ إلّا بالرَّاحةِ، ولو جَعَلَهُما جميعاً لِلرّاحةِ لم يَقُمْ أمرُ مَعاشِهِمْ. فَمِنْ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ جَعَلَ أحدَهما لِلرّاحةِ والآخَرَ لِلتَّقلُّبِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

الثاني: مِنَ النِّعْمَةِ التي ذَكَرَ أنهُ جَعَلَ الذي لِلتَّقلُّبِ إنما جَعَلَ ذلكَ لِلْكُلِّ لا لِلْبَعْضِ دونَ البَعْضِ، وكذلكَ الذي هو مَجْعولٌ للراحةِ والقرارِ[1].

إنما [جَعَلَ ذلكَ][2] للكُلِّ لا لِقَومٍ دونَ قومٍ. ولو [لم يَجْعَلْ ذلكَ][3] لكانَ لا يقومُ أمْرُ مَعاشِهِمْ، ولا ما بِهِ تقومُ أبدانُهُمْ وأنفُسُهُمْ. ولكنْ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ المَجْعولَ وقتاً للراحةِ للكُلِّ لا لِبَعْضٍ دونَ بَعْضٍ وكذلكَ المَجْعولَ لِلتَّقلُّبِ[4] لِيَظْفَرَ المُشْتَرونَ بالباعةِ والباعةُ بالمُشْتَرينَ لِيَلْتَئِمَ أمرُ مَعاشِهِمْ ودُنياهُمْ.

وأمّا دلالةُ وَحْدانِيَّتِهِ فما[5] جَعَلَ مَنافِعَ أحدِهِما مُتَّصِلَةً بالآخَرِ، إذْ لا يَقومُ أحدُهُما إلّا بالآخَرِ على اخْتِلافِ جَوهَرِهِما لِيُعْلَمَ أنَّ مُدَبِّرَهُما ومُنْشِئَهُما واحدٌ، إذْ لو كانَ عَدَداً لكانَ ما أرادَ هذا إيصالَهُ مَنَعَ الآخَرُ. فإذْ لم يكُنْ، ولكنْ جَرَيَا على سَنَنٍ واحدٍ واتِّساقٍ واحدٍ. دلَّ أنهُ تَدْبيرُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

ودلالةُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ أنهما منذُ كانا على ميزانٍ واحدٍ وعلى تقديرٍ مِنْ غَيرِ تَغَيُّرٍ وتَبَدُّلٍ، يَقَعُ فيهما. دلَّ أنَّ لِمُنْشِئِهِما عِلْماً ذاتياً لا عِلْماً مُكْتَسَباً مُسْتَفاداً كَعِلْمِ الخَلْقِ.

وأمّا دلالةُ القُدْرَةِ والسلطانِ فَلِأنهما[6] يَقْهَرانِ الخَلْقَ كُلَّهُ مِنَ الجبابِرَةِ والفَراعِنَةِ، شاؤُوا، أو أبَوا، حتى إذا أرادَ واحدٌ منهمْ [أنْ يزيدَ في][7] أحدِهِما، أو يُنْقِصَ مِنَ الآخرِ، لم يَقْدِرْ عليهِ، أو إنِ اجْتَمَعوا جميعاً على دَفْعِهِما أو دَفْعِ أحدِهِما دونَ الآخرِ لم يَقْدِروا عليهِ. دلَّ أنَّ لِمُنْشِئِهِما قُدْرَةً وسلطاناً، إذْ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ودلالةُ القُدْرَةِ على البَعْثِ لأنهُ يُتْلِفُ أحدَهُما، ويَذْهَبُ بهِ حتى لا يُبْقِيَ أثَرَهُ، ثم يأتي بالآخَرِ على تَقْديرِ الأوَّلِ. فَمَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذا بَعْدَ ذهابِ الآخَرِ بِكُلِّيَّتِهِ وذهابِ أثَرِهِ [فإنهُ قادرٌ][8] على إنشاءِ الخَلْقِ بَعْدَ فَنائِهِمْ وهلاكِهِمْ، وإنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

ثم لَمّا جَعَلَ هذا ما ذَكَرْنا، وخَلَقَ ما خَلَقَ مِنَ المَنافِعِ التي ذَكَرْنا لهذا العالَمِ لِلْمِحْنَةِ، يأمُرُهُمْ، يَنْهاهُمْ، وجَعَلَ لهمْ عاقبةً، فيها يُثابُ مَنْ أطاعَهُ، ويُعاقَبُ مَنْ عصاهُ؛ إذْ لو لم تَكُنْ عاقبةٌ لكانَ خَلْقُهُمْ عَبَثاً، لا حِكْمَةَ فيهِ، لأنَّ مَنْ بَنَى بناءً لِلْفناءِ والنَّقْضِ خاصَّةً لا لِعاقِبَةٍ [يَأْمُلُ نَفْعَها][9] كانَ بناؤُهُ عَبَثاً [لا حِكْمَةَ فيهِ][10]. فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ الخَلْقِ لا لعاقِبَةٍ تُقْصَدُ عَبَثٌ ليسَ بِحِكْمَةٍ. والآياتُ لِمَنْ آمَنَ بها، وصَدَّقَ. فأمّا مَنْ لم يُؤمِنْ، وكَذَّبَ بها، فهي آياتٌ عليهِمْ، لا لهمْ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اخْتُلِفَ في النَّفْخِ؛ ماهو؟ وفي عَدَدِهِ. واخْتُلِفَ في الصُّورِ أيضاً؛ ماهو؟ وكيفَ هو؟

أمّا الاخْتِلافُ في النَّفْخِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يقولُ: ليسَ على حقيقةِ النَّفْخِ، ولكنْ إخبارٌ عنْ خِفَّةِ قِيامِ القيامةِ على اللهِ. أخْبَرَ بالنَّفْخِ عنها لأنهُ أخَفُّ شيءٍ على الخَلْقِ وأهْوَنُهُ، فأخْبَرَ بهِ عنها، وهو ما قالَ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] شَبَّهَ أمرَها بِلَمْحِ البَصَرِ لِما ليسَ شيءٌ أخَفَّ على المَرْءِ مِنْ لَمْحِ البَصَرِ. فَعَلَى ذلكَ ذَكَرَ النَّفْخَ عندَ قِيامِها لِخِفَّتِهِ على الخَلْقِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ ذَكَرَ النَّفْخَ لِسُرْعَةِ نَفاذِ الساعةِ؛ إذْ ليسَ شيءٌ أسْرَعَ نَفاذاً مِنَ النَّفْخِ، وهو ما قالَ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾

(١) من م، في الأصل: والقرآن. (٢) في الأصل وم: جعله كذلك. (٣) في الأصل وم: جعل كذلك. (٤) في الأصل وم: للقلب. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: في منع. (٨) في الأصل وم: لقادر. (٩) يتأمل نفعه. (١٠) في الأصل وم: غير حكمة.

[يس: ٢٩ و...] [وقال][1] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨ و...] ذَكَرَ ذلكَ، وشَبَّهَها بالصَّيحَةِ والرَّجْفَةِ لِسُرْعَةِ نَفاذِها على ما ذَكَرْنا، وهو ما قالَ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ليسَ أنهُ يَنْفُخُ فيهِ نَفْخاً، ولكنْ يَجْعَلُهُ[2] كأنهُ قالَ: وجَعَلْنا فيهِ.

ومنهم مَنْ يقولُ على حقيقةِ النَّفخِ. فإنْ كانَ على هذا فهو أنْ يَمْتَحِنَ المَلَكَ مِنْ غيرِ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ إلى ذلكَ نَحْوَ ما امْتَحَنَ الكِرامَ الكاتبينَ[3] بكتابةِ أعمالِ الخَلْقِ وأفعالِهِمْ مِنْ غَيرِ وُقوعِ الحاجةِ إليهِ[4] امْتِحاناً منهُ ملائكتَهُ بذلكَ. أو أنْ يكونوا أُخِذوا، إذْ هو عالمٌ بما كانَ وبما يكونُ، كيفَ يكونُ؟ ومَتَى يكونُ؟ وأيَّ شيءٍ يكونُ؟

وأمّا اخْتِلافُهُمْ في عَدَدِ النَّفخِ، [فقد][5] قالَ قائلٌ: إنهُ واحدٌ، يَحْتَجُّ بقولِهِ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩ و...].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ بالنَّفْخَتَينِ، يَحْتَجُّ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦ و٧] أخبَرَ أنهُ يَرْدُفُ الأولَى غَيرُها، ويَحْتَجُّ بقولِهِ أيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ بالنَّفَخاتِ الثَّلاثِ؛ يقولُ: الأولَى لِلْفَزَعِ، والثانيةُ لِلصَّعْقِ على ما ذَكَرَ[6] في الآيةِ، والثالثةُ لِلإحياءِ.

ومنهُم مَنْ يقولُ بالثَّلاثِ إلّا أنهُ [يَجْعَلُها كلَّها][7] بَعْدَ الموتِ: أحَدُها لِلْفَزَعِ في القُبورِ، والثانيةُ للإحياءِ فيها، والثالثةُ لِلإخراجِ منها والنَّشرِ. ويقولُ هذا القائلُ بعذابِ أهلِ القَبْرِ مِنَ النَّفْخَةِ الثانيةِ إلى النَّفْخَةِ الثالثةِ. وعلى ذلكَ رُوِيَتْ أخبارٌ في ذلكَ. فإنْ ثَبَتَتْ فهو ذاكَ، وإلّا نَقِفُ فيهِ.

وأمّا اخْتِلافُهُمْ في الصُّورِ [فقد][8] قالَ قائلونَ: يُنْفَخُ في الخَلْقِ، والصُّورُ جمعُ صورةٍ. قالَ الزَّجّاجُ: لا يُحْتَمَلُ هذا لأنَّ الصُّورَ على سُكونِ[9] الواوِ، ليسَ هو مِنْ إفرادِ الصُّورةِ ولا مِنْ جَمْعِها، لأنَّ الفَرْدَ هو صُورةٌ بالهاءِ، وجَمْعُ الصُّورةِ صُوَرٌ بِتَحْريكِ الواوِ على ما ذُكِرَ في الآيةِ: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو قَرْنٌ يُنْفَخُ فيهِ كَقَرْنِ كذا، أو بوقٌ كبوقِ كذا. لكنّا لا نُفَسِّرُ شيئاً مِمّا ذُكِرَ مِنَ النَّفخِ والصُّورِ أنهُ كذا، ولا نُشيرُ إلى شيءٍ أنهُ ذا إلّا إنْ ثَبَتَ شيءٌ مِنَ التَّفسيرِ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ فَيُقالُ بهِ، وليسَ هو بشيءٍ، يُوجِبُ العَمَلَ بهِ، فَنَتَكَلَّفُ صِحَّتَهُ أو سَقَمَهُ، إنما هو شيءٌ يجبُ التصديقُ بهِ، فَنَقولُ بالنَّفْخِ والصُّورِ على ما جاءَ، ولا نُفَسِّرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كقولِهِ[10] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] إنما هو إخبارٌ عنْ شِدَّةِ هَوْلِ ذلكَ اليومِ كقولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢] وكقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هُمُ الشهداءُ في الأرضِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في بَعْضِ الحديثِ أنهُ قالَ: «ما أُعْطِيَ آدَمِيٌّ بَعْدَ النُّبُوَّةِ أفْضَلَ مِنَ الشهادةِ» لا يَسْمَعُ الشهيدُ الفَزَعَ يومَ القيامةِ إلّا كرجلٍ قالَ لصاحِبِهِ: أتَسْمَعُ؟ قالَ: أَسْمَعُ أذينَ الصلاةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هُمْ جبرائيلُ وإسرافيلُ مَلَكُ المَوتِ [وغيرُهما][11].

وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الأنبياءُ والرُّسُلُ. لكنْ لا نقولُ نحنُ: إنَّ أهلَ الثُّنْيا هُمْ كذا، ولا نُشيرُ إلى أحدٍ، لأنا لا نَعْلَمُ ذلكَ إلّا أنْ يَثْبُتَ في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فنقولُ بهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الذينَ اسْتَثْناهُمْ هُمُ[12] الذينَ أخْبَرَ عنهمْ في آخِرِ الآيةِ أنهمْ يكونونَ آمنينَ مِنْ فَزَعِ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ، وهو ما قالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم/ ٣٩٤ ـ أ/ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: يجعل. (٣) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: لكن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ذكرنا. (٧) في الأصل وم: يجعل كله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م، في الأصل: السكون. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل: عن، في م: من.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ قُرِئَ بالمَدِّ آتوهُ وتطويلِهِ وضَمٍّ[1] التاءِ فيهِ على مثالِ فاعِلوهُ، جَمْعُ آتٍ [كقولِهِ:][2] ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وآتوهُ جَمْعُ آتٍ، وهو مِنْ سَيَأتونَ. وقَرَأَ بعضُهُمْ: بِقَصْرِ الألِفِ ونَصْبِ التاءِ على الإتيانِ [أي][3] قد أتوهُ. وقولُهُ تعالى: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قيلَ: صاغِرينَ ذَليلينَ؛ دَخَرَ أي ذَلَّ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: وهي تَمُرُّ مَرَّ كذا لِكَثْرَتِها وازْدِحامِها، يَرَى الناظِرُ إليها، ويَحْسَبُها كأنها جامدةٌ، وكذلكَ العَسْكَرُ العظيمُ يَحْسَبُهُ[4] الناظِرُ إليهِ كأنهُ ساكنٌ جامدٌ [لِكَثْرَةِ جنودِهِ][5] وازْدِحامِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الجبالُ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ لشدةِ ذلكَ اليوم وهَولِهِ وفَزَعِهِ على الناسِ، يَحْسَبُونَ [الجبالَ][6] كأنها جامدةٌ ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢] لِشِدَّةِ ذلك اليوم وفَزَعِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ الجبالَ لِهَولِ ذلكَ اليومِ وفَزَعِهِ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ وسَيْرَهُ كقولِهِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

وأصْلُهُ: أنَّ ما يَذْكُرُ هذا وما تَقَدَّمَ مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ على الخَلْقِ لِيَتَّعِظوا، ويَنْزَجِروا.

وقولُهُ تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أتْقَنَ، أحْكَمَ، وأبْرَمَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَتْقَنَ﴾ أي أحْسَنَ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾.

قالَ بعضُ المُعْتَزِلَةِ: كيفَ يكونُ الكُفرُ حَسَناً، وهو قبيحٌ، لأنهُ شَتْمُ ربِّ العالَمينَ؟ ولا يَجوزُ أنْ يُقالَ: اللهُ خَلَقَ شَتْمَ نفسِهِ، وأحْسَنَ شَتْمَ نفسِهِ، أو أحْسَنَ كُفْرَ الكافِرِ وغيرَ ذلكَ مِنَ الخرافاتِ؟ فيُقالُ لهم: لا[7] يقولُ أحدٌ: إنهُ خَلَقَ الكفرَ، وأحْسَنَهُ، أو أحْسَنَ شَتْمَ نفسِهِ. على هذا الإطلاقِ، ومَنْ[8] قالَ ذلكَ فهو كافرٌ. ولكنْ نقولُ: [خَلْقُ][9] فِعْلِ الكُفْرِ مِنَ الكافِرِ قَبيحاً، وخَلْقُ فِعْلِ المَعصيةِ مِنَ العاصي قَبيحاً. لكنهُ مِنْ حيثُ خَلْقُهُ ذلكَ وجَعْلُهُ حُجَّةً عليهِ حَسَناً مُتْقَناً مُحْكَماً، وإنْ كانَ ذلكَ الفِعْلُ منهُ قبيحاً باطلاً سَفَهاً جَوراً، أعني مِنَ الكافِرِ.

ألا تَرى أنَّ مَنْ تَكَلَّفَ أنْ يَعْرِفَ فِعْلَ الكُفْرِ منهُ سَفَهاً وجَوراً، كانَ غَيرَ مَذْمومٍ؟ لأنهُ يَتَكَلَّفُ أنْ يَعْرِفَ ماهو سَفَهٌ في الحقيقةِ سَفَهاً، ويَعْرِفَ ماهو حَقٌّ حقًّا.

فهو مِنْ هذا الوجهِ عارِفُ حقٍّ وحِكْمَةٍ لأنَّ الحِكْمَةَ توجبُ أنْ يَعْرِفَ كلَّ شيءٍ على ماهو في نفسِهِ حقيقةً. فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ فِعْلِ الكُفْرِ مِنَ الكافِرِ على الوجهِ الذي ذَكَرْنا، هو حَسَنٌ مُتْقَنٌ مُحْكَمٌ، وإنْ كانَ مِنْ حيثُ فِعْلُ الكافِرِ قبيحاً سَفَهاً باطلاً. وهذا كما يَصِفُهُ على الإطلاقِ أنهُ ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢]. ولا نقولُ: يا خالقَ الأنجاسِ، ويا ربَّ الأقذارِ ونَحْوَهُ، وإنْ كانَ هذا داخلاً في الجملةِ أنهُ خالِقُها وربُّها، لأنهُ على الإطلاقِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ المَدْحِ لهُ والثَّناءِ، وعلى[10] التخصيصِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الذَّمِ لهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ على إثْرِ وَصْفِ الجبالِ بما وَصَفَ مِنِ انْتِقاضِها وإفسادِها[11] وإخراجِها عنِ الصِّفَةِ التي أنْشَأها إلى ما ذَكَرَ لم يَخْرُجْ مِنَ الإتقانِ والإحكامِ والإبرامِ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ في إفسادِ الشيءِ خُروجٌ عنِ الإتقانِ إذا كانَ ذلكَ مُحْكَمَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وَعيدٌ لهمْ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

---

(١) في الأصل وم: مضمونة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٢. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يحسب. (٥) في الأصل وم: لكثرتهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لو. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: وإفساده.

أحدُها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ بالتَّوحيدِ توحيدِ ربِّهِ [يومَ][1] البَعْثِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

[والثاني][2]: مَجيئُهُ ربَّهُ بالتَّوحيدِ إذا خَتَمَ بِهِ فَلَهُ ما ذَكَرَ؛ شَرَطَ المَجيءَ بِهِ، ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ كذا، لأنَّ الرجلَ، قد يَعْمَلُ بالحَسناتِ، ثم يُفْسِدُها، ويُبْطِلُها، فلا يُثابُ بها عليها، لِيُعْلَمَ أنَّ ما يُنْتَفَعُ بالحَسناتِ في الآخِرَةِ الحسناتُ[3] التي خَتَمَ بها عليها، وجاءَ بها ربَّهُ.

[والثالثُ][4]: قولُهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي ما يُعْطى في الآخِرَةِ لهُ مِنَ الثوابِ والجزاءِ إنما يكونُ مِنَ الحَسَنَةِ التي كانَتْ منهُ في الدنيا، منها تكونُ لهُ جميعُ الخَيراتِ في الآخِرَةِ.

[والرابعُ][5]: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي الذي أُعْطِيَ لهُ في الآخِرَةِ مِنَ الخَيراتِ خَيرٌ مِمّا تَرَكَ في الدنيا مِنَ النِّعَمِ، وصَبَرَ عليها، فذلكَ خَيرٌ مِمّا تَرَكَ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم [مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾][6] [هود: ١١].

[والخامسُ][7]: أي رُؤْيَةُ الربِّ ولِقاؤُهُ خَيرٌ مِمّا أُعْطِيَ غيرَها مِنَ الخَيراتِ على ما يكونُ في الدنيا رُؤْيَةُ المَلِكِ ولِقاؤُهُ على الرَّعِيَّةِ أعظَمُ وأفضَلُ عندَهُمْ مِنْ غَيرِهِ مِنَ الكَراماتِ، وإنْ عَظُمَتْ، وجَلَّتْ.

[والسادسُ][8]: ذلكَ الثوابُ والجزاءُ في الآخِرَةِ خَيرٌ مِمّا عَمِلوا بِهِ مِنَ الخَيراتِ في الدنيا، لأنّ الثوابَ وجوبُهُ الفَضْلُ والرَّحْمَةُ لا الاِسْتِيجابُ والاِسْتِحْقاقُ؛ إذْ في الحِكْمَةِ والعَقْلِ وجوبُ العَمَلِ، وليسَ فيهما وجوبُ الثوابِ في ما هو سَبيلُهُ فَضْلُ اللهِ خَيرٌ ممّا هو غَيرُهُ.

لكنهُ عُورِضَ بأنَّ كلَّ ما كانَ سَبيلُ وجوبِهِ الحِكْمَةَ والعَقْلَ خَيرٌ ممّا كانَ سَبيلُ وجوبِهِ الإفضالَ؛ إذ ما كانَ سَبيلُ وجوبِهِ بالحِكْمَةِ والعَقْلِ لا يَسَعُ تَرْكُهُ، وما كانَ وُجوبُهُ الإفضالَ، لهُ تَرْكُهُ. لكنهُ قالَ[9]: إنَّ قولَهُ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي في طباعِكُمْ وَوَهْمِكُمْ ذلكَ الثوابُ خَيرٌ مِنْ ذلكَ، لا أنهُ في الحقيقةِ خَيرٌ. وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي في طباعِكُمْ.

وعندَكُمْ أنَّ إعادَةَ الشيءِ أهْوَنُ مِنِ ابْتِدائِهِ؛ إذْ ليسَ شيءٌ أهْوَنَ على اللهِ مِنْ شيءٍ.

ولكنْ عندَكُمْ أنَّ إعادَةَ الشيءِ أهْوَنُ مِنِ ابْتِدائِهِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ أخبَرَ أنهمْ إذا أتَوا ربَّهُمْ بالتَّوحيدِ يكونونَ آمِنينَ مِنْ فَزَعِ ذلكَ اليومِ وهَوْلِهِ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي بالشِّرْكِ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ المُنْكَبُّ على الوَجْهِ، هو المُلْقى على الوَجْهِ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ما تُجْزَونَ إلّا بأعمالِكُمْ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ قولُهُ: ﴿حَرَّمَهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[10]: حَرَّمَها، أي مَنَعَها مِنَ الاسْتِلابِ والاِحْتِفاظِ فيها كقولِهِ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] ليسَ على التَّحْريمِ حتى لا يَحِلُّ لهُ ذلكَ، ولكنْ على المَنْعِ والحَظْرِ، أي مَنَعْنا منهُ المَراضِعَ.

والثاني: على التَّحْريمِ نفسِهِ، وهو ما جَعَلَ لِكُلِّ[11] أحدٍ مِنَ الكافِرِ والمُسْلِمِ في الجاهِلِيَّةِ والإسلامِ حُرْمَةَ ذلكَ المكانِ حتى لا يَتَناوَلَ أحدٌ مِنْ صَيدِ تلكَ البُقْعَةِ ومِنْ شَجَرِها وحَشيشِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أيضاً عليكُمْ. كأنهمْ أوعَدوهُ بِوَعيدٍ، وخَوَّفوهُ بِهِ، وطَلَبوا منهُ المُوافَقَةَ لهمْ. فقالَ عندَ ذلكَ لهمْ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهو ربُّ كلِّ شيءٍ، أي

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: الحسنة. (٤) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٥) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٦) في الأصل وم: كذا. (٧) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) الضمير يعود على صاحب هذا الوجه. (١٠) في الأصل م: يحتمل. (١١) في الأصل: كل.

أمِرْتُ أنْ أكونَ عبداً لهُ، لا أجْعَلَ نفسي عبداً لِغَيرِهِ، وأُمِرْتُ أيضاً أنْ أجْعَلَ نفسي سالماً لهُ، لا أجْعَلَ لأحدٍ فيها شِرْكاً كما جَعَلْتُمْ انتمْ أيضاً بذلكَ كلِّهِ، وأُمِرْتُ أيضاً أنْ أتْلُوَ القرآنَ عليكُمْ. فأنا أتْلوهُ عليكُمْ، كَذَّبْتُموني، أو لم تُكَذِّبوني فإنِي لا أخافُ كَيْدَكُمْ ولا مَكْرَكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ دلالةُ لُزومِ الرِّسالةِ لأنَّ أهلَ مكةَ وغَيرَهُمْ قد أقَرُّوا جميعاً بِحُرْمَةِ تلكَ البُقْعَةِ مِنْ أوائِلِهِمْ وأواخِرِهِمْ. فما عَرَفوا ذلكَ إلّا بالرُّسُلِ. دلَّ أنَّ أوائِلَهُمْ أقَرُّوا[1] بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ. فَعَلَى ذلكَ يَلْزَمُ هؤلاءِ الإقرارُ /٣٩٤ ـ ب/ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ يُخْبِرُ أنَّ مَنْ آمَنَ، وقَبِلَ الهُدَى، فإنما يَفْعَلُ ذلكَ لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أيضاً فإنما يكونُ ضَرَرُهُ عليهِ كقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي ليسَ عليَّ إلّا الإنذارُ. فأمّا [غيرُ ذلكَ فذلكَ][2] عليكُمْ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ﴾ [النور: ٥٤] وقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: سيريهِمْ آياتِ وَحدانِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وآياتِ رسالتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾ أيِ الآياتِ[3] ما ذَكَرَ كقولِهِ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

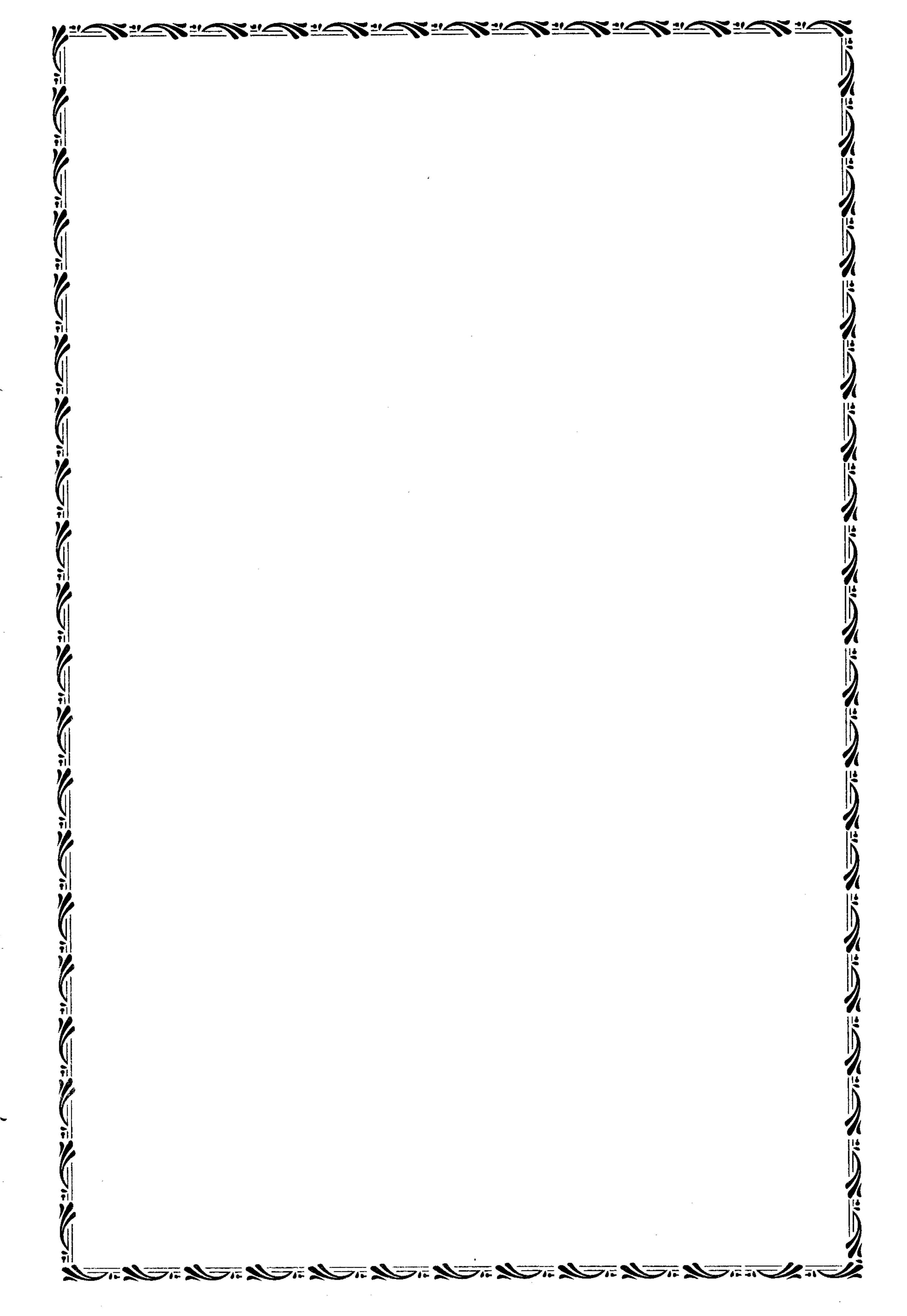
والثاني: سَيُريهِمْ ما وَعَدَ لهمْ مِنَ النَّصْرِ والمَعونةِ لِيَعْرِفوهُ عِياناً على ما عَرَفوهُ خَبَراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4] قالَ بعضُهُمْ: هذا الحَرْفُ توبيخٌ للظالِمِ وتَعْييرٌ وزَجْرٌ، وتَعْزِيَةٌ لِلْمَظلومِ وتَسْلِيَةٌ لهُ. وقالَ بعضُهُمْ: هذا الحَرْفُ تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ.

قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] أي تَبِعَكُمْ، واللامُ زائدةٌ، كأنهُ قالَ: [رَدِفَكُمْ. واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][5].

---

(١) في الأصل وم: يقرون. (٢) من م، في الأصل: على غير ذلك فذلك. (٣) من م، في الأصل: بالآيات. (٤) في الأصل وم: يعملون. انظر معجم القراءات القرآنية ج٤/ ٣٧٥. (٥) من م، في الأصل: ردف لكم.



سورة القصص

[وهي مكيةٌ](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَ هذا في ما تَقَدَّمَ في غيرِ مَوضِعٍ ما يُغْني [عنْ](٢) ذِكْرِهِ في هذا المَوضِعِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ مِنْ نَبَإِ موسى وفِرْعَونَ أي مِنْ خَبَرِهِما.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ، ما يُعْلَمُ أنهُ صِدْقٌ وحَقٌّ. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحَقِّ الذي لِموسى على فِرْعَونَ وقَومِهِ، أو بالحَقِّ الذي عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ.

أحَدُهُما: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ لِلْمُؤْمِنينَ، لأنهمْ هُمُ المُنْتَفِعونَ بالأنباءِ وما فيها. وأمّا مَنْ لا يُؤمِنُ فلا يَنْتَفِعُ بها، فلا تكونُ [لهُ](٣).

والثاني: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالأنباءِ والكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ هُمْ يَعْرِفونَ أنهُ حَقٌّ لِما في كُتُبِهِمْ ذلكَ؛ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَجَبَّرَ، واسْتَكْبَرَ، وأبَى أنْ يَخْضَعَ لِموسى ولأمثالِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بَغَى، وقَهَرَ. فيكونُ تَفْسيرُهُ ماذُكِرعلى إثْرِهِ: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، يُشْبِهُ أنْ يكونَ عُلُوُّهُ وبَغْيُهُ في الأرضِ، ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عَلا قَدْرُهُ، وارْتَفَعَتْ رُتْبَتُهُ لِما ادَّعَى لِنَفْسِهِ الألوهِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ بَعْدَ ما كانَ عبداً كَسائِرِ العِبادِ أو دونَهُمْ، فَعَلا قَدْرُهُ، وارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ بِدَعواهُ: ﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي غَلَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قيلَ: فِرَقاً: يَسْتَضْعِفُ طائفةً، ويُذَبِّحُ طائفةً، ويَسْتَحْيِي طائفةً، ويُعَذِّبُ طائفةً. جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جَعَلَ لكلِّ طائفةٍ منهمْ عِبادةَ صَنَمٍ، لم يَجْعَلْ ذلكَ لطائفةٍ أُخرَى، وجَعَلَ طائفةً أُخرَى على عَمَلِ أولئكَ وحوائِجِهِمْ لِيَتَفَرَّغوا لِعِبادَةِ الأصنامِ التي اسْتَعْبَدَهُمْ لَها، لأنَّ الشِّيَعَ فِرَقٌ، يَرْجِعونَ جميعاً إلى أصْلٍ واحدٍ وإلى أمْرٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كذلكَ كانَ، لَعَنَهُ اللهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ هذا في الظاهرِ إخبارٌ لِرَسولِهِ أنهُ سَيَفْعَلُ ذلكَ، لا أنهُ مَنَّ عليهِمْ، وفَعَلَ ذلكَ لأنهُ(٤) يقولُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ كذا، وقد مَنَّ عليهِمْ بذلكَ. فَهَلّا قالَ: وقدْ مَنَنّا على الذين اسْتُضْعِفوا في الأرضِ. لكنَّ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي لكنّا نريدُ في الأزلِ أنْ نَمُنَّ عليهِمْ، وأنْ نَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً، وأنْ نَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ. وإلا الظاهرُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أنها مكية نزلت فيها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لا أنه.

أحدُهما: جَعَلَهُمْ جميعاً أئِمَّةً لنا، بهِمْ نَقْتَدِي، ونَنْقادُ لهمْ.

والثاني[1]: أي نَجْعَلُ فيهِمْ أئمَّةً وقادةً لهمْ، أي نَجْعَلُ بعضَهُمْ أئمَّةً لِبَعْضٍ [كقولِ ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾][2] ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: ٢٠] والأئمَّةُ المذكورةُ ههنا كأنهمْ هُمُ الأنبياءُ الذينَ ذُكِروا في هذهِ الآيةِ: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [والآيةِ التي تَليها][3]: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦].

هذا كما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧] أي يَرِثونَ الأرضَ ومُلْكَهُمْ بَعْدَ فِرْعَونَ وقومِهِ. والوارثُ هو الباقي على ما ذَكَرْنا، كأنهُ قالَ: يَبْقَونَ هُمْ في أرضِهِمْ ومُلْكِهِمْ بَعْدَ هلاكِهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] أي نَبْقَى نَحْنُ بَعْدَ هَلاكِ الأرضِ وهَلاكِ مَنْ عليها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ أي يَرَونَ ما كانوا يَحْذَرونَ منهُ، وهو الهَلاكُ. وذهابُ المُلْكِ هذا كانوا يَحْذَرونَ. فأراهُمْ ذلكَ، لأنهُ [كانَ][4] يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ إشفاقاً على بَقاءِ مُلْكِهِ، ويَحْذَرُ ذَهابَهُ.

قالَ الزَّجّاجُ: إنَّ مِنْ حَماقَةِ فِرْعَونَ وقِلَّةِ عَقْلِهِ أنهُ كانَ يُذَبِّحُ أبناءَهُمْ لِقولِ الكَهَنَةِ: إنهُ يَذْهَبُ مُلْكُهُ بِغُلامٍ يُولَدُ في العامِ الذي قالوهُ فلا يَخْلُو: إمّا إنْ صَدَقوا في قولِهِمْ، فيذهَبُ مُلْكُهُ، وإنْ قَتَلَ الأبناءَ، وإمّا إنْ كَذَبوا في قولِهِمْ فلا مَعْنَى لِقَتْلِ الأبناءِ لأنهُ لا يَذْهَبُ. لكنهُ فَعَلَ ذلكَ بهِمْ لِحَماقَتِهِ وسَفَهِهِ وجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالنَّجاةِ مِنْ فِرْعَونَ وآلِهِ واسْتِنْقاذِهِ إياهُمْ مِنْ يَدَيهِ ومِنْ قَتْلِ الوِلْدانِ وغَيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ التعذيبِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وجوهٌ على المعتزِلَةِ في قولِهِمْ: إنهُ ليسَ للهِ أنْ يَفْعَلَ بِعبادِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ [وإنْ لو][5] لم يَفْعَلْ ذلكَ كانَ جائراً.

فَيُقالُ لهمْ: لو كانَ عليهِ فِعْلُ الأصلَحِ لهمْ في دينِهِمْ على كل حالٍ لكانَ لا مَعْنَى لِذِكْرِ المِنَّةِ على الذينَ اسْتُضعِفوا في الأرضِ في جَعْلِهِمْ أئِمَّةً وإبقائِهِمْ في أرضِهِمْ وتَمْكِينِهِ إيّاهُمْ في مُلْكِهِمْ وَوِراثَتِهِمْ أموالَهُمْ لأنهُ على زَعْمِهِمْ فَعَلَ بِهِمْ ما عليهِ أنْ يَفْعَلَ أنَّ ذاكَ أصْلَحُ لهمْ في دِينِهِمْ/ ٣٩٥ ـ أ/ وكلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، عليهِ ذلكَ الفِعْلُ، لا يكونُ لهُ الامْتِنانُ على المَفْعولِ بهِ ذلكَ.

فَدَلَّ ذِكْرُ المِنَّةِ في ما ذَكَرَ أنهُ فَعَلَ بهِمْ على أنهُ فَعَلَ ما لم يَكُنْ عليهِ ذلكَ، ولكنهُ فَعَلَ ذلكَ مُفْضِلاً مانًّا[6]، ولهُ ألا يَفْعَلَ ذلكَ.

ويقولونَ أيضاً أنَّ إهلاكَ[7] فِرعَونَ وقومِهِ أصْلَحُ لهمْ مِنْ إبقائِهِمْ وكذلكَ إماتَةُ[8] كلِّ كافرٍ، فلم يَذْكُرْ فيهِ المِنَّةَ. دلَّ ذلكَ أنهُ ليسَ على ما يقولونَ[9] هُمْ، وأنَّ ذلكَ مَنْقوضٌ مَرْدودٌ عليهِمْ.

ويقولونَ أيضاً أنَّ الإرادةَ مِنَ اللهِ لهمْ أمْرٌ لهمْ، يأمُرُهُمْ بهِ. فلو كانَ أمْراً على ما يَزْعُمونَ لكانَ الأمْرُ منهُ قد شَمَلَ الكُلَّ، ثم لم يَصيروا جميعاً أئِمَّةً وقادةً، ولكنْ إنما صارَ بَعْضٌ دونَ بَعْضٍ.

دَلَّ أنَّ الإرادةَ غَيرُ الأمْرِ وأنهُ إذا أرادَ لأحدٍ شيئاً كانَ ما أرادَ ليسَ على ما يقولونَ: إنهُ أرادَ إيمانَ كلِّ كافرٍ، لكنهُ لم يُؤمِنْ بَعْدَما أعطاهُ جميعَ ما عندَهُ مِنَ القوةِ والعَونِ على ذلكَ حتى لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ إلّا وقد أعطاهُ. فَدَلَّ ما ذَكَرَ على فَسادِ مَذْهَبِهِمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الوحْيَ ههنا وَحْيُ الإلهامِ

(١) في الأصل وم: أو أن يكون قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾. (٢) في الأصل وم: كقوله لموسى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: فإن. (٦) في الأصل وم: ممتنا. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٩) من م، في الأصل: يقول.

والقَذفِ في القلبِ لا وَحْيُ إرسالٍ [مِن غيرِ أنْ][1] صارتْ رَسولةً. وذاكَ لا يَجوزُ. لكنْ يُقالُ: جائزٌ أنْ تُلهَمَ هي إرضاعَهُ والقاؤَهُ في اليَمِّ. فأمّا أنْ تُلهَمَ ما ذَكَرَ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذا ممّا لا سَبيلَ إلى معرفتِهِ[2] وعِلْمِهِ إلّا بِتَصْريحِ قولٍ ومُشافَهَةٍ آخَرَ اللهمَّ إلّا أنْ يُقالَ إنهُ كانَ بموسى آياتُ الرسالةِ وأعلامٌ بهِ لمّا عَرَفَتْ هي تلكَ الأعلامَ والآياتِ التي كانَتْ لهُ أنهُ يُرَدُّ إليها وأنهُ يَبْقى رسولاً إلى وَقْتٍ. وقد كانتْ بالرُّسُلِ أعلامُ وآياتُ الرسالةِ في حالِ صِغَرِهِمْ وصِباهُمْ نَحْوُ عِيسَى حينَ[3] كَلَّمَ قومَهُ في المَهْدِ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ أنَّ محمداً لمّا وُلِدَ بالليلِ اسْتَنارتْ تلكَ الناحيةُ، واسْتَضاءَتْ بِنورِهِ حتى ظَنّوا أنَّ الشمسَ قد طَلَعَتْ ونَحْوُهُ.

فَعلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ بموسى أعلامٌ وآياتٌ، عَرَفَتْ أمُّهُ بها أنهُ رسولٌ وأنهُ يُرَدُّ إليها. وإنما كَلَّفَنا بهذا التَّخْريجِ قولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ وَحْيُ إلهامٍ وقَذْفٌ في القَلْبِ، لا غَيرُ.

وعندَنا جائزٌ أنْ يكونَ الوَحْيُ إليها وَحْيَ إرسالِ رسولٍ وإخبارٍ مِنْ غَيرِ أنْ صارتْ هي بذلكَ رَسولةً نَحْوَ ما ذُكِرَ في قصةِ مريمَ أنَّ المَلَكَ لمّا دخلَ تَعَوَّذَتْ باللهِ حينَ[4] ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٨ و١٩] وذلكَ مِنَ البِشارةِ التي بَشَّروها بالوَلَدِ. فلم تَصِرْ بما أُرسِلَ إليها مِنَ الرسلِ، وشافَهوها رَسولةً. فَعلَى ذلكَ أمُّ موسى، ونَحْوَ بِشارةِ الملائكةِ لِامْرأةِ إبراهيمَ بالوَلَدِ، وهو قولُهُ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ونَحْوُهُ مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ لم يَصيروا بذلكَ رُسُلاً.

فَعلَى ذلكَ الوَحْيُ إلى أمِّ موسى يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا. وجائزٌ ذلكَ مِنْ غَيرِ أنْ صارَتْ بذلكَ رَسولةً، وهو أَشْبَهُ وأقْرَبُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: في الآيةِ إخبارٌ[5] لأنهمْ لم يَلْتَقِطوهُ ليكونَ لهم عَدُوًّا وحَزَناً، ولكن كانَ فيهِ إضمارٌ أي التَقَطَهُ آلُ فِرْعونَ لِيَتَّخِذوهُ وَلَداً وَوَلِيًّا، فكانَ لهمْ عَدُوًّا وحَزَناً إذا كَبِرَ [أو كلامٌ][6] نَحْوَ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: ذاكَ إخبارٌ عمّا في عِلْمِ اللهِ أنهُ يكونُ ما ذَكَرَ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: التَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ، فكانَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنهُ يكونُ عَدُوًّا وحَزَناً. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. يُقالُ: لِدوا لِلْمَوتِ، وابْنوا لِلْخَرابِ؛ لا يَلِدونَ لِلْمَوتِ، ولا يَبْنونَ لِلْخَرابِ، ولكنْ إخبارٌ عمّا يَؤولُ أمْرُهُمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ظاهرٌ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ مِنْ وَجْهٍ: [أنَّ اللهَ تعالى إنما يُبْقي الكَفَرَةَ لِما فيهِ صلاحُهُمْ. ثم قد بَيَّنَ أنهمْ كانوا خاطئينَ في ما مَضَى مِنْ عُمُرِهِمْ. والإبقاءُ على الخَطَإِ كيفَ يكونُ أصْلَحَ؟][7].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ هذا لُطْفٌ مِنَ اللهِ ورَحْمَةٌ حينَ[8] ألْقى مَحَبَّةً في قلوبِهِمْ وحَلاوةً في أعْيُنِهِمْ، وهو ما ذَكَرَ مِنَّتَهُ عليهِ حينَ[9] قالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ الشُّكْرِ عليهِ.

قالَ أبو معاذٍ: قالَ مُقاتِلٌ: قولُهُ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ لا تقولُ [آسيةُ:][10] ليسَ لكَ بِقُرَّةِ عينٍ. قالَ أبو معاذٍ: وهذا مُحالٌ. ولو كانَ كذلكَ لكانَ في القراءةِ [حينَ][11] تَقْتُلونَهُ. وهذا أيضاً مُحالٌ لِقولِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ ولما[12] كانتِ القراءةُ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ كانَ[13] مُقاتِلٌ مُصيباً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معرفة ذلك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: إضمار. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) و(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ولو. (١٣) في الأصل وم: لكان.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ هلاكَهُمْ واسْتِئْصالَهُمْ على يَدَيهِ.

والثاني: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهُ هو المطلوبُ قَتْلُهُ[1] مِنْ بَينِ الكلِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: فارغاً مِنْ هَمِّ موسى وحُزْنِها عليهِ. وقالَ بعضُهُمْ: فارغاً مِنْ كلِّ شيءٍ إلّا على موسى وذِكْرِهِ؛ وكأنَّ قولَهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ الآية. وهو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنَّ اللهَ رَفَعَ الحُزْنَ والخَوفَ، وطَبَعَها مِنْ غيرِ أنْ كانَ ثَمَّةَ قولٌ أو كلامٌ.

والثاني: على القولِ لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فإنْ كانَ على هذا فهو على البِشارَةِ لها بالرَّدِّ إليها وجَعْلِهِ رسولاً.

[والثالثُ][2]: على النَّهيِ والزَّجرِ عنِ الحُزْنِ عليهِ والخوفِ عليهِ، وهو حُزْنُ مُفارَقَتِهِ عنها، والخَوفُ عليهِ خَوفُ الهلاكِ كقولِ يعقوبَ حينَ[3] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] ذَكَرَ الحُزْنَ عندَ المُفارَقَةِ والذهابِ عنهُ والخَوفَ عندَ الهلاكِ. فَرَفَعَ اللهُ عنها حُزْنَ المُفارَقَةِ، وبَشَّرَها بالرَّدِّ إليها وجَعْلِهِ رسولَهُ، وأَمَّنَها عنِ الهلاكِ. فيكونُ قولُهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ ممّا خافَتْ عليهِ، وحَزِنَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أنْ رَبَطْنا على قَلْبِها بِما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ الآية فلم تَكَدْ تُبْدِي، وهو كما ذَكَرَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] أي كادَ يَهُمُّ بها لو لم يَرَ بُرْهانَ ربِّهِ، لا أنهُ هَمَّ بها. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لو لم يُثَبِّتْهُ، لكنهُ ثَبَّتَهُ، فلم يَرْكَنْ إليهِمْ، ونَحْوُهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: رَبَطَ قَلْبَها بالإيمانِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ رَبْطُهُ قَلْبَها لمَا ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ الآية.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَارِغًا﴾ مِنْ عَهْدِ اللهِ الذي كانَ عَهِدَ إليها؛ أنساها عَهْدُ اللهِ عِظَمَ البَلاءِ الذي حَلَّ بها، فكادَتْ تُبْدي بِهِ، ثم تدارَكَها اللهُ بالرَّحْمَةِ، فَرَبَطَ على قلبِها، فَذَكَرَتْ، وارْعَوَتْ.

وقالَ بعضُهُمْ: اتَّخَذَهُ فِرْعَونُ وَلَداً، فصارَ الناسُ يقولونَ: ابنُ فِرْعَونَ، ابنُ فِرْعَونَ، فَأَدْرَكَتْ أمَّهُ الرِّقَّةُ وحُبُّ الوَلَدِ، فكادَتْ تقولُ: بل هو ابني. والأوَّلُ أشْبَهُ.

وفي حرفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصَةَ: إنْ كادَتْ لَتُشْعِرُ بِهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي اتَّبِعي أَثَرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قيلَ: عنْ بُعْدٍ، أي كانَتْ تَتْبَعُ أثَرَهُ عنْ بُعْدٍ منهُ. وقالَ بعضُهُمْ: الجُنُبُ: أنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الإنسانِ إلى مَوضِعٍ بعيدٍ، وهو إلى جَنْبِهِ بِقُرْبٍ منهُ. وذلكَ عند الناسِ مَعْروفٌ ظاهِرٌ فيهم ذلك.

وقالَ/ ٣٩٥ ـ ب/ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ قالَ: مَشَتْ بِجُنّابِهِ[4]، وهي مُعْرِضَةٌ عنهُ كأجْنَبِيَّةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ هذهِ تُراقِبُهُ، أو تَنْظُرُ إليهِ، وتَحْفَظُهُ، أو لا يَشعرونَ أنَّ هَلاكَهُمْ على يَدَيهِ. بَصُرَتْ، وأبْصَرَتْ، واحدٌ. وقولُهُ: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عنْ ناحيةٍ بَعيدةٍ، وجَوانِبُ جَماعةٌ. ويُقالُ: رَجُلٌ جُنُبٌ، وقومٌ أجنابٌ، وجانِبٌ، وأجانبُ، وأجْنَبِيٌّ، أي غريبٌ، وهذا كلُّهُ مِنَ الاِجْتِنابِ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ والقُتَبِيِّ.

---

(١) في الأصل وم: بقتله. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: بجنباته.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ حَرَّمَ تَحريمَ مَنْعٍ وحَظْرٍ: [التحريمَ][1] الذي ضِدُّهُ الإطلاقُ والإرسالُ لا التَّحريمُ الذي ضِدُّهُ الحِلُّ؛ وذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى وفَضلٌ ورَحْمةٌ حينَ[2] مَنَعَ موسى عَنْ أنْ يَرْضَعَ مِنَ النساءِ، وهو طِفلٌ، وهِمَّةُ أمثالِهِ الارْتِضاعُ والرَّغْبَةُ في التَّناوُلِ مِنْ كلِّ لَبَنٍ ومِنْ كلِّ مُرْضِعٍ تُرْضِعُهُ لا [تَمْييزَ لهُ][3] في الارْتِضاعِ. فَدلَّ امْتِناعُهُ وكَفُّهُ نَفْسَهُ عنِ الارْتِضاعِ مِنَ النساءِ جُمَعَ أنَّ ذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ أعطاهُ لِيَمْتَنِعَ عنهُ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ[4] عندَ اللهِ لُطفٌ، لو أعطَى الكافرَ الذي هِمَّتُهُ الكُفْرُ والرَّغْبَةُ فيهِ لآمَنَ، واهْتَدَى. لكنهُ لمّا عَرَفَ رَغْبَتَهُ وهِمَّتَهُ فيهِ واختيارَهُ لهُ مَنَعَ ذلكَ عنهُ، ولم يُعْطِهِ.

وهذا[5] الحَرْفُ يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ مَذْهَبَهُمْ في زَعْمِهِمْ أنَّ اللهَ قد أعْطَى كلَّ كافِرٍ السَّبَبَ الذي بهِ يُؤْمِنُ وما بهِ يَصيرُ مُؤْمِناً حتى لم يَبْقَ شيءٌ مِمّا يكونُ بهِ إيمانُهُ إلّا وقد أعطاهُ، لكنهُ لم يُؤْمِنْ.

فَيَنْقُضُ قولَهُمْ ما ذَكَرْنا مِنْ أمرِ موسى أنَّ عندَه لُطفاً[6] لم يُعْطِهِ، لو أعطاهُ لآمَنَ، واهْتَدَى. لكنهُ لم يُعْطِهِ لِما ذَكَرْنا.

وفيهِ لُطفٌ آخَرُ، وهوأنَّ فِرْعَونَ والقِبْطَ كانوا يَقْتُلونَ الوِلْدانَ مِنَ الذكورِ لِيَصيرَ الذي يَخافُ هلاكَهُ وذهابَ مُلْكِهِ على يَدَيهِ مَقْتولاً. فَجَعَلَ اللهُ بِلُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ مَحبَّتَهُ في قَلْبِ فِرْعَونَ وقُلوبِ أهلِهِ حتى صارَ أحبَّ الخَلْقِ إليهِمْ، وصاروا أشْفَقَ الناسِ وأرْحَمَهُمْ عليهِ حتى خافوا هلاكَهُ، وطلبوا لهُ المَراضِعَ لئلا يَهْلِكَ بَعْدَ ما كانوا يَطْلُبونَ هلاكَهُ وتَلَفَهُ. وذلكَ لُطفٌ منهُ لهُ ورَحْمةٌ. وهو ما قالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]. وباللهِ يُسْتَفادُ[7] كلُّ فَضلٍ ونِعْمةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ قولُهُ: ﴿فَقَالَتْ﴾ أي أخْتُهُ التي كانت تَتْبَعُهُ، وتَمْشي على إثْرِهِ. وذلكَ منها [عَدَمُ][8] تَعْريضِ الدلالةِ لهمْ إلى أُمِّهِ لئلا يَشْعُروا أنها أُمُّهُ حينَ[9] قالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تَقُلْ: على امرأةٍ لها لَبَنٌ، وهي ترضِعُ. ولَعَلَّها لو قالَتْ لهمْ ذاكَ وَقَعَ عندَهُمْ أنها أُمُّهُ. ولكنْ دَلَّتْهُمْ على بيتٍ لِيَقَعَ عندَهُمْ أنهمْ أهلُ بيتٍ قُتِلَ وَلَدُهُمْ، ولهمْ ولَدٌ ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي يَقْبَلونَهُ، ويَضُمُّونَهُ إلى أنْفُسِهِمْ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ أي لِفِرْعَونَ، لا يَخونونَهُ فيه. ويَحْتَمِلُ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لِموسى.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي تُسَرُّ بِرَدِّهِ إليها. وذلكَ مَعْروفٌ في النساءِ ظاهِرٌ أنهنَّ يَحْزَنَّ بِمُفارَقَةِ أولادِهِنَّ، ويَهْتَمَمْنَ لذلكَ، ويُسْرَرْنَ إذا [رَجَعوا إليهِنَّ، واجْتَمَعوا مَعَهُنَّ][10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ كانَتْ تَعْلَمُ هي، واللهُ أعلَمُ، أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ كائنٌ، لا محالَةَ. لكنْ [كانَتْ تَعْلَمُ][11] عِلْمَ خَبَرٍ لا عِلْمَ عِيانٍ ومُشاهدةٍ، كأنهُ قالَ: لِتَعْلَمَ عِلْمَ عِيانٍ ومُشاهَدةٍ كما عَلِمَتْ عِلْمَ خَبَرٍ، لأنَّ عِلْمَ العِيانِ والمُشاهَدةِ أكْبَرُ وأبْلَغُ وأدْفَعُ لِلشُّبْهَةِ مِنْ عِلْمِ الإخبارِ. ألا تَرَى أنَّ إبراهيمَ سألَ ربَّهُ أنْ يُرِيَهُ إحياءَ المَوْتى، وإنْ كانَ يَعْلَمُ حقيقةً أنهُ يُحْيِي المَوتَى وأنهُ قادرٌ على ذلكَ. لكنهُ كانَ يُعْلَمُ عِلْمَ خَبَرٍ، فأحَبَّ أنْ يَعْلَمَهُ عِلْمَ عِيانٍ ومشاهَدةٍ لأنهُ أكْبَرُ وأبْلَغُ لِلْوَساوِسِ مِنْ عِلْمِ الإخبارِ؟ [فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ][12].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أخْبَرَ أنَّ أكْثَرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ][13] والمُعْتَزِلةُ منهمْ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يَمْلأُ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجْمَعينَ حينَ[14] قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] وهُمْ يقولونَ: أرادَ ألّا يَمْلأَ جَهَنَّمَ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ أرادَ إيمانَ كلِّ الناسِ أجْمَعينَ[15]، وشاءَ ذلكَ لهمْ فلم يُؤْمِنوا. فَعَلَى قولِهِمْ: إنْ شاءَ ذلكَ لهمْ شاءَ أنْ يَمْلأَ جَهَنَّمَ منهمْ. فذلكَ خُلْفٌ في الوَعْدِ وكَذِبٌ في القولِ على قولِهِمْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: الأشُدُّ هو ما بَينَ ثمانيَ عشرةَ سَنَةً إلى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: تميز لهم. (٤) من م، في الأصل: يكونوا. (٥) من م، في الأصل: وهذه. (٦) في الأصل وم: لطف. (٧) من م، في الأصل: ليستفاد. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: جعلوا إليهن واجتمعوا. (١١) في الأصل: كانت، ساقطة من م. (١٢) في م: فعلى ذلك، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: جميعا.

ثلاثينَ سَنَةً، ثم هو ما بَينَ الثلاثينَ إلى الأربَعينَ [اسْتِواءُ الشِّدَّةِ، ثم يأخُذُ بَعْدَ الأربعينَ][١] في النُّقْصانِ، ثم غيرَ بِعُمُرِهِ الأربعينَ سَنَةً.

وقالَ بعضُهُمْ: [أُريدَ بقولِهِ][٢] ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أربَعونَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ مِثْلُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قالَ: الأشُدُّ الحِلْمُ، والاسْتِواءُ أربعونَ سَنَةً.

وأصْلُ الأشُدِّ أنْ يَشْتَدَّ كلُّ شيءٍ منهُ، وصارَ يَحْتَمِلُ ما قُصِدَ بهِ، وجُعِلَ فيهِ، ويَدْخُلُ في ذلكَ العَقْلُ وكلُّ شيءٍ، ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [أي اسْتَوَى][٣] ذلكَ، واسْتَحْكَمَ، وصارَ بحيثُ يَحْتَمِلُ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الاِسْتِواءُ هو الأشُدَّ الذي ذَكَرَ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أيِ اسْتَحْكَمَ، وانْتَهى شبابُهُ، واسْتَقَرَّ، فلم تَكُنْ فيهِ زيادةٌ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي آتيناهُ الحُكْمَ[٤] الذي يَحْكُمُ بهِ بينَ الناسِ ﴿وَعِلْمًا﴾ بمصالِحِ نَفْسِهِ ومَصالِحِ الخَلْقِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: الحُكْمُ الفِقْهُ والعَقْلُ، والعِلْمُ قِيلَ: النُّبُوَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الآخِرَةِ بالوَعْدِ الذي وَعَدَ لهمْ في الدنيا كما جَزَى موسى بإنجازِ ما وَعَدَ لهُ[٥] أو أنْ يكونَ مِنْ موسى إحسانٌ وجَهْدٌ في طَلَبِ العِلْمِ وغَيرِ ذلكَ ممّا أعطاهُ ذلكَ، وأخْبَرَ أنهُ كذلكَ يَجْزي مَنْ ذَكَرَ كقولِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقولِهِ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣] كانَ وَعْدُهُ إيّاها أنْ يَرُدَّهُ إليها، ويَجْعَلَهُ مِنَ المُرْسَلينَ، ومَعْناهُ ما ذُكِرَ في ما تَقَدَّمَ.

قالَ الكسائيُّ: يُقالُ امرأةٌ مُرْضِعٌ مادامَتْ تُرْضِعُ، فإذا فَطَمَتْ سُمِّيَتْ مُرْضِعَةً ما دامَتْ حُبْلَى فهي مُرْضِعَةٌ، أي سَتُرْضِعُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: على غَفْلَةٍ مِنْ أهلِ المدينةِ وهو عندَ الظهيرةِ، وذلكَ وقتُ القائلةِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أهلِ البَلَدِ عنْ دخولِ موسى، أي دَخَلَها مِنْ غيرِ أنْ شَعَروا بهِ، وعَرَفوا أنهُ موسى. على هذا التأويلِ الغَفْلَةُ تكونُ على دخولِ موسى عليهِمْ. وعلى الأوَّلِ على غَفْلَةِ أهلِ المدينةِ أي وَقْتَ غَفْلَتِهِمْ.

فإنْ كانَ على هذا فَيَحْتَمِلُ أنْ تكونَ غَفْلَةُ أهلِها هي أنْ كانَ ذلكَ يومَ عيدِهِمْ؛ خَرَجوا إليهِ، فَدَخَلَ هو المدينةَ لِيَطَّلِعَ [على][٦] أحوالِها وأسبابِها. إلّا أنْ تكونَ العادةُ فيهِمْ أنهمْ بأجْمَعِهِمْ يَقيلونَ، فذلكَ مُحْتَمَلٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: إنَّ قولَهُ: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ إنما يُقالُ للشاهِدِ المُشارِ إليهِ، فأمّا الغائبُ فإنهُ لا يُقالُ، لكنْ قالوا: إنَّ فيهِ إضماراً ولُطْفاً؛ كأنهُ قالَ: فَوَجَدَ فيها/ ٣٩٦ ـ أ/ رجلَينِ يَقْتَتِلانِ: مَنْ نَظَرَ إليهما يقولُ: هذا من شيعتِهِ، وهذا مِنْ عَدُوِّهِ، ثم قالَ أهلُ التأويلِ: أحَدُهما كانَ إسرائيليًا والآخَرُ قِبْطِيًا.

فإنْ قيلَ: كيفَ سمّى الإسرائيليَّ مِنْ شيعةِ موسى؟ [قيلَ: كانَ][٧] ذلكَ أوّلَ ما دَخَلَ موسى المدينةَ، وبنو إسرائيلَ يومئذٍ كانوا عُبّادَ الأصنامِ، وقد حُبِّبَ إليهِمْ حتى قالوا لموسى بَعْدَ ما أخْرَجَهُمْ مِنَ المدينةِ وبَعْدَ هلاكِ فرعونَ والقِبْطِ جميعاً. ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وكذلكَ يقولُ مقاتلٌ: كانا كافِرَينِ جميعاً.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: العلم.
(٥) من م، في الأصل: لهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وذلك.

ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؟ [القصص: ١٧] لكنْ يُخرَّجُ هذا على الإضمارِ؛ كأنهُ [قالَ: يكونُ ﴿هَٰذَا﴾][1] مِنْ شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ. أو يقولُ: يكونُ هذا مِنْ قوم، هُمْ شيعَتُهُ، ويَبْقَى هذا عَدُوًّا في قومٍ، هُمْ أعداؤُهُ. وعلى هذا يُخرَّجُ تأويلُهُ أنهما كانا كافِرَيْنِ جميعاً. لكنْ يُخرَّجُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أيِ استَغاثَهُ الذي كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يكونُ مِنْ شيعَتِهِ على الذي في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَبْقَى عَدُوًّا لهُ لِيَنصُرَهُ[2]. والاستِغاثَةُ هي الاستِعانَةُ والاستِنْصارُ، أي سألَهُ أنْ يكونَ مِنْ شيعَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: الوَكْزَةُ [الطَّعْنَةُ في الصَّدْرِ][3]. وقالَ الزَّجّاجُ والقُتَبِيُّ وهؤلاءِ: الوَكْزَةُ الدَّفْعَةُ ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ أي دَفَعَهُ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي فَرَغَ منهُ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] وقولِهِ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي فُرِغَ ونَحْوَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قَتَلَهُ، وكلاهُما سَواءٌ؛ إذا قَتَلَهُ فَقَدْ فَرَغَ منهُ، وهو لم يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، ولا قَصَدَهُ. لكنَّ اللهَ قَضَى أجَلَهُ، وجَعَلَ انْقِضاءَ عُمُرِهِ بِوَكْزَةِ موسى، وهو في الظاهِرِ قاتِلٌ، لأنهُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] ولم يُكَذِّبِ اللهُ موسى في قولِهِ: إنكَ لم تَقْتُلْ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ الآيةَ.

وفيهِ دلالةُ جوازِ الاستِدْلالِ لِقولِ أبي حنيفةَ حينَ[4] قالَ: مَنْ قَتَلَ آخَرَ بِحَجَرٍ عظيمٍ أو بخَشَبَةٍ عظيمةٍ ممّا لا يَنْجو مِنْ مِثْلِهِ فإنهُ[5] لا يُقْتَلُ بِهِ، ولا يَجِبُ القِصاصُ فيهِ، لأنَّ موسى لمّا وَكَزَ ذلكَ القِبْطِيَّ [ماتَ، وذُكِرَ][6] أنَّ لهُ قوةَ أربعينَ رجلاً، لم يَرَ القِصاصَ بِهِ واجباً حينَ[7] قالَ لهُ ذلكَ الرجلُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠ و٢١].

ولو كانَ القِصاصُ واجباً لكانَ أولئكَ لم يكونوا ظلمةً في قتلِهِ، بل يكونُ هو الظالمَ فيهِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القِصاصُ واجباً أيضاً، وموسى يَفِرُّ مِنْ ذلكَ، ويَهْرُبُ. وفي ذلكَ إبطالُ حقِّهِمْ.

دلَّ أنهُ لم يَجِبْ، ولاشكَّ أنَّ وَكْزَةَ مَنْ لهُ قوةُ أربعينَ رجلاً إلى الهلاكِ أسرَعُ وأقرَبُ[8] وأعمَلُ مِنَ الضَّرْبِ بالحَجَرِ العظيمِ والخَشَبَةِ العظيمةِ. فإذا لم يجبْ في هذا لم يَجِبْ في ذاكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بما أنْعَمْتَ عليَّ بالمَغْفِرَةِ، فلم تُعاقِبْني بِقَتْلِ النَّفْسِ، وعَصَمْتَني مِنْ أنْ أعاقَبَ بِهِ في الدنيا.

وجائزٌ أن يكونَ بما أنْعَمَ عليهِ هو قُوَّتَهُ التي [أعطاهُ إيّاها][9] أخبَرَ ألّا يكونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أكثَرُ ما ذُكِرَ في القرآنِ: أصْبَحَ مَعْناهُ[10] صارَ كقولِهِ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: ٤١] أي صارَ وقولِهِ: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]. ونَحْوُهُ.

وأمّا ههنا فقولُهُ[11]: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إنما يُريدُ [بِهِ][12] الصباحَ نفسَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي يَنْتَظِرُ سُوءاً ينالُهُ منهمْ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: التَّرَقُّبُ الخوفُ؛ كأنهُ قالَ: خائفاً هلاكَهُ. وأصْلُ التَّرَقُّبِ هو النَّظَرُ، والرَّقوبُ أنْ يَرْقُبَ مَنْ يَطْلُبُهُ، وهو مِنَ الرَّقيبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ كانَ الرجلُ الذي أخبَرَ أنهُ مِنْ شِيعَتِهِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ينصره. (٣) في الأصل وم: الطعن في الصدور. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فمات وكز. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: فالأقرب. (٩) في الأصل وم: اعطاها. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ضَعيفاً في نَفْسِهِ حتى[1] لا يَقْدِرَ أنْ يَقومَ لِواحِدٍ، فَيَسْتَنْصِرَ بموسى، ويَسْتَعينَ بِهِ. إلّا أنهُ كانَ يُخاصِمُ[2]، ويُنازِعُ، ويُقاتِلُ، لِسُوءٍ فيهِ وبَلاءٍ؛ يُقاتِلُ، ويُنازِعُ. وإلّا لم يكُنْ بنفسِهِ مِنَ القوةِ ما يَقومُ لواحدٍ فَمِنْ حينَ[3] لا يُقاتِلُ مِثْلَهُ، ولكنهُ لِما ذَكَرْنا مِنْ سوءٍ بِهِ. ولِذلكَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

[إنما عَرَفَ موسى][4] غِوايَتَهُ بالاسْتِدْلالِ الذي ذَكَرْنا لا بالمُشاهَدَةِ. ولذلكَ أرادَ أنْ يَبْطِشَ بالذي[5] هو عَدُوٌّ لهما لِئَلّا يَقْتُلَهما، ولا يُهْلِكَهُ، لِما عَرفَ غِوايَتَهُ بالِاسْتِدْلالِ لا حقيقةً.

وذَكَرَ هٰهنا البَطْشَ، وهو الأخذُ باليدِ. وفي الأوّلِ ذَكَرَ الوَكْزَةَ، وهي الدَّفْعُ والطَّعْنُ على ما ذَكَرْنا، فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ لمّا ذَكَرَ الأوّلَ، فَأَتَتِ الوَكْزَةُ على نَفْسِهِ، فَقَتَلَتْهُ، فأخذَ هذا مِنْ هذا لِيَمْنَعَهُ عَنْ إهلاكِهِ وإتلافِهِ، ولا يأتيَ على نفسِ الآخَرِ كما فَعَلَتِ الوَكْزَةُ.

الآية ١٩ [وقولُهُ تعالى:][6] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ اختُلِفَ في قائلِ هذا:

قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قائلَ هذا هو الذي اسْتَصْرَخَهُ، واسْتَغاثَهُ؛ قالوا: لأنهُ ظَنَّ أنَّ موسى إنما أرادَ بَطْشَهُ وأخذَهُ، وإليهِ قَصَدَ، لذلكَ قالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

وقالَ قائلونَ: هذا القولُ إنما قالَهُ[7] ذلكَ القِبْطِيُّ.

فإنْ كانَ هذا فهو يدلُّ أنَّ قَتْلَهُ ذلكَ الرجلَ بالأمسِ كانَ ظاهراً حتى[8] عَلِمَ بِهِ القِبْطِيُّ، وكانَ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي مِنْ دخولِ موسى المدينةَ.

وإنْ كانَ هو الأوّلَ كانَ قَتْلُهُ إيّاهُ خَفِيًّا غيرَ ظاهرٍ. فَعَلَى هذا تكونُ الغَفْلَةُ على أهلِ المدينةِ لا على دخولِ موسى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ لأنَّ الذي يُصْلِحُ بينَ اثْنَينِ، لا يَقْتُلُ، ولا يأخُذُ أحدَهُما دونَ الآخَرِ، ولكنْ يُصْلِحُ بَينَهما على السَّواءِ. لِذلكَ[9] قالَ ما قالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يقولُ: هكذا فِعْلُ الجبابِرَةِ [أنْ][10] تَقْتُلَ النَّفسَ بِغَيرِ نَفْسٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الجبابِرَةُ، تَقْتُلُ النَّفْسَ بِغَيرِ نفسٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الجَبّارُ، هو الذي يَحْمِلُ الناسَ على هَواهُ وعلى ما يُريدُهُ، ويَقْهَرُهُمْ على ذلكَ، شاؤوا، أو أبَوا. وقالَ بعضُهُمْ: الجَبّارُ، هو الذي تَكَبَّرَ على الناسِ، لا يَرَى أحداً لنفسِهِ نظيراً، أو كلامٌ نَحْوُهُ، ويُقالُ، كلُّ قاتِلٍ آخَرَ على الغَضَبِ بِغَيرِ حقٍّ فهو جَبّارٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أقصى المدينةِ هو مَسْكَنَ فِرْعَونَ ومُقامَهُ، فَمِنْهُ جاءَ ذلكَ الرجلُ، أو أنْ يكونَ أقصى المدينةِ مَوطِنَ المَلإِ والأشرافِ الذينَ ذَكَرَ أنهمُ ائْتَمَروا على قَتْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾ السَّعْيُ[11] هو العَدْوُ في اللغةِ؛ كأنهُ يُسْرِعُ المَشْيَ إليهِ لِيُخْبِرَهُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يأتمِرونَ: قالَ بعضُهُمْ: يَتَشاوَرونَ في قَتْلِكَ.

وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي يَهُمّونَ في قَتْلِكَ، وذُكِرَ عنهُ أنهُ قالَ: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَتَشاوَرونَ بكَ، وهو قولُ أبي عَوسَجَةَ.

وأصْلُ الِائْتِمارِ في اللغةِ، هو الطاعةُ والاتِّباعُ لِما يُؤْمَرُ مِنَ الفِعْلِ؛ كانَ فِرْعَونُ أمَرَ المَلأَ أنْ يَقْتُلوهُ، فأطاعوهُ، وائْتَمَروا لِأمْرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يخاطب. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: لكن موسى إنما المعروف. (٥) الباء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) في الأصل وم: قال له. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: الذي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: والسعي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ: ﴿لَكَ﴾ صِلَةٌ، والصِّلَةُ لا تتقدَّمُ/ ٣٩٦ ـ ب/ المَوصولَ بهِ. ولكنَّ مَعْناهُ: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الذينَ يَنصحونَ لَكَ. وليسَ كما قالَ: الصِّلَةُ تتقدَّمُ، وتتأخَّرُ. وذلكَ ظاهرٌ في الكلامِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ قد ذَكَرْنا هذا.

دَلَّ قولُهُ: ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ أنَّ الخَوفَ قد يكونُ مِنْ دونِ اللهِ. وجائزٌ أنْ يُخافَ مِنْ غيرِهِ، وليسَ كما يقولُ بعضُ الناسِ: ألّا يَسَعَ الخَوفُ مِنْ دونِ اللهِ. وحقيقةُ الخوفِ تكونُ مِنَ اللهِ، يُخافُ أنْ يَنْتَقِمَ منهُ على يَدَي[1] هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ الظالمُ كلَّ مُشْرِكٍ، لأنَّ كلَّ مُشْرِكٍ ظالمٌ. ويَحتَمِلُ: قولُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حينَ[2] هَمُّوا بقَتْلِهِ. وقَتْلُ موسى ذلكَ القِبْطِيَّ لم يوجِبْ عليهِ القَتْلَ والقِصاصَ لأنهُ لم يَتَعَمَّدْ قَتْلَهُ، أو لم يَقْتُلْهُ بِسلاحٍ، يَجِبُ بهِ القَتْلُ. فَذَكَرَ أنهمْ في ما هَمُّوا بِقَتْلِهِ ظَلَمَةٌ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ بعضُهُمْ: أخَذَ طريقاً؛ إذا سَلَكَ ذلكَ الطريقَ، ونَفَذَ فيهِ، خَرَجَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ، أو وَقَعَ تِلْقاءَ المكانِ المَقْصودِ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أيِ الطَّريقَ الذي كانَ يَقْصِدُهُ، ويَطْلُبُهُ، وهو طريقُ مَدْيَنَ، وذُكِرَ أنهُ كانَ ضَلَّ الطريقَ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أي وَرَدَ البِئْرَ التي كانَ ماءَ مَدْيَنَ، أي وَرَدَ[3] البِئْرَ التي كانَ ماءُ مَدْيَنَ مِنْ تلكَ البِئْرِ ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ أمَّةً أي جماعةً، وقيلَ: أناسٌ، مِنَ الناسِ يَسْقونَ أغنامَهُمْ ومَواشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تَذودانِ تَحْبِسانِ حتى يَفْرُغَ الناسُ، ويُصْدِروا[4]، ويَخْلُوَ لهما البِئْرُ. وقالَ بعضُهُمْ: تَذودانِ أغنامَهُما لِتَسْقِيَها.

ثم قولُهُ: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: [تذودانِ][5] غَنَمَهُما، ولا تَسْقِيانِها ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ لِما لا تُتْرَكانِ تَسْقِيانِ غَنَمَهُما مَعَ غَنَمِ أُولئكَ الرِّعاءِ حتى يُصْدِروا هُمْ.

والثاني: لا تَمْنَعانِ ذلكَ، ولكنَّها تَسْتَحِيانِ أنْ تُزاحِما الرجالَ، وتَخْتَلِطا بهِمْ، فَتَنْتَظِرانِ فَراغَهُمْ صُدورَ الرِّعاءِ عنها.

فإنْ قيلَ: فما بالُهُما لا تَتَخَلَّفانِ وقتَ اجْتِماعِ القومِ، وتَشْهَدانِ في ذلكَ الوقتِ، أو لا تَنْتَظِرانِ خَلاءَ البِئْرِ منهُمْ؟ قيلَ: لِما ذُكِرَ أنَّ على رأسِ البِئْرِ حَجَراً، يُلْقى عليها[6]، لا يُطيقُهُ إلّا كذا كذا نَفَراً، وكذلكَ الدَّلْوُ التي يُسْتَقى منها، لا يُطيقُها إلّا كذا كذا، مِنْ عَشَرَةٍ إلى أربَعينَ على ما ذُكِرَ. فهما تَشْهَدانِ تلكَ البِئْرَ منهُمْ، ثم تأتِيانِ، لم تَقْدِرا على نَزْحِ الماءِ والدَّلْوِ ورَفْعِ الحَجَرِ الذي ذُكِرَ أنهُ كانَ على رأسِ البِئْرِ، لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي ما شأنُكُما؟ وما أمْرُكُما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ لِما ذَكَرْنا. وقُرِئَ يَصْدِرُ بِنَصْبِ الياءِ وبالرَّفْعِ جميعاً. ومَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ[7] فإنهُ يقولُ: حتى يَصْدِرَ الرِّعاءُ بأنفسِهِمْ، أي يَرْجِعَ. ومَنْ قَرَأَ بالرَّفْعِ [فَمَعْناهُ][8] حتى يَصْرِفوا، ويُرْجِعوا أغنامَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ تَذْكُرانِ، واللهُ أعلَمُ، عُذْرَ أبيهِمْ في التَّخَلُّفِ عن سَقْيِ الغَنَمِ، وإرسالِهِ إيّاهما في ذلكَ دونَ تَوَلِّي ذلكَ بِنَفْسِهِ، وقالَتا[9]: ذلكَ لِكِبَرِهِ وضَعْفِهِ ما يَتَخَلَّفُ عن ذلكَ ويُرْسِلُهُما، وإلّا لا مَعْنَى لِذِكْرِ كِبَرِ أبيهِما بلا سَبَبٍ، يَحْمِلُهُما على ذلكَ سِوَى ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يكونَ لِمَعْنًى آخَرَ، لا نَعْلَمُهُ.

---

(١) من م، في الأصل: يديه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: مورد. (٤) في الأصل وم: ويصدرون. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عليه. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٣. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقالا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ دلَّ أنَّ البئرَ التي كانَتْ تُسقَى الماشيةُ منها كانَتْ في الشمسِ حينَ[1] أخبرَ أنهُ سَقَى لهما [ثمَّ][2] تولّى إلى الظِّلِّ. وفيهِ أنْ لا بأسَ بأنْ يُجلَسَ[3] في الظِّلِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قيلَ: إنَّ هذا منهُ شِكايةٌ عمّا أصابَهُ مِنَ الجوعِ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ خَرَجَ مِنَ المِصْرِ إلى مَدْيَنَ هارباً مِنْ فِرْعَونَ وقومِهِ غيرَ مُتَزَوِّدٍ، وهو مَسيرةُ ثماني لَيالٍ.

وفيهِ دلالةُ أنْ لا بأسَ للرجلِ أنْ يُخبِرَ، ويَذْكُرَ، عمّا هو [فيهِ][4] مِنَ الشِّدَّةِ والبَلاءِ حينَ[5] ذَكَرَ موسى حالَهُ التي هو فيها مِنَ الجوعِ الذي أصابَهُ. وكذلكَ[6] ما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] وذلكَ يَرُدُّ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ مِثْلَ هذا يُخرِجُ مُخرجَ الشِّكايةِ إلى اللهِ. ولو كانَتْ شِكايةً لَكانَ موسى لا يَقولُ ذلكَ، ولا يَذْكُرُهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قولُهُ: ﴿تَمْشِي﴾ مَشْيَ مَنْ لم يَعْتَدِ الخُروجَ، أو ﴿تَمْشِي﴾ مَشْيَ مَنْ لم يُخالِطِ الناسَ ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ على التَّسَتُّرِ والتَّغْطِيةِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ هذا يَدُلُّ على أنْ لا بأسَ أنْ يُؤخَذَ على المَعْروفِ الذي صُنِعَ إلى آخَرَ أجرٌ. والأفضلُ على [مَنْ][8] صَنَعَ إليهِ المَعْروفَ والتَّبَرُّعَ أنْ يُعطَى لِمَعْروفِهِ وتَبَرُّعِهِ بَدَلاً وأجراً. والأفضلُ على المُتَبَرِّعِ وعلى صانِعِ المَعْروفِ ألّا يأخُذَ على ذلكَ بَدَلاً.

إلّا أنَّ موسى كانَ قدِ اشْتَدَّتْ بهِ الحاجةُ. لِذلكَ كانَ ما ذُكِرَ وأخَذَ لِمَعْروفِهِ ما ذُكِرَ بدلاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي لمّا جاءَ موسى أبا المَرْأتَينِ، وقَصَّ عليهِ قِصّتَهُ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلَّ قولُهُ هذا لموسى ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنْ لم يَكُنْ لِفِرْعَونَ على ذلكَ المَكانِ سُلْطانٌ ولا يَدٌ؛ إذْ لو كانَ لهُ سُلْطانٌ لَكانَ لهُ فيهِ الخَوفُ الذي كانَ مِنْ قَبْلُ، ولم يَكُنْ نَجا موسى منهُ. دَلَّ أنهُ لم يَكُنْ لهُ عليهِمْ سلطانٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ المُشركينَ؛ إذْ كلُّ مُشْرِكٍ ظالِمٌ. ويَحْتَمِلُ ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الذينَ يَقْتُلونَ بِغَيرِ حقٍّ حينَ[9] ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]][10].

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قالَ أبوهُما لَمّا قالَتْ لهُ استأجِرْهُ فإنهُ قويٌّ أمينٌ: ما قُوَّتُهُ وأمانَتُهُ؟

فقالَتْ: أمّا قُوَّتُهُ فإنهُ رَفَعَ الحَجَرَ مِنْ رأسِ البِئْرِ وحدَهُ، وكانَ لا يُطيقُهُ إلّا كذا كذا نَفَراً، ونَزَعَ الدَّلْوَ مِنَ البِئْرِ وَحْدَهُ، وكانَ لا يُطيقُ[11] نَزْحَهُ إلّا كذا كذا [نَفَراً][12] فَتِلْكَ قُوَّتُهُ.

وأمّا أمانَتُهُ فإنهُ قالَ لي: امْشي خَلْفي، وَصِفي لِيَ الطريقَ. فَتِلْكَ أمانَتُهُ.

ولكنْ قَدْ كانَتْ تَعْرِفُ أمانَتَهُ قَبْلَ ذلكَ: لِمَا جَرَى بَيْنَهُ وبَينَهما مِنَ المُعامَلَةِ حينَ قالَ لهما: ما خَطْبُكُما؟ وحينَ سَقَى لهما. في مِثْلِ هذا تُعْرَفُ أمانَتُهُ في تَرْكِ النَّظَرِ إليهما وتَرْكِ الاعْتِراضِ لِما يوجِبُ التُّهَمَةَ، واللهُ أعلَمُ.

[وفي قَولِها][13]: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [دليلٌ على أنهُ كانَ أبوهما][14] في طَلَبِ أجيرٍ قَوِيٍّ أمينٍ، لكنهُ[15] لا يَجِدُ، ولا يَظْفَرُ بهِ. لِذلكَ[16] قالَتْ لهُ: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ إذْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لهُ ماشِيةٌ، ولَهُ غِنًى، وبهِ حاجةٌ إلى رَعْيِ ذلكَ وسَقْيِهِ، وقد بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ والضَّعْفِ ما ذُكِرَ: يُرسِلُ ابْنَتَيْهِ في الرَّعْيِ والسَّقْيِ، ولا يَسْتَأجِرُ الأجيرَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: يخلو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) من م، في الأصل: وكذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: يطيقه. (١٢) ساقطة في الأصل وم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقولها. (١٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كأن أباهما كان. (١٥) من م، في الأصل: لكنا. (١٦) في الأصل وم: كذلك.

لِيَتَوَلَّى ذلكَ دونَ بَناتِهِ. هذا لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، وخاصَّةً ما وَصَفَ [اللهُ تعالى](١) ابْنَتَهُ مِنَ الحَياءِ حينَ(٢) قالَ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

دَلَّ ذلكَ أنهُ كانَ في طَلَبِ الأجيرِ، وإنما أرسَلَ ابْنَتَيْهِ في سَقْيِ الغَنَمِ، وهو مُضْطَرٌّ إلى ذلكَ مُحتاجٌ إليهِ. لِذلكَ قالَتْ لهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

الآية ٢٧ [وقولُهُ تعالى](٣): ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ طَلَبَتْ هي الاستِئْجارَ، وهو عَرَضَ عليهِ النِّكاحَ لِما لَمْ تَرْغَبْ هي في النِّكاحِ، أو طَلَبَتِ الاستِئْجارَ لِما(٤) لم تُرِ مِن نَفْسِها الرَّغْبَةَ في النِّكاحِ، وإنْ كانَتْ لها الرَّغْبَةُ حَياءً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ/ ٣٩٧ ـ أ/ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ جَعَلَ عَمَلَهُ ثَمانِيَ حِجَجٍ بَدَلاً لِلنِّكاحِ ومَهْراً لِبُضْعِها، ثم تَحْديدُهُ بِثَمانِيَ حِجَجٍ لِما رَأى عَمَلَ ثَمانِيَ سِنينَ مَهْرَ مِثْلِها، وقولُهُ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فإنْ أتْمَمْتَ عَشْراً، أو زِدْتَ على مَهْرِ المِثْلِ فَمِن عِندِكَ، أي لكَ ذلكَ: فَضْلٌ منكَ وإحسانٌ.

والثاني: قولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ليسَ على جَعْلِهِ بَدَلاً لِلنِّكاحِ ولكنْ على الإجارةِ المَعْروفَةِ على أجْرٍ مَعْلومٍ على حِدَةٍ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ ذلكَ مَهْراً لها.

ثم التَّحْديدُ بِثَماني سِنينَ على هذا الوَجْهِ، يُخَرَّجُ على إحْدَى خَلَّتَيْنِ:

إحداهُما: أنهُ لَمّا قَصَّ عليهِ قِصَّتَهُ عَلِمَ أنهُ لا يَقْدِرُ على العَوْدِ إلى المِصْرِ، ورَأى أنهُ لا يَأْمَنُ تلكَ الناحيةَ بدونِ ما ذَكَرَ مِنَ المُدَّةِ.

[والثانيةُ: أنهُ](٥) لَمّا رَأى أنَّ نَفْسَهُ تَنْزِعُ، وتَتوقُ بالعَوْدِ إلى ذلكَ الوَقْتِ، شَرَطَ(٦) ذلكَ عليهِ لِئَلّا يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بالرجوعِ إليهِ إلى ذلكَ الوقْتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي فإنْ زِدْتَ سَنَتَيْنِ على ذلكَ؟ فَمِنْ فَضْلِكَ وإحسانِكَ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في الزِّيادةِ على ذلكَ كُلِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ(٧) تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جميعِ ما يجري بَيْنَكَ وبيني مِنَ المُعامَلَةِ والصُّحْبَةِ.

وفيهِ أنَّ الثُّنْيا في ما يَعُدُّونَ كانَ ظاهراً في الأُمَمِ السالِفَةِ.

ثم اخْتُلِفَ في أبي المَرْأتَينِ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ شُعَيباً. وقالَ بعضُهُمْ: ابْنُ أخي شُعَيبٍ. وقالَ الحَسَنُ: لم يكُنْ شُعَيباً، ولكنهُ كانَ سَيِّدَ الماءِ يومَئِذٍ. وليسَ لنا إلى معرفةِ مَنْ كانَ حاجَةٌ. أمّا شُعَيبٌ فإنهُ لم يَكُنْ في زَمَنِ موسى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ يعني الشَّرْطَ، واللهُ أعلَمُ ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي أوفَيتُ، وعَمِلْتُ: إمّا الثَّماني(٨) وإمّا العَشْرَ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ يقولُ: لا سَبيلَ لكَ عليَّ بَعْدَ ذلكَ، ولا تَبِعَةَ. والعُدْوانُ: هو الظُّلْمُ والمُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ؛ يقولُ: لا ظُلْمَ عَلَيَّ، ولا مُجاوَزَةَ عَلَيَّ، أي الاختِيارُ إليَّ: قَضَيْتُ أيَّ الأجَلَينِ: اختَرْتُ، وشِئْتُ أنا.

وقولُهُ(٩) تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: واللهُ كفيلٌ على مَقالَتي ومَقالَتِكَ. والوكيلُ: هو الشهيدُ أو الحافظُ، كأنهُ يقولُ: واللهُ على ما نقولُ شهيدٌ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: ولما. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: فشرط. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) من م، في الأصل: الثاني. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

ذُكِرَ أنَّ جبريلَ، جاءَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: إنْ سُئِلْتَ: أيَّ الأجلَينِ قَضَى موسى؟ فَقُلْ: أبَرَّهُما وأوفاهُما، وإنْ سُئِلْتَ: أيَّ المَرْأتَينِ تزَوَّجَ؟ فَقُلْ: أصْغَرَهُما. فإن ثَبَتَ هذا ففيهِ أنهُ قَضَى الأجَلَينِ جميعاً: الثَّماني والعَشْرَ، وليسَ في الآيةِ إلّا انْقِضاءُ الأجَلِ [وهو قولُهُ][1]: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي تُجازِيَني مِنَ التَّزويجِ. والأجْرُ مِنَ اللهِ إنما هو الجزاءُ على العَمَلِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ ما ذَكَرْنا أنهُ قَضَى: أتَمَّهُما، أو أكثَرَهُما. لكنْ لا نَعلَمُ إلّا بالخَبَرِ الصحيحِ. فَعَلَى ما ذَكَروا، وليسَ في الآيةِ إلّا انْقِضاءُ الأجَلِ، فلا يُزادُ على ذلكَ إلّا بِثَبْتٍ. فإنْ ثَبَتَ ما رُوِيَ مِنَ الخَبَرِ فهو، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ آنَسَ قيلَ: أبْصَرَ وأحَسَّ ناراً. قالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى لم يكُنْ رَأى ناراً، ولكنْ إنما رَأى نوراً، ظَنَّ أنهُ نارٌ. فلا يَحْتَمِلُ ذلكَ لأنهُ أخبَرَ أنهُ آنَسَ ناراً، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ في الحقيقةِ ناراً، ولكنْ نورٌ، فذلكَ[2] الكَذِبُ في الخَبَرِ إلّا أنْ يُقالَ على الإضمارِ: آنَسَ مِنْ جانبِ الطورِ ناراً، ظَنَّ أنهُ نارٌ، أو في ظَنِّهِ أنهُ نارٌ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي امكُثوا لَعَلّي آتيكُمْ منها بِخَبَرٍ يَدُلُّنا، ويُخبِرُنا، على الطريقِ؛ فكأنهُ قد ضَلَّ الطريقَ، فيقولُ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ بِخَبَرِ الطريقِ ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي آتيكُمْ بِجَذْوَةٍ منَ النارِ، [أولو بَقيتُمْ لآتَيتُكُمْ][4] بِخَبَرِ الطريقِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾. هذا يَدُلُّ أنهُ كانَ في وقْتِ الشتاءِ وفي وقْتِ البَرْدِ.

الآية ٣٠ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي عنْ يَمينِ الجَبَلِ. وقالَ بعضُهُمْ: عنْ يَمينِ موسى. وقالَ بعضُهُمْ: يَمينِ الشَّجَرَةِ. ولكنَّ الأيمَنَ المُبارَكُ، وهو مِنَ اليُمْنِ، الوادي اليَمِنُ ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ [سُمِّيَتْ مُبارَكَةً][6] لِكَثْرَةِ أشجارِها وأنزالِها وكَثْرَةِ مِياهِها وعُشْبِها. ولكنْ [سَمّى الواديَ][7] مُباركاً وأيْمَنَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ مَكانُ الأنبياءِ والرُّسُلِ ومَوضِعُ الوَحْيِ. [وهو][8] قولُهُ تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [وللهِ أنْ يُسْمِعَ، ويُخبِرَ مَنْ شاءَ بما شاءَ وكيفَ شاءَ كما أسمَعَ مريمَ مِنْ تَحتِها حينَ][9] قالَ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤].

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ ليسَ هذا بِمَوصولٍ بقولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾][10].

ولكنَّ[11] ذلكَ ما ذُكِرَ في سورةِ طه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [الآية: ١٢] إلى آخِرِ ما ذُكِرَ.

ثم قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ أي تَتَحرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الجانُّ الحَيَّةُ الصغيرةُ. وقالَ بعضُهُمْ: الجانُّ ما بَينَ العَظيمَةِ والصَّغيرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ فارًّا هارِباً ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أي يَلْتَفِتْ، ولم يَرْجِعْ لِشِدَّةِ خَوفِهِ وفَرَقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ قولُهُ: ﴿وَلَا تَخَفۡ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: على رَفْعِ الخَوفِ مِنْ قَلْبِهِ إذْ قالَ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾.

والثاني: على البِشارةِ أنهُ لا يُؤذيهِ؛ كأنهُ يقولُ: لا تَخَفْ، وكُنْ مِنَ الآمِنينَ، فإنهُ لا يُؤذيكَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كان ذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ولو بقيتم فيه ولم آتيكم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: سمي مباركا. (٧) في الأصل وم: سماه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في م: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾.

والثالثُ: [على النَّهْيِ، أي لا تَخَفْ][(١)] فإني أحفَظُكَ، وادفَعُ أذاهُ عنكَ كقولِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥ و: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وأرى ما يَفْعَلُ بكما، وادفَعُ ذلكَ عنكما.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ وبكَسْرِ الجيمِ ورَفْعِها. قالَ بعضُهُمْ: عُودٌ، قدِ احْتَرَقَ بعضُهُ. وقالَ قَتادَةُ: أصلُ شَجَرَةٍ، فيها نارٌ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَذْوَةُ مِثْلُ الشِّهابِ سَواءٌ، والجُذا جَمْعُ الجَذْوَةِ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَذْوَةُ القِطْعَةُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الجَذْوَةُ عُودٌ، قدِ احْتَرَقَ، أي قِطْعَةٌ منها. وشاطِئٌ أي شَطُّ الوادي. آنَسْتُ أبصَرْتُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي أبصَرْتُم، وعَلِمْتُم.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ على ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ [النمل: ١٢] يدلُّ أنْ لا بأسَ بِتَغْيِيرِ الألفاظِ واختِلافِها بَعْدَ إصابةِ المَعْنَى وما قُصِدَ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [بالفَتْحِ الرَّهْبِ، وبالضَّمِّ الرُّهْبِ.][(٢)] وقد قُرِئَ بهما جميعاً.

ثم قالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ. قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ مَوصولٌ بقولِهِ: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ مِنَ الرَّهْبِ أي الخَوفِ والفَرَقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أمَرَهُ أنْ يَضُمَّ يَدَيهِ إلى نفسِهِ لأنَّ ذلكَ أخوَفُ وأهْيَبُ وأعظَمُ مِنْ إرسالِهِما.

وذلكَ مَعروفٌ أيضاً في الناسِ أنهمْ إذا دَخَلوا على مَلِكٍ مِنَ المُلوكِ ضَمُّوا أيدِيَهُمْ وأجْنِحَتَهُمْ[(٣)] إلى أنفسِهِمْ تعظيماً لهمْ وتَبْجيلاً أو خوفاً منهمْ. فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يَأمُرَهُ بِضَمِّ يَدَيهِ إلى نفسِهِ ليكونَ بَينَ يَدَي ربِّهِ أهْيَبَ[(٤)] وأخوَفَ ما يكونُ، وأعظَمَ ما يَجِبُ لهُ، وهو ما قالَ لهُ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اليَدُ والعَصا اللَّتانِ ذَكَرَهما بُرهانانِ مِنْ ربِّكَ أي حُجَّتُنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ كقولِهِ[(٥)] في سورةِ الشعراءِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الآيات: ١٢ . ١٤] أخَّرَ في هذا ما كانَ مُقَدَّماً في الذِّكْرِ في ذلكَ، وذَكَرَ على اختِلافِ الألفاظِ وتَغْيِيرِ الحُروفِ لِيُعْلَمَ أنْ ليسَ على السامِعِ حِفْظُ الألفاظِ والحروفِ بَعْدَ إصابَةِ / ٣٩٧ ـ ب/ المَعْنَى وفَهمِ ما قُصِدَ بها وأُودِعَ فيها لأنَّ اللهَ ذَكَرَ هذهِ الأشياءَ والقِصَصَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ في القرآنِ على اختِلافِ الألفاظِ وتَغْيِيرِ الحروفِ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ والزِّيادةِ والنُّقصانِ لِيُعْلَمَ أنَّ المَقصودَ والمُرادَ بِذِكْرِها ما فيها لا عَينُ اللفظِ والحروفِ. فإذا عُرِفَ ما فيها، وفُهِمَ جازَ الأداءُ بأيِّ لسانٍ كانَ وبأيِّ لَفْظٍ كانَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أمّا[(٦)]: أهلُ التأويلِ فإنهمْ قالوا: كانَ في لسانِهِ رُبَّى[(٧)] أي عُقْدَةٌ لِما أدْخَلَ في فَمِهِ مِنَ النارِ. فذلكَ لا نَعْلَمُهُ، وقد قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧ و٢٨].

[والثاني: يجوزُ][(٨)] أنْ يكونَ ذلكَ خِلْقَةً، خَلَقَهُ هكذا على ما خَلَقَ بَعْضَ الخَلْقِ أفصَحَ وأبْيَنَ مِنْ بَعْضٍ.

أو أنْ يكونَ لِما ذُكِرَ بهِ مِنَ الخَوفِ والذَّنْبِ ما لم يَكُنْ ذلكَ لهارونَ[(٩)]؛ ولا شَكَّ مَنِ اشْتَدَّ بهِ الخوفُ مَنَعَ صاحِبَهُ عنِ التَّكَلُّمِ والبَيانِ؛ وذلكَ مُتعالَمٌ مَعروفٌ في الناسِ، وهو ما ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [الشعراء: ١٢].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بالضم والرهب بالفتح، انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٠. (٣) في الأصل وم: وجناحيهم. (٤) في الأصل وم: وأهيبَ. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: أحدها. (٧) في الأصل وم: رقة. (٨) في الأصل وم: فيجوز. (٩) في الأصل وم: آخرون.

أو أنْ يكونَ ذلكَ لأنَّ نشوءَ هارونَ كانَ فيهِمْ، وهُمْ بِلسانِهِ أعرَفُ ولِنُطْقِهِ أفْهَمُ، ولِموسى فَتَراتٌ، كانَ مُعْتَزِلاً عنهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي عَوناً ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ ثم بَيَّنَ في آيةٍ أُخرى أنهُ في ما طَلَبَهُ منهُ عَوناً، وهو ما قالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] يُصَدِّقُني[1] في ما أقولُ إذا كَذَّبوني هُمْ، أو أسْتأنِسُ بهِ إذا ضاقَ صَدري بالتَّكذيبِ والرَّدِّ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: فقالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ العَضُدُ كِنايةٌ وعِبارةٌ عنِ القُوَّةِ والعَونِ، لأنَّ القُوَّةَ فيهِ تكونُ في مَنْ تكونُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠] [لأنهُ بالأقدامِ][2] نَثْبُتُ، وقولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] لأنهُ بالعَقِبِ يُنْكَصُ، ومِثْلُهُ كثيرٌ. فَعَلى هذا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قالَ قائلونَ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي نَجْعَلُ لكما سُلْطاناً بآياتِنا، فلا يَصِلونَ إليكُما. وقالَ بعضُهُمْ: ونَجْعَلُ لكما سُلْطاناً باللُّطفِ، نَدْفَعُ عنكُما أذاهُمْ وشَرَّهُمْ كقولِهِ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وأرى ما يَفْعَلُ لكما، وأدْفَعُ ذلكَ عنكُما، فلا يَصِلونَ إليكما بالآياتِ التي مَعَكُما.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً[3]: الغالبونَ بالحُجَجِ والبراهينِ، أي تَغْلِبُ حُجَّتُكُما سِحْرَهُمْ وتَمْويهاتِهِمْ، أو تكونُ عاقبةُ الأمرِ لكُما، أو يكونُ ذلكَ في الآخِرَةِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: تقولُ العَرَبُ: أرْدَيْتُ[4] الرجلَ أي أعَنْتُهُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي أُعينُكَ بهِ، وأُقَوِّيكَ، والعَضُدُ كِنايةٌ عنِ القُوَّةِ لأنَّ القُوَّةَ تكونُ فيه، وبهِ يَقْوَى مَنْ يُوصَفُ بالقُوَّةِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي جاءَ موسى فِرْعَونَ وقومَهُ بآياتِنا أي [بأعلامٍ، أنشأناها][5] مُوَضِّحاتٍ مُظْهِراتٍ؛ يُظْهِرْنَ، ويُوَضِّحْنَ رسالةَ موسى ونُبُوَّتَهُ، وقد أظْهَرَتْ لهمْ ذلكَ، وعَرَفوا أنها آياتٌ مِنَ اللهِ، نَزَلَتْ، أفَلا تَرَى أنَّ موسى [قالَ لِفِرْعَونَ][6]: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾؟ [الإسراء: ١٠٢] لكنهُمْ عانَدوا، وكابَروا، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ هذا منهم تَمْويهٌ وتَلْبيسٌ على الأتْباعِ والسَّفَلَةِ، ولم تَزَلْ عادَتُهُمُ التَّمْويهَ والتَّلْبيسَ على أتباعِهِمْ أمْرَ موسى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقولونَ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ آباءَنا قد عَبَدوا الأصنامَ على ما نَعْبُدُ نَحْنُ، وقد ماتوا على ذلكَ مِنْ غَيرِ أنْ نَزَلَ بهِمْ ما تَتَوَعَّدُنا مِنَ الهَلاكِ والعذابِ. فَعَلَى ذلك نَحْنُ على دينِ آبائِنا، وعلى ما هُمْ عليهِ، فلا يَنْزِلُ بنا شيءٌ مِمّا تَذْكُرُ، وتُوعِدُنا بهِ مِنَ العذابِ.

الآية ٣٧ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ ليسَ بجوابٍ لِقولِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ويكونُ جوابُ هذا، إن كانَ، هو قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كَنّى بالظُّلْمِ عنِ السِّحْرِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ليسَ بِسِحْرٍ لأني قد غَلَبْتُكُمْ، وقَهَرْتُكُمْ، وقد أفْلَحْتُ أنا. ولو كانَ سِحْراً ما أتَيْتُكُمْ بهِ لم أُفْلِحْ؛ إذِ اللهُ تعالى أخْبَرَ أنَّ الساحرَ لا يُفْلِحُ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وقالَ أيضاً: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ الآية [يونس: ٨١] وقد أصْلَحَ عَمَلي، فَظَهَرَ أنهُ ليسَ بفسادٍ، ولكنهُ جوابُ قولِهِ: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ما ذُكِرَ في سورةِ المص [حينَ قالَ][8] ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أنتُمْ أو نَحْنُ.

---

(١) في الأصل وم: ويصدقني. (٢) في الأصل وم: ذكر الأقدام. (٣) في الأصل وم: وجهين. (٤) في الأصل وم: أردت. (٥) في الأصل وم: أعلاما أنشأها. (٦) في الأصل وم: قال له يا فرعون. (٧) في الأصل وم: ثم قال. (٨) في الأصل وم: حيث قالوا.

ويكونُ[1] ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ جَواباً لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ كأنهُ قالَ: لِلْمَلإِ خُصوصِيَّتُهُ لهمْ لأنهُ كانَ اتَّخذَ للأتباعِ أصناماً يَعْبُدونَها، وجَعَلَ لِلْمَلإِ نفسَهُ إلهاً[2] لِما لم يَرَ الأتباعَ أهلاً لعبادةِ نفسِهِ، جَعَلَ لهمْ عِبادةَ الأصنامِ، ورأى المَلأَ أهلاً لذلكَ، فَخصَّهُمْ، ومنهُ اتَّخذَتِ العربُ عبادةَ الأصنامِ دونَ اللهِ لِما لم يَرَوا أنفُسَهُمْ أهلاً لِعبادةِ اللهِ، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أوَّلُ مَنِ اتَّخذَ الآجُرَّ هو، ولا نَعْلَمُ ذلكَ [حقيقةً، ويَحْتَمِلُ][3] أنْ يكونَ قَبْلَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾ أي قَصْراً ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كانَ يعرفُ أنهُ ليسَ بإلهِ السماءِ والأرضِ، إذْ لا يَمْلِكُ ذلكَ، فكأنهُ أرادَ بقولِهِ ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ قومَهُ وأهلَهُ خاصَّةً.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ كانَ جميعُ ما كانَ بَيْنَ موسى وفرعونَ مِنَ الكلامِ كانَ على الظَّنِّ كقولِهِ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ وكذلكَ قالَ موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١ و١٠٢].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ الاسْتِكْبارُ هو ألّا يَرى لنفسِهِ شَكْلاً ولا نَظيراً، وهو كذلكَ كانَ، لا يَرى لنفسِهِ شَكْلاً ولا نَظيراً لأنهُ يَدَّعي لِنَفْسِهِ الرُّبوبيَّةَ والألوهيَّةَ، واسْتِكْبارُ قومِهِ لمّا اسْتَعْبَدوا بَني إسرائيلَ، واسْتَخْدَموهُمْ، أوِ اسْتَكْبَروا [على][5] أنْ يَخْضَعوا لِموسى، ويُجيبوا لهُ إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ[6] ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى][7] ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أخذَ تَعْذيبٍ وإهلاكٍ ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يُعَذَّبونَ بظُلْمِهِمْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ذَكَرَ في هؤلاءِ أنهُ جَعَلَهُمْ أئمَّةً في الشَّرِّ، وذَكَرَ في الرُّسُلِ وأهلِ الخَيرِ أنهُ جَعَلَهُمْ أئمَّةً في الخَيرِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقالَ[9]: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فكانَ مِنَ اللهِ تعالى مِنْ أهلِ الخَيرِ صُنْعٌ ومَعْنًى حتى صاروا بذلكَ أئمَّةَ الخَيرِ ما لم يَكُنْ ذلكَ منهُ بأهلِ الشَّرِّ وأئِمَّةِ السُّوءِ.

فهذا على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: لم يَكُنْ مِنَ اللهِ إلى الرُّسُلِ وقادةِ الخَيرِ إلّا وقد كانَ ذلكَ منهُ إلى كلِّ كافرٍ وفاسقٍ. فلو كانَ على ما قالوا لكانَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَصيرَ هؤلاءِ/ ٣٩٨ ـ أ/ أئِمَّةَ الخَيرِ وأولئكَ أئمَّةَ الشَّرِّ بأعمالِهِمْ أيضاً، وإنْ كانَ ما مَنَّ اللهُ عليهِمْ على السَّواءِ. لكنْ يُضافُ ذلكَ إلى اللهِ بأسبابٍ تكونُ منهُ. وكانَتْ حَقيقةُ ذلكَ منهُمْ وبِعِلْمِهِمْ نَحْوَ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: ١١] أضافَ إنذارَهُ إلى مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وإنْ كانَ رسولُ اللهِ [أنْذَرَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ][10] ومَنْ لم يَتَّبِعْ.

وكذلكَ ما قالَ في الشيطانِ[11]: إنما يدعو الحِزْبَيْنِ جميعاً. لكنهُ أضافَ دُعاءَهُ إلى حِزْبِهِ لِما منهمْ تكونُ لهُ الإجابةُ، وأضافَ إنذارَ رسولِ اللهِ إلى مَنِ اتَّبَعَهُ، وقَبِلَهُ، لِطاعَتِهِمْ لهُ.

---

(١) في الأصل وم: ويقول. (٢) في الأصل وم: والهيته. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يحتمل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج في الأصل وم بعدها: وقوله تعالى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، في الأصل: وما قال. (١٠) في الأصل وم: ينذر. (١١) في الأصل وم: الشياطين.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ؛ أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لِفِعْلِهِمْ. لكنْ عندَنا لا يكونُ مِنَ الخالِقِ[1] في فِعْلِ الخَلْقِ حقيقةُ الفِعْلِ، إنما يكونُ منهُمُ الأسبابُ، ويكونُ مِنَ اللهِ تعالى في أفعالِهِمُ الأسبابُ وحقيقةُ الفِعْلِ، فتكونُ إضافةُ ذلكَ إلى اللهِ على حقيقةِ الفِعْلِ والأسبابِ جميعاً، وإلى الخَلْقِ لأسبابٍ تكونُ منهمْ إليهِمْ.

والثاني إنما خَصَّ بالإنذارِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ لأنهُ إنما يَقْصِدُ بالإنذارِ [مَنْ تَبِعَهُ لا مَنْ لا يَتْبَعُهُ][2] وكذلكَ الشيطانُ إنما يَقْصِدُ بدعائِهِ إياهُمْ ضَرَرَهُمْ. وإنْ كانَ الرسولُ يُنْذِرُ الخَلْقَ جميعاً الذي يَتْبَعُهُ والذي لا يَتْبَعُهُ. وكذلكَ الشيطانُ يَدْعُو الحِزْبَيْنِ جميعاً؛ لأنَّ هذا يَقْصِدُ ضَرَرَهُمْ بما يَدْعوهُمْ إليهِ.

ألا تَرَى أنهُ قال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؟ [فاطر: ٦] والرسولُ بما يُنْذِرُ يَقْصِدُ نَفْعَهُمْ؛ لذلكَ خَصَّ الإنذارَ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وخَصَّ في ذلكَ حِزْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تصريحاً لأنهمْ لو دَعَوهُمْ إلى النارِ لا يُجيبونَهُمْ، ولكنْ يَدْعُونَهُمْ إلى أعمالٍ توجِبُ لَهُمُ النارَ، لو أجابوهُمْ. وهو كقولِهِ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]. أي ما أصْبَرَهُمْ على عَمَلٍ، يَسْتَوجِبونَ بِهِ النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ كأنَّ الشيطانَ مَنَّاهُمُ النَّصْرَ والشَّفاعةَ بِعِبادَةِ الأصنامِ، فَيُخْبِرُ أنهمْ لا يُنْصَرونَ لِما مَنَّاهُمْ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وهو ما عُذِّبوا في الدنيا، واسْتُؤْصِلوا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُسْوَدَّةٌ[3] وُجوهُهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ[4] ذلكَ جَزاءَ ما افْتَخَروا في هذهِ بالحُلِيِّ والزِّينةِ، وطَعَنوا في موسى، وجَواباً[5] لهمْ حينَ[6] قالوا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] يُخْبِرُ أنهمْ يكونونَ في الآخِرَةِ على غيرِ الحالِ التي كانوا في الدنيا، وافْتَخَروا بها.

وقالَ بعضُهُمْ: القُبوحُ[7] هو السَّوادُ معَ الزُّرْقَةِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ من نحوِ عادٍ وثمودَ وهؤلاءِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلُ مِنَ الأُمَمِ، أي أرْسَلْناهُ بَعْدَ هلاكِ مَنْ ذَكَرَ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما:][9] يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي هلاكُ مَنْ ذَكَرَ مِنَ القرونِ الأولَى بَصيرَةً وعِبْرَةً لِمَنْ يكونُ مِنْ بَعْدِهِمْ لِيَزْجُرَهُمْ ذلكَ عنْ تَكْذيبِ الرُّسُلِ، ويكونَ ذلكَ آيةً لرسالةِ موسى.

والثاني: [يُشْبِهُ][10] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي الكِتابُ [الذي][11] آتاهُ اللهُ موسى هو بصائرُ ﴿لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لهمْ إذا قَبِلوهُ، واتَّبَعوهُ، وعَمِلوا بِهِ. وكذلكَ كانَ جميعُ كُتُبِ اللهِ هُدًى ورَحْمَةً وبَصيرَةً لِمَنْ آمَنَ بها، وعَمِلَ بها.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا جَواباً وصِلَةً لِقَولِهِمْ: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦] يقولُ، واللهُ أعْلَمُ، إنكمْ لو تَسْمَعونَ ذلكَ في آبائِكُمُ الذينَ اتَّبَعوا رُسُلَكُمْ، فأجابوهُمْ. فأمّا مَنْ كَذَّبوهُمْ فإنا أهْلَكْناهُمْ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، واسْتَأْصَلْناهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِجَانِبِ

---

(١) في الأصل وم: الخلق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: مسودون. (٤) من م، في الأصل: يكونوا. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: المقبوح. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ حيثُ تَغرُبُ الشمسُ والقَمَرُ والنجومُ، والشَّرقيُّ حيثُ تَشرُقُ الشمسُ وتَطلُعُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي بِجانِبِ الوادي الغَرْبيِّ واللهُ أعلَمُ ما أرادَ بهِ.

الآيتان ٤٥ و٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مُقيماً ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: إنكَ لم تَكُنْ شاهداً هذهِ المشاهدَ التي شَهِدَها موسى حينَ[1] قَضَينا إلى موسى الأمْرَ بِجانِبِ الغَرْبيِّ، ولم تَكُنْ شاهداً هنالكَ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حتى تَعْلَمَ أمْرَ موسى وَوَحْيَهُ[2] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى[3]، أي لم تَكُنْ شاهداً هذهِ المشاهدَ التي كانَ موسى شاهداً فيها. ثم أعْلَمْناكَ بِتلكَ الأنباءِ والأخبارِ على ما كانَتْ لِتَتلُوَ تلكَ الأنباءَ والأخبارَ على [أهلِ][4] مكةَ، فتكونَ آيةً لِنُبُوَّتِكَ وحُجَّةً لِرِسالَتِكَ، إذْ لم تَشْهَدْها، ولا اخْتَلَفْتَ إلى أحدٍ مِمَّنْ يَعرِفُها، فَعَلَّمَكَ، ثم أنبأتَ، لِيَعرِفوا أنكَ إنما عَرَفْتَ باللهِ تعالى.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يَذكُرَ هذا لهُ امْتِناناً عليهِ لِيَستأدِيَ بهِ شُكْرَهُ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ أوحَى إلى موسى، وذَكَرَ محمداً وأمَّتَهُ في شَرَفِهِ حتى تَمَنَّى موسى أنْ يَجعَلَهُ[5] مِنْ أمَّتِهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لم تَكُنْ أنتَ شاهداً في هذهِ المَشاهِدِ، فَذَكَرْتُكَ ثَمَّةَ وأمَّتَكَ.

[والثالثُ: يَحتَمِلُ][6] أنْ يَذكُرَ هذا لهُ على الاخْتِصاصِ لِيُعْرَفَ أنَّ أمْرَ الرسُلِ والوَحْيِ إليهِمْ على الاخْتِصاصِ لهمْ مِنَ اللهِ، لا بأمرٍ كانَ منهمْ.

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يَحتَمِلُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ ما ذَكَرَهُ لهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ يقولُ لمحمدٍ: لم تُعايِنْ هذا، ولم تَشْهَدْهُ، وإنما هو شيءٌ، أنْزَلْناهُ عليكَ لِتَتلُوَهُ على أهلِ مكةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ هذا ليسَ بِصِلَةٍ بالأوَّلِ، ولكنْ على الابْتِداءِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بَعْدَ انْقِراضِ الرسُلِ ودُروسِ أعلامِهِمْ وآثارِهِمْ، وتَطاوَلَ العَهْدُ والعُمُرُ، ثم بَعَثْناكَ فيهمْ رسولاً لِتُحْيِيَ بكَ[7] آثارَهُمْ، ونُظْهِرَ فيهمْ سُنَّتَهُمْ وأعلامَهُمْ رَحْمَةً منّا إليهِمْ، وهو ما قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أرسَلْنا إياكَ رَحْمَةً منّا لهمْ. وهو ما قالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي ما أنبأكَ، وأعْلَمَكَ مِنْ أنباءِ موسى وأخبارِهِ حينَ[8] لم تَشْهَدْها مِنْ رَحْمَةِ ربِّكَ حينَ[9] جَعَلَها آيةً لِنُبُوَّتِكَ وحُجَّةً لرسالَتِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا يَحتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:][10] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ﴾ أنْذَرَ بِهِ الرسلُ الذينَ مِنْ قَبْلِكَ قومَهُمْ.

والثاني: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي على رَجاءِ التَّذَكُّرِ تُنْذِرُهُمْ.

[والثالثُ][11]: يكونُ ذلكَ خاصَّةً لِمَنْ تَذَكَّرَ إذا كانَ على الإيجابِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لا يَنْتَظِمُ الجوابُ، وليسَ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ جواباً لهُ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦] أي لم تقولوا: ما يكونُ لنا أنْ نَتَكَلَّمَ بهذا، وقولِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ [النور: ١٤] أي لم يَمَسَّهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وحينه. (٣) في الأصل: موسى ونحوه، في م: يا موسى ونحوه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يجعل. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: به. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (١١) في الأصل وم: أو أن.

وجميعُ ما ذُكِرَ في هذهِ السورةِ مِنْ: ﴿وَلَوْلَآ﴾ مَعْناهُ[١]: لم يكنْ. فعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ أي لم تُصِبْهُمْ مُصيبةٌ، ولو أصابَتْهُمْ مُصيبةٌ، وهو العذابُ ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ وهو كقولِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّآ /٣٩٨ ـ ب/ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] على هذا يُخرَّجُ تأويلُ هذا.

ثم في هذهِ الآيةِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [دلالةٌ وحُجَّةٌ مِنْ وجهَينِ][٢]:

أحدُهما: على مَنْ يقولُ: إنهُ[٣] ليسَ للهِ أنْ يُعَذِّبَهُمْ بما كانَ منهمْ قَبْلَ بَعْثِ الرسُلِ إليهِمْ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وفي الآيةِ بيانٌ: لهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ، وإنْ لم يَبْعَثِ الرسُلَ، لأنهُ أوعَدَهُمُ الهلاكَ، فلو لم يكُنْ لهُ التعذيبُ والإهلاكُ لم يكُنْ للإيعادِ [مَعْنًى][٤]. فَدَلَّ أنَّ لهُ الإهلاكَ في الدنيا والاستِئْصالَ. لكنَّهُ أخَّرَهُ عنهُمْ فَضْلاً منهُ ورَحْمَةً.

والثاني: على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ [بوجوبِ][٥] الأصْلَحِ لأنهُ لا يَخلو: إمّا أنْ يكونَ ما أوعَدَهُمْ أصْلَحَ لهمْ مِنَ التَّرْكِ، وإمّا التَّرْكُ لهمْ أصْلَحُ.

فإنْ كانَ ما أوعَدَ لهمْ أصْلَحَ [وقد تَرَكَهُ][٦] فيكونُ في تَرْكِهِ[٧] إياهُمْ جائزٌ على قولِهِمْ، لأنهُ لم يَفْعَلْ ما هو أصْلَحُ لهمْ في الدينِ.

أو إنْ يَكُنِ[٨] التَّرْكُ لهمْ أصْلَحَ فيكونُ بما أوعَدَهُمْ جائزاً؛ إذْ أوعَدَ بما كانَ غَيرُهُ أصْلَحَ لهمْ مما أوعَدَ فَدَلَّ ما ذَكَرْنا على أنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لهمْ في الدينِ.

ثم قولُهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ليسَ الكُفْرَ نفسَهُ، ولكنِ العِنادُ والمُكابَرَةُ معَ الكُفْرِ لأنَّ عذابَ الكُفْرِ في الآخِرةِ، ليسَ في الدنيا، لأنَّ اللهَ قد أبْقَى كثيراً مِنَ الكَفَرَةِ لم يُهْلِكْهُمْ، ولم يُعَذِّبْهُمْ في الدنيا، ولكنْ إنما أهْلَكَ، واسْتَأْصَلَ في الدنيا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ الرسُلَ في الآياتِ والحُجَجِ التي [أتَوهُمْ بها][٩] وأقاموها عليهِمْ على إثْرِ سُؤالٍ كانَ منهمْ. فعندَ ذلكَ أهْلَكَهُمْ، واسْتَأْصَلَهُمْ، لا بِنَفْسِ الكُفْرِ.

ثم معَ ما كانَ لهُ التعذيبُ قَبْلَ بَعْثِ الرسُلِ لم يُعَذِّبْهُمْ، ولكنْ أخَّرَ عنهُمْ إلى أنْ بَعَثَ الرسُلَ إليهِمْ بالآياتِ والحُجَجِ لِيَقْطَعَ بهِ لَجاجَتَهُمْ ومُنازَعَتَهُمْ فَضْلاً منهُ، وإنْ لم يكُنْ لهمُ الاحتِجاجُ عليهِ[١٠] بقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويَحتَمِلُ[١١] قولُهُ ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الآياتِ التي تُبْعَثُ معَ الرسُلِ لأنهُ يَبْعَثُ الرسُلَ بالآياتِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يَعْنونَ بالآياتِ الرسُلَ [أنفسَهُمْ لأنهمْ آياتُ اللهِ وحُجَجُهُ][١٢] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ الحَقُّ الذي ذَكَرَ الرسُولَ نفسَهُ. ويَحتَمِلُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الكتابَ الذي أُنْزِلَ عليهِ وآياتِهِ[١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: قالوا: هلّا أُوتِيَ محمدٌ مِنْ أنواعِ [النِّعَمِ][١٤] مِنَ المَنِّ والسَّلْوى وغَيرِهما[١٥] مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ ولا تَعَبٍ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ لو كانَ رسولاً على ما يقولُ.

---

(١) في الأصل وم: كله إنه. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: بان. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: فقد تركتم، في م: فقد تركه. (٧) في الأصل وم: تركهم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: أتوها بهم. (١٠) في الأصل وم: عليهم. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لأنفسهم حجج. (١٣) في الأصل وم: وآيات. (١٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وغيره.

[والثاني][1]: أنْ يقولوا ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ مِنَ الآياتِ الحِسِّيَّاتِ الظاهراتِ مِنْ نَحْوِ اليَدِ والعَصا والحَجَرِ الذي كانَ يَتَفَجَّرُ منهُ الماءُ والغَمامُ وما ذَكَرَ مِنَ الضَّفادِعِ والقَمْلِ والدَّمِ والطوفانِ وغَيرِ ذلكَ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

[والثالثُ][2]: أنْ يقولوا ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ محمدٌ القرآنَ جُمْلَةً عِياناً جَهاراً كما أُوتِيَ موسى التوراةَ جُمْلَةً عِياناً جَهاراً، واللهُ أعلمُ بذلكَ: بِما عَنَوا بهِ.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى، وأخبَرَ أنهمْ إنما يَسْألونَ ما سَألوهُ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ وطَلَبِ [لِلْحَقِّ حينَ][3] قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي ألم يكفرْ هولاءِ الذينَ سَألوكَ الآياتِ بما أُوتِيَ موسى؛ يَعْني أهلَ مكةَ، لأنهمْ كانوا مُشْرِكينَ، لم يُؤْمِنوا برسولٍ قَطُّ مِنْ قَبْلُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟﴾ أي ألم يَكْفُرْ قومُ موسى بما أُوتِيَ موسى بَعْدَ سُؤالِهِمُ الآياتِ إذْ أتاهُمْ بها. فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ يَكْفُرونَ بما أُوتِيتَ. والأوَّلُ أشْبَهُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ وقد قُرِئَ: ساحِرانِ بالألفِ[5]. قالَ بعضُهُمْ: ساحِرانِ موسى وهارونُ، [وقالَ بعضُهُمْ][6]: موسى ومحمدٌ، وقالَ بعضُهُمْ: عيسى ومحمدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سِحْرَانِ﴾ بِغَيرِ ألفٍ كتابانِ. لكنهُمُ اختَلَفوا. قالَ بعضُهُمْ: التوراةُ والإنجيلُ. وقالَ بعضُهُمْ: الفُرقانُ والتوراةُ ونَحْوُهُ. وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ أيضاً: ساحِرانِ أولَى وأقْرَبُ، لأنَّ ذِكْرَ التَّظاهُرِ إنما يكونُ بَينَ الأنفُسِ، لا يكونُ بَينَ الكُتُبِ؛ تظاهَرا أي تَعاوَنا. وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ الأدبِ أيضاً: سِحْرانِ بِغَيرِ ألِفٍ أولَى لأنهُ أرادَ بِهِ الكتابَيْنِ.

ألا تَرَى أنهُ طَلَبَ منهُمْ بما قالوا إتيانَ الكتابِ [حينَ قالَ:][7] ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾؟ رَدَّ على ما قالوا، وطَلَبوا منهُ.

لكنْ نقولُ نَحْنُ: لا نُحِبُّ أنْ نُخْتارَ إحدى القراءتَيْنِ على الأُخرَى، لأنهُ إنما هو خَبَرٌ، أخبَرَ عنهمْ أنهمْ قالوا ذلكَ؛ فَمَرَّةً قالوا: سِحْرانِ، ومَرَّةً قالوا: ساحِرانِ. فأخبَرَ على ما قالوا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧] بالألِفِ اللهُ وغَيرِ الألِفِ ﴿لِلَّهِ﴾[8] لا يُختارُ أحَدُهما على الآخرِ لأنهُ خَبَرٌ، أخبَرَ عنهُمْ على ما كانَ منهمْ، فهو على ما أخْبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: في قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ قالَتْ يهودُ نَأمُرُ قُرَيشاً أنْ تَسْألَ أنْ يُؤتَى محمدٌ مِثْلَ ما أُوتِيَ موسى، يقولُ اللهُ لرسولِهِ: قُلْ لِقُرَيْشٍ: قولوا[9] لهمْ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني يهودَ ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ قالَ قولَ يَهودَ لموسى وهارونَ، وهو مِمّا ذَكَرْنا قريبٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ بما أُوتِيَ موسى على الاختِلافِ ما ذَكَرْنا.

الآية ٤٩ وقولُهُ[10] تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لقريشٍ أهلِ مكةَ ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مِنَ التوراةِ والإنجيلِ على الاختِلافِ ما قالوا ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زَعْمِكُمْ أنهما ساحِرانِ تَظاهَرا وأنهُ مُفْتَرًى. ائْتوا أنْتُمْ مِنْ عندِ اللهِ بِكتابٍ أتَّبِعْهُ. إلى هذا ذهبَ أهلُ التأويلِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ يُشْبِهُ أنْ يكونَ أقْرَبَ منهُ، وهو أنَّ قولَهُ: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [أي ائْتوا بِكِتابٍ][11] مِنْ عِندِ اللهِ أمَرَكُمْ[12] بِعبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ دونَ اللهِ، ويقولونَ: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وإنَّ عِبادَتَهُمْ إيّاها تُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: الحق حيث. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٦. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث قالوا. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٤/ ٢٢١. (٩) في الأصل وم: يقولوا. (١٠) في الأصل وم: ثم قال. (١١) من م، في الأصل: الكتاب. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه.

فيكونُ[(١)]، واللهُ أعلَمُ ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنهُ أمَرَكُمْ بذلكَ ﴿هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ أي أبيَنُ منهُما، وأوضحُ مِنْ هذينِ، لأنَّ هذينِ إنما جاءا بِنَهْيِ عِبادَةِ غَيرِ اللهِ؛ مَنَعَها دونَهُ. يقولُ: ائتوا بكتابٍ، هو أهْدَى وأبيَنُ ممّا جاءَ فيهِ مِنْ هذينِ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ اللهَ أمَرَكُمْ بذلكَ، وتكونُ عبادَتُكُمْ إياها على ما تَزْعُمونَ. هذا جائزٌ أنْ يكونَ أقْرَبَ مِنَ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ [وقولُهُ تعالى][(٢)]: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ﴾ في إتيانِ ما تَطْلُبُ منهمْ، وتَسْأَلُ مِنَ الكِتابِ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ بغَيرِ عِلْمٍ، وهُمْ كانوا يَعْلَمونَ أنهمْ إنما يَتَّبِعُونَ في عبادةِ الأصنامِ وتَحْريمِ الحَلالِ وتَحليلِ الحَرامِ أهواءَهُمْ، ويَجْعَلونَ هواهُمْ، هو الإمامَ؛ إذْ لا يُؤمِنونَ برسولٍ حتى يكونَ لهمْ كتابٌ.

ثم قالَ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي لا أحَدَ أضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هواهُ ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ غَيرِ بَيانٍ مِنَ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي، واللهُ أعلَمُ، إنَّ اللهَ لا يَهْدي قوماً يَتَّبِعونَ أهواءَهُمْ، لا يَتَّبِعونَ الحُجَجَ والبَراهينَ، لا يَهْديهِمْ ماداموا في اتِّباعِ هواهُمْ، أو لا يَهْدِي الذينَ [هُمْ][(٣)] ظَلَمَةُ الحُجَجِ والبراهينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائِلونَ: هو القرآنُ. ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: وَصْلُ القرآنِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ حتى خَرَجَ كلُّهُ مُوافِقاً بَعْضُهُ بَعْضاً مُصَدِّقاً مُجْتَمِعاً غَيرَ مُخْتَلِفٍ، وإنْ فُرِّقَ في الإنزالِ على تَباعُدِ الأوقاتِ وطولِ المُدَدِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ مِثْلَ هذا لا يكونُ إلاّ مِمَّنْ يَعْلَمُ الغَيبَ، ولا يَعْزُبُ /٣٩٩ ـ أ/ عنهُ شيءٌ، ولا يَغيبُ؛ إذْ لو كانَ هو مِمَّنْ لا يَعْلَمُ ذلكَ مِنْ كَلامِ المَخلوقِ لَخَرَجَ مُخْتَلِفاً مُتَناقِضاً على ما يقولُ مِنْ كلامِ المَخلوقِ في تَباعُدِ الوقْتِ وطولِ المُدَّةِ مُخْتَلِفاً مُتَناقِضاً.

والثاني: وَصْلُ مَواعِظِ القرآنِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ومواعيدِهِ بَعْضِها بِبَعْضٍ وَعِداتِهِ بَعْضِها بِبَعْضٍ. وكذلكَ أوامرُهُ ونواهيهِ، وإنِ تَفَرَّقَ نُزولُها، واخْتَلَفَتْ مَواضِعُها؛ يدعوهُمْ [لِما يَدْعوهُمْ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ][(٤)] مَرَّةٍ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بهِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي الأنباءَ وأخبارَ الأُمَمِ الخاليةِ نَبَأً [بَعْدَ نَبَإٍ][(٥)] وخَبَراً على إثرِ خَبَرٍ ما نَزَلَ بِمُكَذِّبي الرسُلِ منهمْ مِنَ الهلاكِ والعذابِ ومُصَدِّقي الرُّسُلِ مِنَ النَّجاةِ والبَقاءِ في النِّعَمِ الدائمةِ على إقرارٍ منهمْ بذلكَ وعِلْمٍ أنهُ كانَ بهمْ ذلكَ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ذلكَ، ويَنْزَجِرونَ عنْ تَكْذيبِ رسولِهِمْ مَخافَةَ أنْ يَنْزِلَ بهمُ التَّكْذيبِ ما نَزَلَ بأولئكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي قولَ التَّوحيدِ. وَوَجْهُ هذا أنْ وَصَّلْنا التوحيدَ [حتى جَعَلْنا في كلِّ أمَّةٍ وكلِّ قومٍ أهلَ توحيدٍ][(٦)] لم نُخْلِ قوماً ولا أمَّةً عنهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وكقولِهِ: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ على أنَّ [في][(٧)] كلِّ أُمَّةٍ وقَرْنٍ أهلَ توحيدٍ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ في آبائِهِمْ مَنْ قد آمَنَ بالرسُلِ، وصَدَّقَ بهمْ، ولا يقولونَ: إنَّ آباءَنا على ما نَحْنُ[(٨)] عليهِ. يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا وَصْلَ القولِ الذي ذَكَرَ ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي أتْبَعْنا بعضَهُ بعضاً، واتَّصلَ عندَهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا﴾ أي بَيَّنّا شيئاً فشيئاً حتى صارَ عندَهُمْ ظاهراً. وقالَ أبو مُعاذٍ: وَصَّلْنا في كلامِ العَرَبِ: أتْمَمْنا كَصِلَتِكَ الشيءَ بالشيءِ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ

---

(١) في الأصل وم: فيقول. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل به، في م: به مرة بعد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: هم.

يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: ٤٧] وقالَ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ وأمثالَهُ.

يَذْكُرُ في هذهِ الآياتِ أنَّ مِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ لم يُؤمِنْ [بهِ][1] ويَذْكُرُ في الأُولَى على الإطلاقِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وانتفَعوا بهِ يُؤمنونَ بهِ، أو أنْ يكونَ [قولُهُ][2] ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١] وأمّا مَنْ لم يَتْلُهُ حَقَّ تِلاوتِهِ فلا يؤمنُ.

فأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ صَرَفوا الآيةَ إلى قومٍ خاصٍّ مِنْ أهلِ الكتابِ: عبدِ اللهِ ابنِ سَلَامٍ وأصحابِهِ الذينَ آمَنوا بهِ. ويُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ منهُمْ.

الآية ٥٣ ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِهِ ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾؟ يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنهمْ كانوا آمَنوا بهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ محمدٌ. فلمّا بُعِثَ ثَبَتوا على ذلكَ، وآمَنوا على ما كانوا مِنْ قَبْلُ. وفيهِ دلالةٌ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ، لأنهمْ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ دلَّ أنهما واحدٌ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ و٣٦] وهُما[3] واحدٌ؛ ذَكَرَ مَرَّةً الإيمانَ ومَرَّةً الإسلامَ، دلَّ أنهما واحدٌ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: يُؤْتَونَ أجرَهُمْ مَرَّةً بالإسلامِ ومَرَّةً بما صَبَروا على زَوالِ الرئاسةِ منهمْ وذَهابِها؛ لأنهمْ كانوا أهلَ رئاسةٍ ومَنْزِلَةٍ وقَدْرٍ، فَذَهَبَ ذلكَ كُلُّهُ عنهمْ بالإسلامِ، فَلَهُمُ الأجرُ مَرَّتَينِ لِذلكَ.

والثاني: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ مَرَّةً بالإسلامِ، ومَرَّةً [بما صَبَروا، وجاهَدوا في تَقْوِيَةِ دينِ اللهِ، حتى][4] صاروا قُدْوَةً وأئِمَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، يَقْتَدونَ بهمْ؛ أحَدُ الأجرَينِ بإسلامِ أنفُسِهِمْ، والثاني بدعائِهِمْ غيرَهُمْ إليهِ، على ما يُعاقَبُ الرُّؤساءُ منهمْ والقادةُ، ويُضاعفُ العذابُ عليهِمْ مَرَّتينِ: مَرَّةً بضلالِ أنفسِهِمْ ومَرَّةً بإضلالِ غيرِهِمْ كقولِهِ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النحل: ٢٥].

[والثالثُ][5]: جائزٌ أنْ يكونَ إيتاءُ الأجرِ مَرَّتينِ [مَرَّةً بالإسلامِ ومَرَّةً بما يَصْبِرونَ حتى يَصيروا][6] أئمَّةً وقُدْوةً لِغيرِهِمْ[7] في الخيرِ. ويُضاعَفُ عليهمُ العذابُ إذا صاروا أئمةً وقُدْوَةً في الشَّرِّ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في نساءِ رسولِ اللهِ ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾؟ [الأحزاب: ٣٠] وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، بما يَصِرْنَ هُنَّ أئمةً لِغيرِهِنَّ يَقْتَدينَ بهِنَّ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ بالإسلامِ نَفْسِهِ، ويكونُ الصَّبْرُ كِنايةً عنِ الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي آمَنوا، وأسْلَموا.

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ يقولونَ: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ مَرَّةً بإيمانِهِمْ بمحمدٍ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، ومَرَّةً بإيمانِهِمْ بَعْدَما بُعِثَ. والأوَّلُ أشبَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ مَرَّةً بإسلامِهِمْ ومَرَّةً بما صَبَروا وتَحَمَّلوا[8] أذَى أولئكَ الكَفَرَةِ، ولم يُكافِئوهُمْ، بل خاطَبوهُمْ بخيرٍ [حينَ قالوا][9]: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ثلاثةٌ يُؤْتَونَ أجرَهُمْ مَرَّتَينِ: رجلٌ آمَنَ بِنَبِيٍّ، ثم إذا بُعِثَ نَبِيٌّ آخَرُ آمَنَ بهِ، ومَمْلوكٌ لرجلٍ يَخْدِمُهُ، ويُحْسِنُ خِدْمَتَهُ، ويَعْبُدُ ربَّهُ ورجلٌ رَبَّى جاريَتَهُ، ثم أعْتَقَها، فَتَزَوَّجَها» [البخاري: ٣٠١١].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: لما يصيرون. (٧) من م، في الأصل: لغير. (٨) في الأصل وم: وحكموا على. (٩) في الأصل وم: حيث قال.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: يُحْسِنونَ إليهِمْ بَعْدَ إساءَتِهِمْ إليهِمْ وأذاهُمْ إياهُمْ على ما كانوا يَفْعَلونَ، ويَصْنَعونَ إليهِمْ قَبْلَ ذلكَ.

والثاني: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يَعفونَ عَنْ أذاهُمْ، ويُكافِئونَهُمْ، فيكونُ كقولِهِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٩].

والأوَّلُ كقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي يُنْفِقونَ في حَقِّ اللهِ وسَبيلِ الخيرِ. وإلّا كلُّ كافرٍ يُنْفِقُ كقولِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧].

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

[أحَدُهما][1]: إذا سَمِعوا منهُمْ مِنَ الكلامِ ما يَتَأذَّونَ مِنْ كلامِ اللَّغْوِ والأذى والفِتْنَةِ أعْرَضوا عنهُ، أي [لا][2] يُكافِئونَهُمْ لِأذاهُمْ.

والثاني: إذا سَمِعوا ما يَلْغُونَ بِهِ مِنَ الباطِلِ أعْرَضوا عنهُ، أي لم يُخالِطوهُمْ في ما هُمْ فيهِ، فليسَ أنهُمْ لا يَنْهَونَ عنِ المُنْكَرِ، ولا يَمْنَعونَهُمْ عنْ ذلكَ إذا رَأَوُا النَّهْيَ يَنْجَعُ فيهِمْ. وإذا رَأَوا لا يَنْجَعُ فيهِمْ فعندَ ذلكَ أعْرَضوا عنهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ يقولونَ هذا لهمْ إذا لم يَنْجَعِ النَّهْيُ والمَوعِظَةُ، ولم يَقْبَلوا ذلكَ. عندَ ذلكَ يقولونَ: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لَكُمْ جزاءُ أعمالِكُمْ ولنا جَزاءُ أعمالِنا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. لم يَقُلْ هذا لهمْ في ابْتِداءِ الدعاءِ، ولكنْ بَعْدَ ما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ وإجابَتِهِمْ. فَعلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هذا يُشْبِهُ أنْ يُخرَّجَ على/٣٩٩ - ب/ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: على القَوْلِ منهُمْ: السلامُ عليكُمْ[3]، أي كانوا لا يُخاطِبونَ الجُهّالَ، ولا يُخالِطونَهُمْ إلّا بالسّلامِ خاصّةً. بهذا القَدْرِ يُخالِطونَهُمْ فَحَسْبُ[4].

والثاني: ليسَ على حقيقةِ قَوْلِ: السلامُ عليكُمْ[5]، ولكنْ على الصُّلْحِ وتَرْكِ المُكافأةِ لهمْ وقولِهِمْ إياهُمْ على ما هُمْ عليهِ؛ إذِ السَّلامُ هو الصُّلْحُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: رَدُّوا عليهِمْ مَعْروفاً [بِمُقابَلَةِ ما وَجَدوا منهُمْ مِنَ الأذى، وقالوا:][6] ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يَعْنونَ: لا نُريدُ أنْ نكونَ مِنْ أهلِ الجَهْلِ والسَّفَهِ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ هذا نَزَلَ في أبي طالبٍ عَمِّ النَّبِيِّ «وذلكَ أنَّ أبا طالبٍ قالَ: يا مَعْشَرَ بَني هاشمٍ أطيعوا محمداً، وصَدِّقوهُ، تُفْلِحوا، وتَرْشُدوا. فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ تأمُرُهُمْ بالنصيحةِ لأنفُسِهِم، وتَدَعُها لِنَفْسِكَ، قالَ: فقالَ لهُ: ما تُريدُ يا ابْنَ أخي؟ قالَ: أريدُ منكَ كلمةً واحدةً في آخِرِ يومٍ مِنَ الدنيا: أنْ تقولَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، أشْهَدُ لكَ بها عندَ اللهِ، قالَ: يا ابْنَ أخي قد عَلِمتُ إنكَ لَصادقٌ، ولكنْ أكْرَهُ أنْ يُقالَ: جَزِعَ عندَ المَوتِ، ولولا أنْ يكونَ عليكَ وعلى بَني أبيكَ وأخيكَ غَضاضَةٌ ومَسَبَّةٌ بَعْدي لَقُلْتُها، ولأقْرَرْتُ بها عَينَكَ عينَكَ عندَ الفِراقِ لِما رأيتُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِكَ ونَصيحَتِكَ. ولكنْ سوفَ أموتُ على مِلَّةِ الأشياخِ فُلانٍ وفلانٍ» [بنحوه مسلم ٢٤/ ٤٢]

فأنْزَلَ اللهُ ذلكَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

فهو على المُعْتَزِلَةِ لأنهم يقولونَ: إنَّ الهُدَى البَيانُ، ولو كانَ بياناً على ما يقولونَ لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقْدِرُ أنْ يُبيِّنَ لهُ، وقد بيَّنَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) الفاء ساقطة في الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

لكنَّ الجُبَّائِيَّ يَحتجُّ لهمْ، فيَتأوَّلُ، ويقولُ: إنَّ رسولَ اللهِ، كانَ يَحرِصُ أنْ يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، فيقولُ: إنكَ لا تَهْدِي طريقَ الجنةِ لهُ حتى يَدْخُلَها، أو كلامٌ يُشْبِهُ هذا، وذلكَ بعيدٌ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: هذا ليسَ في ابْتِداءِ الهدايةِ، ولكنْ في اللَّطائفِ التي تُخرَّجُ مُخرَجَ الثوابِ لهمْ لِما كانَ منهُمْ مِنَ الاهْتِداءِ في البَدْءِ والأنفِ كقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ الآية [محمد: ١٧] فَيُخبِرُ أنكَ لا تَمْلِكُ الهدايةَ اللطيفةَ التي تُخَرَّجُ مُخرَجَ الثوابِ أنْ تَهْدِيَهُمْ.

فَيُقالُ لهُ: أخبِرْنا عنْ تلكَ الزيادةِ التي تُخَرَّجُ مُخرَجَ الثوابِ لِما كانَ منهمْ مِنَ الاهْتِداءِ في الابْتِداءِ [هل][1] تَنفَعُ لهمْ دونَ الابْتِداءِ؟ فإنْ قالَ[2]: نعمْ [فالرَّدُّ في وجهَينِ:

أحَدُهُما: يُقالُ لهُ][3]: فذلكَ عليهِ أنْ يَفْعَلَ بهمْ؛ إذْ مِنْ قولِكُمْ[4]: أنَّ عليهِ أنْ يُعْطِيَ كلَّ كافرٍ ما يَنْفَعُهُ، ويَصْلُحُ لهُ في دينِهِ، فكيفَ مَنْعُ ذلكَ يَنْفَعُهُمْ؟

والثاني: يُقالُ لهُ[5]: إنَّ تلكَ الزيادةَ التي تُخَرَّجُ مُخرَجَ الثوابِ لهمْ واللَّطائِفَ على ما كانَ منهُمْ في الابْتِداءِ يَسْتَوجِبُها، أو لا يَسْتَوجِبُها.

فإنْ كانَ يَسْتَوجِبُها فلا مَعْنَى لِلْمَنْعِ على [قولِكُمْ، لأنكمْ تقولونَ][6]: إنَّ على اللهِ أنْ يُعْطِيَ ذلكَ.

وإنْ كانَ لا يَسْتَوجِبُها فلا مَعْنَى لقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ على قولِكُمْ[7]. فَيَبْطُلُ الاحْتِجاجُ بهِ على قولِكُمْ[8].

وعندَنا زيادةُ الهدايةِ وابْتِداؤُها سَواءٌ [وهو][9] على ما أخبَرَ رسولَهُ أنهُ لا يَهديهِ. ولكنْ لو كانتِ الهدايةُ بَياناً على ما قالوا لَكانَ قد بَيَّنَ لهم، فَدَلَّ ذلكَ منهُ أنْ ثَمَّ هدايةٌ سِوى البَيانِ عندَ اللهِ إذا أعْطى العبدَ يَصيرُ مُؤْمِناً، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ والسَّدادُ. وذلكَ لا يَمْلِكُهُ رسولُ اللهِ: إنْ شاءَ ذلكَ أوِ ابْتِداءَهُ. بلِ اللهُ هو المالكُ لذلكَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ دلَّ قولُهُمْ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ هو على أنهم عَرَفوا ما جاءَ بهِ رسولُ اللهِ، ويَدْعوهُمْ إليهِ، هو الهُدَى حينَ[10] قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ يُخَرَّجُ لهمْ هذا على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أي نَهْلِكُ، ونَفْنَى جوعاً، إذا خالَفْنا أهلَ الآفاقِ في الدينِ، لأنَّ أرزاقَهُمْ وما بهِ قِوامُ أبدانِهِمْ إنما يُحْمَلُ، ويُمارُ مِنَ الآفاقِ. فيقولونَ: إنا إذا اتَّبَعْنا الهُدَى مَعَكَ، وخالَفْناهُمْ في الدينِ، فأهلُ الآفاقِ مَنَعونا المِيرَةَ، فنَهْلِكُ، ونَموتُ جوعاً، فذلكَ تَخَطُّفُهُمْ مِنَ الأرضِ.

والثاني: قالوا ذلكَ مَخافَةَ أنْ يُغْزَوا، ويُؤْسَروا، أو يُقْتَلوا إذا خالَفوا أهلَ الآفاقِ والأطرافِ في الدينِ، واتَّبَعوا الهُدَى مَخافَةَ الأسْرِ والقَتْلِ.

فأجابَهُمُ اللهُ، وردَّ عليهِمُ اعْتِلالَهُمْ في الوَجهَينِ.

فقالَ [في الوجهِ الأولِ][11] ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنا جَعَلْناهُمْ في الحَرَمِ آمنينَ، وما يُمْتارُ إليهِمْ مِنْ أنواعِ الثَّمَراتِ باللُّطْفِ، لا بمُوافَقَةِ الدينِ.

ألا تَرَى أنهمْ مع مُوافَقَةِ الدينِ كانوا يَتَخَطَّفونَ الناسَ منهمْ حينَ[12] قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ [العنكبوت: ٦٧] أخبَرَ أنهمْ مَعَ مُوافَقَتِهِمْ في الدينِ كانوا يُتَخَطَّفونَ. دلَّ أنهُ إنما جعَلَ لهمُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: فيقال لهم. (٤) في الأصل وم: قولهم. (٥) في الأصل وم: لهم.
(٦) في الأصل وم: قولهم لأنهم يقولون. (٧) في الأصل وم: قولهم. (٨) في الأصل وم: قولهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

الحَرَمَ مَأْمَناً والمِيرَةَ إليهِمْ باللُّطْفِ لا بالمُوافَقَةِ في الدينِ حتى [لا يَتَعَرَّضَ][١] لأهلِ الحَرَمِ في الحَرَمِ ولا خارجاً منهُ، ولا يَتَعَرَّضَ مَنْ دَخَلَ الحَرَمَ بشيءٍ لِيُعْلَمَ أنهُ كانَ ذلكَ باللُّطْفِ مِنَ اللهِ لا بالموافقةِ.

[وفي][٢] الثاني: إنهُ مَعَ ما كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ دونَ اللهِ فيهِ، لا يَمْنَعُهُمُ الرِّزْقَ، ويُؤْمِنُهُمْ فيهِ؛ فَلأَنْ يَفْعَلَ ذلكَ بهِمْ عندَ عبادَتِهِمُ [اللهَ تعالى وتَرْكِهِمْ عبادةَ][٣] غيرِهِ أحقُّ أنْ يُرْزَقوا، ويَأْمَنوا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي مِنْ كلِ جِنْسٍ ونَوعٍ مِنَ الثَّمراتِ يُجْبَى إليهِ. وظاهِرُهُ أنْ يُجْبَى إليهِ مِنْ كلِّ شيءٍ أرفَعُهُ وأنفَعُهُ؛ وذلكَ [ثَمَرُهُ، لأنَّ ثَمَراً][٤] كلِّ شيءٍ أرْفَعُهُ وأنْفَعُهُ. يُقالُ: ثَمَرَةُ الشيءِ كذا، وثَمَرَةُ هذا الكلامِ كذا، أي ما يُنْتَفَعُ مِنْ هذا هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ أنَّ[٥] ما يُحْمَلُ إليهِمْ مِنَ الآفاقِ، ويُجْبَى إليهِمْ مِنَ الثَّمَراتِ والأطعمةِ إنما هو باللُّطْفِ لا بِمُوافَقَةِ الدينِ. وكذلكَ لا يَعْلَمونَ أنَّ أمنَهُمْ فيهِ باللطفِ لا بِمُوافَقَةِ الدينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: كَفَرَتْ مَعيشَتَها، لم ترضَ مَعيشَتَها. وفيهِ إضمارٌ: في؛ أي بَطِرَتْ [في][٦] مَعيشَتِها، فانْتَصَبَ لانْتِزاعِ حَرْفِ: في. وتأويلُهُ[٧]، واللهُ أعلَمُ: أي كَمْ أهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ، بَطِرَ أهلُها في مَعيشَتِهِمْ[٨] حتى صَرَفوا شُكْرَهُمْ [إلى غيرِ الذي][٩] أنْعَمَ عليهِمْ، وجَعَلوا عبادَتَهُمْ[١٠] لِغيرِ الذي جَعَلَ لهمُ السَّعَةَ والرَّخاءَ.

فأنتُمْ يا أهْلَ مكةَ إذا بَطِرْتُمْ، وأشِرْتُمْ في سَعَتِكُمْ وخِصْبِكُمْ، تُهْلَكونَ كما أُهْلِكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، وهو ما قالَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مِنَ القَرْياتِ قَرْياتٌ إذا هَلَكَ أهلُها أسْكَنَ غيرَهُمْ فيها نَحْوُ قَرْياتِ فِرْعَونَ وغيرِهِ، جَعَلَ مساكِنَهُمْ لِبَني إسرائيلَ حينَ[١١] قالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧] وقالَ[١٢]: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [غافر: ٥٣].

ومِنَ القَرْياتِ ما جَعَلَها خَرِبَةً مُعَطَّلَةً، لم يُسْكِنْ غيرَهُمْ [فيها][١٣] نَحْوُ قَرْياتِ لوطٍ وغيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي الباقينَ. والوارِثُ هو الباقي في اللغةِ على ما ذَكَرْنا آنِفاً في غيرِ مَوضِعٍ. وقولُهُ: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ[١٤]:

أحَدُهما: إخبارٌ عَنْ هَلاكِ أهلِ الأرضِ وفنائِهِمْ وبَقائِهِ[١٥]، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ [مريم: ٤٠] [وقولِهِ][١٦]: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

والثاني: إخبارٌ عنْ هَلاكِ أولئكَ وجَعْلِها لِغيرِهِمْ أي لِلْمُتَّقينَ كقولِهِ[١٧]: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ/ ٤٠٠ - أ/ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي نُؤْخَذْ. وقولُهُ: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ مِنَ الجِبايَةِ، أي يُجْمَعُ، يُقالُ: جَبَيْتُ، أجْبي جِبايَةً و: جَباً. وأجْبَى يُجْبي، أي حازَ يحوزُ. [وقولُهُ][١٨]: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي لم تَرْضَ بِمَعيشَتِها.

وقالَ القُتَبِيُّ: أي أشِرَتْ، وقالا: ﴿فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] أي [في][١٩] أكْثَرِها وأعْظَمِها قَدْراً، وهي مكةُ، والنَّبِيُّ منهُمْ، والكتابُ أُنْزِلَ عليهِمْ. وقالا: وإِمُّها: كلمةٌ لا يَتَكَلَّمُ بها أحَدٌ، يَعْنونَ بالكَسْرِ[٢٠].

---

(١) من م، في الأصل: يتعرضوا. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ثمرته لأن ثمرة. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: معيشتها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عبادتها. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: وقوله. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) أدرج في الأصل بعدها: في هذا. (١٥) في الأصل وم: وبقي، في م: ويبقى. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، في الأصل: لقوله. (١٨) ساقطة من الأصل. (١٩) من م، ساقطة من الأصل. (٢٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٢٩.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما](1): جائزٌ أنْ تكونَ تلكَ القُرَى التي أخبَرَ أنهُ غيرُ مُهْلِكِها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ القرياتِ التي هُنَّ حَولَ مكةَ؛ لا يُهْلِكُ ﴿ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ قيلَ في أعظَمِها، وهي مَكَّةُ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

فإنْ كانَ هذا فيكونُ الإهلاكُ لها الانْتِزاعَ مِنْ أيديهِمْ وجَعْلَها في أيدي أهلِ الإسلامِ على ما كانَ، لأنَّ اللهَ كانَ يَفْتَحُ على رسولِهِ قَريَةً فقَريَةً وبَلْدَةً فبَلْدَةً حتى جَعَلَ الكُلَّ في أيدي المُسْلِمينَ، وهو ما قالَ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] وهو وَعْدُ فَتْحِ مكةَ. وذلكَ إهلاكُهُمْ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ هذا [في](2) كلِّ القُرى وجميعِ الرسُلِ؛ أنهُ كانَ لا يُهْلِكُها بالكُفرِ نَفْسِهِ حتى يَبْعَثَ في أكبَرِها وأعظَمِها، وهي المِصْرُ ﴿رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وذلكَ يُشْبِهُ قولَهُ(3): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وإنما ذَكَرَ بَعْثَ الرسولِ في أُمِّها لأنهُ بَعَثَ الرسولَ في أعظَمِها، وهو المِصْرُ، يَنْتَشِرُ، ويَنْتَهي في الآفاقِ والصغائِرِ منها والقُرَى لِما أنهمْ يدخلونَ المِصْرَ لِحوائجِهِمْ، فيَتَهَيَّأُ للرسولِ تِلاوةُ الآياتِ عليهِمْ والدعاءُ لهمْ، وإذا كانَ بعضُ القُرى لا يَتَهَيَّأُ لها(4) ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي مُعانِدونَ مُكابِرونَ، لا نُهْلِكُهُمْ إهلاكَ تعذيبٍ بِنَفْسِ الكُفْرِ في الدنيا حتى يكونَ منهمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ، إنما يُعَذَّبونَ عذابَ الكُفْرِ في الآخِرَةِ، وهو العذابُ الأبدُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إنهم كانوا يَتفاخَرونَ بما أُوتوا مِنَ السَّعَةِ ومَتاعِ الدنيا، وأهلُ الزُّهْدِ والتَّقوى آثَروا الباقِيَ الموعودَ في الآخِرَةِ على مَتاعِ الحياةِ الدنيا وزينَتِها.

الآية ٦١ ولذلكَ قالَ: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فجوابُ هذا أنْ يُقالَ: بلِ المَوعودُ الحَسَنُ المُلاقَى بالذي لهُ عاقبةٌ خيرٌ مِنَ المَتاعِ الفاني الذي ليسَتْ لهُ عاقبةٌ. لكنهُ لم يُذْكَرْ لهُ عاقبةٌ. فجوابُهُ ما ذَكَرْنا.

ثم كلُّ اسْتِفْهامٍ كانَ مِنَ اللهِ فهو على الإيجابِ في الحقيقةِ، ليسَ على الاسْتِفهامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي يُحْضَرُ(5) في النارِ. وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي المُعَذَّبينَ، وكلاهما واحدٌ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قولُهُ: ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ﴾ في زَعْمِكُمْ انهمْ شُرَكائي حينَ(6) أشرَكْتُموهُمْ في العِبادةِ وتَسْمِيَةِ الأُلوهِيَّةِ. وإلّا لم يكُنْ للهِ شريكٌ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ﴾ زَعَمْتُمْ انهمْ(7) شُرَكائي؟

ثم قولُهُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ إنما يقولُ(8) لهمْ لِقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقولُ: أينَ شَفاعةُ مَنْ زَعَمْتُمْ انهمْ شُفعاؤُكُمْ عندَ اللهِ؟ وأينَ قُرْبَتُكُمْ وزُلْفاكُمْ بِعِبادَتِكُمْ إياها حينَ(9) زَعَمْتُمْ أنَّ عِبادَتَكُمْ إياها تُقَرِّبُكُمْ إلى اللهِ زُلْفَى؟ أينَ ذلكَ لكُمْ منهمْ؟

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ القَولُ الذي قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وَجَبَ عليهِمُ العذابُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢] أي وَجَبَ عليهِمْ وكقولِهِ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النمل: ٨٥] أي وَجَبَ العذابُ عليهِمْ بما ظَلَموا، ونَحْوُهُ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) ساقطة من الأصل وم. (3) في الأصل وم: كقوله. (4) في الأصل وم: لهم. (5) في الأصل وم: يحضر.
(6) في الأصل وم: حيث. (7) من م، في الأصل: أنتم. (8) في الأصل وم: يقال. (9) في الأصل وم: حيث.

ثم اختُلِفَ في الذينَ حقَّ عليهِمُ القولُ: فمنهمْ مَنْ يقولُ: همْ رُؤساءُ الكَفَرَةِ وأئِمَّتُهُمُ الذينَ أضَلُّوا أتباعَهُمْ، ودَعَوهُمْ إلى الضَّلالِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: همْ شَياطينُ الجِنِّ. ولِلْفَريقَينِ جميعاً في الكتابِ ذِكْرٌ:

قالَ في أئِمَّتِهِمْ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقالَ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وأمثالُ هذا كثيرٌ.

وقالَ في شَياطينِ الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقالَ: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية [الصافات: ٢٢] ونَحْوُهُ كثيرٌ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ يَعتَذِرونَ: أنهُ لم يكُنْ منّا إليهِمْ إلّا الدعاءُ والإشارةُ إلى الغَوايةِ، وهو قولُ إبليسَ اللَّعينِ وخِطْبَتُهُ يومئذٍ حينَ[1] قالَ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ يقولونَ: لم يَكُنْ منّا إليهِمْ سِوَى الدعاءِ بلا بُرْهانٍ ولا حُجَّةٍ، فاتَّبَعونا، فلا تلومونا، ولوموا أنفُسَكُمْ حينَ[2] تَرَكْتُمْ إجابَةَ الرسُلِ، ومَعَهُمْ براهينُ وحُجَجٌ، وأجَبْتُمونا بلا حُجَّةٍ ولا بُرْهانٍ، فأغويناكُمْ كما غَوَينا، ولو كنّا على الهُدَى لَهَدَيناكُمْ، كقولِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ يَتَبَرَّؤونَ: أنا لم نأمُرْهُمْ بالعِبادةِ لنا، وإلّا كانوا عَبَدونا[3].

ثم إنَّ لِلْمُعْتَزِلَةِ أدنى تَعَلُّقٍ بهذهِ الآيةِ لأنهمْ يقولونَ: إنما أضافوا الغَوايةَ إلى أنفسِهِمْ حينَ[4] قالوا: ﴿أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ دَلَّ أنَّ اللهَ لا يُغْوي أبداً.

فيُقالُ لهمْ: إنّا لا نُضيفُ، ولا نُجيزُ إضافةَ الغَوايةِ إلى اللهِ في ما يُخَرَّجُ مُخرَجَ الذَّمِّ، وإنما نُضيفُ في ما يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والثَّناءِ عليهِ.

ثم قد أضافَ إبليسُ الغَوايَةَ إليهِ، ولم يُنْكِرْ عليهِ حينَ[5] قالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦ والحجر: ٣٩] في غيرِ مَوْضِعٍ، وقالَ: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ونَحْوُهُ كثيرٌ في القرآنِ. فما خُرِّجَ مُخرَجَ المَدْحِ لهُ والثناءِ عليه يُضافُ إليهِ، وما خُرِّجَ مُخرَجَ الذَّمِّ فلا. وقد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يومَ قالَ لإبليسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. ثم قالَتِ الشياطينُ في الآخِرَةِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ يَعنونَ كفارَ بَني آدمَ؛ هؤلاءِ الذينَ أضْلَلْناهُمْ عنِ الهُدَى كما ضَلَلْنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهمْ يا ربِّ ﴿مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ تبرّأتِ الشياطينُ مِمَّنْ كانَ يَعبُدُها فقالوا: لم نأمُرْهُمْ بِعبادَتِنا.

الآية ٦٤ [وقولُهُ تعالى][6] ﴿وَقِيلَ﴾ لِكُفّارِ بني آدمَ: ﴿ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ يقولُ: سَلُوا الآلهةَ التي سَمَّيْتُموها آلهةً، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي سَألوهُمْ، فَلَمْ تُجِبْهُمُ[7] الآلهةُ بأنها آلهةٌ، وقولُهُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا أنَّ معي شركاءَ على ما ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ [يَحتَمِلُ][8] ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ في الخِلْقَةِ، و﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ في العِبادةِ: ادْعوهُمْ [لِيَشْفَعوا لكمْ، ويُقَرِّبوكُمْ][9] إلى اللهِ على ما زَعَمْتُمْ في الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي لم يَشْفَعوا لهمْ، ولم يَستَجيبوا، لِما لم يَجْعَلْ في وُسْعِهِمُ الإجابةَ لهمْ واجباً كائناً في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ تأويلُهُ [في وجوهٍ:

أحدُها: لو رَأَوْا][10] العذابَ في الدنيا لَكانوا يَهْتَدونَ، ولكنْ لم يَرَوْهُ. هذا وَجْهٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عبدوهم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: يجيبوا. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ليشفعوكم ويقربكم. (١٠) في الأصل: أي رأى، في م: أي رأوا.

وَوَجْهٌ آخَرُ: أنهمْ لم يُصدِّقوا بالعذابِ في الدنيا، ولو صَدَّقوهُ لاهْتَدَوا مَخافَةَ نُزولِ العذابِ بهمْ.

والثالثُ: لو أنهمْ كانوا مُهْتَدينَ في الدنيا ما رَأَوُا العذابَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٥ و٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ/ ٤٠٠ ـ ب/ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ قائلونَ: إنما يُسألونَ عنْ إجابَتِهِمُ الرسُلَ: ماذا أجَبْتُموهُمْ؟ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ ماذا أجابوهُمْ؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أيِ الإجابةُ، فلا تَتَهَيَّأُ لهمُ الإجابةُ لِهولِ ذلكَ [اليومِ][1] وفَزَعِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما يُسألونَ عنِ الحُجَّةِ والعُذْرِ الذي بهِ كانوا تركوا إجابةَ الرسُلِ، فيُقالُ لهمْ: لأيِّ حُجَّةٍ وعُذْرٍ تَرَكْتُمْ إجابتَهُمْ؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ أيِ الحُجَجُ والعُذْرُ لِما لم يكنْ لهمُ الحُجَّةُ والعُذْرُ في تركِهِمْ إجابتَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَسْألُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، بل يَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ، ويَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، ويَلْعَنُ بعضُهُمْ بَعْضاً[3] على ما ذُكِرَ في الكتابِ[4].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالأنسابِ يومئذٍ لِما لا حُجَّةَ لهمْ، ولا بُرْهانَ؛ أي لا يَسْألُ بعضُهُمْ بَعْضاً عنِ الحُجَجِ لأنَّ اللهَ أدْحَضَ حُجَجَهُمْ، وكَلَّلَ ألسِنَتَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالأنسابِ يومئذٍ كما كانوا يَتَساءلونَ في الدنيا كقولِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

ثم إنَّ بَعْضَ المُعْتَزِلَةِ تَكَلَّموا فيهِ، وقالوا: لو كانَ الأمْرُ على ما قالَهُ القَدَرِيُّونَ والجَبْرِيُّونَ في المَشيئَةِ والإرادةِ لكانَ يَسْهُلُ لهمُ الاحتِجاجُ، ويَهونُ لهمُ العُذْرُ، فيقولونَ: يا ربَّنا أجَبْنا ما نَفَذَ مِنْ مَشيئَتِكَ وإرادَتِكَ وما مَضَى منْ قضائِكَ وكتابِكَ علينا إذْ كنْتَ أنتَ قَضَيتَ، وكَتَبْتَ علينا، وشِئْتَ، وأرَدْتَ، بما[5] كانَ مِنَّا مِنَ التَّكذيبِ لهمْ وتَرْكِ الإجابةِ، فلم يَكُنْ لنا تَخَلُّصٌ مِمّا شِئْتَ أنتَ، وقَضَيْتَ علينا.

إلى هذا الخيالِ يَذْهَبُ جَعْفَرُ بنُ حَرْبٍ. وهذا منهُ[6] تَعليمٌ لأولئكَ الكَفَرَةِ الحِجاجَ بالباطِلِ والكَذِبِ بَينَ يَدَي ربِّ العالَمينَ لِلتَّكذيبِ الذي كانَ منهمْ.

ثم يُقالُ: لو كانَ لهمْ ذلكَ الحِجاجُ على زَعْمِكُمْ فلا يكونُ ذلكَ لهمْ بِقَولِنا، ولكنْ إنما يكونُ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ وقولِ المُسْلِمينَ أجْمَعينَ حينَ[7] قالوا: ما شاءَ اللهُ كانَ، وما[8] لم يَشَأْ لم يَكُنْ.

وبِكتابِ اللهِ ذُكِرَ[9] في غَيرِ آيَةٍ مِنَ القرآنِ [قولُهُ][10]: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقولُهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ الآية [يونس: ٩٩] وأمثالُهُ مِمّا لا يُحصَى مِنَ الآياتِ. فإنْ كانَ لهمْ ذلكَ فإنما يكونُ بما ذُكِرَ لا بقولِنا.

وأصْلُهُ أنهُ لا يكونُ لهمْ هذا النوعُ مِنَ الاحْتِجاجِ لأنهمْ وقتَ فِعْلِهِمْ لا يَعْقِلونَ بأنَّ اللهَ شاءَ ذلكَ لهمْ، أو قَضَى، وكَتَبَ ذلكَ عليهمْ، وهمْ يَوَدُّونَ، ويُحِبّونَ وقتَ فِعْلِهِمْ أنْ يشاءَ اللهُ ذلكَ منهمْ، ويَرضَى. فإنْ كانوا وقتَ فِعْلِهِمْ لا يَعْقِلونَ ذلكَ فكيفَ يكونُ لهمُ الحِجاجُ على ما كانوا يَفْعَلونَ ذلكَ[11]؟ لكنَّ هذا منهمْ تَعليمُ الكَذِبِ لهمْ لِيَكْذِبوا بَينَ يَدَي ربِّ العالَمينَ على ما ذُكِرَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ببعض. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لا لذلك.

وأصلُ قولِنا في هذا: أنّا نقولُ: إنهُ شاءَ مِنْ كلِّ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ؛ إذْ لا يَجوزُ أنْ يُشاءَ منهُ خلافُ عِلْمِهِ[1] أنهُ يكونُ لأنَّ فيهِ أحَدَ وجهَينِ: إمّا الجَهْلَ بالعَواقِبِ وإمّا العَجْزَ فيهِ، وذلكَ مِنَ اللهِ مَنفيّانِ. تعالَى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوًّا كبيراً.

وأصْلُهُ ما رُوِيَ عنْ أبي حَنيفةَ رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ: بَيْنَنا وبَيْنَ القَدَريَّةِ حَرْفانِ:

هُما[2]: أنا نقولُ: إنَّ اللهَ أعْلَمُ ما يكونُ أنهُ يكونُ. فإنْ قالوا: لا كَفَروا لأنهمْ جَهَّلوا اللهَ، وإنْ قالوا: بَلَى، فيُقالُ لهمْ: وشاءَ أنْ يكونَ. فإنْ[3] قالوا: لا كَفَروا لأنهمْ يقولونَ: شاءَ أنْ يَجْهَلَ ذلكَ، [وإنْ قالوا: بَلَى][4] لَزِمَهُمْ قولُنا في المَشيئةِ والإرادةِ للهِ في ذلكَ.

قالَ أبو عوسَجَةَ والقُتَبيُّ: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بالتَّخفيفِ أي خَفِيَتْ فَعُمِّيَتْ بالتَّشديدِ[5] أي أُخفِيَتْ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي فأمّا مَنْ رَجَعَ عمّا كانَ فيهِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفرِ ﴿وَءَامَنَ﴾ بالذي دعاهُمُ الرسُلُ، وأجابَهُمْ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ رجوعُ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ إلى ذلكَ الرجلِ الذي نَعَتَهُ [بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية][6] على رَجاءِ القَبولِ والفلاحِ؛ يَفْعَلُ ما يَفْعَلُ مِنَ التوبةِ والعَمَلِ الصالحِ.

[ويَحْتَمِلُ][7] أنْ يُقالَ ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ: عَسَى مِنَ اللهِ واجبٌ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ كل استِفْهامٍ كانَ مِنَ اللهِ فهو على اللُّزومِ والوُجوبِ. فَعَلَى ذلكَ حَرْفُ: لَعَلَّ، وإنْ كانَ حَرْفَ شَكٍّ في الظاهرِ، فهو مِنَ اللهِ على الوُجوبِ واليَقينِ.

قالَ أبو مُعاذٍ: الفَلاحُ في كلامِ العَرَبِ البَقاءُ، ويُقالُ: النَّجاةُ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضعٍ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: وربُّكَ يَختارُ للرسالةِ مَنْ يَشاءُ، ويَجْتَبيهِ لها، فَيَجْعَلُهُمْ رسلاً ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ يقولُ: لم يَكُنْ لهمْ أنْ [يَختاروا ويَصْطَفوا مَنْ يشاؤونَ، ولكنَّ اللهَ][8] يَختارُ، ويَصْطَفي، مَنْ يشاءُ، رَدٌّ لِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية [الزخرف: ٣١] إلى هذا ذهبَ بعضُهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في كلِّ أمْرٍ، أي وربُّكَ يَختارُ ما يَشاءُ، ويأمُرُ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مِنْ أمْرِهِ أي التَّخَلُّصِ والنَّجاةِ مِنْ أمْرِهِ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] والقضاءُ ههنا أمْرٌ، لكنهُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على الوَقْفِ [في][9] قولِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ والابْتِداءِ مِنْ قولِهِ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مِنْ أمرِهِمْ. فإنْ كانَ على هذا فتكونُ ما ههنا: جَحْداً أي لم يَكُنْ لهمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ.

والثاني: على الصِّلَةِ؛ ليسَ على الجَحْدِ، فيكونُ تأويلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي لهمُ الخِيَرَةُ: أنْ يكونَ الوَقْفُ على هذا على قولِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ثم يقولُ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ الذي لهمُ الخِيَرَةُ. قالَ أبو معاذٍ: قُرِئَ: الخِيْرَةُ بِجَزْمِ الياءِ وبِتَحْريكِها: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾[10].

ثم قولُهُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ على المُعْتَزِلَةِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما أجْمَعوا أنَّ اللهَ قد شاءَ جميعَ ما يَفْعَلُهُ العِبادُ مِنَ الخَيراتِ والطاعاتِ. فإذا جازَ ذلكَ دلَّ أنهُ خَلَقَها إذْ أخبَرَ أنهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧ و...] وقد شاءَ الخيراتِ، فَدَلَّ ذلكَ على خَلْقِ أفعالِ العِبادِ. لكنهمْ يقولونَ [في][11] قولِهِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إذا خَلَقَهُ[12] وكذلكَ يقولونَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠ و...] إنْ خَلَقَهُ[13] أو كلامٌ نَحْوُ هذا. فلئنْ جازَ لهمْ هذا مِنَ الزِّيادةِ جازَ لكل أحدٍ مِثْلُهُ. فذلكَ بعيدٌ.

[والثاني:][14] على قولِهِمْ: أكْثَرُ الأشياءِ ليسَتْ بِمَخلوقةٍ للهِ، وهو على أكْثَرِ الأشياءِ غَيرُ قديرٍ، لأنَّ أفعالَ الخَلْقِ،

---

(١) في الأصل وم: علم. (٢) في الأصل: أحدهما، ولعل الحرفين: لا وبلى الآتيان. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ٣٠. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يقول. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في م: يختاروا هم ولكن الله، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٥/ ٣٠ و٣١. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و(١٣) الضمير يعود على خلق أفعال العباد. (١٤) في الأصل وم: و.

لاشكَّ أنها أكثرُ مِنْ انفُسِهِمْ. فأخبرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأنهُ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وأنَّ هذا خَرَجَ منهُ مَخْرَجَ الإمْتِداحِ لهُ والثَّناءِ عليهِ بما لهُ مِنَ السلطانِ والقُدْرَةِ على الخَلْقِ كلِّهِمْ.

فلو كانَ على ما يقولُ المُعْتَزِلَةُ: لم يَكُنْ هذا مَدْحاً لهُ ولا ثناءً بالسلطانِ والقُدْرَةِ إذْ هو على قولِهِمْ: على أكثرِ الأشياءِ ليسَ بقادرٍ على ما ذَكَرْنا.

ثم نَزَّهَ نَفْسَهُ، وبَرَّأَها، عمّا قالوا فيهِ، وأشْرَكوا غَيرَهُ في ألوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ وفي عِبادَتِهِ، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٦٩ وقولُهُ[1] تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ هذا يُخَرَّجُ على الوَعيدِ لهُمْ والتَّنْبيهِ لِيكونوا على حَذَرٍ في ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ كقولِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ وقد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾/ ٤٠١ ـ أ/ مِنْ أمرِهِمْ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: لَهُ الاختيارُ في أمْرِهِمْ، لا لَهُمُ الإختيارُ في أمْرِهِمْ، ولا يَمْلِكونَ هم ما يَختارُ لهم دَفْعَهُ.

والثاني: هويَختارُ لهمُ الخِيَرَةَ في أمْرِهِمْ لأنهُ هو العالِمُ بِمَصالِحِ أمورِهِمْ، وما يَرْجِعُ إلى الأوفَقِ والأنْفَعِ، هُمْ لا يَعْرِفونَ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ لأنَّ أنفُسَ الخَلائقِ لهُ دونَهُمْ، فَلَهُ الحُكْمُ في أمورِهِمْ وأفعالِهِمْ كما لهُ الحُكْمُ في أحوالِهِمْ، لأنهُ لا يَلْحَقُهُ الخِطابُ في حُكْمِهِ؛ إذْ هو عالِمٌ بذاتِهِ، ولا تَلْحَقُهُ التُّهَمَةُ أيضاً في دَفْعِ مَضَرَّةٍ أو جَرِّ نَفْعٍ [لأنهُ غَنِيٌّ بِذاتِهِ][2] فَلَهُ الحُكْمُ في الدارَينِ جميعاً. واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُهما: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ أولياءَهُ يَحْمَدونَهُ في الدنيا والآخِرَةِ؛ في الجنةِ [حينَ يقولونَ][3] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ الآية [فاطر: ٣٤] يقولونَ [ذلكَ][4] إذا دَخلوا الجنةَ.

والثاني: ما[5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يقولُ: في السمواتِ والأرضِ. وتَصْديقُهُ قولُ اللهِ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨] وقولُهُ[6]: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] وقولُهُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والثالثُ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو أنْ جَعَلَ الدنيا مُشْتَرَكَةً بَينَ الأعداءِ والأولياءِ في نَعيمِها غَيرَ مُفْتَرِقَةٍ ولا مُخْتَلِفَةٍ، وأمّا في الآخِرَةِ فقد فَرَّقَ فيها بَينَ الأولياءِ والأعداءِ؛ جَعَلَ للأولياءِ النِّعْمَةَ الدائمةَ وللأعداءِ العذابَ الدائمَ، فَلَهُ الحَمْدُ على ذلكَ.

والرابعُ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِما جَعَلَ الدنيا دارَ مِحْنَةٍ والآخِرَةَ دارَ الجَزاءِ، لم يَجْعَلْها دارَ المِحْنَةِ.

[والخامسُ][7]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي لهُ الحَمْدُ مِنَ الخَلْقِ في كلِّ حالٍ وكلِّ وقتٍ كقولِهِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] إنهم يَحْمَدونَهُ في بَدْءِ كلِّ أمرٍ وخَتْمِهِ أي[8] أنْ يكونَ لهُ الحَمْدُ.

الآيتان ٧١ و٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [وقولُهُ][9]: ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا ليلَ فيهِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [وقولِهِ][10]: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يُخَرَّجُ ذِكْرُهُ [في وجهَينِ][11]:

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: حيث قالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، في الأصل: وقول. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل: لوجهين، في م: إلى وجهين.

أحدُهما: في تَسْفيهِهِمْ في صَرْفِ العِبادةِ والشُّكرِ إلى الأصنامِ التي كانوا يَعْبدونها على عِلْمٍ منهمْ أنها لا تَمْلِكُ شيئاً ممّا ذَكَرَ مِنْ جَعْلِ الليلِ نهاراً وجَعْلِ النهارِ ليلاً وتَرْكِهِمْ عِبادةَ مَنْ يَعْرِفونَ أنهُ يَمْلِكُ ذلكَ كلَّهُ، وكذلكَ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حينَ[1] قالَ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨] فإذا[2] لا يَمْلِكُ ما تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ دَفْعَ ضُرٍّ أرادَهُ اللهُ لهمْ[3] وجَعْلَهُ رَحْمَةً ولا دَفْعَ رَحْمَةٍ أرادَها اللهُ وجَعْلَها[4] ضُرًّا، فكيفَ تَعْبُدونَها، وتَتْرُكونَ عِبادةَ مَنْ يَمْلِكُ جَعْلَ هذا هذا ودَفْعَ هذا بهذا؟ فَعَلَى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كيفَ تَعْبُدونَ مَنْ لا يَمْلِكُ جَعْلَ الزمانِ كلِّهُ ليلاً دائماً، لا نَهارَ فيهِ، وجَعْلَ الزَّمانِ[5] نهاراً كُلَّهُ دائماً، لا ليلَ فيهِ، وتَتْرُكونَ عِبادةَ [مَنْ][6] يَمْلِكُ ذلكَ كلَّهُ؟ يَجْعَلُ وقتَ [الراحةِ والسكونِ [غيرَ][7] وقتِ الاكْتِسابِ والتَّعَيُّشِ وَوَقْتَ التَّعَيُّشِ والكَسْبِ [غيرَ][8] وقتِ][9] الراحةِ والقَرارِ.

والثاني: يُذَكِّرُهُمْ عظيمَ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ حينَ[10] أنشأَ هذا العالَمَ مُحتاجاً إلى ما بهِ قِوامُ أنفُسِهِمْ وأبدانِهِمْ في دينِهِمْ. ثم جَعَلَ ذلكَ كلَّهُ على التَّعاوُنِ وتَظاهُرِ[11] بَعْضِهِمْ بَعْضاً ما لو جَعَلَ ذلكَ على غيرِ ذلكَ لا تقومُ أنفُسُهُمْ وأبدانُهُمْ بذلكَ حينَ[12] جَعَلَ الليلَ وقتاً للراحةِ والسكونِ، والنهارَ وقتاً لِلتَّقَلُّبِ والتَّعَيُّشِ.

ولو كانَ ذلكَ كُلُّهُ وقتاً للراحةِ لا تقومُ أنفُسُهُمْ أبداً لِلتَّعَيُّشِ والكَسْبِ. ولو كانَ كلُّهُ وقتاً لِلتَّقَلُّبِ والكَسْبِ، لا راحةَ فيهِ، لا تَقومُ أيضاً أنفُسُهُمْ بذلكَ.

لكنهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ جَعَلَ وقتاً للراحةِ؛ إنما جَعَلَهُ للكُلِّ لا لِبَعْضٍ دونَ بعضٍ، وكذلكَ ما جَعَلَهُ وقتَ التَّقَلُّبِ؛ إنما جَعَلَهُ كذلكَ للكُلِّ لا لِبَعْضٍ دونَ بَعْضٍ لِتَقومَ لهمْ أسبابُ التَّعَيُّشِ وما بهِ قِوامُ أنفسِهِمْ وأبدانِهِمْ. ولو كانَ ذلكَ كلُّهُ وقتاً لأحَدِهما لم تَقُمْ أنفُسُهُمْ، ولا بَقِيَ هذا العالَمُ إلى الوقتِ الذي جَعَلَ لهُ البقاءَ إلى ذلكَ الوقتِ.

الآية ٧٣ وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وقولُهُ[13]: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إنما هو سَمْعُ عَقْلٍ وقلبٍ وبَصَرُ عَقْلٍ وقَلْبٍ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا بالعَقْلِ، ويقولُ[14]: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بالعَقْلِ، واللهُ أعلَمُ، كقولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قد ذَكَرْناهُ. وهذه الآياتُ التي يُكَرِّرُها، ويُعيدُها[15] مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤] وقولِهِ: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وأمثالُ ذلكَ ممّا يَكْثُرُ على عِلْمٍ منهُ أنهمْ لا يُصَدِّقونها، ولا يَقْبَلونَها، ولا يَسْتَمِعونَ إليها، وإنْ كُرِّرَتْ، وأُعِيدَتْ، غيرَ مَرَّةٍ، فهو، واللهُ أعلَمُ على وَجْهَيْنِ:

أحدُهما: لُزومُ الحُجَّةِ لِما مُكِّنوا مِنَ[16] الاسْتِماعِ والسماعِ، وإنْ كانوا لا يَسْمَعونَ إليها.

والثاني: يكونُ فيهِ عِظَةٌ للمؤمنينَ مِنْ وجوهٍ:

أحدُها: لِيَشْكُروا على ما عُصِموا مِنْ عِبادةِ غَيرِ اللهِ، وَوُفِّقوا عِبادةَ المُسْتَحِقِّ إليها، لِيَعْرِفوا عظيمَ نِعْمَةِ اللهِ عليهمْ.

والثاني: لِيَحْذَروا عاقِبَتَهُمْ في الرجوعِ إلى ما همْ[17] عليهِ أولئكَ الكَفَرَةُ على ما حَذَّرَ[18] الرسُلَ والأنبياءَ وأولي العِصْمَةِ عاقِبَتَهُمْ في الرجوعِ إلى ذلكَ كقولِ إبراهيمَ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وأمثالُهُ كثيرٌ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: فإن. (٣) في الأصل وم: له. (٤) في الأصل وم: وجعله. (٥) في الأصل وم: النهار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) و(٨) ساقطة من نسخة الحرم المكي. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: والتظاهر. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: ويعيد. (١٦) في الأصل وم: أو. (١٧) من م، في الأصل: هو. (١٨) من م، في الأصل: حذروا.

والثالثُ: خوفُ المُعامَلَةِ: لئلا يُعامِلوا مُعامَلَتَهُمْ[١] في العَمَلِ كما عامَلَ أولئكَ في الاعْتِقادِ، لأنَّ المؤمنينَ، وإنْ خالفوا[٢] أولئكَ الكَفَرَةَ في الاعْتِقادِ في إشراكِ غَيرِهِ في العِبادةِ فربما يُوافِقونَهُمْ في العَمَلِ، فَكُرِّرَتْ هذهِ الأنباءُ والآياتُ عليهِمْ، وأُعيدَتْ مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ][٣] وإنْ كانَ أولئكَ لا يَسْتَمِعونَ إليها للوجوهِ التي ذَكَرْنا.

والرابعُ: كُرِّرَتْ، وأُعيدَتْ، لئلا يَقولوا: إنها لو أُعيدَتْ، وكُرِّرَتْ، لَقَبِلْناها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قيلَ: شَهيدُها رسولُها كقولِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية [النساء: ٤١] وقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل: ٨٤] ونحوُهُ.

سَمّى شهيداً لأنهُ شَهِدَ على ما عَمِلوا، وحَضَرَ ما كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ، مِنَ التَّكْذيبِ والقَبولِ والرَّدِّ ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ في تَسْمِيَتِكُمُ الأصنامَ آلهةً أو في اسْتِحْقاقِها[٤] العِبادَةَ أو في زَعْمِكُمْ: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونَحْوَ ذلكَ يقولُ: هاتوا برهانَكُمْ وحُجَّتَكُمْ على ما زَعَمْتُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ هذا أيضاً يَحْتَمِلُ وجوهاً:

عَلموا أنَّ الألوهِيَّةَ والرُّبوبِيَّةَ للهِ، أو عَلِموا أنَّ الشَّفاعةَ للهِ لا للأصنامِ التي عَبَدوها لِيكونوا شُفَعاءَ عندَ اللهِ كقولِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أو أنْ يكونَ الحَقُّ[٥] الذي عليهِمْ هو[٦] العِبادَةُ لِلّهِ، أو أنْ يكونَ ما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ/ ٤٠١ - ب/ مِنَ الحَقِّ إنما جاؤوا مِنْ عندِ اللهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [أي ضَلَّ][٧] عنهُمْ ما كانوا يَأْمُلونَ مِنْ عبادَتِهِمْ تلكَ الأصنامَ مِنَ الشَّفاعةِ والزُّلْفى.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كأنهُ كانَ[٨]، واللهُ أعْلَمُ، يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ، ويوعِدُهُمْ بِبَغْيِهِمْ على اللهِ وعلى رسولِهِ بِعَذابٍ يَنْزِلُ عليهِمْ كما نَزَلَ بِقارونَ بِبَغْيِهِ على موسى وقومِهِ إذْ لم تَنْفَعْهُ قرابَتُهُ مِنْ موسى ولا صِلَتُهُ بِهِ لِما ذُكِرَ أنهُ كانَ ابْنَ عَمِّهِ، وكانَ خِتْنَهُ زَوْجَ أُخْتِهِ مَريَمَ.

فَعَلى ذلكَ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لا تَنْفَعُكُمُ القرابةُ التي بَيْنَكُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ، ولا اتِّصالُكُمْ بهِ مِنْ عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ في الدنيا إذْ[٩] بَغى عليهِ، وكما [لم][١٠] تَنفَعْ أُبُوَّةُ أبي إبراهيمَ إذْ بَغى عليهِ، وتَرَكَ اتِّباعَهُ حينَ[١١] تَبَرَّأَ إبراهيمُ منهُ، وحينَ[١٢] قالَ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [مريم: ٤٥] وحينَ[١٣] لم تَنْفَعْ لامرأةِ نوحٍ ولوطٍ الزَّوجِيَّةُ التي كانتْ بَيْنَهُما وبَيْنَ نوحٍ ولوطٍ مِنْ نُزولِ [عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ بهما إذْ تَرَكَتا اتِّباعَهُما، وبَغَتا عليهِما][١٤].

فَعَلى ذلك يا أهلَ مكةَ لا يَنْفَعُكُمْ مِنْ عذابِ اللهِ ومَقْتِهِ قرابَتُكُمْ لِرسولِ اللهِ، صلواتُ اللهِ عليهِ، وصِلَتُهُ بكمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في بَغْيِهِ عليهِمْ: قالَ بعضُهُمْ: هو أنَّ موسى طَلَبَ منهُ زكاةَ ما آتاهُ اللهُ مِنَ المالِ، فَمَنَعَهُ، وأبى أنْ يُعْطِيَهُ. وقالَ بعضُهُمْ: بَغْيُهُ عليهِمْ، هو أنْ أعْطى امْرَأَةً جُعْلاً لِتَقْذِفَهُ بِنَفْسِها، فأرادَ أنْ يَفْضَحَهُ على رؤوسِ الأخيارِ والمَلَإِ وأنْ يَرْجُموهُ، فَدَفَعَ اللهُ [ذلكَ][١٥] عنهُ، وبَرَّأَهُ منهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنما بَغى عليهِ بكثْرَةِ مالِهِ وَوَلَدِهِ. هذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ كأنهُ افْتَخَرَ بِكَثْرَةِ مالِهِ في دفعِ عذابِ اللهِ ونِقْمَتِهِ كقولِ أهلِ مكةَ ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وقالَ بعضُهُمْ: بَغى عليهِ لأنَّ النُّبُوَّةَ جُعِلَتْ في موسى والحُبورَةَ في هارونَ، ولم يُجْعَلْ لِقارونَ شيءٌ، فاعْتَزَلَ عنْ موسى، واتَّبَعَهُ ناسٌ كثيرٌ، واعْتَدَوا[١٦] عليهِ. ونَحْوُ هذا كثيرٌ مِمّا قالوهُ.

---

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) في الأصل وم: خالفوا هم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: استحقاق. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: هي. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قال. (٩) في الأصل وم: إذا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) و(١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العذاب ومقته بهم إذا تركوا أتباعهم وبغوا عليهم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: واعتدى.

والأشبهُ أنْ يكونَ بَغْيُهُ الذي ذَكَرَ عليهِ كَبَغْيِ فِرْعَونَ وهامانَ عليهِ حين(١) قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣ و٢٤] وقال(٢): ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٩] فكانَ منهُ ما كانَ مِنْ فِرْعَونَ وهامانَ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ لرسالَتِهِ وتَسْمِيَتِهِ ساحراً كذّاباً.

فذلكَ هو البَغْيُ عليهِ، لأنهُ ذَكَرَ البَغْيَ. أو لا يُفَسَّرُ البَغْيُ عليهِ لأنهُ ذَكَرَ البَغْيَ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ البَغْيُ؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ قائلونَ: بَغْيُهُ عليهمْ هو أنْ زادَ في ثيابِهِمْ شِبْراً. فذلكَ أيضاً لا نَعْلَمُهُ، فهو مِثْلُ الأوّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ خزائنُهُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمعُ مِفْتاحٍ، وهو في الأصلِ مفاتيحُ.

وذُكِرَ أنَّ كنوزَهُ، كانَتْ كذا كذا ألفاً، وأنَّ مفاتِحَهُ كانَ يَحْمِلُها(٣) كذا وكذا بَغْلاً، وأنها مِنْ جلودِ كذا أو مِنْ كذا قَدْرَ كذا. فذلكَ أيضاً لا نَعْلَمُهُ، ولا نُفَسِّرُهُ، ولا نَذْكُرُهُ، إلّا قَدْرَ ما ذُكِرَ في الكتابِ: الكنوزُ والمفاتِحُ.

وذُكِرَ أنَّ العُصْبَةُ تَنوءُ بها، وذلكَ لِكَثْرَةِ(٤) ما ذَكَرَ. ولكنْ لا نَعْلَمُ قَدْرَهُ وعَدَدَهُ؛ ماهو؟ ولا: كَمْ هو؟ وكذلكَ العُصْبَةُ أيضاً؛ لا نَعْلَمُ كمْ عَدَدُها؟ إلّا أنّ أهلَ التأويلِ: يقولُ بعضُهُمْ: مِنْ عَشْرَةٍ إلى أربعينَ، ويقولُ بعضُهُمْ: مِنْ عَشْرَةٍ إلى خَمْسَةٍ وسَبْعينَ. ويَقولُ بعضُهُمْ: مِنْ عَشْرَةٍ إلى خَمْسَةَ عَشَرَ، ونحنُ لا نُفَسِّرُهُ، ولا نَذْكُرُ عَدَدَهُ سِوَى أنهُ اسْمُ جماعةٍ، يَتَعَصَّبُ بعضُهُمْ ببعضٍ(٥)، ويُعَيِّرُ بعضُهُمْ بَعْضاً، يَرْجِعونَ جميعاً إلى أمْرٍ واحدٍ.

وكذلكَ الشِّيعةُ: هي جماعةٌ، يَتَشَيَّعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ(٦)، ويَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. ولذلكَ قالَ إخوةُ يوسفَ لأبيهمْ: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ١٤] أي يَتَعَصَّبُ بَعْضُنا بِبَعْضٍ(٧)، لا نَدَعُهُ يأكُلُهُ، ولَئِنْ لم نَفْعَلْ، ولم نَحْفَظْهُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: تلكَ المَفاتيحُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ أي تَميلُ بها العُصْبَةُ إذا حَمَلَتْها مِنْ ثِقَلِها. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي لَتَعْجَزُ العُصْبَةُ عنْ حَمْلِها. وقالَ بعضُهُمْ: تَنوءُ تَثْقُلُ، والعُصْبَةُ الجماعةُ(٨).

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا تَبْطَرْ، ولا تَأْشَرْ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ البَطِرينَ الأشِرينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تَفْتَخِرْ على الناسِ بما آتاكَ اللهُ مِنَ المالِ، ولا تَتَكَبَّرْ عليهِمْ، ولا تَفْرَحْ: لا تَسْكُنْ إليها، ولا تَرْكُنْ إلى ذلكَ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ ذَكَرَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ كأنَّ كَثْرَةَ ما آتاهُ مِنَ المالِ أنْسَتْهُ الآخِرَةَ، وشَغَلَتْهُ عنها وعنِ العَمَلِ لها حتى حَمَلَهُ ذلكَ على الجُحودِ والإنكارِ، فقالَ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تَنْسَ [نَصيبَكَ](٩) مِنْ مالِكَ في الدنيا، ولكنْ قَدِّمْ لآخِرَتِكَ.

قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى آخِرِهِ؛ قالَ: أَمَرَ أنْ يأخُذَ مِنْ مالِهِ قَدْرَ عَيْشِهِ، ويُقَدِّمَ ما سِوَى ذلكَ لِآخِرَتِهِ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي قَدِّمِ الفَضْلَ، وأمْسِكْ ما يُبَلِّغُكَ ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قالَ: يَكْفيكَ ما أحلَّ اللهُ لكَ مِنَ الدنيا، فإنَّ فيهِ غِنًى وكِفايَةً.

وأصْلُهُ ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لكَ مِنَ الدنيا ما أكَلْتَ ولَبِسْتَ وأفْنَيتَ وما قَدَّمْتَ» [مسلم ٢٩٥٨] جَعَلَ المُقَدَّمَ مِنَ الدنيا لهُ، وأمّا ما خَلَّفَهُ فهو لِغَيْرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) في الأصل وم: يحمل. (٤) من م، في الأصل: لكثرة. (٥) و(٦) و(٧) في الأصل وم: بعضا. (٨) في الأصل وم: جماعة. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وهكذا [الدنيا؛ لم تُخلَقِ الدنيا][1] لِتبقَى لأهلِها، أو يَبقَى أهلُها فيها. ولكنْ إنما خُلِقَتْ لِتَفنَى هي، ويَفنَى[2] أهلُها، وخُلِقَتِ الآخِرَةُ لِلْبَقاءِ. فَنَصيبُهُ مِنَ الدنيا ما قَدَّمَ، وأنفَقَ في طاعةِ اللهِ في سبيلِهِ، ليسَ ما خَلَّفَهُ في هذهِ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى نفسِكَ في العَمَلِ للآخِرَةِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ واحْسِنْ إلى الخَلْقِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا يَدُلُّ أنهُ كانَ يُنفِقُ مالَهُ. إلّا أنهُ كانَ يُنفِقُ في الصَّدِّ عنْ سبيلِ اللهِ حتى[3] قالَ: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولو كانَ في تَرْكِ الإنفاقِ لم يكُنْ في ذلكَ بَغْيُ الفسادِ في الأرضِ.

ثم الواجبُ على مَنْ حَضَرَ الملوكَ، وشَهِدَ مجالِسَهُمْ مِنْ أهلِ العِلْمِ أنْ يُخَوِّفوا الملوكَ، ويُوعِدوهُمْ[4] بما أوعَدَ قومُ موسى قارونَ وخَوَّفوهُ، ويأمُروهُمْ بالصلاحِ في أنفسِهِمْ وفي رعيَّتِهِمْ كما أمَرَ أولئكَ قارونَ، وينْهَوهُمْ كما نَهاهُ أولئكَ. فإنْ أجابوهُمْ، وإلّا امتَنَعوا عنهُمْ، وكَفُّوا أنفسَهُمْ عنِ الاختِلافِ إليهِمْ. فإنْ لم يَفعَلوا فهمْ شُركاؤُهُمْ في جميعِ ما يَفعَلونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ قارونَ كانَ أقرأَ الناسِ بالتوراةِ وأعلَمَهُمْ بها، وسُمِّيَ قارونَ لِذلكَ، وذُكِرَ أنهُ سُمِّيَ المُنَوَّرَ لِحُسْنِ صوتِهِ بالتوراةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ وهو الكيمياءُ؛ ذُكِرَ أنهُ كانَ يُعالِجُ صَنْعَةَ الذَّهَبِ، ويُحسِنُها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي على خَبَرٍ/ ٤٠٢ ـ أ/ عندي؛ قالَ ذلكَ على إثْرِ قولِ أولئكَ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [إلى قولِهِ تعالى:][5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾] كأنهمْ أوعَدوهُ بذهابِ ذلكَ عنهُ وهلاكِهِ. فقالَ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ لم أوتَ جُزافاً بلا سَبَبٍ، وكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، نَسِيَ[6] الآخِرَةَ بِما أوتِيَ مِنَ المالِ والكنوزِ وتَرْكِ الإنفاقِ في الخَيرِ، وكانَ عارفاً باللهِ حينَ[7] قالوا لهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وقالوا لهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ دلَّ هذا منهمْ أنهُ كانَ عارفاً باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِما أنهُ كانَ يَفتَخِرُ، ويَستَكبِرُ على الناسِ بِما أوتِيَ مِنَ الأموالِ والكُنوزِ والأتباعِ.

ويَحسَبُ أنهُ يدفَعُ العذابَ المَوعودَ في هذهِ الدنيا بذلكَ عنْ نفسِهِ، أو يَظُنُّ [أنَّ مَنْ][8] أوتِيَ ذلكَ لا يُعَذَّبُ كَظَنِّ أولئكَ الكَفَرَةِ حينَ[9] قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥].

فجائزٌ أنْ كانَ مِنْ قارونَ مِنَ الإعجابِ بالكَثرَةِ والجَمْعِ ما ذُكِرَ [أولئكَ، فقالوا][10] عندَ ذلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ ثم لم يَتَهَيَّأْ لهمْ دَفْعُ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ العذابِ. فَعَلَى ذلكَ أنتَ يا قارونُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: لا يُسألونَ عَنْ ذنوبِهِمْ [لما يُعرَفونَ بسيماهُمْ][11] كقولِهِ: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقالَ بعضُهُمْ: لا تُسألُ هذهِ الأمَّةُ عنْ صَنيعِ مُجْرِمي الأمَمِ الخاليةِ. وجائزٌ [أنهمْ لا يُسألونَ][12] عنْ ذنوبِهِمْ لأنهمْ لا يَرَونَ ما يَعْمَلونَ مِنَ الأعمالِ ذنوباً، ولكنْ إنما يُسألونَ عنِ الدليلِ الذي بهِ لا يَرَونَ تلكَ الأعمالَ ذنوباً[13]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ خَرَجَ [وغِلْمانُهُ][14] على بِغالٍ شُهْبٍ، ومَعَهُ كذا كذا مِنَ الجَواري على كذا كذا بِغالٍ شُهْبٍ، علَيهِنَّ مِنَ الثيابِ كذا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو يفنى. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: يواعدوهم. (٥) في الأصل وم: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. (٦) من م، في الأصل: لفني. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: إنه لما. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: بأولئك فقال. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أن يسأل. (١٣) في الأصل وم: ذنبا. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ خَرَجَ على بَراذينَ كذا بيضٍ مَعَ كذا كذا غِلمانٍ وجَوارٍ[1] ونَحْوِ ما ذُكِرَ. ولكنّا لا نَدري على أيِّ زينةٍ خَرَجَ، ولكنا نَعْلَمُ أنهُ خَرَجَ على الزينةِ التي يَخْرُجُ [بأمثالِها الملوكُ][2] ولا نُفَسِّرُ أنهُ كذا على كذا، ولا نُفَسِّرُ العِلْمَ الذي ذَكَرَ أنهُ مِنَ المالِ، والكَنْزَ أنهُ كانَ عندَهُ كذا مِنَ العِلْمِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ، وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ، رُبَّما [يُؤتَى أحدٌ العِلْمَ][3] ولا يُؤتَى مِنَ الاِنْتِفاعِ لهُ بهِ ما أُوتِيَ هؤلاءِ حينَ[4] قالوا لأولئكَ ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لم يكُنْ مِنْ أولئكَ إلّا التَّمَنّي أنْ يُؤْتَوا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارونُ. ثم نهاهُمُ الذينَ أُوتوا مَنافِعَ العِلْمِ والاِنْتِفاعَ بهِ عنْ ذلكَ التَّمَنّي. فَدَلَّ ذلكَ أنَّ التَّمَنّي لا يَسَعُ في ما لا يَسَعُ الاِشْتِغالُ بهِ والطَّلَبُ حينَ[5] قالوا لهمْ: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ كيفَ ذَكَرَهُ بالتأنيثِ؟ وإنما تَقَدَّمَ لهُ ذِكْرُ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ فَألا قالَ: وما يُلَقّاهُ[7]؟ اخْتُلِفَ فيهِ.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ كِنايةٌ عنْ تلكَ المَقالةِ التي كانَتْ مِنْ أولئكَ الذين أوتوا العِلْمَ لأولئكَ الذينَ يُريدونَ الحياةَ الدنيا، أي لا يُلَقّى تلكَ المَقالةَ التي قالوها لأولئكَ إلّا الصابرونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنَّ ذلكَ كِنايةٌ عنِ الأعمالِ [أي وما يُلَقّى تلكَ الأعمالَ ولا يُوَفَّقُ لها][8] إلّا الصابرونَ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ والقُتَبِيُّ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي لا يُوَفَّقُ لها، ويُقالُ: لا يُرْزَقُ [إلّا][9] الصابرونَ.

[وقولُهُ تعالى][10] ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ المؤمنينَ أنفسَهُمْ[11] كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و...] وقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي آمنوا.

ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذينَ صَبَروا أنفُسَهُمْ، وحَبَسوها على أداءِ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ، ولم يُؤْتوا أنفسَهُمْ شَهَواتِها[12] وهواها، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ في قومِ موسى خِصالٌ ثلاثٌ، لم تَكُنْ تلكَ، ولا مِثْلُها في غَيرِهِ مِنَ الأُمَمِ:

أحَدُها: ما ذَكَرَ مِنْ صَلابَةِ أولي العِلْمِ ويَقينِهِمْ وطُمَأْنينَتِهِمْ في ما وُعِدوا في الآخِرَةِ مِنَ العذابِ وصَبْرِهِمْ على أداءِ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ وحَبْسِهِمْ أنفسَهُمْ عنْ مَناهُمْ وشَهَواتِهِمْ وصَلابَتِهِمْ في الدينِ وما وَعَظوا قارونَ حينَ[13] قالوا لهُ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ و٧٧] وهو كانَ مَلِكًا يومئذٍ [وما][14] قالوا لأولئكَ الذينَ يُريدونَ الحياةَ الدنيا ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

والثاني: ما ذَكَرَ سَحَرَةُ فِرْعَونَ حينَ أوعَدَهُمْ بالقَطْعِ والصَّلْبِ والقَتْلِ بإيمانِهِمُ الذي آمنوا، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] وقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وأمثالُ ذلكَ مِمّا لم يَنالوا حلولَ ما أوعَدَهُمْ، وخَوَّفَهُمْ مِنْ أنواعِ العذابِ.

والثالثُ: ما ذَكَرَ مِنَ الذي كانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ حينَ[15] قالَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] وإنما ظَهَرَ ذلكَ حينَ قالَ ﴿فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] كأنهُ هَمَّ أنْ يَقْتُلَهُ. ألا تَرى أنَّ ذلكَ الرجلَ المؤمنَ الذي كانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ قالَ لهمْ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾؟ لم يُبالِ بِهَلاكِ نفسِهِ بإظهارِهِ الإيمانَ بَعْدَ أنْ أعانَ نَبِيَّ اللهِ موسى، ونَفَعَ لهُ بما [قالَ، واسْتَقْبَلَ فرعونَ وقومَهُ بِما اسْتَقْبَلَ][16].

---

(١) في الأصل وم: وجواري. (٢) في الأصل وم: أمثاله من الملوك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: اختلف في قوله. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: لكن. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ولا يوفق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: نفسه. (١٢) في الأصل وم: شهواتهم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: ولما. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) من م، في الأصل: واستقبل.

فهذهِ خصالٌ لم تُذكرْ عنْ قومٍ قطُّ، مِنْ سِوَى قومِ موسى مِثْلُها. ولذلكَ وَصَفَهُمْ، ونَعَتَهُمْ بِفَضْلِ الهدايةِ والعَدالَةِ، وهو ما قالَ ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أُريدَ منهُ أخذُ الإيمانِ، أو خافَ على دينهِ أنْ يُذْهَبَ بِهِ، أو أنْ يُدْخَلَ فيهِ النُّقصانُ ألّا يُبَدِّلَ ذلكَ، وإنْ خافَ على نفسِهِ تَلَفَها وهَلاكَها وتَعْذيبَها بأشَدِّ ما يكونُ مِنَ العذابِ.

ألا تَرَى أنَّ اللهَ مَدَحَ أصحابَ الأُخدودِ بما احتَملوا أشَدَّ العذابِ وأسْوَأَ القَتْلِ، ولم يَتْرُكوا الإيمانَ، ولم يُعْطُوا لأولئكَ الكَفَرَةِ ما أرادوا منهُمْ؟ فهكذا الاخْتيارُ[1] على كلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَخْتارَ ما اخْتارَ أولئكَ.

وهكذا الواجبُ على كلِّ مَنْ يَأتي الأمراءَ والسَّلاطينَ، ويَحْضُرُ مجالِسَهُمْ مِنَ العلماءِ أنْ يَعِظوهُمْ، ويَأمُروهُمْ بكلِّ ما يُؤتَى، ويَنْهَوْهُمْ عنْ كلِّ مَحظورٍ حَرامٍ، ويَدُلُّوهُمْ على كلِّ خيرٍ ما هو طاعةٌ للهِ كما فَعَلَ قومُ موسَى[2] بِقارونَ، وألّا يَحْضُروا[3] مجالِسَهُمْ، ولا يأتُوهُمْ[4] طائِعينَ. فإنْ فَعَلوا فإنهمْ يكونونَ شُرَكاءَهُمْ.

وذُكِرَ عنْ بعضِ السَّلَفِ أنهُ قالَ في عيسى وقارونَ عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ أنَّ عيسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، زَهِدَ في الدنيا زُهْداً حتى لم يَتَّخِذْ لنفسِهِ مَسْكَناً يَسْكُنُ [فيهِ][5] ولا مَقَرًّا يَقَرُّ فيهِ، ولا اتَّخذَ لنفسِهِ ما يَتَعَيَّشُ بِهِ، ولا اشْتَغَلَ بشيءٍ منها، فَرَفَعَهُ اللهُ إلى السماءِ، فَجَعَلَ عيشَهُ ومَقَرَّهُ فيها في كَرامَتِهِ وجِوارِهِ، وقارونَ[6] كانَ يَرْغَبُ في هذهِ الدنيا رَغْبَةً [عظيمةً][7] وجَهَدَ في طَلَبِها طاقَتَهُ وَوُسْعَهُ، ورَكَنَ إليها رُكوناً حتى خَسَفَهُ اللهُ في الأرضِ، وأدْخَلَهُ فيها مَعَ كُنوزِهِ وأتباعِهِ، فيكونُ فيها إلى يومِ القِيامَةِ.

ففي ذلكَ عِبْرَةٌ وآيةٌ لكلِّ راغِبٍ وزاهِدٍ؛ فَيَرْغَبُ الزاهدُ [في الزُّهدِ][8] فيها، ويَنْزَجِرُ الراغبُ عنِ الرَّغْبَةِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالبَغْيِ الذي بَغَى عليهِمْ؛ أعني على موسى وأصحابِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنهُ كانَ يَفْتَخِرُ بالمالِ والحَواشي، ويَتَقَوّى بذلكَ في دفعِ عذابِ اللهِ ونِقْمَتِهِ. لِذلكَ قالَ: ﴿فَمَا كَانَ/ ٤٠٢ ـ ب/ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لم تُغْنِهِ[9] في دَفْعِ عذابِ اللهِ عنهُ أتباعُهُ وحَواشيهِ، وهو كَظَنِّ أولئكَ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] وكانَ ظَنُّهُمْ ذلكَ. وقولُهُمْ إنما كانَ بِوَجْهَيْنِ:

[أحدُهما][10]: أنهمْ ظَنُّوا أنَّ أموالَهُمْ وأتباعَهُمْ تَدْفَعُ عنهمْ عذابَ اللهِ ونِقْمَتَهُ كما تَدْفَعُ نِقْمَةَ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ في ما بَيْنَهُمْ كقولِ [ابنِ نوحٍ][11]: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣].

والثاني: [أنهمْ ظَنُّوا][12] أنَّما أُعْطُوا هذهِ الأموالَ والأتباعَ في هذهِ الدنيا لِكَرامَةٍ لهمْ عندَ اللهِ، فلا يُعَذَّبونَ أبداً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ كانوا تَمَنَّوا أنْ يُعْطَوا مِثْلَ ما أُعْطِيَ قارونُ[13] ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

[قالَ بَعْضُ أهلِ الأدبِ: وَيْ صِلَةٌ، وإنما هو كأنَّ وكأنهُ. وقالَ مُقاتِلٌ: وَيْكَأنَّهُ أي لكنهُ[14]، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي اعْلَموا ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ﴿وَيْكَأَنَّ﴾][15] واعْلَموا أنهُ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لكنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ، ولكنهُ لا يُفْلِحُ الكافرونَ.

---

(١) من م، في الأصل: اختيار. (٢) في الأصل وم: قارون. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (٤) في الأصل وم: أتوهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) معطوف على عيسى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يغن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ذلك الرجل. (١٢) في الأصل وم: ظنوا أنهم. (١٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]. (١٤) أدرج بعدها في م: ويكأن. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقالَ بعضُهُمْ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ؟ وأَلَمْ تَرَ أنهُ لا يُفْلِحُ كذا؟

وقالَ الزَّجاجُ: وَيْ مقطوعٌ مِنْ كأنَّ، وهو حَرْفٌ يُفْتَتَحُ بِهِ التَّنَدُّمُ. ثم ابْتَدأَ بقولِهِ: كأنهُ لا يُفْلِحُ الكافرونَ.

ثم في الآيةِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ في وجوبِ الأَصْلَحِ على اللهِ لأنهمْ ذَكَروا مِنَّةَ اللهِ في مَنْعِهِ إيّاهُمْ ما تَمَنَّوا بالأمسِ ممّا أُوتِيَ قارونُ. فلو كانَ ما أُعْطِيَ قارونُ أَصْلَحَ لهُ في دينِهِ لم يَكُنْ في مَنْعِهِ عن هؤلاءِ مِنَّةٌ.

دَلَّ أنَّ ما أعطى قارونَ لم يكُنْ أَصْلَحَ لهُ، وأنْ ليسَ على اللهِ حِفْظُ الأصْلَحِ لِلْعِبادِ في الدينِ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في [ظاهِرِ الآيةِ][1] أنَّ كلَّ مَنْ لا يُريدُ العُلُوَّ في هذهِ الدنيا ولا الفسادَ فيها يكونُ مِنْ أهلِ تلكَ الدارِ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنْ دارِ الآخِرَةِ، وجَهَنَّمَ مِنْ دارِ الآخِرَةِ أيضاً. لكنَّ الآيةَ تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: كأنها نَزَلَتْ في رُؤَساءِ الكَفَرَةِ، وفَراعِينُهُمْ همُ الذينَ كانوا يُريدونَ العُلُوَّ في هذهِ الدنيا بالتَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ على الرسُلِ، والفَسادَ فيها في صَرْفِ الناسِ عنْ دينِ اللهِ لِلرُّسُلِ، ودعا الناسَ إلى دينِ اللهِ واتِّباعِ الرُّسُلِ.

والثاني: تكونُ الآيةُ في الذينَ كانوا يَعْمَلونَ بالخيراتِ والطاعاتِ منهمْ مِنْ[2] نَحْوِ صِلَةِ الأرحامِ والصَّدَقَةِ على الفُقَراءِ والإنفاقِ في ذلكَ. فأخْبَرَ أنهمْ، وإنْ كانوا يَعْمَلونَ بتلكَ الأعمالِ، فإنما يَعْمَلونَ للدنيا والعُلُوِّ فيها لا للآخرةِ. فتلكَ الدارُ الآخِرَةُ، ليسَتْ لهمْ. إنما هي لِلَّذينَ يَعْمَلونَ، ويُريدونَ [بأعمالِهِمْ][3] الدارَ الآخِرَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ كأنهُ يقولُ: تلكَ الدارُ التي دُعُوا إليها ليسَتْ لِمَنْ ذَكَرَ [وإنما][4] هي الدارُ التي قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] فالدارُ الآخِرَةُ، هي الدارُ التي دُعوا إليها، وهي الجنةُ؛ الدارُ الآخِرَةُ على الإطلاقِ: الجنةُ كالكتابِ المُطْلَقِ كتابِ اللهِ والدينِ المُطْلَقِ دينِ اللهِ ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي تلكَ الدارُ الآخِرَةُ لِلْمُتَّقينَ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما قالَ أهلُ التأويلِ: على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي فَلَهُ منها خيرٌ؛ ومَعْناهُ أنَّ ما يكونُ لهُ في الآخِرَةِ مِنَ الخيرِ إنما يكونُ بتلكَ الحسنةِ التي جاءَ بها في الدنيا، وهي التوحيدُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي ما أُعْطوا في الآخِرَةِ مِنَ الخَيرِ والثوابِ خيرٌ ممّا يُعْطَونَ في الدنيا بِصَبْرِهِمْ وحَبْسِهِمْ أنْفُسَهُمْ عنْ شَهَواتِها وأمانيِّها.

والثالثُ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي ثوابُ اللهِ وما أُكْرِموا بهِ خَيرٌ مِمّا عَمِلوا في الدنيا.

والرابعُ: أنَّ توفيقَهُ إيّاهُمْ وإرشادَهُ خيرٌ ممّا عَمِلوا.

[والخامسُ][5]: أنْ يكونَ ذِكْرُ اللهِ وحَمْدُهُ خيرٌ مِمّا ذَكَرَ كقولِهِ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قالوا جميعاً: السَّيِّئَةُ هي الشِّرْكُ [﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾][6].

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَرَضَ﴾ أي نَزَّلَ عليكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ العَمَلَ بالقُرآنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَرَضَ﴾ تَبليغَ ما أنْزَلَ عليكَ القرآنَ والرسالةَ إلى الناسِ.

---

(١) في الأصل وم: ظاهرها. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ لكن مثلها هو التخليد في النار أبدا﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] في ما يجزون بها بل ظلموا أنفسهم.

واختُلِفَ أيضاً في قولِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال بعضُهُمْ: المَعادُ [مكةُ. وقالَ بعضُهُمْ: المَعادُ][١] البَعْثُ والساعةُ، وقالَ بعضُهُمْ: المَعادُ الجَنَّةُ، ويُقالُ: الموتُ، وكلمةُ البعثِ والمَعادِ هو البَعْثُ في الظاهِرِ.

وجائزٌ أنْ تُسَمَّى مكةُ مَعاداً لِما يعودُ الناسُ إليها مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ][٢] كما تُسَمَّى مَثابَةً لِما يثوبُ الناسُ إليها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. لكنَّ مَنْ يقولُ: إنَّ المَعادَ، هو مكةُ؛ يقولُ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمّا أُمِرَ بالهجْرَةِ إلى المدينةِ، فهاجَرَ إليها، اشْتاقَ إلى بَلَدِهِ ومَوْلِدِهِ ومَوْلِدِ آبائِهِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ بهذهِ الآيةِ بِشارةً في العَوْدِ إليها ظاهراً عليهِمْ قاهراً فاتحاً لهُ مَكَّةَ. هذا تأويلُ مَنْ يقولُ: إنَّ المَعادَ، هو مكةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على غَيرِ هذا، وهو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: كأنهُ حَزِنَ على الفِراقِ منهمْ إشفاقاً على هَلاكِهِمْ لإخراجِهِمُ الرسولَ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ لأنَّ الأُمَمَ السالِفَةَ إذا أُخرِجَ مِنْ بَينِهِمُ الرسُلُ نَزَلَ بهِمُ العَذابُ، فخافَ لمّا[٣] أخرجوهُ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ، وأبوا إجابَتَهُ أنْ يُهْلَكوا، ويُعَذَّبوا، كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] فَبَشَّرَ بهذا أنْ تُرَدَّ إليها، وستعودُ إليهِمْ، فيَتبعونَكَ، ويُؤمِنونَ بكَ، وهُمْ لا يُهْلَكونَ إهلاكَ اسْتِئصالٍ وتَعْذيبِ كسائِرِ الأُمَمِ.

والثاني: يُذَكِّرُ على الامْتِنانِ عليهِ؛ يقولُ: إنَّ الذي أَنْزَلَ عليكَ القرآنَ، وألقاهُ عليكَ بَعْدَ ما لم تكُنْ تَرجو إلقاءَهُ عليكَ وإنزالَهُ. ولكنْ بِرَحْمَتِهِ ومَنِّهِ ألقاهُ إليكَ، وأنزَلَهُ عليكَ حينَ[٤] قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

فَعَلى ذلكَ يَرُدُّكَ إلى مكةَ بَعْدَ ما لم تكُنْ تَرجو رَدَّكَ وَعودَكَ إليها.

وإنْ كانَ المَعادُ هو البَعْثَ، فهو يُخَرَّجُ أيضاً على وجهَيْنِ:

أحدُهما: على البِشارةِ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ الذي فرضَ عليكَ القرآنَ يَرُدُّكَ ويَبْعَثُكَ، بِمَنْ كَذَّبَكَ وبِمَنْ صَدَّقَكَ، فَيَنْتَقِمُ مِنْ مُكَذِّبيكَ جَزاءَ التَّكْذيبِ، ويَجْزي مَنْ يُصَدِّقُكَ جزاءَ التَّصْديقِ.

والثاني: يُذَكِّرُهُ، ويُخاطِبُهُ، وإنما يُريدُ قومَهُ، أي سَتُبْعَثونَ، وستَعودونَ إليها، فيكونُ كالآياتِ التي يُخاطِبُ بها رسولَهُ، والمُرادُ بها قومُهُ، فهو يُخَرَّجُ على الوَعيدِ.

ألا ترى أنه قالَ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فَيَجزيهِ جزاءَ الهُدى ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فَيَجزيهِ [جزاءَ الضلالةِ][٥].

فَيُخَرَّجُ ذِكْرُ هذا عندَ ادِّعاءِ أولئكَ الكَفَرَةِ أنهمْ على الحَقِّ والهُدى وأنَّ آباءَهُمْ كانوا على الحَقِّ والهُدى، وأنتُمْ على ضَلالٍ. فيقولُ: ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نَحْنُ أو أنتُمْ. فهو على التَّحاكُمِ إلى اللهِ أنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَيَجْزِيَ كُلّاً بِما جاءَ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ وإنْ كُنْتَ مُطيعاً أي خاضعاً ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنْ يُنْزَلَ عليكَ [الكتابُ][٦] وتَصيرَ رسولاً، أي لم تكُنْ تَطْمَعُ ذلكَ. ولكنْ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ جَعَلَكَ رسولاً نَبِيّاً.

والثاني: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ أنْ تكونَ في قومِكَ وقَبيلَتِكَ رسالةً فَضْلاً أنْ تَرْجُوَ، وتَطْمَعَ في نَفْسِكَ [لأنهُ / ٤٠٣ ـ أ/ ليسَ][٧] مِنْ بَني إسرائيلَ ولا مِنْ أهلِ الكتابِ. والرسالةُ مِنْ قَبْلُ كانَتْ لا تكونُ إلّا في بَني إسرائيلَ. ولكنَّ اللهَ جَعَلَ الرسالةَ في العَرَبِ في نَفْسِكَ بِرَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: قال بعضهم: المعاد هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إنهم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: ضلاله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لأنهم ليسوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: على النَّهيِ، أي لا تكُنْ ظهيراً، وإنْ كانَ لا يكونُ [ذلكَ النَّهيُ لِلْعِصمَةِ][١] التي عَصَمَهُ اللهُ [بها][٢]، لأنَّ العِصمَةَ لا تَمنَعُ النَّهيَ والأمرَ. بل مَنفَعَةُ العِصمَةِ إنما تكونُ عندَ النَّهيِ والأمرِ.

والثاني: على الأمنِ لهُ والإياسِ أنْ يكونَ ظَهيراً لهمْ، كأنهُ يخافُ لِعَلَّةٍ أنْ يكونَ ظَهيراً لهمْ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، فأمَّنَهُ اللهُ مِنْ ذلكَ، فقالَ: لا تخفْ، فإنكَ لا تكونُ ظَهيراً لهمْ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧ والنمل: ٧٠] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] على رَفعِ الحُزنِ والحَسْرَةِ بِتَرْكِهِمُ الإيمانَ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

والثالثُ: إنَّ الخِطابَ، وإنْ كانَ لهُ في الظاهِرِ، فالمُرادُ منهُ غَيرُهُ على ما ذَكَرْنا في غَيرِ آيةٍ[٣] مِنَ القرآنِ أنهُ خاطَبَ بِهِ رسولَهُ، والمُرادُ بِهِ غَيرُهُ.

الآية ٨٧ وكذلكَ بهذا في قولِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في هذا ما في الأوَّلِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

الآية ٨٨ وكذلكَ بهذا في قولِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾][٤] تُرجَى مَنفَعَتُهُ وشَفاعَتُهُ مِنْ دونِ اللهِ باطلٌ ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلّا ما ابْتُغِيَ منهُ [وَجهُ اللهِ][٥] وعُمِلَ لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ وزائلٌ إلّا هو فإنه حَيٌّ، لا يموتُ، دائمٌ، لا يَزولُ.

وقالَ بعضُهُمْ: كُلُّ أمرٍ وَجِهَةٍ، يُتَوَجَّهُ إليها، ويُعْمَلُ بِهِ، هالكٌ، إلّا الجِهَةَ والوَجْهَ الذي أمَرَ هو بالتوجُّهِ[٦] إليهِ والعَمَلِ بِهِ. وهو قريبٌ [مِنَ الأوَّلِ][٧] واللهُ أعلمُ.

تم بعون الله

المجلد الثالث

ويليه المجلد الرابع، وأوله سورة العنكبوت

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العصمة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بالتوجيه. (٧) في الأصل وم: بالأول.